الباب الأول

مقدمة الكتاب وفيها ثمانية فصول

الفصل الاول

علوم العرب في الجاهلية وصدر الاسلام

١ ـ الحفظ والتدوين عند العرب

ليس غرضنا من هذا المقال الاحاطة بتاريخ العلوم عند العرب وتدوين مبلغ ثقافتهم بين سائر الشعوب قديما وحديثها . فان هذا البحث الدقيق يتطلب درساً خاصاً يخرج عن دائرة الموضوع الذي نتوخّاه . على ان هدفنا لا يتعدى الآن وصف حالة المعارف عند العرب في عصر الجاهلية وصدر الاسلام . كما يتضح من العنوان الذي توّجنا به هذا الفصل . وذلك ليتهيأ لنا تمهيد السبيل لِما ازمعنا اثباته من المباحث في الفصول اللاحقة .

ولما كان احمد زكي باشا العلاّمة المصريّ قد طرق هذا الموضوع ومحّصه في كتابه « الحضارة الاسلامية » رأينا ان ننقل بالحرف الواحد كلامه المبني على حقائق راهنة لانه يُعتبر في ابحاثه مرجعاً لكل طالب وحجةً لكل مؤرخ . قال بعنوان « الحفظ والتدوين » ما يلي :

« قد علمنا ان الأمة العربية في زمن الجاهلية لم تكن من الكتابة في شيء . ونزيد الآن انها لم تكن منذ برأها الله حتى منبثق فجر الاسلام تعرف من العلوم الا ما تقتضيه ادنى معيشة كتربية بعض الدواب وانتجاع منازل الغيث والعلم بالأنساب وبرمي السهام والحداء وغير ذلك من المبادىء التي لا يسع البدوي جهلها... غير ان نصيبهم من العلوم كان قليلاً فلم يبلغوا فيها اذ ذاك مبلغاً يضطرّهم الى التدوين. فكانوا يكتفون فيها بالحفظ ولم يفطنوا للتدوين لقلة حاجتهم اليه... (١) .

واستتلى في « الحفظ والتدوين » قوله : « وما كانوا (العرب) يعرفون الكتب بل كانوا ينهون الطلبة عن النظر فيها والاعتماد عليها لئلا تتناولها ايدي التصحيف والتحريف او التزوير المقصود فيقعوا في شر اعمال المفسدين ، او خوفاً من ان يقصروا همتهم على اللفظ دون المعنى ، او يعتمدوا على الكتب فيهملوا الرواية التي هي عندهم قوام العلوم لا سيما الادبية والنقلية منها . ولقد كان العلماء وقتئذ يفاخر بعضهم بعضاً بالحفظ . وقلّما يكون لاحدهم كتاب واحد يعتمد عليه في ما يزاول ، وكان بعضهم يُهلك كتبه خوفاً من الاتكال عليها...

« واذ كان السماع هو العمدة في صدر الاسلام كانت الكتب بالضرورة غير معتدٍّ بها ولا معوّلٍ عليها في شيء اذ المسألة مسألة حفظ محض .

« ان الصحابة والتابعين لقرب عهدهم بصاحب الشريعة الاسلامية ولقلة الاختلاف والواقعات ولتمكنهم من مراجعة الثقات كانوا لكل ذلك مستغنين عن تدوين علم الشرائع والاحكام . حتى ان بعضهم كره كتابة العلم . فقد رُوي عن ابن عبّاس انه نهى عن الكتابة وقال انما ضلّ من كان قبلكم بالكتابة. وجاء رجل الى عبدالله بن عبّاس رضي الله عنه فقال اني كتبت كتاباً اريد ان اعرضه عليك. فلما عرضه عليه اخذه منه ومحاه بالماء . فقيل له لماذا فعلت ذلك قال لانهم اذا كتبوا اعتمدوا على الكتابة وتركوا الحفظ فيعرض للكتاب عارض فيفوت علمهم (٢) »

---

(١) الحضارة الاسلامية : لاحمد زكي باشا المصري : صفحة ٧٦

(٢) الحضارة الاسلامية صفحة ٧٧ ـ ٧٨

وبما يؤيد عناية العرب بالحفظ قول الامام ابي لمحمد علي بن حزم الظاهري

وان تحرقوا القرطاس لا تحرقوا الذي تضمّنه القرطاس اذ هو في صدري
يسير معي حيث استقلت ركائبي وينزل ان انزل ويدفن في قبري

٢ ـ الخط وتعليم الكتابة في صدر الاسلام

وقال احمد زكي باشا المشار اليه بعنوان « الخط » ما نصه :

« ولما هاجر المسلمون الى المدينة وجدوا في اهلها نفراً قليلًا من اليهود ومن الأوس والخزرج يعرف الخط . فاستعملوا من الأوس والخزرج لكتابة الوحي اكثر من ثلاثين رجلًا . وكان اول من كتب الوحي ابن ابي كعب الانصاري... وبعد ان استقر الاسلام في المدينة امر النبي صلى الله عليه وسلم ان تُعلم صُبيانها الكتابة والقراءة . واستعمل في ذلك من اسرى بدر من لم يستطع ان يفتدي نفسه بالمال. فكان فداء الرجل الواحد منهم تعليمه عشرة من اولاد المسلمين الكتابة والقراءة . ثم امر صلى الله عليه وسلم زيد بن ثابت الانصاري ان يتعلم العبرانية او السريانية . فتعلم هـذه اللغة في نصف شهر على ما قيل فـكان اول مترجم في الاسلام. ولعظيم شأن الخط اذ ذاك عند العرب وقلة عارفيه كانوا يسمّون من يعرفه ويعرف الرمي والسباحة بالكامل (١) ».

ولنا شهادات كثيرة من هذا القبيل ايضاً نروي واحدة منها للبحاثة الشيخ محمد الخضري مدرس التاريخ الاسلامي في الجامعة المصرية قال : « اما بادية العرب فلم تكن تخط حتى انهـا كانت لترى في ذلك سمـة عيب كما هو شأنها في سائر الصناعات (٢)»

(١) الحضارة الاسلامية صفحة ٦٦

(٢) محاضرات تاريخ الامم الاسلامية : لمحمد الخضري : صفحة ٧٣ طبعة ثالثة

٣ ـ خمول الحالة العامية عند العرب في اوائل الاسلام

لابن خلدون عدة فصول اودعها مباحثه وآراءه عن حالة العلم عند العرب في الجاهلية وصدر الاسلام نثبت منها الفقرة التالية قال : « والسبب في ذلك ان الملّة في اولها لم يكن فيها علم ولا صناعة لمقتضى احوال السذاجة والبداوة . وانما احكام الشريعة التي هي اوامر الله ونواهيه كان الرجال ينقلونها في صدورهم. وقد عرفوا مأخذها من الكتاب والسنة بما تلقوه من صاحب الشرع واصحابه . والقوم يومئذ عرب لم يعرفوا امر التعليم والتـــأليف والتدوين ولا دُفعوا اليه ولا دعتهم اليه حاجة (١) »

اتضح ممّا اوردناه ان الحالة العلمية عند العرب في عصر الجاهلية وصدر الاسلام كانت في خمول لا مزيد عليه . فانهم لبثوا يعيشون منذ خلقهم الله عاكفين حول الشعاب والهضاب قانعين في خمولهم بنعمة الحرّية ونزعتهم القبيلـيّة . وهم في مجموعهم ظلوا بمعزل عن سائر الشعوب كأنهم في غير هذا الكون. وقـــد حمتهم قفارهم الواسعة من مؤثرات تلـــك الشعوب . ومنع عنهم انفرادهم الجغرافي تسرّب العادات الغريبة اليهم. ويُعزى ذلك الى طبيعة بلادهم القاحلة وقلة امتزاجهم بالدول الراقية التي كانت تكتنفهم كالروم والفرس والحبش .

٤ ـ حياة العرب البدوية

اعتاد العرب شظف من العيش لانصرافهم الى الحياة البدويّة كالغزو وركوب الخيل وتربية المواشي ورمي النبـال وحداء الابـل ونساجة الصوف لأكسيتهم ومضاربهم . وكانوا يكتفون من الطعام بالالبان ولحم الحيوان والتمر ومن الثياب بالقميص والرداء . وقد اصاب الحكميّ في وصف مأكلهم ومشربهم بقوله .

قصارى عيشهم اكل لضبٍ　　　وشربٌ من حفير في شنانِ

---

(١) مقدمة ابن خلدون : فصل ٣٥ صفحة ٥٤٣ طبع المطبعة الادبية بيروت

وكانت معيشة العرب خالية من الترف يتساوى فيها كبيرهم وصغيرهم اميرهم وصعلوكهم. ومن عاداتهم انتجاع منابت الكلاء وارتياد مواقع الغيث فيخيمون هنالك ما ساعدهم الخصب وامكنهم الرعي. ثم يتوجهون الى طلب العشب وابتغاء المياه فلا يزالون في حل وترحال كما قال المثقب عن ناقته:

تقول اذا درأت لها وضيني	اهذا دأبه ابداً وديني
أكلّ الدهر حِلٌّ وارتحالٌ	اما يُبقي عليّ ولا يَقيني

٥ ـ مزايا العرب ومجالسهم واسواقهم

على ان للعرب ابناء الصحراء صفات سامية قلما عرف بها غيرهم من الشعوب قديماً وحديثاً. وقد فُطروا على هذه المزايا التي حافظوا عليها في جميع الاجيال محافظتهم على استقلالهم كالشجاعة والضيافة والكرم والحلم والوفاء والانفة.

وقد برز ابناء الصحراء هولاء التبريز كله بامرين فاقوا فيهما كل الامم وهما الانساب والشعر. فكانت لهم عناية عظمى في حفظ انسابهم للتناصر على الاعداء او للتفاخر بالجدود والآباء. وكانوا يعقدون المجالس ويقيمون الاسواق (١) حيث تجري المفاخرة بينهم في التناشد وتقوم المنافسة بكل شيء حتى في المصائب،

---

(١) اشهر اسواق العرب ايام الجاهلية هي: (دَوْمة الجندل) و (سوق هَجَر) و (سوق عمان) و (سوق المشقَّر) و (سوق صُحَار) و (سوق الشِّحْر) و (سوق عَدَن أَبْيَن) و (سوق صنعاء) و (سوق حضرموت) و (سوق ذي المجاز) وسوق مَجَنَّة) و (سوق حُباشة) وسوق نَطاة) و (سوق حَجْر) واهمها (سوق عكاظ) وهو موسم معروف للعرب بل هو من اعظم مواسمهم واسواقهم. وهو نخل في واد بين نخلة والطائف. وكان المكان الذي يجتمعون فيه منه يقال له (الابتِداء). وكانت هناك صخور يطوفون حولها وكانوا يتبايعون فيها ويتعاكظون ويتفاخرون ويتحاجون. وكان شعراؤهم ينشدون ما تجدد لهم وقد كثر ذلك في اشعارهم. قال حسان:

سأنشرُ ان حَيِيتُ لهم كلاماً	يُنَشَّرُ في المجامع من عكاظِ

واصبحوا شديدي الحرص على حفظ هذين الامرين اي الاشعار والانساب لان فيها شرفهم واحسابهم وبطونهم وحروبهم ومدحهم وهجاءهم وغير ذلك مما لا يعنون الا به . ومع كثرة انشادهم للاشعار فانهم لم يهتموا بتدوينها لجهلهم الكتابة التي ما كانوا يعرفون لها اسماً ولا رسماً (١). فاكتفوا بحفظها لانهم مرنوا منذ نشأتهم على الحفظ دون الكتابة كما قلنا لاضطرارهم اليه . فصار الحفظ عندهم شيئاً مألوفاً . وقد ساعدهم على ذلك صفاء اذهانهم وقلة مشاغلهم الدنيوية والاجتماعية .

٦ ـ استفحال ملك العرب وتضعضع الشعوب المغلوبة

ظلت الحال على هذا المنوال حتى جاء الاسلام . فدوّخ العرب في مدة ثمانين سنة تلك الممالك الواسعة الارجاء في قلب آسيا وشمال افريقيا وغرب اوروبا . فاستفحل ملكهم بعد غفلتهم قروناً كثيرة واوغلوا في العمران بملابستهم الامم المتمدنة التي غلبوها على امرها واقتبسوا منها العلوم والفنون والصنائع .

هكذا تلاشت او كادت تتلاشى بتعاقب الايام تلك الشعوب العريقة في التاريخ كالروم والسريان والفرس والانباط والصابئة والاقباط والارمن واليهود وغيرهم . فاختلطت بالعرب الفاتحين ودانت الا النزر اليسير بدينهم . وتألف من هذا المجموع شعب جديد واحد لغةً وسياسةً وديناً . وبتأثير هذا الاختلاط انتقل العرب الاصليون من الظلمة الى النور ومن الخشونة الى الظرف ومن الجهل الى المعرفة ومن العيشة البدوية الى ترف المدن . فبلغوا من ضخامة السلطان ورجحان الكلمة واتساع دائرة النفوذ ما لم تبلغه قبلهم اكبر الدول القديمة واشهرها .

---

(١) جاء الاسلام وليس احد يكتب بالعربية غير بضعة عشر من الرجال نذكر منهم : سعيد بن زرارة . والمنذر بن عمرو . وأبي بن وهب . وزيد بن ثابت . ورافع بن مالك . واوس بن خولي . (نقلا عن تاريخ القرآن لابي عبدالله الزنجاني : الباب الاول . صفحة ٥ـ٦)

الفصل الثاني

القرآن

١ ـ ما هو القرآن

القرآن عَلم للكتاب الذي يقدّسه المسلمون في مشارق الارض ومغاربها. ويتبركون به ويتبعون سننه وفرائضه . ويعتقدون اعتقاداً راسخاً انه انزل على النبي العربي محمد بن عبدالله وأنه آخر الكتب السماوية نزولا (١) و «انه لقرآن كريم. في كتاب مكنون. لا يمسه إلا المطهرون. تنزيل من رب العالمين (٢).

سُمي القرآن من القراءة . وسمي « كتاباً » و « فرقاناً » على ما ورد في سورة آل عمران : « نزل عليك الكتاب بالحق مصدّقاً لما بين يديه وانزل التوراة والانجيل. من قبلُ هدًى للناس وأنزل الفرقان » (٣).

ولما بويع عثمان بن عفان (٢٣-٣٥ ﻫ) ثالث الخلفاء الراشدين بلغه ان المسلمين اختلفوا في قراءة القرآن قدْر اختلافهم في لهجاتهم. فلم يرَ الا ان يجمع آياته ويضبطها بلغة قريش التي نزل بها القرآن. ثم كتب اربع نسخ منه بعث الى كل مصرٍ من الأمصار الاسلامية بنسخة . وامر الناس ان ينقلوا عنها مصاحفهم واوعز باحراق كل من خالفها من المصاحف .

---

(١) دائرة معارف القرن العشرين : لمحمد فريد وجدي . مجلد ٧ صفحة ٦٦٦ (٢) القرآن : سورة الواقعة ٧٧-٨٠ (٣) القرآن : سورة آل عمران ٣-٤

ولم يتسمح المسلمون في نقل القرآن الى لغات البلاد التي دوّخوها او الى غيرها من اللغات بل تمسكوا تمسكاً متيناً بعقيدتهم المستندة الى ما ورد غير مرة في الكتاب كقوله : « إنا انزلناه قرآناً عربياً لعلكم تعقلون » (١). وكقوله : « قرآناً عربياً غير ذي عِوَج » (٢) .

٢ ـ توحيد القرآن لشتات الامة العربية

جاء القرآن والعرب فِرَق متنابذة وشِيَع متحاقدة تكفر كل منها سائر الفرق وتناهضها وتُضمر لها السوء والشر. وناهيك ان العرب ظلوا مئات الأعوام على حال واحدة من الخشونة والبداوة لا يتحولون عنها ولا يسأمون منها. فكانوا ممزّقين طرائق ومفرّقين حزائق في اجدب المفاوز بل في ابعدها عن النظام والعمران والثقافة . وكانوا مختلفين في مواطنهم ولهجاتهم وعاداتهم لا تضمهم رابطة سياسية ولا جامعة دينية او قومية.

ما كاد يظهر الاسلام حتى احدث القرآن في انصاره واتباعه انقلاباً غريباً عجيباً لم يكونوا يتوقعونه على الاطلاق. فبعد ما كانوا متسكعين في دياجير الجهل منقسمين الى قبائل وبطون لا يعرفون من الشؤون الاجتماعية شيئاً دأبهم الغزو والنهب والقتل واخذ الثأر اصبحوا بقوة القرآن أمة متوحدة في لغتها ودينها وشريعتها وسياستها .

ومن المدهش ان الأمة العربية التي كانت قبل الاسلام ذليلةً ضئيلة تحوّلت بعدَه من الضعف والخمول الى العز والبسطة والسلطان. فنهضت نهضة الرئبال واستجمعت قواها حتى تألفت منها دولة منيعة بطشت بدول ذلك العصر كدولة الفرس والرومان واليونان. ولم تلبث ان احاطت بشعوب تلك الدول تدعوهم

(١) القرآن : سورة يوسف ٢ (٢) القرآن : سورة الزمر ٢٨

الى واحدةٍ من ثلاث : الأسلام او الجزية او الحرب (١). ولا غرو فان هـذه النهضة السريعة حيرت العالم طرّاً وعدّها القوم حادثاً من اعجب حوادث التاريخ.

من المقرّر الثابت ان للقرآن فضلاً كبيراً في تأليف شتات العرب وتوحيدهم مع الأمم المغلوبة المتباينة في لغتها ودينها وجنسها ووطنها . فكوّن من مجموعها عنصراً جديداً مستقلاً هو العنصر العربي. ومن المقرر الثابت ايضاً انه لولا القرآن لما انتشرت اللغة العربية الفصحى في الخافقين. ولولا القرآن لـما اقبل الوف الألوف من البشر على قراءة تلك اللغة وعلى كتابتها ودرسها والتعامل بها. ولولا القرآن – نعم لولا القرآن – لظل اهل كل بلد من البلدان التي دوّخها العرب ينطقون بلهجة يستعجمها اهل البلد الآخر.

فالقرآن عزّز الجامعة العربية وصان عنصرها وضمن سلامتها على توالي الازمان. ذلك لان الدين الاسلامي فرض على كل مسلم ان يدرسه ويحفظه ويجوّد قراءته قبل اي علم من العلوم البشرية. هكذا حُفظ التفاهم بالعربية بين الشعوب الاسلامية وغيرها من الشعوب في الحجاز واليمن والعراق وحضرموت ومصر وفلسطين وسوريا ولبنان وما بين النهرين. وفي طرابلس الغرب وتونس والجزائر والمغرب الأقصى وزنجبار والسودان وهلم جرا.

وما ان تقهقرت الدول العربية وتقهقرت معها الحضارة الاسلامية القديمة حتى خُشي ان تندثر لغة تلك الدول وتندمج في لغة الشعوب المغلوبة على امرها. غير ان اللغة العربية استعصت على نكبات الدهر ورسخت رسوخ الجبال الرواسي خلافاً لما انتاب لغات الاقوام الذين اندمجوا في العرب بعد الاسلام كالروم والسريان والاقباط والانباط والصابئة واليهود وغيرهم .

٣ـ تأثير القرآن في المسلمين العرب وغير العرب

من روائع تأثير القرآن ان ائمة المسلمين من غير العرب يرتلونه بلغته العربية

(١) دائرة معارف القرن العشرين مجلد ٧ صفحة ٦٨١

ويحافظون على تجويده ويشرحونه لأبنـاء لغـاتهم في انأى الامصار. واذا انعمنا الفكرة في اولئك المسلمين غير العرب الفينا عددهم يناهز مائتي مليون نسمة وهم منتشرون في اغلب الاقطار شرقاً وغرباً. اعـني تركيـا وايران وكردستان وكرجستان وافغانستان وبلوخستان. وفي روسيا والبلقان والهند وجاوة والصين واليابان والحبشة وقلب افريقيا وبعض انحاء اوروبا واميركا واستراليا .

تلك مزية تفرّد بها القرآن دون سواه من الكتب المنزلة. فالتوراة مثلاً لا يقرأها بلغتها العبرية الا احبار اليهود ونفر ممن تفرغوا لدرسها . واما سائر اليهود فان كلا منهم لا يقرأ التوراة الا بلغة سكان البلاد الـتي يعيش فيهـا. وقس عليهم كل المسيحيين في انحـاء العالم باسره . فانهم يقرأون الكتـاب المقدس مترجماً الى اللغة الجارية بالاستعمال لدى كل شعب او كل ملة منهم. فـلا يقرأه بلغاته الاصلية اعني العبرية والسريانية واليونانيـة الا العلماء فقط وفئـة من نصارى الشرق الادنى وفريق من نصارى الملبار في الهند الانكليزية.

يتضح مما بسطناه ان القرآن هو المصحف الذي جمع كلمة المسلمين على اختلاف مذاهبهم ولغاتهم واوطانهم. واحدث انتشاره تأثيراً كبيراً في اخلاق الشعوب التي دانت بالاسلام وفي عقولهم وآرائهم وميولهم. فادمجوه في كل شأن من شؤونهم دينية ودنيوية. واتخذوه مصدراً لقضائهم ودعامة لمنازعهم السياسية وسائر امورهم حتى طعامهم وشرابهم وكسوتهم وعيشتهم المنزلية واعمالهم التجارية .

وتتجلى الصبغة الدينية القرآنية في مؤلفي الاسلام ومؤلفاتهم ولئن كتبوا في مواضيع لا صلة لها بالدين. تشهد على ذلك مصنفاتهم في الفلاحة والفلك والهندسة والجبر والكيمياء والطب والفلسفة والتاريخ حتى الصرف والنحو.

وخلاصة القول ان للقرآن في لغته العربيـة البحتة تأثيراً عميقاً جداً، وقـد حرص المسلمون بقوة القرآن وما برحوا يحرصون على سُننه وفرائضه ونوافله في كلياتها وجزئياتها . واعتنوا غاية الاعتناء بضبط سوره وآياته واجزائه والفاظه

وحروفه ونقاطه وحركاته وسكناته . وتوافروا على استقصاء حقائقه ومجازاته وتصاريحه وكناياته ودقائقه ونكاته.

٤ ـ اجماع الخلفاء والملوك والمسلمين كافة على تعظيم القرآن

اجمع المسلمون قاطبة منذ فجر الاسلام على إجلال القرآن. وبالغوا في تكريمه وعنوا بصيانته عناية ليس بعدها عناية . فدوّنوه على صفائح من ذهب وفضة وعاج وآبنس. وطرّزوه بأسلاك من قصب على حرير او قطيفة او ديباج او ارجوان. ونقشوا آياته على اعمدة المعابد والقصور وعلى جدران المكتبات والدواوين. وعلى الأمتعة والآنية والأسلحة والرايات. وتفننوا في كتابته باشكال الاقلام والخطوط وانواع المداد والكاغد والوان النقوش والزخارف. وعلقوه على صدورهم تيمناً يتقون به كوارث الدهر ويتعوّذون به من هجمات العدو. واتخذوا له قماطر فاخرة واصونة نفيسة. واستصنعوا لحفظه من التلف والدثور خزائن بديعة. ووضعوه في محاريب الجوامع ورفعوه على كراسي رُصعت بحجارة كريمة وجواهر يتيمة .

وتنافس المسلمون في إجادة كتابة القرآن تنافس غيرهم من الشعوب في فن التصوير. ومرّ بنا ان امير المؤمنين عثمان بن عفان كتب اربعة مصاحف بعث بها الى الآفاق . واقتفى اثره الحجاج بن يوسف الثقفي فكتب نسخاً من المصحف اهداها الى عواصم المملكة (١) . وتعهد الرحالة ابن بطوطة المقصوره العظمى التي يؤمها إمام الشافعية في قبلة المسجد الأموي . فشاهد في ركنها الشرقي ازاء المحراب خزانة كبيرة يزينها المصحف الذي وجهه امير المؤمنين عثمان بن عفان الى الشام . ولم تكن تُفتح تلك الخزانة الا كل يوم جمعة بعد الصلاة فيزدحم الناس على لثمه اي ازدحام (٢).

---

(١) الروزنامة التونسية: سنة ١٣٢١هـ صفحة ١٤٠ (٢) رحلة ابن بطوطة: جزء ١ صفحة ٥٢

وحوى منبر جامع قرطبة بالأندلس مصحفاً من مصاحف الخليفة عثمان . وقد وُشح بحلة ذهبية رُصعت بالدر والياقوت وُغشي بالديباج . ورُكز هذا المصحف على كرسي من العود الرطب مطعم بمسامير من الذهب (١) . وفي السنة ٥٥٢ للهجرة ُنقل المصحف من قرطبة الى مراكش بمجالي التكريم والتعظيم . وظل في حوزة السلاطين الموحدين حتى ُقتل السعيد عليّ بن ادريس عام ٦٤٥ للهجرة . وكان هذا السلطان قد نقله معه الى تلمسان فنهب المصحف هناك . ثم عثر عليه ملوك بني عبد الواد وظلوا محتفظين به ريثما افتتح افريقية السلطان ابو الحسن المريني . فاستولى على المصحف وحمله معه في رحلاته وفتوحاته تيمناً . واتفق انه لما قفل بحراً عام ٧٥٠ للهجرة من تونس الى المغرب هاجت عاصفة شديدة أغرقت المراكب بمن فيهامن نفوس ومافيهامن نفائس. وأخصها وانفسها مصحف الخليفة عثمان فكان ذلك آخر العهد به (٢) .

واشتملت خزائن كتب المسجد الاقصى بالقدس الشريف على نصف مصحف اثري كتبه بالخط الكوفي محمد بن الحسن بن الحسين ابن بنت رسول الله .

وضمت خزانة كتب النجف الأشرف عند ضريح الامام علي بن ابي طالب نسخة من القرآن خطها ابنه الحسين (٣) . وفي السنة ١٩٤٠ سعى السردار طاهر زين الدين احد اغنياء المسلمين في الهند لتجديد هذا الضريح ، فاستصنع له خشباً من الآبنس رُصع بخمسين رطلاً من الذهب الابريز وخمسة عشر رطلاً من الفضة الخالصة . وجعل ارتفاعه احدى عشرة قدماً وقطره عشرين قدماً . وبلغ ما انفقه عليه هذا السردار السخي اثنين واربعين مليوناً من الجنيهات الاسترلينية (٤)

واعتاد ابراهيم بن يمين الدولة سلطان بخارا ان يبعث كل عام الى مكة المكرمة بنسخة من القرآن يكتبها بخط يده . وذكر المقري ان ابا الحسن المريني سلطان

---

(١) نفح الطيب : للمقري : مجلد ١ صفحة ٢٥٦ (٢) الاستقصاء لاخبار دول المغرب الاقصى : تأليف احمد بن خالد الناصري : جزء ١ صفحة ١٥٠ (٣) مجلة المقتبس في دمشق : مجلد ٧ صفحة ٩٢٤ (٤) جريدة البشير. مجلد ٧٠ عدد ٦٠٥٩ سنة ١٩٤٠

افريقية نسخ بيده ثلاثة مصاحف اتحف بها المساجد الثلاثة التي تُشد الرحال اليها في مكة المكرمة والمدينة المنوّرة والقدس الشريف. وسطر المريني نفسه الختمات الشريفة بقلمه المجيد المجدي (١) . ثم اشترى عقارات بالشام قيمتها عشرة آلاف دينار حبسها على الفقراء وعلى خزَنة المصاحف (٢).

وقرأنا وصفاً لقرآنٍ مستبدعٍ خطه بيده السلطان ابو الحسن المريني المشار اليه وحبسه على الحرم الشريف . وفيه ان هذا السلطان كلف القراء ليضبطوه وأمر الورّاقين ان ينمقوه ويذهبوه . واستصنع له صواناً ظريفاً من الآبنس والعاج والصندل دبجه بصفائح ذهبية مرصعة بالجواهر والياقوت . وجعل ذلك المصحف في قمطر من جلدٍ فاخر وَشي بخطوط ذهبية وغُلف بوشاح ارجواني (٣)

وشاهدنا نحن في دار الكتب المصرية مصحفاً قديم العهد قرأنا في آخره انه «بخط الامام جعفر الصادق بن محمد الباقر بن زين العابدين بن الحسين ابن الخليفة علي رضي الله عنهم » واطلعنا في تلك الدار عينها على مصحف كتب برسم « الجايتو » سلطان المغول (٧٠٣ — ٧١٦ ﻫ) (٤) في مطلع القرن الثامن للهجرة .

ومن نفائس دار الكتب المصرية ايضاً مصحف محمد بك ابي الذهب والي مصر واحد زعماء المماليك في اواخر القرن الثاني عشر للهجرة . كان هذا المصحف محفوظاً في جامع ابي الذهب ازاء الجامع الازهر بالقاهرة ثم ضاع واحتجب عن الابصار . وفي السنة سبع وستين وثمانمائة بعد الالف ارتحل الخديوي اسمعيل (١٨٦٣ — ١٨٧٩) الى باريس فعثر على هذا المصحف النفيس في متحف اللوفر . واتفق مع أولي الامر الفرنسيين على إعادته الى مركزه في مصر. وقد نُسخ المصحف المشار اليه بخط مغربي ويعد آية من الآيات بجمال فنه ودقة صنعه وجودة حبره وقرطاسه .

---

(١) نفح الطيب : مجلد ٢ صفحة ٥٤٧ (٢) تاريخ ابي الفداء : جزء ٤ صفحة ١٤٩
٣ الاستقصاء لاخبار المغرب الاقصى : جزء ١ صفحة ٦٢-٦٣ (٤) نبذة عن دار الكتب المصرية لسنة ١٩٣٩ صفحة ٢٦ .

وامتاز غياث الدين ملك الغورية بخطه الظريف فنسخ مصاحف جمة حبسها على المدارس التي شيدها (١). وكان السلطان علاء الدين يكتب المصاحف بخطه الحسن ويقفها على المساجد (٢).

وهناك مصاحف اثرية عديدة محفوظة بكل تعظيم واجلال في صروح السلاطين والأمراء واقطاب المسلمين لا يتسع الوقت لوصفها. وحسبنا الاشارة الى ما احتوته من تلك المصاحف النادرة قصور خلفاء بني عثمان وملوك ايران وافغانستان وخزائن نظام حيدر آباد في الهند. نضيف اليها مكتبات الأئمة وهواة الكتب وغلاة الآثار في مختلف الأصقاع والأمصار.

٥ـ نسّاخ القرآن ومنمقوه

روى التاريخ اسماء رهط عظيم من الخطاطين اشتهروا بنسخ المصاحف في العصور الخالية. بينهم سلاطين وخلفاء وامراء ووزراء وأئمة طبق الآفاق صيتهم. فما عدا من ألمعنا باسمائهم يطيب لنا ان نذكر سلطان المغرب ابن عبد الحق الذي نسخ ثلاثة مصاحف على رق غزال. ولم يزل احدها محفوظاً في خزائن المسجد الأقصى بالقدس الشريف. وهو مجلد طبقاً للفن المراكشي ومكنوز في صندوقة مرصعة بالميناء على الطراز الأندلسي.

واشتهر عن السلطان ناصر الدين ملك الهند والسند المعروف بصلاحه وتقواه انه كان ينسخ المصاحف ويبيعها ويقتات باثمانها (٣). واثبت ابن بطوطة انه وقف على مصحف محكم الكتابة نسخه السلطان المشار اليه بخطه المتقن (٤).

وتفرد بنسخ المصاحف علي بن محمد بن مقلة (٣٢٨ هـ) وزير الخليفة العباسي المقتدر

---

(١) تاريخ ابي الفداء جزء ٣ صفحة ١٠٤ (٢) اخبار الدول لابي العباس القرماني: صفحة ٢٨٣ (٣) يذكرنا هذا الخبر بما رواه التاريخ عن تئوديوس الكبير ملك الروم (٣٧٩ـ٣٩٥م) انه كان في اثناء الفراغ من شؤون المملكة يكب في غرفته على نساخة الكتب ثم يبيعها وينفق اثمانها على معيشته الخاصة. (٤) رحلة ابن بطوطة: جزء ٢ صفحة ٢١

بالله. فقد وجدوا له بخطه الرائع مائة مصحف في مكتبة ابي نصر شابور (٣٢٦ — ٤١٠ هـ) ابن اردشير في الكرخ ببغداد (١). وفاق ابن مقلة في نسخ المصاحف ابو عبدالله الناسخ. وقد طالعنا عنه في « تاج العروس» انــه كتب بخطه الف مصحف. ونسج على منوالها كثير من قدماء الخطاطين كأبي عمر بن قدامة (٥٢٨ — ٦٠٨ هـ) الذي نسخ الكتب الوافرة ولا سيما المصاحف.

وامتاز بنسخ المصاحف وزخرفتها الشيخ محمد نعسان الوردي الحموي في القرن الثالث عشر للهجرة. واثبت لنا ابن حفيده ان عدد ما نسخه منها أربى على مائـة مصحف . وجاراه في ذلك ابنه الشيخ مصطفى نعسان وقد احرز شهرةً واسعةً في تنميق المصاحف ونساخة المصنفات القديمة .

ولم يكُ حظ النساء الخطاطات باقل من حظ الرجـال الخطاطين في تحبـير المصاحف . فقد طالعنا في كتاب « مرآة الأدوار » أن الخطاطة « بادشاه خاتون » نسخت من المصاحف الشريفة ما لا نظير له.

وذكر ابن فياض في تاريخه : « انه كان بالربض الشرقي في قرطبة بالأندلس مائة وسبعون امرأة يكتبن كلهن المصاحف بالخط الكوفي». فاذا كان ذلك كذلك في ربض واحد فكم كان من النساء الكاتبات في جميع ارباض قرطبة الـتي بلـغ عددها ثمانية وعشرين رَبَضاً (٢).

ويشاهد زائر مكتبـة القيروان الشهيرة في زماننـا مصاحف قرآنية مزدانـة بالزخارف مطعمةً بالذهب نمقها انامل فتيات مسلمات في العصور الغابرة . وكانت تلك الفتيات يتنافسن في تجويد الكتابة وتزويقها ويختمن كل مصحف بهذه العبارة: « هذا من صُنع وقلم فلانة بنت فلان قدمته هدية لخطيبها فلان بمناسبة الاحتفال بزواجها» (٣). الى غير ذلك من نوادر منمقي المصاحف ومحبريها رجالا ونساء .

---

(١) معجم البلدان لياقوت الرومي : جزء ٢ صفحة ٣٤٢ والتاريخ الكامل لابن الاثير: جزء ١٠ صفحة ٣ (٢) مجلة المجمع العلمي العربي بدمشق مجلد ٢ سنة ١٩٢٢ صفحة ٢٦٥ (٣) المكتبات العربية في المملكة التونسية . مخطوطة بقلم البشير الفورتي : صفحة ١١ وهي في خزانة كتبنا

٦ ـ القرآن وعلماء النصارى

اقبل فريق كبير من أئمة النصارى وعلمائهم ومفكريهم في بلاد المشرق منذ العصور الغابرة على دراسة القرآن . فدققوا النظر في سُوَره وآياته . وامعنوا وتعمقوا في نواميسه وشرائعه ، ثم كتبوا عنه الشيء الكثير او القليل في تصانيفهم وفتاويهم الشرعية ، واتخذوه دستوراً في بعض القضايا والفرائض المدنية .

فاذا سرّحنا النظر في الملة النسطورية رأيناها قد ازهرت في عهد بني العباس وامتزجت بالخلفاء والامراء والمشترعين قبل سائر الملل النصرانية . ومن مشاهير النساطرة الذين درسوا القرآن وضوابطه وفرائضه في تلك الحقبة نذكر : آل بختيشوع الذين تولوا الطبّ في بلاط العباسيين ثلاثة قرون كاملة أعني منذ القرن الثامن حتى القرن الحادي عشر للميلاد (١) . ويوحنا بن ماسويه (+ ٨٥٧ م) رئيس اعظم مدرسة ازدحم الطلاب على ابوابها في دار الخلافة (٢) . ويعقوب الكندي (+ ٨٦١ م) فيلسوف العرب وسليل ملوك آل كندة (٣) . وحُنين بن اسحق (+ ٨٧٦ م) شيخ تراجمة الاسلام ورئيس الفلاسفة والاطباء في عهد المتوكل الخليفة العباسي (٤) . وأبا عيسى يحيي بن جزلة (+ ١٠٨٠ م) الطبيب البغدادي صاحب كتاب « المنهاج » وقد أسلم في آخر ايامه ووقف كتبه لمشهد الامام ابي حنيفة (٥). وموفق الملك بن التلميذ (١٠٨١ ـ ١١٦٤ م) الملقب بسلطان الحكماء (٦) خلف مؤلفات كثيرة منها كتاب اشتمل على احاديث نبوية (٧).

---

(١) طبقات الاطباء : لابن ابي اصيبعة . جزء ١ صفحة ١٣٦ (٢) الآداب السريانية: تأليف روبنس دوفال : صفحة ٢٧٢ و ٣٨٦ (٣) زبدة الصحائف في اصول المعارف: تأليف نوفل نوفل : صفحة ٤٥ (٤) مجلة المنارة : سنة ١٩٣٥ صفحة ٨٥٢ (٥) تاريخ مختصر الدول : لابن العبري صفحة ٣٣٩ (٦) اعلام العلماء باخبار الحكماء لابن القفطي ـ وخريدة القصر للخزرجي (٧) طبقات الاطباء : لابن ابي اصيبعة : جزء ١ صفحة ٢٥٥

وتفرّغ بعض جثالقة (١) النساطرة واساقفتهم لانشاء قوانين مدنيـة لملتهم استمدوها من احكام القرآن وسُننـه . ومن اقدمهم الجاثليق حنيشوع الاعرج (٦٨٦ - ٧٠١ م) والجاثليق طيمثاوس الاول (٧٨٠ - ٨٢٣ م) والجاثليق ايليا الاول (١٠٢٨ - ١٠٤٩) والجاثليق ايليا الثالث المعروف بابي الحليم (١١٧٦ - ١١٩٠) صاحب الخطب العربية المشهورة . ثم عبد يشوع مطران الموصل مؤلف كتاب « تقسيم المواريث » في القرن الحادي عشر الميلاد . وعبد يشوع الصوباويّ (+ ١٣١٨ م) مطران نصيبين وهو مؤلف كتاب الشرع البيعيّ والمدنيّ المستعمل عند النساطرة لعهدنا هذا .

وتصدّى غير واحد من قدماء مؤرخي النساطرة لذكر القرآن وتأثيره في القبائل العربيـة وفي الشعوب المجاورة لها . اشهرهم برحدبشابا العربيّ اسقف حلوان بالعراق في القرن السابع للميلاد . ثم معاصره بَرْ فنكايا المؤرخ (٢).

ولميخائيل الكبير بطريرك السريان (١١٦٧ - ١٢٠٠ م) عدّة احكام مدنية استخلصهـا من القرآن وجرى بموجبها ابنـاء ملته . وجاء بعده المفريان (٣) ابو الفرج ابن العبري (+ ١٢٨٦ م) فخلف فصولا ممتعة في الشرائع والفرائض اقتبسها من القرآن . وقد اثبت زبدتها في تاريخه المدنيين ولا سيما في مؤلفه المشهور بكتاب « الهدى » وهو دستور تمشى عليه ابناء ملته في العصور الغابرة ومـا برحوا يسيرون باحكامه حتى اليوم . وخصص المؤرخ الرهاوي السرياني فصولا جمة في مؤلفه « تواريخ الأزمنة » بذكر القرآن ونواميسه واحكامه (٤) . وهـذا المصنف الفريد قد نشره سنة ١٩٠٠ البطريرك العلاّمة افرام رحماني في مطبعة دير الشرفة .

وقام عند الموارنة في القرن الحادي عشر داود المطران فنقل عام ١٠٥٩ م عن السريانية الى العربية كتاب « الهدى » او « الهادي » وهو يتضمن نواميس شتى مستمدة من القرآن .

---

(١) الجثالقة جمع جاثليق: اعلى مرتبة دينية عند النساطرة والارمن (٢) نشر الفونس منكنا تاريخ برفنكايا عام ١٩٠٨ في الموصل (٣) المفريان رتبة دينية عند السريان وهي دون البطريرك وفوق المطروبوليت (٤) تواريخ الازمنة : للرهاوي : صفحة ١٤٢ - ١٤٣

ونبغ في الملتين الملكية والقبطية طائفة معتبرة من الكتّاب الأعلام تصدّوا لدرس القرآن. فمن الملة الملكية نذكر يعقوب بن صقلان ونفيس الدولة الدمشقي طبيب هولاكو. ولا سيما موفق الدين ابن المطران (٥٨٧ هـ) وقد اسلم في عهد صلاح الدين الأيوبي. فعلتْ منزلته عند هذا السلطان الى ما يشبه منزلة الوزارة والادلال حتى على الملوك. اما الأقباط فقد اشتهر بينهم في القرن الثالث عشر للميلاد ثلاثة اخوة من آل العسال وهم: الرئيس المؤتمن وابو الفرج هبة الله والصفي ابو الفضائل ماجد وغيرهم.

وقد اطلعنا على كتاب ثمين وضعه احد اجلاء الكهنة الشرقيين المعاصرين في « لغة القرآن » وعلاقتها باللغات السامية. فسرد كل ما في ذلك المصحف من اسماء وافعال وعبارات وتراكيب واصطلاحات وقابلها بتلك اللغات. ثم شرحها كلها شرحاً دقيقاً وحللها تحليلًا لغوياً محضاً. واعتمد في بحثه مشاهير كتبة الاسلام كالغزالي والجلالين والزمخشري والبيضاوي وغيرهم. ولم يفته في هذا الصدد ما كتبه اهلُ المعرفة والنقد من علماء الاستشراق في ديار اوروبا. ولسنا نعرف احداً قبل هذا البحاثة طرق موضوعاً مثل هذا الموضوع من علماء الشرق والغرب. ونضم الى من ذكرنا اديباً نصرانياً يقال له نعوم البخّاش الحلبي عاش في القرن التاسع عشر وامتاز بخطه العربي الرائع. ومن بديع ما نمقته براعته فاتحة القرآن فانه كتبها على حبة ارزّ (١).

واذا انتقلنا من الشرق الى الغرب رأينا رهطاً من نوابغ المستشرقين ينافسون المسلمين في درس القرآن وشرحه وتحليله. ويعتنون بتدوين تواريخه واكتناز مخطوطاته ويُبكرون الى ترجمته وطبعه. من ذلك ان المستعرب باباغانيني طبع القرآن في مدينة البندقية منذ القرن السادس عشر. وعُدّت طبعته هذه العربية باكورة طبعات القرآن برمتها.

---

(١) يومية نعوم البخاش : بقلم الاب فرديناند توتل: صفحة ٤

ونشرت مطبعة ليدن بهولندا سنة ١٦١٧ قصة يوسف اعني السورة الثانية عشرة من سور القرآن. وهي اول طبعة عربية أبرزتها مطابع اوروبا بالشكل الكامل([١])

ولم يقتصر علماء الاستشراق على طبع نصوص القرآن فقط بل وضعوا تآليف ضافية وافية في تفسيره وتعداد مزاياه. وتوسع قوم منهم في البحث عن «تاريخ القرآن» كالاستاذ بركتشريسر احد علماء المانيا ([٢]). وممن طرق الموضوع ذاته المستشرق اماري الايطالي (١٨٠٦ — ١٨٨٩). فانه صنف تاريخاً للقرآن شاركه فيه العلامة نولدكه وطبعه سنة ١٨٥٨ فأحرز جائزة المجمع العلمي بباريس ([٣]). وعاصرهما كاتب سياسي شهير يقال له برتلمي سنت هيلار (١٨٠٥ — ١٨٩٥) فصنف كتاباً عن القرآن وعن الدين المحمدي طبعه سنة ١٨٦٥ ([٤]).

وطبع المستعرب لويس ماراجي سنة ١٦٩٨ في بادوا بايطاليا تفاسير القرآن تأليف البيضاوي والزمخشري والسيوطي ([٥]). وحذا حذوه المستشرق فليشر (١٨٠١ — ١٨٨٨) فطبع تفسير القرآن للبيضاوي ١٨٤٦ في ليبسيك ([٦])

وخصص المستشرق بوتيه (١٨٠٠ — ١٨٧٣) بالقرآن حقبةً طويلة من حياته فكتب فيه بحوثاً مستفيضة لم يُباره فيها كاتبٌ شرقاً وغرباً. وسرد عقائد سائر الاديان الموافقة او المخالفة له . والمع الى تأثير القرآن في الاجتماع والحضارة والى الأشهر والجمعات التي يقدسها والى غير ذلك ([٧]) .

وطبع الدكتور لويس سبرنغر (١٨١٣ — ١٨٩٣) المستشرق النمسوي كتاب « الاتقان في علوم القرآن » تأليف جلال الدين السيوطي ([٨]).

ووضع المستشرق رودلف دفوراك (+ ١٩٢٠) المتوفي في براغ عاصمة بوهيميا تأليفاً جديراً بالاعتبار بحث فيه الفاظ القرآن المعربة ([٩]).

---

(١) المشرق : مجلد ٣ سنة ١٩٠٠ صفحة ٨٣ (٢) المشرق مجلد ٣٣ سنة ١٩٣٥ صفحة ١٢١ (٣) المستشرقون : بقلم نجيب العقيقي صفحة ١٢٦ (٤) الآداب العربية في القرن التاسع عشر : للاب لويس شيخو : جزء ٢ صفحة ١٧٠ (٥) المشرق مجلد ٣ سنة ١٩٠٠ صفحة ٨٤ (٦) المستشرقون: صفحة ١٣٥ (٧) المستشرقون : صفحة ٩٣ - ٩٤ (٨) المستشرقون : صفحة ١٤٤ (٩) الآداب العربية في القرن العشرين : للاب لويس شيخو: صفحة ١٣٠

وتفرغ المستشرق المدقق اوتوبرتزل لدرس « علم قراآت القرآن » وتجويد وفهارس مخطوطاته » وواصل تلك البحوث بجهود مستمرة حتى توفق الى العثو على ستة وخمسين مخطوطاً حفظت في احدى وثلاثين خزانة اكثرها في عواصم اوروبا . فوصف كل مخطوط على حدة وذكر منه اوله واشار الى لائحة فصوله ثم رتب فهارس تلك المخطوطات ترتيباً علمياً وصدّرها بدرس متين في عا قراآت القرآن » ونشأته ومصادره. ونشر بحوثه الدقيقة في المانيا بين السنتين ٩٣٣ و ١٩٣٤

ونشر العلامة نلينو (١٨٧٢ - ١٩٣٨) اشهر سور القرآن فرتبها ترتيباً تاريخي محكماً . وعلق عليها الحواشي واردفها بمعجم يستعين به طلاب اللغة العربيـ الاوربيون . وقد سرد في كتابه هذا خلاصة البحوث الحديثة عن فقه اللغة العربي وعن أصل القرآن دون ان تفوته مقابلته بسائر اللغات السامية (١)

ونقل العلامة مرغليوث (١٨٥٨ - ١٩٤٠) الى لغته الانكليزية قسماً من تفسير القرآن للبيضاوي . وقد برهن في حله بعض المعاني العويصة على تضلع مـ اللغة العربية وعلى براعة غريبة فيها .

وممن خاض في درس الأبحاث الشرقية وتعمق فيها الأب هنري لامنس اليسوعي (١٨٦٢ - ١٩٣٧) . كتب في العرب والاسلام والخلفاء والسير النبوية معتمداً على القرآن (٢).

اننا اجتزأنا بذكر اليسير من بحوث اعلام النصارى وعلماء الاستشراق على القرآن . ولو تحرّينا احصاء كل ما دوّنوه عنه في موسوعاتهم او نشروه في مجلاتهم او اثبتوه في تصانيفهم قديماً وحديثاً لتألف من ذلك خزانة من اهم خزائن الدنيا .

---

(١) المشرق : مجلد ٣٨ سنة ١٩٤٠ صفحة ٢١٣ (٢) المشرق : مجلد ٣٥ سنة ٩٣٧ صفحة ١٦٩ - ١٧٠

٧ ـ طرائف عن مصاحف القرآن

لو شئنا ان نسرد كل ما ورد من الطرائف والنوادر عن مصاحف القرآن لانقضى العمر دون البلوغ الى الغاية. غير اننا نستوعي القراء لما ازمعنا ان نطرفهم به من بعض تلك النوادر فنقول :

ذكر ابن النديم في القرن الرابع للهجرة انه ارتحل الى الحديثة وهي مدينة بجوار الموصل. فرأى فيها عند رجل يقال له محمد بن الحسين مصحفاً بخط خالد ابن ابي الهياج صاحب علي بن ابي طالب . ورأى هناك ايضاً خطوط الامامين الحسن والحسين (١)

وروى سبط ابن الجوزي انه كان في جامع اصبهان قبل احتراقه سنة ٥١٥ للهجرة خمسمائة مصحف مكتوبة بخطوط بديعة مدبجة بصفائح الذهب والفضة : بينها مصحف خطه بيده أبي بن كعب بن قيس بن عبيد الخزرجي (٢) وهو الذي امره الخليفة عثمان ان يجمع القرآن فشاركه في جمعه (٣) . وكان أبي بن كعب حبراً من احبار اليهود ثم اسلم .

وكتب المقريزي ان خزائن قصر الفاطميين بالقاهرة اشتملت على الفين واربعمائة ختمة قرآن في ربعات بخطوط منسوبة جميلة مطعمة بذهب وفضة وغير ذلك (٤).

ومن اثمن ما وقع عليه نظرنا في القدس الشريف عام ١٨٩٣ مصحف بديع موشّى بالعسجد واللجين كتبه عبدالله ابن امير المسلمين ابي سعيد عثمان سلطان الجزائر. وهذا المصحف الذي يزين خزائن المسجد الاقصى مكتوبٌ بحبر احمر وازرق واخضر وقرمزي مُزج بالمسك والزعفران. يرتقي تاريخه الى سلخ ذي الحجة

---

(١) فجر الاسلام : لاحمد امين جزء ١ صفحة ١٩٧ ودائرة معارف القرن العشرين : مجلد ٢ صفحة ٧٠ ـ ٧١ (٢) مرآة الزمان للجوزي (٣) الاعلام : لخير الدين الزركلي. صفحة ٢٨
(٤) خطط المقريزي جزء ٢ صفحة ٢٥٤

سنة ٥٤٧ للهجرة (٢٨ آذار ١١٥٣م). ولما سُرق هذا المصحف منذ بضعة اعوام قامت الحكومة الفلسطينية وقعدت للامر. وبثت العيون على اللصوص في جميع الامصار حتى عثرت سنة ١٩٣٦ على المسروق في حانوت احد تجار العاديات بالقاهرة. فاستولت عليه واعادته الى مركزه في خزائن المسجد الاقصى. ونضرب صفحاً عن ذكر مصاحف ثمينة مصونة في هذا المسجد اطلعنا عليها بذاتنا يتقادم عهدها الى ايام مماليك مصر وسلاطين آل عثمان (١).

وكان سنان باشا (١٠٠٤ هـ و ١٥٩٥ م) المهندس التركي الشهير من كبار المولعين بجمع نفائس المصاحف والمخطوطات. فقد خلف مائة وستين مصحفاً مرصعة بالدرر والجواهر. وكانت تلك المصاحف مع غيرها من الكتب الثمينة مصونة في خمس وثلاثين صندوقة مطعمة بالياقوت والمعدن (٢).

ومن طرائف ما يُروى عن عبد الرحمن الخولاني الحيرازي المتوفى سنة ١٠٠٣ للهجرة انه كان يقدس القرآن ويعظمه في امور ما خطرت ببال انسان قبله. فانه صنف تفسيراً للقرآن جمع فيه صناعات المصاحف باسرها وجعل ذلك القرآن اماماً يُقتدى به ويعوّل عليه. ثم استقصى ما في مصحف عثمان بن عفان وضم اليه ما لا اثر له في غيره. وبلغ به حرصه الشديد على اجلال القرآن ان اصطنع له بيده كاغداً وحبراً ممتازين ليكون طاهراً بالاجماع (٣).

ويرى المطالع نموذجات شتى من المصاحف النفيسة في دار الكتب المصرية وفي دار الكتب الأزهرية بالقاهرة. ويشاهد مثل ذلك ايضاً في دار الكتب الظاهرية بدمشق وفي دار الكتب اللبنانية في بيروت وفي غيرها من دور الكتب وخزائن المساجد. ويتجلى ذلك خصوصاً في مكة والمدينة واليمن وبغداد والنجف والموصل وحضرموت وطهران واصبهان وتبريز وتونس والقيروان والجزائر

---

(١) خطط الشام لمحمد كردعلي: مجلد ٦ صفحة ٢٠٠ ـ ٢٠١
(٢) خطط الشام، مجلد ٦ صفحة ١٩٤ (٣) خلاصة الاثر: جزء ٢ صفحة ٣٦٠

وفاس ومراكش ومكناس والاسكندريه وسطنبول وبروسة وادرنة وهلمّ جرّاً.
وهذه المصاحف منمقة بصنوف الاقلام العربية بدءاً من القلم الكوفي الاصلي الى القلم البغدادي فالقلم الافريقي والاندلسي فالريحاني فالثلث فالمراكشي حتى القلم الديواني والقلم القاعدي في عهدنا.

وبلغ تفنن المسلمين في كتابة القرآن وزخرفته ان نسخوه على اصغر حجوم الورق واوسطها واكبرها فكتبه بعضهم بحجم الصدفـــة او بيضة الدجاجة. وكتب غيرهم بعض سوره على حبة ارز وحبة قمح. ونرى اليوم مصاحف لا يتجاوز حجمها سنتيمترين طولا وسمكاً وعرضاً مطبوعة وموضوعة ضمن قماطر من عسجد او لجين او معدن آخر. زد عليه ان الاقدمين وشحوا فاتحـة القرآن ورؤوس سوره واجزاءه واحزابه بمياه دقيقة الصنع مختلفة الالوان.

وكان في مكتبة مدرسة الامير جمال الدين الاستادار بالقاهرة عشرة مصاحف بديعة طول كل منها اربعة او خمسة اشبار في مثلها عرضاً. وكان احدُها بخط ابن البواب (٤١٣ هـ) والآخر بخط ياقوت المستعصمي (٦٩٨ هـ) وباقيهـا بخطوط منسوبة (١).

وفي خزانة كتبنا الخاصة مصاحف قرآنية نفيسة تفتن الابصار بفواتحهـــا المذهبة واشكال خطوطها المستبدعة والوان زخارفها الرائعة بينها مصحف نادر مكتوب بحبر اسود تتخلل سطوره ترجمة القرآن باللغة الفارسية مكتوبة باللون الاحمر وفي خزانتنا مصحف ثان ذهبت عناوين سوره واجزاؤه كلهـا بحروف ذهبية والوان شتى واكتنفت صفحاته المستبدعة من اوله الى آخره باطار مطعم بالذهب. وفصلت آياته جمعاء بنقاط ذهبية لماعة ومما يزيد قيمة هـــذا المصحف الجميل الرائع انه رابع مصحف حرره ونمقه حافظ الخطاط الشهير. والى القارىء ما كتبــه في آخر المصحف ضمن هالة بديعة يحيط بها غصنان مذهبان: «كتبه حافظ القرآن شهيد الدين الامام سرّ افندي من تلاميذ سليمان الكاشفي اللهم اغفر

---

(١) خطط المقريزي جزء ٤ صفحة ٢٥٤

لي ولهم آمين سنة ثمان وثمانين ومائتين والف - المصحف الرابع » . وفي مكتبتنا كذلك مصحف ثالث طوله زهاء ثلاثة اشبار لا يقل عمره عن اربعمائة سنة. وُشي جلده بنقوش هندسية عربية مذهبة دقيقة الصنعة . وتعلو فاتحة هذا المصحف الثمين رسوم مدبجة بالوان لازوردية وخضراء . وهناك مصاحف شتى نادرة تؤلف اليوم متحفاً مستطرفاً في خزائن ابنتنا جان دي طرازي بباريس .

وروى عبد الرحمن الجبرتي عن الشيخ ابراهيم بن محمد سعيد الادريسي المتوفى سنة ١١٨٧ للهجرة (١) قوله : «كان قلمه كلسانه سيالاً . وربما شرع في كتابة سورة من القرآن وهو يتلو سورةً أخرى بقدْرها فلا يغلط في كتابته ولا في قراءته حتى يتمهما معاً ».

وكتب بعض المسلمين تفسير القرآن كله بالفاظ مهملة اعني خالية من النقاط(٢) واشهر من عُني بمثل هذا التفسير السيد محمود حمزة الحسيني (١٢٣٦ - ١٣٠٥ هـ) فانه انشأ للقرآن تفسيراً مطوّلا في مجلدين عنوانه « درر الاسرار » والتزم ان تكون كلمات التفسير كلها بحروف مهملة من اولها الى آخرها. ثم الف معجما مهملا سماه « الكمل الى الكلام المهمل » للاستعانة به على التفسير المشار اليه (٣).

واشتهر في عصرنا محمد علي بن بهاء الله زعيم الفرقة البهائية . فانه كتب بظفره كتابات ناتئة لا تقل جمالا وروعة عن كتابته بالقلم . وبرّز خصوصاً بما خطه بظفره على القرطاس من الآيات القرآنية والأمثال الحكمية . وتوفي شيخاً جليلاً سنة ١٣٥٥ للهجرة في « البهجة » بجوار عكا .

وفي مكتبتنا من الخطوط الناتئة قديمة وحديثة انواع واشكال نُقشت باظفار ناسخيها وعلى بعضها تواريخ نساختها ترتقي الى نحو مائتي سنة لعصرنا هذا.

٨ - ترجمات القرآن وطبعاتها

لسنا نعرف كتاباً عربياً أثار همم العلماء والباحثين في اربعة اقطار المسكونة

(١) عجائب الآثار في التراجم والاخبار جزء ١ صفحة ٣٧٩
(٢) رسالة السلام . مجلة الخوري انطون عقل في بيروت . سنة ١٥ صفحة ٧٧
(٣) تراجم مشاهير الشرق : لجرجي زيدان جزء ٢ صفحة ١٧٨

آثارها مصحف القرآن منذ صدر الاسلام حتى اليوم . تلك حقيقة صادقة لا تفتقر الى برهان يسندها او حجة تدعمها. وهذه الهمم شملت المسلمين وغيرهم على السواء فأكبوا على تلاوته وبالغوا في دراسته. ولم يذروا آية من آياته او لفظة من الفاظه أو معنى من معانيه الا شرحوها وتبحروا في تأويلها ودققوا في تحليلها .

وكان السباقون في نقل القرآن الى مختلف اللغات منذ العصور الغابرة احبار النصارى ورهبانهم وقسانهم . وقد عثر بعضهم منذ القرن الثالث عشر للميلاد في جامعة مونبليه بفرنسا على ترجمة القرآن باللغة اللاتينية . والغريب ان ناقل هذه الترجمة راهب من رهبان النصارى مولود في جزيرة صقلية يقال له دومينيك جرمان. وقد تولى المستشرق دافيك نشر تلك الترجمة في المجلة الآسيوية بباريس (١).

والاغرب من ذلك ان ابن الصليبي مطران ديار بكر (+ ١١٧١ م) في القرن الثاني عشر للميلاد سبق الراهب دومينيك المشار اليه فنقل الى اللسان السرياني آيات جمة من القرآن ضمها في مؤلف خاص انطوى على ثلاثين فصلاً في مائة واربع واربعين صفحة كبيرة (٢) . وقد نشر عام ١٩٢٥ احد تلك الفصول الفونس منكنا (+ ١٩٣٧) نقلاً عن مخطوطة المتحف البريطاني بلندن واردفها بترجمة انكليزية. ويتقادم عهد تلك المخطوطة السريانية الى سنة ١٧٦١ يونانية الموافقة للسنة ١٤٥٠ للميلاد .

واطلعنا نحن على ترجمة سريانية للقرآن كاملة لا تقل قدماً عن الترجمتين المذكورتين . وهي مخطوطة نادرة افلتت من نكبة هائلة اجتاحت مدينة الرّها وأهلها عام ١١٤٥ للميلاد يوم احتلها زنكي ملك الموصل (٥٤٢ — ٥٩١ هـ). يتبادر الى الظن ان مترجم تلك النسخة القرآنية العريقة هو باسيل مطران الرها الذي كان من ابرع كتاب تلك الحقبة وابلغهم .

وممن تطرق من رجال الدين المسيحي في عهدنا الى ترجمة القرآن القس دَيل

---

(١) المستشرقون: صفحة ٣١ (٢) كتاب الجدل : مخطوطة مكتبة البطريركية السريانية ببيروت

راعي الكنيسة في زنجبار. فانه نقل القرآن الى اللغة السواحلية المستعملة في تلك الأرجاء ثم طبع تلك الترجمة عام ١٩٢٣ في لندن عاصمة الانكليز.

ونرجح ان كثيرين من احبار النصارى وقسانهم سوى مَن ذكرنا نقلوا القرآن الى لغاتهم للوقوف على سنن الدين المحمدي ومعارضتها بسنن الدين المسيحي. ونعتقد ان تلك الترجمات محفوظة كلها او بعضها في خزائن الاديار او في دور الكتب شرقاً وغرباً.

وتفرد علماء الاستشراق خصوصاً بتعمقهم في درس القرآن وترجمته وشرحه وطبعه. فنقلوه الى لغاتهم نقلاً محكما حتى اصبح في استطاعة الأدباء غير العرب ان يقتنوه ويتصفحوه ويتفهموه. واقدم ما عرفناه من تلك الترجمات الأوروبية المختلفة ترجمة ايطالية وضعها عام ١٥٤٧ المستشرق اندريا اريفابين.(١) . وتلتها ترجمات وطبعات غيرها احصينا منها مائة وعشرين ترجمة في خمس وثلاثين لغة شرقية وغربية. وقد طبعت تلك الترجمات بتوالي الأزمان وتكرر طبع بعضها مراراً لرواج سوقها بين العلماء وارباب البحث.

واوفر الترجمات والطبعات عدّاً هي الترجمات الانكليزية فالفرنسية فالالمانية فالايطالية. فترجمات القرآن الانكليزية مثلاً وهي احدى عشرة ترجمة بلغت طبعاتها اجمالا ستين طبعة، منها اربع وثلاثون طبعة لترجمة جورج سيل وحدها، تليها ترجمات القرآن الفرنسية وعددها ثماني ترجمات بلغت طبعاتها اجمالا سبعاً واربعين طبعة، منها اثنتان وعشرون طبعة لترجمة كزيميرسكي وحدها. تليها ترجمات القرآن الالمانية وعددها ثلاث عشر ترجمة بلغت طبعاتها اجمالا ثلاثاً وعشرين طبعة. منها تسع طبعات لترجمة المستعرب اولمان فقط. تليها ترجمات القران الايطالية وعددها اثنتا عشرة ترجمة طبع منها اجمالا احدى وعشرون طبعة لا غير.

وهناك خمس ترجمات للقرآن في كلٍ من اللغات: الفارسية والتركية

---

(١) غرائب الغرب: لمحمدكرد علي جزء ١ صفحة ٢٤٤ - ٢٤٥

والاسبانية والهولندية والارمنية والبنغالية .

تليها اربع ترجمات للقرآن في كل من اللغات الصينية والبنجابية والغوجدانية ثم تليها ثلاث ترجمات للقرآن في كل من اللغات : اللاتينية والروسية والاسوجية .

تليها ترجمتان في كل من اللغات : الافغانية والبولونية والمجرية والدنمركية والسريانية والقشتلانية والسندية .

اخيراً ترجمة واحدة للقرآن في كل من اللغات : اليونانية والبلغارية والسربية والروتانية والالبانية والبرتوغالية والهندوكية واليابانيـــة والجاوية والاردوية والسواحلية .

تلك خلاصة اثبتناها هنا بعدما تقصينا البحث عن ترجمات القرآن وطبعاته في الموسوعات والتآليف والفهارس والمجلات العلمية الموثوق بها .

٩ ـ متاحف القرآن

لم يكتف علماء الاستشراق بترجمات القرآن وطبعاته على ما فصلنا بل هبوا منذ القرن المنصرم الى احياء العلوم القرآنية وتعزيزها من جميع مناحيها . فاخذوا يستنهضون همم اهل المعرفة والنقد ليدرسوا ويستجلوا غوامضهـــا ويعمموا نشرها في الآفاق . وقد نشطتهم الدول الاوروبية الى ذلك وساعدتهم مساعدة ادبية ومادية . فأسست الجوامع الفخمة في اشهر العواصم وكبريات الحواضر . وأدرّت الارزاق لأئمة الدين وخدام العلم، ومهدت امامهم السبل للبلوغ الى الهدف المنشود .

ولنا أصرح مثال على ذلك ما سعى اليه وحققه المجمع العلمي في بافاريا . فانه اخـــذ على عاتقه النهوض بجمع المخطوطات والنوادر المنطوية على نص القرآن وعلى تاريخه وعلومـه وشروحه وعلى كل ما يتعلق به . فحشد ارباب ذلك المجمع مصنفات وافرة احتوى بعضها على نسخ خطية اصلية وانطوى البعض الآخر على

لوحات او صفائح فوتوغرافية نقلوها عن مصادرها . وانشأوا من تلك المجموعات الثمينة متحفاً قرآنياً وحيداً في بابه كبير القيمة يُدهش العقول ويلفت الابصار . واستأنفوا بعد هذا ينتقون من تلك الذخائر الخطية والشمسية أجودها وأفضلها وأفيدها وينشرونه على نفقة المجمع اعلاءً لشأن المعارف (١).

الى هنا خلاصة البحث عن « القرآن » ولا بد لي من الاقرار والتقرير بانه ليس الا قطرةً من بحر . لكنه فيما اعتقد بحث جديد جدير بالاعتبار فاستقيته من مناهل صافية ونقلته عن مصادر وثيقة صادقة . ولم اقصد في عملي الا تنبيه من تحدثه النفس ليطرق هذا الباب ويتبسط في درس اصوله وفروعه . و « ان الفضل بيــد الله يؤتيه من يشاءُ والله ذو الفضل العظيم » (٢).

---

(١) مجلة « الرسالة » في القاهرة : لاحمد حسن الزيات : سنة ٥ صفحة ٤٣٧

(٢) القرآن : سورة الحديد ٢٩

الفصل الثالث

الحالة الفكرية في بلاد المشرق قبل الفتح العربي

١ ـ دواعي انتشار الروح العلمية في المشرق

لما افتتح العرب الاقطار الممتدّة من وادي النيل الى شواطىء دجلة كانت هذه الديار زاهرة بالعلوم وحافلة بالمكتبات وآهلة بالمدارس التي ذاع صيتها في الخافقين. وكان لسكانها نصيب وافر من الرقي بدليل من برّز بينهم من العلماء الاعلام والمؤلفين العظام الذين لا يُحصى لهم عدد. فكان جو هذه الامصار الشاسعة ولا سيما سوريا ومصر وما بين النهرين معبّقاً بالروح العلمية التي انتشر عرفها بين اكثر طبقات الشعب لا في المدن فحسبُ بل في الدساكر ايضاً .

وممّا ساعد على هذه النهضة الفكرية تفشّي البدع الدينية في الملّة النصرانية وثوران المجادلات المذهبية بين فرقها . فاستمرت تلك المنازعات قروناً وكلّ منها مستند الى نظريات منطقية وتعليلات فلسفية الف فيها علماء كل فرقة ورؤساؤها ومفكروها كتباً شتى في الاثبات والانكار والدفاع والدحض .

٢ ـ النزاع الديني بين نصارى الشرق وتشعبهم

بدأ هذا النزاع الديني اولا على شرح الكتاب المقدس بين مدرستي الاسكندرية وانطاكية الشهيرتين . وتفاقم الاختلاف على قضايا اخرى حتى امتد الى كثير من المدارس والكنائس في مصر وفلسطين وسوريا وفونيقي وما بين النهرين والعراق وبلاد فارس وغيرها. ثم شمل النصرانية كلها في الاقطار المشرقية. فانقسم بسبب

ذلك رؤساء المسيحيين وملوكهم بعضهم على بعض. وتبع كلا منهم فريق من الانصار يؤيده في رأيه ويناضل عن مذهبه. هكذا تعدّدت الفرق الدينية في الشرق لكن اكثرها تلاشى بتعاقب الازمنة كالبرديصانية والمانوية والمرقيونية والشميشاطية والبيلاجية والابولينارية والآريوسية الخ. ولم يبق منها الا الاسم. ثم تبعتها فرق اخرى لم تزل بالرغم مما اصابها من النكبات والمناهضات حية حتى الزمان الحاضر. ولكل من هذه الفرق اتباع يتميزون بشرائعهم ودساتيرهم ولغاتهم الطقسية ورئاساتهم الدينية كالنساطرة واليعاقبة والموارنة والملكيين ومن ينتمي اليهم او يتشعب من بعضهم.

٣ـ تحزب النصارى السريان للعرب الفاتحين ضد قياصرة الروم

وكان التطاحن الديني الذي اشرنا اليه الآن اقوى ذريعة لتسهيل الفتوحات العربية في الامصار المذكورة. ذلك لان الفرق المخالفة في اللغة والجنس والمعتقد لقياصرة الروم اصحاب السيادة على القسم الاكبر من هذه البلاد كانت تعمل على النكاية باولئك القياصرة وتنتصر للعرب اعدائهم وتحالفهم وتتودد اليهم. ولنا على صحة هذا القول ادلة راهنة نثبت منها رواية سعيد بن بطريق المتطبب بطريرك الاسكندرية الملكي (+ ٩٤٠) عند كلامه عن فتح العرب لمدينة دمشق سنة ٦٣٥ قال: «نزل خالد بن الوليد باب الشرقي... وعمر بن العاص باب توما... واقاموا الحصار على دمشق ستة اشهر الآيوم... فلما اجهد اهل دمشق الحصار صعد منصور [١] عامل دمشق على الباب الشرقي فكلم خالد ابن الوليد ان يعطي الامان له ولأهله ولمن معه ولأهل دمشق سوى الروم حتى يفتح ابواب دمشق [٢]

---

(١) هو منصور بن سرجون وجد القديس يوحنا الدمشقي. وكان منصور من السريان المنوثليتيين. وقال الاب لامنس: (المشرق ٢٩ : ٤٨١ – ٤٨٥) اما اصل منصور بن سرجون فهو عربي النصف سرياني النصف الآخر (٢) تاريخ سعيد بن بطريق جزء ٢ صفحة ١٤

ونضيف الى شهادة البطريرك سعيد بن بطريق شهادة اخرى لا تقل عنها شأناً دونها ميخائيل الاول الكبير (+ ١٢٠٠ م) البطريرك الانطاكي على السريان . فانه لمّا اتى على وصف مظالم قياصرة الروم في عهد هرقل الملك قال ما ترجمته :

« ولهذا فان الله اله النقمات... لما رأى عتوّ الروم ودهاءهم... بعث من ارض الجنوب ابناء اسماعيل كي يحصّل لنا النجاة بواسطتهم من ايدي الروم... فاستفدنا من ذلك فائدة كبرى. لاننا تحررنا من ظلم الروم ومن مساوئهم ومن سخطهم ومن شديد بغضهم لنا وتمتعنا بالطمأنينة (١).

وكان لهذه الانقسامات تأثير شديد على السياسة لامتزاجها بالدين عند تلك الفرق المسيحية . وقد أفضى الامر احياناً الى خروج فرق باسرها من حوزة الروم الى دولة الفرس لما كان بين هاتين الدولتين من العداوة القديمة والتنازع على الاستبداد ببلاد المشرق . على ان الروم والفرس بينما كانوا منهمكين بالحروب والمشاحنات كان العرب يجمعون صفوفهم ويتهيأون لفتح بلاد هاتين الدولتين العظيمتين . فتم لهم ذلك ولم يلبث ان تبدل وجه الشرق سياسةً ولغةً وديانةً وعلماً بتضاؤل دولتي الروم والفرس اللتين خلفتهما دولة العرب .

---

(١) تاريخ ميخائيل الكبير صفحة ٤٢٠

الفصل الرابع

ثقافة شعوب البلاد التي فتحها العرب

١ لغات الشرق حين الفتح العربي

بحثنا في الفصل السابق عن مجمل الحالة الفكرية في بلاد المشرق قبل الفتح العربي . والآن هلمّ بنا نبحث بوجيز الكلام على ثقافة سكان تلك البلاد قبل ذلك الفتح وفي صدر الاسلام. وهي حقبة غنية بنوابغ العلماء الذين رفعوا منار الشرق بمصنفاتهم الكثيرة وآثارهم الخالدة . وكل من أنعم النظر في الوف المدارس والاديار (١) التي كانت تعزز العلم اتضحت له مكانة مكتباتها المشحونة بذخائر المؤلفات في شتى المواضيع العقلية والنقلية . وناهيك عدداً غفيراً من الجهابذة نبغ في تلك المعاهد حيث كانت تدرّس العلوم باللغتين اليونانية والسريانية في البلاد الخاضعة لصولجان قياصرة الروم وهي سوريا وما بين النهرين . وكانت تدرّس اللغتان الفارسية والسريانية في مدارس الاقطار الواقعة تحت سلطة اكاسرة الفرس. اما القطر المصري فكانت العلوم تُلقى في مدارسه باللغتين القبطية واليونانية. وبعد الفتح العربي أضيف الى اللغات المذكورة تدريس اللغة العربية مجاراة للفاتحين.

---

(١) لم تكن الاديار في سالف الاحقاب مختصة بالعبادة فقط بل كانت في الوقت ذاته محورا للثقافة . لان كل دير كان بمثابة مدرسة يتلقى فيها طلاب العلم عن الرهبان وغيرهم اصول العلوم الدينية والادبية . وكان في كل دير مكتبة يختلف اليها سكانه للمطالعة والتأليف ونساخة الكتب .

٢ ـ مدارس الاسكندرية وانطاكية وبيروت

في طليعة تلك المعاهد التعليمية نذكر مدرسة الاسكندرية الشهيرة التي عاصرتها مدارسُ اخرى ذائعةُ الصيت في طرسوس وردوس وبرغاموس وغيرها. وظلت الاسكندرية دار العلم والحكمة في مصر حتى تغلب عليها العرب واختط عمرو بن العاص مدينة الفسطاط فجعلها عاصمة وادي النيل. وقد امتاز عدة اعلام من اساتذة تلك المدرسة ما لبثوا ان جعلوا الاسكندرية حاضرة الآداب ومحجّ العلماء على رغم ما انتابها من التقلبات في عهد خلفاء بطليموس مؤسس مدرستها.

وكانت مدرسة الاسكندرية تعتني باللغة السريانية اعتناءها باللغتين القبطية واليونانية كلتيهما. فكان العلماء يجيدونها هناك قراءة وكتابة كاخوانهم في بلاد الشام والعراق (١).

ولم تكن تقلّ عن مدرسة الاسكندرية شأناً مدرسة انطاكية التي تثقف فيها جهابذة مشاهير كيوحنا الذهبي الفم (+ ٤٠٧ م) تلميذ ميليطس البطريرك الانطاكي. ومن نوابغ تلامذتها ايضاً تئودوريط اسقف قورش ونسطور بطريرك القسطنطينية (٤٢٨ ـ ٤٤٠ م) وتئودورس وديودرس الطرسوسي وغيرهم.

وبعد هاتين المدرستين الجامعتين نذكر مدرسة الحقوق في بيروت حيث درس رهط عظيم من الفقهاء ومهرة الكتّاب. نخص بالذكر منهم بمفيل الفيلسوف البيروتي مؤسس المكتبة الثمينة في قيسارية فلسطين (٢). والشهيد امفيان وشقيقه اوسبيوس وساويرا الذي تولى الكرسي الانطاكي (+ ٥٣٨ م) وزميله زكريا الملطي البليغ والمؤرخ الشهير (٣).

---

(١) ضحى الاسلام : لاحمد امين : جزء ٢ صفحة ٩٥

(٢) تاريخ سوريا : للمطران يوسف الدبس : مجلد ٤ صفحة ٦٥

(٣) مجلة (الشرق المسيحي) الفرنسية : مجلد ٤ صفحة ٢٦٣ - ٥٤٣ ومجلد ٥ صفحة ٧١ و ٢٩٣

٣ ـ مدارس المدائن ودير قنى في العراق

من أقدم المدارس وأشهرها في العراق العربي مدرسة المدائن عاصمة الدولة الفرثيّة . وكانت تُعرف قبل ذلك باسم سليق وقطسفون . وفيها نبغ ططيانس الذي شهد له ايرونيمس واوسابيوس القيصري بان له تصانيف لا تُحصى . وهو ناقل الاناجيل الاربعة بين السنة ١٥٢ و ١٧٣ للميلاد وقد جعلها انجيلاً واحداً سماه « دياطسرّون» . وشاع هذا الكتاب حتى السنة ٤٣٥ م فألقي في زوايا النسيان . واتصلت بنا ترجمته العربية التي نقلها ابو الفرج ابن الطيّب (+ ١٠٤٣ م) ونشرها المستشرق شياسكا الايطالي عام ١٨٨٨ في رومة . ثم جدد طبعها عام ١٩٣٥ ببيروت العلاّمة الاب مرمرجي احد اساتذة المدرسة الكتابية والآثارية الفرنسية في القدس .

ومن تلامذة مدرسة المدائن ارخلاوس الكشكريّ (+ ٢٦٠ م) صاحب التآليف المشهورة التي وصفها ابن العميد وغيره .

اما دير قُنّى فاسمٌ لمدينة كانت مجاورة للمدائن ، وكان موقعها على مسافة ستة عشر فرسخاً من بغداد كما ذكر ياقوت الحموي (١) . واشتهرت دير قُنى بمكتبتها القديمة ومدرستها العامرة التي انجبت فئة من الجهابذة نذكر منهم : الفطرك آحا (٤١٠ — ٤١٥ م) . ومتّى بن يونس المنطقي النسطوري الذي اشتهر في عهد خلافة الراضي (٩٣٤ ـ ٩٤٠ م) . وقد ذكره محمد بن اسحق النديم في كتابه وقال : اليه انتهت رئاسة المنطقيين في عصره ومصره (٢). وممن انتسب الى دير قُنى محمد بن علي القنّائي وكان من مشاهير جمّاعي الكتب المذهبة والمبطنة بالديباج والحرير (٣) وسيأتي ذكره في غير هذا المكان.

---

(١) معجم البلدان : جزء ٢ صفحة ٦٨٧

(٢) تاريخ مختصر الدول : صفحة ٢٨٥

(٣) صلة الطبري : صفحة ٩٠ - ٩٦

٤ ـ مدرسة الرها واشهر العلماء المنتسبين اليها

من اشهر المدارس مدرسة الرها التي تأسست في القرن الثاني للمسيح واقفلت عام ٤٨٩ بامر من زينون الملك. ومن نوابغ طلبتها نذكر برديصان (١٥٤-٢٠٢) صاحب كتاب «شرائع البلدان». ثم وافا الفيلسوف الذي ذكره انطون التكريتي في كتابه «الفصاحة والخطابة والشعر». واوسابيوس الحمصي (+٣٥٩) الذي درس اولا في الرها ثم ارتحل الى مدرسة انطاكية فمدرسة الاسكندرية عام ٣٣٢ وقد اثبت هيرونيميس اسمه في كتاب « مشاهير الرجال »

وتولى التدريس في مدرسة الرها افرام الكبير (+ ٣٧٣) صاحب التصانيف الرائعة الوافرة . وخلفه في منبر التعليم ربولا (+ ٤٣٥) ثم قيّورا (+ ٤٣٧) ثم ايهيبا (+ ٤٥٧) ثم نونا. ومن مشاهير الائمة الذين ينتسبون الى هذه المدرسة او تخرجوا فيها منذ عهد تجدّدها عـام ٣٦٣ الى سنة اقفالهـا نذكر فولونا وارواد وشمعون وآبا وابرهيم واسحق الآمدي الذي سافر الى رومة في اواخر القرن الرابع وشاهد فيها الكابيتول ووصفه وصفاً بليغاً. ومنهم اسحق الانطاكي (+ ٤٦٠) الذي انشأ تآليف جمّة معظمها بالشعر. وقد نشر منها قسماً وافراً الدكتور بيكل النمساوي ويوحنا شابو الفرنسي وبولس بيجان (١). ونذكر منهم ايضاً زينوب واقاق ومعنا وبرصوما النصيبيني وماري الفارسي. وفي المدرسة عينها درس نرساي (+ ٥٠٧) الملفان النسطوري. ويعقوب السروجي (+ ٥٢١) مؤلف الرسائل البليغة والميامر النفيسة . وفيلكسين المنبجي (+ ٥٢٣) واخوه ادّى . وكوما وفروبا واسطفان بن صديلي الزهاوي وغيرهم كثيرون.

٥ ـ مدرسة نصيبين وكبار جهابذتها

بعد مدرسة الرها اشتهرت مدرسة نصيبين التي تعززت عام ٣٢٥ بعناية العلامة

(١) المخطوطات العربية لشيخو صفحة ٢٩

الكبير يعقوب النصيبيني (+ ٣٣٨). فجعل استاذاً لها تلميذه افرام الملفان الذي انقطع الى التدريس فيها مدة خمس وثلاثين سنة ثم غادرها الى الرها . وقد أقفلت هذه المدرسة عام ٣٦٣ حتى جدّدها بعد مائة وستة وعشرين عاماً نرساي (+ ٥٠٧) العلامة النسطوري عندما أمر زينون (٤٧٤ - ٤٩١) قيصر الروم باقفال مدرسة الرها عام ٤٨٩ .

واستمر نرساي متولياً ادارة مدرسة نصيبين بعد عهد تجديدها الى تاريخ وفاته . فخلفه الاستاذ اليشع (+ ٥٠٩) ثم ابرهيم الربّان (+ ٥٦٩) الذي تولى التعليم فيها مدة ستين سنة . وبلغت المدرسة في عهد رئاسته أوج مجدها حتى صار عدد الدارسين فيها لا يقل عن الالف طالب . وولي بعده يشوعيهب الحديابي سنة ٥٦٩ فابرهيم سنة ٥٧١ فيوسف الاهوازيّ فحنانا الحديابي سنة ٥٧٥ وكان عدد تلامذة المدرسة في عهده زهاء الثمانمائة (١) . وخلفه في رئاسة المدرسة بولس سنة ٥٨٣ ثم ابرهيم الكشكري (+ ٥٨٨) العلاّمة الشهير . وكان قد شيّد قبل ذلك مدرسة معتبرة في جبل الازل بطور عبدين . وجاء بعده يشوع (+ ٦٠٤) ثم باباي الكبير (+ ٦٢٧)

وقد أنجبت مدرسة نصيبين أعلاماً من العلماء لا يُحصى لهم عدد نذكر منهم مَن يلي : آبا جاثليق المشرق (+ ٥٥٢) . ثم سهدونا الذي استصحبه يشوعيهب الجاثليق في رحلته الى القسطنطينية عام ٦٣٠ لزيارة هرقل الاول (٦١٠ - ٦٤١) قيصر الروم . وخلف سهدونا (+ ٦٦٠) مؤلفات جليلة طبع بعضها العلاّمة بيجان سنة ١٩٠٢ في باريس . ثم عنيشوع الذي ارتحل الى صعيد مصر حيث

---

(١) المكتبة الشرقية للسمعاني مجلد ٣ قسم ١ صفحة ٨١

عكف على الدرس والتأليف ، وقد طبع له العلامـة بيجان سنة ١٨٩٧ بعض الكتب النفيسة . وما عـدا من ذكرناهم فقد اشتهر في هذه المدرسة كتبة عديدون دوّن عبديشوع الصوباوي (+ ١٣١٨) اسماءهم في ميمره الكبير الذي نشره يوسف سمعان السمعاني في المكتبة الشرقية وعلّق عليه .

٦ - مدارس تل عدا وقنسرين وقرتمين ونوابغها

في ضواحي انطاكية قامت مدرسة « دير تل عـدا » ويقـال له الدير الكبير. وكان مهـد المعارف في العصور النصرانيـة الاولى وظل على زهوه الى القرن العاشر . وفيه درس كثير من أقطـاب العلم نروي منهم من يأتي : يعقوب الرهاوي (+ ٧٠٨) الذي خلّف كثيراً من المؤلفـات الرائعة لاسيا فصوله في منطقة البروج وحركات الافـلاك والمعادن والانهار والمظاهر الجوّية (١) . واشتهرت في ضواحي انطاكية مدرسة بنطاليمون ومدرسة دير طورلاها وغيرها في جبل الاسود . ومدرسة « دير سمعان » التي لاتزال آثاره مائلة بين حلب وانطاكية . ومدرسة « دير الجب الخارجي » حيث تلقى العلوم بعض أحبار اليعاقبة ومشاهير كتابهم كبولس الثالث (+ ٥٧٥) وبطرس الثالث خليفته وايليا (+ ٧٢٣) واثناسيوس الثالث (+ ٧٤٠) وغيرهم .

ومن المعاهد العلمية الذائعة الصيت مدرسة قنسرين التي ابتناها يوحنا بن افتونيا (+ ٥٣٨) بجوار حلب وتولى التعليم فيها اعواماً عديـدة . ونبـغ من تلامذتها بوليان الثاني (+ ٥٩٥) واثناسيوس الاول (+ ٦٣١) . وتوما الحرقلي الذي نقح او نقل سنة ٦١٦ كتاب الاناجيل عن اليونانية وعرفت ترجمته بالترجمة الحرقلية . ومنهم ثئودور (+ ٦٧٧) . ولا سيا الفيلسوف الكبير ساويرا سابخت الذي تولى رئاسة هذه المدرسة نحو السنة ٦٤٠ . وامتاز بمـا صنفه من التآليف العلمية

(١) المخطوطات العربية لشيخو صفحة ٢١٥

النادرة في الحساب والفلك والاسطرلاب والكسوف والخسوف والبروج والمنطق والفلسفة واللاهوت وغيرها . وهو الذي ادخل الارقام الهندية عند السريان وعنهم نقلها العرب واصطلحوا عليها الى اليوم (١) ومنهم اثناسيوس بلدي (+ ٦٨٨) تلميـــذ ساويرا سابخت المشار اليه . ويوليان الثالث (+ ٧٠٩) وجورجي الاول (+ ٧٩٠) والمؤرخ الرحّالة ديونوسيوس التلمحري (+ ٨٤٥)

ونضيف الى ما سلف تدوينه مدرسة قرتمين المشيدة عام ٣٩٧ في طور عبدين وسيأتي الكلام عنها وعن مكتبتها في فصل لاحق. وفيها تلقى العلوم اثناسيوس الرابع (+ ٧٥٨) وخليفته في الكرسي الانطاكي تئودسيوس (+ ٨٩٥) مؤلف كتاب الطب المعروف باسمه . وفي قرتمين عينها ذاع صيت يوحنا مطرانها الذي جـــدد عام ٩٨٨ الكتابة السطرنجيلية التي سبق العرب فبنوا عليها قاعدة خطهم الكوفي (٢).

٧ ـ سائر الكتبة في الامصار التي افتتحها العرب

قام في الشرق عدد عظيم من نوابغ المؤلفين غير من أثبتنا اسماءهم . وحسبنا

---

(١) اثبت المستشرق نو نقلا عن مخطوط باريس السرياني رقم ٣٤٦ لمؤلفه ساويرا سابخت وهو يحتوي في الصفحة ١٧٠ على ذكر الاعداد العشرية الهندية ما شرحه « ان العرب لم ينقلوا الارقام الهندية من بلادها رأساً وانما اخذوها من السريان كما توصلوا الى علوم اليونان بواسطتهم ايضاً . ولولا السريان لفات العرب معارف كثيرة ». المشرق ١٤ (١٩١١) ٢٣٩

(٢) من المقرر ان القلم السطرنجيلي نشأ في القرن الاول للتاريخ المسيحي، وخصصه السريان بكتابة اسفار الاناجيل المقدسة كما يستفاد من اصل وضع لفظه ومن وفرة نسخ الاناجيل المكتوبة به والمصونة في اشهر مكتبات الدنيا . وقد اثبت السيد اقليميس يوسف داود المعروف بدقة نظره واتساع علمه هذه الحقيقة في مقدمة كتابه (اللمعة الشهية) . ثم عم استعمال القلم السطرنجيلي في اغلب المخطوطات حتى اقتبسه العرب قبل الهجرة بمائة سنة . وكان الخط السطرنجيلي من دواعي النهضة العربية وعنه تخلف الخط الكوفي . وكلا الخطين السطرنجيلي والكوفي متشابهان متقاربان . (تاريخ التمدن الاسلامي مجلد ٣ صفحة ٥٣).

ان نشير الى بعضهم كافرهاط الحكيم (+ ٣٣٧) مؤلف كتاب البراهين. واوسابيوس القيصري (+ ٣٤٠) اقدم المؤرخين الكنسيين. وشمعون برصبّاعي (+ ٣٤٠) وبابو (+ ٣٤٣) واولغاش (+ ٣٦١) وباسيليوس الكبير (+ ٣٧٣) وغريغوريوس النزينزي (+ ٣٨٩) وماروثا الميافرقيني (+ ٤٢٠) الطبيب الشهير والمؤرخ الكبير. وكيرلس الاسكندري (+ ٤٤٤) وتئودوريط القورشي (+ ٤٥٨) المؤرخ الجليل. وسرجيس الراسعيني (+ ٥٣٦) كان إمام عصره في الطب والمنطق والفلسفة والترجمة . واحرز شأناً معتبراً لدى اقطاب السياسة وسافر بمهمات خطيرة الى انطاكية ورومة والقسطنطينية فنجحت مساعيه . وقد خلف ثروة علمية كبيرة نكتفي منها بذكر كتابه في المنطق والفلسفة الذي يملك المتحف البريطاني في لندن نسخة منه قديمة العهد جداً .

وفي السنة ٥٦٠ للمسيح اشتهر حنّان الحديابي الذي الف كتباً كثيرة . وقال عنه عبديشوع الصوباوي « انه كان يقرأ عليه زهاء ثمانمائة طالب » . ومن علماء القرن السابع يوحنا ازرق الذي صنّف كتباً شتى ومائتين وثمانين رسالة . وايسيدورس ناظر مكتبة بطريركية الاسكندرية في اوائل القرن السابع ايضاً (١) . وتئوفيل الرهاوي (+ ٧٨٥) كبير المنجّمين في الدولة العباسية ومترجم الياذة هوميرس بالشعر السرياني. وبرحدبشابا العربي. وبود البريذوط ناقل كتاب « كليلة ودمنة » من الهندية الى السريانية.

ومن مشاهير العلماء المشارقة بطرس الرقي (٢) (+ ٥٩١) وماروثا التكريتي (+ ٦٤٩) تلميذ مدرسة الشيخ متى بجوار الموصل . ويوحنا صاحب السذرات

---

(١) المشرق مجلد ١٤ (١٩١١) صفحة ٦٣٨

(٢) نسبة الى مدينة الرقة الواقعة على شاطىء الفرات

(+ ٦٤٩) وجورجي اسقف العرب (+ ٦٨٨). ويوحنا الدمشقي (+ ٧٤٩) الذي انقطع الى التآليف الفلسفية واللاهوتية والموسيقية . وقد نُقلت تصانيفه هذه الى اللغة العربية منذ عهد بعيد. ومنهم انطون التكريتي الملقب بالفصيح. وتوما المرجي مؤلف كتاب « الرؤساء » وكان من مشاهير المؤرخين في عصره. ويشوع دناح البصري في اواخر القرن الثامن. وقد نشر تآليفه المستشرقان يوحنا شابو وبولس بيجان في باريس . وموسى بن كيفا (+ ٨٣٣) صاحب التصانيف الجمة وتلميذ مدرسة بلد بين سنجار والموصل.

الفصل الخامس

احصاء بعض مدارس النصارى واديارهم في صدر الاسلام

من الادلة الراهنة على ثقافة شعوب البلاد التي افتتحها العرب ما كان منتشراً فيها من المدارس العامرة او الاديار الزاهرة . وقد ذكرنا في الفصل السابق مهات تلك المدارس ومشاهير اساتذتها وفريقاً من المتخرجين فيها. اما الان فاننا نسرد احصاءً موجزاً لتلك المعاهد العلمية في صدر الاسلام وبعده مستندين في كلامنا الى ما رواه المؤرخون الثقات عرباً وغير عرب .

١ ـ مدارس الرها وطور عبدين واسيا

اثبت المؤرخ الرهاوي الذي عاش في القرن الثاني عشر للميلاد ثمانية اديار او مدارس بمدينة الرها في القرن الرابع . ثم استتلى قائلاً : « انه كان اذ ذاك في جبل لرها تسعون الف راهب» (١). وايد القلقشندي هذه الرواية عند ذكره مدينة لرها اذ قال (٢) : « وكان بها كنيسة عظيمة وفيها اكثر من ثلاثمائة دير ».

اما مدارس سائر بلاد ما بين النهرين واديارها فمنها : واحد وثلاثون ديراً في ماردين وضواحيها (٣) . ومنها اكثر من مائة مدرسة او دير في جبل الازل

---

(١) تاريخ الازمنة : للرهاوي : فصل ٤٣ صفحة ١٠٦ و ١٠٨ طبعة دير الشرفة

(٢) صبح الاعشى : للقلقشندي : مجلد ٤ صفحة ١٣٩

(٣) لمعه تاريخية في اديار ماردين (المشرق مجلد ١٢ سنة ١٩٠٩ صفحة ٧٦٠-٧٧٠)

وطور عبدين (١) بالجزيرة . وابتنى يوحنا الافسوسي مطران اسيا المؤرخ الشهير في عهد الملك يوسطنيان (٥٢٧ - ٥٦٥ م) اثني عشر ديراً او مدرسة (٢)

٢ - مدارس انطاكية وافاميا ودمشق وحلب وضواحيها

اثبت مخطوط المتحف البريطاني المنسوخ في القرن السادس للميلاد اسماءَ مائة واربعة وعشرين مدرسة او ديراً ضم اليها اسماءَ رؤسائها واحداً فواحداً . وكانت هذه المعاهد منتشرة في انحاء انطاكية واطراف دمشق (٣) .

ولا يسعنا السكوت عن دير مار مارون الذائع الشهرة الذي كان مشيّداً على شاطىء العاصي بجوار افاميا . وقد وصفه المسعودي في القرن العاشر للميلادبقوله : « ان هذا الدير كان شرقي شيزر ... بقرب نهر الارنط نهر حمص وحماة » (٤) . وأيد هذه الحقيقـةالمستشرق « نو » الفرنسي اذ قال: «ان دير القديس مارون كان قريباً من افاميا في وادي العاصي » (٥) وكان يسكن هذا الدير يوم عزّه ثمانمائة راهب من افاضل العلماء . ونجمل الكلام عن دير مار مارون بما اثبته المسعودي اذ قال (٦): «ودير مارون بنيان عظيم حوله اكثر من ثلاثمائة صومعة فيها رهبان. وكان فيه من آلات الذهب والفضة والجوهر شيء عظيم فخرب هذا الدير وما حوله من الصوامع بتواتر الفتن ». وذكر ابن العميد (+ ١٢٧٣ م) في تاريخه ان هرقل

---

(١) سياحة في طور عبدين : للخوري اسحق ارملة : من الصفحة ١ - ٦٨

(٢) تاريخ ميخائيل الكبير : صفحة ٢٢٤

(٣) فهرس مخطوطات المتحف البريطاني : رقم ٧٥٤ صفحة ٧٠١ - ٧١٤

(٤) التنبيه للمسعودي : صفحة ١٦٣

(٥) Opuscules Maronites : II, 22

(٦) التنبيه : للمسعودي صفحة ١٩٣

قيصر (٦١٠ – ٦٤١ م) زار عام ٦٢٨ م دير مار مارون ووقف عليه اوقافاً جمة ([١]) .

وهناك الى جانب افاميا اديار او مدارس عديدة اشهرها دير بسّوس وكان عدد رهبانه ستة آلاف وثلاثمائة راهب ([٢]). وذكر المؤرخ ثاودريط ديراً بقرب افاميا يقال له دير «نقيرتا». وقد شيّد فيه اغابيط معهدين كبيرين لتعليم «الحكمة السماوية» وجمع فيهما فوق المائتي راهب ([٣]) .

واشتهرت المدارس والاديار في ضواحي دمشق الشام كداريا وصيدنايا ومعاولا وتل الاكراد وكفرسوسة وحلبون وكفرحور وراشيا وبيتيا ودير عطية وقارا ويبرود والنبك والقريتين وغيرها. ومن اشهر تلك الاديار دير مار ايوني ودير مار توما ودير باعنتل ودير ماران وكان المسلمون ينزلونها ويسكنون في بعضها ([٤])

وقس على دمشق مدينة حلب الشهباء وكان بينها وبين انطاكية عدد وافر من المدارس والاديار كمدارس مار سمعان وترعيل وتل عدا الخ الخ .

٣ـ مدارس النصارى واديارهم في بلاد العرب

أحصى ياقوت الرومي في معجمه ويشوعيهب الحديابي في تاريخه وغيرهما من المؤرخين المسلمين والنساطرة اسماء اديار كثيرة في انحاء البلاد العربية. من جملتها

---

(١) مجموعة الآباء : تأليف (مين) : جزء ٩١ صفحة ١٠٨٩ وتاريخ ابن العميد : مخطوطة دير الشرفة رقم ١٦ ـ ٤

(٢) دير مار بسوس : تأليف شابو صفحة ٦١

(٣) مجموعة الآباء: تأليف (مين) : جزء ٨٢ صفحة ١١٣٨

(٤) محاضرات المجمع العلمي العربي بدمشق : جزء ١ صفحة ٣٤٣

اثنا عشر ديراً او مدرسة في الحيرة وحدها (١) وسرد غير واحد من المؤرخين اسماء ثلاث وعشرين مدرسة في كركوك وكشكر والبصرة ومرو (٢).

وعدد المؤرخ توما المرجي في « كتاب الرؤساء » اسماء اربع وعشرين مدرسة أسسها باباي (+ ٦٢٨) الكبير. وروى المؤلف عينه ان باباي المذكور ابتنى ستين مدرسة في اطراف مرجا بجوار الموصل. وجعل لها اساتذة وعين لهم الرواتب وكان يختلف اليها مرتين في السنة (٣).

واثبت المؤرخ يشوع دناح البصري في القرن الثامن للميلاد اسماء اكثر من مائتي دير او مدرسة مع نتف من تراجم رؤسائها. وكانت تلك الاديار اوالمدارس مشيدة في قلب بلاد العرب واطرافها (٤).

٤ ـ مدارس النصارى واديارهم في القطر المصري

لم تكن الاديار والمدارس في القطر المصري مما يستهان بكثرتها ووفرة رهبانها المنصرفين الى الدرس والعبادة . فقد روى الانبا مكاريوس في تاريخه الخطي ان عدد اديار الرهبان والراهبات بلغ الستمائة في عهد الانبا بطرس الرابع (٥٦٧ – ٥٦٩ م) بطريرك الاقباط الاسكندري (٥) .

وقال المقريزي انه كان قديماً في وادي هبيب اي وادي النطرون غربي مصر مائة دير للرهبان . وانه لم يبق منها في ايامه اعني في القرن الخامس عشر للميلاد

---

(١) تاريخ كلدو وآثور : تأليف آدي شير، جزء ٢ صفحة ٢٦٨

(٢) تاريخ كلدو وآثور : جزء ٢ صفحة ٢٦٩

(٣) كتاب الرؤساء : لتوما المرجي : ميمر ٣ راس ٣ صفحة ١٢٥ - ١٢٦

(٤) كتاب العفة : تأليف يشوع دناح طبع باريس سنة ١٩٠١

(٥) وادي النطرون : للامير عمر طوسون صفحة ١٦١

سوى سبعة اديار عامرة. وصرح المقريزي عينه في خططه(١) انه «خرج الى عمرو بن العاص من هذه الديارات سبعون الف راهب بيد كل راهب منهم عكاز. فسلموا عليه وكتب لهم كتاباً هو عندهم» . ثم ذكر المقريزي (٢) ايضاً ان الانبا بيشاي تلميذ الانبا شنودين او شنوده «صار من تحت يده ثلاثة آلاف راهب» . وكانت اوقاف هذا الدير تقدّر بمبلغ سبعة وستين الفاً واربعمائة وسبعين جنيهاً (٣)

٥ ـ شهادة احمد امين على مدارس السريان واديارهم ومكتباتهم

قال الاستاذ البحاثة السيد احمد امين في كتابه «ضحى الاسلام» ما نصه (٤) : «وكان للسريان في ما بين النهرين نحو خمسين مدرسة تُعلم فيها العلوم السريانية واليونانية ، اشهرها مدرسة الرها ونصيبين وقنّسرين. وكانت هذه المدارس يتبعها مكتبات ... وكان في الاديار السريانية كثير من الكتب المترجمة لا في الآداب النصرانية وحدها بل كان من ذلك ايضاً تراجم لمؤلفات ارسطو وجالينوس وابقراط. لان هؤلاء كانوا محور الدائرة العلمية في ذلك العصر. وكان السريان نَقَلة الثقافة اليونانية الى الامبراطورية الفارسية ايام الساسانيين واخذت هذه البذرة اليونانية في الازدهار حتى ايام العباسيين».

***

تلك نظرة قصيرة القيناها على المدارس النصرانية في الاقطار التي افتتحها العرب. وقد نقلناه عن تآليف العرب والاقباط والسريان واليونان قديماً وعن تصانيف الافرنج حديثاً. فعلى من شاء التوسع في هذا الموضوع ان يراجع تلك التآليف وامثالها فيستفيد ويفيد.

---

(١) الخطط للمقريزي : جزء ٢ صفحة ٥٠٨

(٢) الخطط للمقريزي : جزء ٢ صفحة ٥٠٧

(٣) الاقباط في القرن العشرين : تأليف رمزي تادرس: جزء ٤

(٤) ضحى الاسلام : لاحمد امين : جزء ٢ صفحة ٥٩ ـ ٦٠

الفصل السادس

نقل العلوم الدخيلة الى اللسان العربي

١ ـ لغة الدواوين الرسمية على أثر الفتح العربي

بعد حلول العرب في الامصار الواسعة التي اشرنا اليها في فصل سابق ظلّ هؤلاء في بادىء الامر على بداوتهم واستخدموا الوطنيين من اهل الذمة في مناصب حكومتهم. فكانت اليونانية لغة دواوينهم في بلاد سوريا وما بين النهرين كما كانت في عهد مملكة الروم. وظلت الفارسية لغة دواوينهم في العراق وفارس مثلما كانت في عهد دولة الفرس . واستمرت القبطيــة لغة دواوينهم في مصر على ما كانت عليه في ايام دولة الرومان. ولم ينقض القرن الاول للهجرة حتى استتبت سيادة العرب فجعلوا العربية لغة دواوينهم الرسمية واضطروا رعاياهم في كل الانحاء الى مكاتبتهم بها بدلا من اليونانية والفارسية والقبطية .

٢ ـ حاجة العرب الى علوم الاعاجم

شعر ابناء الصحراء بعد امتزاجهم بالاعاجم ذوي الثقافة العالية انهم لا يستطيعون توطيد ملكهم الضخم وتأييد عزّهم الفخم الا اذا كانوا على مستوى واحد في الحضارة والادب مع الامم التي اغاروا عليها فاكتسحوها. وايقنوا انهم لا يتيسر لهم مجاراة تلك الامم الا اذا تحضروا مثلها واقتبسوا علومها ونقلوها الى لسانهم العربي. وقد رسخ في اذهانهم انهم بتعزيزهم هذا اللسان يضمنون السيادة في ممالكهم كما يضمنون سيادة لغتهم التي هي لغة القرآن كي لا يعروها وهن او انحطاط. فعوّلوا على ترجمة العلوم الدخيلة وظلت هذه الفكرة تختمر في اذهانهم شيئاً فشيئاً مذ عهد بني اميّة حتى اقرّوها بالعمل في دولة بني العباس.

واثباتاً لما كانت عليه الحالة العلمية عند العرب من الخمول والتقهقر نروي ما دوّنه القاضي ابو القاسم صاعد بن احمد بن صاعد الاندلسي (١) قال: « وكانت العرب في صدر الاسلام لا تُعنى بشيء من العلم الا بلغتها ومعرفة احكام شريعتها حاشا صناعة الطب. فانها كانت موجودة عند افراد من العرب غير منكرة عند جماهيرهم لحاجة الناس طراً اليها... فهذه كانت حالة العرب في الدولة الاموية. فلما ازال الله تعالى تلك الدولة بالهاشمية وصرف الملك اليهم ثابت الهمم من غفلتها وهبت الفطن من سِنتها. فكان اول من عُني منهم بالعلوم الخليفة الثاني ابو جعفر المنصور عبدالله بن محمد بن علي بن عبدالله بن العباس بن عبد المطلب بن هاشم...».

٣ ـ ما اقتبسه العرب من العلوم الدخيلة

يُراد بالعلوم الدخيلة جميع العلوم الشائعة في الامصار التي فتحها العرب في القرن السابع للمسيح. وهي زبدة المعارف التي محصها الفلاسفة والعلماء والادباء على اختلاف اديانهم ونحلهم وبلدانهم ولغاتهم منذ العصور القديمة حتى الفتح الاسلامي. وفي تلك الزبدة تنحصر علوم الامم الغابرة كالاشوريين والبابليين والآراميين والمصريين والفينيقيين والحثيين والفرس واليونان والرومان والهنود الخ. ولا نعني بهذا القول ان العرب اقتبسوا علم كل امة عن ائمته توّاً. لكننا نقول انهم اخذوا تلك العلوم بعدما تمحصت ونضجت وارتكزت على قواعد ثابتة. واجتمع معظمها على كرور الازمنة عند اليونان خصوصاً فهذّبوها ورقّقوها وزادوا عليها وجعلوها قريبة التناول. ثم احرز العرب تلك العلوم عن طريق الترجمة كما سنبيّنه فيما بعدُ. فاحسنوا انتقاء الافضل منها واستخرجوا من ذلك كلهِ علوم التمدّن الاسلامي. وقد نقلوا من علوم تلك الامم في قرن وبعض القرن ما لم يتوفّق الرومان الى نقل بعضه في قرون شتّى.

---

(١) كتاب طبقات الامم: الباب الرابع: ٧

٤ ـ رُسل المأمون الى بلاد الروم في جمع الكتب

اول من جمع اليه العلماء والفلاسفة لتحقيق هذه الامنية كان الخليفة العربي ابو جعفر المنصور (١٣٦ – ١٥٨ هـ) الذي بنى مدينة بغداد واتخذها سريراً للدولة العباسية . واشتهر بعده بل تفوّق عليه الخليفة السابع عبد الله المأمون (١٩٨ – ٢١٨ هـ) بن هرون الرشيد . فانه وجه اهتمامه الى اعلاء شأن العلم وتكريم ذويه بما لايدخل تحت الوصف . ولأجل ذلك بعث رسله وارصاده الى البلاد الخاضعة لصولجان ملوك الروم ليجمعوا له ما دوّن القدماء في العلوم والفنون والصناعات التي كانت مجهولة عند العرب. فاختاروا منها كل مفيد في الهندسة والفلسفة والطب والفلك والرياضيّات والكيمياء والموسيقى وغيرها . وبين الذين انفذهم المأمون لجمع الكتب كان ثلاثة من جهابذة النصارى وهم يوحنا بن البطريق والحجاج بن مطر وابو زكريا يوحنا بن ماسويه .

وكان احد شروط معاهدة الصلح بين المأمون وبين ميخائيل الثالث قيصر الروم ان يتنزل الثاني للاول عن احدى المكتبات الشهيرة في القسطنطينية . وكان بين ذخائرها الثمينة كتاب بطليموس في الفلك . فأمر المأمون بنقله الى اللغة العربية وسماه «المجسطي» (١)

٥ ـ اهتمام المأمون بالعلوم الدخيلة واجلاله للعلماء

تمّ للمأمون ما اراد فاستدعى نوابغ المترجمين الاعاجم وقربهم اليه وافاض

(١) اسم المجسطي غريب وكان عنوانه باليونانية (مجيالي سنتا كسيس) قيل ان العرب اخذوا نصف الاسم الاول (ميجا) ثم نصف الثاني (كسيس) فقالوا : ميجا كسيس ثم حولوه فقالوا : المجسطي. (نقلا عن محاضرات المستشرق اغناطيوس غويدى في الجامعة المصرية عام ١٩٠٨ و ١٩٠٩ : صفحة ١٠ ـ ١١)

عليهم المنح والعطايا ، ورتب لهم الدواوين في « بيت الحكمة » واطلق لهم الحرية ليكبوا على العمل بانتظام . ثم عهد في تعريب العلوم الدخيلة الى الخبراء بلغاتها بلوغاً الى الغاية المنشودة . فترجموا له كتب افلاطون واريسطو وابقراط وجالينوس واقليدس وبطليموس وغيرهم من الفلاسفة على غاية ما امكن من الدقة والامانة . ثم حض الادباء على مطالعتها ورغّبهم في تعلمها واذاعتها. هكذا نفقت سوق الآداب وتعززت دولة الفلسفة والطبابة في ايامه . وتنافس ألو النباهة في اقتباس المعارف على اختلاف انواعها (١)

وجرى على خطة المأمون اكثر خلفائه فرفعوا شأن اللغة العربية بين سائر اللغات . ولولا المأمون لغاب عن ابناء الضاد كثير من العلوم المدّونة باللغات اليونانية والسريانية واللاتينية والعبرية والفارسية والهندية وغيرها . وبالتالي فان علماء اوروبا انفسهم مديونون للمأمون بالفضل لانه حفظ لهم كتباً جمّة صُنّفت في لغاتهم ثم فقدوها بتوالي الايام . ولو لم تُنقل تلك المصنفات الى العربية بعناية هذا الخليفة لطمسها الزمان كما طمس غيرها من كتب الاوائل مما سمعنا به ولم نرَه .

ومن اشهر تلك الكتب وانفسها واقدمها كتاب « الفلاحة النبطية » الذي انشأه ابن وحشيّة الكلداني ثم ترجم الى اللسان العربي في صدر الدولة العباسية .

ومما يؤثر عن المأمون انه لشدّة ولعه بالعلم والصناعة كان يتعاطاهما بنفسه وينشط المفكرين في رعيّته الى الاستفادة منها . وكان مجلسه لايخلو من الحكماء والعلماء والشعراء على اختلاف مللهم وتشعّب نحلهم . فكان يحببهم اليه ويشملهم برعايته ويكرّمهم في بلاطه . وكان اذا صرفهم من مجلسه او من خدمته استوحش مؤانستهم . وكانوا هم بدورهم يغتبطون كل الاغتباط بقربه ويستأنسون كل الاستئناس بعشرته وملاطفته .

---

(١) مآثر العرب في العلوم الطبية : للدكتور سامي حداد : صفحة ١٥

الفصل السابع

مصادر العلوم الدخيلة ومشاهير نقلتها

تُقسم الكتب العربية التي نقلها علماء الاعاجم بعد الفتح الاسلامي الى اربعة مصادر نسردها كما يلي : الهندي والفارسي واليوناني والسرياني

١ ـ الكتب الهندية ومعربوها

فالكتب الهندية المترجمة الى اللغة العربية قد اثبت التاريخ بين مشاهير نَقَلتها اسماء العلماء الآتي ذكرهم : اولهم منكه الهندي وكان مع اسحق بن سليمان بن علي الهاشمي ينقل من اللغة الهندية الى العربية. ثانيهم ابن دهن الهندي وكان اليه مرستان البرامكة نقل ايضاً من الهندي الى العربي (١). ثالثهم يحيي البرمكي ثم صنجهل وشاناق وغيرهم .

وفي ايام ابي جعفر المنصور قدم بغداد قوم من علماء الهند ومعهم كتاب جليل في النجوم وضعه قدماء تلك البلاد يُدعى «السندهند» وفي السنسكريتية «سيدهنتا». فتقدم المنصور الى ابي اسحق ابرهيم بن حبيب الفزاري (٢) فعرّبه له . قال ابن النديم (ص ٢٧٣): «هو اول من عمل في الاسلام اسطرلاباً وعمل مبطحاً ومسطحاً. وله من الكتب كتاب القصيدة في علم النجوم وكتاب الزيج على سني العرب وكتابان في العمل بالاسطرلاب ذات الحلــق والمسطح» . وقيل ان الذي عرّب «السندهند » هو محمد بن موسى الخوارزمي عرّبه للمامون. والارجح انه صححه فقط.

---

(١) تاريخ آداب اللغة العربية : مجلد ٢ صفحة ٣٣

(٢) في مجلة الضياء ٢ : ٣١ « محمد بن الفراوي » وهو غلط

قال صاحب الفهرست (ص ٢٧٤): «وكان الناس قبل الرصد وبعده يعوّلون على زيجيه الاول والثاني ويُعرفان بالسندهند» (١)

٢ - الكتب الفارسية ومعربوها

اما نَقلة كتب الفرس فقد اورد التاريخ في مقدمتهم اسم عبدالله بن المقفّع (١٠٦ - ١٤٢ للهجرة) الذي ترجم كليلة ودمنة عن الفارسية (٢). وألفّ ابن المقفّع كتاب «سير ملوك العجم» وكتاب «الادب الكبير» وكتاب «الادب الصغير» وغيرها. ومن مشاهير النَقلة عن الفارسية ابو العباس بن درستويه، وابو معشر البلخي، وحبيش الحاسب، واحمد بن كثير الفرغاني. ومنهم ابناء موسى الخوارزمي النحلة، وعلي بن زياد التميمي، وموسى ويوسف ابنا خالد، والحسن بن سهل، واسحق بن يزيد، وجبلة بن سالم، واحمد بن يحيى البلادري، وموسى بن عيسى الكردي، ومحمد بن الجهم البرمكي.

وممن امتاز بنقل تآليف الفرس يحيى بن خالد البرمكي الفارسي الاصل الذي سعى في جمع الكتب من الهند واعتنى بترجمة بعض العلوم الفارسية والهندية الى اللسان العربي (٣). ثم آل نوبخت وقام منهم ابو الفضل سهل بن نوبخت فانه نظم كتاب «كليلة ودمنة» شعراً. وجاء بعده الفضل بن نوبخت الذي نقل كتباً شتى في النجوم وغيرها.

ولا يخفى ان فريقاً من النَقلة عن اللغة الفارسية كانوا من النصارى وكان البعض الآخر من المسلمين الاعاجم. وقد حبب اليهم هذا العمل اعجابهم

---

(١) المشرق : مجلد ٣ سنة ١٩٠٠ صفحة ٦٧٤ و ٦٧٥

(٢) وضع هذا الكتاب اول بدء بالهندية. ثم نقله برزويه المتطبب الى الفارسية وعن الفارسية نقله ابن المقفع الى العربية

(٣) دائرة معارف القرن العشرين لمحمد فريد وجدي: مجلد ٨ صفحة ٦٧

بلغتهم الفارسية ومفاخرتهم بنقـــل مؤلفات أجـــدادهم الى اللسان العربي الذى احكموا معرفتهُ وملكوا ناصيتهُ . ومُعظم الكتب التي نقلوها عن الفارسية محورها الادب والشعر والتاريخ والتنجيم والموسيقى والحساب والصناعات وغيرها .

٣ ـ الكتب اليونانية والسريانية ومترجموها

اما التصانيف اليونانية والسريانية فقد تولى ترجمتها علماءُ فطاحل من السريان النساطرة واليعاقبة والملكيّين والصابئة الذين تخرّجوا في مدارس الاسكندرية وانطاكية والرها ونصيبين والمـــدائن والحيرة وقنّسرين ودير تلعدا وقرتين وجنديسابور وغيرها. وكانت لهم ثقافة راسخة تستند الى الادب استنادها الى العلم. فكانوا في مجالسهم يتداولون شتّى المواضيع الأدبية ويتناشدون المقاطيع الشعريّة في اللغات العربية والسريانية واليونانية .

انصرف هؤلاءِ الجهابذة الى الترجمة والتـــأليف اناءَ الليل وأطراف النهار لا يأخذهم كلال . لانهم احكموا ضوابط اللغات المشار اليها ووقفوا على اوابدها وشواردها . وصنّفوا وعرّبوا كتباً جديرةً بالاعتبار في كل علمٍ وفنٍ ومطلبٍ . ولم يدَعوا وسيلة الاّ استنفذوها لاعلاء شأن العلوم العربية في عهد الخلافة العباسية التي خدموها بامانتهم ومعارفهم واصالة رأيهم .

واحصى المؤرخون تلك التصانيف الرائعة ووصفوها وصفاً بليغاً. كأبي الفرج الورّاق الشهير بابن النديم في «الفهرست» . وجمال الدين القفطيّ (٥٦٣ — ٦٤٦ﻫ) في « اعلام العلماء باخبار الحكماء » . وابن ابي اصيبعة موّفق الدين (٦٦٨ للهجرة) الطبيب المؤرخ في كتابه «عيون الانباء في طبقـــات الاطباء» . وابي الفرج ابن العبريّ (١٢٨٦ م) في « تاريخ مختصر الدول» ومُلاّ كاتب المشهور بابن خليفة (١٠٠٤ — ١٠٦٧) للهجرة) في «كشف الظنون عن اسامي الكتب والفنون»

والاب لويس شيخو (١٨٥٩ – ١٩٢٧) في كتابية «المخطوطات العربية لكتبة النصرانية » . وجرجي زيدان (١٨٦١ – ١٩١٤) في كتابه « تاريخ التمدن الاسلامي » و « تاريخ الآداب العربية » ويوسف ليان سركيس في كتابه «معجم المطبوعات العربية والمعربة » الخ الخ .

٤ – آل بختيشوع في بلاط العباسيين

تعاقب الرجالات من آل بختيشوع منذ القرن الثامن حتى القرن الحادي عشر في خدمة الخلفاء العباسيين وطبابتهم واولهم جرجيس (+ ٧٦٩ م) بن بختيشوع وكان رئيس اطباء جنديسابور ببلاد الفرس. استقدمه ابو جعفر المنصور من عيلام فعالجه جرجيس وشفاه . ونقل هذا الرئيس كثيراً من كتب اليونان والسريان والفرس الى اللغة العربية.

اما ثاني اطباء هذه الأسرة فكان بختيشوع بن جرجيس طبيب هارون الرشيد. وثالثهم جبرائيل (+ ٨٢٨ م) بن بختيشوع طبيب المأمون. وكان يقبض رواتب نقدية بعضها من بيت مال العامة والبعض الآخر من بيت مال الخاصة. وقد بلغ المجموع السنوي لتلك الرواتب ما يوآزي في عهدنا اربعة ملايين وتسعمائة الف دينار كما وجدوه مدوناً بخط كاتبه (١).

ورابع آل بختيشوع طبيب طلحة بن جعفر المتوكل. وخامسهم بختيشوع بن يوحنا (+ ٩٤١ م) طبيب الخليفة المقتدر . وسادسهم جبرائيل بن عبيد الله بن بختيشوع (+ ١٠٠٥ م) صاحب الكناش الذي اسماه « الكافي » وكتبه في خمسة مجلدات. وسابعهم بختيشوع ابو سعيد عبيدالله بن جبرائيل (+ ١٠٣٢ م) وثامنهم عبيد الله بن جبرائيل بن بختيشوع (+ ١٠٥٨ م) الذي صنف في الطب وغيره كتبا وافرة. منها كتاب « تذكرة الحاضر وزاد المسافر » (٢)

---

(١) طبقات الاطباء : لابن ابي اصيبعة : جزء ١ صفحة ١٣٦

(٢) نشر هذا الكتاب القس بولس سباط في القاهرة سنة ١٩٢٧

فهؤلاء الاطباء آل بختيشوع صنفوا في اللغة العربية اسفاراً منطقية وطبية وفلسفية احصى الاب لويس شيخو طائفة منها في كتابه « المخطوطات العربية لكتبة النصرانية » فلا نرى حاجة الى تعدادها .

٥ - ثيودورس ابو قرة وثيوفيل الرهاوي ومعاصروهما

من مشاهير المؤلفين في اللغة العربية الفصحى ومن كبار تراجمتها نذكر ثيودورس ابا قرّة (+٨٢٠م) تلميذ يوحنا الدمشقي واسقف حرّان الملكي. وهو منشىء الميامر البليغة وصاحب المجادلات مع شيوخ المسلمين بحضور الخليفة المأمون. ول جدال ايضاً مع ابي رائطة اليعقوبي وعبديشوع النسطوري . ولابي قرّة في المتحف البريطاني خطبة دينية في مخطوط نُسخ سنة ٨٧٧ للميلاد . وذهب الاب لويس معلوف اليسوعي الى ان هذا المخطوط هو اقدم مخطوط عربي نصرانيّ على الاطلاق (١) . لكننا بعد البحث والتنقيب ثبت لنا ان اقدم مخطوط عربي نصراني يرجع تاريخ نسخه الى السنة ١٥٥ للهجرة الموافقة للسنة ٧٧١ للميلاد، اعني مائة وخمس سنوات قبل تاريخ مخطوط لندن . وهو مصون في مكتبة دير سينا (٢) وسنتكلم عنه في بحثنا عن هذه المكتبة في الفصل السادس من الباب الخامس .

وممن اشتغل باللغة العربية بعد ابي قرّة نذكر : عيسى بن شهلاثا ، وعيسو الصيدلاني طبيب المهدي ، وثيوفيل بن توما الرهاوي (+ ٧٨٥ م رئيس منجمي الخليفة المهدي . ويشوع بن نون (+ ٨٢٠ م الجاثليق . وطيمثاوس الكبير (+ ٨٢٣ م) الجاثليق الذي عرض

---

(١) المشرق : مجلد ٦ سنة ١٩٠٣ صفحة ١٠١١

(٢) مكتبة دير سينا : بقلم يسىّ عبد المسيح (مجله الراعي الصالح بالاسكندرية : مجلد سنة ١٩٤٠ صفحة ٤٩)

عليه الخليفة المهدي سبعة وعشرين سؤالا عن النصرانية فأجابه عليها (١) . ويوحنا بن البطريق الملقب بالترجمان . وجبرائيل الكحال طبيب العيون وكان طبيباً للمأمون . والحجّاج يوسف بن مطر الذي ازهر في القرن التاسع للميلاد وعدّد ابن النديم منقولاته (٢) . ومن تلك المنقولات العديدة كتاب « اصول اقليدس » وكتاب « المجسطي » لبطلموس.

وانضم الى هؤلاء التراجمة عبدالمسيح الحمصي في عهد الخليفة المعتصم (٨٣٣-٨٤٢م) ثم ايوب الابرش الطبيب الذي عاش في القرن التاسع للميلاد . فانه نقل كتباً من مصنفات اليونانيين الى اللغتين العربية والسريانية (٣) .

٦ - يوحنا بن ماسويه وثقة العباسيين بطبابته وامانته

من اشهر مشاهير النَقلة ابو زكريا يوحنا بن ماسويه (+٨٥٧ م) طبيب اربعة من الخلفاء العبّاسيين اعني المأمون والمعتصم والواثق والمتوكل الذين عالجهم وطبب مرضاهم . وكان ابو زكريا رئيس اعظم مدرسة ازدحم الطلاب على ابوابها في دار السلام (٤) . وعدّد ابن ابي اصيبعة (٥) تآليف هذا العلامة التي بلغ عددُها اكثر من اربعين مؤلفاً لم يبقَ منها الا الكتب الآتي بيانُها وهي : كتاب «نوادر الطب» وكتاب «الكامل في الطب» وكتاب « الحمّيّات »تُرجم الى اللاتينية والعبرانية . وكتاب «جواهر الطب » وكتاب «ماء الشعير» وكتاب «الادوية المسهلة» . وكان الخلفاء المشار اليهم لايتناولون طعاماً الا بحضرته لشدة ثقتهم بامانته ومهارته . وكان مجلسُه ببغداد اعمر مجلسٍ يجمع الطبيب والفيلسوف والاديب والظريف (٦) .

---

(١) المخطوطات العربية لكتبة النصرانية : صفحة ١٤٠ للاب لويس شيخو
(٢) الفهرست : لابن النديم : صفحة ٢٤٣ - ٢٤٤
(٣) عيون الانباء في طبقات الاطباء : لابن ابي اصيبعة : جزء ١ صفحة ١٧٠
(٤) الآداب السريانية : تأليف روبنس دوفال في الفرنسية : صفحة ٢٧٢ و٣٨٦
(٥) طبقات الاطباء : مجلد ١ صفحة ١٧٥ - ١٨٣
(٦) خير الدين الزركلي : الاعلام : صفحة ١١٧٣

٧ - يعقوب الكندي فيلسوف العرب

لايقل عن ابن ماسويه فضلاً وعلماً معاصِرُهُ «فيلسوف العرب» يعقوب بن اسحق الكنديّ (+ ٨٦١ م) . وقد لُقّب بالكندي لتحدره من سلالة ملوك آل كندة ملوك العرب الاقحاح . وكان ابوه حاكم الكوفة في عهد الخلفاء المهدي والهادي وهرون الرشيد. وعدّد ابن النديم في «الفهرست» مؤلفاته فأوصلها الى مائتين وواحد وثلاثين مؤلفاً . فتأمل ! قال بعض المؤرخين : تحلّت دولة المعتصم بيعقوب الكندي وبمؤلفاته. وقال مؤلف « تذكرة الحكم » لم يشتهر بالفلسفة في الاسلام الا يعقوب الكندي (١) واحصاه المؤلف الايطالي كردن(٢) Cardan بين الاثني عشر عقلاً ساميًا التي ظهرت في العالم حتى القرن السادس عشر. وقد ضاع معظم مؤلفاته والباقي منها اكثره باللغة اللاتينية ترجمها جيراردو داكرامونا الاسباني. وكان في عهده سابور بن سهل + ٨٦٩) صاحب بيمارستان جنديسابور وله تصانيف مشهورة منها « الاقرباذين » .

٨ - حنين بن اسحق شيخ تراجمة الاسلام وتلامذته

من معاصري الكندي حنين بن اسحق (+ ٨٧٦) شيخ تراجمة الاسلام فانه ضارعه بالشهرة العلمية وبما وضعه من الكتب الوافرة تأليفاً ونقلاً. وكان الربان حنين طبيباً للمأمون والمتوكل على الله . وقد الف تبعاً لرواية ابن العبري خمسة وعشرين كتاباً خلا ما ترجمه عن اليونانيـة الى العربيـة . وبلـغ مجموع مصنفاته وترجماته مائة وخمسة عشر كتاباً . منها كتاب « المسائل في العين » ترجمه

---

(١) طبقات الامم : لصاعد الاندلسي : صفحة ٥٣ - وزبدة الصحائف في اصول المعارف : بقلم نوفل نوفل : صفحة ٤٥

(٢) راجع كتاب « تاريخ الفلسفة العربية » بقلم الاب نعمة الله المنداري : جزء ثان ص٤٩

الى اللغة الفرنسية القس برلس سباط والاستاذ ميرهون. ومما يجدر ذكره ان الخليفة المتوكل اطلق على الربان حنين بن اسحق لقب « رئيس الفلاسفة والاطباء » (١) تقديراً لعلمه .

واضاف الخليفة المتوكل الى ذلك انه نصب حنين بن اسحق مديراً لمكتب الترجمة في الدار التي كان المأمون قد انشأها وسماها « دار الحكمة » فاحسن ادارته وقد ترجم الربان حنين الى اللغة السريانية من كتب ارسطومايأتي : كتاب «العبارة» وكتاب «البرهان» وكتاب «الكون والفساد» وكتاب «النفس» وقسما من كتاب «ماوراءالطبيعة » ... وترجم الى اللغة العربية كثيراً من المصاحف الطبية والعلمية لبقراط وجالينس وارخميدس المهندس وغيرهم . ونقل كتبا فلسفية ككتب الجمهورية والشرائع وفلسفة الطبيعة لافلاطون . ومن ترجماته ايضاً المقولات والطبيعيات والخلقيات لارسطو ورسالته ووصيته للاسكندر (٢) الخ

وقد درس حنين اولاً في الاسكندرية ثم عاد الى بغداد فاستكمل دروسه على يوحنا بن ماسويه. ولم يزل امر حنين يقوى وعلمه يتزايد وعجائبه تظهر في النقل والتفاسير حتى صار ينبوعاً للعلوم ومعدناً للفضائل (٣) ومما يحكى عنه ان الخليفة العباسي كان يعطيه من الذهب زنة ما ينقله الى اللغة العربية من الكتب مثلاً بمثلٍ فكان حنين ينتقي للنساخة من القراطيس اثخنها واسمكها لتزداد زنتها فتزداد اجرته .

واقتفى آثار الربان حنين ابنه اسحق(+ ٩١١)الذي اورد ترجمته ابن النديم(٤) وقد بقي من مؤلفاته العديدة مايأتي : تعريبه لمقولات ارسطاطاليس ولوصية افلاطون وكتاب «المعطيات » لاوقليدس . ومنها كتابه « الادوية المفردة »

---

(١) مجلة «المنارة» في جونيه : سنة ١٩٣٥ ص٨٥٢
(٢) مجلة «النجم» في الموصل : السنة التاسعة صفحة ١٥ - ١٦
(٣) تاريخ مختصر الدول - لابن العبري : صفحة ٢٥١
(٤) الفهرست لابن النديم : صفحة ٢٧٥

الذي نقله نقولا الدمشقي الى اللاتينية . ومن تلامذة الربان حُنين ابن اخته حبيش بن حسن بن الاعسم الدمشقي الذي عرّب تآليف بقراط وجالينس . وألف كتاب « الزيادة في مسائل حنين » وكان احد كبار الناقلين من اليوناني والسرياني الى العربي (١)

٩ - ثابت بن قرة وسائر علماء الصابئة

اشتهر من الصابئة الحرّانيين نسبة الى حرّان بجوار الرها علماء كبار واطباء اجلاء تقلبوا في خدمة الخلفاء العباسيين وانشأوا تآليف معتبرة خلدت لنبوغهم ذكراً حسناً. وفي طليعة اولئك الفحول نذكر ثابت بن قرّة (+ ٩٠٢ م) الطبيب الشهير والرياضي الكبير منجم المعتضد بالله (٨٩٢ - ٩٠٢ م) فانه صنف كتباً جمة باللغة العربية ذكر بعضها ابو الفرج ابن العبري واثنى على بلاغة مؤلفها ثناءً عاطراً. وقال ان تآليفه العربية بلغت زهاء مائة وخمسين كتاباً(٢). ومما اطلعنا عليه من مؤلفات ثابت بن قرة كتاب « الذخيرة » الذي اعتنى بنشره الدكتور ج. صبحي سنة ١٩٢٨ نقلاً عن مخطوط ثمين يخص مكتبة بطريركية الاقباط في القاهرة. وعالج ابن قرة احد شعراء عصره فاصاب العافية . فانشد فيه ذلك الشاعر هذين البيتين :

هل للعليل سوى ابن قرة شافي	بعد الاله وهل له من كافي
فكأنه عيسى ابنُ مريم ناطقاً	يهب الحياة بايسر الاوصاف

وقام بعد ثابت ابن قرة ابنه سنان (+ ٩٤٤ م) الذي خدم الخلفاء المقتدر بالله والقاهر بالله والراضي بالله (٩٠٨ - ٩٤٠ م) . فانه خلف صفحة مجيدة في تاريخ

(١) تاريخ مختصر الدول : لابن العبري :صفحة ١٥٢
(٢) تاريخ الدول السرياني : لابن العبري : صفحة ١٦٨

الطب العربي عندما كان يدير « المارستان المقتدري » ببغداد . وقد امر الخليفة حين ذاك بمنع سائر المتطببين عن تعاطي هذه الصناعة الا من امتحنه سنان واذن له في ذلك. وكان عددهم ينيف على ثمانمائة وستين طبيباً سوى من استغنى عـــن امتحانه لاشتهاره في تلك المهنة (١).

وقام بعد سنان ابنه ثابت (+ ٩٧٣ م) وله تاريخ ذكر فيه الحوادث والوقائع التي جرت في زمانه من ايام المقتدر بالله حتى عهد الخليفة المطيع لله (٩٠٨ – ٩٧٤م) وليس لهذا التأليف من اثر في المكتبات.

ومن مشاهير علماء الصابئة ايضاً هلال بن المحسن بن ابرهيم (٩٧٠ – ١٠٥٦م) واخص تآليفه كتاب « الوزراء » وكتاب « غرر البلاغة » وكتاب « رسوم دار الخلافة » وكتاب « الاماثل والاعيان » وكتاب « ذيل تاريخ ثابت بن سنان » خاله اخي امه .

وهناك علماء آخرون من الصابئة خدموا الطبابة والعلوم. نذكر من اشهرهم : ابا اسحق بـن سنان وابن وصيف وابا اسحق ابرهـيم بن زهرون وابا الحسن بن ابرهيم بن زهرون (٢).

١٠ – سائر نقلة العلوم الدخيلة

نجمل في ما يلي اسماء فريق من نقلة العلوم الى اللغة العربية في عهد الخلفاء العباسيين: منهم يوسف الساهر المعروف بالقس في ايام المكتفي بالله (٩٠٢–٩٠٨م) وسمي بالساهر لانه كان لا ينام في الليل الا ربعه او ازيد قليلاً وهو ساهر في طلب العلم. ومنهم يشوع بن بهلول ويشوع بن علي الطبيب تلميذ حنين بن اسحق . وقد وضع

(١) طبقات الاطباء : لابن ابي اصيبعة : جزء ١ صفحة ٢٢٢
(٢) مآثر العرب في العلوم الطبية : للدكتور سامي حداد : صفحة ١٨

هذان اليشوعان معجماً في السريانية والعربية نشره المستشرق روبنس دوفال في باريس سنة ١٨٨٨ – ١٨٩٦ في ثلاثة مجلدات (١) . ومنهم عبد المسيح بن ناعمة الحمصي(٢) عاش في اوائل الدولة العباسية. ونقل عن اليونانية الى العربية والسريانية بعض الكتب. وعرب ابن ناعمة كتاب « السوفسطيقا » لأرسطو وكتاباً في « الطبيعيات ». اما تاريخ وفاته فمجهول (٣).

ونضيف الى هؤلاء فئةً اخرى من النقلة اليك اسماءَهم : قسطا بن لوقا البعلبكي الملكيّ (+٩٢٣ م) صاحب المصنفات والمعرّبات النفيسة التي عدّدها ابن النديم(٤) ونقل ابن ابي اصيبعة(٥) عن سليمان بن حسّانْ ان قسطا مسيحي النحلة طبيب حاذق نبيل فيلسوف منّجم عالم بالهندسة والحساب جيّد النقل فصيح باللسان السرياني واليوناني والعربي. وتآليفه ونقوله كثيرة: منها كتاب تاريخ اسمه «الفردوس» وكتاب « آداب الفلاسفة » وكتاب « اختلاف الناس في اخلاقهم » وكتاب « الاسطرلاب » وكتاب «اقليدس » وكتاب « رفع الاثقال » لهرون الاسكندري . وكتاب « آراء الفلاسفة في الطبيعيات » لفلوطرخس .

وبعد قسطا بن لوقا عرفنا العطّار عيسى بن يوسف طبيب الخليفة القاهر (٩٣٢ – ٩٣٤ م) . وابا بشر متى بن يونس المنطقي (+ ٩٤٠ م) استاذ الفارابي واحد كبار النقلة لكتب ارسطاطاليس. وقد وصفه ابوالفرج ابن العبري بقوله(٦) « اليه انتهت رئاسة المنطقيين في عصرهِ ومصرهِ » . وهو الذي نقل كتاب «سوفسطيقا » الى السرياني قبلما نقله يحيى بن عدي الى العربي (٧) وعرفنا كذلك يوحنا بن حيلان المتوفى في ايام الخليفة المقتدر بالله (٩٠٨-٩٣٢).

---

(١) غلب على هذا القاموس عنوان « معجم بز بهلول » احد المؤلفين
(٢) علم الادب : تأليف الاب شيخو : صفحة ٣٤٣
(٣) المشرق : مجلد ٣ سنة ١٩٠٠ صفحة ٦٧١
(٤) الفهرست لابن النديم : صفحة ٢٩٥
(٥) عيون الانباء في طبقات الاطباء : جزء ١ صفحة ٢٤٤
(٦) مختصر تاريخ الدول لابن العبري : صفحة ٢٨٥
(٧) كشف الظنون عن اسامي الكتب والفنون : لحاجي خليفة : مجلد ٢ صفحة ٢٨١

ومن العلماء او النقلة المبرّزين في تلك الحقبة نذكر يحيي بن عدي بن حميد بن زكريا التكريتي (+ ٩٧٤) اليه انتهت رئاسة اهل المنطق في زمانه (١) وحسبه فخراً ما اثبته عنه المسعودي في اواسط القرن الرابع للهجرة قال :

« ولا اعلم في هذا الوقت احداً يرجع اليه في ذلك (يعني علم الاوائل) الا رجلا واحداً من النصارى بمدينة السلام يُعرف بابي زكريا بن عدى » (٢) . ومما يؤثر عنه انه اوصى تلميذه العلامة ابن زرعة البغدادي ان ينقش على ضريحه بعد وفاته هذين البيتين :

رُبّ ميتٍ قد صار بالعلم حياً ومبقّى قد مات جهلًا وعيّا
فاقتنوا العلمَ كي تنالوا خلوداً لا تعدوا الحياة في الجهل شيّا

ومنهم ابو علي بن عيسى بن اسحق بن زرعة البغدادي (٩٤٣-١٠٠٨م) صاحب التآليف العديدة الفلسفية والطبية والسياسية . وكان ابن زرعة احد النقلة المجوّدين من اللغتين السريانية واليونانية الى العربية. فنقل كتاب « المقولات » وكتاب « المغالطات » وكتاب « اخبار الحيوانات » وكتاب «اجزاء الحيوانات» مع شروحها. والف مقالات في فلسفة ارسطو وفي كتاب « الايساغوجي » لفرفوريوس الصوري. وله رسائل في خزائن كتب اوروبا وغيرها (٣). ومنهم ابو الفرج جرجس بن يوحنا بن سهل بن ابرهيم اليبرودي (+ ١٠١٠ م) كتب بخطه كثيراً من كتب الطب. وله رسائل منها رسالة عنوانها «الفرخ ابرد من الفروج(٤) ومنهم ابو الخير ابن الخمار الفيلسوف عاش في القرن العاشر للميلاد. وكان نصرانياً ماهراً في العلوم الحكمية. نقل كتباً كثيرة من اللغة السريانية الى العربية وخلف مصنفات جليلة في صناعة الطب وغيرها عدّدها ابن ابي اصيبعة وعلق عليها (٥)

---

(١) مختصر تاريخ الدول . صفحة ٢٩٧ (٢) كتاب التنبيه والاشراق للمسعودي . صفحة ٢٢ طبعة ليدن (٣) مجلة « النجم » في الموصل : السنة التاسعة صفحة ١٧ (٤) طبقات الاطباء: مجلد ٢ صفحة ١٤٠ - ١٤٣ (٥) طبقات الاطباء: جزء ١ صفحة ٣٢٢

ومنهم كذلك الشيخ الفاضل المعلم العامل الفيلسوف الكامل اغابيوس بن قسطنطين الرومي المنبجي الذي صنف في القرن العاشر تاريخاً شاملاً اجابة الى طلب عيسى بن الحسين سماه « العنوان المكلل بفضائل الحكمة المتوّج بانواع الفلسفة الممدوح بحقائق المعرفة » . وهذا الكتاب قد ذكره المسعودي [١] قال :

« وأحسن كتاب رأيته للملكية في تاريخ الملوك والانبياء والامم والبلدان وغير ذلك كتاب محبوب بن قسطنطين المنبجي » . ولا يخفى ان لفظ « محبوب » هو ترجمة « اغابيوس » باللغة الرومية .

ومنهم الانبا سويرس بن المقفّع اسقف مدينة الاشمونين في مصر نحو السنة ٩٨٥م . صنف ٢٦ كتاباً [٢] اكثرها في الدينيات والادبيات والتفاسير . واشهرها تاريخ كبير في بطاركة الاسكندرية .

وعاش في القرن الحادى عشر ابو نصر يحيى بن جرير التكريتي [٣] اليعقوبي المتطبب صاحب كتاب « المرشد » . صنف تاريخاً جيداً من عهد آدم الى دولة بني مروان امراء ميافرقين .

وعاصره ابو الخير بن سوار بن بابا بن بهنام ودرس عليه ونقل كتباً جمّة من السرياني الى العربي . وخصه السلطان محمود بخدمته وكان يجله ويعظمه لزهده وتواضعه . وله عدة مصنفات ذكرها ابن ابي اصيبعة [٤].

ونضم الى هذا جمهور الجهابذة : ابا سهل عيسى بن يحيى المسيحي الجرجاني (+ ١٠٠٠ م) الطبيب شيخ الرئيس ابن سينا ومعلّمه صناعة الطب [٥]. خلف

---

(١) التنبيه والاشراق للمسعودي : صفحة ١٥٤
(٢) كتاب « مصباح الظلمة » تأليف ابي البركات المعروف بابن كبر
(٣) طبقات الاطباء : جزء ١ صفحة ٢٤٣
(٤) طبقات الاطباء : جزء ١ صفحة ٣٣٢
(٥) طبقات الاطباء : لابن ابي اصيبعة : جزء ١ صفحة ٣٢٧ - ٣٢٨

كتباً شتى نذكر منها « ديوان الطب » في مجلدين ويدعى ايضاً كتاب « المئة في الصناعة الطبية » ومنه عدة نسخ في مكتبات اوربا (١). وكتاب «اصول علم النبض» وكتاب «حكمة الله تعالى في خلق الانسان». ثم ايليـــا الصوباوي ابن شينـــا (+ ١٠٤٩ م).

ومنهم ابو عيسى يحيى بن جزلة الطبيب البغدادي النسطوري صاحب كتاب «المنهاج» (٢) في المفردات. وكتاب «تقويم الابدان» مُجَدَول. وكان مع اشتغاله بكتابة سجلات الدولة يطبب اهل محلّته ومعارفَهُ بغير اجرة ويحمل اليهم الادوية بغـير عوض. وقد اسلم ابن جزلة في اواخر ايـّامه ووقف كتبه لمشهد الامام ابي حنيفة وتوفي سنة ١٠٨٠ للميلاد (٣)

ونضيف الى من ذكرناهم منجماً نصرانياً يقال له يحيى بن ابي منصور وكان من انبغ علماء زمانه في الحساب ورصد الكواكب. وقد روى عنه ابو الفرج ابن العبري : انه لما عزم الخليفة المأمون على التدقيق في حسابات الرصد تقدم الى يحيى المذكور والى جماعة من العلماء بالرصد واصلاح آلاته ففعلوا ذلك بالشماسية في بغداد وجبل قاسيون بدمشق (٤).

وادرج ابن ابي اصيبعة في كتابه « عيون الانباء في طبقـــات الاطباء» اسماء مشاهير الاطباء حتى ايامه في القرن السابع للهجرة. ووصف ثقافة كل منهم واحداً فواحداً. وعدد تآليفهم تأليفاً تأليفاً بما لا يوصف من الدقة والضبط . ولم يغفل عن ذكر ما اداه اولئك الاطباء للخلفاء والوزراء وعامة الناس من الخدم الجلى. فاستحق تأليفه هذا الفريد ثناء من عاصره وجاء بعده .

هكذا تفجرت ينابيع المعارف وسالت الصحف باقلام المترجمين والمصنفين في

---

(١) Brockelmann, I, 238

(٢) تاريخ ابن الوردي : جزء ٢ صفحة ١١

(٣) تاريخ مختصر الدول . صفحة ٢٣٩

(٤) تاريخ مختصر الدول : صفحة ٢٣٧

طول البلاد وعرضها . وازدانت خزائن الكتب في جميع الاقطار العربية بنفائس الاسفار التي اخرجها اولئك الجهابذة الاعلام عن اللغات اليونانية والفارسية والعبرية والهندية. فبلغت دولة العلم ايام عز الخلافة العباسية شأواً بعيداً قلما ذكر التاريخ مثله في القرون السابقة.

واقتدى الخلفاء الفاطميون في مصر والامويون في الاندلس ببني العباس خلفا بغداد فكانت لهم قاطبة الايادي البيضاء في تعزيز النهضة العربية سياسة ولغة وعلماً

١١ - تصريح محمد كرد علي بفضل نقلة علوم الاعاجم

ونجعل مسك ختام هذا الفصل ما دونه الاستاذ محمد كرد علي رئيس المجمع العلمي العربي في دمشق قال(١):

« الا ان ما نفاخر به من علم اسلافنا وحضارتهم العظيمة انما قام باحيائهم مدنية من قبلهم من الامم كالروم والفرس وغيرهم. ولم يتأت لهم ذلك الا بترجمة علومهم والزيادة عليها وتحسينها. فكانوا بذلك احسن صلة وعائد بين أمم الحضارة السالفة والامم الاوروبية الخالفة. فحضارة الاسلام اذا انصفنا قامت بفضل التراجمة والنقلة من اليعاقبة والاسرائيليين والمسلمين لا بايدي علماء الكلام مثلاً. وقد كان على يد هؤلاء التشتيت وعلى يد اولئك الجمع . وشتان بين المفرّق والمجمّع . وليس معنى هذا انكار فضل من تمحضوا لخدمة الشريعة واللغة في القرون الاولى للاسلام. و... في الناظرين من يقول بان الخليل والجاحظ والغزالي والماوردي هم في حسن بلائهم في خدمة هذه الامة دون ابي الريحان البيروني ونصير الدين الطوسي وحنين بن اسحق وثابت بن قرّة . وما كان قط اهل الفريق الاول يحتقرون علم الفريق الثاني ولا العكس لما وقر في النفوس من ان المجتمع لا يقوم على امتن الدعائم الا اذا اتقن كل ذي علم عمله ».

---

(١) كتاب « القديم والحديث » بقلم محمد كرد علي : صفحة ٦٨ - ٦٩

الفصل الثامن

عصر النهضة العربية الذهبي

١ ـ فجر العصر العربي الذهبي

مرادُنا بعصر العرب الذهبي حقبةٌ ميمونةٌ تبلّج فجرها الزاهر منذ عهد هرون الرشيد وابنه المأمون (١٧٠ ـ ٢١٨ هـ و ٧٨٦ ـ ٨٣٣ م) . وانبعثت اشعتُها من سماء بغداد حتى انبسطت في الاقطار العربية جمعاء : من وادي دجلة والفرات في القارة الاسيوية الى وادي النيل والمغرب الاقصى في القارة الافريقية الى ديار الاندلس وصقلّية في القارة الاوروبية . فاصبحت الخلافة العبّاسية في تلك الحقبة تحاكي دولة الرومان ايام اكتمال عزّها واجتماع شملها (١) .

ومن مظاهر عظمة العبّاسيين وعزّهم الباذخ انهم كانوا في حفلاتهم الرسمية يستوون على عرشٍ يعلو الارض نحو سبع اذرع . وكانوا يتعممون بعمامة سوداء ويتوشحون برداء اسود ويقبضون بيَمينهم على صولجان ذهبيّ (٢) .

وما ان استتبّ السؤدَدُ للعرب في ما دوّخوهُ من الامصار حتى جعلوا لغتهم العربية لغة الدواوين الرسمية . وفرضوا على رعاياهم في مختلف الانحاء ان يتخاطبوا بها بدلاً من اللغات الشائعة حين ذاك كالفارسية في بلاد فارس والسريانية في العراق وسوريا وما بين النهرين والقبطية في مصر واليونانية في بعض دواوين الدولة وفي المعاهد العلمّية والبيوتات الخاصّة .

---

(١) طبقات الامم : لصاعد الاندلسي : صفحة ٤٩

(٢) تاريخ الدول السرياني : لابن العبري : صفحة ٢٣٧

هكذا انتقل العرب من البداوة الى الحضارة بمُلابَستِهم الأعاجم وادركوا في الثقافة شأواً بعيداً خطوا فيه الخُطى الطِوال . وراحوا يسترشدون الامم التي تغلبـوا عليها ولا سيّما أمَتي الفرس والروم ليتلقّنوا علومها ويُتقنوا آدابها . فدرسوا الغِناءَ والبناءَ والنقش وحب التأنّق والسياسة على الفرس . ودرسوا العلوم الرياضية والمنطقية والمعـارف الطبيعية والالهية والشؤون المنزلية على اليونان (١) . ثم درسوا الفِلاحة والطِبّ والفلك على السريان (٢) من نساطرة ويعاقبة ومَلِكيّين وعلى علماء الصابئة .

سادت اللغة العربية بفضل الخلفاء العباسيين وانتشرت في طول البلاد وعرضها. واحرزت قصبة السبق على سائر اللغات حتى عجز الروم غرباً والفرس شرقاً عن مصادمة تيارها. ومما لا سبيل الى انكاره ان الفرس اصبحوا اثناء النهضة العربية يستصعبون ايراد كلمة فارسية او بيتٍ من الشعر الفارسي في كتاباتهم إلا على سبيل الاستطراد او الاستشهاد (٣) .

٢ ـ انشاء المدارس والمكتبات في العصر العربي الذهبي

تذوق العرب لذة الحضارة فارتقتْ احوالهم ورقّت طباعهم وانسجمت عباراتهم. ومـا لبثوا ان اهملوا استعمال الغريب في محادثاتهم. ونبذوا وحشي الالفاظ في كتاباتهم. واستأثروا بالفصيح البليغ في مخاطباتهم وتصانيفهم. وشرعوا يؤسسون في كل صقع من اصقاعهم مدارس عالية ومكتبات غنية فاخرة. فابتنوا « بيت الحكمة » ببغداد و « مدرسة طُليطلة » بالاندلس. ثم شادوا « دار العِلم » بالقاهرة على اسلوب اشار اليه الفيلسوف باكون (٤).

---

(١) تاريخ مختصر الدول :لابي الفرج ابن العبري : صفحة ٩٦ طبعة بيروت

(٢) تاريخ مختصر الدول : صفحة ٦٢ و ١٣٥ ودائرة معارف القرن العشرين : لاحمد فريد وجدي مجلد ٨ صفحة ٦٦ ـ ٦٧

(٣) البيان والتبيين : للجاحظ : القاهرة ١٣١٣ جزء واحد صفحة ٦١

(٤) دائرة معارف القرن الشرين : مجلد ٨ صفحة ٦٧

ومما يجدر بالذكر ان احد وزراء الدولة العبّاسية تبرّع اذ ذاك بمائتي الف دينار لعمارة «كلية» علمية في بغداد. وخصّص بنفقاتها حولا بعد حول خمسة عشر الف دينار. وقد احتشد فيباستة آلاف طالب لا فرق بين غنيهم وفقيرهم وقريبهم وبعيدهم.

على هذا النمط انتشرت المدارس والمكتبات في المدن والدساكر وأضيفت اليها كتاتيب لا تحصى بجوار التُرَب والجوامع فتيسرت دواعي التثقيف والتهذيب للخاصة والعامة معاً.

٣ - تنشيط الكتاب الى الترجمة والتأليف في العصر العربي الذهبي

تجلى للخلفاء ايام عزّهم ان النهضة العربية لن تقوم ولن تبلغ ذروة الكمال الا بانعاش الثقافة وتعميمها بين طبقات الامة جمعاء. فأخذوا يبحثون عن جهابذة مشاهير وتراجمة ماهرين يُركنُ الى خبرتهم وأمانتهم في تحقيق تلك الامنية. ثم اصطفوا وفوداً متضلعين من العلوم واللغات وبعثوهم الى بلاد الروم واقاصي الهند وغيرها للتنقيب عن الكتب النفيسة واستحضارها الى العاصمة (١).

قال ابو الفرج الملطي المعروف بابن العبري: «لما إفضت الخلافة العباسية الى الخليفة السابع عبدالله المأمون بن هارون الرشيد تمم ما بدأ به جَدّه المنصور. فأقبل على طلب العلم في مواضعه وداخلَ ملوك الروم وسألهم صِلتَه بما لديهم من كتب الفلسفة. فبعثوا اليه منها ما حضَرَهم. فاستجاد لها مَهرَةَ التراجمة وكلفهم احكام ترجمتها فتُرجمت له على غاية ما امكن» (٢).

وما ان عاد رجال تلك البعثات العلمية الى دار السلام حتى بادر الخلفاء الى تأسيس دواوين يعكف فيها العلماء على الترجمة والتأليف. فاجتمع حول اولئك

---

(١) الفتوح الاسلامية واثرها في تقدم المدنية: للدكتور حسن ابرهيم حسن: (مجلة الرسالة بالقاهرة: سنة ٤ صفحة ٦٤٢)

(٢) تاريخ مختصر الدول: صفحة ٢٣٥ - ٢٣٦

الخلفاء رهطٌ من اساطين العلم كآل بختيشوع وتئوفيل الرهاوي وابن ماسويه ويوحنا بن البطريق ويعقوب الكندي وابناء موسى بن شاكر والربان حنين بن اسحق العبادي وثابت بن سنان بن قرة الصابىء وغيرهم كثيرين.

شرع اولئك العلماء يتبارون في الترجمة والتصنيف والتبييض والتسويد. وسالت اقلامهم في انشاء نفائس التآليف حتى انهم لم يتركوا باباً من ابواب المعارف الا طرقوه. فلم يدعوا كتاباً ذا فائدة كبرى في اللغات اليونانية والفارسية والسريانية والعبرية والهندية الا درسوه ومحصوه واحكموا نقله الى اللغة العربية.

وعلى اثر تلك الفورة العلمية هبّ فتيان العرب واقبلوا زرافاتٍ ووحداناً الى « بيت الحكمة » والى غيره من معاهد العلم يحرّضهم الخلفاء على القراءة ويرغبونهم في التعليم (١) . فدرسوا وطالعوا وصنّفوا وتساجلوا حتى اصبحوا خير قدوةٍ لمن عاصرُهم او جاءَ بعدهم من طلاب العلم وروّاد الادب .

وحسبُ الخلفاءِ فخراً انهم لم يقتصروا على ترغيب الجهابذة في التأليف وفي نقل الكتب الاعجمية الى اللغة العربية . بل حرصوا الحرص الشديد على ترجمات عربية لنصوصِ مؤلفات يونانية ولاتينية لو لم تنقل بهمتهم الى اللسان العربي لافنتها نوائب الدهر افناءَها مؤلفات ثمينة كثيرة سمعنا باسمها ولم نحظَ برؤيتها .

٤ ـ مبالغة الخلفاء في تعزيز العلم وتكريم العلماء

مثلما استرسل العلماء في جمع المخطوطات وترجمة الكتب وتأليفها استرسل الخلفاء في تعزيز الحالتَين العلمية والعمرانية كلتيهما وروّجوا سوقيهما في جميع انحاء الملك العربي الواسعِ الارجاء. ولقد بلغتِ النهضة العلمية اوْجَها في صدر الدولة العباسية بفضل المنصور والرشيد والمأمون لانّهم جعلوا بغداد في عهدهم امّ المدائن

(١) تاريخ مختصر الدول : صفحة ٢٣٦

الاسلامية وقطبَ دائرةِ الثقافة ومجتمعِ العلماء والشعراء . ثم شاركتها في ذلك سائرُ العواصم العربية كدمشق والقاهرة والقيروان وقُرطُبة وغيرها .

على ان هذا العصر الذهبي امتاز بخلفاءَ علماء تولّوا عرش الاسلام في تلك العواصم وعرفوا حق المعرفة انّ العلم لن ينمو ولن يزهو الا في كنف ملوكٍ نظيرهم يتعهدونه ويعزّزونه ويعطفون على اربابهِ . وقد حملهم على المبالغة في تكريم اهل الأدب تيقُنهم ان اهل العلم هم صفوةُ الله من خلقهِ ونخبتُه من عباده . لانهم صرفوا عنايتهم الى نيل فضائل النفس الناطقة وزهدوا في ما يُرغَب فيه ... (١) بناءً عليه ادرّوا لهم اخلاف الرزق وقرّبوهم وجالسوهم وآكلوهم وشاربوهم وسامروهم وساجلوهم واعتمدوا في المشاكل على آرائهم (٢) .

يُحكى عن الخليفةِ الرشيد ان مآدبه لم تخلُ قط من عالم او اديب او شاعر فكان يستدعيهم اليه ويحاورهم في مسائل الدين (٣) ويبكي (٤) من مواعظهم ويقوم بواجب الاحترام لعلمهم . وكان اذا جلس معاويةُ المحدّث الضرير الى طعامهِ قام الرشيد من موضعه وصبّ الماء على يده تعظيماً لقدر العلماء . فقال له معاوية: « ياامير المؤمنين ان تواضعك في شرفك لأشرفُ من شرفك ! » (٥) .

ازاءَ تلك الاريحية وهذا العطف اندفع يقصِدُ الخلفاء كلّ ذي قريحة من الكتّاب والايمة والشعراء والاطباء والمهندسين والمنجمين والمترجمين على اختلاف الملل والنحل . فشخصوا الى دار السلام طمعاً باحراز جائزةٍ او منحةٍ او الحصول على منصبٍ . وناهيك بكرم الخلفاء وثروة عاصمتهم وانتشار الرخاء بين سكانها وازدحام الغرباء على ابوابها واختلاف التجار اليها للبيع والشراء . زد على ذلك

---

(١) تاريخ مختصر الدول : صفحة ٢٣٦
(٢) تاريخ مختصر الدول : صفحة ٢٢٨
(٣) سراج الملوك : للطرطوشي : صفحة ٣٠ طبعة بولاق
(٤) ابن الاثير : جزء ٦ صفحة ٧٨ طبعة بولاق — وسراج الملوك : صفحة ٣٨
(٥) الفخري : صفحة ٢٣١

تدفق الذهب من بيت المال على اركان المملكة ومن لف حولهم من الانصار وارباب الصناعات والفنون والآداب الرفيعة .

ذلك كله كان من اقوى الذرائع التي اهابت بالخلفاء الى المبالغة في تعزيز العلم واجلال العلماء وتكريمهم .

وقد اثبت المؤرخون اخباراً شتى برهنت عن مكارم الخلفاء وعطفهم على العلماء . من ذلك ان الخليفة المأمون كان يتبرع على طبيبه جبرائيل بن بختيشوع (+ ٨٢٨ م) برواتب نقدية سخية . وقد بلغ مجموعها السنوي كما وجدوه مدوناً بخط جبرائيل نفسه الوفاً من الدنانير (١). اما الخليفة المتوكل فلم يكتف بما تبرع به من الاموال الطائلة على طبيبه حُنين بن إسحق (+ ٨٧٦ م) شيخ تراجمة الاسلام. بل خصص به قصراً فخماً تجاه بـلاطه زينه برياش فاخر. وكان الخليفة يزن لحنين من الذهب زنة ما يترجمه من الكتبِ مثلاً بمثل (٢).

وعلى مثال الخلفاء انفجر البرامكة بالكرم حتى صار يُضرَب بهم المثل الاكبر في سعة العطاء. فيقال فلان من الملوك يتبرمك(٣). وكان البرامكة يجودون بالاموال لاهل الادب ويشترون الدور ويهبونها لمن هو طامع فيهم من العلماء (٤) . وقد أنشد ابن الخياط المكي في الفضل بن يحيى البرمكي قوله (٥):

لمستُ بكفي كفه أبتغي الغنى ولم أدرِ ان الجود من كفه يعدي

ذلك ان الفضل أمر لابن الخياط ذات يوم بخمسة آلاف درهم. فاستأذنه في تقبيل يده فاذن له. فما انتهى ابن الخياط الى الباب حتى فرّق المال باسره فعوتب على ذلك فانشد البيت المذكور. فبلغ الفضل ذلك فأسنى له عشرين الف درهم .

---

(١) طبقات الاطباء : لابن ابي اصيبعة : جزء ١ صفحة ١٣٦

(٢) عقود الجوهر : لجميل بك العظم : صفحة ٩٤

(٣) حضارة الاسلام في دار السلام : لجميل مدور : صفحة ١٦٤

(٤) الاغاني : مجلد ٥ صفحة ٧٢

(٥) غرر النصائح الواضحة . لابي اسحق الوطواط . صفحة ٢٥٠ – والاغاني : مجلد ١٨ صفحة ٩٤ طبعة مصر

٥ ـ احتذاء الفاطميين والامويين مثال العباسيين في العصر الذهبي

انتهج الخلفاء الفاطميون بمصر والخلفاء الامويون بالاندلس نهج الخلفاء العباسيين ببغداد. فلم يقتصروا على تعليم اللغة وترويج آدابها في اصقاعهم بل باروهم في جمع المخطوطات فطلبوها من مصادرها. وانفقوا الصفر والبيض في سبيل البحث عنها والتقاطها. وانشأوا لها في حواضرهم ومدنهم خزائن فاخرة وحبسوا عليها اوقافاً وافرة. وعينوا لها خزنة وقوّاماً امناء وحشدوا فيها نساخاً ومترجمين ومجلدين ومذهبين. ثم استنهضوا رعاياهم لتحصيل المعارف والآداب. فاندفعوا الى العمل بجد واجتهاد. فافلحوا ونجحوا ونبغ منهم علماء اعلام وفلاسفة عظام (١).

وتواترت بين بغداد والقاهرة مسابقات في مضمار الثقافة ومنافسات في تشييد المدارس ومضاربات في اقتناء الكتب المفيدة (٢). وكاد يكون انشاء المكتبات الخاصة والعامة مستلزماً قصور الملوك وصروح الامراء وبيوتات المشايخ والاغنياء. فكل قصر او بيت خلا من مكتبة كبرى او صغرى عدّ خالياً فارغاً من أهم رياشه وانمن محتوياته. والخليق بالذكر ان الدول الاسلامية ابرمت في سننها ان يضم كل مسجد من مساجدها خزانة كتب يؤمها الادباء من كل حدب وصوب للمطالعة والاستفادة.

ومن اشهر تلك المساجد او الجوامع: البيت الحرام بمكة والجامع الاموي بدمشق والمسجد الاقصى بالقدس الشريف والجامع الازهر بالقاهرة والجامع الاعظم بالقيروان وجامع الزيتونة بتونس وجامع القرويين بفاس والجامع الاعظم العلوي بالنجف الاشرف الخ .

فلا غرابة اذا رأينا الكتبة والمؤرخين يطلقون على ذلك العصر لقب « عصر

---

(١) محاضرات المجمع العلمي العربي بدمشق : مجلد ١ صفحة ٢٦٤

(٢) محاضرات المجمع العلمي العربي بدمشق . مجلد ١ صفحة ٢٦٥

النهضة العربية الذهبي » إقراراً بجميل الخلفاء وتنويهاً بفضلهم على الحضارة العربية.

٦ ـ تعزيز الفلاحة في العصر الذهبي

ادرك العرب ان الفلاحة من اقوى الدواعي الى عمران البلاد وسعادتها ومن انجع الذرائع لانقاذها من ضروب الاسواء البشرية كالمجاعات والقحط والغلاء. فراحوا يبحثون بحثاً دقيقاً مستمراً عن كتب تتناول ذلك الموضوع الخطير كي يقرنوا علمهم بعملهم. واول مؤلف سمعوا باسمه من هذا القبيل هو كتاب « الفلاحة النبطية » لابن وحشية الكلداني وقد تُرجم الى اللسان العربي في صدر الخلافة العباسية. وروى ابن خلدون في مقدمة تاريخه: ان ابن العوّام اختصر كتاب « الفلاحة النبطية » وان مَسْلمة بن احمد المجريطي نقل عنه امهات من مسائله (١). وغير خاف ان هذا الكتاب الثمين قد ضاع نصه السرياني الاصلي وحُفظت ترجمته العربية. ولولا هذه الترجمة لتناولته ايدي الضياع وخسر العالم فوائده (٢)

ومما تذرّع به العرب لتعزيز شؤون الفلاحة او الزراعة في ما افتتحوه من البلدان انهم ابتنوا على الانهار اسداداً ليحصروا المياه ويوفروا من كمياتها مايلزم لريّ الاراضي. ومن مآثرهم الجلية انهم شيّدوا مقاييس عديدة على نهر النيل ليسبروا غور مياهه ويعرفوا كميّتها وكيفية توزيعها على الحقول والمزارع. واشهر تلك المقاييس واقدمُها « مقياس الروضة » اَمرَ ببنائه عام ٧٦ للهجرة أسامةُ بنُ زيد التنوخي. ثم رممه الخليفةُ المأمون يوم ارتحلَ الى مصر سنة ٢١٧ للهجرة وعمّر جامعاً الى جانبه. وفي السنة ٢٤٦ للهجرة تولى ادارة المقياس عبد الله بنُ عبد السلام البصري في عهد المتوكل على الله (٢٣٢ — ٢٤٧ هـ). وبعد وفاة ابن عبد السلام عام ٢٧٩ للهجرة استمرت الولاية على المقياس في وُلده.

---

(١) مقدمة ابن خلدون: طبع المطبعة الادبية ببيروت: صفحه ٤٩٤ و ٤٩٧

(٢) كتاب « عصر المأمون » صفحه ٣٩٢

وقد نُقشت حول المقياس على رخام اربع آيات قرآنية بكتابة لازوردية (١) ففي جانبه الشرقي نقشت هذه الآية : « ونزّلنا من السماء ماء مباركاً فأنبتنا به جنّات وحبّ الحصيد » (٢). ونقشت في الجانب الشمالي آيتان هما : «ترى الارض خاشعة فاذا انزلنا عليها الماء اهتزّت وربَتْ » (٣) . «وانبتنا فيها من كلّ زوج بهيج » (٤) . ونُقشت في الجانب الغربي : « ألم تر ان الله انزل من السماء ماء فتُصبح الارض مخضرة ان الله لطيف خبير » (٥) . امّا الجانب الجنوبي فقد نُقشت فيه هذه الآية : « وهو الذي ينزّل الغيث من بعدما قنطوا وينشر رحمته وهو الوليّ الحميد » (٦)

٧ ـ انتشار علم الفلك في العصر الذهبي

كان لعلم الفلك شأن عظيم عند الخلفاء يرجعون في جلائل الامور الى اربابه والمتخصصين به . وقد وضع اولئك الارباب بدورهم كتباً لا يُحصى لها عدد دلّت على ذكائهم ونبوغهم . ومن تلك الكتب مخطوطات جمّة حرص عليها السلف وزينوا بها خزائن الكتب شرقاً وغرباً .

ويؤخذ من تلك المخطوطات ان « الكلدان » سبقوا جميع الامم في علم الفلك كما يدل عليهم اسمهم السامي اي « رصد النجوم » وكما قررته اقدم التواريخ واصدقها (٧) . وعن الكلدان أخذ الفرس فاليونان فالرومان فالعرب .

ومما اضطر العرب الى الاعتناء اعتناء خاصاً بعلم الفلك ارتباطه بالعبادات الاسلامية وعاداتها كتنظيم اوقات الصلوات الخمس والاتجاه حين تلاوتها نحو الكعبة

---

(١) وفيات الاعيان : لابن خلكان : جزء ١ صفحة ٣٤٠ (٢) القرآن: سورة ق : ٩
(٣) القرآن :سورة فصلت : ٣٩ (٤) القرآن . سورة ق : ٧ (٥) القرآن : سورة الحج ٦٣
(٦) القرآن: سورة الشورى : ٢٨ (٧) الكتاب المقدس : نبوءة دانيال: الاصحاح الثاني

او القبلة وفرض الصوم والفطر في غرة هلال رمضان ومحاقه وسلخه (١) . ذلك كله حمل الخلفاء وفي مقدمتهم ابو جعفر المنصور على تقريب الفلكيين واستشارتهم والتعويل على آرائهم (٢) . ثم انشأوا المراصد الفلكية تسهيلاً لمهمتهم في انحاء الملك الاسلامي .

واشهر المراصد الفلكية التي انشأها العرب في العصر الذهبي : مرصد سمرقند ومرصد « شماسية » قرب بغداد . ومرصد جبل قاسيون بجوار دمشق وقد تحول بتوالي الزمان الى منارة للتخاطب بالنار (٣).

ولسنا ننسى مرصد جنديسابور الذي رصد فيه احمد النهاوندي في ايام الخليفة هارون الرشيد . وقد الف هناك كتاباً مصوراً سماه « المستمال » اودعه من تحقيق النظر وتعميق الفكر فيما عرض له من امور الفلك بما رصد ما لم يسبق اليه احد من المنجمين (٤) .

وابتنى الخلفاء مرصداً في الرقة على ساحل الفرات رصد فيه الكواكب ابو عبدالله محمد بن جابر بن سنان الحرّاني البتاني (٥) مدة اربعين سنة (٢٦٤-٣٠٦هـ). وتوفي عام ٣١٧ للهجرة. قال ابو الفرج ابن العبري : « لا يُعلَم احد من الاسلام بلغ مبلغ ابن جابر في تصحيح ارصاد الكواكب وامتحان حركاتها » (٦) . واثبت لالند Lalande (١٧٣٢ – ١٨٠٧) الفلكي الفرنسي : « ان ابا عبدالله البتاني هو احد الائمة الفلكيين العشرين الذين اشتهروا في العالم » (٧).

---

(١) تاريخ علم الفلك : صفحة ٢٢٩

(٢) تاريخ علم الفلك : صفحة ١٦٣

(٣) محاضرات المجمع العلمي العربي بدمشق : مجلد ١ صفحة ١٦٥

(٤) حضارة الاسلام في دار السلام : لجميل مدور : صفحة ٢٠٩

(٥) البتاني نسبة الى (بيت باتين) وهي بلدة واقعة بين الرها وحران

(٦) تاريخ مختصر الدول : صفحة ٢٧٤

(٧) علم النجوم على عهد الخلفاء : بقلم موريس كولنجت (المشرق : مجلد ٣ سنة ١٩٠٠ صفحة ٦٧٨)

وشيد شرف الدولة بن عضد الدولة سنة ٣٧٧ للهجرة مرصداً بطرف بستان دار المملكة . وتقدّم الى اعلام الفلكيين برصد الكواكب السبعة . واعتمد في ذلك على ويجن بن وشم ابي سهل الكوهي وعلى احمد بن محمد المنطقي الصاغاني المتوفى في بغداد سنة ٣٧٩ للهجرة . وكان الصاغاني فاضلاً في الهندسة وعلم الهيئة يُحكم الآلات الرصدية ببغداد غاية الاحكام (١) .

واسّس الفاطميون مرصداً في الفسطاط بمصر ازاء الروضة ليس بعيداً عن مسجد عمرو بن العاص (٢) . واقام الافضل امير الجيوش في عهد الخليفة الفاطمي الآمر باحكام الله (٤٩٥ — ٥٢٤ هـ) مرصداً عظيماً كلفه مشقة وافرة وجعل مركز ذلك المرصد على ارتفاع بجوار المقطّم عُرف قديماً بالجرف . ولما اقيم فيه المرصد صار يُعرَف بالرصد (٣) .

ومن الثابت ان اول المراصد في اوروبا انما شيده العرب في اشبيلية بالاندلس (٤) يضاف اليه مرصد آخر في الاندلس يقال له «مرصد جيرالك»

ومن المراصد الشهيرة مرصد مراغا باذربيجان . كان ناظره نصير الدين الطوسي المتوفى سنة ٦٧٥ للهجرة وكان حكيما عظيم الشأن في جميع فنون الحكمة . واجتمع اليه في الرصد جماعة من الفضلاء المهندسين وانشأ تصانيف كثيرة منطقيّات وطبيعيات والاهيات (٥) .

٨ — الطب والاطباء في العصر الذهبي

وجّه الخلفاء العباسيون عناية خاصة الى درس الطبابة واتقانها وتعميمها .

---

(١) تاريخ مختصر الدول : صفحة ٣٠٧

(٢) عالم النجوم على عهد الخلفاء (المشرق : مجلد ٣ سنة ١٩٠٠ صفحة ٦٧٨)

(٣) تاريخ مصر الحديث : لجرجي زيدان : مجلد ١ صفحة ٢٩٠

(٤) المقتطف : مجلد ٧ سنة ١٨٨٣ صفحة ٢٤١

(٥) تاريخ مختصر الدول : صفحة ٥٠٠ - ٥٠١

فتقدموا باحضار رهط من نوابغ الاطباء الى دار السلام وفوّضوا اليهم تجهيز الادوية والعقاقير ومعالجة المرضى في قصورهم وغيرها . وكلفوهم كذلك ان يلقوا دروساً طبّية في مدارسهم وينقلوا مؤلفات يونانية الى اللغة العربية تعميماً لفوائدها . فنهض اولئك الاطباء يخدمون الخلفاء واركان الدولة خدمة أمينة أكسبتهم ثقة الخاصة واحترام العامة .

كان اولئك الاطباء ومعظمهم من النصارى يلازمون الخلفاء في بلاطهم ويجلسون معهم الى مائدة طعامهم (١) . ويداعبونهم ويحادثونهم طويلا ويضاحكونهم (٢) . ويعالجون حظاياهم وسراياهم (٣) ويرافقونهم في حروبهم واسفارهم (٤). ولهذا غلب عليهم اعني على الاطباء لقب « حكماء » دلالة على حسن تدبيرهم وصائب فكرهم .

وكان الخلفاء بدورهم يُجلون اطباءهم ويرحبون بهم ويُسنون لهم اعطيات وافرة . ويعودونهم في بيوتهم حين مرضهم ويراساونهم . وكانوا يتسمحون معهم في قضايا دينهم ويحضرون احياناً الصلاة عليهم بالشمع والبخور في جنازاتهم (٥) .

ومما يؤيد جزيل اعتبار الخلفاء لاطبائهم ان العزيز خليفة مصر كتب بخط يده رسالة الى طبيبه منصورِ بن مقشر النصرانيّ يهنئه بنقاهته من مرضه هذا نصها : « بسم الله الرحمن الرحيم . طبيبنا سلمّه الله سلامَ الله الطيّب وأتم النعمة عليه . وصلت الينا البشارة بما وهبه الله من عافية الطبيب وبرئه والله العظيم لقد عدَل عندنا ما رُزِقناه نحن من الصحّة في جسمنا . اقالك الله العثرة وأعادك الى افضل ما عوّدك من صحة الجسم وطيبة النفس وخفض العيش بحوله وقوّته » (٦) .

---

(١) تاريخ مختصر الدول : صفحة ٢٢٨ (٢) تاريخ مختصر الدول : صفحة ٢٣٩ و ٢٦٥
(٣) تاريخ مختصر الدول : صفحة ٢٢٦ (٤) تاريخ مختصر الدول : صفحة ٢٤٦
(٥) تاريخ مختصر الدول : صفحة ٢٤٣ (٦) تاريخ مختصر الدول : صفحة ٣١٦

هكذا ارتفع شأن الاطباء وعظُمَ قدرُهم حتى اصبحت لهم المنزلة العليا في جميع انحاء الدولة . وقد خلفوا في صناعتهم هذه الشريفة آثاراً مجيدة تشهد لهم بالبراعة وطول الباع .

ولا ريب في ان تلك المزايا السامية حملت فريقاً من المؤرخين على ان يعنوا بتأليف كتب وافرة دونوا فيها تراجم اولئك الاطباء النطاسيين ووصفوا مناقبهم وعددوا مؤلفاتهم ونوادرهم . وعلى سبيل المثال نذكر من تلك المؤلفات ما يلي : كتاب « اخبار الاطباء والمنجمين » ليوسف بن ابرهيم الحاسب المعروف بابن داية في ايام المأمون . وكتاب « تاريخ الاطباء » (1) لاسحق بن حنين (+ ٩١٠ م) وكتاب « اخبار الاطباء » تأليف فثيون الترجمان النسطوري في القرن الثالث للهجرة . وقد ذكره ابن ابي اصيبعة اكثر من ثلاثين مرة في تاريخه . وكتاب « مناقب الاطباء » تأليف عُبيدالله بن جبرائيل (+ ١٠٥٨ م) بن بختيشوع. وكتاب « دعوة الاطباء » للمختار بن الحسن بن عبدون البغدادي المعروف بابونيس بن بطلان .

وقد تفرّغ الوزير جمال الدين القفطي (٥٦٨ — ٦٤٦ ﻫ) لسرد اخبار الاطباء في كتابه « اعلام العلماء باخبار الحكماء » . ثم توسّع في ذكر اخبار الاطباء وتعداد مؤلفاتهم مُوفقُ الدين بن ابي اصيبعة المتوفى سنة ٦٦٨ للهجرة في كتابه المشهور « عيون الانباء في طبقات الاطباء ». فسرد اخبارهم واحداً فواحداً وعدّد تآليفهم الوافرة تأليفاً فتأليفاً بعبارة جزلة دقيقة استحق لاجلها اجمل الثناء .

ولسنا نرى ان نغمض عن ذكر ابي الفرج ابن العبري الذي شحن كتابه « تاريخ مختصر الدول » بذكر مشاهير الاطباء وطرائفهم منذ صدر الخلافة العباسية حتى اواخر القرن الثالث عشر للميلاد .

---

(1) اخبار الحكماء : لجمال الدين القفطي : طبعة ليبرت : صفحة ٨٠

ومن اجلى الادلة على رواج سوق الطبابة في العصر العربي الذهبي الوف التآليف الطبّية الباقية الى هذا اليوم في المكتبات العامة والخاصة شرقاً وغرباً. وادمغ برهان على ذلك ان كلية الطب بباريس حوت عام ١٣٩٥ فهارس لمخطوطاتها الطبية العربية في اثني عشر مجلداً كلها مؤلفات لأطباء العرب . وكان لويس الحادي عشر ملك فرنسا (١٤٦١ – ١٤٨٣) شديد القلق على صحّته فرغب ان تكون في خزانة قصره كتب محمد بن زكريا الرازيّ (٣٢٠ هـ) الطبية . ولم يكن منها اذ ذاك في مكتبة كليّة الطب الباريسية الا نسخة واحدة فاستعارها الملك بشرط ان يردّها وقد فعل .

وحسبُ العرب فخراً ان الدول الأوروبية اتخذت كتبهم الطبية دستوراً للتدريس في جامعاتها التي سيطر عليها الفكر العربي منذ القرون الوسطى. فنقلت المؤلفات العربية الى اللغات الاوروبية وظلت الجامعات تدرّسها حتى السنة ١٦٥٠ للميلاد . واقدم تلك الجامعات جامعة مدينة « سالرنو » بايطاليا في القرن الحادي عشر للميلاد . وتأسست بعدها جامعات غيرها في بالرمو وبادوا ومونبليه وباريس وبولونيا الخ الخ .

٩ ـ المارستانات في العصر العربي الذهبي

لم يكتف العرب بالانتاج النظري في العلوم الطبية بل استخدموا علمهم ايضاً في معالجة المرضى وتخفيف آلامهم وتأمين راحتهم (١) . فأنشأوا لذلك مستشفيات او مصحّات اطلقوا عليها لفظة «مارستان » من «بيمارستان » الفارسية . وشيدوها في عواصمهم وكبريات مدنهم كمكة المكرمة والمدينة المنورة ودمشق عاصمة الامويين وبغداد عاصمة العباسيين والقاهرة عاصمة الفاطميين والقدس الشريف وانطاكية والري وسمرقند وغيرها . ثم عينوا لكلّ مارستان اوقافاً غنية يُنفق ريعُها في

---

(١) مآثر العرب في العلوم الطبية : للدكتور سامي حداد : صفحة ٢٢ - ٣٧

سبيل المرضى والاطباء ومشترى الادوية والمرضين . وفوضوا امرها الى مدراء اكفاءَ انتقوهم من امراء البلاد او من قوّاد الجيش او من سراة القوم .

واقدم مارستان اسلامي ورد ذكره في التاريخ هو مارستان الفسطاط بالقاهرة ابتنـــاه الخلفاء الامويوّن ازاء دار عمرو بن العاص بجوار الجامع المشهور باسمه (١) وكان مركزه في زقاق القناديل شرقي الجـامع المشار اليه . واشتمل هذا الزقاق ايضاً على سوق للكتب والدفاتر والطرائف وغيرها (٢) . وفي القـاهرة كذلك مارستان قديم عُرِف بالمارستان الكبير المنصوري او مارستان السلطان قلاوون (٦٧٨ – ٦٨٩ ﻫ) (٣)

وافتخرت دمشق بالمـارستان النوري نسبة الى نور الدين (٥٤٢ – ٥٧١ ﻫ) بن زنكي . وهو يحوي الى يومنا كثيراً من النقوش والكتابات الاثرية (٤) .

وابتنى الخلفاء العباسيون مرستاناً كبيراً في بغداد عاصمتهم واقاموا له مدراء واطباء مشاهير نذكر منهم الحكيم النطاسي محمد بن زكريا الرازي المتوفى سنة ٣٢٠ للهجرة. وكان الرازي في اول امره متوليـــاً ادارة المارستان في الري ثم انتقل الى دار السلام وتولى ادارة « المارستان المقتدري » المنسوب الى الخليفـــة المقتدر بالله (٢٩٥ ـ ٣٢٠ ﻫ) . ومما يُذكر بالشكر والثناء لهذا الطبيب النبيل انه جمع الى الطب معرفة علوم القدماء « وكان كريمـــاً متفضلاً باراً بالناس حسن الرأفة بالفقراء والاعلاء حتى كان يجري عليهم الجرايات الواسعة ويمرضهم» (٥).

وابتنى العرب مارستانات خاصّة بذوي الامراض العقليـة اشهرها مارستان بلنسية بالاندلس. وقد قرر المؤرّخون ان للعرب فخراً في معاملة اولئك المرضى

---

(١) الانتصار لواسطة عقد الامصار : لابن دقماق الحنفي: مطبعة بولاق سنة ١٣٠٩ للهجرة

(٢) معجم البلدان : لياقوت الحموي : جزء ٤ صفحة ٣٩٦

(٣) تاريخ البيمارستانات في الاسلام : تأليف الدكتور احمد عيسى بك

(٤) مجلة المجمع العلمي العربي في دمشق : مجلد ١٦ سنة ١٩٤١ صفحة ٥٦٢

(٥) تاريخ مختصر الدول : صفحة ٢٧٤ و ٢٧٥

بالرفق والشفقة بينما كان «المجانين» في اوروبا يُعذّبون ويضطهدون ويعامَلون معاملة المجرمين. وما عدا المارستانات الخاصّة فقد اسّس العرب مارستانات عامّة في معظم المدن الاندلسية كقرطبة واشبيلية وغرناطة وطليطلة ومرسية والمرية ومالقة وغيرها من المدن العامرة. وكان نظام تلك المارستانات وافياً محكماً على نسق لم تألفهُ اوروبا قبل ذلك العهد (١).

١٠ ـ المتاحف في العصر العربي الذهبي

عُرفت المتاحف عند العرب منذ القرن الثاني للهجرة. واوّل مَن عُني بها الخليفة هرونُ الرشيد الذي جمع في قصرهِ آثار الملوك السالفين من ثياب واسلحة وصوالجة وآنية ورياش وغير ذلك. فانه اقتنى من ظرائفها القدرَ العظيم الثمين وحرص عليه وتفاخر به. وكانت تلك الآثار حافلة بفوائد جمّة صناعية وادبية وفنية (٢).

ومما اشتمل عليه متحف الرشيد صندوق اودعه خواتم الخلفاء قاطبة بدءاً من الراشدين فالأمويين فالعبّاسيين فمن قام بدعوة الخوارج. فحوى ذلك الصندوق كل خواتمهم (٣) الاّ خاتم النبيّ الكريم. ولو لم يقع هذا الخاتم من عثمان بن عفان في بئر اريس كما تواتر في الانباء (٤) لماَ كفّ الرشيد عن طلبه.

ولم تقلّ قصورُ الفاطميين في القاهرة عن قصر هرون الرشيد في بغداد بما احتوته من الكنوز الثمينة والطُرَف الفاخرة. فكانت بمثابة متاحف يؤمها كبراءُ القوم وروّاد الادب ومشاهير السيّاح (٥). وقد أتى على وصفها ارباب الرحلات ومؤرخو العصور الغابرة فأفاضوا في ذكر محاسنها ونوادرها الفنية

---

(١) نهضة العلوم الطبية في اسبانيا العربية وتأثيرها في اوروبا: بقلم زكي علي (مجلة الرسالة: سنة ٥ صفحة ٥٥٨ ـ ٥٦٠ في القاهرة) (٢) حضارة الاسلام في دار السلام: لجميل مدور: صفحة ١٦ (٣) العقد الفريد: لابن عبد ربه ـ ومروج الذهب: للمسعودي ـ والخطط والآثار: للمقريزي (٤) تقويم البلدان: لابي الفداء: صفحة ٨٧ طبعة باريس (٥) حياة الاسلام: بقلم مصطفى نجيب: صفحة ١٠٦

وسبق العرب سائر الامم بانشائهم متحفةً للحشرات منذ القرن الرابع للهجرة والعاشر للميلاد. ومما لا شبهة فيه ان الفرنج لم يعرفوا متاحف الحيوانات والحشرات ولم ينشئوا لها معاهد او حدائق خصوصية الا في نواحي القرن السابع عشر للميلاد . بناء عليه قلنا ونقول القول الفصل ان العرب سبقوا الفرنج في هذا المضمار كما سبقوهم في امور اخرى يطول شرحها .

فالى العرب اذاً يعود الفضل في انشاء اول متحفة للحشرات والدويبات ونحوها. وقد انشأها ابو الفضل جعفر (٣٠٨ - ٣٩١ هـ) المشهور بابن حنزابة الوزير المحدّث البغدادي نزيلُ مصر (١). وتقلد ابو الفضل وزارة مصر في عهد كافور الاخشيدي المتوفى سنة ٣٥٧ للهجرة (٩٦٨ م) ودفن في القرافة الصغرى (٢).

١١ - رواج سوق العلماء وتعدد مصنفاتهم في العصر الذهبي

ما فرغ العرب مِن الحروب التي وقعت لهم في صدر الاسلام حتى وجهوا انظارهم الى تعزيز فنون الادب واحياء معالم العلم. فكتبوا في جميع المواضيع ما شاء ان يكتبوه بحيث إنه لو جُمعت كتب امة من الامم العريقة في العمران لمَا حوَت ما حوَته مؤلفات العرب من صنوف العلم .

بناءً عليه يطول بنا المجال لو تحرّينا ان نحصي اسماءَ جميع الكتاب الذين لمعوا في العصر الذهبي العربي ونستقصي اخبارهم ونعدد مؤلفاتهم . لان ذلك يستلزم بحثاً طويلاً لا شأن لنا فيه الآن . انما نكتفي بالاشارة الى فريق منهم تفردوا بتعدد مصنفاتهم استكمالا لموضوعنا .

فاذا القينا نظرة عامة على ذلك العصر المجيد رأينا مئات من حملة الاقلام لم يتركوا باباً من ابواب المعارف الا طرقوه وصنفوا فيه كتباً جمة تفوق حد الكثرة . ومن شاء الوقوف على تراجمهم ومؤلفاتهم ونوادرهم فعليه ان يطالعها في

---

(١) المشرق : مجلد ١٠ سنة ١٩٠٧ صفحة ٣٦٦

(٢) تاريخ مصر الحديث : لجرجي زيدان : جزء ١ صفحة ٢٦٥

الموسوعات والتواريخ القديمة . هكذا راجت سوق الآداب في عواصم الدول العربية وسالت قرائح العلماء في سائر اطرافها .

وحسبُنا ان نذكر من اولئك الاعلام على سبيل المثال : الجاحظ والصاحب بن عباد . وابن النديم وابن رشد والخليل بن احمد وحنين بن اسحق . والفارابي والغزالي وابا الريحان البيروني وغيرهم. ونخص بالذكر منهم الاصمعي (٧٣٩-٨٢٩م) الذي استظهر اثني عشر الف ارجوزة وأربى عدد مؤلفاته على الاربعين. وخلف ثابت بن قرة (٧٤٠ - ٨٢٠ م) الحرّاني مائة وعشرين كتاباً . وكان ابو تمام يحفظ اربعة آلاف ارجوزة غير القصائد والمقاطيع . وبلغت مؤلفات يعقوب الكندي (+ ٨٦١ م) فيلسوف العرب مائتين واربعين مؤلفاً. وكان ابو الفرج الاصبهاني (٨٩٨ - ٩٦٦ م) يستصحب في اسفاره وتنقلاته حِملَ ثلاثين جملًا من كتب الادب ليطالعها . على ان نقل الكتب في الاسفار كان مألوفاً عند ادباء العرب في الازمنة الغابرة . فهارون الرشيد ذاته لما ركب الى الرقة في بعض اسفاره نقل معه ثمانية عشر صندوقاً من كتب مؤلفي العرب (١) ليصرف بمطالعتها برهة من اوقاته . واعتنى العلماء بديوان ابي الطيب المتنبي (٩١٦ - ٩٦٦ م) فشرحوه اكثر من اربعين شرحاً ما بين مطولات ومختصرات. وكان ابو بكر الخوارزمي (٩٢٩ - ٩٩٢) يحفظ اكثر من عشرين الف بيت من شعر العرب . اما الشيخ الرئيس ابن سينا المتوفى سنة ١٠٣٦ للميلاد فقد بلغت مصنفاته اثنين وتسعين كتاباً (٢) . والف ابو علي بن الحسين بن الهيثم المهندس البصري نحو سبعين كتاباً في الهندسة (٣). وكان يكتب كل سنة ثلاثة كتب يبيعها بمائة وخمسين ديناراً وتوفي سنة ١٠٢٩ م . وكان ابو العلاء المعري (٩٧٤ - ١٠٥٨ م) يملي على بضع عشرة محبرة في فنون شتى العلوم . وقد نظم الشعر وهو في الحادية عشرة من سنه. ولما توفي قُرئ على قبره سبعون مرثية (٤) . ونسخ ابن الجوزي

---

(١) الاغاني : جزء ٥ صفحة ٦٧ طبعة بولاق (٢) تاريخ الدول السرياني : لابي الفرج ابن العبري : صفحة ٢٢٠ (٣) تاريخ الدول السرياني : صفحة ٢١٠ - ٢١١ (٤) مجاني الادب : جزء ٦ صفحة ٣١١

(١١١٧ - ١٢٠٢ م) كتباً جمة ذهب المغالون في عدّها فقالوا : « لو جُمعت الكراريس على المدة التي عاشها وحُسبت مدة عمره وقُسمت الكراريس على المدة التي عاشها كان ما خص كل يوم من حياته تسع كراريس». وانافت مصنفات موفق الدين عبد اللطيف (١١٦١ - ١٢٣١ م) على المائة والستين . وكان في النهار يُقرىء الناس بالجامع الازهر وكان في الليل يشتغل على نفسه . وبلغت مصنفات تقي الدين ابن تيمية الحرّاني (١٢٦٣-١٣٢٨ م) خمسمائة مؤلف. وناهزت مصنفات جلال الدين السيوطي (١٤٤٦ - ١٥٠٥ م) نحواً من اربعمائة مصنف !!

ذلك كله يدل دلالة واضحة على ما بلغت اليه النهضة العربية في عصرها الذهبي من المقام الرفيع لا ما بين الامة العربية فحسب بل ما بين امم العالم طراً . تلك حقيقة جَلية ناصعة أيدها كل من له إلمام بتاريخ العرب وآثار خلفائهم واخبار اعلامهم وادبائهم في القرون الغابرة . فعسى يكون مثلهم دافعاً لأحفادهم في هذا العصر كي ينسجوا على منوالهم فيجددوا ذلك المجد اللامع في افق العروبة . وليس ذلك على اجتهادهم بالعسير اذا ما استعانوا بالله الرزاق الكريم « والله خيرُ الرازقين » (١)

(١) القرآن : سورة الجمعة : ١١

البَابُ الثَّاني

المكتبات العربية

الفصل الاول

تكوين خزائن الكتب العربية

١ – حرص الاقدمين على تدوين آثارهم واخبارهم

لايخفى ان الكتابة هي دعامة الحضارات القديمة والحديثة على اختلاف عصورها وشعوبها وبلدانها . فهي التي حفظت علوم القرون السابقة ومهدت للمتأخرين سبيل التبسط في ما اتصل اليهم من معارف الاولين . وما كاد يتعلم الانسان فن الكتابة حتى اولع بتدوين اعماله وآثاره ومعلومـاته فتولدت فيه فكرة صيانتها . وبازدياد تلك المعلومات وازدياد الحرص عليها نشأت المكتبات وانتشرت الرغبة بين الناس في جمع المؤلفات . وقد اثبت البحث في اخربة نينوى وبابل وتل العمارنة ان الميل الى جمع الوثائق والصكوك واساطير الاقدمين ليس حديثاً في الدنيا لكنه يرتقي الى ابعد ازمنة التاريخ .

من البديهي ان الانسان مفطور على الافتخـار باعماله والتباهي بآثار اجداده والاشادة بمآثر ابطال وطنه يتغنى بها حقبة بعد حقبة . ولاجل ذلك نراه لا يألو جهداً في نقشها على الاضرحة او حفرها في الهياكل والابنية التـاريخية او تدوينها في الخواتيم والنقود وبطون القراطيس كما جرى لجميع الامم الراقية التي وصلت الينا

بقاياها . وكل من له المام بعلم التاريخ يشهد بما خلفه الاثوريون والبابليون والمصريون والحثيون والفينيقيون والصينيون والهنود والفرس والسريان واليونان والرومان وغيرهم من الآثار الباهرة التي تنطق بعبقريتهم واتساع دائرة معارفهم .

٢ ـ اشهر المكتبات في العصور الخالية

لا نخال احداً يجهل اسماء المكتبات الشهيرة التي اخنى عليها الزمان ودخلت في خبر كان . نخص بالذكر منها : مكتبة الرها (١) ومكتبة اورشليم (٢) ومكتبتي المتحف والسيرابيوم في الاسكندرية (٣) . والمكتبة الاوكتافية ومكتبة ابولون في رومة (٤) . والمكتبتين الملكيتين في القسطنطينية — ومكاتب الصين التي امر الامبراطور (هي — هونك — تي) باحراقها عام ٢١٣ قبل المسيح (٥) ومكتبة جزيرة ساموس التي انشأها بوليكرات . ومكتبة ارسطو التي استولى عليها ثيوفراست ثم اشتراها بطليموس فيلادلفوس (٦) . وقس على ذلك مكتبات عديدة نضرب صفحاً عن سرد اسمائها حباً للاختصار .

٣ ـ شهادة محمد فريد وجدي على صيانة المؤلفات في الكنائس والاديار

لرؤساء الكنيسة المسيحية منذ الاجيال الخالية يد بيضاء في جمع الآثار الكتابية والاحتفاظ بها في الاديار والكنائس . ولولاهم لفقدنا كثيراً من الذخائر العلمية التي خلفها الاولون وقد اصبحت بعدهم نبراساً يستضيء به اهل البحث في القرون اللاحقة .

---

(١) اوسابيوس القيصري : كتاب ١ خبر ١٣ صفحة ٦٨ — ٦٩ طبعة بيجان

(٢) اوسابيوس القيصري : كتاب ١ خبر ٧ صفحة ٤٦ ـ ٤٧ (٣) الاسلام في عصر العلم : بقلم محمد فريد وجدي : صفحة ١١٥ والمشرق : مجلد ١٤ سنة ١٩١١ صفحة ٣٩١ (٤) دائرة معارف القرن العشرين : مجلد ٨ صفحة ٦٠ - ٦١ (٥) مجلة الآثار : مجلد ١ سنة ١٩١٢ صفحة ٣٣١ ـ ٣٣٣ (٦) الكتب والمطالعة : بقلم انيس سلوم (محاضرات المجمع العلمي العربي في دمشق) : صفحة ٢٦٣

ولما كان قد شهد بهذه الحقيقة جميع المؤرخين على اختلاف اديانهم وبلدانهم وازمانهم رأينا ان نقتصر على ما رواه العلاّمة المصري محمد فريد وجدي قال : «فلماجاءت القرون الوسطى كانت المكتبات القديمة بين يونانية ورومانية قد ادركها العطب . فلم يبق منها الا عدد نزر من المؤلفات القديمة . فكان للكنيسة المسيحية الفضل في الاستيلاء عليها وحفظها بين جدرانهابعيدة عن الضياع... وما بقي من آثار الاقدمين لم يوجد الا في الكنائس المسيحية (١) »

٤ ـ المعلقات في البيت الحرام

للعرب اساليب خاصة تفردوا بها في احياء مآثرهم وتخليد مفاخرهم . فقد بلغ بهم كلفهم بالشعر وتعظيمهم اياه انهم عمدوا الى خيرة القصائد من الشعر القديم فكتبوها بماء الذهب في القباطي . ثم علقوها في مدينة مكة على اركان البيت الحرام موضع حجهم . ذلك ما حملهم على تسميتها « المعلقات » او «المذهبات» وهي سبع معلقات طبقاً لرواية الزوزني . اما ابو زيد القريشي صاحب «جمهرة العرب» فقد جعلها ثماني معلقات . واوصلها ابو زكريا التبريزي وغيره الى عشر معلقات .

٥ ـ النقوش والكتابات في ابنية العرب

امتاز العرب ايضاً بما خلفوه من النقوش او الكتابات في قصورهم القديمة وابنيتهم الخالدة . نذكر منها طبقاً لرواية الجاحظ والهمذاني ما زينوا به قبة قصر غمدان وكعبة نجران وباب القيروان وباب سمرقند وباب الرها وعمود مأرب وركن المشقر والابلق الفرد . فكانوا يعمدون الى الاماكن البارزة فينقشون الكتابة في اقصى المواضع صيانة لها من الدثور لكي يشاهدها مَن مرّ بها ويحفظ ذكرها على كر الدهور .

---

(١) دائرة معارف القرن العشرين : مجلد ٨ صفحة ٦١

ومن آثار العرب المشهورة ما بناه آل غسان النصارى اليعاقبة من القصور الشاهقة التي ما برحت اطلالها ظاهرة حتى الآن . وتلك الآثار كثيرة نذكر منها القصر الابيض وقصر المشتى الذي كُشِف سنة ١٩٠٨ وصرح الغدير . وقد اجاد في وصفها الاستاذ العالم رينه درسو (René Dussaud) احد حفاظ متحف اللوفر في باريس. فانه عني بالتنقيب عن قصور الغساسنة عندما ارتاد جبال حوران واطلع على الشيء الكثير من بقاياهم في تلك النواحي الوعرة .

٦ ـ مصادر ابحاثنا عن المكتبات العربية

لما كان موضوع بحثنا عن المكتبات العربية صعب المسالك كثير الغموض لجأنا الى الوسائل الامينة التي تمهد لنا سبيـــل الوصول الى الضالة المنشودة . وكان اعتمادنا في تدوين هذه الابحاث على المؤلفات الاساسية التي خلفها مؤرخو العرب. وعلى مطبوعات بعض مشاهير الرحالين والمستشرقين الذين يركن الى صحة رواياتهم وسداد آرائهم. ولم نغفل عن مراجعة الموسوعات العربية والافرنجية التي تميط اللثام عن امور شتى تتعلق بهذا الموضوع .

وقد طالعنا ايضاً بتدقيق وافر أهم المجلات الـتي صدرت في الاقطار الشرقية وهي : المقتطف والهلال والضياء ورعمسيس واللطائف المصورة والرابطة العربية والرسالة والمجلة السورية ومجلة « جمعية محبي الفن القبطي » و « صحيفة الكلية الاميركية » ومجلة « الثقافة » و « المصور » و « الصخرة » و « منبر الشرق » في القاهرة . ومجلة « الجامعة » و « الراعي الصالح » في الاسكندرية . ثم الجنان والنحلة والمشرق والآثار الشرقيـة والمورد الصافي والكلية والنشرة الاسبوعيـة والجمهور والمعرض وتقويم البشير ومجلة « الكنيسة الكاثوليكية » ومجلة « البصائر » و « رسالة السلام » والكشاف والايمان والاديب في بيروت. والآثار في زحلة. والمسرة في حريصا. والمنارة في جونية بلبنان. والعرفان في صيدا. والمقتبس والنعمة ومجلة المجمع العلمي العربي في دمشق . ومجلة « الحب والسلام » في حمص . ومجلة

الحديث ومجلة الضاد ورسالة العمال في حلب. ومجلة « لغة العرب » والمؤرخ ونشرة الاحد في بغداد . ومجلة النجم في الموصل. والمجلة الزيتونيـة ومجلة الافكار ومجلة الجامعة ونشرة الجمعية الخلدونية في تونس . وغيرها وغيرها وغيرها .

٧ ـ تغاضي المؤرخين عن تدوين اخبار المكتبات

مما يؤسف له انه على خطورة خزائن الكتب العربية ووفرة عددها في سالف الازمنة لم يقم بين جميع المؤرخين مَن دوّن لها تاريخاً وافياً ومستقلاً براسه . بل دوّنوا كل ما جاء عنها عرضاً في سياق كلامهم عن غيرها (١) من الحوادث والاخبار. فاضطررنا لادراك الهدف الذي توخينـاه من وضع هذا التأليف ان ندرس اول بدءٍ مطولات الأسفار ونطالع شتى المصادر. ثم اخذنا نقابل مختلف روايات المؤرخين تمحيصاً لما دوّنوه واثباتاً للحقيقة . وقد صادفنا في طريقنا عقبات كؤوداً لم تثبط عزمنا عن مضاعفة الجهود في التنقيب والدرس حتى تحققت امانينا بعونه تعالى وحوله .

---

(١) محمد فريد وجدي : دائرة معارف القرن العشرين : مجلد ٨ صفحة ٧٥

الفصل الثاني

انتشار المكتبات واندثارها في الاقطار العربية

١ ـ انتقال العرب من البداوة الى الحضارة

وصف المؤرخون ما كانت عليه حالة العلم من الخمول عند العرب في ايام جاهليتهم وصدر الاسلام . واوردنا على ذلك نصوصاً صريحة لمشاهير كتاب العرب انفسهم تؤيد هذه الحقيقة الراهنة . ولم يطل الزمان حتى تبدلت تلك الحال رأساً على عقب بسرعة عجيبة . فانتقل العرب من البداوة الى الحضارة ومن اقصى دركات الجهل الى اسمى درجات الثقافة . ويعزى هذا الانقلاب العظيم الى امرين جوهريين : اولهما الى اختلاطهم بالشعوب الراقية التي تغلبوا عليها . وثانيهما الى ما نقلوه الى لغتهم من علوم تلك الشعوب كاليونان والسريان والفرس والعبرانيين والهنود وغيرهم . ثم أخذوا يصنفون الكتب في شتى المواضيع العلمية حتى فاقوا على جميع الامم التي سبقتهم في هذه الحلبة الشريفة .

٢ ـ اقدم الآثار الكتابية بعد الاسلام

من اقدم الآثار الكتابية العربية التي ذكرها المؤرخون انه وجد في خزانة الانبار عدة كتب بخطوط بعض الصحابة والتابعين (١) ، واثبت ايضاً ابن النديم صاحب «الفهرست» قال (٢) : « رأيت في مكتبة عند بعضهم قمطراً كبيراً فيه نحو ثلاثمائة رطل من جلود وقراطيس مصرية وورق صيني وخراساني وتهامي فيها

---

(١) مجلة المجمع العلمي العربي : مجلد ١٠ سنة ١٩٣٠ صفحة ٤٠٨

(٢) « فصحاء الاعراب » للشيخ عبد القادر المغربي (مجلة المجمع العلمي العربي : مجلد ٩ سنة ١٩٢٩ صفحة ١٤٦)

خطوط بعض الصحابة . قال : وبينها اربعة اوراق احسبها من ورق الصين وعليها عنوان هكذا : هذه فيها كلام في الفاعل والمفعول من ابي الاسود رحمة الله عليه بخط يحيى بن يعمر . ويحيى بن يعمر هذا من اشهر اصحاب ابي الاسود الدوءلي الذي عاش في القرن الاول للاسلام . ولعلّ اول تأليف علمي ظهر بعد ظهور الاسلام هو صحيفة ابي الاسود المعروفة لدى النحاة بعنوان « تعليقة ابي الاسود » وهي التي ضمنها القواعد الاولى في علم النحو وتقسيم الكلمة الى اسم وفعل وحرف .

٣ ـ مغالاة العرب في اقتناء الكتب وتجميعها

لما توفرت للعرب الوسائل المادية والادبية اكبوا على التأليف فابدعوا فيه ولم يتركوا باباً من ابواب المعارف الا ولجوه . وبتوالي الازمنة اولعوا بجمع الكتب فسعوا لاقتنائها بشتى الطرق وتتطلبوها من كل حدب وصوب. فآثرها اهل الذكاء والفضل على كل قنية فاخرة وحلية ثمينة. وقد تساوى في ذلك كبيرهم وصغيرهم أغنياؤهم وعلماؤهم. ولم يتخلف عن ذلك نساؤهم ايضاً كبنت الملك العادل ضيفة خاتون وغيرها ممن ذكرهنّ المؤرخون. فانهم ادركوا قيمة المكتبات وفوائدها وشدة الاحتياج اليها . ولأجل ذلك اعتبروها اساساً ترتكز عليه قواعد الثقافة وركناً تتوثق به دعائم الحضارة وسبيلاً مؤدياً الى الخير والفلاح ومرقاةً موصلة الى ذروة الآداب والفنون.

وكانت المكتبات في عرف من ألمعنا اليهم نبراساً تنجلي به الرموز ومفتاحاً تنكشف به الاسرار والكنوز. بل مخنطاتِ عقول العلماء ومرايا تخيلات الشعراء. وخزائن آراء الفلاسفة وسجلات اقوال الخطباء . وخلاصة القول ان المكتبات هي مرجع احكام الدنيا والدين ومستودع علوم الاولين والآخرين .

يذكرنا ذلك بما سطره قديماً كيكرون او شيشرون الخطيب الروماني. وقد جرى

قوله مجرى الامثال مدى الاجيال. فنظم احد الادباء قول كيكرون في الشعر العربي فأبدع وأجاد :

كيكرونُ قال قولا حبّذا القولُ النصوحْ
كل بيتٍ دون كتبٍ جَسدٌ من غير روح

٤ ـ تنافس العلماء والخطاطين والمجلدين في تعزيز المكتبات

من تتبّع تاريخ الحركة الفكريّة في الدول العربية الاولى رأى ان قدماء مؤلفي العرب واساتذتهم النَقَلة الاعاجم شحنوا المكتبات بمؤلفاتهم النفيسة التي لا تجارى في مضمار . وقد شهد لهم بوفرة عددها وجزيل فوائدها علماء كلّ الامم في العصور الغابرة والحاضرة . وتجلّى ذلك بأبهى مظاهره في عصر النهضة العربية اذ برز اكبر عدد ذكره التاريخ من مشاهير المؤلفين في الفلسفة والطب والفلك والهندسة واللغة والشعروالدين والتاريخ والجغرافيا وسائر العلوم العقليّة والنقليّة.

وكان الخطاطون يتبارون في تنميق تلك الكتب وتجويدها وتوفير عدد نسخها ترغيباً للادباء والاغنياء والحكام في احرازها وتزيين مجالسهم بها .

وكان المجلدون بدورهم يتفنّنون لدرجة الابداع في تجليد المخطوطات وتزويقها ورقش قماطرها بالديباج والفضة وسائر انواع الزخارف . وكان كلّ من ذكرناهم من مؤلفين ومترجمين وخطاطين ومجلّدين فضلاً عن التجار والورّاقين واهل الضبط والاتقان يتنافسون افراداً وجماعاتٍ في تعزيز المكتبات وتنشيط القائمين بها .

٥ ـ تكاثر المكتبات في البلدان العربية تكاثراً مدهشاً

هكذا نشأت خزائن الكتب بين المتكلمّين بالعربية فانتشرت انتشاراً غريبا لم تألفه بقيّة الامم قبل ذلك التاريخ وبعده . وكانت تلك الخزائن عامّة وخاصّة . فالعامة اسسها الخلفاء والملوك في الحواضر وكبريات المدن مثل « بيت الحكمة » في بغداد و « دار العلم » في القاهرة وامثالها في الشام وفلسطين وما بين النهرين

واليمن واقطار المغرب وفارس وافغانستان والاندلس وغيرها .

اما المكتبات الخاصّة فقد تكاثرت في جميع الامصار تكاثراً مدهشاً بعناية نصراء الادب وطلاّب الشهرة . واصبحت هذه الخزائن الخاصّة التي تحتوي على عشرات الآلاف من المخطوطات تُعَدّ بالعشرات بل بالمئات في قصور الامراء ودور العلماء والعظماء من المسلمين وغير المسلمين . وصارت الكتب في ذلك العصر من دواعي الابّهة وادّلة الحضارة يتنافس في اقتنائها كبار التجار واهل الوجاهة وارباب الثروات وإن كانوا من غير طبقة العلماء .

٦ ـ تشييد المكتبات ومعاهد العلم بجوار قبور العظماء

انصرف الانسان منذ العصور الخاوية الى تشييد الابنية الفخمة فوق اجداث الملوك والعظماء . فقبر ابرهم الخليل وسلالتهِ في « المغارة المضاعفة » التي اشتراها من عفرون باربعمائة مثقال من الفضة (١) . وأهرام الفراعنة واضرحة ملوك يهوذا واسرائيل والمقابيين. ومدافن الآراميين والآثوريين والبابليين والحثيين والفرس. وقبور اليونان والرومان والانباط واباجرة الرها وملوك تدمر . ولا سيما مدافن ملوك الفنيقيين في صور وصيدا وجبيل وضريح الاسكندر ذي القرنين وهلم جرا . فهذه المزارات التاريخية باجمعها اعظم شاهد على صحة قولنا.

اما الاسلام ففي بداية امره لم يكترث للقبور ولاقامة البناء عليها . فكان رأيه فيها « خير القبور دوارسها » . غير انه بتوالي الازمان امتزج المسلمون بسائر الشعوب وأخذوا عنهم بعض تقاليدهم وعاداتهم . هكذا اصبح على اضرحةِ عظماء المسلمين من خلفاء وسلاطين وامراء وعلماء ابنية شاهقة تعلوها قباب أطلق عليها اسم « تُرَب » جمع تربة .

ومما لا جدال فيه ان قبة ضريح الامام علي في النجف هي أقدم قبة من نوعها

---

(١) سفر التكوين : ٢٣ : ٩ ـ ١٥

عرفها الاسلام . ثم شاع استعمال القبب وذاع في جميع الاقطار الاسلامية فورد ذكرها باسم « تربة » في التواريخ والخطط والتراجم وكتب الطبقات وغيرها . وقد عقد المقريزي في خططه بحثاً خاصاً بترب مصر (١) كما فعل عبد القادر النعيمي واحمد البقاعي وعبد الباسط العلموي في ترب دمشق . وكما فعل محمد بن طولون في ترب صالحية دمشق والشيخ وفا في ترب الانبياء والاولياء خارج مدينة حلب وداخلها (٢)

ومنذ منتصف القرن الخامس للهجرة أخذت الترب ترتدي ثوباً علمياً وتنطبع بطابع ثقافي . فكان يضاف الى التربة « مدرسة علم » او « مكتبة مطالعة » او « مكتب لتعليم الايتام والاطفال » او « مسجد للصلاة » يكون فيه درس علمٍ او قراءة قرآن . ففي سنة ٤٥٩ هجرية بنى شرف الملك محمد بن منصور الخوارزمي قبّةً (٣) على قبر الامام ابي حنيفة والى جانبها مدرسة كبيرة للحنفية . ولما تم بناؤها دعا اليها الفقهاء والعلماء والاعيان فانشد الشريف البيّاضي الشاعر هذين البيتين :

ألم ترَ أن العلم كان مبدداً	فجمّعه هذا الموسّدُ في اللحدِ
كذلك كانت هذه الارضُ ميْتة	فأنعشها فعلُ العميدِ ابي سعدِ

والظاهر انّ هذه المدرسة هي الاولى من نوعها حيث يقوم معهد علميّ بجوار قبرِ رجل عظيم تسمّى المدرسة باسمه .

ومنذ ذلك الحين بدأت المعاهد العلميّة والخزائن الكتابية تشاد الى جانب قبور العظماء. وهذا ما دعا اصحابَ كتب الخطط ومؤرخي مدارس العلم ليفرزوا في مؤلفاتهم فصلاً خاصّاً بالترَب لِما لها من ناحية ثقافية (٤) .

---

(١) المقريزي : جزء ٤ صفحة ٣٤٨ ـ ٣٤٩ طبعة المليجي (٢) منظومة الشيخ وفا في اولياء حلب: للاب فرديننذ توتل: طبع بيروت سنة ١٩٤٠

(٣) وفيات الاعيان : لابن خلكان : جزء ٢ صفحة ٢١٨ — ٢١٩ — والنجوم الزاهرة : جزء ٢ صفحة ١٥ (٤) مجلة المجمع العلمي العربي بدمشق : مجلد ١٦ سنة ١٩٤١ صفحة ١١٣

٧ ـ استطراد في رزايا المكتبات

لا ريب ان الحروب العديدة والفتن الاهلية والخصومات الدينية والمؤثرات السياسية وغارات البرابرة فتكت بقسم وافر من المكتبات العربية . فذهب بعضها فريسة النار والماء. ونهب بعضها واتلف بطرق مختلفة كما سنبين ذلك في فصول تابعة . هكذا قلّت مخطوطات ما ألف او ترجم بين القرنين الثاني والسابع للهجرة . ولم يسلم منها الا ما لا يحفل به . اما الباقي من المخطوطات الجليلة فأغلبه قد صنّف او نسخ منذ اواسط القرن السابع حتى اواخر القرن الحادي عشر للهجرة . ومما لا ريب فيه ان المنشور من مؤلفات السلف والمتداول منها بين ايدي الناس هو قُل من كُثر وجّة من بحر . بل ان القليل الواصل الينا من مؤلفات الاوائل لا يُؤبَهُ له ولا يُعدّ شيئاً مذكورا بالمقابلة مع تصانيفهم التي طمس عليها الدهر .

ذلك لان اغلب الفاتحين او الغزاة لم يشفقوا على ما صادفوه في البلاد التي دوخوها من التحف والكتب والذخائر الثمينة . فكانوا يستولون عليها او ينقلونها الى بلاد اخرى او يتلفونها بطرق شائنة دلت على جهلهم او جورهم او قلة اكتراثهم للعلم . واثباتا لذلك نستشهد بما رواه جرجي زيدان في كتابه « تاريخ التمدن الاسلامي (١) » قال :

« لما ظهر الاسلام ونهض المسلمون للفتح احرقوا ما عثروا عليه من الكتب ... لكنهم ما لبثوا ان تحضروا وذاقوا طعم العلم حتى اصبحوا احرص الناس على الكتب واكثرهم بذلا في الحصول عليها واشدهم عناية في صيانتها » .

وكتب جرجي زيدان ايضاً في « تاريخ آداب اللغة العربية (٢) » ما نصه قال :

« لكن المصائب كانت تتوالى على الكتب العربية من جهة اخرى بما كان يقوم بين الفرق الاسلامية من المنازعات . او بمناوأة رجال الفلسفة واتهامهم بالزندقة واحراق كتبهم في انحاء المملكة الاسلامية . وناهيك بما فعله غير المسلمين من

---

(١) الجزء الثالث : صفحة ٢٠٥ (٢) جزء رابع : صفحة ١٠٦ و ١٠٧

الفاتحين منذ تغلبهم على المسلمين او النقمة عليهم كما فعل الصليبيون في الشام والاسبان في الاندلس وغير ما بَلِيَ من الكتب بطول مكثه وفناء جلده او ورقه او بفعل النار او الفأر او نحو ذلك »

٨ ـ اقتصار البحث في هذا التأليف على المكتبات العربية

ليس غرضنا في هذا التأليف تدوين اخبار جميع المكتبات قديمها وحديثها في في مشارق الارض ومغاربها. فان هذا الموضوع خارج عن دائرة بحثنا الذي حصرناه بالمكتبات العربية دون سواها . بناء عليه ضربنا صفحاً عن وصف المكتبات العظمى التي تزين عواصم الدول وشهيرات المدن في اوروبا واميركا . ولم نتعرض الا لذكر ما حوته من الكتب العربية من مخطوطة او مطبوعة . وقد اقتصرنا في هذا التأليف على تدوين اخبار خزائن الكتب العربية الشهيرة في الامصار المشرقية وجعلناها فئتين كبيرتين متميزتين: خصصنا احداهما بالمكتبات الاسلامية والثانية بالمكتبات النصرانية . ثم الحقنا بهما كلتيهما بحثاً عن المكتبات الاسرائيلية قديماً وحديثاً .

ولم نغفل عن ذكر مكتبات علماء الاستشراق ومكتبات ادباء سوريا ولبنان المنتشرة في الاقطار الغربية. فوصفناها وصفاً موجزاً والمعنا بفضل منشئيها في نقلهم ثقافة العرب الى اهل اوروبا واميركا.

الفصل الثالث

احصاء المكتبات العربية في الخافقين

١ ـ وصف اجمالي للمكتبات العربية في هذا الكتاب

يتعذر على الكاتب اياً كان مهما بالغ في التدقيق ان يقوم باحصاء كافٍ وافٍ للمكتبات العربية قديمها وحديثها . فنحن على ما بذلناه من الجهد وما تجشمناه من العناء استيفاء لهذا البحث الواسع الاطراف لم نتمكن من الحصول الا على اليسير من الكثير. وقد جمعنا كل ما توفقنا الى التقاطه من اخبار تلك المكتبات المتفرقة وتراجم منشئيها ومعززيها وحوادث خزنتها وسائر ما يتعلق بها. ثم سردناه شيئاً فشيئاً وبوبناه تبويباً علمياً تاريخياً جغرافياً. ونعتقد ان ذلك يروق اهل البحث على اختلاف درجاتهم واهدافهم ويفي بالحاجة .

ويستخلص من مطالعة ابواب هذا الكتاب وفصوله وفروعه ان عدد المكتبات التي اتينا على وصفها او نوّهنا بذكرها بلغ زهاء الف ومائتين وخمسين مكتبة عامة وخاصة قديمة وحديثة .

٢ ـ المكتبات العربية وما يقابلها من سائر المكتبات

لو تيسر لنا ان نتعهد المكتبات في الامصار التي ينطق سكانها بالضاد لألفينا عددها ضئيلًا لا يناسب مساحة بلدانها الفسيحة الارجاء. فاذا استثنينا منها بعض ما هو جدير بالذكر وجدنا باقيها لا يشتمل الا على مكتبات صغيرة ضيقة الجدران . وهي لا تكاد تنطوي من الكتب الا على ما احتاج اليه طلبة المدارس. وقد انشىء اغلبها في فجر النهضة العلمية الحديثة بهمة الحكومات او المجالس البلدية او بمساعي

اصحاب النفوذ والمروءة.

تلك حال اكثر المكتبات العربية العامّة في الزمان الحاضر ومَن وقف على مجمل ما فيها من المجلدات قضى ان مجموعها كله لايضاهي مجموع مجلدات مكتبة كبرى واحدة من مكتبات عواصم اوروبا واميركا. وقد يؤلمنا ان نصرّح بهذه الحقيقة التي يجب ان تدوّن خدمة للتاريخ وتنويهاً بواقع الحال . لكنا نثق ثقة تامّة بان الامة العربية جمعاء تستيقظ من سباتها فتنصرف الى استعادة امجاد السلف بانشاء معاهد الثقافة ودور الكتب فيصدق فيها اذ ذاك قول الشاعر :

فاذا رأيتَ من الهلال نموه ايقنتَ انْ سيصير بدراً كاملاً

بناء على ذلك كله هلمّ نلقِ نظرة اجمالية على المكتبات العامّة في الاقطار العربية وعلى ما احتوتهُ من المجلدات عربيةً وغير عربية . ثم نردفها باحصاء موجز لدور الكتب العامّة في اشهر الممالك وما فيها من المجلدات المختلفة اللغات :

٣ - جدول دور الكتب العامة ومجلداتها في البلدان العربية

مصر	:	١٦ مكتبة عامة تحوي مليون و	٤٥٠ الف مجلد
الجزائر	:	٨ مكتبات عامة تحوي	٦٠٠ الف مجلد
فلسطين	:	٦ مكتبات عامة تحوي	٤٥٠ الف مجلد
لبنان	:	٣ مكتبات عامة تحوي	٣٥٠ الف مجلد
سوريا والعراق والحجاز واليمن	:	١٥ مكتبة عامة تحوي	٢٩٥ الف مجلد
المغرب الاقصى	:	١٠ مكتبات عامة تحوي	١٠٠ الف مجلد
تونس	:	٧ مكتبات عامة تحوي	٧٥ الف مجلد

يتحصّل من هذا الجدول ان المكتبات العامّة البالغة خمساً وستين مكتبة في جميع الامصار العربية لاتشتمل على اكثر من ثلاثة ملايين ومائتين وعشرين الف كتاب باللغة العربية وغيرها .

٤ ـ جدول دور الكتب العامة ومجلداتها في اشهر الممالك

اما دور الكتب العامة ومجلداتها في اشهر الممالك فقد نقلنا خلاصتها عن اوثق المصادر واصدقها وهذا بيانها :

الولايات المتحدة الاميركية:	٢٨٥ مكتبة عامة تحوي	٧٧ مليون	مجلد
المانيا والنمسا :	١٤٥ مكتبة عامة تحوي	٤٥ مليون	مجلد
الاتحاد السوفياتي :	١٢٠ مكتبة عامة تحوي	٤٥ مليون	مجلد
بريطانيا العظمى :	٧٦ مكتبة عامة تحوي	٢٤ مليون	مجلد
فرنسا :	٦٧ مكتبة عامة تحوي	٢٢ مليون	مجلد
ايطاليا :	٤٨ مكتبة عامة تحوي	٢١ مليون	مجلد
سويسرا :	٢١ مكتبة عامة تحوي	٦ ملايين	مجلد
هولندا :	١٥ مكتبة عامة تحوي	٦ ملايين	مجلد
بلجيكا :	١٣ مكتبة عامة تحوي	٥ ملايين	مجلد
اليابان :	٩ مكتبات عامة تحوي	٤ ملايين	مجلد
الدانمرك :	٦ مكتبات عامة تحوي	٢ مليوني	مجلد
اليونان :	٢ مكتبتان عامتان تحويان	ثلاثة ارباع مليون	مجلد
الهند :	٣ مكتبات عامة تحوي	نصف مليون	مجلد
ايران :	٢ مكتبتان عامتان تحويان	مائة الف	مجلد

يتضح من هذا الجدول ان اربع عشرة مملكة من أرقى ممالك الدنيا بلغ عدد مكتباتها قبل اعلان الحرب العالمية ١٩٣٩ـ١٩٤٥ ثمانمائة واثنتي عشرة مكتبة فيها مائتان وثمانية وخمسون مليونا وثلاثمائة وخمسون الف مجلد.

البَابُ الثالث

المكتبات الاسلامية العامة

الفصل الاول

خزائن كتب بغداد

اولاً : مكتبات بغداد في العصور الغابرة

١ ـ اعتناء المهدي خليفة بغداد بجمع الكتب

اول من ورد ذكره في التاريخ من الخلفاء العباسيين انه عُني بجمع الكتب هو محمد المهدي (١٥٨ – ١٦٩ ﻫ) والد هارون الرشيد (١٧٠ – ١٩٣ ﻫ) فانه ورث دفاتر علم اوصى له بها ابوه الخليفة ابو جعفر المنصور (١٣٦ – ١٥٨ ﻫ) عند وفاته وكان شديد الحرص عليها (١) .

ويؤيد عناية المهدي بجمع الكتب ما اثبته المؤرخ ميخائيل الكبير البطريرك السرياني (١١٦٧ – ١٢٠٠ م) قال (٢) : « ذكر المؤرخ داود الشرقي انه عثر في الكتب التي جمعها الخليفة المهدي ونقلها الى بغداد على الخبر التالي وهو : لما خرج يوحنا فم الذهب الى المنفى نقش على باب كنيسة انسطاسيا في القسطنطينية قوله : اني تركت للكنيسة ثمانمائة مجلد من الشروح والميامر والتراجم والكتابات التي أنعم الله تعالى بها علي » .

---

(١) الاغاني : جزء ٦ صفحة ٦١ (٢) تاريخ الازمنة : لميخائيل الكبير : صفحة ١٦٣ من طبعة شابو في باريس

٢ ـ مكتبة بيت الحكمة

لما كثرت الكتب المترجمة والمؤلفة في عهد هارون الرشيد دعت الحاجة الى تشييد بناء يستوعبها ويزيّن بها عاصمة الدولة العباسية الفتاة . ثم انشأ هذا الخليفة « بيت الحكمة » وهو يُعد اعظم المكتبات العربية شأناً واقدمها زماناً . وكان « بيت الحكمة » هذا في بدء الامر « مكتبة » يشتغل فيها بعض النصارى فينقلون المؤلفات اليونانية القديمة (١). وقد نصب الخليفة في تلك المكتبة يوحنا بن ماسويه النصراني السرياني مترجماً للكتب الطبية القديمة لِما عهده فيه من الحصافة وسعة المعارف وكان الخليفة قد نقل تلك الكتب من انقرة وعمودية ومن سائر بلاد الروم حين افتتحها المسلمون وسبوا سَبيها : ثم عينّه الخليفة اميناً على الترجمة ورتب له كتّاباً حذاقاً يكتبون بين يديه (٢). وروى جمال الدين القفطي ان ابا سهل الفضل بن نوبخت كان ينقل للرشيد من اللغة الفارسية الى العربية ما يجده من كتب الحكمة الفارسية .

ولما تولى عبدالله المأمون (١٩٨ — ٢١٨ ﻫ) الخلافة بعد الرشيد ابيه زاد في عدد الكتب ما لا يفوق عليه نفاسة ولم يشاهد مثله مجتمعاً في بلد من البلدان. وهي على اختلاف لغاتها اليونانية والسريانية والفارسية والقبطية والهندية والحبشية فضلاً عن العربية كانت تنطق بغزارة معارف مؤلفيها ومترجميها وتشيد بعناية الخلفاء العباسيين بجمعها وصيانتها. هكذا زَخَرَ « بيت الحكمة » بما نُقل اليه من الكتب من اطراف آسيا الصغرى والقسطنطينية وبما جمعه الربان حنين بن اسحق اثناء رحلاته في انحاء العراق والشام والاسكندرية وبلاد الروم (٣).

ولم تقتصر همة المأمون على ذلك بل اخذ يحث القوم على مطالعة الاسفار

---

(١) الفهرست : لابن النديم : صفحة ٢٤٨
(٢) اعلام العلماء باخبار الحكماء : لجمال الدين القفطي : صفحة ٣٨٠
(٣) ضحى الاسلام : لاحمد امين : جزء ١ صفحة ٢٨٤

الاهتمام بصناعتي النساخة والتجليد . ويقال انه انفق على ترجمة كتب اليونان وحدها ثلاثمائة الف دينار (١) . ثم عيّن قيّماً «لبيت الحكمة» يُدعى خازناً لادارة شؤونه وصيانة كنوزه . واشهر مَن تولى هذه الوظيفة سهل بن هرون الدستميساني وهو فارسي شعوبي شديد التعصب على العرب . وقد اثبت ابن نباتة عن سهل بن هرون المذكور قوله : « وجعله الخليفة كاتباً على خزائن الحكمة وهي كتب الفلاسفة التي نُقِلَت للمأمون من جزيرة قبرس . وذلك ان المأمون لما هادن صاحب هذه الجزيرة ارسل اليه يطلب خزانة كتب اليونان وكانت مجموعة عندهم في بيت لا يظهر عليها احد ... فارسلها اليه واغتبط بها المأمون وجعل سهل بن هرون خازنا لها (٢) » .

وكان هدف هذا الخليفة من انشاء « بيت الحكمة » تسهيل سبل المطالعة والتأليف والدرس لتعليم الرعية . وهي الطريقة التي عوّل عليها الملوك القدماء اذ كان يتعذّر على غير الاغنياء اقتناء الكتب العديدة نظراً لغلاء اثمانها. فمَن شاء من الملوك ترقية المعارف بين الناس انشأ لهم مكتبة وفتح ابوابها لروّام العلم . هكذا فعل البطالسة في مكتبة الاسكندرية وقياصرة الروم في القسطنطينية والعباسيون في « بيت الحكمة » ببغداد والفاطميون في « دار العلم » بالقاهرة والامويون في خزائن كتب قرطبة بالاندلس والسلاطين الاغالبة في القيروان. واقتفى آثارهم خلفاء الدولة الموحدية في « مكتبة الحكمة » بمراكش (٣)

٣ ـ مكتبة ابي نصر سابور

من دور العلم التي أنشئت في بغداد على مثال « بيت الحكمة » مكتبة وقفها ابو نصر سابور (٣٣٦ — ٤١٠ هـ) بن اردشير وزير بهاء الدولة بن بويه الديلمي . بناها سنة ٣٨١ للهجرة في محلة بين السورين في الكرخ وجمع فيها ما تفرق من

---

(١) الرزنامة التونسية : سنة ١٩٢١ ميلادية (٢) شرح العيون : صفحة ١٣٢
(٣) مجلة « الجامعة » في تونس : مجلد ١ سنة ١٩٣٧ صفحة ١٩٠ — ١٩٢

كتب فارس والعراق . واستنسخ من الهند والصين والروم كتبهم (١) . وجعل فيها نيفا وعشرة آلاف مجلد كلها بخطوط الائمة المعتبرة نذكر منها مائة مصحف نمقتها انامل ابن مقلة (٢) . ثم اخذ العلماء يحبسون عليها نسخاً من مؤلفاتهم حتى اصبحت من اغنى دور الكتب في عاصمة العباسيين . لان سابور كان من اكابر الوزراء واماثل الفضلاء جمعت فيه الكفاية والدراية . فاصبح بابه محط الشعراء ومجلسه مجتمع الحكماء والعلماء . ذكره الثعالبي في اليتيمة وعقد بابا مخصوصاً للشعراء الذين مدحوه لم يذكر معهم غيره (٣). واحترقت « دار العلم » في ما احترق من محال الكرخ عند مجيء طغرل بك اول ملوك السلجوقية الى بغداد سنة ٤٤٧ للهجرة (٤). وروى ابن الاثير ان هذا الحريق حدث سنة ٤٥١ للهجرة. ولعل روايته اصح والله اعلم (٥). والى هذه الدار المعتبرة اشار ابو العلاء المعري بقوله :

وغنّت لنا في دار سابور قنية ... من الورق مطراب الاصائل مهباب

٤ ـ مكتبة المدرسة النظامية

بعد خزائن كتب سابور أنشئت عام ٤٥٧ للهجرة مكتبة « المدرسة النظامية » وهي من اقدم المدارس الاسلامية . شيدها نظام الملك حسن بن اسحق وزير السلطان ملكشاه بن الب ارسلان السلجوقي على شاطىء دجلة في بغداد . ووقف عليها اسواقاً وضياعاً وحمامات وحانات فبلغت النفقات نحو الستين الف دينار . وكان يدّرس في المدرسة النظامية الامام الغزالي (٦)

---

(١) خطط الشام لمحمد كردعلي : مجلد ٦ صفحة ١٨٥ (٢) التاريخ الكامل لابن الاثير : جزء ١٠ صفحة ٣ ومعجم البلدان : جزء ٢ صفحة ٣٤٢ (٣) دائرة المعارف للبستاني مجلد ٩ صفحة ٣٦٧ (٤) تاريخ التمدن الاسلامي لزيدان : مجلد ٣ صفحة ٢٠٧ (٥) التاريخ الكامل : جزء ١٠ صفحة ٣ (٦) تاريخ الادب العربي لاحمد الزيات : صفحة ٣٣٥

٥ ـ مكتبة المدرسة المستنصرية

من خزائن الكتب الشهيرة في بغداد مكتبة « المدرسة المستنصرية » التي بناها المستنصر بالله ابوجعفر المنصور بن الطاهر الخليفة السادس والثلاثون (٦٢٣ـ٦٤٠ﻫ) من بني العباس . وكان هذا الخليفـة على جانب عظيم من الفضل وحسن الخلق والمزايا الجليلة . وقد وصفه ابن النجار في تاريخه قال : « لما ولي الخلافة نشر العدل في الرعـايا وبذل الانصاف في القضايا . وقرّب اهل العلم والدين... واجتمعت القلوب على محبته والالسن على مدحه .

بنيت «المدرسةالمستنصرية » ومكتبتها عام ٦٣١ ﻫ فوصفها الشيخ محمودشكري الآلوسي في كتابه « مساجد بغداد ومدارسها » قال : « هذه المدرسة رصينة البناء محكمة القواعد والارجاء . واسعة المساحة لم يُبنَ في ايامها احسن منها ولا اكثر وقوفاً . وهي على دجلة من الجانب الشرقي من بغداد عند الجسر الموجود اليوم . ولم تزل الى عصرنا هذا قائمة الاركان مشيدة البنيان ... وفي جنبها من جهة الغرب دار للكتب التي لم يجتمع مثلها في غير هذا المحل كثرة ونفاسة . وقد انفرد كل فن بمحل منها. وكانت فهرسة الكتب عدة مجلدات ضخام. وكان المحافظون عليها عدة اشخاص من المحدّثين يذاكرون المشتغلين بعلم الحديث باوقات مخصوصة علاوة على وظائفهم...وقد زارها ابن بطوطة عند مروره على بغداد ووصفها بابدع وصف واوجزه » .

ثم اورد الآلوسي ما رواه الشيخ عبد الرحمن الاربلي في كتابه « سير الملوك » قال عند الكلام عن المستنصر بالله ما نصه : « يقول مؤلف تاريخ بني العباس الامام العـالم تاج الدين علي بن الحسن المعروف بابن الساعي ان هذه منقبة لم يَسمُ اليها الاولون . ثم جعل فيها خزانة الكتب ونقل اليها من الربعات الشريفة والكتب النفيسة والاصول المضبوطـة المحتوية على جميع العلوم مائتين وتسعين حملا سوى ما نقل اليها بعد ذلك . وشرط ان يكون في دار الكتب التي هي الخزانة فيها عشرة يشتغلون بعلم الحديث النبوي ... »

وقد بنى السكان ابنية ودكاكين كثيرة على قسم من بقايا المدرسة المستنصرية . وعلى انقاضها اقيمت دائرة مكوس بغداد منذ عهد الدولة العثمانية . وأجمل ما تبقى من زخارفها يراه المرء على طاق ايوان كان احد السوقة جعله فرناً للخبز والكعك الى عهد قريب (١)

٦ ـ مكتبة فخر الدين المروزي

من البيوت في بغداد التي اجتمع فيها للاضياف الكتب والالعاب بيت لمبارك شاه بن الحسين المروزي الملقب فخرالدين . قال ابن الساعي : « كان له دارمضيف فيها كتب وشطرنج فالعلماء يطالعون في الكتب . ومن لم يعرف العلم يلعب بالشطرنج (٢) » وكانت وفاة مبارك شاه سنة ٦٠٢ للهجرة (٣)

٧ ـ خزانة الدار الخليفية

اسسها العباسيون في قصر الخلافة ببغداد تعظيما للعلم وتسهيلاً لابحاث العلماء . فكانوا ينفقون الاموال عن سعة لتجهيزها بالمخطوطات الوافرة والتحف الثمينة النادرة حتى اصبحت من اعظم المكتبات في الاسلام . ويروى عن الناصر لدين الله انه اعتمد على مبشر بن احمد (٥٣٠ – ٥٨٩هـ) احد كبار الادباء في اختيار الكتب لخزائن «الدارالخليفية » بعاصمة المملكة (٤) وممن تولى التدريس في الدار الخليفية نذكر كمال الدين بن يونس الفيلسوف الموصلي. وقد درس عليه الحكيم تاذري الانطاكي اليعقوبي مصنفان الفارابي وابن سينا وحل اوقليدس والمجسطي (٥) . وكان كمال الدين هذا من جملةالذين اشتركوا في احراق كتب الركن عبد السلام في رحبة بغداد

---

(١) رحلة الى العراق : للامير مصطفى الشهابي (مجلة دمشق : مجلد ٧ سنة ١٩٤١ صفحة ٢١٨) (٢) الجامع المختصر في عنوان التواريخ والسير : مجلد ٩ صفحة ١٨٧ – ١٨٨ طبعة بغداد (٣) الخزانة الشرقية لحبيب زيات : مجلد ٢ صفحة ١٤٢ (٤) اخبار العلماء باخبار الحكماء : صفحة ١٧٧ (٥) تاريخ مختصر الدول صفحة ٤٧٧ طبعة بيروت

٨ـ مكتبة دار دينار

ذكر ياقوت الحموي في معجمه (١) ان ابا الحسن العلوي الزيدي وقف كتبه على مكتبة «دار دينار» في بغداد. وروى ان ابا الحسن المذكور سمع الحديث مع احمد بن احمد ابي العباس . ثم خرج عن بغداد وغاب خبره .

٩ ـ خزانة المستعصم بالله

المستعصم بالله (٦٤٠ – ٦٥٦ ﻫ) هو آخر من بويع بالخلافة من بني العباس في بغداد . وقد انشأ في السنة الثانية من خلافته خزانة فاخرة اودعها كتباً ثمينة ولشد ما تباهى بها امام الخاص والعام . وقد نقش على جهاتها الاربع اشعاراً طريفة نذكر منها ما نظمه صفي الدين عبدالله بن جميل متقدم شعراء الديوان قال :

أنشأ الخليفة للفنون خزانة ... سارت بسيرة فضله أخبارُها

تجلو عروساً من غرائب حسنها ... دررّ الفضائل والعلوم نثارها

اهدى مناقبه لها مستعصم ... بالله من لألائه انوارها .

وفوض الخليفة المستعصم الى فريق من الخطاطين لينسخوا الكتب اغناء لهذه الخزانة بالمؤلفات المختلفة المواضيع . ومن ابرع الخطاطين الذين وقع عليهم اختياره عبد المؤمن صفي الدين والشيخ زكي الدين. ولم يكن في عصره اوسع شهرة منهما في اجادة الخط (٢).

١٠ ـ خزانة الحكمة في كركر بضواحي بغداد

كركر ناحية في بغداد ذكرها ياقوت الحموي (٣) كان يقطنها علي بن يحيى

---

(١) معجم البلدان لياقوت : جزء ١ صفحة ١٩٣ (٢) فوات الوفيات : لابن شاكر : جزء ٢ صفحة ١٠٨ (٣) معجم البلدان : مجلد ٧ صفحة ٢٤٤

المنجم في القرن الثالث للهجرة . وانشأ فيها علي المشار اليه خزانة كتب عظيمة في قصره الجليل سماهـــا « خزانة الحكمة » امست كعبة للقصاد من كل صقع . فكانوا يقيمون فيها ويتعلمون منها صنوف العلوم على اختلافها . وكانت الكتب مبذولة لهم والنفقة في ذلك من مال علي بن يحيى مؤسسها (١) . وحلت وفاته في آخر ايام الخليفة المعتمد سنة ٢٧٥ للهجرة ودفن في سامرا (٢)

١١ ـ تضعضع الخلافة العباسية

لما انهمك خلفاء المأمون في الملاهي ضعفت شوكتهم واسرعت عوامل التضعضع والانحلال الى دولتهم. وامست الخلافه الاسلامية مثلثة على حين ان دين الاسلام يدعو الى توحيدها فانقسمت كما يأتي . الخلافة الاولى وهي « العباسية » في العراق باسيا كانت عاصمتها بغداد . والثانية « الفاطمية » في مصر بافريقيا ومركزهـــا القاهرة. والثالثة « الاموية » بالاندلس في اوروبا ومقرها مدينة قرطبة.

ومن اهم دواعي ذلك التضعضع ان الاتراك والغلمان استفحل امرهم مذ خلافة المعتصم بالله فاستولوا شيئاً فشيئاً على مقاليد التدبير في دولة بني العباس. ثم انتهى اليهم الحل والعقد في كل امر حتى في اختيار الخليفة ومبايعته. ولم يتركوا لصاحب التاج والصولجان سوى لقب الخلافة حتى ان المعتمد على الله (٢٥٦ — ٢٧٩ ﻫ) بن المتوكل كان يطلب الشيء الحقير فلا يناله. وضاق به الحال يوماً فانشد متوجعاً (٣)

اليس من العجائب ان مثلي — يرى ما هان ممتنعاً عليه
وتؤخذ باسمه الدنيا جميعاً — وما من ذاك شيء في يديه

١٢ ـ فاجعة بغداد باستيلاء التتر عليها

لما دال الزمان بالدولة العباسية نُكبت بغداد باستيلاء التتر الذين وضعوا السيف

---

(١) غرائب الغرب لمحمد كرد علي : جزء ١ صفحة ١٨٣ (٢) معجم الادباء لياقوت الرومي جزء ١٥ صفحة ١٥٧ (٣) الحضارة الاسلامية لاحمد زكي باشا : صفحة ٤ـ٥

في اهلها والخراب في ابنيتها . واثبت ابن بطوطة ان التتر قتلوا في العراق اربعة وعشرين الفاً من العلماء ولم ينج منهم الا اثنان (١).

وذكر ابن الفوطي البغدادي (٦٤٢ - ٧٢٣ هـ) في كتابه « الحوادث الجامعة والتجارب النافعة في المائة السابعة » فاجعة هولاكو التتري التي لم يرو التاريخ افظع منها بقوله : ان هذا الطاغية قضى على جميع آل العباس وذراريهم ونسائهم وأنسبائهم. وخرب بغداد واحرق مساجدها ووضع السيف في سكانها شيوخاً وكهولا وفتياناً. وقدّر عدد القتلى منهم باكثر من ثمانمائة الف في مدينة بغداد فقط. عدا من القي من الاطفال في الوحول او من هلك جوعاً وخوفاً في الآبار والقنوات وسراديب الموتى. وقد وصف ابن الفوطي ذلك كله وصفاً تاماً لا افراط فيه ولا تفريط. وساعده على التبسط في سرد الحوادث التي دونها انه كان كاستاذه ابن الساعي خازن كتب المدرسة المستنصرية.

١٣ - محق مكتبات بغداد واتلاف كنوز قصورها

تمادى هولاكو حفيد جنكزخان التتري في العسف والتخريب والتدمير اثناء زحفه الى بغداد وتدويخها. فلم يُبقِ فيها اثراً للمخطوطات القديمة والذخائر الثمينة التي كانت مكنوزة منذ قرون في قصور الخلفاء وبيوتات الامراء. واقترف مثل تلك الفظائع في « دار الحكمة » وفي خزائن كتب المدرسة النظامية والمدرسة المستنصرية الواقعتين ضمن سوق الثلاثاء وفي غيرها من خزائن الكتب العامة والخاصة. فألقى بعضها في نهر دجلة فسد مجراه وجاز الناس على الكتب من جانب الى جانب كأنها جسر معقود. وبعضها الآخر استنفد عزم النار الآكلة مدة غير قصيرة من الزمن حتى قضت قضاءها فيه .

ومن الكنوز الفاخرة التي اجهز عليها البرابرة في تلك الفاجعة الاليمة تحف

(١) دائرة معارف القرن العشرين. مجلد ٨ صفحة ٧٥

الملوك وهداياهم ومراسلاتهم التي وجهوها الى الخلفاء العباسيين ببغداد . وقد عثرنا على ذكر بعض الهدايا والرسائل التي تبادلها بنو العباس وقياصرة القسطنطينية في ايام عزّهم نورد منها ما رواه ابو الفرج ابن العبري (١) قال:

« في عهد الخليفة الراضي بالله (٩٣٤ – ٩٤٠م) اعني في السنة ٩٣٧ للميلاد اوفد رومانس ملك الروم (٩١٩ – ٩٤٤م) رسولا الى الراضي بالله ملك العرب حاملًا اليه هدايا ثمينة ذهبية وفضية مرصعة بحجـــارة كريمة . ثم انفذ اليه رسالة مكتوبة في اللغة اليونانية بحروف ذهبية مع ترجمتها العربية بحروف فضية . وقد افتتحها هكذا : « من رومانس وقسطنطين واسطفـان وقسطنطين ملوك الروم العظام الى صاحب السمو الشريف المتولي امر المسلمين سلام ...»

ولما تسلم الراضي بالله تلك الهدايا وجّه من قبله كذلك سفيراً في هدايا مـع رسالة ورد فيها . من عبدالله ابي العباس الراضي بالله رئيس الدين امير المؤمنين الى رومانس وقسطنطين واسطفان وقسطنطين رؤساء الروم سلام...»

ثم اثبت ابو الفرج ابن العبري نفسه في تاريخه ما يلي (٢) قال : « وفي السنة ٤٤٣ للهجرة (١٠٥١م) وصل رسول من قسطنطين ملك الروم (١٠٤٢–١٠٥٤) الى القائم بامر الله (١٠٣١ – ١٠٧٥ م) خليفة بغداد حاملًا رسالة مكتوبة باللغة اليونانية وما بين اسطرها ترجمتها العربية مدّونة بحروف ذهبية على قطيفة ارجوان افتتحها الملك بقوله . « قسطنطين الملك المؤمن الرفيع القادر بالمسيح الله ... الى الصديق الحبيب المبّجل ابي جعفر القائم بامر الله رأس المسلمين وامير المؤمنين...»

ومن تلك التحف النفيسة ما اهداه الملك الناصر صلاح الدين الايوبي الى الخليفة العباسي في بغداد نذكر منها ثلاثمـائة مجلد من الكتب البديعة النسخ (٣) ذهبت فريسة فاجعة هولاكو البربرّية .

---

(١) التاريخ السرياني لابن العبري. صفحة ١٧٨ (٢) التاريخ السرياني لابن العبري. صفحة ٢٣١
(٣) دائرة معارف القرن العشرين : مجلد ٨ صفحة ٧٤

١٤ ـ ثقة اسلام بغداد بجاثليق النساطرة واستيداعهم اياه اموالهم

اضطرب اهالي بغداد كبارهم وصغارهم ايما اضطراب واستحوذ الذعر على قلوبهم لِما ارتكبه هولاكو وجيوشه واعوانه من ضروب الجرائم والمظالم. فاضاعوا رشدهم وحاروا في كيفية انقاذ نقودهم وجواهرهم من يد اولئك الطغاة البرابرة. فسارعوا الى كنيسة النساطرة واودعوا الجاثليق تلك الاموال بمثابة امانة. يؤيد ذلك ما رواه شاهد معاصر لتلك الحوادث المفجعة وهو ابو الفرج المعروف بابن العبري (+ ١٢٨٦ م). فانه بعدما سرد اخبار الجائحة المذكورة بالتفصيل الوافي قال (١) :

« استلّ المغول سيوفهم وفتكوا بجميع اهالي بغداد وكانوا يعدّون بالربوات وأبلى الكرج بلاء كبيراً اكثر من غيرهم . اما الجاثليق مكيخا الثاني (١٢٥٦ — ١٢٦٥ م) فقد حشد المسيحيين في كنيسة الزقاق الثالث وحفظم فيها ولم يُصَب احد منهم بضرر او اذى . ونقل قومٌ من اغنياء المسلمين اموالهم الى الجاثليق على امل استردادها اذا ما افلتوا من تلك الكارثة . غير انهم قتلوا على بكرة ابيهم ولم يسلم منهم احد . جرى ذلك يوم الاربعاء ثامن شهر الاسلام الاول (محرّم) سنة ٦٥٦ للهجرة وهي السنة ١٥٦٩ يونانية (١٢٥٨ م) . فدخل المغول بغداد يوم الجمعة ٢٥ محرم واحتلوها يومَ السبت ٢٦ منه » .

١٥ ـ انقراض الخلافة العباسية وانتقالها الى آل عثمان

بعدما دوّخ هولاكو بغداد عام ٦٥٦ للهجرة كما قلنا لم يشفق على خليفتها المستعصم بالله (٦٤٠ = ٦٥٦ م) بل قتله وبقتله اياه سقطت دولة بني العبّاس وانقرضت وبلغ عدد خلفائها سبعة وثلاثين خليفة ملكوا مدّة ٥٢٤ سنة. اما سائر العباسيين فقد فرّ مَن نجا منهم الى مصر وانتقلت معهم الخلافة العباسية الى هناك.

---

(١) ابن العبري : تاريخ الدول السرياني : صفحة ٥٠٥

وظلّ هؤلاء واحفادهم تائهين على وجوههم يحملون لقب الخلافـة بلا سلطان ولا صولجان مدة مائتين وستين سنة ١٢٥٨ – ١٥١٧ م) . وكان آخرهم محمـد المتوكل على الله (الثالث) . وقد انتزع الخلافة منه السلطان العثماني سليم الاول عندما افتتح مصر سنة ١٥١٧ م . هكذا آلت الخلافـة الاسلامية الى سلاطين آل عثمان وبقيت محصورة فيهم مدّة اربعة قرون وسبعة اعوام (١٥١٧ = ١٩٢٤) . فكان اوّل خلفائهم سليم الاوّل وآخرهم عبد المجيد الثاني الذي ُخلع سنة ١٩٢٤

ثانياً : مكتبات بغداد في الزمان الحاضر

١ – دار الكتب العمومية

مركز هذه الدار في مدرسة جامع الحيدرخانة حيث كان يلتئم الشعب قديماً في الحوادث السياسية الهامة(١) . أسسها الوزير العلامة داود باشا (١٧٧٤–١٨٥١) وكان من اهل المعرفة ومن دعاة الأدب ومروّجي بضاعته(٢). لكن هذه المكتبة لم تفتح ابوابها للقراء عامة الا سنة ١٣٠١ للهجرة (١٨٨٦ م) في عهد الوزير العثماني مصطفى عاصم باشا والي المدينة المذكورة . وكان ذلك بسعي السيد محمد آل الجميل مدير معارف ولاية بغداد ، فانه جمع لديه علماء الزوراء واعيانها حاثاً اياهم على معاضـدة الحكومة لانشاء خزانة كتب عمومية تكون في جامع الحيدرخانة . وطلب منهم ان يتحفوها بما لديهم من مخطوطات نادرة وتآليف مفيدة (٣) تضاف الى الثروة العلمية التي أوجدها داود باشا في الجامع المشار اليه . وللحاج علي ابن السيد نعمان الآلوسي قصيـدة نظمها يوم افتتاح هذه المكتبة قال في مطلعها .

---

(١) رحلة الى العراق : للامير مصطفى الشهابي (مجلة دمشق : مجلد ٢ سنة ١٩٤١ صفحة ٢١٨) (٢) تراجم مشاهير الشرق: تأليف جرجي زيدان : جزء ٢ صفحة ٢٥٠ (٣) مقالة الاب انستاس الكرملي في المشرق : مجلد ٣ سنة ١٩٠٠ صفحة ٥٩٢

يا حبّذا مكتبةٌ قد جُمعت — للعلم فيها كتبٌ لطائف
يعمّ ارباب العلوم نفعها — فكلّ طالبٍ عليها عاكف
كأنها للطالبين مورد — فكلّ راوٍ من نداها غارف

ثم اختتمها مؤرخاً

تباشر الناس بها وأرّخوا — مكتبة جددها المعارف

١٣٠١ للهجرة

وفي هذه المكتبة مخطوطات وافرة بينها بعض كتب عزيزة الوجود . وفي السنة ١٨٩٥ انتسخ شيئاً منها الاب لويس شيخو برسم المكتبة الشرقية ببيروت (١) وتحوي المكتبة كتاب « المقامات النصرانية » لابي العباس يحيى بن سعيد بن ماري (+ ١١٩٣ م) الطبيب النسطوري . وهي نسخة فريدة نادرة من عهد مؤلفها اهداها الى هذه المكتبة فتح الله عبود من اعيان النصارى في العراق . ولهذه المقامات نسخة ثانية مرسومة بالرقم ٣٨٤ في مكتبة فينا عاصمة النمسا . لكنها تختلف اختلافاً عظيماً عن نسخة بغداد لا في عدد المقامات واسمائها وترتيبها فقط بل في الانشاء ايضاً (٢)

٢ ـ المكتبة العامة

تتألف هذه المكتبة العامّة من ثلاث مكتبات وهي: مكتبة «السلام» التي انشأتها «المس بل» المستشرقة الانكليزية الشهيرة بعد الاحتلال البريطاني في العراق. ومكتبة « جمعية الشبيبة المسيحية » ومكتبة « المعارف » . وقد توّحدت هذه المكتبات الثلاث عام ١٩٢٩ بأمر فيصل الاوّل ملك العراق الذي جعلها المكتبة الرسمية في عاصمة مملكتهِ ، فاصبحت تعرَف بعد اندماجها باسم «المكتبة العامّة » وهي تحتوي الآن على نحو خمسة عشر الف مجلد مطبوع نصفها عربي ونصفها الآخر في لغات شتى. وفي هذه المكتبة ايضاً طائفة صالحة من المخطوطات لم نتوفق الى الوقوف على فهرسها.

---

(١) سياحة من بيروت الى الهند (المشرق : مجلد ١٦ سنة ١٩١٣ صفحة ١٥٠)
(٢) شعراء النصرانية بعد الاسلام : صفحة ٣٤٨ — ٣٤٩

وتسعى وزارة المعارف العراقية لتعزيز دور الكتب في جميع انحاء المملكة فكتبت الى سفرائها وقناصلها والى البعثات العلمية العراقية في اوروبا تستحثهم للحصول على ما تيسر من المخطوطات العربية او على صورها الفوتوغرافية (١)

وللشيخ محمد رضا الشبيبي وزير المعارف في العراق فضل لا ينتسى على دور الكتب في ذلك القطر العربي . فانه نهض يبحث وينقب عن مخطوطات نفيسة نادرة ولا سيما عما وضعه المؤلفون العراقيون من الكتب وهي مكنوزة في خزائن اوروبا والامصار الشرقية ، وقرر وجوب استنساخها او تصويرها ليضمها الى « المكتبة العامة » والى سائر دور الكتب في بغداد وحواضر العراق . ذلك تسهيلا لمهمة الدارسين والباحثين والمؤرخين ، والى هذا الوزير يرجع الفضل في تنظيم « المكتبة العامة » المشار اليها وتنسيق فهارسها تنسيقاً فنياً اسوة بدور الكتب الراقية في الشرق والغرب (٢)

٣ ـ مكتبة الاوقاف العامة

أسست هذه المكتبة عام ١٩٢٩ بسعي الشيخ احمد الشيخ داود يوم أسندت اليه وزارة الاوقاف في العراق. فبذل جهوداً صادقة ولاقى مقاومات عنيفة لمشرع بجمع الاسفار المبعثرة في مكتبات جوامع بغداد. ونهج في ذلك نهج ناظر المعارف المصرية علي باشا مبارك الذي جمع في عهد الخديو اسمعيل (١٨٦٣ ـ ١٨٧٩) كل ما كان مخزوناً من المخطوطات في مساجد مصر وجعلها دعامة لدار الكتب المصرية .

هكذا ظفر الشيخ احمد بضالته فأنشأ مكتبة الاوقاف العامة وضم اليها ما جل من الكتب العربية حتى بلغ اليوم عدد مجلداتها المطبوعة زهاء خمسة آلاف وخمسمائة. اما مخطوطاتها فهي ثلاثة آلاف وسبعة وسبعون مجلداً بينها ما هو فريد ونادر في عالم المخطوطات .

---

(١) جريدة « البشير » البيروتية : مجلد ٦٩ عدد ٥٦٢٠ في ٤ تشرين الاول ١٩٣٨

(٢) مجلة « المؤرخ » في بغداد لرزوق عيسى: مجلد ٢ سنه ١٩٣٨ صفحة ٦٨ ـ ٦٩

الفصل الثاني

خزائن كتب النجف الاشرف

١ - جامع النجف وقبته الثمينة وكنوزه

يُعتبر هذا الجامع من اقدم الجوامع الاسلامية وافخمها واثمنها وفيه قبر امير المؤمنين علي بن ابي طالب . وقبّته هي اقدم القبب في الاسلام على الاطلاق (١). وقد وصفها ضياء الدين الدخيلي قال (٢) :

« ولنعد الى بناية القبر الفخمة فانها تضعضعت وحصلت صدوع في القبة المنورة بمرور العصور وتعاقب الاعوام ، واراد الشاه صفي حفيد الشاه عباس الاول توسعة ساحة الصحن الضيقة فامر بهدم بعض جوانبه وشيدت هذه العمارة الضخمة الباقية الى اليوم . وفي هذه العمارة كانت القبة الكريمة والايوان والمئذنتان مبنية بالحجر القاشاني الى عهد ملك ايران نادر شاه . امّا هذا فقد نذر اذا فتح الهند ان يذّهب قبر الامام (ع) . وكذلك لقد امر عام ١١٥٥ هـ بقلع الحجر القاشاني عن القبة المقدسة والمأذنتين والايوان وتذهيبها ، وبذل اموالا عظيمة فقام بالتذهيب اكثر من مائتي صائغ ونحّاس قد جمعهم من سائر اقطار الارض . وفيهم الصيني والهندي والتركي والفارسي والعربي . وقد طُليت كل آجرّة بمثقالين من الذهب الخالص على ما ذكر بعض الصاغة الذين تولوا اصلاح القبة اخيرا .

---

(١) الترب والمدافن الخاصة في الاسلام : لمحمد احمد دهمان (مجلة المجمع العلمي العربي : مجلد ١٦ سنة ١٩٤١ صفحة ١١١) (٢) مجلة « الرسالة » لاحمد حسن الزيات في القاهرة : سنة ٦ صفحة ١٥٤٩ ـ ١٥٥٠

« وقد وضع في خزانة القبر الشريف تحفاً جسيمة مما استلبه من ذخائر ملوك الهند ، هذا فضلاً عما اهدى اليها غيره من الملوك والامراء المسلمين ، ففيها من الجوهرات والنفائس ما لا يثمن ، وان الاحجار الكريمة لا تعد ولا تحصى . اما القناديل الذهبية المرصعة والسجاد الفاخر الموشى بالذهب والستائر المنتظمة فيها الجواهر ، الامور التي تعز على الملوك فهي اعلاق ونفائس تبهر العقول ولا يُصدّق اجتماعها في اعظم الكنوز .

« وان بداعة الفن في البناية تبهر الانظار وتخلب الافكار بزخرفها وطلائها . وقد قال رحالة مصري : وقبة القبر ومئذنتاه تُكسى بالذهب الخالص في بريق خاطف . جزتُ الباب الى الفناء السماوي المربع تطل عليه الحجرات المتجاورة ثم دخلتُ باب الضريح وأنّى لقامي الكليل ان يصف ابداعه من نقوش وتطعيم بالذهب والفضة وزخرف بالبلور والزجاج والقيشاني ما فاق فيه جميع المساجد الاخرى .»

٢ ـ مكتبة جامع النجف

في الصحن الشريف من جامع النجف المشار اليه انشئت مكتبة عظيمة بعناية سلاطين الشيعة ووزرائهم واهل الثروة والعلماء انفسهم. واشهرهم ملك فارس عضد الدولة بن بويه المتوفى سنة ٣٧٢ للهجرة . وهو اول من خُطِب له على المنابر بعد الخليفة واول من أطلق عليه لقب « شاهنشاه » في الاسلام . فانه برّز في العلوم العربية وله فيها ابحاث حسنة. ثم تعهد بخيراته المدارس والمكتبات لانه كان محباً للعلم وذويه. وفي سنة ٧٥٥ هـ احترقت مكتبة جامع النجف فجددها جماعة من العلماء نذكر منهم ابن الآوى الذي كان صدرا للحكومة الايلخانية وفخر المحققين ابن العلامة الحلي .

وبتوالي الايام مُنيت مكتبة هذا الجامع بالاهمال وتبعثر جانب مهم من ذخائرها النفيسة . ولا تزال بقاياها حتى الآن تحوي نوادر المخطوطات ومن ضمنها

كتب علمية وادبية قديمة الخطوط جداً نذكر منها شرح الدريدية لابن خالويه بخطه. ولما كان السيد كاظم الدجيلي قد وضع مقالة ممتعة في وصف خزانة مخطوطات جامع النجف ونشرها على صفحات مجلة « لغة العرب » البغدادية رأينا ان نقتطف منها ما يهم موضوعنا قال (١) :

« حدثنا جماعة من الفضلاء انه كان في خزانة كتب الامام علي (عم) نحو اربعين الف كتاب . وبالغ بعضهم فقال زهاء ٤٠٠ الف كتاب . وقد جمعت هذه الخزانة نفائس الكتب وامهاتها التي عز وجود مثلها في الدنيا . كيف لا وهي مما يجب ان يُهدى لحضرة الامـــام ولكن قد تلف جل هذه الكتب بل قل كلها اذ لم يبق منها الا عدد يسير لطلاب العلم والمطالعين من النـاس على اختلاف طبقاتهم بدون شاذ . ولما كان ذلك بهذه الصورة صار الداخل اليها اذا خرج اخبأ تحت عباءته الكتب التي يريد سرقتها ويخرج بها بدون ان يفتشه احـد . ولكثرة السراق ظهر النقص فيها ظهوراً لا يمكن اخفاؤه على ذي عينين اذ لم يبق منها الا ما يناهز المئة . وحينئذ أغلقت ابواب الخزانة ومُنع الطلاب والمطالعون ...

« وكنا نشتاق الى رؤية البقية البـــاقية من تلك الخزانة التي ضاع اكثر كتبها. وفي زيارتنا النجف الاخـيرة وكانت في ١٢ ربيع الاول سنة ١٣٣٢ ﻫ (٨ شباط ١٩١٤) طلبنا الى السيد محمد جواد افندي الرفيعي ... ان يطلعنـــا على خزانة كتب الامـــير. فاجاب طلبنا وامر نائبه السيد داود افندي بفتحها ففتحها... ولم نكتفِ منها بزيارة واحدة بل بقينا نتردد اليها نحو اربعة ايام...»

وقد وصف كاتب المقالة ما شاهده من المخطوطات النادرة والمصاحف النفيسة في الخزانة المشار اليها. وذكر انه اطلع فيها على « اكثر من ٤٠٠ مصحف من أحسن ما كتبه الكاتبون وأجود ما جـــلده المجلدون وذهبه المذهبون وزخرفه المزخرفون الخ الخ ».

---

(١) لغة العرب : مجلد ٣ صفحة ٥٩٣ – ٦٠٠ سنة ١٩١٣–١٩١٤

وذكر مؤلف كتاب « ماضي النجف » تلك المكتبة وخصها بما تستحقه من الاعتبار . واثبت انها تحوي اشهر الخطوط العربية ولا سيما الكوفي والاندلسي والياني . في جملتها قطعة من مصحف بقطع سفينة مكتوبة على رق بخط كوفي. وفي آخرها ما نصه . « ثم سنة ٤٠ من الهجرة كتبه علي بن ابي طالب (١).

وروى السيد محمد كردعلي (٢) عن خزانة كتب النجف ما نصه : « وفي عداد التحف الموجودة عند ضريح الامام عليّ في النجف مكتبة حوت نفائس المخطوطات العديمة النظير . منها نسخة من القرآن الكريم بخط الحسين بن عليّ بن ابي طالب . الى غير ذلك من نوادر الكتب وثمين المخطوطات .

٣ ـ المكتبة الحسينية

ليس في النجف مكتبة عامّة بعد مكتبة الصحن الشريف المنوّه بها سوى المكتبة الحسينية . وهي التي اسسها الحاج عليّ محمد النجف آبادي في مطلع القرن الرابع عشر للهجرة . فجهزها بكثير من كتب الادب واللغة والتاريخ مطبوعة باللغتين العربية والفارسية. ولبث مدة حياته دون ان يتزوج كي لا يشغله شاغل عن البحث والمطالعة ونسخ الكتب .

وقبل وفاته عام ١٣٣٢ للهجرة وقف مكتبته الحسينية على طلبة العلم . وفي الوقت نفسه حبس عليها داره كي يظلّ ريعها كافياً لاصلاحها ولسدّ نفقات خازنها في مستأنف الزمان . ويشاهد الزائر اغلب مخطوطات المكتبة منسوخة بخط الحاج علي مؤسسها . أضيف اليها بتعاقب الايام اسفار وافرة العدد وقفها ارباب الفضل والاحسان (٣)

---

(١) ماضي النجف : تأليف جعفر ابن الشيخ باقر آل محبوبة النجفي : صفحة ١٠٠ - ١٠٢

(٢) مجلة المقتبس : مجلد ٧ صفحة ٩٢٤

(٣) ماضي النجف ٣ صفحة ١٦

الفصل الثالث

خزائن كتب الموصل

اولا : مكتبات الموصل في العصور الغابرة

لم تكن الموصل اقل حظاً من سائر حواضر المشرق في مكتباتها وفي معاهدها العلمية . فقد روى ابن النديم ان جعفر بن محمد المتوفى سنة ٣٢٨ للهجرة انشأ فيها « دار العلم » اسوة ببيت الحكمة الذي أسسه الخلفاء في بغداد . وما كانت « دار العلم » هذه الا مكتبة يُعطى المشتغل فيها الورق مجاناً (١)

وبتوالي الايام اصبحت مدينة الموصل محوراً للمعارف كما يتضح ذلك من المدارس الكثيرة التي بُنيت فيها من ايام الوزير نظام الملك المقتول سنة ٤٨٥ للهجرة . واقتدى بهذا الوزير الملوك الاتابكيون (٥٢١ — ٦٣١ هـ) (١١٢٧ — ١٢٣٣ م) الذين شيدوا معاهد العلم حتى اصبحت الموصل في عهدهم من العواصم الاسلامية الكبيرة . فزارها الكبراء والعلماء والشعراء (٢) الذين نالوا قسطاً وافراً من اهتمام الاتابكيين واحسانهم (٣) . وكانت تلك المعاهد العلمية حافلة بخزائن الكتب يشتغل فيها المؤلفون والمترجمون والنساخ والمجلدون على مثال دور الحكمة في دولتي العباسيين والفاطميين .

غير ان الرزايا التي نُكبت بها بلاد الشرق على يد الفاتحين الطغاة كهولاكو وجنكزخان وتيمورلنغ لم تسلم منها مدينة الموصل وضواحيها . فحل بها وبمدارسها ومكتباتها من التدمير والاتلاف ما حل بكبريات المدن كبغداد وتكريت ودارا

---

(١) الفهرست : لابن النديم : صفحة ٢٢٨ (٢) تاريخ الموصل للقس سليمان صائغ : مجلد ٢ صفحة ٨٥ (٣) تاريخ الموصل للقس سليمان صائغ : مجلد ٢ صفحة ٨٦

وخوارزم والرها وماردين وحلب ودمشق وحماة وغيرها وغيرها . وقد اثبتنا كل ذلك بتفصيل وافٍ وبما لا يوصف من دقة البحث في مطاوي هذا الكتاب. وكل ما سلم في الموصل من الكنوز العلمية التي خلّفها الدهر لا يتجاوز بضعة آلاف من المخطوطات اتى على بيانها الدكتور داود جلبي في تأليفه « مخطوطات الموصل » وهي محفوظة في المساجد والكنائس والمدارس وبعض البيوت القديمة كما المعنا في الفصل الرابع من الباب الرابع وفي الفصل الخامس من الباب الخامس .

ثانياً : مكاتب الموصل في العصر الحاضر

١ ـ مكتبة غازي

ليس في الموصل سوى خزانة واحدة عامّة حديثة العهد أنشئت في ايام فيصل الاول ملك العراق . وسُمّيت « مكتبة غازي » تيمناً باسم نجله البكر وولي عهده الذي خلفه في العرش العراقي باسم غازي الاول .

كانت هذه الخزانة في بداية امرها لاتشتمل الا ّعلى بضع مئات من الكتب محفوظة في احدى غرف مديريّة المعارف بالموصل . ثم اخذت وزارة معارف الدولة العراقية تهتم بشؤنها وُتنفق عليها منذ عام ١٩٣٠ وقد جعلت لها مركزاً في حديقة البلدية بالقرب من جسر دجلة . وهي لاتزال في مهد عمرها اذ ان عدد محتوياتها لا يتجاوز اربعة آلاف مجلد في اللغات العربية والانكليزية والتركية والفرنسية . وليس فيها من المخطوطات ما يستحق الذكر (١)

---

(١) استندنا في اخبار هذه الخزانة الى ما كتبه لنا بتاريخ ١٩ ايار ١٩٣٦ الدكتور داود الجلبي الموصلي مؤلف كتاب « مخطوطات الموصل » .

الفصل الرابع

خزائن كتب ماردين وميافارقين وآمد

١ ـ المكتبة الحسامية في ماردين

ادركت اللغة العربية شأواً بعيداً في عهد الملوك الارتقيين (٤٨٨ — ٨٢٤ للهجرة) اصحاب ماردين وضواحيها. فانهم على قلة اتساع ملكهم حاولوا التشبه بالخلفاء في اعلاء شأن العلم وتكريم العلماء واشتهر بعضهم بالادب والحكمة وانشاء المدارس وجمع خزائن المخطوطات لرفع مستوى رعيتهم بين سائر الامم.

واول من تنبه منهم الى ذلك كان سليلهم الفيلسوف الحكيم حسام الدين تيمرطاش (٥١٦ — ٥٤٨ للهجرة) بن ارتق مؤسس الدولة الارتقية في ماردين. وكان رجلاً كريم الطبع حليماً (١). فانه شاد في عاصمة ملكه عدة مساجد ومدارس اشهرها المشهد الحسامي والمدرسة الحسامية المنسوبان اليه . وقد ضم الى هذه المدرسة مكتبةً تستحق الاعتبار كان يؤمها طلاب المعارف من جميع انحاء المملكة.

ونبغ من الارتقيين الملك المنصور ابو الفتح (٦٨٤ ـ ٧١١ للهجرة) الذي عزز بدوره المكتبة الحسامية حتى اصبحت في ايامه نجعة الرائد وشرعة الوارد. وكان كثير العطف على الشعراء وحملة الاقلام يجالسهم ويوآكلهم ويحسن اليهم بالعطايا والخلع والجوائز والارزاق. وقد نظم فيه صفي الدين الحلي ديوان شعر سماه « درر النحور في مدائح الملك المنصور » وهو يشتمل على « القصائد الارتقيات » البالغ عددها تسعاً وعشرين قصيدة على عدد أحرف الهجاء . التزم الناظم في كل قصيدة حرفاً في اول البيت وفي آخره.

---

(١) دائرة المعارف للبستاني : مجلد ٦ صفحة ٢١٥

وقد عرف اهل الفضل فوائد المكتبة الحسامية فعززوها بهباتهم وحبسوا عليها خزائن كتبهم. نذكر منهم فخر الدين الماردبني الذي كان من فلاسفة القرن السادس للهجرة ومن جلة علمائه . فانه جمع في حياته خزائن كتب جليلة وقفها سنة ٥٩٤ للهجرة على مكتبة المدرسة الحسامية. وكانت تحتوي على اسفار شتى الفها فخر الدين ذاته او حررها بخط يده او قرأها على اساتذته. ومن مزاياها ان واقفها بالغ في تنميقها واتقانها وحسن تجليدها (١)

وظلت المكتبة الحسامية عامرة حتى ذهبت فريسة الطاغية تيمورلنك عندما اغار على ماردين سنة ٨٠٣ للهجرة . فانه قوّض اسوار هذه المدينة وهدم جوامعها ومدارسها واتلف كل ما كانت تحتويه مكتبتها من التحف والمخطوطات . وقبل التاريخ المذكور بسبعة اعوام كان تيمورلنك قد خرّب اديار النصارى ومكاتبهم كما سنثبت ذلك في الفصل الذي نخصصه بعنوان « مكاتب طور عبدين » .

٢ ـ مكتبة جامعي ميافرقين وآمد

لم تخلُ مدينتا ميافرقين وآمد (دياربكر) من خزائن الكتب ايضاً . فقد ذكر ابو الفدا (٦٧٢ – ٧٣٢ هـ) في حوادث السنة ٤٣٧ للهجرة خبر وفاة احمد بن يوسف المنازي الذي كان وزيراً لابي نصر احمد بن مروان الكردي صاحب دياربكر. وكان المنازي من اعيان الفضلاء والشعراء وجمع كتباً كثيرةً اوقفها على جامعي ميافرقين وآمد (٢) . ثم اردف ابو الفدا قائلا : ان الكتب المذكورة كانت الى قريبٍ موجودة بخزائن الجامعين (٣) .

---

(١) طالع ترجمة فخر الدين بن عبد السلام الماردبني في كتاب طبقات الاطباء : مجلد ١ صفحة ٢٩٩ ـ ٣٠١ (٢) شرح مجاني الادب : جزء ٥ صفحة ٧٥١ (٣) المختصر في اخبار البشر لابي الفداء : جزء ٢ صفحة ١٦٨

الفصل الخامس

خزائن كتب حلب

اولا : خزائن كتب حلب في القرون السابقة

١ ـ الخزانة الصوفية

وُجدت بحلب من قديم الزمان خزائن كتب شتى أشهرها خزانة الصوفية . ونُهبت هذه الخزانة اثناء فتنة ثارت في بعض ايام عاشوراء بين اهل السُنّة والشيعة ولم يبق فيها الا القليل . وقد حدث ذلك في ايام ابي العلاء المعري (٣٦٣ - ٤٤٩ هـ) . وروى ابن النديم ان خزانة الصوفية تجددت كتبها بعد ذلك بعناية ابي النجم هبة الله بن بديع وزير الملك رضوان ، ثم وقف عليها غيره كتباً أخرى . وظلت هذه الخزانة عامرة الى القرن السابع للهجرة وهي مسبلة على المطالعة .

٢ ـ خزانة كتب سيف الدولة

وانشأ سيف الدولة بن حمدان (٣٠٣ - ٣٥٦ هـ) خزانة كتب جمع فيها الامهات الجيدة . لانه كان ولعاً بالكتب الى الغاية وذا إفضال على العلم والادب. فكان يقصده اهل هذا الشأن فينزلهم في بلاده على الرحب والسعة ويبّرهم بصلاته. ويقال انه لم يجتمع بباب احد من الملوك بعد الخلفاء ما اجتمع ببابه من شيوخ الشعر ونجوم الدهر (١). وقد أصابت دائرة المعارف الاسلامية الفرنسية بقولها :

---

(١) دائرة المعارف للبستاني : صفحة ٣٢٦ مجلد ١٠

« ان الفضل الذي احرزه سيف الدولة بن حمدان في نشر العلوم والآداب العربية هو عنوان مجد لا يقل عن اعماله الحربية ».

ومما يؤيد كرم سيف الدولة وبذله العطاء لشعرائه انه امر بضرب دنانير يجيزهم بها . فجعل في كل دينار عشرة مثاقيل ذهبية ونقش عليه اسمه وصورته . فلما أمر بعشرة من تلك الدنانير لابي الفرج ارتجل يمدحه بالابيات التالية :

نحن بجودِ الامير في حَرَمْ	نرتعُ بين السعود والنِعَمْ
أبدَعُ من هذه الدنانير لَمْ	يجرِ قديماً في خاطر الكرَمْ
فقد غدت باسمهِ وصورتهِ	في دهرنا عوذةً من العدَمْ

فسرّ سيف الدولة من براعة هذا الشاعر وللحال زاده عشرة دنانير اخرى فوق الاولى (١).

ومن أشهر الائمة الذين تولوا ادارة مكتبة سيف الدولة الخالديان الشاعران المشهوران . ومنهم ايضاً ابو الحسن ثابت بن اسلم بن عبد الوهاب النحوي المتوفى مصلوباً بيد الاسماعيلية سنة ٤٦٠ للهجرة . والسبب في ذلك ان ثابت بن اسلم وضع كتاباً تعرّض فيه لابتداء دعوه الاسمعيلية وكشف عوارهم . فاستاؤا واحرقوا خزانة الكتب انتقاماً منه . وربّما ذهبت هذه الخزانة في هجمة الروم على حلب وتخريبهم قصر سيف الدولة (٢). ذلك عندما استولى عليها قائدهم نقفور فوقاس في شهر كانون الاول ٩٦٢ م (٣٥١ هـ) بعد حصار شاق (٣)

٣ ـ خزانة كتب المدرسة النورية

ووقف نور الدين محمود بن عماد الدين زنكي سنة ٥٤٣ للهجرة خزانة كتب على مدرسته النورية في حلب. وجعل لها خازناً محمد بن علي بن ياسر الجياني الاندلسي واجرى عليها جراية. وحبس جملة كثيرة من الكتب الطبية على البيمارستان الذي

---

(١) مجلة « الحديث » الحلبية : مجلد ١٤ عدد كانون الثاني سنة ١٩٤٠ صفحة ٦١ ـ ٦٢
(٢) خطط الشام : مجلد ٦ صفحة ١٩١ (٣) يحيى بن سعيد : صفحة ١١٨

انشأه بدمشق كما حبس غيرها على اهل العلم في ارجاء مملكته (١). وحلت وفاة نور الدين عام ٥٦٩ للهجرة .

٤ ـ سائر المكتبات الاسلامية القديمة في حلب

لما استولى الملك الناصر صلاح الدين الايوبي على حلب سنة ٥٧١ للهجرة اباح لمؤدب ولده الافضل ابي سعيد البندهي ان يأخذ من خزانة كتب حلب ما شاء من الكتب الكثيرة (٢).

ولعل هذه المكاتب بقيت الى ايام تيمور الذي اغار على سوريا وخرّب بلدانها واحرق حلب مرتين كما روى مؤرخ (٣) هذا الطاغية قال : « وكانت اكثر المدن الصغرى في اواسط سوريا قد خضعت لتيمور بحكم الطبيعة. ومنها طرابلس وقد أحضر له منها مال . واجتاح بعلبك ونهبها. ولما وصل الى حلب احرقها مرةً ثانية وهدم ابراج القلعة واسوار المدينة والمساجد والجوامع والمدارس. وقتل امزاء كل من وجدهم في طريقه . وأخذ من كان في قلعة حلب من المعتقلين وترك بعضهم. والواقع ان تخريبات تيمور في البلاد السورية لا يتأتى وقوع مثلها في مئات الاعوام. عملها بجيشه الجرّار في عشرات الايام ».

ومن المكاتب القديمة التي انشئت او جُددت في حلب بعد تلك النكبات الفادحة نذكر ما يأتي : المكتبة الاحمدية لا يقل عدد مخطوطاتها عن الف واربعمائة وسبعين مجلداً. والمكتبة المولوية وهي حافلة بالمخطوطات النادرة . ومثلها المكتبة الاسماعيلية والمكتبة السكاكينية ومكتبة الجامع الاموي الكبير. ومنها مكتبة جامع الناصرية نسبة الى الملك الناصر يوسف صاحب حلب. وقد وقف عليها الوزير جمال الدين

---

(١) خطط الشام : مجلد ٦ صفحة ١٩٢ (٢) خطط الشام : مجلد ٦ صفحة ١٩٢

(٣) كتاب تيمورلنغ بقلم هارولد لامب عربه عمر ابو النصر عن الانكليزية : صفحة ١٢٨

القفطي المتوفى سنة ٦٤٦ للهجرة خزائن كتبه وكانت تساوي خمسين الف دينار (١)

ثانياً : خزائن كتب حلب في الزمان الحاضر

١ ـ دار الكتب الوطنية

من مآثر المجمع العلمي العربي بدمشق انشاؤه فرعاً في حلب للمكتبتين الظاهرية والعادلية . وكان مركز هذا الفرع اولا في غرفتين صغيرتين يؤمها الطلاب للمطالعة والدرس . وظلت الحال كذلك حتى السنة ١٩٣٧ فتقلد منصب محافظ حلب الامير مصطفى الشهابي احد اعضاء المجمع العلمي المذكور . فافتتح اعماله بتشيد بناية عربية على نفقة المجلس البلدي في اهم بقعة من الشهباء اي في ساحة « باب الفرج » واطلق عليها اسم « دار الكتب الوطنية » . فجاءت اجمل بناية في تلك المدينة . وقد خصصت طبقتها السفلى بقاعة للمحاضرات تضمّ زهاء خمسمائة مستمع . وفُصلت الطبقة العليا غرفاً وقاعات تتسع لادارة المكتبة ولمائة مطالع ولاربعين الف مجلد . وبهذه الوسيلة كتب النجاح والثبات لهذه المكتبة التي تحققت بها اماني الأمة (٢) .

وأفادنا رئيس المجمع العلمي العربي الاستاذ محمد كرد علي برسالة ارخها في ٢٤ اذار ١٩٤١ انّ مجموع مجلدات هذه المكتبة بلغ خمسة آلاف وخمسمائة وواحداً وتسعين مجلداً عربية وتركية وافرنجية . وبلغنا ان عدد مجلداتها زادت الآن زيادة محسوسة فضلاً عن شرائها مكتبة الاستاذ الاديب خير الدين الاسدي.

وممن تبرع بسخاء على « دار الكتب الوطنية » وزارة خارجية فرنسا في باريس. فانها اهدت اليها عام ١٩٣٨ طائفة معتبرة من الاسفار العصرية ذات المواضيع المختلفة.

---

(١) معجم المطبوعات العربية والمعربة : ليوسف اليان سركيس : صفحة ١٥١٨

(٢) مجلة المجمع العلمي العربي : مجلد ١١ سنة ١٩٤١ صفحة ١٤٢ ـ ١٤٣

الفصل السادس

خزائن كتب حماة وكفرطاب

اولا : خزائن كتب هذه المدن في الزمان الغابر

١ ـ الخزانة النورية في حماة

حماة من اقدم مدن العالم واهمها في الديار الشامية . وكان فيها في القرن السابع للهجرة مكتبة عامرة انشأها الامير نور الدين محمد بن عمر شاهنشاه صاحب حماة وابن صاحبها. فانه جمع فيها من المخطوطات ما لا مزيد عليه (١) . وحلت وفاته عام ٦١٠ للهجرة.

ولما اغتصب هولاكو الطاغية مدينة حماة سنة ٦٥٨ للهجرة خرّب اسوارها واحرق زردخانتها. وبيعت الكتب التي كانت بدار السلطنة في قلعة حماة بابخس الاثمان (٢). ويلوح لنا ان خزانة الكتب المذكورة تجددت بعد نكبة هولاكو كما كانت سابقاً. لكنها ما لبثت ان اصيبت عام ٦٨٧ للهجرة (١٢٨٨ م) بحريق اتلف مخطوطاتها التي لا تحصى (٣)

٢ ـ خزانة كتب ابي الفداء في حماة

بعد التاريخ المذكور بزمن يسير نصب الملك الناصر سلطاناً على حماة الملك المؤيد اسماعيل بن علي المعروف بابي الفداء . وكان ابو الفداء (٦٧٢ ـ ٧٣٢ ﻫ)

---

(١) خطط الشام : مجلد ٦ صفحة ١٩٣ (٢) المختصر في اخبار البشر : لابي الفداء : جزء ٣ صفحة ٢٠٣ (٣) خطط الشام : مجلد ٦ صفحة ١٩٨

من نوابغ اهل زمانه علماً وذكاءً فأطلق عليه بكل جدارة لقب « عالم الملوك وملك العلماء » . وقد تمكن من الفقه والطب والفلسفة والتاريخ. وكان يقرّب اليه اهل العلم ويرتب لهم الجواري والارزاق (١). وكان في خدمته نحو مائتي عالمٍ وفقيه واديب وفيلسوف وكاتب(٢).

ولشدة ولع ابي الفداء بالادب وحرصهِ على الكتب جمع في خزائنه طائفة من المخطوطات المختلفة النفيسة ثم وقفها كلها على جامع الدهشة . وكان عددها سبعة آلاف مجلد (٣) ليستفيد الخاصّة والعامّة من مطالعتها . وحلت وفاة ابي الفداء سنة ٧٣٢ للهجرة (٤) .

ونرجح ان مكتبة ابي الفداء تلفت عندما اغار تيمورلنك (١٣٣٦— ١٤٠٥م) على بلاد الشام عام ١٤٠١ للميلاد ونهبها واحرقها وأعمل السيف في اهلها . وصار الانسان لايطأ الا على جثة انسان لكثرة القتلى حتى قيل ان تيمورلنك بنى من رؤوس القتلى في حلب وحدها عشر مآذن ! ويقدّر عدد مَن قُتل في هذه الواقعة من الحلبيين صغاراً وكباراً ورجالا ونساءً بنحو من عشرين الف انسان . عدا مَن هلك من الناس تحت ارجل الخيل عند اقتحام ابواب المدينة وقت الهزيمة . وقد هلك من الجوع والعطش اكثر من ذلك . وفعل تيمور باهل حماة مافعله باهل حلب من القتل والنهب واحرق معظمها (٥) ويُروى انه باع كتبها بأبخس الاثمان (٦) .

---

(١) تاريخ آداب اللغة العربية : مجلد ٣ صفحة ٢٦٥

(٢) محاضرات المجمع العلمي العربي بدمشق : لانيس سلوم : مجلد ١ صفحة ٢٦٥

(٣) خطط الشام : مجلد ٦ صفحة ١٩٣ (٤) راجع ترجمة ابي الفداء في كتاب «فوات الوفيات»: مجلد ١ صفحة ١٦ ــ ١٧ (٥) كتاب تيمورلنك : لمؤلفه هارولد لامب في اللغة الانكليزية : تعريب عمر ابو النصر : طبع بيروت : صفحة ١٢٠ ــ ١٢١ (٦) دائرة معارف القرن العشرين : مجلد ٨ صفحة ٧٥

٣ـ خزائن كتب المعرة وكفرطاب

اشتملت كلّ من مدينتي المعرة وكفرطاب في عهد ابي العلاء المعرّي (٣٦٣ـ ٤٤٩ هـ و ٩٧٤ – ١٠٥٧ م) على خزانة كتب جديرة بالذكر والاعتبار . وعلى ما روى المؤرخون ان ابا العلاء قد زارها كما زار خزانة طرابلس الشام (١) .

ثانياً ـ خزائن كتب حماة في العصر الحالي

١ ـ مكتبة دار العلم والتربية

تأسست هذه المكتبة عام ١٩١٩ وظلت فائدتها محصورة باساتذة مدرسة « دار العلم والتربية » وطلابها . وفي السنة ١٩٣١ ضمت اليها مكتبة « النادي الادبي » الذي كان يرأسه الدكتور توفيق الشيشكلي نائب حماة في المجلس النيابي السوري وقد توفاه الله سنة ١٣٥٩ للهجرة (١٩٤٠ م). وبين اشهر الذين آزروها بهداياهم نذكر: الامير شكيب ارسلان اللبناني والامير عمر طوسون والعلامة احمدزكي باشا المصريين . والجامعة السورية في دمشق . واتحفها السيد محمد هاني الكيلاني الحموي بخزانته الخاصة البالغ عدد مجلداتها ٧٩٢ كتاباً . وفي هذه الخزانة على حداثة عهدها طائفة من المخطوطات العربية .

٢ ـ المكتبة الخيرية العامة

يعود الفضل في تأسيسها الى طاهر بك حمدي الدمشقي عندما كان متصرفاً في حماة سنة ١٣٤٥ هجرية (١٩٢٦ م) . ويحصى في هذه المكتبة اكثر من الفي مجلد بينها ٩٧ كتاباً مخطوطاً وقد انيطت ادارتها وصيانة موجوداتها بالاديب السيد محمد خليل .

---

(١) خطط الشام : مجلد ٦ صفحة ١٩١

الفصل السابع

خزائن كتب دمشق

١ - مكتبات دمشق القديمة واندثارها في نكبة تيمور

دمشق ويقال لها ايضاً جيرون وجلق والفيحاء والشام هي قاعدة بلاد سوريا واعظم مدنها اتساعاً في الزمن الحاضر. وكانت سابقاً مقر الخلفاء الامويين (٤١ - ١٢٨ هـ) (٦٦١ - ٧٤٤ م) الذين اليهم يُنسب الجامع الاموي . ويُعدّ هذا الجامع ثالث الجوامع الكبرى لدى الامّة الاسلامية بعد جامع اجيا صوفيا في القسطنطينية والجامع الاقصى في القدس الشريف.

كانت مدينة دمشق في القرون الغابرة من كبريات حواضر العلم في الاقطار الشرقية. يؤيد ذلك ما كان يلقاه فيها الطالب من الصروح العلمية وخزائن الكتب التي غصت بوفود الادباء وحلقات المدرّسين في كل عصر. غير ان تلك الصروح وتلك الخزائن اصيبت بنكبات شتى فذهبت بتوالي الايام فريسة للنيران او نهبها ذوو المطامع او دمرتها جيوش الفاتحين. وحباً للاختصار نكتفي بذكر النكبة العظمى التي انزلها الطاغية تيمور بدمشق يوم تغلب عليها سنة ٨٠٣ للهجرة (١٤٠٠ للميلاد). واليك ملخص ذلك :

« ثم امر تيمور رجاله بالدخول وسيوفهم مشهورة. فنهبوا ما قدروا عليه وسبوا نساء دمشق باجمعهن وساقوا الاولاد والرجال وتركوا من الصغار مَن عمره خمس سنين فما دونها . وساقوا الجميع مربوطين بالحبال. ثم طرحوا النار في المنازل والدور والمساجد. وكان يوماً عاصف الريح فعمّ الحريق البلد حتى صار لهيب النار يناطح السحاب.

« وعملت النار في البلد ثلاثة ايام بلياليها. ثم رحل تيمور عنها بعد ان اقام

ثمانين يوماً. وقد احترقت كلهـــا وسقطت سقوف جامع بني امية من الحريق. وزالت ابوابه وتفطر رخامه ولم يبْق غير جدره قـــائمة . وذهبت مساجد دمشق ودورها وقياصرها وحماماتها وصارت اطلالا بالية ورسوماً خالية ولم يبق فيها غير الاطفال .

« وفوق ذلك كله ومع ما منيت به دمشق من قتل سكانهـــا وسبي نسائها واولادها واحراق مصانعها وبيوتها واستخراج اموالهـا وطرائفها اصابتها من تيمورلنك مصيبة لا تقل عن تلك. اصابت منها الصميم فلم تُبق عليها ولم تَذر.

قال ابن عربشاه في تفصيل هذا الهول : « وبينما كان رجال تيمور يحاصرون قلعة دمشق اخذ هو يتطلب الافاضل واصحاب الحرف والصنائع وارباب الفضل. واستمر نهب عسكر تيمور لدمشق ثلاثة ايام وارتحل وجيشه وقد اخذ من نفائس الاموال فوق الطاقة والامكان. وحملوا عـدا ذلك ما عجزت عنه قوة استطاعتهم. فجعلوا يطرحون ذلك في الدروب والمنازل ويلقونه شيئاً فشيئاً في اوعار المراحل. وذلك لكثرة الحمل وقلة الحوامل . واصبحت القفار والبراري والجبال والصحارى من الامتعة والاقمشة كأنها سوق او معرض. وكأن الارض فتحت خزائنهـا واظهرت من المعادن وغيرها كامنها . واخذ تيمور من دمشق ارباب الفضل واهل الصنائع وكل ماهر في فن من الفنون او بارع من النساجين والخياطين والحجارين والنجارين والاقباعيـة والبياطرة والنقاشين والقواسين . وبالجملة اهل كل فن وصناعة . ولم يترك الفقهاء والعلماء والافاضل وحفّاظ القرآن والعبيـد والنساء والصبيان بما لا يسعه الضبط والوصف (١).

وبعد تلك النكبة الكبرى لم ينجُ من الخزائن الكتابية الكثيرة بدمشق الا ما انحصر لعهـدنا الحاضر في الخزانة الظاهرية التي انشأها الملك الظاهر بيبرس

---

(١) كتاب « تيمورلنغ » بقلم هارولد لامب عربه عن الانكليزية عمر ابو النصر : صفحة ١٢٥ - ١٢٦

العلائي البندقداري صاحب الفتوحات والاخبار والآثار . وعندما حضرته المنية سنة ٦٧٦ للهجرة دُفن في القبة الظاهرية هو فابنه الملك السعيد من بعده .

٢ ـ الكتب الموقوفة على مدارس دمشق ومساجدها

تبسط السيد حبيب زيات في درس هذا الموضوع الذي نبحثه واوعاه من جميع اطرافه فاستندنا هنا الى معلوماته التاريخية الوثيقة التي تنم عن تدقيق وافر واطلاع واسع . وله في ذلك كتاب سماه « خزائن الكتب في دمشق وضواحيها » نقتطف منه ما يأتي (١) .

« وقد كان في مكاتبها الوقفية من نفائس المؤلفات ونوادر الذخائر العلمية ما لعلّ مثله لم يجتمع في مدينة اخرى من الديار السورية والمصرية بدليل قول جمال الدين بن نباتة المصري في مقدمة كتابه « سرح العيون في شرح رسالة ابن زيدون »: كنت اعرف ببعض خزائن دمشق الوقفية اسفاراً فيها للمطالع منجع . وللافهام الناسية ذكرى تنفع. فلم يتهيأ ان اعار منها كتابا ولا اراجع من السنة حروفها خطاباً » . ولكن اكثر ما كانت تكون هذه الموقوفات في المدارس والمساجد خاصة . وقد بقيت منها بقية الى هذه السنين الاخيرة في الجامع الاموي المشهور واهمها عند ضريح النبي يحيى . ثم نُقل قسم مما كان منها في بيت الخطابة الى قبة الملك الظاهر كما سيأتي ذكره وتلف سائرها في الحريق الذي اصاب الجامع المذكور في ١٤ من تشرين الاول سنة ١٨٩٣ ولم يسلم منها الا ما كان محفوظاً في قبة المال وهي التي تشاهد فيه عن يسار الداخل من باب البريد .

٣ ـ ذخائر مخطوطات الجامع الاموي

استتلى حبيب زيّات قال : « كان عامة الناس يرون ان هذه القبة مستودع

---

(١) خزائن الكتب في دمشق وضواحيها : صفحة ٢-١٤

الصكوك والاوراق المختصة باوقاف الجامع واملاكه. ولم يكن يعلم حقيقة ما فيها الا بعض الخاصّة فقط . ويظهر ان اول من دخلها في النصف الثاني من هذا القرن روجرس قنصل انكلترا . زارها ليلاً مع بعض السياح منذ ٣٥ سنة وانتقى اشياء منها فيها بلغني. ثم دخلها من بعده المرحوم محمود حمزة مفتي دمشق على ما اخبرني بذلك احد اصدقائه بسماعه منه. ولا يبعد ايضاً ان تكون قد فتحت في غير هاتين المرتين على ما يُرى من حال هذه الاجزاء والمقطعات الباقية فيها مما لا تكاد تتألف منه اسفار كاملة. وعلى كلٍ فلم يبرح سر ما هنالك مكتوماً غير شائع الى ان مر بدمشق منذ خمس سنوات البارون هرمن فون سودن مدرس اللاهوت في كلية برلين . فلما رأى القبة وعلم بما فيها زيّن لدولته بعد رجوعه السعي لدى الحكومة السنيّة في فتحها والترخيص لبعض علمائهم في زيارتها وفحص مضمونها. وكان يرجي ان يجد فيها خاصة بعض ما يُعينه على ادراك خدمة لا يزال دائباً وراء انجازها . وهي تهيئة نسخة من الانجيل في اليوناني تُراجعَ لها كل النسخ المعروفة في اوروبا وآسيا وافريقيا وتُنشر بعد مقابلتها عليها باسرها فيما ذُكر لي. وهو المشروع الخطير الذي انتدبته للقيام به احدى مثريات الالمان بعد ان ارصدت لاتمامه مقداراً كافياً من المال. ولكن طلبه بقي مغفلاً كل هذه المدة ولم يُحتفل بتحقيقه الا في شهر نيسان من العام الحاضر اذ صدرت الارادة الشاهانية مؤذنة بفتح القبة واستطلاع ما فيها بحضرة صاحب الدولة ناظم باشا والي سورية ولجنة من اعيان المسلمين وعلمائهم. فلما درى البارون فون سودن بصدورها اوفد سريعاً من قِبله بمعرفة جمعيـــة العلوم الملكية في برلين الدكتور برونو فيولت احد تلامذة العلامة نولدكي . فورد دمشق في ٣٠ ايار ولم يتسنّ له دخول القبة الا في ١٦ من شهر حزيران الذي يليه (١) .

« وكانت اللجنة قبل قدومه قد بحثت في اضبارة من الصحف فعثرت بينها على

---

(١) من جملة ما عثر عليه الاستاذ فيولت (B. Violet) من الاوراق والرقوق في قبة ساحة الجامع الاموي قسم من كتب المزامير بالعربية مكتوبة بحرف يوناني . وهذه القطع الاثرية يرتقي عهدها الى ايام الخلافة الاموية (المشرق : مجلد ٥ سنة ١٩٠٢ صفحة ٤٧)

قطعة من التوراة في الاسطرنجيلي تبلغ ٣٦ صفحة ، تتضمن فصولا من سفر الاعداد وسفر الخروج . ثم ظفر الدكتور برونو فيولت بملحق لما وجد قبله ايضاً صحائف كثيرة من الرق في اليونانية واللاتينية والأرمنية والعبرانية والأرامية والفلسطينية والسامرية بعضها قديم العهد يقدّر كتابته من القرن الخامس للميلاد . وسيضم ما يجتمع لديه من هذه اللقط في كتاب خاص سينشره في الالمانية بعد ان يرفع تقريراً عنها الى الحضرة السلطانية . غير ان كثيراً مما وقف عليه من هذا القبيل لا يكاد يتعدى الدينيات. كما هو شأن سائر هذه الاضابير المتراكمة من المخطوطات والرقوق العربية المبعثرة ضمن القبة مما يبلغ بضعة آلاف من الاسفار. معظمها بالخطوط الكوفية مزينة احياناً بضروب الاشكال والرسوم على ما وصفها لي بعض من شاهد شيئاً منها. ولهذا كانت اجلّ فائدة تُغتنم منها لا تعدو في الغالب تأريخ الخط العربي وبيان قسم مما تقلب فيه من الاطوار .

وهذه القبة وحدَها كافية في الدلالة على ما كانت عليه المكاتب والمخطوطات قبلًا في دمشق. غير ان ما ألم بهذه المدينة من الغُيَر والآفات وانتابها حيناً بعد حين من النهب والحريق وما توالى على ناحيتها من اختلاف الدول وتقلب الاحكام اودى بالجانب الاعظم من بيوت العلم فيها. وشتت شمل اكثر الاسفار المصونة في خزائنها بحيث لم يبقَ منها في منتصف القرن الحاضر الا بقية عبثت بها ايدى المطامع والاهمال. فانتقل عدد منها ليس باليسير الى المكاتب الاوروبية او دخلت في حوزة بعض الخاصة ولا سيما المؤلفات التاريخية . فانه لم يحفظ منها الا الناقص والمبتذل او ما لا كبير غناءٍ فيه »

وممن استدعاهم ناظم باشا رسمياً الى دمشق للاطلاع على ذخائر « قبة المال » في الجامع الاموي البطريرك اغناطيوس افرام رحماني لانه كان خبيراً بعدة لغات شرقية ومتضلعاً من قراءة الاقلام القديمة .

ولما عاد البطريرك الى بيروت جعل يقص علينا مراراً تفاصيل محتويات تلك الرقوق والمخطوطات الغالية. ووصف لنا رقوقاً جمّة تشتمل من اسفار التوراة الخمسة على

سفري الخروج والعدد مكتوبة بالقلم السطرنجيلي اعني السرياني القديم . ثم اسهب خصوصاً في وصف الرقوق المدوّنة بالسريانية الفلسطينية وهي من الآثار العزيزة النادرة التي لم يبقَ منها فيما نعهد الا اربعة مخطوطات قديمة نقلهـــا الانكليز من مكتبة طورسينا الى المتحف البريطاني مع مائتين وستة وسبعين مخطوطاً من انفس المخطوطات واقدمها (١) ومن الكتب السريانية الفلسطينية مخطوط فريد يحوي الاناجيل الاربعة محفوظ في الخزانة الواتكانية . وهو منسوخ في السنة ١٠٣٠ للميلاد. وقـــد نشره بالطبع المستشرق بول ده لاغرد عام ١٨٩٢ ورد في اوله ما نصه بحروف كرشونية : « قراآت اناجيل من يوحنيس وهي من الفصح الى العنصرة وهي مكتوبة شيء ورا شيء وعددها خمسون انجيلًا (٢).

٤ ـ حصر مخطوطات المساجد والمدارس في القبة الظاهرية

اردف حبيب زيّات كلامه بقوله : « لما قدم مدحت باشا (١٨٢٢ — ١٨٨٣) والياًعلى سوريا سنه١٨٧٨ كان اوّل همه تأليف جمعية من جلة علماء الحاضرةواكابر فضلائها دعاها «الجمعيةالخيرية» ناط بها امر النظر في انشاء المدارس وخدمةالمعارف. ووكل اليها البحث عنالكتب والمكاتب وضمّ شتات ماتفرق منها . فأقبلت الجمعية على العمل بجد ونشاط . وجمعت ما امكنها ادراكه من الموقوفات في خزانةخاصة اقامها لها في الظـاهرية فوق ضريحي الملك الظاهر وابنهِ الملك السعيد ازاءَ التربة العادلية في حُجرةٍ رُصعت جدرانها بانواع الرخام وزُينت بمشجرات منالفسيفساء على اجمل تمثيل . وتم بناؤها سنة ٦٧٦ للهجرة .

« وما كادت تفتح المكتبة ابوابهاللطلاب حتى اقبل احمد حمدي باشا والياً على سوريا . فذكر الفهرست المطبوع بعد سنة من افتتاحها ان امر المكتبة تمّ على يده

---

(١) لائحة مخطوطات مكتبة طورسينا : طبع لندن ١٨٩٤

(٢) لائحة مخطوطات المكتبة الواتكانية : رقم ١٩

طبقاً للتقرير الذي رفعته اليه الجمعية الخيرية في ١٥ شباط سنة ١٢٩٥ (على حساب السنة المالية المعروفة بالسنة المارتية وفقاً لاصطلاح الدولة العثمانية) . وقد احصيت المكاتب التي ضمت الى هذه الخزانة وأخذ منها مجموع كتبها الموقوفة . فكانت عشراً كما يأتي نقلاً عن الفهرست بنصه الحرفي »

٥ ـ تعداد المكتبات الملحقة بالمكتبة الظاهرية

واستتلى حبيب زيات يعدّد اسماء المكتبات الملحقة بالمكتبة الظاهرية فأثبتها كما يلي :

١ مكتبة العمريّة . وهي مكتبة عظيمة قديمة اكثر كتبها مصحح على ايدي العلماء المشاهير وبعضها بخطوط مؤلفيها . وهي وقف اناس متفرّقين من اهل الفضل وكان مقرّها بمدرسة شيخ الاسلام ابي عمر بالصالحية .

٢ مكتبة عبدالله باشا (العظم) . وهي مركبة من كتب وقفها المشار اليه سنة ١٢١١ وكتب وقفها والده محمد باشا قبله سنة ١١٩٠ وكان مقرها في مدرسته . الا انها اشتهرت نسبتها الى ابنه عبدالله باشا .

٣ مكتبة سليمان باشا (العظم) وهي مكتبة وقفها المشار اليه سنة ١١٩٦ وكان مقرها في مدرسته في باب البريد.

٤ مكتبة الملا عثمان الكردي. وهي مكتبة وقفها الموما اليه وكان مقرّها في المدرسة السليمانية المذكورة.

٥ مكتبة الخياطين. وهي مكتبة وقف كتبها الوزير الحاج اسعد باشا (العظم) بعد سنة ١١٦٥ وكان مقرّها في مدرسة والده الحاج اسماعيل باشا في محلة الخياطين قرب المدرسة النورية.

٦ مكتبة المرادية. وهي مكتبة موضوعة في مدرسة الفاضل الزاهد الشيخ مراد النقشبندي .

٧ مكتبة الشميصاتية ، وهي مكتبة حديثة العهد وقف كتبها بعض اصحاب الخير وكانت موضوعة في المدرسةالشميصاتية لصيق جامع بني اميّة شمالا. وممن وقف كتبه على الشميصاتية ابو عبد الله المسعودي البنجديهي (٥٢١-٥٨٤ هـ) نسبة الى « بنج ديه » معناها القرى الخمس باللغة الفارسية

٨ مكتبة الباغوشية ، وهي مكتبة موضوعة في مدرسة سياوش باشا في محلة الشاغور .

٩ مكتبةالاوقاف . وهي مكتبة من مكتبات متفرقة تشتت امرهافوضعت في ديوان الاوقاف حفظاً لها .

١٠ مكتبة بيت الخطابة . وهي مكتبة كانت موضوعة في حجرة الخطابة في الجامع الاموي .

« وقد رأيت فيما عدا ذلك بضعة اسفار مخطوطة ذُكر في الهامش عنها انها من المكتبةالاحمدية او مكتبة جامع يلبغا او مكتبةالكزبري. وهذه كلها لم ينبّه عليها في مقدمة البرنامج ولعلها اغفلت عمداً لقلة المحفوظ منها اذ كان لايتجاوز خمسة او ستة مصنّفات . وفي هذه البقية اليسيرة دليل على ان المكاتب الموقوفة لم تكن عشراً فقط كما يؤخذ من الفهرست بل كانت تربي على هذا العدد بما يقرب من ضعفه. كما يؤيد ذلك ما ذكر عن مكتبة الاوقاف من انها كانت مجموع مكاتب متفرقة تشتت امرها فجُمعت في الديوان .

« ومع ذلك فلو كان قد تيسر للجنة التي تولت تحصيل هذه المكاتب ان تجمع كل ما كان في هذه العشر المذكورة وحدها لتألفت دون ريب من جملتها مكتبة ثمينة لا تخلو في كثير من اصناف العلوم من مصنفات حسنة ومؤلفات نادرة فيما سوى هذه الفضلات التي اعجل بعض متولي هذه المكاتب عن مواراتها كما سبق شرح ذلك قريباً . وهكذا ضاع كثير من خيار المخطوطات خلا ما كان عارية منها بين ايدي الناس ولم يُرَدّ . كما لاتزال تقع امثاله في تركات بعض المتوفين من طلبة العلم. وحسبما قرأته بنفسي في فاتحة بعض الكتب فياحدى المكاتب الخاصة».

٦ ـ دار الكتب الاهلية الظاهرية

أجمع الكتبة على ان مدينة دمشق حوت في سالف الايام ثروة عظيمة من الكتب المخطوطة حُفظت في خزائن كثيرة . وظل الخزنة يعبثون بها تشريداً حتى تضاءلت وكادت تنطمس معالمها . غير ان الشيخ طاهر الجزائري (١٢٦٨ ـ ١٣٣٨ م) العلامة الكبير تنبه لتلك المصيبة الادبية وعوّل على تلافيها . وللحال فاوض علماء دمشق فأقرته طائفة منهم على السعي لجمع ما تبقى من الكتب في تلك الخزائن . وكان عدد تلك الخزائن ايام عزها ينيف على الخمسين فهبط الى العشرة . وقد عاضد الشيخ الجزائري في مشروعه مدحت باشا والي دمشق الذي اشتهر بنهضة الاصلاح في السلطنة العثمانية . هكذا تيسر للشيخ طاهر ومعاونيه العلماء ان يجمعوا تلك الذخائر الخطية بخزائنها وقماطرها ويصونوها في مكتبة القبة الظاهرية .

وبعد اربعين سنة مرّت على هذا الحادث قرّر الامير فيصل ان تناط ادارة تلك المكتبة بالمجمع العلمي العربي الذي أنشيء في عهد امارته على سوريا . ونُصب الاستاذ العلامة محمد كرد علي رئيساً عليه . فأخذ هذا الرئيس على عاتقه النهوض بانجاح المكتبة نهوضه بشؤون المجمع المشار اليه . وجهزها على طراز دور الكتب في العصر الحاضر . واستهدى اليها الكتب من جميع انحاء البلاد العربية ومن بعض المعاهد العلمية الاوروبية . فسارع الامراء والاعيان والمؤلفون ورؤساء الدين وارباب الادب الى اتحافها بمصنفات وافرة .

وكانت المدرسة الظاهرية يومئذ في حاجة الى ترميم ابنيتها وتوسيعها فجدالاستاذ كردعلي في ذلك حتى اصبحت بنايتها لائقة كافية . ولحسن حظ المكتبة ان فريقاً من اهل الفضل والوجاهة كرفيق بك العظم والشيخ عبد الله الكزبري وغيرهما سجلوا لهـا خزائن كتبهم . وقد بلغ مجموع كتب الخزانة الظاهرية في اوائل عام ١٩٤٧ اثنان واربعين الفاً وستمائة وخمسة وستين مجلداً بين عربي وافرنجي هذا تفصيلها :

٦٧٨٣	مجلداً مخطوطاً
٢٤٤٧٦	مجلداً مطبوعاً
١١٤٠٦	مجلات
٤٢٦٦٥	

وتعد دار الكتب الظاهرية في طليعة جميع مكتبات بلاد الشام بما احتوته من مؤلفات نادرة قديمة العهد . اجلّها كتاب « مسائل الامام احمد بن حنبل » منسوخ عام ٢٦٦ للهجرة (٨٨٨ م) وهو فيما يغلب على الظن أعتق مخطوط عربي في العالم منسوخ على الورق .

ومن اهم مخطوطات هذه المكتبة : تاريخ دمشق لابن عساكر نُقل اليها من مكتبة اسعد باشا العظم . ومجمع الآداب لابن الغوطي . شرح ابن فارس على الايضاح للجرجاني . الكواكب الدراري لابن عروة الحنبلي . سر الصناعة لابن جني . الجرائيم لابن قتيبة . سيرة احمد بن طولون للبلوى وغيرها . زد على ذلك ان في دار الكتب الاهلية الظاهرية مجاميع شتى تحوي طائفة كبيرة من خطوط العلماء [١].

٧ ـ مكتبة المجمع العلمي العربي

تأسست هذه المكتبة مع تأسيس المجمع العلمي العربي سنة ١٩١٩ في دمشق وجُعل مركزها في المدرسة العادلية . ويعود الفضل في ذلك الى السيد محمد كرد علي رئيس هذا المجمع والى معاونيه في ذاك الحين وهم : الشيخ عبد القادر المغربي والاستاذ عيسى المعلوف والاستاذ انيس سلوم .

تتألف المكتبة من اربعة الاف وثلثماية وثلاثة وسبعين مجلداً بين عربي وافرنجي ومصور [٢]

(١) دار الكتب الاهلية الظاهرية : بقلم يوسف العش : مجلة دمشق : مجلد ١ صفحة ٤٧

(٢) رسالة امين السر العام للمجمع العلمي العربي بتاريخ ٢٧ نيسان ١٩٤٧ الى مؤلف هذا الكتاب

اكثرها باللغة والتاريخ والادب والنقد والرحلات. وهي غنية خصوصاً بمنشورات علماء الاستشراق. وتحوي كذلك اهمّ ما اصدرته المطابع المصرية في الاعوام الاخيرة من مصنفات العرب قديمها وحديثها. وفيها ايضاً سبعة وثمانين مجلداً منقولة بالفوتغراف عن مخطوطات نادرة مخزونة في مكتبات الشرق والغرب. نذكر منها كتاب «تراجم الاعيان من ابناء الزمان» تأليف الشيخ حسن البوريني النابلسي نسخ بخط جميل في ٣٧٨ صفحة. ومن ذخائر هذه المكتبة: «مذكرات الشيخ طاهر الجزائري» بخط يده في مجلدات شتى.

الفصل الثامن

خزانة كتب طرابلس الشام

١ ـ اختلاف الآراء في تاريخ نشأة الخزانة الطرابلسية

استولى الصليبيون على مدينة طرابلس الفيحاء في عيد الأضحى سنة ٥٠٣ ﻫ (١١١٠ م) وكان حاكمها ابو علي بن عمار سليل القضاة آل عمار الذين تألفت في هذه المدينة تحت عنايتهم جمعية علمية اشتهرت باسم « دار العلم » . وضموا اليها خزانة فيها من الكتب ما لا يُحدّ ولا يُحصى (١) .

وذهب بعض المؤرخين الى ان « دار العلم » كانت قبل بني عمار بمدة خلافاً لما توهم فريق من كتبة عصرنا الحاضر . لان القضاة بني عمار لم يحكموا في طرابلس الا بعد السنة الاربعين والاربعمائة . وكان ابو العلاء المعري (٣٦٣ ـ ٤٤٩ ﻫ) قد زار هذه المدينة في اواخر القرن الرابع للهجرة وانتفع بخزانتها وكتبها . واول من حكم من القضاة بني عمار ابو طالب عبد الله في خلافة المستنصر الفاطمي في حدود سنة اربعين واربعمائة (٢)

٢ ـ فضل بني عمار على خزانة كتب طرابلس

ينتج مما تقدم ان « دار العلم » في طرابلس وجدت نحو نصف قرن قبل حكم بني عمار فيها . انما ذلك لا يقلل من فضلهم وتنافسهم في تعزيز تلك الخزائن الكتابية باجماع المؤرخين . وقد روى ابن الفرات ان الامير علي بن محمد بن عمار

---

(١) ابن الاثير : مجلد ١٠ صفحة ٢٠١ (٢) خطط الشام : مجلد ٦ صفحة ١٩١

جدّد « دار العلم » سنة ٤٧٢ للهجرة . ثم جاء بعده فخر الملك بن عمار فنهج نهج من سلفه من أسرته حتى اصبحت طرابلس كلها « دار علم »

٣ - وصف خزانة كتب طرابلس وعدد مجلداتها

وصف العالم الفرنسي الكبير اسطفان كاترمير مكتبة طرابلس في نبذة له عنوانها «محبة الشرقين للكتب» طبعت عام ١٨٦٢ في باريس نكتفي بالاشارة اليها . غير اننا لا نرى بدّاً من اثبات ما نشره الشيخ البحاثة جرجي يني في دائرة المعارف (١) البستانية قال :

« وكانت المدينة يومئذٍ (اي عند استيلاء الصليبيين عليها) على ما أثر المؤرخون عامرة بالزراعة والصناعة حتى انهم رووا انه كان فيها نحو من اربعة آلاف نول للنسيج . ناهيك بما كانت تحوي من نتاج العقول اذ كان فيها مكتبة شهيرة اختلف الرواة في عدد كتبها بين مقل ومكثر . فالذي اقل لم ينقص عن مائة الف مجلد والمكثر تجاوز الملايين الثلاثة عداً . قيل وكانت من كتب اليونان والرومان والفرس والعرب . وان مئة من الكتبة كانوا يدأبون على النساخه . وان جامعها هو القاضي ابو طالب حسن وانه هو كان قد الف كثيراً من اطايب الكتب . فذهب كل ذلك ضياعاً على اثر الحرب والفتوح » .

وكان يُراد من انشاء دار العلم في طرابلس نشر التشيّع على ما يقال . وساعد على كثرة الكتب في هذه المدينة ما كان فيها من معمل الورق الجيد (٢) . امّا مصير المكتبة الطرابلسية فقد استوعبنا وصفه في الفصل السابع عشر من الباب السادس عشر الذي كتبناه عن « رزايا الكتب والمكتبات » فنحيل القاريء الى مطالعته في المحل المذكور .

---

(١) مجلد ١١ صفحة ٢٤١ و ٢٤٢

(٢) خطط الشام : مجلد ٦ صفحة ١٩٢

الفصل التاسع

خزائن كتب فلسطين وشرق الاردن

اولا ـ مكتبة المسجد الاقصى

١ ـ نفائس هذه المكتبة

المسجد الاقصى هو أولى القبلتين وثالث الحرمين الشريفين بناه عبد الملك بن مروان سنة ٧٢ للهجرة على انقاض هيكل سليمان . وحوى هذا المسجد منذ قرون عديدة خزانة كتب اهداها اليه الملوك والعلماء والاشراف من جميع الاقطار . لكنها اصبحت كسائر المكاتب عرضة لذوي المطامع فضاع كثير من كنوزها التي لا تقدّر بثمن . وما عتم ان تنبه المجلس الشرعي الاسلامي الاعلى في القدس الشريف لهذا الامر وتولى بنفسه السهر والمحافظة على بقية تلك الكنوز الكتابية . فانشأ سنة ١٣٤١ هجرية داراً للكتب في المسجد الاقصى ضم اليها كل نادر ونفيس من الاسفار المخطوطة والمطبوعة .

وبين محتويات تلك المكتبة نصف مصحف قديم بخط كوفي كتب عليه : « كتبه محمد بن الحسن بن الحسين بن بنت رسول الله » . وفيها احدى ثلاث نسخ من مصحف مجزء ثلاثين جزءاً كتبها بيده احد ملوك المغرب ابن عبد الحق على رق غزال . وهي مجلدة على الطريقة المراكشية وموضوعة في صندوق مزخرف بالميناء على الطريقة الاندلسية . وفيها مصاحف كبيرة جداً وصغيرة كُتبت في عهد المماليك وملوك بني عثمان وغير ذلك من المخطوطات الثمينة (١)

---

(١) خطط الشام : مجلد ٦ صفحة ٢٠٠ ـ ٢٠١

ثانياً ـ المكتبة الخالدية

١ ـ بنو الخالدي

سميت كذلك تبركاً بذكرى خالد بن الوليد وهو الجد الاعلى للاسرة الخالدية التي قطنت القدس الشريف على اثر الفتح العمري . ثم نزحت اثناء الحروب الصليبية الى قرية « دير مردا » في جبل نابلس ، ولاجل ذلك اطلق على كل من انتسب اليها لقب « الخالدي الديري » في القرن السابع والثامن والتاسع للهجرة .

٢ ـ مؤسس المكتبة الخالدية والمشتركون في تعزيزها

وعلى مدى الاجيال اقتنى الخالديون آلاف الكتب المخطوطة وحفظوها في ديوان اسرتهم الواقع في « باب السلسلة » وهو الحي المعروف بهم في القدس . وقد خطر ببال الحاج راغب الخالدي ان ينشىء مكتبة عامة تظل وقفاً ينتفع به طلاب العلم . وكانت والدته خديجة بنت السيد موسى الخالدي قد اوصت بمبلغ من المال لاعمال البر . فاقنعها ابنها الحاج راغب ان تؤسس بهذا المال معهداً يستوعب المكتبة المشار اليها (١). وبعد المفاوضة في الامر اتفق اركان الاسرة الخالدية على ان يكون « باب السلسلة » مركزاً لتلك الخزانة العلمية التي فتحت ابوابها رسمياً عام ١٩٠٠ لجمهور المطالعين .

وجرى الاتفاق على انه متى توفي احد افراد هذه الاسرة تنقل كتبه الى المكتبة الخالدية . هكذا ضمت اليها كتب يوسف ضياء الدين باشا الخالدي نائب القدس في

---

(١) كتاب مجمع الآثار العربية ـ تأليف الرحالة ابرهيم السيد عيسى المصري : جزء ١ صفحة ١١٨

مجلس المبعوثان العثماني سنة ١٨٧٨[١] ومكتبة روحي بك الخالدي الرئيس الثاني لمجلس المبعوثان العثماني سنة ١٩٠٨ بالاستانة . ونظيف بك الخالدي احد مهندسي السكة الحديدية الحجازية واحمد بدوي بك الخالدي وغيرهم .

٣ ـ تبويب المكتبة وتنظيمها وعدد مجلداتها

ما كادت تظهر المكتبة للوجود حتى اقبل الى القدس الشيخ العلامة طاهر الجزائري منفياً من دمشق بامر من السلطنة العثمانية صاحبة البلاد. وكان الشيخ طاهر من اكبر غلاة الكتب وصديقاً حميماً للحاج راغب مؤسس هذه المكتبة . فكلفه هذا ان يساعده في تبويبها وترتيبها وسعى في انشاء اوقاف خاصة بها تضمن نجاح مستقبلها .

وكتب لنا العالم القبطي جرجس فيلوثاوس عوض من القدس الشريف بتاريخ ١٤ نيسان ١٩٣٦ انه زار المكتبة الخالدية وتعهد محتوياتها . فقيل له انها تشتمل على سبعة آلاف مجلد ثلثها مخطوط . وبين مخطوطاتها سبعة وخمسون مجموعة يضم اعظمها ستين رسالة مختلفة . ومن تلك المخطوطات ما يبلغ عمره السبعة قرون . ولهذه المكتبة مدير خاص يشرف عليها ويحافظ على ذخائرها ، وهو الآن الشيخ امين الانصاري الدنف . وقد انحصر في اسرته منذ عهد بعيد طواف الجامع الاقصى .

ثالثاً ـ خزائن كتب شرق الاردن

كانت بلاد شرق الاردن قبل الحرب العظمى (١٩١٤ – ١٩١٨) اقرب الى البداوة منها الى الحضارة . وظلت قروناً كثيرة على تلك الحال لاتعرف من بواعث

---

(١) كان يوسف ضياء الدين من ادباء عصره وقد الف معجما في اللغتين الكردية والعربية يعد الاول من نوعه .

التمدن الحديث شيئاً . لأنها كانت خالية من المدارس والمكتبات والمطابع وسائر ما تتميز به البلدان الراقية من المحسنات العصرية .

فما كادت تضع تلك الحرب الضروس اوزارها حتى نشط الانكليز الى انشاء امارة مستقلة في تلك البقعة العربية لأنهم انتدبوا عليها باسم عصبة الامم في جنيف . وجعلوا اميراً عليها منذ السنة ١٩٢٢ الشريف عبدالله ثاني انجال ملك الحجاز حسين بن علي . فأخذ الامير على عاتقه النهوض باعباء امارته طبقاً لاحتياجات هذا العصر . وعلى رغم قلة الموارد المالية فكان اول ما وجه اليه عنايته تعميم المعارف بين جميع طبقات الأمة . ولم يدخر جهداً في انشاء المكتبات التي لم يكن لها هناك عين ولا اثر واليك ما عرفناه منها (١) :

١ ـــ مكتبة قصر رغدان

شيد هذا القصر الملك عبد الله في عمان عاصمة شرق الاردن واتخذه مقراً له ولمن يتولى عرش المملكة من بعده . ولهذا الملك شغف عظيم باللغة العربية يجيد الكتابة فيها نظماً ونثراً ويحفظ اخبار اعلامها راويا طرفهم ومتغنياً باشعارهم . واطيب اوقات الفراغ لديه الركون الى خزانة كتبه الحافلة بالمعاجم والموسوعات ودواوين الشعر وكتب التاريخ والشرع والادب وغيرها . وعلى حداثة عهد هذه الخزانة فان عدد مجلداتها اربى الى الآن على ستة آلاف بينها مخطوطات نادرة . وهي سائرة في نمو مطرد يوماً بعد يوم .

٢ ـ دار الكتب الاردنية

هي المكتبة الرسمية لمملكة شرق الاردن ومركزها في عمان العاصمة . تأسست عام ١٩٣٨ وفيها من الكتب خمسة الاف مجلد . وبلغنا من ثقة ان هذا العدد سيصبح

---

(١) استندنا في تدوين اخبار مكاتب شرق الاردن الى رسالة كتبها لنا الاستاذ الفاضل السيد خليل جمعة الطوال مدير مدرسة المعارف الاميرية في جرش .

مضاعفاً بعد وقت قريب في هذا المعهد الكتابي لشدة عناية الحكومة الاردنية بترقية المعارف في انحاء المملكة .

٣ ـ سائر مكتبات شرق الاردن

وما عدا المكتبتين المشار اليهما فقد اشتملت المملكة الاردنية على مكتبات صغرى افرغ الجهود في تأسيسها منذ سنة ١٩٢٣ سمير بك الرفاعي مدير المعارف في تلك المملكة الحديثة العهد . وقد نجح بعض النجاح في مهمته فأنشأ بموجب قرار رسمي ثلاث مكتبات نورد اسماءها ما يلي :

١ : مكتبة المدرسة الثانوية في السلط وعدد مجلداتها ٣٠٠٠

٢ : مكتبة المدرسة الثانوية في اربد وعددمجلداتها ١٢٠٠

٣ : مكتبة المدرسة الثانوية في الكرك وعددمجلداتها ١٣٥٠

فيكون مجموع المكتبات خمسة آلاف وخمسماية وخمسين مجلداً .

الفصل العاشر

خزائن كتب مكة المكرمة

اولا ــ مكتبات مكة في العصور الخالية

١ ــ مكتبة المسجد الشريف النبوي

لا جدال في ان هذا المسجد الشريف كان وما برح قبلة جميع المسلمين في مشارق الارض ومغاربها ، وكان خاصّتهم وعامتهم وفي مقدمتهم الخلفاء والملوك والامراء والحجاج يتيمنون باهدائهم اليهِ افخر ما لديهم من الجواهر الثمينة والتحف البديعة تقرباً لله تعالى . وراح الخطاطون والعلماء يكتبون المصاحف الرائعة والمؤلفات المختلفة الابحاث ليزينوا بها خزائن هذا المسجد ويفيدوا طلبة العلم . وقد اثبت المؤرخون اسماء ملوك وسلاطين تولّوا نسخ مصاحف القرآن بيدهم وبعثوا بها الى مكة تيمناً وتعبداً كما سلف الكلام في فصل سابق . هكذا تكونت بتوالي الاعوام مكتبة المسجد النبوي التي كانت بلا ريبٍ من اغنى المكتبات الاسلامية في غابر الزمان .

غير انه بين ليلة وضحاها ذهبت تلك المكتبة فريسة النار بتاريخ ١٣ رمضان سنة ٨٨٦ للهجرة . وسبب ذلك ان صاعقة انقضت على مئذنة المسجد فانهارت على سقفه وعلقت به النار فاحرقت المسجد بكامله والتهمت جميع ما فيه من الكنوز والمصاحف والربعات وخزائن الكتب . وكانت تضم تلك الخزائن كتباً نفيسة ومصاحف عظيمة (١) هيهات ان يأتي الزمان بمثلها !

---

(١) الاعلام باعلام بيت الله الحرام : تأليف قطب الدين الحنفي : صفحة ١٠٥

٢ ـ مكتبة الملك الاشرف قايت باي

على اثر النكبة الهائلة التي حلت بالمسجد النبوي كما ورد في مطلع هـذا الفصل نلت الغيرة الدينية الملك الاشرف قايت باي سلطان مصر (٨٧٢ – ٩٠١ هـ) على شاء معاهد خيرية وعلمية بجانب المسجد الحرام. فأصدر الاوامر الى وكيله شمس لدين محمد بن عمر الشبير بابن الزمن ان يشتري له دورا بجوار الحرم الشريف تحقيقاً منيته. فقام الوكيل بأوامر سيده واشترى ثلاث دور منها دار للشريفة شمسية ن شرائف بني حسن. فهدم الملك تلك الدور وشيد مكانها اثنتين وسبعين خلوةً مجمعاً كبيراً مشرفاً على المسجد الحرام وصيّر المجمع المذكور مدرسة بناها بالرخام لملوّن ووشّى سقفها بالذهب وقرّر لها اربعة مدّرسين على المذاهب الاربعة .

واتحف الملك الاشرف تلك المدرسة بخزانة كتب وقفها على طلبة العلم . وأقام يها خازناً من افاضل العلماء وعيّن له مبلغاً من المال. غير ان ايدي المستعيري بثت بجانب كبير من تلك الكتب وضاع منها جانب آخر . فلم يبق من تلك لكتبة الا ثلاثمائة مجلد تسلمّها الشيخ قطب الدين الحنفيّ فصانها وكمل بعض ما ص منها. ثم جلّد من الكتب ما كان في حاجة الى التجليد واستطاع بدرايته ان ستَرد طائفة من الكتب المفقودة ويعيدها الى اماكنها (١).

ثانياً : مكتبات مكة في العصر الحالي

١ ـ خزانة كتب الحرم

في جانب الحرم الشرقي بمدينة مكة مكتبة قديمة انطوت على مخطوطات ربية في علوم كثيرة بينها طائفة من الكتب وقفها الشريف عبد المطّلب وغيره (٢)

---

(١) الاعلام باعلام بيت الله الحرام : تأليف قطب الدين الحنفي : صفحة ١٠٤

(٢) مجمع الآثار العربية : جزء ١ صفحة ١٣١

وقد وصفها صديقنا الفاضل الحاج احمد عارف الزين في رحلة له سماها « بين صيدا ومكة » ونشرها سنة ١٩٢٢ و ١٩٢٣ في مجلته « العرفان » . واوضح عدد المخطوطات بحسب مواضيعها فبلغت الفين وسبعمائة واثنين وثلاثين مجلداً في علوم الدين والحكمة والهيئة والهندسة والفلسفة والطب والادب والمعاني والبيان الخ. واليك ما كتبه الحاج احمد المشار اليه في وصفها قال :

« لا توازي هذه المكتبة عظمة مكة وشهرتها . ولا غرو فالمكيون لا يحفلون كثيراً بالكتب النفيسة ولا يتسابقون الى اقتنائها . حتى انك لا تجد عند الملك نفسه مكتبة قيّمة مع ما ورثه عن آبائه واجداده من مئات السنين . وهذه المكتبة في الجانب الشرقي من الحرم تصعد اليها بسلم . ولها قيّمان يحسنان استقبال الزائرين . ولها قائمة كتب مخطوطة مرتبة على العلوم (١)

٢ - مكتبة ماجد كردي

للاستاذ الاديب ماجد كردي كلفٌ شديدٌ بالكتب يلتقطها من كل صوب وقطر ويجمعها ويرتبها في خزائنه . وقد استطاع بجهوده المتواصلة ان ينشىء مكتبة عامرة حبسها لفائدة الادباء وطلبة العلم في مكة المكرمة . ثم جعل لها قواماً يتعهدونها وينهضون بخدمة زوارها والمطالعين فيها. وروى الدكتور مدحت شيخ الارض طبيب جلالة الملك عبد العزيز بن سعود ان هذه المكتبة تشتمل على زهاء اربعة آلاف مجلد بينها ثلاثمائة مخطوط.

---

(١) مجلة (العرفان) في صيدا : مجلد ٨ صفحة ٤٩٠ و ٤٩١

الفصل الحادى عشر

مكتبة عارف حكمت بك فى المدينة المنورة

١ ـ ادب مؤسس المكتبة وفضله

لعارف حكمت بك شيخ الاسلام منزلة رفيعة في عالم الفضل والادب . فانه شتهر بمساجلته فريقاً من علماء عصره في الاقطار العربية . وجرت له ابحاث علمية ـطيرة مع محمود شهاب الدين الآلوسي البغدادي (١٢١٧–١٢٧٠ هـ). وقد دُوّنت لك الابحاث في كتاب « نزهة الالباب » ويُسمى ايضاً كتاب « غرائب الاغتراب ي الذهاب والاقامة والاياب » (١) .

٢ تسبيل مكتبة عارف حكمت على المدينة المنورة

شغف عارف حكمت بك شغفاً عظيما بالمطالعة وجمع مخطوطات نادرة وافرة. تكونت لديه بتوالي الايام مكتبة جديرة بالاعتبار نشر عنها ابرهيم حمدي خربوطلي قالة ضافية في مجلة «المقتبس» الدمشقية (٢) .

ولما كان عارف بك لا يبغي من وراء ذلك منفعة شخصية فقد حبس مكتبته على لمدينة المنوّرة عام ١٢٦٠ للهجرة (١٨٤٤ م) ليستفيد سكانها والحجاج النازلون ها من مطالعة ما حوته من الاسفار القيمة . وهي تعد الآن المكتبة الوحيدة العامّة في المدينة المومأ اليها . وقد اتى العلاّمة محمد كردعلي رئيس المجمع العلمي العربي لدمشق على وصف هذه المكتبة في مقتبسه فقال ما نصه :

---

(١) الآداب العربية في القرن التاسع عشر : للاب لويس شيخو : جزء ١ صفحة ٩٠

(٢) المقتبس : مجلد ٧ سنة ١٩١٢ صفحة ٣٧٩ و ٧٧٤

« لعلّ خزانة شيخ الاسلام عارف حكمت بك التي سبّلها على النـــاس في مدينة الرسول تشبه الخزانة التيمورية كما تقرب منها بعدد المجلدات » . ولا يخفى ان الخزانة التيمورية انشأها احمد تيمور باشا ثم حبسها على دار الكتب المصرية عام ١٩٣٢ للميلاد. وكان عدد مجلداتها يومئذ واحـــداً وعشرين الفاً وثلاثمائة وخمسة واربعين مجلداً . وسنأتي على وصفها في كلامنا عن مكتبات مصر .

٣ ـ وصف رحالة لمكتبة عارف حكمت بك

اطلعنا في اخبار « رحلة الى المدينة المنورة » على مقالة تصدّى فيها كاتبهـــا لوصف مكتبات المدينة المشار اليها قال : « ... واهم خزائن الكتب في المدينـــة خزانتان : مكتبة السلطان محمود العثماني ومخطوطاتها ومطبوعاتها تافهة لا شأن لها. واكثرها من المشهور ونظامها وسط. واحسنها وربما كانت خير مكتبة في البلاد العثمانية كلها بنظامها وانتقاء امهاتها هي مكتبة شيخ الاسلام عارف حكمت افندي. ففيها نحو عشرة آلاف مجلد كُتبت بخطوط المشهورين من الخطاطين . كأنْ تجد الكتاب ذا العشرين مجلداً مكتوباً بخط مشرق بديع في مجلد او مجلدين . وفي هذه المكتبة من التسهيل للمطالعين والعناية براحتهم ما لا تـــكاد تجد مثله في دار الكتب الخديوية بمصر لعهدنا. وما ذلك الا لكثرة ريعها وانفاقهِ في سبله واختيار القيّمين عليها وإدرار المشاهرات الكافية عليهم » (١).

٤ ـ بدائع هذه المكتبة وروائعها

وفي مكتبة عارف حكمت بك طُرَف بديعة يتيمة لا قرين لها في سائر المكاتب. وقد رأينا ان نثبت وصف بعضها بياناً لخطورتهـــا نقلاً عن تاريخ آداب اللغة العربية » (٢) لمؤلفه جرجي زيدان قال :

---

(١) المقتبس : مجلد ٧ سنة ١٩١٢ صفحة ٧٦٣ (٢) مجلد ٤ صفحة ١٤٥ ـ ١٤٦

« ذكر الامير شكيب ارسلان في مقالة نشرت في « البرهان » الطرابلسية انه شاهد في هذه المكتبة نسخة من المصحف مكتوبة على رق نعام بخط اندلسي مذهبة في آخرها . وقد جاء فيها انها كتبت في المرية بالاندلس بقلم عبد الرحمن بن علي بن محمد بن مرزوق بن حمد مكانس البطليوسي سنة ٤٨٨ ﻫ فهي من التحف المخطوطة النادرة . وانه شاهد نسخة غير تامة من تفسير القرآن لعبدالله بن عباس على رق غزال كتبت سنة ٣١٠ ﻫ . وكتاب المحاضرات للسيوطي بخط المؤلف . وافعال ابن القوطية كتبت بالاسكندرية سنة ٤٧٩ ﻫ . وكتاب التشبيهات لأبي اسحق بن ابي عون البغدادي مكتوبة بخط مشرقي سنة ٤٦٦ ﻫ . وطبقات الشعراء لابن سلام ومنها نقلت نسخة الشنقيطي في المكتبة الخديوية .

«وذكر محمدبتانوني صاحب « الرحلةالحجازية » انه شاهد في هذه المكتبة كتاب اشعار فارسية مكتوباً بخط ابيض جميل قال : « وبينا نحن نعجب من جودة الخط واتقان الصناعة ونظافتها وحسن تنسيق حروفها على صغرها ودقتها لفت نظرنا حضرة مدير الكتبخانة الى ان حروف الكتابة انما هي ملصقة على الورق. فتأملناها فوجدنا شيئاً يبهت الطرف لرؤيته ويعجز اللسان عن نعته . خصوصاً عندما اخبرنا انهم كانوا يكتبون هذه الكتابة ثم يفصلونها عن ورقتها بظفرهم . ثم يلصقونها على ورقة اخرى » . وذكر عبدالله مخلص في المقتبس (سنة ٨ ج٢) ان هذا الكتاب يسمى غزليات شاهي كتب نحو سنة ٦٥٥ ﻫ بحروف من ورق . وانه رأى في تلك المكتبة كتاب « تقويم الابدان » في الطب لابن جزلة البغدادي كتب سنة ٢٩٧ ﻫ [1] » .

---

(١) ان مؤلف كتاب تقويم الابدان في الطب اعني يحيى بن عيسى بن جزلة البغدادي قد توفي سنة ٤٧٣ ﻫ طالع ذلك في الصفحة ٣٣٩ من تاريخ مختصر الدول لابي الفرج ابن العبري . فيكون نسخ هذا المخطوط في السنة ٢٩٧ ﻫ مغلوطاً فيه فوجب التنبيه .

الفصل الثاني عشر

خزائن كتب اليمن

اولا : مكتبات اليمن في الازمنة السابقة

١ - خزانة كتب الملك المؤيد

تمتد بلاد اليمن على ساحل البحر الاحمر في الجهة الجنوبية الغربية من شبه جزيرة العرب . وآثارها القديمة تنبىء بما كانت عليه من الحضارة في زمن الجاهلية وصدر الاسلام . ثم دارت عليها الدوائر فتقهقرت احوالها ولم تنهض الا بعناية الملك نور الدين علي مؤسس الدولة الرسولية التي ملكت اليمن مدة مائتين وعشرين سنة (٦٢٦ — ٨٤٥ هـ) وكان آخر ملوك هذه الدولة مظفر يوسف الرسولي فخلفهم بنو طاهر (١). وذهب بعض المؤرخين الى تشبيه الدولة الرسولية في اليمن بدولة العباسيين في العراق (٢). وحسبك بعض ملوك بني الرسول مؤلفي الكتب العديدة في التاريخ والادب والطب (٣)

وبعد وفاة الاشرف ابن الملك المظفر سنة ٦٩٥ للهجرة خلفه في اليمن اخوه الملك المؤيد هزبر الدين داود (٦٩٥ — ٧٢١ للهجرة) الذائع الشهرة في الجود والادب . وكانت ايامه عصراً ذهبياً للمملكة اليمنية اذ لم يقم بعد عصر الارتقاء العربي ملك مثله قرّب العلماء واستجلبهم اليه من حيثما كانوا . ومن آثاره القلمية

---

(١) المشرق : مجلد ١٤ (١٩١١) صفحة ٦٣٤ (٢) الاعلام ، لخير الدين الزركلي : صفحة ٧١٩ (٣) المقتطف : مجلد ٩٠ صفحة ٣٢١

اختصاره كتاب « الجمهرة في التبررة » وقد زاد على الاصل مباحث (١)

ولهذا الملك المؤيد مآثر جمة منها « المدرسة المؤيدية » نسبة اليه ابتناها في معزبة تعز . اما ابرز مآثر هذا العاهل الفاضل فهي « خزانة الكتب » التي انشأها في عاصمة ملكه وجمع فيها من التحف النادرة ومن مصنفات اهل العلم على اختلافها ما ينيف على مائة الف مجلد (٢). وقد تواردت عليه طرف المخطوطات من كل صوب يرغب الناس في مطالعتها والاستقاء من مناهلها . وكان عنده اكثر من عشرة نساخ ينسخون الكتب ويضمونها الى خزائنه بعد التدقيق فيها ومقابلتها على الاصل . ولا ريب في ان المحن والحروب التي توالت على اليمن في القرون اللاحقة قضت على هذه المكتبة فعفت آثارها ودخلت في خبر كان.

وحلت وفاة الملك المؤيد في قصر الشجرة في معزبةتعز سنة ٧٢١ للهجرة .وقد قرظه الشعراء بقصائد رنانة نكتفي منها بابيات انشده اياها الشيخ تاج الدين عبد الباقي اليماني وقد ركب الملك المؤيد فيلاً قال (٣) :

الله اولاك يا داود مكرمةً	ورتبةً ما اتاها قبل سلطانُ
ركبت فيلاً وكان الفيل ذا رهج	مستبشراً وهو بالسلطان فرحانُ
لك الاله أذلّ الوحش اجمعهُ	هل انت داود فيه ام سليمانُ

٢ ـ خزانة كتب الامام محمد بن الحسين

واشتهر بالعلم في القرن الحادي عشر للهجرة ابن امام اليمن محمد بن الحسين ابن الامام القسم . وصفه ابن ابي الرجال بقوله : « عالم ابن عالم كان من اهل العلم ورعاته مطلعاً على مقاصد الادباء ومناهجهم » وقد اجتمع عنده من الكتب ما لم

---

(١) العقود اللؤلؤية لعلي بن الحسن الخزرجي : مجلد ١ صفحة ٤٤٠ — وفوات الوفيات
(٢) صبح الاعشى للقلقشندي : جزء ٥ صفحة ٣١ (٣) فوات الوفيات : مجلد ١ صفحة ١٥٨

يجتمع الا عنــد السلاطين . وحلت وفاته بعد عصر الجمعة ثامن شوال سنة سبع وستين والف . ودفن بالتربة المشهورة بالبستان في باب صنعاء الغربي (١)

ثانياً : مكتبات اليمن في الزمن الحالي

١ ـ المكتبة العمومية

اثبت الرحالة المدقق نزيه بك مؤيد العظم ان في صنعاء عاصمة اليمن مكتبةً عمومية تابعة لجامعها الكبير قال: « هي قيّمة جدا تحتوي على انواع الكتب الخطية القديمة والحديثة وخاصة المصاحف القديمة المشهورة » (٢). ويرجع الفضل في تأسيس المكتبة وصيانة كنوزها منذ قرون عديدة الى الائمة الزيود أسلاف الامام يحيى ملك اليمن الحالي. وهو الامام السابع والثانون (٣) ارتقى الى عرش الامامة في عشرين ربيع الاول سنة ١٣٢٢ للهجره (٤). وقد جرى على خطة اجداده في تعزيز هذه المكتبة العمومية التي ضم اليها سنة ١٣٤٤ للهجرة كل ماعثر عليه من مخطوطات نفيسة في كل فن . وكانت تلك المخطوطات مبعثرة في خزائن كتب الوقف بصنعاء وقد عبثت الايدي بكثير منها في سالف الايام (٥).

واحتذى الامام يحيى في لمّ مخطوطات اليمن حذو الخديو اسمعيل بمصر والباي محمد الصادق بتونس ومدحت باشا والي سوريا بدمشق . فان هؤلاء الرجال العظام تنبهوا الى ما حل من النهب والتلف والاهمال بخزائن الكتب التي وقفها الملوك والعلماء وأهل الاحسان على المساجد والاضرحة وعلى معاهد العلم. فتنبه الامام

---

(١) خلاصة الاثر في اعيان القرن الثاني عشر : جزء ٣ صفحة ٤٥٥ ـ ٤٥٦
(٢) رحلة في بلاد العربية السعيدة : بقلم نزيه بك مويد العظم : جزء ١ صفحة ٢٥٨
(٣) ملوك المسلمين المعاصرون ودولهم : صفحة ١٦٩ (٤) ملوك المسلمين المعاصرون ودولهم : صفحة ١٧٢ (٥) فرجة الهموم والحزن في حوادث اليمن : تأليف عبد الواسع بن يحيى الواسعي اليمني : صفحة ٢٧٤

يحيى الى استنقاذ مخطوطات مملكته كما تنبه اولئك الرجالات العظام الى استنقاذ ما تبقى من مخطوطات بلادهم . والف من مجموعها مكتبة عامرة في عاصمته كما الف اولئك الدهاقنة الثلاثة ثلاث مكتبات في العواصم الثلاث المشار اليها.

واليك ما روته جريدة « البشير » البيروتية (١) عن اهتمام حكومة اليمن بتلك المكتبة العمومية قالت: « وبدأ العمل في توسيع المكتبة العمومية في جامع صنعاء. وهي التي أمر سيوف الاسلام انجال الامام بان تنقل اليها جميع الكتب المطبوعة والخطية التي في مكاتبهم الخاصة وهي كتب نفيسة جداً. وقد قوبل هذا القرار بالشكر والثناء . وستباشر ادارة المكتبة العمومية طبعَ فهرس عام لمحتوياتها ».

على ان الرحالة نزيه بك العظم قد اثبت ما اختبره بنفسه عن ثقافة « سيوف الاسلام » المشار اليهم قال : « عدتُ من زيارة اولاد الامام وانا مدهوش من منظرهم وجلوسهم على الارض وانكبابهم على الكتب الخطية يطالعون ما في بطونها من علوم وفنون » (٢)

(١) البشير : مجلد ٦٧ عدد ٥٥٥٩ تاريخ ٢١ و٢٢ شباط سنة ١٩٣٧

(٢) رحلة في بلاد العربية السعيدة : الجزء الاول : صفحة ٢٢٩

الفصل الثالث عشر

خزائن كتب الحويزة

١ ـ خزانة دار الامارة

تقع الحويزة في امارة عربستان لعصرنا هذا . وكانت منذ القرن التاسع للهجرة خاضعة لحكم الموالي امراء الحويزة والاهواز الى ان انقرضت امارتهم اخيراً على ايدي الامراء من كعب.

وقد عظمت شوكة الموالي في القرن الحادي عشر على عهد سليلهم السيد علي خان الحويزي ممدوح شهاب الدين بن معتوق . وكان هذا الامير نصيراً للعلم محباً للعلماء يجالسهم ويحسن اليهم . وقدجمع في دار امارته بالحويزة خزانة كتب عظيمة جداً انطوت على نوادر الكتب وامهات المخطوطات القديمة . فشاع ذكرها في الآفاق وقصدها اهل البحث من الجهات .

٢ ـ خزانة نعمة الله الجزائري التستري

لما توفي السيد نعمةالله الجزائري التستري خلف خزانة مخطوطات يبلغ عدد مجلداتها اثني عشر الفاً بينها كثير من المخطوطات المحلاة بمحلول الذهب . لكنها تفرقت ايدي سبا بعد ضعف امر الموالي . وربما بقي شيء من آثارها في بر الاهواز الى الآن (١) .

---

(١) مجلة العرفان في صيدا : مجلد ٧ صفحة ٤٧٠ و ٤٧١

الفصل الرابع عشر

خزائن كتب مرو

١ ـ الخزانة العزيزية ٢ ـ الخزانة الكمالية

مرو هي اشهر مدن خراسان وعاصمتها اخرجت عدداً وافراً من العلماء والحكماء. استوطنها ياقوت الحموي ودخل دور كتبها واستفاد منها باخذ معلومات كثيرة لمؤلفه « معجم البلدان » الذي اشتهر به . وانتهت حياته عام ٦٢٦ للهجرة (١٢٢٩ م) بمدينة حلب حيث أتمّ هذا الكتاب بمساعدة الوزير جمال الدين القفطي. اليك ما اورده ياقوت (١) عن خزائن كتب مرو قال :

« وبمرو جامعان للحنفية والشافعية يجمعهما السور . واقمتُ بها ثلاثة اعوام فلم اجد بها عيباً الا ما يعتري اهلها من العرَق المديني. فانهم منه في شدة عظيمة قلّ من ينجو منه في كل عـــام . ولولا ورود التتر الى تلك البلاد وخرابها لما فارقتها الى الممات . لما في اهلها من الرفد ولين الجانب وحسن العشرة وكثرة كتب الاصول المتقنة بها .

« فاني فارقتها وفيها عشر خزائن للوقف لم ارَ في الدنيا مثلها كثرة وجودة . منها خزانتان في الجامع احداهما يقال لها العزيزية وقفها رجل يقال له عزيز الدين ابو بكر عتيق الزنجاني او عتيق بن ابي بكر. وكان فقاعياً للسلطان سنجر وكان في اول امره يبيع الفاكهة والريحان بسوق مرو . ثم شرابياً له وكان ذا مكانة منه. وكان فيها اثنا عشر الف مجلد او ما يقاربها . والاخرى يقال لها الكمالية لا ادري الى من تنسب ».

---

(١) معجم البلدان : مجلد ٨ صفحة ٣٥ و٣٦

٣ - خزانة شرف الملك المستوفي وسائر خزائن مرو

ثم اردف ياقوت فقال : « وبها خزانة شرف الملك المستوفي ابي سعد محمد بن منصور في مدرسته . ومات المستوفي هذا في سنة ٤٩٤ وكان حنفيّ المذهب . وخزانة نظام الملك حسن بن اسحق في مدرسته . وخزانتان للسمعانيين . وخزانة اخرى في المدرسة العميدية وخزانة لمجد الملك احد الوزراء المتأخرين بها . والخزائن الخاتونية في مدرستها والضميرية في خانكاه ... وكانت سهلة التناول لا يفارق منزلي منها مائتا مجلد . واكثره بغير رهن تكون قيمتها مائتي دينار . فكنت ارتع فيها واقتبس من فوائدها . وانساني حبها كل بلد والهاني عن الاهل والولد . واكثر فوائد هذا الكتاب وغيره مما جمعته فهو من تلك الخزائن . وكثيراً ما كنت اترنم عند كوني بمرو بقول بعض الاعراب .

اقمرية الوادي التي خان إلفها — من الدهر احداث اتت رخطوب

تعالي اطارحك البكاء فاننا — كلانا بمرو الشاهجان غريب

« ثم اضفت اليها قول ابي الحسين مسعود بن الحسن الدمشقي الحافظ وكان قدم مرو فمات بها في سنة ٥٤٣

اخلايَ ان اصبحتمُ في دياركم — فاني بمرو الشاهجان غريبُ

اموت اشتياقاً ثم احيا تذكراً — وبين التراقي والضلوع لهيبُ

فما عجبٌ موت الغريب صبابة — ولكن بقاه في الحياة عجيبُ

الفصل الخامس عشر

خزانة كتب مراغا

١ ـ فظائع هولاكو ومقتل آخر خلفاء بغداد

بعدما فرغ هولاكو حفيد جنكزخان من فتوحاته في بغداد والجزيرة وسوريا
كرّ في ترتيب شؤون مملكته كي يستتب له الامر. غير انه اراد ان يمحو وصمة
مار التي التصقت به لما ارتكبه من المظالم واقترفه من الجرائم . كيف لا وقد
جل له التاريخ اقبح ذكرى بما اتاه وقتئذ من الاعمال التي تقشعر لها الابدان.
: ان الوزير مؤيد الدين بن العلقمي جمع له سادات بغداد ومدرّسيها وعلماءها
نتلهم عن آخرهم وكان بينهم محي الدين الجوزي واولاده . ولم يشأ حينئذ ان يمس
لخليفة المستعصم بالله (٦٤٠ – ٦٥٦ هـ) بسوء بل ابقاه حياً الى ان دلّ على
واضع الاموال والدفائن فقتله (١). وكان عدد القتلى اربعة وعشرين الفاً.
ثم احرق هولاكو اكثر المكتبات في عاصمة العباسيين والقى بعضها الآخر في
ر دجلة كما سلف القول. وقد افتعل مثل ذلك في دمشق اذ أحرق مدارسها
معابدها وامهات الكتب فضلاً عما نهَبَه جنودهُ المغول وحملوه الى بلادهم.

٢ ـ انشاء هولاكو مكتبة مراغا من بقايا المكتبات التي دمرها

لم يلبث هولاكو ان قرّعه ضميره على المذابح البشرية والفظائع البربرية التي
تضح امرها في كل مكان. فقام يفتش عن وسيلة تزيل عنه تلك الوصمة وحاول
ن يجعل له مأثرة يتخلد بها اسمه في القرون اللاحقة. ولكن هيهات ثم هيهات ! اما

---

(١) الاعلام : لخير الدين الزركلي : صفحة ٥٨٨

المأثرة التي راح يسجلها لنفسه فهي انه جمع ما نهبه المغول ابناء قومه من الكتب في البلدان التي احتلها ثم نقلها الى مراغا باذربيجان. وانشأ بتلك المخطوطات مكتبة عظيمة جمعت اربعمائة الف مجلد (١) كما روى الثقات من مؤرخي العرب وغيرهم. وابتنى فيها المراصد على يد نصير الدين الطوسي (٢) احد كبار علماء دولته .

٣ ـ اعجاب ابن العبري بمكتبة مراغا

مما يؤيد تصريحنا بخطورة مكتبة مراغا ما اثبته ابو الفرج ابن العبري (+ ١٢٨٦ م) في مقدمة تاريخه المدني اذ قال ما تعريبه : « اتفق لي اني دخلت مكتبة مراغا باذربيجان. فشاهدت فيها كتباً وقراطيس سريانية وعربية وفارسية تشتمل على اخبار تستحق الاعتبار . فاثبتها في تاريخي هذا » (٣).

---

(١) ابن شاكر : جزء ٢ صفحة ١٤٩ (٢) تاريخ الموصل للقس سليمان صائغ : مجلد ٢ صفحة ١١٨ (٣) تاريخ ابن العبري المدني : طبع الاب بولس بيجان في باريس سنة ١٨٩٠ المقدمة : صفحة ٢

الفصل السادس عشر

خزائن كتب شيراز وجنزة

١ ـ خزانة عضد الدولة بن بويه في شيراز

روى البشاري ان عضد الدولة بن بويه المتوفى سنة ٣٧٢ للهجرة انشأ في شيراز داراً للكتب ُعدت من اكبر المكتبات. فأفسح لها جانباً من قصره ولم يكن لها مثيل في ممالك الاسلام. وقد عين لها خازناً ابا منصور الشيرازي قاضي بلاد فارس واحد فقهائها. وكان عضد الدولة من اعاظم نصراء المعارف لا يخلو مجلسه من العلماء والادباء يباحثهم ويناظرهم ويطارحهم الاسئلة العلمية. ولشدة شغفه بالشعر تمنى ان يكون هو المصلوب بدلا من ابن بقية الوزير كيما تقال فيه قصيدة محمد بن عمران الانباري ومطلعها :

علوٌّ في الحيـــاة وفي المماتِ   لَعَمْرُكَ تلك احدى المعجزات

وممن أنيطت به ادارة خزانة الكتب بعد القاضي ابي منصور الشيرازي ابو الحسن عليّ بن هلال المشهور بابن البوّاب . وكان ذلك في عهد بهاء الدولة بن عضد الدولة بن بويه (١)

٢ ـ خزانة كتب جنزة

من المكتبات التي اشتهرت في القرون الوسطى دار الكتب بجنزة وهي مدينة كبيرة واقعة بين شروان واذربيجان. وكان خازن هذه المكتبة اذ ذاك ابو الفضل حداد بن عاصم بن بكران النشوي . ذكره ياقوت الحموي في المعجم عند ذكره نشوي. ولا ُيعلم شيء عن اخبار هذه المكتبة اكثر من ذلك (٢)

---

(١) معجم الادباء : لياقوت الحموي : جزء ١٥ صفحة ١٢٢

(٢) مجلة « البصائر » في بيروت : لجميل بك العظم : مجلد ١ سنة ١٩١٢ صفحة ٢٢٠

الفصل السابع عشر

الخزانة الرضوية في خراسان

من اقدم مـدن بـلاد فارس مدينـة خراسان التي دُفن فيها هارون الرشيد (١٧٠ – ١٩٣ هـ) الخليفة العباسي. وفيها ايضاً ضريح الامام علي بن موسى الرضا الذي اليه تُنسب «الخزانة الرضوية» وهي مدار بحثنا الآن . وقد انتابت النكبات مدينة خراسان واجهزت على ابنيتها وآثارها. فخربتها ثلاث مرّات وتجدّد بنيانها ثلاث مرات. ففي المرة الاولى هدمها الامير سبكتكين. وفي المرة الثانية قوّضها الغزنويون. وفي المرة الثالثة اتلفتها عاصفة الفتنة المغولية عام ٦١٧ للهجرة في عهد الطاغية جنكزخان (١) . ولا يخالجنا ادنى ريب في ان هذه المدينـة التي كانت مركزاً للعلم والثقافة قد حل بمعاهدها العلمية وخزائنها الكتابية من التلف والتخريب ماحلّ بابنيتها الجليلة وآثارها الجميلة.

يتضح من بعض التآليف الاثرية الباقية ليومنا هذا ان الخزانة الرضويّة كانت عامرة في سنة ٨٦١ للهجرة (١٤٥٦ م) وحاوية انفس الاسفار في اغلب العلوم. فاشتهر امرها بين القريب والبعيد حتى اصبحت مقتبس نور المعارف للطالبين والباحثين الذين يمموها من جميع الانحاء .

وفي السنة ٩٩٧ للهجرة (١٥٨٨ م) حاصر عبد المؤمن خان مدينة خراسان مدة سبعة اشهر. ولمّا فتحها نهب خزانة كتبها فعدّ القوم هذه السيئة جناية عظمى على العلم وذويه. ومن جملة ما نهب حجر الماس حجمه كبيضة الدجاج كان وقف قطب شاه الدكني على قبر الامام عليّ. وبعد مدة طويلة أعيد بعض المخطوطات

(١) المختصر في اخبار البشر لابي الفداء : جزء ٣ صفحة ١٢٧

المنهوبة الى الخزانة الرضوية من الامكنة البعيدة كالهند وغيرها . يدل على ذلك فهرس كتبها الذي وضعه سنة ١٢٩٦ للهجرة ميرزا سعيد خان مؤتمن الملك.

وعام ١٠٠٩ للهجرة (١٦٠٠ م) وقف الشاه عباس الصفوي على الخزانة الرضوية اجزاء مصحف بخط بعض ائمة الشيعة. وعلى ظهرها شهادة الشيخ بهاء الدين العاملي على كون ذلك الخط هو لبعض ائمة اهل البيت النبويّ. ووقف عليها الشيخ بهاء الدين نفسه كتباً شتى في التاريخ المذكور. وعلى رغم ما اصاب هذه الخزانة من النوائب الفادحة فان عدد مخطوطاتها يبلغ الان ٣٣٤٤ مجلداً عدا المصاحف. وقد امر الشاه الحالي (بهلوي) بوضع فهرس عام لها يشتمل على عناوين الكتب واوصافها واسماء مؤلفيها وذكر واقفيها وغير ذلك (١)

---

(١) اقتطفنا هذه المعلومات من مقالة للبحاثة عبدالله الزنجاني نشرتها مجلة « لغة العرب» ببغداد : مجلد ٦ صفحة ٦٦٢ ـ ٦٦٤ سنة ١٩٢٨

الفصل الثامن عشر

خزائن كتب فيروز آباد والري ونيسابور وطوس وساوه

١ - دار الكتب في فيروز آباد

فيروزآباد مدينة شهيرة في العراق الفارسي بناها اردشير بن بابك (٢٢٦-٢٤٠م) في القرن الثالث للميلاد . واليها ينتسب ابو اسحق ابرهيم الفيروز آبادي المتوفى سنة ٤٣٣ للهجرة مؤلف كتاب « طبقات الفقهاء » ثم ابو طاهر مجد الدين الفيروز آبادي (٧٢٩ - ٨١٧) صاحب « القاموس المحيط » المشهور باسمه .

وفي القرن الخامس للهجرة بُنيت في فيروز آباد دار للكتب حدّثنا عنها المؤرخ الحموي ابو الفداء (١) قال : « سنة ٤٣٣ للهجرة (١٠٤١ م) توفي ابو منصور بهرام الملقب بالعادل وزير الملك ابي كاليجار وكان حسن السيرة . وبنى داراً للكتب بفيروز آباد وجعل فيها سبعة آلاف مجلد » .

٢ - بيت الكتب في الري

في القرن السادس للهجرة كان في الريّ مكتبة عامرة تسمى « بيت الكتب » لم نهتدِ الى اسم منشئها . وهي التي امَر السلطان محمود الغزنوي سنة ٥٤٨ للهجرة باحراق كل ما كانت تحويهِ من كتب الروافض واهل البدع في علم الكلام . وقد ورد ذكرها في « معجم الادباء » لياقوت الرومي (٢) نثبت نصه هنا قال :

---

(١) تاريخ ابي الفداء : جزء ٢ صفحة ١٦٦
(٢) معجم الادباء : لياقوت الرومي : مجلد ٢ صفحة ٣١٥

« قال الحسن البيهقي وانا اقول « بيت الكتب » الذي بالري على ذلك دليل بعدما احرقه السلطان محمود بن سبكتكين . فاني طالعتُ هذا البيت فوجدتُ فهرست تلك الكتب عشرة مجلدات. فان السلطان محموداً لما ورد الى الري قيل له: ان هذه الكتب كتب الروافض واهل البدع . فاستخرج منها كل ما كان فى علم الكلام وأمر بحرقه » .

٣ ـ مكتبة مشهد عبد العظيم في الري

في الري ليومنا هذا مكتبة « مشهد عبد العظيم » التي تنطوي على طائفة من اثمن المخطوطات وابدعها . وقد اشار اليه البحّاثة « عبد العزيز جواهر الكلام » فوصفها وصفاً مدققاً (١) باللغة الفارسية .

٤ ـ مكتبة مسجد عقيل في نيسابور

في السنة ٥٥٥ للهجرة تقدم المؤيد (أي بَه) بامساك اعيان نيسابور لانهم كانوا رؤساء للحرامية والمفسدين . فأخذ يقتل المفسدين فخربت نيسابور . وكان من جملة ما تخرب مسجد عقيل الذي كان مجمعاً لاهل العلم واحتوى على خزائن كتب موقوفة . ثم قوّض من مدارس الحنفية سبع عشرة مدرسة واحرق ونهب عدة من خزائن الكتب (٢). وضمت تلك الخزائن كتباً وقفها في حياته ابو علي الجذامي المالقي النحوي (٣) . فأتلف المؤيد (أي بَه) كل ذلك وأجهز عليه .

---

(١) كتابخانهاي ايران : لعبد العزيز جواهر الكلام : صفحة ٥٨ ـ ٥٩ (٢) المختصر في اخبار البشر : لابي الفداء : جزء ٣ صفحة ٣٨ وتاريخ ابن الوردي : مجلد ٢ صفحة ٨٣

(٣) بغية الوعاة في طبقات اللغويين والنحاة : لجلال الدين السيوطي : صفحه ٢١٥

٥ ـ مكتبة للشهد الرضوي في طوس

لما كانت السنة ٩٩٦ للهجرة (١٥٨٧ م) زحف عبد المؤمن خان ابن عبدالله خان ملك الاوزبكية في جيوش جرارة الى مدينة طوس وحاصرها مدة اربعة اشهر. ففتحها ووضع السيف في سكانها ونكل بهم تنكيلاً. ثم تحول الى المشهد الرضوي فنهب كل ما فيه من الجواهر والامتعة الثمينة والكتب. وفي جملة ما انتهبه قطعة من الماس حجمها حجم بيضة الدجاجة كان قد وقفها قطب شاه الدكني لذاك الحرم الشريف. وفي السنة ١٠١٦ﻫ (١٦٠٧م) حبس الشاه عباس الاول الصفوي (١٥٥٧ – ١٦٢٨ م) نفائس وكتباً وعقارات على المشهد المشار اليه تقرباً لله جل وعزّ وتعويضاً عما لحق بالمشهد الرضوي من الخسائر (١)

٦ ـ دار كتب ساوه

روى ياقوت الحموي في معجم البلدان عن مكتبة ساوه ما يلي : « ساوه مدينة بين الري وهمذان جاءها التتر فخرّبوها وقتلوا كل من فيها ولم يتركوا احداً البتة. وكان بها دار كتب لم يكن في الدنيا اعظم منها. بلغني انهم احرقوها (٢) »

---

(١) تاريخ طوس : بقلم محمد مهدي العلوي : صفحة ١٤ — ١٥ (٢) معجم البلدان : جزء ٥ صفحة ٢١ .

الفصل التاسع عشر

خزائن كتب اردشير وسمرقند واصبهان وخوارزم وهمذان وهداه وبست وغيرها

اردشير مدينة ببلاد فارس شادها اردشير بن بابك (٢٢٦ – ٢٤٠ م) مؤسس الدولة الساسانية. وهي قائمة ازاء المدائن التي كانت في ذلك العهد تحت صولة الفرس. ولما صارت تلك البلاد الى خلفاء بني العباس أنشئت في اردشير مكتبة عامة لفائدة الجمهور اصيبت بالنكبات مراراً شتى. فكان ذلك مدعاة الى تبعثرها وفقدان القسم الاوفر من محتوياتها الثمينة. وآخر نكبة لحقت بها انها احترقت عام ٤٥١ للهجرة في ايام خلافة المستنصر بن الظاهر. وكانت تحوي يوم احتراقها عشرة آلاف واربعمائة مخطوط.

وكان في مدينة سمرقند مكتبة شهيرة ابتناها فيما قيل الاسكندر ذو القرنين. وقد افتتح الوليد بن عبد الملك تلك المدينة صلحاً في اوائل الاسلام. وللبستي بيتان انشدهما في سمرقند وهما :

للناس في أخراهم جنةٌ ... وجنّةُ الدنيا سمرقندُ
يا من يسوي ارض بلخ بها ... هل يستوي الحنظل والقند

اما بقية المدن الشهيرة في بلاد فارس كاصبهان وخوارزم وهمذان وهداه وبَستْ وغيرها فقد كانت حافلة بخزائن الكتب في العصر الذهبي العربي . يؤيد ذلك ما عرفناه من اسماء مشاهير العلماء المنتسبين الى تلك الحواضر كالراغب الاصبهاني وابي بكر الخوارزمي وبديع الزمان الهمذاني والشاعر البستي الخ . وهو برهان صريح يحملنا على الاعتقاد بانها كانت عامرة بالمكتبات ايضا. نخص بالذكر منها الخزانة الفريدة بمدينة هداه وقد تعرض لوصفها ياقوت الرومي. فروى انه اقتبس

منها اغلب فوائد كتابه « معجم البلدان » (١) وحسبك ان ابا تمام الطائي (١٩٠ — ٢٢٨ ﻫ) عوّقه البرد في همذان فوجد في احدى خزائنها ما يسر له اختيار ديوان الحماسة (٢)

ولا تقل مكتبة خوارزم شهرة عن مكتبات بلاد فارس السابق ذكرها. فانها كانت من اشهر الخزائن في ايام عز العرب. غير ان التتر دكوها واتلفوا ما فيها من الذخائر العلمية سنة ٦١٨ للهجرة . ذلك عندما دوخ ملكهم جنكزخان (٥٤٩ — ٦٢٦ ﻫ) المدينة المذكورة . فقتلوا اهلها وسبوا ذراريهم وفتكوا بالعلماء والصلحاء والزهاد والعبّاد. وقوّضوا المساجد واحرقوا المصاحف وافتعلوا من المنكرات ما لم يُسمع بمثله في التاريخ قبل الاسلام وبعده (٣)

واثبت ابن الوردي في تاريخه (٤) ان بختنصر (اي نبوخذنصر ملك بابل (٦٠٥ — ٥٦٢ ق. م.) ما فعل ببني اسرائيل بعض ما فعله التتر باهل خوارزم من القتل والسبي والتقطيع وحرق الكتب .

واثبت مفضل بن سعد بن الحسين المافروخي الاصفهاني من علماء القرن الخامس للهجرة في كتابه « محاسن اصفهان » وصفاً مسهباً لجوامع هذه المدينة . ومن جملتها جامع الخصيب بن مسلم كانت بجانبه مكتبة معتبرة اتى على ذكرها الاستاذ العلامة محمد كردعلي (٥) قال :

« وبحذاء جامع الخصيب بن مسلم دار الكتب وحجرها وخزائنها اللواتي قد بناهن الاستاذ الرئيس ابوالعباس احمد الضبي ونضد فيها من الكتب عيوناً وخلّدها من العلوم فنوناً . ويشتمل فهرستها على ثلاثة مجلدات كبيرة من المصنفات في

---

(١) مجلة « لغة العرب » الاب انستاس الكرملي في بغداد: مجلد ٥ صفحة ٢١٠ (٢) خزائن الكتب في القاهرة : للدكتور عبدالوهاب عزام (مجلة الرسالة : سنة ٣ صفحة ١٦٤١ — ١٦٤٢)
(٣) المختصر في اخبار البشر : لابي الفداء : جزء ٣ صفحة ١٢٧ — ١٢٨ (٤) تاريخ ابن الوردي : مجلد ٢ صفحة ١٤١ (٥) عن مقالة لمحمد كردعلي في مجلة « الرسالة » بالقاهرة العدد ١١٨ سنة ٣ صفحة ١٦٤٠

اسرار التفاسير وغرائب الاحاديث . ومن المؤلفات في النحو واللغة والتصريف والابنية . ومن المدونات من غرر الاشعار وعيون الاخبار . ومن الملتقطات من سنن الانبياء والخلفاء وسير الملوك والامراء . ومن المجموعات من علوم الاوائل من المنطقيات والرياضيات والطبيعيات والالهيات . وبذلك ادركنا ان الجامع الاعظم ودار الكتب في اصفهان هما من انشاء العرب ايضاً . »

وفي القرن الرابع للهجرة وُجدت خزانة حافلة بالكتب في مدينة « بَست » الواقعة بين سجستان وغزنين وهداة . انشأها ابو حاتم محمد بن حبان البستي ووقفها وشيد لها داراً . وعلى تعاقب الايام وضعف السلطان استولى ذوو العيث والفساد على البلاد ففتكوا بهاليها وخرّبوا معالم الحضارة وفي جملتها تلك المكتبة الزاهرة . قال الخطيب البغدادي : « مثل هذه الكتب الجليلة كان يجب ان يكثر منها النسخ فيتنافس بها اهل العلم ويكتبوها ويجلدوها احرازاً لها » . وكانت دار ابي حاتم البستي مدرسة لاصحابه وسكناً للغرباء المقيمين فيها من الفقهاء واهل الحديث . وقد جعل لهم الجرايات وسبّل خزانة كتبه لفائدتهم . وحلت وفاته عام ٣٥٤ للهجرة ودُفن في بَست (١)

(١) معجم البلدان : لياقوت الحموي : جزء ٢ صفحة ١٧٥ ـ ١٧٦

الفصل العشرون

خزائن كتب بخارا

١ـ تقهقر الخلافة العباسية واستفحال امر ملوك الطوائف

لما ضعف شأن الخلفاء العباسيين وقويت شوكة ملوك الطوائف تعددت الدول التي اقتسمت الحكم في الدولة العباسية مع بقاء هؤلاء الخلفاء في العراق. فاستقل آل سامان (٢٦١ – ٣٨٩ ﻫ) في بخارا كما استقل آل بويه (٣٢٠ – ٤٤٧ ﻫ) في شيراز. واستقل بنو حمدان (٣١٧ – ٣٩٤ ﻫ) في حلب وبعض ما بين النهرين. وبنو مروان (٣٨٠ ـ ٤٨٨ ﻫ) في طور عبدين. واستقل الزباريون (٣١٦-٤٣٤ﻫ) في جرجان والغزنويون (٣٥١ ـ ٥٨٢ ﻫ) في افغانستان والهند. وانتهج نهجهم الفاطميون (٣٥٧ ـ ٥٦٧ ﻫ) فاستقلوا بوادي النيل ثم الارتقيون (٤٨٨-٨٢٥ﻫ) فتغلبوا على ماردين وغيرها.

٢ ـ مكتبة الامير نوح الساماني واختلاف ابن سينا اليها

كانت دول الطوائف الآنفة الذكر تتنافس تنافس دولة العباسيين في تكريم العلماء ورفع لواء المعارف. من ذلك ان الامير نوح بن منصور الساماني سلطان بخارا جعل عاصمته قبلة المجد وكعبة الملك ومجتمعاً لأعلام الحكماء والادباء والشعراء وانشأ فيها مكتبة عظيمة اشتهر خبرها في الامصار. وقد تردد اليها الشيخ ابن سينا الرئيس (٣٧٠ ـ ٤٢٨ ﻫ) بعدما رُخص له في دخولها ومطالعة كتبها الطبية. واتفق ان نوحاً الامير مرض اذ ذاك فعالجه ابن سينا وابرأهُ. ثم واصل ابن سينا درس تلك الكتب ووعى زبدتها فوصفها بما يلي:

« دخلتُ داراً ذات بيوتٍ كثيرة في كل بيت صناديق كتب منضدة بعضها على بعض . في بيت منها كتب العربية والشعر . وفي بيت اخر كتب الفقه . وكذلك في كل بيت كتب علم مفرد . فطالعت فهرست كتب الاوائل وطلبت ما احتجتُ اليه منها . ورأيتُ من الكتب ما لم يقع اسمه الى كثير من الناس قط . وما كنتُ رأيته من قبل ولا رأيته ايضاً من بعد »

٣ ـ نكبة مكتبة الامير نوح

ما كادت تظهر للوجود مكتبة الامير نوح الساماني النادرة المثال حتى نُكبت نكبة ابدية في صميمها . فالتهمتها النيران واخلت منها الزمان والمكان (١). وقيل أن ابن سينا احتال على احراقها لينفرد بمعرفة ما درسه من كتبها . والله اعلم بصحة ذلك ! (٢)

٤ ـ نظم الشاهنامة

من مآثر الامير نوح الساماني انه اول من اقترح نظم «الشاهنامه» في اللغة الفارسية . وعهد في ذلك الى شاعره « الدقيقي » الذي ما كاد ينظم بعضها حتى قُتل... فأشار محمود الغزنوي سلطان بخارا (٣٨٨ — ٤٢١ هـ) الى الفردوسي شاعر الفرس الكبير أن يتمم نظم « الشاهنامه » ففعل . فنُسبت اليه .

٥ ـ مكتبة مسعود بك وغيرها من مكتبات بخارا

ولما استولى المغول على بخارا سنة ٦١٧ هـ (١٢٢٠ م) احرقوا مدرسة مسعود بك. وكانت من اوسع دور العلم في ذلك العصر. فالتهمت النار كتبها الكثيرة(٣)

---

(١) تاريخ اداب اللغة العربية : تأليف جرجي زيدان : جزء ٢ صفحة ٣٣٦ (٢) تاريخ الادب العربي : لاحمد حسن الزيات : صفحة ٣٣٣ — ٣٣٤ ومجلة «البصائر» لجميل العظم : مجلد ١ سنة ١٩١٢ صفحة ٢١٩ (٣) دائرة معارف القرن العشرين : صفحة ٧٥

واحرق جنكزخان من المكاتب في المدينة المذكورة وغيرها ما لا يُدرك احصاؤه ولم يرد ذكره مفصلاً. لانه جاء تابعاً لِما اتاه ذلك الطاغية من الهدم والتخريب (١)

٦ ـ انتزاع جنكزخان مخطوطات بخارا وتحويل صناديقها معالف لخيله

يؤيد هذه الحقيقة ما اثبته ابو الفرج ابن العبري الذي عاصر جنكزخان ودوّن اخباره (٢) قال : « وفي سنة سبع عشرة وستمائة في اوائل المحرّم نزل جنكزخان في عساكره على مدينة بخارا واحاط بها العساكر من جميع جوانبها ... فخرج الائمة والاعيان الى خدمة جنكزخان يتضرعون اليه ويطلبون حقن دمائهم حسبُ. فتقدم باخراج كل مَن بالمدينة الى ظاهرها فخرجوا . ودخل هو وولده تولي الى المدينة. فوقف على باب مسجد الجامع وقال : هذا دار السلطان . فقالوا لا بل خانة يزدان اي بيت الله. فنزل ودخل الجامع وصعد الى المنبر وقال لاكابر بخارا ان الصحراء خالية عن السلف فانتم اشبعوا الخيل مما عندكم في الانبار . ففتحوها وصاروا ينقلون ما فيها من الغلات. ورموا ما في الصناديق من الكتب وجعلوها اوارى (٣) للخيل. واحضروا الطعام والشراب هناك واكلوا وشربوا وطربوا .

---

(١) تاريخ آداب اللغة العربية : مجلد ٣ صفحة ١١٣ (٢) تاريخ مختصر الدول : صفحة ٤٠٧ — ٤٠٨ (٣) اوارى لفظ سرياني معناه : « المعلف »

الفصل الحادى والعشرون

خزائن كتب الهند

١ ـ لمحة عن المكتبات في الهند الانكليزية

اذا انتقلنا في البحث الى البلدان الهندية رأينا في مكاتبها الكبرى طائفة لا يستهان بها من الكتب العربية بين مخطوطة ومطبوعة . وقد عُرفت لغة الضاد في تلك الاصقاع النائية منـــذ شيوع الدين الاسلامي بين سكانها فحفلت خزائنهم بالمصاحف وكتب الادب والتاريخ وسائر العلوم والفنون . لكنها كانت على الدوام عرضة للناهبين وفريسة لغارات الفاتحين . وقد اطلعنا على وصف وجيز لمكاتب الهند بقلم محمد فريد وجدي اليك نصه قال (١) :

« ولا بد لي من ان أشير الى حال الهند فاقول: ان المغول عادوا الى تعضيـد العلم بعد ان تمهدت لهم الامصار ولو لم يبلغوا في ذلك شأو العرب في بغـــداد والقاهرة وقرطبة . فابناء جنكزخان وتيمورلنك اعتنقوا الاسلام ورفعوا منزلة علمائهم . وتحت لوائهم نشأ نصير الدين الطوسي وقطب الدين الشيرازي وسعـد الدولة التفتازي وغيرهم من المشاهير . وكان لدولة المغول في الهند اليد البيضاء في تعضيد العلوم والفنون . وكان السلطان شاه جهان كثير المطالعة مغرماً بالكتب. واقتفى عادل شاه وقطب شاه صاحبا (دكان) خطة سلاطـــين المغول من حيث الاهتمام بالعلم وتقريب العلماء . فنشأت مكاتب كثيرة في بلاد الهند ولكن لم يبق منها اثر بعد الفتنة لانها حُرقت او أخذت كتبها منها . والقليل الذي بقي من كتب الهند بيع بثمن بخس ».

---

(١) دائرة معارف القرن العشرين : مجلد ٨ صفحة ٧٥

٢ - دار الكتب الآصفية في حيدر آباد

لدار الكتب الآصفية شهرة واسعة في اقطار الهند لما اشتملت عليه من النفائس الخطية التي لا اثر لنظيرها في سائر المكتبات. وصاحبها « نظام حيدر آباد » هو اشهر ملوك الهند في هذا العصر. ويقال انه اغنى ملك على وجه الارض بما يكتنزه في قصره من الجواهر اليتيمة واللالىء الفاخرة. وللخزانة الآصفية فهرس نُشر بالطبع سنة ١٩٠٠ انطوى على اسماء كتبها المخطوطة والمطبوعة معاً.

٣ - خزانة الديوان الهندي

عُنيت الدولة البريطانية بانشاء ديوان خاص في لندن عاصمتها دعته « الديوان الهندي ». ثم عززته بمكتبة ضمت اليها طائفة كبيرة من الاسفار المختلفة اللغات يرجع اليها الحكام والعلماء في ابحاثهم عن الشؤون الهندية. وللقسم العربي من تلك المكتبة فهرس مفصل حوى وصف المخطوطات المحفوظة فيها. ومن هذا الفهرس نسخة في دار الكتب في بيروت.

٤ - مكتبة امير هندي حوت سبعمائة مخطوط عليها خطوط مؤلفيها

اشتهر في الهند امير من امرائها جمع في خزانته سبعمائة مجلد عليها خطوط المؤلفين (١) تلك مزية تفردت بها خزانة هذا الامير دون سواها من جميع المكتبات التي اطلعنا على اخبارها. ويا ليت العلماء وذوي الشأن في الهند يهتمون بنشر تلك الذخائر الدفينة فيؤدون للعلم وارباب البحث خدماً جلى.

٥ - سائر مكتبات الهند الانكليزية

في الهند الانكليزية خزائن كتب عامة وخاصة تزين بعض المساجد القديمة

---

(١) مجلة « لغة العرب » البغدادية، مجلد ٢ صفحة ٣٧٢ سنة ١٩١٣

والمدارس الشهيرة وبيوتات الامراء ودور هواة الكتب. وقد انبعثت الهمم في الازمنة الاخيرة لانشاء مكتبات في عواصم تلك البلدان كدلهي وبمباي وبهوبال ورميسور وسنغافورا وبطنا واطراف المليبار الخ. وهي تنطوي على عدد وافر من نفائس المخطوطات والموسوعات في اللغة العربية وغيرها. بيد ان بعضها مكدّس في زوايا الخزائن قل من يُشرف عليه او يستفيد من مطالعته.

٦- مجمع علمي في حيدر آباد لاحياء الكتب العربية القديمة

وفي حيدر آباد (دكن) مجمع علمي اسسه منذ اكثر من نصف قرن النواب عماد الدين ورفقاؤه، وغايته الاساسية احياء الكتب العربية القديمة تعميما لنشرها وتداولها بين طبقات العلماء. وهذا المجمع يمتاز عن غيره بروحه العلمية وبمطبوعاته الثمينة المتداولة بين اوساط العلم المعتمد عليها من رجال البحث والتحقيق الآن. ومن هذه المطبوعات ما يتعلق بالحديث والقديم، وما يتعلق بالفلسفة والتاريخ، وما يتعلق بالطبيعيات والطب وغيرها من العلوم والفنون - ويقول العلامة السيد سليمان الندوي: نحن، اهل الهند نفتخر، مع افلاسنا العلمي في هذه الايام، بهذه الدرر الثمينة النادرة التي اخرجها مجمع المعارف في (حيدر آباد) الى طبقات العلماء ونرجو ان يعود الينا مجدنا العلمي تحت ظل الدولة الآصفية.

ولقد فكّر القائمون بامره في عقد اجتماع سنوي عام يُدعى اليه العلماء الممتازون في العلوم العربية بانحاء الهند تنشيطاً للحركة العلمية وتمهيداً لتوسيع اعمال المجمع بالاستفادة من مواهب العلماء الاجلاء غير اعضاء المجمع في البحث والتحقيق، فانعقد الاجتماع الاول الذي دام اربعة ايام من ٩ الى ١٢ يوليه سنة ١٩٣٨م في خمس جلسات اولها في ايوان البلدية الفخم حضرها اركان الدولة الآصفية واساتذة العربية في جامعات الهند المختلفة وارباب العلم وجماعة من الطلبة النابهين، وعلى كرسي الصدارة السر اكبر حيدري الوزير الاعظم. ثم القى خطبته الافتتاحية وذكر فيها خدمات المجمع في السنين الماضية بعد ان تلا على الحاضرين رسالة ملكية آصفية مفعمة بالعبارات الرقيقة والعواطف السامية.

وجرى اختتام هذا الاجتماع الذي دام اربعة ايام في حيدر آباد وتناول البحث فيه اهم موضوعات العلوم العربية وفنونها، بالسلام لصاحب الجلالة آصف السابع ملك دكن والدعاء لذاته الكريمة.

٧ ـ المكتبات العربية في الهند النيرلندية

كل ما اثبتناه عن خزائن كتب الهند حتى الآن لا يصح الا على الاقطار الهندية الخاضعة للحكم الانكليزي . اما الهند النيرلندية او الهولندية التي يدور البحث هنا عن مكتباتها العربية فهي سلسلة جزر واقعة بين المحيطين الهادىء والهندي في الجنوب الشرقي من آسيا . تبلغ مساحتها مليوني كيلومتر مربع وعدد سكانها زهاء اربعين مليون نسمة (١)

وتحوي هذه المستعمرة جالية عربية مهمة انتزح اجدادها عن حضرموت واليمن واستقروا فيها وانصرفوا الى الزراعة والصناعة والتجارة . فعاشوا في وطنهم الجديد غير حافلين بتحصيل العلوم ، لكنهم ظلوا محتفظين بلغتهم وعاداتهم ودينهم الاسلامي على رغم عزلتهم عن سائر الامصار العربية .

وفي الازمنة المتأخرة استفاق عرب الهند النيرلندية من سباتهم فاخذوا يردون مناهل العلم ويتنافسون في ارتشافها بجميع الوسائل . وقد اوجدوا في محيطهم مطابع ومدارس وجرائد وجمعيات واندية ادب اسوة بالشعوب الراقية . ولم يغفلوا ايضاً عن انشاء بعض مكتبات في بتافيا عاصمة تلك الاقطار وفي اهم مدنها كسربايا وفكالوغن وفلمبغ وغيرها . ثم جهزوها بموسوعات ومعاجم كتب ومجلات مختلفة اللغات والمواضيع. فاستحضروا اغلبها من مصر وسوريا ولبنان والعراق وتونس وراحوا يرّغبون الناس في مطالعتها والاستفادة منها . هكذا خطا عرب تلك الجزر النائية خطوات واسعة في مضمار الثقافة الحديثة .

---

(١) معجم لاروس : صفحة ١٣٨٢

الفصل الثاني والعشرون

خزائن كتب القاهرة في العصور الغابرة

١ ـ تفوق مكتبة العزيز بالله على جميع المكتبات الاسلامية

كل ما اوردناه عن الخلفاء العباسيين في بغداد ينطبق انطباقاً تاماً على الخلفاء الفاطميين وعلى سلاطين المماليك الذين انشأوا مكتبات شتى في قصور القاهرة وفي مدارسها وجوامعها . واول مَن بدأ بذلك منهم العزيز بالله (٣٦٥ – ٣٨٦ ﻫ) فاتخذ يعقوب بن كلس وزيراً له وفوّض اليه النظر في جميع شؤون الدولة . وكان يعقوب من الكتّاب الحسّاب فرتب الدواوين وقرّب العلماء الى الخليفة وأجرى لهم الارزاق . ثم رغّب الخليفة في جمع المخطوطات فاقتنى منها طائفة عظيمة افرز لها جانباً من قصره ودعاها « خزانة الكتب » . ولم تلبث هذه المكتبة ان فاقت كل المكتبات الاسلامية في العالم في ذلك الحين (١).

٢ ـ ثروة مكتبة العزيز بالله ومكتبات الامراء

انفق الخليفة العزيز بالله اموالا طائلة في مشترى مؤلفات نفيسة وفي الاستكثار منها . وكان كلما ازداد في مكتبته عدد النسخ من الكتاب الواحد ازداد سروره به وتضاعف ارتياحه الى احراز غيره وغيره ولئن اجتمع لديه مائة نسخة او اكثر من ذلك الكتاب . واقوى برهان على صحة ذلك انه وُجد في خزانة كتبه ثلاثون نسخة من « كتاب العين » للخليل احداها بخط الخليل نفسه . وكان فيها عشرون نسخة من « تاريخ الطبري » ومائة نسخة من « كتاب الجمهرة » لابن دريد. واستمر

(١) الفاطميون في مصر : لحسن ابرهيم حسن : صفحة ٢٦١

عدد النسخ المكررة يزيد بتتابع الايام حتى بلغت نسخ « تاريخ الطبري» وحده الفاً ومائتين عند انقراض خلافة الفاطميين وقيام الدولة الايوبية سنة ٥٦٧ للهجرة (١١٧١ م). هذا عدا المصاحف التي احتوتها المكتبة المشار اليها . وعدا مجموعة القوائم المكتوبة بخط ابن مقلة وابن البوّاب وغيرهما من مشاهير الخطاطين .

ومن غرائب مكتبة العزيز بالله ما رواه صاحب كتاب « حماة الاسلام » قال: « دخل هذه المكتبة احد السياح فرأى فيها مِقطعاً من الحرير الازرق غريب الصنعة فيه صورة اقاليم الارض وجبالها وبحارها ومدنها وانهارها ومساكنها وجميع المواطن المقدسة مبيّنة للناظر. ومكتوبة اسماء طرائقها ومدنها وجبالها وانهارها وبحارها بالذهب وغيرها بالفضة والحرير. فقال السائح : يكفيني من عجائبكِ هذا ! » (١)

واليك ما اثبته جرجي زيدان (٢) عن مكتبة العزيز في كتابه « تاريخ التمدن الاسلامي » قال : « فلا عجب اذا قالوا انها كانت تحوي مليوناً وستمائة الف كتاب (٣) في الفقه والنحو واللغة والحديث والتاريخ والنجامة والروحانيات والكيمياء . ومنها ثمانية عشر الف كتاب في العلوم القديمة فيهـا ستة الاف وخمسمائة جزء من كتب النجوم والهندسة والفلسفة خاصة (٤) غير ادوات الهندسة والفلك .

« على اننا نرى في تقدير تلك الكتب مبالغة . وقد قدرها آخرون مائتي الف كتاب ... ونظن في تقديرهم التباساً من حيث المراد بخزانة الكتب او خزائن الكتب. لان العزيز بعد ان انشأ خزانته بقصره اقتدى به جماعة من اهله فأنشأوا مثلها في قصورهم. فالظاهر ان المراد بالتقدير القليل عدد الكتب في خزانة العزيز خاصة وبالكثير عدد ما في خزائن القصور كلها. وبهذا الاعتبار لا يقل عدد الكتب في خزائن القصور عن مليون مجلد او كتاب.

---

(١) حماة الاسلام : تأليف مصطفى نجيب : صفحة ١٠٦ (٢) تاريخ التمدن الاسلامي :تأليف جرجي زيدان : مجلد ٣ صفحة ٢٠٨ — ٢٠٩ (٣) خطط المقريزي : جزء ١ صفحة ٤٠٨ — ٤٠٩ (٤) تراجم الحكماء

« وكان للعزيز عناية كبيرة في خزانته بتعهدها بنفسه حيناً بعد حين وقد رتّب لها قيماً يتولى شؤونها ويجالسه ويقرأ له الكتب وينادمه. وممن تولى ذلك ابو الحسن الشابشتي الكاتب المتوفى سنة ٣٩٠ هـ (١)

« وقد اصاب هذه الخزائن من المحن بتوالي الفتن مثلما اصاب مكتبة الاسكندرية في عهد الرومان. فألقي بعض كتبها في النار والبعض الآخر في النيل. وتُرك بعضها في الصحراء فسَفت عليه الرياح حتى صار تلالا عرفت بتلال الكتب. واتخذ العبيد من جلودها نعالا مما يطول شرحه. وبالاجمال فقد طُرح ما بقي منها عند وصول الاكراد للمبيع في اواسط القرن السادس.

٣ ـ مائة الف مخطوط بديعة الكتابة والتجليد في مكتبة الحاكم بامر الله

لا يخفى ان مكتبة الحاكم بامر الله التي اشتهرت باسم « دار العلم » ودُعيت ايضاً « دار الحكمة » هي غير خزانة الكتب المنسوبة الى الخليفة العزيز بالله ... وغير خزائن القصور كما توهم كثيرون. وقد انشأ « دار العلم » الحاكم بامر الله ثالث الخلفاء الفاطميين وكانت تُعد من اعاجيب الدنيا وغرائبها . فجعلها بجوار القصر الغربي وحبس لها اوقافاً يُنفق عليها من ريعها

ولوفرة شغف هذا الخليفة « بدار العلم » جمع اليها اعظم علماء العصر فى كل فن وقطع لهم الاموال الوافرة لاجل نفقاتهم السنوية . وضم اليها من الاسفار النفيسة ما لم يسبقه الى مثله ملك على الاطلاق . ونقل اليها من كتب قصره ومن خزائن القصور المعمورة ما يقدر بستمائة الف مجلد . ومن اصل تلك الكتب كانوا يعدون مائة الف مجلد بديعة الخط والتجليد . ثم عين لها قوّاماً وخداماً . ووقف عليها في الفسطاط اوقافاً مهمة دلت على كرمه وعظمته وحرصه على نشر المعارف.

---

(١) ابن خلكان : ٣٣٨ ج ١

٤ ـ فتك الخليفة الحاكم بالعلماء واغلاق دار العلم واعادة فتحها

قال ابن قاضي شبهة : « وبقي الحاكم كذلك ثلاث سنين ثم اخذ بقتل اهل العلم واغلق دار العلم (١). ولم تلبث بعد ذلك ان فتحت ابوابها وعاد اهل البحث يترددون اليها للدرس والمفاوضة والتأليف .

وحدث في ايام الخليفة الآمر باحكام الله (٤٩٥ – ٥٢٤ ﻫ) ان شخصاً من الذين كانوا يحضرون مجالس العلماء في « دار العلم » يسمى حامد القصار ادعى الالوهية وتبعه في مذهبه كثير من العامة . فطرأت بسببه فتن بين العلماء حتى صار يُخشى على قصر الخليفة من غوغائهم . فاغلق الافضل امير الجيوش (٤٨٧ – ٥١٥ ﻫ) « دار العلم » لان وجودها اصبح لا يتفق مع الغرض الذي انشئت لاجله . وهو بث عقائد المذهب الشيعي لا غير (٢)

ثم قبض امير الجيوش على ابن القصار وقتله وقتل نفراً من اتباعه . فلما سكنت الفتنة توسل خدّام هذه الدار الى الخليفة ان يعيد فتحها . ففاوض الخليفة الآمر باحكام الله وزيره المأمون البطائحي في ذلك فاجاب الوزير مشترطاً اذا أعيدت « دار العلم » ان تسير على الاوضاع الشرعية وان يُبنى لها معهد بعيد عن البلاط . لان وجودها بجواره قد لا يخلو من خطر . فقال الثقة زمام القصران بجوار بيته بقعة يصلح موقعها لتلك الدار . فشيدوا « دار العلم » في البقعة المذكورة ونقلوا الكتب اليها سنة ٥١٧ للهجرة وعاد الانتفاع بها كسابق عهدها. ثم جُعل خازناً لها ابو محمد حسن بن آدم وكان من اقطاب العلم والفضل .

٥ ـ تحف دار العلم وطرائفها

كانت تشتمل هذه المكتبة على تحف نادرة وغالية الثمن لم يعهد مثلها في

---

(١) خطط الشام : مجلد ٦ صفحة ١٩٠ (٢) خطط المقريزي : جزء ١ صفحة ٤٦٠

مكتبة سواها . نذكر من ذلك كرتين ارضيتين احداهما قديمة العهد من الفضة الخالصة والاخرى احدث عهداً وهي من النحاس . قيل ان الاولى صنعها بطليموس الفلكي نفسه وبلغت نفقاتها ثلاثة آلاف كورون (نقد يوناني) من الذهب . وقد كتبت عليها هذه العبارة « حُملت هذه الكرة من الامير خالد بن يزيد بن معاوية (١) . اما الثانية فقد صنعها ابو الحسن لأسد الدولة صالح بن مرداس الكلابي اول الامراء المرداسيين بحلب .

٦ ـ تمرد رجال المستنصر واقتسامهم كنوزه ومخطوطاته

عمّت الفوضى جميع الانحاء المصرية في ايام الخليفة المستنصر بن الظاهر (٤٢٧ — ٤٨٧ هـ) لسبب ضعفه وسوء تصرفه ومعاقرته الخمرة . وكان زعيم هذه الحركة ناصر الدولة بن حمدان الذي ازعج الخليفة بما اثاره من الفتن في كل انحاء الدولة. فاصبح المستنصر لا ينظر اليه الا نظر احتقار وقد سقط اعتباره وقل نفوذه بين رجاله الاتراك . فتمردوا عليه وصاروا لا يكترثون لاوامره واخذ صعلوكهم يلصق بالخليفة كل سوء . وفي شهر صفر ٤٦١ للهجرة تجمهروا يطلبون زيادة مرتباتهم التي بلغت اربعمائة الف دينار في الشهر . وبالرغم من هذه الزيادة فانهم ظلوا يطالبونه بالمال حتى اعتذر اليهم بعجزه عن الدفع . فتألبوا عليه وارغموه على بيع كنوز قصره التي جمعها الفاطميون اجداده منذ تأسيس دولتهم . ثم اقتسموها بينهم غير مبالين بما كان منها حقاً او تعدياً .

وكانت هذه « دار العلم » تشتمل على كل نادر من الكتب الجليلة المقدار بل المنقطعة المثال بجودة الخط وتأنق التجليد وغرابة الزينة . وكان فيها ما يقرب من الفين واربعمائة « ختمة » مكتوبة بخط محلى بالذهب والفضة (٢). فاقتسمها الاتراك

---

(١) خطط الشام : مجلد ٦ صفحة ١٩٨ (٢) الفاطميون في مصر بقلم الدكتور حسن ابرهيم حسن : صفحة ١٣٨

ايضاً الا جانباً منها كان خاصاً بالوزير عماد الدولة ابي الفضل بن المحترق حاكم الاسكندرية .فارسل اليه محمولا على الجمال . فلما بلغت احمال الكتب قرية ابيار سطا عليها بعض عربان قبيلة لواتة فنهبوها واحرقوا ورقها واصطنعوا احذية من جلودها (١) . وكان في « دار العلم » ايضاً صناديق مملوءة اقلاماً من براية ابن مقلة وابن البوّاب وغيرهما (٢) .

٧- تطرف الفاطميين في الجور والفجور وانحلال دولتهم

في ذلك العهد تولى الضعف دولة الفاطميين واسرع اليها الانحلال بعد ما كانت غرّة في جبين الامصار . لانها تطرفت في الترف والفجور على مثال دولة الروم في القسطنطينية. وقد اصاب في وصفها المؤرخ العلامة احمد زكي باشا المصري في كتابه « الحضارة الاسلامية » قال : (٣):

« بله ما امتازت (الخلافة الفاطمية) به في أخريات حياتها من اساليب الختل والخداع وتهالكها اكثر من غيرها على استباحة الحرمات. فقد كانت تصادر الرعية وارباب الدولة بغير حق ولأوهى سبب حتى اصبح الخليفة (النهاب الوهاب). هذا عدا افحاشهم في سفك الدماء فقد بلغ القتل درجة لا يتصورها العقل. ومن ذلك ان ولي العهد حسن بن الحافظ لدين الله ذبح في ليلة واحدة اربعين رجلا من امراء مصر. الى غير ذلك مما ارتكبه من الموبقات التي اشار اليها المعتمد بن الانصاري صاحب الترسل بقوله :

لم تأتِ يا حسن بين الورى حسناً ولم ترَ الحق في دنيا وفي دينِ
قتلُ النفوس بلا جرمٍ ولاسببٍ والجور في سلب اموال المساكين
لقد جمعت بلا علم ولا ادبٍ تيه الملوك واخلاق المجانين »

---

(١) تاريخ مصر الحديث لجرجي زيدان : مجلد ١ صفحة ٢٧٦ (٢) خطط المقريزي : جزء ٢ صفحة ٢٥٦ (٣) الحضارة الاسلامية : صفحة ٨

٨ ـ مكتبة المدرسة الفاضلية

لما خلف الايوبيون سنة ٥٦٧ هجرية (١١٧١ م) دولة الفاطميين وُشي الى السلطان صلاح الدين بان في « دار العلم » اسفاراً تشتمل على مذاهب الفاطميين وآرائهم وأوهموه ان في بقائها ضرراً على الاسلام والمسلمين. فامر من فوره باتلافها وتفرّق الجانب الاكبر من هذه الكتب ايدي سبا. لكن القاضي الفاضل عبدالرحيم البيساني استأذنه في ان يختار مائة الف مجلد من تلك الكتب ويضعها في خزائن « المدرسة الفاضلية » التي انشأها هو سنة ثمانين وخمسمائة بدرب ملوخيا بالقاهرة. فما عتم ان اذن له السلطان صلاح الدين بذلك. ثم امر بهدم « دار العلم » وبناها مدرسة للشافعية (١)

قال ابن ابي طي في تاريخه : « ولما فرغ السلطان صلاح الدين من امر الخطبة امر بالقبض على القصور وجميع ما فيها من مال وذخائر وفرش وسلاح وغير ذلك... واطلق البيع بعد ذلك في كل جديد وعتيق فاقام البيع بالقصر مدة عشر سنين. ومن جملة ما باعوا خزانة الكتب وكانت من عجائب الدنيا لانه لم يكن في جميع بلاد الاسلام دار كتب اعظم من الدار التي بالقاهرة في القصر (٢)

قال المقريزي (٧٦٦ — ٨٤٥ ﻫ) في الخطط ما مؤداه : « وفي مكتبة المدرسة الفاضلية الى الآن مصحف قرآن كبير القدر جداً مكتوب بالخط الاوّل الكوفي يسميه الناس مصحف عثمان بن عفان . يُقال ان القاضي الفاضل (٥٢٩ — ٥٩٦ ﻫ) اشتراه بنيف وثلاثين الف دينار على انه مصحف عثمان بن عفان رضي الله عنه وهو في خزانة مفردة له بجانب المحراب من غربيه عليه مهابة وجلالة (٣) » .

---

(١) ابن خلدون : جزء ٤ صفحة ٧٩ والخطط التوفيقية : مجلد ١ صفحة ٨٧

(٢) البصائر : مجلد ١ سنة ١٩١٢ صفحة ٢٢٣ ـ وخلف لنا ابن ميسر والمقريزي بياناً عن الكنوز التي كانت في خزائن قصر الخلفاء الفاطميين من تحف وطرف واحجار كريمة وغيرها مما لا يدخل تحت حصر او وصف . فنحيل القارىء الى مطالعة اخبارها في تواريخ هذين المؤرخين الشهيرين .

(٣) خطط المقريزي : جزء ٤ صفحة ١٩٧

ولما وقع الغلاء بوادي النيل عام ٦٩٤ في زمن الملك كتبغا المنصوري مس الجوع طلبة المدرسة الفاضلية فاخذوا يبيعون كل كتاب برغيف . وكان قد بيع منها ومن مكاتب اخرى قسم كبير على يد « ابن صورة » دلال الكتب المتوفى سنة ٦٠٧ هجرية . وكان ابن صورة يجلس في دهليز داره ويجتمع عنده يومي الاحد والاربعاء كبار العلماء والفضلاء ويعرض عليهم الكتب التي تباع (١) . وكانوا يقيمون عنده الى انقضاء وقت السوق . ولا يزال قسم من تلك الكتب الى الآن في مكتبة ليدن (٢) في هولندا .

٩ ـ مكتبة المدرسة الكاملية

من المكاتب التي اشتهرت في اوائل القرن السابع للهجرة (مكتبة المدرسة الكاملية) انشأها الملك الكامل ناصر الدين محمد سنة اثنتين وعشرين وستمائة . وممن ولي هذه الخزانة على ما ذكره السيوطي في « بغية الوعاة » ابو عبد الله شرف الدين محمد بن ابرهيم بن ابي القاسم بن عنان الميدومي . ولبث متوّلياً عليها الى ان مات سنة ٦٨٣ للهجرة .

١٠ ـ مكتبة المدرسة البهائية

من خزائن كتب القاهرة (مكتبة المدرسة البهائية) انشأها الوزير بهاء الدين علي بن محمد بن سليم بن حنا سنة ٦٥٤ للهجرة وكانت هذه الخزانة من الخزائن الغنية. ثم نقلها من المدرسة شمس الدين محمد بن الصاحب وصارت تحت يده الى ان مات فتفرقت في ايدي الناس .

---

(١) ذكر ابو شامة (طبعة القاهرة جزء ١ صفحة ٢٦٨) نقلا عن عماد الدين الاصفهاني ان هذه الكتب كانت تباع بالوزن (راجع كتاب «الفاطميون في مصر» صفحة ١٤٩ في الحاشية)

(٢) تاريخ مصر الحديث : مجلد ١ صفحة ٣١٦

١١ ـ مكتبة المدرسة الظاهرية

انشئت عام ٦٦٢ للهجرة مكتبة المدرسة الظاهرية بهمة الملك الظاهر بيبرس البندقداري . وكان فيها امهات الكتب من جميع العلوم

١٢ ـ مكتبة المدرسة المنكوتمرية

وعام ٦٩٨ للهجرة انشئت المكتبة المنكوتمرية نسبة الى الامير سيف الدين منكوتمر الحسامي نائب السلطنة بديار مصر . وقد جعل فيها منشئها خزانة كتب وحبس عليها وقفاً ببلاد الشام (١)

١٣ ـ مكتبة القبة المنصورية

ومن المكاتب الشهيرة في القاهرة (مكتبة القبـــة المنصورية) تجاه المدرسة المنصورية . انشأهما كلتيهما الملك المنصور قلاوون الالفي الصالحي على يد الامـــير علم الدين سنجر الشجاعي . وهذه القبة من اعظم المباني الملوكية . وبها دفن بانيها الملك المنصور وابنه الملك الناصر وحفيده الملك الصالح . وكانت معظمة معدودة مما يقام به ناموس الملك فلا يمكنون من الدخول اليها الا الامراء والاعـاظم . وبقيت معظمة حتى بعد ان صارت مقبرة لا يتوصل اليها الا اهلها . وفي ذلك يقول يحيى بن حكم البكري الجياني الملقب بالغزال واجاد :

ارى اهل الـثراء اذا توفوا	بنوا تلك المقـابر بالصخورِ
ابوا الا مباهـــاة وتيهـاً	على الفقراء حتى في القبـورِ

وكان في هذه القبة خزانة جليلة فيها عدة احمال من الكتب في انواع العلوم مما وقفه الملك المنصور وغيره . قال المقريزي : وقد ذهب معظم هذه الكتب وتبعثر .

(١) خطط المقريزي : جزء ٤ صفحة ٢٣٠

١٤ ـ مكتبة المدرسة الناصرية

ومن مكاتب القاهرة قديماً نذكر (مكتبة المدرسة الناصرية) انشأها الملك الناصر بن قلاوون الالفي سنة ٧٠٣ للهجرة وكانت خزانة جليلة.

١٥ ـ مكتبة الجامع الحاكمي

اما خزانة كتب الجامع الحاكمي فقد انشأهـا الامير ركن الدين بيبرس الجاشنكير على اثر ترميمه هذا الجامع الذي كان قد تهدم في زلزال سنة ٧٠٢ للهجرة (١) .

١٦ ـ مكتبة المدرسة الطيبرسيه

انشأ هذه المكتبة الامير علاء الدين طيبرس سنة ٧٠٩

١٧ ـ خزانة الكتب الملكية

انشأ هذه المكتبة الامير سيف الدين آل ملك الجوكندار وكانت من الخزائن المعتبرة (٢)

١٨ ـ خزانة كتب المدرسة السابقية

انشأها الامير سابق الدين مثقال مقدم مماليك الملك الاشرف (٣) في اواسط القرن الثامن للهجرة

---

(١) خطط المقريزي جزء ٤ صفحة ٥٦-٥٧

(٢) خطط المقريزي : جزء ٤ صفحة ٢٣٧

(٣) خطط المقريزي : جزء ٤ صفحة ٢٤٠

١٩ ـ خزانة كتب المدرسة المحمودية

اسسها الامير محمود بن علي الاستادار سنة ٧٩٧ للهجرة . قال المقريزي عنها انه لا يعرف بديار مصر ولا الشام مثلها ولا يخرج لاحد منها كتاب الا ان يكون في المدرسة (١)

٢٠ ـ مكتبة المدرسة البشيرية

انشأها سنة ٧٦١ للهجرة الامير سعد الدين بشير الجامدار

٢١ ـ مكتبة مدرسة الجاي

اسس هذه الخزانة سنة ٧٦٨ الامـــير سيف الدين الجـاي (٢) وكانت من اهم المكتبات في عصرها

٢٢ ـ مكتبة مدرسة الاستادار

نضيف الى ما روينا عن مكتبات القاهرة (مكتبة مدرسة الاستادار) انشأها سنة ٨١١ الامير جمال الدين الاستادار. وكان فيها من المصاحف والكتب في الحديث والفقه والتفسير وغير ذلك من العلوم شيء كثير. اشترى ذلك من الملك الصالح بن الاشرف. ومما كان فيها عشرة مصاحف طول كل مصحف منها اربعة الى خمسة اشبار في عرض يقرب من ذلك. احدها بخط ياقوت المستعصمي وآخر بخط ابن البوّاب وباقيها بخطوط منسوبة . ولها جلود في غاية الحسن مصونة في اكياس من الحرير الاطلس. وكان فيها من الكتب النفيسة عشرة احمال . وقد نُقل كثير من هذه الكتب بعد قتل الامير جمال الدين الى قلعة الجبل بامر الملك الناصر فرج (٣)

---

(١) خطط المقريزي : جزء ٤ صفحة ٢٤٢ (٢) خطط المقريزي : جزء ٤ صفحة ٢٤٩

(٣) خطط المقريزي : جزء ٤ صفحة ٢٥٢

٢٣ ـ فتح الاتراك مصر ونقلهم منها مخطوطات واموالا على الف جمل

ظلت مكاتب القاهرة التي سبق بيانها عامرة حتى سقوط دولة المماليك سنة ١٥١٧ ميلادية. فقامت على اثرها دولة الاتراك في عهد السلطان سليم الاول (١٥١٢-١٥١٩) الذي فتح مصر وجعلها ولاية خاضعة لعرش السلطنة العثمانية. وقد رأى هذا الفاتح ان نصره لا يؤيد الا اذا قبض على مقاليـــد الامامة الدينية. فانتزعها من يد محمد المتوكل على الله (الثالث) وهو آخر من تبقى من سلالة الخلفاء العباسيين الذين فرّوا من بغداد بعد سقوط دولتهم ولجأوا الى مصر.

وكان في عداد حاشية السلطان سليم الاول نخبة من ارباب العلم الذين دهشوا بما شاهدوه من الآثار الثمينة في المكاتب المصرية. فلما اخبروه بـذلك امرهم بجمع خيارها وانتقاء نفائسها لنقلها الى عاصمة سلطنته. ويقال انه اقتضى في ذاك العهد الف جمل لنقل تلك الكتب مع سائر ما نقله السلطـــان المشار اليه من الذهب والاسلاب والهدايا. ولم يزل جانب من هذه الاسفار محفوظـاً في اثنتين واربعين مكتبة من مكاتب قسطنطينية التي تُعد من اغنى مدن العالم بالمخطوطات الشرقية وهي : العربية والفارسية والتركية.

٢٤ ـ سائر المكتبات الاسلامية القديمة في القاهرة

على ان المؤرخين اوردوا اسماء كثير من مكاتب القاهرة غير التي ذكرنا مما دخل في خبر كان . فوصفوها بما تستحقه من الاعتبار. ولما كان ما لا يُدرك كله لا يُترك جله اكتفينا هنا بسرد اسماء اهمها واشهرها وهي:

(مكتبة مدرسة الامير شيخو العمريّ) و (مكتبة الامير صرغتمش) وكانا وزيرين في عهد الملك الصـــالح الثاني (٧٥٢ — ٧٥٥ ﻫ). ومنها (مكتبة مدرسة السلطان حسن) (٧٥٥ — ٧٦٢ ﻫ) . و (مكتبة مدرسة السلطان شعبان) (٧٦٤ — ٧٧٨ ﻫ) ومكتبة برقوق (٧٨٤ — ٨٠١) ومكتبة المؤيد ابي النصر .

ومكتبة مدرسة خوند بركة قايتباي المحمودي والدة السلطان شعبان المشار اليه. وقد انفردت مخطوطات هذه المكتبة عن سائر المخطوطات في مكاتب سلاطين المماليك بجودة ورقها وحسن خطوطها واتقان حلاها (١) .

ولا يسعنا ان نضرب صفحاً عن مكتبة قديمة اشتهرت في القاهرة اسمها « مكتبة مدرسة ازبك بن ططخ » وعفت آثارها في عهد اسمعيل باشا (١٨٦٣ – ١٨٧٩) خديو مصر . فقد قرأنا لها وصفاً موجزاً في مقالة ذات سبع صفحات عنوانها « تاريخ دور الكتب في الشرق » نُشرت عام ١٩٣١ بقلم السيد محمد علي الببلاوي نقيب السادة الاشراف بالديار المصرية . قال :

« ومكتبة مدرسة ازبك بن ططخ . وكانت هذه المكتبة آية في بابها . فقد اخبرني ثقة رآها انه كان فيها حجرة خاصّة بكتب الفلك والميقات وادواتها . وفي عنق مستخدمي ديوان عموم الاوقاف لعهد اسمعيل باشا وزرُ ضياع هذه المكتبة وتشتتها الى يوم القيامة . فقد اخلوا جامع ازبك هذا من كل ما فيه عند ارادة فتح شارع محمد علي . ونسوا المكتبة وتركوها وراء ظهورهم كأنهم لايعلمون . فلما هُدم الجامع تشتت الكتب اوراقاً بين الانقاض واخذ اغلبها عمّالُ الهدم . ولما انتشر هذا الخبر المحزن ووصل الى مستخدمي ديوان الاوقاف اتوا للمّ شعثها فلم يُدركوا منها غير القليل » .

ومن مكتبات القاهرة ايضاً خزانة أنشأها محمد بك ابو الذهب والي مصر . وكان مركزها في جامعه قريباً من جامع الازهر . فاوعزوا اليه ان يقتني لها معجم «تاج العروس في شرح جواهر القاموس» في اربعة عشر مجلداً بخط المؤلف . فاشتراه منه بمائة الف درهم وتوفي سنة ١١٨٨ للهجرة (٢) .

وبالرغم ممّا اصاب مكاتب القاهرة من النهب والسلب والحريق والتدمير على توالي العصور فقد بقي في مدارسها وجوامعها وأديارها من المخطوطات ما يحصى بعشرات الالوف . وبينها طائفة عظيمة من نوادر الاسفار تُعتبر آية الآيات بجمال

---

(١) كتاب « مطبعة المعارف واصدقاؤها ١٨٩٠ - ١٩٣١ » صفحة ٢٩

(٢) تاريخ آداب اللغة العربية : جزء ٣ صفحة ٢٨٨

الخطوط وجودة الورق واتقان التجليد . الا انها كانت مهملة اذ تولاها حفّاظ من افقر الناس يجهلون قيمتها ولايدركون خطورتها فباعوا منها قسماً صالحاً بأبخس الاثمان . ويُروى عن هؤلاءِ حكايات كثيرة تدعو الى التأثر والأسف . لانهم بجهلهم واهمالهم وطمعهم وقلة امانتهم افقدوا الامة ثروة ادبية كبيرة قد اشتغل السلف في تأليفها وترجمتها ونساختها وجمعها وتنظيمها قروناً عديدة .

٢٥ ـ سوء ادارة مكتبات المساجد في عهد خلفاء محمد علي

في مطلع ولاية الخديو عباس الاول سنة ١٨٤٨ حصر ديوان الاوقاف المصرية مكاتب القاهرة تحت ادارته. واقام لها حفاظاً يعيرون الكتب لمن يرغب في مطالعتها . ولكنه اساء الى تلك المكاتب بتعيين اولئك الحفاظ من اجهل الناس وافقرهم. ثم تركهم وشأنهم بلا رقابة وخصّص بهم مرتّبات يسيرة هي والعدم سواء. فقد عهد مثلاً بمكتبة مدرسة السلطان حسن ومكتبة مدرسة ازبك بن ططخ ومكتبة مدرسة خُوَند بركة قايتباي المحمودي الى خازن فقير الحال ساقط الاخلاق يدعى « ابن السليماني ». وجعل له ديوان الاوقاف راتباً شهرياً قدره خمسة وعشرون غرشاً لاجل خدمة المكاتب الثلاث المذكورة والاشراف عليها. فصار هذا الخازن الجاهل الفقير المؤتمن على تلك الذخائر الغالية دون رقيب عليه يبيع قصب السكر في زاوية تحت سلم مدرسة السلطان حسن . فكان يضع بجانبه طائفة من مخطوطات تلك المكاتب الثلاث يبيعها بيع قصب السكر ويتصرف باثمانها. فتأتى له ان يجازف في زمن قصير بجانب كبير من تلك الجواهر اليتيمة ليسد بها جوعه وجشعه.

وكان خدَمة بعض المساجد يحملون الى الاسواق سلالا مملوءة من المخطوطات القديمة يبيعونها للبقّالين واللحّامين والعطّارين وباعة الفاكهة كي يلفوا سلعهم باوراقها.

وما رويناه من الاهمال والتلاعب في مكاتب القاهرة يصدق بحذافيره في مكاتب سائر الاقطار الشرقية عموماً والعربية خصوصاً. هكذا جرى في مكاتب دمشق وحماة وحلب وطرابلس وسمرقند والموصل وبغداد ودياربكر وفاس والقيروان وتونس الخ. وسترى ذلك في فصول الباب الرابع عشر الذي افردناه للبحث عن رزايا الكتب والمكتبات.

الفصل الثالث والعشرون

مكتبات القاهرة في العصر الحاضر

اولا ــ دار الكتب المصرية

١ ــ تأسيس الكتبخانة الخديوية وتجهيزها بمخطوطات المساجد

لما استفحل التلاعب الذي دبّ في اغلب خزائن كتب المساجد المصرية كما سبق الكلام علم بذلك ناظر المعارف علي باشا مبارك وكان من اكبر علماء عصره . فعرض على الخديو اسمعيل (١٨٦٣ – ١٨٧٩) ان يجمع الكتب من المساجد في مكان خاص يقيها عبث العابثين وشر الجهلة الطامعين . فلبى الخديو هذا الطلب واصدر امره في ٢٠ ذي الحجة ١٢٨٧ للهجرة (٢٣ اذار ١٨٧٠ م) بانشاء « الكتبخانة الخديوية » المشهورة الآن باسم « دار الكتب المصرية » . واليك ما رواه السيد محمد علي الببلاوي نقيب السادة الاشراف بالديار المصرية عن تأسيس «الكتبخانة الخديوية» قال [١] :

« ... فأعد المرحوم علي باشا لها مكانا خاصّاً في سراي درب الجماميز في المكان الذي كان مُعدّاً للامتحان الآن .وجعل بجانبها مدرسة خاصة بها سماها (دار العلوم) كما سمى الحاكم دار كتب الفاطميين العامة « دار العلم » . ورتب لها المرحوم علي باشا من يقوم بشؤونها من ناظر ومغيرين وامين وكتّاب وفرّاشين . وابتدأها بنقل المكتبة الصغيرة التي كانت للحكومة بقرب مسجد سيدنا الحسين . ثم شرع في نقل كتب المساجد (المدارس) اليها . ولكن مّما يؤسف له ان من عين لنقلها

---

(١) كتاب « مطابقة المعارف واصدقاؤها » صفحة ٣٠ ـ ٣١

من المساجد كان ذا دين في جمود . فنقم في نفسه لجموده في تدينه على مدير المعارف نقل هذه الكتب من اماكنها زعماً منه انه مخالف لشروط واقفيها . ولكنه حرصاً على مرتّبه كان يذهب الى المساجد ويأخذ من مكاتبها طائفة من الكتب ويترك الاكثر في مكانه . وظنّ بذلك انه حفظ مرتبه ولم يخالف شروط الواقفين مخالفة تامّة . على انه سامحه الله لو تدبّر قليلاً لرأى ان الواقفين ما شرطوا لها هذه الاماكن بعينها الا لاعتقادهم انها الحصن الحصين لها . ولو علموا انها غير صالحة لشكروا من يخرجها منها الى مكان يؤمن عليها فيه . هكذا قُدّر فكان .»

٢ ـ تهافت المستشرقين على ابتياع مخطوطات المساجد

لما علم عقلاء المستشرقين ان الحكومة المصرية فكرت في جمع كتب المساجد وان هذه المساجد لا تزال فيها الباقيات الصالحات وردوا اليها ورود الظمآن على العذب النمير . ورّغبوا الحَفظة بالاصفر الخادع واخذوا منها كل ما قدروا عليه . وما زال المستشرقون يردون على هذه المكاتب يختلسون منها ما يمكنهم اختلاسه الى سنة ١٢٩٧ للهجرة . فعلم سيد ادباء عصره المرحوم محمود باشا سامي البارودي ان مساجد الاوقاف لم تأخذ الكتبخانة الخديوية (دار الكتب المصرية) كل ما فيها وكان اذ ذاك ناظراً على ديوان الاوقاف فاصدر امره بنقل ما بقي في مساجد الاوقاف الى دار الكتب المصرية فنفذ امره . ولكن من كلف بنقل هذه الكتب كان يجد في كثير من المساجد امكنة الكتب خالية خاوية تنعي من بناها . حتى انه لما دخل مسجد الامير محمود الاستادار في قصبة رضوان من القاهرة وجد الدواليب خالية من هذه الدرر الغالية والنفائس الثمينة (١) .

٣ ـ مركز الكتبخانة الخديوية وعطف الخديو اسمعيل عليها

استمرت الكتبخانة الخديوية في مركزها الاول بسراي درب الجماميز تشتري

---

(١) مطبعة المعارف واصدقاؤها : صفحة ٣١

كل ما امكنها شراؤه من الكتب وتخصصها بالانتفاع العام حتى ضاق عنها مكانها . فأخلت لها نظارة المعارف مكان الديوان ونقلتها اليه سنة ١٨٩٠ تقريباً . وهو المكان الذي خلفتها عليه مدرسة المعلمين.

ثم رأت الحكومة بعد ذلك ان تسهل الانتفاع بها فانتخبت لها مكانها الحالي. لانه واقع في وسط القاهرة تحديداً وبنته هذا البناء الضخم. وفتحت ابوابه للجمهور في اول سنة ١٩٠٤ ».

بهذه الوسيلة استطاع الخديو اسمعيل ان يصون من الضياع ما بقي من الكنوز الكتابية التي كانت مبعثرة في جميع مساجد بلاده . ثم اضاف اليها ما كان محفوظاً في خزانة الاوقاف الخيرية وكثيراً من الرسوم الاثرية والآلات الهندسية والوثائق التاريخية. وقد شملها بعنايته واهدى اليها طائفة من انفس المخطوطات التي ابتاعها سنة ١٨٧٦ من ورثة اخيه مصطفى فاضل باشا احد امراء الاسرة المالكة. فكان عددها ثلاثة آلاف واربعمائة وثمانية وخمسين مجلداً قد دفع هو ثمنها ثلاثة عشر الف جنيه ذهباً .

٤ ـ تبديل اسم الكتبخانة الخديوية باسم دار الكتب المصرية

اطلق على المكتبة التي نحن بصددها عند تأسيسها اسم « الكتبخانة الخديوية » وبقي هذا الاسم ملازماً لها حتى عهد الخديو عباس الثاني (١٨٩٢ ـ ١٩١٤). فاصبحت من ذالك الحين معروفة باسم « دار الكتب الخديوية » « ولما ارتقى البرنس حسين كامل عرش السلطنة المصرية عام ١٩١٤ دُعيت باسم «دار الكتب السلطانية». واخيراً قرر الملك فؤاد الاول (١٩١٧ ـ ١٩٣٦) ان يُطلق على هذه المكتبة اسم « دار الكتب المصرية » وهو عنوانها الحالي.

٥ ـ المكتبات المضافة الى دار الكتب المصرية

ضُمت الى دار الكتب المصرية في آونة مختلفة مكتبات خصوصية حوت

نوادر المؤلفات وامتازت بوفرة المخطوطات في جميع العلوم والفنون. وبيان تلك المكتبات وعدد مجلدات كل منها هو كما يأتي :

اسم المكتبة	عدد المجلدات	تاريخ الاهداء وملاحظات
١ ـ مصطفى فاضل باشا	٣،٤٥٨	اشتراها الخديو اسمعيل باشا واهداها الى الدار
٢ ـ الشنقيطي	١،٤٠٩	منها ٧٥٤ مجلداً وقفها في حياته والباقي اشتري بعد وفاته سنة ١٩٠٤
٣ ـ محمد علوي باشا	٦٣٢	سنة ١٩٢١
٤ ـ احمد الحسيني	٣،٩٩٥	سنة ١٩٢١
٥ ـ القسم الادبي بالمطبعة الاميرية	٦٦٣	سنة ١٩٢١
٦ ـ نادي المدارس العليا	٢٠٠٠	سنة ١٩٢٦
٧ ـ احمد طلعت بك	٣٠٠٠٠	سنة ١٩٢٨
٨ ـ محمود الفلكي باشا	٦٠٠	سنة ١٩٢٩
٩ ـ قوله	٣٥٠٠	سنة ١٩٢٩
١٠ ـ خليل آغا	١٠٠٠	سنة ١٩٢٩
١١ ـ السيد عمر مكرم	٣٢٥	سنة ١٩٣٠
١٢ ـ الشيخ احمد ابو خطوة	١٠٠٠	سنة ١٩٣٠
١٣ ـ ابرهيم حليم باشا	١٦٠٧	سنة ١٩٣٠
١٤ ـ الخزانة التيمورية	١٩٥٢٧	سنة ١٩٣٢
١٥ ـ الخزانة الزكية	١٨٦٢٢	سنة ١٩٣٥
١٦ ـ مكتبة علي جلال بك الحسيني	٨٦٣٦	

وهنالك مكتبات اخرى اقل شأناً ضمت الى دار الكتب المصرية في فترات

مختلفة نذكر منها : مكتبة وجيهي العمري بك وبها كثير من الكتب النادرة التي عليها خطوط لاكابر العلماء . وهنالك ايضاً مجموعات كتب ومخطوطات ومرقعّات وقطع فنية اهداها العلماء مصريين وغير مصريين الى دار الكتب تقديراً للمهمة الثقافية التي أنشئت لاجلها (١) .

٦ ـ ثروة دار الكتب المصرية

في آخر السنة ١٩٤٦ أحصيت ثروة دار الكتب المصرية احصاءً رسمياً . فبلغ مجموع ما فيها من كتب حوالي خمسمائة وخمسة وعشرين الف مجلد بين مخطوط ومطبوع . منها ٥٧٩ و ١٤٤ مجلد من الكتب الافرنجية .

واحتوت دارالكتب المصرية على مخطوطات نادرة قديمة العهد . اشهرها «رسالة الشافعي» نسخها عام ٢٦٥ للهجرة (٨٧٨ م) تلميذه الربيع بن سليمان المرادي(٢) وكتاب « الامالي » لابي علي القالي وهو منسوخ بخط مغربي في القرن الخامس للهجرة (٣) الخ .

٧ ـ معارض دار الكتب المصرية

ازدانت دار الكتب المصرية باربعة معارض تلفت انظار زوّارها وتدعوهم الى الثناء لا على مَن اتحفها بمحتويات تلك المعارض فحسبُ بل على الناهضين بتنظيمها وحراستها ايضاً .

واوّل تلك المعارض معرض « الخزانة التيمورية » وفيه ما فيه من المخطوطات النادرة وصور مخطوطات نفيسة منقولة عن اثمن المخطوطات في مكتبات دمشق

---

(١) نبذة وجيزة عن دار الكتب المصرية لسنة ١٩٣٩ صفحة ٢١

(٢) مجلة النهضة النسائية (مجلة المجمع العلمي العربي مجلد ٤ سنة ١٩٢٤ صفحة ٢٣

(٣) نبذة وجيزة عن دار الكتب المصرية لسنة ١٩٣٩ صفحة ٢٦

والاستانة وأوروبا. وفيه كذلك مجموعة صور شمسية تمثّل مشاهير الحكام والكتّاب والعلماء والفضلاء مصريين وشرقيين .

ثانيها : معرض « الاوراق البردية » وفيه كتابات جمة على البردي منها يُستدل تطور الكتابة عن الآرامية واليونانية القديمة الى العربية في القرون الاربعة الاولى للهجرة . ويحوي كذلك مواد الكتابة المستعملة قديماً عند العرب . وهناك كتاب « الجامع في الحديث » لعبد الله بن وهب . ولعله هو المؤلف العربي الوحيد الذي نسخ على البردي .

ثالثها « المعرض الايراني » اشتمل على مجموعة ايرانية فارسية امتازت بقدم عهدها وتناسق ألوانها . ويعود الفضل في اقتناء اغلب نفائسها الى الامير مصطفى فاضل باشا حفيد محمد علي باشا الكبير . وقد نوّهنا بذكرها فيما سبق .

رابعها « المعرض العام » انطوى على مخطوطات لمشاهير المؤلفين العرب كالحريري والفيروزابادي وابن حجر والفيومي الخ. وعلى كتابات لمشاهير الخطاطين كابن البوّاب وياقوت المستعصمي. وهناك خطوط عربية متنوعة بالقلم الكوفي والبغدادي والقيرواني والاندلسي والريحاني والياني والمزركش والديواني والفارسي والقاعدي وغيرها . وتزدان جدران هذا المعرض بصور فنية ومرقعات جميلة وتحف خطية لأشهر الرسامين والخطاطين . على ان الفضل في نماء ثروة هذا المعرض يرجع الى فؤاد الاول مليك مصر (١٩١٧ – ١٩٣٦) فقد اعتنى هذا العاهل بالمعرض العام اعتناء خصوصياً. واضاف الى ذلك اهتمامه بالخطوط العربية فأمر بانشاء مدرسة لتحسينها. واستحضر نماذج من كتابات اشهر الخطاطين فأصبحت تلك النماذج نواة صالحة لهذا « المعرض العام » في دار الكتب المصرية .

٨ ـ مطبوعات دار الكتب المصرية

الحقت بدار الكتب المصرية منذ السنة ١٩٢٠ مطبعة جُهزت باحسن الادوات وأكمل العُدد . واخذت تطبع موسوعات علمية وتاريخية وادبية وكثيراً من

مؤلفات رجال عصرنا . وقد ابرزتها على اتم ما يكون من دقة التصحيح والمراجعة وجمال الوضع والطبع . ومن اهم تلك المطبوعات كتاب « صبح الاعشى » للقلقشندي في اربعة عشر مجلداً . وكتاب « نهاية الارب في فنون الادب » تأليف شهاب الدين احمد بن عبد الوهاب النويري . وكتاب « الاصنام » لابي المنذر هشام بن محمد الكلبي . وكتاب « التاج للامام الجاحظ الخ.

٩ ـ مديرو دار الكتب المصرية

مرت على دار الكتب المصرية في ادارتها حقبتان . ففي حقبتها الاولى (١٨٧٠ – ١٩١٤) تولى شؤونها مديرون المانيون بدءاً من الدكتور ستيرن فالدكتور سبينا فالدكتور فولرس (١٨٨٩ – ١٨٩٦) فالدكتور موريس (١٨٩٦ – ١٩١١) فالدكتور شاده (١٩١٣–١٩١٤) وهو آخر مدير اجنبي.

ثم القيت مقاليد دار الكتب المصرية في حقبتها الثانية الى مديرين وطنيين وهم: احمد لطفي السيد باشا (١٩١٥ – ١٩١٨) للمرة الاولى واحمد بك صادق (١٩٢٠–١٩٢٢). واحمد لطفي السيد باشا للمرة الثانية (١٩٢٢ – ١٩٢٥). والدكتور عبد الحميد بك ابو هيف (١٩٢٥ – ١٩٢٦) . ومحمد اسعد برادة بك (١٩٢٦–١٩٣٦). والدكتور منصور فهمي باشا (١٩٣٦ –١٩٤٤). واحمد عاصم بك (١٩٤٤ ـ ١٩٤٦) الخ.

ولكل من الحقبتين مزية خاصة استفادت منها دار الكتب المصرية فائدة محققة. ففي الحقبة الاولى ازدادت ثروتها بالكتب الاجنبية ومجموعة النقود الاسلامية . وفي الحقبة الثانية توفرت العناية خصوصاً بازدياد ثروتها الشرقية ولا سيما العربية .

ثانياً : دار الكتب الازهرية الكبرى

١ ـ قدم دار الكتب الازهرية

الازهرية نسبة الى الازهر اكبر جامعة اسلامية في الخافقين بلا جدال. وجامع

الازهر هو اول مسجد أنشىء في القاهرة بعد جامع احمد ابن طولون (٢٥٧-٢٧١هـ) أسسه القائد جوهر مولى المعز العبيدي لما اختط القاهرة سنة ٣٥٩ للهجرة. واكتمل بناؤه في شهر رمضان سنة ٣٦١ للهجرة (٩٧٢ م) (١). وفيه من طُرَف النقوش وعجائب الهندسة ما يقصرّ عن وصفه لسان وعن تسطيره يراع. يبلغ عدد اعمدته ثلاثمائة وثمانين عموداً كلها من المرمر او الصوان محكمة النحت. وفيه كذلك من القناديل الف ومائتا قنديل (٢).

ولا ريب في ان مكتبة الازهر قديمة العهد ايضاً كسائر خزائن المساجد التي سطرنا اخبارها في هذا المؤلف. وقد اثبت المقريزي في خُططه ان تلك الخزائن زُخرِتْ بالكتب المفيدة والمصاحف الثمينة.

والى تلك المكتبة العامرة يختلف تلامذة الازهر وهم يُعدون بالالوف وينتمون الى شتى المذاهب الاسلامية في جميع اطراف العالم. ويلبث اولئك الطلبة اعواماً يدرسون على مشايخ الازهر وجهابذته الذين برّزوا في آداب الدين الاسلامي. ثم يعودون الى اوطانهم فينشرون فيها ما تلقنوه من المعارف على اختلاف انواعها ودرجاتها.

٢ـ ذخائر دار الكتب الازهرية

كانت ذخائر دار الكتب الازهرية الكبرى متفرقة في الاروقة يتناولها من يشاء بلا رقابة ولا نظام. ولبثت الحال على هذا المنوال حتى اواخر ايام الخديو اسمعيل باشا (١٨٦٣ ـ ١٨٧٩). فامر هذا العزيز في آخر عهد ولايته بجمع ما يُستغنى عنه من كتب الاروقة وترتيبها في الخزائن وتنظيم فهارس لها تبعاً لمواضيعها.

---

(١) حسن المحاضرة في اخبار مصر القاهرة: لجلال الدين السيوطي: جزء ٢ صفحة ١٤٠ ودائرة المعارف: للبستاني: مجلد ٣ صفحه ٣١٠

(٢) الجامع الازهر: بقلم الكسيس مالون اليسوعي (المشرق: مجلد ٤ سنة ١٩٠١ صفحة ٥٤)

ولا يخفى ان مسجد الازهر هو المسجد الوحيد الذي استثني بين جميع مساجد القاهرة فلم تحوّل خزائن كتبه الى دار الكتب المصرية. وجرى ذلك عام ١٨٧٠ بايعاز الخديو اسمعيل المشار اليه. ومن ذاك الحين ظلت مكتبة الازهر مستقلة وُحفظت ذخائرها من التلف او الضياع. وفي السنة ١٨٩٧ اطلق عليها اسم « دار الكتب الازهرية الكبرى » بفضل الناهضين بها ولا سيما الشيخ حسونة النواوي شيخ الازهر والشيخ محمد عبده مفتي الديار المصرية.

وقد كتب الينا وكيل الجامع الازهر بتاريخ ١٠ اذار ١٩٤٠ ان ذخيرة المكتبة من المجلدات العربية المطبوعة تناهز مائة وعشرة آلاف مجلد. وتضم من المخطوطات خمسة وثمانين الف مجلد يصدق على كثير منها وصف الاهم النادر . مثال ذلك : ١ً : « غريب الحديث » لابي عبيد القاسم بن سلام نُسخ سنة ٣١١ هـ بخط ابي الخطاب الحسيني بن عمر العايدي — ٢ً : رسالة في « الحاسد والمحسود » لابي عثمان عمر بن بحر الجاحظ المتوفى سنة ٢٥٥ هـ. وقد نسخها علي بن هلال المشهور بابن البوّاب المتوفى سنة ٤١٣ هـ — ٣ً : « رسوم دار الخلافة » لابي الحسين هلال بن المحسن الصابىء نُسخ سنة ٤٥٥ للهجرة — ٤ً : كتاب « قوة الحجاج في عموم المغفرة للحجاج » كتبه مؤلفهُ ابن حجر العسقلاني سنة ٨٤٢ للهجرة — ٥ً : مجموعة « رسائل جلال الدين السيوطي » وهي ثماني عشرة رسالة كتبها مؤلفها سنة ٨٤٧ للهجرة — ٦ً : « طوالع الانوار » شرح الشيخ عابد السندي على شرح الدر المختار في ستة عشر مجلداً وهو نادر لا وجود لمثله .

٣ - اعتناء مشيخة الازهر بتنظيم مكتبته وتصوير مخطوطاتها النادرة

وفي السنة ١٩٣٦ اشترت مشيخة الازهر آلة من طراز الماني حديث لتصوير المخطوطات . وتقرر ان يقوم بادارتها عمال تمرنوا على التصوير . ولهذا اوعزت المشيخة الى بعض موظفيها فالتقفوا استعمال تلك الآلة طبقاً للاصول الفنية . وبعد هذا شرعوا يصوّرون المخطوطات النادرة المحفوظة في مكتبة الازهر ويرسلون

نسخاً منها الى دور الآثار والمكتبات الكبرى (١) . وقد رُتبت مكتبة الازهر ترتيباً دقيقاً كأحسن ما يُتبع في تنظيم المكتبات الحديثة (٢) .

ثالثاً : مكتبة آل الشرايبي

وصف عبد الرحمن الجبرتي مكتبة آل الشرايبي بمدينة القاهرة وصفاً وافياً في تاريخه « عجائب الآثار » . فاستحسنا ان ننقله عنه بنصه قال : (٣)

«كان آل الشرايبي في غاية من الغنى والرفاهية والنظام ومكارم الاخلاق والاحسان للخاص والعام يتردد الى منزلهم العلماء والفضلاء. وكانت مجالسهم مشحونة بكتب العلم النفيسة للاعارة والتغيير وانتفاع الطلبة . لا يكتبون عليها وقفية ولا يُدخلونها في مواريثهم ويرغبون فيها ويشترونها باغلى ثمن. ويضعونها على الرفوف والخزائن والخورنقات وفي مجالسهم جميعاً. فكل من دخل الى بيتهم من اهل العلم الى اي مكان بقصد الاعارة او المراجعة وجد بغيته ومطلوبه في اي علم كان من العلوم ولو لم يكن الطالب معروفاً. ولا يمنعون من يأخذ الكتاب بتمامه. فان رده الى مكانه ردّه . وان لم يرده واختص به او باعه لا يسألون عنه . وربما بيع الكتاب عليهم واشتروه مراراً واعتذروا عن الجاني بضرورة الاحتياج . وكان الامراء في مصر يترددون اليهم كثيراً من غير سبق دعوةٍ »

رابعاً : اشهر مكتبات القاهرة في الزمان الحاضر

١ ـ مكتبات الوزارات المصرية

عندما انتظمت الوزارات المصرية أنشئت لكل منها مكتبة خاصة بها اشتملت

---

(١) مجلة « الرسالة » في القاهرة : مجلد ٦ عدد ٢٦٤ صفحة ١٢٣٧

(٢) مجلة « الاثنين والدنيا » في القاهرة : عدد ٢٦٢ سنة ١٩٣٩

(١) عجائب الآثار في التراجم والاخبار: لعبد الرحمن الجبرتي : جزء ١ صفحة ٢٠٨

على مؤلفات رسمية وغير رسمية لها علاقة بتلك الوزارة تسهيلاً لأعمال موظفيهـا والمترددين اليها والمتعاملين معها. واحتوت خزائن تلك الوزارات ايضاً على طائفة من الكتب الفنية والموسوعات العلمية والنشرات الدورية التي لا غنى عنها. أخصها وزارة المعارف ووزارة الاشغال العامة ووزارة الحربية الخ .

٢ ـ مكتبات المساجد المصرية

سبق الكلام عما استولت عليه دار الكتب المصرية في عهد الخديو اسمعيل من المخطوطات التي كانت متفرقة في مساجد القاهرة . واليك ما رواه جرجي زيدان عن مكتبات تلك المساجد وعما بقي فيها من الكتب (١) قال :

« لكن تلك المساجد لا يزال فيها كتب كثيرة . وقد رأيت ما ذكرناه عن المكتبة الازهرية وهي اهمها. اما ما بقي من الكتب العربية في المساجد وغيرها التابعة لنظارة الاوقاف فعددها تسعة وعشرون الفاً ومائتان وخمسة وعشرون كتاباً في مواضيع مختلفة . اهمها في الفقه وغيره من العلوم الاسلامية وفي العلوم اللغوية ».

٣ ـ مكتبات الجامعة المصرية او جامعة فؤاد الاول

تتألف الجامعة المصرية من معاهد وكليات شتى للعلوم العاليـة اليك اخصها : معهد الطب ومعهد الحقوق ومعهد الآداب ومعهد الهندسة ومعهد التجارة ومعهد الصحافة وغيرها . ولكل من هذه المعاهد او لبعضها مكتبة مستقلة انشئت لفائدة تلامذته وابحاث اساتذته.

وللملك معمر فؤاد الاول فضل خالد على الجامعة المصرية التي تأسست تحت اشرافه ودعيت باسمه . وقد رمق مكتبتها بعنايته الخاصة فاهديت اليها المؤلفات

---

(١) تاريخ آداب اللغة العربية : مجلد ٤ صفحة ١١٦

الثمينة في العلوم العصرية والقديمة . وهي من المكتبات المعدودة في مصر بمحتوياتها وتنظيمها وفهارسها (١). وقد جرى افتتاح هذه الجامعة رسمياً في ٢١ كانون الاول ١٩٠٨ . وتعد مكتبة الجامعة المصرية من اعظم مكتبات القاهرة واغناها ويبلغ عدد كتبها الاجمالي ليومنا هذا ٢٧٥،٤٥٠ منها ٧١،٣٥٤ كتاباً عربياً مطبوعاً و ٢٠٤،٠٩٦ من الكتب الاجنبية على اختلاف لغاتها .

٤ ـ مكتبة دار الآثار العربية

أنشئت دار الآثار العربية عام ١٨٨١ بامر الخديو توفيق الاول . ولما نجز بنيان دار الكتب المصرية بباب الخلق سنة ١٩٠٤ خُصصت الطبقة السفلى منه بدار الآثار العربية التي تُعتبر في طليعة جميع المتاحف الاسلامية في الخافقين.

ولهذا المعهد الاثري خزانة حافلة بالمؤلفات التي يدور بحثها على التاريخ والفنون الجميلة الاسلامية والتنقيب عن الآثار القديمة وغير ذلك . وفي هذه المكتبة الوف اللوحات منقولة عن الآثار بالتصوير الشمسي ولوحات غيرها لمشاهير قدماء الرسامين . وفيها ايضاً جميع المنشورات التي تُصدرها «لجنة حفظ الآثار العربية» سنة بعد سنة .

٥ ـ مكتبة البرلمان المصري

انشئت هذه المكتبة على اثر اعلان الدستور وفتح مجلسي الشيوخ والنواب المصريين. وافرز لها في ندوة البرلمان مكان فسيح جهز بكل ما تتطلبه امثال هذا المشروع من الرياش على احدث طراز . وخصصت الحكومة مالا كافياً لشراء الكتب التي يرجع اليها اعضاء البرلمان في ابحاثهم ولا سيا كتب التشريع والحقوق

---

(١) الهلال : مجلد ٣٦ سنة ١٩٢٨ صفحة ٥٧٠

والفقه والموسوعات والمعاجم في اللغة العربية واللغات الفرنجية . وعينت لادارتها موظفاً من الرجال الفنيين في دار الكتب المصرية ومعه ثلاثة من المساعدين يؤازرونه في تنظيم المكتبة وخدمتها والمحافظة عليها . وقد شرع هذا المدير في وضع فهرس علمي للمكتبة سينشر بالطبع بعد انجازه

٦ ـ الخزانة التيمورية

اذا ذكرنا رجالات العلم المقرون بالعمل في وادي النيل وجب ان نثبت في طليعتهم اسم العلاّمة الهمام احمد تيمور باشا (١٢٨٨ ـ ١٣٤٨ هـ) مؤسس الخزانة التيمورية بالقاهرة . فان هذا السري الغني نزع الى خدمة العلم لاغراض سامية لا لمغنم يغنمه او لجاه يفوز به . ولفرط ميله الى معاشرة ائمة الثقافة جعل منزله الرحب مجلساً للادب يؤمه جهابذة اللغة وروّاد الحكمة .

عرفنا احمد تيمور باشا معرفة شخصية وجمعتنا به مراراً رابطة الادب. فاكبرنا همته الشماء في طلب العلم والتاريخ ولاسيما في جمع تلك الخزانة الحافلة بالمخطوطات الفاخرة والمطبوعات النادرة التي وقفها على الامة المصرية . وعملاً بوصيته الاخيرة فقد تسلمتها دار الكتب المصرية بعد وفاته لتكون منهلا للطالبين والباحثين . وبلغ عدد مجلدات الخزانة التيمورية طبقاً للاحصاء الرسمي الذي وضعته دار الكتب المصرية ١٩٥٢٧ مجلداً.

ويُقدر عدد المخطوطات او المصوّرات بالتصوير الشمسي من مجلدات الخزانة التيمورية بنحو النصف . وقد اغناها مؤسسها خصوصاً بصور شمسية نقلها عن نفائس الكتب المخطوطة في مكتبات دمشق والاستانة واوروبا. وزيّنها بمجموعة فريدة من جلود الكتب القديمة في عصورها المختلفة (١) يضاف الى ذلك ما حوته من الصور التاريخية والآلات الفلكية ومحابر واقلام كانت لبعض المشاهير. وفيها

---

(١) نبذة عن دار الكتب المصرية لسنة ١٩٣٩ صفحة ١٨

عشرات من الكتب كُتبت بخط مؤلفيها او قرأ فيها اعلام من رجال السلف قُرئت عليهم وعلقوا عليها واجازوها (١) والعلامة محمد كردعلي وصف دق للخزانة التيمورية نقتطف منه ما يلي : (٢)

« ولقد كنا نلاحظ ان صديقنا من غلاة الكتب كما هو من الغلاة في طلب الا والتاريخ والادب. ولكن ما كان يدور بخلدنا ان يجمع مع الزمن خزانة كـ قل لشرقي ان جمع مثلها في هذا العصر الا ما يقال عن خزانة كتب رضا باشا الاستانة . ولكن المزيّة التي في الخزانة التيمورية ان صاحبها عارف معرفة كا بكل ما حوته من اسفار العلم. وقد اقتناها بمعرفته وفضل نعمته من مالٍ حلا مال الزراعة المبارك...

« وقلما رأينا عملًا خاصاً او عاماً منسقاً تنسيق المكتبة التيمورية . فالمك بالفهرس البديع الذي دوّنه لها جامعها فجعل كل علم مع علمه وقرن كل شكل مثله ليسهل احضار اي كتاب منها في دقيقة... ومن خُلق صاحبها انه لا يذ باندر كتبه على المشتغلين والمستنسخين على خلاف سنّة بعض غلاة الكتب في ... والشام ممن لا يسمحون بالنظر الى كتبهم ولا باستنساخها والاخذ منها . ولو كا ينظرون فيها آونة الفراغ لهان الخطب فيهم . ولكنهم منعوها عن الناس فامس مظلومة في قماطرهم . ويا بئس ما يعملون ! »

ومن مميزات الخزانة التيمورية تدقيق منشئها في انتقاء مخطوطاتها . فار القارىء يلاحظ في اغلبها تواقيع مئات من اكابر العلماء الذين عاشوا بين القـ السادس والقرن العاشر للهجرة. وخلف احمد تيمور باشا آثاراً علميـة عد منها مقالات خليقة بالاعتبار نشرها على صفحات عدة جرائد ومجلات كالمويد والض والمقتطف والمقطم والاهرام والهلال والهندسة والزهراء والهداية الاسلامية مصر (٣) ومجلة المجمع العلمي العربي بدمشق وغيرها.

---

(١) مجلة المجمع العلمي العربي بدمشق : مجلد ١١ سنة ١٩٣١ ص ١٣٢-١٣٣

(٢) مجله المقتبس: مجلد ٧ سنة ١٩١٢ ص ٤٣٨-٤٣٩

(٣) تراجم اعيان القرن الثالث عشر واوائل الرابع عشر: لاحمد تيمور باشا: صفحة ١٦٠-١

٧ ـ الخزانة الزكية

صاحب هذه الخزانة هو قطب من اقطاب مصر في القرن العشرين (١) . قرن العلم بالعمل وكتب ما لم يكتبه عالم غيره من المواضيع المبتكرة عن العرب قديماً وحديثاً . وكان يجيد اللغة الفرنسية اجادته اللغة العربية فضلاً عن إلمامه باللغات الايطالية والانكليزية والاسبانية والتركية . وتقلّب في مناصب شتى حتى اصبح سكرتير مجلس الوزراء في عهد الخديو عباس الثاني . ونظراً لثقافته العالية عين عضواً في مجامع علمية شتى شرقاً وغربا . وانتدبته الحكومة المصرية مراراً ليمثلها في مؤتمرات المستشرقين التي عقـدت في اوروبا وفي مؤتمر الآثار الدولي سنة ١٩٢٦ ببيروت (٢) .

وضع احمد زكي باشا (١٢٨٣ – ١٢٥٣ ﻫ) نواة مكتبته منذ كان تلميذاً في مدرسة الحقوق الخديوية سنة ١٨٨٣ بالقاهرة . فتولّد فيه غرام الكتب حتى اوصل هذه الخزانة الى ثروة علميـة لم تصل اليها حتى الآن خزانة خاصّة في بلاد الشرق . وفيها اكبر مجموعة لما كتبه عن اللغة العربية علماء الشرق وكتّاب الافرنج . واجتمع فيها ايضاً معظم الكتب العربية التي طبعها المستشرقون في اوروبا منذ القرن الخامس عشر الى يوم الناس هذا .

وتمتاز الخزانة الزكية بانها تشتمل على كل كتاب عربي نفيس بما تقلب عليه من الادوار المختلفة . فتجد من ذلك الكتاب ما هو مخطوط باليد وما هو مطبوع ببولاق وفي سائر مطابع الشرق والغرب . وتجد فيها ايضاً للكتاب نفسه ترجمته الى اللغة الفرنسية او الانكليزية او الاسبانية او اللاتينية او الايطالية او الالمانية . وتجد فيها علاوة على ذلك كله جميع المباحث التي دوّنها جهابذة العلماء عن هذا الكتاب او عن مؤلفه بحيث يتيسر للباحث ان يستوفي موضوعه من جميع اطرافه .

---

(١) طالع ترجمة احمد زكي باشا واخبار الخزانة التركية في مجلة المقتبس الدمشقية : مجلد ٧ صفحة ٥٩٣ فما بعد (٢) كان كاتب هذه السطور امين سر مؤتمر الآثار الدولي المشار اليه .

وقد وقف احمد زكي باشا هذه الخزانة على الأمة المصرية فلا يعبث بها وار
ولا شبه وارث . وبلغ عدد مجلداتها ١٨٦٢٢ مجلداً بين مخطوط ومطبوع . وه
الآن في حوزة دار الكتب المصرية ينتفع بها خاصّةُ القوم وعامّتهم .

وقد لخص احمد زكي باشا مجمل حياته في ثلاثة ابيات من الشعر نظمها وجعا
زخرف داره وصورة شعارهِ ومرجع اخباره وموضوع افتخارة نثبتها بنص
الشائق وهي :

وقفت على احياءِ قومي يراعتي	وقلبي وهل الا ّ اليراعةُ والقلد
ولي كلّ يوم موقِفٌ ومقالة	انادي ليوث العُرب ويحكموا هبو
فاما حياة تبعث الشرق ناهضاً	وإما فناءٌ وهو ما يرقبُ الغرب

٨ ـ سائر المكتبات الاسلامية الحديثة في القاهرة

في القاهرة ايضاً مكاتب اخرى غير التي ذكرنا سبّلها اربابها لفائدة الناس
فالحقناها بخزائن الكتب العامة ولئن كانت دائرتها ضيقة بسبب مجلداتها القليـ
العدد . واشهر تلك المكاتب هي : المكتبة الوفائية وهي تابعة للسجادة الوفائيـ
ولها فهرس مطبوع سنة ١٢٦٨ للهجرة . ثم المكتبة البكرية التي أسسها الساد
البكرية ومقرها في سراي الخرنفش . ومكتبة الدردير نسبة الى الشيخ الدردير
العدوي المالكي المتوفى سنة ١٢٠١ للهجرة . ومركزها في المسجد الذي دفن فيـ
الدردير بالكحكيين بالدرب الاحمر

الفصل الرابع والعشرون

خزائن كتب الاسكندرية

١ ـ مكتبة البطالسة

المعنا في فصل آخر من هـذا الكتاب الى المكتبة الضخمة التي اشتهرت بالاسكندرية على عهد البطالسة ، ونوهنا بخبر احتراقها الذي لا يزال سراً مكنوناً من اسرار التاريخ . فنسبه بعض المؤرخين الى عمرو بن العاص وذهب فريق خلاف هذا المذهب . ودعم كل من الفريقين مـذهبه بحجج وبينات لدحض من خالفه في مذهبه . فازاء تلك الآراء المتباينة رأينا من الحكمة ان نتربص ريثما يحسر اللثام عن غوامض قضية طالما اشتد النزاع حولها.

٢ ـ المكتبات الاسلامية القديمة

لا ريب ان مدينة الاسكندرية كانت في سالف الاوان عـامرة بمكتبات اسلامية حذا فيها امراء العرب حذو من تقدمهم من الولاة في تلك الحاضرة . فذاع امرها في الاقطـار وقصد اليها جمهور من الائمة والكتبة والادباء للدرس والمطـــالعة . وقد ذكر السلفي مكتبة بجامع الاسكندرية تولاها عبدالله الطائي في القرن السادس للهجرة قـال : وكان الطائي مشرف البيمارستان بالثغر ومتولي الكتب المحبسة في الجامع وله فيه حلقة لاقراء الادب ذكره المقريزي في المقفى[١]

واكتظت المعاهد العلمية في الاسكندرية بخزائن المخطوطات في شتى العلوم والفنون . ومن اشهر تلك المعاهد : دار الحديث ومدرسة الحافظ السلفي وكان

---

(١) بغية الوعاة في طبقات اللغويين والنحاة للسيوطي : صفحة ٣٣

ينزل بها العلماء والوافدون من المغرب، ومدرسة الامام الطرطوشي مؤلف كتاب « سراج الملوك » وغيرها (١)

٣ ـ دار كتب الحكيم ارسطاليس

حدّث ابو عبد الله الشامي ان الامير الافضل (٤٨٧ – ٥١٥ ﻫ) تغير على امية ابي الصلت وحبسه بالاسكندرية في دار كتب الحكيم ارسطاليس قال : وكنت اختلف اليه اذ ذاك فدخلت اليه يوماً فصادفته مطرقاً فلم يرفع رأسه اليّ على العادة. فسألته فلم يرد الجواب . ثم قال بعد ساعة : اكتبْ وانشدَني :

قد كان لي سبب قد كنت احسب انْ احظى به فاذا دائي من السببِ
فما مقامُ اظفـاري سوى قلمي ولا كتائب اعدائي سوى كتبي

فكتبت وسألتهُ عن ذلك فقال : ان فلانا تلميذي قد طعن فيّ عند الامير الافضل. ثم رفع امية ابو الصلت رأسَه الى السماء واغرورقت عيناه دمعاً ودعا عليه. فلم يحل الحول حتى استُجيب له ومات سنة ٥٢٨ للهجرة في المهديّـة من بلاد القيروان (٢)

٤ ـ المكتبة البلديه

بلغت مدينة الاسكندرية وهي ثانية عواصم وادي النيل شأواً بعيداً من التقدم والازدهار في عهد الاسرة العلوية المالكة . واصبحت في طليعة مدن الشرق الادنى بثروة اهاليها ووفرة سكانها واتساع نطاق تجـارتها في جميع انحاء العالم . وحوت فضلًا عن ذلك كلهِ كثيراً من المدارس الوطنية والاجنبية على اختلاف نزعاتها

---

(١) مجلة « الرسالة » في القاهرة : سنة ٣ صفحة ٢١٤

(٢) معجم الادباء لياقوت الرومي : جزء ٧ صفحة ٦٧ — ٦٨

ودرجاتها . لكنها على هذه المزايا ظلت حتى اواخر القرن التاسع عشر خالية من مكتبة عامّة يرجع اليها العلماء والطلاب في ابحاثهم ودروسهم .

رأى المجلس البلدي في ذلك نقصاً فعمد الى تلافيه خدمة للعلم وضناً بكرامة مدينة كمدينة الاسكندرية . فاستدرك الامر ودرس المشروع درساً دقيقاً وافياً. ثم قرر انشاء المكتبة سداً لحاجات الاهالي من الناحية العلمية . وأخذ على عاتقه النهوض بنفقاتها وسائر شؤونها. وسجل هذا القرار رسمياً في جلسة ترأسها يوسف شكور باشا رئيس المجلس المشار اليه بتاريخ ١٤ تموز ١٨٩٢

ثم ارتأى المجلس البلدي عينه تعميماً للفائدة ان يقسم ادارة المكتبة قسمين : قسما عربياً ولىّ عليه الشيخ ابا علي الازهري وقسما افرنجياً اسند ادارته الى شاب سويسري الاصل اسمه فيكتور نوريس . وبلغ عدد مجلدات هذه المكتبة ٧٣،١٩٦ مجلداً طبقاً لاحصاء رسمي جرى في السنة ١٩٤٧ على هذه الصورة :

كتب عربية مطبوعة	كتب عربية مخطوطة	كتب افرنجية
٣٢،٥٩٨	٤٠٠٠	٣٦،٥٩٨

وفي السنة ١٩٤١ اقفلت المكتبة ابوابها للحاجة الى اصلاح بنايتها وتوسيع قاعاتها طبقاً لفن الهندسة العصري . وبعد انجازها ذلك استأنفت فتح ابوابها للجمهور في شهر تشرين الاول من تلك السنة .

ومما يُذكر لادارة المكتبة بالشكر والثناء انها جمعت ما عندها من مجلدات الكتب الخطية والنادرة في صناديق محكمة بقصد وقايتها من اخطار الغارات الجوية اثناء الحرب المتلاربة (١٩٣٩ - ١٩٤٥) . فاصبحت تلك المجلدات في مأمن من حوادث الغوائل والنوازل طول مدة هذه الحرب الطاحنة (١).

(١) جريدة « الاهرام بالقاهرة : عدد ٢٠٥١٦ في ١٨ تشرين الاول ١٩٤١

الفصل الخامس والعشرون

خزائن كتب سائر المدن المصرية

١ ـ اهتمام الحكومة المصرية بمكتبات الاقاليم

بازدياد وسائل العلم في وادي النيل ازدادت الحركة الفكرية واقبل القوم على مطالعة الكتب واقتنائها في اهم مدن القطر المصري. واخذت مجالس البلديات على عاتقها تأسيس المكتبات في الاقاليم تعميماً للمعارف وتنويراً لاذهان الشعب المصري . وفي السنة ١٩٣٨ اصدر وزير الداخلية المصرية قراراً يتعلق بادارة تلك المكتبات يتجلى منه اهتمام الحكومة بامر الثقافة العامة في الانحاء المصرية . واليك نص هذا القرار :

« تحقيقاً لما رأته الحكومة من وجوب العناية بامر المكتبات العامة وتشجيع انشائها في الاقاليم وتوثيق الروابط بينها وبين دار الكتب المصرية للتعاون. ورغبة في وضع خطة تكفل وحدة النظام في الاعمال الفنية والادارية لهذه المكتبات .

« تقرر ان يكون لدار الكتب المصرية حق تفتيش هذه المكتبات وحق امدادها بالارشادات الفنية والادارية .

« لذلك نرجو من مكتبة الاسكندرية ومكتبات مجالس المديريات بذل كل معونة لحضرة صاحب العزة المدير العام لدار الكتب المصرية عند تفتيشه لهذه المكتبات او لمن ينتدبه من موظفي الدار لهذا الغرض». وزير الداخلية

٢ ـ احصاء عام لمكتبات الاقاليم المصرية

ندوّن فيما يلي جدولاً مختصراً نحصي فيه اسماء مكتبات الاقاليم المصرية التي بلغ

عددها في سلخ السنة ١٩٣٩ عشر مكتبات. ونضم الى ذلك تاريخ تأسيس كل من تلك المكتبات وعدد كتبها المخطوطة عربية وافرنجية :

عـــدد المجـــلدات

الاسم	المركز	تاريخ التاسيس	عربيـــة مطبـوعـة	عربيـــة مخطوطـة	افرنجية	المجموع
المكتبة البلدية	طنطا	١٩١٣	٤٤١١	٢٠٠	١٨٦٠	٦٤٧١
دار الكتب الفاروقية	المنصورة	١٩١٨	١١٤١٧	٣٤٧	٣٩٤٨	١٥٧١٢
دار الكتب البلدية	الزقازيق	١٩٢٤	٦٦٩٢	٢٣٣	٣٦١٥	١٠٥٤٠
مكتبة الامير فاروق	شبين الكوم	١٩٢٧	٤٧٤٦	١٩٨	١٢١١	٦١٥٥
مكتبة المجلس البلدي	بني سويف	١٩٢٩	٣٢٢٦	٢١٥	٣٢٢٣	٦٦٦٤
مكتبة الملك فؤاد	دمنهور	١٩٣٠	١٠٥٩١	٢٥٥	٣٦٤٧	١٤٤٩٣
مكتبة الامير فاروق	سوهاج	١٩٣٢	٣٨٦٠	١٠٦٣		٤٩٢٣
دار الكتب البلدية	الفيوم	١٩٣٢	٣٧٥١	١٠	٢٢	٣٧٨٣
مكتبة الامير فاروق	المنيا	١٩٣٦	١٥١١	١	١٤٦	١٦٥٨
دار الكتب البلدية	المحلة الكبرى (١)		٥٠٢٠٥	٢ ، ٥٢٢	١٧،٦٧٢	٧٠،٣٩٩

(١) ضمنا اسم هذه المكتبة الى سائر مكتبات الاقاليم المصرية . الا انه لم يرد عنها الى الان احصاء لنثبته في هذا الجدول .

الفصل السادس والعشرون

خزائن كتب المغرب بشمال افريقيا

١ ـ اقسام بلاد المغرب الجغرافية في الزمان الحاضر

يُراد بالمغرب البلاد الواقعة في شمال افريقيا وينطق جميع سكانه بالضاد . وهو ينقسم من الوجهة السياسية الى ثلاث مناطق كبرى :

الاولى : المغرب الادنى او تونس يحكمه امير بالوراثة يقال له « الباي » من الاسرة الحسينية التي تتولّى العرش التونسي منذ ١٧٠٥ ميلادية (١١١٧) هجرية .

الثانية : المغرب الاوسط او الجزائر دخل في حوزة الحكومة الفرنسية في عهد لويس فيليب (١٨٠٧ – ١٨٤٨) ملك الفرنسيس . ذلك بعد حرب طاحنة أبلى فيها الامير الشهير عبد القادر الجزائري (١٨٠٧ – ١٨٨٣) بلاء حسناً في الدفاع عن وطنه وعرشه . وقضى اعوامه الاخيرة في دمشق وفيها توفي

الثالثة : المغرب الاقصى او مراكش تولّاه في سالف الزمان امراء يقال لهم امراءُ المسلمين.ثم رفعوا امارتهم الىمقام السلطنة وانتزعوا لانفسهم لقب«الخلافة» حينما تطرّق الضعف الى بنى العباس في بغداد . وما برح اهل مراكش حتى الآن لا يعترفون بالخلافة الا لسلاطينهمدون سواهم. ولما كانت السياسةالاوروبية الاستعمارية قد قسمت القطر المراكشي الى سلطنتين مختلفتين احداهما تحت حماية فرنسا والاخرى تحت حماية اسبانيا نتج ان الخلافة المغربية انقسمت ايضاً على نفسها . فاصبحت مدينة فاس قاعدة للخلافة الاولى في منطقة الحماية الفرنسية ومدينة تطوان عاصمة الخلافة الثانية في منطقة الحماية الاسبانية . وعلى هذا الشكل صار كل من سلطاني مراكش خليفة على شعبه مستقلاً عن الآخر .

٢ ـ ثقافة المغرب في العصور الغابرة

وقد احرز المغرب في العصور الغابرة نصيباً وافراً من الثقافة . لان طرفه الادنى اي « تونس » كان مرتبطاً بمصر ذات التاريخ الباهر في عهد الدولة الفاطمية التي يمتّ نسبها الى اصل مغربي . اما طرفه الاقصى اي « مراكش » فكان على اتصال مستمر بالاندلس وهي البلاد العربية المجاورة له بل الذائعة الصيت في الحضارة . يؤيد ذلك ما انشىء في « المغرب » من المكاتب العامة والخاصة فضلاً عمن برّز بين اهله من العلماء الاعلام الذين لا يُحصى لهم عدد .

٣ ـ مكتبة المهدي عبيد الله جد الفاطميين

من اقدم من نزع الى جمع الكتب وسعى للحصول على اكبر عدد منها في تلك البلاد كان المهدي عبيد الله (٢٥٩ — ٣٢٢ هـ) بن محمد الفاطمي العلوي مؤسس دولة العلويين في المغرب وجد العبيديين الفاطميين خلفاء مصر (٣٥٧ -- ٥٦٧ للهجرة) . فقد حمل معه من سلمية (في سوريا) جميع الكتب والوثائق التي كانت لآبائه . ولكنها سُرقت وهو في طريقه الى سجلماسة في مكان يقال له «الطاحونة» بالقرب من طرابلس . ولما سار ابو القاسم بن المهدي ليغزو مصر للمرة الاولى سنة ٣٠٠ للهجرة استعاد الوثائق المذكورة (١)

٤ ـ انتشار المكتبات قديماً في المغرب

من ارجح الادلة على انتشار المكاتب قديماً في شمال افريقيا ما رواه المؤرخ العلامة الدكتور حسن ابرهيم حسن (٢) عن مكتبة القيروان . وهي مدينة في تونس اشتهرت بمدارسها ومكاتبها ومصانعها في عهد الحضارة الاسلامية قال :

---

(١) ابن الاثير : مجلد ٨ صفحة ١٤ (٢) الفاطميون في مصر : صفحة ١٣٣ و ١٣٤

« ولقد كان مذهب السنّة هو المذهب السائد في مصر قبل ان يتم فتحها على يد الفاطميين . ولهذا نشك فيما اذا كان في مكاتب الفسطاط والقطائع شيء من الكتب التي تتناول الكلام عن المذهب الشيعي اذ ليس هناك دليل واضح يشير الى انه كانت هناك مكاتب عامة . ولهذا نرجّح ان المعزّ بن المنصور قد حمل معه الى مصر عدداً عظيما من الكتب التي كانت في مكتبته الخاصة مع ما حمله من الاثقال عند رحيله من القيروان الى وادي النيل . وكانت سلطة المعزّ لما دوّخ بلاد مصر تشمل امارات افريقيا والغرب ومالطه وسردينيا وصقلية واغلب جزائر البحر المتوسط .

٥ ـ مكتبة عماد الدولة بن المحترق

بعد مقتل الوزير عماد الدولة ابي الفضل بن المحترق حاكم الاسكندرية نُقلت مكتبته الى المغرب وكانت من أغنى خزائن الكتب في عصره . وقد صارت اليه من بقايا كتب « دار العلم » ومن « مكتبة القصر » في القاهرة (١) في عهد الخليفة الفاطمي المستنصر (٤٢٧ – ٤٨٧ هـ) بن الظاهر

---

(١) الفاطميون في مصر : الدكتور حسن ابرهيم حسن صفحة ١٣٩

الفصل السابع والعشرون

خزائن كتب تونس

اولا : مكتبة الجامع الاعظم في القيروان

١ ـ فخامة مكتبة الجامع الاعظم

شرع العرب يبنون الجامع الاعظم بمدينة القيروان على اثر افتتاحهم اقطار افريقيا الشمالية. ويُعدّ هذا الجامع اكبر الجوامع في افريقيا كلها حتى جامع الازهر نفسه لانه يزيده اتساعاً. ولما استولى المعز بن باديس بن المنصور على بلاد تونس منذ السنة ٤٠٦ حتى السنة ٤٥٤ للهجرة أتم بناءه وزاد في زخرفته وتركه على الحالة التي يشاهد فيها الآن (١) .

وكان في هذا الجامع الفخم مكتبة عامرة بالمخطوطات الثمينة انشأها الاغالبة سلاطين تونس ايام عزهم وضخامة ملكهم . فبلغت من الازدهار مبلغاً جارت به « بيت الحكمة » ببغداد قبل ان ناظرتها مكتبة قصر الحمراء في قرطبة عاصمة الاندلس .

٢ ـ نكبات مكتبة الجامع الاعظم

نُكبت مكتبة الجامع الاعظم بالقيروان كما نكب غيرها من المكتبات بتوالي الايام في سائر الاقطار العربية . لان الحروب الاهلية اجهزت عليها فجعلتها مسرحاً

---

(١) المقتطف : مجلد ٢١ سنة ١٨٩١ صفحة ٢٤٢

للنهب والتدمير بعدما كانت داراً للثقافة والعلم . ومن تلك النكبات فتنة ابي زيد النكاري عام ٣٣٣ للهجرة. ثم فتنة عرب هلال النازحين من الشرق باذن من الخليفة العبيدي الفاطمي بمصر تأديباً لنائبه الاغلبي الذي خلع الطـــاعة في القيروان . وآخر فتنة جرت هناك عام ١١١١ للهجرة اثارها مراد ابو باله من بايات المراديين الاتراك بتونس

٣ - خطبة محمد بيرم الخامس عن بقايا مكتبة الجامع الاعظم

لم يسلم من ذخائر مكتبة الجامع الاعظم الا ما لا يُحفل به اذا اعتبرنا ما كانت تملكه في ايام عزها من الثروة الكتابية التي لا يعادلها ثمن . وبرهاننا على ذلك خطبة تاريخية القـاها العالم التونـي الشهير محمد بيرم الخامس (١٢٥٦ – ١٣٠٧ هـ) في الجمعية الجغرافية المصرية بتاريخ ٢٠ اذار ١٨٩٧ قال (١) :

«وفي هذه المقصورة ايضاً خزانتان كبيرتان مملوءتان برزم من الورق مربوطة بالحبال والامراس مختلطة بعضها ببعض اختلاط الحابل بالنابل يعلوها الغبار والتراب ونسج العنكبوت . وهي كل ما بقي من مكتبة القيروان التي اعتنى سلاطينها بجمعها . واذا نظر اليها الناظر لم يخطر بباله ما فيها من الكنوز الثمينة حتى انني لم اتحقق قط صدق المثل القائل « في الزوايا خبايا » كما تحققته هذه النوبة . فان هذه الرزم كلها رقوق من جلد الغزال مكتوبة بالقلم الكوفي بخط جميل ومموهة بالذهب ومزدانة بابدع النقوش والالوان . وهي قطع مصاحف قديمة وكتب حديث وفقه مكتوبة كلها في القرون الاولى من الهجرة وقد عبثت بها الايام. فجُمعت في هذه الرزم بلا ترتيب ولا نظام : الكبير مع الصغير والصغير مع الكبير . صفحة من هذا المصحف وصفحة من ذاك مع صفحات من كتب اخرى في مواضيع مختلفة وهلمّ جرّاً . رأيت هذه الرزم وفككتها وقلبتها وقد انصدع فؤادي لما حل بهـا . ثم فارقتها متحسراً عليها متأسفاً على بقائها في مكان تضيع فيه ويُجهل قدرُها .

---

(١) المقتطف : مجلد ٢١ سنة ١٨٩٧ صفحة ٢٤٣ – ٢٤٤

« وقد اتيح لي ان زرتُ كثيرا من المدن بل اكثر العواصم الاسلامية ولم اشاهد قط مجموعة «كوفية» مثل هذه حتى يمكنني ان احسبها نادرة في بابها ...

« ويظهر ان ما في المكتبة الخديوية من الكتب الكوفية قليل جداً بالنسبة الى ما في جامع القيروان. فان كان في المكتبة الخديويـة عشرة مصاحف بالقلم الكوفي ففي تينك الخزانتين مئة. وان كان في المكتبة الخديوية نوعان او ثلاثـة من المصاحف المختلفة الحجم ففي القيروان مئة نوع. وهي أجمل خطاً وابدع نقشاً وسيكون منها اعظم مكتبة بالقلم الكوفي. وقد همني أمر هذه الكتب بنوع خاص لان المرحوم والدي اهتم بلم شعثها وحفظها من الضياع لما تولى ادارة الاوقاف التونسية. ثم خرج من البلاد قبل ان يتم له ما اراده ».

٤ ـ تجديد مكتبة القيروان

على اثر التصريحات التي ادلى بها الخطيب محمد بيرم كما قلنا اتجهت انظار العلماء التونسيين الى مكتبة القيروان والى الحالة المحزنة التي وصلت اليها. فشرع ديوان الاوقاف بتونس يرمم مكان المكتبة ليصبح لائقاً بها وبمحتوياتها. ثم وضع كشفاً عن المخطوطات بعدما تولى جمعها وتنظيمها في خزائن جديدة لصيانتها من بوائق الحدثان. وقد عزز ديوان الاوقاف تلك الخزائن بخزائن اخرى ضمت الوفاً مـن الكتب المطبوعة ذات المواضيع المفيدة.

وفي السنة ١٩٤٠ عُنيت الحكومة التونسية باصلاح مكتبة القيروان فبلغت نفقات الاعمال الاصلاحية مليون فرنك ونيفاً. وبهذه الوسيلة شاءت مملكة الباي ان تُعيد الى كنوز المكتبة المشار اليها جانباً من مجدها القديم (١)

---

(١) مجلة « دمشق » في الفيحاء ، مجلد ١ عدد ٤ شهر نيسان سنة ١٩٤٠ صفحة ٦٤

٥ ـ تنميق الفتيات مصاحف اهدينها يوم الزفاف الى ازواجهن وصيانة بعضها في مكتبة القيروان

من النوادر التي لا يصح السكوت عنها ان مكتبة القيروان اشتملت على مصاحف مزوقة بالالوان ومدبجة بالذهب خطتها انامل فتيات مسلمات . وكانت كل فتاة منهن تنافس زميلاتها في اجادة الخط والابداع في التصوير وتدوّن في ذلك المصحف الفقرة التالية : « هذا من صنع وقلم فلانة بنت فلان قدمته هدية لخطيبها فلان بمناسبة الاحتفال بزواجهما » (١)

ثانياً ـ مكتبة جامع الزيتونة في تونس

١ ـ عظمة جامع الزيتونة ومكتبته

لجامع الزيتونة منزلة عليا دينية وعلمية لا في تونس وحدها بل في سائر الاقطار الاسلامية . أسسه التابعي عبدالله بن الحبّحاب سنة ١١٤ للهجرة . وهو اكبر معهد اسلامي في الدنيا بعد جامع الازهر . وقد تخرّج فيه كثير من فطاحل العلماء ونوابغ الفقهاء (٢). وقيل ان بند الاغلب عمّرهُ سنة ١٤٥ للهجرة (٣) والله اعلم !

واول من احدث خزانة الكتب في جامع الزيتونة ابو فارس عبد العزيز الحفصي سنة ٧٩٧ للهجرة وجعلها بالجامع المذكور بمجنبة رصد الهلال . وعلى قياسه جرى حفيده السلطان ابو عمرو عثمان فقد اضاف في السنة ٨٣٩ الى خزانة جدّه خزانة اخرى اشتملت على اهم الكتب . وقد وضعها هذا الحفيد بالمقصورة الشرقية

---

(١) المكاتب العربية في المملكة التونسية: بقلم السيد البشير الفورتي: صفحة ١١ (٢) عبدالمجيد كامل : في بلاد الناس : قسم ١ جزء ٣ صفحة ٢٤ (٣) مقال للدكتور عبد الوهاب عزام (مجلة الرسالة ، سنة ٣ صفحة ٢١٤)

في الجامع وتعرف بمقصورة سيدي محرز بن خلف[1]. وقد عين لها قواماً يديرون شؤونها ووقف عليها وقفاً كافياً مؤبداً [2].

٢ ـ غارة الاسبان على جامع الزيتونة وعلى مكتبته

لما دخل الاسبان تونس عام ٩٧٨ للهجرة لاجل نجدة اميرها ابي عبدالله محمد الحفصي ضد علي باشا التركي اغاروا عليها بخيلهم ورجلهم. واحتل عساكرهم جامع الزيتونة فاجهزوا على خزائن كتبه [3] ولم يسلم منها الا بضع نسخ من صحيح الامام البخاري. وكانت تلك الخزائن حافلة بالوف المجلدات حتى بلغت على عهد بني حفص ثلاثين الف مجلد [4].

٣ ـ تقهقر مكتبات تونس وتجديدها بهمة احمد باي الاول

من دواعي انحطاط المكتبات في تونس بعد الفاجعة المذكورة تعاقب الاوبئة ولا سيما وباء السنة ١١٠٠ للهجرة. قال الوزير السراج: ان العلم انقطع من تونس على اثر هذا الفناء المتعاقب. وكان ذلك من جملة الكوارث التي اجهزت على مابقته ايدي الفتن والسرقات. لان الكتب لا تعيش طويلاً الا بين اهل العلم. واستمرت الحال على هذا المنوال حتى اواسط القرن الثالث عشر للهجرة. فنهض الأمير احمد باي الاول وجدد سنة ١٢٥٦ خزائن جامع الزيتونة ونفحها بمخطوطات نافعة. فانطلقت ألسن العلماء والشعراء بالثناء عليه ونوه الخطباء بمحامده فوق المنابر [5]. وكون احمد باي تلك الخزائن بما ضمه اليها من كتب مسجد بيت الباشا في

---

(١) المجلة الزيتونية: مجلد ١ سنة ١٩٣٦ صفحة ٧٣ (٢) المؤنس في اخبار افريقيا وتونس: تأليف محمد بن ابي القاسم الرعيني القيرواني: صفحة ١٣٤ ـ ١٣٧ (٣) دائرة المعارف للبستاني: مجلد ٦ صفحة ٢٧٨ (٤) الروزنامة التونسية للسيد محمد بن الخوجا: سنة ١٣٢٦ هجرية صفحة ٣٣ (٥) المجلة الزيتونية في تونس: مجلد ١ جزء ٢ سنة ١٩٣٦ صفحة ٧٣ ــ ٧٥

قصر باردو . واضاف اليها كتب الوزير حسين خوجه باش مملوك وقد اشتراها من دائنيه بمبلغ ٩١٧ و ٢٨ ريالا . ثم عززها بخزانة كتب الشيخ ابرهيم الرياحي بعد وفاته سنة ١٢٦٦ للهجرة. وهذه الكتب الرياحية هي انفس قسم اشتملت عليه مكتبة جامع الزيتونة . لانها جمعت بين النفائس المشرقية والنوادر المغربية مما اختاره الشيخ الرياحي بنفسهِ في رحلتيهِ الى فاس عام ١٢١٨ والى الاستانة عام ١٢٥٤ للهجرة .

٤ ـ تحابيس العظماء والعلماء على مكتبة جامع الزيتونة

لما ترك مصطفى خزندار منصب الوزارة الكبرى في السنة ١٢٩٠ للهجرة كان مديوناً للدولة التونسية بمبلغ من المال. وفي جملة ما ادّاه للدولة بدلا من دينه خزانة كتبه النفيسة المشتملة على اسفار غريبة ذات ابداع في نسخها وتزويقها وتذهيبها.

وتوالت تحابيس الملوك والوزراء والعلماء على مكتبة جامع الزيتونة حتى بلغت ما بلغته الآن من الثروة العلمية. ومن اشهر المتبرعين عليها نذكر : علي باي الثالث وابنه محمد الهادي باي. ومحمد الحبيب باي والوزير محمد خزندار المتوفى سنة ١٣٠٦ للهجرة. والوزير مصطفى بن اسمعيل والقائد ابرهيم بن عباس الرزقي والشيخ المختار بن عمر شهر قبادو وغيرهم (١)

٥ ـ اختلال شؤون المكتبة الزيتونية في الاعوام الاخيرة

بعد وفاة احمد باي الاول اهمل شأن المكتبة وتبعثر جانب كبير من كتبها التي تحوي من نوادر المخطوطات ما لا اثر له الا فيها (٢) . وفي الزمان الحاضر لم يبق في مكتبة جامع الزيتونة الا ٦٩٧٥ مجلداً. وهي محفوظة في خزائن خشبية

---

(١) المجلة الزيتونية : مجلد ١ جزء ٣ صفحة ٣٨ — ٣٩
(٢) راجع كتاب « التعريف بخزينة جامع الزيتونة »

حول محراب الجامع وعلى جداريه الايمن والايسر. ويتفقدها قوّامها في كل عام تفقداً سطحياً وينفضون عنها الغبار ثم يقفلونها الى السنة التابعة. وعلى هذا النمط يتكرر عملهم حولاً بعد حول بعد حول.

وليس لهذه الخزانة نظام خاص نظراً لخطورة محتوياتها . ولا تفتح ابوابها في اوقات محدودة كسائر المكتبات العامة. واذا شاء احد ان يستعير كتاباً وجب عليه ان يقدم طلبه بالكتابة ويتمم جميع الشروط المفروضة حتى نص صيغة الطلب. ولعل الطالب اضطر ان يزور احد قوّام المكتبة في منزله ويحضره اليها لاستعارة كتاب . وكثيراً ما يبقى الكتاب لدى المستعير الى آخر السنة فيعيده الى المكتبة اثناء التفقد السنوي ثم يسترجعه بطلب آخر. ويجري على هذه الخطة بعض المستعيرين فيحتكرون الكتب النفيسة اعواماً طويلة. وقد اقترحت الصحافة نقل تلك المكتبة الى مكان لائق بها تعميماً للفائدة فلم تفلح (١)

٦ ـ ذخيرة المكتبة الزيتونية

ومجمل القول ان اغلب المجلدات المخزونة في المكتبة الزيتونية مخطوط باليد. ومن ضمنها مخطوطات نادرة وغريبة يعز العثور على مثلها في سائر المكتبات (٢).

ثالثاً ـ المكتبة العبدلية والمكتبة الصادقية

١ ـ مركز المكتبة العبدلية

تعد المكتبة العبدلية من اقدم المكتبات العامة وانظمها في المملكة التونسية. اسسها ابو عبدالله محمد بن الحسن بن محمد المسعود في اوائل المائة العاشرة للهجرة

---

(١) مكتبات المملكة التونسية : للسيد البشير الفورتي : صفحة ١

(٢) المجلة الزيتونية مجلد ١ جزء ٣ صفحة ١٣٩

فنُسبت اليه. وجعلهـــا في الرواق الشرقي من جامع الزيتونة مشرفة على جهة سوق العطارين (١)

٢ ـ اقتصار دخول المكتبة العبدلية على المسلمين فقط

للاديب التونسي الكبير السيد البشير الفورتي نبذة تاريخية انشأها عن المكتبات العربية في المملكة التونسية اجابة الى طلبنا. وقد كتبها بخط يده وبعث بها الينا فاستحق شكر اهل الادب وثناءهم. ومما اثبته عن المكتبة العبدلية قوله :

«تحتوي الخزانة العبدلية على كتب خطية ذات اهمية كبرى عددها نحو ٤٧٣٠ مجلداً يقصدها العلماء والادباء كل يوم . ولا عيب فيها الا ان بابها يفتح لداخل جامع الزيتونة فلا يقـــدر ان يذهب الا مسلم متطهر . وهناك كثير من المستعربين والمستشرقين لا يعرفونها الا بالوصف . ولو كانت في غير مكانهـــا لافادت العلم واستفاد منها العلماء على السواء (٢) . »

٣ ـ احتذاء محمد الصادق بالخديو اسمعيل في جمع مخطوطات المساجد وانشاؤه المكتبة الصادقية

عُرفت المكتبة العبدليـــة في الاصطلاح الرسمي بالمكتبة الصادقية نسبة الى محييها بعد اندراسها اعني الباي محمد الصادق عاهل تونس (١٨٦٠ ـ ١٨٨٢). وكان شديد الاعجاب بخديو مصر اسمعيل باشا الذي انشأ المكتبة الخديوية مما جمعه من المخطوطات المبعثرة في المساجد والمدارس المصرية . فاحب الباي ان يحتذي مثال الخديو فاصدر الاوامر بجمع ما تيسر له بن المخطوطات المحبسة من سالف

(١) المجلة الزيتونية : مجلد ١ سنة ١٩٣٦ صفحة ٧٣

(٢) البشير الفورتي : المكاتب العربية في المملكة التونسية : صفحة ٢

الزمان على المساجد والمدارس والاضرحة في عاصمة المملكة التونسية وفي سائر انحائها . وكان لوزيره الاكبر خيرالدين باشا اليد الطولى في تحقيق هذه الامنية مثلما كان علي باشا مبارك اعظم مساعد لاسمعيل باشا في تأسيس المكتبة الخديوية عام ١٨٧٠

٤ ـ تبرع الكبراء والادباء على المكتبة الصادقية

برزت المكتبة الصادقية للوجود عام ١٨٧٥ واخذت الهدايا تتوالى عليها من كل جانب . نذكر منها الف مجلد تبرع بها الوزير خيرالدين باشا من خزانة كتبه الخاصة . ومنها كتب آل بيرم وعليها الشيء الكثير من التعاليق والحواشي بخطوطهم. ومنها خزانة كتب محمد داود احد عظماء الدولة التونسية في عهد المشير احمد باي. ثم خزانة كتب الشيخ الشاذلي بن ضيف وخزانة كتب الحاج صالح بن عمار الحداد المزابي. وقس على ذلك كتباً اخرى نفيسة وقفها احمد باي الثاني ملك تونس الحالي وغيرهم (١) .

وقد عهد الباي محمد الصادق الى العلامة التونسي الشيخ محمد بيرم الخامس امر تنظيم المكتبة الصادقية. فقام الشيخ بهذه المهمة خير قيام ونجحت المكتبة بادارته نجاحاً تاماً (٢) .

رابعاً : سائر المكتبات العامة في تونس

١ ـ المكتبة الخلدونية

تأسست عام ١٩٠١ بسعي قدماء تلامذة المدرسة الخلدونية . فاهدى اليها

---

(١) المجلة الزيتونية : مجلد ١ جزء ٣ صفحة ١٣٨ (٢) كتاب صفوة الاعتبار بمستودع الامصار والاقطار للشيخ محمد بيرم الخامس : ذيل الجزء الخامس ـ صفحة ي

الكبراء والعلماء كتباً كثيرة ولا سيما سيدي بوحاجب الوزير الاكبر في تونس .
ولما حدثت الحرب العظمى (١٩١٤ – ١٩١٨) توقفت اعمال هذه المكتبة واستغرقت في سبات عميق حتى السنة ١٩٢٧ فاستيقظت واستأنفت سيرها (١) . وقد ارصد لها مجلس ادارتها مبلغاً سنوياً من المال لشراء الكتب العصرية والمجلات العلمية تعميماً لفوائدها بين طبقات الامة . ولا تخلو الخزانة الخلدونية من بعض مخطوطات عربية لها شأنها لدى العلماء وارباب البحث (٢) وقد اهدينا الى هذه المكتبة طائفة من الكتب العربية التي نشرتها مطابع بيروت ولبنان.

٢ ـ المكتبة العمومية

هي مكتبة عصرية انشأتها حكومة تونس بايعاز الدولة الفرنسية الحامية وجعلت مركزها في بناء قديم بسوق العطارين . وكان هذا البناء في غابر الزمان ثكنة للاجناد ثم تحول بعد ذلك الى سجن عمومي . وانفقت الحكومة على هذه المكتبة الوف الالوف من الفرنكات وعينت لها اميناً من كبار علماء الفرنسيس يقوم بادارتها وتنظيمها . وهي تشتمل على قسم عربي غني بالكتب الوافرة العدد والجديرة بالاعتبار .

وفي هذه الاعوام الاخيرة اقفلت ابواب المكتبة وحظر على الجمهور الدخول اليها او الانتفاع منها ريثما يتم تنظيمها . فالكتب هناك مكدسة بعضها على بعض في الدهاليز لا تُقرأ ولا تعار بل يخشى عليها بتوالي الايام ان تأكلها السوسة او تعيث فيها الحشرات. تلك بلا ريب جناية على العلم لا يُتسمح بها.

٣ ـ مكتبة جمعية قدماء المدرسة الصادقية

انشئت هذه المكتبة في اوائل القرن التاسع عشر بهمة قدماء طلبة المدرسة

---

(١) نشرة الجمعية الخلدونية : سنة ١٩٣٠ صفحة ١٤٨ (٢) مكاتب المملكة التونسية: صفحة ٣

الصادقية . وقد كوّنها اهل الفضل بما نفحوها من الاسفار العديدة والمخطوطات الثمينة . ومما لا يجوز التغاضي عن ذكره في هذا المقام كتب نفيسة انتقاها السيد مصطفى بيرم من خزانة والده الشيخ محمد بيرم الخامس وبعث بها من القاهرة الى تلك المكتبة . فانها انطوت على عيون المخطوطات وغرائبها منها تفسير ابن عادل وهو من الكتب النادرة . واشترط السيد مصطفى انه اذا انحلت جمعية قدماء المدرسة الصادقية وجب ان ترجع تلك الكتب الى المكتبة العبدلية (١)

ولاتزال مكتبة جمعية قدماء المدرسة الصادقية في قيد الحياة على رغم ما اصابها من اهمال قوّامها وتفريطهم . وكادت تتلاشى في زمان الحرب العظمى (١٩١٤ — ١٩١٨) لو لم تتداركها الجمعية الخلدونية وتحافظ عليها محافظتها على مكتبتها الخاصة . ولما وضعت الحرب اوزارها رجعت الى جمعية قدماء المدرسة الصادقية حياتها فاسترجعت كتبها واستأنفت اعمالها كأمس وما قبل (٢)

---

(١) المجلة الزيتونية : مجلد ١ جزء ٣ صفحة ١٣٩ (٢) المكاتب العربية في المملكة التونسية : صفحة ١٠

الفصل الثامن والعشرون

خزائن كتب الجزائر او المغرب الاوسط

اولا : مكتبات المدارس

ليس في القطر الجزائري مكتبات اسلامية عامة كسائر حواضر الاسلام التي ما برحت محتفظة بخزائن كتبها منذ سالف العصور . وحسبنا ان نخص بالذكر منها : مكتبة الازهر في القاهرة، ومكتبة القيروان ومكتبة جامع الزيتونة في تونس. ومكتبة القرويين في فاس. ومكتبة الامام علي في النجف وغيرها.

وكل ما هنالك مكتبات شبه عامة انشئت في بعض المدارس بالجزائر لتخريج القضاة وارباب الفتوى واساتذة الفقه طبقا للمذهب المالكي السائد في تلك الاقطار. وهي مكتبات ضئيلة تكاد لا تفي بحاجة من يعنيهم امرها من الطلاب والمشايخ وغيرهم ممن يؤمونها لا لتحصيل العلوم الشرعية فقط بل العلوم العصرية أيضاً. واهم تلك المدارس ثلاث انشئت عام ١٨٥٠ على اصول الانظمة الحديثة وهي : مدرسة الجزائر (العاصمة) ومدرسة قسنطينة ومدرسة تلمسان. وقد تثقف فيها رهط كبير من اعلام المسلمين ومشاهير الفرنسيس المستعربين يطول بنا سرد اسمائهم (١)

لا ريب في ان مكتبات المدارس المذكورة لم تكن وافية بالمرام كالمكتبات الفنية التي انشأها ملوك المسلمين في العصور الوسطى. غير انها تنطوي على اكثر ما يفتقر اليه الباحثون من كتب في شتى المواضيع العربية الاسلامية ولا سيما ما كان منها متعلقاً بشؤون شمال افريقيا . وفي مكتبة مدرسة قسنطينة خزانة مخطوطات جمعت قديماً من مساجدها ووضعت فيها حرصاً عليها من الضياع. وبينها

---

(١) راجع اسماء بعض اولئك العلماء في كتاب La Lecture Publique صفحة ٤٦٤

طائفة من الكتب نادرة ونفيسة قد انشأ لها الاستاذ ميزا (M. Maiza) فهرساً لم يزل غير مطبوع. اما مكتبتا مدرسة الجزائر (العاصمة) ومدرسة تلمسان فالاولى تضم بضع ثلاثين مخطوطاً وتنطوي الثانية على مائة وعشرة مخطوطات.

ثانياً: المكتبة العربية في بون

اشتملت مدينة بون في سالف الزمان على خزانة كتب معتبرة حافلة بالوف المخطوطات انشأتها اسرة لنغيش الشهيرة التي ما برحت سلالتها معروفة حتى اليوم. والى هذه المدينة ينتسب العلامة البوني احد هواة الكتب الذي خلف مكتبة عظيمة بعثرتها يد الحدثان. وقد وردت ترجمته في كتاب « تعريف الخلف برجال السلف » تأليف الشيخ الحفناوي المفتي المالكي في الجزائر.

وفي مدينة بون لعهدنا هذا مكتبة اسلامية عامة تابعة لجامعها الاعظم المشهور بجامع الباي. وقد خصصتها الحكومة باعتماد مالي تؤديه سنويا لمشترى الكتب الضرورية والمفيدة (١)

ثالثاً: المكتبة الاسلامية في بوجي

تأسست هذه المكتبة عام١٩٠٣ في عمارة جديدة قريبة من جامع سيدي صوفي. وكل ما احتوته من الكتب تتناول مواضيعها الشرع المحمدي والعلوم القرآنية واللغة والادب. وفيها كذلك شيء من كتب الفلسفة والتاريخ والجغرافية والتراجم. وقس عليها بعض موسوعات ومجموعات ومعاجم ومؤلفات اساسية لا تستغني عنها خزانة كتب عامة في هذا العصر. وهي برمتها قد اشترتها الدولة بمالها الا ما ندر منها مما اتصل بها من تحابيس قديمة حبست على مكتبة جامع مدينة بوجي. ولا تنحصر فائدة هذا المعهد العلمي في المترددين اليه من سكان مدينة بوجي

M. Dournon : Bibliothèque Arabe de Bone, p. 478-481 (١)

بل تتعداهم الى رواد العلم من اهالي الاقاليم المجاورة ايضاً. وهكذا قد اصبحت فوائدها عمومية تشمل الاستاذ والتلميذ والقريب والبعيد (١)

رابعاً : المكتبة البادیسیة في قسنطينة

كان الحاج عبد الحميد بن باديس إمام الدروس في الجامع الاخضر بمدينة قسنطينة . فخلف بعد وفاته سنة ١٣٥٩ ﻫ (١٩٤٠ م) خزانة كتب عامرة بآثار جليلة من مؤلفات وخطب ومقالات وبحوث وفتاو وما الى ذلك . وقد عهد والده السيد محمد مصطفى الى الاستاذين عبد الحفيظ الجنان واحمد بوشمال في جمع تلك المخلفات العلمية وتنظيمها طبقاً للاصول الفنية . لانه اعتزم ان يجعلها مكتبة عامة ويدعوها « المكتبة الباديسية » احياء لذكر ابنه عبد الحميد . وتعميماً للمعارف بين جميع طبقات الامة تعهد القائمان على امر هذه المكتبة ان يطبعا من تلك المخطوطات ما فيه فائدة للخاص والعام (٢)

---

(١) M. Saadi-Chérif : Bibliothèque Arabe de Bougie (La Lecture Publique) p. 481 - 484

(٢) جريدة « الوفاق » في وهران بالجزائر : سنة ٣ عدد ٣٧ تاريخ ٣٠ تموز ١٩٤٠

الفصل التاسع والعشرون

خزائن كتب المغرب الاقصى في العصور الغابرة

اولاً : مكتبات المساجد والزوايا

كانت المكتبات العامة بمعناها العصري مجهولة في المغرب الاقصى قبل نشر الحماية
نسية . غير ان المساجد العظمى والزوايا الكبرى حفلت بخزائن كتب حبسها
لفاء والعلمـــاء والموفقون من اهل البر وسجلوا التحبيس عليها . فكانت تلك
زائن بمثابة مكتبات عامة يرتادها طلاب المعارف ويرتشفون من مناهلها الفياضة.
واعظم هذه الخزائن خزانة جامع القرويين في حاضرة فاس وسنأتي بعد هذا
وصفها مفصلاً . ومن اشهر الخزائن الحبسية التي لا يزال فيها بقيـة مخطوطات
ية نورد ما يلي : خزانة جامع ابي يوسف في مراكش . وخزانة الزاوية العباسية
زانة الجامع الاعظم وخزانة جامع النوّار في مكناس . وخزانة جامع الاندلس
فاس . وخزانة الجـامع الاعظم فى تازه وهي تحوي نحو اربعة آلاف مجلد منها
نب يشتمل على نفائس المخطوطات . والخزانة الحبسية في رباط الفتح. وخزانة
اوية الحمزاوية . وخزانة الزاوية الناصرية وغيرهما كثير في بلاد المغرب .
الا ان معظم تلك الخزائن تبعثر وتلاشى بتعاقب الازمان اذ حل من الرزايا
حل بخزائن الكتب في سائر الاقطار العربية . وقد ألمعنا الى ذلك في باب عنوانه
رزايا الكتب والمكتبات » يجدر بالقارىء اللبيب ان يطالعه في محله .
وكان ملوك المغرب على اختلاف دولهم يمدّون تلك الخزائن الحبسية بتصانيف
نة قد يكون بعضها من خزائنهم الملكية الخاصة رغبة منهم في نشر الثقافة بين
عموم . وما برحت الكتب التي حبسها الملوك المرينيون والسعديون والعلويون
روفة ومسجلة بتواقيعهم حتى الان. ويذكر التاريخ ان السلطان سيدي محمد بن

عبدالله العلوي (١١٧١ – ١٢٠٤ هـ) فرّق خزانة الكتب المخطوطة التي ورثها عن جده السلطان اسمعيل (١٠٨٢ – ١١٣٩ هـ) بمكناس على مساجد المغرب . وقد صنع ذلك لينتفع بها الطلاب والعلماء فلا تبقى مكدسة في الخزائن السلطانية. وكانت تشتمل تلك الخزانة على اثني عشر الف مجلد.

هذا ماكانت عليه بوجه الاجمال حالة المكاتب العامة قبل نشر الحماية الفرنسية في المغرب الاقصى. ولم تفكر الحكومة المغربية في تأسيس مكتبة عامة على النمط العصري الا بعد السنة ١٩١٩

ثانياً: مكتبات فاس

١ ـ مكتبة جامع القرويين

اول مكتبة أنشئت في مدينة فاس هي بلا ريب مكتبة جامع القرويين قد ابتُني عام ٢٤٥ للهجرة بمال السيدة ام البنين فاطمة بنت محمد الفهري. وهو يضاهي جامع القيروان في سعته. اما واجهته فمركبة على مائتي اسطوانة بين كل اسطوانتين خمس خطوات .

روى المستر نيفل باربر المستشرق الانكليزي ان اسم جامع القرويين يشتق من اسم مدينة القيروان. وحجته في ذلك ان المسلمين عندما عمروا مدينة فاس ادخلوا اليها العلوم والفنون التي نقلوها معهم من الشرق. ونهضوا بها هناك نهوضها الزاهر في القيروان والاندلس. ولا يزال نصف مدينة فاس معروفاً باسم « الحي الاندلسي » كما ان النصف الآخر يسميه الأهلون الى يومنا « حي المهاجرين » من القيروان (١)

ونرجّح ان مكتبة جامع القرويين لاتقل عنه قدامة فتكون والحالة هذه أقدم

---

(١) لمحة تاريخية عن مراكش وجغرافيتها بقلم نيفل باربر (مجلة المستمع العربي في لندن عدد ١ سنة ١ صفحة ١٠)

جميع المكتبات الاسلامية الحيّة. وما برحت منذ احد عشر قرناً ونيف مساهمة في خدمة الثقافة . ومن المعلوم انها لاول عهدها كانت صغيرة ثم اخذت تنمو وتزيد حقبة بعد حقبة بنسبة اتساع جامع القرويين وزيادة بنيانه وجهود السلاطين في انتاج رجال علماء من كليته. وقد بلغت المكتبة أوج عزها في القرن الثامن للهجرة كما ورد مفصــــلا في كتاب « القرطاس » لابن ابي زرع وكتاب « زهرة الآس » للجزنائي وكتاب « جذوة الاقتباس في من حلّ من العلماء بفاس » لابن القاضي المكناسي (١). وكتاب « جذوة الانفاس في من أقبر من العلمـاء بفاس » وهو للشريف الكتاني .

بلغ الجامع كماله فاتى دور المصالح والمنافع والمرافق الملحقة به من فسقيات وميضآت ومستودعات وخزانات ومقاصير ومدارس وما اليها . واهم ذلك خزانة الكتب التي أسسها فيه السلطان ابو عنان فارس المريني واودعها كما يقول الجزنائي: « من الكتب المحتوية على انواع علوم الابدان والاديان واللسان والاذهان وغير ذلك من العلوم على اختلافها وتنّوع ضروبها واجناسها . ووقفها ابتغاء الزلفى ورجاء ثواب الله الاوفى . وعين لها قيّماً لضبطها ومناولة ما فيها وتوصيلها لمن له رغبة . واجرى له على ذلك جراية مؤبدة تكرمة وعناية وذلك في جمادى الاول سنة ٧٥٠ للهجرة ».

وأسس ابو عنان المريني عينه خزانة مصاحف احتفل في بنائها وتشييدها بمـا لم يُسبق اليه . واعد فيها جملة كثيرة من المصاحف الحسنة الخطوط وكلف بهـا من يتولى امرهـا على احسن الشروط . ثم لم تزل الملوك والسوقة تقف الكتب على خزانة القرويين بعد ذلك حتى اجتمع بها من المجلدات العلمية والدينية ما لا يدخل تحت حصر ولا يستوفيه عد ولا حساب (٢)

---

(١) النبوغ المغربي في الادب العربي : لمؤلفه عبدالله جنون الحسيني : جزء ١ صفحة ١٨٦ - ١٨٧ (٢) مجلة « الرسالة » في القاهرة : سنة ٦ صفحة ١١١٠ - ١١١٢

وفي مكتبة جامع القرويين بمدينة فاس نسخة من المدونة في ثمانين مجلدا كتبها بخطه عبدالملك بن مسره اليحصبي شيخ ابن رشد (١) ويُقرأ في نهايتها هذا البيت :

بالله يا قارىء استغفر لمن كتبا   فقد كفتك بداهُ النسخ والتعبا

٢ ـ مكتبة السلطان ابي يوسف يعقوب

ووجدت في فاس عاصمة المغرب الاقصى خزانة كتب انشأها السلطان ابو يوسف يعقوب (٥٥٤ – ٥٩٥ هـ) بن عبد الحق . فانه عندما عقد معاهــدة الصلح مع الفونسو التاسع بن سنخو ملك قشتالة سنة ٥٩٤ للهجرة (١١٩٧ م) كان من جملة الشروط ان يرد الاسبان كتب العلم التي غنموها من المسلمين . فرد منهـا الملك الفونس التاسع (١١٥٧ – ١٢١٣ م) ثلاثة عشر حملا من المخطوطات (٢) فامر السلطان بتحبيسها على المدرسة التي بناها بمدينة فاس لكي يطالعها الطلبة ويستفيد منها الباحثون (٣)

٣ ـ مكتبة الاشراف السعديين

كان للاشراف السعديين في فاس مكتبة عامرة بالمخطوطـات القديمة في شتى الفنون اتى على وصفها الاستاذ محمد عبدالله عنان قال (٤) :

ولقد كان المغرب الاقصى حتى عصر المقري اعظم مستودع لتراث الاندلس الادبي . وكانت مكاتب المغرب، ولا سيما مكتبة الاشراف السعديين عامرة الى ذلك العهد بكثير من الآثار الاندلسية النادرة . وكان لمولاي زيدان سلطان فاس

---

(١) مجلة « الرسالة » في القاهرة : سنة ٢ صفحة ٢١٣١   (٢) روى بعض المؤرخين انها كانت ثلاثة احمال فقط من المخطوطات والله اعلم   (٣) الاستقصاء لاخبار دول المغرب الاقصى : للشيخ احمدبن خالد الناصري السلاوي: جزء ٢ صفحة ١٥٤   (٤) المقري مؤرخ الاندلس، حياته وتراثه بقلم محمد عبدالله عنان

لعهد المقري شغف خاص بجمع الكتب النادرة، وقد انتفع المقري بهذا التراث الحافل ، واغترف منه وقيد ما شاء . ولكن الظاهر ايضاً ان هذا التراث قد بدد معظمه بعدئذ بقليل. ذلك انه قد حدث في اواخر عهد مولاي زيدان حادث يخيل الينا انه ذو علاقة مباشرة بضياع الآثار الاندلسية. وذلك ان السفن الاسبانية اسرت مركباً مغربياً مشحوناً بآلاف من الكتب والتحف المملوكة لمولاي زيدان وحملت شحنتها الى اسبانيا. ويشير السلاوي في تاريخه الى ذلك الحادث نقلا عن الرواية الاسبانية فيقول : « وقال منويل ان قراصين الاسبنيول غنمت في بعض الايام مركباً للسلطان زيدان فيه آثار نفيسة من جملتها ثلاثة آلاف سفر من كتب الدين والادب والفلسفة وغير ذلك ». وتقول الرواية الاسبانية ان وقوع هذا الحادث كان في عهد فيليب الثالث ملك اسبانيا (١٥٩٨ - ١٦٢١ م). والظاهر انه وقع نحو سنة ١٠٣٠ ﻫ (١٦٢٠ م) حينما اشتد اضطراب العلائق بين اسبانيا والمملكة الشريفية. وعلى اي حال فقد حملت كتب مولاي زيدان وهي بلا ريب انفس مجموعة من نوعها الى اسبانيا وأودعت في دير الاسكوريال الى جانب بقية التراث الاندلسي التي كانت مودعة فيه منذ سقوط غرناطة . فاجتمع بذلك في الاسكوريال نحو عشرة آلاف مخطوط عربي معظمها من تراث الاندلس. ولكن محنة نزلت بهذا التراث النفيس. فقد شبت النار في الاسكوريال سنة ١٦٧١ والتهمت معظم الكتب العربية . ولم يبق منها سوى الفين، وبقيت ضمن هذه المجموعات عدة من كتب مولاي زيدان لا تزال الى يومنا في الاسكوريال.

٤ ـ مكتبة الجامع الاعظم الجديد

وكان السلطان ابو العز الرشيد (١٠٧٥ - ١٠٨٢ ﻫ) من انجب سلاطين المغرب واعطفهم على العلم والعلماء . فانه اسس في فاس خزانة كتب في الناحية الجنوبية من الجامع الاعظم الجديد وحبس عليها مخطوطات نفيسة . يؤيد ذلك ما نقش باحرف بارزة في اعلى المحامل التي رصفت عليها تلك المخطوطات وهذا نصه :

« الحمد لله حق الحمد . هذه خزانة امر بصنعها وانشائها الامام الاوحد الهمام امير

المؤمنين ، المتوكل على رب العالمين ، مولانا الرشيد بن مولانا الشريف بن مولانا علي الشريف الحسني ايد الله امره واعزه بعزه بتاريخ فاتح شهر الله الحرام عام تسعة وسبعين والف (١) »

وظل السلاطين خلفاؤه يعطفون على خزانة القرويين ويعززونها بالتصانيف القيمة حتى قام صاحب الجلالة السلطان الحالي مولاي محمد بن يوسف سنة ١٣٤٦ للهجرة . فجرى على سنن اسلافه في تحبيس الكتب المفيدة على المساجد ولا سيا على الخزانة القروية التي امر بتنظيمها على نمط عصري لصيانة ذخائرها الثمينة . وقد شيد لها ثلاثة بيوت زيادة على الخزانة الكبرى القديمة : خصص احدها بالكتب المطبوعة وثانيها بالمخطوطات الصغيره الحجم وثالثها بالآلات والادوات اللازمة للخزانة . ثم وسع قاعة المطالعة واصلح قبة الخزانة الكبرى بعدما كان الخراب يتهددها منذ اعوام (٢)

ثالثاً : مكتبة الحكمة في مراكش

١ ـ النهضة العلمية في خلافة يوسف بن عبد المؤمن

لا ريب ان مراكش على عهد الخلفاء الموحدين في القرن السادس للهجرة خلفت بغداد وقرطبة في نهضتها العلمية . واعظم خليفة في الدولة الموحدية طمحت نفسه الى علوم اللغة والحكمة والرياضة والطب كان يوسف بن عبد المؤمن (٥٣٣ ـ ٥٨٠هـ) الذي احرز منها قسطاً وافراً لم يبلغه احد من اهل عصره . فانه ضم اليه العلماء والحكماء من أقاصي البلاد واسبغ عليهم النعم السخية والعطايا الكثيرة . وكان يحبهم حباً لا يدع له سبيلاً الى مفارقتهم الا في اوقات الضرورة .

ولما كانت نفسه نازعة الى علوم الحكمة اخذ يجمع كتبها بوجه خاص ثم خطا بعد ذلك خطوات واسعة في جمع الكتب والدفاتر من جميع الاقطار . فاوفد

---

(١) الدرر الفاخرة : صفحة ١٣ و ١٤ (٢) الدرر الفاخرة : صفحة ١٦٦ - ١٦٨

الرسل الى شتى البلدان وبذل الاموال الوافرة في اقتناء المخطوطات على اختلاف اصنافها حتى اجتمع لديه في « مكتبة الحكمة » قريب مما اجتمع للحكم المستنصر في قصر الحمراء .

٢ ـ مضاهاة مكتبة مراكش مكتبتي قرطبة وبغداد

لم يزل الخليفة يوسف بن عبد المؤمن مجداً في جمع الكتب من اقطار المغرب والاندلس باذلاً في سبيلها كل غال وعزيز. فاوفد لذلك رجالا حتى اجتمع له مكتبة عظيمة ضاهت مكتبة الحكمة بقرطبة ايام الحكم المستنصر او « بيت الحكمة » ببغداد ايام المأمون. فكان إمامنا هذا ماشياً في مضمار هذين الامامين عاملاً على غرارهما من تقريب اهل العلم وترفيع شأنهم والسعي للجمع بين الفلسفة والشريعة. ولم يشهد المغرب عصراً كعصر الموحدين في تآخي الشريعة والفلسفة وتمشيها جنباً الى جنب.

٣ ـ تفاني ابي العباس الانصاري في خدمة مكتبة الحكمة

يقول غير واحد من المؤرخين كابن فرخون (٧٩٩ هـ) الاندلسي وابن الخطيب ان خدمة المكتبة العلمية عند الموحدين كانت من الخطط النبيهة التي لا يُعين لها الا الاكابر من علية اهل العلم . ومن ثم الزم إمامنا هذا ابا العباس احمد بن عبدالرحمن بن الصقر الانصاري بخدمة هذه المكتبة اذ كان من الافراد الافذاذ في معرفة الكتب وجمعها . وكانت مواهب رجال الدولة له جزلة واعطياتهم له مترادفة كثيرة . قطع عمره في جمع الكتب على اختلاف اصنافها ولم يزل خادماً للمكتبة مضطلعاً باعبائها الى ان توفي بمراكش سنة ٥٦٩ للهجرة (١). وكان ابن الصقر من ادق العلماء نظراً في كثير من الفنون. وقد استنسخ لتلك الخزانة طائفة عظيمة من المجلدات الضخام مما دل على اخلاصه في الخدمة وتفانيه في سبيل العلم (٢).

---

(١) المعجز في تلخيص اخبار المغرب : تأليف عبد الواحد التميمي المراكشي (٢) النبوغ المغربي في الادب العربي : تأليف عبدالله جنون : صفحة ٦٦

رابعاً : مكتبات مكناس

١ـ الخزانة الاسمعيلية

مكناس ويقال لها ايضاً « مكناسة الزيتون » كانت من عواصم المغرب الاقصى في سالف الزمان . وهي واقعة على نهر فلفل وفيها ينشد الشاعر :

انظر الى مكناسة الزيتون   بين الاباطح والجبال الجون
وكأن فلفل بينهن مهند   يهتز بين تعطف وسكون

وقد اتخذ بعض السلاطين مدينة مكناس عاصمة لملكهم فشيدوا فيها من القصور والمساجد والمدارس والمكتبات ما لا تزال آثاره ظاهرة حتى اليوم. وكان اكبرهم شأناً واوسعهم شهرة السلطان ابو النصر اسمعيل (١٠٨٢ – ١١٣٩ هـ) الذي استوى على العرش سبعة وخمسين عاماً . فضاهى بدهائه وحسن تدبيره من عاصره من ملوك اوروبا ولا سيما لويس الرابع عشر (١٦٤٣–١٧١٥) ملك فرنسا. فان هذا الملك قد استغرقت مدته اثنتين وسبعين سنة. ولا يروي التاريخ قديماً وحديثاً اسم ملك من ملوك الارض استوى اكثر منه على عرش سلطنته (١).

ويروى عن هذا السلطان انه اعتنى بجمع الكتب وبذل كل غال ورخيص في سبيل تحصيلها . وقد حوت خزانته من التصانيف وجمعت من اشكال الدفاتر والتآليف ما لم تحوه خزانة بغداد (٢) في عصر العباسيين. ولشدة ولعه بالعلم كان ينتقي الخطاطين المتقنين لنسخ الكتب الثمينة ويجري عليهم الجرايات الضافية . وابتنى لهم ديواناً خاصاً بنسخ الكتب في بلاطه السلطاني. وكان يغاديهم ويراوحهم فيه كل يوم يفيض عليهم سجال العطايا ويمنحهم عقارات هامة ودورا رحبة. واقتفى

---

(١) علاقات ملوك فرنسا بملوك العرب: بقلم فيليب دي طرازي ص ٦

(٢) عن كتاب (سنا المهتدي في ترجمة فخر وزراء الدولة الاسماعيلية ابن الحسن اليحمدي) وهو كتاب ادب نفيس وضعه ابو الحسن علي الزرويلي

اثره في كل ذلك بنوه واحفاده من بعده ولا سيما السلطان مولاي الحسن (١٢٩٠-١٣١١هـ) فانه كان له نسّاخون بارعون يلازمون ابوابه ظعناً واقامة ولا يفارقونه الى ان ختمت انفاسه (١)

وكان مركز «الخزانة الاسمعيلية» في جامع الانوار الذي اسسه مولاي السلطان اسمعيل بمكناس عام ١١٠٧ للهجرة. وقد وصفها العلامة عبد الرحمن بن زيدان (٢) قال:

«ومن محاسن هذا الجامع ان اسند اليه بربعه القبلي من حيث اتصاله بالربع الشرقي خزانة مشتملة على قبتين قائمة حلقتها على اربع قوائم من الرخام . وبها من الكتب العلمية الوف عديدة مما لا ينطبق وصفه الا على جامع الانوار المعروف بهذا الاسم الآن. وذلك الانطباق وقت شبابه وقبل انقلابه وايابه . اما بعد ذلك فلم يبق من دلائل ذلك الانطباق الا شهرته قديماً وحديثاً بجامع الانوار مع ما ادركناه من بقايا دار الوضوء الموصوفة في الجهة الشرقية الى ان استأصلتها الدولة الحامية (٣). ومع بقايا خزانة الكتب الموصوفة في كلام «زهر البستان» فان بابها بالمحل المعين في كلام زهر البستان مع ما سمعته من والدي عن والده رحمهما الله ان تلك الباب هي باب خزانة الكتب الاسمعيلية التي فرّق السلطان سيدي محمد بن عبدالله كتبها على مساجد المملكة (٤) »

---

(١) الدرر الفاخرة بمآثر الملوك العلويين بفاس الزاهرة: ص ٣٩ - ٤٠

(٢) اتحاف الناس بجمال اخبار حاضرة مكناس : جزء ١ ص ١٦٠

(٣) المراد بالدولة الحامية هنا دولة الجمهورية الفرنسية التي احتلت احد قسمي القطر المغربي في صدر القرن العشرين وجعلته تحت حمايتها

(٤) كانت خزانة الكتب الاسمعيلية تشتمل على اثني عشر الف مخطوط كما ورد في مقال عنوانه «المكاتب العمومية بالمغرب الاقصى» نشرت في جريدة «السعادة» بالرباط : مجلد ٣٥ تاريخ ٢٢ دجنبر ١٩٣٨

٢ ـ مكتبة الجامع الاعظم

وفي مكناس مكتبة اخرى اقدم من الاولى اتى على ذكرها المؤرخ نفسه مولاي بن زيدان قال (١) : « وفي الجهة الغربية من الجامع الاعظم المكتبة العلمية الجامعة لمحاسن الكتب القديمة لولا اختلاس جل نفائسها ومد اليد العادية في ذخائرها الثمينة. واضاعة باقيها من ولاة الاحباس بعدم التعاهد والاصلاح اولا وتعطيل منفعتها بغلق ابوابها على القراء ثانياً . حتى آل الامر بسبب ذلك الى ان صار الكثير مما بقي من كتبها التي يعز ان توجد في غيرها الى حد لا ينتفع به اصلاً لتمزقه وتلاشيه ووضعه في محل الكناسة والازبال . وذلك من المفاسد التي تباح ومن العظائم التي اوقعته في الجناح . مع كون جانب الحبس عنها وبتجديد ذلك ورده الى حال شبابه ملياً » .

خامساً : مكتبات سبتة وسائر مكتبات المغرب الاقصى

١ ـ استيلاء الاسبان على سبتة ونقلهم الكتب منها

قال الوزير لسان الدين ابن الخطيب : « كانت في سبتة (٢) خزانة كتب العلوم وكذلك في مكناسة الزيتون خزانة كتب » . ولما استولى الافرنج (الاسبان) على سبتة عام ٨١٧ للهجرة (١٤١٤ م) حملوا منها كل ما وجدوه فيها حتى كتب العلم وكانت كثيرة . وقد ألف فيها القاضي ابو الفضل عياض (٤٩٦ ـ ٥٤٤ هـ) بن موسى اليحصبي كتاب « العيون الستة في اخبار سبتة » .

---

(١) اتحاف اعلام الناس بجمال اخبار حاضرة مكناس : جزء ١ صفحة ١٠٥

(٢) سبتة مدينة ساحلية في شمال مراكش . كانت تابعة لخلفاء الاندلس بينها وبين جبل طارق ١٦ كيلومتراً . وهي تبعد عن مدينة فاس شمالا ٢١٠ كيلومترات

٢ ـ بعض مشاهير علماء سبتة

ممن رفعوا لواء الادب في سبتة الشاعر الاسرائيلي ابرهيم بن سهل الاندلسي الاشبيلي (٦٠٥ ـ ٦٤٩ هـ). ويروى عنه انــه دان بالاسلام فاتخذه ابن خلاص صاحب سبتة كاتباً في ديوانه وماتا كلاهما غريقين معاً في وقت واحد (١). ومنهم محمد بن محمد بليش العبدلي الغرناطي النحوي كان فاضلًا متضلعاً باللغة العربية عاكفاً عمره على تحقيقها . وقد برع بالطب وأثرى من التكسب بالكتب وحلت وفاته سنة ٧٥٣ للهجرة . ومنهم كذلك ابو بكر عبدالرحمن السبتي صاحب « شرح الرحبية » . ومنهم الشريف ابوالقاسم محمد بن احمد الحسيني السبتي (٦٩٧ـ٧٦٠هـ) رئيس العلوم اللسانية بالاندلس (٢). وابوالعباس السبتي واضع علم الزايرجة وغيرهم (٣)

٣ ـ سائر مكتبات المغرب الاقصى

ما عدا الخزانتين اللتين اتينا على ذكرهما في صدر هذا الفصل فقد أنشئت في سالف الزمــان خزائن كتب جمّة في سائر مدن المغرب الاقصى . لأن مساجده وقصور اشرافه ودور علمـائه كانت تحفل بالآثار الكتابية التي نقلها المسلمون اثناء نكبتهم الاندلسية وجلائهم الى شمال افريقيـا . الا انها تبعثرت وتلاشت بتعاقب الازمان اذ حلّ بها من الزرايا ما حل بخزائن الكتب في سائر الاقطار العربية . وقد المعنا الى بعضها في كلامنا عن « رزايا الكتب والمكتبات » . ومما يدعو الى الاسف الشديد انه لم يبقَ من تلك الثروة العلمية بديار المغرب الا جانب ضئيل لا يؤبه له . وعلى رغم ما بذلنــاه من الجهود في البحث والاستقصاء لم نتوفق الى الوقوف الا على الشيء اليسير من اخبار تلك المكتبات التي بادت وكادت تكون اثراً بعد عين .

---

(١) فوات الوفيات : مجلد ١ صفحة ٢٣ (٢) نفح الطيب: للمقري جزء ٣ صفحة ١٠٢-١٠٨
(٣) مجلة « الضاد » بحلب : مجلد ٨ سنة ١٩٣٨ صفحة ٣٩٤

الفصل الثلاثون

مكتبات المغرب الاقصى في الزمان الحاضر (١)

اولا : المكتبة العامة في الرباط

١ ــ نواة المكتبة العامة وما ضُم اليها من المكتبات

انشأها المرشال ليوطي سنة ١٩١٩ وجعل نواتها خزانة كتب معهد الدروس المغربية العليا بالرباط . وانطوت هذه الخزانة على مؤلفات ووثائق ونصوص تتعلق بالقطر المغربي مما كان اساتذة المعهد المذكور محتاجين اليه في دروسهم . وليس من السهل اقتناء مثل هذه المجموعة في الزمان الحاضر لما يعانيه الباحثون عنها من المصاعب الجمة . وقد نقلت المكتبة عام ١٩٢٤ الى مركز جديد بني لها في شارع بياريني وعهد في تنظيمها على النمط العصري الى ذوي الاختصاص والكفاءة .

وفي اول تشرين الثاني ١٩٢٦ صدر مرسوم ادرجت بموجبه هذه المكتبة في مصاف المعاهد العلمية العمومية . وعام ١٩٣٤ اسند اليها امر المراقبة الفنية على جميع المكاتب العامّة والخاصة والحبسية المنتشرة في انحاء المغرب الاقصى . ولم تزل تتدرج يوماً بعد يوم في معارج التقدم حتى اشتهر امرها بين القوم وطنيين واجانب . فاقبلوا زرافات ووحدانا على مطالعة ما فيها من التآليف على اختلاف انواعها ولغاتها . وقد ازدادت خطورتها بعدما ضمّ اليها بعض مكاتب خاصة اليك اهمها :

---

(١) اكثرما اثبتناه هنا عن المكتبات العامة اقتبسناه من تقرير رسمي تكرم به علينا الاستاذ الجليل السيد عبدالله الرجراجي المغربي . وهو اكبر خزنة المكتبة العامة في الرباط واقدمهم وانبههم فله منا الدعاء الوافر والثناء العاطر

مكتبة زاوية الشيخ ماء العينين في فاس . ومكتبة الوزير الحاج المختار ابن عبدالله السوسي في مكناس . ومكتبة النادي الالماني في طنجة . ومكتبة السلطان مولاي عبد الحفيظ . ومكتبة المسيو كروزيل الحاكم العام .ومكتبة المسيو برنار الموظف الجزائري.ومكتبة لاريش قنصل فرنسا سابقاً في الرباط .ومكتبة القسم الاجتماعي لادارة الاستعلامات التي كان مركزها بمدينة سلا .

٢ ـ ذخيرة المكتبة العامة وجهد كبار المستعربين في انمائها

بقطع النظر عن مجموعات المجلات التي تحفظ في هذه المكتبة فقد بلغ ما فيها من التآليف لغاية السنة ١٩٣٨ خمسين الفاً وتسعمائة واربعة واربعين مجلداً اكثر من ربعها في اللغة العربية . وبلغ عدد مجلداتها المخطوطة الفين وثلاثين كتابا . وانيطت محافظة تلك المخطوطات بعدة مستعربين عرفنا منهم الاستاذ ليفي بروفنسال الذي نشر اول مجلد لفهرس المخطوطات المذكورة . ثم عقبه الاستاذ جورج كولان وبعده الاستاذ بلاشير . واصبحت الآن بادارة الاستاذ علوش وهو يشتغل في تهيئة مواد المجلد الثاني لفهرس المخطوطات المذكورة

وتشتمل مكتبة الرباط على محفوظات دواوين الدولة من دفاتر وسجلات ووثائق ادارية وتاريخية . وفيها ايضاً الكنانيش القديمة التي خلفتها قنصلية فرنسا في طنجة وسائر القنصليات التي كانت لهذه الدولة في المغرب قبل تأسيس الحماية الفرنسية . ويرجع تاريخ بعض كنانيش هذه القنصليات الى عام ١٧٦٧ .

وصرفت ادارة المكتبة عنايتها الى اقتناء كتب تبحث عن تاريخ افريقيا الشمالية والغرب الاسلامي . وهذا القسم هو اغنى جميع اقسام المكتبة بل تعد مجموعته اكمل مجموعة من نوعها بين مجموعات اشهر خزائن العالم . ومما هو جدير بالذكر ان المكتبة العامة في الرباط اخذت على عاتقها وضع فهرس عام لما حوته الخزائن المغربية قاطبة من المخطوطات العربية . وفي نيتها عرض هذا المشروع ايضاً على ارباب الخزائن الخاصة تعميما للفائدة واستكمالا للموضوع.

وفي رباط معهد للدروس المغربية العليا. نشر هــذا المعهد سلسلة صالحة من المخطوطات العربية فكان لنشرها صدى استحسان في الدوائر العلمية . ولم يبرح المستعربون الذين تقدم ذكرهم دائبين في طبع المخطوطات ونشرها وترجمتها .

ثانياً ـ اشهر المكتبات البلدية في المغرب الاقصى

ما كادت تظهر للوجود المكتبة العامة في الرباط وتتجلى منافعها للخاصة والعامة حتى مسّت الحاجة الى انشاء مكتبات غيرها في اهم حواضر المغرب الاقصى سُميت مكاتب بلدية . ذلك ارضاء لرغائب القراء ومماشاة للتطور السريع الذي جرى في التعليم العالي ولا سيا القانوني والاقتصادي . على ان الدولة الفرنسية الحامية نشطت الحكومة المغربية الى تأسيس مكتبات بلدية تقوم مقام المكتبات العامة وتكون بمثــابة فروع لها في المدن التالية وهي : فاس وسلا ومكناس ومراكش وتازه ووجدة وبركان والدار البيضاء وغيرها .

وقد جهزت تلك الخزائن بكتب لا يستغني عنها المطالعون واهل البحث في كل المدن المذكورة . وتمكيناً لهم من الانتفاع ايضاً بما احتوته المكتبة العامة في الرباط من مطبوعات ومجموعــات ومجلات فان ادارة هذه المكتبة نظمت فرعاً خاصاً باعارة الكتب للعموم خارج مدينة الرباط . وحددت ان تكون تلك الاعارة على نفقتها بواسطة المكاتب البلدية المذكورة آنفاً فلا يتكلف المستعير دفع شيء على الاطلاق .

اما الذين يريدون استعارة الكتب من الخزانة العامة وهم ليسوا في الرباط ولا في مدن انشيء فيها فرع لتلك الخزانة فان المكتبة العامة توجه اليهم ما يطلبونه من الكتب على نفقتها الخاصة . وقــد كان لهذا التسهيل اثره الطيب في نشر الثقافة بين جميع طبقات الامة المغربية .

الفصل الحادى والثلاثون

خزائن كتب الاندلس

١ ـ حضارة الاندلس ايام عزّ العرب

مثلما كانت بغداد عاصمة العباسيين والقاهرة عاصمة الفاطميين مستودع الكنوز الكتابية الثمينة في الشرق هكذا كانت قرطبة عاصمة الامويين بالاندلس مركز الثقافة العربية في الغرب . ولعل قرطبة نافست بغداد والقاهرة وفاقتهما كلتيهما لان عرب الاندلس بلغوا اوج العمران والعرفان كما تدل آثارهم الباقية الى هذا الزمان . وكان عهدهم فيها من انبل صفحات التاريخ العربيّ

مدّوا الفتوحَ الى اطراف اندلسٍ — وحكموا العدلَ بين الناس ميزانا
فكان تاريخهم في ارض قرطبةٍ — للعلم نوراً وللاعـــداءِ نيرانـــا

وكانت قرطبة في عصر عزهـا قبة الاسلام ومجتمع علماء الانام والاعلام . بها استقر سرير الخلافة المروانية وفيها تمخضت خلاصة القبائل المعدية واليمنية . والى قرطبة « كانت الرحلة في رواية الشعر والشعراء. اذ كانت مركز الكرماء ومعدن العلمـاء . ولم تزل تملأ الصدور منها والحقائب . ويباري فيها اصحابُ الكتب اصحابَ الكتائب ... وهي من بلاد الاندلس بمنزلة الرأس من الجسد . والزور من الاسد (١) » . فكانت تشتمل على خمسين مستشفى وتسعمائة حمام وثمانمائة مدرسة وستمائة مسجد وسبعين مكتبة خاصة وعلى مكتبة عامة تضارع في ضخامتها مكتبة

---

(١) نفح الطيب من غصن الاندلس الرطيب : جزء ١ صفحة ٢١٤

الاسكندرية العظيمة (١) . وناهيك ان مدن الاندلس ازدهرت بفخامتها الشرقية وقصور امرائها . بل كانت متاحف للفنون الرفيعة وعنوانا لحضارة عريقة . فكانت قرطبة تتألف من مائتي الف بيت يسكنها مليون من النسمات . وكان شارعها الاكبر بطول عشرة اميـال لم تزل آثاره باقية حتى الآن . ومـا احسن قول بعضهم فيها :

دع عنك خضرة بغداد وبهجتها ... ولا تعظم بلاد الفرس والصينِ
فما على الارض قط مثل قرطبة ... وما مشى فوقها مثل ابن حمدينِ

ولله در من قال :

باربع فاقت الامصار قرطبة ... منهنّ قنطرة الوادي وجامعها
هاتان ثنتـان والزهراء ثالثة ... والعلم اعظم شيء وهو رابعها

٢ ـ مكتبة المستنصر بالله في قصر الزهراء في قرطبة

وكان للمستنصر بالله الحكم الثاني سلطان قرطبة يد طولى في هذه النهضة العلمية الجليلة وفي انشاء المكتبة الشهيرة في قصر الزهراء بمدينة قرطبة عاصمة بلاده . يؤيد ذلك ما رواه عنه المقري (٢) قال :

« كان يبعث في شراء الكتب الى الاقطار رجالا من التجار ويرسل اليهم الاموال لشرائها حتى جلب منها الى الاندلس ما لم يعهدوه . وبعث في كتاب الاغاني الى مصنفه ابي الفرج الاصفهاني وارسل اليه الف دينار من الذهب العين فبعث اليـه بنسخة منه قبل ان يخرجه الى العراق . وجمع بداره الحذّاق في صناعـة النسخ

---

(١) نهضة العلوم الطبية في اسبانيا العربية للدكتور زكي علي (مجلة الرسالة سنة ٥ صفحة ٥٥٨ — ٥٥٩) (٢) دائرة معارف القرن العشرين : مجلد ٨ صفحة ٦٨-٦٩

والمهارة في الضبط والاجادة في التجليد . فاوعى من ذلك كله واجتمعت بالاندلس خزائن من الكتب لم تكن لاحد من قبله ولا من بعده الا ما يذكر عن الناصر العباسي بن المستضيء . ولم تزل هذه الكتب بقرطبة الى ان بيع اكثرها في حصار البربر » .

وكان ابوه الامام عبد الرحمن الناصر (٣٠٠ – ٣٥٠ ﻫ) اول من كسا الاندلس ابهة الخلافة . وانصرفت همته الى مطالعة كتب العلوم والادب وجمعها في خزائنه . فانه بعث ثقته العباس بن ناصح الثقفي الى بغداد بالاموال فاشترى له منها كل غريب (١). وطلب عبدالرحمن الناصر عينه من صديقه رومانس قيصر القسطنطينية استاذاً يعلم عبيداً له يصبحون مترجمين في دواوين دولته . فارسل اليه القيصر راهباً حاذقاً اسمه نقولا للقيام بتلك المهمة الخطيرة (٢).

واختلف المؤرخون في تحديد عدد الكتب التي كانت في خزائن المستنصر بالله الحكم الثاني . فجعلها بعضهم اربعمائة الف مجلد (٣) والبعض الآخر اكثر من ذلك. ولكنهم اتفقوا على انها كانت كثيرة . وكان على طائفة منها شروح وحواش بيد السلطان المشار اليه . وابدى الذهبي رأيه في قيمة كتب الحكم فقال . « لعل كتبه كانت تساوي اربعمائة الف دينار ».

وروى ابن خلدون ان اسماء دواوين الشعر في تلك المكتبة كانت مدونة في ثمانمائة وثمانين صفحة . واثبت وليم درابر في كتابه « المنازعة بين العلم والدين » ان مكتبة خلفاء بني امية في قرطبة اشتملت على ستمائة الف مجلد . وكان فهرس اسماء تلك الكتب يتألف من اربعة واربعين مجلداً . فتأمل !

٣ ـ مكتبات الوزراء والعظماء في انحاء الاندلس

واقتدى بالخليفة المستنصر بالله الحكم الثاني وزراء دولته وعظماؤها فانشأوا

---

(١) رحلة الوزير في افتكاك الاسير لمحمد الغساني : صفحة ٢٠ (٢) زبدة الصحائف في اصول المعارف بقلم نوفل نوفل : صفحة ٤٥ (٣) نفح الطيب: مجلد اول صفحة ١٨٢ و١٨٦

خزائن الكتب في جميع انحاء المملكة . وأحصي عدد دور الكتب في الاندلس لدى بلوغ الدولة الاموية اوج مجدها فبلغ سبعين مكتبة عامة على ما قيل في غرناطة (١) فضلاً عن المكاتب الخاصة . وكان في كل مكتبة معهد للترجمة ومعهد للنساخة ومعهد للمطالعة . وكان اقتناء الكتب عند الاندلسيين من علائم التأنق ومقتضيات الوجاهة . وقد يجمع المثري الاندلسي ما شاء من كتب وقماطر وهو لا يعلم الفائدة الناجمة عنها.

وحكى ابن فياض في تاريخه في اخبار قرطبة قال (٢) : «كان بالربض الشرقي من قرطبة مائة وسبعون امرأة كلهن يكتبن المصاحف بالخط الكوفي . هذا ما في ناحية من نواحيها فكيف بجميع جهاتها ؟ »

روى ابو الفضل التيفاشي ان قرطبة عاصمة الخلفاء اكثر بلاد الله كتباً . وروى ابن خاقة ان اهل قرطبة ارغب في اقتناء الكتب من اكثر البلادالاندلسية فكانت لا تخلو دار كبيرة من خزانة كتب . وروى المقري ان ذلك صار عندهم من آلات الابهة والرئاسة حتى ان الرئيس منهم الذي لا يكون عنده معرفة يحتفل في ان تكون في بيته خزانة كتب . وينتخب فيها ليس الا لان يقال فلان عنده خزانة كتب والكتاب الفلاني ليس عند احد غيره ، والكتاب الذي هو بخط فلان قد حصله وظفر به .

٤ ـ عصر الاندلس الذهبي

كان الحكم الثاني عالماً كبيراً بل كان اعلم بني امية خلفاء الاندلس بلا جدال . لان والده عبد الرحمن الناصر لم يدخر وسعاً في تهذيبه وتثقيفه . فاستحضر له صفوة العلماء من الشرق والغرب ومنهم ابو علي اسمعيل القالي . فقام الاستاذ بهذه المهمة خير قيام حتى بلغ الحكم تلميذه في الرقي الفكري شأواً بعيد المدى .

---

(١) تاريخ التمدن الاسلامي : مجلد ٣ صفحة ٢٠٨ (٢) مجلة المجمع العلمي العربي : مجلد ٢ سنة ١٩٢٢ صفحة ٢٦٥

وكانت لذة الحكم في الحياة مطالعة الكتب ومجالسة العلماء ومذاكرتهم في شتى العلوم . وكان ذا غرام بالمعارف قد اثر ذلك على لذات الملوك فاستوسع علمه ودق نظره وجمّت استفادته . وقلما وجد كتاب في خزائنه الا وله فيها قراءة اونظر في اي فن كان . وكان يكتب فيه نسب المؤلف ومولده ووفاته . ويأتي بعد ذلك بغرائب لا تكاد توجد الا عنده لعنايته الخصوصية بهذا الشأن .

وقد اجمع المؤرخون انه لم يقم في الاندلس ملك عالم كهذا الملك . بل ان اسلافه على رغم ما كان فيهم من الرغبة في اغناء مكاتبهم لم يصل بهم الشغف في اقتناء الكتب الثمينة الى الحدّ الذي وصل اليه هيام الحكم الثاني (١) .

وفي عهد الحكم الثاني ارتفع شأن العلماء الذين باتوا مغمورين باحسانه وعائشين بكنف رعايته . فانتشرت تآليفهم في كل فن وتُرجم بعضها الى اللغة الاسبانية او اللاتينية . وكان كثير من اهل الاندلس على علم تام بهاتين اللغتين فينقلون منهما العلوم الغربية الى اللسان العربي وبالعكس . وقد اصاب المؤرخون في تسميتهم عصرَي عبد الرحمن الناصر (٣٠٠–٣٥٠ ﻫ) وابنه الحكم الثاني (٣٥٠–٣٦٦ ﻫ) بالعصر الذهبي الاندلسي . فقد نفقت فيه سوق المعارف بين الخاصة والعامة وكان البلاط الملكي مزدحماً بالادباء والعلماء ورجال الصناعة والفن .

ومما لا مندوحة لنا عن ذكره ان التحف الفاخرة كانت تتوارد من الملوك شرقاً وغرباً الى ذينك الخليفتين اعجاباً بهما واقراراً بمواهبهما العلمية . من ذلك ان قسطنطين ملك الروم بعث مع هديته المشهورة الى عبدالرحمن الناصر برسالة مكتوبة بحروف من ذهب في رق سماوي اللون . وضمّن تلك الرسالة طرساً سماويا من الرقّ مكتوباً بحروف فضية يصف الهدية واصنافها (٢) . وكان الكتاب مختوماً بطابع ذهب وزنه اربعة مثاقيل قد رُسِمت على وجهه الواحد صورة المسيح وعلى

---

(١) كامل الكيلاني : نظرات في تاريخ الادب الاندلسي : صفحة ٢٢٥

(٢) نظرات في تاريخ الادب الاندلسي بقلم كامل الكيلاني : صفحة ٢٠٤

وجهه الثاني صورة قسطنطين الملك وصورة ابنه . ووُضِعَ الكتاب ضمن صِوان فضة غطاؤه ذهب نُقشت فوقه صوره قسطنطين الملك على بلور ملون بديع (١)

٥ - تهافت الافرنج على اقتباس حضارة الاندلس

في القرن الثاني عشر للميلاد اصبحت مدن العرب في الاندلس كعبة للنازحين اليها من المستشرقين وغيرهم من علماء الافرنج . فكان هؤلاء يتهافتون على اقتباس علوم العرب للاستفادة منها او لترجمة مؤلفاتها الى اللغتين الاسبانية واللاتينية كما كانت بغداد في عصر الرشيد والمأمون .

وكان المستعربون وطلاب العلم يردون من اوروبا افواجاً ليرتووا من بحر علوم العرب وفلسفتهم . ومن جملتهم البابا سلوستر الثاني (٩٩٩ – ١٠٠٣ م) الذي درس العلوم العربية والفلسفة في اسبانيا وأحلّ الارقام العربية محل الارقام الرومانية (٢) . ومنهم بطرس رئيس دير كلوني (١٠٩٢ – ١١٥٦ م) ارتحل الى الاندلس حيث رقب شؤون العرب وتأدب بآدابهم وانتقد كتبهم (٣) .

ودليلنا على ذلك ان كتاب « الادوية البسيطة » لابن الوافد (٩٩٧–١٠٧٤ م) الطبيب بمستشفى طليطلة طبع بعد ترجمته الى اللغة اللاتينية اكثر من خمسين مرة . وقد بقي كتاب « الجراحة » لابي القاسم خلف بن عباس الزهراوي الاندلسي (١٠١٣ – ١١٠٦ م) اساساً للتعليم الجراحي ومزاولة مهنة الجراحة في اوروبا عدة قرون . ونُشرت ترجمته في فينا سنة ١٤٩٧ وكان المعوّل عليه في تعليم الجراحة في مدرسة البندقية بايطاليا . ثم طبع سنة ١٥٤١ في مدينة « بال » بسويسرا . وهناك حقيقة ذات اهمية قصوى وهي انه يرجع الفضل للعرب في المحافظة على تراث العلوم اليونانية القديمة التي فقدت اصولها فوصلت الى اوروبا عن طريق ترجمتها العربية (٤)

---

(١) نفح الطيب : جزء ١ صفحة ١٧١ (٢) مآثر العرب في العلوم الطبية : بقلم الدكتور سامي حداد : صفحة ٦٨ – ٦٩ (٣) المشرق : مجلد ١٠ سنة ١٩٠٧ صفحة ٣٧٦ – ٣٧٧

(٤) نهضة العلوم الطبية في اسبانيا العربية وتأثيرها في اوروبا (مجلة الرسالة سنة ٥ صفحة ٥٥٨ - ٥٦١)

وكان اشهر المترجمين للعلوم الطبية والفلسفية من اللغة العربية الى اللاتينية « جيرار دي كريمونا » (١١١٤ – ١١٨٧ م) الذي اشتغل في مدرسة طليطلة معظم حياته . فنقل الى اللاتينية فلسفة يعقوب الكندي والفارابي وقانون ابن سينا وكتاب المنصوري للرازي وكتاب الاحجار لارسطو وجالينوس وكتاب علم النجوم لجابر بن افلح وغير ذلك . ويقال انه ترجم سبعين كتاباً في جميع فنون العلم وضروب الآداب (١)

٦ ـ تنازع عرب الاندلس وزوال ملكهم وانقراض مكتباتهم

ظلت الحال على هذا المنوال حتى اشتدت الفتن في الاندلس وأفل نجم سعدها اذ تسللت اليهم جراثيم الفساد بانتشار الاطماع الشخصيـــة . فانقسمت على نفسها وانفرط عقد الخلافة الاموية . واستقل الولاة والعمال بهذه الاجزاء المتفرقة . ثم لم يكتفِ هؤلاء بتسمية انفسهم « ملوك الطوائف » بل ساقهم الغرور الى التشبه بالخلفاء في عظمة الملك وضخامة الالقاب حتى استبد كل منهم بجانب من الاندلس وسمّى نفسه امير المؤمنين .

وما عتم ان تسرّبت دواعي الوَهن الى اولئك الملوك بعد هذا الانقسام الذي ضعضع قوامهم . فاخذ بعضهم يحارب بعضاً ويتناصرون على انفسهم بعدوّهم امير اسبانيا ويتقربون اليه بالقلاع والحصون للتشفي بعضهم من بعض . ثم آل الامر بهم الى ضياع هذا الملك الفخم ودخوله في حوزة الاسبان . ومن النتائج المؤسفة التي حلت ببلاد الاندلس على اثر تلك الفتن تشتّت خزائن كتبها التي لعبت بها الايدي في طول البلاد وعرضها . وقد احرق الاسبان جانباً منها على جاري عادة رجال الفتح في تلك الايام (٢)

---

(١) المستشرقون بقلم نجيب العقيقي : صفحة ٤٠ و ٤١ (٢) تاريخ آداب اللغة العربية : مجلد ٣ صفحة ١١٣

ولم يسلم من تلك الثروة العلمية العظيمة التي الفها علماء الاندلس او جمعها الامراء والوزراء او الملوك بنو امية من مختلف البلدان سوى النزر من المخطوطات العربية المتفرقة في بعض دور الكتب الشهيرة باوروبا. ولا تخلو من بعضها مكتبة الاسكوريال التي سنفرد لوصفها فصلاً خاصاً.

وفي مدريد عاصمة اسبانيا طائفة صالحة من المخطوطات العربية ايضاً تزدان بها المكتبة الرسمية ومكتبة المجمع العلمي التاريخي. وعددها في كلتا المكتبتين يزيد على الف مجلد.

٧- تفجع العرب على سابق مجدهم في الاندلس

وصف المؤرخون قديماً وحديثاً مجد العرب في الاندلس وتفجعوا على زوال ذلك الملك الباذخ والجاه العريض. واصبحوا ولسان حالهم يهتف مع الشاعر المصري حافظ ابرهيم :

لم يبقَ شيءٌ من الدنيا بأيدينا	الا بقيّة دمع في مآقينا
كنا قلادة هذا الدهر فانفرطت	وفي يمين العلى كنا رياحينا
كانت منازلنا بالعز شامخةً	لا تطلع الشمس الا في مغانينا
فلم نزل وصروف الدهر ترمُقنا	شزراً وتخدعنا الدنيا وتلهينا
حتى غدونا ولا ملكٌ ولا نشبٌ	ولا صديق ولا جار يوآسينا

الفصل الثاني والثلاثون

خزائن كتب استنبول

١ ـ محاولة الأتراك انشاء حضارة كحضارة العرب

استنبول وهي بوزنطيا القديمة جددها قسطنطين الكبير (٣٠٦ – ٣٣٧ م) وأطلق عليها اسمه ونصب فيها تخت مملكته. فاشتهرت منذ ذلك الحين باسم « قسطنطينية » . وقد تعاقب فيها خلفاؤه القياصرة مدة احد عشر قرناً حتى استولى عليها عام ١٤٥٣ م محمد الفاتح . وكانت تلك العاصمة في الحقبة المذكورة زاهرة بالمعارف والآداب آهلة بالتحف والمكتبات كما نوهنا ببعضها في فصل سبق وسنذكر بعضها في فصول لاحقة .

أخذ الاتراك منذ احتلالهم القسطنطينية يحاولون ان ينشئوا فيها حضارة خاصة بهم ويعتنوا بترقية لغتهم الحالية حين ذاك من الضوابط والقواعد . فاستعانوا باللغتين العربية والفارسية واستعادوا منهما اصولا كثيرة والفاظاً جمة ليبلغوا بلغتهم ما بلغته هاتان اللغتان من الارتقاء والضبط والانتشار.

وفي الوقت ذاته اطلق الاتراك على عاصمة ملكهم في عهد سلاطينهم العثمانيين اسماءً شتى اخصها : الاستانة واستنبول او اسلامبول ودار الخلافة و « درسعادت » الخ . وعلى اثر انقراض السلطنة العثمانية وتأسيس الجمهورية التركية عام ١٩٢٤ الغيت تلك الاسماء واصبحت المدينة المذكورة تُعرف باسم « استنبول » فقط . اما عاصمة الاتراك فقد انتقلت مذ ذاك الحين الى مدينة انقرة في آسيا .

٢ ـ تأسيس الاتراك مكتبات من مخطوطات البلدان التي افتتحوها

من الذرائع التي ساعدت الاتراك على تحقيق بعض امانيهم ما نهض به سلطانهم

سليم الاول (١٥١٢ - ١٥١٩) من الفتوحات في البلدان التي ينطق سكانها باللسان العربي . فانه امر المقرّبين اليه من العلماء والفقهاء ان يجمعوا ما يعثرون عليه اثناء الفتوحات من غُرر الكتب وينقلوها مع الاسلاب الى عاصمة السلطنة . وناهيك ما تيسر جمعه من المخطوطات النادرة في مدن العراق وما بين النهرين وسوريا وفلسطين ومصر وغيرها من البلدان . فانها شُحنت الى الاستانة وتألفت منها خزائن للكتب ألحقت باهم الجوامع والمدارس وبعض القصور السلطانية .

ثم أنشئت في اوقات مختلفة مكتبات وقفها بعض سلاطين آل عثمان وابنائهم . والبعض الآخر وقفة فريق من الوزراء وانصار العلم للفائدة العمومية . فكانت المخطوطات العربية في تلك المكتبات وسيلة كبرى ليطلع علماء الاتراك على حضارة العرب ويقفوا على محاسن اللغة العربية ويرتشفوا مناهل آدابها الفيّاضة . بل نافسوا العرب أنفسهم في إجادة الخط وتفوّقوا عليهم فيه . وقد احدثوا خطوطاً شتى تشهد لهم بالبراعة في هذه الصناعة أشهرها الخط الرقعي والخط الهمايوني . واليهم انتهت الرئاسة في الخط العربي على اشكاله المختلفة .

٣ - انتزاع الاتراك من لغتهم كل مسحة عربية

ظل الاتراك مدة اجيال محافظين على الوديعة الثمينة التي تسلموها من لغة القرآن وآداب العرب. غير انهم نسخوا تلك الخطة الرشيدة منذ انسلاخ الاقطار العربية عن دولتهم على اثر الحرب العظمى (١٩١٤ - ١٩١٨) فانتزعوا من لغتهم التركية كل اثر يمت بالفاظه الى اصل عربي واستعملوا بدلا منها الفاظاً غريبة خالية من كل مسحة قحطانية . وما اكتفوا بذلك بل عمدوا منذ السنة ١٩٢٤ الى ابدال الحروف العربية في كتاباتهم بحروف لاتينية . فكان هذا الابدال ضربة قاضية على الصبغة الشرقية وعلى الروح العربية اللتين تميز بها اللسان التركي منذ قرون شتى .

٤ ـ تضعضع مكتبات استنبول وصعوبة الانتفاع بكنوزها

غير خاف انه مع توالي الايام تُلف ونُهب جانب من مكتبات استنبول إما لاهمال قوّامها او لخيانة الخدم في صيانتها. وما نراه محفوظاً فيها حتى الان من مخطوطات عربية وفارسية وتركية ليس الا نزراً مما نجا من ايدي الحدثان. ومعما فيه فاناستنبول لبثت زمناً طويلا في طليعة جميع عواصم الشرق بوفرة مخطوطاتها التي لا يحصى لها ثمن. وكانت مجموعة في اثنتين واربعين مكتبة لكل منها فهرس خاص مطبوع على حدة يتضمن اسماء كتبها المطبوعة والمخطوطة. ومن شاء الوقوف على عناوين تلك المكتبات وسنة انشائها وتاريخ طبع فهارسها فليراجع « معجم المطبوعات العربية والمعرّبة (١) ».

وفي تموز السنة ١٩٠٤ ارتحل لويس شيخو الى استنبول وزار اهم مكتباتها وتفقد اشهر معاهدها العلمية والاثرية. فلما جاء على ذكر ما احتوته تلك المكتبات من المخطوطات صرح بانها لو جمعت بلغ عددها نحواً من ثلاثين الفاً (٢).

ومن المؤسف اناغلب تلك المكتبات كان الدخول اليها والانتفاع بكنوزها من اصعب الامور. غير ان فريقاً من اعلام المستشرقين تمكنوا بعد عناء جسيم من التوصل الى الوقوف على بعضها كمكتبة آجيا صوفيا الشهيرة وغيرها من المكتبات الغنية بمخطوطاتشرقية قديمة. فوصفوها وصفاً وافياً ودوّنوا لها الفهارس ونشروها بالطبع لفائدة اهل البحث.

٥ ـ مكتبة علي اميري

بين مكتبات استنبول المهمة التي لا يصح السكوت عنها مكتبة « على اميري

---

(١) معجم المطبوعات العربية والمعربة : تأليف يوسف اليان سركيس : صفحة ١٢٦٥-١٢٦٦

(٢) سياحة حديثة الى جهات اوروبا : بقلم لويس شيخو (المشرق : مجلد ٧ سنة ١٩٠٤ صفحة ١٠٦٤

افندي » فهي تستحق وصفاً مخصوصاً بين سائر خزائن تلك العاصمة . وقد كتب لنا الاستاذ البحاثة محمد كردعلي (١) انه تعهدها بذاته وكان فيها يومئذ ثلاثة عشر الف مخطوط بينها كتب ودواوين كان يطالعها سلاطين آل عثمان . ومنها مجموعة مخطوطات نفيسة اتى بها « علي اميري » من بلاد اليمن وغيرها من الاقطار العربية . وقد جعل مركز هذه الخزانة في مدرسة « فيض الله افندي » قريباً من جامع الفاتح . وكان يتفاخر بمخطوطاته ويصرح لكل من تفقدها بانه يريد ابلاغ عددها الى الخمسين الفاً . لكنها ما كادت تبلغ العشرين الفاً حتى ادركته المنية .

٦ ـ اهم مكتبات استنبول وادماج بعضها في البعض الآخر

من اهم خزائن الكتب في استنبول ايضاً نذكر : مكتبة «الجامعة» فيها سبعة عشر الف مجلد مخطوط بينها مصاحف جلودها مرصعة بالزمرد والياقوت . ثم «المكتبة العمومية » في ميدان بايزيد يبلغ عدد مخطوطاتها خمسة آلاف ومائتي مجلد معظمها عربي . ومكتبة « الفاتح » تحوي ستة آلاف مخطوط . ومكتبة « نور عثمانية» عدد مخطوطاتها خمسة آلاف (٢) .

وكانت مكتبات استنبول تابعة لوزارة الاوقاف ثم ألحقت بوزارة المعارف منذ اعوامٍ قليلة . ولوحظ ان تعدّد المكتبات وتبعثر الكتب فيها لا يؤدي الى النتيجة المقصودة منها . فصدر امر هذه الوزارة باندماج بعض المكتبات في البعض الآخر . فجُعلت سبع عشرة مكتبة بعدما كانت اثنتين واربعين مكتبة. ذلك بان ضُمّ الى احداها اثنتا عشرة مكتبة والى اخرى عشر مكتبات او خمس او ثلاث . وهذا بيان مكتبات استنبول في الزمان الحاضر (٣) :

١ً : مكتبة الفاتح ٢ً : مكتبة فيض الله ٣ً : مكتبة الشهيد علي باشا

---

(١) تاريخ رسالته الينا من دمشق ٢٩ ايار ١٩٣٨ (٢) رحلة صيف بقلم الصحافي العجوز توفيق حبيب : طبع مصر سنة ١٩٣٣ صفحة ٣٦ ـ ٣٨ (٣) رحلة صيف : صفحة ٣٩ ـ ٤٠

٤: مكتبة عاطف افندي ٥: مكتبة منلا مراد ٦: مكتبة كوبرلي ٧: مكتبة جامع بايزيد ٨: المكتبة العمومية ٩: مكتبة نور عثمانية ١٠: مكتبة آجيا صوفيا ١١: مكتبة يحيى افندي في بشكشطاش ١٢: مكتبة خسرو باشا ١٣: مكتبة قبطان باشا في ايوب ١٤: مكتبة سليم آغا في اسكودار ١٥: مكتبة السليمانية ١٦: مكتبة راغب باشا ١٧: مكتبة والدة جامع (آق سراي).

٧ ـ مكتبة مخطوطات عربية في الموسيقى

في استنبول مكتبة خطية وحيدة من نوعها انشأها الموسيقار رؤوف يكتا التركي الذي أحرز في مهنته شهرة عالمية كبرى. وقد روى زميله الموسيقار وديع صبرا البيروتي ان المكتبة المشار اليها ما احتوت الا على مخطوطات عربية نادرة في فن الموسيقى. منها كتاب «مقاصد الالحان» يتضمن قصيدة مطلعها «قد لسعت حيةُ الهوى كبدي» يقال انها أنشدت امام نبي الاسلام والله اعلم!

٨ ـ وصف احمد زكي باشا مخطوطات سراي طوب قبو

نختتم هذا الفصل بما دوّنه شيخ العروبة احمد زكي باشا المصري عن خزائن مخطوطات سراي «طوب قبو» قال (١):

«... فيها خزانتان لا تزالان الى الآن: احداهما مشحونة بنفائس الكتب والدفاتر. والثانية مرصودة لغوالي الذخائر وبوادر الجواهر. فاما الاولى فكان محظوراً على الناس كلهم ان يدخلوها سوى امير المؤمنين بحاشيته ورجال دولته في موسمين اثنين لا ثالث لهما: يوم الجلوس على العرش وليلة القدر.

«فاما الثانية فكان فيها ولا يزال ما لا عين رأت ولا اذنٌ سمعت ولا خطر

---

(١) مجلة «الآثار الشرقية» في بيروت: مجلد ٤ حزيران ١٩٢٩ صفحة ٧١ - ٧٢

على قلب بشر. ولكن الدخول لم يكن مباحاً الا بارادة سنية. على ان الذي يتهمم به المتيم الهائم (احمد زكي بك) ويذوب شوقاً اليه فانما هو تلك الخزانة الاولى الحاوية لجواهر العقول. بل ذلك الكنز المرصود الذي بقيت ابوابه موصودة في وجوه جميع الوجوه والاعيان منذ اربعة قرون وستة اعوام. اي منذ ما عاد السلطان سليم باسلاب الدولتين المصرية والفارسية الى مقر ملكه بالقسطنطينية العظمى.

« وكان من عناية الله بي ان صديقي حسين حلمي باشا الصدر الاعظم أكرمني بتحقيق امنية لم يحلم بها انسان لغـــاية ذلك الزمان . فاستصدر فرماناً شاهانياً خاصاً يبيح دخول هذه الخزانة المطلسمة الساحرة لشخص احمـد زكي بك (١) المصري . فكانت هذه الاكرومة من قبيل الكرامـات والمعجزات . وهكذا صارت هذه الخزانة مقرّاً لابن النيل ومركزاً لعمله طول النهار مدة اربعة شهور متواليات » .

(١) ترقى احمد زكي باشا الى رتبة الباشوية بعد صدور الفرمان الشاهاني المذكور .

الفصل الثالث والثلاثون

خزائن كتب الروملي والاناضول

اولا – مكتبات الروملي

يطلق اسم « روملي » على الولايات التي كانت تابعة للسلطنة العثمانية في اوروبا . اما « الاناضول » فهو قسم من الاقطار الخاضعة للجمهورية التركية في آسيا . وفي البلاد المذكورة مكاتب كثيرة تشتمل على مخطوطات عربية ذات شأن خطير . وقد تعهدها الرّحالة العربي الشيخ خليل الخالدي في الربع الاول من القرن العشرين واطلع على كنوزها الثمنية . فرأينا ان نوجز الكلام عنها مستندين الى ما ورد في كتاب « مجمع الآثار العربية » المطبوع في دمشق (١) :

١ – مكتبة « قره فريه » في ضواحي سلانيك قضى الله عليها بان تكون بيد اناس لا يقيمون للعلم وزناً . الا انه بالرغم من ذلك بقي منها شيء له قيمته العلمية .

٢ – مكتبة « الغازي اورنوس » في « يجه » وهي بلدة ارسطو الذي وضع علم المنطق . فيها « كتاب الاجماع » لابن حزم لا وجود له في المشرق ولا في المغرب.

٣ – مكتبة « سيروز » وهي عظيمة لِما فيها من المخطوطات النفيسة الجليلة .

٤ – مكتبة «السلطان سليم» في ادرنة مقرّها في الجامع المنسوب اليه . وهي مكتبة لا نظير لها في تلك الاصقاع . فيها من الاصول الصحيحة ما يبهر العقول لانها حوت كتب السلطان مراد الثاني والد السلطان محمد الفاتح

---

(١) جزء ١ صفحة ١٢٨ — ١٢٩

٥ - مكتبات « قالقان دلن » و « جامع الفاتح في اسكوب » و « برشتنه » و « برزرين » .

ثانياً - مكتبات الاناضول

١ - مكتبات « بورصة » هي حافلة بكثير من المخطوطات النفيسة . وكانت « بورصة » مقراً للسلطنة العثمانية في سالف الازمان .

٢ - مكتبات قونيه : اولاها « مكتبة جلال الدين الرومي » وثانيتها « مكتبة ابن قرمان » فيها كتب نادرة الوجود . وثالثتها « مكتبة يوسف بك » وهي كخزائن الملوك الكبرى في الاستانة . والرابعة « مكتبة الصدر القونوي » صاحب مفتاح الغيب . وفيها كتب الشيخ محيي الدين العربي التي كانت ملكاً له وعليها خطه . منها نسخة « الفتوحات المكيّة » و « المحجة البيضاء في الاحكام المنقولة عن الائمة الاعلام من السنن والآثار ومذاهب علماء الابصار » .

٣ - المكتبة « المرادية » في مغنيسا تحوي من الكتب والآثار ما يذهل العقول . وعلى بعض كتبها خطّ امام المتكلمين بما وراء النهر نجم الملة والدين النسفي صاحب التآليف في الاصول والكلام .

الباب الرابع

المكتبات الاسلامية الخاصة

اجملنا البحث حتى الان عن دور الكتب الاسلامية العامة التي انشأها الخلفاء والسلاطين والوزراء في اقطار البلادالعربية وغيرها. وهناك مكتبات تابعة للمساجد والمدارس والمارستانات وغيرها لا تدخل تحت حصر ولا تقلّ مجلدات بعضها عن مجلدات دور الكتب العامة. ومن هذا القبيل ايضاً الخزائن الخاصة التي اقتناها الادباء والاغنياء وجهابذة العلوم لانفسهم في انحاء العالم الاسلامي. بينها ما هو مجهول لشدة حرص ذويه الذين لا يسمحون لاحد ان يطلع على مكنونات خزائنهم الثمينة.

بناء عليه لا نرى مندوحة عن ذكر ما اتصلت بنا معرفته من اخبار المكتبات الخاصة ولا سيا الحديثة العهد استيفاءً للموضوع الذي نحن بصدده. وهو موضوع شاقّ كثير الشعاب لا يتسنى لمؤرخ ان يُلم به من جميع اطرافه مهما عانى من التنقيب والدرس والصبر والاجتهاد. وعلى رغم تلك المصاعب صرفنا اقصى العناية فجمعنا ما تيسر لنا جمعه من انباء الخزائن المشار اليها واثبتناها في ما يلي (١):

---

(١) نحيل القارىء الى مطالعة اخبار بعض المكتبات القديمة الخاصة في فصل لاحق عنوانه : « غلاة الكتب وهواة المكتبات »

الفصل الاول

خزائن كتب الجمهورية اللبنانية

اولا : مكتبات بيروت

١ ـ مكتبة الامير ناصر الدين خضر

هو الامير ناصر الدين الحسين بن سعد الدين خضر بن نجم الدين محمد امير الغرب عاش في ايام الملك الناصر محمد بن قلاوون (٦٩٣ – ٧٤١ ﻫ) .

كان الامير ناصر الدين اديباً جليلاً في عصره ونظم كثيراً من الشعر الرقيق . ورغب في اقتناء المخطوطات فحصل منها طائفة كبيرة غالبها دواوين شعر وتواريخ بينها اربع نسخ من ديوان المتنبي عتيقة جداً (١) . وروى صالح بن يحيى ان شرف الدين يعقوب بن عبد الحق كتب لناصر الدين « مرآة الزمان » والذيـل عليها . ونسخ له ايضاً عدة كتب فكان ما نسخه له نيفاً وثلاثين مجلداً كبيراً ضخم الحجم . وقد رآها صالح بن يحيى بعينه وذلك غير الذي شاهده من خزائن كتب الامير (٢) الذي حلت وفاتهُ سنة ٧٥١ للهجرة (١٣٥٠ م)

٢ ـ الخزانة الاحدبية

انشأها الشيخ ابرهيم بن علي الاحدب (١٢٤٢ – ١٣٠٨ ﻫ) احد اركان النهضة العلمية في القرن التاسع عشر. وكان نابغة في حفظ اشعار المتقدمين والمتأخرين ُيملي

---

(١) راجع ترجمته في كتاب « تاريخ بيروت » لصالح بن يحي : صفحة ٨٧ — ٨٨

(٢) تاريخ بيروت : صفحة ٩٧

عن ظهر قلبه متوناً شتى من الصرف والنحو والمعاني والبيان والمنطق ومن مقامات الحريري وغيرها. وكان ايضاً على اطلاع وافر من امثال العرب وتواريخهم ووقائعهم ونوادرهم. وعلى اشتغاله بالتدريس والتأليف فقد نقل بخطه الظريف الانيق ما ينيف على الف كتاب ورسالة (١) احرزنا بعضاً منها في خزانتنا الخاصة وفي دار الكتب اللبنانية ببيروت. ذلك عدا ما اقتناه الشيخ ابرهيم الاحدب من كتب مخطوطة ومطبوعة تجمعت في « الخزانة الاحدبية » فاقتسمها من بعد وفاته ابناؤه واحفاده.

وشاهدنا في مكتبة نجله حسين بك الاحدب (١٢٨٨–١٣٥٩هـ) وزير النافعة في الجمهورية اللبنانية بقية صالحة من خزانة والده لا ينقص عدد مخطوطاتها عن مائة وخمسين مجلداً. وبين تلك المخطوطات سبعون مجلداً نمقتها براعة والده الشيخ ابرهيم الاحدب. وقد انتقلت هذه الثروة الادبية الى ابرهيم بك وفائز بك نجلي حسين بك وهما شديدا الحرص على تراث ابيهما وجدهما.

٣ ـ مكتبة الشيخ مصطفى الغلاييني

للشيخ مصطفى الغلاييني قاضي بيروت بعض مؤلفات تدل على علو كعبه في العلوم العربية نظماً ونثراً. وقد نزعت نفسه منذ صغره الى احراز الكتب فتجمع لديه منها خزانة حافلة بالمؤلفات ولا سيما العلوم الشرعية والدينية. ولما تعهدنا هذه الخزانة الفيناها حسنة الترتيب يناهز عدد محتوياتها الفي كتاب. وقد اشترتها بعد وفاته دار الكتب اللبنانية.

٤ ـ الخزانة المحمصانية

انشأها الشيخ احمد المحمصاني الذي تخرج في جامعة الازهر واشتغل ردحاً من زمانه في دار الكتب المصرية بالقاهرة. وقد ورث محبة الكتب عن والده السيد

---

(١) فرائد اللآل في مجمع الامثال: المقدمة: صفحة ٣

عمر صاحب « المكتبة الحميدية » التي كانت ملتقى ادباء بيروت وعلمائها. فاجتمع لديه بتوالي الاعوام خزانة ثمينة انطوت على زهـــاء الف وستمائة مجلد في شتى العلوم والفنون. بينها مائة وعشرون مخطوطاً لا تخلو من النوادر.

٥ ـ مكتبة آل ابي النصر

تتحدّر اسرة ابي النصر من السيد عمر اليافي (١١٧٣--١٢٣٣ ﻫ) احد مشاهير شعراء المسلمين في اوائل القرن الثالث عشر للهجرة .ومن سلالته اشتهر ابنه المحدّث الفقيه الشيخ محيي الدين اليافي المتوفى سنة ١٣٠٤ للهجرة وحفيده الشيخ عبدالكريم ابو النصر (١٢٨٢ – ١٣٥١ ﻫ) نقيب الاشراف في بيروت . وقد نظم مؤلف هذا الكتاب البيتين التاليين لدى تعيين الشيخ عبد الكريم في المنصب المذكور قال:

يا شيخنا عبد الكريم لقد سعت　　طوعاً اليك نقـــابة الاشرافِ
انت الخليق بها ومُعلي شأنها　　في قطرنا بالعزّ والانصـافِ

وللشيخ عبد الكريم نجلان اولعا بالعلم والتأليف وجمع الكتب وهما عمر وعادل: فعمر ابو النصر جمع خزانة كتب حوت زهاء ثلاثة آلاف مجلد في اللغات العربية والانكليزية والفرنسية .اكثرها تاريخ ثم ادب ثم علوم اجتماعية . وليس فيها كتاب قديم بل كلها كتب حديثة مطبوعة طبعاً متقناً . ومن ميزاتها انها تشتمل على اغلب ما وضعه المستشرقون في التاريخ الاسلامي او نشره بعض رواحل الافرنـج عن الاقطار الشرقية . وتحتوي ايضاً على اهمّ التراجم الادبيـــة والتاريخية التي لا يستغني عنها صاحب هذه الخزانة في ما يتعاطاه او ينشره من الابحاث .

اما عادل ابو النصر المهندس الزراعي فقد انشأ بجـانب مكتبة شقيقه خزانة كتب لا تحوي الا كتباً تتعلق بفن الزراعة . وعلى رغم حداثة عهدها فان عددها يتجاوز الآن سبعمائة وخمسين مجلداً . ومعظم تلك المجـلدات تدور ابحاثها حول الحشرات والامراض النباتية التي نشر عنها السيد عادل الشيء الكثير على صفحات المجلات والجرائد او في كتب خاصة .

٦ ـ مكتبات آل بيهم

كان الحاج حُسين بيهم (١٢٤٩ – ١٢٩٨ هـ) من صفوة ادباء بيروت وخيار اعيانها. تولّى رئاسة «الجمعية العلمية السورية» وساهم في تحرير مجلتها الخاصة. وكان حريصاً على اقتناء الكتب حتى جمع منهـــا خزانة عظيمة (١) اشتهر امرها بين الخاص والعام. ومن حسناته انه ما منع طالباً عن استعارة ما يريـده من تلك الكتب بحيث كان الكتاب يبقى اعواماً لدى المستعير ولعله نسيه عنده او تناساه(٢)

وحوت مكتبة الحاج حُسين من المخطوطات القديمة فضلاً عن المطبوعات الكثيرة العدد ثلاثمائة وسبعين مخطوطاً لم يزل جانب منها محفوظاً بكل حرص عند اولاده واحفاده .

ومن اركان أسرة بيهم في ايامنا السيد محمد جميل بيهم الذي خدم الأدب قولا وعملا بآثار قلمه المفيدة . ثم انشأ خزانة آهلة بكتب نادرة ووثائق خطية قديمة جمعها بكده وانفق عليها بسخاء .

٧ ـ مكتبة الشيخ سعيد اياس

الشيخ سعيد اياس من افاضل المسلمين ووجهائهم في بيروت. ورث عن والده ثروة واسعة وما لبث ان تعمم وانقطع الى طلب العلم. وقد انشأ في منزله خزانة امتازت عن غيرها من الخزائن بما حوته من الاسفار التي نشرها علماء الاستشراق. فكان لا يبخل ان يدفع ثمن الكتاب غالياً مهما بلغت قيمته . هكذا ازدخر في خزانته طائفة معتبرة من الكتب العربية المطبوعة في انحاء اوروبا والهند وفارس وسوريا ولبنان ومصر.

---

(١) معجم المطبوعات العربية والمعربة : ليوسف اليان سركيس : صفحة ٦٢١

(٢) تاريخ الصحافة العربية: لفيليب دي طرازى : مجلد ١ صفحة ١١٨

٨ ـ مكتبة جميل العظم

ينتمي صاحب هذه الخزانة الى اسرة « العظم » الدمشقية التي قام منها احد عشر والياً تولوا حكومة سوريا في القرنين الاخيرين. وكان مولده في دمشق وقضى معظم ايامه في بيروت مفتشاً لمديرية المعارف. وانصرف جميل بك العظم (١٢٩٠ـ ١٣٥٢ هـ) الى الدرس والتأليف فنظم الشعر الجيد ونشر مجلة « البصائر » وصنف بعض مؤلفات اشهرها كتابه « عقود الجوهر في من لهم خمسون مؤلفاً فاكثر ». واتصف جميل بك باقتدار عجيب في تقليد الخطوط العربية واصلاح المخطوطات القديمة على اختلاف انواعها وبلدانها وعصورها. وبلغت براعته في ذلـــك انه كان يسكب على كل نوع من الخطوط طابعه من حيث الكتابة والورق والحبر والقلم. وكثيراً ما تعذر على اهل الخبرة ان يميزوا بين الاصلاح الحديث والاصل القديم في مخطوطات خزانته. واعتكف جميل بك على جمع الكتب فاحرز منها ما اناف على الفي مخطوط بين غث وسمين ورتب لها فهرساً خصوصياً. غير ان عسراً مالياً انتابه في شيخوخته اضطره الى بيع قسم مهم من تلك المخطوطات ولا سيما النادرة منها[١]

٩ ـ الخزانة الناصرية

للشيخ محمد ناصر كلف شديد بالكتب يجمعها ويطالعها ويعتني بها ويحافظ عليها جهده . وعرفنا له هذه المزية منذ عهد الصبا اذ كنا نشاهده يتردد على الادباء ويختلف الى باعة الكتب لانتقاء المفيد منها وضمه الى خزائنه . هكذا تجمع لديه مكتبة حافلة بنفائس ونوادر لا اثر لها عند غيره على الاطلاق . ومما يجدر بالذكر ان دار الكتب اللبنانية لما احتاجت الى بعض مؤلفات نفدت من الاسواق راجعته في امر ابتياعها من مكتبته . فلبى طلبها دون تردد خدمة للعلم والادب .

---

(١) طالع ترجمة جميل العظم بقلم عيسى اسكندر المعلوف في « مجلة المجمع العلمي العربي »: مجلد ١٤ صفحة ٥٦ ـ ٦١

١٠ ـ سائر المكتبات الاسلامية الخاصة في بيروت

في بيروت عدة مكتبات اسلامية خاصة عدا المكتبات التي اثبتنا اسماءها ووصفناها فيما سبق . اهمها : مكتبة كلية المقاصد الخيرية . ومكتبة الكلية الشرعية ومكتبة الشيخ عبد الرحمان سلام امين الفتوى وفيها بعض المخطوطات النادرة . ومكتبة السيد عمر الفاخوري احتوت على طائفة غير قليلة من الكتب الفرنجية العصرية . ومكتبة آل الانسي وفيها مخطوطات جمة موروثة عن الاجداد . ومكتبة الشيخ هاشم الخليلي وقدباع ورثته قسما وافراً منها . ومكتبة الدكتور حسن الاسير احتوت على مذكراته بخط يده في ثلاثة عشر مجلداً مع مخطوطات اخرى في الطب . ومكتبة الاستاذ احمد رمضان مدير مدرسة دار المعلمين . ومكتبة السيد راشد طباره الخ الخ .

ثانياً : مكتبات جبل لبنان

١ ـ الخزانة الارسلانية

انشأها الامير محمد ارسلان (١٨٣٨ – ١٨٦٨ م) وهو اول رئيس تولى الجمعية العلمية السورية التي تأسست بتاريخ ١٥ كانون الثاني ١٨٦٨ في بيروت(١) . واشتهر هذا الامير بمعارفه وتآليفه وترويج اسواق العلوم بين ابناء وطنه . اذ كانت داره مجلساً لروّاد الادب وطلاب الحكمة (٢) . وكان مركز الخزانة الارسلانية قصبة الشويفات مسقط رأس الامير . وكانت حاوية جلّ المطبوعات العربية في عصره فضلاً عن مخطوطات بلغ عددها ثلاثمائة مخطوطاً في التاريخ والادب والفقه والفلك

---

(١) تاريخ الصحافة العربية : مجلد ١ صفحة ٧٥ (٢) الآداب العربية في القرن التاسع عشر : تأليف لويس شيخو : جزء ١ صفحة ٨١ ـ ٨٢

والطب والفلسفة . وانتقلت من بعده الى اخيه الامير مصطفى الذي حافظ عليها مدة حياته وافرد لها مكانا فسيحاً في قصره بعين عنوب . وبعدما اقتسمها ورثته تشتت شملها فاصبحت اثراً بعد عين .

٢ ـ الخزانة الجنبلاطية

آل جنبلاط من اقدم الاسر الدرزية وانبلها في جبل لبنان . وتاريخهم طافح بامجاد ومكارم يتوارثها خلفهم عن سلفهم جيلا بعد جيل. واشتهر بينهم رجال تولوا مناصب عالية فأجمعت القلوب والالسنة على محبتهم وامتداح عدالتهم والتحدث بمروءتهم وسخاء ضيافتهم (١)

جمع آل جنبلاط منذ قديم الزمان مخطوطات وافرة نادرة في قصريهم بالمختارة وبعذران في لبنان الجنوبي. وقد روى لنا سليلهم علي باشا جنبلاط المتوفى سنة ١٣٣٤ للهجرة (١٩١٥ م) ان القسم الاكبر من تلك المخطوطات تبعثر او نُهب او احترق اثناء فتن اهلية انتابت جبل لبنان. واطلعنا نحن بنفسنا على بقية منها في منزله في ميناء الحصن ببيروت وكان شديد الحرص عليها. وانشأ المأسوف عليه حكمت بك جنبلاط وزير الزراعة في الجمهورية اللبنانية خزانة حديثة على انقاض تلك الخزانة القديمة. فحشد في داره من الكتب ما يناهز الفاً وخمسمائة مجلد ينطوي اغلبها على ما يتعلق بتواريخ لبنان والبلاد المجاورة له. واعتنى حكمت بك خصوصاً بالأسفار التي كتبت عن اسرته باية لغة كانت عربية وافرنجية . وقد نسقها تنسيقاً عصرياً واستصنع لها بطاقات دوّن فيها عناوين الكتب واسماء مؤلفيها وغير ذلك من الفوائد. واصبحت الان في حوزة ابن عمه كمال بك جنبلاط وزير الاقتصاد.

٣ ـ مكتبة غندور زيتونه

غندور زيتونه درزي المذهب وُلد في لبنان باواسط القرن التاسع عشر.

---

(١) اخبار الاعيان في جبل لبنان : للشيخ طنوس الشدياق : صفحة ١٢٩ ـ ١٦١

وكف بصره وهو في الثالثة من سنه واشتهر منذ صباه بالدهاء وتوّقد الذهن. وعلى رغم انكفاف بصره فقد تلقى العلوم في مدارس الانكليز البروتستنت فجاراهم في تعاليمهم واحرز ثقتهم وتزوج احدى فتياتهم. وكان اختلاطه بهم مدعاة الى ترقي افكاره وترغيبه في تعزيز المعارف بين ابناء جلدته. فحصر اهتمامه بهذا الامر مدة حياته كلها وانشأ للدروز في بعض قرى الشوف مدارس شتى من اموال جمعيات البروتستنت الذين كان منتمباً اليهم وعائشاً في نعمتهم. ولكثرة علاقاته بهم تخلق باخلاقهم ولم يأنف ان لبس القبعة الفرنجية مثلهم في رأسه بينما كان الدروز لا يعرفون حتى ذاك التاريخ لباساً للرأس سوى العمامة البيضاء. ولهذا السبب كان يعرف باسم « مستر زيتونه » لدى الخاصة والعامة.

ومن آثاره انه خلف خزانة حافلة بالكتب العلمية على اختلاف الموضوعات بلغ عدد مجلداتها زهاء الف وخمسمائة مجلد. ومن اهم محتوياتها القسم العربي للحروف الناتئة التي يستعملها العميان في القراءة ويبلغ عدده اكثر من مائتي كتاب (١). وقد اعتنى غندور زيتونه خصيصاً بهـــذا القسم العمياني لانه كان ضريراً ومحباً للمطالعة. وعملا بوصيته الشرعية اصبحت هذه المكتبة بعد وفاته وقفاً على مدرسة قرية « عيتات » مسقط رأسه تشرف عليها زوجته الانكليزية بالاشتراك مع لجنة من مشايخ القرية. وبالرغم من بقائها سالمة فانه لا ينتفع منها احد لما انتابهـا من الاهمال وقلة الترتيب بعد وفاة واقفها في ١١ ايار ١٩١٤

ثالثاً: مكتبات صيدا وجبل عامل

١ ـ مكتبة الجامع الكبير في صيدا

يُعرف الجامع الكبير في صيدا بالجامع العمري نسبة الى عمر بن الخطاب. وكان

(١) استندنا في اثبات عدد مجلدات هذه المكتبة الى رواية احد المقربين من غندور زيتونه والقاطنين بجواره

فيما قيل كنيسةً للنصارى ثم تحول الى مسجد في زمن الفتوحات الاسلامية .غير ان البحر طغا سنة ١٨٢٠ فقوّضه وجعله قاعاً صفصفاً. وما عتم ان تجدد بناؤهُ بطراز ظريف جداً واشتركت في نفقاته حكومة تلك المدينة وادارة اوقافها وبعض ذوي الاحسان . وهو الآن اجمل مسجد في صيدا ببنائه وهندسته وموقعه وسائر ميزاته.

والحق بالجامع العمري المشار اليه مكتبة احتوت على طائفة من الكتب قديمة وحديثة تغلب عليها المواضيع الدينية . والدخول الى المكتبة ومطالعة ما فيها من الاسفار مباحان لكل من اراد من روّاد العلم (١) .

٢ ـ مكتبات جبل عامل اجمالا وعبث الجزار فيها

لابناء الشيعة في جبل عامل صفحة ادبية سجلها لهم افاضل كتبتهم في القرون الاخيرة . وقد وردت تراجم هؤلاء الادباء في تآليف شتى نذكر منها . كتاب « امل الآمل » للشيخ محمد بن الحسن الحر العــــاملي . وكتاب « لؤلؤة البحرين » للشيخ يوسف البحراني . وكتاب « تراجم اعيان دمشق » تأليف ابن شاشو . وكتاب « الدر المنثور » للشيخ علي .وكتاب «الذريعة الى تصانيف الشيعة » لمحمد محسن الشهير بالشيخ آغا بزرك الطهراني وغيرها .

ولما كان المقال يطول بنا في سرد جميع من انجبه هذا الجبل في حقل الادب رأينا ان نقتصر على ذكر احدهم الشيخ زين الدين العاملي الجبعي (٩١١–٩٦٥هـ). فقد كان امام عصره في التحقيق وكثرة التصنيف مع الاجادة حتى بلغت مصنفاته ما بين مطول ومختصر ستين كتاباً . وبلغ ما كتبه بخط يده من الكتب مائة كتاب (٢)

وقد حمل الشغف بالادب فريقاً من ابناء الشيعة في جبل عامل على انشاء خزائن

---

(١) تاريخ صيدا : لاحمد عارف الزين : صفحة ١٠٨

(٢) مجلة المجمع العلمي العربي : مجلد ٩ سنة ١٩٢٩ صفحة ٣٤٤

حفلت بمخطوطات عربية كثيرة العدد متشعبة المواضيع . غير ان اكثرها ذهب ضحية الجهل والنهب والحريق بعدما اجتاحها الجزار وعاث فيها عام ١٢٠٩ للهجرة (١٧٩٤ م) . وحكاية ذلك انه حدث خلاف بين احمد باشا الجزار والي عكا واعيان الشيعة في جبل عامل ادّى الى ثورة اهالي هذا الجبل عليه. فجهّز الجزار جيشاً فتك بهم واهلكهم حتى افنى الحرث والنسل (١) .

وافضت الغباوة بالجزار الى ان ينهب مخطوطاتهم ويحتفظ بقسم منها في خزانة الجامع المعروف باسمه في مدينة عكا . وروى بعضهم انه وزّع قسماً آخر من تلك المخطوطات على افران عكا فظلت النيران تلتهمها مدة ثلاثة ايام بلا انقطاع . وبعد تلك النكبة لم يبق من ذخائر المخطوطات في جبل عامل الا ما سلم من مكتبة آل خاتون التي جمعت في ايام عزها خمسة آلاف مجلد (٢) .

٣ ـ اهم المكتبات الخاصة في جبل عامل

من اهم المكتبات الخاصة التي اشتهرت في جبل عامل مكتبة آل الصغير ومكتبة الشيخ ابرهيم يحيى ومكتبة الشيخ زين الدين. وكان الشيخ عبدالله نعمة يملك في قرية « جباع » خزانة مخطوطات عزّ نظيرها بين المكتبات الخاصة . ومن نفائسها « شرح المعلقات » وكتاب « تاريخ بغداد » في مجلدين وكتاب « رسوم دار الخلافة » وغير ذلك .

وقد تبعثر بتوالي الايام اغلب تلك المكتبات لان العسر المالي ضرب اطنابه بين سكان جبل عامل فاضطر اصحابها الى بيع مخطوطاتهم . فاقتنينا ما وجدناه بينها موافقاً ومفيداً من كتب الطب والفلك واللغة والادب والتاريخ .

وُعرضت طائفة مهمة من بقايا تلك المكتبات على الكردينال اغناطيوس

---

(١) مجلة « العرفان » في صيدا : لاحمد عارف الزين : مجلد ٥ صفحة ٢٣

(٢) مجلة « الآثار » في زحلة : لعيسى المعلوف : مجلد ٣ صفحة ٤٣٩

جبرائيل تبوني بطريرك السريان الانطاكي في بيروت . فانتقى عدداً غير يسير من نفائسها وغرائبها على اختلاف المواضيع والابحاث بينها كتب الفقه الجعفري مما لا اثر له في المكتبة الواتكانية برومة . وقد اهداها برمتها سنة ١٩٣٧ الى البابا بيوس الحادي عشر الذي اهداها بدوره الى المكتبة المذكورة .

اما المكتبات الخاصة التي أنشأها حديثاً ابناء الشيعة في صيدا وفي جبل عامل فهاك اشهرها : مكتبة الشيخ احمد عارف الزين منشىء مجلة « العرفان » بصيدا . ومكتبة الشيخ احمد رضا في النبطية . ومكتبة الشيخ سليمان الضاهر وغيرها. وهي من انفس المكتبات العصرية واغناها في الاصقاع المذكورة . ولا تخلو ايضاً من مخطوطات قديمة لها شأنها عند عشاق الآثار الكتابية .

رابعاً : مكتبات طرابلس الشام

١ ـ مكتبة الشيخ مصطفى الميقاتي

كان الشيخ مصطفى ابن ابي بكر الميقاتي من اجلاء اهل العلم في طرابلس. وقد اوقف مكتبة عظيمة سنة ١٠٨٨ هجرية (١) على الجامع الكبير المنصوري في المدينة المذكورة .

٢ ـ مكتبة آل كرامي

من اقدم الأسر واشهرها في طرابلس الفيحاء آل كرامي الذين تولوا فيها منصب الافتاء منذ نيف ومائة سنة. وقد انشأ جدهم المفتي عبد الحميد كرامي (١٢١٢ ـ ١٢٩٧ هـ) خزانة مخطوطات انتقلت بعد وفاته الى ابنه الشيخ مصطفى الذي خلف اباه في منصبه. وقد اعتنى الشيخ مصطفى بتلك الخزانة وزاد عليها

---

(١) تراجم علماء طرابلس وادبائها : صفحة ٥٦

حتى انه ما كان يدع مكتبة تُباع في المزاد العلني الا اشتراها. هكذا تجمعت لديه ما ينيف على ستمائة مخطوط تبحث في شتى المواضيع من دين وادب وتاريخ وفلسفة وطب وفلك وغيره وغيره .

ثم انتقلت هذه الخزانة الى حفيده الشيخ عبد الحميد كرامي (الثاني) الذي اضاف اليها كثيراً من المطبوعات اللبنانية والسورية والمصرية ومطبوعات الجوائب في الاستانة. وقد فتح ابوابها للباحثين والمنشئين يرتادونها للمطالعة . وفي مطلع سنة ١٩٤٥ تعين رئيساً للوزارة اللبنانية فساسها بالحكمة والنشاط والنزاهة.

٣ ـ مكتبة محمد باشا المحمد

كان محمد باشا المحمد زعيماً لعشيرته في عكار في النصف الاول من القرن الرابع عشر للهجرة. وقد انشأ في قريته « مشحا » خزانة كتب جمع فيها نحو مائتي مخطوط ما عدا الكتب المطبوعة وحبسها للنفع العام. ثم نُمي الينا ان الشيخ امين عز الدين قاضي طرابلس سابقاً ضم ما تبقى من المكتبة بعد وفاة منشئها الى اوقاف هذه المدينة ووضعها في الجامع المنصوري الكبير . لان بعض الايدي امتدت اليها واختلست قسما من مجلداتها .

٤ ـ مكتبة آل الجسر

يرتقي عهد هذه المكتبة الى الشيخ محمد الجسر (١٢٠٧-١٢٦١ هـ) الطرابلسي فقد جمع فيها كتباً صوفية وفقهية تستحق الاعتبار . ثم اضاف اليها ابنه الشيخ حسين (١٢٦١ ـ ١٣٢٧ هـ) اسفاراً ادبية وعلمية وتاريخية . وبعد وفاة الشيخ حسين اقتسم الكتب ولداه الشيخ محمد بن الجسر المتوفى سنة ١٣٥٣ للهجرة والشيخ نديم الجسر .

ولما عين الشيخ محمد بن الجسر رئيساً لمجلسي الشيوخ فالنواب منذ السنة

١٩٢٦ في الجمهورية اللبنانية اتخذ بيروت العاصمة مقراً لسكناه. وانتهز تلك الفرصة فنقل اليها حصته من المكتبة المذكورة . وبتوالي الايام زاد عليها كتباً قانونية ومجموعات باللغة الفرنسية وطائفة معتبرة من الكتب العربية . وتتألف هذه الخزانة من نحو ثلاثة آلاف مجلد بينها مائة وخمسون مخطوطاً عربياً . وهي الآن في حوزة نجله الاديب السيد رشاد الجسر.

٥ ـ مكتبة آل نشابه

انشأها الشيخ محمود نشّابه الازهري (١٢٢٨ - ١٣٠٨ هـ) الذي كان من افاضل عصره (١) في طرابلس الفيحاء . وقد خلف خزانة حافلة بالكتب العربية على اختلاف اصنافها لم يبق منها لعهدنا سوى مائتي مجلد اكثرها مخطوط (٢)

٦ ـ مكتبة آل المغربي

من بيوتات العلم القديمة في طرابلس الشام آل المغربي الذين قام منهم علماء اعلام. واشتهر منهم في عصرنا البحاثة اللغوي الشيخ عبد القادر نائب رئيس المجمع العلمي العربي بدمشق .

خلف اسلاف آل المغربي في طرابلس الفيحاء خزانة كتب معتبرة احتوت ماعدا المطبوعات على ثلاثمائة مخطوطات أتى على وصفها الشيخ عبد القادر في كتاب مخصوص لانها محفوظة لديه في دمشق . وقرأنا مقالا لصديقنا الاستاذ الجليل عبدالله مخلص عن محتويات هذه الخزانة النفيسة فالمع الى ما فيها من نوادر المخطوطات الدينية واشباهها . ثم سرد اسماء نفائس المخطوطات الادبية وما يتصل بها . وذكر ما تضمنته من الرسائل والمجاميع الثمينة التي لا وجود لنظيرها في غير خزائن . ومن شاء زيادة ايضاح عن ذخائر الخزانة المغربية فعليه ان يراجع كتاب صاحبها الشيخ عبدالقادر ومقال الاستاذ عبدالله مخلص (٣)

---

(١) تراجم علماء طرابلس وادبائها : صفحة ٩٤ - ٩٥ (٢) عن رسالة وجهها السيد مصطفى كرامي من طرابلس الى السيد صلاح عثمان بيهم في بيروت بتاريخ ٢٦ ايار ١٩٣٨
(٣) مجلة المجمع العلمي العربي : مجلد ١٨ صفحة ١٢٣ ـ ١٣٠

الفصل الثاني

خزائن كتب سوريا

اولا : مكتبات دمشق القديمة

١ ـ اشهر الخزائن المحبسة على الجامع الاموي

لا يكاد يخلو مسجد او مدرسة في عاصمة الامويين من خزانة كتب يطالعها العلماء ويرجع اليها ائمة الحديث . وفي طليعة خزائن دمشق نذكر خزانة الجامع الاموي التي حبس عليها فريق من ارباب الدين كتبهم ومصنفاتهم . فقد اثبت المؤرخون ان علي بن طاهر السلمي النحوي المتوفى سنة ٥٠٠ للهجرة كانت له حلقة في الجامع الاموي وحبس عليه كتبه . وكان لتاج الدين الكندي (٥٢٠-٦١٣هـ) ايضاً خزانة كتب في الجامع المشار اليه احتوت على كل نفيس ونادر [١] . ووقف شرف الدين بن عروة الموصلي خزائن كتبه على مشهد ابن عروة في الجامع الاموي عينه .

٢ ـ اشهر الخزائن المحبسة على المدرسة العمرية

كان في المدرسة العمرية خزائن كتب عديدة وقفها عليها اناس مشهورون . قال ابن طولون: وبها كتب السيد الحسيني وهي كتب نفيسة قيّمة. وبها كتب قوام الدين الحنفي، وبها كتب الشمس البانياسي. وبها كتب الحافظ بن عبد الهادي. وبها كتب شهاب الدين بن منصور . وبها كتب البدر بن ديوان الجيش. وفيها مصحف بخط علي (رضه). وبها ايضاً كتب ابن طولون نفسه وقد صارت اليوم الى المكتبة الظاهرية وعليها خطه.

---

(١) بغية الوعاة في طبقات اللغويين والنحاة : للسيوطي : صفحة ٢٤٩

وفي غرفة القرآن وهي المقصورة خزانتان شرقية وغربية كان يجلس عندهما شيوخ الاقراء. فيها مصاحف كثيرة زادها محمد بن المبارك واقف المدرسة الحاجبية بخط زين الدين بن الحبال . وقد تبدّد اكثر كتبها (١) .

٣ ـ اشهر مكتبات دمشق الخاصة في القرون الغابرة

احرزت مدرسة الطب في دمشق شهرة واسعة بجهود مؤسسها مهذّب الدين الدخوار في القرن السابع للهجرة . فقد جمع فيها كتباً كثيرة واقتنى لها من آلات النحاس التي يُحتاج اليها في علم الفلك ما لم يكن عند غيره . وحبس قطب الدين النيسابوري خزانة كتب مهمة على احدى مدارس دمشق . ونهج نهجه ابن رواحة الحموي المتوفى سنة ٦٢٢ للهجرة فحبس خزانة كتبه على مدرسة نُسبت اليه في دمشق. وذكر المؤرخون ان الملك الاشرف موسى حبس كتبه على المدرسة الاشرفية بدمشق ومات سنة ٦٣٥ للهجرة .

اما ابن ابي اصيبعة المؤرخ المشهور فقد كان له ولتلميذه ابن القف خزانة كتب عامرة في دمشق ايضاً . ولُقب بابي اصيبعة لانه كان يحمل في يده ستة اصابع بظهر ان الاخيرة منها كان « أُصيبعا » وقد توفي سنة ٦٤٩ للهجرة (٢) .

ومن خزائن دمشق القديمة الخاصّة خزانة تقي الدين اليلداني حبسها سنة ٦٥٥ للهجرة على المدرسة الفاضلية بالكلاّسية . وخلف الفتح الفارقي المتوفى سنة ٦٩٤ للهجرة الفين ومائتي مخطوط . وخلف بدر الدين بن غانم الدمشقي الفي مجلدة . ووقف علي الدفتري في القرن الحادي عشر للهجرة كتباً نفيسة غالية (٣).

---

(١) المدرسة العمرية : للدكتور محمد اسعد طلس (مجلة دمشق : مجلد ١ عدد ٧ صفحة ٣٧)
(٢) اطباء المستشفى النوري الكبير : بقلم الدكتور سامي حداد (مجلة الايمان : مجلد ١ نيسان ١٩٣٩ صفحة ٤٢) (٣) خلاصة الأثر : جزء ٣ صفحة ٢٠٠

٤ ـ مكتبات دمشق الخاصة في القرون الاخيرة

اما مكتبات دمشق الخاصة منذ القرن الحادي عشر للهجرة فصاعداً فاشهرها : مكتبة فضل الله الاسطواني الدمشقي (١٠٤٤ ـ ١١٠٠ هـ) الذي سافر الى بلاد الروم وحج وجمع من نفائس الكتب والذخائر ما لم يجتمع عند احد من ابناء عصره (١) . ومكتبة الشيخ حسن العمادي المتوفى سنة ١٠٤٠ للهجرة كان سريع الكتابة صحيح الضبط كتب بخطه الكثير من الكتب . وقد وقف جميع كتبه على طلبة العلم بدمشق وهي محتوية على كل نفيس (٢). واشتهر في دمشق الشيخ خير الدين الرملي (٩٩٣ ـ ١٠٨١ هـ) الذي خلف من المخطوطات ما ينوف عن الف ومائتي مجلد معظمها من نفائس الكتب في شتى العلوم . وكان لديه من الكتب نسخ مكررة انتفع بها خلق لا يحصون (٣)

ونبغ في دمشق درويش محمد الطالوي الارتقي (٩٥٠ ـ ١٠١٤) هـ) الذي كان ماهراً في كل فن من الفنون عظيم الذكاء فصيح العبارة . وكان منشئاً بليغاً حسن التصرف في النظم والنثر . ذكر ابن البوريني عن الطالوي انه شيد في داخل داره بيتاً صغيراً سماه « بيت الفتاوى وموضع الكتب » . فلما نقل كتبه الى البيت المذكور كان يصفّها ويرتبها وينظر فيها ويقلبها وهو ينشد هذا البيت:

أقلبها حفظاً لها وصيانةً فيا ليت شعري من يقلبها بعدي (٤)

وعُرف يوسف بن حسن بن عبد الهادي من علماء صالحية دمشق بجمع المخطوطات والحرص عليها . ادرك اوائل القرن العاشر للهجرة ووقف هذه الكتب في زهاء ستمائة مصنف لو عُدت مجلداتها لبلغت الفاً ونيفاً : بعضها من تصنيفه بخط يده وبعضها مجاميع شتى تشتمل على عدة مؤلفات ورسائل نبّه على عنوانها . وما

---

(١) خلاصة الأثر : جزء ٣ صفحة ٢٧٥ــ٢٧٦ (٢) خلاصة الأثر : جزء ٢ صفحة ٧٨
(٣) خلاصة الأثر : جزء٢ صفحة ١٣٤ـ١٣٩ (٤) خلاصة الأثر : جزء ٢ صفحة ١٤٩ـ١٥٥

كان منها بخط المؤلف نفسه مما يدل على شدة عناية القوم في ذلك العهد بانشاء المكاتب والتدقيق في الكتب (١)

وفي السنة ١٢٤٠ للهجرة وقف الشيخ خالد النقشبندي كتبهُ . وأوصى ان تكون التولية والنظارة عليها بيد اولاده الارشد فالارشد ثم اولادهم ما تناسلوا (٢) .

ثانياً : مكتبات دمشق الحديثة

١ ـ مكتبة الجامعة السورية

تأسست هذه الجامعة في ١٥ حزيران ١٩٢٣ وهي تُعد في العصر الحاضر مفخرة من مفاخر عاصمة بني امية . وقد شيدت لها الحكومة بناية فخمة في المرج الاخضر عند مدخل المدينة الغربي قريباً من بناية المتحف .

وتتكوّن هذه الجامعة من معهد الحقوق . ومعهد الطب والصيدلة . ومدرسة طب الاسنان . ومن فرعين للقوابل والممرضات . ويدرس الطلبة علومهم باللسان العربي على اساتذة وطنيين . وقد اخذ اساتذة الطب على عاتقهم احياء علوم العرب بتأليف الكتب وترجمتها وتلقينها . وأصدر المعهد الطبي منذ السنة ١٩٢٤ مجلته المعروفة باسمه فكانت همزة الوصل بين الشرق والغرب تنقل من علوم الافرنج الى الامصار العربية كل مستحدث مفيد .

وللجامعة السورية مكتبة تعتبر اليوم في طليعة جميع المكتبات الخاصة بدمشق الفيحاء. وهي منسّقة تنسيقاً فنياً يسّهل طرق الاستفادة لكل من امّها من اساتذة وطلبة وزوار. وعلى حداثة عهدها فان عدد ما احتوته من الأسفار بلغ زهاء عشرين

---

(١) خزائن الكتب في دمشق وضواحيها : بقلم حبيب زيات : صفحة ١٤

(٢) خزائن الكتب في دمشق وضواحيها : صفحة ١٥ — ١٦

الف مجلد بين عربي وافرنجي . وقد انهالت عليها الهدايا من مصادر شتى ولاسيما من الدولة الفرنسية التي اتحفتها بعددٍ وافر من الكتب العلمية الحديثة (١) .

٢ ـ مكتبة الامير عبد القادر الجزائري

ما من احد من الادباء يجهل منزلة هذا الامير الكبير الذي قرن السيف بالقلم وملك ناصيتي المجد والكرم. فانه بعدما طلق السياسة انصرف الى العبادة والعلم فكان مجلسه حافلا بالفقهاء والشعراء لا يفارقهم ولا يفارقونه. وله تآليف مفيدة في التصوف وعلم الكلام وبعض كتب ادبية. منها « ذكرى العاقل وتنبيه الغافل » نقله المستشرق غوستاف دوغـــا الى اللسان الفرنسي ثم طبعه سنة ١٨٥٨ في باريس (٢). وكان للامير سليقة شعرية ومن منظوماته قصيدة حماسية كثيراً ماتغنى في معاركه ضد الجيش الفرنسي باحد ابياتها الفخرية منشداً :

ومن عادة السادات بالجيش تحتمي   وبي يحتمي جيشي وتُحرس ابطالي

وازدان قصر الامير عبد القادر (١٢٢٢ — ١٣٠٠هـ و ١٨٠٧ — ١٨٨٣ م) بخزانة ضمّت انفس الكتب العربية والمصاحف الدينية من مخطوطـــات المغرب خصوصاً والاقطار الاسلامية عموماً. وقد اسعدنا الحظ فتعرفنا في حداثتنا الى هذا الامير الشهير وشاهدناه يطالع في خزانة كتبه فدهشنا بما فيها من غوالي الجواهر. وبعد وفاته عام ١٣٠٠ للهجرة تقاسمها ورثته العديدون فتشتت شملها وامست اثراً بعد عين (٣) .

---

(١) الجامعة السورية وآثرها في البلاد العربية : بقلم رضا سعيد (مجلة دمشق : مجلد ١ عدد ١٢ صفحة ٣١ — ٣٨) .

(٢) الآداب العربية في القرن التاسع عشر : تأليف لويس شيخو : جزء ٢ صفحة ٩٠-٩١

(٣) راجع ترجمة هذا الامير في كتاب « تحفة الزائر في مآثر الامير عبد القادر واخبار الجزائر»

٣ - مكتبة ابي السعود الحسيبي

كان للسيد ابي السعود الحسيبي هيام بجمع التحف النادرة من آنية قاشانية واسلحة ثمينة واقمشة جميلة الى غير ذلك مما كانت داره مزدانة به. وكلف خصوصاً بحشد الكتب فأنشأ خزانة حوت من المخطوطات وحدها اكثر من الف مخطوط. وكان يحب اقتناء الكتب الممتازة بجودة خطوطها وزخارف جلودها ويفضلها على ما تفردت به من المزايا العلمية. لانه غلب عليه حب الفنون الجميلة والآثار القديمة. وانتقلت تلك التركة الغالية الى نجله السيد احمد الحسيبي نقيب الاشراف في دمشق ثم الى ورثتها من بعدهما.

٤ - مكتبة محمود حمزة وحفيده خليل مردم بك

يتصل نسب السيد محمود حمزة الحسيبي باسرة قديمة جاءت من حرّان الى دمشق وتولى فضلاؤها نقابة الاشراف فيها عدة قرون حتى اشتهروا بآل النقيب. ثم اطلقت عليهم كنية «حمزة» نسبة الى حمزة الحرّاني احد اجدادهم.

ولد السيد محمود حمزة (١٢٣٦ - ١٣٠٥ هـ) بدمشق. وأحكم دروسه على افاضل علمائها. واعتكف منذ صباه على المطالعة والتدريس والتأليف والنظم. وتولى في السنة ١٢٨٤ للهجرة افتاء الديار الشامية واحرز مراتب علمية وأوسمة شريفة. واتحفه نابليون الثالث امبراطور فرنسا بجفتٍ مذهب في صندوق من عاج اقراراً بما صنعه من المبّرات الى نصارى دمشق على اثر حادثة سنة ١٨٦٠ المشؤومة. وكان صادقاً في قوله وفعله مقصوداً في قضاء الحاجات يحبّه الناس على اختلاف نحلهم. وكان اذا مرّ بطريق وقف له المارّون مهابة واجلالا وتسابقوا الى تقبيل يديه.

وحرص السيد محمود حمزة على اوقاته حرصاً ساعده على نظم القصائد البديعة

وعلى النهوض بمشاغله العديدة وتآليفه الجمة التي لا تقل عن الاربعين مجلداً (١) .
وورث السيد حمزة عن اجداده خزانة كتب غنية بمخطوطات قديمة . واضاف هو اليها شيئاً كثيراً مما اقتناه مدة حياته او نسخه بخطه الجميل الذي كان آية في الروعة والجودة . ويقال ان بعض تلك الكتب اتصل بحفيده الاديب الكبير خليل مردم بك امين السر العام للمجمع العلمي العربي. وهو يضنّ بها كل الضنانة . وقد ضمها الى خزانة كتبه التي تُعد على قلة عدد مجلداتها من اثمن المكتبات الخاصة وانفسها . وادركنا نحنُ السيد محمود حمزة في اواخر ايامه وجالسناه فاكبرنا علمه وفضله ومزاياه. ونظمنا في مدحهِ قصيدة بعثنا بها اليه من غابة ارز لبنان ونشرناها في ديواننا « قرة العين » (٢)

٥ ـ مكتبة ابي اليسر عابدين

يُعتبر آل عابدين من اقدم الاسر الدمشقية واشهرهم بالعلم والوجاهة . ولديهم خزانة كتب عززها سليلهم ابو اليسر عابدين انطوت على نيف وخمسمائة مخطوط فيها نوادر فريدة وذخائر عديدة .

٦ ـ مكتبة طاهر الجزائري

لا حاجة الى تعريف الشيخ طاهر الجزائري (١٢٦٨ – ١٣٣٨ هـ) وحسبهُ انه كان من اركان النهضة العلمية الحديثة في سوريا . ومن مآثره انه جمع خزانة كتب فيها بضعة آلاف مجلد كان معظمها مخطوطاً وبينها امهات ونفائس. وقد نقل اكثرها من دمشق الى القاهرة (٣) فابتاعها صاحب الخزانة التيمورية الشهيرة (٤) . وتفرغ

---

(١) تراجم مشاهير الشرق : جزء ٢ صفحة ١٨٧ ـ ٢٨١

(٢) ديوان « قرة العين » :صفحة ٦٣ ـ ٦٤

(٣) المشرق : مجلد ١٨ سنة ١٩٢٠ صفحة ١٤٨

(٤) مجلة « الآثار » في زحلة : مجلد ٣ سنة ١٩١٣ — ١٩١٤ صفحة ٤٣٦

الشيخ طاهر للتأليف فوضع كتباً عديدة تنقّل في مواضيعها من ادبية الى علمية الى دينية الى لغوية دلت على اجتهاده واتساع ذكائه . ونشر كتباً لقدمــاء المؤلفين وسعى لتعزيز الآداب العربية واحياء التاريخ بين قومه . ومن مخلفاته المخطوطة التي لم تنشر بالطبع كتابه « التذكرة الطاهرية » بحث فيه عن نوادر المخطوطات فوصفها واشار الى محل وجودهــا (١) . ويقع هذا الكتاب في عشرين مجلداً بنيف يتمنى النـاطقون بالضاد ان يُطبع تعزيزاً للادب والتاريخ . وهو الآن في حوزة المجمع العلمي العربي .

وصرف الشيخ طـاهر حياته منقطعاً الى مطالعة المخطوطات والتنقيب في المكتبات وتنظيمها ووضع فهارس لها تسهيلاً لاهل البحث . فاصبح مرجعاً للعلماء والمستشرقين يفاوضونه ويستندون الى معارفه في كل ما يتعلق بفن المؤلفات وعلم وصف الكتب. وقد تولى في شهر تشرين الاول ١٩١٩ ادارة المكتبة الظاهرية التي سعى لتأسيسها قبل اربعين سنة في عهد مدحت باشا والي سوريا. غير ان المنية عاجلته مصاباً بالربو الصدري في ٨ كانون الثاني ١٩٢٠ (١٦ ربيع الاخر ١٣٣٨) فكانت خسارته جسيمة على العلم واللغة (٢) .

٧ ـ مكتبة جمال الدين القاسمي

اشتملت هذه الخزانة على مئات المخطوطـات الطريفـة لان جمـال الدين لم يكن يقتني المخطوط الا لميزة خاصة بـــه او لنادرة لم ترد في غيره من نسخ ذلك الكتاب . وتفرد بحرصه على ان يكون موضوع كل مخطوط مشتملاً على قيمة علمية او طرفة فنية . وعلى رغم تقواه وسعة معارفه قلّ ما اكترث لاقتناء كتب الدين واللغة والادب لوفرة عددها وكثرة تداولهـا بين ايدي الطلبة والعلماء. وقد لبّى

(١) الآداب العربية في الربع الاول من القرن العشرين للاب شيخو : صفحة ٩٦

(٢) المشرق : مجلد ١٨ سنة ١٩٢٠ صفحة ١٤٤ — ١٤٨

داعي المنون سنة ١٣٣٢ للهجرة وهو في التاسعة والاربعين من سنيه . وخلف نحو عشرين مؤلفاً معظمها ديني (١) .

٨ ـ مكتبة آل الطنطاوي

لا نستطيع السكوت عن خزانة وحيدة في بابها انشأها آل الطنطاوي من قديم الزمان وتوارثها الخلف منهم عن السلف . وقد جمعوا فيها مخطوطات وادوات في العلوم الفلكية لم تزل باقية لديهم حتى الآن يضنون بها ويحافظون عليها .

٩ ـ مكتبة عبد المحسن الاسطواني

للشيخ عبد المحسن الاسطواني قاضي دمشق الشام خزانة عامرة تشتمل على ما نفس من المخطوطات والمطبوعات . لكنها لسؤ الحظ مقفلة بوجه الخاصة والعامة لا ينتفع احد بكنوزها العلمية . وقد ُمنيت هذه المكتبة باضرار جسيمة اثناء حريق اندلع لسان لهيبه في سوق الحميدية بدمشق . فاتصل بمخطوطات المكتبة وشوه محاسنها وأتلف جانباً منها (٢) .

١٠ ـ مكتبة محمد كردعلي

للاستاذ محمد كردعلي منزلة رفيعة احرزها بثقافته وحصافته وجهوده. وليست حياته الا سلسلة مآثر جليلة قرن فيها العلم بالعمل. فمن اشتغال في الصحافة الى تأليف كتب مستجادة الى رحلات علمية الى محاضرات تاريخية الى مراسلات ادبية الى جمع مخطوطات وتعزيز مكتبات الى تنقيب عن آثار قديمة الى عضوية في مجمع اللغة العربية الملكي الى تأسيس المجمع العربي الى غير ذلك من المفاخر الباهرة.

---

(١) مجلة « الاثار » : مجلد ٣ سنة ١٩١٣ — ١٩١٤ صفحة ٤٣٠

(٢) خطط الشام : لمحمد كردعلي : مجلد ٦ صفحة ٢٠٤

هذا هو الاستاذ محمد كردعلي وزير المعارف سابقاً في الدولة السورية ورئيس المجمع العلمي العربي بدمشق ومؤلف الكتب العديدة وفي طليعتها كتابه « خطط الشام ». وقد تجلت فيه تلك المآثر وهذه المفاخر بانشائه في داره خزانة عامرة ضم اليها كل غال من كتب التاريخ واللغة والفن والادب. ورتبها ترتيباً نم عن سلامة ذوقه فضلا عن شدة كلفه بجمع الكتب. وهي تنفرد بما حوته من الاسفار العربية التي نشرها المستشرقون على اختلاف بلدانهم ولغاتهم في اهم العلوم البشرية . اما مخطوطات مكتبته فقد اهداها برمتها الى الخزانة التيمورية في القاهرة وكانت على جانب من الخطورة والنفاسة.

١١ ـ مكتبة احمد الزيناتي

ليس احمد الزيناتي من ارباب الثروات او حملة الاقلام . لكنه صانع احذية في دمشق أولع منذ صباه بجمع المخطوطات المزخرفة وبدائع آثار الخطاطين. فكوّن منها خزانة معتبرة تعد وحيدة من نوعها في جميع الامصار العربية . وقد اقتنى طائفة منها مصطفى نور باشا الذي كان من اكبر غلاة المخطوطات المستبدعة في وادي النيل .

١٢ ـ مكتبة آل القوتلي

تُعتبر اسرة القوتلي من اوجه الاسر الاسلامية واقدمها في دمشق . ومن هذه الاسرة قام السيد شكري بك القوتلي رئيس الجمهورية السورية في زماننا الحاضر . وكان في حوزة آل القوتلي مكتبة عامرة اثبت عيسى اسكندر المعلوف ان مخطوطاتها بلغت نحو ثمانمائة فيها نوادر (١) .

---

(١) مجلة الآثار في زحلة : مجلد ٣ سنة ١٩١٤ صفحة ٤٣٧

١٣ ـ مكتبة الشيخ عبد الرزاق البيطار

اشتد ولع الشيخ عبد الرزاق البيطار بالمخطوطات القديمة تاريخية وادبية حتى انه جمع منها في داره بالميدان نحو الفي مخطوط والفي مطبوع . من جملتها مؤلفات ابن طولون الدمشقي ونظائرها من نوادر المؤلفات التي قلما احتوت عليها مكتبة غيرها . وقد ذهب منها قسم وبقي فيها قسم آخر . ومن نفائس هذه المكتبة مجموعة تاريخية عن العرب بخط الدملاسي المصري تنطوي على تحقيقات لا اثر لها في غير هذة المجموعة . وعلى هوامشها تعاليق بخط ابن مفلح من علماء القرن العاشر للهجرة . وفيها كتاب « تاريخ البلدان » لابي بكر السمرقندي وهي نسخة وحيدة في العالم كتبت عام ٦٩٠ للهجرة (١٢٩١ م) . وفيها ايضاً كتاب « المعزّة في ما قيل في المزّة » وكتاب « اخبار القلعة الدمشقية » وهما مخطوطان لابن طولون المذكور آنفاً. وقد انتقلا كلاهما من مكتبة آل البيطار الى الخزانة المعلوفية بزحلة

١٤ ـ مكتبة آل الغزي

آل الغزّي أسرة علمية في دمشق قديمة العهد نبغ منها مؤلفون كثيرون . واليهم يرجع الفضل في اقتناء خزانة حفلت بالمخطوطات الوافرة العدد والمختلفة المواضيع . وقد اتصلت على ممر الزمان باولاد احد علمائهم الشيخ اسمعيل الغزي . ومن نفائسها كتاب « الكواكب السائرة لاعيان المائة العاشرة » تأليف النجم الغزي . ولسنا ندري نسخة سواها لهذا المؤلف وهي اليوم في حوزة الجامعة الاميركية ببيروت . وعنها نقل احمد تيمور باشا نسخة ضمها الى خزانته التيمورية بالقاهرة .

وفي مكتبة الشيخ اسمعيل الغزي كتاب « التذكرة الكمالية » لجده الشيخ كمال الدين الغزي الصدّيقي الدمشقي المتوفى سنة ١٢١٤ للهجرة وبخط يده . وهذا المخطوط النفيس الوحيد من نوعه يقع في اربعة عشر مجلداً تبحث في التاريخ والادب والتراجم وغير ذلك .

١٥ ـ مكتبة آل اليوسف

انشأها محمد سعيد باشا شمدين الذي عينته السلطنة العثمانية اميراً للحج سنة ١٢٨٦ للهجرة. فخدم هذه الوظيفة اعواماً طوالا واحرز ثروة عظيمة واقتنى اطياناً واسعة. وعلى رغم ثقافته الضئيلة أولع بالمخطوطات فحشد منها طائفة كبيرة دفع اثمانها اضعاف قيمتها وزين بها قاعات قصره . وبعد وفاته انتقلت تلك المكتبة الى حفيده عبد الرحمن باشا اليوسف الذي خلفه ايضاً في امارة الحج .

١٦ ـ مكتبات آل الخطيب

اشتهر آل الخطيب في دمشق بشغفهم الغريب بجمع الكتب . وقد روى لنا احدهم اسماء بعض افرادهم الذين احرزوا خزائن غنية بالمخطوطات العربية: فالشيخ ابو الفرج الخطيب احتوت خزانته على اربعمائة مخطوط. ولا يقل عدد مخطوطات خزانة ابي الخير الخطيب عن الثلاثمائة مخطوط. اما ابو الفتح الخطيب الذي اختصر « تاريخ ابن عساكر » فقد اشتملت مكتبته على نيف واربعمائة مخطوط.

١٧ ـ مكتبة الشيخ عطا الكسم

كان الشيخ عطا الكسم مفتي دمشق من جملة العلماء والفقهاء لا يفتر عن البحث والمطالعة. وُعني في حياته باقتناء خزانة جمعت من المخطوطات العربية ما لم يجتمع مثله في سواها من مكتبات الافراد. وقد ضُمت بعد وفاته عام ١٣٥٦ للهجرة الى خزانة نجله الشيخ حسني الكسم الذي يُعتبر لعصرنا هذا حجة في علم المخطوطات. ذلك ما حدا المجمع العلمي العربي في اول عهد تأسيسه على تعيينه خازناً لدار الكتب الظاهرية .

١٨ ـ سائر المكتبات الاسلامية الخاصة في دمشق

ما عدا المكتبات الخاصة التي سبق ذكرها فان مدينة دمشق اشتملت على مكتبات اخرى اليك اهمها : مكتبة الشيخ خالد الصاحب. ومكتبة عبد المجيد السقطي. ومكتبة احمد ابي الفتح . ومكتبة آل الكزبري. ومكتبة آل المرادي. ومكتبة الشيخ اديب تقي الدين نقيب الاشراف وغيرها .

ثالثاً : مكتبة عبده الخطيب في الصنمين بحوران

الصنَمين قرية في حوران شُيدت على انقاض مدينة قديمة حوت آثاراً كتابية يونانية . يبلغ عدد سكانها في عصرنا زهاء الف وخمسمائة نسمة جميعهم مسلمون سنيون.

نشأ في الصنمين شيخ يقال له عبده الخطيب انتزح في حداثته عن مسقط رأسه والتحق بفريق من الحجاج المغاربة .ثم سافر معهم الى المغرب الاقصى فطاف المدن والدساكر حتى القى عصاه في تطوان وسكنها اعواماً طوالا. واقتبس هناك صناعة الطب على بعض شيوخ مهروا فيها وتعاطوها خلفاً عن سلف . ولبث يزاولها هناك ريثما بلغ من السن عتياً . وعادت عند ذاك الى ذهنه ذكريات عهد الصبا فشد رحاله الى الصنمين قريته وفيها توفي دون عقب بالغاً الثمانية والثمانين من سنه .

خلف الشيخ عبده الخطيب خزانة مخطوطات ثمينة معظمها في الطبابة والنجامة والسحر. وقد اقتناها اثناء اقامته في المغرب ورحلاته الطويلة الى الامصار العربية. ولا يُعلم ماذا حل بها بعد وفاته عام ١٩١٩

امّا طريقة الشيخ عبده في الطبابة فكانت تستند الى طب الرازي وابن سينا واشباهها . وقد لازمه في اواخر ايامه الحكيم الياس فضول اللبناني فتلقى عنه الطبابة العربية القديمة وهو يزاولها الآن بمهارة وامانة .

رابعاً : مكتبة دوما

دوما قرية من قرى الغوطة بضواحي دمشق فيها جامع من اجمل الجوامع(١). وكان هذا الجامع يشتمل على مكتبة قديمة العهد عامرة بالمخطوطات الكثيرة تفقّدها الرّحالة الشيخ خليل الخالدي في نواحي السنة ١٣٣٥ للهجرة . فروى انها حوت كثيراً من كتب الحنابلة (٢). وافادنا احد العلماء الذين عموا دوماً في الاعوام الاخيرة ان مكتبتها اصبحت قاعاً صفصفاً لا ترى فيها عوجاً ولا أمتاً . لان ايدي المشرفين عليها لعبت بها فنهبوها على بكرة ابيها .

خامساً : مكتبات حمص

كانت حمص من اهم عواصم الادب في العصر العربي الذهبي . وكانت خزائن الكتب فيها عامرة وافرة . غير انه انتابها ما انتاب غيرها من الغوائل في اثناء الفتوحات والنكبات العامة . فتبعثرت مخطوطاتها ولم يسلم منها الا ما قلّ ودلّ لدى بعض البيوتات القديمة وهي :

المكتبة الجمالية ـ انشأها العالم الفقيه الشيخ جمال الدين الجمالي . ولا تحوي اقل من الف وخمسمائة مجلد من الكتب المهمة بين مخطوط ومطبوع . ثم المكتبة الاتاسيّة ـ اسسها آل الاتاسي في حمص تشتمل على نحو اربعمائة مخطوط ما عدا المطبوع . واكثر مخطوطاتها تبحث في الادب والتاريخ والطب واللغة والفلك والدين . والمكتبة الجنديّة ـ يرتقي عهدها الى الشيخ امين الجندي (١١٨٠ ـ ١٢٥٧ هـ) الذي كان من اشعر شعراء زمانه (٣) وفيها مخطوطات نفيسة وقديمة

---

(١) خطط الشام : مجلد ٦ صفحة ٦٥ (٢) كتاب «مجمع الآثار العربية» بقلم ابرهيم السيد عيسى المصري : جزء ١ صفحة ١٢٦ (٣) طالع ترجمة الشيخ امين الجندي في مخطوط عنوانه « حلية البشر » للبيطار . وفي كتاب « الآداب العربية في القرن التاسع عشر » للاب لويس شيخو : جزء اول صفحة ٥٤ ـ ٥٥

اطّلعنا عليها عام ١٩٠٤ اثناء زيارتنا حمص للمرة الاولى . وقس على ذلك المكتبة العبودية والمكتبة الكيلانية والمكتبة السباعية وغيرها.

سادساً : مكتبات حماة

١ ـ المكتبة النورية

اسسها نوري باشا الكيلاني عام ١٨٨٠ ثم زاد عليها نجله هاني بك طـائفة من الكتب العصرية والكتب القديمة . وقد سبّلها المؤسس على طلاب العلم فافرز لها مكاناً خاصاً في جامع جده الشيخ ابرهيم الكيلاني الكائن بصقع السوق . وهي مفتوحة الابواب للجميع يؤمونها يومياً في اوقات معينة للدرس والمطـالعة . وما عدا الكتب المطبوعة التي لا يزيد الآن عددها على الف وخمسماية كتاب فانها تشتمل ايضاً على مخطوطات يقرب عددها من مائتي مجلد ورسالة .

٢ ـ مكتبة الشيخ سعيد النعساني

للشيخ سعيد النعساني مفتي حماة ولع شديـد بجمع الكتب انشأ منها في منزله خزانة جديرة بالاعتبار . وقـد اقتفى في ذلك آثار استاذه الشيخ طاهر الجزائري (١٢٦٨ – ١٣٣٨ هـ) الذي سبقنـا فـذكرناه في مكتبـات دمشق . واشتملت خزانة النعساني على اربعة وستين مخطوطاً متنوعة المواضيع ما عدا الكتب المطبوعة وهي متوفرة العدد

٣ ـ سائر المكتبات الاسلامية في حماة

في حماة خزائن كتب خاصة تحتفظ بها بعض الاسر القديمة لم نتوفق الى العثور على اخبارهـا ووصف مخطوطاتها . انما عرفنا منها اسماء الخزائن الآتي بيانها وهي:

مكتبة الشيخ عارف القوشجي ومكتبة اديب الحوراني ومكتبة الشيخ مفيد لطفي. اما اهمها واغناها ولا سيما بالكتب العصرية فهي مكتبة المرحوم الدكتور توفيق جيجكلي نائب مدينة حماة في مجلس النواب السوري كما سلف القول

سابعاً : مكتبات حلب في العصور الغابرة

١ ـ خزانة الفارابي

كان لفيلسوف الاسلام ابي نصر الفارابي (٣٣٩ ه) خزانة كتب معتبرة في حلب تنطوي على كل نادر من اسفار الحكمة والفلسفة والموسيقى وغيرها. ويُروى عن لسانه هذان البيتان (١) :

من على يمنى خزانة كتبي   وعلى يسرتي خزانة شربي

فاذا ماصحوت اعملتُ فكري   واذا ما سكرتُ اعملت قلبي

٢ ـ خزائن بني جرادة

اشتهرت خزانة بني جرادة في القرن السادس للهجرة بحلب وقد نبغ منهم علماء عديدون . وكتب احدهم وهو ابو الحسن ابن ابي جرادة بخطه ثلاث خزائن من الكتب النفيسة وخزانة لولده ابي البركات وخزانة لابنه عبدالله . وحلت وفاته عام ٥٤٨ للهجرة (٢). وقام من بني جرادة كمال الدين عمر بن احمد هبة الله المعروف بابن العديم (٥٨٨-٦٦٦ ه) المؤرخ والمحدث والشاعر. ومن تآليفه : « تاريخ حلب

---

(١) كتبخانهاى ايران : بقلم عبد العزيز الجواهري : صفحة ٩٧ - ٩٨ (٢) خطط الشام : مجلد ٦ صفحة ١٩٣

و « الدراري في الذراري » و « رفع الظلم والتجرّي عن ابي العلاء المعري » و « الاخبار المستفادة في ذكر بني جرادة » (1).

ومما نظمه ابو الحسن بن ابي جرادة المشار اليه ابياتٌ كتبها بليقة مزج مدادها بالذهب (2) قال :

ما اخترتُ الا اشرف الرتبِ — خطاً أخلّدُ منه في الكتب
والخط كالمرآة ننظرها — فنرى محاسن صورةِ الادب
هو وحده حَسبٌ يُطال به — إن لم يكنْ الاّ من حَسبِ
ما زلتُ أنفق فيه من ذهبٍ — حتى جرى فكتبتُ بالذهبِ

٣ ـ خزائن سيف الدين ارغون وبني الشحنة وبني الخشاب وغيرهم

من المكتبات العامرة بالمخطوطات قديماً : خزانة الامير سيف الدين ارغون نائب حلب المتوفى سنة ٧٣١ للهجرة. وخزانة بني الشحنة. وخزانة بني الخشاب. وخزائن كتب المدارس الكبرى كالعصرونية والحلوية والشرفية والرواحية وغيرها. وقد اندثرت على يد الطاغية تيمورلنك في اواخر القرن الرابع عشر للميلاد.

٤ ـ مكتبات جامع منكلي بغا ودار الحديث واوكوز محمد باشا

من المكتبات القديمة في الشهباء « مكتبة جامع منكلي بغا » وقد أنشىء ذلك الجامع سنة ٧٦٧ للهجرة وهو معروف الآن بجامع الرومي في محلة باب قنسرين. وكانت الكتب موضوعة في خزانة متقنة محكمة فيها الصنائع العظيمة. ومنها

---

(1) فوات الوفيات : جزء ٢ صفحة ١٠١ وارشاد الاريب : جزء ٦ صفحة ١٨
(2) اعلام النبلاء بتاريخ حلب الشهباء : جزء ٤ صفحة ٢٦٧

« مكتبة دار الحديث » التي امر ببنائها احمد مطاف باشا في محلة الجلوم (١).
واشتملت مكتبة اوكوز محمد باشا المتوفى سنة ١٠٠٢ للهجرة على مكتبة حافلة اسسها الشيخ احمد القاري واودعها نفائس المخطوطات. وبتوالي الازمنة لعبت بها ايدي العابثين فمزقتها كل ممزق. ولم يسلم منها الا بقية يسيرة وُضعت في خزانة صغيرة ضمن الحجرة التي دُفن فيها الشيخ المشار اليه (٢)

٥ ـ الخزانة الاحمدية

في القرن الثاني عشر للهجرة أنشئت في حلب مكتبة معتبرة اطلق عليها اسم « المكتبة الاحمدية » التي أسسها احمد الجلبي طه زاده احد المتحدرين من سلالة الشيخ كليب (٣). وقد وقف عليها ما اقتناه من المخطوطات النفيسة والآلات الفلكية حتى اناف عدد تلك المخطوطات على ثلاثة آلاف مجلد (٤). نذكر منها : « تاريخ الحافظ ابن كثير » في عشرة مجلدات وقد طُبع في حلب (٥).
ومن جملة نفائسها اسطرلاب نحاسي بديع الصنعة لا تقلّ قيمته عن خمسين ليرة ذهبية. وتحوي المكتبة كذلك كُرتين قديمتين : الواحدة سماوية والاخرى ارضية قلما تجد كرة معاصرة لها في المتاحف الاوروبية نفسها. اما متولي هذه المكتبة في عهدنا فهو عبد اللطيف افندي احد احفاد احمد الجلبي ومركزها في حي الجلوم بحلب.

٦ ـ الخزانة العثمانية ومكتبة محمد البخشي

نضيف الى المكتبات السابقة الذكر مكتبتين مهمتين أنشئتا في القرن الثالث عشر

---

(١) مجلة المجمع العلمي العربي : مجلد ١٥ سنة ١٩٣٧ صفحة ٣٠٤
(٢) اعلام النبلاء بتاريخ حلب الشهباء : تأليف محمد راغب الطباخ : جزء ٦ صفحة ١٣٠
(٣) منظومة الشيخ وفا في اولياء حلب: مخطوطة المكتبة الشرقية : رقم ١٥٩٨ سطر ٤٠٧
(٤) اعلام النبلاء بتاريخ حلب الشهباء : جزء ٧ صفحة ٦٧
(٥) مجلة المجمع العلمي العربي : مجلد ١٦ سنة ١٩٤١ صفحة ١٢٩

للهجرة : الاولى «الخزانة العثمانية» أسسها عثمان باشا الدوركي باني المدرسة العثمانية. ومن اثمن مخطوطاتها كتاب «انباء الغمر بابنـــاء العمر» تأليف الحافظ الامام الشيخ احمد بن علي بن حجر العسقلاني. وهو مخطوط نادر يقع في مجلدين ضخمين يتضمنان حوادث مصر وغيرها من يوم ولادة المؤلف سنة ٧٧٣ حتى وفاته سنة ٨٥٢ للهجرة (١) . اما المكتبة الثانية: فتُعزى الى محمد البخشي شيخ سجادة التكية الاخلاصية في محلة البياضة. واورد الشيخ وفا في منظومته ذكر محمد البخشي قال (٢) :

اما خليفة الولي اخلاصِ	محمد البخشي فخاص الخاصِ
اولُ آخذٍ من البخشية	عنه الطريق وهي خلوتية
كان وعـاء جامع العلوم	يجول في المنطوق والمفهوم
حبراً مدققاً وفي الحديث	خاتمة الحفاظ في التحديث
وكان قدحج ومات في الحرم	دُفن في الحجون موفور الحرم

ثامناً : مكتبات حلب الاسلامية في الزمان الحالي

تُعرف لعصرنا هـذا في حلب عدة مكتبات اسلامية خاصة انطوت على كمية معتبرة من المخطوطـــات فضلاً عن المطبوعات . اليك اشهرها : خزانة صالح آغا الكتخدا . وخزانة آل العزي. وخزانة ال الكواكبي. وخزانة مرعي باشا الملاح. وخزانة زكي بك آل حميد باشا . وخزانة الشيخ محمد الزرقاء . وخزانة آل المدرس انشأها الحاج حسين سليلهم .

وفي الاعوام الاخيرة عنيت ادارة الاوقاف في حلب بجمع ما تبقى من خزائن المخطوطات المبعثرة في الجوامع والكتاتيب التابعة لها . وصيانةً لها من السلب

---

(١) مجلة المجمع العلمي العربي : مجلد ١٦ سنة ١٩٤١ صفحة ١٢٨ — ١٢٩

(٢) منظومة الشيخ وفا في اولياء حلب : مخطوطة المكتبة الشرقية : رقم ١٥٩٨ سطر ٧٠-٧٤

والنهب حصرتها في « المدرسة الشرَفية » وراء الجامع الكبير. واهم تلك الخزائن: خزانة محمد الجزار . وخزانة الشيخ ابي بكر صاحب المزار (١) المشهور بحلب . والخزانة المنصورية. وخزانة جامع السكاكيني. وخزانة المدرسة الاسمعيلية. وخزانة الحاج عبد القادر الجابري مفتي حلب . وقد ابتاعت ادارة الاوقاف بعض كتب مطبوعة فتألف منها ومن خزائن تلك المخطوطات مكتبة عامرة يؤمل لها مستقبل حسن .

واحسن مكتبة خاصة في حلب تفقدها العلامة الأب لويس شيخو وميّزها بالوصف مكتبة اسعد بك العينتابي . فقد جمع فيها منشئها معظم مطبوعات الشرق العربية مع بعض المخطوطات الدينية القديمة العهد البديعة الخط : بينها ما كتبه المصنفون بايديهم فتضاعفت قيمته (٢) .

وللاسرة الكيالية بحلب كلف خاص بالكتب . وممن اقتنى مكتبات من افرادها نذكر : الدكتور عبد الرحمن الكيالي والمفتي الشيخ عبد الحميد الكيالي . وضمت مكتبة سامي بك الكيالي زهاء الفي مجلد يغلب فيها الطابع الادبي والتاريخي. وفيها قسم من مطبوعات المستشرقين في اوروبا . وهي المكتبة الخاصة الوحيدة التي يُرجع اليها اليوم في الادب الحديث .

نضيف الى ما تقدم خزانة حديثة العهد انشأها خير الدين الاسدي الذي جمع فيها احاسن الكتب العصرية ونسقها تنسيقاً فنياً . ويؤثر عنه انه كان يضن على نفسه بما لذ وطاب ليتسنى له تعزيز هذه الخزانة وتنميتها . وقد ضُمت الى دار الكتب الوطنية في حلب كما سلف القول .

---

(١) طالع رسم هذا المزار في مجلة « المشرق » مجلد ٣٥ سنة ١٩٣٧ صفحة ٤٠٥

(٢) رحلة حديثة الى الشهباء : للاب شيخو (المشرق : مجلد ١٩ سنة ١٩٢١ صفحة ٧٥٦)

الفصل الثالث

خزائن كتب فلسطين

اولا - مكتبات القدس الشريف

لما انتهينا في ابحاثنا الى المكتبات الاسلامية في القدس الشريف استعنّا بمعارف العلاّمة الاستاذ احمد سامح الخالدي رئيس الكلية العربية في تلك المدينة . وهو نجل الحاج راغب مؤسس المكتبة الخالدية الشهيرة . فقد اتحفنا بما لديه من المعلومات عن تلك الخزائن التي حوت كنوزاً يعزّ وجود نظيرها في بـــلد آخر . وها نحن نسرد اسماء تلك المكتبات ونضم اليها ذكر مكتبات اخرى فات الاستاذ احمد سامح التنويه بها وهي :

١ - مكتبة الشيخ خليل جواد الخالدي : لهذا الشيخ معرفة واسعة بالكتب ومؤلفيها ومواضيعها واثمانها ومزاياهاوكل ما يتعلق بها. وقد تفوق بعلم المخطوطات فاحكمه ونبغ فيه حتى اصبح علماً من اعلامه. وتعهد مكتبات الاستانة واستنسخ كثيراً من نوادر مخطوطاتها. وجمع في خزانته الخاصة زهاء خمسة آلاف مجلد عربي بينها الف مخطوطة. وحلت وفاته سنة ١٣٦٠ للهجرة.

٢ - المكتبة الخنبلية : هذه المكتبة تخص اسرة « قطينة » بالقدس الشريف. وتشتمل على اربعة آلاف مجلد في جملتها ثمانمائة مخطوطة.

٣ - مكتبة حسن الترجمان : اسس هذه المكتبة حسن بك الترجمان الصالح. فعني بجمع كل ما وقع تحت يده من مخطوط ومطبوع حتى بلغ عدد ما جمعه ثلاثة آلاف مجلد بينها تسعمائة مخطوط عربي.

٤ – مكتبة عبدالله مخلص : أنشئت هذه المكتبة اول بدء في عكا ثم نقلها صاحبها الى القدس الشريف. وهي تحوي حوالي ثلاثة آلاف مجلد بينها مائة وعشرة مخطوطات .

٥ – مكتبة الشيخ الخليلي : – هو صاحب « الفتاوى الخليلية » الشهيرة المتوفى سنة ١١٤٧ هـ وقد جمع في خزانته طائفة معتبرة من الكتب بينها نحو خمسمائة مخطوط عربي .

٦ – مكتبة الكلية العربية : تأسست الكلية العربية عام ١٩٢٠ وتحتوي على خزانة تنيف مجلداتها على اربعة آلاف كتاب .

٧ – مكتبة البُديري : ان مخطوطات هذه الخزانة بلغت الف مجلد .

٨ – مكتبة احمد سامح الخالدي : تحتوي على اكثر من مائة مخطوط عدا الكتب المطبوعة . ومن مخطوطاتها : نسخة من كتاب « الانس الجليل » مؤرخة في السنة ٩١٠ للهجرة . وكتاب « الخميس » للديار بكرلي وغير ذلك من الكتب القديمة النفيسة .

٩ – دار الكتب الفخرية : وقفها القاضي فخرالدين ابو عبدالله بن فضل الله المتوفى سنة ٧٣٢ للهجرة . وكان عدد مجلداتها نحو عشرة آلاف اقتسمها افراد اسرة ابي السعود اصحاب الزاوية الفخرية في الزمان الحاضر .

وفي القدس مكتبات خاصة لبعض الاسر نذكر منها : مكتبة آل الحسيني والداودي وابي اللطف والموقت واسعاف النشاشيبي وغيرهم.

ثانياً – مكتبات نابلس

١ – مكتبة آل الجوهري: لآل الجوهري في نابلس خزانة كتب قديمة العهد تعد من اهم الخزائن الخاصة في تلك المدينة. وفيها مخطوطات نفيسة أتى على وصف بعضها السيد محمد عزّة دروزة في مجلة المجمع العلمي العربي بدمشق (١)

---

(١) مجلة المجمع العلمي العربي : مجلد ٤ صفحة ٤٥٣

٢ ـ مكتبة آل صوفان : وفي نابلس ايضاً خزانة كتب لآل صوفان لا يقل عدد مخطوطاتها عن مخطوطات مكتبة آل الجوهري . ومن اهمها مخطوط نفيس عنوانه « مناقب الامام احمد بن محمد بن حنبل » من تأليف الحافظ الجوزي . جاء في آخره هذه العبارة : « وافق الفراغ منه ضحى يوم الاثنين ثالث ذي القعدة سنة تسع وتسعين وخمسمائة ». ويقرأ على احد هوامشه : « قوبل فصُحح بخط مصنفه»

ثالثاً : مكتبات يافا

١ ـ خزانة آل الدّجاني : لا نعرف من خزائن الكتب في يافا اهم من خزانة آل الدّجاني . وما برحت هذه الخزانة منذ اواسط القرن الثالث عشر للهجرة منهلا للوراد وكعبة للقصاد .

٢ ـ خزانة ابي نبوت باشا : ومن مكتبات يافا ايضاً مكتبة ابي نبوت باشا احـــد رجال احمد باشا الجزار في اوائل القرن التاسع عشر . وهي الآن بادارة الاوقاف الاسلامية وتحتوي طائفة من المخطوطات. وفي جملتها كتاب « اتحاف الاخصا في فضائل المسجد الأقصى » المنسوب خطأ الى الكمال ابي شريف وما هو بالحقيقـة الا للسيوطي . ومركز هذه المكتبة في جامع يافا (١) الذي ابتناه ابو نبوت باشا .

رابعاً : مكتبة الجزار في عكا

انشأ احمد باشا الجزار والي عكا مكتبة في الجامع المنسوب اليه. وجمع فيها كل المخطوطات التي انتزعها من انحاء البلاد الخاضعة لولايته. ولا سيا من خزائن دير المخلص قرب صيدا ومن خزانة الشيخ خيري مفتي الرملة (٢) . وانتهب الجزّار

---

(١) طالع اخبار محمد ابي نبوت في « تاريخ ولاية سليمان باشا » تأليف ابرهيم العوزة : طبع دير المخلص بجوار صيدا : سنة ١٩٣٦

(٢) رحلة فولناي في الشرق : مجلد ٢ صفحة ٣٠٧ طبعة باريس سنة ١٨٠٧

نفسه مكتبات علماء جبل عامل وخصوصاً مكتبة آل خاتون في قرية « جويا » وكانت غنية بمخطوطاتها اذ اناف عددها على خمسة آلاف مجلد (١) . فأمر اعوانه ان ينهبوا من تلك المكتبة كل ما استطاعوا وينقلوه الى عكا . فاضطر فريق من اولئك العلماء ان يخفوا مخطوطاتهم عن المعتدين ويطمروها في صناديق تحت الارض حيث اتلفت الرطوبة جانباً وافراً منها.

وعلى رغم ما تبعثر من مخطوطات جامع الجزار فقد سلم منها قسم يقال ان عدد مجلداته يبلغ الان خمسمائة مجلد اكثرها مخطوط.

على ان الرعية تألمت كثيراً من مظالم هذا الطاغية وفواحشه حتى اطلقت عليه لقب « الجزّار ». وقد قضى نحبه عام ١٢١٩ للهجرة (١٨٠٤ م) فأرخ الشيخ مصطفى الرومي وفاته بهذين البيتين :

هلك الجزّار ولا عجب	ومضى بالخزي وبالاثمِ
وبميتته البـــاري عنّا	أرِخْ قد كف يد الظلمِ

خامساً : مكتبة آل دويك في خليل الرحمن

أسس هذه المكتبة الاستاذ عارف الدويك نائب مفتش المعارف في خليـــل الرحمن (٢). وهي المكتبة الوحيدة في تلك البلدة . اما محتوياتها فتقدر باكثر من الف مجلد بين مخطوط ومطبوع.

---

(١) مجلة الآثار في زحلة : مجلد ٣ صفحة ٤٣٩

(٢) مجمع الآثار العربية : لابرهيم السيد عيسى المصري : جزء ١ صفحة ١٤٩ ـ ١٥٠

الفصل الرابع

خزائن كتب العراق

اولا : مكتبات مدينة بغداد

كثيرة هي المكاتب الاسلامية الخصوصية في عاصمة مملكة العراق . وكانت هذه المكاتب مخبوءة محجوبة عن الابصار لا يؤذن لاحد ان يطلع عليها او ينسخ شيئاً من تحفها . وقد تيسر لنا الوقوف على اخبار بعضها نثبتها في ما يلي :

١ ـ المكتبة المرجانية

هي اشهر المكاتب الخاصة في بغداد واقدمها عهداً . اسسها الوزير مرجان بن عبدالله بن عبد الرحمن نحو السنة ٧٦٠ للهجرة . وفيها من المخطوطات ثلاثة آلاف مجلد معظمها في الدين والفلسفة والهيئة . وقد انتفع المستشرقون انتفاعاً كبيراً بمطالعتها (١) . ومن اندر مخطوطاتها كتاب « جامع التعريب بالطريق القريب » وهو كتاب فريد من نوعه يبحث عن الالفاظ المعرّبة .

٢ ـ المكتبة الازبكية

سُميت كذلك نسبة الى ازبك وهي من المكاتب القديمة التي تنطوي على مخطوطات جليلة .

---

(١) الآثار : مجلد ٣ سنة ١٩١٤ صفحة ٤٣٤

٣ ـ المكتبة الخالدية

تعتبر المكتبة الخالدية من اغنى خزائن كتب بغداد في الزمان الحاضر . فيها من نوادر المخطوطات ونفائسها ما يستحق لفت الانظار .

٤ ـ مكتبة عيسى العطار

هي من اجلّ المكاتب فيها من المخطوطات النادرة واّمهات المصنفات ما لاترى له مثيلاً في غيرهـا من خزائن كتب بغداد . لكن الوصول الى رؤية كتاب منها كالوصول الى مناط الثريا (١) .

٥ ـ المكتبة الالوسية

انشأها العلاّمة السيد محمود شكري الآلوسي مؤلف كتاب « بلوغ الارب في معرفة احوال العرب » الذي نال الجائزة الاولى سنة ١٨٨٩ في مؤتمر المستشرقين بمدينة استكهولم عاصمة اسوج . وتشتمل خزانته على احاسن الكتب ونوادرها . ولابن عمه الحاج علي الآلوسي خزانة حوت مخطوطـات كثيرة ومؤلفات نفيسة .

٦ ـ مكتبة هبة الدين الشهرستاني

هو السيد هبة الدين الحسيني الشهرستاني (٢) منشىء مجلة « العلم » في النجف ووزير المعارف في المملكة العراقية · أولع منذ حداثته بجمع الكتب فاقتنى منها خزانة آهلة بالاسفار العديدة بينها اكثر من مائتي مخطوط اهمها: كتاب « ارصاد

---

(١) تاريخ آداب اللغة العربية : مجلد ٤ صفحة ١٤٣
(٢) طالع رسم الشهرستاني في « تاريخ الصحافة العربية » : جزء ١ صفحه ٤٠

المنجمين» لابي ريحان البيروني . وكتاب في « النجوم » خطّه قديم مزّين برسوم ماونة لابي ريحان البيروني ايضاً . وكتاب « منطق الشفاء » لابن سينا . وكتاب « آكام المرجان في اسماء البلدان » لحنين بن اسحق . ورسالة في « الجواهر والمعادن » لنصير الدين الطوسي . وكتاب « التحفة الشاهية في علم الفلك » لقطب الدين الشيرازي محمود بن مسعود. وكتاب « شرح الشاطريّة » في التجويد وعليها خواتيم ملوك الهند . وكتاب « محاسن الوسائل في اخبار الاوائل » بخط مؤلفه ابرهيم السوبليني . وكتاب « وقائع الايام » بخط مؤلفه السيد مهدي اليزدي الطباطبائي . وكتاب « المغرب » للمطرزي . وكتاب « تقويم البلدان » ليحيى بن جزلة الطبيب .

٧ ـ مكتبة عباس العزاوي

انشئت هذه المكتبة المعتبرة عام ١٩٠٦ بعناية السيد عباس العزاوي واحتوت على اثني عشر الف مجلد بينها اربعة آلاف مخطوط . ومن انفسها كتاب « لباب آداب اللغة العربية » للثعالبي قدمه مؤلفه لاحد ملوك خوارزم . وهو يشتمل على ثلاثة مطالب : اولها في اللغة وثانيها في الخطب وثالثها في الشعراء . ومن تلك المخطوطات كتاب « قرّة العيون في تاريخ اليمن الميمون » . وكتاب « شمامة العنبر » . وكتاب « السموم » لشاناق . وآخر لجنكه الهندي . ورسائل في الدروز . وكتاب « سمط الحقائق » وهو منظوم في عقائد الاسمعيلية الفه داعي الدعاة علي بن حنظلة بن ابي سالم.

وقد اقتنى عباس العزاوي مخطوطات مكتبته من خزائن قديمة جرى بيعها بعد وفاة اصحابها وكانوا من مشاهير عشاق الكتب وجماعيها في ايامهم.

٨ ـ مكتبة الشيخين

للشيخين كاظم وجواد آل دجيلي مكتبة اسساها عام ١٩٠٠ وافرغا قصاراهما في تجهيزها بالمؤلفات الخطية والمطبوعة فجمعتْ ووعت. ففيها الشيء الكثير من

المخطوطات النوادر ككتاب « المجمع » لابن فارس. وكتاب « العين » للخليل. وكتاب « المثالب » لابن الكلبي وغيرها. وفيها من المطبوعات القديمة طائفة صالحة مما نشر في بولاق والهند وايران بلغ عددها مع المخطوطات ما يناهز الفي مجلد.

٩ ـ مكتبة عبدالرحمن النقيب

يتصل نسب عبد الرحمن هذا بالشيخ عبد القادر الكيلاني المشهور. وقد خلف بعد وفاته خزانة عامرة بالمخطوطات يبلغ عددها نحو ثلاثة آلاف مخطوط. ومن مزاياها انها تشتمل على مخطوطات شتى في الانساب : وفيها مجلد واحد من كتاب « التمهيد » لابن عبد البر الاندلسي وغير ذلك من الكتب النادرة. وهي اليوم في حوزة ابنه السيد عاصم نقيب الاشراف في بغداد

١٠ ـ مكتبة احمد نيازي

هو ابن عبد الوهاب نيازي حاكم الشرع في بغداد. انتقلت اليه هذه المكتبة بالارث من والده المشار اليه. وفيها مخطوطات خطيرة اخصها : ديوان المتنبيء وهو اقدم نسخة خطية معروفة في المكاتب. وكتاب « تخير الالفاظ » لابن فارس وهو كتاب في اللغة نادر. وكتاب « كيمياى سعادة » باللغة الفارسية للغزالي. وهذا المخطوط الجميل قد وشيت صفحاته بالذهب ونزّلت بين الصفحة والصفحة ورقة من رق الغزال الشفاف. ثم ديوان حافظ الشيرازي نسخه احمد نيازي بخط يده. وقد صُدر هذا المخطوط الرائع بصورة تمثل الناسخ يقدم الكتاب للسلطان عبد المجيد الاول (١٨٣٩ ـ ١٨٦١) العثماني

١١ ـ مكتبة آل جميل

كان في خزانة كتب آل جميل في بغداد كتب نفيسة بل فريدة ، واكثرها

من المخطوطات التي يندر وجود مثلها في خزانة كتب اخرى. وكان اصحابها من المحتفظين والمعتنين بها الى درجة انهم كانوا يضنون على الناس برؤيتها. واصاب بيت آل جميل سنة ١٩١٤ حريق فجائي هائل التهم خزانة كتبهم ولم يسلم منها الا بعض الكتب التي لا اهمية كبرى لها ما خلا كتابين هما : كتاب « المثالب والمناقب » اعني مثالب الامويين ومناقب الهاشميين لابن الكلبي . وكتاب «تاريخ ابن ابي عدسة » الذي نال عظيم الذكرى عند العراقيين كما اشتهر عند المؤرخين(١)

١٢ ـ سائر المكتبات الاسلامية الخاصة في بغداد

في بغداد مكتبات اسلامية جمة اقل شأناً من التي ذكرناها . وهي تنحصر في ما يلي : مكتبة الشيخ محمد رضا الشبيبي. ومكتبة عبد الرزاق الحسني . والمكتبة المرادية. والمكتبة الخاتونية . ومكتبة بيت الشاوي تشتمل على مخطوطات لغوية ودواوين شعرية ومؤلفات مختلفة . ومكتبه بيت السويدي معظم مخطوطاتها في التاريخ والادب واللغة. ومكتبة عيسى البندنيجي فيها مخطوطات تاريخية وجغرافية وتراجم وغير ذلك. ومكتبة يوسف العطاء احتوت على مؤلفات مخطوطة ومطبوعة ونادرة. ومكتبة الفيلسوف جميل صدقي الزهاوي المتوفى سنة ١٣٥٤ للهجرة. ومكتبة مدرسة محمد الفضل في رصافة بغداد (٢) وغيرها

ثانياً : مكتبات الموصل

للدكتور داود الجلبي الموصلي تأليف خطير سماه « مخطوطات الموصل » ونشره بالطبع سنة ١٩٢٢ في بغداد . وقد ضمنه اسماء كل ما عثر عليه من المخطوطات في مدارس مدينة الموصل وملحقاتها وما وجده منها عند الأسر المشهورة . فعدد اسمائها

---

(١) الهلال : مجلد ٢٨ صفحة ٦١٧

(٢) نوادر المخطوطات لتيمور باشا (مجلة الهلال : مجلد ٢٨ صفحة ٢٨ و ٥٧ و ٥٨)

كلها ووصفها وصفاً علمياً دقيقاً . وقد بلغ عدد تلك المخطوطات نيفاً وثلاثة آلاف وثلاثمائة مخطوط (١) . واليك ما رواه هذا المؤلف من هذا القبيل قال :

« لما كانت مدارس الموصل الحاوية تلك المخطوطات كثيرة اكتفينا بذكر اشهرها وهي: المدرسة الاحمدية، المدرسة الاسلامية، مدرسة جامع الباشا، مدرسة بكر افندي، مدرسة جامع الخاتون، مدرسة الجامع الكبير، مدرسة الحاج حسين بك، مدرسة الحجيات، المدرسة الحسينية، مدرسة الخياط، مدرسة عبدالرحمن جلبي الصائغ، المدرسة العبدالية، المدرسة المحمدية في جامع الزيواني، مدرسة النبي شيت، المدرسة النعمانية، مدرسة يحيى باشا الخ.

ومن اشهر الاسر الاسلامية الموصلية التي عُنيت بحفظ المخطوطات في خزائنها نذكر : آل عبد الجليل، آل النقيب، آل العمري، آل الشربتجي، آل الجلبي وغيرهم. اما الدكتور داود الجلبي فقد حوت مكتبته كثيراً من المخطوطات النادرة وصف منها ستة وسبعين مخطوطاً في كتابه « مخطوطات الموصل » من الصفحة ٢٦٦ الى الصفحة ٢٨٦ ومن اهم تلك المخطوطات :

١ – كتاب « دفع مضار الاغذية » لمحمد بن زكريا الرازي كتبهُ بخطه محمد بن الحسين بن زيد بعد مقابلته بالاصل . وتاريخ هذا المخطوط سنة ٤٠٣ للهجرة . ولا يُعرَف كتاب اقدم منه في جميع مخطوطات الموصل

٢ – مجموعة كتب في مجلد واحد نذكر منها كتاب « نزول الغيث » للدماميني منسوخاً بخط مؤلفه الذي عاش في القرن التاسع للهجرة . وفي آخر هذا المخطوط صفحة بخط مغربي جميل كتبها بيده ابن خلدون في تقريظ الكتاب.

ثالثاً : مكتبات دير قُنى واربيل

١ ـ مكتبة محمد القناني بدير قُنى

دير قُنى اسم لبلدة قديمة في العراق موقعها على ستة عشر فرسخاً من بغداد .

---

(١) راجع فهرس تلك الكتب في كتاب «مخطوطات الموصل» من الصفحة ٣٠٧ ـ ٣٥٤

اشتهر منها نفرٌ من الكتبة المسلمين والنصارى نذكر منهم محمد بن علي القنائي ، وكان هذا من اصحاب الحلاج فقبض عليه وكبس داره . فوُجد فيه دفاتر مكتوبة بماء الذهب ومبطنة بالديباج والحرير ومجلدة بالاديم . ووجدت فيه اشياءُ اخرى من آثار الحلاج (١) .

٢ ـ مكتبة الملا باكير في اربيل

اربيل مدينة في العراق منها الى الموصل يومان خفيفان. ولها قلعة على تل عال في داخل السور (٢). وكانت اربيل في سالف الزمان عاصمة للدولة الحديابية التي لعبت دوراً مهما في حضارتها وسخاء ملوكها. وراجت في مدارسها ومكتباتها اسواق العلوم كما كانت رائجة في مدارس ومكتبات الرها حليفتها .

وعلى خمول ذكر اربيل في عصرنا لم يزل فيها بقية من المخطوطات القديمة حفظت في خزائن الملا باكير. وقد اتصلت اليه بالارث من اجداده الذين انشأوها كما يقال منذ عدة قرون. وقد زارها منذ بضعة اعوام فريق من الادباء كالدكتور عبد الرحمن شهبندر (٣) وعبد اللطيف العسلي وحسن الحكيم ومحمد الشُرَيقي فأعجبوا بثروتها العلمية. وهي تتألف من غرف متعددة تضم بين جدرانها زهاء ثلاثة آلاف مخطوط ما عدا الكتب المطبوعة. وعلى كون صاحبها ضنيناً بها فانه يتسمّح بنسخ ما يراد منها ويقوم بضيافة الناسخين بسخاء وافر. فضلاً عن ان لهذه المكتبة خداماً وقواماً يديرون شؤونها ويحافظون عليها.

رابعاً : مكتبات النجف الاشرف

١ ـ مكتبات آل بحر العلوم

لاصحاب هذه المكتبات مكانة ادبية تدل عليها كنيتهم « آل بحر العلوم » .

---

(١) صلة الطبري : صفحة ٩٠ و٩٦

(٢) مجاني الادب : جزء ١ صفحة ١٨٨ (٣) قتل في دمشق سنة ١٩٤٠

فقد قام منهم فقهاء ومحدثون وشعراء ولغويون عززوا المعارف ما بين ابناء الشيعة في تلك الارجاء . وتفردوا خصوصاً بجمعهم مخطوطات قديمة ذات فوائد ادبية او قيمة اثرية . وفيما يلي نعدد بعض خزائنهم وهي :

اقدمها عهداً مكتبة السيد بحر العلوم المتوفى سنة ١٢١٢ للهجرة (١٧٩٧ م) . اشتملت على مخطوطات نفيسة محلاة بالذهب جيدة الخط والقرطاس . وانتقلت بعده الى ولده السيد رضا . ثم بيعت وتفرقت وامتلك جملة منها الشيخ علي آل كاشف الغطاء.

ثانيتها : مكتبة السيد علي بحر العلوم . وكانت مخطوطاتها في غاية الكثرة والجودة . لان صاحبها اولع بشراء المخطوطات وجمعها وادخارها حتى انه لم يكن يبالي بدفع اثمانها مهما غلت . لكنها بيعت بعد وفاته بالمزاد العلني فاشترى الكثير الجيد منها ابن اخيه وصهره مؤلف كتاب « بلغة الفقيه » .

ثالثتها : مكتبة السيد محمد آل بحر العلوم المتوفى سنة ١٣٢٦ للهجرة. جمعت بين المخطوط والمطبوع فضلاً عن مخطوطات قديمة كديوان الشريف الرضي المنسوخ في عهد مؤلفه . وتفرد صاحب هذه المكتبة بالبحث على المخطوطات النادرة فكان يشتريها مهما كلفه الامر . ولم يفتر كل حياته من جمع الكتب الثمينة . غير انه على اثر وفاته تصرف فيها ابنه جعفر فباع طائفة منها بمزاد استغرقت مدته اكثر من ثلاثة اشهر (١) .

٢ ـ مكتبة الشيخ جعفر

كان الشيخ جعفر زعيما للطائفة الجعفرية في النجف. جمع خزانة ثمينة في بيته اشتملت على كتب مذهبة نفيسة جيدة الخط وعلى كثير من النسخ المتعددة. وحوت نسختين من ترجمة التوراة والانجيل. وعلاوة على ذلك فقد ازدانت بتآليف ثمينة لا أثر لها في مكتبات العراق. وقد اشتراها الشيخ جعفر اثناء سفره الى الحج وتنقلاته العديدة الى ايران. غير انه بعد وفاته سنة ١٢٢٧ للهجرة باعها ابنه الشيخ موسى ووفى باثمانها ديون والده.

---

(١) ماضي النجف : لجعفر ابن الشيخ باقر آل محبوبة : صفحة ١٠٣

٣ ـ مكتبة آل القزويني

أسسها جدهم السيد احمد المتوفى عام ١٢٤٧ للهجرة. واربى عدد مخطوطاتها على الالف مجلد من اجود الكتب واتقنها. فاصبحت من اشهر مكتبات النجف وأوسعها. ولمــا انتقلت بعد وفاته الى ولده جعفر باع اكثرها من الاقارب والاجانب .

٤ ـ مكتبة نظام الدولة

امتاز نظام الدولة بأدبه الجم فحشد في داره من الكتب ما اربى على عشرين الف مجلد: بعضها مخطوط بخطوط مؤلفيها واغلبها حسنة متقنة الخط جيدة القرطاس. ولفرط ما استهوته الكتب سيّر في طلبها رسلا الى بلاد ايران وانحاء العراق وكلفهم ان يشتروها له مهما بلغت اثمانها. ولما توفي بيع بعضها وتقاسم ورثته اغلبها ولم يبقَ منها الا نسخ معدودة لدى احفاده (١)

٥ ـ مكتبة احمد هلالة

السيد احمد الشهير بهلالة كان من اثرى رجالات بلاده. وكانت له بطائح زراعية بين البصرة والكوفة يصرف جل وارداتها في اقتناء الكتب. فاختزن منها الشيء الكثير حتى اصبحت خزائنه ملاءى بالكتب النفيسة. وقد شاهد بعضها مؤلف كتاب « نهج الصواب ». وكان احمد سخياً جوّاداً سافر الى الحج واستصحب بعض العلماء على نفقته. وتؤثر عنه قصص في سخائه وكرمه . غير ان اولاده لم يكونوا من اهل العلم فتفرقت مكتبته بعد وفاته بالبيع بين اهالي النجف وغيرهم ولم يبق منها شيء في حوزة اولاده (٢)

---

(١) ماضي النجف : صفحة ١٠٥ (٢) ماضي النجف : صفحة ١٠٥

٦ ـ مكتبة النمازي

احرزت مكتبة الشيخ فتح الله الشريعة النمازي شهرة واسعة بين مكتبات النجف لا بكثرة مجلداتها بل بما اشتملت عليه من النفائس العديمة المثيل . وكان النمازي من المدرسين واهل المنابر وحلت وفاته سنة ١٣٣٩ للهجرة (١).

٧ ـ مكتبة بيت عبودي

عُرف بيت عبّودي بآل «شيخ مشهد» في النجف. وكان لديهم مكتبة معتبرة روى عنها صاحب « نهج الصواب » ما يلي قال : وقفت على جملة من كتب آل « شيخ مشهد » فوجدتها في غاية الجودة. ولكن الدهر اخنى عليها فأتلفها واصبحت مبعثرة تلعب بها صبيانهم واطفالهم . وقد استنقذت جملة منها واحييتها وحفظتها من التلف وهي في خزانة كتبي (٢) .

٨ ـ مكتبة آل كاشف الغطاء

نذكر في طليعة مكاتب النجف مكتبة « آل كاشف الغطاء » التي اسسها الشيخ علي (١٢٦٦ — ١٣٥٠ هـ) بن محمد رضا بن موسى ابن الشيخ جعفر الكبير بن خضر بن يحيى آل كاشف الغطاء . كان الشيخ علي ولعاً بالكتب جمع منها عدداً وافراً اثناء رحلاته الى ايران وتركيا وسوريا والحجاز. ووضع ثلاثة تآليف: اولها « نهج الصواب في الكاتب والكتابة والكتاب » وثانيها « سمير الحاضر وانيس المسافر » وثالثها « الحصون المنيعة في طبقات الشيعة ».

وبلغت خزانة كتب آل كاشف الغطاء نحو الخمسة آلاف مجلد لا يقلّ عدد مخطوطاتها عن الالف . وحوت كثيراً من يتيمات الكتب مثل « طراز اللغة »

---

(١) ماضي النجف : صفحة ١٠٩ (٢) ماضي النجف : صفحة ١١٠

للسيد علي خان و« سلوة العارفين » لعبد الرحمن السلمي ُخط في السنة ٤٥٩ للهجرة. و« نهاية اللغة » لابن الاثير الجوزي خط في السنة ٦٠٦ للهجرة وعليه اجازة بخط المؤلّف .

٩ ـ الخزانة السماوية

الخزانة السماوية غنية بالكتب الثمينة فانها تشتمل ما عدا الكتب المطبوعة على ثمانمائة مخطوط اغلبها بخطوط قديمة وبعضها بخطوط مصنفيها. ومن اجلّ مخطوطاتها كتاب « العين » للخليل وكتاب « المحيط » للصاحب بن عباد. وكتاب« المجسطي» ُنقل عن نسخة بخط المؤلف. وكانت مخطوطات « الخزانة السماوية » اوفر عدداً في العهد العثماني منه في العهد الحالي . ولكنه عرضت لصاحبها محمد ابن الشيخ طاهر السماوي ازمة مالية سنة الاحتلال البريطاني في العراق اضطرته ان يبيع مائتي مجلد فيها خطوط القرنين الخامس والسادس للهجرة اي الحادي عشر والثاني عشر للميلاد .

١٠ ـ مكتبة الطباطبائي

تنطوي خزانة السيد محمد بحر العلوم الطباطبائي على مخطوطات عزيزة بينها جملة من الكتب القديمة. نذكر منها « ديوان الشريف الرضي » وقد ُنسخ في عهد مؤلفه ويحوي من الاشعار اكثر مما ُنشر في النسخة المطبوعة

١١ ـ مكتبة هادي الجعفري

ينتمي الشيخ هادي ابن الشيخ عباس الجعفري الى آل كاشف الغطاء الذين ذكرناهم آنفاً . ولهذا الشيخ خزانة كتب معتبرة فيها من الاعلاق والنفائس ما لا مثيل له في سائر خزائن العراق . نذكر من هذه المخطوطات ما يأتي : « شرح مقالات اقليدس » تأليف ابن الهيثم . وكتاب « نثر الدرر » للوزير الآبي و«ديوان

القيراطي » وهو الشاعر الفذ . وكتاب « المنقذ من الهلكة من السمائم المهلكة » . وكتاب « نهاية المرام » للسيد صاحب المدارك . وكتاب « درة التاج » في الهندسة (١) الخ .

١٢ ـ مكتبة رضا الاصفهاني

عرف آغا رضا الاصفهاني بنقده فلسفة دروين . ولديه خزانة مخطوطات وافرة بينها من النوادر الجليلة ما لا يحصى (٢) .

١٣ ـ مكتبة صادق كمونه

لهذا الاستاذ المحامي مكتبة في النجف تحتوي على نيف ومائة وخمسين مخطوطاً لا تخلو من النوادر والنفائس . نذكر منها كتاب « قطب السرور في اوصاف الخمور (٣) » لابي اسحق ابرهيم بن القاسم القيرواني المعروف بالرقيق القديم . وكتاب « الكناش » المشهور بالمائة مقالة في الطب لابي سهل المسيحي استاذ الشيخ الرئيس ابن سينا (٤) . وكتاب « تقدمة المعرفة » لابقراط شرح القزويني وخط يده وكتاب « احسن القصص ودافع الغصص » للنوشجاني (٥) . ونسخة من «عمدة الطالب في انساب آل ابي طالب » كتبت في عصر المؤلف وقد صححها بخطه . وفيها غير ذلك من كتب الرجال والادب والتاريخ .

١٤ ـ مكتبة محمد علي الخونساري

يعد الشيخ محمد علي الخونساري من صرعى الكتب في النجف . فانه اشتهر

---

(١) مجلة « الرابطة العربية » لامين سعيد في القاهرة : م ٢ سنة ١٩٣٨ ج ٩٤ ص ٤٥
(٢) تاريخ آداب اللغة العربية : مجلد ٤ صفحة ١٤٢ (٣) منه نسخة ناقصة في المتحف البريطاني بلندن
(٤) تاريخ مختصر الدول : صفحة ٣٣٠ (٥) منه نسخة في مكتبة الامام الرضا في ايران

بمبالغته في اقتناء الكتب وخصوصاً نوادر المخطوطات التي جمع منها عدداً غير يسير. واحتوت خزانته على طائفة كبيرة من المخطوطات في الفلسفة القديمة (١) ومن خرائدها كتاب « الاستخراج في طلب العمر والهيلاج » لمؤلفه محمد بن ابي ايوب الطبري (٢) وكتاب « الاستقلالية » في استقلال الاب بالولاية على البكر في التزويج تأليف محسن بن مرتضى الفيض الكاشاني المتوفى سنة ١٠٩١ للهجرة (٣)

وروى مؤلف كتاب « ماضي النجف » عن محمد علي الخونساري انه افنى عمره في جمع مكتبته وقتر على نفسه في تحصيلها. وحشد فيها ما لا اثر له عند غيره حتى اربى عدد مجلداتها على الالفين. وقد وضع لها الخونساري فهرساً جامعاً لاسمائها واسماء مؤلفيها. ثم انتقلت بعد وفاته سنة ١٣٣٢ للهجرة الى ولده الملا محمد.

١٥ ـ مكتبة محمد اليزدي

اشتهر السيد محمد اليزدي بانه من اكبر المفطورين على حب الكتب في النجف. فان لديه خزانة مخطوطات ضمت كثيراً من الامهات مثل كتاب « غريب ابي عبيدة » ويظن انه مخطوط في القرن الخامس للهجرة. ومنها كتاب « المجمل » في اللغة لابن فارس وغيرهما كثير (٤)

١٦ ـ مكتبة ضياء الدين الدخيلي

يعد الشيخ ضياء الدين الدخيلي من افاضل اساتذة النجف في هذا العصر. ولديه خزانة كتب لا يتجاوز عددها الف مجلد كثير منها مخطوط عزيز. وقد زارها

---

(١) مجلة « لغة العرب » في بغداد : مجلد ٢ سنة ١٩١٣ صفحة ٣٧٥

(٢) الذريعة الى تصانيف الشيعة لمحمد محسن آغابزرك الطهراني : جزء ٢ صفحة ٢٠

(٣) الذريعة الى تصانيف الشيعة : جزء ٢ صفحة ٣٣

(٤) مجلة « لغة العرب » ببغداد : مجلد ٢ سنة ١٩١٣ صفحة ٣٧٥

البحاثة عبد العزيز الميمني الهندي المعلق على «أمالي القالي» فرأى فيها كتاباً مخطوطاً قديماً اعجبه فقال: «لو ضربت آباط الابل الى الصين ولم احظ بغير رؤية هذا الكتاب لكفاني في ذلك غنما» (١)

١٧ ـ سائر مكتبات النجف الاشرف

ما عدا المكتبات التي أتينا على ذكرها فان النجف الاشرف لا تزال فيه بقية من الثروة الادبية التي جادت بها ادمغة جبارة من فلاسفة الكتاب وعباقرة الشعراء في العصر العباسي. ولحسن حظ العلم والعلماء ما امتدت الى تلك الخزائن ايدي التتر بقيادة هولاكو ولا ايدي امثالهم من الطغاة والبرابرة الذين حرقوا الكتب او اغرقوها في دجلة. ومن مكتبات النجف التي تستحق الوصف ولم نتوفق الى معرفة محتوياتها نذكر: مكتبة المعارف وهي من اغنى المكتبات.

خامساً: مكتبات كربلا

أثبت جرجي زيدان في «تاريخ آداب اللغة العربية» اسماء ثلاث مكتبات في كربلا (٢) وهي:

١ ـ مكتبة عبد الحسين الطهراني

فيها مؤلفات نادرة الوجود كلها خطية واغلبها بخطوط مصنفيها. وفيها كتاب العين للخليل والمحيط للصاحب بن عباد (٣). وتحرير المجسطي بخط خوجه نصير الدين الطوسي. والتحفة الشاهية وقد قرئت على مصنفها. والتفهيم للبيروني مخطوط في القرن

---

(١) جوامع النجف الاشرف (مجلة الرسالة: سنة ٦ صفحة ٢٦٧)
(٢) تاريخ آداب اللغة العربية: مجلد ٤ صفحة ١٤٢
(٣) نوادر المخطوطات بقلم تيمور باشا (الهلال: مجلد ٢٨ صفحة ٥٥)

السادس للهجرة . وليس فيها من الكتب المطبوعة الا النذر اليسير .

٢ـ مكتبة عبد الحسين الكليدار

كان عبد الحسين الكليدار خازناً للروضة الحسينية . وهو من اكبر غلاة الكتب لديه خزانة تنطوي على مخطوطات نفيسة في بعض العلوم ولا سيا التاريخ . ومن تلك المخطوطات ما لا يشاهد مثله عند غيره .

٣ ـ مكتبة آل شهيد

من المكتبات العامرة في كربلا مكتبة « شهيد » التي انشأها في اوائل القرن الثالث عشر للهجرة الشيخ محمود الحسني من احفاد الشهيد الاول . وهي تشتمل على نيف وثلاثمائة مخطوط في الفقه والاصول والحكمة والطب والادب والفلك . وفيها مصاحف نادرة ومجموعات ثمينة كتاريخ ابن عساكر والطبري والاغاني وغير ذلك . وفيها خصوصاً مخطوطات فلكية زينت صفحاتها بصور تشير الى اوضاع الكواكب وسير النجوم . ومن نفائسها مخطوط قديم يبحث في الخمرة وآدابها لا يقل عمره عن الخمسمائة سنة .

٤ ـ مكتبة الشيخ زين العابدين

نضيف الى المكتبات الثلاث التي نقلنا اخبارها عن « تاريخ آداب اللغة العربية » مكتبة رابعة في كربلا لا تقل عن تلك الثلاث قيمة وشأناً . نريد بها مكتبة الشيخ زين العابدين الذي جمع فيها مخطوطات عتيقة كثيرة العدد فريدة المزايا . وقد توفرت فيها خصوصاً مصنفات تتعلق بالشيعة الامامية .

٥ ـ مكتبة ميرزا الشهرستاني

توفي السيد ميرزا الشهرستاني سنة ١٣١٥ للهجرة . وهو ابن محمد حسين بن ميرزا

محمد علي بن ميرزا محمد حسين الحسيني المشهور بالشهرستاني . خلف مكتبة عامرة بالمطبوعات والمخطوطات ومن انفسها كتاب « الاستخارات » نسخه بخط يده (١)

٦- سائر مكتبات كربلا

في كربلا مكتبات فردية جمة غير التي ذكرنا وهي غنية بالمخطوطات القديمة النادرة. ولا غرابة في الامر لان كربلا مدينة مقدسة يشاهد فيها مزار الحسن والحسين ويحجها الشيعيون من جميع اطراف المعمور. ومن جملة مكتباتها مكتبة مدرسة بادكوبة (٢) ومكتبة السيد عبد الحسين الحجة (٣).

سادساً : مكتبات الكاظمية

١ - مكتبة محمد الصدر

اهمّ مكتبات الكاظمية واشهرها مكتبة السيد محمد الصدر رئيس مجلس الاعيان في المملكة العراقية . وقد ورثها عن والده السيد حسن صدرالدين الذي ضم اليها من المخطوطات الجليلة ما يعز وجود نظيره في مكتبات الشرق والغرب. ولعل في هذه المكتبة بعض مخطوطات هي يتيمة في البلاد كلها . مثلاً كتاب «الدر المسلوك في احوال الانبياء والاوصياء والخلفاء والملوك » تأليف احمد بن الحسن الحر العاملي (٤) .

٢ - مكتبة آل السيد حيدر

بعد مكتبة السيد محمد الصدر لم يتيسر لنا الوقوف على اخبار مكتبة اخرى في

---

(١) الذريعة الى تصانيف الشيعة : جزء ٢ صفحة ١٩ (٢) الذريعة الى تصانيف الشيعة : جزء ٢ صفحة ٢١٨ (٣) الذريعة الى تصانيف الشيعة : جزء ٢ صفحة ٢٢٦
(٤) تاريخ آداب اللغة العربية : مجلد ٤ صفحة ١٤١

الكاظمية تستحق النظر افضل من مكتبة آل السيد حيدر (١) . فقد افادنا العارفون بها والمتصلون بأربابها انها تضم طائفة غير قليلة من مخطوطات قديمة لا قرين لها في سائر المكتبات الخاصة .

سابعاً: مكتبات البصرة في العصور الخالية

١ ـ دار كتب البصرة

يُروى ان اقدم دار كتابية وُقِفَت في الاسلام هي دار الكتب التي أنشئت في البصرة قبل ظهور دولة بني بويه سنة ٣٢٢ للهجرة. يؤيد ذلك ما اثبته عنها ابن الاثير بلسان عضد الدولة بن بويه (٣٣٨ – ٣٧٢ هـ) قال : « هذه مكرمة سُبقنا اليها وهي اول دار وُقفت في الاسلام » . وقد احرقها عرب بني عامر عام ٤٨٣ للهجرة عندما شنّوا الغارة على البصرة وملكوها في عهد حاكمها العميد عصمة (٢)

٢ ـ دار كتب ابي منصور بن شاه مردان

كان ابو منصور بن شاه مردان وزيراً في دولة بني بويه ومن اساطين اهل الادب في زمانه. اقتنى خزانة حافلة بنفائس الكتب واعيانها ثم وقفها على النفع العام. وقد اصابها ما اصاب دار كتب البصرة السابقة الذكر من الحريق على يد عرب بني عامر سنة ٤٨٣ للهجرة (٣)

٣ ـ مكتبة القاضي ابي الفرج

ثالث مكتبة اشتهرت بالبصرة في سالف الزمان هي التي وقفها القاضي ابوالفرج

---

(١) الذريعة الى تصانيف الشيعة : جزء ٢ صفحة ١٩٤
(٢) التاريخ الكامل لابن الاثير : جزء ١٠ صفحة ٧٥
(٣) » » » » » » »

ابن ابي البقاء في القرن الخامس للهجرة. غير انها نُكبت بالنهب في ايام السلطان محمد عندما استولى عرب آل ربيعة والمنتفق على البصرة. فانهم نهبوا هذه المدينة واوقدوا النيران في دورها واسواقها. وحل ذلك سنة ٤٩٩ للهجرة (١)

٤ ـ مكتبة الامير آقسنقر

انشأها في جامع البصرة ابو المظفر بن عبدالله الرومي المعروف بالامير آقسنقر. قال ابن القفطي: كان ابو المظفر مملوكاً لعائشة بنت الخليفة المستنجد بالله فأشتغل بالعلم وحفظ القرآن وخدم جندياً. ثم عُهدت اليه حكومة البصرة فاقام فيها ثلاثاً وعشرين سنة وعمرّها وشيد مارستاناً. ومن مآثره انه جدد جامع البصرة وبنى مكتبة في دهليزه. ووقف كتباً على جميع المدارس حتى انتشر العلم في كل ناحية. وقصده العلماء من الآفاق فكان يوفدهم بسخاء ويتباهى في تكريمهم. وظلت تلك المكتبات عامرة الى ان هجم المغول على البلاد فخرّبوها واحرقوا كل ما فيها. وتوفي آقسنقر عام ٦٤٠ للهجرة (٢)

ثامناً: مكتبات البصرة في الزمان الحاضر

١ ـ المكتبة العباسية

. سُميت كذلك لان مالكيها يمتون بقرابتهم الى عبدالله بن عباس جد الخلفاء العباسيين في بغداد. ويتحدر فرع هذه الاسرة النبيلة من الامير محمد بن المستضيء بالله الخليفة العباسي (١١٧١ – ١١٨٠ م) بنسب متسلسل اباً عن جد الى يومنا هذا. ولما زحف هولاكو التتري الى بغداد سنة ١٢٥٨ م في عهد المستعصم بالله

---

(١) التاريخ الكامل لابن الاثير: جزء ١٠ صفحة ١٧٢

(٢) الجامع المختصر: جزء ٩ صفحة ٧٥-٧٦

(١٢٤٢ – ١٢٥٨ م) تشتت شمل العباسيين تحت كل كوكب . فاستقر من سلم من اجداد هذه الاسرة في مدينة البصرة واتخذوها مسكناً لهم . ومذ ذاك الحين طلقوا الامور للسياسية وحصروا اهتمامهم بادارة شؤون املاكهم الواسعة التي ورثوها عن آبائهم . وانصرف فريق منهم الى العلوم فالفوا الكتب في شتى المواضيع. وعرفوا منذ السنة ١١١٨ للهجرة (١٧٠٦ م) بلقب « باش اعيان البصرة » طبقاً لفرمان سلطاني منحهم اياه السلطان العثماني احمد الثالث (١١١٥ – ١١٤٢ھ) واول من أطلق عليه هذا اللقب كان الشيخ انس المتوفى سنة ١١٥٠ للهجرة.

ويرجع الفضل الاول في تكوين المكتبة العباسية (١) الى ما ابقاه الخلفاء العباسيون من الكتب التي غفل عنها الطاغية هولاكو ولم تمسها ايدي جنوده البرابرة . وبلغ مجموع ما حوته حتى السنة ١٢٠٦ ھ ما اربى على اربعة وثلاثين الف مجلد خطي بين استملاك واستنساخ وتأليف. وكانت تلك المخطوطات موزعة بين افراد العترة الموما اليها في ذلك العهد . واغلبها موقع بخواتيمهم ومدون بتواقيعهم وعليه بعض شروح وهوامش بخطوطهم.

وبتوالي الاعوام تبدد ذلك التراث القديم بين ايدي المستعيرين والموالين والمحاسيب والاصدقاء . هكذا انتقل معظمه الى مكتبات اوروبا ومكتبة عظيم آباد في الهند وانحاء خليج فارس وبغداد والبصرة وغيرها . وكل ما تبقى من تلك الثروة العلمية قد حفظ بعناية العلامة الشيخ عبدالله ضياء الدين باش اعيان البصرة . وعلى اثر وفاة الشيخ المذكور عام ١٣٤٠ للهجرة اخذ حفيده الشيخ ياسين على عاتقه تنسيق الثمانية آلاف مجلد الباقية في هذه المكتبة طبقاً للاصول الفنية المصطلح عليها في الزمان الحاضر . فرتبها في خزائن محكمة على الطراز الحديث وجعل لها ثلاثة فهارس: اولها فهرس التسلسل العام ثانيها فهرس انواع العلوم وثالثها فهرس هجائي.

---

(١) استندنا في اخبار هذه المكتبة النفيسة الى رواية خازنها الشيخ ياسين باش اعيان العباسي. فله الشكر والثناء.

الفصل الخامس

خزائن كتب الحجاز

اولا : مكتبات المدينة المنورة

كثيرة هي المكتبات الخاصة في المدينة المنورة . وكثيرة هي مخطوطاتها التي بينها ما لا مثيل له في اشهرخزائن الكتب. واليك موجز ما اتصل بنا من أخبارها:

١ - المكتبة الحميدية

سميت كذلك نسبة الى السلطان عبد الحميد الاول الذي تولى عرش الخلافة العثمانية منذ السنه ١١٨٧ حتى السنة ١٢٠٣ للهجرة او منذ السنة ١٧٧٤ حتى السنة ١٧٨٩ م.

٢ - المكتبة المحمودية

أسسها الخليفة العثماني السلطان محمود الثاني (١٢٢٣ - ١٢٥٥ هـ) اعني (١٨٠٩ - ١٨٣٩ م) ومن نوادر مخطوطاتها (١): «الاشراف بمعرفة الاطراف» لابن عساكر. و« نزهة الالباب في الالقاب » و « المغني في ضبط الاسماء والانساب» للحافظ بن حجر . و « الدرر الكامنة في اعيان المائة الثامنة » لابن حجر ايضاً . و « مختصر العين » لأبي الحسن الحوافي . و « تاريخ بغداد » للخطيب . و « رفع الاصر عن قضاة مصر » لابن حجر بخط السخاوي . وكتاب « العظمة » لابن حبان الخ . الخ .

---

(١) مجلة المجمع العلمي العربي : مجلد ٨ سنه ١٩٢٨ صفحة ٧٠٧-٧٥٨

٣ ـ مكتبة رباط سيدنا عثمان

اشتملت هذه الخزانة على مخطوطات نفيسة نذكر منها (١): كتاب «الكشف في القراآت» للزمخشري. و «شرح منظومة ابن سينا» في الطب لابن رشد الاندلسي بخط مغربي . و «منظومة في الكيميا» لابن سينا ايضاً. وكلتا المنظومتين في مجلد واحد . وكتاب «الانساب» لابن الشحنة

٤ ـ مكتبة الصاقزلي

تضمنت هذه المكتبة مخطوطات ثمينة لفت نظرنا منها ما يلي (٢) : كتاب «تحفة الدهر في اعيان المدينة من اهل العصر» تأليف عمر بن عبد السلام الداغستاني وبخطه .وكتاب «خلاصة الجواهر في طبقات الحنفية» وضعه عبد السلام الداغستاني وكتبه بخطه .

٥ ـ المكتبة البساطية

حوت مخطوطات جمة اهمها : «نظام المملكة في الاماكن المتبركة» لعبدالرحمن بن أسلم المكي . وكتاب «الانساب» لابن الشحنة الحلبي وغيرهما.

٦ ـ سائر مكتبات المدينة المنورة

ما عدا المكتبات الخمس التي اتينا على سرد اسمائها فان في المدينة المنورة مكتبات اخرى هذه اسماؤها : المكتبة العرفانية . ومكتبة امين باشا . ومكتبة حسين آغا . ومكتبة بشير آغا مركزها في مدرسة بجوار الحرم النبوي . ومكتبة مدرسة قره باشي . ومكتبة مدرسة ثروت . ومكتبة السادة .

---

(١) نفائس المخطوطات في دور كتب المدينة المنورة : بقلم حسني الكسم : سنة ١٩٢٨
(٢) نفائس المخطوطات في دور كتب المدينة المنورة : سنة ١٩٢٨

ثانياً : مكتبات جدة

١ ـ مكتبة محمد ناصيف

تعتبر مدينة جدة اهم ثغر لمملكة الحجاز على البحر الاحمر. وفيها مقر السفراء والقناصل الذين يمثلون الدول الاجنبية لدى عاهل الدولة المذكورة.

ولا تخلو جدة من مكتبات خاصة أنشئت بهمة المثقفين من اهاليها. الا انه بعد التحري لم يتصل بنا الا اسم مكتبة من تلك المكتبات انشأها الاستاذ محمد ناصيف من كبار ادباء تلك الحاضرة. وهي تضم بين رفوفها زهاء الفي مجلد مطبوع ومائتي مخطوط طبقاً لما رواه الدكتور مدحت شيخ الارض الذي تعهدها مراراً بنفسه. وهو الطبيب الخاص لجلالة الملك عبد العزيز بن سعود عاهل الحجاز ونجد.

ثالثاً : مكتبات حائل ونجد

كانت امارة حائل في حوزة ابن الرشيد قبل غارة ابن السعود عليها . اما نجد فكانت تابعة للامير ابن السعود قبل استوائه على عرش مملكة الحجاز . وكان في محل من عاصمتي هاتين الامارتين البدويتين مكتبة ذكرتها مجلة « لغة العرب »(١) البغدادية اليك ما اوردته عنها بالحرف الواحد :

١ ـ مكتبة حائل

اثبتت مجلة « لغة العرب» عن مكتبة حائل قولها : « ولما دالت امارة آل سعود وافق آخرها نمو امارة محمد الرشيد فانتقلت اكثر الكتب الى حائل . وانت تعلم ان لا صناعة ولا تجارة لاهل حائل الا الغزو لا غير. ومع ذلك فتراهم قد سبقوا

---

(١) لغة العرب : مجلد ١ صفحة ٢٢ سنة ١٩١١

غيرهم في العلوم العصرية وذلك لاختلاف كبرائهم الى الاستانة ومصر والحجاز ايام السلطان عبد الحميد المخلوع. فاصبح البعض منهم يعرف اللسان التركي والفارسي. وترى في بلادهم اليوم الكتب العربية القديمة النادرة الثمينة التي لا ترى لها وجوداً في سائر البلاد العربية واغلبها غير مطبوع ».

٢ ـ مكتبات نجد

نورد في ما يلي كلام مجلة « لغة العرب » عن خزانة كتب الامير في نجد وهذا نصه : « الكتب الموجودة في خزانة الامير تقسم ثلاثة اقسام قسم لصقت اوراقه بعضها ببعض من الرطوبة. وقسم أكلته الأرضة وتمزقت اوراقه. وقسم بين ناقص وتام . وها نحن نصف القسم الاخير منها :

« هذا ما وُفقنا لوصفة من كتب خزانة الامير علي بن ابي طالب . وهناك بقية كتب مشتتة الاوراق وممزّقتها وبعضها تامة وبعضها نواقص من الاوائل والاواخر والاواسط . وهي في الاصول والحديث والكلام والمنطق وقليل من الفقه . وليس فيها من التاريخ واللغـة والشعر شيء سوى ما ذكرناه . وقد اخبرنا العلامة السيد حسن صدر الدين في الكاظمية ان في خزانة الامير نسخة من تفسير القرآن في ثلاثة مجلدات لابي جعفر الطوسي وهي اليوم معارة لبعض الافاضل للاستنساخ . وخطها قريب من عصر المفسرّ .

« وقد جاء في الجزء الثاني من كتاب « النقود والردود » للشيخ محمد حسين آل كاشف الغطـاء (صفحة ١٥٣) انه وقف قبل برهة (اعني المؤلف) على مجلد من شرح نهج البلاغة لعبد الرحمن بن محمد العتايقي المار ذكره في خزانـة كتب الامير وهو بخط الشارح. ونحن لم نعثر في تنقيبنا على هذا المجلد ولعله فقد كاخوته والله اعلم.

« ولربما يوجد في خزانة الامير بعض الكتب التاريخية والاخبارية واللغوية. لكننا لم نهتدِ اليها لِما ذكرناه من تفريق اوراقها وتشتيت شملها . ولعلنـا نراجعها في فرصة اخرى ونعود الى وصف ما فاتنا منها والعود احمد » .

الفصل السادس

خزائن كتب اليمن

اخبرنا شيخ العروبة احمد زكي باشا العلامة المصري (١٢٨٣ – ١٣٥٣ ﻫ) ان اليمن أغنى جميع الاقطار في شبه جزيرة العرب بما احتواه من المخطوطات الثمينة. وهي مكنوزة بكل حرص في خزائن قصور الامراء وبيوتات الشيوخ والعلماء منذ العصور الاسلامية القديمة. وقد راجعنا نحن في هذا الشأن ايضاً صاحب السمو الملكي «سيف الاسلام» وغيره من الائمة اليمانيين. فظفرنا بما دوناه من اخبار تلك المكتبات في هذا الفصل وفي الفصل الثاني عشر من الباب الثالث:

١ – مكتبة الامام محمد بن الحسين

اشتهر بالعلم في القرن الحادي عشر للهجرة الامام محمد بن الحسين بن القسم إمام اليمن. وصفَه ابن ابي الرجال بقوله: «عالم ابن عالم كان من اهل العلم ورعاته مطلعاً على مقاصد الادباء ومناهجهم». وقد اجتمع عند الامام محمد من الكتب ما لم يجتمع مثله الا عند السلاطين. وحلت وفاته بعد عصر الجمعة ثامن شوّال سنة سبع وستين والف. ودُفن بالتربة المشهورة بالبستان في باب صنعاء الغربي (١).

٢ – مكتبة حسن حيدرة الذماري

وُلد الشيخ حسن حيدرة في ذمار باليمن سنة ١١٧٠ للهجرة (١٧٥٦ م) وكان من اكبر علماء بلاده ومؤرخيها. جوّد القرآن منذ حداثته وبلغ الغاية من العلوم

---

(١) خلاصة الاثر في اعيان القرن الحادي عشر: جزء ٣ صفحة ٤٥٥–٤٥٦

العقلية والنقلية. وجدّ وكدّ في تقييد الشوارد ونظم مسلك السطور الغ. واعتنى خصوصاً بجمع الكتب النفيسة ونسخها وضبطها وصيانتها. فاحرز منها في خزانته ما يشرح صدر المطلع عليها وتقر عين الناظر اليها (١)

٣ ـ مكتبة الحسن بن علي حنش

وُلد الحسن في شهارة سنة ١١٥٣ للهجرة (١٧٤٠ م) وارتحل في حداثته الى صنعاء انتجاعاً للعلم. ولما تولى المنصور علي الخلافة اناط بصاحب الترجمة شؤوناً خطيرة ورقاه الى رتبة الوزارة. ثم بالغ في تعظيمه لكونه شيخه في العلم وفضّله على سائر الوزراء.

وتفرد الحسن بسجايا لم تعرف في سواه. فانه كان ينفق امواله سراً على العلماء ويؤاسي الفضلاء والفقراء. وكان يشتري بيوتاً ويهبها لمن ليس له بيت الى غير ذلك من صنائع الصدقة والزكاة. واشتهر الحسن خصوصاً بعلمه ونظمه. وخلف خزانة معتبرة حوى فيها من المخطوطات النفيسة ما لم يحوه غيره. وتوفي بصنعاء ليلة ١٥ شعبان ١٢٢٥ للهجرة (١٨١٠ م). (٢)

٤ ـ مكتبة الامام احمد بن المنصور

الامام احمد بن المنصور علي بن العباس وتلقب بالمتوكل كان حازماً عاقلا يحب العلماء ويقربهم اليه. ويؤثر عنه انه اصلح ما افسده المنصور وجمع بين الخلافة والملك والحكمة والشجاعة. وروى الشيخ عبد الواسع بن يحيى الواسعي ان المتوكل احرز في خزائنه زيادة على مائة الف كتاب. وتعوّد المتوكل والائمة اسلافه من قبله ان ينصبوا الوزراء ولا يعزلوهم حتى تدركهم المنون. وقد ملأ المتوكل بلاطه من الذهب والفضة والاحجار الكريمة والحلل الثمينة وآلات السلاح. وتوفي سنة ١٢٣١ للهجرة (١٨١٥ م) ودفن ببستان المسك (٣).

---

(٢) نيل الوطر من تراجم رجال اليمن في القرن الثالث عشر : تأليف جمه محمد زباره الحسني اليماني : جزء ١ صفحة ٣٢٢ (٢) نيل الوطر من تراجم رجال اليمن في القرن الثالث عشر : جزء ١ صفحة ٣٤٨ (٣) فرجة الهموم والحزن في حوادث تاريخ اليمن : تأليف عبد الواسع بن يحيى الواسعي اليماني : صفحة ٦٠ـ٦١

٥ ـ مكتبة عبد الرحمن العمراني

في السنة ١٢٦٤ للهجرة وصل الاتراك الى صنعاء نهار الجمعة سادس شهر رمضان. فقام اهالي المدينة قومة رجل واحد على حين غفلة واباد وا الاتراك قتلاً ولم يسلم منهم الا مَن لجأ الى القصر. وتحدّث العوام في صنعاء عن القاضي عبد الرحمن بن محمد العمراني ناظر الاوقاف انه كان ممن اشار بخروج الاتراك الى اليمن. فهجموا على داره وقوّضوها ونهبوا جميع ما فيها في لحظة. ولم يشفقوا على خزانة كتبه العظيمة اشتملت على مخطوطـــات وافرة في جملتها الف مخطـوط من افخر الكتب واجودها (١).

٦ ـ مكتبة احمد الكبسي

قرأنا في كتاب « فرجة الهموم والحَـزن » ان اهل صنعاء خلعوا سنة ١٢٧٤ للهجرة الحاج احمد الحيمي وانتزعوا منه الرئاسة والمشيخة. ذلك لما رأوه من سوء تصرفه ومـا افتعله بهدمه دار الطواشي التي كانت تُعد من احسن قصور اليمن وافخمها. ومن فظائع احمد الحيمي انه اثار اهالي صنعاء فهجموا على دار العلامـة احمد بن محمـد الكبسي ونهبوا جميع ما فيها ودكوها حجراً حجراً. فتفاقم الاسف عليها ولا سيا على خسارة ما احتوته خزائنه من المخطوطات الغالية (٢).

٧ ـ مكتبة حسين حلمي باشا

كان حسين حلمي باشا من انبل وزراء الدولة العثمانية وارصنهم في عهد السلطان عبدالحميد الثاني. تقلّب في مناصب شتى عالية كالصدارة العظمى في الاستانة وسفارة تركيا في فينا عاصمة النمسا وغير ذلك. وعُين سنة ١٣١٥ للهجرة (١٨٩٧ م) والياً على اليمن فأجرى فيها اصلاحات وتنظيمات خطيرة دلت على نباهته وحصافته.

---

(١) فرجة الهموم والحزن في حوادث تاريخ اليمن : ٧٣ـــ٧٤

(٢) فرجة الهموم والحزن في حوادث تاريخ اليمن : ٩٩

روى المؤرخ اليماني الشيخ عبد الواسع بن يحيى الواسعي ان حسين حلمي باشا كان يُحب العلم وينشّط ذويه. والف اثناء ولايته على اليمن جمعية علماء برئاسة حسني بك وكان اعلمهم واحذقهم. وانشأ في مدينة صنعاء خزانة نفيسة انطوت على كتب خطية جمعها من كل انحاء اليمن. واستنسخ كثيراً من المخطوطات التي تعذر بيعُها من مالكيها. وكان يشتري كتباً باضعاف اثمانها لمنفعة اهالي تلك الديار الذين أحبهم حباً مفرطاً فتزيا بزيهم وتعمم مثلهم (١).

٨ ـ مكتبة الامام يحيى ملك اليمن

هو الامام السابع والثمانون من أئمة الزيود الذين تعاقبوا في إمامة اليمن. واليه يعود الفخر في استقلال بلاده بعدما ظلت زمناً طويلاً خاضعة لحكم الاتراك.

وللامام يحيى كلف بجمع الكتب واذدخارها والحرص عليها في قصره المسمى «قصر السعادة» وهو يطالعها ويستفيد من ابحاثها. واثبت المؤرخ المدقق امين محمد سعيد عن مكتبة الامام يحيى قوله (٢) : « ولدى الامام مكتبة ثمينة جداً وفيها كتب خطية نادرة. وأبوابها مقفلة خوفاً على ذخائرها وكنوزها ومفتاحها معه ».

وكتب امين الريحاني في اخبار رحلته الى البلاد العربية عن مكتبة الامام يحيى ما يلي : « قيل لي ان عنده مكتبة من المخطوطات لامثيل لها في البلاد العربية كلها. ولكنه يغار عليها من عيون الناس وايديهم وخصوصاً الاجانب منهم. فقد أخبرتُ واني اروي حديث المكتبة كما رويتُ حديث الكنوز ان كتاب « الأكليل » كاملا بعشرة اجزائه موجود في مكتبة الحضرة الامامية. وانه سيطبع ان شاء الله عندما تصل الطباعة الى اليمن في سياحتها العربية البطيئة وتستقر في اليمن (٣).

---

(١) فرجة الهموم والحزن في حوادث تاريخ اليمن : صفحة ١٧٦ (٢) ملوك المسلمين المعاصرون ودولهم : تأليف امين محمد سعيد : صفحة ١٨١ (٣) ملوك العرب : لامين الريحاني : جزء ١ صفحة ١٤٣ ـــ ١٤٤

الفصل السابع

خزائن كتب ايران (بلاد فارس)

اذا استثنينا مدينة الاستانة لا نظن بلداً غير عربي في الشرق حوى من خزائن الكتب العربية ما حوته البلاد الايرانية . وتكاد لا تخلو مدينة في تلك المملكة الشاسعة من خزانة او خزائن كُنزت فيها المخطوطات العربية القديمة على اختلاف العلوم والفنون . فان مساجد ايران ومدارسها وقصورهـا ومنازل بعض الاسر العريقة فيها تشتمل على مخطوطات عربية جمة حُفظت فيها بجانب المخطوطات الفارسية منذ العصور الغابرة .

وناهيك ان البلاد الايرانية لبثت مدة طويلة خاضعة للدولة العربية فانجبت عدداً وافراً من فحول العلماء الذين ألفوا في اللسان العربي او نقلوا اليه العلوم الدخيلة . ولا غرابة في ذلك لان حملة الاقلام في القرون الاسلامية الاولى اكثرهم العجم(١) .

ولو شئنا تعداد علماء الفرس الذين برّزوا في لغة الضاد لضاق بنا المقام . وحسبنا ان نذكر منهم الجرجاني والزوزني وسيبويه وابن سينا وآل بختيشوع اطباء الخلفاء العباسيين والراغب الاصفهاني وابا معشر البلخي . ومنهم الميـداني والفيروزآبادي والفخر الرازي والزمخشري والمطرزي والسكاكي والصفائي الخ الخ .

وظل كتّاب الشرق وعلماءُ المشرقيات في اوروبا يجهلون خزائن الكتب العربية في ايران حتى نهض من كشف النقاب عنها في اواخر القرن التاسع عشر واوائل القرن العشرين . وبين الذين تصدوا لتعريف تلك الخزائن السيد عبد العزيز الجواهري احد علماء ايران في نبذة سماها «كتابخانهاي ايران» ونشرها عام ١٣١١ للهجرة .

---

(١) مقدمة ابن خلدون طبع المطبعة الادبية في بيروت : فصل ٣٥ صفحة ٥٤٣ و ٥٤٤

ولم يتخلف العلامة اللغوي الأب انستاس الكرملي عن نشر مقالات عديدة في مجلته « لغة العرب » تشير الى ما في بلاد ايران من خزائن الكتب العربية.

ونحن بدورنا كتبنا الى من نثق بمعرفتهم وخبرتهم من جلة علماء ايران ان يوافونا بما لديهم من المعلومات في هذا الصدد. فلبّى اغلبهم طلبنا واطرفونا بما تيسر لهم جمعه ولا سيما السيد ابو عبدالله الزنجاني الذي تدعونا معرفة الجميل الى تأدية الشكر له بلسان التاريخ والادب.

ولما كان بعض اصحاب تلك المكتبات يضنّون بما حوته خزائنهم ويضيّقون على اهل البحث ابواب الوصول اليها لم نتمكن الا من ذكر المكتبات التي اطلعنا على اخبارها وهي:

اولا: مكتبات طهران

١ - الخزانة الشاهانية

انشأها « فتح علي شاه » احد سلاطين الدولة القاجارية الذي قرّب اليه العلماء بعد انحطاط شأنهم في عهد الدولتين الافشارية والزندية. ثم اضاف اليها حفيده ناصر الدين شاه (١٨٤٦ - ١٨٩٦) طائفة عظيمة من نوادر المخطوطات المصورة وغير المصورة التي يبلغ عددها الآن ٤٨٠٧ مجلدات. وبعضها منمق بريشة مشاهير مصوري الهند والصين وايران ومجلد بافخر المنسوجات. وادارة هذه الخزانة منوطة بالبلاط الشاهاني يُنفق عليها من موازنة المملكة. ولا يرّخص لأحد في الدخول اليها الا باجازة خاصة من الشاه او من وزير البلاط.

وفي اواخر عهد مظفر الدين شاه (١٨٥٣ - ١٩١٧) تواطأ خازن هذه المكتبة مع تاجر ارمني يُدعى « ارشاك خان كريانس » على اختلاس نفائسها وبيعها في اوروبا. ومن ذلك الحين منعت الحكومة الايرانية منعاً باتاً اخراج الكتب المخطوطة من مملكتها.

٢ ـ الخزانة الناصرية

مُنشيء هذه الخزانة هو ميرزا حسين خان سـ .الار في اواخر القرن التاسع عشر. وقد اوقفها على تلامذة « المدرسة الناصر بناها في عصر ناصر الدين شاه ودعاها باسم هذا العاهل تيمناً. ومن جملة ما ابتاع لها من الكتب قسم من الخزانة الشهيرة التي خلفها وزير المعارف البرنس « اعتضاد السلطنة علي قلي ميرزا » المتوفى سنة ١٢٩٩ للهجرة . ويبلغ عدد مخطوطاتها نحو الخمسة آلاف. اكثرها نادر من حيث ورقها وكتابتها. غير انها كسائر خزائن طهران لهذا العصر لا ينتفع بها الا النزر اليسير من الادباء (١).

٣ ـ خزانة مجلس النواب

من اهم الخزائن الكتابية في الزمان الحاضر « خزانة مجلس النواب » التي تُعد في طليعة جميع مكتبات عاصمة البلاد الايرانية. بيد ان طائفة من نفائس مخطوطاتها أتلفت عند تسلط جنود آخر ملوك الدولة القاجارية اثناء الثورة الدستورية.

٤ ـ خزانة حسين آقا

الحاج حُسين آقا معروف بلقب « ملك التجار » في طهران وخراسان . وقد ساعدته ثروته الطائلة على احراز خزانة حافلة بأثمن الكتب واندرها. انما لشدة حرصه عليها وضنه بكنوزها كان يحرّج على اي كان من الباحثين الاشراف عليها والاستفادة منها .

٥ ـ الخزانة النورية

أسس هذه الخزانة المعتبرة آقا ضياء الدين من كبار عشاق الكتب في الديار

---

(١) مجلة لغة العرب : مجلد ٥ صفحة ٥٢٥

الايرانية. وقد ورث هذه المزية عن والده العالم الشيخ فضل‌الله النوري الذي شُنق في اوائل الانقلاب الفارسي السياسي.

٦ ـ سائر مكتبات طهران

تحوي مدينة طهران عدة مكاتب غير التي ذكرنا توفرت فيها الكتب المخطوطة والمطبوعة. اليك اهمها: مكتبة وزارة المعارف، ومكتبة نصرالله الاخوي احد اعضاء مجلس التمييز في طهران. ويُروى عنه انه من عظام المولعين بجمع الكتب وتنظيمها. والمكتبة المروية نسبة الى منشئها ميرزا محمد حسين خان المروي.

ثانياً: مكتبات اصفهان

١ ـ خزانة الكتب بمدرسة النظام

هي اقدم مكتبة اثبتها التاريخ عن مكتبات اصفهان. روى ابن القفطي عن المظفر بن احمد انه فارق اصفهان طفلا. فاقام بالشام حتى تعلم الطب والادب ونظم الشعر. وقد عارض ديوان الحماسة فأخذ كل بيت من ابياته وعارضه ببيت من نظمه. وهذه النسخة كانت في خزانة الكتب بمدرسة النظام باصفهان (١). فلما رجع اليزدي الى اصفهان في ايام ملكشاه هجاها قائلًا:

هي تربتي لكنني فارقتُها ... طفلًا ولم اعبأ بلوم ترابها
شبانها ككهولها وكهولها ... كشيوخها وشيوخها ككلابها

وله ايضاً يخاطب مدينة اصفهان:

اذا لم يكن لي منك جاهٌ ولا غنى ... ولا عندما يغتالني الدهر موئلُ
فكلُ سلامٍ لي عليك تكرُمٌ ... وكل التفاتٍ لي اليك تفضلُ

---

(١) اخبار العلماء باخبار الحكماء لابن القفطي: صفحة ٢١٥

٢ ـ الخزانة الصفوية

هي من اشهر المكاتب الايرانية بمـــا احتوته من جواهر المخزونات الخطية وخرائدها. وصفها فريق من العلماء اخصهم الجزالة الفرنسي « شاردن » الذي أعجب بمحتوياتها اثناء رحلته الى ايران في عهد الشاه سليمان الصفوي. وقد اسهب عبد العزيز الجواهري في وصف هذه الخزانة (١) المعتبرة فنحيل القـــارىء الى مطالعة ما كتبه بشأنها.

٣ ـ خزانة المجلسي

أسسها الشيخ محمد باقر بن محمد تقي المجلسي مؤلف كتاب « بحار الانوار» . وقد حظي محمـــد باقر لدى السلاطين الصفويين ولا سيما لدى الشاه حسين الصفوي بجميع ما كانت تصبو اليه نفسه من قبيل الكتب. فحُملت اليه المخطوطات وهو في اصفهان من اقصى الديار حتى اجتمعت له خزانة من اعظم خزائن الكتب نفاسة واوفرها عدداً.

وبعد وفاة الشيخ محمد باقر انتقلت مكتبته الى احفاده بابنته . وهم « آل امام الجمعة » في اصفهان . وما زالت عندهم بالرغم من تفرق جانب منها الى ان اخرجها بعض وراثهم سنة ١٣٢٥ للهجرة وباعوهـا . فحُمل قسم من نفائسها الى طهران والعراق في جملتها كثير من الآثار المذهبة المجدولة البديعة الصناعة (٢) .

٤ ـ سائر مكتبات اصفهان

خزانة كتب خوانساري وخزانة كتب خانـدان خاتون آبادي . وفي كلتا الخزانتين الاخيرتين من فرائد المخطوطات ما يدهش العقول .

---

(١) كتابخانهاى : صفحه ٤٩-٥٢

(٢) مجلة العرفان : مجلد ٧ صفحة ٤٧٠ سنة ١٩٢٢ وكتابخانهاي ايران صفحة ٥٤

ثالثاً : مكتبات تبريز

١ ــ خزانة الملا علي آقا

الحاج الملا علي آقا ابن عبد العظيم الواعظ التبريزي الخياباني عالم جليل من صفوة علماء ايران . له خزانة مخطوطات ثمينة حوت فرائد الاسفار وبدائع الآثار. وقد ورد وصفها في الجزئين الثاني والثالث من المجلد السابع لمجلة « لغة العرب » فنحيل القارىء الى مطالعتها .

٢ ــ خزانة كتب رشيد الدين

من اهم خزائن كتب تبريز التي يُشار اليها بالبنان خزانة كتب رشيد الدين الطبيب . فانها لا تقلّ شأناً عن الخزانتين السابقتين سواء اكان بكثرة عدد مجلداتها ام بنفاسة مخطوطاتها .

٣ ـ خزانة علي الايرواني

من ابرز مكتبات تبريز خزانة الحاج السيد علي الايرواني وهي غنية بالمخطوطات القديمة . في جملتها كتاب « استنباط الاحكام في عصر غيبة الامـــام » لحيدر بن الشيرواني ميرزا (١) .

رابعاً : مكتبات زنجان

١ ــ خزانة ميرزا فضل الله

هو من علماء زنجان واشرافها تنطوي خزانته على مخطوطات وافرة في التاريخ

---

(١) الذريعة الى تصانيف الشيعة : جزء ٢ صفحة ٣٤

والانساب والادب والفلسفة والمنطق والطب والرياضيات وغيرها . ومن جملة تلك المخطوطات « تذكرة ابي علي الفارسي » ترتقي نسخته الى نحو القرن الخامس للهجرة . ومنها كتاب « المفصل » للزمخشري نسخ في حلب سنة ٦٠٣ للهجرة الخ الخ .

٢ ـ خزانة ابي عبد الله الزنجاني

ابو عبد الله الزنجاني هو علم من اعلام مدينة زنجان بأدبه وثقافته . اولع بجمع الكتب فاحرز منها خزانة معتبرة حافلة بالمطبوعات والمخطوطات . ومن اشهر مخطوطاتها نذكر كتاب « الاراء الطبيعية التي يقول بها الحكماء » لفاوطرخس . وهذه النسخة منقولة عن اصل قديم كتب في سنة ٦٧٧ للهجرة . ومنها « رسالة تربيع الدائرة » لابن الهيثم المصري .

٣ ـ خزانة شيخ الاسلام

من اشهر المكتبات الفردية واغناها بالمخطوطات العربية والفارسية معاً مكتبة شيخ الاسلام في زنجان. غير اننا لم نتوفق الى الوقوف على اخبارها لنثبت تفاصيلها خدمة للتاريخ والادب .

خامساً : مكتبات اردبيل

١ ـ الخزانة الصفوية

قرأنا في مجلة لغة العرب (١) وصفاً لخزانة الشيخ صفي الدين جد الملوك الصفوية في اردبيل بقلم عبد العزيز الجواهري . فرأينا ان نثبته بالحرف الواحد قال :

---

(١) مجلد ٥ صفحة ٢١٤

«وكان الشاه عباس الكبير الصفوي قد عني بجمعها وتنظيمها وبقيت مورد استفادة القراء الى سنة ١٨٢٨ مسيحية وفيها احتلت جنود الدولة الروسية اردبيل . وكان معهم المستشرق سنكوسكي فاطلع على المكتبة المذكورة ووقف على نفائسها . فنقلهـــا الى خزانة بطرسبرغ (هي لينغراد اليوم) حيث ضمت الى الخزانة العمومية . وقد صرح بما ذكرناه ايضاً كتاب تاريخ الروابط العلمية بين روسية والشرق واوروبة المؤلف باللغة الروسية المطبوع في لينغراد .

« وتوجد اليوم في مخازن مقبرة الشيخ صفي الدين في اردبيل متفرقات من هذه الكتب توازي اربعين او خمسين مجلداً في علوم مختلفة . ومن نوادرها ترجمة تفسير محمد بن جرير الطبري الى الفارسية في ستة مجلدات . تاريخ تحرير بعضها اوائل القرن السابع للهجرة . ونقل لنا بعض زملائنا انه رأى هذه المجلدات من ترجمـــة تفسير الطبري عند السيد الخلخـــالي في طهران . وكان قد حصل عليها من تلك الخزانة ولم تسنح لنا الفرصة للوقوف عليها ».

سادساً : مكتبة سبزوار

١ ـ خزانة محمد مهدي العلوي

اثبتت مجلة « لغة العرب » في بغداد (١) طائفة من المخطوطات المصونة في خزانة السيد محمد مهدي العلوي في سبزوار . نذكر منها مخطوطاً قديماً يشتمل على نخبة من حكم الامام علي بن ابي طالب مرتبة على حروف المعجم.

سابعاً : مكتبات بيرجند

١ ـ خزانة محمد باقر

هي من خزائن ايران الجديرة بالذكر فيها مخطوطات وافرة قلما يشاهد مثلها

---

(١) مجلد ٦ صفحة ١٨٥

في سائر الخزائن. وقد اثبت منها محمد مهدي العلوي مائة وخمسين مخطوطاً في التاريخ والهيئة والطب والفقه وغيرها من العلوم (١)

ثامناً: سائر مكتبات ايران

لو شئنا احصاء بقية مكتبات المدن الايرانية والاحاطة بمخطوطاتها العربية لضاق بنا المجال وتعذر توفية الموضوع حقه. ولوفرة عددها نكتفي بالاشارة الى بعضها اتماماً للفائدة وهي :

١ – مكتبة غياث الدين منصور ابن الامير صدر الدين محمد في شيراز

٢ – مكتبة رشيد الوطواط في خوارزم

٣ – مكتبة ملا حسين اردبيلي في استراباد

٤ – مكتبة ملا نصرالله في همذان

٥ – مكتبة نور الدين الجزائري في خوزستان

وهنالك مكاتب شتى في سمرقند وساوه وبلخ ونيسابور وغيرها نضرب عن سردها صفحاً. وفي ما رويناه حتى الآن مؤونة كافية لبيان ما اشتملت عليه خزائن البلاد الايرانية من ذخائر المخطوطات العربية التي تستحق الاعتبار.

---

(١) مجلة لغة العرب : مجلد ٦ جزء ٧ و ٨

الفصل الثامن

خزائن كتب الهند

ذكرنا في الفصل الحادي والعشرين من الباب الثالث ان الهمم انبعثت في بلاد الهند الى اقتناء الكتب العربية وتعزيزها في المكاتب العامة والخاصة. واثبتنا ان في زوايا تلك الخزائن كثيراً من نفائس المخطوطات لا يستفيد احد من مطالعتها.

ومما يؤيد حجتنا على غنى البلاد الهندية بالمخطوطات العربية ما نشرته « مجلة المجمع العلمي العربي » في دمشق [1] قالت : « عنّ لجلالة السلطان (مير عثمان علي خان) صاحب حيدر آباد خاطر شريف في نشر العلم. فأصدر أمره بتأليف كتاب يحتوي على صفوة المخطوطات العربية النادرة. فتلقت جمعية دائرة المعارف امره بالارتياح ورشحت لهذا العمل الاستاذ هاشم الندوي. فرحل في نواحي الهند منقباً في بطون الخزائن فظفر بنصيب وافر مما اراده وسعى اليه. وأودعه كتاباً سماه « تذكرة النوادر » وهو على شكل بديع: يذكر اسم الكتاب برقمه الخاص ثم اسم المؤلف وتاريخ وفاته وذكر شيء من مناقبه. ثم يذكر مزية الكتاب وتاريخ كتابته والخزانة التي عثر عليه فيها . وقد قدم كتب السلف على الخلف ورتبها على العلوم بحسب خطورة امرها »

١ ـ مكتبة حامد حسين في لكنهوا

من اهم المكاتب الفردية في الهند الانكليزيه لعصرنا هذا خزانة حامد حسين لكنهوي نسبة الى مدينة لكنهوا التي فيها نشأ وعاش. فانه كان من ذوي العناية بالكتب والتوفر على جمع آثارها الثمينة. فأنفق الاموال الطائلة على ابتياع نوادرها

---

(١) مجلد ١٢ سنة ١٩٣٢ صفحة ٧٠١

واستنساخها . وقد اشتملت خزانة كتبه على الوف من المجلدات فيها كثير من المخطوطات القديمة. وعلى اثر وفاته بعد الحرب العظمى انتقلت خزانته الى ولده (١)

٢ ـ مكتبة الشيخ الشيرازي في بمباي

حدثنا الاب لويس شيخو في سياحته من بيروت الى الهند (١٨٩٥) عن مكتبة عربية في بمباي قال (٢) : « كدنا نيأس من وجود اثر يذكر بين عرب الهند اذ ارشدنا الله على طريق الصدفة العجيبة في عشاء الليلة التي سبقت سفرنا الى اكبر الكتبيين في الهند اسمه « الشيخ الشيرازي » ويُلقب بملك الكتاب . فهذا كان عنده في بيته مكتبة واسعة جمع فيها معظم مطبوعات الهند والعجم مع عدد وافر من المخطوطات. فذهبنا الى بيته وقضينا ساعتين من الليل بين كتبه فاخترنا منها نحو الخمسين. ثم عدنا في سحر النهار اليه قبل سفرنا واخذنا مثلها عداً . وبعد الاتفاق على قدر اثمانها نقلناها الى المدرسة وجعلناها في صندوق على عجلة لتحمل الى مركبنا .

« ومن اعز ما وجدناه هنا من المخطوطات النفيسة كتاب في « معجم الادباء » قديم الا ان اوله مفقود . وكتاب مختصر اصول الفلسفة لبهمينار بن المرزبان من تلامذة الشيخ الرئيس ابن سينا يدعى « تحصيل بهمينار » . وهي نسخة فريدة تاريخ كتابتها سنة ٩٠٥ للهجرة (١٥٠٤ م) . وكتب اخرى في الهيئة والحساب والادب الخ » .

٣ ـ مكتبة بطنا

من جملة خزائن الكتب النفيسة المتعددة في الهند خزانة كتب بطنا الغنية بالمخطوطات العربية . وقد تفقدها بعض المستشرقين وفي طليعتهم المستشرق

---

(١) مجلة العرفان : مجلد ٧ صفحة ٤٦٩ — ٤٧٠ سنه ١٩٢٢

(٢) المشرق مجلد ١٦ سنة ١٩١٣ صفحة ٢٦٥ — ٢٦٦

الانكليزي ستبلتن . فانه شاهد فيها نسخة مصورة من كتاب « التصريف لمن عجز عن التأليف » بقلم ابي القاسم خلف بن عباس الزهراوي الاندلسي المتوفى نحو السنة ٤١٠ للهجرة (١٠١٩ م) . وكتبت هذه النسخة عام ٥٨٤ للهجرة (١١٨٨ م) (١).

٤ ـ مكتبة محمد اجمل خان في دلهي

محمد اجمل خان زعيم كبير من زعماء الهند احرز بينهم منزلة رفيعة بالعلم والجاه والسياسة. درس الطب فنبغ فيه وجعل الامراء والاعيان يقصدونه من جميع انحاء تلك البلاد للمعالجة. وتولى رئاسة الجامعة الاسلامية الاهلية التي أنشئت عام ١٩٢١ وكان من اركان جمعية الخلافة الاسلامية الشهيرة. فنفع بلاده كثيراً وخلف فيها آثاراً خطيرة.

ومن اهم تلك الآثار كلية طبية أسسها في مدينة دلهي تدرس الطب باللغتين العربية والاردوية. واقتنى لها مؤسسها خزانة كتب نفيسة انفق عليها من جيبه مبلغاً وافراً وبذل في جمعها جهوداً متواصلة. وحوت تلك الخزانة زهاء ثلاثة آلاف مخطوط بينها ثلاثمائة من الكتب الطبية النادرة. ولدى مرور اجمل خان بلبنان سنة ١٩٢٥ اشترى بعض مخطوطات في الطب والكيمياء من الاستاذ عيسى المعلوف بالحاج احمد زكي باشا (٢). ووضع محمد اجمل خان فهارس علمية لمخطوطات خزانته غير ان المنية عاجلته قبل نشرها بالطبع . وكان هذا الحكيم عضواً في المجمع العلمي العربي بدمشق.

ومن ابدع ما حوته هذه الخزانة من المخطوطات العربية كتاب « نور العيون وجامع الفنون » تأليف ابي زكريا يحيى بن ابي الرجاء في ٣٩٩ صفحة. يشتمل على صور العين وامراضها وتكسير الخطوط في حدقتها الى غير ذلك من الصور التي

---

(١) تاريخ الطب عند العرب : لعيسى المعلوف : صفحة ٣٠
(٢) برنامج مخطوطات عيسى المعلوف: صفحة ٤٠٥

اج طبيب العيون الى الوقوف عليها لاجل مداواتها. ويرتقي عهد نساخة هذا المخطوط النفيس الى السنة ٩٩١ للهجرة (١) (١٥٨٣ م)

٥ ـ مكتبة آصف الدولة

واعظم من الخزائن المشار اليها بل من سائر خزائن الكتب الاسلامية الخاصة في عصرنا خزانة آصف الدولة يحيى خان من احفاد (برهان الملك) احد اعيان رجال (محمد شاه) ملك الهند. اشتملت خزانته على ما رواه السيد عبد اللطيف الجزائري في رحلته الفارسية « تحفة العالم » على ثلاثمائة الف مجلد. بينها من نفائس المخطوطات شيء كثير يقوم على كل مائة مجلد قيّم (٢) بمراقبتها وحفظها . وهي من اصناف العلوم وانواع الفنون واللغات. قيل ان فيها سبعمائة كتاب عليها خطوط مؤلفيها. ويقال ان كتب التيموريين من ملوك الهند المنقرضين انتقلت الى هذه الخزانة (٣)

---

(١) الاسر العربية المشتهرة بالطب العربي واشهر المخطوطات الطبية العربية : بقلم عيسى المعلوف صفحة ٨ : — ٩ :

(٢) نظن ان هذا القول مغلوط او مبالغ فيه. لانه لا يعقل ان خزانة كخزانة آصف الدولة مشتملة على ثلاثمائة الف مجلد يكون عدد قوامها ثلاثة آلاف قيم . والله اعلم !

(٣) مجلة العرفان : مجلد ٧ صفحة ٤٧١

الفصل التاسع

خزائن كتب مصر

المكاتب الاسلامية الخاصة في وادي النيل لا تدخل تحت حصر. لان النهضة العلمية التي انتعشت فيه منذ قيام الدولة المحمدية العلوية بثت في ابنائه محبة العلوم والانصراف الى مطالعة الكتب. هكذا تولدت فيهم رغبة انشاء المكاتب في طول البلاد وعرضها. بل عمت المنافسة جميع طبقات الامة من مليك مصر الى مملوكها في اقتناء الكتب المفيدة والنادرة. فاشبعنا هذا الموضوع درساً والفينا ان المكاتب الخاصة في القاهرة وحدها تستحق ان يؤلف لها تاريخ خاص لكثرتها وخطورتها. بناء عليه نقتصر على ذكر اهمها واشهرها :

اولا : مكتبات القاهرة

١ ـ مكتبة قصر عابدين

في قصر عابدين مكتبة قديمة يتصل عهدها بايام محمد علي باشا راس العترة المالكة المصرية. وكانت مؤلفة في بدء الامر من بعض المصاحف المخطوطة ومن المطبوعات البولاقية ومما أهدي الى ذلك الامير من مؤلفات اصدقائه العلماء . وظلت مكتبة القصر بطيئة النمو في زمان خلفاء محمد علي باشا حتى جلس الملك فؤاد الاول (١٩١٧ – ١٩٣٦) فامر بلم شعثها وتنظيمها. ثم انشأ في قصر عابدين مكتبة اخرى خاصة به تفوق الاولى باحاسن الكتب واوفرها فائدة وابدعها تجليداً.

وفي قصر عابدين مجموعة ثمينة للمحفوظات (١) الملكية أمر الملك فؤاد بنقلها

---

(١) اصطلح الباحثون والكتاب على اطلاق لفظة «المحفوظات» على ما يسميه الافرنج Archives

من مركزها القديم في القلعة. وهناك كانت مكدسة اكداساً يعلوها الغبار الكثيف منذ عشرات السنين. وكأنّ الملك فؤاد تنبّه الى ما في بطون تلك الاكداس من الذخائر الثمينة التي كادت تذهب ضحية الاهمال والنسيان. فاوعز في استخراجها وتنظيفها وتنظيمها تنظيماً فنياً يكون مرجعاً للباحثين عن تاريخ مصر الحديث. واهم مشتملات تلك المحفوظات مايتعلق بالشؤون العسكرية والبحرية والادارية والحوادث اليومية، واوامر الجيش وخطط المعارك والتقارير السياسية واعمال الجاسوسية والوثائق المصادرة من الاعداء. ويبلغ عدد الوثائق في دار المحفوظات زهاء مليون وثيقة من ايام محمد علي وحده.

واكبر دليل على خطورة تلك الذخائر التاريخية انّ دار المحفوظات الملكية وحدها تشتمل على خمس وستين الف وثيقة تتعلق بالحملة المصرية (١٨٣١ — ١٨٤١) في سوريا. ومن مشاهير الرجال الذين ذيلت تلك الوثائق بتواقيعهم نذكر: محمد علي باشا وابنه ابرهيم باشا والامير بشير الشهابي الكبير وعبدالله باشا والي عكا وحنابك البحري ؤميخائيل عورا ويوسف عيروط وغيرهم (١).

وقد اقتفى الملك فاروق الاول آثار والده الملك فؤاد في تعميم المعارف وتعزيز المعاهد العلمية في انحاء مملكته. فهو كاف بالكتب يقضي ساعات في مكتبته يرتبها بيده. ويُعنى كذلك بمتحفه الحربي وبمجموعة الساعات القديمة التي في قصره وهي ترجع الى القرنين السابع عشر والثامن عشر (٢).

٢ ـ المكتبة الحسينية

اسسها الفقيه احمد بك الحسيني وانتقلت بعد وفاته الى حسين نجله. انطوت على مخطوطات كثيرة ونفيسة ذكر بعضها العلامة احمد تيمور باشا في مقالة له عنوانها «نوادر المخطوطات واماكن وجودها» (٣).

---

(١) The royal Archives of Egypt: Introduction, Assad J. Rustum

(٢) جريدة البشير في بيروت: السنة ٦٩ العدد ٥٦٧٣ في ٥ كانون الاول ١٩٣٨

(٣) مجلة الهلال مجلد ٢٨ صفحة ٤٩ — ٦٥ و ٣١٨ — ٣٣١

وقرأنا لهذه المكتبة وصفاً موجزاً بقلم جرجي زيدان اليك نصه بالحرف الواحد قال (١) : « هي من المكاتب الخصوصية النفيسة موضعها في منزل صاحبها قرب المحكمة الشرعية . وهي مرتبة ومقسمة حسب مواضيعها . ولها فهارس وعليها مشرفون او مغيرون . ويؤذن لمحبي المطالعة ان يطالعوا فيها او ينقلوا ما شاؤا في اوقات معينة من الاسبوع . وبلغ عدد ما فيها من المجلدات ٤٧٨٠ مجلداً اهمها في الفقه والقانون والادب والتاريخ » .

وقد ضمت هذه المكتبة عام ١٩٢١ الى دار الكتب المصرية . وصرحت ادارة المكتبة في نبذتها الوجيزة عام ١٩٣٩ ان المكتبة الحسينية اشتملت على ٣٩٩٥ مجلداً بين مخطوط ومطبوع (٢) .

٣ ـ مكتبة حسن الجبرتي

حدثنا عبد الرحمن الجبرتي عن مكتبة والده الشيخ حسن بن برهان الدين ابرهيم الجبرتي المتوفى سنة ١١٨٨ للهجرة قال (٣) : اما ما اجتمع عند والدي من الكتب في جميع العلوم فكثير جداً وقلما اجتمع مثله عند غيره من العلماء وغيرهم. وكان سموحاً باعارتها وتغييرها . واقتنى نسخاً من الكتب المستعملة التي تداول علماء الازهر قراءتها ككتب اللغة والتوحيد والاستعارات والمعاني والبيان والحديث والتفسير والفقه وغير ذلك.

وكان الطلاب يأتون الى مكتبة الجبرتي فيأخذون ويغيرون وينقلون من غير استئذان . فمنهم من يأخذ الكتاب ولا يرده. ومنهم من يسافر ويترك الكتب عند غيره. ومنهم من يهمل آخر الكتاب فتضيع بعض كراريسه . ويتفق ان

---

(١) تاريخ آداب اللغة العربية : مجلد ٤ صفحة ١٢٨

(٢) نبذة وجيزة عن دار الكتب المصرية : صفحة ٢١

(٣) الآثار في التراجم والاخبار لعبد الرحمن الجبرتي : جزء ١ صفحة ٣٨٧

طالبين او ثلاثة طلاب يشتركون معاً في الكتاب الواحد او النسخة الواحدة فينتج من ذلك ان بعض الكتب تضيع او تتلف .

واقتنى الشيخ حسن كتباً نفيسة خلاف الكتب المتداولة بين القراء في مكتبته. وقد اتحفه السلطان مصطفى الثالث العثماني (١١٧١ – ١١٨٧ ﻫ) بكتب نفيسة من خزانته الملكية. واتحفه بمثل ذلك اكابر الدولة في بلاد الروم ومصر وباي تونس ووالي الجزائر. واجتمع لديه الشيء الكثير من كتب الاعاجم المزدانة بالتصاوير البديعة الصنعة والغريبة الشكل . وحوى في خزائنه آلات فلكية وكرات نحاسية واميالا وحلقات ارصاد واسطرلابات وارباعاً وعدداً هندسية وادوات اغلب الصنائع.

٤ ـ المكتبة الطهطاوية

انشأ هذه المكتبة رفاعة بك رافع الطهطاوي (١٢١٦ – ١٢٩٠ ﻫ و١٨١١ – ١٨٧٣ م) كبير علماء مصر في عهد مؤسس الأسرة العلوية المالكة . وكان اماماً لاول ارسالية وجهها محمدعلي باشا من شبان مصر الى فرنسا لتحصيل العلوم الحديثة . فأظهر من الرغبة والنباهة في احراز المعارف ما اهله ان يتولى في وطنه اعظم المناصب العلمية. وقد ألف كثيراً من الكتب وترجم عن اللغة الفرنسية ما لايحصى من المصنفات المختلفة المواضيع . وملأ الديار المصرية مترجمين واساتذة واطباء ومهندسين استفادوا من مؤلفاته وتعاليمه . ونبغ بين تلامذته رهط عظيم ارتقوا الى اعلى المناصب وشرفوا وطنهم باعمالهم المشكورة (١) .

ومن آثار رفاعة بك الطهطاوي خزانة كتب جمعها في حياته احتوت ما ينوف على الف مجلد اكثرها مخطوط وبينها نوادر ثمينة . نذكر منها « شرح ابي منصور الجباني على فصيح ثعلب » نسخ سنة ٣٩٨ للهجرة . ومنها الجزء الثاني من كتاب

---

(١) حلية الزمن بمناقب خادم الوطن: كتاب مخطوط بقلم صالح بك مجدي

« المثل السائر » بخط المؤلف (١) . وعلى اثر وفاة رفاعة بك انتقلت مكتبته الى ابنه علي باشا رفاعة . وروى لنا ثقة ان المكتبة الطهطاوية تشتت شملها بعد وفاة صاحبيها رحمها الله .

٥ ـ مكتبة عبد الهادي نجا الابياري

يُعد الشيخ عبد الهادي نجا الابياري (١٢٣٦–١٣٠٦ ﻫ و١٨٢١–١٨٨٨ م) من اكبر علماء مصر في القرن التاسع عشر ومن اعظم كتابهم ومؤلفيهم . وكان له شأن خطير في النهضة العلمية حين ذاك في وادي النيل وقد استدعاه الخديو اسمعيل ففوض اليه تعليم انجاله من جملتهم ولي عهده محمد توفيق الاول (١٨٥٢ – ١٨٩٢). وما كاد يعتلي الاريكة المصرية حتى احلّ استاذه الابياري منزلة رفيعة وجعله إمام المعية الخديوية ومفتيها (٢)

وخلف مكتبة غنية بالمخطوطات التاريخية والادبية واللغوية والدينية . ونسخ بيده واستنسخ اسفاراً نادرة اضافها الى تلك الثروة الكتابية التي قضى بينها الشطر الاوفر من عمره. وروى لنا العالم البحاثة احمد زكي باشا ان مكتبة الابياري تفرقت بعد حاول اجله بين ورثته الذين لم يحفظوا منها الا القليل.

٦ ـ مكتبة الشيخ علي الليثي

وُلد الشيخ الليثي سنة ١٢٣٦ للهجرة وكان على رغم دمامة سحنته حسن المجالسة حاضر الجواب محبباً الى القلوب. واقتنى خزانة كتب نفيسة اجتمعت له بالاهداء والشراء والاستنساخ. وغالى فيها وبذل الاثمان الغالية . فجُلبت له من الآفاق

(١) تاريخ آداب اللغة العربية : مجلد ٤ صفحة ١٢٨
(٢) تراجم مشاهير الشرق : تأليف جرجي زيدان : جزء ٢ صفحة ١٦٠

وعرفه تجار الكتب والورّاقون فخصوه بكل نفيس منها . ثم لما مات اقتسمها ورثته وبقيت الى الآن محبوسة تحت ايديهم لا يُنتفع بها وحلت وفاته في ١٠ شعبان ١٣١٣ للهجرة بالغاً السابعة والسبعين من سنه.

٧ ـ مكتبة الدكتور دري باشا

درس الدكتور محمد دري باشا (١٢٥٧ – ١٣١٨) للهجرة (١٨٤١–١٩٠٠م) في مدرسة « قصر العيني » بالقاهرة . ونبغ في الطبابة والجراحة وصرف معظم ثروته في اختيار الكتب مخطوطة ومطبوعة حتى كوّن مكتبة عُدت من اثمن المكتبات الخاصة. وما انفك الدكتور دريّ يلاحظها ويغذّيها حتى آخر انفاسه . وضم اليها رسوم مشاهير المصريين وحفرها على النحاس في باريس احياءً لذكرهم . امّا مكتبته فقد اصبحت الآن في حوزة حفيده الاستاذ محمد صدقي الدّري

٨ ـ مكتبة اباظة باشا

انجبت اسرة اباظـة في وادي النيل رجالاً افاضل خدموا الحكومة والعلم والصحافة . اشهرهم سليمان باشا اباظة الذي خلف خزانة كتب حوت نحو الفي مجلد اكثرها من المخطوطات النادرة الوجود العزيزة المنال . منها ما كتب بخط ابن مقلة وغيرها بخط ابن هلال. ومنها قديم لاوجود له الا فيها.

ومما احتوته مكتبة اباظة باشا اكثر من مائة كتاب منسوخة بخطوط مؤلفيها من العلماء السالفين . وقد انفق منشئها اموالاً طائلة على اقتنائها لانه كان مغرماً بالعلوم كلفاً بجمع المخطوطات النفيسة . وعلى اثر وفاته أهدى ورثته تلك المكتبة الثمينة الى دار الكتب الازهرية حرصاً عليها من الضياع (١) . وجرى الاهداء بتاريخ ١٠ ربيع الاول ١٣١٦ هجرية (١٨٩٨ م) على يد الشيخ محمد عبده مفتي الديار المصرية (٢) .

---

(١) المقتطف : مجلد ٢٢ سنة ١٨٩٨ صفحة ٩١٧

(٢) مجلة « المنار » بالقاهرة : للشيخ محمد رشيد رضا : مجلد ١ سنة ١٣٢٥ هـ صفحة ٤٨٢

٩ ـ مكتبة سامي باشا البارودي

وُلد محمود سامي باشا البارودي عام ١٨٤٠ في القاهرة وفيها توفي عام ١٩٠٤ وكان ابوه حسن بك جركسي الأصل. فتخرج محمود سامي في المدرسة الحربية وتقلب في المناصب العسكرية وحارب بجانب الاتراك سنة ١٨٧٧ في محاربتهم روسيا. ثم تولى نظارة الحربية المصرية فنظارة الاوقاف فنظارة المعارف. واشترك في الثورة العرابية سنة ١٨٨٢ فنفي الى جزيرة سيلان. ثم رجع الى وطنه بعد العفو عنه وانصرف الى الكتابة ونظم الشعر حتى حاول اجله. ويُعد شعره من الطقبة الاولى بين شعراء زمانه. وخلف منظومات رائعة جرت مجرى الامثال بين خاصة الادباء وعامتهم.

واغرم سامي باشا بالكتب منذ حداثته فاهتم الاهتمام المشكور في التقاط ما كان مبعثراً من المخطوطات في مساجد القاهرة ونقلها الى مكان واحد وحرص عليها حرصاً شديداً. ولما عوّل علي باشا مبارك على تأسيس دار الكتب المصرية كانت هذه المخطوطات من جملة ما نُقل اليها (١). وقد جمع سامي باشا لنفسه خزانة حافلة بكتب الادب ودواوين الشعر قلما اتفق جمع مثلها لغيره من حملة الاقلام في عصره (٢).

ومن الآثار القامية التي خلفها البارودي مجموعة ثمينة عنوانها « مختارات البارودي » في اربعة اجزاء ضمنها ما عذب وراق من قصائده.

١٠ ـ المكتبة الآصفية

تأسست المكتبة الآصفية عام ١٣٠٨ للهجرة وطُبع لها فهرست بعد

---

(١) تراجم مشاهير الشرق : جزء ٢ صفحة ٣٠٠

(٢) ذكرى الشاعرين لاحمد عبيد : صفحة ١٠٣

التاريخ المذكور بعشر سنين على مطبعة حجرية . وقد وصف جرجي زيدان هذه المكتبة النفيسة قال (١) : « هي لمحمد بك آصف بن علي باشا آصف وابن اخت احمد بك تيمور . تحتوي على ٦٠٠٠ مجلد منها نحو ٤٠٠٠ باللغة العربية ما بين مخطوط ومطبوع . ونحو ٢٠٠٠ باللغتين الافرنسية والتركية . وتمتاز هذه المكتبة باشتمالها على اكثر ماطبعه المستشرقون الاوروبيون من الكتب العربية من القرن السادس عشر الى الآن. وفيها تاريخ الثورة العرابية تأليف احمد عرابي باشا الموسوم « بسر الاسرار في تاريخ الحركة العرابية في سنتي ١٨٨١ و١٨٨٢ » وهوكتاب كبير في ثلاثة اجزاء حوى حوادث الثورة المذكورة من اولها الى آخرها . وهذه النسخة هي الوحيدة من هذا التاريخ .

« واما الكتب التي باللغتين الافرنسية والتركية فما كان منها بالافرنسية اكثره مما ألف عن مصر والدولة العثمانية والشرق الادنى قديماً وحديثاً في التاريخ والسياحات وحوادث الاحتلال الفرنساوي لمصر، وما ادخله محمد علي باشا من الاصلاحات والتنظيمات وحروبه هو وابنه ابرهيم باشا في الحجاز ونجد مع الوهابية والشام والسودان والمورة . وكتب اثرية لمصر في عهد الفراعنة والمدنية الاسلامية وغير ذلك » .

١١ – مكتبة ولي الدين يكن

كان ولي الدين يكن من نوابغ المفكرين وكبار الشعراء واللغويين في زمانه . ولد في الاستانة سنة ١٨٧٣ وجاء صغيراً الى مصر مع اهله فتوفي فيها والده . فتخرج في « مدرسة الانجال » حيث احكم اللغة العربية كما احكم التركية (٢) . وانشأ في مصر خزانة حوت الشيء الكثير من مختارات الكتب.

---

(١) تاريخ آداب اللغة العربية : مجلد ٤ صفحة ١٢٧
(٢) الآداب العربية في الربع الاول من القرن العشرين للاب لويس شيخو : صفحة ٩٨

ثم عاد ولي الدين الى الاستانة فعينته الدولة العثمانية عضواً في مجلس المعارف الاعلى. ونقل الى هناك مكتبته التي تفقدها العلامة احمد تيمور باشا المصري (١) واستشهد ببعض مذخوراتها في مقالة له عنوانها «نوادر المخطوطات واماكن وجودها».

وعاش ولي الدين بالاستانة على عهد عبد الحميد تراقبه جماعة المستبدين وهي في عنفوان امرها واستفحال حكمها. وقد بث اولئك المستبدون العيون حوله يريدون الفتك به لانه كان من الاحرار الذين حاربوا الظلم بالقول والقلم. ولما اشتدت الرقابة عليه بلغه ان ناظر الضابطة سيرسل الرجال لتفتيش اوراقه وكتبه والاستيلاء على ما كان منها مخالفاً للرضى السلطاني. فعمد الى مكتبته وجعل يمزق تلك المذخورات الغوالي ثم القى بها في النار تفادياً من شر الطغاة (٢)

وفي ٢ كانون الثاني ١٩٠٢ طوّق رجال البوليس منزله وانتزعوا ما كان باقياً فيه من صكوك وعقود وكتب. ثم جمعوها في اكياس وختموها بالشمع الاحمر وحملوها غانمين الى ناظر الضابطة الذي أمر بنفيه الى سيواس. فما كان من ولي الدين الا ان رفع شكواه الى السلطان بتلغراف هذا نصه:

«دخل رجال الضابطة الليلة بيتي واخذوا اوراقي وكتبي وملأوا قلوب من في البيت فزعاً. وانما يُصنَع هذا باللصوص واهل الجنايات لا بمن اختارتهم الدولة لخدمتها ورفعت مراتبهم في حكومتها. وها انا اليوم اتظلم لصاحب هذه البلاد واسأله إنصافي واصدار امره بمحاكمتي لانال براءتي مما وُصمت به او يلحقني جزائي(٣)

ذلك مثال من امثلة لا تُحصى مما اقترفه الحكام الاتراك من العسف باجهازهم المكتبات القديمة الثمينة في طول البلاد العثمانية وعرضها. وكانت تلك الخزائن منطوية على تحف كتابية جديرة بالاعتبار قد تعب اصحابها في تكوينها وصيانة كنوزها منذ قرون كثيرة.

---

(١) الهلال: مجلد ٢٨ صفحة ٥٨ (٢) المعلوم والمجهول لولي الدين يكن: جزء ٢ صفحة ١٠
(٣) المعلوم والمجهول: جزء ٢ صفحة ١٦ — ١٧

وبعدما افرج عن ولي الدين هجر البلاد العثمانية ونقل معه ما تبقى من خزانة كتبه عائداً الى القطر المصري. وهناك اشتغل بالصحافة حتى وافته المنية بمدينة حلوان في ٦ اذار ١٩٢١ رحمة الله عليه. ومما نظمه ولي الدين منددا بالسلطان عبد الحميد ومعدداً سيئاته قوله :

ان الثلاثين التي ... مرّت بنا مر العصور
وهبتك تجربة الأمو ... ر فعشتَ في جهل الأمور
من كان يدعوك الخبيـ ... ـرَ فلست عندي بالخبير

١٢ - مكتبة المنار

المنار عنوان لمجلة شهرية ذائعة الصيت اسسها الامام محمد رشيد رضا (١٢٨٢-١٣٥٤ هـ و١٨٦٥ - ١٩٣٦ م) لخدمة الاسلام والمسلمين . وانشأ خزانة كتب يستعين بها في تهيئة مواد المجلة وتأليف ما وضعه من المصنفات العديدة . وقد حفلت تلك الخزانة بمئات من المخطوطات التي تبحث عن شؤون الدين المحمدي وعن تاريخه وفلسفته ومذاهبه وفرقه وتراجم رجاله الخ. وبوفاة هذا الامام توقف نشر «المنار» وتضعضعت خزانة الكتب .

١٣ - مكتبة مصطفى نور باشا

روى لنا خبر هذه المكتبة الاستاذ عيسى اسكندر المعلوف الذي تعهدها غير مرة واطلع على مضامينها . وذكر لنا ان صاحبها مصطفى نور باشا اولع خصوصاً باقتناء مخطوطات تفردت بجودة نسخها او روقة صورها وامتازت بزخارفها او تذهيبها او جمال تجليدها . وقد بلغ ما جمعه من تلك النفائس العزيزة الوجود بضع مئات انفق في احرازها اموالاً طائلة . وحلت وفاة مصطفى نور باشا عام ١٣٥٦ للهجرة (١٩٣٨ م) .

١٤ ـ مكتبة طلعت بك

كان احمـــد طلعت بك من اعاظم هواة الكتب وكانت مكتبته اوسع جميع المكتبات الخاصة في وادي النيل. وقد انفق عليها مالاً طائلاً وعانى جهوداً جبارة في تكوينها وتنظيمها . ولفرط غيرته على الأدب لم يشأ ان يُحرم العلماء وطلاب البحث الانتفاع بكنوزهـا الغالية . فأوصى بقسم وافرٍ منها لدار الكتب المصرية التي اثبتت في تقريرها عن السنة ١٩٣٩ ما نصه (١) :

« وقد خص الدار منها بنحو ثلاثين الف مجـلد بين مخطوط ومطبوع باللغات العربية والشرقية والافرنجية . وبها من المصاحف والمرقّعـات ما يمتاز بنسبته الى اشهر الخطاطين » .

١٥ مكتبة مختار بك

بين خزائن الكتب العربية في القاهرة لا نرى بداً من التنويه بمكتبة مختار بك المتوفى سنة ١٣٤٨ للهجرة . فانه خلف خزانة حوت ١٨١٧ مجـــلداً من عيون الكتب . وقد نشر لهـا نجله مصطفى محرم بك مختار فهرساً مدققاً باللغتين العربية والفرنسية . وهذه الخزانة على قلة عدد مجلداتها غنية بمخطوطات قديمة يناهز عددها اربعمائة مخطوط كما يتضح من فهرسها المشار اليه .

١٦ ـ مكتبة محمد مسعود بك

لمحمد مسعود بك منزلة رفيعة في عالمي الادب والصحافة بالقطر المصري . وظل مدة نصف قرن يكتب ويؤلف ويترجم ويخدم امته بمـا اوتيه من الثقافة التامة والاجتهاد الوافر . وبالجملة فانه كان عالماً محققاً غمر العـالم العربي بفيض من ابحاثه

---

(١) نبذة وجيزة عن دار الكتب المصرية : سنة ١٩٣٩ صفحة ١٨

القيمة وآثار قلمه الخالدة . وقد اختاره المولى لجواره صباح الاثنين في ٣ ذي الحجة ١٣٥٩ (٢ كانون الاول ١٩٤٠) بعد حياة حافلة بأطيب المآثر (١) .

وخلف محمد مسعود بك خزانة كتب مدهشة بين مخطوط ومطبوع وصفها لنا غير واحد ممن زاروها واطلعوا على ذخائرها . ومن ميزاتها انها حوت نيفاً وعشرين الف قصاصة في شتى المواضيع . ونظراً الى نموهـا المطرد استأجر لها منشئها الهمام مكانا خارجاً عن داره يعتني بترتيبها وتنسيقها ويحرص على كنوزها الثمينة .

١٧ ـ مكتبة الامير محمد علي باشا

الامير محمد علي ولي عهد المملكة المصرية هو ابن الخديو محمد توفيق ابن الخديو اسمعيل بن ابرهيم باشا ابن محمد علي باشا الكبير . اولع منذ صباه بالعلم فاحرز منه ما لم يحرزه غيره من امراء الأسر المالكة . وقد قرن العلم بالعمل فألف كتباً شتى وقام بسياحات مهمة في العالمين القديم والجديد دوّن اثناءها ما شاهده من الغرائب والعجائب ثم نشر ذلك كله بالطبع . وامتاز بشغفه بالخيول العربية فصنّف في هذا الموضوع كتاباً انكليزي العبارة في مجلدين يشهد بمعارفه الواسعة .

وقد بلغ كلف هذا الامير بالخيول العربية مبلغه حتى انه ابتاع في اوروبا سنة ١٩٣٨ مكتبة محتوية على ثمانيـة آلاف مجلد لا تبحث الا في الخيول العربية (٢) . وما عتم ان اضافها الى خزانة الكتب الثمينة التي ازدان بها قصره الاميري في القاهرة

ويترجح لدينا انه ليس من خزانة عامة او خاصة في العالم كله تشتمل على هذا القدر من التآليف في الموضوع المشار اليه ، والله اعلم !

---

(١) جريـدة « منبر الشرق » في القـاهرة للشيخ علي الغاياتي : سنة ١٩ عدد ١٣٠ تاريخ ٦ دسمبر ١٩٤٠

(٢) مجلة Images في القاهرة : رقم ٤٤٧ بتاريخ ٩ نيـسان ١٩٣٨

وكان الامير محمدعلي يتعهد في سياحاته خزائن الكتب الشهيرة ولا سيما العربية منها لانه تفرد بالبحث عن المخطوطات العتيقة والمنسوخات الاثرية النادرة . وله في ذلك مواقف مشهورة تشير الى ادبه الجم وغيرته على المعارف (١)

١٨ ـ المكتبة اليوسفية

انجبت الاسرة المالكة في مصر افراداً رفعوا شأن المعـــارف بما وضعوه من التآليف النفيسة وانشأوه من خزائن الكتب التي اشتهر امرها بين الناس . ومن افراد هذه الاسرة الذين جمعوا كلتا المزيتين نذكر في طليعتهم صاحب السمو الامير يوسف كمال منشىء « المكتبة اليوسفية » التي ظهرت لعـالم الوجود عام ١٩١٠ في القاهرة . وهي تتميز عن سواها بما حوته من الكتب التي ينحصر معظم علومها في المواضيع الآتية : التاريخ والجغرافيـا والسياحات والفلسفة والقانون والادب . ويتجاوز عدد مجلداتها سبعة عشر الفاً بينها مخطوطات لا يُستهان بها .

وقد تخلى البرنس يوسف كمال عن مكتبته للجامعة المصرية مشترطاً ان لا تنتقل اليها الا بعد وفاته . ثم قدم فهرس مكتبته العام الى الجـامعة المشار اليها . وظل يتحفها في كل سنة بفهارس مجلدة حوت كل ما استجد لديه من الكتب

ولهذا الامير العلامة الخطير تآليف جليلة لم يسبقه مؤلف الى وضع مثلها في هذا العصر . اشهرها « المجموعة الكمالية في جغرافية مصر والقارة الافريقية » برزَ منها حتى الآن ثلاثة عشر مجلداً كبيراً بقياس ٧٦ سنتمتراً طولا و٦٢ سنتمتراً عرضاً . وهي مزينة بالخرائط النادرة والرسوم الفاخرة التي عثر عليها المؤلف في المخطوطات العربية والقبطية واليونانية والسريانية المحفوظة في المتاحف الشهيرة والمكتبات الكبرى . وقصارى الكلام ان تأليفاً كهذا التأليف الفريد حريٌ ان يُعتبر في ارفع منزلة بين تآليف هذا العصر .

---

(١) رحلة الامير محمد علي باشا في شمال افريقيا : صفحه ٤٧-٤٨

وبناءً على طلبنا اختص الأمير يوسف كمال دار الكتب اللبنانية في بيروت بنسخة من « المجموعة الكمالية » المشار اليها . فافردنا لها هناك خزانة مستقلة بذاتها وجعلنا فيها لكل مجلد بيتاً خاصاً دون سواه.

١٩ - سائر المكتبات الاسلامية الخاصة في القاهرة

في عاصمة الديار المصرية مكاتب اسلامية خاصة لا تحصى لوفرة عدد المتأدبين وغلاة الكتب. وفي ما يلي نسرد اسماء بعض من اشتهر بجمع الكتب في القاهرة وهم : علي باشا مبارك، وعبدالله فكري باشا، ولطيف باشا سليم (١)، ومحمدالانبابي شيخ الجامع الازهر، وخليل آغا بجوار الازهر . ومكتبة الشيخ عبد المعطي السقا (٢) من علماء الازهر. ومكتبة جمعية الشبان المسلمين (٣) وغيرهم.

ثانياً : مكتبات الاسكندرية

تغلبت على الاسكندرية حضارة مختلطة نتجت عن تعدد جنسيات سكانها وتباين اخلاقهم واختلاف لغاتهم وحضاراتهم وثقافاتهم. فترى كلا من اليوناني والايطالي والمالطي والفرنسي والانكليزي واللبناني والسوري والارمني والتركي وغيرهم يتكلم بلغته ويفاخر ببني قومه ويرفع لواء حضارة بلاده.

وقد نشأ عن هذا المزيج الغريب إجحاف باللغة العربية التي تحوّل فريق من ابناء الضاد في الاسكندريةعن درسها اوالتكلم بها احياناً في مجالسهم. ولهذا السبب توانت الهمم في انشاء المكاتب العربية خلافاً لما عهدناه من اقبال القوم عليها في القاهرة وفي سائر العواصم العربية. وبالرغم من ذلك فان الاسكندرية لا تخلو من

---

(١) المقتطف : مجلد ٣٧ سنة ١٩١٠ صفحة ١٠٧٧

(٢) نوادر المخطوطات لتيمور باشا (الهلال : مجلد ٢٨ صفحة ٥١ و ٦٥

(٣) الهلال : مجلد ٦ صفحة ٧١٦ — ٧١٧

مكاتب فردية تستحق الذكر كمكتبة راتب باشا ومكتبة آل حمزة وغيرهما [1]

١ ـ مكتبة الامير عمر طوسون

من اهم المكاتب الفردية في الاسكندرية خزانة الامير عمر طوسون الذي ورثها عن والده المتوفى سنة ١٨٧٦ وورث معها محبة جمع الكتب. ثم زاد عليها بتوالي الايام ما لا يحصى من المؤلفات التي اقتصرت ابحاث معظمها على التاريخ والجغرافيا في اللغات العربية والفرنسية والانكليزية. ومن مميزاتها انها تحتوي على اغلب الكتب العربية المطبوعة بعناية علماء الاستشراق في اوروبا. وفي هذه الخزانة العمرية مجموعات صور قديمة تتعلق بمصر خاصة وبسائر الاقطار الشرقية والاسلامية عامة . اعني سوريا ولبنان والعراق والحجاز واليمن وتونس والجزائر والمغرب الاقصى وايران وافغانستان وغيرها. وهي تشتمل ايضاً على طائفة كبيرة من الكتب المنقولة بالتصوير الشمسي عن مخطوطات عربية قديمة في مكاتب باريس وبرلين ولندن والفاتيكان وغيرها.

ولا يقل عدد مجلدات خزانة الامير عمر طوسون عن مجموع مجلدات الامير يوسف كمال التي سبق وصفها في مكاتب القاهرة . ولا عجب في ذلك لان هذين الاميرين الخطيرين هما كفرسَي رهان يستبقان الى رفع منار اللغة العربية بثقافتهما العالية وتآليفهما النفيسة.

وللامير عمر طوسون مصنفات حسان في مواضيع مختلفة ولا سيما في التاريخ والجغرافية والرحلات والاحصاآت نفحنا بالكثير منها. وهي تدل على عبقرية سموه وتشهد له بسعة الاطلاع والرغبة في نشر المعارف بين ابناء الضاد. وفضلاً عن ذلك فانه لا تخلو مكتبة من المكتبات العامة في الشرق والغرب من آثار قلمه ومآثر كرمه.

---

(١) تاريخ آداب اللغة العربية : مجلد ٤ صفحة ١٢١

٢ ـ مكتبة محمد ابي الفتح الحنفي

وُلد محمد ابو الفتح بالقاهرة في اوائل القرن الثالث عشر للهجرة. وطلب العلم في الازهر على الشيخ الصاوي وعلى غيره من شيوخ زمانه. وكان ملازماً للشيخ محمد البنا الكبير مفتي الاسكندرية ثم خلفه في منصب افتاء هذه المدينة ولبث فيه الى آخر حياته.

وكان للشيخ ابي الفتح شغف زائد بجمع الكتب واقتناء ما نفس وندر منها حتى اجتمعت له خزانة ثمينة بيعت بعد موته باسعار بخسة. بعدما عانى ابو الفتح ما عاناه في جمعها واستنساخها. ووافقت وفاته ليل الاثنين ٦ صفر سنة ١٢٩٤ للهجرة.

٣ ـ المكتبة العباسية

ورد وصفها في كتاب «تاريخ آداب اللغة العربية» لمؤلفه البحاثة جرجي زيدان. فرأينا ان ننقل كلامه عنها بالحرف الواحد قال (١):

«أسسها الشيخ عبد الفتاح البناء بالاسكندرية سنة ١٣٢١ هـ (١٩٠٣ م). وبيان ذلك ان الحاج علي شتا من اعيان الاسكندرية كان عنده كتب عرضها للبيع. فاشار عليه الشيخ عبد الفتاح ان يقفها على مكتبة تكون برسم سيدي ابي العباس المرسي فوافقه. فاضاف اليها كتباً كانت عنده وكتباً اهداها محمد افندي توفيق من ابناء الأسر القديمة ووضعت يدها عليها ووسعت نطاقها وعينت الشيخ عبد الفتاح اميناً لها. وهي الان بمركز ادارة المشيخة بسراي حافظ باشا بالاسكندرية. وعدد مجلداتها ستة آلاف وخمسمائة وخمسون مجلداً في علوم اللغة والطبيعة والتاريخ والادب. وقد اعانتها تبرعات المتبرعين اهمهم ورثة محسن باشا ومصطفى بك المنزلاوي ومصطفى باشا خليل.»

---

(١) تاريخ آداب اللغة العربية: مجلد ٤ صفحة ١٢٣

ثالثاً : مكتبات سائر المدن المصرية

١ ـ مكتبة محمد فريد وجدي في بطنابة

لهذا العلامة شغف عظيم بجمع الكتب ورثه عن والده. وقد استطاع ان ينشيء خزانة معتبرة حافلة بالمخطوطات والمطبوعات في بطنابة احدى مدن القطر المصري. فانه اتى على وصفها في كتابه « دائرة معارف القرن العشرين » قال (١)

« وعسى ان لا أنسب الى التباهي اذا أشرتُ الى المكتبة التي وهبتُها لمدينة « بطنابة » لان غرضي من ذكرها انما هو تنبيه المستشرقين اليها. وهذه المكتبة في كنف الحكومة الآن وهي تعتني بحفظها شديد الاعتناء. ولكنها تبقى دون المراد حتى يضاف اليها مطبع تطبع ما فيهـا من الكتب النادرة المثالْ وتنشرها الى الملأ. وقدكان المرحوم والدي شديد الغرام بالكتب وانفق على جمعها واستنساخها اكثر دخله. فبلغ عددها حين وفاته الفاً واربعمائة مجلد. ولما حضرته الوفاة اوصاني بها وامرني ان اجعلها مكتبة عمومية حالما استطيع ذلك. وقد ورثتُ منه محبة جمع الكتب وجمعت كثيراً منها بعد وفاته . وفتحتُها للجمهور سنة ١٨٩١ وكان فيها حينئذ سبعة آلاف مجلد من كتب الخط. وعدد كتب الخط فيها الان ثمانية آلاف.

« وفيها ايضاً نخبة كبيرة من الكتب الانكليزية العلمية والادبية . وفي هـذه المكتبة كثير من الكتب لمشاهير المستشرقين مثل ده صاصي والسر غور ارزلي والمستر بلنشمان من مدرسة كلكتا. وعلى بعضها حواش بخطهم »

٢ ـ مكتبة عبد الرازق الرافعي في طنطا

عبد الرازق الرافعي ينتسب الى اسرة الرافعي في طرابلس الشام . وقد وَفد سليلها محمد الطاهر الرافعي سنة١٢٤٣ هجرية الى مصر ليتولى فيها قضاء الحنفية بامر

---

(١) مجلد ٨ صفحة ٧٥ و ٧٦

من السلطان محمود الثاني . ثم توافد اخوته وابناء عمومته حتى اجتمع منهم في وقت اربعون قاضياً في مختلف المحاكم المصرية الشرعية .

وكان الشيخ عبد الرازق الرافعي رئيس محكمة طنطا من فقهاء عصره وجهابذة زمانه وخلف خزانة حافلة بأشتات الكتب المعتبرة على اختلاف مواضيعها (١). واخبرنا احد المطلعين على هذه الخزانة النفيسة انها حوت كثيراً من المخطوطات النادرة .

٣ ـ المكتبة الاحمدية في طنطا

حوت هذه المكتبة نيفاً وستة آلاف مجلد بين مخطوط ومطبوع. انشأها سنة ١٨٩٨ الشيخ ابرهيم الظواهري امام الجامع الاحمدي في طنطا . وقد سماها « المكتبة الاحمدية » تيمناً باسم هذا الجامع وفيه جعل مركزها .

وبتوالي الايام اضيفت الى المكتبة الاحمدية المشار اليها في طنطا مكتبة خليل آغا وكانت تنطوي على ثلاثمائة مجلد (٢) . ومن جملة مخطوطاتها الفريدة كتاب « تحفة الاشراف بمعرفة الاطراف » للمزي (٣) . والى هذه المكتبة يختلف طلبة العلم للمطالعة والاستفادة من كنوزها الثمينة .

---

(١) مجلة « الرابطة العربية » لامين سعيد : مجلد ٢ سنة ١٩٣٨ الجزء ١٠٠ صفحة ٩

(٢) دائرة معارف القرن العشرين : مجلد ٨ صفحة ٨٧ — ٨٨ (٣) نوادر المخطوطات لتيمور باشا (الهلال : مجلد ٢٨ صفحة ٥٢)

الفصل العاشر

خزائن كتب المملكة التونسية

اننا استندنا في اكثر ما رويناه عن المكاتب الخاصة بتونس الى نبذة خطية مختصرة وضعها البحاثة الاستاذ البشير الفورتي صاحب جريدة « التقدم » في عاصمة المملكة التونسية. فأدى بصنيعه هذا خدمة جلى للتاريخ وللاداب العربية نقابله عليها باوفر الشكر واجزل الثناء على حميته الادبية. اما ما رويناه عن تلك المكاتب استناداً الى مراجع اخرى فقد اشرنا اليه حيث وجبت الاشارة.

اولا : مكتبات تونس العاصمة

١ ـ مكتبة مسجد بيت الباشا

انشأ هذه المكتبة الامير علي الاول باي تونس (١٧٤٠ — ١٧٥٦ م) وصاحب النهضة العلمية الاولى في العصر الحسيني. فانه وجه الى الاستانة مفتي دولته الشيخ حسين البارودي لاشتراء اكثر ما يمكنه اشتراؤه من افضل المخطوطات وافيدها واجودها كتابة وابدعها تزويقاً وافخرها تذهيباً. وقد جمعها في مكتبة جعلها بمسجد بيت الباشا في « باردو » وهو القصر الذي يسكنه البايات القائمون في عرش المملكة التونسية. الا ان كثيراً من تلك المخطوطات انتهبه باي قسنطينة الذي اشترك في نزاع وقع بين علي باي الاول وبين ابني عمه محمد الرشيد باي وعلي باي الثاني. فان هذين الاميرين حاربا علي باي الاول قاتل ابيهما حسين الاول (١٧٠٥—١٧٤٠م) ففتكا به واسترجعا منه بالقوة القاهرة عرش ابيهما المغصوب.

ويستفاد من فهرس قديم مصون بين محفوظات الدولة ان ما سلم من المخطوطات

في مسجد بيت الباشا لدى ارتقاء محمود باي (١٨١٤ - ١٨٢٤ م) الى الاريكة الحسينية كانت جملته ٢٧٢٦ مجلداً مخطوطاً. وكان الامراء يفاخرون اهل العلم بتلك المخطوطات كما كان شيوخ المجلس الشرعي يرجعون اليها عند حدوث خلاف بينهم(١)

٢ ـ مكتبة الجنرال محمد بلخوجه

السيد محمد بلخوجه مؤرخ بحاثة عينته الحكومة التونسية مستشاراً لوفرة علمه وغزارة فضله. اولع منذ حداثة سنه بجمع الكتب فاقتنى منها خزانة تعد من اثمن خزائن بلده. وميزتها الخاصة انها تشتمل على كناشات لكثير من علماء تونس وادبائها ضمنوها مفكراتهم ومذكراتهم. وهي لا تخلو من حوادث تاريخية وآراء اجتماعية ونوادر ادبية وغير ذلك من المواضيع المختلفة . ومن هذه الكناشات استمد السيد محمد بلخوجه اكثر البحوث المفيدة التي نشرها على صفحات مجلة « شمس الاسلام » و « المجلة الزيتونية »

٣ ـ مكتبة الشيخ محمد النجار

جمع الشيخ محمد النجار المفتي المالكي في تونس خزانة معتبرة احتوت على العدد الوافر من المخطوطات التي تبحث في الفلسفة .وبعد وفاته خلفها لابنه بلحسن النجار الذي تولى مثله منصب الافتاء المالكي . وفي هذه الخزانة من المخطوطات النفيسة ما لا اثر لهُ في غيرها من مكتبات العالم العربي . نذكر منها « تفسير الزجاج » بخط الزجاج نفسه في القرن الثالث للهجرة .

٤ ـ مكتبة الشيخ الصادق النيفر

للشيخ الصادق النيفر قاضي تونس المالكي مكتبة تعدُ فريدة من نوعها بين

---

(١) المجلة الزيتونية : مجلد ١ سنة ١٩٣٦ صفحة ٧٤ — ٧٥

المكاتب الخاصة . وهي تحوي عدداً عظيما من الكتب المطبوعة والمخطوطات الثمينة في فقه مالك والحديث وغيرهما من كتب الاحكام . وقد اقتناها الشيخ الصادق في رحلاته المكررة الى المغرب الاقصى .

٥ ـ مكتبة الشيخ محمد النيفر

هي مكتبة محترمة انشأها المؤرخ الشيخ محمد النيفر المدّرس بالجامع الاعظم . وفيها من نفائس الكتب التاريخية والادبية والفقهية وغيرها ما لا يُحصى له عدد . وبعد وفاته انتقلت هذه الخزانة الى نجله الشيخ علي النيفر المدّرس بالجامع المشار اليه. ومن آثار منشئها كتاب «عنوان الاريب في مَن نشأ بتونس من عالم واديب» وكتاب « حسن البيان » في تاريخ افريقيا

٦ ـ مكتبة السيد الهادي الشريف

هو احد ائمة جامع الزيتونة كثير الاطلاع واسع الثروة فُطِر منذ صباهُ على محبة الكتب والرغبة في جمعها . وله ولع عظيم بشراء المخطوطات البديعة والمصاحف الجميلة الخط المزوقة بالذهب والمدبّجة بالرسوم الزاهية بذل في اقتنائها المال الوافر . هكذا تكوّنت لديه مكتبة تفرّدت بالفخامة والنفاسة وحسن الذوق .

٧ ـ مكتبة السيد محمد بن الامين

كان محمد بن الامين عضواً في جمعية الشورى التونسية . واشدة كلفه بالعلم أنشأ مكتبة مهمة عُدّت من ابدع المكاتب لما حوته من نفائس المخطوطات وشتى المطبوعات . ومن ميزات صاحبها انه لم يسمع باسم كتاب صدر في اوروبا او اميركا او أي قطر كان شرقاً وغرباً الا احرزه وضمهُ الى خزانته .

٨ ـ مكتبة الامير الصادق

يُعد الامير الصادق ابن الامير مصطفى باي من أنجب امراء الاسرة الحسينية المالكة. أولع منذ نعومة اظفاره بالكتب فابدى اعتناء عجيباً وحزماً كبيراً في جمعها واقتناء بدائعها. وبتوالي الايام تكونت لديه خزانة معتبرة جمعت فأوعت

٩ ـ مكتبة الملك محمد الهادي

من اكبر عشاق الكتب في الاسرة الحسينية نذكر الاميرين الاخوين الطاهر باي والبشير باي ابني الملك الاسبق محمد الهادي . فانهما في طليعة الامراء عناية بالكتب. وقد اقتفيا بذلك آثار والدهما الذي خلف لهما خزانة عظيمة تستحق الوصف المخصوص.

١٠ ـ مكتبة حسن حسني عبد الوهاب

يُعتبر السيد حسن حسني عبد الوهاب من اشهر الكتّاب والمؤرخين في الديار التونسية ويعرف من اللغات : العربية والفرنسية والايطالية واليونانية واللاتينية وبعض التركية (١). ونظراً الى ثقافته العالية عُين عضواً في مجمع اللغة العربية الملكي بمصر. شب السيد حسن وشاب في محبة الكتب فجمع منها خزانة احتوت على كل نادر وثمين. وهي تتألف من ستة آلاف مجلد مطبوع وثلاثمائة مخطوط قديم قضى نيفاً وثلاثين سنة في انتقائها وتنظيمها حتى صارت مرجعاً لابحاث بعض علماء الاستشراق. ومن خصائص هذه الخزانة انها ضمت كل كتاب يبحث عن تونس تاريخياً وادبياً وسياسياً واقتصادياً الخ.

---

(١) عبد المجيد كامل: كتابه «في بلاد الناس» طبع بيروت الجزء الثالث من القسم الاول صفحة ٢٩

١١ ـ مكتبة السيد محمد التركي

للسيد محمد التركي مكانة ادبية عالية رفعته الى منصب « مدير التشريفات » في البلاط الملكي التونسي. وهو ايضاً شديد الكلف بجمع الكتب لا تقع عيناه على كتاب الا اشتراه. وكل مرة اتصل تجار الكتب بسفر مفيد عرضوه عليه قبل غيره من المشترين لما عهدوه فيه من رغبة المشترى وبذل المال وعدم المماحكة في الاخذ والرد ولا سيما اذا كان الكتاب نادراً. هكذا استطاع السيد محمد ان يقتني خزانة غنية بالمخطوطات والمطبوعات العربية.

١٢ ـ مكتبة زين العابدين السنوسي

هو منشىء جريدة « تونس » ومجلة « العالم الادبي » وصهر باي المملكة التونسية. حوت مكتبته ما جمعه هو بنفسه او ورثه عن والده الشهير الشيخ محمد السنوسي محرر جريدة « الرائد التونسي » في اول نشأتها سنة ١٨٦١ ميلادية. وبين مخطوطاتها كتاب « مجمع الدواوين » في عشرين مجلداً حوى تراجم مئات من علماء التونسيين وشعرائهم. وبينها ايضاً مخطوطة له عنوانها « الرحلة الحجازية » في مجلدات شتى تطرق فيها الى وصف بعض اعلام الشرق الذين شاهدهم في رحلته. وخص بالذكر المعلم بطرس البستاني فاورد ترجمته وعدد مؤلفاته ولا سيما « دائرة المعارف» التي نشر فيها الشيخ السنوسي فصلا عن تونس وملوكها الحُسينيين.

١٣ ـ مكتبة البشير الخنقي

تفردت هذه الخزانة بالكتب المطبوعة النادرة وقوانين الحكومات ودساتير الدول ومجموعات الاوامر الرسمية وانظمة الجمعيات والشركات. واشتملت خصوصاً على مجموعة كاملة لكثير من الجرائد والمجلات العربية التي صدرت شرقاً وغرباً في اوروبا واميركا والمغرب الاقصى والجزائر وتونس وطرابلس الغرب ومصر وفلسطين ولبنان وسوريا والعراق الخ الخ...

ثانياً : مكتبات القيروان

١ ــ مكتبات جوامع القيروان

اثبتنا في الفصل السابع والعشرين من الباب الثالث بحثاً خاصاً بمكتبة الجامع الاعظم في القيروان . والمعنا الى ما فيها من الخطوط النادرة المكتوبة بقلم كوفي على الرق والكاغد . وما عدا هذا الجامع المعروف ايضاً بجامع عقبة بن نافع مؤسسه فان القيروان لا تخلو جوامعها الاخرى من خزائن للكتب . واهمها خزانة مقام السيد الصاحب وخزانة الزاوية الغريانية

٢ ــ مكتبة ابي الفضل احمد

كانت مدينة القيران في سالف الزمان حافلة باهل العلم الذين كانوا يتنافسون بادّخار الكتب ونساختها . ويُروى عن قاضٍ فيها اسمه ابوالفضل احمد جمع خزانة كتب بيعت بعد وفاته بألف دينار (١)

٣ ــ مكتبة ابي جعفر احمد بن الجواز

بين مئات العلماء الذين اشتهروا قديماً في القيروان ورد ذكر ابي جعفر احمد بن الجواز الذي كان من اكبر عُشّاق الكتب وجمّاعيها . وحسبنا برهاناً انه كان لديه خمسة وعشرون قنطاراً من مخطوطات طبية وغيرها .

٤ ــ مكتبة عظوم

لاسرة عظوم مقام محترم لما انتجته من العلماء الاعلام في مدينة القيروان . ولديه

---

(١) دائرة معارف القرن العشرين : مجلد ٨ صفحة ٧٤

الاسرة مكتبة معتبرة حوت من المخطوطات طائفة عظيمة بينها كتب نادرة في علوم كثيرة . ولهــــذه المخطوطات وصف دقيق بقلم المستعربين هوداس وباسه (A. Houdas et R. Basset) نشراهُ سنة ١٨٨٤ في ١٨ صفحة (٢) وقد خلف بعض العلماء من بني عظوم فتاوى ذات قيمة في التشريع والقضاء تُسمى « فتاوى عظوم » .

٥ ـ مكتبة الشيخ محمد الجودي

للشيخ الجودي مفتي القيروان خزانة كتب رائعة تفتن الابصار بما تضمهُ من المجلدات الضخمـــة . ولصاحبها عناية كبيرة باقتناء نفائس الاسفار حتى صارت مكتبته يُشار اليها بالبنان في دوائر العلم

٦ ـ مكتبة الشيخ محمد طراد

امتازت هذه الخزانة باحتوائها على كثير من الوثائق التاريخيـة الخطيرة . وصاحبها ولوع بجمعها والتنقيب عنها واقتنائها بكل ذريعة ويُعد هذا الشيخ مرجع ثقة في التاريخ وعلم الآثار والكتابات القديمة وما يتعلق بها . ولديه في خزانته وثائق وصكوك بخطوط اصحابها ومؤلفيها يرتقي عهد تاريخها الى القرنين الثاني والثالث للهجرة . وهي نادرة الوجود على غاية من القدامة والنفاسة .

ثالثاً : مكتبات جربه

١ ـ مكتبة الشيخ محمد الباسي

وقف هذا الشيخ على طلاب العلم طائفة كبيرة من كتب مطبوعة ومخطوطة وجعلها في خزائن بالجامع المنسوب اليه في جزيرة جربه . وفي هذه المكتبة مصاحف

Bulletin de corresp. africaine tome II (1884) pages 181-198 (1)

مخطوط بديعة بينها مصحف تحت كل آية او كلمة منه تفسيرها باللغة التركية. وتمتاز هذه المكتبة بالتآليف في مذهب الاباضية وتاريخ مشاهير الرجال والادباء والشعراء الذين ينتسبون الى هذا المذهب. وقد خلف الواقف ريعا سنوياً يُنفق على المكتبة والجامع المشار اليها.

٢ ـ المكتبة الناصرية

في جزيرة جربه مكتبة اخرى تدعى « المكتبة الناصرية » أنشأها رهط من اهل المكانة والفضل. فأهدى اليها كل منهم جملة من الكتب وحبسها على المطالعين من ابناء هذه الجزيرة الذين يؤمونها ويستفيدون منها.

٣ ـ مكتبة جامع علي الكاتب

كان علي الكاتب من مشاهير تجار الاستانة وقد كلفته الدولة العثمانية في غابر الزمان بتقديم ما يحتاج اليها جيشها من الطرابيش. فاثرى من وراء ذلك وتبرع بالوف الدنانير لمساعدة المشاريع الخيرية ولا سيما السكة الحديدية الحجازية. ومن آثاره المبرورة انه شيد في مسقط رأسه « جربه » جامعا ومدرسة يعرفان باسمه. وقد انشأ في هذا الجامع خزانة كتب ضم اليها طائفة من المخطوطات المفيدة والمصاحف المذهبة والاسفار المطبوعة في الاستانة.

٤ ـ مكتبة جامع الترك

في حومة السوق بمدينة جربه جامع قديم يقال له « جامع الترك » وهو من بقايا الاتراك عندما كانت تونس خاضعة لحكمهم. وفيه خزانة كتب اكثرها مخطوطات عربية قديمة.

٥ ـ مكتبة السيد احمد بن ابرهيم

للمستعربين هوداس وباسه O. Houdas et R Basset كلف بالمخطوطات العربية والتفتيش عنها في انحاء شمال افريقيا. وقد وصفا كل ما اطلعا عليه من المخطوطات ووضعا لها فهارس علمية دقيقة. ومن جملة ما نشراه من هذا القبيل سنة ١٨٨٤ فهرس لمخطوطات خزانة السيد احمد بن ابرهيم الكائنة في حومة السوق بجزيرة جربه (١).

رابعاً : مكتبات صفاقس

١ ـ مكتبة علي النوري الصغير

ينتمي الشيخ علي النوري الصغير الى اسرة اشتهرت بالعلم والثروة في صفاقس. وتعتبر مكتبته من اعظم المكاتب العربية بالاقطار التونسية اذ احتوت على ما لا يحتوي عليه غيرها من المخطوطات القديمة الوافرة العدد.

٢ـ مكتبة السيد محمد المزيو

في صفاقس مكتبة اخرى يجمل الاشارة اليها لخطورتها وهي مكتبة السيد محمد المزيو . فانها امتازت عن غيرها بما تضمنته من الاسفار التي تبحث في الفلاحة والزراعة والحيوان والنبات والكيمياء والطبيعيات وغير ذلك من المواضيع الجليلة. وهي مجموعة لانظير لها عني صاحبها بحوارها وكاف من بحث له عن ذلك ودفع له اجرة وافية .

---

(١) Bulletin de Corresp Afric; Tome II (1884) page 398

٣ - سائر مكتبات صفاقس

في مدينة صفاقس مكاتب اخرى لا نرى بداً من الالماع اليها وهي : مكتبة جامع صفاقس . ومكتبة الشيخ محمدالسلامي نائب جمعية الاوقاف . ومكتبةالشيخ محمد المهيري . ومكتبة احمد الشرقي من اعيان المدينة المذكورة وكبار اغنيائها .

خامساً : مكتبات سليمان

١ - مكتبة آل ماضور

يتحدر آل ماضور من اسرة اندلسية هجرت منذ خمسمائة سنة واستقرت في بلدة « سليمان » بتونس . وهي من الأسر الماجدة التي اشتهر افرادها بالادب وتولى كثير منهم مراكز القضاء والافتاء . وتعد مكتبة آل ماضور من اعظم مكاتب العالم العربي وفيها من جلال الاسفار الخطية القديمة ما لا وجود له على الاطلاق في غيرها. لانها تتضمن الشيء الكثير من مخلفات الجدود الذين جاءوا بها اثناء جلائهم عن بلاد الاندلس . وهي ملك لجميع افراد الاسرة المذكورة لا تمس ولا تباع .

٢ مكتبة الجامع

في مدينة « سليمان » الوطن القبلي بتونس جامع يحتوي على خزانة كتب قديمة العهد . ولم يزل فيها بعض المخطوطات النفيسة التي سلمت من صروف الزمان

سادساً : مكتبات بنزرت

المكتبة اللزامية

هي مكتبة عامة انشأها السيد عبد الرحمن اللزام وانفق النفقات السخية على

مشتراهـا وتجهيزها وترتيبها حتى صارت مجلداتها تعد بعشرات الآلاف (١) . ثم جعلها وقفاً للادباء والباحثين ولكل من شاء المطالعة تعميماً للعلوم بين سكان بلده . فعرف لهاهل بنزرت هذا الفضل وانتخبوه غير مرة نائباً عنهم في المجلس الكبير التونسي .

سابعاً : مكتبات سوسة

مكتبة عبد الحميد السقا

للسيد عبد الحميد السقا مكتبة يذكرها العلماء والادباء كل مرة ورد ذكر مدينة « سوسه » عروس مدن الساحل التونسي. فانها غنية بالمصنفات والمخطوطات العزيزة الوجود .

ثامناً : مكتبات المنستير

مكتبة الشيخ محمد مخلوف

اشتهر الشيخ محمد مخلوف قاضي المنستير باشتغاله في التاريخ والادب والعلوم الشرعية. ولاجل ذلك صرف عنايته الى جمع التآليف الوافرة والنفيسة في المواضيع المشار اليها . فتكونت لديه مكتبة قليلة النظير .

---

(١) مجلة « تونس المصورة » بتونس : سنة ٢ عدد ١ في ٢٦ تشرين الاول ١٩٣٨

الفصل الحادى عشر

خزائن كتب الجزائر او المغرب الاقصى

القطر الجزائري غني كسائر الاقطار الاسلامية بجوامع وزوايا صينت فيها مخطوطات قديمة عصت على رزايا الدهر وحوادث الايام. وهي بقية ضئيلة مما انشأه الملوك والامراء إبان عزّ العرب او دوّنه حملة الاقلام في تباين الآراء الفلسفية والمذاهب الدينية عصراً بعد عصر.

وعلى رغم انتشار اللغة الفرنسية في جميع انحاء الجزائر فان اللغة العربية ظلت راسخة بين سكانها بفضل لغة القرآن التي هي لغتهم الاصلية. ولأجل ذلك ضنّ الجزائريون بتراث اجدادهم وحافظوا عليه محافظتهم على اثمن الكنوز. وقد زادهم تمسكا به ما عاينوه ولمسوه في الفرنسيين فاتحي تلك البلاد من الحرص الشديد على صيانة كل اثر قديم. وادلتنا على صدق هذا القول ما جمعه الفرنسيس من المخطوطات العربية العتيقة التي كانت مبعثرة في كل مكان. فألفوا منها مجموعات قيمة زيّنوا بها خزائن الكتب الخاصة والعامة في اهم مدن الجزائر وسائر الاقطار المغربية. وما اكتفوا بذلك بل نهض منهم علماء ومستعربون انصرفوا بكل نشاط الى البحث عن المخطوطات المحفوظة من قديم الزمان في المساجد والزوايا والمدارس وبيوت الاشراف. فدوّنوا لها الفهارس ووصفوا نفائسها في بطون الكتب وعلى صفحات المجلات العلمية وصفاً دقيقاً كما سنوضحه في ما يلي :

اولا : مكتبات عاصمة الجزائر وولايتها

للجامع الاعظم في مدينة الجزائر خزانة كتب تنطوي على بعض المخطوطات القديمة. وقد وضع السيد محمد شنب عام ١٩٠٩ بياناً في ١٩ صفحة لتلك المخطوطات

ونشره في كتاب فرنسي عنوانه « فهرس المخطوطات العربية في اهم المكتبات الجزائرية » ثم اردفه بفهرس لاسماء مؤلفيها.

ونشر الاستاذ رينه باسه (René Basset) عام ١٨٨٥ فهرساً لكل المخطوطات المحفوظة في خزائن الزوايا بولاية عاصمة الجزائر كزاوية تماسين وزاوية عين ماضي وزاوية عجاجة وزاوية ورْجَلة. ويقع هذا الفهرس في ٩٢ صفحة بقطع ثمن (١). ووضع الاستاذ عينه فهرساً لمخطوطات خزانة « باش آغا » في جلفا ونشره عام ١٨٨٤ في ١٣ صفحة. ثم وضع كذلك فهرساً لمخطوطات مكتبة زاوية الحمل وعددها ٥٣ مخطوطاً (٢).

وكان رينه باسه (١٨٥٥-١٩٢٤) من افاضل المستشرقين اللغويين في زمانه. اتقن لغات الشرق كالفارسية والتركية والحبشية والقبطية الا انه تفرغ خصوصاً للعربية واللغات السامية يوم عُهد اليه تعليم العربية سنة ١٨٨٢ في جامعة عاصمة الجزائر. وخلف مؤلفات تاريخية ولغوية وادبية نوّهت بعلو كعبه في العلوم الشرقية عموماً والاسلامية خصوصاً (٣). وقد احصى المجمع العلمي العربي بدمشق بين اعضائه الاستاذ رينه باسه اقراراً بفضله وخدمه الوافرة للغة العربية (٤).

واعتنى الاستاذ كالاسنتي موتيلنسكي A. Calassanti Motylinski بوضع فهارس لخزائن الكتب في مزاب. فنشر القسم الاول منها ووصف في جملة ما وصف من مخطوطاتها: كتاب ابن سرير – وطبقات الدرجيني – والجواهر المنتقاة للبرّادي – وكتاب السير للشّماخي الخ (٥)

---

(١) Bulletin de Corresp. Africaine, 1885, pages 211-266, 465-492

(٢) G. S. A. I., vol. X, 1897, pages 43-97

(٣) تاريخ الآداب العربية في الربع الاول من القرن العشرين : صفحة ١٢٣–١٢٤

(٤) اعمال المجمع العلمي العربي بدمشق (التقرير السادس عن سنتي ١٩٢٩ و ١٩٣٠) صفحة ١٦

(٥) Bulletin de Corresp. Afric. t. III (1885) p. 15-72

ثانياً : مكتبات قسنطينة وولايتها

نشر الاستاذ دي سلان (de Slane) تقريراً عن مكتبات القطر الجزائري واردفه بفهرس ينطوي على اهم المخطوطات المحفوظة في خزائن دار الكتب بعاصمة الجزائر وفي خزانة سيد حموده بمدينة قسنطينة (١)

وللاستاذ بَنْيان (E. Pagnan) بحث واف عن المخطوطات المخزونة في سيد حمّوده المشار اليـــه (٢) ووضع الاستاذ شربونو (A. Cherbonneau) فهرساً للمخطوطات العربية التي تنطوي عليها خزانة كتب السيد بن باشترزي في قسنطينة وعددها ١٢١ مخطوط (٣) ثم اضاف اليها شروحاً وحواشي كافية.

ثالثاً : مكتبات وهران وولايتها

الف الاستاذ المستعرب كور (A. Cour) فهرساً مسهباً للمخطوطات العربية المحفوظة في اشهر المكتبات الجزائرية. وقد المع فيه الى ما حوته خزانة « مدرسة تلمسان » في مدينة تلمسان من الكتب الخطية وعددها مئة وعشرة مجلدات. ونشر المستعرب العلامة المشار اليه ذلك الفهرس سنة ١٩٠٧ بمدينـــة الجزائر في ٦٧ صفحة قطع ربع. هكذا اصبحت اكثر مكتبات الجزائر بمخطوطاتها النادرة معروضة لدى اهل البحث في الامصار العربية وغير العربية .

---

(١) Archives des Missions scientifiques, 16 pages

(٢) Revue Africaine, t. 36 (1892) page 165

(٣) Journal Asiatique, 5e série, t. IV (1854), p. 433-443

الفصل الثاني عشر

خزائن كتب المغرب الاقصى

ليست خزائن الكتب الخاصة في المغرب الاقصى اقــل عدداً واعتباراً من خزائن كتب سائر الامصار العربية. فقد عثرنا بعد البحث والتدقيق على اسماء مكتبات جمة فيها من نفائس المخطوطات وذخائر المطبوعات ما هو جدير بان يدوّن في بطون التاريخ. وقد اعتمدنا في ذلك على ما اقتبسناه من معلومات ضافية اتحفنا بها فريق من علماء المغرب وجهابذة مؤرخيهم. نخص بالذكر منهم الشريف العلامة مولاي عبد الرحمن بن زيدان نقيب الاسرة المالكة بالمغرب الاقصى. ثم المؤرخ المدقق الاستاذ عبدالله كنّون الحسني احد كبار الادباء في ثغر طنجه . فان كلاً منهما نفحنا بنبذة وافية عن المكتبات العربية الخاصة في تلك الاصقاع . فنخص اولهما وافر الشكر ونثني على ادبه وصدق خدمته لابناء الضاد . ونستنزل غيوث الرحمة على ثانيهما الذي قصفته يد المنون في شهر محرم عام ١٣٥٨ بعد حياة حفلت بالآثار المفيدة والمآثر المشكورة العديدة. اما تلك المكتبات فتنحصر في ما يلي:

اولا : مكتبات الرباط او رباط الفتح

١ ـ الخزانة السلطانية

أسسها مولاي الرشيد سلطان المغرب الاقصى (١٠٧٥–١٠٨٢ ﻫ) وضم اليها مخطوطات ثمينة كانت في الزاوية الديلائية. ثم سعى لتوسيع نطاقها بالنسخ والشراء وبما اهدي اليها من جميع الانحاء . وممن نسخوا له كتباً عديدة المؤذن الكاتب من بني المؤذن السجلماسيين. وكان هذا مؤرخاً نسّابة واسع الاطلاع بديع الخط (١)

---

(١) اتحاف اعلام الناس : تأليف عبد الرحمن زيدان : جزء ٤ صفحة ٣٨١

وبعد مولاي الرشيد تولى اخوه السلطان اسمعيل (١٠٨٢ – ١١٣٩ ﻫ) فعزز هذه الخزانة التي وصفها المؤرخون وصفا مشبعا ونوّهوا بفخامتها ونفاسة محتوياتها. وظل السلاطين ابناؤه واحفاده يرمقونها بعنايتهم ملك تلو ملك حتى افضت السلطنة الى مولاي محمد السلطان الحالي اعزه الله. وقد بلغ عدد مجلدات هذه الخزانة في عهده نيفاً وثلاثين الفا بينها من المخطوطات اكثر من عشرين الفا. ومن انفس ما احتوته جزء من كتاب « البيان المُغرب في اخبار المغرب » لابن العذارى المراكشي. وهو غير الجزئين اللذين نشرهما المستشرق دوزي الهولندي سنة ١٨٤٨ و ١٨٤٩ في ليدن.

٢ ـ مكتبة الشيخ المكي البطاوري

كان الشيخ المكي البطاوري شيخ الجماعة بالرباط. جمع في حياته خزانة كتب قيّمة اربت مجلداتها على اربعة آلاف مجلد. بينها مخطوطات لا يحصى لها عدد فضلا عن مؤلفاته مكتوبة بخط يده. وقد انتقلت بعد وفاته الى ورثته وهم يحافظون عليها لهذا العهد .

٣ ـ سائر مكتبات الرباط

في الرباط مكتبات خاصة غير التي سبق ذكرها : اهمها مكتبة الشيخ محمد بن الحسن الحجوي الفاسي الاصل مندوب المعارف بالرباط . ثم مكتبة الشيخ احمد الزبيدي احد اعيان الرباط وفضلاء ادبائه

ثانياً : مكتبات فاس

١ ـ مكتبة الشيخ عبد الحي الكتاني

اسس هذه المكتبة الشيخ عبد الحي وهي غنية بذخائر المؤلفات مما لا نظير له في غيرها من المكتبات . واختلف الرواة في تحديد عدد ما ضمته من الكتب . فذهب

بعضهم الى ان مخطوطاتها وحدها تقارب الالف وقال غيرهم خلاف ذلك .

وقد تعهد الامير محمد علي بن توفيق الاول خديو مصر هذه المكتبة اثناء رحلته الى شمال افريقيا فكتب عنها ما نصه (١) : « اطلعنا على مكتبة الشيخ عبد الحي الكتاني الحاوية نحو ثلاثة آلاف كتاب . ضمنها كثير من المنسوخات بعضها ترجع الى الف عامٍ ومع ذلك في حالة جيدة. فتصفحنا زهاء الساعتين بعض تلك المنسوخات التي لها عند المسلم اهمية كبيرة . والتي قد لا يهتم لها الاوروبي كثيراً لخلوهـا من البيانات والرسومات الفنية .وانها لمن اثمن المكاتب لما تحويه من الكتب النادرة عن تاريخ العرب والاسلام والمنسوخات لمشاهير المسلمين . وان هذا الشيخ كثير الولع بالكتب القديمة وبجمعها والبحث عنها ... وله مؤلفات كثيرة وقد تلقى عنه الحديث اثناء وجوده بالازهر كثير من علمائنا » .

وحازت مكتبة الشيخ الكتاني شهرةً واسعةً في العالم الاسلامي . لذلك لجأ اليها العلماء والادباء ورجال الدولة . ونشرت عنها جريدة « السعادة » في مدينة الرباط مقالات متتابعة بقلم السيد محمد ابي جندار .

وللشيخ عبد الحي الكتاني علاقات مستحكمة بالكتبيين في مختلف الانحاء ومما يُحكى عنه انه لم يُشاهد قط في سوق من اسواق المدن التي سكنها او دخلها الا في دكاكين باعة الكتب (٢) . وبالنظر الى غزارة علمه عده المجمع العلمي العربي بدمشق بين اعضائه .

٢ ـ مكتبة محمد بن جعفر الكتاني

كان للشيخ محمد بن جعفر الكتاني ولع شديد بجمع الكتب فأحرز طائفة وافرة من المطبوعات الهندية ونفائس المخطوطات . وانتقلت بعد وفاته الى ورثته.

---

(١) رحلة الامير محمد علي باشا في شمال افريقيا : صفحة ٤٧ — ٤٨

(٢) فهرس الفهارس والاثبات ومعجم المعاجم والمشيخات والمسلسلات : المقدمة : صفحة ١٤

٣ ـ مكتبة المولى المأمون

أنشأ هذه الخزانة الخليفة السلطاني المولى المأمون. وضم اليها مطبوعات كثيرة ومخطوطات نادرة بينها زهاء مائتي مخطوط مزدانة بصنوف الزخارف.

٤ ـ مكتبة الشيخ عبدالله الفاسي

كان الشيخ عبدالله الفاسي وزيراً للخليفة السلطاني واقتبس عنه الشغف بجمع الكتب. فاحرز في داره خزانة عامرة بالمطبوعات والمخطوطات التي ما برح ورثته حراصاً عليها حتى هذا العهد.

ثالثاً: مكتبات سلا

سلا مدينة في افريقيا عريقة في القدم اسسها الفونيقيون ولم تزل من آثارهم بقية ظاهرة فيها حتى الآن. واشتملت هذه المدينة على بعض مكتبات نذكر منها مايلي:

١ ـ المكتبة الناصرية

اسسها المؤرخ الشهير ابو العباس احمد (١٢٥٠ – ١٣١٥ هـ) بن خالدالناصري مؤلف كتاب « الاستقصا لاخبار دول المغرب الاقصى ». وتحتوي على نحو عشرة آلاف مجلد منها نحو مائتين وخمسين مخطوطاً. وفي قسم المخطوطات كثير مما الفه المؤسس او خطته يمينه او علق عليه بقامه في الفقه والنحو والتاريخ والادب. وفيه ايضاً ما الفه انجال المؤسس او نسخوه او صححوه من الكتب. وفيه اخيراً مجموعة طريفة انطوت على تآليف اجداد آل ناصر من عهد الشيخ الاكبر ابي عبدالله بن ناصر وعلى ما كتب عن هذه الاسرة او كتب لها او جمع باسمها.

وليست الخزانة الناصرية مجموعة كتب فقط بل هي متحف آثار ايضاً يشتمل

على صور قديمة لملوك المغاربة وامرائهم واعيانهم وغيرهم. واحتوت كذلك على كثير من الخرائط الجغرافية التي كانت مستعملة قديماً عند رؤساء البحر من اهل « سلا » ايام ازدهار بحريتهم وجولان اسطولهم في البحرين المتوسط والاطلنطيقي . وتضمنت شيئاً وافراً من المؤلفات التاريخية والحقوقية والاجتماعية والزراعية والعلمية التي تبحث في احوال افريقيا الشمالية عموماً والمغرب الاقصى خصوصاً.

وخلاصة القول ان اصحاب هذه الخزانة رتبوها ترتيباً فنياً ليسهلوا على المطالعين الانتفاع بها. وهي مأثرة يشكرهم عليها كل اديب اريب.

٢ ـ مكتبة الشيخ محمد الدكالي

اتصف الشيخ محمد بن علي الدكالي السلوي بادبه العالي . والف بعض الكتب في جملتها تاريخ مدينة « سلا » وطنه. ويشغل الشيخ الدكالي في يومنا وظيفة كاتب لمندوب المعارف في البلاط الملكي. وله شغف شديد بالكتب جمع منها خزانة مهمة تُعدّ من احسن خزائن كتب سلا.

٣ ـ مكتبة آل الصبيحي

لآل الصبيحي في « سلا » خزانتان حافلتان باصناف الكتب مخطوطة ومطبوعة: احداهما تخص الشيخ محمد الصبيحي باشا والثانية تخص ابن عمه احمد الصبيحي ناظر الاحباس (الاوقاف) في تلك المدينة .

رابعاً : مكتبات مكناس

١ ـ الخزانة الزيدانية

وضع اساس هذه المكتبة مولاي الشريف عبد الرحمن بن زيدان نقيب الاسرة

المالكة بالمغرب الاقصى . واحتوت على ثمانية آلاف مجلد بينها ثلاثة آلاف مخطوط تعد من غرائب الكتب ونوادرها . وفي تلك المخطوطات ما نسخ بايدي مؤلفيها او دونت عليه حواش بخطوطهم . وفيها علاوة على ذلك كنوز كتابية ثمينة ومناشير سلطانية تتعلق بتاريخ الدولة العلوية . وقد نظمت الفهارس لهذه الخزانة تنظيماً عصرياً بعناية مؤسسها العلامة .

ولمولاي الشريف عبد الرحمن بن زيدان تآليف شهيرة تدل على علو كعبه في شتى العلوم ولا سيا في التاريخ . نذكر منها : كتاب « اتحاف اعلام الناس بجمال اخبار حاضرة مكناس » وكتاب « الدرر الفاخرة بمآثر الملوك العلويين بفاس الزاهرة » وكتاب « العزّ والصولة فى نظام الدولة » وغيرها.

٢ ـ سائر مكتبات مكناس

ما عدا الخزانة الزيدانية فان مكناس تشتمل على غيرها من المكاتب اشهرها: مكتبة الشيخ محمدفتحا السوسي قاضي العاصمةالمكناسية الاسماعيلية العلوية .ومكتبة الشيخ محمد بن مبارك الهلالي مفتي مكناس . ومكتبة ورثة الشيخ محمد بن عبدالسلام الشريف الطاهري .

خامساً : مكتبات مراكش

مراكش هي احدى عواصم المغرب الاقصى وفيها عدة مكاتب نذكر منها : ١ ــ مكتبة باشا مراكش الحمراء الحاج التهامي الاجلاوي . وفيها عجائب وغرائب من المخطوطات المزخرفة النادرة الوجود ٢ ــ مكتبة الشريف مولاي احمد بن السعيدي العلوي احد قضاة مراكش وفيها مخطوطات نفيسة ٣ ــ مكتبة الشيخ عباس بن ابرهيم مؤرخ مراكش واحد قضاتها في العصر الحاضر وهي تتضمن نفائس وذخائر ٤ ــ مكتبة الشيخ محمد بن عبد الكبير الخ.

سادساً : مكتبات وزّان

في مدينة وزّان مقر الاشراف الوزّانيين مكتبة جليلة تُنسب الى ابن عبدالله الشريف وهو جد الاشراف المشار اليهم . وفي هذه الخزانة من أمّهات الكتب المخطوطة ما لا يقع تحت حصر (١)

سابعاً : مكتبات سوس

لم يغمّض مشايخ سوس وادباؤها عن تزيين دورهم بمكتبات معتبرة نذكر منها: ١ ـ مكتبة المرابط الشيخ مسعود البونعماني ٢ ـ مكتبة زاوية ازرق ٣ ـ مكتبة القائد عياد الجراري احد قواد سوس ٤ ـ مكتبة الشيخ عبد العزيز الادوزي شارح الشمقمقية وغيرها.

ثامناً : مكتبات طنجه

١ ـ الخزانة الكنونية

اهم ما عرفنا من خزائن كتب طنجه هي الخزانة الكنّونية التي اسسها العلامة عبدالله كنّون الحسني المتوفى سنة ١٣٥٨ للهجرة. وهي تضم اشتاتا لا نظير لها من الكتب في الطب والفلسفة والرياضيات القديمة فضلا عن كتب الحديث والفقه والتفسير واللغة والادب والتاريخ. ولصاحب هذه الخزانة مؤلفات مستملحة نذكر منها: كتاب « النبوغ المغربي في الادب العربي » وكتاب « شرح الشمقمقية » وكتاب « شرح مقصورة المكودي » وكتاب « محاذي الزقاقية » وغيرها.

---

(١) مجمع الآثار العربية : صفحة ١٧٤

٢ - سائر مكتبات طنجه

في طنجه نفسها مكتبتان اخريان تشتملان على طائفة من المخطوطات النفيسة : احداهما خصوصية اتى على وصفها (١) المستعرب سلمون (G. Salmon). والثانية محفوظة في خزائن جامع طنجه كما روى المستعرب مايلار (Maillard) في مجلة العالم الاسلامي (٢)

تاسعاً : سائر مكتبات المغرب الاقصى

في منطقة الحماية الفرنسية

نذكر هنا اهمها وهي : مكتبة الشيخ احمد سكيرج قاضي سطات. ومكتبة الشيخ عبد الهادي بن محمد السلاوي قاضي زرهون وفيها طرائف ونوادر. ومكتبة الشيخ احمد الازموري قاضي قصبة ابن احمد. ومكتبة الشيخ عبدالله الشرقاوي قاضي ابي الجعد. ومكتبة الشيخ موسى بن العربي قاضي تارودانت وفيها غرائب. ومكتبة الشيخ محمد البيضاوي الشنجيطي عامل تارودانت المذكورة. اخيراً المكتبة الناصرية في تمجروت اسسها الشيخ ابن ناصر حول القرن الحادي عشر. وهي اكبر خزائن المغرب الاقصى.

عاشراً : مكتبات المغرب الاقصى في منطقة الحماية الاسبانية

في المنطقة الاسبانية من المغرب الاقصى خزائن كتب جمة لها شأنها في عالم الثقافة. وهي تشتمل على عدد وافر من المخطوطات العربية مما لم نتوفق الى العثور

---

(١) Archives Marocaines, V (1906) pages 134-146

(٢) Revue du Monde Musulman, tome XXXV pages 107-192

على فهارس لها منظمة ومطبوعة. واخصها في مدينة تطــاوين او تطوان عاصمة البــلاد المذكورة كما افادنا الشريف عبد الرحمن بن زيدان نقيب الاسرة العلوية المالكة . وحباً للايجاز نذكر من تلك الخزائن ما يأتي :

١ – خزانة قصر صاحب السمو مولاي حسن الخليفة السلطاني بالمنطقة الاسبانية في المغرب الاقصى ٢ – خزانــة كتب المسجد الاعظم في تطوان ٣ – خزانة العلاّمة الشيخ احمد الرهوني في تلك المنطقة . ومن تصانيفه المفيدة تاريخ تطــاوين وعاداتها في مجلدات شتى عانى جهوداً عظيمة في جمعه وتأليفه ٤ – خزانة كتب الحاج عبد السلام بنونة كانت حافلة في حياة منشئها باثمن المخطوطات واندرها. انّما نجهل مصيرها بعد وفاته ٥ – خزانة كتب المعهد الخليفي وهي اغنى جميع المكتبات في عاصمة المنطقة الاسبانية خصوصاً بوفرة عدد مجلداتها ومزايا مخطوطاتها . ويديرها في عهدنا العالم الشيخ المكي بن اليماني الناصري .

ونضيف الى تلك الخزائن خزانة « المكتبة العمومية » وموقعها في « ساحة اسبانيا » بمدينة تطوان العاصمة . وقد ذكرها الرحالة امين الريحاني اللبناني في كتابه « المغرب الاقصى (١) » .

---

(١) مجلة « الحديث » في حلب : لسامي الكيالي : مجلد ١٤ سنة ١٩٤٠ صفحة ١٩٩

الفصل الثالث عشر

مكتبة الاوقاف في طرابلس الغرب

طرابلس الغرب واقعة غربي البحر المتوسط بين مصر وتونس لكنها اقل خصباً وحضارة منها . ومكتباتها قليلة بالنسبة الى مكتبات سائر البلدان الراقية في العصر الحاضر . ولا يُعرف الآن في طرابلس الغرب الا مكتبة واحدة يقال لها « مكتبة الاوقاف » . وقد انشئت منذ ايام الاتراك الذين سيطروا على ذلك القطر اجيالاً عديدة . وافادنا السيد محمد الاسير البيروتي الذي اقام هناك ردحاً من الزمان ثم اختلف غير مرة الى تلك المكتبة انها كانت غنية بالأسفار الخطية الوافرة العدد النادرة الوجود . لكن معظمها نُهب بتوالي الازمان او ذهب ضحية الجهل والاهمال . وممن زارها ايضاً واستفاد من ذخائرها العلمية الرحالة الفلسطيني الشيخ خليل جواد الخالدي الذي تعهدها عام ١٣٢٢ للهجرة (١٩٠٤ م) ومكث فيها مدة شهر (١)

وفي الآونة الاخيرة اعتنت ادارة الاوقاف بهذه المكتبة وابتنت لها مركزاً خصوصياً بجانب جامع سيدي حموده . ثم نظمتها تنظيماً جديراً بالاعتبار يتوافق وثقافة هذا العصر . وقد ضمّت اليها عدداً كبيراً من المطبوعات العربية في كل فن ومطلب تعميماً للمعارف بين جميع طبقات الامة . زد على ذلك كله انها توفر للمطالعين تسهيلات وافية فتجيب على اسئلتهم العلمية وتُعيرهم الكتب ليطالعوها ويردّوها في اوقات معلومة .

---

(١) مجمع الآثار العربية: لابرهيم السيد عيسى المصري : جزء ١ صفحة ١٢٨

الفصل الرابع عشر

مكتبات بلاد البربر وصحارى افريقيا

نثبت تحت هذا العنوان اسماء مكتبات عربية توفق الى العثور عليها اهل البحث من علماء اوروبا المستعربين . فكتبوا عنها الفصول الطوال في مجلاتهم العلمية ووصفوا محتوياتها باقصى ما يمكن من الدقة والتحقيق . ومزية هذه المكتبات انها حُفظت من قديم الزمان في صحارى افريقيا او في اماكن معرّضة لغارات قبائل البرابرة . ومما يدعو الى الاستغراب ان تلك الكنوز الكتابية ظلت سالمة مدة قرون بين اقوام ليسوا على شيء من الثقافة ولم يتسن لهم ان يفتحوا عيونهم لنور الحضارة العصرية . وقد اطلعنا المستعربون على مخطوطات عربية حُفظت في تلك الاصقاع النائية لا نرى مندوحة عن تلخيص اخبارها للذكرى والتاريخ . وهي تنحصر في اربع مجموعات كما يلي :

١ — مجموعة خطية تتألف من واحد وستين مجلداً عثر عليها الاستاذ المستعرب دسفانيغ (Ed. Desfanig) في افريقيا الغربية فجلا غوامضها واسهب في شرح مضامينها في « المجلة الافريقية » الفرنسية (١)

٢ — وضع الاستاذ العلامة لويس ماسّينيون (L. Massignon) مقالة عنوانها « مكتبة صحراوية » اتى فيها على وصف مخطوطات عربية نفيسة صادفها في خزانة كتب الشيخ سيدي. وقد نشر عنها عام ١٩٠٩ درساً مدققاً في مجلة لهعنوانها « مجلة العالم الاسلامي » في باريس (٢)

٣ — للمستعرب لوقيان بوفا (Lucien Bouvat) نبذة بحث فيها عن مجموعة

---

(١) Revue Africaine, t. 55 (1911), t. 56 (1912), t. 57 (1913)

(٢) Revue du Monde Musulman, t. VIII (1909) p. 409 418

مخطوطات عربية اصلها من قبيلة بربرية تسمى « Touareg Oullimiden » في غرب افريقيا وهـــذه القبيلة من الرحل الذين يسرحون ويتنقلون في صحراء واقعة على ضفاف نهر نيجر (١)

٤ ـ اما المجموعة الخطية الرابعة فهي مكتبة الشيخ محمد بن أحمدّون بن سليمان الذي ينتمي الى قبيلة « ولاد ديمان » في صحراء افريقيا. وقد نشر احد علمـــاء الاستشراق مقالة طريفة في « مجلة العالم الاسلامي » الباريسية عن تلك المجموعة الثمينة الـــتي بلغ عدد مخطوطاتها مائة وسبعة وستين مجلداً (٢) . وهو عدد يعز وجوده بين جدران كثير من مكتبات المدن العربية .

الخاتمة

نجز بحوله تعالى المجلد الاول حاوياً مباحث متعددة عن علوم العرب في الجاهلية وصدر الاسلام والحالة الفكرية في المشرق حينذاك . وعن نقل العلوم الدخيلة الى اللسان العربي ، وتكوين المكتبات وانتشارها . تليها اخبار المكتبات الاسلامية .

وسنردفه بالمجلد الثـاني الذي اودعناه اخبار المكتبات النصرانية والمكتبات العربية في اوروبا واميركا والمكتبات الاسرائيلية ، واخبار غلاة الكتب وهواة المكتبات . وعلى الله الاتـكال .

---

(١) Journal Asiatique, 1926, (8 pages)

(٢) Revue du Monde Musulman, t. XXXI (1916) p. 117 126

فهرس

خزائن الكتب العربية فى الخافقين

صفحة

صفحة

صفحة

صفحة

صفحة

صفحة

صفحة

صفحة

صفحة

صفحة

صفحة

صفحة

صفحة

صفحة

صفحة

صفحة

صفحة

صفحة

صفحة

صفحة

صفحة

صفحة

صفحة

صفحة

صفحة

صفحة

صفحة

صفحة

صفحة

الباب الخامس

المكتبات النصرانية

يتضح من الابحاث السابقة ان خزائن الكتب الاسلامية تقسم قسمين : اولهما: خزائن كتب عامة اسستها الدول الاسلامية او ملوكها وامراؤها في مختلف البلدان. ثانيها: خزائن كتب خاصة اقتناها اعلام المسلمين وادباؤهم واغنياؤهم او انشأتها جمعياتهم ومعاهدهم العلمية .

اما المسيحيون فكانت خزائن كتبهم خاصة لا عامة كما يتبين ذلك من ابحاثنا التالية . يُستثنى منها بعض مكاتب ولا سيما خزائن كتب الرها التي يرتقي عهدها الى ايام الدولة الابجرية قبل التاريخ المسيحي وبعده . لان نصارى الشرق لم تقم لهم بعد الفتح العربي دولة مستقلة توجه اهتمامها الى انشاء مكاتب عامة . لكنهم لشدة كلفهم بالعلم انصرفوا الى تأسيس مكاتب خاصة في كنائسهم ومدارسهم واديارهم وبيوتهم . ويعود اكثر الفضل في ذلك الى رؤساء الدين المسيحي لا سيما الى علماء الرهبان في الاديار . فان هؤلاء كانوا يقضون اغلب النهار والليل في نسخ المخطوطات ويتنافسون في كتابتها ويحرصون على صيانتها . وفي ما يلي نسرد اخبار طائفة من المكاتب المشار اليها على اختلاف الاعصار والامصار وهي :

الفصل الاول

خزائن الكتب في بلاد الجمهورية اللبنانية

اولا : مكتبات بيروت

اشتهرت هذه المدينة بمدرسة الحقوق التي أنشئت فيها على عهد دولة الرومان في اوائل القرن الثالث للميلاد . وظلت زاهرة الى العام ٥٥١ اذ اجتاحتها الزلازل فتركتها اثراً بعد عين . ولا ريب في ان هذه المدرسة الذائعة الصيت كانت تشتمل على خزائن كتب معتبرة تتناسب مع شهرتها العلمية . غير ان التاريخ سكت عن ذكرها . وفي عصرنا الحاضر قامت في بيروت مكاتب شتى تُعد من اغنى مكاتب الشرق بالثروة الادبية وهي :

١ ــ مكتبة مطرانية الروم الارثذكس

اقدم مكتبة نصرانية في بيروت اثبتها التاريخ الحديث هي بلا جدال خزانة كتب دار المطرانية الارثذكسية . فقد ذكر الاب لويس شيخو (١) نقلا عن مخطوط للمقدسي عبدالله طراد البيروتي ان البطريرك مكاريوس ابن الزعيم الحلبي شرطن(٢) الخوري فرح من (ايلات) في بلاد عكار مطرانا على بيروت ودعاه فيلبس . وجرى ذلك بتاريخ ١٣ تشرين الاول سنة ١٦٥١ ميلادية . ومن آثار هذا الاسقف انه انشأ في قلايته مكتبة عربية اصبحت بعد ذلك نواة لمكتبة المطرانية الارثذكسية في هذه المدينة .

---

(١) بيروت . تاريخها وآثارها : صفحة ٨٢ (٢) شرطن : اي منح درجة من درجات الكهنوت

ومن خلفاء فيلبس في كرسي بيروت نذكر المطران اثناسيوس مخلع (+١٨١٣) الدمشقي الذي كان من علماء عصره فاقتنى مكتبة نفيسة[1] . وللعلامة المطران جراسيموس مسرة (١٩٠٢ — ١٩٣٦) فضل غزير في تعزيز المكتبة المذكورة وتنظيمها واغنائها . الا ان ورثته على ما بلغنا تصرفوا بعد وفاته في قسم منها ففقدت سابق زهوها .

٢ — مكتبة الجمعية السورية

كانت الجمعية السورية اول جمعية علمية منظمة انشئت في العصر الحديث بين الناطقين بالضاد . سعى في تأسيسها سنة ١٨٤٧ المرسلون الاميركيون في بيروت. وكان بين اعضائها نخبة من العلماء كالشيخ ناصيف اليازجي والمعلم بطرس البستاني والدكتور ميخائيل مشاقه وسليم دي نوفل وغيرهم ...

وقد نشرت مجلة الجمعية الاسيوية الالمانية[2] كتابا بعث به اليها الدكتور عالي سميث رئيس الرسالات الاميركية في بيروت يتضمن خبر تأسيس الجمعية السورية . ثم دوّنت المجلة دستور الجمعية في ١٥ بنداً مع وصف المكتبة التي خُصت باعضاء تلك الجمعية . ويتلخص من ذلك ان المكتبة اشتملت حين ذاك على خمسمائة وستة عشر مخطوطاً عربياً وعلى احد عشر مخطوطاً تركياً ماعدا الكتب المطبوعة في شتى اللغات . وكانت مواضيعها تتناول الدين والفلسفة والبيان والشعر والطب والرياضيات والفلك والتاريخ واللغة الخ . وقد تبرع بها اعضاء الجمعية . غير انه ما مرت خمسة اعوام على تأسيس هذه الجمعية حتى انقطعت عن العمل .

٣ — مكتبة الجمعية المشرقية

انشأها ادباء الكاثوليك في بيروت اقتداء بالجمعية السورية التي نهض بها المرسلون

---

(١) الاداب العربية في القرن التاسع عشر : مجلد ١ صفحة ١١٤

(٢) ZDMG. II, 378 - 388

الامير كيون . وكان من اخص اعضائها : ابرهيم افندي نجار رئيس اطباء العساكر السلطانية . ومارون نقاش والشيخ حبيب اليازجي وحنا بك ابي صعب والشيخ طنوس الشدياق ورزق الله خضراء وغيرهم . وعقدت جلستها الاولى بتاريخ ١٧ كانون الثاني ١٨٥٠ في دير الاباء اليسوعيين فكانوا اكبر المساعدين على تأسيسها . وقد اتحفوها بكتب نافعة فضلاً عما تبرع به اعضاء الجمعية انفسهم من نوادر الاسفار التي تكوّنت منها خزانة عامرة .

اما امانة هذه المكتبة فقد أنيطت بالمرحوم درويش تيان(١) الذي كان في عصره من ارباب الحمية والسخاء . الا ان هذه الجمعية تلاشت بعد اعوام قليلة مرت على نشأتها . اما مكتبتها فقد تسلمها الآباء اليسوعيون صيانة لها من الضياع . ثم انتقلت منهم الى شركة مار منصور كما سيأتي بيانه .

٤ ــ الخزانة اليازجية

آل اليازجي أسرة علم وثقافة أنجبت خلال القرن التاسع عشر اعلاماً برّزوا في اللغة والشعر وفي سائر فنون الادب . وحسبنا ان نذكر من هذه الدوحة الشيخ ناصيف اليازجي (١٨٠٠–١٨٧١) واولاده الشيخ حبيب والشيخ ابرهيم والشيخ خليل وابنته الشاعرة وردة وحفيديه نجيب وامين الحداد . فانهم رفعوا ألوية اللغة العربية وخدموها علماً وعملاً بالتدريس والتأليف والتصوير والتمثيل والخط والحفر والصحافة والطباعة (٢)

واول من انشأ خزانة كتب من اليازجيين سليلهم عبدالله اليازجي المتطبب على مذهب ابن سينا . فان خزانته حوت مخطوطات في الطب والادب واللغة

---

(١) المشرق : مجلد ١٢ سنة ١٩٠٩ صفحة ٣٢ ـ ٤١

(٢) تراجم مشاهير الشرق : جزء ٢ ومجلة « الآثار » في زحلة : مجلد ٢ صفحة ١٧٨ فما بعد. وكتاب « المشايخ اليازجيون » لعيسى المعلوف

والتاريخ . ثم عززها وأغناها ابنه الشيخ ناصيف بما اضافه اليها بالشراء والاهداء والنسخ والاستنساخ . واشتهر هذا العلامة بصناعة الخط ايضاً فأتقنه كل الاتقان وكتب مجلدات جمة قيل عنها انها لو جُمعت كلها لوازنت محمول جملين (١) .

وقد نقل لنا بعض اصدقاء اليازجي وتلامذته كالدكتور لويس صابونجي (١٨٣٣-١٩٣١) والمعلم شاكر شقير (١٨٥٠ - ١٨٩٦) والشيخ الحوراني (١٨٤٤ - ١٩١٦) وغيرهم فقالوا ان عدد مخطوطات الخزانة اليازجية ناهز اربعمائة مجلد من نُخَب المؤلفات . الا ان تلك الثروة الكتابية تفرقت بين ابنائه وما تبقى من آثارها اتصل بحفيده الشيخ حبيب الذي اهداها الى مكتبة الآباء البولسيين في حريصا .

٥ - المكتبة الشرقية وسائر مكتبات اليسوعيين

في طليعة مكتبات بيروت مكتبة جامعة القديس يوسف التي سبق فأسسها الاباء اليسوعيون عام ١٨٤٨ في مدرستهم بغزير . ولما نقلوا هذه المدرسة الى بيروت عام ١٨٧٥ نقلوا معها تلك المكتبة وزادوا عليها كتباً كثيرة بتوالي الايام . وعلى اثر اقفال دير اليسوعيين عام ١٨٨١ في مدينة « وهران » بشمال افريقيا جلبوا كتبه برمتها وضموها الى مكتبتهم في بيروت . واستحضروا معها ساعته الكبرى ونصبوها في اعلى صدر كليتهم . وهي ساعة تاريخية دقت مؤذنة باستيلاء الحلفاء عام ١٨٥٥ على قلعة سباستوبول في اثناء حرب القرم .

أخذت هذه المكتبة بعد ذلك تنمو نمواً مستمراً حتى بلغ عدد مجلداتها الآن زهاء مائتي الف مجلد . وهي تتألف من فروع شتى موزعة على معاهد الكلية وهي: معهد اللاهوت ومعهد الفلسفة والطب والحقوق والهندسة والآداب واللغات الخ .

واهم تلك الفروع هي « المكتبة الشرقية » التي أنيطت ادارتها بالعلامة الاب

---

(١) تاريخ الصحافة العربية : جزء ١ صفحة ٨٨

لويس شيخو (١٨٥٩ – ١٩٢٧) . فاندفع بهمة شماء الى تعزيزها وترقيتها وخدمها خدماً جلى مدة خمسين سنة متوالية . ذلك انه جاب البلاد القريبة والبعيدة شرقاً وغرباً وحصّل لها من المخطوطات القديمة والحديثة والمطبوعات النادرة والمفيدة ما جعلها اعظم مكتبة شرقية بعد دار الكتب المصرية في القاهرة .

وانطوت « المكتبة الشرقية » على اربعين الف مجلد ونيّف تدور ابحاثها حول اللغات والعلوم الشرقية دون سواها . يضاف اليها زهاء اربعة آلاف مخطوط معظم مؤلفيها نصارى ومواضيعها نصرانية . ولعل مجموعة تلك المخطوطات تعد اكبر مجموعة عربية خطية من نوعها في العالم باسره .

وانصرف الاب لويس شيخو الى وضع فهرس خاص لمخطوطات المكتبة الشرقية باللغتين العربية والفرنسية . غير ان الاجل المحتوم عاجله قبل انجاز هذا المشروع . وقد عالج الاب فردينند توتل استئناف ما بدأ به الاب لويس شيخو فنشر بعض ذلك الفهرس عام ١٩٣٠ في كتاب بلغت صفحاته ٤٦٠ صفحة

وغير خاف ان جنود الاتراك احتلوا « المكتبة الشرقية » مدة الحرب العظمى (١٩١٤ – ١٩١٨) وابعدوا الرهبان اليسوعيين عنها وعن ديرهم المعروف بجامعة القديس يوسف . فسطت عليها حينذاك بعض الايدي واستباحت شيئا من كنوزها المعتبرة ونهبت طائفة من كتبها الثمينة .

وفي ٢٥ اذار ١٩٣٧ احتفل اليسوعيون بوضع الحجر الاول في اساس بناية جديدة شيدوها للمكتبة الشرقية غربي كلّيتهم. وقد افرغوا قصارى الجهد لتكون البناية الحديثة متناسبة مع ما خلفه السلف في بلاد الشرق من كنوز العلم والادب. وجرى افتتاح المكتبة رسمياً في ١٨ كانون الثاني ١٩٣٩ بحضور ارباب المناصب الدينية والمدنية واعيان العاصمة ورجال الفن من جميع المذاهب .

وحوت المكتبة الشرقية تحفاً نادرة لسنا نعرف لها نظيراً في سائر المكتبات . ومما لفت نظرنا فيها مخطوطٌ اصله من صحراء السودان الغربية مكتوب بخط عربي

غريب الشكل يقرب من الخط الكوفي . ويمتاز هذا المخطوط عن غيره بانه مجلد باديم بشري .

٦ ـ مكتبة الجامعة الاميركية

على اثر تأسيس الجامعة الاميركية عام ١٨٦٦ في بيروت فكر رئيسها الاول الدكتور دانيال بلس ان يضم اليها مكتبة تفي بحاجة الاساتذة والطلبة . وعاونه في مهمته الدكاترة الافاضل كرنيليوس فنديك (١٨١٨ — ١٨٩٥) . ويوحنا ورتبات (١٨٢٧ ـ ١٩٠٨) وجورج بوست (١٨٣٨ ـ ١٩٠٩) الذين نفخوا في اللغة العربية روحاً مباركة ونفحوا ابناء الضاد بمؤلفات جمة جديرة بكل ثناء واعتبار .

اخذت هذه المكتبة تزداد اتساعاً وازدهاراً بجهود المتولين ادارتها حتى اصبحت من اعظم مكتبات هذه الأمصار . ولايقل الان عدد مجلداتها ومجلدات الفرع الطبي اللاحق بها عن تسعين الف مجلد . وفيها من المخطوطات العربية زهاء ثلاثة الاف مجلد حبس منها طائفة معتبرة الدكتور ميخائيل مشاقة (١٨٠٠–١٨٨٨) اللبناني[1] والعلامة نوفل نوفل (١٨١١ ـ ١٨٨٧) الطرابلسي [2] . اما سائر المخطوطات فقد اشترتها ادارة المكتبة من مصادر شتى ولاسيا من الاستاذ عيسى اسكندر المعلوف . فانها ابتاعت من خزانته زهاء خمسمائة مخطوط[3] في اللغة العربية وحدها .

وتحتوي هذه المكتبة ايضاً على وثائق خطية قديمة وصكوك نادرة يناهز مجموعها احد عشر الف وثيقة . وهي تتضمن مواضيع خطيرة عن تاريخ الشرق الادنى وعن وقائعه الشهيرة واخبار رجاله في العصر الحديث . وقد تولى جمع تلك الوثائق والصكوك وضبط قراءتها ووضع فهارسها الدكتور اسد رستم احد اساتذة التاريخ

---

(١) مجلة الآثار في زحلة : مجلد ٣ سنة ١٩١٣ — ١٩١٤ صفحة ٤٣٧ (٢) تراجم مشاهير الشرق : لجرجي زيدان : جزء ٢ صفحة ١٥٣ — ١٥٤ (٣) مخطوطات الخزانة المعلوفية في الجامعة الاميركية : صفحة ١

الشرقي في الجامعة الاميركية المشار اليها . ثم نشر بالطبع طائفة منها في كتاب عنوانه « الاصول العربية لتاريخ سورية » في عهد محمد علي باشا راس الاسرة المالكة في مصر . وأصدر من هذا الكتاب خمسة اجزاء حتى اليوم .

ولما كانت هذه المكتبة الزاهرة في رقي متواصل فقد قررت ادارة الجامعة الاميركية ان تشيد لها صرحاً لائقاً بتقامها العلمي . فما كاد يذيع ذلك بين اصدقاء الجامعة وتلامذتها حتى أخذت تتوالى التبرعات من كل صوب تأييداً لهذا المشروع الكتابي . وفي طليعة اولئك المتبرعين اسرة العلامة نعمه يافث خريج هذه الجامعة فقد تبرعت بمبلغ مائتي الف ريال اميركي .

اما الطريقة المتبعة في تنسيق كتب مكتبة الجامعة فهي ذات الطريقة العشرية التي اعتمدناها في دار الكتب اللبنانية في بيروت . وتعميماً لها بين الناطقين بالضاد وضعنا كتابنا المسمى « ارشاد الاعارب الى تنسيق الكتب في المكاتب » في زهاء اربعمائة صفحة ونشرناه عربياً وافرنسياً سنة ١٩٤٧ .

عدا المكتبة العامة ، ففي الجامعة ايضاً عدة مكتبات موزعة في فروعها ، فلمدرسة الكيمياء مكتبة، ولمدرسة الصيدلية مكتبة، ولمدرسة التمريض مكتبة الخ . واشهر هذه المكتبات الفرعية مكتبة مدرسة الطب . وقد عنيت عمدتها بتعزيز مكتبتها الخاصة فحشدت فيها منذ انتهاء الحرب العالمية الاولى (١٩١٤-١٩١٨) اشهر المجلات الطبية الصادرة في الشرق والغرب . وتبذل ادارة هذه المكتبة الطبية جهودها لتدوين ما تحتويه تلك المجلات من المقالات والابحاث في فهرست ابجدي عام يسهل على الاساتذة والطلاب الوقوف على احدث ما ظهر في المجلات المذكورة من الاكتشافات والاختراعات الحديثة تنويراً لهم وتسهيلاً لاهدافهم العلمية .

٧ ــ مكتبة البطريركية السريانية

للبطريركية السريانية الانطاكية مكتبة ثمينة انشأها الحبر العلامة البطريرك اغناطيوس افرام الثاني (١٨٩٨ - ١٩٢٩) وانفق عليها مالا وافراً . وهي غنية

بما تحويه من الكتب النادرة والمعاجم اللغوية والموسوعات في شتى اللغات. وعلاوة على ذلك فقد احرز مئات من المخطوطات السريانية والعربية زين بها الخزانة البطريركية . وكانت تلك المؤلفات سلوته لدن فراغه من اعمال منصبه الرسولي . وناهيك انه لم يكن يدع القلم من يده الى آخر نسمة من حياته سواء اكان في مركزه ام مسافراً في البر والبحر . فكان يحمل اضبارته مشحونة بالكتب والقراطيس بطالع ويسود ويبيض اينما ذهب وحيثما حل. وما عدا مؤلفاته الجمة فقد خلف عشرات الدفاتر خطها بيده نقلا عن مخطوطات ثمينة طالعها اثناء رحلاته المتواترة الى دور الكتب في الفاتيكان وباريس ولندن وبرلين وفينا ومدريد والقسطنطينية وسائر بلاد المشرق (١) . ويترجح عندنا انه لو جمعت تلك الدفاتر لتألفت منها خزانة علمية ثمينة .

وبعد وفاته ظلت تلك المكتبة معززة بعناية خليفته الكردينال البطريرك اغناطيوس جبرائيل الاول الذي ابتنى لها معهداً فسيحاً يضمن نجاح مستقبلها . ثم اقتنى لها كثيراً من المطبوعات الحديثة واضاف اليها ما استحضره من خزائن الكرسي البطريركي في ماردين ومن بلاد اوروبا . ويبلغ عدد مجلداتها نيفاً وستة آلاف مجلد بينها نحو خمسمائة مخطوط في اللغتين العربية والسريانية .

واتحفها مؤلف هذا الكتاب بطائفة من الاسفار الثمينة التي عز وجودها في اهم الخزائن الشرقية . فطابت للبطريرك الذي وجه الى مهديها رسالة لطيفة استهلها بهذه العبارة : « اما بعد فهذه عارفة جديدة اضفتموها الى سالف عوارفكم العديدة. فاستوجبتم لاجلها عاطر الثناء وسجلتم لكم في قيود الطائفة العزيزة اطيب الذكر».

٨ ـ مكتبة مطرانية الروم الكاثوليك

انشأ المطران اغابيوس الرياشي (+ ١٨٧٨) في اواخر عهد مطرانيته الطويلة

---

(١) مجلة « الآثار الشرقية » في بيروت : مجلد ٤ سنة ١٩٢٩ عدد ٦ و٧ صفحة ٣٩

مدرسة في « عين القش » بقاطع المتن في لبنان . واعتنى بها اعتناء جزيلا فاقام لها اساتذة فضلاء كالشيخ ابرهيم اليازجي والمحامي نقولا بك توما واشباههما . ومن نوابغ خريجيها الدكتور بشاره زلزل (١٨٥١-١٩٠٥) صاحب المؤلفات الشهيرة.

وقد ضم المطران اغابيوس الى هذه المدرسة خزانة كتب حوت جميع مطبوعات بيروت ولبنان وزهاء مائة مخطوط من اهمها كتاب « الافصاح » لابن اسد . وفي السنة ١٨٧٥ أقفلت مدرسة عين القش فنقل مؤسسها خزانة الكتب الى كرسي مطرانيته ببيروت . غير ان وكلاء الوقف بعد وفاته تصرفوا في الخزانة فلم يبق منها اثر . وظلت الحال كذلك حتى قام السيد مكسيموس صائغ راعي الابرشية الحالي فابتنى عام ١٩٣٩ كرسياً لائقاً بالمطرانية وانشأ فيه مكتبة على طراز عصري جهزها بموسوعات ومعاجم وتصانيف عربية وافرنجية وافرة العدد . وهي مأثرة جديدة من جملة مآثره التي يُشكر عليها .

٩ - مكتبة معهد الحكمة المارونية

أنشئت هذه المكتبة مما خلفه مطارنة بيروت الموارنة منذ عهد راعيهم السيد طوبيا عون (١٨٤٤ - ١٨٧١) . وهو اول مطران ماروني سكن حاضرة بيروت وشاد فيها داراً اسقفية لاقامته . لان اسلافه من قبله كانوا يقيمون في جبل لبنان . ولما خلفه المطران يوسف الدبس (١٨٧٢ - ١٩٠٧) انشأ في السنة الثالثة لمطرانيته « مدرسة الحكمة » وجعلها مركزاً لسكناه . فصرف عنايته في تعزيز مكتبة المطرانية التي غلب عليها من ذلك الحين اسم « مكتبة مدرسة الحكمة » .

واشتملت هذه المكتبة على زهاء خمسة الاف مجلد مطبوع ومائتي مجلد مخطوط. ومن محتوياتها مجموعة « مين » في ثلاثمائة مجلد ومجموعة « البولنديين » ومؤلفات مار افرام وتصانيف علماء الموارنة وغيرها .

اننا استندنا في ما رويناه عن مكتبة معهد الحكمة الى افادات أمينها السابق الخوري اسطفان البشعلاني . وهو من هواة الكتب والمدققين في ابحاثهم التاريخية

عن لبنان ورجاله . وقد افتنى في « صليا » مسقط رأسه خزانة تشتمل على طائفة غير قليلة من الكتب المطبوعة والمخطوطة . بينها وثائق ورسائل وصكوك يرتقي عهد اقدمها الى منتصف القرن السابع عشر . اخصها مجموعة كتابات ومذكرات يوسف بك كرم البطل اللبناني .

١٠ ـ الخزانة البستانية

انشأ المعلم بطرس البستاني (١٨١٩ ـ ١٨٨٣) مكتبة غنية بالمخطوطات والمطبوعات يستعين بها على وضع المصنفات الوافرة التي خدم بها اللغة العربية خدمة جلى . وكان اسمعيل باشا خديو مصر (١٨٦٣ ـ ١٨٧٩) اكبر مساعد له في ذلك ادبياً ومادياً . فانه اصدر امراً الى حكومته ان تتحف البستاني بكل ما يحتاج اليه من الكتب لوضع موسوعته « دائرة المعارف » ولسائر مشاريعه العلمية .

وقد افادنا الشيخ عبدالله البستاني احد انسباء المعلم بطرس ان خزانته كانت تحتوي على اربعة آلاف مجلد ونيف بين مخطوط ومطبوع تبعثرت بعد وفاته ووفاة اولاده .

١١ ـ خزانة آل مدور

كان نخلة مدور (١٨٢٢ ـ ١٨٨٩) وانجاله واحفاده من اكبر عشاق الكتب وجماعيها والحريصين عليها . فانهم اقتنوا من نوادر المؤلفات ونفائس المجموعات خزانة قل نظيرها في الشرق الادنى . وفي هذه الاعوام اقتسم الورثة تلك الخزانة المعتبرة(١) ولكنه لم يبق عندهم شيء من مخطوطاتها . وكان نخلة مدور وجيهاً في قومه نصيراً للعلماء يحبهم ويجالسهم ويساعدهم في نشر مصنفاتهم . ولما طبع بنفقته

---

(١) تاريخ الصحافة العربية : جزء ١ صفحة ١١٥

كتاب « مجمع البحرين » للشيخ ناصيف اليازجي انشده الشيخ قصيدة رائعة افتتحها بقوله :

ملكت الفضل في شرعٍ وعرفٍ　　فليس على كمالك بعضُ خلفِ
اذا عُدّت رجالُ العصر يوماً　　فانـــك واحدٌ بمقـــامِ ألفِ

١٢ - الخزانة الطرازية

ورث كاتب هذه السطور عن اجداده وعن ابيه خزانة مخطوطات ومطبوعات جديرة بالذكر . ثم اضاف اليها بتوالي الزمان طائفة صالحة من نفائس الاسفار استعان بها في ابحاثه ومطالعاته . ولم يضن على فريق من الادباء والاصدقاء بكثير من مجلداتها ليستفيدوا منها . بل دفعته رغبته في تعزيز العلوم الشرقية الى اهداء عدد وافر منها الى مكتبات شتى في لبنان وفلسطين والعراق واوروبا (١) .

واناف عدد ما اتحف به مكتبة الشرفة بلبنان على الفين وستمائة مجلد مطبوع ومائتين وعشرين مخطوطاً (٢) . زد على ذلك كله انه اهدى الى مكتبة ابنته جان دي طرّازي في باريس نحو مائتي مخطوط من ابدع المخطوطات العربية والفارسية والتركية .

واجتمع في الخزانة الطرازية على توالي السنين ثمانمائة وستون مخطوطاً عربياً . بينها عدد كبير من نوادر الكتب منها مصورة ومنها بجوّدة الخطوط وبعضها مدبج باقلام مؤلفيها واغلبها مجلد تجليداً نفيساً .

واشتملت ايضاً على « مجموعة صحافية شرقية » (٣) دخلت في حوزة الحكومة

---

(١) اسرة آل طرازي : للخوري اسحق ارملة : صفحة ١١٢

(٢) الطرفة في مخطوطات دير الشرفة المطبوع سنة ١٩٣٦

(٣) راجع مقدمة الجزء الرابع من تاريخ الصحافة العربية . وكتاب « اسرة آل طرازي » صفحة ١١٨ — ١٢٠

اللبنانية وعلى « مجموعة خطوط مشاهير الشرق » تعدّان فريدتين من نوعها .

ومن خرائد هذه الخزانة « قاموس الفيروزآبادي » مدبّج بصور انيقة وهو مخطوط لا قرين له . ومنها « شرح ديوان المتنبيء » تضمّن ابياتاً لا اثر لها في غيره من النسخ . ومنها مصحف قرآن طوله ٥٤ سنتمتراً بعرض ٤٠ سنتمتراً بديع الخط والتجليد . وهو قياس نادر لا نعرف له نظيراً الا في بعض كبريات دور الكتب .

١٣ ـ مكتبة خليل سركيس

كان خليل سركيس من اركان النهضة الحديثة في الطباعة والصحافة . ومن آثاره الطيبة « المطبعة الادبية » وجريدة « لسان الحال » اللتان تعملان في حقل الادب منذ نيف وسبعين سنة . وانشأ خليل سركيس في الوقت نفسه خزانة حفلت باهم ما انتجته المطابع العربية من الكتب في انحاء لبنان وسوريا ومصر واوروبا والاستانة . غير انها ذهبت فريسة النار بتاريخ ١٨ ايلول ١٨٩٥ في الحريق الهائل الذي التهم المطبعة الادبية(١) يوم كان مركزها في سوق اياس . وقد تجددت تلك المكتبة بهمة مؤسسها ثم انتقلت بعد وفاته الى نجله رامز سركيس الذي حرص عليها وعني بانمائها حرصه على مطبعة والده وجريدته المشار اليها .

١٤ ـ مكتبة مدرسة اللاهوت الاميركية

أنشئت هذه المكتبة بعناية القس عالي سميث (+ ١٨٥٩) المرسَل الاميركي في بيروت . ذلك عندما باشر عام ١٨٣٧ ترجمة الكتاب المقدس الى اللغة العربية . وقد توفق الى جمع مكتبة ثمينة استعداداً لترجمة الكتاب المنوه به وطبعه(٢) .

وما كاد يظهر الكتاب المقدّس مطبوعاً حتى تأسست الجامعة الاميركية عام

---

(١) كتاب « يوبيل لسان الحال الذهبي » : صفحة ٩

(٢) مرشد الطالبين الى الكتاب المقدس الثمين : صفحة ٢٦ ـ ٢٧

١٨٦٦ وبعدها مدرسة اللاهوت . وكل منهما ينتمي الى المرسلين الاميركيين ببيروت. فرأى هؤلاء من الحكمة ان يقسموا مكتبتهم بين هذين المعهدين تعزيزاً لهما وتعميماً للمعارف في ديار الشرق . وبتوالي الايام أضيفت مكتبة المدرسة اللاهوتية البرسبتيرية في آثينا الى مكتبة مدرسة اللاهوت التي نحن بصددها . وتحتوي هذه الخزانة في يومنا على احد عشر الف مجلد في اللغة العربية وغيرها . اما عدد مخطوطاتها العربية فيبلغ مائتين وسبعة واربعين مجلداً .

١٥ ـ مكتبة الدكتور سامي حداد

لا نتعرّض للكتب المطبوعة المكنوزة في هذه الخزانة فانها باجمعها من خيار الكتب ونفائسها . اما المخطوطات فهي تزيد على المائتين وليس بينها الا ما هو مفيد وخليق بالاعتبار . وربع تلك المخطوطات يبحث في الطب ومن اهمها « شرح تشريح ابن سيناء » لابن النفيس مكتشف الدورة الدموية ثلاثمائة سنة قبلما اكتشفها اطباء الافرنج . ومنها « الكنّاش الفاخر » للرازي . ثم « ارجوزة ابن سينا » في الطب. ثم « شرح قانون ابن سينا » مزين بالرسوم والاشكال للامشاطي . ومنها مخطوطان قديمان مكتوبان بحروف سريانية كرشونية .

وما عدا الكتب الطبية فان خزانة الدكتور سامي حداد تنطوي على مخطوطات نادرة في شتى العلوم ولا سيما علم الفلك . نذكر منها « جامع المبادىء والغايات في علم الميقات » للمراكشي . وكتاب « البارع في احكام النجوم » للشيخ علي ابن ابي الرجال الشيباني . وكتاب « التذكرة » لنصير الدين الطوسي . وهذه الكتب الفلكية الثلاثة مزينة ايضاً بالرسوم والاشكال الهندسية . ومنها « كتاب الصلوات » لابن دكين يرتقي عهد كتابته الى نحو الف سنة . ومصحف ظاهري يرجع عهده الى نحو ثمانمائة سنة وهو تحفة اثرية ثمينة . وفيها نحو مائتي قطعة من رق الغزال مكتوبة بالخط الكوفي بين القرنين الثاني والثالث للهجرة .

١٦ - مكتبة الجمعية الخيرية الارثوذكسية

تكوّنت هذه المكتبة من مخطوطات ومطبوعات خلفها الارشمندريت غبريل جبارة الدمشقي . وكان غبريل كاثوليكياً فانحاز سنة ١٨٥٧ الى الارثوذكسية على اثر شقاقٍ جرى في ملة الروم الكاثوليك بسبب اعلان الحساب الغريغوري بدلا من الحساب اليولي . وقد جُعل مركز هذه المكتبة في « مدرسة الثلاثة الاقمار » . وضُم اليها بتوالي الزمان كتب اخرى اهداها اهل المروءة والادب .

ولما انشئت الجمعية الخيرية الارثوذكسية عام ١٨٦٨ استحوذت على تلك المكتبة وحافظت عليها . وفي السنة ١٩٢٧ اضيفت اليها مكتبة الياس اندراوس فياض الذي خدم تلك الجمعية كمسجلٍ وكاتبٍ مدة ثلاثين سنة فاستحق الثناء والرحمة .

ومن اثمن مخطوطات هذه المكتبة كتاب مصوّر موضوعه « الآلات المنغمة » قد نشرت مجلة المشرق بعض رسومه الملونة (١). وفيها ايضاً مخطوط حوى « مجموعة رسائل فلكية وحيلية ورياضية » مزدانة بأبدع الرسوم . وقد نُقلت عنه نسخة محفوظة في الخزانة المعلوفية بزحلة تحت الرقم ١٩٢٥

وممن تولى امانتها والمحافظة عليها الاستاذ جرجي نقولا باز احد اعضاء هذه الجمعية الخيرية وذلك في مدة لا تقل عن العشرين سنة

١٧ - الخزانة النخلية

انشأ رشيد بك نخله سنة ١٩٠٦ في « الباروك » مسقط رأسه خزانة تشتمل على بضعة آلاف من الكتب العربية قديمها وحديثها . وهي على اختلاف مواضيعها تغلب فيها كتب اللغة والادب والتاريخ والحقوق وغيرها . وبانتقاله الى بيروت بعد

---

(١) مجلة الآثار : مجلد ٣ سنة ١٩١٤ صفحة ٤٢٣

الحرب العظمى (١٩١٤ - ١٩١٨) نقل اليها مكتبته التي تبناها نجله الاستاذ امين نخله وزاد عليها حتى اصبحت من اهم المكتبات الخاصة .

وتتضمّن هذه الخزانة بعض مخطوطات نذكر منها كتاب « مجمع الاحزان » وهي قصائد عامية نُظمت في رثاء فخر الدين المعني الثاني امير لبنان المتوفى سنة ١٦٣٣ للميلاد .

١٨ - مكتبة جرجي نقولا باز

من هواة الكتب جرجي نقولا باز منشىء مجلة « الحسناء » والحامل بين ادباء عصرنا لقب « نصير المرأة » لما هو مشهور عنه من الغيرة على تعزيز شؤونها ورفع مستواها العلمي والاجتماعي . فانه انشأ خزانة في منزله تحوي اسفاراً عربية مختلفة المواضيع ولاسيما التاريخ والادب والاجتماع . ومن محتوياتها زهاء اربع مائة ترجمة لأشهر ادباء الشرق واديباته واعلام رجاله كتبها بقلمه او جمعها بهمته . ولديه اغنى مجموعة من المجلات النسائية العديدة والكتب التي لا تبحث الا عن المرأة . غير ان اكثرها باقٍ بلا تجليد وبعضها مكدّس فوق بعض ينقصه ترتيب .

ومن محتويات هذه المكتبة تقارير سنوية عن شتى الجمعيات الخيرية لجميع الطوائف في لبنان وسوريا وفلسطين ومصر وغير بلاد وعددها يناهز الالف تقرير .

١٩ - مكتبة المدرسة البطريركية

ما كاد يفتح البطريرك غريغوريوس (١٨٦٤ - ١٨٩٧) ابواب هذه المدرسة لطلاب العلم عام ١٨٦٥ حتى انشأ لهم ولاساتذتهم خزانة كتب يرجعون اليها في دروسهم وابحاثهم . واول خازن تولاها في ذاك العهد كان المعلم سليم تقلا[١] الذي

---

(١) هو سليم بك تقلا (١٨٤٩-١٨٩٢) اللبناني مؤسس جريدة الاهرام الشهيرة في وادي النيل

ضم اليها طائفة من المخطوطات العربية القديمة فضلاً عن المطبوعات الكثيرة. ومنذ ارتحاله الى وادي النيل عام ١٨٧٥ تغلب عليها الاهمال ولم تلبث ان تلاشت بعد الحرب العظمى (١٩١٤ - ١٩١٨). ولما اسندت ادارة هذه المدرسة الى الرهبانية المخلصية عام ١٩٣٥ سعى رئيسها المفضال الخوري غريغوريوس حايك لدى انصار الادب وذوي الحمية يستحثهم لمساعدته على تجديد المكتبة المشار اليها. فنجحت مساعيه واخذت المكتبة بهمته تعود الى زهوها السابق. وممن لبى طلب رئيس المدرسة مؤلفُ هذا الكتاب فانه نفح تلك المكتبة بسبعين مجلداً.

٢٠ - سائر المكتبات النصرانية في بيروت

اشتهرت في بيروت مكتبات كثيرة لادباء النصارى لكن جانباً كبيراً منها تغلبت فيه المؤلفات الفرنجية. بناء عليه لا نرى ان نثبت هنا الا اسماء الخزائن التي عُرفت بصبغتها العربية وهي:

مكتبة سليم شحاده (١٨٤٨ - ١٩٠٧) صاحب معجم «آثار الادهار» في التاريخ والجغرافيا (١) اشتملت على طائفة كبيرة من المخطوطات النادرة(٢). وقد اصبحت الآن اثراً بعد عين. مكتبة جرجي ديمتري سرسق (+ ١٩١٣) ترجمان قنصلية المانيا اقتسمها ورثته بعد وفاته. ومكتبة الدكتور اسكندر بارودي (+ ١٩٢١) التي كادت تضاهي مكتبة ابن عمه مراد بارودي (١٨٥٥ - ١٩١٨) بطرائفها ونوادرها. ومكتبة يوسف ليان سركيس (+ ١٩٣٣) نقلها قبل وفاته باعوام قليلة الى القاهرة. ومكتبة جرجس صفا (+ ١٩٣٤) وكانت حافلة بالمخطوطات القديمة (٣). وخزانة الاستاذ المحامي نجيب خلف يناهز عدد

---

(١) طالع ترجمته في تاريخ الصحافة العربية، مجلد ١ صفحة ١٣٣ - ١٣٥
(٢) الآداب العربية في الربع الاول من القرن العشرين للاب شيخو: صفحة ٣٠
(٣) طالع مقالة جرجس صفا بعنوان «كتبي المخطوطة» في مجلة المشرق: مجلد ٥ سنة ١٩٠٢ صفحة ١٦٠ و ٥٢٠

كتبها الفي مجلد . ومكتبة الاستاذ فائق بك غرغور وفيها طائفة غير يسيرة من الكتب التركية والفرنجية. ومكتبة الاستاذ حبيب ربيز المحامي . ومكتبة الاستاذ يوسف غلبوني الخ .

نضيف الى ما سبق ذكره مكتبة « غرف القراءة » التي انشئت عام ١٨٩٩ وكانت مؤلفة من خزانة كتب « جمعية شمس البر » وبما اهداه اليها المرسلون الاميركيون واهل الاحسان . وقد ناهز عدد كتبها ثلاثة آلاف مجلد تبعثرت في ايام الحرب العظمى (١٩١٤ - ١٩١٨) ولم يسلم منها الا جزء يسير محفوظ في غرفة خاصة .

ثانياً : مكتبات الموارنة في جبل لبنان

١ - نقل مخطوطات من اديار الموارنة الى مكتبات اوروبا

كان الموارنة يملكون عدداً وافراً من المخطوطات في اديارهم وكنائسهم . فنُقل الشيء الكثير منها الى اوروبا في القرون الاخيرة بمساعي المستشرقين او بعض العلماء الذين تثقفوا في المدرسة المارونية الاولى (١٥٨٤-١٨٠٣) برومية (١) فجبرائيل الصهيوني وابراهيم الحاقلاني (+١٦٦٤) واسحق الشدراوي (+١٦٦٥) وميخائيل الحصروني (+ ١٦٦٩) نقلوا عدة مخطوطات مارونية الى باريس . ومرهج نيرون الباني (+ ١٧١١) واسطفان عواد (+ ١٧٨٢) والسماعنة جمعوا ما جمعوه من المخطوطات ثم ضموها الى المكتبة الواتكانية برومية (٢) . ونقل فريق مخطوطات مارونية الى لندن وكمبردج وفلورنسا وبرلين وغيرها. زد عليه ان قسماً من تلك الآثار الكتابية تلف بالحريق والنهب وغارات الفاتحين حتى انه لم يبقَ منها في جبل لبنان الا ما لا يحفل به .

---

(١) كتاب «لبنان» نشرته لجنة من الادباء في عهد اسمعيل حقي بك متصرف جبل لبنان سنة ١٩١٨
(٢) المدارس والمكاتب السريانية للخوري اسحق ارملة : صفحة ١٢ و١٣

وادرك آباء المجمع اللبناني المعقود سنة ١٧٣٦ خطورة المحافظة على كتبهم فأبرموا قانوناً قرروا فيه باجماع الآراء ما نصه : « نأمر الرهبان بان يعينوا في كل دير نساخاً مجيدين حاذقين في صناعة الخط والكتابة . ويجمعوا نسخ الكتب البيعية من كل موضع وينسخوهم اياها ويودعوها مكتبة الدير تعميما للفائدة (١) » .

٢ ـ مكتبة الكرسي البطريركي في بكركي

في مقدمة المكاتب المارونية نذكر مكتبة بكركي كرسي بطاركة الموارنة . وهي بلا ريب اقدم جميع مكاتب هذه الملة في جبل لبنان واغناها بالمخطوطات والوثائق والمحفوظات الوافرة . وتحتوي كذلك على مطبوعات قديمة وحديثة في لغات شتى وعلوم مختلفة . وظلت شؤونها غير منتظمة حتى نهض العلامة الخوري بطرس شبلي في صدر القرن العشرين فاخذ ينسقها تنسيقاً فنياً تاريخياً صيانة لتلك العتائق الكتابية من الضياع . ولما اسندت اليه رئاسة اسقفية بيروت (٢) اضطر بحكم الوظيفة الى اهمال ما كان قد شرع به . واليك ما رواهُ عنه مؤلف ترجمته قال (٣) :

« رتّب ونسّق المكتبة البطريركية وقد كانت اوراقها ومخطوطاتها قبلَه مبعثرة مكردسة غير منظمة . وجمع في تلك الاثناء المجموعة الثمينة التي كانت غاية اعماله واعزها الا وهي « مجموعة البراآت » وقد كان بعضها قبله مجهولا ، فجاء عمله هذا خدمة جلى لتاريخ الطائفة المارونية لا بل كان عمله من الاعمال الجليلة الضرورية الواجبة . وهذه المجموعة تقع في اربعة اجزاء كبيرة حوت كل البراآت والرسالات الصادرة من الكرسي الرسولي الى بطاركة الطائفة . وقد علّق على كل منها حسب

---

(١) المجمع اللبناني : صفحة ٥٤٦ طبع مطبعة الارز في جونية سنة ١٩٠٠ (٢) تولى مطرانية بيروت في ١٥ شباط ١٩٠٨ وتوفي بتاريخ ٢٠ اذار ١٩١٧ في آطنه . ثم نقل جثمانه الى بيروت بتاريخ ٢٦ تشرين الاول ١٩٢١ ودفن في الكاتدرائية المارونية (٣) كتاب « المطران بطرس شبلي » بقلم المحامي ميشال شبلي : صفحة ٤٠ — ٤١

المقتضى الشروح الضافية لفهم مآلها والحوادث الواردة فيها . ولهذه المجموعة مقدمة شائقة بقلم الفقيد استغرقت كل الجزء الاول من الاربعة اجزاء جاء فيها بالدروس الوافية عما يتعلق بتاريخ الطائفة ... »

وفي عهدنا هذا كُلف الاب البحاثة الخوري ابرهيم حرفوش ان يستأنف هذا العمل الشاق . فقام به في اوقات الفراغ علاوة على اشغاله الوافرة في الكرسي البطريركي المشار اليه .

٣ - مكتبة البطريرك الدويهي في دير مار شليطا مقبس

انشأ البطريرك اسطفان الدويهي سنة ١٦٧٢ مكتبة حافلة بالمخطوطات القديمة في دير مار شليطا مقبس . وكان الدويهي الذي جعل مقرّه في الدير المذكور يحبّب الى رهبانه الزهاد نسخ الكتب وجمعها(١) واشهر اولئك النساخ الذين ذكرهم التاريخ هم: الخوري سركيس محاسب والقس جرجس افرام الباني والخوري عون نجيم الغوسطاوي . وبين مشاهير نساخ الموارنة ايضاً جرمانس ابن الخوري طانيوس شهوان من غوسطا ، نبغ في حسن الخط وكتب بيده اسفاراً شتى انتشرت في اماكن كثيرة من لبنان . وكان مصاباً بداء النقطة يتألم منه فيثبطه عن النساخة احياناً(٢) . وفي مكتبتنا من خطه كراسة تنطوي على اخبار اسرة بني شهوان .

٤ - مكتبة المرسلين اللبنانيين في دير الكريم

يملك المرسلون اللبنانيون مكتبة لا تخلو من بعض المخطوطات التي انشأها مؤسسهم

---

(١) تاريخ سوريا للدبس : مجلد ٧ صفحة ٣٥١

(٢) قرأنا هذه الرواية في كراس مخطوط حوى اخبار اسرة شهوان في غوسطا . وهو محفوظ في مكتبة المرحوم ميشال اسحق ببيروت .

الطيب الاثر المطران يوحنا حبيب (١٨١٦ - ١٨٩٤) في ديرهم الرئاسي المعروف بدير الكريم . وقد ازدادت بعد وفاته بسعي هؤلاء المرسلين الافاضل الذين انشأوا لمكتبتهم فرعاً بمدينة جونية في الآونة الاخيرة . وقد اتحفنا سليلهم الاب جبرائيل طربيه المرسل اللبناني بكراسين كتبهما بخط يده يحتوي احدهما على فهرس مفصّل المخطوطات المحفوظة في مكتبتهم بدير الكريم وعددها ١٩٢ مخطوطاً . اما الكراس الآخر فيشتمل على اهم ما لديهم من الكتب المطبوعة التي يبلغ عددها زهاء سبعة آلاف مجلد فاستحق الاب جبرائيل المشار اليه ان نسجل لهمته عبارة الشكر ومعرفة الجميل .

٥ - خزائن كتب الاسرة الخازنيّة

لدى الاسرة الخازنية اللبنانية طائفة من المخطوطات ووثائق ذات شأن تاريخي ورثها خلفهم عن سلفهم . واغلب تلك الوثائق تنطوي على براآت وفرامين ورسائل وجهها السلاطين والبابوات والملوك والامراء الى اركان هذه الاسرة في آونة مختلفة . وقد شاهدنا كثيراً منها محفوظاً بكل حرص في دار الكنت حصن دي خازن والمطران يوسف الخازن رحمهما الله تعالى .

وعرفنا من الاسرة الخازنية الشيخ حرب بن نادر الخازن الذي جمع عن اجداده طائفة مهمّة من المخطوطات والوثائق العتيقة ، كما جمع من انحاء لبنان حججاً شرعية ورسائل قديمة ووثائق تاريخية كان اصحابها لا يكترثون لها . فاحرز الشيخ حرب نحو تسعة آلاف وثيقة او حجة او رسالة اقتنى منها متحف بتدّين اكثر من ثلثيها ، وما تبقى اقتنته مكتبة الجامعة الاميركية والمكتبة الشرقية للآباء اليسوعيين في بيروت وغيرهما .

وبين افراد الاسرة الخازنية الذين هاموا بالكتب في عصرنا نخصّ بالذكر الخوري لويس الخازن المحامي الكنسي . فانه جمع خزانة ثمينة لا يقل عدد مجلداتها عن ثلاثة آلاف مجلد مختلفة الابحاث في اللغة العربية وبعض اللغات الاوروبية . ومن مميزاتها

احتواؤها على عدد عظيم من كتب ورحلات قديمة مصورة صنّفها السياح الاوروبيون الذين طافوا الاقطار العربية والشرق الادنى منذ القرن السادس عشر، وفيها نحو سبعين مخطوطاً عربياً وسريانياً بينها ثلاثة مخطوطات درزية . ومركز هذه الخزانة « دير بقلوش » للراهبات الخازنيات في كسروان . وقد نقل صاحبُها قسماً منها الى بيروت مقرّ اشغاله لحاجته العلمية اليها . وبوجه عام يعتور هذه الخزانة قلة ترتيب لا يسهل للباحثين الوقوف على مكنوناتها الثمينة .

٦ ـ مكتبة الامير حيدر الشهابي في شملان

من مشاهير هواة الكتب لدى الموارنة في جبل لبنان الامير حيدر الشهابي (١٧٦١ ـ ١٨٣٥) مؤلف كتاب « الغرر الحسان في اخبار ابناء الزمان » فانه أجرى الصلاتِ للادباء فكثروا حوله وساعدوه في جمع تاريخه او تعاطوا مهنة النسخ لديه . وكان له في منزله بقرية شملان مكتبة حافلة بالمخطوطات قد تبعثرت بعد وفاته وضاعت النسخ الاصلية من تاريخه الخطي(١) . وقد تصفحنا بعض مخطوطات مكتبة الشهابي في مكتبة دير الشير للروم الكاثوليك بقرية بِكِفّين فقرأنا فيها العبارة التالية وهي : « من كتب حيدر الشهابي الشملانيّ » .

٧ ـ مكتبتا الاميرين فارس وعباس الشهابيين

كان للامير فارس سِبْط احمد الشهابي في « حدث » بيروت مكتبة عامرة على ما روى لنا الاستاذ يوسف بن ابرهيم يزبك . وكان للامير عباس كنج الشهابي كذلك في « الشياح » بجوار بيروت مكتبة تعهد بقاياها الشيخ عيسى اسكندر المعلوف .

---

(١) راجع ترجمة الامير حيدر في مقدمة كتاب « لبنان في عهد الامراء الشهابيين » بقلم ناشريه الدكتور اسد رستم وفؤاد البستاني : سنة ١٩٣٣

وكان الاميران فارس وعباس الشهابيان من زعماء الثوار الذين اعتقلهم الامير بشير الثاني الكبير. وقد بلغ عددهم سبعة وخمسين زعيماً من امراء ومشايخ وقواد دروزاً ومسيحيين. فكبّلهم الامير بسلاسل حديدية وبعثهم قاطبة الى حليفه محمد علي باشا عزيز مصر. وهذا بدوره أبعدهم جميعاً في مركبين على نهر النيل الى بلاد سنّار بالسودان(١). وهناك سُملت عيون اولئك الزعماء باسرهم. ثم عاد الأحياء منهم الى جبل لبنان على اثر ارتحال الامير بشير عام ١٨٤٠ الى مالطا فاسطنبول. وقد عرفنا في حداثتنا بعضهم ولاسيما الامير عباس كنج وحضرنا جنازته ودفنه عام ١٨٩٢.

٨ ـ مكتبة ميشال حائك في بيت شباب

لدى الاستاذ ميشال حائك صاحب جريدة « العَلم » في بيت شباب خزانة حافلة بكتب ووثائق نادرة حصّل اكثرها اثناء الحرب العظمى (١٩١٤-١٩١٨) وفيها طائفة وافرة من المخطوطات اتصل به بعضها من خزانة كانت للخوري دانيال الجميّل الماروني في « دير شويا » فتبعثرت بعد وفاته. وبين تلك المخطوطات نسخة من كتاب « الكندي » ينيف عمرها على اربعمائة سنة(٢).

٩ ـ مكتبة القس برنردس غبيرة في غزير

وُلد القس برنردس في قصبة غزير بكسروان. وانضوى منذ صباه الى الرهبانية الانطونية المارونية. فترقى في مناصبها حتى تولى الرئاسة العامة عليها مدة ثلاثة اعوام. ثم لزم بيته منقطعاً الى الخلوة وحلّت وفاته عام ١٩٤٤. وجمع خلال حياته مكتبة حوت ما عدا الكتب المطبوعة اكثر من مائة مخطوط ويقال انه اوصى بها الى رهبانيته المشار اليها.

---

(١) الامير بشير الكبير : للقس بطرس بدر حبيش : قسم ٢ صفحة ٩١ ـ ٩٢

(٢) استندنا في وصف هذه المكتبة الى رواية الخوري اسطفان البشعلاني لانه عرفها معرفة تامة

١٠ ـ سائر مكتبات الموارنة في جبل لبنان

نثبت في ما يلي اسماء بعض مكتبات انشأها افراد الموارنة في انحاء جبل لبنان وهي :

١ً ـ مكتبة يوسف الشدياق والد احمد فارس الشدياق (١٨٠١ – ١٨٨٧) في قصبة الحدث بجوار بيروت . وكانت تتضمن كتباً عديدة في فنون مختلفة (١) .

٢ً ـ مكتبة الخوري دانيال جميل في دير مار الياس شويّا .

٣ً ـ مكتبة امين الريحاني (+ ١٩٤٠) في الفريكة بقضاء المتن

٤ً ـ مكتبة المدبّر القس يوسف شدياق (+ ١٩٤١) في دير مار انطونيوس بعبدا . وقد ضم اليها مكتبة عمه داود الشدياق التي اطلعنا عليها عند ارملته مريم اسلامبولية الحلبية في بيروت .

٥ً ـ مكتبة مدرسة آل شباط في عرمون بكسروان وقد تبعثرت وبادت على بكرة ابيها على اثر وفاة مؤسس تلك المدرسة . وقد اشرفنا على فهارسها وشاهدنا في جملة ما كانت تحويه من الاسفار الفرنجية المهمة « مجموعة مين » التي اربى عدد مجلداتها على الاربعمائة .

٦ً : مكتبة الاباتي اغناطيوس وهيبه (+ ١٩٣٩) رئيس الرسالة المارونية في مصر والسودان . كان مركزهـــا في مسقط رأسه عشقوت وفي مدينة القاهرة حيث اقام ثماني عشرة سنة : فاستولت الرهبانية الحلبية التي كان سليلها على مكتبته في القاهرة واقتسمت اسرته خزانة كتبه في عشقوت وحافظت عليها .

١١ ـ مخطوطات المكتبات المارونية ومؤرخوها

للخوري ابرهيم حرفوش المرسل اللبناني ابحاث جديرة بالاعتبار عن المكتبات

---

(١) تراجم مشاهير الشرق : جزء ٢ صفحة ٧٤

المارونية . نذكر منها مقالته « الاديار القديمة في كسروان » نشرها تباعاً في المجلدين الخامس والسادس من مجلة « المشرق » البيروتية . ومقالته التي نشرها بعنوان « ما ابقته غير الايام والاضطهادات من نفائس المخطوطات في مجلة « المنارة » بجونية عام ١٩٣٢ و١٩٣٣(١) . وقد بحث في المقالتين بحثاً وافياً عما عثر عليه من المخطوطات في اديار الموارنة . وله ايضاً بحث مستفيض عنوانه « مكتبة طائفتنا المارونية في مدينة حلب المحمية »(٢) .

واحتذى حذوه القس انطونيوس شبلي الراهب اللبناني في مقالتين عنوانهما « رحلة الى شمالي لبنان » و « جولة في كسروان » نشرهما في المجلدات ٢٤ و٢٥ و٢٦ من مجلة المشرق . وضمّنها جميع ما وقع عليه نظره في اديار الموارنة من المخطوطات العتيقة التي سلمت من الرزايا . واهم تلك المخطوطات محفوظ في ديرين : اولهما دير مار ضومط في فيطرون وقد نُقلت اليه مكتبة دير اللويزة . وثانيهما دير سيدة طاميش الذي كان مركزاً لرئيس عام الرهبانية اللبنانية .

ثالثاً : مكتبات الروم الكاثوليك في جبل لبنان

١ ـ حرص الروم الكاثوليك على ذخائر مكتباتهم

للروم الكاثوليك بلبنان خزائن كتب انشأوها في جميع اديارهم الرئاسية بلا استثناء . ثم اخذوا في الآونة الاخيرة يضاعفون العناية بانمائها وصيانتها بعد ازدياد وسائل العلم بين ظهرانيهم . وقد اتضح ذلك خصوصاً عندما الحقت بالاديار الرئاسية مدارس لتخريج الرهبان في العلوم العالية والآداب الكنسية . وحوت تلك الخزائن من قديم الزمان طائفة من المخطوطات بينها ما هو حريّ بالوصف جدير بالاعتبار(٣)-

---

(١) المنارة : مجلد ٣ ومجلد ٤ (٢) المشرق : مجلد ١٧ سنة ١٩١٤

(٣) للبحاثة عيسى اسكندر المعلوف مقالة في وصف « مكتبة دير الشير » نشرها في مجلة الآثار : مجلد ٣ صفحة ١٢٦

٢ - غوائل مكتبات الروم الكاثوليك في القرنين

الثامن عشر والتاسع عشر

لم يسلم اكثر هذه المكاتب من النكبات التي توالت عليها في ازمنة شتى . فكان ذلك مدعاة الى تلف جانب كبير من مخطوطاتها التي لا تعوض خسارتها . ومن تلك النكبات ما انتاب مكتبة دير المخلص بقرب صيدا من الغوائل عندما سار اليه احمد باشا الجزّار عام ١١٩١ للهجرة (١٧٧١م) فنهبه(١). ولا يزال الى هذا اليوم في جامع الجزّار بعكا قسم من تلك المخطوطات نُقلت اليه مع ما نقله الجزار من مخطوطات آل خاتون من قريتهم «جويا» في جبل عامل . وفي فتنة السنة ١٨٦٠ نُهبت مكتبة دير المخلص مرة اخرى وتفرق معظم مخطوطاتها . فما كان من الخوري اسطفان صقر المخلصي الا انه اخذ يطوف القرى مفتشاً عنها حتى عثر على عدد وافر منها عند احد الناهبين فاستردّها بعد دفع خمس ليرات عثمانية ذهبية ونقلها الى دير المخلص على خمسة جمال (٢) .

واثناء فتنة عام ١٨٦٠ المذكورة هرّب رهبان دير مار يوحنا الشوير مخطوطاتهم الى ديرهم في زحلة . فباد الكثير منها وتضعضع(٣) . وفي الفتنة عينها أحرقت في دير عين الدوق بزحلة مخطوطات عزيزة الوجود كان استعارها من دير الشير السيد باسيليوس شاهيات الحلبي يوم كان اسقفاً على زحلة . فذهبت هذه الكنوز الثمينة ضحية النار(٤) .

---

(١) مجلة «العرفان» في صيدا : مجلد ٥ صفحة ٢٢

(٢) تلقينا هذه الرواية من فم الخوري قسطنطين الباشا (٣) عن رسالة مؤرخة في ٢٤ ايار ١٩٢٦ وجهها كاتم اسرار الرئاسة العامة للرهبانية الباسيلية الشويرية الى مؤلف هذا الكتاب .

(٤) المشرق مجلد ٦ سنة ١٩٠٣ صفحة ١١٠ - ١١١

٣ - نشاطهم الى تنظيم خزائنهم الـكتابية وتعزيزها

نشط رهبان الروم الكاثوليك في الآونة الاخيرة الى تنظيم مكاتبهم وفقاً للاساليب الحديثة . ويرجع الفضل في ذلك الى النشء الجديد الذي قام منهم وتثقف في اوروبا او تخرّج في الشرق على ايدي اساتذة اوروبيين . وقد أفرز بعضهم معهداً خاصاً لخزائن كتبهم كالمرسلين البولسيين في حريصا الخ .

٤ ـ مكتبات اديار الروم الـكاثوليك الرئاسية

بعد هذا الشرح اليك ما توصّلنا الى معرفته من اوثق المصادر عن محتويات المكاتب في الاديار الرئاسية المشار اليها نجمله في ما يلي :

اسم الدير	الكتب المطبوعة	الكتب المخطوطة	المجموع
دير المخلص	٨٧٠٠	١٣٠٠	١٠٠٠٠
دير مار يوحنا في الشوير	٤٦٠٠	٤٠٠	٥٠٠٠
دير الشير في مكين	٣٢٥١	٦٥١	٣٩٠٢
المرسلون البولسيون	٨٥٠٠	٤٥٠	٨٩٥٠
	٢٥٠٥١	٢٨٠١	٢٧٨٥٢

٥ ـ مكتبة مدرسة عين تراز

لملّة الروم الكاثوليك ايضاً خزانة كتب في مدرستهم القديمة بعين تراز انفق البطريرك مكسيموس مظلوم الاموال الطائلة على انشائها . لانه كان من اعظم انصار العلم في عصره . وقد قرأنا وصفاً لهذه المكتبة[١] ننقله هنا بالحرف الواحد:

(١) مختصر تاريخ طائفة الروم الملكيين الكاثوليكيين : صفحة ٨٧

« وسار (اي البطريرك مكسيموس) الى مدرسة عين تراز وشرع في ترميمها وتوسيع نطاق بنائها وتدبيرها . وجمع اليها تلامذة لدرس العلوم وكان قد جمع لها مكتبة تشتمل على كثير من الكتب التي هي من اجلّ التآليف في العلوم والتاريخ والتفاسير . وفي الجملة فان هذه المكتبة من اجمع المكاتب واشهرها في هذه البلاد . وقد بلغ ما أنفقه على هذه المكتبة وترميم المدرسة المذكورة وما وهبها اياه نحو عشرة آلاف ريال » .

ثم انه أهمل امر هذه المكتبة بعد وفاة منشئها فكتب عنها المؤرخ البحّاثة حبيب زيات ما نصه(١) : « ومن اشد ما وقع التفريط به في ايامه (يعني في ايام البطريرك غريغوريوس يوسف ١٨٦٤ - ١٨٩٧) ان الذين تولّوا رئاسة مدرسة عين تراز بدلا من ان يعنوا بصيانة مكتبتها وزيادة عدد الاسفار فيها بتحصيل المؤلفات الطائفية لها على الاقل من الاديار المجاورة تركوها مأكلاً للعثّ ونهبة لبعض من كان يغشاها من الزوار الغرباء . فأخذ منها ما أخذ وبقي الى الساعة بضعة من كتبها الخطية عاريّة مغتصَبة عند من استعارها . ولم تحمَ حوزتها وينتظم تدبيرها الا عندما عهدت قيادة المدرسة الى الاب الفاضل الخوري كيرلس مغبغب اسقف الفرزل اليوم (٢) . وبين مخطوطات مكتبة عين تراز نسخة نفيسة من الانجيل مزدانة بالتصاوير شاهدها الاب لويس شيخو وأتى على وصفها في مجلة المشرق(٣) .

٦ - مكتبة القس انطون بولاد

من مكاتب الروم الكاثوليك ايضاً مكتبة القس انطون بولاد (+ ١٨٧١) المدبر الاول للرهبانية المخلصية . فانه انشأ خزانة حافلة بالمخطوطات الجمة وبعض

---

(١) خزائن الكتب في دمشق وضواحيها : صفحة ٩٣ (٢) ارتقى الى السدة البطريركية باسم كيرلس التاسع في ٨ كانون الاول ١٩٢٥ (٣) المشرق مجلد ؛ سنة ١٩٠١ صفحة ١٠٨

المطبوعات التي ورثها عن اسرته او اقتناها بماله . وكان عددها ١٠٨٨ مجلداً عندما نهبت اثناء فتنة ١٨٦٠ من دير المخلص قرب صيدا . وقد دوّن القس انطون في مخطوط كتبه بيده اخبار مكتبته وفهرس اسماء مجلداتها وما دار بشأن فقدانها من المراسلات بينه وبين المراجع الدينية والمدنية . وهذا المخطوط الذي يبلغ عدد صفحاته ١٢٧ صفحة وقع منه في حوزتنا قسم « الختام » مع ذيلين اول وثان ذلك من الصفحة ٩٧ الى الصفحة ١٢٧ بقطع ربع . وقد اهدينا هذا المخطوط بتاريخ اول تموز ١٩٣٦ مع مخطوطات اخرى الى خزائن كتب دير الشرفة . وهو معروف فيها بعنوان « مذكرات القس انطون بولاد » .

٧ ـ مكتبة نقولا بك سيوفي في بعبدا

وُلد نقولا بك سيوفي سنة ١٨٢٨ في دمشق وتثقف في مدارسها فاحكم اللغات العربية والتركية والفرنسية والايطالية . واتخذه الامير عبد القادر الجزائري عند قدومه الى دمشق عام ١٨٥٦ ترجماناً في ديوانه . ثم استصحبه عام ١٨٦٧ الى معرض باريس وعام ١٨٦٩ الى مهرجان افتتاح قناة السويس والى زيارة السلطان عبد العزيز في الاستانة . وبعد هذا تقلب نقولا بك في مناصب القنصلية الفرنسية بالشرق حتى اصبح قنصلاً لتلك الدولة في مدينة الموصل مدة خمس عشرة سنة . وامتاز في جميع ادوار حياته بنزاهته واستقامته ونشاطه .

ولما بلغ نقولا بك سن التقاعد آثر العزلة في قصبة « بعبدا » بجبل لبنان وابتنى هناك داراً فسيحة اقام فيها حتى نهاية حياته عام ١٩٠١ بالغاً الثالثة والسبعين من سنه .

وكان نقولا بك كلفاً بالآثار القديمة والمخطوطات النادرة يجمعها من أطراف الامصار والمدن التي سكن فيها . فتكوّنت لديه خزانة ثمينة حفلت بثلاثة آلاف مجلد معظمها مخطوط . وقد شاهدتُها عشرات المرات لدى زياراتي المتواترة لمنشئها . اذ كان صديقاً لي ولاسرتي وجرت بينه وبيننا مراسلات شتى .

ومن جملة محتويات الخزانة السيوفية ثلاثون مخطوطاً من كتب الدروز قديمة العهد ومهمة وخمسة مجلدات في مذهب النصيرية وخمسة مجلدات في مذهب الصابئة مكتوبة بالقلم الآرامي النبطي وبضع مخطوطات في مذهب اليزيدية . وفيها ايضاً تآليف صلاح الدين بن ايبك الصفدي وقاموس فرحات بخط يده وكتب طبية وافرة وغير ذلك من النوادر(١) .

واكب السيوفي اثناء فراغه من اشغال وظيفته على درس بعض الاقلام القديمة كالقلم المسماري والسطرنجيلي والحميري والكوفي الخ . واشتغل زمناً بالتأليف فانشأ جملة كتب في تواريخ الصابئة واليزيدية وغيرها . وقد نشرها بالطبع وخصنا بنسخ منها .

٨ ـ مكتبة الخوري فيلبس نمير في زحلة

ينتمي الخوري فيلبس نُمَير الى اسرة ملكية قديمة في زحلة . واشتهر في عصره بين ابناء ملته باعماله المبرورة ومشاريعه المفيدة . ولاسيما بتجشمه مشقات الاسفار لاجل جمع الحسنات من ذوي المروّة والسخاء . وقد أنفقها في وطنه على المدارس والجمعيات وغيرها . وذاعت اخبار رحلة الخوري فيلبس الى بلاد النمسا في اواسط القرن التاسع عشر حتى اصبحت أشهر من نار على علم . ولما عاد الى وطنه تفرّغ لكتابة تفاصيلها في مجلدين ضمهما الى خزانة كتبه العامرة. واشتملت تلك الخزانة على اكثر من مائة مخطوط ما عدا مئات المجلدات المطبوعة في العربية واللغات الافرنجية . وقد كافأه البطريرك على فضله ومبراته بان رقاه الى رتبة « بروتوبروزفيتروس » . ولسنا نعرف احداً من جميع ارباب الكهنوت احرز هذه الكرامة غيره . وتولى الخوري فيلبس رئاسة المدرسة البطريركية ببيروت سبعة اعوام (١٨٦٦ ـ ١٨٧٣) متفانياً في رقيها ونجاحها .

---

(١) برنامج مخطوطات عيسى الملوف : صفحة ٤١٧

رابعاً : مكتبات السريان الكاثوليك في جبل لبنان

١ ـ مكتبة دير الشرفة

للسريان الكاثوليك في جبل لبنان مكتبة عامرة في دير الشرفة أسسها سنة ١٧٨٦ البطريرك اغناطيوس ميخائيل الثالث (جروة) . وقد تفقدها في آونة مختلفة جلة من العلماء والمستشرقين واستطلعوا طلع كنوزها وكتبوا عنهـا . وهي الآن من أغنى مكتبات جبل لبنان تشتمل على زهاء ستة آلاف مجلد بينها كثير من المؤلفات الثمينة العزيزة المنال . وفيها اكثر من الف وثلاثمائة مخطوط عربي وسرياني بعضها مكتوب على رق الغزال .

وفي السنة ١٩٣٦ نشر الخوروفسقفوس اسحق ارملة فهرساً لمخطوطات الشرفة بلغت صفحاته ٥٧٠ صفحة . وتحوي تلك المكتبة صكوكاً قديمة ووثائق منقطعة القرين برسومها وخطوطها المنسوبة لا أثر لها في غيرها من مكتبات الشرق .

٢ ـ جهود مؤلف هذا الكتاب في تعزيز مكتبة الشرفة

نُسّقت خزائن كتب الشرفة تنسيقاً فنياً طبقاً للقاعدة العشرية التي اشرنا على متولي المكتبة باستعمالها والتقيد بها . وهي اول خزانة في جبل لبنان نهجت هذا النهج الفني اسوة بمكتبات الغرب الراقية . ولوفور شغفنا بتعزيزها اهدينا اليها نحو الفين وستمائة مجلد بين مطبوع ومخطوط علاوة على ما اتحفناها به من طرف نادرة وخطوط مستظرفة .

بعد هذا افرغنا الجهود في جمع ما خلفه السلف منذ القرن السابع عشر من رسائل قديمة وحجج خطيرة ومراسيم بابوية وفرامين سلطانيـة ومكاتبات ملكية ظلت مكدّسة مبعثرة في زوايا المكتبة الى اليوم . فافرزناها بالاشتراك مع صديقنا

العلامة الخورفسقفوس اسحق ارملة وفقاً لمواضيعها وبلدانها وتواريخها . وبعدما نظمناها أطلقنا عليها عنوان « مخفوظات دير الشرفة » . ثم عُنينا بتجليدها في عشرات المجلدات فجعلناها كلها ذات قياس واحد وشكل واحد بتسلسل واحدها تلو الآخر برتبة عددية مستقلة . وسيبقى هذا التسلسل مرعياً بنسبة ازدياد مخفوظات الدير على توالي الاحقاب الى ما شاء الله تعالى .

٣ ـ مكتبة دير الرُغم

للسريان الكاثوليك دير ثانٍ في لبنان تأسس سنة ١٧٠٩ بجوار قرية الشبانية وغلب عليه اسم دير مار افرام الرُغم . وقد أغناه رؤساؤه بخزائن كتب مخطوطة جمعوها من انحاء سوريا والعراق وما بين النهرين وغيرها . واول من عُني بتكوين هذه المكتبة كان المطران ميخائيل الماردبني رئيس الدير (١٧٤٥ ـ ١٧٦٤) . ثم عززها من بعده خلفه في رئاسة الدير المطران باسيليوس جرجس خباز المتوفى عام ١٧٧٨ . هكذا حرص رؤساء دير الرُغم على مكتبته العامرة وزادوا عليها مع توالي الزمان مخطوطات ومطبوعات جمة حتى اصبحت من المكتبات الشهيرة بلبنان .

وفي السنة ١٨٤٠ـ١٨٤١ ثارت فتنة اهلية في لبنان ولاسيما في الشبانية واطرافها أفضت الى خراب هذا الدير واحتراق خزانة كتبه وانتهاب ما سلم منها . وروى لنا بعض شهود عيان ان اوراق بعض تلك المخطوطات ظلت مدة مديدة متبعثرة حول الدير وفي الوادي المجاور له تتلاعب بها الرياح من كل جانب .

وقد اطلعنا على وثيقة كتبها القس ميخائيل ازرق احد رهبان هذا الدير بخط يده على اثر تلك النكبة . وفيها سرد ما أتلفه الثوار من آنية فضية وذهبية وامتعة ثمينة ومخطوطات قديمة . ورفع في ذلك تقريراً الى أولي الامر . وقرأنا في هذا التقرير ان قيمة المخطوطات التي اتلفت وقتئذ بلغ مجموع اثمانها اربعمائة ليرة عثمانية ذهبية (١).

---

(١) مخفوظات دير الشرفة : رسائل دير مار افرام الرغم

ثم تجددت مكتبة دير الزعم في عهد رئاسة الخوري الياس شهوان السرياني . وجمع فيها مخطوطات وافرة اغلبها في علم الطب اذ كان يزاول معالجة اهالي القرى المجاورة . وقد رأينا فرائد تلك المكتبة بعيننا مراراً وطالعنا بعضها (١) . وعلى اثر وفاته عام ١٩٠٠ تشتت شملها ولم يسلم منها الا مخطوطات يسيرة نقلت الى دير الشرفة او دخلت في حوزة المكتبة الشرقية للآباء اليسوعيين في بيروت .

خامساً : مكتبتا الارمن في بزمار وخشبو بجبل لبنان

كان للارمن الكاثوليك مكتبتان في جبل لبنان : الاولى مكتبة دير بزمار الذي كان كرسياً لبطاركتهم قبل انتقالهم عام ١٨٦٧ الى القسطنطينية . وتُعدّ من اهم المكتبات في لبنان بوفرة عدد مجلداتها . وبينها زهاء مائة وخمسين مخطوطاً عربياً وغير عربي بعضها عريق في القدم ومكتوب على الرق .

اما المكتبة الثانية فكان مركزها في دير مار انطونيوس خشبو قريباً من قصبة غزير . لكنه على اثر اذاعة المنشور البابوي (Reversurus) على الملل الشرقية اختلف رهبان هذا الدير وانقسموا على بعضهم . ثم اخذ عددهم يتناقص رويداً رويداً حتى انه في السنة ١٨٨٥ لم يبقَ فيه راهب ارمني على الاطلاق . ومن ذاك الحين تبعثرت خزائن كتبه التي كانت تضاهي خزائن كتب دير بزمار بعددها وخطورتها . وقد استولى الآن مشايخ آل الخازن على هذا الدير وارزاقه .

سادساً : مكتبات الرهبنات اللاتينية في جبل لبنان

١ ـ مكتبة دير الفرنسيسيين في حريصا

أقدم مكتبات الرهبنات اللاتينية بجبل لبنان هي مكتبة دير الرهبان

---

(١) السلاسل التاريخية : صفحة ٣٤٦

الفرنسيسيين في حريصا تأسست سنة ١٦٢٨ للميلاد . وهي تنطوي على كتب ثمينة نادرة الوجود وعلى وثائق خطيرة جديرة بالاعتبار وجزيلة الفائدة لمن تحرّى الكتابة عن وقائع الجبل واخبار رجاله . وقد شاهدنا تلك الكتب وتلك الوثائق منسّقة تنسيقاً حسناً ومحفوظة بكل حرص قبل ان يُنقل القسم الاوفر منها الى ديرهم الرئاسيّ في القدس الشريف .

يبلغ الآن عدد مجلدات هذه المكتبة ٢٥١٦ مجلداً بين عربية وافرنجية . ومن محتوياتها مخطوطة وضعها الراهب انطونيو غياسي باللغة اللاتينية دوّن فيها جميع الحوادث التي جرت في لبنان وسوريا منذ الحروب الصليبية الى الزمان الحاضر . وقد جاء على ذكرها العالم الايطالي ادغاردو غواريني في الصفحة ٦ من كتابه Venezia E la Palestina

٢ ـ مكتبات اديار الاباء اليسوعيين

للرهبان اليسوعيين خمسة أديار عامرة في زحلة وبكفيا وغزير وتعنائيل وكساره . وقد اشتمل كل منها على مكتبة خاصة حوت عدداً غير قليل من الكتب العربية والافرنجية المختلفة المواضيع والجزيلة الفائدة .

٣ ـ خزانة كتب مدرسة عينطورا

أوسع مكتبة للرهبان الفرنج في لبنان مكتبة مدرسة عينطورا للاباء اللعازريين . وقد أتيح لتلك المدرسة الذائعة الصيت ان تحتفل بيوبيلها المئوي (١٨٣٤ ـ ١٩٣٤) وهو في الوقت عينه يوبيل مكتبتها النفيسة .

وقد حوت رفوف المكتبة ثمانية عشر الف مجلد تبعثرت اثناء الحرب الكونية (١٩١٤ ـ ١٩١٨) . ثم تجددت بهمة رؤسائها حتى اصبح عددها يناهز عشرة آلاف مجلد . وتولى اولاً ادارة قسمها العربي الخوري مارون غصن (+ ١٩٤٠) مدير الدروس العربية في المعهد المشار اليه .

سابعاً : مكتبات الروم الارثذكس في جبل لبنان

١ ـ مكتبة دير البلمند

يقع هذا الدير في الجنوب الشرقي من طرابلس فوق رابية تعلو سطح البحر زهاء مائتي متر بين قريتي انفه واميون . انشأه الصليبيون في ٣٠ ايار سنة ١١٥٧ على يد رهبان مار برنردس الذين اطلقوا عليه اسم (Abbatia Belimontis) اي دير الجبل الجميل . واسمه الحالي «بلمند» محرّف لفظه اللاتيني الاصلي . وبعد رجوع الصليبيين الى بلادهم عام ١٢٩١ تملكه اليعاقبة (١) . ولا يُعرف شيء من تاريخه في تلك الحقبة .

ثم حل الخراب بهذا الدير الى ان دخل نهائياً في حوزة الروم الارثوذكس . فجدد بناءه سنة ١٦٠٣ مطرانهم في طرابلس السيد يواكيم ابن الخوري جرجس واصبح من اهم اديارهم . وكانت له في غابر الزمان مكتبة معتبرة لعبت بها ايدي الحدثان فلم يبق منها سوى بعض المخطوطات التي ليس تحتها كبير امر . وقد ذكرها الاب هنري لامنس بقوله :

« وكانت هذه المكتبة قديماً حافلة بالمخطوطات . ولا نشكّ ان في عدادها كانت تآليف عديدة سريانية كما ترى في غيره من اديرة الروم كمكتبة دير جبل سينا ودير مار سابا حيث وجد زوّار الفرنج مصنّفات سريانية قديمة غالية الثمن . وكذلك كان دير صيدنايا غنياً بذخائر الآداب السريانية قبل ان يحرقها وكلاؤه كما ذكر ذلك الشاب الاديب حبيب افندي زيّات في خبر رحلته الى هذا الدير ... الا ان اليونان الذين تملكوا زمناً طويلاً دير البلمند اتلفوا ما وجدوه من هذه الكنوز النفيسة واورثوا قلوبنا الاسف على فقدها (٢) » .

---

(١) تسريح الابصار في ما يحتوي لبنان من الآثار : جزء ١ صفحة ١٥٥

(٢) تسريح الابصار في ما يحتوي لبنان من الآثار : جزء ١ صفحة ١٥٦

مما يؤيد رواية الاب هنري لامنس مخطـــوط سرياني محفوظ في خزائن اوكسفورد تحت رقم٨٧ومنسوخ سنة ٧٠٠٠ لآدم (١٤٩٢ م) ورد فيه ما نصه: « هذا الكتاب البنديكستاري اي الحسيني برسم دير ستنا العذرى المقول له البلمند خارج مدينة طرابلس . وهو عندي انا الحقير غريغوريوس باسم مطران دمشق ».

٢ـ سائر مكتبات الروم الارثوذكس في لبنان

لم تخلُ بقية اديار الروم الارثوذكس ومدارسهم في جبل لبنان من مخطوطات قديمة اقتناها الرهبان للدرس والعبادة او نسخوها في ساعات الفراغ . نذكر منها : مكتبة دير مار الياس شويا في المتن . ودير مار جرجس الحميراء بناحية عكار . ودير السيدة في حام طوره[١] قريباً من طرابلس . ومدرسة كفتين ونرجح ان هذه المدرسة بُنيت على انقاض دير كفتون الشهير .

وقد اطّلعنا في فهارس مخطوطات المتحف البريطاني بلندن والمكتبة الواتكانية ومكتبات باريس وبرلين وكمبردج ودير الشرفة وبكركي والبطريركية السريانية ببيروت ولاسيما في فهرس مخطوطات اوكسفرد على اسماء كتب جمة نُسخت في الاديار المذكورة وفي غيرها من اديار الملكيين . يدل ذلك كله على ازدهار العلوم ووفرة المكتبات قديماً في الاديار المذكورة[٢] .

ثامناً : مكتبات السريان الارثوذكس في جبل لبنان

كان للسريان ايام عزهم مراكز خطيرة في لبنان اذ كانوا مستوطنين قرى كثيرة اخصها : بقوفا واهدن وبشري وحفد وحردين وكفرحورا وبلدة جونية . وقد صرّح الادريسي وهو من فضلاء الكتبة المسلمين في القرن الثالث عشر للميلاد

---

(١) الطقوس السريانية الملكية ومكتبة بكركي البطريركية : الخوري اسحق ارملة : صفحة ١٧
(٢) الملكيون : بقلم الخوري اسحق ارملة : صفحة ١٠٤

بقوله : « ان جونية حصن على البحر واهله نصارى يعاقبة »[1] فأسسوا اديارا وكنائس وابرشيات عامرة ولاسيما دير الغوبة الذي اتخذه مفريانهم كرسياً له [2] وشحنوها بالمخطوطات النفيسة التي صنفها ايمتهم وعلماؤهم المشاهير نذكر منهم : يحيى بن عدي وتلميذه ابن زرعة ويحيى بن جرير التكريتي والبطريرك ميخائيل الكبير وابا الفرج ابن العبري وغيرهم .

ومما يؤيد ان معاهد السريان في لبنان كانت حافلة بالمخطوطات ما رواه الاب ايرونيموس دنديني في رحلته الى لبنان سنة ١٥٩٦ قال : « اخبرني احدهم ان اليعاقبة ادخلوا الى لبنان ما يقارب خمسين الى ستين حمل بغل من كتبهم ما عدا كتب القداس والفرض الكنسي . فكانت هذه الكتب تحفظ في خزانة مقفولة يحرص عليها كل الحرص .

تاسعاً : مكتبات جبل لبنان العامة ومتاحفه

١ ـ مكتبة الامير بشير الكبير ومتحفه في قصر بتدين

شيّد قصر بتدين الفخم الامير بشير الثاني الشهابي الكبير الذي حكم جبلُ لبنان اثنتين وخمسين سنة (١٧٨٨ ـ ١٨٤٠) . فكان عصره عصر أمن وعدل ورخاء بين افراد الرعية على اختلاف الملل والنحل .

وملك الامير بشير مكتبة عامرة في ذلك القصر كما افادنا امين سرّه حنا بك الاسعد (+ ١٨٩٦) من آل صعب . فانه عرفها بنفسه وطالع فيها كثيراً ونسخ لها مجلدات شتى في التاريخ والشرع والادب . وقد بلغ حنا بك منتهى البراعة في الخط العربي حتى ضُرب المثل بتفوقه فيه [4] .

---

(١) الادريسي : طبعة غلدميستر : صفحة ١٧

(٢) تاريخ الموارنة للبطريرك اسطفان الدويهي : صفحة ١٣٩ و١٢ ؛ و٤٤١

(٣) رحلة دنديني : تعريب الخوري يوسف الممشيتي : صفحة ٧٢

(٤) الآداب العربية في القرن التاسع عشر : تاليف لويس شيخو : جزء ٢ صفحة ١٥٩

اما المكتبة فكان مركزها ملاصقاً للديوان الاميري على يمين الباب الخارجي من سراي بتدّين . وكان المتولي ادارتها كاتب اديب من دير القمر اسمه سلوان ابو نحوّل .

وعاش حول الامير بشير رهط من الادباء والفقهاء والشعراء نذكر منهم : السيد يوسف اسطفان (١٧٦١ - ١٨٢٢) . والمعلم الياس اده (١٧٤١-١٨٢٧) والمعلم نقولا الترك (١٧٦٣ - ١٨٢٨) والمعلم بطرس كرامة (١٧٧٤-١٨٥١) والشيخ ناصيف اليازجي (١٨٠٠-١٨٧١) . والدكتور ميخائيل مشاقة (١٨٠٠-١٨٨٨) . والكونت رُشيد الدحداح (١٨١٣ - ١٨٨٩) والشيخ امين بن يوسف الدحداح (+ ١٨٧٣) . والشيخ موسى بن ابرهيم الدحداح (+ ١٨٧٥) .

فكانوا يجالسون الامير وينادمونه ويشتغلون في ديوانه ويثقفون انجاله ويصنفون الكتب . وكانوا يتناشدون الاشعار في بلاطه تناشد الشعراء في بلاط سيف الدولة الحمداني . هكذا أنعش اولئك العلماء النهضة الادبية في لبنان بتنشيط هذا الامير ومكارمه . وعززوا خزانة كتبه بمخطوطات نسخوها بايديهم او استنسخوها او جمعوها من اطراف البلاد .

غير ان تلك الخزانة الاميرية ما لبث ان تفرق شملها ودخلت في خبر كان بعد نفي منشئها عام ١٨٤٠ الى مالطة فالاستانة حيث ادركته المنون عام ١٨٥٠ . وقد روى لنا عيسى المعلوف انه شاهد في مكتبة الامير عباس كنج الشهابي في الشياح بضواحي بيروت مخطوطات كثيرة ورجح انها انتزعت من مكتبة الامير بشير في بتدين . وأيد ذلك بقوله انه قرأ اسماء نقولا الترك وبطرس كرامة وغيرهما على هوامش تلك المخطوطات . وشاهد بينها ايضاً نسخة كاملة من تاريخ « الغرر الحسان في اخبار ابناء الزمان » للامير حيدر الشهابي وعليها خطوط الامير حيدر نفسه .

ومن آثار مكتبة قصر بتدّين مجموعة خطّية تتضمن اشعاراً من نظم ميخائيل البحري والمعلم بطرس كرامة وقصائد للشيخ ناصيف اليازجي غير مطبوعة في

دراونه . وهي مخطوطة بجرص في مكتبة دير الشير للرهبان الملكيين الحلبيين .

وفي هذه الاعوام انصرفت الحكومة اللبنانية الى ترميم قصر بتدين واعادته الى رونقه السابق . ثم قررت ان تنشىء فيه مكتبة حديثة ومتحفة اثرية تخليداً لذكر بانيه الامير الكبير . ولاجل تلك الغاية اخذت تجمع على يد أمين دار الآثار في بيروت ما تيسر من الكتب والمجلات التي تتحدث عن لبنان ورجاله لا في اللغة العربية فقط بل في سائر اللغات الشرقية والغربية . فهناك كتب التاريخ والجغرافيا والرحلات والآثار القديمة والسياسة والدين والاصطياف وغير ذلك من المواضيع المنوطة بهذا الجبل .

ومما جمعوه في سبيل مكتبة بتدين طائفة مهمة من الصكوك والحجج والوثائق الخطية التي يتصل عهدها بعهد الامير بشير في القرنين الثامن عشر والتاسع عشر . ولا يقل عددها عن الستة آلاف تدور ابحاثها حول شتى المواضيع التاريخية والحربية والادارية والمالية والقضائية والزراعية .

وفي مكتبة القصر مجموعة رسوم اثرية وصور قديمة تعد بالمئات تتعلق بلبنان وسوريا وتمثل ابدع ما فيهما من الحوادث التاريخية والمشاهد الطبيعية . وفي هذه المكتبة مجموعة خرائط قديمة لسوريا ولبنان يرجع تاريخ بعضها الى القرن السادس عشر . ذلك كله منظم في محافظ خاصة صيانة لها من بوائق الزمان .

وما عدا المكتبة المشار اليها ففي قصر بتدين متحف يشتمل على كثير من آثار الامير الشهابي الكبير وعلى آثار اسلافه او معاصريه . وينطوي كذلك على ما استعمله اللبنانيون في القرون الاخيرة من الاسلحة والالبسة وادوات المنازل وضروب الزينة وغير ذلك مما يجدر حفظه ويتوق السياح الى رؤيته والوقوف على اصله وفصله .

٢ ـ مكتبة جبران خليل جبران ومتحفه في بشري

جبران خليل جبران (١٨٨٣ ـ ١٩٣١) هو احد نوابغ اللبنانيين في القرن

العشرين عاش ومات في نيويرك بالولايات المتحدة الاميركية . ثم نُقل جثمانه الى لبنان ودُفن في ضريح أعدّ له بديرمار سركيس في سفح غابة الارز . وهذا الدير واقع بين الغابة المذكورة وبين بشري مسقط راسه[1] .

وخلّف جبران آثاراً معتبرة في الشعر والنثر والموسيقى والتصوير . واوصى بكل متروكاته لقصبة بشري في لبنان فأنشىء منها مكتبة ومتحف فريد في بابه غني بمواده يُعد من المتاحف الفردية في الديار الشرقية . وتتألف متروكات جبران : اولا من سبعمائة وواحد وثمانين كتابا بينها تآليفه في اللغتين العربية والانكليزية . ثانياً من نيف والف وخمسمائة تحفة فنية بعضها من صنع يديه .

وقد قرر المجلس البلدي في بشري تشييد بناء فخم في ساحة البلدة تُعرض فيه تلك التركة الادبيه عملاً بوصية جبران وتخليداً لذكره .

عاشراً : مكتبات طرابلس

١ ـ مكتبة الاباء اللعازريين

للاباء اللعازريين في طرابلس دير قديم العهد انشأوا فيه مكتبة توفّرت فيها الكتب التاريخية والادبية واللغوية والدينية . واخبرنا الاب الجليل يوسف علوان رئيس الدير المذكور ان عدد مجلدات هذه المكتبة ينوف على اربعة آلاف مجلد في اللغة العربية وبعض اللغات الافرنجية .

٢ ـ مكتبة نوفل نوفل

يُعتبر نوفل نوفل (١٨١١ ـ ١٨٨٧) من اركان النهضة الادبية في القرن

---

(١) راجع ترجمة جبران خليل جبران في مجلة « الهلال » المصرية : مجلد ٣٩ سنه ١٩٣١ صفحة ٩٧٤ــ٩٧٦

التاسع عشر . خلف كثيراً من المؤلفات والرسائل والمقالات معظم مواضيعها مبتكر لم يسبقه احد الى مثله في الامة العربية . وجمع في مسقط رأسه طرابلس خزانة كتب نفيسة في العلم والادب والتاريخ والفنون من مخطوط ومطبوع . ولما دنا أجله اوقفها على مكتبة الجامعة الاميركية في بيروت لفائدة طلبتها فخلّد بذلك لنفسه تذكاراً حياً على ممرّ الايام(١) .

ولنسيبه عبدالله بك نوفل (+ ١٩٤٤) مؤلف كتاب « تراجم علماء طرابلس وادبائها » خزانة عامرة بالمؤلفات الكثيرة لم نرَ بداً من الاشارة اليها . وكان عبدالله نوفل عضواً في مجلس النوّاب اللبناني.

٣ ـ مكتبة نقولا منصور

كان نقولا منصور (١٨٣٢ ـ ١٨٩٧) متضلعاً من علوم اللغة العربية وبعض اللغات الاوروبية . تولى رئاسة المدرسة الوطنية الارثذكسية بطرابلس ثم وكالة رئاسة مدرسة كفتين . وكان بنوع خاص كلفاً بجمع نفائس الكتب فنسخ بخطه جملة صالحة منها . وابتاع كتباً مفيدة فملأ مكتبة عامرة (٢) .

٤ ـ مكتبة اسكندر كاتسفليس

نشأ اسكندر كاتسفليس (١٨٣٧ ـ ١٨٩٦) في طرابلس وكان على جانب عظيم من الثقافة والوجاهة والاحسان . واطلق عليه القوم لقب « دائرة معارف حية » لما تزين به من الاخلاق العالية والمدارك الواسعة . وامتدحه شعراء عصره بالقصائد الرائعة وهي لو جمعت لتألف منها ديوان كبير الحجم . وكان مولعاً بجمع المخطوطات ونفائس الكتب فاقتنى منها خزانة معتبرة قلّ نظيرها في عهده .

---

(١) تراجم مشاهير الشرق : مجلد ٢ صفحة ١٥٢ ـــ ١٥٤ (٢) تراجم علماء طرابلس وادبائها بقلم عبد الله بك نوفل : صفحة ١٤٠ ـــ ١٤١

وكان من عادته انه كلما طالع كتابا علّق عليه الحواشي واختار من طرفه وفوائده ما يروقه فيكتبه بخطه اللطيف . وجمع من هذه الخرائد عشرات المجلدات محفوظة عند بكر انجاله جورج في الاسكندرية (١) .

٥ ـ مكتبة جرجي ينّي

قضى جرجي ينّي (١٨٥٦ ـ ١٩٤١) حياته المديدة بين الاقلام والمحابر دارساً ومعرّباً ومؤلفاً . تلقى العلوم في « المدرسة الوطنية » للمعلم بطرس البستاني ببيروت . وبعد اعلان الدستور في السلطنة العثمانية اخذ ينشر مجلته « المباحث » نحو ثلاثين عاماً (١٩٠٨ ـ ١٩٣٦) ولم يكف عن نشرها حتى أعيته الشيخوخة . ونظراً الى وفرة ادبه احصاه المجمع العلمي العربي بدمشق بين اعضائه . ومن اشهر مؤلفاته « تاريخ سوريا » الذي يُعد مرجعاً اميناً لارباب البحث .

أولع جرجي يني بمحبة الكتب فانشأ سنة ١٨٧٥ خزانة حوت اربعة آلاف مجلد ونيفاً في شتى العلوم عدا المجلات والكراريس . وغلبت فيها كتب التاريخ لان صاحبها كان يُعد من اساطين هذا الفن ونوابغه . وضم اليها من المخطوطات ما لا ينقص عن مائة مجلد كلها عربية .

حادي عشر : مكتبات صيدا

١ ـ مكتبة مدرسة الفنون الاميركية

تأسست هذه المدرسة عام ١٨٨٠ بتقرير أصدره المجمع الاميركي الاعلى في الولايات المتحدة الاميركية وُعهدت رئاستها الى القس وليم ادي . وبتوالي الزمان

---

(١) تراجم علماء طرابلس وادبائها : صفحة ١٤٩ ــ ١٥٠

أنشئت فيها مكتبة يختلف اليها الخاص والعـــام من طلاب العلم بغية المطالعة والاستفادة . وقد احتوت على طائفة من المؤلفات الاساسية عربية وافرنجية مما لا يستغني عنه رُوّام البحث وروّاد الادب . ولا تخلو المكتبة من مجلات علميـة وجرائد متنوعة يطالعها غير واحد من القراء (١) .

٢ ـ غرف القراءة

لاساتذة مدرسة الفنون الاميركية وتلامذتها في صيدا جمعية تسمى « جمعيـة الخدمة الوطنية الانجيلية » أنشئت عام ١٩٠٢ ضمن مدرسة الفنون المشار اليهـا . وغايتها مراقبة غرف القراءة وترقيتها وتعميم فوائدها . وقد شيّدت لهـا بناية لطيفة مما جمعه اصدقاء القس وليم ادي اقراراً بصنيعه . فجاءت تلـك البناية اثراً مبروراً خلّد ذكرى هذا الرجل الاميركي الفاضل .

واشتملت غرف القراءة على طائفة صالحة من الكتب والمجلات والصحف السيّارة شرقية وغربية . وابوابها مفتوحة لمن شاء المطالعة في جميع ايام الاسبوع ما عدا يوم الاحد(٢) .

---

(١) تاريخ صيدا : لاحمد عارف الزين : صفحة ١١٧ — ١٢٠
(٢) تاريخ صيدا : لاحمد عارف الزين : صفحة ١٢٤

الفصل الثاني

خزائن كتب سوريا

اولا : مكتبات دمشق

لحاضرة دمشق شأن عند نصارى الشرق لانها مركز بعض رئاساتهم الدينية العليا كالبطريركيتين الانطاكيتين للروم الارثذكس والروم الكاثوليك . وكانت ايضاً كرسياً لبعض بطاركة السريان منذ السنة ١٢٩٣ حتى السنة ١٤٤٥ للميلاد(١) وهي في الوقت ذاته كرسي مطرانية لملل مسيحية اخرى . وعليه فلا عجب اذا كانت تلك المراكز الدينية قد احتوت منذ اقدم الازمنة على خزائن مخطوطات اسوة بنظائرها في سائر البلدان . ومن اهم تلك الخزائن نذكر ما يلي :

١ ـ مكتبة البطريركية الارثوذكسية

من أشهر المكتبات النصرانية بدمشق مما ورد ذكره في التاريخ مكتبة اقتناها البطريرك افتيموس كرمة (١٦٣٤ ـ ١٦٣٥) . فانه الحقها بالكنيسة المريمية الكبرى ونقل اليها من حلب معظم مكتبته الثمينة لانه تولى مطرانية تلك المدينة حقبة غير قصيرة . وقد جمع بين يديه نساخين ومعرّبين واشتغل هو بتنقيح الكتب الطقسية وترجمتها من اللغتين السريانيـة واليونانية الى العربية(٢) . ثم زاد عليها كثيراً خلفه البطريرك مكاريوس الثالث (١٦٤٧ـ

---

(١) الزهرة الزكية للخوري اسحق ارملة : صفحة ٧٥

(٢) الملكيون : بقلم الخوري اسحق ارملة : صفحة ٦٨ — ٦٩

١٦٧٢) ابن الزعيم وعززها كسالفه بالنسّاخ والمترجمين . وكان هـذا البطريرك وولده الارخدياقون بولس يشتغلان بالتأليف وجمع الكتب القديمة ونساختها . ومما يؤثر عن بولس المشار اليه تفوّقه بالخط الانيق . واشتملت المكتبة المريمية على نحو اربعمائة مجلد مخطوط بعضها على رقّ غزال . وفي ٢٨ حزيران ١٨٦٠ حلّت بالكنيسة المريميّة بدمشق تلك النكبة العظيمة اذ اضرمت فيها النيران واحترقت معها الكنوز الفضية والذهبية وجميع المخطوطات النفيسة(١) .

وظلت هذه المكتبة طيّ الاهمال حتى قام البطريرك ملاتيوس الثاني دوماني (١٨٩٩ - ١٩٠٦) فأمر بتجديدها وتنسيقها . ولم يكن خلفه غريغوريوس الرابع (١٩٠٦- ١٩٢٨) اقلّ منه عناية بجمع المخطوطات دينية وادبية وتاريخية (٢) . وقد اهدى هذا البطريرك طائفة من المخطوطات الثمينة الى مكتبة المجمع العلمي العربي بدمشق . ثم نقل طائفة اخرى منها الى المكتبة القيصرية في بطرسبرج عندما ارتحل سنة ١٩١٣ الى روسيا(٣) . وذلك في فرصة اليوبيل القرني الثالث (١٦١٣ - ١٩١٣) لارتقاء آل رومانوف الى العرش الامبراطوري الروسي . وبعد ذلك نُقلت تلك المخطوطات من المكتبة القيصرية الى خزانة مخطوطـات المتحف الاسيوي في عاصمة روسيا . وقد وضع لها المستشرق اغناطيوس كراتشقوفسكي فهرساً خاصاً سنة ١٩٢٤ نوّه به في مقالته لكتبة النصرانية في المكاتب البطرسبرجية(٤) .

ومن أهدى خزانة كتبه المخطوطة الى المكتبة البطريركية الارثوذكسية في دمشق نذكر : البطريرك غريغوريوس المشار اليه . والمطران مكاريوس سمان .

---

(١) كنائس دمشق والمريمية : بقلم عيسى الملوف (مجلة الرسالة المخلصية : مجلد ٧ سنة ١٩٤٠ صفحة ٤١٠ — ٤١٣) (٢) مجلة الآثار : مجلد ٣ سنة ١٩١٣ صفحة ٤٣٧

(٣) الاسر العربية المشتهرة بالطب العربي : تأليف عيسى الملوف : صفحة ٣١

(٤) المشرق : مجلد ٢٣ سنة ١٩٢٥ صفحة ٦٧٤

وديمتري شحاده الصبّاغ وكيل البطريركية الانطاكية في الاستانة . وقد حوت مكتبة ديمتري طبقاً لرواية عيسى المعلوف ستمائة مخطوط ونيفاً .

٢ ــ مكتبة البطريركية الكاثوليكية

للبحاثة النشيط حبيب زيات نظرات صائبة وآراء سديدة في ما يتعلق بتواريخ ملة الروم الملكيين التي اليها ينتمي . فانه لما اتى على ذكر مكتبة الكرسي الانطاكي الملكي الكاثوليكي أثبت انه كان له منذ عهد استقلاله مكتبة حافلة بالمصنفات الخطية . وقد تلفت برمتها في حريق سنة ١٨٦٠ وتلف معها السجل البطريركي كله . ومن ذاك الحين أهمل امر المكتبة لما كانت عليه احوال البطريركية من الاضطراب الناشىء عن اتّباع الحساب الغريغوري واعتزال البطريرك اكليمنضوس بحّوث منصب البطريركية .

واستلى حبيب زيات منوّهاً باهمال ارباب الدار البطريركية تجديد المكتبة وتهاونهم بكل ما كان حرياً ان يسد جانباً من ثلمتها . هكذا جرى عندما توفي السيد مكاريوس حداد مطران القلاية الانطاكية . فانهم عوضاً عن ان يبادروا الى احراز كتبه ومخطوطاته ويجعلوها نواةً لمكتبة جديدة ثم يضمون اليها بالتوالي كل ما يقع لهم من قبيلها لم يكترثوا لها على الاطلاق . بل غادروها قنصاً لكل صائد فتبعثرت وتقاسمتها الاطماع . وعلى هذا النحو ايضاً ضاع اكثر كتب النائب البطريركي المطران بولس مسدية ولم يسلم الا ما صعب حمله او قلت فائدته . وفقد من اوراقه ومخطوطاته ومحفوظاته ومحفوظات سلفه مكاريوس حداد كل ما له شأن وقيمة . ولو صار الانتباه في حينه الى جمع خزانتَي هذين المطرانين صيانة لها من الضياع لتألفت من مجموعها مكتبة لائقة بالمقام البطريركي[1] .

---

(١) خزائن الكتب في دمشق وضواحيها : صفحة ٩٢ ــ ٩٥

وعلى رغم ما سبق شرحه فان هذه المكتبة لا تخلو من مخطوطات حديثة عدّد بعضها الاب لويس شيخو في كتابه « المخطوطات العربية لكتبة النصرانية » . نذكر منها : تاريخ الروم للبطريرك مكاريوس ابن الزعيم وللخوري يوسف المصوّر وكتاب منارة الاقداس وكتاب الاصول المنطقية للخوري يوياكيم المطران . وكتاب حسر اللثام عن الاسلام لرزق‌الله حسون . وكتاب السلسلة الذهبية لكرلس الحداد . وكتاب روضة الزهور للبطريرك مكسيموس مظلوم وغيرها(١) .

٣ ـ مكتبة المطرانية السريانية

ان النكبة الاليمة التي حلّت بالمكتبتين البطريركيتين كما سلف القول حلت في التاريخ ذاته بمكتبة مطرانية السريان الكاثوليك . فاضرمت فيها النيران ومُحقت جميع المخطوطات الثمينة التي جمعها البطاركة والمطارنة السريان منذ قرون عديدة . وبلغ عدد مجلداتها يوم الحريق ثلاثمائة واثنين وخمسين مخطوطاً بينها رقوق قديمة نادرة فضلاً عن الكتب المطبوعة .

وقد اطّلعنا في مجموعة رسائل تاريخية عنوانها « العقد الثمين في رسائل الآباء الى البنين » على رسالة كتبها بيده السيد غريغوريوس يعقوب حلياني مطران دمشق على السريان ووجهها بتاريخ ٢٦ تشرين الثاني ١٨٦٠ الى صديقه الكنت نصرالله دي طرّازي في بيروت عدّد فيها ما لحق بمكتبته من الخسائر الجسيمة العلمية والمادية . وقد قُدرت قيمتها حين ذاك بثلاثة آلاف وثمانمائة وعشرين ليرة عثمانية ذهبية . وخصّ بالذكر من تلك المخطوطات انجيلاً مكتوبا على رق الغزال يرتقي عهد نساخته الى القرن الرابع للميلاد(٢) .

ولما تولى المطران العلامة اقليميس يوسف داود مطرانية دمشق السريانية

---

(١) المخطوطات العربية لكتبة النصرانية : صفحة ٢٣٦ ـ ٢٤١

(٢) العقد الثمين في رسائل الاباء الى البنين : مجلد ٤

(١٨٧٩ - ١٨٩٠) جدّد مكتبتها التي نُكبت بالحريق كما سلف الكلام . فوجّه اليها التفاتاً خاصاً وأغناها باسفار يعز وجود مثلها لما حوته من الكتب الخطية النادرة المتعلقة بالمشرق(١) . وخصص في وصيته الاخيرة قسماً من مكتبته بمدرسة نشر الايمان في رومية وبدير الشرفة في لبنان وببعض اصدقائه(٢) .

ثانياً : مكتبات ضواحي دمشق

١ - مكتبة صيدنايا

صيدنايا قرية من قرى جبل القلمون تقع في الشمال الشرقي من دمشق . فكان المسيحيون على اختلاف نحلهم وتباين عقائدهم يحجونها من الشرق والغرب تيمناً بزيارة كنيستها الكبرى ذات المعجزات والخوارق . ومنذ عهد الصليبيين نرى كتّاب الافرنج وروّادهم وحجاجهم يسهبون في الكلام عن صيدنايا سواء كان في اخبار رحلاتهم او ابحاثهم التاريخية . ولم يتفرّد المسيحيون بذلك بل وصفها ايضاً بعض المؤرخين المسلمين كياقوت الحموي وشهاب الدين العمري وغيرهما . واذا ضربنا صفحاً عن محاسن صيدنايا الطبيعية وآثار ابنيتها القديمة فلا نرى بدّاً من الاشارة بوجيز العبارة الى خزائن كتبها التي طبّق صيتها الآفاق وملأ ذكرها الافواه والاسماع .

أجمع المؤرخون على ان دير السيدة في صيدنايا كان حافلاً بالنذور والتقادم والتحف والمخطوطات المحبوسة عليه منذ مئات من السنين . وكانت مستودعاته مملوءة بتلك الهدايا النفيسة لكثرة من تردد اليه من الزوّار الغادين والرائحين . وكانت مخطوطات ذلك الدير عربية وسريانية ويونانية تتناول مواضيعها الدين

---

(١) تراجم مشاهير الشرق : تأليف جرجي زيدان : جزء ٢ صفحة ٢٠٠

(٢) تاريخ آداب اللغة العربية : مجلد ٤ صفحة ١٣٣

والتاريخ والأدب والطب وغير ذلك من العلوم . وكان في هذه المخطوطات الموقوفة كتابات وتعاليق لبعض البطاركة والمطارنة موقعة باسمائهم يجدر ان تصوّر وتنشر لما في اذاعتها من الفوائد التاريخية(١) .

غير ان رؤساء هذا الدير عمدوا الى احراق جميع المخطوطات والرقوق السريانية الوافرة وبينها النادر والنفيس في ايام الحاجة كاترينا مبيّض (١٨٣٤ – ١٨٥١) رئيسة الدير المذكور . وحجتهم في ذلك ان لا يدعوا وسيلة للسريان اليعاقبة ان يدّعوا بحق تملك الدير او كنيسته .

فأجمع رأي رؤساء الدير ووكلائه على اخراج تلك المخطوطات من الخزائن واتلافها تخلصاً من شرها . فجمعوها ومعظمها من نفائس الكتب المخطوطة على رق الغزال وبدأوا يحرقونها تحت قناطر الدير . ثم كرهوا ان تذهب نارها ضياعاً فجعلوها في الفرن لتكون وقوداً بدلاً من الحطب وخبزوا عليها خبزتين(٢) .

وقد زار هذا الدير رهط من علماء الشرق وائمته . نكتفي منهم بذكر العلامة يوسف سمعان السمعاني الذي اقتنى هناك بعض المخطوطات في شهر تشرين الاول سنة ١٧١٥ في زمن البطريرك كيرلس الزعيم . ومنهم ايضاً القس جبرائيل فرحات(٣) زاره مرتين في السنة ١٦٩٤ والسنة ١٧١٩ . وانشد فيه ابياتاً هذا مطلعها :

رعى الله ديراً كنت فيــه مسلما ... على من عليها قبل جبريل تسلّما

٢ ـ مكتبات اديار معلولا

في جوار صيدنايا قرية « معلولا » التي تُعدّ من امنع القرى موقعاً واغربها شكلاً واقدمها آثاراً . في هذه القرية اديار كثيرة اهمها في الزمان الحاضر دير كبير للروم الارثذكس على اسم القديسة تقلا . وقد سمّاه الشيخ عبد الغني النابلسي في

---

(١) خبايا الزوايا من تاريخ صيدنايا : صفحة ٦٩ (٢) خزائن الكتب في دمشق وضواحيها صفحة ١١٧ (٣) صار مطراناً على حلب باسم جرمانوس فرحات

رحلته « المرتقله » ووصف مقام القديسة بما يأتي : « وهي مغارة في نصف الجبل والماء يقطر من اعلاها الى اسفلها في اماكن متعددة منها » .

وكانت ديورة « معلولة » مشحونة بخزائن المخطوطات القديمة كما شهد بذلك بعض السيّاح وعلماء الاستشراق . وقد وصفها بعضهم كالفرنسي برتون سنة ١٨٧٢ والاميركي فردريك بلس سنة ١٨٩٠ والجرماني فن كسترن الذي نشر سنة ١٨٩٠ مقالة في مجلة « الكنيسة الكاثوليكية » ببيروت جاء فيها : « وكان في معلولا مخطوطات فاشترى الانكليز بعضها واحرق غيرها(١) » . ويؤيد ذلك ما رواه احد ثقاة المؤرخين حبيب زيات الدمشقي قال :

« اخبرني الشماس زخريا شحوره في دير القديسة تقلا للروم الارثذكس في زيارتي الثانية لمعلولا مع الاب باريزو نقلاً عن بعض شيوخ القرية انه كان عندهم قبلاً في الدير المذكور وكنيسة مار الياس عدة كتب احرقها احد اساقفتهم ولم يذكره لي . امر باعدام هذه المخطوطات للغاية نفسها التي أحرقت من اجلها مخطوطات صيدنايا على ما تقدم شرحه(٢) » .

وللاب لويس شيخو « رحلة الى طرف بادية تدمر » اتى فيها على ذكر تلك المخطوطات قال : « وكانت معلولا غنية بمثل تلك المخطوطات . وفي خزائن كتب اوروبة ما يشهد على ذلك . فان فيها تآليف ... كُتبت في معلولا في ازمنة متباينة بين القرن العاشر والسابع عشر . وصف بعضها العلامة ادورد ساخو سنة ١٨٩٩ في مجلة برلين العلمية . وكان عدد وافر من هذه المخطوطات في معلولا قبل نصف قرن كما اكد لنا ذلك بعض كهنة معلولا ... (٣) » .

وقد زار فريق من علماء المشرقيات قرية معلولا للبحث عن كنوزها الكتابية منذ السنة ١٨٦٣ وكتبوا عنها الكتابات الضافية . وتتابعوا على ذلك الى ان

---

(١) الكنيسة الكاثوليكية : مجلد ٣ سنة ١٨٩٠ صفحة ٥٨١

(٢) خزائن الكتب في دمشق وضواحيها : صفحة ١٦٠ في الحاشية

(٣) المشرق : مجلد ٩ سنة ١٩٠٦ صفحة ١٠٤٧

ندبت الحكومة الفرنسية سنة ١٨٩٦ الاب يوحنـــا باريزو من علماء الرهبان البندكتيين لمثل هـذه المهمة . فقدم سوريا في اوائل تشرين الاول من السنة المذكورة وبقي فيها اشهراً زار في خلالها معاولا . ونشر كتاباً استقصى فيه كل ما وقف عليه من شؤونها وانبائها ومخطوطاتها وما ورد في كتابات المؤلفين عنها(١)

وممن زار معلولا ايضاً في الاعوام الاخيرة المستشرق « رايخ » النمسوي للغاية نفسها . وفي السنة ١٩٣٦ جاءت بعثة من المستشرقين الفرنسيين الى معلولا وما جاورها من القرى فقضوا هناك بضعة اشهر يدرسون ويبحثون(٢) بغيـة العثور على آثارها وماضي تاريخها .

٣ـ مكتبة مطرانية الروم الكاثوليك في يبرود

انشأها المطران غريغوريوس عطا وضم اليها كل ما عثر عليه من الكتب العربية التي تدور ابحاثها حول الشرق المسيحي . وبعد وفاته سنة ١٨٩٩ تبعثرت موجوداتها ولم يبقَ فيها سوى ما لا يُحفل به من المطبوعات . اما المخطوطات وعددها قليل فمعظمها في اللاهوت والتاريخ والطقسيات الكنسية وما شاكلها . بينهـا بعض مخطوطات سريانية كان يستعملها الروم الملكيون بكنائسهم في العصور الغابرة . وقد وضع الاب يوسف نصرالله فهرساً باللغة الفرنسية وصف فيه مخطوطات هذه المكتبة وتكرم علينا بنسخته الخطية . فتصفحناه قبل نشره في مجلة معهد الكتاب المقدس بعاصمة الكثلكة . وقد صدر هذا الفهرس مطبوعاً سنة ١٩٤٠ في ٣١ صفحة تشتمل على وصف ٣٢ مخطوطاً وتتناول المواضيع الآتية : الشرع الكنسي والطقسيات واللاهوت وغيرها (٣) .

---

(١) خزائن الكتب في دمشق وضواحيها بقلم حبيب الزيات صفحة ١٢١ — ١٢٢

(٢) مجلة « الحب والسلام » في حمص : مجلد ١ سنه ١٩٣٦ صفحة ١٥١ في الحاشية

(3) Manucrits Melkites De Yabroud, Par Joseph Nasrallah, Pages 83 - 113

وللمؤرخ البحاثة حبيب زيات نقد مرّ عن مكتبة يبرود وعن منشئها نجتزىء منه بما يلي : « وانما حداني الى زيارة يبرود رغبتي في الوقوف على مكتبة المطران غريغوريوس عطا ووصف ما كنت اقدر وجوده فيها من المصنفات والمجاميع الخطية في العربية والسريانية التي كانت ابرشيته ملأى بامثالها حين تسقيفه عليها . ولا تزال بقاياها اليسيرة توجد المرة بعد المرة في معلولا وقارة خاصةً مع كل ما أحرزه السياح والزوّار منها . او التهمته افواه النار وعبثت به ايدي الضياع . ولم اكن اعلم وقتئذ انه باع كل ما وقع اليه منها طمعاً في الانتفاع بقيمتها ...(١) » .

ثالثاً : مكاتب حمص

للنصارى في حمص بعض مكاتب جمعها رؤساء الدين اليك اهمها :

١ ـ مكتبة السريان الارثوذكس

للسريان مركز اسقفي قديم في مدينة حمص . وقد بذل اساقفتهم كل جهد في جمع خزانة معتبرة حوت مخطوطات ومطبوعات شتى لو لم تلعب بها الايدي لأحصيت في عداد احسن مكاتب تلك الناحية . وبين تلك المخطوطات القديمة الثمينة كتاب العهد الجديد منسوخ على رق الغزال قد بيع بعد الحرب العظمى بمبلغ لا يقل عن الاربعمائة والخمسين ليرة عثمانية ذهبية . ولما تولى بطريركية السريان مار اغناطيوس افرام الاول برصوم جعل سكناه في حمص وعزز المكتبة المشار اليها . وقد ضمّ اليها ما أمكن انقاذه من مخطوطات دير الزعفران الذي احتله الاتراك منذ الحرب العظمى الاولى (١٩١٤ ـ ١٩١٨) . وتُعد هذه المكتبة من اغنى الخزائن الخاصة في الشرق وانفسها بما احتوته من الكنوز العلمية في كل فن ومطلب .

---

(١) خزائن الكتب في دمشق وضواحيها : صفحة ١٧٨

٢ ـ مكتبة مطرانية الروم الارثذكس

هي مكتبة قديمة لا تقل اهميتها عن المكتبة السابقة الذكر . وقد عزّزها المطران اثناسيوس عطاالله وانفق عليها مالاً وافراً . وبلغ عدد مجلداتها لدى وفاته سنة ١٩٢٣ الفاً وستمائة مجلد بينها مخطوطات تاريخية وادبية ودينية . لكن جانباً منها تضعضع على ما نمي الينا كما تضعضعت قبلها مخطوطات مكتبة بيعة الاربعين شهيداً (١) .

٣ ـ مكتبة الاباء اليسوعيين

تأسست عام ١٨٩٠ وكانت تنطوي على الفي مجلد نُهب اغلبها اثناء الحرب العظمى (١٩١٤ - ١٩١٨) ثم جددت كسابق عهدها بهمة الآباء المشار اليهم .

٤ ـ مكتبة السريان الكاثوليك

هي مكتبة حديثة انشأها المطران ثئوفيلس يوسف رباني على اثر تشييده الدار الاسقفية الجديدة عام ١٩٣٥ في حمص . وضمنها ما لا غنى عنه من الكتب الدينية والعلمية لفائدة كهنة ابرشيته . ويلحق بهذه المكتبة خزانة مخطوطات حفظت منذ قديم الزمان في دير مار موسى الحبشي بمدينة النبك . وكانت تلك المخطوطات اوفر عدداً لعبت ببعضها ايدي الضياع على تمادي السنين ونُقل بعضها عام ١٩١٠ الى الخزانة البطريركية ببيروت . اما ما تبقى منها فقد وضع له الخورفسقفوس اسحق ارملة سنة ١٩٣٢ فهرساً خصوصياً مستوفى(٢) .

---

(١) تاريخ آداب اللغة العربية : مجلد ٤ صفحة ١٣٨

(٢) ارشاد الاعارب الى تنسيق الكتب في المكاتب : لفيليب دي طرازي : صفحة ١٨

رابعاً : مكتبة دير مار مارون بناحية افاميا

ورد ذكر هذه المكتبة القديمة العهد في مخطوطة المتحف البريطاني بلندن الموسومة بالرقم ٥٧٢ وهي منسوخة في السنة ٥٨١ للميلاد على هذه الصورة : « دخل هذا الكتاب الى مكتبة دير مار مارون سنة ٧٤٥ للميلاد في عهد جرجي رئيس الدير واثناس ناظر المكتبة والرهبان سرجيس وقزما وزكريا(١) » .

ولا يخفى ان دير مار مارون هذا يُعدّ من الاديار الاولية في سوريا . وقد اجتمع فيه ايام عزه ثمانمائة راهب(٢) . وكان اولئك الرهبان يقضون اوقاتهم بالعبادة والفلاحة والحياكة . وانصرف فريق منهم الى الدرس والتأليف ونساخة الكتب التي تجمع منها في خزائنهم ما لا يحصى عدده . ووصفه المسعودي بقوله : « هو بنيان عظيم حوله اكثر من ثلاثمائة صومعة فيها رهبان . وكان فيه من آلات الذهب والفضة والجواهر شيء عظيم . فخرب هذا الدير وما حوله من الصوامع بتواتر الفتن (٣) » .

اما موقع الدير فقد حدده المسعودي عينه بقوله : « انه شرقي شيزر قرب نهر الأرنط (اي نهر العاصي) . وشيزر هذه هي في نصف الطريق بين حماة وافاميا(٤) » اما افاميا فهي مدينة قديمة اسسها سلوقس نيقاطور خليفة الاسكندر المقدوني . وجعلها في مقام اكبر مدن سوريا الغربية . وهي واقعة على مسافة خمسين كيلومتراً شمال حماة الغربي عند ضفة العاصي الشرقية مجاورة لقلعة المضيق .

---

(١) مخطوطة سريانية في المتحف البريطاني : رقم ٥٧٢

(٢) المشرق : مجلد ٦ سنة ١٩٠٣ صفحة ١١٨

(٣) كتاب التنبيه للمسعودي : صفحة ١٩٣

(٤) كتاب التنبيه : للمسعودي : صفحة ١٦٣

خامساً : مكتبات حلب

١ ـ المكتبة المارونية

في طليعة المكتبات المسيحية بحلب نذكر المكتبة المارونية التي أسسها السيد جرمانس فرحات مطران حلب في اوائل القرن الثامن عشر . وهي محفوظة الى اليوم بعناية خلفائه ثم زادوا عليها كتباً جمّة ووضعوا لها الفهارس . وتحتوي على خمسة آلاف مجلد بينها الف وخمسمائة وعشرة مخطوطات وصف جانباً منها الخوري ابرهيم حرفوش والخوري جرجس منش والاستاذ عيسى المعلوف . وقد ابتاع مؤسس هذه المكتبة كثيراً من نفائس المخطوطات العربية اثناء جولاته وضمها اليها.

وعلى اثر وفاة الخوري جرجس منش المذكور ضُمت مخطوطات مكتبته ومطبوعاتها الوافرة الى المكتبة المارونية التي تولّى مراقبتها اعواماً كثيرة .

وما عدا المخطوطات النفيسة فقد اشتملت هذه المكتبة على مطبوعات اوروبية قديمة . وكان معظمها يخص الرهبنة اليسوعية قبل الغائها عام ١٧٧٣ فتضعضعت وتشتت شملها . فسعى مطارنة حلب الموارنة لاقتنائها وجمعها لئلا تعبث بها ايدي من لا يعرف قيمتها . وتشاهد على اكثرها هذه العبارة مكتوبة في صدرها وهي : « مكتبة دير الآباء اليسوعيين في حلب [١] » .

وتُعدّ المكتبة المارونية في حلب من اغنى المكتبات النصرانية بمخطوطاتها . ومن أهمها « شرح مقامات الحريري » للمطرّزي . وكتاب « دمية القصر في تراجم أدباء العصر » للباخرزي . وديوان « سيف الدين علي بن قزل » وكتاب « مفتاح الرحمة وكنز النعمة » في الكيمياء . وكتاب « أدب القضاة » لحسام الدين الشعراني . وكتاب « تاج المداخل » لمحمد الشريفي في الفلكيات . وكتاب

---

(١) المشرق : مجلد ١٩ سنة ١٩٢١ صفحة ٧٥٥ ـ ٧٥٦

« نزهة العيون » المعروف بباهج الفكر في مناهج العبر لجمال الدين الوراق المشهور بالوطواط(١) .

٢ ـ مكتبتا الروم الارثذكس والروم الكاثوليك

أصيبت مكتبتا مطرانيتي الروم الارثذكس والروم الكاثوليك في حلب بحريق هائل اثناء فتنة السنة ١٨٥٠ فاتلفها كتبها تقريباً . ثم جددهما المطارنة واهل الفضل فاضافوا الى بقايا مخطوطاتها القديمة كثيراً من الكتب المطبوعة عربية وافرنجية . واذا حصرنا الكلام عن مخطوطات هاتين المكتبتين قلنا ان مكتبة الروم الارثذكس تشتمل على اكثر من ستمائة مجلد اغلبها مخطوط (٢) . اما مكتبة الروم الكاثوليك فتحوي مائتين واثني عشر مخطوطاً(٣) .

مكتبة السريان الكاثوليك

يتصل عهد هذه المكتبة بالبطريرك اغناطيوس بيلاطس (١٥٩١ ـ ١٥٩٧) الذي اتخذ حلب مركزاً له وفيها قضى نحبه . ثم عززها البطاركة والمطارنة من بعده . ومن جملة ذخائرها الثمينة مصحف اناجيل نسخ على رق الغزال منذ القرن الحادي عشر الميلاد في جزيرة قبرس . وكان مزداناً بنقوش بديعة ومكتوباً بحروف كلها من ذهب وفضة بما لا يوصف من سلامة الذوق وبداعة الخط(٤) .

وعلى اثر احتراق هذه المكتبة عام ١٨٥٠ مع المكتبتين السابق ذكرهما سمعنا من فم البطريرك اغناطيوس جرجس الخامس (شلحت) (١٨٧٤ ـ ١٨٩١) ان

---

(١) اطرب الشعر واطيب النثر : للاب لويس شيخو : قسم ٢ صفحة ١٩٤

(٢) مجلة النعمة بدمشق : مجلد ٢ صفحة ٤٠٧

(٣) تاريخ آداب اللغة العربية لجرجي زيدان : مجلد ٤ صفحة ١٣٥

(٤) الآثار الحلبية : للاب انطون رباط اليسوعي : مجلد ١ صفحة ٣٨٩

بعض اوراق هذا الانجيل افلتت من الحريق فبيعت بمبلغ خمس وستين ليرة عثمانية ذهبية . وكانت على وجه البطريرك علائم التأثر الشديد عندما وصف لنا هذا الاثر الثمين والنادر الوجود(١) .

وقد وصف جرجي زيدان هذه المكتبة بقوله(٢) : « كانت من اجلّ المكتبات فأصابها الحريق سنة ١٨٥٠ فذهب بكثير من مخطوطاتها السريانية والعربيـــة واللاتينية واليونانية » .

ومن الذخائر النفيسة التي اتلفها الحريق المذكور انجيل مخطوط مصفّح بالفضة وموشّى برسوم ذهبية وقفه الياس طرازي (١٨١٢ - ١٨٥١) لكنيسة السريان بحلب (٣) .

ولما عُهدت مطرانية حلب عام ١٨٦٢ الى السيد جرجس شلحت المشار اليه جدّد مكتبتها فجمع فيها عدداً وافراً من الكتب المخطوطة والمطبوعـة(٤) . في جملتها مجموعة آباء الكنيسة للاب مين (١٨٠٠ — ١٨٧٥) تتألف من ٣٧٢ مجلداً . اما مخطوطاتها فقد احصاها الخورفسقفوس اسحق ارملة سنة ١٩٢٧ فبلغت ثلاثمائة وستة واربعين مخطوطاً . ونظم لها فهرساً علمياً خاصاً . ومن جملة نفائسها كتاب « خواص الحيوان » لابن ابي حوافر الطبيب(٥) . وكتاب « طقس الملكيين » باللغة السريانية يرتقي عهد نساخته الى القرن الرابع عشر للميلاد . و « رحلة اول سائح الى البلاد الاميركية . منذ السنة ١٦٦٨ حتى السنة ١٦٨٣ » وهو القسيس الياس ابن القسيس حنا الموصلي الكلداني(٦) .

---

(١) السلاسل التاريخية في اساقفة الابرشيات السريانية : صفحة ١٠٨ (٢) تاريخ آداب اللغة العربية : جرجي زيدان : مجلد ٤ صفحة ١٣٦ (٣) وثائق خطية في علائق آل طرازي بالملة السريانية : صفحة ٨٨ (٤) السلاسل التاريخية في اساقفة الابرشيات السريانية : صفحة ٢٤٣ (٥) الاسر العربية المشتهرة في الطب العربي ، بقلم عيسى المعلوف : صفحة ٥٤ (٦) المشرق : مجلد ٨ سنة ١٩٠٥ صفحة ٨٢١ فصاعدا .

٤ ـ خزانة المقدسي نصرالله طرازي (١٧٥١ ـ ١٨٠٨)

عاش المقدسي نصرالله طرّازي ٥٧ سنة قضى معظمها في الاشتغال بالطبابة والصيدلة . وقد جمع في خزائنه طائفة من المخطوطات الطبية كان يطالعها ويعمل الروية فيها ترويجاً لمصلحته . ونسخ بيده واستنسخ كتباً جمة ضمها الى مكتبته فاصبحت من أغنى المكتبات في حلب . وانشأ المقدسي نصرالله كتاباً نفيساً عنوانه « الادوية الشافية لمعالجة المرضى وحفظ العافية » . على ان خزانة نصرالله الموما اليها نُهبت من منزل حفيده ميخائيل طرازي (١٨١٨ – ١٨٨٠) اثناء كارثة حلب المشؤومة في ١٦ تشرين الاول ١٨٥٠(١) . اما نسخة الكتاب الاصلية المدونة بخط مؤلفها فقد دخلت في حوزة الدكتور العلامة كرنيليوس فنديك (+ ١٨٩٦) المستشرق الاميركي .

٥ ـ خزانة الخورفسقفوس جرجس شلحت (١٨٦٧ ـ ١٩٢٨)

ارتقى الى الرتبة الكهنوتية عام ١٨٩٠ واكب منذ حداثته على اقتباس اللغة العربية فنبغ فيها نظماً ونثراً . وصنّف عدة كتب نذكر منها : « المقصورة الروحية في السيرة الروحية » ضمنه الوفاً من نفائس الشعر . وكتاب « النجوى » و « الجدوى » في العلم والصناعة والدين جعله اجزاء شتى نشر منها بالطبع الجزء الاول وبعض الجزء الثاني . وله ديوان شعر عنوانه « الباكورة » واصدر مجلة سماها « الورقاء » وعرّب نخبة من امثال فنيلون الفرنسي نظماً ونثراً(٢) .

واقتنى هذا الخورفسقفوس مكتبة معتبرة كانت غنية بمخطوطات ثمينة نذكر منها كتاب « جذوة المقتبس في تاريخ علماء الاندلس » وكتاب « المذكر والمؤنث » للفراء تاريخه سنة ٥٨٥ للهجرة (١١٨٩ م) وكتاب « المعرب » للجواليقي نقله

---

(١) اسرة آل طرازي : جزء ١ بقلم الخورفسقفوس اسحق ارملة : صفحة ٢٨

(٢) التحفة في تاريخ دير الشرفة لمؤلفه فيليب دي طرازي : صفحة ٩٢

بخطه الجميل عن نسخة المكتبة الاحمدية بحلب . ونظراً الى جهوده في اللغة العربية وآدابها احصاه المجمع العلمي العربي بدمشق في جملة اعضائه .

٦ ـ خزانة بني الانطاكي

جمع هذه الخزانة قسطنطين بن حنا انطاكي المشهور بادبه وذكائه . واحتوت على زهاء خمسمائة مخطوط نفيس(١) . ويقال ان معظمها اصله من مكتبة البطاركة الملكيين الذين سكنوا حلب في القرنين السابع عشر والثامن عشر كالبطريرك مكاريوس الثالث (١٦٤٧ -- ١٦٧٢) المعروف بابن الزعيم واثناسيوس الثالث (١٦٨٥ - ١٧٢٤) من آل دبّاس .

٧ ــ خزانة ميخائيل جد

امتاز ميخائيل جدّ بالطبابة فجمع في خزانته كل ثمين وقديم من المخطوطات الطبية أهمها كتاب « ديوان الطب » (٢) المعروف بالمائة تاليف ابي سهل عيسى بن يحيى المسيحي نُسخ في مجلدين سنة ٦٨٦ للهجرة (١٢٨٧ م) وكتاب « نور العيون وجامع الفنون » للشيخ ابي زكريا يحيى بن ابي الرجاء الطبيب . وكتاب « العمدة في الجراحة » تأليف ابن القف الكركي المسيحي شارح فصول بقراط . وهذه المخطوطة فريدة ثمينة تشتمل على صور بعض آلات الجراحة .

٨ ـ خزانة قسطاكي بك حمصي (١٨٥٨ - ١٩٤١)

قضى قسطاكي بك حمصي معظم عمره بين المحابر والاقلام فخلّف آثاراً ادبية وتاريخية وافرة بعضها مطبوع وبعضها غير مطبوع . وانتُخب عضواً في المجمع العلمي العربي بدمشق . واقتنى مكتبة تستحق الاعتبار اضاف اليها مكتبة خاله

---

(١) مجلة النعمة : مجلد ٢ صفحة ٥٩١

(٢) المخطوطات العربية لكتبة النصرانية : تأليف الاب لويس شيخو : صفحة ٢١

جبرائيل دلال (١٨٣٦ - ١٨٩٩) الشاعر الحلبي المشهور . وكانت خزانته غنية بالمطبوعات والمخطوطات النادرة التي ما ضن بها يوماً على الاصدقاء والادباء واهل البحث .

اما الآثار الادبية التي عرفناها لقسطاكي حمصي فتتلخص بما يلي : كتاب « منهل الورّاد في علم الانتقاد » في ثلاثة مجلدات . وكتاب « ادباء حلب ذوو الاثر في القرن التاسع عشر » . وكتاب « السحر الحلال في شعر الدّلال » . و « مرآة النفوس في الاخلاق والآداب » . و « ديوان شعر » من نظمه . و « رسالتان في اللغة وتصحيح اغلاطها » الى كثير من المقالات في مواضيع مختلفة نشرها في بعض المجلات . وفي اواخر ايامه شرع ينظم من كتاب « العهد القديم » ما استوحته شاعريته فنظم من آياته ما أناف على الف بيت فاجاد وابدع .

٩ - خزانة آل بيطار

ذكر الرّحالة فولناي انه عثر عند آل بيطار في حلب على مخطوطات تبحث في علم الفلك لا يقرأها ولا يفهمها احد منهم(١) . ولسنا ندري ما الذي جرى لتلك المكتبة بعد رحلة فولناي المشار اليه .

١٠ - مخطوطات الموسيقى والغناء في حلب

لا يزال بين ايدي نصارى حلب مخطوطات تشهد بعنايتهم بفني الموسيقى والغناء . لانه مرّ على مدينة الشهباء زمن كانت تحتل فيه المقام الاعلى في الفنين المشار اليها . ولا نغالي اذا قلنا ان رجال حلب هم الذين نفخوا في مصر روح الالحان العديدة الموضوعة قديماً او المقتبسة من مقطوعات وتواشيح واغاني لا تدخل تحت حصر . وكانت تتباهى الاجواق الحلبية بانشادها ولا تلاقي لها مباريا باتقان ذلك في سائر الاقطار العربية(٢) .

---

(١) رحلة فولناي الى الشرق : مجلد ٢ صفحة ٣٠٧ طبعة باريس سنة ١٨٠٧

(٢) رسالة العمال في حلب : السنة ٩ العدد ٩٩ الصفحة ١٠

سادساً : مكتبات اديار انطاكية

١ ـ مكتبة دير مار ايليا

يُعدّ دير مار ايليا او دير بنطاليمون من اقدم اديار المشرق وكان موقعه في الجبل الاسود ازاء انطاكية . وكان يحوي مكتبة حافلة بمخطوطات قديمة العهد أتلفتها الزلازل المتواصلة كما أتلفت مخطوطات غيرها من الاديار الكثيرة المجاورة. بيد ان صروف الحدثان ابقت من ذخائر دير مار ايليا ما لا يُحفل به : وقد استقرت بقايا تلك المخطوطات على قلتها في بعض مكتبات اوروبا بعد قرون عديدة ولاسيما في المكتبة الواتكانية بروما وفي المتحف البريطاني بلندن . نذكر منها مخطوطات لندن المنشورة في فهرسه(١) .

اما المكتبة الواتكانية فقد حوت كتاب اناجيل نُسخ في السنة ١٠٣٠ للميلاد. وورد في آخره ما نصه : « تمّت كتابة هذا الانجيل المقدس يوم الاربعاء ... على يد الضعيف ايليا القس العبوريّ بخط يده في دير انبا موسى بمدينة انطاكية سنة ١٣٤١ يونانية (١٠٣٠ م) » . يلي ذلك ما نصه : « اقول انا الانبا الياس تلميذ انبا موسى كتبتُ هذا الانجيل وسائر الكتب التي جلبتها معي من انطاكية العرب الى دير مار ايليا المعروف بدير كوكب الذي جرت عمارته على يدي(٢) .

٢ ـ مكتبة دير مار سمعان

لا يقل شهرة عن دير مار ايليا دير مار سمعان الواقع بين مدينتَي انطاكية وحلب . ويسميه الحلبيون لعهدنا هذا « قلعة سمعان » لان ابنيته الفخمة لا تزال بقاياها قائمة الى الآن كحصن منيع على قمة الجبل المعروف باسمه . ويحيط به اديار

(١) فهرس مخطوطات لندن : رقم ٢٥٠ و٣٣٤ و٤٠٠ و٤٠٨ و٤٨٦

(٢) فهرس مخطوطات المكتبة الوتكانية : رقم ١٩

خربة يؤمّها السيّاح من جميع اطراف المعمورة . ويدهشون بما يشاهدونه في دير سمعان من آثار الفن التي لا اثر لها في غيره من الابنية القديمة . وقد وصفه مؤرخ عربي بقوله : « بظاهر انطاكية دير سمعان وهو مثل نصف دار الخلافة ببغداد . وكان له من الانتفاع في كل سنة عدة قناطير من الذهب والفضة (١) » .

واشتمل هذا الدير ايام عزه على مكتبة عظيمة جمعها الرهبان منذ العصور الغابرة . وقد تلفت برمّتها في حريق اشار اليه ابو الفرج ابن العبري قال : « في نواحي السنة ٥٤٤ للمسيح احترق دير مار سمعان العمودي بكورة انطاكية وخرب خراباً تاماً » . واستتلى المؤرخ نفسه يسرد الحوادث التي جرت عام ٦٣٨ للمسيح قال : « لما كان جمهور المؤمنين رجالا ونساءً فتياناً وفتيات مجتمعين في دير مار سمعان العمودي يوم عيده هجم عليهم العرب وسبوهم جميعاً » (٢) .

وكان رهبان هذا الدير العظيم الوافرو العدد بعد كل نكبة تحل به يجدّدون خزائن مخطوطاته ويضيفون اليها غيرها ليستفيدوا ويفيدوا . غير ان هذه المكتبة الجديدة ادخلها الاتراك في خبر كان . فانهم بعدما دوّخوا قلعة حارم في آب السنة ١١٦٤ قصدوا دير مار سمعان وانتهبوهُ ولم يشفقوا على خزائن مخطوطاته الثمينة . يؤيد ذلك ما اثبته شاهد عيان وهو المؤرخ الرهاوي قال : « ابتزّ الاتراك كلّ ما كان في دير مار سمعان من ذهب وفضة وامتعة وكتب . واستولوا على الكؤوس والاطباق والصلبان والمباخر والصور الذهبية والفضية والسجوف الثمينة وسائر الاموال . واستأسروا الرهبان قاطبة واستاقوهم الى حلب (٣) » .

ولا تخلو بعض المكتبات في يومنا من مخطوطات نسخها او ألفها في هذا الدير فريق من رهبانه . من ذلك مخطوط شاهدناه في الخزانة المعلوفية عنوانه « رسالة الكافي في معنى الشافي » ألفه جراسيموس رئيس دير القديس سمعان العمودي . وقد اثبت فيه المؤلف آيات جمة من العهدين القديم والجديد ومن كتب اليونان .

---

(١) محاضرات المجمع العلمي العربي بدمشق : جزء ١ صفحة ٣٤٣

(٢) تاريخ الدول السرياني : صفحة ٨١ و ١٠١

(٣) تاريخ الرهاوي : طبعة السيد افرام رحماني : فصل ٤٤٣ صفحة ٣٣٨

الفصل الثالث

خزائن كتب فلسطين

اولا : مكاتب القدس

١ ـ مكتبة القبر المقدس ودير مار سابا واديار الاردن للروم الارثذكس

انشئت مكتبة القبر المقدس للروم في اورشليم منذ عهد بعيد . غير انها حُرمت الترتيب والعناية بل ظلّت عرضة للنهب والسلب حتى اوائل القرن التاسع عشر . ومن حسن الحظ ان الرهبان اليونان تنبهوا الى جمع شتاتها وصيانة ما سلم من ذخائرها العلمية الثمينة التي يرتقي عهد بعضها الى القرن العاشر للميلاد . ويبلغ الآن عدد مخطوطاتها نحو الثلاثة آلاف باللغات العربية واليونانية والسريانية قد وُضع لها فهرس مطبوع عام ١٨٨٣ يحتاج الى تدقيق(١) . واضيف اليها بتعاقب الاعوام مكاتب شتى اخصها مكاتب اديار النساطرة(٢) في اورشليم ومكاتب ديارات الاردن . ولاسيا مكتبة دير مار سابا الشهير .

يقع دير مار سابا شرقي جنوبي اورشليم على مسافة خمس ساعات منها مشياً على الاقدام . اسسه افتيموس (+ ٤٧٤) ثم خلفه في الرئاسة الراهب سابا

---

(١) مجلة الاثار : مجلد ٣ صفحة ٤٣٨

(٢) كان للنساطرة في اورشليم ثلاثة اديرة الاول على اسم مار انطونيوس القبطي والثاني على اسم الاثني عشر رسولا والثالث على اسم الفنطنوسطي . وذلك في سنة الف واربعمائة وخمس مسيحية (طالع تقويم قديم للكنيسة الكلدانية النسطورية للخوري بطرس عزيز : صفحة ١١ و١٢)

(+ ٥٣٢) الذي شيد ابنية هذا الدير فاشتهر باسمه . ومنذ الاجيال الغابرة انشئت فيه خزانة كتب ذاع صيتها في الآفاق لكثرة مَن سكنه او اختلف اليه من العلماء الاعلام والمؤلفين العظام . نخص منهم بالذكر يوحنا الدمشقي (+٧٤٨) الذي تنسك وصنّف وتوفي هناك .

وقد توالت المحن على هذه المكتبة في ازمنة مختلفة واقدمها طرأ سنة ٦١٤ عندما اقبل شذاذ البدو من شرقي بحر الميت فاستحوذوا على الدير وقتلوا اربعين من رهبانه . وفي القرنين الثامن والتاسع تعرّض البدو مرات شتى لهذا الدير فطوقه الرهبان بسور منيع لانقاذه من هجماتهم . وفي عهد الصليبيين خلا من الرهبان تقريباً وتهدم اكثر ابنيته . ولبث على هذه الحال حتى رممته الحكومة الروسية عام ١٨٤٠ على نفقتها . فعادت اليه الحياة النسكية وزادت ثروة مكتبته الغنية بالمخطوطات الشرقية .

وفي اوائل القرن العشرين نُقلت مكتبة مار سابا الى دير الصليب ولم تلبث ان ضُمت الى خزائن كتب القبر المقدس[١] . وقد أفتى الرؤساء بهذا التدبير ليجعلوا تلك الكنوز الكتابية في مأمن من كل اعتداء عليها في مستقبل الزمان .

وقد تطرّق المستشرق العلامة هنري لامنس الى ذكر هذه المكتبة عندما تكلم عن مكتبة دير البلمند التي سلف وصفها . ولا بأس من تكرار كلامه قال : « ولا نشك ان في عداد مخطوطاتها كانت تآليف عديدة سريانية كما ترى في غيره من اديرة الروم كمكتبة دير جبل سيناء ودير مار سابا حيث وجد زوّار الفرنج مصنّفات سريانية قديمة غالية الثمن[٢] » .

٢ ـ مكتبة الرهبان الفرنسيسين ومكتبات الرهبانيات اللاتينية

للرهبانيات اللاتينية بالقدس الشريف وفي طليعتها الرهبنة الفرنسيسية مكتبات

---

(١) Guide de Terre Sainte, page 306 309

(٢) تسريح الابصار في ما يحتوي لبنان من الآثار : جزء ١ صفحه ١٥٦

معتبرة كل الاعتبار . وهي لا تنطوي على كتب دينية فحسب بل على مخطوطات ووثائق ثمينة في شتى العلوم واللغات ايضاً . على انه ولئن كانت ادارة بعضها غير عربية والقسم الاوفر من كتبها غير عربي لكنها ترمي الى غرض يتعلق بالقدس وبسائر الاراضي المقدسة التي يتكلم معظم سكانها باللسان العربي .

واذا خصصنا الكلام بمكتبة الرهبان الفرنسيسيين قلنا انها أغنى مكتبات العالم بما حوته من الوثائق المتعلقة بالاراضي المقدسة . وقد حافظ عليها اولئك الرهبان محافظة شديدة منذ اكثر من سبعة قرون . ثم تفرغ بعض علمائهم منذ السنة ١٩٢٢ لنشر فهرس مستوفى لتلك الوثائق بلغتها العربية الاصلية مع ترجمتها الى اللسان الايطالي .

وتنطوي خزائن الرهبان الفرنسيسيين من هذا القبيل على ألفين وستمائة واربع واربعين وثيقة يرتقي تاريخ أقدمها الى عهد الملك الاشرف شعبان بن حسين سلطان مصر (٧٦٤ – ٧٧٨ ﻫ) اي (١٣٦٣ – ١٣٧٧ م) . ويشاهد المطالع في هذا الفهرس المدقق صور الوثائق والفرامين ونصوصها مع تواقيع الخلفاء والسلاطين والملوك المسلمين(١) الذين اليهم كان يرجع أمر الاراضي المقدسة في الحقبة المذكورة .

وكتب لنا حضرة البحاثة اللغوي الاب اوغسطين مرمرجي الراهب الدومنيكي ان مكتبة دير رهبنته بالقدس غنية بتواريخ الشرق الدينية والمدنية . وفيها كذلك كل ما يقتضي لدرس الالسنة السامية . كما ان هناك كتباً ثمينة قيمة لدرس تاريخ العرب واللغة العربية والدين الاسلامي .

واليك اسماء المكتبات اللاتينية في القدس مع عدد مجلداتها المخطوطة والمطبوعة :

		مطبوع	مخطوط
١	مكتبة الرهبان الفرنسيسيين	٤٨٬٠٠٠	١٣٠
٢	مكتبة البطريركية اللاتينية	٨٬٠٠٠	١٠٠

---

(١) Documenti e Firmani

٣ مكتبة الرهبان الدومنكيين	٤٥٬٠٠٠	
٤ مكتبة الرهبان الانتقاليين	١٥٬٠٠٠	
٥ مكتبة الآباء البيض بالصلاحية	١٠٬٠٠٠	١٠٠(١)
٦ مكتبة الرهبان البندكتيين بجبل الزيتون	٥٬٠٠٠	
	١٣١٬٠٠٠	٣٣٠

٣ ـ مكتبة دير مار يعقوب للارمن

يرتقي عهدها الى انشاء بطريركية الارمن الاورشليمية عام ١٣١١ للميلاد . وهي مكتبة حافلة بالكنوز العلمية كالرقوق والمصوّرات والبدائع مما يأخذ بمجامع الالباب . لكنه لا يرخّص لاي كان ان يتعهدها الا باذن خاص من البطريرك او نائبه . وتشتمل على ستة وعشرين الف مجلد مطبوع وعلى ثلاثة آلاف وخمسمائة مخطوط . وقد اخبرنا البطريرك العلامة اغناطيوس افرام الثاني (رحماني) انه تفقد هذه المكتبة سنة ١٨٩٣ اثناء المجمع القرباني . فعثر فيها على بعض المصاحف الارمنية المكتوبة على رق غزال بحروف سطرنجيلية(٢) .

٤ ـ مكتبة دير مار مرقس للسريان

هي من اقدم مكاتب القدس لان السريان ما برحوا منذ الحروب الصليبية ينصبون مطارنة من مذهبهم على الكرسي الاورشليمي(٣) غير ان ميخائيل الاول الكبير (+ ١٢٠٠ م) اثبت في تاريخ الازمنة(٤) اسماء مطارنة السريان الذين

---

(١) Philippe Gorra : Sainte Anne de Jérusalem, p. p. 184-185

(٢) ان هذه المصاحف ولئن كتبت بالحروف السطرنجيلية السريانية فانها تقرأ بلفظ ارمني . ومن هذا القبيل الكتابة الكرشونية وهي ان يكتب المصحف بحروف سريانية ويقرأ بلفظ عربي .

(٣) المكتبة الشرقية للسمعاني : مجلد ٢ راس ٢٢ صفحة ٣٧٤

(٤) اطلب « تاريخ الازمنة » الذي نشره المستشرق شابو في باريس : صفحة ٧٥٢

تتابعوا على كرسي اورشليم من ايام سرجيس (٥٣٩ - ٥٤١) اول بطاركتهم الى عهده . وكان مركزهم اول الامر في دير الجدلية . ثم انتقلوا الى دير مار مرقس فانشأوا فيه مكتبة آهلة بالمخطوطات والرقوق التي تلاعبت بها الايدي في آونة شتى وافقدتها الجانب الاعظم من ثروتها العلمية . وما خلا الكتب المطبوعة فقد ابقت الايام الى هذا العهد ثلاثمائة واثنين وستين مخطوطاً محفوظة بكل حرص في الدير المشار اليه .

وقد اطلعنا على فهرس تلك المخطوطات فوجدنا بينها عدداً وافراً مكتوباً على رق غزال . ومنها ما هو مزين بالصور الرائعة(١) . وفيها ايضاً صكوك وحجج قديمة وفرامين سلطانية وسطاتيقونات بديعة ورسائل خطيرة استند اليها بعض الباحثين في تواريخ المشرق ولاسيما بيت المقدس .

٥ - مكتبات الارساليات البروتستانية

للبروتستان في القدس ثلاث مكاتب مهمة ينصرف اربابها الى درس الكتاب المقدس والبحث عن العاديات النصرانية وهي : خزانة كتب الجمعية الاثرية الانكليزية . وخزانة كتب الجمعية الاثرية الاميركية وخزانة كتب المجمع العلمي الاثري البروتستنتي . وقد أنشئت لهذا الهدف في اواخر القرن التاسع عشر وصدر القرن العشرين . وعلى رغم ما بذلناه من الجهود فاننا لم نتوفق الى معرفة عدد مجلداتها . وهي وافرة بلا ريب لما نعلمه من سخاء الامتين الانكليزية والاميركية على المشاريع العلمية . وما اوردناه عن لغات الكتب في مكاتب الاديار اللاتينية بالقدس ينطبق بحذافيره على مكاتب الارساليات البروتستنتية ايضاً فوجب التنبيه .

---

(١) مقالة عنوانها « ثروتنا الادبية والتاريخية في مكتبة ديرنا مار مرقس في القدس » نشرت في جريدة « لسان الامة » بيروت بقلم ابرهيم حتوردي : في اعداد السنة ١٩٣٩

٦ ـ مكتبة جمعية الشبان المسيحية

انشئت هذه الجمعية عام ١٨٧٣ وما زالت سائرة في سبيل النجاح حتى توطدت اركانها عام ١٩٢٠ بهمة الدكتور ارشيبالد هارث الذي عززها ونظم شؤونها . ومرجعها اللجنة العالمية للجمعية المعروفة بهذا الاسم في مدينة نيويرك . ولها في في القدس بناية عظيمة تبرع بنفقاتها المستر جيمس نيوبكن جارفي من اغنياء مدينة مونتكلير التابعة لولاية نيوجرسي في الولايات المتحدة الاميركية . وقد جرى افتتاح هذه البناية رسمياً بتاريخ ٧ كانون الثاني ١٩٣٣

ولا يتسع المقام لوصف هذه البناية باسهاب لكثرة ما فيها من الدوائر والمعاهد المتنوعة . فالدائرة الرئيسية تنطوي على معهد الاحداث والمنزل والمطاعم والمكتبة وغرف المطالعة وغرف المحاضرات والمدرسة الليلية . تليها الدائرة العلمية وفيها اماكن لسبعمائة وخمسين شخصاً . ثم الدائرة الرياضية التي تشتمل على بحيرة للسباحة وقاعة فسيحة للالعاب الرياضية . واخيراً الملعب الكبير حيث المركض واماكن معدة لجلوس الفين وخمسمائة شخص من المتفرجين . وتبلغ نفقات الجمعية سبعة عشر الف جنيه سنويا .

ومكتبة هذه الجمعية حديثة العهد أنشئت لتغذية عقول الشبان بمطالعة الكتب المفيدة على اختلاف مواضيعها . وهي حسنة الترتيب والتبويب تحتوي على زهاء ثلاثين الف مجلد في اللغة العربية وبعض اللغات الاوروبية . اما مخطوطاتها فقليلة جداً .

ثانياً : مكتبات عكا وحيفا

١ ـ مكتبة دير الكرمل

نضيف الى ما سبق ذكره مكتبة دير الكرمل في حيفا . وهو من اقدم اديار

الشرق واشهرها واغناها يرتقي عهد تأسيسه الى القرن الثاني عشر للميلاد . وحلّت به نكبات جمة في آونة مختلفة . اما اعظمها فقد حدثت في شهر ايار سنـة ١٢٩١ ميلادية عندما استولت عساكر الملك المنصور على دير الكرمل ودمرته واعملت السيف في جميع سكانه(١) . ولم يبق حينئذ من خزائن مخطوطاته المكتوبة على رق غزال كتاب واحد .

وسنة ١٧٧٤ خرج محمد بك ابو الذهب والي مصر على راس جيش كثيف فافتتح بلاد فلسطين وارتكب فيها من القتل والنهب والفظائع ما لا يقع تحت حصر(٢) . ثم أغار على دير النبي ايليا في الكرمل فنهبه وقتل من وجد من رهبانه وهدمه فامتلأ بذلك كيل بغيه . هكذا نُكبت ايضاً مكتبة الدير على يد هذا الطاغية الذي سقط مغشياً عليه بينما كان متكئاً في مظلته بجوار الكرمل . وكان يصرخ: «ردوا عني هذا الشيخ المفترس » والناس لا يرون احداً حوله . وما عتم ان مات محمد ابو الذهب فشاع بين العامة ان ايليا النبي خنقه لهدمه ديره .

ولما عاد الامن الى نصابه اعاد رهبان الكرمل بنيان ديرهم وجددوا فيه تلك المكتبة التي تحتوي الان على مخطوطات شتى وسجلات ووثائق وعهود وصكوك يرجع اليها اهل البحث في تدوين بعض حوادث البلاد الشرقية .

ولما وقعت الحرب العظمى (١٩١٤ - ١٩١٨) أمسى دير الكرمل حصناً للعساكر التركية ففقد بعض كنوزه العلمية والفنية . ولعل المسلوب هو المخطوطات العربية التي ضمت الى مكتبته من سالف الزمان . واغلب ما فيها الآن كتب افرنجية رُصفت في عشر خزائن كبيرة لا يقل قياس الخزانة عن مترين ارتفاعاً وثلاثة امتار عرضاً(٣) .

---

(١) Le Sanctuaire du Mont-Carmel, par le P. Julien, P. 114-116

(٢) تاريخ مصر الحديث لزيدان : مجلد ٢ صفحة ١٣٦

(٣) مخطوطات دير الكرمل في حيفا بقلم جميل البحري (مجلة المجمع العلمي العربي بدمشق : مجلد ٦ سنة ١٩٢٦ صفحة ٣٢٠

٢ ـ مكتبة مطرانية الروم الكاثوليك

انشأ هذه المكتبة مطارنة الروم الكاثوليك الذين تسلسلوا في كرسي عكا منذ مطلع القرن التاسع عشر . وكانت في اول عهدها ضئيلة لا تحتوي الا مخطوطات دينية وطقسية وبعض مطبوعات ذلك العهد . ثم اخذت تلك المكتبة تتعزز رويداً رويداً .

ومن الدواعي التي ارتكزت عليها مكتبة مطرانية عكا كتبة وحسبة نجباء من الروم الملكيين اشتهروا في تلك المدينة بامانتهم واستقامتهم ومعارفهم . وقد تولوا معظم الاعمال والمصالح في ديوان الولاية منذ عهد الشيخ ظاهر العمر الزيداني في سلخ القرن الثامن عشر(١) حتى عهد الوزراء خلفائه . هكذا نبغ بينهم آل صباغ ونحاس وايوب وفرعون وسعد وعورا وخوّام وصابونجي وفرح وعزام والملك وقالوش وغيرهم . وقد طالعنا لبعض افرادهم مؤلفات واثاراً خطية دلت على براعتهم في التاريخ والادب والطب وجودة الخط . غير ان هذه المكتبة ادركها الجمود والتقهقر على اثر سقوط مدينة عكا عام ١٨٣١ بيد ابرهيم باشا المصري وانضمامها الى ايالة صيدا .

وعندما تولى السيد غريغوريوس حجار كرسي مطرانية عكا (١٩٠١-١٩٤٠) جعل مركزه في حيفا بدلا من عكا . فانشأ في تلك المدينة خزانة كتب غنية بمؤلفات مهمة علاوة على مكتبة اسلافه المطارنة في عكا كما نوّهنا(٢). ومن مخطوطات هذه الخزانة انجيل قديم مزيّن بالصور وُجد في تركة رجل الخير بشارة خوري (١٨٣٨ ـ ١٨٩٨) في بيروت . وقد افادتنا ارملته المرحومة ملكة موصلي ان المطران غريغوريوس طلب منها هذا الانجيل النفيس فنفحته به عام ١٩٠٦ .

وامتاز هذا الحبر الجليل بعلم واسع وعارضة قوية في الخطابة . واجمع النصارى والمسلمون على محبته واحترامه فكانوا يسمونه « المطران العربي ». وقد توفاه الله مساء ٣٠ تشرين الاول ١٩٤٠ على اثر حادث سيارة فأودت بحياته رحمه الله تعالى .

---

(١) المخطوطات العربية لكتبة النصرانية : تأليف الاب لويس شيخو : صفحة ١٣٢

(٢) مجلة « الرسالة المخلصية » في صيدا : مجلد ٨ سنة ١٩٤١ صفحة ١٤

الفصل الرابع

خزائن كتب ما بين النهرين

اولا : مكتبات الرها

١ ـ المكتبة الملكية

الرها وقد سمّاها اليونان « اذسّا » ويقال لها الآن « اورفا » مدينة في قلب بلاد ما بين النهرين كانت تُعدّ من اكبر عواصم العلم واقدمها في العصور الخوالي. وقد مرّ بنا ذكر مدرستها الذائعة الصيت[١] التي أنشئت في القرن الثاني للمسيح. وتخرّج فيها خلق كثير من اعظم جهابذة المشرق. وما عدا تلك المدرسة التي طبّق اسمها الخافقين فان مدينة الرها كانت تشتمل على عدة مكاتب. اشهرها مكتبتها الملكية التي كان يرتقي عهدها الى ما قبل التاريخ المسيحي. ولنا على ذلك شهادة صريحة دوّنها اوسابيوس القيصري (٢٦٧ — ٣٤٠ م) امام المؤرخين في تاريخه[٢] قال ما تعريبه :

« نرى في مصاحف الرها بيّنات نقلت عن الوثائق المحفوظة هناك مذ اصبحت تلك المدينة عاصمة المملكة (الابجرية) . وكانت تلك المصاحف تشتمل على وقائع جرت من زمن الاسلاف الى عهد الملك أبجر . وما برحت المصاحف مصونة في الرها الى زماننا الحاضر[٣] . فلا نرى مانعاً من سرد هذه البيّنات التي نقلناها عن

(١) طالع الفصل الذي كتبناه بعنوان «ثقافة شعوب البلاد التي افتتحها العرب »

(٢) كتاب ١ خبر ١٣ صفحة ٦٨ ـ ٦٩ طبع بيجان

(٣) يشير المؤرخ اوسابيوس بذلك الى عهده اي الى القرن الرابع للمسيح

وثائق مكتبتها[1] وترجمناها بالحرف الواحد من اللسان السرياني الى اليوناني » .

والخلاصة ان مدينة الرها عاصمة الملوك الاباجرة كانت تحوي مكتبة عامرة عنوانها « خزانة دار الملك » احتاج غير واحد من مشاهير الكتبة الى استنساخ كثير من محفوظاتها ومخطوطاتها[2].

وكانت هذه المكتبة تزداد نمواً بتوالي الايام لشدة تزاحم العلماء على ورود مناهلها . وناهيك انه كان في جبل الرها وحده ثلاثمائة دير [3] يسكنها تسعون الف راهب انقطع اغلبهم الى العلم والتأليف ونساخة الاسفار المقدسة وتنميق المخطوطات وتجليدها . ويمكننا القول بكل امان ان مدينة الرها بلغت أوج المجد في عصر مدرستها الشهيرة الذي سمّاه العلماء « عصر الرها الذهبي » . وظلت العلوم زاهرة في هذه المدرسة حتى انطفأ سراجها الوهاج عام ٤٨٦ بأمر زينون ملك الروم . واضبحت مكتبة الرها مرجعاً عمومياً يؤمه الكتبة والائمة من مختلف الاقطار وينقلون عن مخطوطاتها الثمينة ما يحتاجون اليه من مواضيع طبيـة وفلسفية ودينية وفلكية وأدبية وغيرها .

٢ ـ نساخة الكتب ومعامل الرقوق في الرها

ذكرت التواريخ القديمة ان كسرى ابرويز ملك فارس (٥٨٩ — ٦٢٧ م) أحسن معاملة النصارى وأطلق الحرية لعظماء دولته ان يدينوا بالدين الذي يؤثرونه . ولم يكتف بذلك بل شيّد ديراً فخماً أسماه « دير شيرين » تيمناً باسم امرأته الملكة شيرين النصرانية . ثم بعث كتاباً الى الرها فنسخوا له عدة كتب استحضرها الى بلاد فارس ووزعها على المعاهد العلمية والدينية[4] .

---

(١) في الاصل بيت اركا ومعنى هذا اللفظ اليوناني الاصل : دار السجلات او دار الكتب

(٢) المباحث الجلية في الليتورجيات الشرقية والغربية : للبطريرك اغناطيوس افرام الثاني : صفحة ٣١

(٣) صبح الاعشى : مجلد ٤ صفحة ١٣٩

(٤) اخبار الجاثليق سبريشوع (٥٩٦ ـ ٦٠٤ م) صفحة ٣٠٦ طبع بيجان

وأيد المؤرخ توما المرجي هذه الرواية فكتب ان كسرى ملك فارس المشار اليه أوفد الى الرها رجلاً نبيلاً يقال له « شمطا » بن يزدين . وكلفه ان يجلب منها نسخاً من الكتاب المقدس ومن كتب الطقوس والقراآت لتكون وقفاً على دير شيرين الذي أسسه كسرى عينه في ناحية بلَشْفر . فانتهز « شمطا » تلك الفرصة ونقل من الرها كمية وافرة مما اشتملت عليه مصانعها من رق الغزال لاجل نساخة الكتب . ومن ذاك الحين طفق رؤساء الدير ورهبانه ينسخون الكتب على الرقوق الرهاوية . قال توما المرجي المذكور : اتضحت لنا تلك الحقيقة من مطالعتنا اغلب كتب الدير حيث قرأنا العبارة التالية : « وقف هذا الرق مار شمطا بن يزدين عميد النصارى[1] » .

نستنتج مما سبق ان الرها مثلما اشتهرت في غابر الاحقاب بمدارسها ومكتباتها ومعاهدها العلمية ومنزلتها الادبية اشتهرت ايضاً بما احتوته من معامل الرقوق تعزيزاً للمعارف وتسهيلاً لنشرها بين الخاص والعام . ذلك ما حدانا على ان ننظم هذين البيتين تخليداً لسالف عظمة الرها وحضارة بغداد في عصر المأمون . وقد نقشناهما في مدخل دارالكتب ببيروت فقلنا :

للكتب أنشئ مقدسٌ اوحى لنا عصر الرها ومآثر المأمونِ
في بابه ازدحمت أساطين النهى سعياً وراء الجوهر المكنونِ

٣ ـ فواجع مكتبات الرها

عرض لمكتبات الرها من الخطوب الفظيعة بسبب المنازعات المذهبية والفتوحات الدولية ما عرض لغيرها من مكتبات المدن الشرقية . من ذلك ان

(١) كتاب الرؤساء : ميمر ١ راس ٢٣ صفحة ٣٦ و٣٧

ربولا اسقفها (+ ٤٣٥ م) الذي اشتهر عنه الغلو بالدين جمع نسخ كتاب العهد الجديد المعروف بالدياطسرون[١] وأحرقها باسرها .

ثم مُنيت الرها بنكبات جمة اشدها نكبة نور الدين زنكي التركي . فانه احتلها يوم السبت ليلة عيد الميلاد سنة ١١٤٥ م بعدما دك عساكره اسوارها اذ دعموها باخشاب دهنوها بالنفط والشحم والكبريت . ولما اضرموها بالنيران هبّت ريح شمالية قلبت الدخان على الاهالي فمات خلق كثير قتلاً وخنقاً . ولبث جنود زنكي ينهبون المدينة مدة ثلاثة ايام بعدما وضعوا السيف في الشيوخ والفتيان والكهنة والرهبان والراهبات والعذارى والنساء والرضعان والعرائس[٢] . وبلغ عدد القتلى زهاء ثلاثين الفاً . وسبى الترك ستة عشر الفاً وأفلت الف رجل ولم تفلت امرأة ولا صبي واحد[٣] .

ويتبادر الى الظن ان نكبة زنكي اجهزت على مكتبة الرها الحافلة بالمخطوطات العربية ان لم تكن قد اجهزت عليها نكبة او نكبات سابقة . غير ان المؤرخين اضربوا عن ذكر ذلك ولم يشيروا اليه كثيراً او قليلاً .

٤ - شيوع اللغة العربية في الرها

على ان اللغة العربية كانت شائعة في الرها كما كانت شائعة في مدينة حرّان المجاورة لها . فقد اثبت الجاحظ والهمذاني ان باب الرها كان من جملة الابنية التي نُقشت عليها كتابة عربية . ومما يؤيد شيوع اللغة العربية في الرها ما دوّنه المؤرخ

---

(١) المراد بالدياطسرون مجموع الاناجيل الاربعة في انجيل واحد . وقد جمعها على هذه الصورة ططيانس الآثوري في القرن الثاني للميلاد . فاستعملته بعض الكنائس النصرانية حتى القرن الخامس . وهذا الكتاب شرحه مار افرام الكبير . ثم فقدت نسخته الاصلية . انما حفظت ترجمته في اللغتين العربية والارمنية . اما الترجمة العربية فمنسوبة الى ابي الفرج بن الطيب البغدادي النسطوري

(٢) الحروب الصليبية في الآثار السريانية : للخوري اسحق ارملة : صفحة ١٠٢

(٣) ميخائيل الكبير : صفحة ٦٣٧

هاوي الشاهد العيان عن باسيل مطرانها لما عاتبه زنكي على تمنعه عن تسليم البلد.
جابه المطران باللغة العربية الفصحى يقول : « كذا شاءت العناية الربانية ان
ب انت وننكسر نحن ولا نحنث في يميننا وعهدنا مع الفرنج . وسنحافظ على
ودنا معك لانه تعالى شاء ان نكون لك عبيداً(١) » .

٥ ـ استنقاذ قرآن مكتوب بحروف سريانية في نكبة زنكي

ومما يؤيد كذلك شيوع اللغة العربية في ذلك العهد بين نصارى الرها فضلاً عن
سلميها كتاب قرآن قديم العهد نجا من نكبة زنكي المذكورة وقد نسخه كاتب
رياني بحروف كرشونية(٢) لاستعماله الخاص . وهذا الكتاب النادر الذي اطّلعنا
يه بذاتنا محفوظ الى هذا اليوم عند احد مهاجري النصارى في القدس . وقد
تمّت اليه في آخره عدة صفحات كرشونية تشتمل على وصف احتلال زنكي
ـينة الرها .

٦ ـ مكتبة السريان

وبتوالي الازمنة انشأ السريان في الرها مكتبة حوت مخطوطات كثيرة كُتب
سم صالح منها على رق غزال . بينها « تاريخ الازمنة » لميخائيل الكبير نشره
لمستشرق شابو الفرنسي عام ١٩٠٠ في باريس . وبينها كذلك صكوك قديمة العهد
واناجيل شتى ومواعظ يوحنا فم الذهب وباسيليوس وتآليف اخرى لآباء الكنيسة .
ذلك كله مكتوب على رق بخطوط مستظرفة .

وعندما أجلي السريان كسائر النصارى عن مدينة الرها بامر الحكومة التركية

---

(١) راجع كتاب الحروب الصليبية : فصل ٣٣ صفحة ١٠٣

(٢) الكتابة الكرشونية هي حروف سريانية تقرأ بلفظ عربي ويستنتج من ذلك ان ناسخ هذا المصحف مع خبرته باللغة العربية كان يجهل الكتابة بحروفها

عام ١٩٢٢ نقلوا معهم تلك المخطوطات النفيسة الى حلب والى غيرها من المدن التي توطنوها . غير انهم ما لبثوا ان تصرّفوا في اكثرها لما انتابهم من الفقر في ترحيلهم عن اوطانهم قسراً .

ثانياً : مكتبات آمد (ديار بكر)

١ ـ المكتبة البطريركية

اصبحت مدينة آمد (ديار بكر الحالية) منذ القرون الوسطى مركزاً للبطاركة قبل انتقالهم الى دير الزعفران سنة ١١٧٦ في عهد ميخائيل الاول الكبير (+١٢٠٠) لان بلاد سوريا وما بين النهرين والعراق وكردستان وفارس كانت آهلة بالملايين من ابناء هذه الملة ومن اخوانهم الملكيين والنساطرة . وفيها شُيّدت اديارهم واشتهرت مكاتبهم وازدهرت مدارسهم كمدرسة قطسفون (المدائن) والحيرة والرها وحرّان ودير تل عدا وقنسّرين وملطية وغيرها . واقبل الطلاب فيها على اقتباس اللغة العربية . وعلموها في مدارسهم ومعاهدهم وكتبوا فيها تآليف لا تحصى.

وكان علماء اليعاقبة والنساطرة والملكيين في طليعة الكتّاب الذين استند اليهم الخلفاء العباسيون في تأسيس النهضة العلمية في الدولة العربية . فغدا من البديهي ان يكون المركز الديني الاعلى للملة اليعقوبية في آمد مركزاً علمياً ايضاً لوفرة المؤلفين الذين نبغوا منها في جميع الاعصار والامصار . وبتكاثر عدد المصنفين والنساخين تكاثر عدد المصنفات والمخطوطات التي جُمعت في مكتبة واحدة .

وظلت هذه المكتبة تزداد نمواً سنة فسنة بهمة البطاركة وسخاء العلماء حتى استولى الملك صلاح الدين الايوبي سنة ١١٨٣ م (٥٧٩ للهجرة) على آمد . وقد روى ابن العبري المفريان الشهير في تاريخه السرياني المدني[١] ما تعريبه : « لما فتح

(١) التاريخ السرياني المدني : صفحة ٣٦٢ من طبع الاب بيجان

صلاح الدين مدينة آمد عام ١١٨٣ م وجد في المكتبة الف الف واربعين الف مجلد. فاستحوذ عليها باجمعها وسلّمها الى كاتبه القاضي الفاضل » .

يتبادر الى ظننا ان المفريان البحاثة أراد بهذا القول المكتبة الخاصة ببطريركية الملة التي كان هو من كبار رؤسائها واعلام علمائها . لانه ذكرها باهتمام دون غيره من المؤرخين المعاصرين . ويغلب على ظننا ايضاً ان عدد مجلدات هذه المكتبة مبالغ فيه بل مشكوك في صحته . غير اننا نجلّ عالماً ومؤرخاً مدققاً كابي الفرج ابن العبري عن ان يقع في مثل هذا الغلط الفادح الذي لا يرضى به المنطق ولا يسلّم به العقل . ونعتقد ان هذا الغلط ناتج عن جهل النساخ او عن قلة امانتهم في النسخ . وبكل الاحوال لا يقلل ذلك من قيمة مكتبة آمد التي كانت بلا ريب من اهم خزائن عصرها ومن اغناها واشهرها .

٢ ـ مكتبتا دير مار يوحنا ودير ابي غالب ـ

ما عدا المكتبة البطريركية العظيمة السابق ذكرها فقد اشتهرت آمد بمكتبتين اخريين كبيرتين : احداهما مكتبة دير مار يوحنا القديم العهد(١) وكان يشغله عدد وافر من الرهبان منذ القرن الرابع للميلاد . وما برحت آثاره ظاهرة حتى الآن ضمن سور تلك المدينة المشهور بحصانته وضخامته .

اما المكتبة الثانية فكانت في دير ابي غالب الذي يُقال له ايضاً « دير مائدة الملوك » بجوار آمد(٢) . وفيه انزوى بعض بطاركة السريان في القرون الوسطى هربا من ضغط ملوك القسطنطينية وتعنتهم .

ولسنا ندري كيف بادت هاتان المكتبتان العامرتان وفي اي عصر تلفتا . انما عفا الدهر عن طائفة صالحة من مخطوطاتهما حُفظت في بعض مكاتب اوروبا .

---

(١) يؤيد قدامة هذا الدير وخطورته ان قباد ملك الفرس (٤٨٨ - ٥٣١ م) قد خربه كما ذكر المؤرخ الرهاوي (فصل ٥١ صفحة ١١٢) وابو الفرج ابن العبري في تاريخ الدول السرياني صفحة ٧٦ (٢) الزهرة الزكية للقس اسحق ارملة : صفحة ٦٨.

٣ - مكتبات الملل المسيحية بديار بكر في العصور الاخيرة

وبعد ذلك انشأ كل من الملل النصرانية في دياربكر مكتبة آهلة بالمطبوعات ومخطوطات قديمة كُتب الكثير منها على رق غزال . وقد اثبت لنا ذلك مراراً السيد ماروثا بطرس طوبال (+ ١٩١٥) مطران تلك المدينة . وعلى رغم ما اصابها من النكبات عدّدها لنا كما يلي :

اولاً : مكتبة السريان تحتوي على ثلاثمائة وخمسين مخطوطاً .

ثانياً : مكتبة الروم الارثذكس التي لا يقلّ عدد مخطوطاتها عن المائة والعشرين

ثالثاً : مكتبة السريان الكاثوليك وفيها مائة وستة عشر مخطوطاً .

رابعاً : واهم المكتبات السابقة الذكر مكتبة الكلدان تشتمل على مائة وستين مخطوطاً . يرتقي عهد بعضها الى القرن الثامن بينها ٤٤ مخطوطاً عربياً . وفي الرقم ٢٣ مخطوط ألفه يعقوب الرهاوي فحواه شرح تكوين الدنيا نُسخ في الرها بتاريخ ٥ ايار سنة ٨٢٢ للميلاد على رق غزال وقد نشره المستشرق مارتين . وفيها ايضاً مخطوط في الديانة النصرانية وتعاليمها وآدابها لابن التلميذ وغير ذلك مما يعز وجوده كبعض المطبوعات القديمة(١)

وفي المكتبة ذاتها ترى تحت الرقم ١٢٨ و١٢٩ كتاب « فردوس النصرانية » تأليف الشيخ الفاضل القس ابي الفرج عبدالله بن الطيب – نُسخ في ٢٦ ربيع الاول سنة ٧٣٣ للهجرة – وفيها ايضاً « الانجيل المقدس بشارة متى الرسول » بنقل الشيخ الفاضل القس ابي الفرج عبدالله بن الطيب . اول كلمة من الفصول مكتوبة بحروف ذهبية . وقد كتب عليه باحرف ذهبية ما نصه : « الجزء الاول من الانجيل الطاهر بشارة متى الرسول رسم خزانة الصدر الاجل الاوحد الافضل

---

(١) سياحة من بيروت الى الهند بقلم لويس شيخو (المشرق مجلد ١٥ سنة ١٩١٢ صفحة ٦٢١)

الاكمل الموفق الاسعد المحترم مختص الدولة امين الملك اختيار الملوك والسلاطين فخر الاماثل مجد الكفاة والرؤساء تاج الكتاب ابي البركات الفضل بن مواهب بن ابي البركات بن مواهب بن ابي منصور ابن البحري » . دخل بملك كنيسة ديار بكر سنة ١٥٥٤ .

وفي هذة المكتبة الكلدانية اكثر من عشرين مخطوطاً على الرق ايضاً . وقد وصفها السيد ادى شير مطران سعرد في فهرس خصوصي نشره سنة ١٩٠٧ في الموصل .

ومنذ اعلان الحرب العظمى (١٩١٤ – ١٩١٨) اخذت الحكومة التركية تضيّق على اهالي ديار بكر الذين لا يمتّون الى العنصر التركي بالدين والجنس فاضطر هؤلاء الى النزوح عن مسقط راسهم . وهكذا تفرقت مكتباتهم التي اتينا على ذكرها بتفرقهم في بلدان مختلفة .

ثالثاً : مكتبة ملطية

ملطية مدينة شمالي حلب بميلة الى الشرق على نحو سبع مراحل منها . اشتهرت بدير من اعظم اديار السريان واقدمها يقال له دير برصوما . وكان يشتمل على مدرسة زاهرة نبغ فيها رهط من اعاظم العلماء الذين صنّفوا الكتب في اللغات العربية والسريانية واليونانية وغيرها نخصّ منهم بالذكر : اغناطيوس الملطي الفصيح . ويوحنا سعيد ابن صابوني (+ ١٠٩٤) وشقيقه باسيل ابا غالب (+ ١١٢٩) ويوحنا ابن اندراوس (+ ١١٥٦) وديونوسيوس يعقوب ابن الصليبي (+ ١١٧١) . والبطريرك ميخائيل الكبير (+ ١١٩٩) . وثاودورس بن وهبون (+ ١١٩٣) والربّان ابدوكوس مؤلف المعجم المعروف باسمه . والمفريان ابن العبري (+ ١٢٨٦) الذئع الصيت ووالده اهرون المتطبب وشقيقه المفريان برصوما الخ .

وكان دير برصوما يحوي خزائن مخطوطات نفيسة وصف بعضها الخورفسقفوس

اسحق ارملة(١) وغيره من المؤلفين . وقد نهب الصليبيون محتويات هذا الدير كما روى ميخائيل الاول الكبير في تاريخه حيث قال ما ملخصه : « ان جوسلين صاحب الرها اقبل بعساكره في يوم السبت ١٨ حزيران ١١٤٨ م الى دير برصوما. فاستولى عليه وجمع كل ما فيه من الامتعة الثمينة والمخطوطات والاواني البيعيّة بأسرها . وضم اليها امتعة دير مار ابجاي ودير سرجيسية ومادبق وحرصفنا التي كانت نُقلت الى دير برصوما وحملها على بغال الدير . ثم عاد صباح الغد وامر بتفتيش الغرف تكراراً وحمل على الجمال والبغال سائر الامتعة حتى الطواجن والقدور النحاسية(٢) .

اطّلعنا على بعض مخطوطات قديمة كُتِبت في ملطية وقد سلمت من التلف والضياع نذكر منها : كتاب « خطب سويرا » (٣) وكتاب « جناز الموتى المؤمنين والكهنة » كانت نساخته في ملطية سنة ١٩٠٠ يونانية (١٥٨٩ م) . واشتمل هذا المخطوط في آخره على خطب عربية بليغة نرجّح انها من تآليف يوحنا السابع عشر البطريرك (١٢٥٣ - ١٢٦٣ م) المعروف بابن المعدني . وقد اهدينا هذا الكتاب النادر في ٢١ كانون الثاني ١٩٣١ الى مكتبة دير الشرفة بلبنان(٤) .

رابعاً : مكتبات اديار زابار

كان بالقرب من ملطية اديار كثيرة في جملتها اربعة عُرفت باديار زابار . استولى عليها جوسلين صاحب كيسوم . وكانت تلك الاديار حافلةً بخزائن المخطوطات . فلما قُتل جوسلين امير الصليبيين سنه ١١٤٩ زحف ابن غازي امير ملطية واستحوذ على الاديار المذكورة . ثم احتلّ ما حولها من القرى وسبى سكانها وكانوا سبعة آلاف واربعمائة نسمة . وابتزّ اموالها الطائلة واحرقها وأتلف ما احتوت عليه من الخمر والزبيب والتين والجوز والطحين والحبوب . واحرق معها مخطوطات شتى(٥) .

---

(١) المدارس والمكاتب السريانية : صفحة ٥ و٩ (٢) تاريخ ميخائيل الكبير : صفحة ٦٤٢
(٣) فهرس مخطوطات لندن : عدد ٦٨٦ صفحة ٥٤٧ (٤) الطرفة في مخطوطات دير الشرفة : صفحة ١٥٦ - ١٥٧ (٥) الحروب الصليبية : صفحة ١٢٩

خامساً : مكتبات ماردين

١ ـ مكتبة الكلدان

تشتمل هذه المكتبة على مائة واربعة كتب مخطوطة في مواضيع شتى ما عدا المطبوعة . بينها مخطوطات مدبجة بالنقوش البديعة والتصاوير الرائعة . ومنهـا مخطوطات مكتوبة على رق غزال اهمها كتاب « كليلة ودمنة » الذي نقله عن البهلوية تواً البريذوط بود النسطوري في القرن السادس[١] وقد نشره المستشرق الالماني غوستاف بيكل سنة ١٨٧٦ وعلق عليه . ومنها كتاب اسحق النينوي[٢] المنسوخ سنة ١٢٣٥ للميلاد على رق غزال ايضاً . وهذا الكتاب نقل الى اللغـة العربية ومنه نسختان في خزانة مخطوطات دير الشرفة : احداهما مكتوبة عـلى الرق في دير السيدة بصعيد مصر في السنة ١٢٥٦ مسيحية وهي سنة ٩٩٨ للشهداء . واغلب الالفاظ في هذين المخطوطين غير منقطة مما يبرهن على قدمهما[٣] . ومنهـا كتاب مار بولس نسخ في دير مار مرقوريوس بمصر سنة ١٠٦٢ للشهداء (١٣٤٥م)

ويؤثر عن السيد ايليا ملوس مطران ماردين على الكلدان (+ ١٩٠٨) انـه كان شديد الحرص عـلى هذه الثروة العلمية . وقد بلغ به الكلف بمصنفات ابن العبري (+ ١٢٨٦) الى ان نسخ منها بيده ما ينيف على عشرين مجلداً ضخماً وضمها الى خزانة كتب مطرانيته الغنية بالتآليف القديمة[٤] . وعلاوة على ذلك استكتب المطران نفسه مخطوطات ضخمة اهداها الى بعض الخزائن في الشرق والغرب .

٢ ـ مكتبة السريان الكاثوليك

تحتوي على اكثر من مائة مخطوط بالعربية والسريانية بعضها يستحق الذكر .

---

(١) روبنس دوفال صفحة ٢٥٠ و٣٣٢ (٢) نشره بولس بيجان عام ١٩٠٩
(٣) المشرق : مجلد ١٢ سنة ١٩٠٩ صفحة ٢١٩ ـ ٢٢٠ (٤) المشرق : مجلد ١ سنة ١٨٩٨ صفحة ٤٤٩

واكثرها لكتبة النصارى(١) بينها رسائل مار بولس مكتوبة في القرن الثامن على رق غزال . اما الكتب المطبوعة فكثير عددها بينها مجموعة (مين) الشهيرة . ثم الكتاب المقدس المطبوع في باريس في تسعة مجلدات ضخمة وهو المعروف بالبوليغلوتا . وقد نُقل قسم من هذه النفائس الى المكتبة البطريركية السريانية ببيروت في الآونة الاخيرة . وبين تلك النفائس فرامين سلطانية وبراآت بابوية تتعلق بالملة السريانية . وكان لدير مار افرام بماردين مكتبة عامرة بالمطبوعات والمخطوطات التهمتها النيران عام ١٩١٧ اثناء الحرب العظمى فكان الاسف على خسارتها شديداً .

٣ ـ مكتبة الارمن الكاثوليك

هي من اقدم المكتبات النصرانية في ماردين انشأها الارمن في القرن السادس عشر قبل عهد وصالهم مع كنيسة رومية . وقد انطوت على مخطوطات وافرة في اللغات العربية والتركية والارمنية بينها رقوق نفيسة . ومركزها في كرسي مطارنة الملة المذكورة الذين ضموا اليها كثيراً من الكتب المطبوعة ذات المواضيع المختلفة . ونُكبت هذه المكتبة مراراً بفقدان اثمن محتوياتها ولاسيما اثناء مذابح الارمن المشهورة . ومنذ الحرب العظمى (١٩١٤ – ١٩١٨) استولت عليها الحكومة التركية فانشأت منها ومن مكتبات اخرى مكتبة عامة في ماردين يرتادها القراء والباحثون على اختلاف طبقاتهم .

سادساً : مكتبة دير الزعفران

١ ـ ثروة مكتبة دير الزعفران

يُعدّ دير الزعفران المجاور لماردين من اهم الاديار النصرانية واقدمها في ما بين

---

(١) الاب لويس شيخو : سياحته من بيروت الى الهند (المشرق : مجلد ١٥ سنة ١٩١٢ صفحة ٣٠٥)

النهرين . وقد اتخذه بطاركة السريان مركزاً لهم منذ القرن الثاني عشر فزادوا ابنيته الفخمة وانشأوا حوله القرى والبساتين والكروم والمزارع . ثم جمعوا فيه كل ما خلّفه اسلافهم او وصلت اليه ايديهم من الآثار والوثائق والمخطوطات المكتوبة على رق غزال وغيره . نخص بالذكر منها الفرامين والصكوك التي منحها الخلفاء العباسيّون وملوك ماردين الارتقيون وملوك التتر وسلاطين آل عثمان للبطاركة المشار اليهم .

وما عدا تلك الصكوك الثمينة القديمة فقد اشتمل هذا الدير على خزائن حوت كثيراً من نوادر المخطوطات العربية والسريانية والفارسية واليونانية والتركية . ويعود الفضل في احرازها اولاً الى اغناطيوس خليفة حنانيا الذي كان اسقفاً على ماردين في اواخر القرن الثامن للتاريخ المسيحي . فان اغناطيوس هذا انشأ في دير الزعفران منذ السنة ٨١٦ مكتبةً ثمينةً وابتنى لها فيه معاهد خاصة . ومذ ذاك العهد اصبح يؤمّها روّاد البحث وطلاب المعارف من كل طبقة وصقع .

وعلى توالي الاحقاب ازداد عدد تلك الذخائر الكتابية حتى تولى رئاسة الدير يوحنا اسقف ماردين (+ ١١٦٦) مسيحية . فجدّد ما اندثر منها وضمّ اليها كل ما وصلت اليه يده من المخطوطات النفيسة . في جملتها اربع نسخ كاملة من اسفار العهد الجديد كتبها يوحنا بخط يده بحروف ذهبية وفضية(١) .

ثم زادت ثروة هذه المكتبة زيادة عظيمة بما ضُم اليها من مكتبة الكرسي البطريركي في آمد لدى انتقاله رسمياً سنة ١١٧٦ للميلاد الى دير الزعفران . وما تبقّى من المخطوطات في مكتبة آمد الشهيرة استولى عليها بعد سبعة اعوام (١١٨٣ م) صلاح الدين الايوبي وسلمه الى كاتبه القاضي الفاضل (٢) كما ذكرنا .

---

(١) المكتبة الشرقية للسمعاني : مجلد ٢ صفحة ٢١٦ ـ ٢٢٦

(٢) التاريخ السرياني المدني لابن العبري : طبعة بيجان في باريس صفحة ٣٦٢

٢ ـ رواية المستشرق ساخو عن مكتبة دير الزعفران

أخبر الرّحالة ساخو Dr. Ed. Sachau انه في السنة ١٨٧٩ زار دير الزعفران في ايام اغناطيوس بطرس السادس (١٨٧٢-١٨٩٤) البطريرك السرياني. فشاهد في مكتبته نحو عشرين كتاباً نصفها مكتوب على الرق وبعضها يرتقي الى القرن التاسع او العاشر للميلاد .

وفي مكتبة دير الزعفران عهد من العهود الاسلامية مكتوب على رق الغزال. ويزعم السريان ان نبيّ الاسلام كتبه الى جبريل مطرانهم والى نصارى الاقباط . وهذا العهد يُنسب الى معاوية بن ابي سفيان وقد كُتب بالخط الكوفي(١) .

٣ ـ نكبات مكتبة دير الزعفران

حلّت بدير الزعفران نكبات شتى في آونة مختلفة . فان الاكراد اخربوه عام ١٦٥٦ وأتلفوا حصة صالحة من آثاره ومخطوطاته . ولما قام البطريرك اغناطيوس جرجس الثاني (١٦٩٠ – ١٧٠٩) رمّمه سنة ١٦٩٧ وصرف العناية في تجديد مكتبته حتى اصبحت مماثلة لأهم المكتبات في البلاد الشرقية .

وبعد الحرب العظمى (١٩١٤ – ١٩١٨) اضطر البطاركة الى هجر هذا الدير بعدما ظلّ كرسياً لهم سبعمائة سنة بنيف . فسكنوا تارة في القدس وطوراً في حمص ملتحقين بابناء رعيتهم الذين هجروا هم ايضاً تلك الانحاء الى الجزيرة العليا وسوريا ولبنان وفلسطين والقطر المصري واوروبا واميركا . وقد تبعثرت مكتبة دير الزعفران وتقاسمتها ايدي ذوي المطامع . ولم يسلم من مخطوطاتها الثمينة الا الشيء اليسير . فنقل بعضها الى الكرسي البطريركي في حمص والبعض الآخر الى دير مار مرقس في اورشليم .

---

(١) عهود نبي الاسلام والخلفاء الراشدين للنصارى: المشرق مجلد ١٢ سنة ١٩٠٩ صفحة ٦١٧

٤ ــ وصف الراهب افرام برصوم لمكتبة دير الزعفران

اليك ما اثبته سنة ١٩١٧ الاب افرام برصوم (صار بطريركاً في ٢٩ كانون الثاني ١٩٣٣ باسم اغناطيوس افرام الاول) عن مكتبة دير الزعفران قال (١) : « اما اليوم فان المكتبة الزعفرانية تشتمل على نيّف وثلاثمائة مجلد مخطوط سرياني وعربي اقدمها يرقى الى القرن التاسع للميلاد . وفيها نسخ من ابدع ما خطته انامل الخطاطين وموضوعها الكتاب العزيز وتفاسيره والكتب اللاهوتية والفقهية والنحوية واللغويّة والطقسية والادبية والنسكية والتاريخية وغيرها من آثار الملافنة الاجلاء رضوان الله عليهم ... ومن نسخها الثمينة خمسة اناجيل مكتوبة على رق ترقى الى القرن العاشر حتى الثاني عشر : منها نسختان مصوّرتان بصور بديعة . ونسختان نادرتان من مجموعتي قوانين الدسقالية والمجامع . ومخطوطان ضخمان من التراجيم السنوية لآباء الكنيسة » الخ الخ .

سابعاً : مكتبة دارا

دارا مدينة قديمة واقعة بين ماردين ونصيبين ابتناها داريوش او دارا في زمن الاسكندر ذي القرنين . وتوالى عليها حكم الفرس والروم حتى ملكها العرب نهائياً في اول الفتح الاسلامي . وكانت هذه المدينة زاهرة بعلمائها ومدارسها ومكتبتها وقد وصف بعض المستشرقين آثارها وعتائقها .

وذكر توما المرجي(٢) ان كسرى الثاني ملك فارس (٥٨٩ – ٦٢٧ م) دوّخ دارا في السنة الخامسة عشرة لملكه واستولى على جميع ما فيها من الاموال والنفائس وخزانة الكتب ثم عرض على غريغور البسامي الجاثليق (٦٠٥ –

---

(١) نزهة الاذهان في تاريخ دير الزعفران : للاب افرام برصوم : صفحة ١٤٤ ـ ١٤٦ طبعه بالمطبعة السريانية بدير الزعفران سنة ١٩١٧ (٢) كتاب الرؤساء : فصل ٢٥ صفحة ٣٩

٦٠٩ م) ان يشتري تلك المكتبة بعشرين الف استار فضة . فقسّط الجاثليق ذلك المبلغ على الكنائس(١) ثم جمعه ودفعه الى كسرى واسترجع الكتب (٢) .

وفي ٧ تشرين الاول سنة ٨٣١ للميلاد اتفقت كلتا الدولتين الاسلامية والفارسية(٣) على تدمير دارا فلم يبقَ فيها من السكان الا نفر يسير . ومن ذلك الحين عفت آثار مكتبتها التي كانت غنيّة بمصاحف مخطوطة نفيسة في لغات شتى ولاسيا العربية .

ثامناً : مكتبات نصيبين

١ ـ مكتبة مدرسة نصيبين

وصف ابن جبير في رحلته الى مدينة نصيبين قال . « شهيرة العتاقة والقدم . ظاهرها شباب وباطنها هرم . جميلة المنظر متوسطة بين الكبر والصغر . يمتد امامها وخلفها بسيط اخضر مدّ البصر . قد اجرى الله فيه مذانب من الماء تسقيه . وتطّرد في نواحيه . يحف بها من يمين وشمال بساتين ملتفة الاشجار يانعة الثمار . ينساب بين يديها نهر قد انعطف عليها انعطاف السوار . والحدائق تنتظم بحافتيه . وتفيء ظلالها عليه . فرحم الله ابا نواس الحسن بن هاني حيث يقول (٤) .

طابت نصيبينُ لي يوماً فطبتُ لها ‍ ‍ ‍ ‍ يا ليتَ حظّي من الدنيا نصيبينُ

كانت نصيبين في القرون النصرانية الاولى احدى عواصم العلم في الامصار

---

(١) اخبار فطاركة كرسي المشرق من كتاب « المجدل » لعمرو بن متى : صفحة ٥٢ طبعة جيسموندي بروميه . وكتاب فطاركة كرسي المشرق : لماري بن سليمان : صفحة ٦٠

(٢) تاريخ كلدو وآثور : للسيد أدي شير مطران سعرد : مجلد ٢ صفحة ٢٢١

(٣) تاريخ الرهاوي : طبعة البطريرك افرام رحماني : فصل ٢١٧ صفحة ٢٦١

(٤) رحلة ابن جبير : صفحة ٢١٧ ـ ٢١٨

الشرقية . اشتهرت خصوصاً بمدرستها الذائعة الصيت وبالعلماء الاعلام الذين تخرّجوا فيها عصراً بعد عصر . وقد ألمعنا الى اسماء فريق منهم والى بعض مؤلفاتهم في الفصل الرابع من الباب الاول . واحتوت مدرسة نصيبين على خزائن حافلة بالوف المخطوطات دوّنها اولئك الفطاحل واساتذتهم وغيرهم من اساطين العلم . فاصبحت منهلاً للورّاد يتسابقون الى ارتشاف ينابيع المعارف فلسفية ولغوية وادبية وتاريخية وطبية وفلكية وزراعية وصناعية ودينية ولاسيما علم الكتاب المقدس . ولم تلبث ان أصابها ما اصاب سائر المعاهد الكتابية من الرزايا التي سطّر لها التاريخ وصمة عار في القرون الوسطى . فذهبت تلك المكتبة الزاهرة فريسة النار والتخريب بيد البرابرة الطغاة بعد ما كانت مصباحاً ساطعاً يهتدي بنوره الطلاب من كل صقع .

٢ ـ مكتبة كنيسة مار يعقوب الكبرى

هي من اقدم المكتبات واشهرها في بلاد ما بين النهرين يرتقي عهد تاسيسها الى العلامة مار يعقوب (٣٣٨ م) اسقف نصيبين . ولوفرة فضله وفضيلته أطلق عليه اوسابيوس القيصري لقب « فخر اساقفة المشرق » . ولما ذاعت تعاليم النساطرة منذ القرن الخامس للميلاد في تلك المدينة تغلب اشياعها على كنيسة مار يعقوب الكبرى وامتلكوا مكتبتها العامرة فعزّزوها وزادوا عليها .

ودارت الايام دورتها حتى وقعت نصيبين في حكم نور الدين صاحب حلب سنة ١١٧٢ للميلاد . فانه شدّد على المسيحيين وقوّض كل بناء جديد أضيف الى اديارهم وكنائسهم . من جملة ذلك كنيسة مار يعقوب المشار اليها فانتهب جميع امتعتها الثمينة والوفاً من الكتب كانت محفوظة فيها(١) .

ولما تجدّدت كنيسة مار يعقوب سنة ١٥٦٢ تجددت معها مكتبتها . يؤيد ذلك

---

(١) تاريخ ميخائيل الكبير : صفحة ٦٩٦

انجيل نُسخ في ١٧ اذار ١٥٦٩ للميلاد ورد فيه ان دورمليك امرأة درويش وهبت هذا الكتاب لبيعة مار يعقوب بنصيبين . وقد نُقل الانجيل مع غيره من المخطوطات القديمة الى مكتبة الكلدان بماردين ويُعرَف تحت الرقم ١٠ ما بين مخطوطاتها(١) .

٣ـ مكتبة مطرانية نصيبين

عُدّت مطرانية نصيبين في قيود البيعة النسطورية من اهم المطرانيات واقدمها وجلس على كرسيها مطارنة اجلاء اشتغلوا بالثقافة والأدب وصنّفوا كتباً استحقت اعتبار الائمة . وانشأوا في قلايتهم مكتبة عظيمة حوت ما تلدَ وطَرُفَ من المخطوطات الثمينة . ولما اعرضوا او كادوا يعرضون عن لغتهم السريانية الاصلية منذ القرن الثامن ضموا الى تلك المكتبة مؤلفات عَربية اقبلوا على مطالعتها ووضعوها بين ايدي طلبة مدارسهم الشهيرة التي سبق لنا وصف بعضها . فغدا مذ ذاك الحين الادب العربي بجنب الادب السرياني وأصبحا كلاهما الفنين أليفين لدى اولئك المطارنة لا يفارق احدهما الآخر .

وقد تفرّغ مطارنة نصيبين لدراسة اللغة العربية وأحكموا اصولها وآدابها . وصنّفوا فيها كتباً كثيرة يطول بنا تعدادُها . نذكر منهم المطران ايليا برشينا (+ ١٠٤٩ م) الذي سهّل اقتباس العربية على طلبة مدارسه فانشأ لهم معجماً سريانياً عربياً في ٣٠ فصلاً . وكتب « المجالس السبعة التي جرت بينه وبين الوزير ابي القسم حسين بن يحيى المغربي عام ١٠١٨(٢) » . وصنّف ايضاً تآليف جمة بالعربية الفصحى . اخصها رسالته في وحدانية الخالق وتثليث اقانيمه (٣) . ومقالة في « نعيم الآخرة » ورسالة في « العفة » وكتاب « دفع الهمّ (٤) » . ومقدمات

---

(١) المشرق : مجلد ١٦ سنة ١٩١٣ صفحة ٨٥٠ (٢) نشرتها مجلة المشرق عام ١٩٢٢
(٣) مجلة المشرق عام ١٩٠٣ (٤) المشرق عام ١٩٠٢ .

على الاناجيل . وحل بعض مسائل انجيلية . ورسالة في المواريث منها نسخة كُتبت سنة ١٢٢٠ م(١) . واناف عدد مجلدات تلك المكتبة المطرانية على الالوف . وقد انتهبها نور الدين بن زنكي في السنة ١١٧٢(٢) مع مكتبة مار يعقوب السابق ذكرها .

ولما استُخلف يشوع يهب بن ملكون الدنيسري في مطرانية نصيبين (١١٩٠-١٢٥٦ م) اخذ يجدد مكتبتها لانه كان من محبي الكتب ومن مشاهير المؤلفين . وخلّف في العربية ترجمة للاناجيل معتبرة منها نسخة ثمينة خُطت في السنة ١٢٣٣م تخص مكتبة دير الشرفة(٣) . ولهذا المطران تصانيف اخرى عربية منها كتاب « البرهان على صحيح الايمان » و « تراجم مسجّعة » ضُمت الى كتاب « تراجيم الاعياد المارانية » تأليف ابي الحليم وطُبعت معها .

وظلت هذه المكتبة في نمو مطرد حتى تولى مطرانية نصيبين عبديشوع الصوباوي (١٢٨٥ - ١٣١٨ م) الذي امتاز بتآليفه العربية والسريانية . فانشأ في العربية ترجمة للاناجيل مسجّعة(٤) . وكتاباً سماه « فرائد الفوائد في اصول الدين والعقائد » ألفه سنة ١٣١٢ ذكره عمرو بن متى (٥) وصنف كذلك تقويماً سنوياً تلبيةً لطلب أمين الدولة .

وعلى اثر وفاة المطران عبديشوع خبا نبراس العلوم في الامة النسطورية وتضعضعت المكتبة المطرانية وتفرقت ايدي سبا .

---

(١) مخطوطات المكتبة الواتكانية : رقم ١٦٠

(٢) تاريخ ميخائيل الكبير : صفحة ٦٩٦

(٣) فهرس مخطوطات دير الشرفة : صفحة ٣١٠-٣١٢

(٤) المخطوطات العربية لكتبة النصرانية : صفحة ١٤٦

(٥) المشرق : ٧ سنة ١٩٠٤ صفحة ٩٩٨

تاسعاً : مكتبات طور عبدين

١ - ازدهار المكتبات وتعددها في اديار طور عبدين

يتألف طور عبدين(١) من سلسلة جبال واقعة شرقي ماردين ومن الجبال المحيطة به كجبل الازل وباعربايا وجبل قورس . وازدهر منذ القرن الرابع للميلاد بما تشيّد فيه من المدارس الزاهرة والاديار العظيمة التي نفقت فيها اسواق العلم والتأليف . وبلغ عدد الاديار والصوامع في تلك البقعة نحو الثلثمائة كان يسكنها عشرات الالوف من الرهبان والعبّاد .

ان من تصفّح تواريخ النساطرة واليعاقبة اخذه العجب العجاب من كثرة الكتبة الذين نبغوا بين جدران تلك المعاهد وزيّنوا المنابر العلمية بفضلهم وفضيلتهم. فانهم بانصرافهم الى النسك توفّرت لديهم وسائل تحصيل المعارف وتعميم المدارس وتأليف الكتب ونساخة الاسفار المفيدة في ألسنة مختلفة كالعربية والسريانية واليونانية والفارسية وغيرها . وباتت تلك الديورة معقلاً منيعاً بل ملاذاً امينأ لساكنيها ولأهالي البلدان المجاورة يتحصنون فيها من غارات الاعداء(٢) .

وكان كل دير مزداناً بخزائن مخطوطات يتصفحها الرهبان ويسترشدون بها ويغذّون عقولهم بمحتوياتها . لكن هذه المكاتب عفت آثارها باندراس الاديار المشار اليها . اذ ان اغلبها انطمس وأمسى اثراً بعد عين بسبب المنازعات القومية التي ثارت بين الجبليين والاكراد في ازمنة مختلفة . ثم طرأت على طور عبدين غوائل هائلة محقت آثاره وبدّدت كتبه وعتائقه وافقدته بهاءه ورونقه . فكان الفرس تارة والروم طوراً يغزونه ويدوّخونه حتى ظهر الاسلام فملكوه .

---

(١) معناه جبل عبيدالله باللغة السريانية

(٢) المشرق : مجلد ١٦ سنة ١٩١٣ صفحة ٥٦٥

٢ ـ وصف دير قرتمين المعروف بدير العمر

لما قام المهدي المعروف بالمقنع سار هو واصحابه الى طور عبدين وتغلبوا عليه ونهبوا الاديار والكنائس . فسيّر الخليفة عبدالله المأمون الامير حسناً في جيش فقهر المعتدين وهزمهم من دير قرتمين(١) المعروف ايضاً بدير العُمر الذي شيد سنة ٣٩٧ للميلاد . ويُعدّ هذا الدير تحفة من تحف الفن لما انطوى عليه في سالف الزمان من الآثار النادرة والابنية الفاخرة . وقد جدده انسطاس ملك الروم (٤٩١ – ٥١٨ م) اذ أوفد البنائين والنحاتين يتقدمهم تاودوسي وتاودور (٢) فنهضوا بالهندسة والبناء خير نهوض .

٣ ـ اطلاق العرب لفظة « عُمر » على مقام الرهبان

أطلق العرب لفظة « العُمر » على كل دير ينقطع اليه رهبان او راهبات ولاسيا على دير قرتمين لانه أعظم الديورة في طور عبدين وأقدمها . وكثيراً ما ورد لفظ « العمر » بمعنى الدير في اشعار العرب . قال الحسن بن هانیء(٣) :

آذنكَ الناقوسُ بالفجرِ وغرّد الراهب بالعُمرِ

وقال يعقوب المارداني في احدى خمرياته الرائعة ما يلي :

أمِط عن سناها الختم طال بها العمرُ فما صانها الا لاربابها العمرُ (٤)
فقد جئتها يا راهبَ الدير خاطباً لها راغباً فيها وان كثُرَ المهرُ . . .

---

(١) سياحة في طور عبدين (المشرق مجلد ١٦ سنة ١٩١٣ صفحة ٥٦٦)
(٢) المؤرخ الرهاوي : ٥٢ : ١٤٣ وابن العبري : صفحة ٧٧ من تاريخه المدني السرياني (٣) كتاب الديارات للشابشتي : صفحة ١١٢ ـ ١١٣ (٤) العمر في الشطر الاول معناه « الحياة » وفي الشطر الثاني معناه « الدير » وهو لفظ سرياني

اذا أترعت في كأسها او تشعشعت ، يخال بها جمرٌ وليس بها جمرُ
تناولها سمعان ثم تداولت يمرّ بها عصر ويدرك بها عصرُ(١)

٤ ـ مكتبه دير قرتمين او دير العمر

اشتهر دير قرتمين بخزائن مخطوطات كانت آية بغرائبها وعجائبها بين سائر الخزائن . وكان يسكنه في زمن عزّة ما ينيف على المائة والخمسين راهباً اكثرهم من ذوي العلم وارباب التأليف . والى جانب الدير قرية « قرتمين » التي ينتسب هو اليها . وكان سكانها يشتغلون الرق او جلد الغزال ويهيئونه لنسخ المخطوطات(٢) . يدل ذلك على رواج سوق المعارف وانتشار محبة الكتب في تلك الاصقاع الحافلة بالنساك .

وفي السنة ٩٨٨ للميلاد قام في دير قرتمين مطران اسمه يوحنا فجدّد الكتابة السطرنجيلية التي بطل استعمالها بنحو مائة سنة قبل عهده(٣) . ويروى عن عمنوئيل ابن اخي يوحنا المذكور انه كتب على الرق سبعين مجلداً من الترجمة البسيطة والسبعينية والحرقلية وغيرها ثم وقفها لدير قرتمين(٤) .

٥ ـ نكبات مكتبة دير العمر

تتابعت النكبات على ديورة طور عبدين ولاسيما على دير قرتمين وعلى مكتبته الشهيرة . وكان الرهبان يجدّدون ما دثر منها على اثر كل نكبة . وذكر المؤرخ الرهاوي ان ادرهمون عامل الفرس في نصيبين غزا دير قرتمين وقرى طور عبدين نحو السنة ٥٨٠ للميلاد(٥) . وأثبت ميخائيل الكبير ان دير قرتمين نُهب اولاً سنة

---

(١) شعراء النصرانية بعد الاسلام : للاب شيخو : صفحة ٣٤٥ ـ ٣٤٦
(٢) المشرق : مجلد ١٦ سنة ١٩١٣ صفحة ٨٤٠ (٣) الزهرة الزكية : صفحة ٥١
(٤) رغبة الاحداث : جزء ٢ صفحة ١٥٨ (٥) تاريخ الرهاوي : ٧٤ : ١٢٨ طبعة الشرفة

١٠٧٥ م نهبه الاتراك . ثم نهب تكراراً سنة ١١٤٦م وقُتل فيه اربعة رهبان(١).

ويشاهد عند باب كنيسة دير قرتمين على شمال الداخل اليها حجر مكتوب يتضمن اسماء اساقفة هذا الدير مدة مائتين واربعين سنة . واليك ما يُقرأ في آخر تلك الكتابة معرباً : « ... وآخرهم الخاطىء منعم قام سنة ١٤٠٠ يونانيــة (١٠٨٩ م) وكتب هذا التذكار. وفي زمانه المشؤوم الضيّق نُهب هذا الدير نهباً. نهبه الفرس وتركوه قاعاً صفصفاً . واقترفوا الشرور في طور عبدين اجمع . وظل الناهبون في الهيكل اربعة وعشرين يوماً .

٦ ـ بعض مكتبات طور عبدين

في السنة ١٢٣٢ م زحف التتر الى طورعبدين وفتكوا برهبانه وسبوا ونهبوا وقتلوا خلقاً كثيراً . واتلفوا خزائن الكتب الغنية الكثيرة العدد في اديارة كما اتلفوا بعد اعوام قليلة خزائن الكتب الاسلامية في بغداد وبلاد الشام على ما ذكرنا . وسنثبت ذلك كله بالتفصيل في الباب السادس عشر من كتابنا هذا وعنوانه « رزايا الكتب والمكتبات » .

وفي السنة ١٣٩٣ م سار الطاغية تيمورلنك الى دُنيسر وماردين وطور عبدين والى سائر بلاد ما بين النهرين . فمحق في طريقه ما شاهده من الاديار العامرة ومعالم الأدب . ونهب حليّها وحللها وسلب ذخائرها وكنوزها وأحرق مخطوطاتها القديمة(٢) التي عُني السلف بتأليفها ونساختها .

وما كتبناه عن مكتبة دير قرتمين يصدق ايضاً عن مكتبات سائر اديار طور عبدين . ومن أهمها مكتبة دير مار اوجين بجبل الازل . ومكتبة دير مار يعقوب بقرية صلح . ومكتبة باسبرينا . ومكتبة دير مار ابرهوم . ومكتبة

---

(١) تاريخ ميخائيل الكبير طبع باريس : جزء ٣ صفحة ٢٦٨

(٢) الكنز الثمين : للاب جبرائيل قرداحي : طبعة رومة سنة ١٨٧٥ صفحة ١١٣ ـ ١١٨

بيعة يثموني في مذيات وقد أتلفت بقاياها في الحرب الكونية (١٩١٤-١٩١٨) .

ومَن شاء زيادة ايضاح عن الديورة المذكورة وعن مخطوطاتها فعليه ان يراجع ما نشره البحّاثة الخورفسقفوس اسحق ارملة السرياني بعنوان « سياحـــة في طور عبدين(١) » وما كتبه الاب شيخو في سياحته من بيروت الى الهند(٢) .

٧ ـ انجيل فريد ثمين في مذيات بطور عبدين

من الذخائر النادرة التي لم يرو التاريخ مثلها مخطوطة ثمينة للانجيل كانت مصونة في مذيات . ويرتقي عهد كتابتها طبقاً لرواية الرّحالة باري الى القرن التـاسع للميلاد . وهذه المخطوطة المنسوخة على رق غزال تحوي نص الانجيل باللغة اليونانية مكتوباً بحروف سطرنجيلية سريانية(٣) .

عاشراً : مكتبة سعرْت

١ ـ اصل مكتبة سعرت وثروتها وفواجعها

سعرت مدينة ببلاد ما بين النهرين بين ميافرقين وجزيرة ابن عمر . وعلى مسير ساعة منها على الاقدام دير عريق يُعرف بدير مار يعقوب الحبيس . وكان هذا الدير يحوي خزانة كتب ثمينة افرغ الجهود في تنظيمها السيد بطرس ميخائيـل بَرْطَطَر مطران سعرت (١٨٥٨ ـ ١٨٨٤) . واضاف اليها مخطوطات قديمة العهد التقطها من مخلفـات النساطرة في زاخو واوادن ودهوك والعقر والعمادية واربيل وغيرها .

---

(١) المشرق : مجلد ١٦ سنة ١٩١٣ صفحة ٥٦١ فما بعد

(٢) المشرق مجلد ١٠ سنة ١٩١٢ صفحة ٨٠٨ فما بعد

(3) O. H. Parry: Six Month in a Syrian Monastry: 1895, P. 338

واشتملت مكتبة دير مار يعقوب على مخطوطات جمة مكتوبة على رق الغزال تحدث الألسن بجمالها وقدمها وقيمتها . وروى لنا فريق من اهالي تلك الانحاء الذين تعهدوا الدير المشار اليه انهم شاهدوا كتابة منقوشة فوق باب كنيسته مفادها : « اذا خرب الدير سبع مرّات فان كنوزه كافية لتجديد بنيانه سبع مرات » . والمراد بكنوز الدير مكتبته العامرة .

ما كاد يمر على تنظيم مكتبة دير مار يعقوب عشرون عاماً حتى ثار ثائر الاكراد في خريف السنة ١٨٩٥ على الارمن مجاوريهم . وافتعلوا ما افتعلوه من الفظائع والفضائح في ارمينيا وكردستان وما بين النهرين مما هو مشهور لدى الخاص والعام . فحملوا على مكتبة مار يعقوب وبعثروا مخطوطاتها الثمينة ومزقوها وألقوا اوراقها في حوض ماء بفناء الدير . غير انهم احتفظوا بالرقوق منها فخاطوها احذية لارجلهم (١) .

وعلى اثر تلك النكبة لم يسلم من مكتبة دير مار يعقوب الا بقية ضئيلة نقلها السيد عمنوئيل توما اسقف سعرت (١٨٩٢ — ١٩٠٠) الى خزانة كرسيه . فانه وجّه الى الدير شاباً نشيطاً يقال له يعقوب يوحنا كان من تلامذة اكليريكية الآباء الدومنكيين (١٨٨٦ — ١٨٩٤) بالموصل . فذهب يعقوب الى الدير مخاطراً بحياته وتمكن بعد عناء ومشقة وافرة من لمّ بقايا المخطوطات . ونقلَ على الجحاش ما استطاع نقله الى دار المطرنة بسعرت . غير انه ترك هناك اكداساً من الاوراق مبعثرة كان زوّار الدير يعاينونها متأسفين كل الاسف على فقدان مثل تلك الكنوز الكتابية التي حرص عليها الاقدمون احقاباً عديدة .

٢ ـ تجديد مكتبة سعرت واتلافها واتخاذ الاكراد رقوق مخطوطاتها نعالا لارجلهم

بعد ارتقاء السيد ادّى شير الى مطرانية سعرت (١٩٠٢ — ١٩١٥) وجّه

(١) راجع ما سطرناه عن نازلة مكتبة سعرت في الفصل ٣٦ من الباب ١٦

عنايته الى تعزيز مكتبتها . فاضاف اليها مخطوطات جديدة ومطبوعات مفيـدة . وامتاز بكَلفه بالمكتبات فوضع فهارس علمية لما احتوته من الذخائر الشرقية . وقد عرفنا من المكتبات الكلدانية التي اشرف عليها ونظم لها الجداول وشرح مواضيعها : المكتبة البطريركية بالموصل ومكتبة دير السيـدة بجوار القوش ومكتبة ديار بكر ومكتبة ماردين ولاسيا مكتبة كرسيه في سعرت .

غير ان الايام عبثت لهذا الحبر الغيور بعد افترارها فنكبته نكبة هائلة قضت على حياته كما قضت على مكتبته الثمينة العزيزة . فان الاكراد المجاورين لابرشيته انتهزوا نشوب الحرب العظمى (١٩١٤ - ١٩١٨) ففتّظعوا به وبجميع ابنـاء رعيته حتى تفجرت دماؤهم انهاراً في اسواق المدينة وضواحيها . ولم يقفوا عند ذلك الحد من الفظاعة بل استاقوا المطران الى كهف بعيد واطلقوا عليه نيران بنادقهم فخرّ صريعاً(١) . وكوّموا فوق جثمانه حجارة جرياً على عادتهم لتكون تلك الكومة دليلاً على ان تحتها دفيناً قتيلاً . وقد حدثت تلك الفاجعة في اواسط شهر آب ١٩١٥ قريباً من قرية « طانزي » الواقعة بين سعرت وجزيرة ابن عُمر .

وما اكتفى الاكراد بتلك المذابح لكنهم انقلبوا الى المدينة وتهارشوا عـلى المكتبة . فاجهزوا على كل ما فيها من قديم وحديث وتخاطفوا مجلداتهـا الضخمة وتقاسموها . وخاطوا الرقوق الباقية احذية لأرجلهم كما افتعل آباؤهم قبل عشرين سنة برقوق مكتبة مار يعقوب . وروى لنا السيد تريفون قلمكاريان احـد هواة المخطوطات العتيقة انه عثر مع احد الاكراد قريباً من نصيبين على مخطوط غاية في الضخامة قال ان وزنه أناف على اثني عشر كيلو . فاشتراه من الكردي بمبلغ خمس عشرة ليرة ذهبية وشاهد عليه توقيع المطران ادى شير وختمه

---

(١) القصارى في نكبات النصارى : تأليف القس اسحق ارملة : صفحة ٣٨٩

الفصل الخامس

خزائن كتب النصارى في العراقين العربي والفارسي

اولا : مكتبات النساطرة

١ ـ فضل علماء النساطرة على اللغة العربية

النساطرة(١) فرع من فروع الامة السريانية لهم صفحة مجيدة في خدمة العرب واللغة العربية قبل الفتح الاسلامي(٢) وبعده . فكانوا هم والسريان اليعاقبة اول مَن جاهروا بالاخلاص للفاتحين وسعوا لتوطيد ملكهم الضخم على انقاض دولتي الروم والفرس . وبرز بينهم رهط من جلّة الكتّاب اشتغلوا على عهد الخلفاء العباسيين في نقل العلوم اليونانية والسريانية الى اللسان العربي . فلم يدعوا علماً او فناً او مطلباً الا صنفوا فيه كتباً كثيرة العدد جديرة بالاعتبار .

ومن شاء زيادة ايضاح في هذا الصدد عليه ان يراجع ما سطره قدماء المؤرخين الذين سبقوا فوّفوا ائمة النساطرة حقهم . وقد المعنا بايجاز الى اولئك الجهابذة وآثارهم العلمية في بعض فصول هذا الكتاب(٣) . ومما لا يختلف فيه اثنان ان المكتبات العربية مديونة لعلماء النساطرة بقسط كبير من ذخائرها الثمينة . تشهد على ذلك تآليفهم ونقولهم التي خلّفوها بعدهم وقد صارت اشهر من نار على علم.

---

(١) راجع حاشية مختصرة علقناها في كتابنا (السلاسل التاريخية) صفحة ١٣٥ ١٣٦

(٢) المكتبة الشرقية للسمعاني : جزء ١ واخبار الشهداء والقديسين : طبع بيجان مجلد ١

(٣) اطلب الفصلين الخامس والسادس من الباب الاول وبعض فصول الباب الحادي عشر

٢ ـ مكتبة فطاركة النساطرة في المدائن وبغداد

للنساطرة رئيس أعلى عُرف اولا باسم « جاثليق » ثم اضافوا اليه منذ القرن الخامس لقب « فطرك » او « فطريرخيس » وهو المشهور عند سائر الملل النصرانية بلقب « بطريرك » . وكان مركز فطاركة النساطرة اول بدء في المدائن . ولما انتقلوا الى بغداد في صدر الخلافة العباسية نقلوا معهم أمتعتهم ومكتبتهم الغنيّة التي توارثها خلفهم عن سلفهم حتى جلس طيمثاوس الاول (٧٨٠ - ٨٢٣ م) على عرش الفطركة . فراجت في عهده أسواق اللغة العربية بين الخاص والعام . واقبل على دراستها والتبحّر فيها كبار النساطرة فقام فيهم كتبة وعلماء واطباء طبّق الآفاق صيتهم . وتولوا مناصب شريفة في دواوين الخلفاء العباسيين وأدوا لهم خدماً جلى .

ويُعد الفطرك طيمثاوس من فحول علماء النساطرة ومن أقدم مَن كتب منهم في العربية الفصحى . وقد انشأ فيها مؤلفات جليلة . ومن ذلك العهد حفلت مكتبة الفطاركة بتصانيف فلسفية وطبية وتاريخية وضعها ابناء ملتهم كآل بختيشوع وعبدالمسيح بن اسحق الكندي وحنين بن اسحق وولدَيه داود واسحق وابن اخته حبيش وغيرهم وغيرهم .

ولما تولى الفطركة سبريشوع الثاني (٨٣٥ - ٨٣٩ م) أسّس في بغداد ثلاث مدارس معتبرة وهي مدرسة فثيون ومدرسة دار الروم ومدرسة كليل يشوع(١) . واضاف الى مكتباتها عدداً وافراً من الكتب العربية يطالعها الاساتذة والتلامذة معاً . وقد نُهبت مكتبة دار الروم في عهد الفطرك برصوما (١١٣٣ - ١١٣٥ م) نهباً شنيعاً (٢) .

---

(١) ذخيرة الاذهان في تواريخ المشارقة والمغاربة السريان تأليف بطرس نصري : جزء١ صفحة ٣٩١

(٢) فطاركة كرسي المشرق من كتاب المجدل : ماري بن سليمان : صفحة ١٥٦

ولما قام الفطرك ايونيس او يوحنا الثالث (٩٠٠ - ٩٠٥ م انصرف الى دراسة الشرع الحنفي وألف فيه كتاباً عنوانه « جوامع مواريث الاسلام لبعض محيي الشعب(١) » . وأمر ان يدرّس في جميع مدارس النساطرة العليا .

شاهد الخلفاء اقبال الفطاركة على اقتباس الثقافة العربية وأعجبوا باخلاصهم وأمانتهم فكتبوا لهم العهود واعتبروهم غاية الاعتبار . وذكر المؤرخون ان الفطرك ماري بن طوبى (٩٨٧ - ١٠٠٠ م) الموصلي امتاز بالفقه وتولى الكتابة قبل فطركيته في ديوان ناصر الدولة بن حمدان امير حلب . فحسنت حالته وارتفعت منزلته وحشد اموالاً طائلة . ولما تولى الفطركة اشترى اوقافاً وافرة وابتنى ابنية فخمة(٢) وعزّز المدارس وانشأ المكتبات في انحاء ابرشيته .

غير ان التركمان ثم الخرسانيين هجموا على الدار الفطركية مرتين في عهد الفطرك يوحنا الخامس (١٠٤٩ - ١٠٥٧م) ونهبوا رياشها وكتبها الثمينة وآنيتها البيعية(٣) ولم يتيسر للفطاركة خلفائه ان يعيدوا ما فقدوه من تلك الذخائر الثمينة حتى تبوّأ عرش الفطركة ايليا الثالث (١١٧٦ - ١١٩٠م) المشهور بابي الحكيم فبلغت مدارس النساطرة في عهده أوج عزّها وازدادت مكتباتها وازدهرت بهمته .

وامتاز ابو الحليم بتقربه من الخلفاء والائمة . وقبض على اعنّة اللغة العربية فانشأ فيها خطباً مستملحة رصّعها بالسجع المنمق عنوانها « تراجيم الاعياد المارانية » . وصنّف كتاباً سماه « الصلوات الحليميات »(٤) . وخلف مقالات ادبية في العربية الفصحى . ولمّا دنا اجله قال هذين البيتين لمن حوله :

---

(١) السماني : المكتبة الشرقية : مجلد ٣ صفحة ٢٣٦ ومجلد ٢ صفحة ٤٤٠

(٢) ذخيرة الاذهان في تواريخ المشارقة والمغاربة السريان : جزء ١ صفحة ٤٢٩ و٤٣٠

(٣) ذخيرة الاذهان في تواريخ المشارقة والمغاربة السريان : جزء ١ صفحة ٤٥٨

(٤) المجدل : لعمرو بن متى : صفحة ١١٠ و١١١

أروني من يقوم بكم مقامي ... اذا ما الامر جلّ عن الخطابِ
بمن تستصرخون اذا حثيتم ... بأملكم عليّ من التراب

هكذا واصل فطاركة النساطرة تعزيز مدارسهم وعمارة مكتباتهم حتى عهد الفطرك يهب آلاها الثالث (١٢٨١ - ١٣١٧) . فقبض عليه قازان ملك المغول وأطلق الحرّية لعسكره فدكوا كنائس النساطرة وقوّضوا اديارهم واتلفوا مكتباتهم حتى أمست أثراً بعد عين .

٣- مكتبة دير قُنّي

دير قُنّى اسم لمدينة في العراق سبق لنا ذكرها . ويُطلق كذلك على دير قديم بني في قلب هذه المدينة كانت له منزلة عظمى لدى السريان المشارقة . لان رسولهم مار ماريّ احد تلامذة الحورانيين مدفون فيه . وقد ضمت كنيسة الدير رفات غير واحد من الفطاركة خلفاء ماري كاسحق الاول (٣٩٩ - ٤١٠ م) ودديشوع (٤٢١ - ٤٥٦ م) وغيرهما . اما موقعه فعلى مسافة كيلومترين من دجلة .

ففي هذا الدير العريق أنشئت مدرسة عظيمة عرفت بمدرسة « مار عبدا » صار اليها الطلبة من كل فج . واستغنوا بها عن الانطلاق الى مدرسة الرها . وكان الاساتذة يدرّسون فيها اللغة العربية(١) فضلاً عن اللغتين السريانية واليونانية . واشتملت هذه المدرسة على خزانة كتب معتبرة حفلت بمؤلفات ثمينة . يؤيد ذلك ما اثبته علماء الالمان في قاموس اللاهوت الكاثوليكي قالوا : « حصرت العلوم الشرقية بأيمة النساطرة في عهد فتوحات العرب . وكانوا يلقون الدروس في مدارس الرها ونصيبين والمدائن ودير قنّى . وكان لهم مكتبات عمومية يحفظون فيها تآليف المعلمين(٢) .

---

(١) المشرق : مجلد ٣٧ سنة ١٩٣٩ صفحة ١٨٦
(٢) قاموس كوشلبر الفرنسي ١٦ : ٧٦

ومن اشتهر في مدرسة دير قنى الفطرك آحا (٤١٠ – ٤١٥ م) ومتى بن يونس المنطقي الشهير وغيرهما . وقد افاض ياقوت الحموي في وصف هذا الدير فقال ما ملخصه : اشتمل دير قنّى على مائة قلاية لكل راهب قلاية يكتنفها بستان يقضي فيه الراهب قسماً من نهاره يحرث او يفلح . وكان يخرق الدير نهر جار ينساب في حدائقه ويسقي اراضيه واشجاره . وكانت تباع غلته بمائتي دينار(١) .

وفي اواسط القرن الخامس للميلاد قوّض فيروز ملك الفرس (٤٦٠–٤٨٤ م) هذا الدير الفخم مع ما قوضه من البيع والديارات(٢) . واتلف حدائقه ومكتباته وجميع امتعته . لكن النساطرة عمدوا الى ترميمه في عهد الخلفاء العباسيين . وظل عامراً بالرهبان الى عهد الفطرك ايليا الثالث (١١٧٦ – ١١٩٠ م) المعروف بابي الحليم الذي جدد سوره(٣) . وبعد هذا التاريخ انطمس ذكره واضمحل ما كان فيه .

٤ – مكتبة النساطرة في اورمية

بين الخزائن التي حفلت منذ العصور الخالية بمخطوطات نفيسة خزائن كتب النساطرة في اورمية بالعراق الفارسي . وقد انشأها الفطاركة هناك منذ اعرضوا عن السكنى في بغداد واتخذوا اورمية مقراً لهم . وتم ذلك في السنة ١٦٢٥ بمساعي الفطرك الجاثليق شمعون الحادي عشر (١٦٢٥ – ١٦٥٦) وخليفته شمعون الثاني عشر (١٦٥٦ – ١٦٦٢) وظلت مكتبة النساطرة عامرة في اورمية حتى عفا اثرها في اواخر الحرب العظمى . واليك ما سطره الارخدياقن يوسف احد علماء النساطرة في الزمان الحاضر مؤيداً ذلك بقوله (٤) :

« فررنا من اورمية عام ١٩١٨ وتركنا فيها كل ما ملكته يدنا كما تركنا ايضا الوفا من الكتب في جملتها اربعمائة مجلد من اقدم الكتب عهداً . وبين تلك المخطوطات

---

(١) ياقوت الحموي : معجم البلدان : جزء ٢ صفحة ٦٨٧

(٢) تاريخ ماري بن سليمان : صفحة ٤٢ (٣) المجدل : لعمرو بن متى : صفحة ١١١

(٤) مقدمة كتاب « المرجانة » المطبوع في الموصل سنة ١٩٢٤

اربع عشرة نسخة مكتوبة على جلد الغزال يرتقي عهد نساختها الى ما قبل الف وخمسمائة سنة . فهذه المخطوطات باجمعها قد اتلفها غير المؤمنين وفتكوا في السنة ١٩١٨ بالجاثليق بنيامين شمعون التاسع عشر (١٩٠٣ — ١٩١٨) . ثم قام بعده في الجثلقة اخوه بولس شمعون العشرون (١٩١٨ - ١٩٢٠) »

٥ - مكتبة فطاركة النساطرة في قودشانيس

قودشانيس ويقال قوجانس او قوشانس(١) بلدة مقدسة عند النساطرة اتخذها فطاركتهم او جثالقتهم الشمعونيون عاصمة لكرسيهم في عهد دنحا شمعون الثالث عشر (١٦٦٢ - ١٧٠٠) . ولبثوا يتسلسلون هناك حتى الجاثليق ايشاي شمعون الحادي والعشرين الذي جلس سنة ١٩٢٠ على كرسي المشرق . وهو يقيم في جزيرة قبرس لدواع سياسية . اما الآن فهو موجود في الولايات المتحدة الاميركية للدفاع عن مصالح ملته .

وكان لدى اولئك الجثالقة خزائن كتب وافرة ورثوها عن اسلافهم فاحتفظوا بها على رغم ما اصابهم واصابها من فواجع الحروب ونكبات الدهر . ونظراً الى خطورة تلك المكتبة الجاثليقية فان المستشرق الكبير بولس بيجان (+ ١٩٢٠) استحضر منها ومن مكاتب اخرى للنساطرة مخطوطات شتى كما اثبت في مقدمات الكتب العديدة التي نشرها في بلاد اوروبا .

على ان عدداً غير يسير من نفائس كتب النساطرة قد شُحن الى مكتبات الغرب في آونة مختلفة . وآخر مَن نقل اليها من تلك الكنوز على ما عرفنا كان القس وِغرام المرسل البروتستاني(٢) . وكانت تحوي مخطوطات نادرة بينها انجيل مصوّر يُعد من التحف البديعة . وفي مكتبتَي باريس ولندن اناجيل مصوّرة ايضاً مصدرها مكتبات النساطرة(٣) .

---

(١) قودشانيس : لفظ سرياني يراد به « البلد المقدس » وقد صحفه العامة فقالوا «قوجانس» او قوشانس (٢) J. Tfinkdji L'Eglise Chaldéenne Catholique p. 26

(٣) المشرق : مجلد ١٠ سنة ١٩٠٧ صفحة ٨٤٥

ثانياً : مكتبات الكلدان

١ ـ الخزانة البطريركية في الموصل

مرّ بنا الكلام عن خزائن كتب الكلدن في دياربكر وماردين وسعرد ونحصر البحث هنا عن خزائنهم في العراق حيث مركز بطريركيتهم وأهم دياراتهم. وتحتوي الخزانة البطريركية على ما سلم من المخطوطات التي كانت محفوظة في كرسي بطريركية آمد وكرسي بطريركية بابل الكلدانيتين قبل توحيدهما. وقد جرى هذا التوحيد منذ ٥ تموز ١٨٣٠ فحُصر بصاحب الكرسي البابلي الذي اتخذ مدينة الموصل مركزاً له ولخلفائه من بعده.

وقرأنا مقالة للقس سليمان صائغ الكلداني عنوانها « تراث الاقدمين » ضمنها وصفاً وافياً للخزانة البطريركية الكلدانية نقتطف منها ما يلي قال (١) :

« نعم في الشرق نفسه خزائن كتب هي تراث الاقدمين ومخلفاتهم توقد الارواح امامها قناديل تعظيما واحتراماً. وتطوف بها عناية عشاقها وهواتها ضناً بها من التلف. ومن هذه الخزائن خزانة الكتب في دار البطريركية الكلدانية بالموصل، وهي تشتمل على مئات المخطوطات الثمينة ... بعضها على الرقوق. ومنها على ورق اسمانجوني من صناعة القرن الحادي عشر تترصع فيه الآيات الانجيلية بمحاول الذهب كانها النجوم متلألئة في القبة الزرقاء ... ».

ومن الآثار الكتابية النفيسة المصونة في تلك الخزانة البطريركية فرمانات باسم الجاثليق شمعون الثالث : وجه اولهما اليه السلطان يعقوب التركماني عام ١٤٩١ للميلاد. وبعث اليه بثانيهما السلطان قاسم التركماني سنة ١٤٩٤ م

---

(١) مجلة « النجم » بالموصل : للقس سليمان صائغ : مجلد ١٠ سنة ١٩٣٨ صفحة ٢

٢ ـ مكتبة دير الربان هرمزد ومكتبة دير السيدة

بجوار قرية ألقوش قريباً من الموصل جبل قام في صدره حصن منيع يُطلّ على وادٍ تخمد عند صخوره جلبة البشر واباطيل الدنيا . وما ذاك الحصن الا دير قديم يُنسب الى الرّبان هرمزد الفارسي الذي عاش في القرن السابع للميلاد . ويمتاز هذا الدير بان كنيسته وغرفه العديدة ومائدة رهبانه منقورة كلها بالصخر(١)

ولما كان الاستاذ كوركيس حنا عوّاد قد نشر اخبار دير الرّبان هرمزد في كتابه « اثر قديم في العراق » فاننا ننقل ما رواه عن مكتبة هذا الدير العريقة في القدم قال(٢) :

« كانت المكتبة في عهدها الاول تحتوي على عدد كبير من المخطوطات التي لا تُثمّن لنفاستها . وقد كانت مكتنزة في غرفة صخرية لا تزال موجودة بدير الرّبان هرمزد . ولكن الظروف القاسية التي انتابت هـــذا الدير وما احاط به من نكبات وخاصة عندما هجم الاكراد عليه حوالي سنة ١٨٤٤ فنكبوا الرهبان . وأعملوا على التدمير واولعوا النيران في البناية وقتلوا كل من عثروا عليه . وقد أتيح للرهبان تهريب نحو خمسمائة مخطوطة عن عيون اولئك المهاجمين وايداعها في قبو قديم عند رابية مجاورة للدير . ولكن سوء الحظ رافق تلك الكتب حتى أتى على آخرها . وذلك انه كان قد سقط مطر مدرار غزير وسال تياره من اعالي الجبل . فاجتاح ذلك السيل لدى نزوله كلاً من الكتب والبناية التي تحويها معاً . ولم يعد في الامكان رؤية شيء منها بعد ذلك . وهناك عدد عظيم من المخطوطات كان قد أتلفه الاكراد فقطعوها ارباً على مرأى من الرهبان . ورموا باجزائها في تلك الوهاد التي لا قعر لها ولا حد . فساقها تيّار الوادي الذي كان يسيل بجانب الدير .

---

(١) رحلة حديثة الى الشيخ عادي والربان هرمزد : للقس سليمان صائغ : صفحة ٥

(٢) اثر قديم في العراق : بقلم كوركيس حنا عواد : صفحة ٥٠ - ٥٤

« ان تلك الكتب كانت ذات نفاسة وقيمة كبيرتين . فقد قال عنها ريش Rich وقتئذٍ ... كان محفوظاً سابقاً في هذا الدير نحو خمسمائة مجلد من المخطوطات... المكتوبة على الرق . ولكنها بالنتيجة كانت قد مُزّقت ارباً ارباً ورميت في الوادي فتقاذفها الهواء واخذ في مداعبتها حتى تركها هباء منثوراً . وقد عُرض امامي بعض الاوراق المبعثرة لأتفرّج عليها فكانت ولا مراء من انفس الآثار القديمة .

« كما ان البعض منها كان قد أحرق . واما ما تبقى فقد نقل بانتقال الرهبنة سنة ١٨٦٩ الى دير السيدة . ومن ثم صار يُطلق عليها اسم (مكتبة دير السيدة) .

« وقد ذكر فلايتشر في كتاب رحلته شيئاً عن المكتبة التي كانت بهذا الدير قبل نقلها الى دير السيدة فقال ... وفي الصباح زرت المكتبة التي كانت ايضاً مغارة (صومعة) وكان قد انتثر على ارضيتها اوراق المخطوطات الممزّقة والاغلفة النصف محترقة . تلك التي تحملت بعض التحمل تدمير المخربين . وقد كان الرهبان مكبين على استنساخ شيء من تلك القطع التي لا تزال قراءتها ممكنة وذلك على ورق مشابه للرق في مظهره . اما الحبر الذي يستعملونه فيمتاز بلونه اللماع الجميل . وهم يكتبون باقلام القصب ويستغنون عن المائدة او الدرج بل يضعون الورق على ركبتهم .

« والمكتبة في الوقت الحاضر مخزونة بدير السيدة في ثلاث غرف صغيرة بالطابق الارضي . الواحدة بجانب باب الكنيسة والاثنتان الاخيرتان بصدر الدير . وتضم هذه الغرف عدداً كبيراً من الكتب كما ان فيها الشيء النفيس من المخطوطات ... على ان بينها عدداً وافراً من الكتب الادبية والتاريخية والفلسفية والدواوين الشعرية التي صدرت منذ مئات السنين حتى اليوم ... وللمكتبة بعض الفهارس وضعها اهل الفضل والعلم غيرة على الدير والعلم معاً ... ولكن مخطوطات الدير في الوقت الحاضر تبلغ ثلاثمائة وخمسين كتاباً ... فهناك عدد من النساخ ينسخون للدير كثيراً من الكتب التي لا وجود لها في هذه المكتبة فيتسع بهذا عددها ... »

٣ ـ مكتبات الكلدان في ضواحي الموصل

ما عدا الديرين المومأ اليهما ففي القرى المأهولة بالكلدان حول الموصل مخطوطات متفرقة في الكنائس وبعض بيوت الكهنة . وقد استفاد منها الاب لويس شيخو اثناء سياحته الشهيرة عام ١٨٩٥ من بيروت الى الهند بما اثبته عن تاريخ الآداب العربية النصرانية في الضواحي المذكورة . وقد شاهد فريقاً من ابناء تلك القرى المولعين بدرس آداب اجدادهم ينقلون الكتب القديمة ويرسمون تصاويرها بدقة وامانة .

٤ ـ مكتبة اسكندر مُسيح في بغداد

بين ادباء الكلدان في بغداد المولعين بجمع الكتب نثبت اسم اسكندر بن داود مُسيّح . فقد روى عنه الاب انستاس الكرملي في مجلته « لغة العرب » ان لديه كتباً قديمة كثيرة في مواضيع مختلفة(١) .

ثالثاً ـ مكتبات السريان الارثوذكس

كان للسريان في سابق عزّهم مكتبات جمة اخنى عليها الزمان . ونكتفي هنا بذكر مكتبتين منها وهما : مكتبة تكريت ومكتبة دير الشيخ متى :

١ ـ مكتبة مفارنة المشرق في تكريت

لم تكن مكتبة تكريت اقل شاناً من مكتبات سائر البلدان الشرقية . بل كانت بلا ريب غنية بالثروة العلمية لانها كانت قاعدة لمفارنة المشرق منذ القرن السابع . وبين اولئك المفارنة اشتهر عشرات من افاضل المؤلفين الذين خلفوا في

---

(١) مجلة « لغة العرب » سنة ١ صفحة ١٨٦

العلوم آثارا خالدة . نذكر منهم شمعون الاول برصباعي (+ ٣٤١) وآبا (+٥٥٢) وآحو دامه (+٥٧٥) وماروثا (+٦٤٩) واغناطيوس برقيقي (+٩٩١) الخ . ونضيف اليهم بعض اعلام الكتبة التكريتيين كانطون المعروف بالبليغ نحو سنة ٨٢٠ . ويحيى بن جرير المتطبب واخيه الفضل بن جرير وهما من علماء القرن الحادي عشر للميلاد .

وكانت خزائن كتب المفارنة غاصة بالمخطوطات النادرة التي اجهز عليها الغزاة الكثيرون الذين تتابعوا في حكم بلاد ما بين النهرين . واعظمهم شراً كان الطاغية تيمور الذي استولى على هذه المدينة سنة ٧٨٩ للهجرة (١٣٨٧ م) فدمّر منازلها وثلّ معابدها واستباح دماء سكانها . وقد بنى ابراجاً من رؤوس الناس كما فعل في حلب وبغداد واصفهان(١)

٢ ـ نقل مخطوطات من تكريت الى مصر

مما نسطره بالاعجاب عن اهل تكريت انهم كانوا شديدي الحرص على خزائن المخطوطات التي كانت مدينتهم حافلة بها . لانهم بالرغم مما اصابها من النكبات كما اشرنا فقد تمكنوا ان يخفوا منها ما استطاعوا اليه سبيلاً . وخيفة ان تلحق الرزايا بهذه البقية ايضاً نقلوها الى دير السيدة بصعيد مصر والى غيره من الاديار . ولبلوغ هذه الغاية كابد رهبانهم وتجارهم مشقات السفر يطوون الجبال والبطاح حتى اوصلوها سالمة على ظهور البغال والجمال الى الدير المشار اليه .

وظلّت كتب التكريتيين هناك يتداولها الطلاب واهل البحث حتى تبعثر اكثرها بتقهقر الدير وتناقص عدد رهبانه . ولحسن حظ العلماء اقتنى بعض السياح طائفة من تلك المخطوطات ونقلوها الى مكاتب اوروبا ولا سيما الى الفاتيكان وميلان وبرلين وباريس ولندن واكسفرد . وقد شاهدنا بعيننا في المكتبة البطريركية

---

(١) دائرة المعارف للبستاني : مجلد ٦ صفحة ٢٩٧

السريانية ببيروت لعهد البطريرك اغناطيوس افرام الثاني بعض رقوق كانت في مكتبة تكريت[1] يرتقي عهد نساختها الى القرن التاسع للمسيح .

وقد حفظ النساخ الذين طالعوا مخطوطات دير السيدة بالصعيد اطيب تذكار للتكريتيين اعترافاً بفضلهم وشكراً لكرمهم على تلك التحف السنية . فسجلوا لهم في بطون اغلب تلك المخطوطات عبارات ثناء وترحم هذا مؤداها : « فليكن ذكر جميل طيب للرجال التكريتيين الافاضل الذين وقفوا هذا الكتاب لدير والدة الله تغمد الرب نفوسهم ونفوس آبائهم بجزيل مراحمه »

٣ ـ وصف دير الشيخ متى

من اقدم اديار العراق دير الشيخ متى شرقي الموصل . وهو مشيد فوق جبل شامخ يقال له جبل الفاف او جبل متى (٢) يطل على نينوى القديمة . بينه وبين الموصل سبعة فراسخ . ويرتقي عهد بنائه الى اواسط القرن الرابع للتاريخ المسيحي . وكان يسكنه يوم عزه اكثر من مائة وخمسين راهباً قد انقطعوا الى الحياة الزهدية واقتباس المعارف ونساخة الكتب وضبط نصوصها .

ومنذ القرن السادس اصبح هذا الدير مركزاً للمفارنة (٣) الذين كانت لهم كرامة الرئاسة على جميع الاديار والابرشيات في الاقطار العراقية والفارسية وجزيرة العرب . واشتهر بينهم ماروثا المفريان (٦٣٩ ـ ٦٤٩) الكاتب الشهير . ونبغ في ذلك العهد علماء عديدون اخصهم رُميشوع وشقيقه جبرائيل والمتطبب جبرائيل السنجاري في نحو السنة ٦٠٠ للميلاد . وفيه اضرحة مفارنة كثيرين اشهرهم ابو الفرج ابن العبري المؤرخ الذائع الصيت (+ ١٢٨٦) .

---

(١) راجع ايضاً كتاب (المباحث الجلية) للبطريرك افرام الثاني صفحة ٣٧٨

(٢) ياقوت الحموي : صفحة ٢٩٤ (٣) ان مرتبة المفريان عند السريان تحاكي في الرئاسة والسياسة مرتبة الجاثليق عند النساطرة وهي تتوسط بين الكرامة البطريركية والدرجة المطرانية .

٤ ـ مكتبة دير الشيخ متى ونفائسها

اما مكتبة دير الشيخ متى فكانت تُعد من اقدم مكاتب الشرق عهداً واوفرها ثروة . وكانت غنية بالمخطوطات النادرة المثال التي ذاع امرها في البلاد[١] . يؤيد ذلك طيمثاوس جاثليق النساطرة (+ ٨٢٣) في رسالته الثالثة والثلاثين اذ كتب الى رئيس الدير في استنساخ بعض محتوياتها النفيسة .

ومن أثمن ما انطوت عليه هذه الخزانة نسخة قديمة جليلة تُدعى « هكسيلة » تشتمل على العهد القديم للكتاب المقدس كُتبت كل صحيفة منها في ستة اعمدة[٢] وقد استعان طيمثاوس المشار اليه بجبرائيل بن بختيشوع (+ ٨٢٨) كاتب ديوان الخليفة عبدالله المأمون وطبيبه في استحضار هذه النسخة الى بغداد واستكتابها . وكانت هكسيلة دير مار متى مكتوبة على رقوق بخط نصيبيني بديع . وما كاد يظفر بها الجاثليق حتى استدعى ستة نساخ وكاتبين من جهابذة بغداد يُمليان عليهم فنسخوها كلها بالضبط الكامل . ونقل الجاثليق عينه ثلاث نسخ عنها من العهد القديم بخط يده في مدة ستة اشهر[٣] كما اثبت ذلك في رسالته السابعة والاربعين .

٥ ـ تبعثر مكتبة الشيخ متي واضمحلالها

تتابعت نوائب الدهر على هذه المكتبة الاثرية كما تتابعت على غيرها من المكتبات فضعضعتها وأتلفتها . من ذلك ان برصوما النسطوري (+٤٩٦) احرق جانباً عظيماً من مخطوطاتها . وقد اثبت ذلك ميخائيل الكبير (+ ١١٩٩) نقلا

---

(١) مجلة الآثار الشرقية : مجلد ٣ سنة ١٩٢٨ صفحة ١٧

(٢) وهي النسخة التي طبعها بالنور والحجر العلامة تشرياني (A. Ceriani) في ميلانو سنة ١٨٧٦ في مجلدين (المشرق : مجلد ٢٣ سنة ١٩٢٥ صفحة ٥٨٩) ومنها نسخة في دير الشرفة .

(٣) مجلة الآثار الشرقية : مجلد ٣ صفحة ١٨ (سنة ١٩٢٨)

عن وثائق كانت محفوظة لعهده في خزائن الشيخ متى (١) . ونشر نصّها في مؤلفه «تاريخ الازمنة» الذي طبعه المستشرق شابو بباريس في ثلاثة مجلّدات . ومنها اسفار جمّة تبعثرت في البلاد الشرقية والغربية .

وفي السنة ١١٧١ هجم زهاء الف وخمسمائة كردي على دير الشيخ متى ونهبوه وقتلوا خمسة عشر من رهبانه وفرّ باقي الرهبان الى نواح مختلفة . ولما انكشف الاكراد عنه عاد الرهبان فجمعوا الكتب والمصاحف ونقلوها الى الموصل (٢) . وبعد هذا انقلب الاكراد انفسهم فشنّوا الغارات العديدة على هذا الدير عام ١٢٦١ و١٢٨٢ و١٣١٩ ميلادية . واخيراً نهبه التتر بقيادة مردنشاه يوم الاحد ٢٥ آب عام ١٣٦٩ واستحوذوا على موجوداته المادية وذخائره الكتابية (٣) .

هكذا تبدّدت مخطوطات هذا الدير القديمة التي كانت تحتوي على انفس الآثار . بينها الفرمانات او البراآت التي كان خلفاء بغداد فملوك التتر يؤيدون بها المفارنة في كراسيهم ويوجهونها اليهم مكتوبة على رق غزال . نذكر من جملتها الفرمان الذي ناله العلامة ابو الفرج ابن العبري من احمد ملك التتر يوم زاره في الطاق عام ١٢٧٩ ميلادية وحضر حفلة تتويجه (٤) .

رابعاً ـ مكتبات السريان الكاثوليك

١ ـ مكتبة كرسي مطرانية الموصل

قليلة هي مكتبات السريان الكاثوليك في الديار العراقية . وأهمها خزانتا

---

(١) الابحاث السريانية Studia Syriaca للسيد رحماني جزء اول : صفحة ٣٢

(٢) المشرق : مجلد ٢٢ سنة ١٩٢٤ صفحة ٤٢٣ (٣) المشرق : مجلد ٢٢ سنة ١٩٢٤ صفحة ٥٢٣

(٤) المشرق مجلد ٢٢ سنة ١٩٢٤ صفحة ٥٢٠

مطرانية الموصل ومطرانية بغداد . وفي كلتيهما طائفة من المخطوطات التي نجهل عددها اذ لم يتصدّ احد قبل هذا التاريخ لوضع فهارسها .

واحتوت خزانة كرسي الموصل على نسخة من كتاب « الديدسقاليا » اي تعليم الرسل مكتوبة على رق الغزال ويرتقي عهدها الى القرن الثامن للميلاد . ومن نفائس تلك الخزانة انجيل ضخم كُتب في القرن الثالث عشر للميلاد يبلغ طوله ٦٠ سنتمتراً وهو مزدان بصور مستبدعة ملوّنة يزيد عددها على الخمسين صورة . ومما يلفت الابصار ان جميع فصول الاناجيل التي تُقرأ في الاعياد الممتازة مدوّنة في هذا الكتاب الفريد بحروف ذهبية وملوّنة .

وقد اسعدنا الحظ فتصفّحنا هذين الاثرَين النفيسين وغيرهما من المخطوطات الثمينة التي نقلها السيد فورلس جرجس دلال مطران الموصل عام ١٩٣٨ الى رومة . واهداها برمّتها باسمه واسم ابرشيته السريانية الموصلية الى المكتبة الواتكانية . وقد صرح العارفون بالمخطوطات القديمة ان لهذه التحف الكتابية قيمة اثرية كبرى فضلاً عن قيمتها المالية .

وفي عهدنا هذا اخذ رهبان دير مار بهنام القائم بجوار الموصل ينشئون مكتبة على انقاض مكتبتهم الشهيرة القديمة . وقد اهدى اليها مؤلف هذه السطور طائفة من الكتب في علوم شتى تعزيزاً لها .

٢ ـ مكتبة رزوق عيسى في بغداد

من الاسر الكاثوليكية التي اشتهرت بجمع الكتب في العراق منذ عهد بعيد اسرة الشماس يعقوب قمر . وهو الجد الاعلى للاديب رزوق عيسى (+١٩٤١) منشىء مجلة «العلوم» ومجلة « المؤرخ » في بغداد . غير ان النكبات التي انتابت تلك الاسرة ولاسيما اثناء تفشي الهواء الاصفر في السنتين ١٨٣٠و١٨٣١ اجهزت على اغلب افرادها وقضت على خزانة مخطوطاتهم . ومن جملة ما كانت

تحتويه كتاب « الكنز الثمين في اخبار الذميين على عهد الخلفاء المسلمين (١) » «.و كتاب آخر لا يقل عنه خطورة يتناول اخبار يهود العراق منذ القرون القديمة.

وقد جدّد رزوق عيسى خزانة اجداده فاطلق عليها اسم «خزانة المؤرخ» تيمناً بعنوان مجلته المشار اليها . وهي تنطوي على الف وخمسمائة مجلد من المطبوعات مع طائفة صالحة من المخطوطات التي نذكر منها : « عنوان المجد في احوال بغداد والبصرة ونجد » وكتاب « غاية المرام في تاريخ محاسن بغداد دار السلام » . وغيرهما

خامساً : مكتبات اللاتين

١ - الخزانة الشرقية للرهبان الكرمليين ببغداد

للرهبان الكرمليين ببغداد مكتبتان احداهما « الخزانة الشرقية » والثانية « الخزانة الغربية » . وقد نُهبتا كلتاهما في ١٦ شباط ١٩١٧ اثناء الانقلاب العثماني في بغداد . وكانتا تشتملان على عشرين الف مجلد بينها ٢٧٥٣ مخطوطاً عربياً .

تأسست الخزانة الشرقية عام ١٨٩٤ بعناية الاب انستاس ماري الكرملي (+ ١٩٤٧) عضو المجمع العلمي العربي بدمشق ومجمع اللغة العربية الملكي بالقاهرة وهو لبناني النحلة يتحدّر من اسرة عوّاد في قرية بحرصاف . وقد استطاع هذا الاب العلامة استعادة طائفة من المخطوطات المنهوبة لكن بينها كتباً غير تامة الاجزاء وممزقة الاطراف . وهو من اعظم هواة المخطوطات العربية قد دفع اثماناً باهظة في اقتناء بعضها . ووصف الاستاذ منير وهيبه حياه هذا العلامة ومكتبته(٢) بجريدة البيرق البيروتية نقتطف من حديثه ما يلي :

---

(١) مجلة لغة العرب مجلد ٣ صفحة ٣٤٦

(٢) جريدة البيرق البيروتية عدد ٤٥٣٩ و ٤٥٤٧ سنة ١٩٤٧ بقلم الاستاذ منير وهيبه

« طفت دير الكرمليين ببغداد وشاهدت الجناح الشرقي منه حيث المكتبة فوجدتها مبعثرة هنا وهناك في شتى الغرف محتفظة الفناء بعد عليها ظل من الاهمال كتب متراصة فوق المكاتب وتحتها وعلى الرفوف ووسط الغرف يكسوها عنصر شامل من الغبار والكرملي انستاس بين ركام الكتب والمخطوطات الوافرة والنادرة التي لا يقل عددها عن التسعة عشر الف مجلد. وقد اطلعني الاب انستاس على مخطوطة قاموسه العربي « المساعد » في ثمانية مجلدات ضخمة ناهجاً بترتيبها منهج الموسوعات الاعجمية من حيث الوضع وايجاد الكلمة بدون تجريدها وردّها الى اصلها ... وبقطع النظر عما في هذه الخزانة من المطبوعات الثمينة نكتفي بذكر بعض مخطوطاتها النادرة وهي :

كتاب « مثالب العرب » لابن قتيبة . وكتاب « مثالب العرب » لابن هشام وكتاب « العين » للخليل وهي اصح نسخة عُرفت حتى اليوم . ولهذا الكتاب بعض نسخ في مكاتب العراق ولكنها لا تضاهيه لانها غير تامة او مختصرة او دونها في الضبط والصحة . وفي الخزانة الشرقية كتاب « ديوان العرب » للفارابي (غير الفارابي الفيلسوف) وهو في مفردات اللغة . وكتاب « السموم » في المواد السامة عند العرب . وكتاب « الخصائص » وكتاب « سر الصناعة » وكلاهما لابن جني . وفي جملة ما نُهب من هذه الخزانة « القرآن » كتبه الخطاط الشهير ياقوت المستعصمي المتوفى سنة ٦٩٨ للهجرة (١٢٩٨ م) .

٢ ـ مكتبة الرهبان الدومنكيين بالموصل

للرهبان الدومنكيين فضل يُشكرون لأجله في تعزيز اللغة العربية بالموصل . وهم اول من اغنى قاعدة ديار الجزيرة بصناعة الطبع التي كانت مجهولة هناك . ففي السنة ١٨٦٠ اسسوا مطبعة جهزوها بحروف عربية وسريانية وافرنجية ونشروا فيها كتباً في شتّى العلوم . وقد لقي الآباء الدومنكيون في العلامة

الخوري يوسف داود السرياني احسن عضد لترقية مطبعتهم بما الفه وعرّبة وأصلحه من الكتب العديدة مدة نيّف وعشرين سنة (١) . ثم رأى الرهبان الدومنكيون ان يتوّجوا مساعيهم في تعزيز اللغة العربية بانشاء مكتبة في ديرهم . فجمعوا ما احتاجوا اليه في ابحاثهم من الاسفار العلمية والدينية ما بلغ مجموعه نيفاً وخمسة آلاف مجلد .

٣ ـ مكتبة القصادة الرسولية بالموصل

أسّسها القاصد الرسولي السيد هنري امانتون في منتصف القرن التاسع عشر . وفيها الآن ثلاثة آلاف وخمسمائة مجلد في اللغة العربية وبعض اللغات الاوروبية . ولما نشبت الحرب العظمى (١٩١٤ ـ ١٩١٨) امر السيد يوحنا درور القاصد الرسولي في ذاك الحين باخفائها واخفاء مكتبة الرهبان الدومنكيين معها حذراً من ان تلعب بها ايدي الجهلة والناهبين . هكذا سلمت هاتان المكتبتان من كل غائلة .

سادساً ـ مكتبة يعقوب سركيس في بغداد

حاولنا مراراً جمة ان نقف على اخبار هذه الخزانة فلم نظفر بضالتنا . فاضطررنا ان نلجأ الى بعض اصدقائنا العراقيين ممن عرفوا تلك الخزانة حق المعرفة واطّلعوا على ذخائرها لنكتب شيئاً عنها . فاثبتوا لنا انها اغنى مكتبة خطية في بغداد ان لم يكن بوفرة مجلداتها فبمزاياها الفريدة وتعدد مواضيعها . ويقال ان اوسع ما اشتملت عليه خزانة يعقوب سركيس هو قسمها في التاريخ والتراجم فقد اصبح مرجعاً من اوثق المراجع لأهل البحث في تلك الديار .

---

(١) المشرق : مجلد ٥ سنة ١٩٠٢ صفحة ٤٢٣ ـ ٤٢٤

سابعا : مكتبة المبشرين الانكليز في الكويت

للمبشرين الدينيين الذين يفدون قادمين من اوروبا الى الامصار الشرقية خطط شتى ينتهجونها لترويج مصالحهم وتسهيل اعمالهم . من ذلك فتحهم المدارس والمكتبات وتأسيسهم المياتم والمستشفيات وتعليمهم الصنائع والفنون وانشاؤهم الصحف والمطابع وتوزيعهم الصدقات والارزاق الى غير ذلك من الشؤون الحيوية والعمرانية .

وقد نمي الينا من هذا القبيل ان اربعة من هؤلاء المبشرين انطلقوا مع زوجاتهم منذ بضع سنوات الى مدينة الكويت (١) الآهلة بالمسلمين . وابتنوا هناك مستشفى لمعالجة المرضى وأسسوا مكتبة لتثقيف الشبان جهزوها بالكتب والاثاث . وروى الاستاذ محمد لطفي جمعة في كتابه « حياة الشرق » ان المستشفى والمكتبة المذكورين ظلا كلاهما خاويين مدة اربعة اعوام لا يؤمها احد من اهل الكويت خيفة ان تتبدل عقيدتهم (٢) .

---

(١) راجع مقالة ضافية عن الكويت بقلم انستاس الكرملي في مجلة المشرق : مجلد ٧ سنة ١٩٠٤ صفحة ٤٥٠ فما بعد .

(٢) حياة الشرق : بقلم محمد لطفي جمعة : صفحة ٨١

الفصل السادس

خزائن كتب القطر المصري

اولا : مكتبات الاسكندرية

١ - المكتبة البطريركية في سالف العصور

نشرت مجلة « المشرق » نبذة مختصرة تتعلق ببحثنا اليك نصها بالحرف الواحد:

« زعم الزاعم ان العرب لما دخلوا الاسكندرية ليس فقط لم يجدوا مكتبتها الشهيرة التي انشأها البطالسة بل لم يَلقوا فيها مكتبة البتة . وقد سبق لنا في ذلك مقالة (المشرق ١٤ سنة ١٩١١ صفحة ٣٨٨) لا حاجة الى تكرار ادلتها . وها قد وقفنا بين اعمال احد المعاصرين وهو القديس انستاس السيناوي المتوفى سنة ٦٠٨ للمسيح على ذكر مكتبة واسعة يدعوها المكتبة البطريركية عاينها في الاسكندرية وكرّر ذكرها في كتابه « دليل الحياة » الذي نشره بالاصل اليوناني الاب مين . واثبت منها اسماء مخطوطات عديدة استعان بها لتنفيذ بدعة الطبيعة الواحدة . وناهيك به دليلا على اهتمام نصارى الاسكندرية بالمكاتب . وقد ورد في الكتاب عينه ذكر اربعة عشر ناسخاً كان انصار ساويرس أجروهم لنسخ الكتب مع تحريف بعض اقوالها وفقاً لبدعتهم . فان كان عدد النساخ المراطقة اربعة عشر فلا شك ان عدد الكاثوليك منهم كان يبلغ اضعاف ذلك[١] »

---

(١) المشرق : مجلد ١٤ سنة ١٩١١ صفحة ٦٣٨ و٦٣٩

وكان لهذه المكتبة البطريركية نظار وقوّام اشتهروا بمقدرتهم العلمية وتضلعهم من اللغات . نذكر منهم ايسيدورس الذي عاش في القرن السابع للميلاد[1] .

٢ ـ مكتبة بطريركية الاقباط

نرجّح ان هذه المكتبة التي كانت زاهرة في الاسكندرية قبل الفتح العربي ظلت زاهرة بعده ايضاً . لان بطريركية الاقباط كما روى القلقشندي لم تنتقل من الاسكندرية الى القاهرة الا في القرن الحادي عشر للميلاد . ثم ان التواريخ التي وصلت الينا لم ترو شيئاً عن تدمير تلك المكتبة كما روت عن غيرها من مكتبات عاصمة البطالسة . ومما يحملنا على هذا الترجيح انه قام في الاسكندرية بطاركة وكتبة مشاهير من اقباط وملكيين زيّنوا المنابر بخطبهم وافادوا المدارس بمصنفاتهم العربية . فكانوا بلا ريب يرجعون الى مكتباتهم في انشاء تلك الخطب او التآليف .

فمن علماء الاقباط وبطاركتهم نذكر : يحيى الاسكندراني النحوي[2] الذي نقل من تآليفه الى العربية كتاب « حدث العالم » وكتاب « تفسير على مقالة الترياق » لجالينوس وتفاسير بعض كتب ارسطو . وقس عليه ابا البركات الشيخ يعقوب بن منصور بن مفرّج الاسكندراني في القرن الثاني عشر للميلاد . فهو الذي تمم تاريخ سويرس ابن المقفع اسقف الاشمونيين الكاتب النحرير . ومنهم مرقس بن قنبر الضرير (+ ١١٨٩ م) وقد فنّد ميخائيل الكبير بطريرك السريان (١١٦٧ ـ ١٢٠٠ م) تعاليمه ومزاعمه

ومن علماء بطاركة الاقباط ابرام بن زرعة (٩٧٦ ـ ٩٨٠ م) وهو الثاني والستون في عدد البطاركة . وقد تولى الكرسي الاسكندري بعد مينا وكان خبيراً

---

(١) Migne P. G., col. 185

(٢) تاريخ مختصر الدول : لابن العبري : صفحة ١٧٥ ـ ١٧٦

بالقواعد الدينية . وجادل الملك المعز بحضور ابن المقفع[1] المشار اليه وتوفي مسموماً . ومنهم جبرائيل البطريرك في القرن الثاني عشر كان عالماً متضلّعاً من اللغة العربية التي اصبحت في عصره لغة المصريين . فصرف الهمة في نقل العهدَين القديم والجديد وسائر الكتب الطقسية الى اللسان العربي[2] .

ومن علماء بطاركة الاقباط ايضاً جبرائيل الثاني (١١٣١ - ١١٤٦ م) ويقال له ابن طارق وابو العلا صاعد . ثم كيرلس الثالث (١٢٣٥- ١٢٤٣ م) المشهور بابن لقلق [3] . ولكل من هذين البطريركين بضعة تآليف [4] وكان كيرلس الثالث من أهم بطاركة الاقباط العلماء المصلحين . وعاش في ايامه ابناء العسّال الثلاثة الكتّاب الاقباط المشهورون بتفسير الكتاب المقدس واللاهوت والتاريخ والحق القانوني [5] وهم : الرئيس المؤتمن ابو اسحق بن فخر الدولة واخوه الاسعد ابوالفرج هبة الله واخوهما الصفي ابو الفضائل ماجد [6] .

٣ـ مكتبة بطريركية الملكيين

جرى البطاركة الملكيون مجرى بطاركة الاقباط فأنشأوا في كرسيهم بالاسكندرية مكتبة حفلت بمخطوطات عربية جمة . ومن علمائهم الذين كتبوا باللغة العربية نذكر سعيد بن بطريق البطريرك مؤلف التاريخ العمومي المشهور باسمه . ويُعرف في سلسلة بطاركة الاسكندرية الملكيين باسم افتيشيوس . فقد ولد سنة

---

(١) المجلة السورية في مصر : للخوري بولس قرألي : مجلد ١ سنة ١٩٢٦ صفحة ٥٢٤-٥٢٥

(٢) تاريخ ميخائيل الكبير : صفة ٦١٣

(٣) صبح الاعشى : للقلقشندي : جدول بطاركة الاسكندرية .

(٤) الطرفة في مخطوطات دير الشرفة : صفحة ١٨٥

(٥) مجلة « المسرة » في لبنان : مجلد ٢٧ سنة ١٩٤١ صفحة ٢٩٠ - ٢٩٣

(٦) المخطوطات العربية لكتبة النصرانية : صفحة ١١ - ١٢

٨٧٧ وتولى الكرسي الاسكندري من السنة ٩٣٣ حتى السنة ٩٤٠ ميلادية [١] .

ومن تولى بطريركية الاسكندرية الملكية نذكر الانبا ايليا الذي جرت بينه وبين اغابيوس الاول بطريرك انطاكية (٩٧٨ - ٩٩٦ م) مراسلة باللغة العربية صدّرها بهذه الفاتحة : « بسم الله الرحمن الرحيم[٢] » .

ومن علماء الملكيين يحيى بن سعيد الانطاكي الذي دوّن في اواسط القرن الحادي عشر « ذيلاً » لتاريخ ابن بطريق المشار اليه . وبدأ هذا الذيل من السنة ٣٢٦ حتى السنة ٤٢٥ للهجرة (٩٣٧ - ١٠٣٤ م) . وقد طُبع تاريخ سعيد بن بطريق مع الذيل للمرة الاولى بعنوان « نظم الجوهر » في اكسفرد بانكلترا سنة ١٦٥٨ مع ترجمة لاتينية بقلم يوحنا سلداني وادورد بوكوك[٣] . وهذا التاريخ قد جدّد نشره الاب لويس شيخو في بيروت .

٤ ـ مكتبة جبرائيل مخلع

كان جبرائيل مخلّع من ذوي الادب والثراء في عصره ومصره . وهو اوّل من ساعد بماله وتنشيطه على نشر بواكير الجرائد العربية في مدينة الاسكندرية[٤] . وكان جدّه جبرائيل مخلع (+ ١٨٥١) الدمشقي النحلة عالماً فاضلاً ترجم من اللغة الفارسية كتاب « الجلستان » اي « روضة الورد » لصلاح الدين السعدي . فعرّبه تعريباً متقناً بنظم رائق ونثر مسجع منسجم ثم طبعه سنة ١٨٤٦ في بولاق[٥] .

ولم يكن الحفيد اقل ثقافة من جدّه اذ ورث عنه مع محبّة العلم محبّة جمع

---

(١) مجلة « المسرة » في لبنان : مجلد ٢٧ سنة ١٩٤١ صفحة ٢١٨

(٢) ذيل تاريخ سعيد بن بطريق : ليحيى بن سعيد الانطاكي : صفحة ١٥٠ والملكيون : للخوري اسحق ارملة : صفحة ٤٦

(٣) مجلة « الراعي الصالح » لبطريركية الروم بالاسكندرية : مجلد ١ سنة ١٩٤٠ صفحة ٦

(٤) تاريخ الصحافة العربية : جزء ٣ صفحة ٤٩

(٥) الآداب العربية في القرن التاسع عشر : للاب لويس شيخو : جزء ١ صفحة ١٠٥

الكتب . ولما ارتحل الى الاسكندرية عام ١٨٤٥ للاقامة فيها جلب معه مخطوطات جدّه الوافرة العدد . وانشأ منها مكتبة عامرة أنفق عليها عن سعة وضم اليهـا اسفاراً نادرة ومخطوطات ثمينة . وكان في ساعات الفراغ من اشغاله التجارية يعمد الى خزانة كتبه التي كانت سلوته في اشجانه وايام بؤسه . وبعد وفاته تبعثر قسم من تلك الخزانة النفيسة بداعي تغاضي اولاده عن صيانتها . واقتنى قسمها الآخر كل من يوسف باشا مخلع ابن شقيقه ومدير الجمارك المصرية وميشـال باشا ايوب وجرجس بن ميخائيل نحاس وغيرهم .

٥ ــ مكتبة نقولا نجيب سرسق

ليست هذه المكتبة من المكتبات العربية الصّرفة التي يشار اليها بالبنان . انما يُعد صاحبها من عشاق الكتب على اختلاف اللغات يجمعها ويعتني بتنظيمها واجادة تجليدها . وقد افرد لها في منزله دائرةً خاصة دبجها بخزائن بديعة ورياش فاخر . اما ما حدانا على ذكر مكتبته فهو ما عرفناه من ولعه الشديد باحراز المخطوطات العربية التي تبحث عن الموسيقى والغناء . فكلّف بعض هواة الكتب ان يلتقطوا له من جميع الامصار امثال تلك المخطوطات وكان يدفع لهم اثمانها بسخاء حاتمي .

واستنسخ نقولا سرسق او صوّر بالفوتغراف مخطوطات عربية موسيقية من اشهر مكتبات اوروبا ولاسيما من مكتبة فينا عاصمة النمسا . وقـد افادنا البحّـاثة يوسف اليان سركيس انه عثر لنقولا سرسق على طائفة معتـبرة من المخطوطات المذكورة . وكانت تلك النفائس تزيّن الخزانة السرسقية قبل اضطرار صاحبها الى بيعها لِما اصابه واصاب والده نجيباً من الخسائر المالية الفادحة .

٦ ــ مكتبة جبران نحاس

صاحب هذه الخزانة وُلد في بيروت واقتبس العلوم في مدرستها البطريركية

فاخرمن الثقافة قسطاً وافراً. ولفرط كلف السيد جبران نحاس بالعلم انشأ في منزله بالاسكندرية خزانة كتب نظم فيها طائفة معتبرة من آثار المتقدمين وتآليف حملة الاقلام المعاصرين. واضاف اليها قسماً من مكتبة استاذه العلامة الشيخ ابراهيم اليازجي(١٨٤٧ - ١٩٠٦) ومن مكتبة وردة اليازجي الشاعرة (١٨٣٨-١٩٢٤) وكانت من اغنى المكتبات وأنفسها. ومما يؤثر عنه انه مثابر على المطالعة والتنقيب والبحث فلا يكاد يسمع بمخطوط عربي مفيد في اية مكتبة كان من مكتبات الشرق والغرب الا سعى لتصويره او استنساخه.

وفي الخزانة النحاسية مجموع طريف اشتمل على غرائب المبتكرات في مواضيع شتى لا أثر لها في غيرها من الخزائن. نذكر منها اشعاراً غزلية وغرامية نظمها المطران جرمانس فرحات الشهير قبل ان يصير راهباً. وقد جمع هذا المخطوط الشيخ ناصيف اليازجي فكان يحرص عليه ويكثر من مطالعته. ومن مخطوطاتها النادرة كتاب «المحكم» في اللغة لابن سيدة الاندلسي الاعمى.

٧ - سائر المكتبات النصرانية في الاسكندرية

أهم المكتبات النصرانية بالاسكندرية ينحصر اليوم في مكتبتين وهما: مكتبة اسعد باسيلي باشا (+ ١٩٤٠) ومكتبة رشيد بك شميل مؤسس جريدة «البصير». وكان في الاسكندرية مكتبة ثالثة انشأها جرجس بن ميخائيل نحاس نسيب آل اليازجي. فان خزانته حوت نسخة كاملة من كتاب «مصر للمصريين» في تسعة مجلدات. وقد ألفه جرجس نحاس بالاشتراك مع سليم نقاش البيروتي[١] «وغير خاف ان الحكومة المصرية تقدمت باحراق المجلدات الثلاثة الاولى من الكتاب المومأ اليه قبل توزيعها. فلم يسلم منها سوى هذه النسخة الوحيدة التي انقذها جرجس نحاس واحتفظ بها في مكتبته.

---

(١) تاريخ الصحافة العربية: جزء ٣ صفحة ٣٢ - ٣٣

ثانياً : مكتبات القاهرة

١ ـ مكتبات الاقباط عموماً

أقدم المكتبات النصرانية في القطر المصري هي بلا ادنى ريب مكتبات الاقباط . وكان أهمها مصوناً في دياراتهم التي بلغت في عهد الانبا بطرس الرابع بطريرك الاقباط (٥٦٧-٥٦٩ م) الاسكندري ستمائة دير[١] للرهبان والراهبات. وناهيك ما كانت تحويه من مخطوطات عفا أثرها بخراب تلك الديورة التي لم يبقَ منها لعهدنا هذا سوى عدد ضئيل يُعدّ على اصابع اليد الواحدة .

ومعظم مخطوطات الاقباط مكتوب باللغة العربية التي اصبحت شائعة بينهم عندما أخذت لغتهم الاصلية تتضاءل وتتلاشى . اما مخطوطاتهم القبطية فعددها نقص كثيراً اذ نُقل اغلبها الى مكتبات اوروبا في فجر التمدّن الحديث على يد البعثات الدينية كاثوليكية وبروتستانية[٢] .

ومجموع المخطوطات القبطية عموماً لا يزيد الآن على ثلاثة آلاف مجلد في جميع انحاء القطر المصري على ما روى لنا البحاثة القبطي جرجس فيلوثاوس عوض يوم مروره ببيروت في شهر نيسان ١٩٣٦ . فمن ذلك العدد نحو ثمانمائة مجلد في المكتبة البطريركية وفي مكتبة المتحف القبطي ومكتبة بطريركية القبط الكاثوليك في القاهرة . اما سائرها فمحفوظ في الاديار القبطية وفي مكتبة دير طورسينا وفي مكتبات الافراد في وادي النيل وبلاد الحبشة .

ومن اندر المخطوطات التي احتوتها مكتبة الاقباط البطريركية بشارع كلوت بك كتاب « الذخيرة » تأليف ابي الحسن ثابت بن قرّة الحراني المتوفى سنة ٩٠٢

---

(١) كتاب وادي النطرون : للامير عمر طوسون : صفحة ٤٨ نقلاً عن تاريخ خطي للانبا مكاريوس

(٢) تاريخ آداب اللغة العربية : لجرجي زيدان : مجلد ٤ صفحة ١٢٩

ميلادية . وكان من مشاهير علماء الصابئة فخدم الخلفاء العباسيين ولاسيما المعتضد بالله . ولم يكن من يماثله في صناعة الطب ولا في غيرها من العلوم . وتصانيف ابن قرّة مشهورة بجودتها تدل على حذق مؤلفها . وفي السنة ١٩٢٨ اعتنى الدكتور ج. صبحي بطبع كتاب « الذخيرة » المشار اليه فنال ثناء ارباب الادب(١) .

٢ ــ مكتبة المتحف القبطي

بتاريخ ٢١ كانون الاول سنة ١٩٢٠ تعهّد المتحف القبطي صاحب الجلالة الملك فؤاد الاول يرافقه وزراء الدولة المصرية وكبار رجالاتها . فاشار باضافة مكتبة الى هذا المتحف تضم كل ما كُتب في شتى اللغات عن الاقباط وعن تواريخهم وآدابهم ومعتقدهم ولغتهم(٢) . وتبرع عليها حينذاك بخمسمائة جنيه مصري . وما لبث ان انهالت الاعطيات والهدايا على تلك المكتبة الحديثة من المعاهد الوطنية والاجنبية ولاسيما من دار الكتب المصرية والارسالية الفرنسية الاثرية ومن المتحف البريطاني في لندن ومتحف نيويرك الخ . وعدد مجلداتها الآن ٤٨٧٥ معظمها في التاريخ وعلم الآثار القبطية .

ويشاهد الزائر في مكتبة المتحف القبطي بعض مخطوطات مزدانة بصور وزخارف ملوّنة تجلى فيها الفن القبطي بابدع مظاهره . ومن اجمل تلك التحف انجيل قديم زيّنت صفحتاه الاوليان برسوم هندسية ظريفة ونقوش مذهبة . وقد كُتب عليه عنوانه بالخط الكوفي هكذا : « الانجيل الطاهر والمصباح الزاهر ينبوع الحياة وسفينة النجاة(٣) » .

---

(١) مآثر العرب في العلوم الطبية : للدكتور سامي حداد : صفحة ١٧

(٢) مجمع الآثار العربية : تأليف الرحالة ابراهيم السيد عيسى المصري : جزء ١ صفحة ١٠٤ ومجلة « المقتطف » : مجلد ٦٨ سنه ١٩٢٦ صفحة ٢٨٥ ــ ٢٨٦

(٣) مجلة جمعية محبي الفن القبطي : مجلد ٣ سنه ١٩٣٧ صفحة ١٧

ومن المخطوطات الثمينة في مكتبة هذا المتحف «تاريخ ابن زنبل» في فتوحات السلطان سليم الاول (٩١٨ - ٩٢٧ ﻫ و١٥١٢ - ١٥١٩ م) العثماني . وهـــذه المخطوطة وحيدة في العالم نسخها المؤلف بيده .

٣ - مكتبة المعهد العلمي المصري

لما جاءت الحملة الفرنسية الى مصر عام ١٧٩٩ رافقها عدد وافر من كبار العلماء . وانشأ لهم نابليون بونابرت معهداً علمياً سماه Institut d'Egypte وجهّزه بجميع مستحدثات ذلك العصر . غير انه ولئن كان هذا المعهد فرنسي النشأة واللغة لكنه كان مصري الهدف اذ أنشىء لخدمة مصر ونشر الحضارة والعلم بين المصريين والتنقيب عن آثارهم . وألحقت بالمعهد مكتبة معتبرة وصفها الجبرتي بقوله[١] :

« احدث الفرنسيون على التل المعروف بتل ّ العقارب بالناصرية ابنية وابراجاً ووضعوا فيها عدة آلات . وافردوا للعلماء والمصورين والكتبة والمنشئين مكاناً وضعوا فيه جملة كبيرة من كتبهم وعليها خزّان ومباشرون يحفظونها ويحضرونها للطلبة . ومَن يريد المراجعة فيراجعون فيها مرادهم . فتجتمع الطلبة منهم كل يوم قبل الظهر بساعتين ويجلسون في فسحة المكان المقابلة لمخازن الكتب على كراسي منصوبة موازية لتختات عريضة مستطيلة . فيطلب مَن يريد المراجعة ما يشاء منها فيحضرها له الخازن فيتصفحون ويراجعون ويكتبون حتى اسافلهم من العساكر .

« واذا حضر لهم بعض المسلمين ممن يريد الفرجة لا يمنعونه الدخول الى اعزّ اماكنهم ويتلقونه بالبشاشة والضحك واظهار السرور بمجيئه اليهم . وخصوصاً اذا رأوا فيه قابلية او معرفة او تطلعاً للنظر في المعارف بذلوا له مودتهم ومحبتهم .

---

(١) عجائب الآثار في التراجم والاخبار : تأليف عبد الرحمن الجبرتي : جزء ٣ صفحة ٣٥

واحضروا له انواع الكتب المطبوع بها انواع التصاوير وكرات البلاد والاقاليم وتاريخ القدماء وقصص الانبياء بتصاويرهم وآياتهم ومعجزاتهم وحوادث اممهم مما يحيّر الافكار .

« ولقد ذهبت اليهم مراراً واطلعوني على ذلك فمن جملة ما رأيته كتاب كبير يشتمل على سيرة النبي ومصوّرون به صورته الشريفة على قدر مبلغ علمهم واجتهادهم . وهو قائم على قدَميه ناظر الى السماء كالمرهب للخليقة . وبيده اليمين السيف وفي اليسرى الكتاب وحوله الصحابة بايديهم السيوف . وفي صفحة أخرى صورة الخلفاء الراشدين وفي الاخرى صورة المعراج والبراق والنبي راكب عليه من صخرة بيت المقدس . وصورة بيت المقدس والحرم المكي والمدني . وكذلك صورة الائمة المجتهدين وبقية الخلفاء والسلاطين الخ الخ . وهيئة صلاة الجمعة وصلاة الجنازة . وكثير من الكتب الاسلامية مترجم بلغتهم . ورأيت بعضهم يحفظ من سور القرآن . ولهم تطلع زائد للعلوم ... »

وانصرف اعضاء المعهد المصري الى تدوين الابحاث الدقيقة عن كل ما يتعلق بشؤون وادي النيل . فبرّزوا في هذه الحلبة ووضعوا تصانيف عديدة جزيلة الفائدة . وكشفوا القناع عن امور خطيرة بقيت لولاهم مجهولة لدى الاجيال . وكفى هذا المعهد فخراً ان احد اعضائه فرنسيس شمبوليون (١٧٩٠ — ١٨٣٢) هو اول من حل الغاز الكتابة المصرية الهيروغليفية . فانه توصل الى ذلك الاكتشاف عام ١٨٢٢ بواسطة كتابة قديمة نُقشت على حجر بثلاث لغات قد نُبشت في مدينة رشيد .

ومن ثمار ابحاث اولئك العلماء كتاب مصور عنوانه Description de l'Egypte اي وصف مصر . طبعته الحكومة الفرنسية بنفقتها وبقطع كبير في مجلدات كثيرة ولا يقل ثمنه عن ثلاثمائة جنيه ذهباً . ولهذا السفر الجليل نسخة كاملة في كل من دار الكتب اللبنانية والبطريركية السريانية ببيروت اهداهما اليها كاتب هذه السطور وقد اقفل المعهد المشار اليه لدى رجوع الحملة الفرنسية الى بلادها عام ١٨٠١ .

ولم يلبث ان أحيا بعض رجال العلم في الاسكندرية هذا المعهد العلمي عام ١٨٥٩ وسموه Institut Egyptien . وفي السنة ١٨٨٠ نقل مركزه الى القاهرة ولايزال فيها . اما مكتبته فاحتوت على نحو خمسة وعشرين الف مجلد في اللغات الفرنسية فالعربية فالانكليزية فالايطالية وغيرها . واكثرها يبحث في التاريخ والجغرافيا والرياضيات وعلم الآثار والزراعة والصناعة والفنون والآداب الخ . وقد جمعت هذه المكتبة الى رفوفها كل التآليف المعروفة التي تبحث عن مصر وعن احوالها منذ العصور الخالية الى العصر الحاضر (١) .

وفي ٢ كانون الاول ١٨٩٨ احتفل اعضاء المعهد المشار اليه احتفالاً باهراً بالعيد المئوي لتأسيسه : وقرروا ان يخلدوا تذكار ذلك اليوم المشهور بنشر كتاب عنوانه «السجل الذهبي» دوّنوا فيه خلاصة اعمال المعهد مدة قرن كامل . وقد ظهر هذا الاثر النفيس المزدان بالرسوم في السنة ١٨٩٩ باللغة الفرنسية (٢) .

٤ ـ مكتبة غلياردو بك

انشأ هذه المكتبة المستشرق الفرنسي شارل غلياودو بك (+ ١٩٢٧) ابن الدكتور غلياردو بك رئيس مدرسة القصر العيني الطبية. وسماها بلغته Musée Bonaparte لاحتوائها على اعظم مجموعة من المخطوطات والمطبوعات والمصورات والوثائق والآثار النفيسة عن الحملة الفرنسية الى مصر بقيادة نابليون بونابرت . وتفردت هذه المكتبة بالمواضيع الشرقية ولا سيا تاريخ مصر وفلسطين وسوريا ولبنان وجغرافية هذه البلاد وزراعتها واحصاآتها والرحلات فيها من اقدم الازمنة الى الآن .

---

(١) المشرق : مجلد ٣ سنة ١٩٠٠ صفحة ١٩٥

(٢) Le Livre d'or de l'Institut Egyptien

وأناف عدد مجلدات هذه المكتبة على تسعة آلاف مجلد[1] اغلبها في اللغة الفرنسية ما خلا التماثيل والاسلحة والتحف الفنية التي لا تحصى ولا يمكن ان تكون في سواها من المعاهد الكتابية . وخصصتها الحكومة المصرية بمركز فسيح على نفقتها في ذات المنزل الذي شغله الجنرال مونج (١٧٤٦ – ١٨١٨) احد قوّاد الحملة الفرنسية المومأ اليها . وبعد وفاة شارل غلياردو بك اخلى ورثته هذا المنزل التاريخي سنة ١٩٣٣ واستولوا على المكتبة واقتسموها بينهم .

وبين كنوز هذه المكتبة نسخة مخطوطة من « البردة » لا نظير لها في الدنيا بحسن خطها وتجويد الوانها وتباين رسومها ونفاسة تجليدها . وقد سعى احد هواة الكتب لاقتناء هذا المخطوط البديع فعرض على غلياردو بك ثمناً له خمسماية جنيه مصري ذهباً . فرفض صاحب المخطوط هذا الثمن اذ اعتبره بخساً واصر على ان لا ينقص الثمن عن خمسة آلاف جنيه (٢)

٥ – مكتبات الاهرام والمقتطف والهلال

هي ثلاثة اسماء لثلاث صحف كبرى من أعرق الصحف العربية الحية ومن انشطها في خدمة الحق والثقافة والوطن . ولكل منها خطة تتبعتها وحافظت عليها بصدق وامانة سواء اكان في السياسة ام في العلم ام في الفن والادب . وهي منيعة الجانب واسعة الانتشار لا تكاد ترى بلداً فوق البسيطة ينطق سكانه بالضاد الا لها فيه قراء واصدقاء ومراسلون . ذلك كان من اقوى الذرائع لثباتها واقبال الناس على مطالعتها وحرصهم على ما تيسّر من مجلداتها السنوية

---

(١) دائرة معارف القرن العشرين : مجلد ٨ صفحة ٨٨

(٢) نقلنا هذه الحكاية عن رسالة كتبها لنا العلامة احمد زكي باشا من القاهرة بتاريخ ٢٠ ايار ١٩٣٣ وكان مطلعا على المفاوضات في هذه القضية بحذافيرها .

وشيد لكل من تلك الصحف الثلاث بناء خاص ضم دوائرها المختلفة كالانشاء والتحرير والمحاسبة والمراسلة والطبع الخ . ومن اهمها قاعة المكتبة التي يرجع اليها في الشؤون الخاصة والعامة . ففيها كتب اللغة والتاريخ والاقتصاد والفن والادب ولاسيا المعاجم والموسوعات لا في اللسان العربي فقط بل في اكثر الالسنة الشائعة . وفيها مجموعات لأشهر المجلات الشرقية والغربية التي يعول على مباحثها وعلى آراء الجهابذة الذين كتبوا فيها . وفي بعضها كتب رحلات واكتشافات واختراعات وطائفة معتبرة من مؤلفات علماء الاستشراق في الغرب

ولكل من تلك المكتبات الثلاث مزية خاصة تفرّدت بها عن سواها الا اننا وحّدنا اخبارها هنا لان ما يصح اثباته عن احدها ينطبق اجمالاً على كلتا المكتبتَين الباقيتَين .

٦ ـ مكتبة توفيق اسكاروس

يعد توفيق اسكاروس من انبغ كتّاب الاقباط وأحذق مؤرخيهم في العصر الحاضر . قضى شطراً من حياته يشتغل في دار الكتب المصرية حتى بلغ سن التقاعد . ولما عهد الملك فوأد الأول لتنظيم مكتبة قصر عابدين واستدعى بعض علماء مصر ومستشرقي اوروبا للنهوض بتلك المهمة كان توفيق اسكاروس في جملتهم فحقق رغبة المليك مولاه بسعة معارفه التاريخية والادبية ورسوخ قدمه في فن المكتبات .

وعلى اشتغال هذا الاديب بالمكتبتين المشار اليهما فانه لم يغمض عن المطالعة والدرس والتأليف . وقد وقفنا له في المجلات العلمية على مقالات عديدة تشهد له بطول الباع في الابحاث التي طرقها . واقتنى توفيق اسكاروس مكتبة صغيرة حوت مؤلفات منتخبة يستعين بها في مطالعاته ومراجعاته . بينها طائفة مخطوطات نفيسة نقل بعضها عن نسخ اصلية بخط مؤلفيها . ولسنا ندري ماذا حل بهذه المكتبة بعد وفاة منشئها

٧ ـ مكتبة توفيق حبيب

لتوفيق حبيب الصحافي المعروف خزانة حافلة بالكتب العصرية التي يناهز عددها الفين وخمسمائة مجلد . ومن مميزاتها انها تنطوي على مائتي كتاب لا تبحث الا عن المكاتب والمتاحف والمعارض والمسارح . وهي تشتمل ايضاً على اربعة آلاف بطاقة في الشؤون الصحافية والاجتماعية والملية وغيرها قد عني جامعها بترتيبها تبعاً لتواريخها ومواضيعها . وقد انتدب لمساعدته في تنظيم المكتبة صديقه « متولّي حسنين عقيل » فنهض هذا بالمهمّة الموكولة اليه خير نهوض(١) . وحلّت وفاة توفيق حبيب في ٢٢ تشرين الاول سنة ١٩٤١ .

٨ ـ مكتبة الكلية الاميركية

لا يقلّ عدد مجلدات هذه المكتبة في الوقت الحاضر عن عشرين الفاً في اللغة العربية واللغات الاجنبية . ويُضرب المثل بها في حسن الادارة ودقة العمل حتى ان اكبر المكاتب في مصر اخذت نظمها عنها . ومن اكبر المتبرعين لهذه المكتبة المستر كارنجي من اثرياء اميركا فانه نفحها بمنحة مالية سخية اضافت الى المكتبة عدداً وافراً من الكتب على اختلاف المواضيع(٢) .

٩ ـ مكتبة بشر فارس

بشر فارس لبناني النحلة مصري الولادة انصرف منذ صباه الى درس اللغة العربية فبرّز فيها . وألف كتباً وانشأ مقالات في اللغة المذكورة وفي غيرها .

---

(١) جريدة «منبر الشرق» بالقاهرة : سنة ١٩ عدد ١٠٧ في ٢٥ حزيران ١٩٤٠

(٢) صحيفة الكلية الاميركية للآداب والعلوم في القاهرة : سنة سابعة شهر تشرين الثاني ١٩٣٥ ـ صفحة ١

وأحرز شهادة دكتور في جامعة « السوربون » في باريس حيث وقف على مناحي الحياة الثقافية من ادب وفن وموسيقى وعلى مناهج الحياة الاجتماعية من عادات واخلاق .

ومن الآثار القلمية التي عرفناها للاستاذ بشر فارس : كتاب « العرض عند العرب قبل الاسلام ». وهو فرنسي العبارة لا نظن كاتباً طرق هذا الموضوع قبله . وانشأ مقالات في « نقد تآليف المستشرقين » نشرها في السنتين ١٩٣١ و ١٩٣٢ على صفحات مجلة « المقتطف » في القاهرة بعنوان « باب المكتبة » .

وعلاوة على ذلك فهو من عشاق الكتب وجمّاعيها اقتنى خزانة حافلة بما عزّ ونفس من المؤلفات العربية وبعض اللغات الفرنجية . وفيها مجلدات فاخرة وطبعات نادرة نسّقها كلها تنسيقاً محكماً دل على ذكائه وعلى سلامة ذوقه . وهي غنية خصوصاً بالمعاجم العربية وكتب الادب والفلسفة .

١٠ – سائر المكتبات النصرانية في القاهرة

في عاصمة الديار المصرية مكتبات نصرانية خاصة سوى التي ذكرنا : اشهرها مكتبة « جامعة الشبان المسيحيين[١] » . ومكتبة ميخائيل بك شاروبيم (١٨٦٠– ١٩١٧) وهبتها أسرته بعد وفاته للمتحف القبطي في القاهرة[٢] . ومكتبة الآنسة ميّ زيادة (+ ١٩٤١) الكاتبة الشهيرة . ولا تخلو تلك العاصمة من مكتبات تغلب فيها الكتب الفرنجية على الكتب العربية لان ادارتها افرنجية اخصها : مكتبة الآباء اليسوعيين ومكتبة اخوة المدارس المسيحية وغيرهما .

---

(١) الهلال : مجلد ٣٦ صفحة ٧١٦

(٢) صفوة العصر في تاريخ ورسوم مشاهير رجال مصر : تاليف زكي فهمي : صفحة ٦٠٣ – ٦٠٧ والمقتطف : مجلد ٦٨ سنة ١٩٢٦ صفحة ٢٨٥ – ٢٨٦

ثالثاً : مكتبة جرجس فيلوثاوس عوض في طنطا

من ادباء الطائفة القبطية الذين شغفوا بجمع الكتب وصيانتها واقبلوا على درسها والتعمق في مواضيعها نذكر العلامة القبطي الاستاذ جرجس فيلوثاوس عوض . فانه انشأ في مدينة طنطا خزانة جديرة بالاعتبار زينها بمخطوطات ومطبوعات تتعلق بشؤون مصر عموماً وشؤون ملته القبطية خصوصاً . وعدد مجلدات خزانته ينيف على سبعة آلاف كتاب بين مطبوع ومخطوط . وقد افرز لها في داره ثلاث غرف ما عدا غرفة المطالعة . ومن ميزاتها انها تضمنت مخطوطات نادرة عن العاب العرب كالشطرنج والنرد وما شاكلها .

وتفرّغ الاستاذ فيلوثاوس عوض للتأليف فصنف عدّة كتب وأنشأ ابحاثاً تاريخية وعلمية وانتقادية دلّت على جهوده وسعة مداركه .

رابعاً : مكتبات اديار مصر

١ ـ لمحة عن مكتبات اديار مصر

في ارض مصر وادٍ كبير يقال له « وادي النطرون » اشتهر منذ القرن الرابع للميلاد بما قام فيه من الاديار التي شيدها رهبان النصارى . وقد بلغ عدد هذه الاديار في تلك الحقبة نحو الخمسين ديراً وُقدر عدد رهبانها خمسة آلاف راهب (١) . اما عدد الاديار في جميع انحاء القطر المصري فبلغ في زمن الانبا بطرس الرابع (٥٦٧ ـ ٥٦٩ م) بطريرك الاقباط الاسكندري ستمائة دير للرهبان والراهبات كما اثبته الانبا مكاريوس في تاريخه الخطي (٢) . ثم اخذ هذا العدد يتناقص رويداً رويداً حتى انه لم يسلم في عصرنا الحاضر سوى اربعة

---

(١) كتاب « وادي النطرون » للامير عمر طوسون : صفحة ٤٨
(٢) كتاب « وادي النطرون » صفحة ١٦١

اديار في وادي النطرون كان يسكنها مائتا راهب وراهبة سنة ١٩٢٤ للميلاد(١).

ووفقاً للقوانين الرهبانية كان قوم من اولئك الرهبان يتعاطى حراثة الاراضي لتموين الاديار وتأمين معيشة سكانها . وفريق منهم كان يجدل الحصر والقفف من البردي والنخيل والقصب ثم يقصد بها الى المدن لبيعها . وكان قسم آخر ينصرف الى حياكة الانسجة من الصوف والشعر لألبسة الرهبان . اما الباقون منهم فكانوا يعتنون بدرس االاسفار الدينية وتأليف الكتب العلمية ونساختها على الرق .

هكذا كثرت المصنّفات ونشأ منها في كل دير مكتبة عامرة تحوي كنوزاً ثمينةً لا يُحصى لها عدد . ولولا غارات البربر الذين نهبوا جميع ممتلكات الرهبان وهدموا كنائسهم واحرقوا مساكنهم(٢) لتألف من تلك المخطوطات عشرات الآلاف في كل دير بلا اقل مبالغة . وبتوالي الازمنة تكررت تلك الغارات فكانت وبالاً على العلم . واجمع المؤرخون على تقبيحها عند تدوينهم اخبارها .

٢ ـ مكتبة دير السيدة والدة الله

على أنه بالرغم من تلك الوقائع المشؤومة « فان الصوامع المعدة لاقامة الرهبان فيها لا بد ان يكون تجدد بناؤها مرّات كثيرة بعد ذلك العهد(٣) ». وكان الرهبان يجددون بعد كل غارة ما نهبه البربر او احرقوه او مزقوه من المخطوطات صوناً لروح العلم بين ظهرانيهم . واذا شئنا ان نحصر الكلام باحد اديار « وادي النطرون » قلنا : ان دير السيدة مثلًا « اجتمع فيه في مدة ليست بيسيرة الوف من الاسفار تتضمن شيئاً كثيراً من اسفار العهدَين الاقدَسين ومن كتب الليترجيات ... والمقالات الدينية واللاهوتية والفلسفية والمنطقية والعلمية والتصانيف الكثيرة في الطب والفلك والطبيعيات والتاريخ والنحو الخ . مما يُدهش

---

(١) كتاب « وادي النطرون » : صفحة ١٦٨ (٢) كتاب « وادي النطرون » : صفحة ٤٢ و ٤٣ (٣) كتاب « وادي النطرون » : صفحة ٧٣

العقول ويشده الالباب ... وهذه المخطوطات النفيسة يرتقي عهد نسخ بعضها الى القرن الخامس والسادس مما يندر وجوده اليوم في اعظم دور الكتب واهمها(١).

ويقرأ في مخطوط لندن (رقم ٣٧٤) المنسوخ في دير السيدة المذكور سنة ١٢٦٢ حاشية اضيفت اليه فيما بعد وهي : « تجدّدت هذه الكتب وتجلدت سنة ١٤٩٢ م » . ثم وردت فيه فقرة أخرى وهي : « انا العبد الحقير القس توما الماردیني لما دخلتُ دير العذراء بصعيد مصر رأيت في مكتبته صحفاً كثيرة مكومة بلاحساب ولا عدد . فنظفتها ونفضتها ورتبتها ... في برج القلعة سنة ١٦٢٤ (٢)».

ويرجع الفضل في تعزيز دير السيدة الى الرهبان التكريتيين والى تجارهم الذين كانوا يتوافدون اليه منذ القرن السابع حاملين اليه المخطوطات النفيسة . وقد ادّى هؤلاء الرهبان خدماً جلّى للعلم لانهم كانوا يشتغلون بالتأليف والترجمة والنسخ يبيّضون ويسوّدون وينقحون (٣) » .

وكان القس موسى النصيبيني رئيس الدير المذكور قد سافر الى سوريا وبلاد ما بين النهرين والعراق (٩٢٧ - ٩٣٢ م) وجمع الكتب القديمة ونقلها الى ديره . وانشأ لها قاعة خصوصية ونظمها تنظيماً محكماً فاقبل الرهبان على التقاط فرائدها واقتباس فوائدها وجعلوا ينقلون عنها كتباً شتى خطّوها بيدهم ... وصرفوا العناية في صيانة تلك الآثار فجلدوها وجدّدوها(٤) .

٣ - بيع رقوق بما يعادل وزنها ذهباً

وفي مطلع القرن الثامن عشر كانت لم تزل بقية خطيرة من مكتبات اديار مصر يؤمها السياح والعلماء من انحاء المعمور لرؤيتها او ابتياعها او الاستفادة منها .

---

(١) بحث تاريخي للقس اسحق ارملة : صفحة ٤٩

(٢) بحث تاريخي : صفحة ٥٠ (٣) بحث تاريخي : صفحة ٤٢

(٤) بحث تاريخي : صفحة ٤٩ و ٥٠

وناهيك ان الخوري الياس السمعاني الماروني زار تلك الاديار سنة ١٧٠٧ وجمع منها طائفة صالحة من المخطوطات برسم المكتبة الواتيكانية في رومة . ثم جاءها بعده بامر البابا اقليميس الحادي عشر يوسف سمعان السمعاني العلامة اللبناني وابتاع باسم المكتبة الواتيكانية كل ما استطاع اقتناءه من الكتب الوافرة العدد والغالية الثمن . ثم شحنها في ثلاث سفن على نهر النيل قاصداً بها عاصمة الكثلكة . غير ان ريحاً شديدة تغلبت على سفينتين من السفن الثلاث فاغرقتهما بما فيهما من الكنوز العلمية التي لا تعوّض خسارتها . ولا يقدّر ما غرق باقل من عشرة آلاف مجلد(١).

وما ان وصل السمعاني الى رومة حتى نسّق تلك المخطوطات في اماكنها . ثم انشأ في وصفها مقالة رنانة نبّهت افكار علماء اوروبا . فنهضوا نهضة اليقظان وجعلوا يرسلون الوفود الى اديار مصر لاقتناء شيء من تلك الذخائر النادرة . هكذا تيسر لمكاتب باريس وبرلين وميلان واوكسفورد وكمبردج ان تزدان بحصة من تلك الآثار الكتابية كما يستفاد من فهارس مخطوطاتها .

وممن تعهد اديار وادي النطرون واطلع على مخطوطاتها الاب سيكارد C. Sicard الرّحالة اليسوعي الشهير فوصفها بقوله (٢) « ان العلامة يوسف السمعاني الماروني وكيل المكتبة الواتكانية برومة توجه سنة ١٧١٥ لزيارة اديار النطرون بصعيد مصر . فاشترى جملة من تلك المخطوطات واستنسخ منها كتباً تعذر عليه اشتراؤها لان الرهبان لم يكونوا ليستغنوا عنها ولو بوزنها ذهباً » .

اما المتحف البريطاني في لندن فقد ظفر بالسهم الاوفر من تلك النفائس على يد مندوبه المستر تاتام . فقد يمّم هذا البحاثة اديار وادي النيل سنة ١٨٤٢ وبذل قصيّ الوسع حتى اشتراها برمتها . وكان في جملتها ثلاثمائة قطعة من الخطوط اليدوية المكتوبة على رق غزال خلاف عدد عظيم من الكتب المهمّة التي لا تُقدر

---

(١) خطط الشام : مجلد ٦ صفحة ١٩٨ (٢) رحلة الاب سيكارد : جزء ٣ صفحة ٢٧٩

قيمتها(١) . وقد حمل المستر تاتام تلك المخطوطات الى لنــــدن حيث نشر علماء الانكليز فهارسها في ثلاثة مجلدات . وصرّحوا بما لها من الخطورة وما تضمنته من الفوائد العلمية والتاريخية .

ومن علماء الشرق الذين اطّلعوا على تلك المخطوطات كان العـلامة البطريرك اغناطيوس افرام رحماني (+ ١٩٢٩) . فقد روى لنا مراراً ان طائفة من تلك المخطوطات قد ابتاعها الانكليز بما يوازي ثقلها ذهباً . فكان الرهبان يجعلون كل مخطوط منها في كفة الميزان وكان المستر تاتام يضع الذهب في كفة الميزان الاخرى فتأمل !

وصرّح البطريرك العلامة افرام برصوم ان خزانة كتب دير السريان في وادي النطرون هي اقدم مكتبات الدنيا(٢) .

ولما قام الجنرال اندريوسي احد قواد جيش بونابرت في حملته عـلى مصر باستكشاف وادي النطرون وتعهد الديورة المشيدة فيه (٢٣ كانون الثاني — ٢٧ كانون الثاني ١٧٧٩) روى عن مخطوطاتها ما يلي : « وليست كتب الرهبان الا مخطوطات ... مكتوبة على الرق او ورق القطن . وبعض هذه المخطوطات باللغة العربية والبعض الآخر بالقبطية وبهامشها ترجمتها باللغة العربية . ولقـد استحضرنا بعضاً من هذه المخطوطات الاخيرة ويظهر ان تاريخهـا يرجع الى ستمائة سنة سلفت(٣) » .

واليك ما كتبه الامير عمر طوسون عن مكتبة دير سيدة برموس قـال : « المكتبة تحتوي على كتب قديمة . والحديثة اوقفها جنـاب القمص عبد المسيح المسعودي الذي رتّب هذه المكتبة وجعل كل نوع على حدة . وفيها جملة كتب نادرة ... » ولما حدّث الامير عينه عن دير الانبا بشوي اثبت عن مخطوطاته(٤)

---

(١) الاقباط في القرن العشرين : تأليف رمزي تادرس القبطي (بحث تاريخي عن السريان في القطر المصري : صفحة ٤٥ (٢) اللؤلؤ المنثور : للبطريرك افرام برصوم : صفحة ٢٤

(٣) كتاب « وادي النطرون » : صفحة ٧٧ (٤) كتاب « وادي النطرون » :صفحة ١٧٦

ما نصّه . « وعدد كتب هذا الدير اقل مما في غيره . ولكن فيها بعض الكتب القيّمة مثل كتاب تاريخ البطاركة لابن المقفع . ولعله اقدم كتاب من نوعه في التاريخ ... »

وكان في صعيد مصر دير يقال له الانبا فولا يحتوي على مكتبة معتبرة . يؤيد ذلك ما ورد في حاشية عُلقت على كتاب ألفه اسحق النينوي النسطوري الذي عاش في القرن السابع . وهذا المخطوط مصون في المتحف البريطاني بلندن تحت الرقم ٦٩٥ (١) :

واختتم الامير عمر طوسون مؤلفه « وادي النطرون » بوصف مكتبة دير الانبا مكاريوس بما يلي : « ومكتبة دير القديس مكاريوس وان كانت قليلة الكتب الا ان بها طائفة من الكتب القديمة المخطوطة ... وكان بهذا الدير قديماً نسّاخ ذو تفنن في النساخة وابداع في الخط القبطي والعربي . وكانوا يرسمون الحروف القبطية على اشكال طيور جميلة جاذبة للنظر . كما انهم كانوا متفننين في صنع الوان الحبر الذي يصوّرون به الحروف والرسوم . حتى انه في ايام بطريركية الانبا غبريال بن اتريك طُرد راهب من البرية لسوء سلوكه . فذهب ووشى الى الحافظ ان الرهبان يعملون الكيميا . فاوفد (الحافظ) معه استاذَين وحضروا الى دير ابو مقار . فوجدوا رهباناً نساخاً وعندهم كتب حساب الابقطي(٢) وصنعة الاصباغ . فقال له ان هذه كتب الكيميا . فقبضوا عليهم ومن جملتهم مرقس الناسخ وقمص ابو مقار ونهبوا اواني دير انبا بشوي واحضروهم الى الوزير . ولما تحقق ان هذه صفة صنع الالوان التي يستعملونها في النساخة اخلى سبيلهم وأعطى لهم كتاب الامان وارسلهم الى اديرتهم مكرّمين(٣) » .

---

(١) اطلب فهرس مخطوطات لندن : صفحة ٥٨٠

(٢) هو علم حساب مواقيت الاصوام والاعياد السيدية عند الاقباط . وهذا العلم يدرس الان رسمياً في المدرسة البطريركية القبطية بالقاهرة (٣) كتاب « وادي النطرون » : صفحة ٢١٢

ومن اشهر اديار وادي النيل التي صبرت على صروف الزمان « دير المحرق » وهو من اكبرها واقدمها عهداً . يحتوي الآن على اكثر من مائة وعشرين راهباً فيهم الشاب الحدث وفيهم الشيخ المعمّر الذي اناف على التسعين . ولهذا الدير مكتبة عامرة بشتى المؤلفات يعمد اليها الراهب في ساعات الفراغ يتثقّف بكنوزها العلمية . وبها مصنفات وافرة وضعها القمص دانيال داود رئيس الدير الحالي تبحث في الفلسفة واللاهوت(١) .

وفي السنة ١٨٨٣ زار الاب ميخائيل جوليان اليسوعي دير القديس انطونيوس الكبير في بلاد الصعيد السفلى . فلما جاء على ذكر مكتبة رهبان هذا الدير قال ما نصه : « ومكتبتهم كلها مؤلفة من بعض كتب عتيقة مخبأة في البرج لا يطالعها احد . ولذا تراهم على جانب عظيم من الجهل حتى في الامور الدينية نفسها (٢) .

خامساً : مكتبة دير طور سيناء

١ ـ موقع الدير وخطورة مكتبته وقدامة عهدها

يقع هذا الدير في صحراء شبه جزيرة سيناء بين العقبة وخليج السويس . بناه يوستنيان الملك (٥٢٧ ـ ٥٦٥ م) تذكاراً له ولزوجته تئودورا على قمة جبل في الصحراء المذكورة . فكان ولم يزل من الديارات الآهلة بالرهبان يقصده الناس من كل حدب وصوب .

وفي هذا الدير مكتبة ُتعتبر من امهات المكتبات المحفوظة من أقدم العصور لما حوته من الآثار العتيقة النادرة التي لم ُيبقِ الدهر اعرق منها . ولأجل ذلك راح يؤمها العلماء السياح من جميع اطراف المعمور للوقوف على ذخائرها .

---

(١) مجلة « الرابطة العربية » بالقاهرة : المجلد ٦ السنة ١٩٣٨ الجزء ١٣٠ الصفحة ٣٩

(٢) سياحة حديثة في بلاد الصعيد السفلى : صفحة ٤٤

وقد انشأت السيدة مرغريت جبسون فهرساً لتلك المكتبة طُبع سنة ١٨٩٤ في لندن باللغة الانكليزية . فوصفت فيه ستمائة وثمانية وعشرين مخطوطاً . غير ان التوفيق لم يسعدها لمتابعة عملها الذي كان يُرجى منه نفعٌ كبير لاهل البحث . فلو نشرت الفهرس برمته لكشفت النقاب عن مكنونات علمية ذات شأن كبير .

٢ ـ وصف احمد شفيق باشا المصري لمكتبة طورسيناء

لما كان صديقنا العلامة المصري احمد شفيق باشا قد دوّن اخبار رحلته الى طورسيناء في كانون الثاني ١٩٢٦ رأينا ان ننقل حديثه الموجز عن مكتبة الدير(١) قال : « وزرنا اليوم الجمعة ١٥ يناير) مكتبة الدير لأول مرّة . فوجدناها مكتبة على درجة عظيمة من حسن النظام والتنسيق . وفيها انواع الكتب النفيسة وهي تنحصر في الآداب الدينية والتاريخية باللغات اليونانية والسريانية والحبشية . وشاهدت فيها ايضاً الفرمانات السلطانية التي كانت تُمنح للدير من سلاطين آل عثمان . ووقع نظري على فرمان السلطان سليم ابن السلطان احمد العثماني . وهو يعفي الدير وحاصلاته واملاكه من جميع الضرائب حتى من الرسوم الجمركية على وارداته في الموانىء المصرية والعثمانية . وهو مؤرخ سنة ٩٣١ للهجرة اي قد مضى عليه اربعمائة وثلاث عشرة سنة . ورأيت ايضاً فيها فرمانات من قياصرة الرومان والدولة الفرنساوية في عهد نابليون الاول وكلها ترمي لهذا الغرض . ولا يسعنا هنا وصف محتويات المكتبة فهذا امر يطول شرحه وخارج عن دائرة عجالتنا هذه »

وقد فات صاحب الرحلة المشار اليه ان ينوّه بالمخطوطات العربية في مكتبة دير طورسيناء عند ذكره مخطوطات سائر اللغات التي خصها بالذكر . اذ لا يعقل ان تكون مكتبة شهيرة كهذه في قلب البلاد العربية خالية من مخطوطات عربية . ولنا اقوى برهان على صحة قولنا رسوم فوتغرافية نقلتها السيدة جبسون المشار

(١) مذكرات عن زيارات الى دير طورسيناء . لاحمد شفيق باشا المصري : صفحة ١٨

اليها عن مخطوطات دير طورسيناء العربية (١) . ونرجح ان عددها تبعاً لرواية بعض المؤرخين لا يقل عن سبعمائة مخطوط اكثرها مكتوب على الرقوق(٢) .

٣- اقدم انجيل سرياني في مكتبة طورسيناء

حسب ُهذه المكتبة فخراً انها صانت بين ذخائرها العريقة نسخة سريانية للانجيل مكتوبة على الرق . وهي اقدم نسخة من هذا المصحف المقدس ُعرفت على وجه الارض في جميع اللغات . وهذا الاثر الثمين النادر قد ُنقل الى لندن(٣) مع طائفة كبيرة من المخطوطات التي يتباهى بها المتحف البريطاني ويعتبرها من اغنى كنوزه الكتابية . وفي المتحف البريطاني ايضاً نسخة خطية سريانية من سفر اشعيا النبي مكتوبة عام ٤٥٩ للميلاد اكتشفها الكردينال اوجين تيسران الفرنسي يوم كان اميناً للمكتبة الواتكانية . وهذه النسخة هي من اقدم الآثار الخطية المعروفة حتى الآن من نسخ التوراة وعليها تاريخ كتابتها(٤) .

٤ - اقدم انجيل يوناني نقل من مكتبة طورسينا ثم بيع بمائة الف جنيه انكليزي ذهب

ومن اثمن الذخائر التي كانت مصونة في خزائن دير طورسيناء مخطوطة يونانية للانجيل قديمة العهد ُنقلت في القرن التاسع عشر الى مكتبة القياصرة في بطرسبرج عاصمة روسيا. وفي السنة ١٩٣٤ ابتاعها المتحف البريطاني في لندن من حكومة الاتحاد

---

(١) المشرق مجلد ٦ سنة ١٩٠٣ صفحة ١٠١١

(٢) تاريخ آداب اللغة العربية : لجرجي زيدان . مجلد ٤ صفحة ١٢٩

(٣) نشره المستشرق بيركيت سنة ١٩٠٤ في كمبردج مع ترجمة انكليزية

(٤) مجلة الهلال : مجلد ١٩ صفحة ١٩٠

السوفياتي بمبلغ مائة الف جنيه انكليزي ذهب . ويقال ان عمر هـذه المخطوطة اليونانية يرتقي الى عهد قسطنطين الكبير (٣٠٦ - ٣٣٧ م) .

٥ ـ ذخائر مكتبة الدير وغرائب مخطوطاتها

مما يؤيد غنى مكتبة دير طورسيناء ما اثبته جرجي زيدان في معرض كلامه عنها قال : « لكن السيدة لويس الانكليزية اكتشفت بالامس نصوصاً قرآنية مكتوبة على رقوق قديمة كتب فوقها بالسريانية بعد محو العربي من تحتها على عادتهم في ذلك يومئذٍ . وهي تظن تلك النصوص كتبت قبل جمع الخليفة عثمان للقرآن . ولا نظنها تستطيع اثبات ذلك(١) .

اما أعتق مخطوط عربي نصراني في العالم كله فمحفوظ حتى اليوم في مكتبة طورسيناء . موضوعه تاريخي كتب على الرق بالقلم الكوفي البسيط ويرجع تاريخه الى السنة ١٥٥ هلالية (الموافقة للسنة ٧٧١ — ٧٧٢ ميلادية(٢) .

ومن اقدم الفرمانات فرمان تاريخه سنة ٥٢٤ للهجرة (١١٣٠ م) منحه الفاطميون بامتيازات لرهبان دير طورسيناء . وفي الدير كذلك رقوق وقراطيس مخطوطة عن المجامع المسكونية الاولى . ثم فصول من التوراة كُتبت عام ٨٦٧ للميلاد وهي من اقدم نسخ العهد القديم بالعربية . وتحتوي ايضاً على كثير من النصوص التي تتعلق بالتواريخ المسيحية كتفسير القديس مكاريوس لانجيل لوقا . ومنها آثار اقليميس الاسكندري واوريجانيس وابيفانيوس واعمال الشهداء فضلاً عن الطقوس الدينية . وهنالك مخطوطات من عهد الخلفاء الفاطميين بمصر بين تقاليد وعهود وامتيازات مكتوبة على اوراق برديٍّ متلاصقة . وهي تشبه الفرمان

---

(١) تاريخ آداب اللغة العربية. مجلد ٤ صفحة ١٣٠

(٢) مكتبة دير سيناء : بقلم يسى عبد المسيح (مجلة الراعي الصالح في الاسكندرية : مجلد ١ سنة ١٩٤٠ صفحة ٤٩)

المؤرخ سنة ٥٤٠ للهجرة (١١٤٥ م) وطوله عشرة امتار في عرض ٤١ سنتمتراً منقولا عن العهدة النبوية(١) .

ومن تلك الآثار الثمينة التي لا يصح السكوت عنها عهدة السلطان سليم الاول (١٥١٢ – ١٥١٩ م) العثماني لرهبان دير طورسيناء(٢) ويرتقي تاريخها الى يوم الاربعاء السادس من شهر اول الجمادين سنه ثلث وعشرين وتسعمائة للهجرة النبوية . وهي الموافقة للسنة ١٥١٧ ميلادية .

واكتشف الدكتور « غروت » في ذلك الدير مخطوطات عربية كثيرة يظهر من شكل خطها انها قديمة جداً واكتشف معها مخطوطات باللغة السريانية . وعثر فيها « غروت » نفسه على نسخة من الانجيل باللغة الآرامية حروفها متوسطة بين الحروف الفينيقية والحميرية . ولم يذكر احد انه رأى كتاباً بهذه اللغة وهذا الخط حتى الآن(٣) . وزبدة القول ان مكتبة طورسيناء تعدّ اقدم جميع المكتبات الحيّة في العالم بعد المكتبة الواتكانية .

٦ ـ طريقة طريفة لصيانة الكتب النادرة في مكتبة طورسيناء

وفي مكتبة طورسيناء طريقة طريفة لصيانة ذخائرها الكتابية النفيسة من الفقدان . وهي ان كل مخطوط ثمين ونادر فيها رُبط بطرف سلسلة حديدية طويلة قد أثبت طرفها الآخر في الخزانة او الحائط . فاذا حاول القارىء او غيره سرقة الكتاب تعسّر عليه الامر بفضل السلسلة المذكورة . وهي طريقة غريبة جارية بالاستعمال في المكتبة المشار اليها منذ أبعد العصور . ولا ريب فى ان غيرها من خزائن الكتب القديمة قد استعمل ايضاً الطريقة نفسها . ومن أجلى البيّنات على

---

(١) مقال لتوفيق اسكاروس في الهلال : مجلد ٣٦ سنة ١٩٢٨ صفحة ٧٣٠ ـ ٧٣١

(٢) من شاء الوقوف على نص هذه العهدة فليراجعه في مجلة « الآثار » بزحلة مجلد ٤ سنة ١٩٢٧ صفحة ٣٣٨

(٣) المقتطف : مجلد ١٨ سنة ١٨٩٤ صفحة ٢٨٧

ذلك اننا شاهدنا في المكتبة الاهلية بباريس مخطوطاً من هذا النوع لم يزل طرفه مصفّداً بسلسلة حديدية . ويحتوي هذا المخطوط على مجموع ابحاث لاهوتية يتقادم عهدها الى القرن الخامس عشر للميلاد(١) .

٧ ـ وصف مكتبة طورسيناء للرحالة خليل صباغ

تعدّدت الرحلات الى طورسيناء في ازمنة متوالية أقدمها رحلة منسوبة الى سلفيا نحو السنة ٣٨٥ للميلاد . ولو جُمعت اخبار تلك الرحلات لتألف منها تاريخ حسن لهذا الجبل الذي اشتهر بنزول الوصايا العشر على موسى كليم الله .

واول رحلة كُتبت باللغة العربية على ما نعلم هي رحلة خليل الصباغ الدمشقي . فانه قام بها سنة ١٧٥٣ وكتبها بخط يده . ولم تزل نسختها الاصلية محفوظة في مكتبة الامة بباريس(٢) وهي تتضمن من الفوائد التاريخية والاوصاف المتعددة ما تقرّ به عيون الباحثين ويستطيبه خاطر هواة الآثار الشرقية القديمة .

واليك ما دوّنه هذا الرحالة عن مكتبة دير طورسينا قال : « ثم سرنا الى المكان المسمّى (فبليوتيكون) اي المكتبة . وهو مكان جميل موضوعه الكتب وهي على الرفوف في ثلاث جهاتها . يبلغ عدة الكتب نحو الفي كتاب في لغات مختلفة ومنها كتب عربية نحو اربعمائة كتاب » .

(1) Bibliothèque Nationale, par Marchal et Couderc, p. 123
(2) Bibliothèque Nationale, Fonds Arabe, N° 313

الفصل السابع

خزائن كتب شمال افريقيا

اولا : مكاتب المملكة التونسية

١ ــ مكتبة نادي الاداب العربية بتونس

انشيء هذا النادي حديثاً في عاصمة تونس بهمة رهبان من الافرنج يقال لهم الاباء البيض لان البستهم كلها بيضاء . وقد تاسست رهبانيتهم على يد الكردينال الشهير كرلس لافيجري (١٨٢٥ - ١٨٩٢) رئيس اساقفة قرطاجنة وجاثليق افريقيا .

ولهذا النادي الحديث العهد خزانة كتب عربية فرنسية تشتمل على اسفار جمة وتمتاز خصوصاً بالكتب الدينية والفلسفية واللاهوتية واللغوية والادبية وغيرها . ولديها طائفة كبيرة من الكتب التي تبحث في اللهجات والتقاليد الافريقية وفي الترجمة وغير ذلك من المواضيع مما لا يوجد مجموعاً الا في الخزانة المذكورة . ويعتني الآباء البيض عناية كبرى بتعميم فوائد هذه المكتبة وزيادة محتوياتها يوماً فيوماً[١]

٢ ـ مكتبة البارون ذي لانجي في جبل المنار

كان البارون ذي لانجي انكليزي الاصل ومن علماء الاستشراق : احب تونس واستوطنها ثم شيّد قصراً فخماً لسكناه في أعلى قمم جبل المنار الذي يسمى

---

(١) مكتبات المملكة التونسية بقلم البشير الفورتي : صفحة ٥

« سيدي بو سعيد » . كان هذا البارون كلفاً بالاغاني العربية فوضع فيها كتاباً لم يُنسج على منواله قبل الآن وقضى في تأليفه عشرات السنين . وقد استعان في جمع تلك الاغاني ببعض الفنانين التونسيين لاسيا بالسيد احمد الوافي الذي كان نابغة عصره في صناعة الالحان .

ومن مآثر البارون ذي لانجي انه انشأ في القصر المذكور خزانة كتب حوى القسم العربي منها ستة آلاف مجلد مطبوع و٣٠٦٥ مجلد مخطوط . ومن نفائسها مصاحف قديمة متنوعة الخطوط كالمسدّس والمثّمن والمذهب والمزوّق وهي مجلدة تجليداً قديماً فاخراً في الاندلس والمغرب . وفيها اربع نسخ من التوراة مكتوبة على رق الغزال : احداها ملفوفة على عود من خشب الآبنوس والثانية على عود قماريّ والثالثة والرابعة على قضيب من العاج . وبقدر ما كان للبارون ذي لانجي من العناية العظيمة بهذه المكتبة فبقدر ذلك أهملها بعد وفاته ابنه والقائمون الآن بادارتها .

٣ ـ مكتبة موناهن في قرطاجنة

ولد المستر موناهن J. H. Monahan الانكليزي الاصل سنة ١٨٦٥ وشغف منذ صباه بلغة الضاد شغفاً شديداً . فخصص معظم اوقاته باحراز آداب العرب ومطالعة كتبهم حتى اصبح من صفوة علماء الاستشراق الذين يشار اليهم بالبنان . وقد احب الديار التونسية فاتخذها مركزاً لاقامته وجعل سكناه في مدينة قرطاجنة . ثم انشأ هناك خزانة اشتملت على ما نفس من الكتب العربية ولاسيا التي طبعها المستشرقون قديماً وحديثاً في انحاء اوروبا(١) : وللمستر موناهن مؤلفات

---

(١) استندنا في اخبار المكتبة الى ما رواه لنا عنها العلامة الحلبي الدكتور جرجس صقال نزيل مدينة طرابلس الغرب

شتى وضعها بلغته الانكليزية وضمنها مباحث عربية اسلامية . منها تلخيصه «رسالة الغفران» و «رحلة بني هلال» ساعده في نشرهما الدكتور جرجس صقال .

ثانياً : مكتبات الجزائر او المغرب الاوسط

١ ـ دار الكتب الاهلية

دعيت هذه المكتبة يوم تأسيسها «مكتبة ومتحف الجزائر» . ويرجع الفضل في وضع نواتها الى ادريان بربروغجير Adrien Berbrugger الذي تولى ادارتها ٣٤ سنة اعني من عام ١٨٣٥ حتى وفاته عام ١٨٦٩ . وبلغ عدد محتوياتها في ذاك التاريخ خمسة عشر الف مجلد مطبوع والفاً وخمسمائة مجلد مخطوط . وكان ادريان من كبار الصحافيين والمؤرخين والمستشرقين وعلماء الآثار . ولشدة اعجاب نابليون الثالث بذكائه وسعة معارفه اراد ان يكرمه فزاره بنفسه في المكتبة وعلق على صدره وسام جوقة الشرف من طبقة كومندور .

وخلفه في ادارة المكتبة اسكار ماك كارثي Oscar Mac-Carthy فنهض بخدمتها احدى وعشرين سنة نهوضاً خلد له فيها اطيب الذكرى . وفي السنة ١٨٩٠ احيل على التقاعد وفصل المتحف عن المكتبة فتولاها اميل موباس Emile Maupas المتوفى سنة ١٩١٦ اثناء الحرب العظمى(١) . اما اليوم فقد انيطت شؤونها بالاستاذ جبرائيل اسكير Gabriel Esquer يعاونه بعض العلماء البارعين في فن تنظيم الكتب .

وامتازت هذه الخزانة بما احتوته من المؤلفات التي اصبحت مرجعاً للباحثين عن اقطار شمال افريقيا وعن تربتها ومنتوجاتها وتاريخها واحوالها السياسية وشؤونها

---

(١) La Lecture Publique : Bibliothèque Nationale d'Alger, p. 161-181

الاقتصادية . ولا يقل عدد تلك المؤلفات في الوقت الحاضر عن نيف واربعة عشر الف مجلد او كراس . اما العدد الاجمالي لمجلدات دار الكتب الاهلية فقط كان سنة ١٩٣٩ مائة وعشرة الاف مجلد معظمها باللغة الفرنسية . وما عدا الكتب العربية المطبوعة فانها تنطوي على الفين وثلاث مئة مخطوط عربي حوى بعضها نوادر ثمينة .

ومنذ السنة ١٨٦٣ جعل قصر مصطفى باشا مركزاً لدار الكتب الاهلية في عاصمة الجزائر . وهو من القصور القديمة الفخمة التي شيدت على طراز اندلسي مغربي ولم تزل على حالتها حتى الان .

٢ ـ مكتبة جامعة الجزائر

برزت هذه المكتبة للوجود في شهر آب ١٨٥٧ حين تأسيس مدرسة الطب والصيدلة في الجزائر. وآندمجت فيها عام ١٨٨٠ مكتبتا مدرستي الحقوق والآداب . وظلت على تلك الحال ثلاثين سنة حتى صدر قانون مؤرخ في ٣٠ كانون الاول سنة ١٩٠٩ يخول كلاً من المدارس الثلاث لقب « كلية » . هكذا تألفت من مجموع الكليات المشار اليها رابطة ثقافية سميت « جامعة الجزائر » واطلق على مكتبانها لقب مكتبة جامعة الجزائر(١) .

وظلت هذه المكتبة في نمو مستمر حتى بلغ عدد مجلداتها عام ١٩٣٩ ثلاثمائة وستين الف كتاب . يضاف اليها نيف واربعة آلاف مجلد مطبوع ومائة وعشرون كتاب مخطوط في اللغة العربية(٢) .

وانصرفت ادارة المكتبة في هذه السنوات الاخيرة الى تعزيز لغة الضاد في

---

(١) La Lecture Publique (Bibliothèque de l'Université d'Alger, par Paul Sauvage) p. 182-192

(٢) نقلا عن رسالة وجهها مدير مكتبة جامعة الجزائر الى كاتب هذه السطور بتاريخ ٢ حزيران ١٩٣٩

انحاء المغرب الاوسط . ونهضت تعتني اعتناء خاصاً باقتناء الكتب العربية وانتقاء اجودها وافيدها . ثم نشرت سلسلة مخطوطات نادرة تولى شرحها والاشراف على طبعها فئة من العلماء الوطنيين والمستعربين .

ثالثاً : مكتبات المغرب الاقصى

١ ـ مكتبة معهد الدروس العليا في الرباط

انشىء معهد الدروس المغربية العليا بمدينة الرباط في اوائل انتشار الحماية الفرنسية على المغرب الاقصى . وشرع رؤساء هذا المعهد وفي طليعتهم الاستاذ نهليل يجمعون الكتب المطبوعة والمخطوطة التي تبحث عن القطر المغربي ولاسيا عن الاسلام فيه . فلم يتركوا دولة من دول اوروبا الا نقبوا في خزائن مخطوطاتها عن كل ما يتعلق بابحاثهم من النصوص والوثائق والمستندات القديمة واخذوا ينشرونها بالطبع . هكذا تألف في معهد الدروس العليا خزانة غنية اضحت مرجعاً للمؤلفين في المواضيع الآنفة الذكر .

ولما قرّر المرشال ليوطي المعتمد الفرنسي بالمغرب احداث مكتبة عامة في الرباط جعل نواتها واساسها خزانة كتب معهد الدروس العليا . وعهد في ادارتها الى الاستاذ دوسينفال فانصرف بكل نشاط الى تنظيمها طبقاً للاساليب العصرية . ثم نُقلت عام ١٩٢٤ من المعهد المذكور الى بنايتها الجديدة حيث هي الآن(١) .

ونشر معهد الدروس العليا في الرباط سلسلة من المخطوطات العربية النفيسة كان لنشرها صدى استحسان في الدوائر العلمية وتدارسها الادباء والعلماء . ولم يبرح المستعربون في المغرب الاقصى دائبين في طبع المخطوطات القديمة وترجمتها . وهناك مخطوطات اخرى ستمثل للطبع تدريجاً رغم ما يعترض طبعها من عقبات

(١) ملحق جريدة « المغرب » للثقافة العربية في سلا : مجلد ٢ سنة ١٩٣٨ صفحة ٤٣

لا بد لتذليلها من عناء مضن يكابده العلماء المستشرقون . وقد عرف لهم هـــذه المأثرة جميع المفكّرين والمثقفين في المغرب الاقصى . فشكروا لهم دراساتهم التي يبنونها على النقد النزيه ولا يتحرّون فيها الا توسيع نطاق التفكير والادب المثمر.

٢ ــ سائر المكتبات النصرانية بالمغرب الاقصى

لما دخل القطر المغربي في حوز الحماية الفرنسية اخذ الاوروبيون يتوافدون اليه من كل حدب وصوب للاقامة فيه . وكان بينهم كثير من المستعربين واهل العلم وموظفي الدولة الحامية . فانشأ هؤلاء خزائن كتب خصوصية ضمّوا اليها كل نادر ونفيس من مطبوع ومخطوط .

ونظراً الى خطورة تلك الخزائن في عالمي الادب والتاريخ رأت ادارة المكتبة العامة في الرباط اقتناءها حرصاً على ذخائرها وتعميماً لفوائدها . واليك بعض تلك المكتبات التي اتصلت بنا اسماء اصحابها مع سنة اقتنائها وهي(١) :

١ : مكتبة النادي الالماني في طنجة سنة ١٩٢٠
٢ : مكتبة الحاكم العام م . كروزيل سنة ١٩٢١
٣ : مكتبة مسيو برنار الموظف الفرنسي في عاصمة الجزائر سنة ١٩٢٢
٤ : مكتبة المسيو لاريش قنصل فرنسا في الرباط سنة ١٩٢٩
٥ : مكتبة القسم الاجتماعي لادارة الاستعلامات التي كان مركزها في مدينة سلا . وكان يديرها المستعرب المسيو شوبلير سنة ١٩٣٦

رابعاً : مكتبات طرابلس الغرب

١ ـ مكتبة الحكومة الايطالية

ما كاد يستولي الايطاليون على طرابلس الغرب عـام ١٩١١ حتى بادروا الى

---

(١) ملحق جريدة « المغرب » للثقافة المغربية في سلا : مجلد ٢ سنة ١٩٣٨ صفحة ٤٣

نشر ثقافتهم وترويج لغتهم بين سكانها بشتى الفنون والاساليب . ومن جملة ما عمدوا اليه انهم انشأوا مكتبة عامة حوت بجانب الكتب الايطالية بعض مطبوعات عربية استحضروها من اقطار الشرق . غير ان تلك المطبوعات قليل عددها بالنسبة الى حاجة ذلك القطر المأهول بالعرب والواقع بين بلدان عربية . وبعد انهزام الايطاليين من القطر المذكور عام ١٩٤٣ لم يبقَ اثر للمكتبة التي نحن بصددها .

٢ ـ مكتبة جرجس صقال

جرجس صقال حلبي المحتد ولد سنة ١٨٧٨ وتلقى دروسه الاولى في دير الشرفة بلبنان . ثم اكمل تحصيل العلوم واللغات في مدرسة بروبغندا برومة حيث نال شهادة دكتور في الفلسفة واللاهوت . وعام ١٩١٤ استوطن مدينة طرابلس الغرب فانصرف الى التعليم والتأليف وتعاطى ايضاً مهنة الصحافة . وكلف منذ صغره بجمع الكتب فاحرز منها خزانة ضمّت الكثير من المؤلفات العربية الثمينة على تنوع مواضيعها بين مخطوط ومطبوع . وقد تبرع بطائفة معتبرة من مجلدات خزانته على مكتبة دير الشرفة .

الفصل الثامن

خزائن كتب الهند

١ ـ المكتبة العمومية في كلكتا

بين المعاهد الكتابية التي تستحق الذكر في بلاد الهند « المكتبة العمومية » في كلكتا . وقد تعهدها المطران اغناطيوس نوري اثناء سياحته في الهند سنة ١٨٩٩ و١٩٠٠ قال(١) :

« في الثامن من آذار انطلقنا الى المكتبة العمومية . وهي غرفة كبيرة تأتي في خمسة وعشرين متراً طولاً بعرض عشرة امتار . فالتقينا فيها بمدرّس اللغة العربية رزق الله افندي ابن فتح الله عزّو البغدادي الكلداني . فأرانا ما فيها من كتب خطية ومطبوعة وهي شيء كثير لا يُحصى عدّه . وكلها مرتبة ترتيباً حسناً . وللمكتبة فهرست يسهل على الطالب وجود ضالته باقرب وقت . وقد خصّصت الحكومة مبلغاً من المال كل سنة لابتياع الكتب حسبما يتراءى لمديرها » .

« وبينما كنا ننظر في بعض الكتب العربية اقبل الدكتور المستر رنكي مدير المكتبة وهو انكليزي المحتد، يحسن العربية والفارسية واللاتينية والسنسكريتية . وهو يترجم من العربية الى الانكليزية كتاب جغرافية شمس الدين ابي عبدالله محمد بن احمد المعروف بابن المقدسي ويعلق عليه حواشي واضافات وملاحظات . وفي هذه المكتبة يصير كل سنة امتحان ضباط العسكر الانكليزي دارسي اللغة العربية او الفارسية او الاردوية » .

---

(١) رحلة الى الهند : تاليف المطران اغناطيوس نوري : صفحة ٨٠٩ مطبعة حريصا بلبنان

الباب السادس

مكتبات بيروت العامة

الفصل الاول

مكتبة مار منصور

تأسست شركة مار منصور دي بول بتاريخ ٧ ايار ١٨٦٠ في بيروت. ومن مشاريعها المفيدة مكتبة عامة انشأتها للادباء والاعيان واهل البحث من جميع الملل والاديان. وكان مركزها اوّل بدء في شارع سوريا حيث شيّدت راهبات المحبة مدرسة ومأوى للايتام. ثم انتقلت المكتبة الى مركز الشركة الحالي في شارع مار منصور بجوار مركزها السابق من الناحية الجنوبية. كانت نواة مكتبة مار منصور ما خلّفته « الجمعية المشرقية » من الكتب على ما ذكرنا في الفصل الاول من الباب الخامس. ثم اضافت اليها شركة مار منصور طائفة صالحة من المجلدات فاصبح مجموعها يناهز الاربعة آلاف. وهو عدد لا يُستهان به في حين لم تكن المطبوعات متوفّرة بين الناطقين بالضاد. وقد أنيطت امانة هذه المكتبة وادارتها باحد اعضاء الشركة وكان يشرف عليها الاديب يوسف اليان سركيس الذي امتاز بثقافته وغيرته.

ولبثت ابواب المكتبة مفتوحة نحو عشرين سنة حتى أوجس الباب العالي خوفاً لنجاحها. فتقدم الى نصوحي بك والي بيروت (١٨٩٤ – ١٨٩٧) باقفالها لان حرية القول والفكر والقلم كانت مقيدة حينذاك في البلدان العثمانية. فاضطرت شركة مار منصور الى بيع مكتبتها التي حوت أنفس الآثار والأسفار.

الفصل الثاني

مكتبة غرف القراءة

أنشئت غرف القراءة في بيروت صيانة لأخلاق فريق من الشبان العاطلين وحرصاً على آدابهم . ويعود الفضل في بذر هذه الفكرة الطيبة الى المرسلين الاميركيين الذين اخرجوها عام ١٨٩٩ الى حيّز العمل . وقد استأجروا لذلك حانوتاً كبيراً واسعاً جنوبي ساحة الشهداء جهزوه بكل ما يلزم من صحف دورية وكتب عربية وافرنجية وافرغوا الجهود في ان تكون تلك الكتب برمتّها مفيدة لاولئك الشبان وموافقة لأذواقهم ومشاربهم ومبلغ ثقافتهم . ثم اضافوا اليها طائفة من الكتب كانت تخص جمعية « شمس البر » ضمت الى ما تبرع به عليها الاعيان وحملة الاقلام .

ثم ان ادارة هذه المكتبة رخصت في شرب القهوة او الشاي لمن شاء من القراء بثمن زهيد ترغيباً في ارتياد غرفها وتحذيراً من غشيان المقاهي والملاهي العامة .

ولما تحقق اولئك المرسلون مؤسسو المكتبة نجاح مشروعهم شيدوا له بناية فسيحة شرقي مطبعتهم القديمة الواقعة غربي ساحة السور . فازداد الاقبال على غرف القراءة وجعل الشبان يتوافدون اليها في اوقات معلومة لارتشاف اصفى موارد الثقافة والادب . وناهز عدد كتبها ثلاثة آلاف واربعمائة مجلد تبعثرت في ايام الحرب العظمى (١٩١٤ - ١٩١٨) . ولم يسلم منها الا جزء يسير حُفظ في غرفة خاصة . اما مركز المكتبة فقد تحول الآن الى مدرسة ليلية مجانية .

الفصل الثالث

مكتبتا الاتحاد والترقي والحرب العظمى

١ ـ مكتبة الاتحاد والترقي

اخذت « جمعية الاتحاد والترقي » البيروتية مركزاً لها غربي ساحة الشهداء فوق سوق الصاغ . فأسست هناك مكتبة جمعت فيها طائفة معتبرة من المطبوعات عربية وتركية وفرنجية بينها بعض مخطوطات شرقيـة . وتسابق القوم عـلى اختلاف طبقاتهم ونزعاتهم فأهدوا اليها نفائس المؤلفات ومجاميع المجلات . وتبرع اهل الثراء وارباب الصناعة بكل ما احتاجت اليـه المكتبة من خزائن ومقـاعد ورسوم ورياش . نخص بالذكر منهم السيد الياس سيوفي فانـه نفحها بالشيء الوافر من مصنوعات معامله الشهيرة . فتكوّن من ذلك مكتبة عامرة أضحت نجعة الروّاد ومنهل الورّاد . غير ان حياة هذه المكتبة لم تستغرق اكثر من ثلاثة اعوام .

٢ ـ مكتبة الحرب العظمى

تكونت هذه المكتبة من خزائن خاصة استولت عليها الحكومة العثمانيـة في الحرب العظمى بعد نفي اصحابها وانشأت منها مكتبة عامة اناف عدد كتبها على خمسة آلاف وثلاثمائة مجلد . واحتوت تلك المكتبة على مؤلفات في اللغة والتاريخ والاداب والحقوق والطب والعلوم الطبيعية والفنون الجميلة الخ . بينها معاجم وموسوعات ومجاميع ثمينة في اللغات العربية والتركية والفرنسية والانكليزية والايطاليـة وغيرها . وقد احتلت هذه المكتبة خمس غرف وقاعة كبرى في فندق « سنترال » غربي ساحة الشهداء .

وبعدما وضعت الحرب اوزارهـا عاد اولئك المنفيّون الى بيروت . ولما كانت هذه البـلاد قد خرجت يومئذٍ من حكم العثمانيين وانتقلت الى انتـداب الفرنسيين فان الحكومة الجديدة رأت ان تعاد الكتب والخزائن الى اربابها . فتسلم كل منهم حصته وهكذا انتهت حياة « مكتبة الحرب العظمى » التي لم تعش اكثر من اربعة اعوام .

الفصل الرابع

مكتبة المجلس البلدي

١ ـ مكتبات المجالس البلدية في انحاء المشرق

لا تخلو عاصمة او حاضرة في بلدان المغرب الراقية من مكتبة تابعة لمجلس بلديتها يؤمها الطلبة وروّاد الأدب للدراسة والاستفادة . وقد احتذت بعض المجالس البلدية في الشرق بمثال بلديات الغرب فأنشأت مكتبات حافلة باصناف الكتب . وحسبنا من هذا القبيل ان نذكر المكتبة البلدية في الاسكندريّة ودار الكتب الوطنية في حلب الشهباء . وتعدّان كلتاهما من مفاخر المجلسَين البلديّين في تينك الحاضرتين . وقد وفيناهما حظهما من الوصف في الباب الثالث من هذا المؤلف .

وعلى شاكلة مكتبتَي الاسكندرية وحلب المشار اليهما قامت مكتبات عديدة في بعض مدن وادي النيل بهمة مجالسها البلديّة . وقد أحصينا منها عشر مكتبات أنشئت منذ السنة ١٩١٣ في الانحاء التالية اعني : طنطا . المنصورة . الزقازيق . شبين الكوم . بني سويف . دمنهور . سوهاج . الفيّوم . المنيا . المحلة الكبرى .

٢ ــ نشأة مكتبة بلدية بيروت

على ان المجلس البلدي في عاصمة لبنان لم يرَ ان يظلّ مكتفياً ازاء نهضة حديثة

عمّت جميع انحاء الشرق . لكن الحمية الوطنية دفعت بعض اعضائه فتجرّدوا للامر بنشاط وحماسة . وعرضوا فكرة هذا المشروع على محافظ العاصمة فأيدها وطرحها على بساط البحث في المجلس البلدي . وما عتم ان صدر القرار بانشاء المكتبة في ٢٤ ايلول ١٩٣٠ واسناد امانتها الى الاستاذ عبد الحليم اللادقي . فنهض هذا بمهمته علاوة على تعاطيه امانة سرّ المجلس . ثم جعل يفاوض الادباء ويراسل الفضلاء في الاقطار العربية . فتوفق في سعيه الحميد وتجمّع لديه اكثر من الف وخمسمائة مجلد . وممن لبّوا نداءه نذكر : مدير دار الكتب المصرية . وسمو البرنس عمر طوسون في الاسكندرية . والشيخ يوسف البستاني صاحب مكتبة العرب في القاهرة . والسيد اسعاف النشاشيبي في القدس . والشيخ محمد سعيد اياس . والسادة امين الريحاني ومحمد جميل بيهم وجرجي نقولا باز في بيروت . ولم يتخلف السيد عبد الحليم اللادقي عن اتحاف المكتبة الفتاة بطائفة من كتب خزانته الخاصة . وفي ١٥ كانون الثاني ١٩٣١ وضع لها نظاماً خاصاً انتهج فيه نهج الانظمة التي تتمشى عليها ارقى المكتبات .

ولا يخفى ان المجلس البلدي لم ينفق على هذه المكتبة الا ما احتاجت اليه لتجليد الكتب والمجلات فقط . غير انه تبرّع عليها في السنة ١٩٣٥ بمبلغ خمسمائة ليرة لبنانية لشراء بعض كتب لا تستغني عنها دوائره الفنيّة .

والخليق بالذكر ان خزائن هذه المكتبة صُنعت من اخشاب باخرة أغرقها الحلفاء في مرفأ بيروت اثناء الحرب العظمى (١٩١٤ - ١٩١٨) . وهي من أمتن الأخشاب وأجودها . بدليل انها ظلّت خمس عشرة سنة في قعر البحر دون ان يعتريها العطب .

الفصل الخامس

مكتبة القضاة

أنشئت هذه المكتبة عام ١٩٢٤ في قصر العدل ببيروت . وجرى ذلك بتشويق الاستاذ فرجاو رئيس محكمة التمييز الاجنبية كي تكون مرجعاً للقضاة والمحامين والمترافعين في كل مبحث يتعلق بمهنتهم . اما الذي اعتنى بتعزيزها وتوفير مجلداتها وضبط ادارتها فهو الاستاذ مرسيل ديس (Deïs) الذي تولى سنة ١٩٣١ رئاسة محكمة التمييز المشار اليها خلفاً للاستاذ فرجاو .

وقد جعل اساساً لمكتبة القضاة ما جمعته حكومة جبل لبنان من الكتب وحفظته بسراي بعبدا في عهد المتصرفية (١٨٦١ — ١٩١٨) . واشتملت تلك المجموعة على كتب فقهية وقانونية ولغوية في اللغتين العربية والتركية . ويبلغ الآن عدد ما تحويه « مكتبة القضاة » من الكتب نيفاً وثلاثة آلاف مجلد في اللغتين المذكورتين وفي اللغة الفرنسية .

وفي ما يلي نذكر اهم ما احتوته هذه المكتبة من الأسفار العربية وهي : مجموعات قوانين لبنان وسوريا . مجموعة مجلدات جريدة لبنان الرسمية مدة عشرين سنة . مجموعة المجلة القضائية . حاشية ابن عابدين وتكملتها . قاموس الحقوق . معجم لسان العرب . معجم محيط المحيط الخ . ولما كانت هذه المكتبة مرجعاً وحيداً للقضاة والقضاء في عاصمة لبنان ودَدنا لو توفرت فيها الكتب العربية التي هي لغة السواد الاعظم من سكانها .

وغير خافٍ ان الغرض من تأسيس هذه المكتبة خدمة القضاة بالدرجة الاولى طبقاً لعنوانها . ومما يؤسف له ان ذوي العلاقة بها ممّن ألفوا او ترجموا ونشروا بعض التصانيف قد ضنّوا عليها بتآليفهم !

الفصل السادس

مكتبتا نقابتي المحامين والصحافة

١ ـ مكتبة نقابة المحامين

هي مكتبة صغيرة حديثة العهد تابعة لنقابة المحامين اللبنانيين مركزها قصر العدل في بيروت . وتتألف من خمس خزائن ظريفة الصنعة رُصفت فيها تصانيف ومجموعات ونشرات دوريّة مجلدة تجليداً متقناً جميلاً . بيد ان عددها لا يتجاوز بضع مئات من المجلدات . وتدور ابحاثها على مختلف القوانين والاحكام والاصول الشرعية في اللغتين العربية والفرنسية .

وقد نُمي الينا ان مجلس نقابة المحامين يفكّر في توسيع نطاق هذه المكتبة خدمةً لهم وتسهيلاً لاشغالهم . غير ان ما اثبتناه عن مكتبة القضاة السابق ذكرها يطابق بكليّاته وجزئياته مكتبة نقابة المحامين . فان هذه المكتبة ايضاً لا تشتمل على المؤلفات والأطروحات والرسائل والمجلات التي وضعها المحامون اللبنانيون ونشروها بالطبع .

٢ ـ مكتبة نقابة الصحافة

انشئت هذه المكتبة على أثر تأسيس نقابة الصحافة في بيروت . وجُعل مركزها في بناية دار البلدية الجديدة . وكانت تعقد هناك مجالس النقابة واجتماعات الصحافيين . وقد تواردت عليها هدايا المؤلفين والطباعين والاعيان وذوي الحمية فنفحوها بطائفة كبيرة من الكتب والمجلات والنشرات الدورية . وقد اصبحت اليوم اثراً بعد عين .

الباب السابع

المكتبات العربية في اوروبا

الفصل الاول

اعتناء الاوروبيين باذدخار الكتب العربية

١ ـ ظهور اللغة العربية في اوروبا منذ القرون الوسطى

يرتقي عهد اهتمام الاوروبيين باللغة العربية الى القرن العاشر للميلاد . فمن ذلك الحين اخذوا يحشدون في خزائنهم ما ألّفه العرب في الطب والفلسفة والرياضيّات والطبيعيات والكيمياء والنجامة والأدب واللغة . وجعلوا يترجمونها الى لغاتهم ولاسيما الى اللغة اللاتينية التي كانت وما برحت لغة العلم عندهم . ثم ازداد هذا الاهتمام على اثر احتكاك الافرنج بالشعوب الشرقية اثناء الحروب الصليبية (١٠٩٦ – ١٢٩١ م) . فكانوا يبتاعون ما تقع عليه عيونهم من المخطوطات الشرقية لاعتبارهم اياها من الآثار القديمة الغريبة الشكل واللسان والمجهولة في بلادهم . ومن الأدلة الراهنة على ذلك ان لويس التاسع ملك فرنسا (١٢٢٦ – ١٢٧٠ م) لما عاد من الحرب الصليبية نقل معه من مدينة دمياط مخطوطات عربية وقبطية زيّن بها خزائن قصره . واحتذى حذوه كثيرون من امراء الفرنسيس واغنياء حجّاجهم الذين رافقوا الملك في زيارته الاماكن المقدسة(١) .

---

(١) علاقات ملوك فرنسا بملوك العرب : تأليف الفيكنت فيليب دي طرازي : صفحة ٤ ـ ٥

زد على ذلك ان علماء الاستشراق وقناصل دول الغرب وتجار الافرنج الذين أمّوا البلاد الشرقية في آونة مختلفة ابتاعوا ما تيسّر لهم من تلك الكنوز الكتابية وأغنوا بها خزائن اوروبا ومتاحفها .

وخلاصة القول ان صرعى الكتب وعشاقها في الغرب اقاموا عملاء تسوّقوا لهم المخطوطات باثمان غالية من جميع انحاء الشرق . على ان من أتيح له ان يتفقد دور الكتب الشهيرة في لندن وباريس وفينا ورومة والفاتيكان وفلورنسا وميلانو ومدريد وبرلين وليبسيك ومونيخ ومنشن وبون وغوتنجن وغوطا وبلجيكا وكوبنهاغن واوبسالا ولينغراد الخ لا يتمالك من الاعجاب بما افرغه الافرنج من الجهود وما انفقوه من الاموال لاكتناز تلك الثروة العلمية التي لا يعادلها ثمن .

٢ ــ ترجمة كتب الفلسفة والطب العربية وتدريسها في جامعات اوروبا

شاعت اللغة العربية في القرون الوسطى بين علماء اوروبا لكثرة الأقوام المتكلمين بها ولشهرة فلاسفة الاسلام بينهم كابن رشد وابن سينا وابن زهر والفارابي والرازي . فظلت تدرس فلسفتهم وطبهم في جامعات اوروبا حتى السنة ١٦٥٠ للميلاد . وعثر دافيك في مدرسة مونبليه على ترجمة القرآن في اللغة اللاتينية بقلم الاخ دومينيك جرمان الصقلي فنشرها في المجلة الاسيوية (١) .

وفي السنة ١١٣٠م تأسست في طليطلة كلية لترجمة الكتب العربية الى اللاتينية برعاية الاسقف ريموند . وقام بعده جيرار دى كريمونا سنة ١١٧٠ م فترجم كتب الرازي وابن زهر وابن سينا . وما كان القرن الخامس عشر حتى بلغ عدد

---

(١) المستشرقون : بقلم نجيب العقيقي : صفحة ٣١

الجامعات في اسبانيا ست عشر جامعة . فكانت قرطبة بمكتبتها العامرة موضوع اعجاب الاوروبيين . وألقت جامعة اشبيلية دروسها باللغة العربية .

ولم تكن صقلية وجنوب ايطاليا باقل حظاً من اسبانيا. ففي القرن الحادي عشر للميلاد تأسست جامعة ساليرنو التي سيطر عليها الفكر العربي مدّة قرنين . وكان لقسطنطين الافريقي اليد الطولى في ادارتها . ثم قامت جامعة باليرمو ومونبليه وتلتها جامعات باريس وبولونيا واكسفورد وبادوا وغيرها . وعنيت هذه الجامعات كلها بتدريس العلوم العربية فأثارت في الغرب ثورة فكرية جديدة انارت سُبُل اوروبا . وفتحت امامها ابواب ثروة علمية استفادت منها فائدة عظمى (١) .

ومن اعظم المستشرقين الذين تفانوا في نشر اللغة العربية وتشويق اهل اوروبا الى درسها كان « داموندلول » الذي أدرك اوائل القرن الرابع عشر للميلاد . فهو اول من شعر بخطورة اللغة العربية في اوروبا فأحكم اصولها وعشق آدابها . بل هو اول من اجتهد في تدريسها على رجاء ان تكون وسيلة قوية للتفاهم بين الشرق والغرب (٢) .

٣ ـ حديث الرحالة ابن جبير عن العروبة في بلاط ملوك صقلية

بعد تقلّص ملك العرب عن صقلية في القرن الحادي عشر للميلاد لبثت لغتهم شائعة فيها حتى في قصر الملك نفسه . فان الملك روجه الثاني (١١٠١ ـ ١١٥٤م) وهو متثقف بثقافة العرب أطلق لهم الحرية في اقامة فروضهم الدينية وضمهم الى بلاطه . واستدعى بعض العلماء من المسلمين كالشريف الادريسي (١٠٩٩ ـ ١١٦٤م)

---

(١) مآثر العرب في العلوم الطبية : للدكتور سامي حداد : صفحة ٦٩ ـ ٧٠

(٢) راموندلول وتعزيز اللغة العربية باوروبا : بقلم ز. بلاشير (مجلة دمشق : مجلد ١ عدد٦ سنة ١٩٤٠ صفحة ١٩ ـ ٢٤) .

ليستفيد من معارفهم المتنوعة (١) . واضاف شارة محمد الى شارة المسيح في ضرب نقوده . فنقش على احدى صفحتيها « لا اله الا الله محمد رسول الله » . وبعد روجه قام الملك غليوم الاول (١١٥٤ – ١١٦٦ م) فتأثره واتخذ العربية لغة لأهل بلاطه (٢) .

ولما ارتحل ابن جبير الى صقلية في عهد ملكها غليوم الثاني (١١٦٦–١١٨٩م) وصفه بقوله : « وشأن ملكهم هذا عجيب في حسن السيرة واستعمال المسلمين ... وهو كثير الثقة بالمسلمين وساكن اليهم في احواله والمهم من اشغاله . حتى ان الناظر في مطبخته رجلٌ من المسلمين . وله جملة من العبيد السود المسلمين وعليهم قائد منهم . وليس في ملوك النصارى أترف في الملك ولا ارفه منه . وهو يتشبه في الانغماس في نعيم الملك وترتيب قوانينه ووضع اساليبه وتقسيم مراتب رجاله وتفخيم ابهة الملك واظهار زينته بالملوك المسلمين ... ومن عجيب شأن المتحدّث به انه يقرأ ويكتب بالعربية وعلامته على ما اعلمنا به احد خدَمته المختصّين به « الحمد لله حق حمده » . وكانت علامة ابيه « الحمد لله شكراً لأنعمه (٣) » .

اما فريدريك الثاني امبراطور النمسا (١١٩٤ – ١٢٥٠) فقد شمل بحمايته جامعة بولونيا الشهيرة في ايطاليا . فوهبها طائفة من المخطوطات باللغة العربية ولاسيما كتب الطب . هكذا تسرّبت الى منابر بولونيا فلسفة ابن رشد كما تسرّبت قبل ذلك الى منابر جامعة بادوا .

واحتذى فريدريك الثاني المشار اليه بمثال الفنس التاسع صاحب قشتالة (١١٥٨ – ١٢١٤ م) فجمع اليه المترجمين من العرب وفريقاً من الافرنج المثقفين بالعربية . فبلغ ما ترجموه ثلاثمائة مجلد الى اللغة اللاتينية لغة العلم ما عدا ما نقلوه الى غيرها . وما مرّ القليل حتى اصبحت جزيرة صقلية في ذلك العصر معقل العربية

(١) مجلة دمشق : مجلد ١ عدد ٦ سنة ١٩٤٠ صفحة ١٩
(٢) المستشرقون : صفحة ٣٢ (٣) رحلة ابن جبير : صفحة ٣٠٨ ـ ٣٠٩

المنيع . وغدا ملوكها يحسنون صلة العرب فقرّبوا علماءهم وجمعوا في بلاطهم حلقة من شعرائهم وجعلوا من العربية لغة الادب العالي . وخلاصة القول ان ملوك صقلية وامراءها كانوا عرباً في ثقافتهم وحياتهم وطرق حكمهم ولباسهم وقصورهم ومعيشتهم وحفلاتهم (١) .

٤ ـ اندماج الفاظ عربية في لغات الافرنج وفي معاجمهم

لم يغمض ملوك الفرنسيس عن الاعتناء باللغة العربية بل نهجوا في تعزيزها نهج ملوك اسبانيا وصقلية . فأنشأوا في باريس عاصمتهم مدرساً عاماً لتعليمها منذ اواسط القرن الثالث عشر للميلاد (٢) . هكذا اندمجت في لغة الفرنسيس وفي سائر لغات اوروبا الفاظ عربية كثيرة ولا سيما في العلوم البحرية والطبية . وغير خاف ان الطب العربي كان أساس علم الطب عند الفرنسيس اخذوه مع كثير من ألفاظه . وروى المستشرق العلامة الاب هنري لامنس ان اللغة الفرنسية استعارت نحو تسعمائة لفظة من اللغة العربية واستعملتها وادخلتها رسمياً في معاجمها (٣) .

ونشر المستشرق فرنكل (١٨٥٣ ـ ١٩٠٩) الالماني استاذ اصل اللغات في كلية برسلو تآليف وبحوثاً خطيرة حدد فيها الكلمات العربية الدخيلة على اللغات الاوربية (٤) . وألف كذلك كتاباً في الالفاظ التي اتخذها العرب من السريان فدقق وعمق وحقق (٥) .

---

(١) Dozi et de gœge : La préface de description de l'Afrique et de l'Espagne, par Edrici, page 3

(٢) القديم والحديث : بقلم محمد كردعلي صفحة ٢٨ طبع القاهرة سنة ١٩٢٥

(٣) H. Lammens : Remarques sur les mots Français dérivés de l'Arabe.

(٤) المستشرقون : صفحة ١٦٣ ـ ١٦٤

(٥) النصارى : للمطران اقليميس يوسف داود : صفحة ٨٢

٥ ـ انصراف علماء الاستشراق الى نشر اهم الكتب العربية

ما اكتفى علماء الاستشراق في اوروبا بدرس اللغة العربية واذدخار كتبها لكنهم انصرفوا منذ عهد اختراع الطباعة الى طبع الشيء الكثير من تواريخ بلاد العرب وجغرافيتها وتراجم رجالها واصول شعوبها . هكذا تيسّر للاوروبيين ان ينشروا اهم تلك الكتب في مختلف العلوم العقلية والنقلية . ومن جملتها اول طبعة من القرآن باللغة العربية نشرها باباغانيني في مدينة البندقية . ثم نشر اندريا اريفابن من مانتو اول طبعة من القرآن باللغة الايطالية(١) . وما عتم ان طُبع هذا المصحف في سائر لغات اوروبا كالانكليزية والفرنسية والاسبانية والالمانية والهولندية والروسية واليونانية واللاتينية والبوهيمية والمجرّية والدنمركية والبولونية والقشتلانية والبرتوغالية والروتانية والبلغارية والصربية والالبانية والاسوجية .

وفي السنة ١٦١٧ نشرت مطبعة ليدن بهولندا قصة يوسف البارّ من القرآن . وهو اول كتاب ابرزته المطابع مضبوطاً بالشكل الكامل(٢) . ونشرت مطبعة اكسفرد سنة ١٧٤٣ السيرة النبوية من تاريخ ابي الفداء(٣) . وقد ذهب بعض المؤرخين الى ان ما طُبع من مؤلفات اسلافنا في اوروبا واميركا على ايدي المستشرقين من اهل تينك القارّتين بلغ اضعاف اضعاف ما طبعوه بسائر لغات الشرق . ذلك كله يؤيد مبلغ عناية الافرنج بلغتنا وحضارتنا وتاريخنا وعلومنا(٤) .

واثبت الاب لويس شيخو في كتابه « اطرب الشعر واطيب النثر » ما يلي(٥) :

« ان المطبوعات العربية وحدها التي تصدر في انحاء اوروبا فضلاً عن بقية اللغات السامية تنيف كل عام على الالف والثلاثمائة بين التآليف الصغيرة والكبيرة الحجم ذات المواضيع المتوسطة والخطيرة . وذلك بلا مراء اقوى دليل يثبت ما في علماء الغرب من الكلف بنشر آثار لغتنا » .

---

(١) غرائب الغرب : جزء ١ صفحة ٢٤٤ - ٢٤٥ (٢) المشرق : مجلد ٣ سنة ١٩٠٠ صفحة ٨٣ (٣) المشرق مجلد ٣ سنة ١٩٠٠ صفحة ٨٤ (٤) القديم والحديث لمحمد كردعلي : صفحة ٢٦ (٥) اطرب الشعر واطيب النثر : قسم ٢ صفحة ٢٠٩

الفصل الثاني

تعزيز البابوات للغة العربية

١ ـ تضلع البابا سلوستر الثاني من لغة العرب وفلسفتهم

كان بابوات رومة في طليعة ملوك اوروبا بانصرافهم منذ القرون الوسطى الى تعزيز اللغة العربية وتدريسها ونشرها . وقد سبق احدهم البابا سلوستر الثاني (٩٩٩ – ١٠٠٣ م) انه قصد الاندلس طلباً للعلم عندما كان راهباً باسم جربرت Jerbert. وقد تخرج في مدارس اشبيلية وقرطبة حيث اكب على تحصيل علوم العرب واحكم فلسفتهم وتعمق فيها . ثم شخص الى رومة ففاق اقرانه بعلمه ولمع بينهم بمزاياه السامية . وما كاد يجلس على كرسي بطرس برومة حتى أمر بانشاء مدرستين عربيتين : الاولى في ايطاليا مقرّ خلافته والثانية في ريمس من اعمال فرنسا وطنه(١) . ومما يؤثر عنه انه أبدل الارقام الرومانية المستعملة حتى ذاك العهد بالارقام العربية(٢) وادخلها الى اوروبا .

وقد اتى البابا سلوستر الثاني على ذكر « الصفر » العربي في رسالة وجّهها الى اوثون الثالث امبراطور جرمانيا (٩٨٣ – ١٠٠٢ م) قال : « اني اشبّهك بالرقم الاخير من الاعداد البسيطة العشرة . وهو الذي يزداد قيمة بوضع اعداد اخرى عن يساره(٣) » .

---

(١) المستشرقون : تأليف نجيب عقيقي : صفحة ٤٠

(٢) مآثر العرب في العلوم الطبية : بقلم الدكتور سامي حداد : صفحة ٦٨ ـ ٦٩

(٣) جريدة (آسيا) في بيروت : لتوفيق وهبه : مجلد ١ عدد ٦٣ في ٢٧ ايلول ١٩٦١

٢ ـ تنشيط البابوات الى اقتباس العربية

راح البابوات في القرنين الثاني عشر والثالث عشر يحببون الى قصادهم ورسلهم ورهبانهم تعلم اللغة العربية وتدريسها في المعاهد ترويجاً لخطتهم الكاثوليكية. فتيسر لهم بتلك الوسيلة ان يبعثوا وفوداً من اهل الذكاء والحصافة ممن خلفوا لنا مذكرات يومية عن رحلاتهم في الاشتغال بين امم الشرق .

من ذلك ان مجمع فينا المنعقد سنة ١٣١١ م برئاسة البابا اقليميس الخامس (١٣٠٥ — ١٣١٤ م) قرر ان تؤسس دروس عربية وعبرية وسريانية في رومة على نفقة الحبر الاعظم وفي باريس على نفقة ملك فرنسا . اما في اكسفورد وبولون وسلمنكة فعلى نفقة الرهبان . وكان يقصد بذلك تخريج وعاظ يطوفون الامصار الشرقية لتثقيف شعوبها ونشر الحضارة العربية بين ظهرانيهم . ومما يبرهن على ان اللغة العربية كانت تدرس في كلية باريس براءة للبابا يوحنا الثاني والعشرين (١٣١٦ — ١٣٣٤ م) تاريخها سنة ١٣٢٥ حتم فيها البابا على سفيره هناك ان يراقب دروس اللغة المذكورة(١) .

واول من لبى نداء الحبر الاعظم رهبان مار فرنسيس (الفرنسيسيون) ثم رهبان مار عبد الاحد (الدومنكيون) فانشأوا دروساً من هذا القبيل في اديارهم . وقد نبغ بينهم رهط من الاساتذة الذين درسوا دروساً استندوا في شروحها الى مؤلفات مترجمة عن العربية . واستعانوا في ذلك بكتب ابن سينا والفارابي والغزالي . وفي النصف الثاني من القرن السادس عشر فتحت الرهبنة اليسوعية مدرسة للغتين العربية والعبرية تولى التعليم فيها يوحنا اليانو الشهير(٢) . ومنذ ذلك العهد امتدت حركة علم المشرقيات الى اغلب انحاء اوروبا واخذت تنمو

---

(١) الآداب العربية في القرن التاسع عشر : للاب لويس شيخو : جزء ١ صفحة ١٢

(٢) الآداب العربية في القرن التاسع عشر : للاب لويس شيخو : جزء ١ صفحة ١١-١٢

وتزداد بتعاقب الايام . واعتبر كثير من العلماء والادباء تعلم اللغة العربيـة من دواعي الافتخار[1] .

٣ ـ عصر البابا لاون العاشر وافتتاحه اول مطبعة عربية في العالم

دالت دولة الروم الشرقية بسقوط القسطنطينية عام ١٤٥٣ بيد الاتراك . فهجرها الادباء والعلماء والفنانون . ونزح معهم كثير من النصارى ميممين بلاد ايطاليا حيث تمتعوا بالحرية والطمأنينة . وهبت حين ذلك في ارجائها نهضة أدبيـة تجلت مظاهرها بترويج الدروس الشرقية . وكان للبابا لاون العاشر (١٥١٣ - ١٥٢١) يدٌ طولى في تلك النهضة الشرقية حتى استحق ان يلقب عصره بعصر لاون العاشر . ومن مآثره الخالدة انه احتفل في السنة ١٥١٤ بافتتاح اول مطبعة عربية كان سلفه يوليوس الثاني (١٥٠٣ -١٥١٣) قد أسسها في مدينة فانو على ساحل بحر الادرياتيك .

٤ ـ لاون العاشر والرحالة لاون الافريقي

في السنة ١٥١٧ قبض القرصان في البحر المتوسط قريباً من جزيرة جربا علـى رحّالة اندلسي يقال له الحسن بن محمد ابو وزّان الغرناطي . فاستأسروه وباعوه بيع الرقيق في بلاط البابا لاون العاشر . وما عتم ان ادرك البابا ذكاء الاسير ووافر علمه فقرّبه واكرمه وعين له راتباً . ثم عرض عليه النصرانية فانضم اليها . ووقف البابا عراباً له في العماد وسماه باسمه « لاون » فـعُرف من ذلك الحين باسم « لاون الافريقي » .

وانتهز الرحالة الافريقي فرصة اقامته في رومة فتعلّم اللغتين اللاتينية والايطالية

---

(١) غرائب الغرب : تاليف محمد كردعلي : جزء ١ صفحة ٢٤٢ ـ ٢٤٣

وألف فيها . ودرس عليه اللغة العربية فريق من رجال الفاتيكان نذكر منهم الشاعر الشهير الكردينال اجيديو انطونيني (١٤٨٠ – ١٥٣٢) اسقف فيتربو .

وقد كتب لاون الافريقي اخبار رحلته باللغة العربية حُفظت نسختها الخطية في مكتبة فينشنسو بينلي ولا يُعرف الآن مكانها . غير ان مؤلفها ترجمها الى اللغة الايطـــالية ونشرت باسم Navigationi de Viaggi ثم ترجمت الى اللاتينية ونشرت مراراً ونقلت عنها الى الانكليزية والفرنسية والهولندية وغيرها . ويقال ان لاون الافريقي رجع بعد هذا الى مراكش وعاد قبل وفاته الى دينه القديم(١)

٥ ـ انشاء البابوات مطبعة عربية في رومة

بعدما أسّس البابوات جمعية انتشار الايمان في رومة فكرّوا ان ينشئوا مطبعة يضمّونها الى تلك الجمعية وينشرون فيها الكتب المفيدة . وقد احرزت تلـك المطبعة بهمتهم شهرة واسعة بين مطابع الغرب . وكان للغة العربية بينها الشأن الاول والنصيب الاوفر . وماعدا ما نشرته تلك المطبعة من الكتب بلغات اوروبا فانها اصدرت كتباً جمة باللغات العربية والسريانية والعبرية والارمنية والقبطيـة والحبشية والكردية . أضف اليها اليونانية والروسية والسلافية .

٦ ـ بعثات بابوية الى مشترى مخطوطات شرقية

سعى الاحبار الرومانيون سعياً حثيثاً في القرون الغابرة ليحرزوا ما استطاعوا من المخطوطات ويغنوا مكتبة الواتيكان . واخذوا منذ القرن الخامس عشر خصوصاً يواصلون تلك المساعي الطيبة كالبابا سكستس الرابع (١٤٧١ – ١٤٨٤) وبيوس الرابع (١٥٥٩–١٥٦٥) وبولس الخامس (١٦٠٥ – ١٦٢١) واوربانس الثامن

---

(١) الهلال : مجلد ٢١ صفحة ٢٣٩

(١٦٢٣ – ١٦٤٤) . فجمعوا من الكنوز الادبية الشرقية كمية وافرة . وانفقوا في اقتنائها اموالاً طائلة . وكابدوا في نقلها وتنظيمها وتنسيقها اسهاراً متواصلة . هكذا اغتنت تلك المكتبة العظيمة وارتاشت احوالها بتآليف علماء الشرق على اختلاف اجناسهم واديانهم ولغاتهم(١)

ومن اشهر البابوات الذين بذلوا الجهود لتعزيز اللغة العربية اقليميس الحادي عشر (١٧٠٠ – ١٧٢١) . فانه وجّه عام ١٧٠٧ الى الشرق عالماً لبنانياً اسمه الياس السمعاني لابتياع ما يعثر عليه من المخطوطات في لبنان وسوريا وفلسطين وادبار مصر . وفي السنة ١٧١٥ كلف الحبر الاعظم المشار اليه عالماً آخر لبنانياً هو يوسف شمعون السمعاني ان يرتحل الى المشرق ويجمع ما تيسر من المخطوطات العربية والسريانية والقبطية والحبشية . فنهض السمعانيان كلاهما بمهمتها خير نهوض وأغنيا المكتبة الواتكانية بما توفقا الى جمعه من التحف الكتابية .

وفي السنة ١٧١٩ وجه البابا اقليميس عينه كاهناً مارونياً قبرصي الاصل اسمه اندراوس اسكندر الى مدينة الموصل ليشتري مخطوطات عربية وسريانية تتعلق بالنساطرة . فظل هذا الكاهن النشيط شهرين كاملين ضيفاً في بيت القس خدر الكلداني (١٦٧٩ – ١٧٥٥) الذي بالغ في تكريمه وسهّل له جميع الوسائل للفوز بامنيته وفقاً لرغائب الحبر الروماني . وقد استخدمه البابوات ايضاً في اقتنــــاء مخطوطات شرقية من اطراف مصر والشام وما بين النهرين . فجمع منها اندراوس جانباً كبيراً نقله الى المكتبة الواتيكانية . ثم اشتغل مع السماعنــة في طبع بعض تلك الكتب وحلت وفاته نحو السنة ١٧٤٠(٢)

وانتهج خلفاء البــابا اقليميس الحادي عشر آثار سلفهم في جمع المخطوطات الشرقية على يد بعثات اوفدوها الى سوريا ولبنان وفلسطين ومصر والعراق وما بين النهرين حتى اقصى بلاد فارس والهنــد . فكان رُسل البابا يطوفون مدن

---

(١) المشرق مجلد ١٠ سنة ١٩٠٧ صفحة ٢٥

(٢) رحلة القس خدر الكلداني: بقلم الاب لويس شيخو : المشرق : مجلد ١٣ سنة ١٩١٠ صفحة ٥٨٣ و٥٨٤

الشرق والغرب ويشترون اندر المخطوطات فيدفعون ثمن بعضها ما يوازي ثقله ذهباً(١)

وتبارى فريق كبير من الاكليروس الشرقي في اتحاف المكتبة الواتكانية بمخطوطات قديمة نفيسة . نذكر منهم ابرهيم الحاقلاني الماروني (+ ١٦٦٤) الذي اهدى الى تلك المكتبة اربعة وستين مخطوطاً نُقلت اليها بعد وفاته(٢) .

٧ - قدم المكتبة الواتكانية وثروتها

صرف البابوات كل الهمّ منذ العصور الخوالي في تجميع الكتب الشرقية والغربية من انحاء المعمورة . وتوفقوا الى احراز عدد وافر من الطرف القيّمة والتحف الغالية والصكوك والوثائق العتيقة . وضموها باجمعها الى المكتبة الوتكانية التي بلغ عمرها زهاء الف وستمائة سنة (٣) . وأصبحت تُعد بكل حق شيخة المكتبات في انحاء العالم كله بل اغناها على الاطلاق بالمخطوطات القديمة (٤) .

ومع تمادي الزمان أصبح طول دهليز المكتبة ثلاثمائة وسبعة وعشرين متراً تشتمل على مصاحف ثمينة مخطوطة باليد في اللغات اللاتينية واليونانية والعبرية والعربية والسريانية والفارسية والتركية وغيرها وغيرها . وفي جملتها رقوق مذهبة ومصورة وتآليف « ورجيل » وتصانيف « كيكرون » يرتقي عهد بعضها الى القرن الخامس للميلاد وبينها ما سطرته ايدي الامراء والملوك والاحبار العظام وكبار العلماء (٥) .

---

(١) تقويم البشير : مجلد ٥٣ سنة ١٩٣٠ صفحة ٥٩

(٢) تاريخ الكنيسة السريانية : تأليف الخوري اسحق ارملة : قسم ١٧ فصل ٣ صفحة ٢٧٣ (هذا التاريخ تحت الطبع) . وتاريخ سوريا : للمطران يوسف الدبس : مجلد ٧ صفحة ٣٤١ - ٣٤٢

(٣) الهلال : مجلد ٣٦ صفحة ٤٤٦

(٤) محاضرات المجمع العلمي العربي في دمشق : جزء ١ صفحة ٢٦٦

(٥) انفس الآثار في اشهر الامصار : تأليف يوسف اليان سركيس : صفحة ٧٠

ومن كنوز تلك المكتبة مجلدات نسخت بشتى الخطوط والوان الحبر ووشحت صفحاتها باشكال التصاوير ورصعت جلودها بالحجارة الكريمة . وبين اهمها «سفر الخليقة» مكتوب على رق غزال وهو اقدم ما عرف من نوعه مزداناً بالتصاوير (١) .

وبين طرائف المكتبة الواتكانية سفر ثمين اكتشفه البحاثة باديوني يوم كان ينقب في زواياها . وهذا السفر هو مجموعة كاملة لانجيل مار يوحنا كتبت باللغة العربية في اوائل عهد المسيحية (٢) . وكنا نود لو ان مكتشف هذا الأثر العربي الفريد حدد عهد نساخته بالتقريب . لاننا لسنا نعرف كتاباً عربياً نسخ بخط عربي في صدر التاريخ المسيحي . انما ذلك لا يقلل من قيمة هذا الانجيل الاثرية لانه يعتبر بلا ريب من اقدم المخطوطات العربية واغلاها .

وغير خاف ان العرب المسلمين خلّفوا كتابات كثيرة عن مصحف الانجيل وعن الآثار النصرانية في رومة . ومما رواه ياقوت الحموي نقلاً عن كتاب احمد بن محمد الهمذاني المعروف بابن الفقيه ما يلي : «وفي رومة من الصلبان التي تخرج يوم الشعانين ثلاثون الف صليب ذهب . ومن المصاحف الذهبية والفضية عشرة آلاف مصحف(٣)» .

٨ ـ شغف رجالات البلاط البابوي بالكتب العربية

نسج على منوال البابوات رهط من الكرادلة ورجال الفاتيكان وعزّزوا علم المشرقيات في محيطهم . نذكر منهم خصوصاً الكردينال فريدريك دي مديسيس

---

(١) زبدة الصحائف في سياحة المعارف : تأليف نوفل نوفل : صفحة ٢٠٥

(٢) رسالة العمال في حلب : مجلد ١١ عدد اذار ونيسان سنة ١٩٤٠ صفحة ٤

(٣) معجم البلدان : لياقوت الحموي : جزء ٤ صفحة ٣٣٥

في فاورنسا . والكردينال برباريغو في بادوا وكلاهما من رجالات القرن السادس عشر . واشتهر في الحقبة ذاتها احد اساقفة ايطاليا اوغسطينو جوستنياني مطران نابيو في جزيرة كورسيكا . وانه أولع ولعاً مفرطاً بالدروس الشرقيـة ولا سيما العربية والعبرية . ومما يؤثر عن هذا الاسقف انه انفق ثروته في اقتناء ما لا يُحصى من المخطوطات الخطيرة في اللغات العربية والسريانية والعبرية واليونانية(١) .

وفاق من تقدّم ذكرهم الكردينال فريدريك بوروميو رئيس اساقفة ميلانو . فأسّس المكتبة الامبروسية سنة ١٦٠٩ في كرسي ابرشيته وجهّزهـا بالوف المخطوطات العربية كما سنثبت ذلك في فصل لاحق . وسنثبت في الفصل عينه فضل الاب اخيل راتي الذي تولى ادارة المكتبة المذكورة اثنتين وعشرين سنة واضاف الى ثروتها العربيــة زهاء ستة آلاف مخطوط . ولما ارتقى الى السدة البابوية باسم بيوس الحادي عشر (١٩٢٢ - ١٩٣٩) وجّه عناية خصوصية نحو المكتبة الواتكانية . فعزّزها بمصاحف عربية جمعها له من انحـاء الشرق الكردينال اغناطيوس جبرائيل تبوني بطريرك السريان الانطاكي . ولشدّ ما كان ابتهاج الحبر الاعظم بتلك المخطوطات واعجابه بمضامينها فانه قضى بضعة ايام يقلبهـا ويطالعها في غرفته قبل ان يضمها الى سائر مخطوطات الواتيكان .

٩ - فضل آل مديسيس على اللغة العربية

لأسرة مديسيس النبيلة فضل جزيل على اللغة العربية وعلى نشرها في ديار الغرب . وممن اشتهر بين افرادها البابا لاون العاشر (١٥١٣ - ١٥٢١) الذي نوّهنـا بذكره والبابا اقليميس السابع (١٥٢٣ - ١٥٣٤) . فقد استنفدا جهوداً مشكورة

(١) غرائب الغرب : تأليف محمد كردعلي : مجلد ١ صفحة ٢٦٥

في انشاء خزائن المخطوطات الشرقية تعزيزاً للمكتبة الواتكانية[1] . وقام من اسرة مديسيس عينها الدوق فرديننس الاول فابتاع طائفة من المخطوطات الشرقية باسم الحبر الاعظم . ثم انشأ على نفقته مطبعة معتبرة عُرفت « بمطبعة آل مديسيس » أدت خدماً جلّى للغة العربية بما نشرته من المؤلفات المفيدة .

ومن اهم التصانيف التي نشرتها مطبعة آل مديسيس : كتاب « الاناجيل » الذي طبعته عام ١٥٩١ مزيّناً بتصاوير منقوشة على خشب . ونشرت في السنة ١٥٩٢ كتاب « مبادىء اللغة العربية » وكتاب « الكافية » وكتاب « نزهة المشتاق في ذكر الامصار والآفاق » للشريف الادريسي . ونشرت في السنة ١٥٩٣ « قانون ابن سينا » وفي آخره « كتاب النجاة » وهو مختصر الشفاء . وطبعت في السنة ١٥٩٥ كتاب « تحرير اصول اوقليدس » لنصير الدين الطوسي[2] وهلم جراً .

---

(١) غرائب الغرب : تأليف محمد كردعلي : جزء ١ صفحة ٢٤٥

(٢) تاريخ فن الطباعة في (المشرق : مجلد ٣ سنة ١٩٠٠ صفحة ٨١ و٨٢)

الفصل الثالث

جهود ملوك فرنسا في جمع المخطوطات العربية

١ ـ الثروة العربية في مكتبة الامة بباريس

لم يكن سعي ملوك فرنسا باقل من مساعي بابوات رومة لأحراز كنوز المخطوطات الشرقية . فانهم انشأوا لها فرعاً في خزائن قصورهم ومكتبات عاصمتهم . ولتجهيز ذلك الفرع اوفدوا بعثات علمية الى الامصار العربية وغيرها في الحصول على تحف المخطوطات المكنوزة في المساجد والديورة والمدارس . هكذا أصبحت « مكتبة الامة » في باريس من اعظم مكتبات الدنيا واهمها بندرة كتبها ومخطوطاتها . ففيها الوف من فرائد المخطوطات والمطبوعات العربية (١) .

وقد تألفت عام ١٧٨٧ جمعية من علماء الاستشراق في فرنسا لنشر المخطوطات الشرقية المحفوظة في مكتبة الامة بباريس . وكانت باكورة اعمال رئيسها المستعرب دي غين de Guines ترجمة كتاب « مروج الذهب للمسعودي الى اللغة الفرنسية (٢) .

٢ ـ مخطوطات الطبابة العربية في كلية الطب بباريس

اثبتنا في فصل سبق ان سجلات كلية الطب بباريس حوت عام ١٣٩٥ ميلادية اثني عشر مجلداً اشتملت على فهارس مؤلفات خطية لاطباء العرب . ولما كان

---

(١) غرائب الغرب : تاليف محمد كردعلي : جزء ١٠ صفحة ١٠٠

(٢) المستشرقون : تاليف نجيب عقيقي : صفحة ٧٥

لويس الحادي عشر ملك فرنسا (١٤٦١ - ١٤٨٣) كثير القلق على صحته احب ان تكون كتب « الرازي » الطبية في خزانة قصره . لانه كان شديد الثقة بعلب العرب وذا اعتقاد راسخ بتفوّقهم على غيرهم في تلك الصناعة . ولم يكن من كتب الرازي حين ذاك الا نسخة وحيدة في مكتبة كلية الطب المشار اليها . فاستعارها الملك بشرط ان يردّها وفعل (١) .

٣ - تفويض ملك فرنسا الى سفيره في المغرب الاقصى ابتياع مخطوطات عربية

اشتهر لويس الرابع عشر ملك فرنسا (١٦٤٣ - ١٧١٥) بتعزيز اللغة العربية اذ انشأ منبراً خاصاً لتعليمها في المدرسة الملكية . وأنفذ رسلاً الى مختلف البلدان يفتشون عن مخطوطات في تلك اللغة وفي غيرها من اللغات الشرقية .

واقدم ما سطّره التاريخ عن البعثات الفرنسية العلمية الى الامصار العربية لهذا الهدف ان الملك لويس الرابع عشر نفسه كلف سفيره دي مونسو de Monceaux ان يرتحل في مهمة خطيرة الى المغرب الاقصى . فاوعز اليه بتاريخ ٣٠ كانون الاول ١٦٦٧ ان ينقّب تنقيباً دقيقاً عن مخطوطات عربية وفارسية ويونانية وغيرها ويبتاعها له . وصرّح ان احد كبار السياح شاهد في الشرق مؤلفات تيت ليف وابولونيوس وبرغاوس وديوفانت الاسكندري وغيرها مترجمة الى اللسان العربي . واردف تصريحه بقوله ان من تلك المخطوطات شيئاً كثيراً في خزائن جامع القرويين بمدينة فاس . وفوّض الملك الى رسوله مسيو دي مونسو ان يشتري له الفاً وسبعمائة قطعة من الجلود المراكشية Maroquins الكبيرة الحجم لانه

---

(١) مجلة « الرسالة » في القاهرة : سنة ٥ صفحة ٥٥٨ - ٥٦٠

يستطاع تجليد كتابين ضخمين بكل واحدة منها . وشرط عليه ان يكون لون الخمسانة منها اخضر ولون الباقي ارجوانياً)[1] .

٤ ـ وثيقة بمشترى مخطوطات لحساب لويس الرابع عشر محفوظة في دير الشير بلبنان

اطّلعنا في مكتبة دير الشير بلبنان على حاشية اثبتها ابو النصر ابن ابي نوفل الخازن قنصل فرنسا في بيروت في مخطوطة عنوانها « وفيات الاعيان » لابن خلكان قال : « بسم الله الحي الازلي وهو ثقتي ورجاي واليه أنيب . لما كان في تاريخ سنة الف واثنين وثمانين هـ (١٦٧١ م) ارسل حضرة عالي الجناب الملك لويس عطا الله سلطان فرنسا المعظم بين ملوك المسيحية الى جميع بلدان الاسلام لاجل عالم افرنجي نساوي من الحكية اسمه [ ] لاجل مشترى كتب دواوين الشعراء وتواريخ وفي علم النحو والهندسة والفلك والطب . ومن جميع الكتب الذي تنوجد قاطبة بجميع الألسن العربي واليوناني والسرياني والتركي والعبراني . وكتب له بذلك دفتر عدّة اسامي الكتب . ووصّاه واكد عليه من غير المكتوبين معه في الدفتر مها وجد كتب يشتري باي ثمن كان . وكتب له اوامر شريفة الى جميع القناصل الفرنساوية الذين في جميع المملكات ان مها احتاج وطلب منهم دراهم يعطوه ويعطيهم بها المرسال المذكور تمسكات . وتوجه من مدينة باريس وصل الى قبرص اشتره مقدار ماية وثمانين كتاب . ومنها اتجه الى الشام واشتره جانب كتب . ومنها توجه الى بلاد مصر حتى يدور مدنها كلهم ويشتري منهم . وبعده بيعاود الى دير طورسين وبيشتري . ومنها بيفوت الى اسلامبول وجميع المدن الذي في يد العثملية . ومنها بيفوت لبغداد وبلاد العجم . وهذه اسامي الكتب

---

(1) H. de Castries : Histoire du Maroc (archives de France, V. I. page 245)

الذي مكتوبين معه في الدفتر المذكور . وانا الفقير الى الله سبحانه وتعالى ابا النصر بن نادر بن خازن بن ابرهيم بن سركيس الخازن لما قريت هذه الدفتر نصختُ في هذا المجموع » الخ .

٥ ـ بعثة ثالثة وجهها لويس الرابع عشر الى فاس للتنقيب عن مخطوطات عربيـة

في ٣ حزيران ١٦٨٢ كتب الملك لويس الرابع عشر الى مسيو « سنت امان » سفيره لدى سلطان المغرب الاقصى انه سمع بوجود كميات عظيمة من الكتب الخطية في فاس . ولأجل ذلك اوفد اليه بعض اهل المعرفة للاطلاع عليها والتثبت في مضامينها . واوعز اليه ان يسهل مهمتهم طبقاً للاوامر الملكية (١) . واقتفى فريق من الفرنسيس آثار ملكهم لويس المومأ اليه في اقتناء الكتب العربية مطبوعة ومخطوطة .

(1) Idem : page 222

الفصل الرابع

نشاط الانكليز الى تجهيز مكتباتهم بمخطوطات عربية

١ ـ ابتياع المستر تاتام مخطوطات بما يعادل ثقلها ذهبا

نافست دولة انكلترا بابوات رومة وملوك فرنسا في ارسال الوفود الى الشرق لأحراز عتائق المخطوطات ونوادرها . واشتهرت خصوصاً بعثة المستر تاتام الانكليزية التي ابتاعت عام ١٨٤٢ اثمن ما حوته اديار مصر من تلك العتائق النفيسة . وكان بينها ثلاثمائة مخطوطة بنيف على رق غزال . ومنها ما ابتاعته البعثة المذكورة بما يعادل ثقله ذهباً كما المعنا الى ذلك في بحثنا عن « مكتبات ادیار مصر » .

٢ ـ الثروة العربية في مكتبات الانكليز وبدائع مجاميعها في المتحف البريطاني

احتذى المبشرون البروتستان الانكليز حذو المبشرين الكاثوليك فحصّلوا عدداً عظيماً من المخطوطات المحفوظة لعهدنا هذا في اشهر مكتبات بلادهم . ومن تعهّد مكتبات لندن واكسفورد وكمبردج ومنشستر وبرمنغام تجلى له صدق هذا القول . ولا غرابة في ذلك لأن دار الكتب البريطانية التي تأسست عام ١٧٥٣ تُعد آية الآيات بين رصيفاتها بل موضوع اعجاب العلماء قاطبة . فان مجموعة المخطوطات العربية فيها تحصى بالالوف . وهي تعتبر بعد مكتبات القاهرة والاستانة لما احتوته خزائنها من بدائع المجاميع الخطية واغلاها ثمناً واقدمها عهداً . وقد سبق لنا وصف شيء منها في غير هذا الفصل .

وغير خاف ان ارتفاع قبة هذه المكتبة يعادل ارتفاع قبة البنثيون في باريس ويجلس تحت تلك القبة ستمائة مطالع بالراحة دون ان يذعج احدهم الآخر (١) .

---

(١) غرائب الغرب لمحمد كرد علي جزء ٢ صفحة ٥٩

الفصل الخامس

نقل مخطوطات وافرة من بلاد الشام الى اوروبا

١ ـ تأسف العلامة محمد كردعلي على مخطوطات دمشق

للسيد محمد كردعلي بحث قيّم عن المخطوطات التي نُقلت من الشام الى اوروبا نورده بنصه قال(١) :

« ومن المصائب التي اصيبت بها الكتب ان بعض دول اوروبا ومنها فرنسا وحكومات جرمانيا وبريطانيا العظمى وهولاندة وروسيا اخذت تجمع منذ القرن السابع عشر كتباً تبتاعها من الشام بواسطة وكلائها وقناصلها والاساقفة والمبشرين من رجال الدين . وكان القوم ولاسيا بعض من اتسموا بشعار الدين ومن كان يرجع اليهم امر المدارس والجوامع بلغ بهم الجهل والزهد في الفضائل ان يفضلوا درهماً على انفس كتاب فخانوا الامانة واستحلوا بيع ما تحت ايديهم او سرقة ما عند غيرهم والتصرف به كأنه ملكهم .

« حدثني الثقة ان احد سماسرة الكتب في القرن الماضي كان يغشى منازل بعض ارباب العمائم في دمشق . ويختلف الى متولي خزائن الكتب في المدارس والجوامع . فيبتاع منها ما طاب له من الكتب المخطوطة بأثمان زهيدة وكان يبيعها على الاغلب واكثرها في غير علوم الفقه والحديث من قنصل بروسيا اذ ذاك بما يساوي ثمن ورقها ابيض . وبقي هذا سنين يبتاع الاسفار المخطوطة من اطراف الشام فاجتمع له منها خزانة مهمة رحل بها الى بلاده . فاخذتها حكومته منه وكافأته عليها . والغالب ان معظم الكتب العربية المحفوظة في خزانة الامة

---

(١) خطط الشام : جزء ٦ صفحة ١٩٨ ـ ١٩٩

في برلين هي من بلاد الشام . وفهرس هذه الخزانـة من الكتب العربية فقط في عشرة مجلدات ضخمة ما عدا الملحق . وتكوّن فهارس الكتب العربية في خزائن الغرب خزانة برأسها . وان بعيداً يُحسن القيام على هـذا التراث الوافر لأجرى به من قريب يبدده جزافاً . وان أمماً عرفتنا اكثر مما عرفنا انفسنا حتى قال احد علمائهم ان العرب وضعوا من المصنفات ما لا يستطيع احدنا ان يقرأه طول عمره لجديرون بارث الشرق في مادياته ومعنوياته كما قلنـا في فصل من مجلة المقتطف منذ اربع وعشرين سنة . نعم ان كتباً تُترك للأرضة تعبث فيها والعفن يعبث بجمال جسمهـا ورسمها ويعفي اثرها الغبار والاوساخ . ويُحرم النظر فيها على من يُحسن الاستفادة منها او تفضّل عليها دريهمات معدودة حريّة بان تكون في ملك مَن يستفيد منها ويفيد » .

٢ ـ سماسرة الافرنج والمخطوطات العربية

عرفنا فريقاً من سماسرة الافرنج الذين ابتاعوا كميّات وافرة من مخطوطات بلاد الشام وبعثوا بها الى غلاة الكتب في اوروبا . نذكر منهم : ادمون دوريغلّو في صيدا وهنري داريكاريو مدير فندق السياح ببيروت في عهد مضى . وكان هذا الاخير خبيراً بالخط الكوفي على اختلاف اشكاله يقرأه بسهولةٍ وسرعة كأمهر علماء الاستشراق .

وممن لم يزل في قيد الحياة من عشاق المخطوطات الشرقية وسماسرتها بين الافرنج مسيو لبين (Lépine) الفرنسي النحلة . فقد اعتاد هـذا الرحّالة ان يختلف الى الامصار العربية عاماً بعد عام للتنقيب عن مخطوطات نفيسة ونادرة فيشتريها باغلى الاسعار . ثم يعود بعد كل رحلة الى بلاده حاملاً ما لا يُحصى من التحف الكتابية .

٣ ـ غليوم الثاني عاهل المانيا ومخطوطات الجامع الاموي

ثمّ اردف السيد محمد كردعلي قوله بقوله(١) : « ومن الخزائن المشهورة التي

---

(١) خطط الشام : جزء ٦ صفحة ١٩٩ ـ ٢٠٠

بعثرت في عهدنا ولم نعرف متى جمعت خزانة صحن الجامع الاموي بدمشق . وكانت مملوءة برقوق نفيسة . ففتحت سنة ١٣١٧ ﻫ (١) بامر السلطان عبد الحميد الثاني اجابة لمقترح الامبراطور غليوم الثاني (١٨٨٨ - ١٩٤١) الالماني (٢) فمثروا فيها على قطع من الرقوق كُتبت فيها سوَر من القرآن الكريم بالخط الكوفي . ومنها قطع مهمة من مصاحف وربعات وقطع من الاشعار المقدسة بالآرامية الفلسطينية . وكتابات دينية وادبيات دينية وقصص رهبانية ومزامير عربية مكتوبة بالحرف اليوناني . ومقاطع شعرية لاوميرس . وكراريس واوراق بالقبطية والكرجية والارمنية في موضوعات دينية الا قليلاً . وجذاذات عبرانية وسامرية فيها نسخ من التوراة وتقاويم اعياد السامريين . وصلوات وصكوك للبيع والاوقاف وعهود زواج . وبينها مقاطيع لاتينية وافرنسية قديمة وقصائد شعريّة يرتقي عهدها الى ايام الصليبيين . ونُسخ انجيل برقوق . فأهدى السلطان معظمها لعاهل المانيا . ووزع قسم منها على بعض رجال الاستانة ورجال دمشق . واستُخلصت بعض قطع منها حفظت الآن في دار الآثار في هذه المدينة . واهمها تلك القطعة الكوفية المكتوبة على رق من ربعة شريفة وقفها عبد المنعم بن احمد سنة ٢٩٨ ﻫ وعلى الوجه الثاني نقش مذهب باسم واقفها . ورأى شيخنا الامام طاهر الجزائري في تلك القبة جزءاً مكتوبا عليه انه «حبس على مشهد زين العابدين صلوات الله عليه وعلى ابنائه الائمة سنة نيف وسبعين واربعمائة » .

---

(١) الموافقة للسنة ١٨٩٩ ميلادية

(٢) جرى هذا الاقتراح عندما زار غليوم العاهل الالماني صديقه عبد الحميد في الاستانة ذلك على اثر رحلته الى فلسطين وسوريا في خريف السنة ١٨٩٩

الفصل السادس

خزانة كتب الاسكوريال في اسبانية

١ ـ دير الاسكوريال ومكتبته

الاسكوريال اسم لدير عظيم شيد سنة ١٥٦٧ على بعد خمسين كيلومتراً من مجريط (١) بامر الملك فيليب الثاني (١٥٦٢ ـ ١٥٨٤) وفيه دفن . وقد طالعنا وصفاً لهذا الدير ومكتبته جديراً بالاعتبار بقلم السيد محمد كردعلي وزير المعارف العامة في سوريا ورئيس المجمع العلمي العربي في دمشق قال : (٢)

«واهم ما يلفت النظر في هذا الدير دار كتبه وفيها خمسة واربعون الفاً من المجلدات حوت كثيراً من المخطوطات والنقوش والرسوم . ومنها الكتاب المقدس الذي كان يقرأ فيه بعض ملوك اسبانيا في القرون الوسطى . وبعضها كتب باللاتينية . ومنها ما كتب بالاسبانيولية او اليونانية ومنها المزين باجمل الرسوم . ومنها المذهب المكتوب على رق . ويهمنا من هذه المكتبة مجموعة الكتب العربية وهي الفا مجلد كانت السفن الاسبانية غنمتها من مركب لأحد ملوك مراكش المتأخرين . وكان فى هذا الدير قبل القرن السابع عشر نحو ثلاثه آلاف مخطوط عربي فالتهمتها النار في الحريق الذي نشب في الدير (٣) مع ما التهمت من الكتب الأخرى » .

---

(١) هو الاسم الذي اطلقه العرب على مدينة مدريد عاصمة اسبانيا .

(٢) كتاب غابر الاندلس وحاضرها : صفحة ٩٨

(٣) تسبب هذا الحريق عن صاعقة انقضت على الاسكوريال فأحرقت اكثر من الفي مجلد من مخطوطاته العربية وجرى ذلك عام ١٦٧١ وليس قبل القرن السابع عشر كما افاد البحاثة شارل غرو (Charles Graux : Essai sur les origines du fond grec de l'Escurial, p. 319)

٢ ـ مصدر مخطوطات الاسكوريال

روى السيد محمد كردعلي عن مصدر مخطوطات الاسكوريال قال : (١)
« فليست الكتب العربية في خزانة الاسكوريال اسبانية المصدر كلها (٢) كما اكد لنا احد علماء الاسبان . وصاحب البيت ادرى بالذي فيه . اخبرني ان الاسبان غنموا هذه الكتب من سفينة كانت لأحد سلاطين المغرب الاقصى (٣) فوقعت في ايدي الاسبان . وقال آخر ان اصل هذه المجموعة كان لاحد سفراء اسبانيا لدى الباب العالي . ولما غادر الاستانة اهداها لمليكه فوضعها هذا في الدير الذي كان ملكا له ولآله من بعده . والرواية الاولى اصح »

٣ ـ وصف مكتبة الاسكوريال واحتراق قسم منها

طالعنا وصفاً لهذه المكتبة في « مجلة المجمع العلمي العربي » في دمشق نورده بنصه (٤) :
« في دار كتب الاسكوريال في اسبانية جملة قيّمة من المخطوطات العربية يبلغ عددها الفي مجلد . جمع نواتها الملك فيليب الثاني من انقاض المكاتب الاندلسية الاسلامية القديمة . ثم اضاف اليها الملك فيليب الثالث في القرن السابع عشر عدداً عظيماً من المخطوطات العربية كانت تتألف من خزانة كتب مولاي زيدان احد السلاطين المراكشيين من السلالة السعدية . اما كيفية انتقال هذه الكتب من مراكش الى اسبانية فجديرة بالذكر لما فيها من ذكرى وعبرة .

---

(١) غابر الاندلس وحاضرها : ٩٨

(٢) المراد بلفظتي « اسبانية المصدر » هنا: ان تاريخ كتابة تلك المخطوطات يتصل عهده بايام عرب الاندلس في اسبانيا.

(٣) هو مولاي زيدان سلطان مراكش في اوائل القرن الحادي عشر للهجرة (تاريخ آداب اللغة العربية : مجلد ٣ صفحة ١١٤)

(٤) مجلة المجمع العلمي العربي : مجلد ٩ سنة ١٩٢٩ صفحة ٢٥٢ ـ ٢٥٣

« قال ليفي بروفنسال في مقدّمة المجلد الثالث من هذه القائمة ما خلاصته : خرج على مولاي زيدان في عام ١٦١٢ ابو محلي واستفحل امره وقامت بينهما وقائع دامية دارت دائرتها على مولاي زيدان (١٠١٢ – ١٠٣٧ ﻫ ١٦٠٣ – ١٦٢٨ م) . فاضطر في مايس من السنة المذكورة الى مغادرة قصره مع حاشيته والالتجاء الى سافي (Safi) وهو ثغر على الساحل المراكشي على ان يذهب منه الى السوس (Süs) . فاستأجر من سافي مركباً بثلاثة آلاف دوق (٣٦٠٠٠ فرنك) الى اغادير وحمّله جميع كنوزه وكتبه التي ورثها عن والده السلطان السعدي مولاي ابي العباس احمد المنصور الذهبي . وعند وصوله الى اغادير ابى الربان واسمه جان فيليب كاستلان ان يفرغ محمول المركب قبل ان يتقاضى الاجرة بتمامها . واذ لم يتمكن مولاي زيدان من دفعها فوراً غادر الربان ليلاً ساحل اغادير الى مرسيليا فاراً بمركبه وبما فيه من التحف والكنوز الثمينة . ولما بلغ ساله (Salé) التقى بثلاثة مراكب بقرصان اسبانيين فاستولوا عليه وذهبوا به الى اسبانية غنيمة باردة . فامر الملك فيليب الثالث ان توضع الكتب في الاسكوريال وعددها نحو من اربعة آلاف مخطوط على ظهر الصفحة الاولى من كلٍ منها عبارة تنص على ملكية السلاطين السعديين اياها . وفي ٧ حزيران عام ١٦٧١ حدث حريق عظيم في الاسكوريال التهم قسماً كبيراً من هذه الكتب ولم ينجُ منها سوى الفي مجلد وهي الموجودة اليوم في تلك الخزانة التاريخية » .

٤ ـ تعاقب عالمين شرقيين في ادارة مكتبة الاسكوريال

ظلت مكتبة الاسكوريال مجهولة حتى منتصف القرن الثامن عشر فدفعت الحمية عالماً لبنانياً يُدعى ميخائيل الغزيري الى السعي لدى فرديننـد السادس (١٧٤٦ـ ١٧٥٩) ملك اسبانيا لتنظيم تلك المكتبة . فاجابه العاهل بالرضى والاستحسان واستدعاه اليه سنة ١٧٤٨ للنهوض بالمهمة المشار اليها . وما مرّ على الغزيري ثمانية اعوام حتى خوّله الملك لقب « امين مكتبة الاسكوريال » وكلفه ان يضع فهرساً

شاملاً لمخطوطاتها . ولما كان هذا المشروع يتطلب عناء جزيلاً وزمناً طويلاً كتب ميخائيل الغزيري الى صديقه بولس خضر اللبناني ان يوافيه من رومة ويساعده في تنظيم فهرس المكتبة . فتعاونا كلاهما ودوّنا اسماء المخطوطات العربية ووصفاها وصفاً دقيقاً في مجلدين بقطع نصف . وقد صدر المجلدان سنة ١٧٦٠ - ١٧٧٠(١) بعنوان : Bibliothéca Arabico Hispana Escurialensis فكان لنشرهما فائدة عظمى لابناء الضاد .

ولبث ميخائيل الغزيري اميناً لمكتبة الاسكوريال من السنة ١٧٥٦ الى السنة ١٧٩١ وهي سنة وفاته . فخلفه في منصبه عالم شرقي آخر يدعى الياس شدياق تلقى العلوم في مدرسة بروبغندا برومة وكان من المقرّبين في البلاط الملكي. وتولى الياس ادارة هذه المكتبة بامر الملك كرلس الرابع (١٧٨٨ - ١٨٠٨) الى ان حضرته المنية عام ١٨١٨

٥ - فهارس المخطوطات العربية في الاسكوريال

لفهارس المخطوطات العربية في الاسكوريال وصف قام به المستشرق الفرنسي هرتفيك ديرنبورغ Hartvoig Dérenbourg (١٨٤٤ - ١٩٠٨) ابن المستشرق جوزيف ديرنبورغ (١٨١١ - ١٨٥٩) وقد نُصب هرتفيك استاذاً للعربية الفصحى في مدرسة اللغات الشرقية بباريس . ثم سمّي عضواً في المجمع العلمي الفرنسي . وكان مغرماً كابيه باللغة العربية توّاقاً الى الوقوف على مخطوطاتها القديمة . فسأل وزارة المعارف العامة والفنون الجميلة بباريس ان ترخّص له السفر تحت رعايتها لدرس المخطوطات المحفوظة في اسبانيا . فقصد اولا الى مدريد حيث اطّلع فيها على مخطوطات خزائن المجمع العلمي التاريخي . ثم وجه اهتمامه الى درس المخطوطات العربية في مكتبة الاسكوريال وانشأ لها فهرساً مدققاً يقع في مجلدين

---

(١) مجلة « المنارة » في جونية : مجلد ٧ سنة ١٩٣٦ عدد ١ صفحة ٢٦ - ٢٧

نشر اولهما سنة ١٨٨٤ في ٥٢٥ صفحة ما عدا المقدمة التي استغرقت صفحاتها ثلاثاً واربعين . ونشر ثانيهما سنة ١٩٠٣ في ١٠٨ صفحات حيث انتهى بالمخطوط ذي الرقم ٧٨٥ فقط . ثم فاجأ الموت هرتفيك ديرنبورغ فلم يتم عمله .

وفي عام ١٩٢٤ عهد الى ليفي بروفنسال مدير جامعة الدروس المراكشية العليا في متابعة العمل واتمام قائمة المخطوطات العربية في الاسكوريال على ان يستعين بمذكرات العالم المتوفى هرتفيك ذلك بموافقة زوجته . فذهب الى الاسكوريال واقام فيه مدة طويلة . وفي عام ١٩٢٨ اخرج المجلد الثالث وهو الاخير من هذه القائمة . واوله المخطوط ذو الرقم ١٢٥٦ وآخره المخطوط ١٦٣٣ وهي تتعلق بالعلوم الدينية والجغرافية والتاريخية . اما القسم الباقي من المجلد الثاني واوله المخطوط ٧٨٥ الى المخطوط ١٢٥٥ ويختص بالطب والتاريخ الطبيعي والرياضيات والقضاء فانه لم ينشر بعد(١) .

٦ ـ تحف مكتبة الاسكوريال

اشتملت خزانة الاسكوريال على تحف كتابية لا أثر لها في سائر الخزائن شرقاً وغرباً . ففيها اشكال خطوط كوفية وقيروانية واندلسية ومزركشة وغيرها . وفيها مصاحف مذهّبة ومخطوطات مصوّرة او مزخرفة بشتى الالوان . وفيها جلود نفيسة وقماطر مطرّزة او مطعمة بالميناء . وفيها ايضاً مخطوطات جُلدت باديم الافاعي وذلك من أندر انواع التجليد وأغربها .

---

(١) مجلة المجمع العلمي العربي : مجلد ٩ سنة ١٩٢٩ صفحة ٢٥٣ ـ ٢٥٤

الفصل السابع

المكتبة الامبروزيانية في ميلانو

١ ـ وصف رتاج المكتبة

في مدينة ميلانو مكتبة عظيمة تأسست عام ١٦٠٩ بهمة مطرانها الكردينال فريدريك بوروميو . ومن جملة كنوزها مخطوطات عربية ثمينة نادرة يحسدها عليها اكبر متاحف الشرق واوسع مكاتب الغرب . وقد زارها احد ادباء حلب فكتب عنها وصفاً يجدر اثباته هنا لبيان اعتناء اهل اوروبا بالحرص على تراث الاقدمين قال(١) :

« تعد مكتبة الامبروزيانا من ازهى المكاتب لدراسة الثقافة الاسلامية في اوروبا . يدخل لهذه المكتبة من باب استكمل فيه فن الهندسة من روعة وهيبة واناقة . وقد وضع بجانبي هذا الباب رمزان يحييان الزائر لدى دخوله وينبئانه عن البيئة ومشتملاتها . فالرمز الاول عبارة عن نخلة من النحاس تذكر مناظر الشرق الفتانة الساحرة وتدل على ان العادات العربية ما عتّمت ان دخلت في هذه الربوع . وقد كتب باللغة العربية على هذه النخلة بحروف بارزة تسترعي اهتمام الزائر عبارة الترحيب المعروفة وهي : اهلا وسهلا . واما الرمز الثاني فهو عبارة عن ابيات شعرية للملك آخريدوم الفارسي وهي .

الايام صحائف الاعمال   فخلدوها باحسن الاعمال

٢ ـ اهتمام الكردينال بوروميو بالمخطوطات القديمة

« ويرجع عهد اهتمام مكتبة الامبروزيانا بالمباحث الشرقية الى القرن السادس

---

(١) مجلة « الرابطة العربية » في القاهرة : المجلد ٦ الجزء ١٣٠ صفحة ٣١-٣٢

عشر . وذلك عندما اخذ فرديريك بورروميو يعني بجمع خزائن الكتب الاسلامية القديمة من الربوع الاسلامية الشاسعة الممتدة من بلاد فارس الى آسيا الصغرى ومن جزيرة العرب الى مصر وطرابلس الغرب والجزائر والمغرب الاقصى . فبلغ عدد ما جمع من الكتب الاسلامية القيّمة ١٤٠٠ مجلد يضم مصاحف قرآنيـــة في غاية الاناقة كتبت في عصور الاسلام المختلفة وفي الازمنة القريبة من عهد النبي صلى الله عليه وسلم . ومن جملة هذه الكتب القيّمة تفسير البيضاوي وهو من اهم المؤلفات الاسلامية . وقد كان السفير العثماني رفعت بك يقصد مكتبة الامبروزيانا حين زيارته ايطاليا ليرى ذلك الكتاب وكان يقول انه من اجمل واندر الكتب . ومن بينها ايضاً عدداً لا يُستهان به من الموضوعات القضائية على المذهب الزيدي وغيرها من اصول القضاء والفقه على المذهب الشافعي والمالكي والحنفي والحنبلي .

« ومعظم هذه المؤلفات يكوّن مجموعة ادبية تشريعية للمذهب الزيدي . وهي التي تشتمل على قسم عظيم من مصنفات جنوبي الجزيرة العربية او بعبارة اخرى من المؤلفات اليمانية لأصحابها المشاهير كالامام القاسم والامام ابي طالب والامام علي بن حسين والغاني والكافي وابن حبيس الدواري والغزالي . فبين هـذا المزيج من المؤلفات سجل طريف للمعاملات الجمركية في الُحديدة في شهر الحج . كما توجد بين هذه المجموعة كتب عديدة في علم اللغة وفي العقائد والاحكام التعبدية . ومن بينها مجموعة نفيسة من حِكم ارسطوطاليس وافلاطون ومائتان من اقوال منظومة لناظمها علي .

« وان ندرت هذه المجموعة من المؤلفات في علم الهيئة والفلك غير انها غنية في المؤلفات الطبية لأشهر اطباء العرب كابن سينا والمارغني الميموني وغيرها لجالينوس وابوقراط وافلاطون الحكيم . عـلى ان هـذه المجموعة تحتوي على كتب قيّمة واصلية في الادب وفي جغرافية جزيرة العرب وفي مباحث عن مناخ القسم الجنوبي منها وعن اصل اشتقاق اسماء البلدان في البلاد اليمانية وفي وصف العالم المعروف وقتئذ . ومن بينها كتاب نفيس جداً في تاريخ صنعاء عاصمة اليمن .

« واغنى ما في مجموعة مكتبة الامبروزيانا من الكتب المطبوعة في عهد حداثة فن

الطباعة او من المخطوطات هي الكتب التاريخية ودواوين الشعر . ومن بينها مؤلفات في تاريخ قبائل جزيرة العرب قبل الاسلام وبعض اساطير يمانية عن الوثنية وكتب تبحث عن سيرة محمد . وعن مباحثات ومناظرات في الهيآت .

« ومما يستحق الاشارة اليه من هذه المجموعة المؤلفات الفقهية والدينية . غير ان الكتب الاساسية التي تحويها هذه المجموعة هي الكتب النحوية والمباحث اللغوية . ومن بينها عدد كبير من المعجمات العربية التي استعان بها المستعرب الايطالي الشهير انطونيو جيجي . وهو من جهابذة مكتبة الامبروزيانا واوّل من ألف قاموساً عربياً في اوروبا وذلك في مبادىء القرن السادس عشر . ويُعد قاموسه هذا من اثمن المعاجم حتى اليوم . وقد أضيفت فيما بعد الى مجموعة الكتب التي جُمعت على عهد بوروميو الآنف الذكر مؤلفات اخرى في الحساب وفي علم التنجيم والاخلاق ومن ضمنها مؤلفات نفيسة لابن سينا والبخاري . كما انها كانت مشتملة على مجموعات قانونية مكتوبة على الورق بمداد لامع مختلف الالوان وهي تعدّ من اندر وانفس المصنفات . فكانت مجموعات القوانين هذه والمخطوطات العربية للقرن السادس عشر نواة صالحة لما وصلت اليه فيما بعد مكتبة الامبروزيانا من توسيع نطاقها في المصنفات الاسلامية في مبادىء هذا العصر .

« وهناك قسم ثان من مجموعات القوانين العربية جمعته مكتبة الامبروزيانا في سنة ١٩٠٩ وهو يؤلف مجموعة عظيمة من المخطوطات يبلغ عددها ١٨٤٦ مخطوطاً كما يشتمل على ٧٠٠٠ مؤلف من اصل يمني واسلامي محض . وبين هذه الكتب مؤلفات كثيرة في القرآن والسنّة لأشهر المؤلفين كالبخاري والعسقلاني . كما ان بين تلك الكتب مؤلفات لا تقل قيمة عن الاولى في الالهيات على ما يراه الاسماعيليون والزيديون من اهل الشيعة . واخرى في المذهب الملكي والمذهب البرهمي وفي المذاهب اليهودية والاسلامية والمسيحية ومناظرات ادبية في الدفاع عن الزيدية .

« واما في دواوين الشعر فاننا نجد مؤلفات للشعراء القدماء كامرىء القيس والبستي والبحتري والعريسي والمتنبي واليشكري . ومن شعراء اليمن المشهورين

نجد العنيزي وجمال الدين والقاسم وقدام بن قديم ناظم تلك القصيدة المشهورة التي تُعد مثالا صحيحا للشعر الوطني في جنوب الجزيرة من حيث القومية والديانة .

« ومن بين المؤلفات المتنوعة التي لها صبغة من الثقافة الاسلامية الساحرة نجد قاموساً كبيراً للمهواري وبعض مؤلفات ثانوية في البلاغة والعروض والنثر . واما وجوه مجموعات القوانين فهي على قدر عظيم من النفاسة والقيمة الفنية من حيث خطوطها القديمة المختلفة الانواع من النسخي الى العثماني الى المغربي الطرابلسي . فما عدا هاتين المجموعتين اللتين نوهنا بها آنفاً واللتين يكوّنان القسم الاساسي لمكتبة الامبروزيانا توجد مجموعات ثانوية اخرى من اصل كوفي او شمالي افريقي . ومجموع هذه الكتب كلها يكوّن ثروة عظيمة من الكتب العربية التي نفاخر بها الغرب » .

٣ ـ ثروة المكتبة الامبروزيانية ومشاهير مديريها

تُعد مكتبة الامبروزيانا في عهدنا من اغني مكاتب اوروبا بوفرة مطبوعاتها النادرة ومخطوطاتها القديمة البالغة خمسمائة الف كتاب بنيف . ويعود الفضل في تعزيزها الى مديرها الاب انطون تشرياني (+ ١٩٠٧) والى خلفه الاب أخيل راتي الذي اشتغل فيها مدة اثنتين وعشرين سنة (١٨٨٨- ١٩١٠)([١]) . فسعى لتحـ يل مخطوطات قديمة زادت في ثروتها العلمية الفاخرة . واعتنى اعتناء خاصاً بالمخطوطات الشرقية ولاسيا العربية فاقتنى منها نحو ستة آلاف كتاب اتي بها بعض السياح من انحاء اليمن . وهي التي وصفها المستعرب الشهير السنيور غريفيني ([٢]).

وقد ألمع المستعرب الايطالي كرلو نلّينو الى مخطوط في المكتبة المشار اليها يدعى « عرض مفتاح النجوم » المنسوب الى هرمس الحكيم المصري وهو اول كتاب نقل من اليونانية الى العربية بقطع النظر عن كتب الكيمياء([٣]).

---

(١) استولى على عرش الكنيسة الكاثوليكية باسم البابا بيوس الحادي عشر (١٩٢٢-١٩٣٩)

(٢) المشرق : مجلد ٢٠ سنة ١٩٢٢ صفحة ٣٢٤ ـ ٣٢٥

(٣) كتاب علم الفلك : بقلم كرلو نلينو : صفحة ١٤٢

الفصل الثامن

مكتبات اللبنانيين والسوريين العربية في اوروبا

اشتهر اللبنانيون والسوريون بالاغتراب في بلاد الله الواسعة سعياً الى الارتزاق وطلباً للثقافة . فارتحل فريق منهم الى اوروبا اما لتعاطي التجارة او لهدف علمي او لمصلحة دينية .

وكان اولئك الكتّاب يعيشون بين الاقلام والمحابر ينشئون الجرائد دفاعاً عن بلادهم ويؤلفون الكتب لخدمة اللغة العربية . وجمع كل منهم خزانة حافلة بالمؤلفات يطالعها ويرجع اليها في ابحاثه المهمة . واليك ما عرفناه من مكاتب اللبنانيين والسوريين في اوروبا .

اولا : مكتبة المدرسة المارونية ومكتبة الرهبان الموارنة في رومة

انشئت المدرسة المارونية في رومة عام ١٥٨٤ بامر البابا غريغوريوس الثالث عشر . وعاشت زهاء مائتين وعشرين سنة ثم خربها الفرنسيون حين احتلالهم المدينة المذكورة في اوائل القرن التاسع عشر . وقد تخرج فيها فحول من العلماء بلغوا اسمى درجات المعارف فافادوا الشرق والغرب بمؤلفاتهم القيمة(١) . وكان فيها خزانة حافلة بالمخطوطات والمطبوعات يرجع اليها اولئك العلماء والتلامذة في مباحثهم ودروسهم . وقد استولت عليها مدرسة بروبغندا لدى حاول النكبة المذكورة في المدرسة المارونية .

ولما تجددت المدرسة بامر البابا لاون الثالث عشر اعيد افتتاحها رسمياً في مطلع

---

(١) راجع اسماء اخص اولئك العلماء في كتابنا السلاسل التاريخية صفحة ١٢٨ - ١٢٩

السنة ١٨٩٤ على يد المطران الياس حويك الذي ارتقى بعد ذلـك الى السدة البطريركية . وهو الذي جدد مكتبة المدرسة ايضاً . ولأجل ذلك طالب ادارة مدرسة بروبغندا ببقايا كتب المدرسة المارونية القديمة . فاعادت اليه ما وجدته مسجلاً باسمها واعاضته عن الكتب المفقودة بما لديها من الكتب المكررة . ثم اضاف اليها المطران الياس كثيراً من المؤلفات العصرية مع كل ما جمعه من تآليف تلامذة المدرسة القديمة كالسماعنــة وآل عواد والحاقلاني والدويهي والغزيري والتولوي وغيرهم . وعثر في جملتها على نسخة من كتاب ثمين نشرته المدرسة في عيد يوبيلها المئوي (١٥٨٤ — ١٦٨٤) تضمن وصف هذا التذكار الاحتفالي مع نبذة من تاريخها وتراجم مشاهير تلامذتها وصورهم . وقد نظمت الكتب في تلك المكتبة طبقاً لمواضيعها وانشئت لها فهارس تسهل على الراغب مطالعتها(١) .

وللرهبان الموارنة الحلبيين دير في رومة يرتقي عهده الى اوائل القرن الثامن عشر . وقد انشأوا فيه مكتبة ضمّت ما يناهز الاربعمائة مخطوط جمع اكثرها بهمّة آباء هذه الرهبنة الأقدمين كالمطران جرمانس فرحات والأباتي توما اللبودي وغيرهما . واشتهر في الرهبانية المذكورة الاباتي سمعان السمعاني (١٧٢٥ — ١٨٢٢) الذي يرجع اليه الفضل في وضع فهرس للمخطوطات العربيـة المحفوظة في مكتبة تلك المدينة ويناهز عددها مائة مخطوط .

ثانياً : مكتبة دير السريان في رومة

كان للسريان في ديرهم القديم برومة مكتبة عامرة بالمخطوطات انشأهـا السيد اثناسيوس سفر العطار (+ ١٧٢٨) اسقف ماردين . وقد اوردنا ذكرها في الفصل الاول من هذا الباب .

ثالثاً : مكتبة الخوري روفائيل جروة في البندقية

هو الخوري روفائيل ابن المركيز فتح الله دي جروة يتحدر من اسرة تعد من

(١) المجلة السورية : مجلد ٤ سنة ١٩٢٩ صفحة ٢٥٢

اقدم الأسر الحلبية واكرمها وانبلها . وقد ورث عن اعمامه البطريركين الانطاكيين ميخائيل الثالث وبطرس السابع والكافلير جبرائيل محبة الكتب والرغبة في اقتنائها . فتجمع لديه منها طائفة كبيرة نقلها معه الى البندقية التي اتخذها مركزاً لسكناه منذ السنة ١٨٥٢ حتى السنة ١٨٩٢ التي فيها توفاه الله تعالى. وقد اوصى بجانب من مخطوطات مكتبته ومطبوعاتها الى مكتبة دير الشرفة [١]. واستولى شقيقه المركيز ميخائيل على بقيتها .

رابعاً : مكتبة الكنت رشيد الدحداح في باريس

لم يكن افراد اللبنانيين والسوريين في اوروبا باقل اهتماماً من الجماعات الرهبانية الشرقية في انشاء المكاتب الخاصة . فان الكنت رشيد الدحداح اللبناني (١٨١٣-١٨٨٩) سافر سنة ١٨٤٥ الى مرسيليا فباريس واقفاً نفسه على خدمة الآداب العربية التي برّز فيها علماً وعملاً فنال فيها القدح المعلى . وخلّف ما عدا الثروة المالية ثروة علمية تستحق الاعتبار . نعني بها خزانة كتبه العربية التي كانت من اغنى المكاتب الخاصة في عصره . وقد حوت زهاء اربعمائة مخطوط عربي في شتى المواضيع .

ولما كان اولاده واحفاده المولودون قاطبة في باريس يجهلون اللغة العربية آثروا التخلي عن تلك المكتبة لمن يستطيع الانتفاع بها . وقد شاهدناها اثناء اقامتنا في عاصمة الفرنسيس عام ١٩٢٢ معروضة للبيع في ثلاث غرف كبيرة عند احد تجار الكتب في شارع هوسمان . وكان قد بقي حين ذاك من مخطوطاتها مائتان وثلاثة واربعون مخطوطاً اقتنينا بعضها لخزانتنا الخاصة . نذكر منها شرح ديوان الفارض بخط شارحه حسن البوريني .

خامساً : مكتبة خليل وشكري غانم في باريس

كان خليل غانم (١٨٤٦ - ١٩٠٣) البيروتي [٢] من اعضاء مجلس المبعوثان في

---

(١) الطرفة في مخطوطات دير الشرفة : صفحة ٤٣٩ و ٤٤٧ الخ

(٢) راجع ترجمته في تاريخ الصحافة العربية : مجلد ٢ صفحة ٢٦٨ و ٢٧٤

الاستانة . واشترك مع آغوب باشا في وضع مواد الدستور العثماني بايعاز من مدحت باشا ابي الدستور . وكان خليل في طليعة المعارضين لسياسة السلطان عبد الحميد الثاني في زمن استبداده . وناهيك انه اول من تجرأ فجاهر من أعلى منبر مجلس المبعوثان منادياً « السلطان تحت الدستور لا فوق الدستور » . فلما نقل الجواسيس حرية افكار خليل غانم الى عبد الحميد أمر من فوره بالقاء القبض عليه وباعدامه . لكن العناية الالهية أنقذته من ذلك الداهية ففر الى باريس حيث اشتهر بتآليفه النفيسة وخدمه العظيمة لوطنه عن طريق الصحافة .

وخلف خليل غانم مكتبة عامرة بالمؤلفات العصرية في اللغتين العربية والفرنسية فورثها شقيقه شكري غانم (١٨٦١ - ١٩٢٩) وزاد عليها من المجلدات اضعاف ما ورثه . وكان شكري من اللبنانيين اللامعين ومن اكبر المدافعين عن استقلال وطنه . وكفاه فخراً انه تولى الرئاسة الثانية في المؤتمر العربي الاول الذي تمّ انعقاده سنة ١٩١٣ في باريس برئاسة الشيخ عبد الحميد الزهراوي . ولشكري غانم تآليف اهمها رواية « عنتر » بالشعر الفرنسي مُثلت غير مرة في دار الاوبرا بباريس وفي دار الاوبرا الملكية بالقاهرة . وقد عرفنا شارعَين في بيروت دعي احدهما باسم خليل غانم والثاني باسم شقيقه شكري اقراراً بفضلها وتخليداً لذكرهما .

سادساً : مكتبة خيرالله خيرالله في باريس

كان خير الله هذا من كتّاب لبنان المعدودين في الربع الاول من القرن العشرين . احكم اصول اللغة الفرنسية احكامه اصول لغته العربية . وقبل الحرب العظمى هاجر وطنه واتخذ عاصمة الفرنسيس مقراً لسكناه . وهناك تجلت مواهبه العقلية فألف الكتب العزيزة وتفرغ للصحافة التي نال فيها القدح المعلى . وانطوت اغلب مؤلفاته المكتوبة بالفرنسية على ابحاث شرقية ككتاب « سوريا » وكتاب « قيس » وغيرهما .

وخلف خيرالله هذا مكتبة ذات الف وخمسمائة مجلد اكثر مواضيعها شرقية نقلت

بعد وفاته سنة ١٩٣١ الى قرية « جران » مسقط رأسه بلبنان . وما برحت محفوظة هناك لدى اسرته حتى اليوم .

سابعاً : مكتبة السيدة جان دي طرازي في باريس

اقتبست السيدة جان دي طرازي من والدها مؤلف هذا الكتب محبة الكتب . فأنشأت في منزلها بمدينة باريس خزانة مخطوطات عربية وتركية قديمة العهد تُعد في طليعة الخزائن الخاصة بنفاستها وجودتها . وتشتمل تلك الخزانة الطرازية على عدد وافر من المصاحف الشريفة والمخطوطات النادرة الوجود التي ازدانت بالصور او وُشيت بالذهب والفضة او كُتبت بأقلام غريبة الاشكال مختلفة الألوان . وهي تتناول شتى العلوم من طب وفلك وتاريخ ولغة وآدب وغير ذلك . وقد عرضت السيدة جان دي طرازي تلك التحف الكتابية في خزانة خاصة ليتمكن من مشاهدتها عشاق الآثار الشرقية في ديار الغرب .

ثامناً : مكتبة عبدالله مراش في مرسيليا

يتحدر عبد الله مراش (١٨٣٩ — ١٩٠٠) من اسرة حلبية عريقة في الفضل والوجاهة معروفة بالعلم والأدب . سافر الى اوروبا سنة ١٨٦١ ولم يغادرها حتى ادركته الوفاة في مرسيليا . فتعاطى اولاً التجارة ثم كتب في اغلب الجرائد العربية التي ظهرت في عهده بلندن وباريس . وكان اكثرها يطبع على المطابع الحجرية منمقاً بخطه الجميل الرائع .

وكان عبدالله مراش من اكابر اهل الانشاء ذا باع طويل في التاريخ والفلسفة وعلم الاخلاق والأديان والشرائع وأشهر العلوم العصرية كالطبيعيات والهيئة والفنون الرياضية . وله في ذلك مقالات ورسائل وابحاث وانتقادات اجمع المطالعون على استحسانها (١) وكان يختلف الى مكاتب العاصمتين المذكورتين

(١) طالع ترجمته في مجلة « الضياء » لليازجي وفي تاريخ الصحافة العربية : مجلد ٢ صفحة ٢٧٨ و٢٨١

يتصفح ما فيها من الأسفار الخطية وينسخ منها بخطه الممتاز عدة كتب عزيزة . وكان نقي الرقعة كثير التأنق كامهر الخطاطين يشاهد خطه من اول الكتاب الى آخره واحداً .

ولشدة ولعه بالمخطوطات العربية تجمع لديه منها فضلاً عن المطبوعات قسم صالح اضافه الى ما سبق فورثه عن اخيه الشاعر فرنسيس مرّاش (١٨٣٦-١٨٧٣). وبعد وفاته دخل جانب من كتب خزانته في حوزة دار الكتب الاهلية بباريس (٢) .

تاسعاً : مكتبة حبيب زيات في نيس

صاحب هذه المكتبة دمشقي المولد انصرف منذ صباه الى المطالعة والبحث والتأليف . ومن آثار قلمه المطبوعة « خزائن الكتب في دمشق وضواحيها » وكتاب « خبايا الزوايا من تاريخ صيدنايا » ومجلدان من « الخزانة الشرقية » ومقالات شتى نشرها في بعض المجلات كالمشرق في بيروت والمسرّة في حريصا . وهو دائب في التنقيب عن تاريخ النصرانية في الاسلام ولاسيما تواريخ الروم الملكيين واخبارهم وكل ما يتعلق بهم لانه ينتسب الى ملتهم .

وبعد الحرب العظمى (١٩١٤ – ١٩١٨) اتخذ حبيب زيات مدينة نيس بفرنسا مقراً لسكناه . وهناك انشأ في منزله مكتبة حفلت بمخطوطات عربية فريدة نذكر منها ١ : مختار من كتاب اللهو والملاهي تصنيف ابن خردازبه . ٢ : مقدمة في الرجال للذهبي ٣ : الاول من « كشف النقاب عن الاسماء والألقاب » لابي الفرج الجوزي ٤ : كتاب « الافحام والافهام » لابي الحسن القصري ٥ : « شد الظهر لذكر ما يحتاج اليه من الزهر » لابن عبد الهادي وهو المعروف بابن المبرد بخطه ٦ : « ارجوزة في الظاء والضاد » لابي نصر محمد بن احمد

(٢) الوثائق التاريخية للخوري اسحق ارملة : صفحة ١١٣

الفروخي ٧ : ارجوزة لليوناني في علم النشاب خطت عام ٨٦٦ للهجرة ٨ : اخبار مجنون بني عامر وعليه سماع بتاريخ سنة ٤٤٥ للهجرة ٩ : اخبار ابي نواس الحسن بن هاني نسخت عام ٤٩٣ للهجرة الخ .

عاشراً : مكتبة رزق الله حسون في لندن

وُلد رزق الله حسون (١٨٢٥ - ١٨٨٠) من اسرة حلبية عُرفت بتجويد صناعة الخط وقد التقنها رزق الله من سعيد الاسود الحلبي الخطاط الشهير . فأولع منذ حداثته بنسخ المخطوطات العربية واقتنائها حتى انه على اثر جولانه للمرة الاولى في اوروبا جاء الى مصر فنسخ واستنسخ فيها كتباً جمة . واليك ما اثبته المؤرخ المدقق عيسى المعلوف في ترجمة رزق الله حسّون(١) قال :

« وعثر وهو في دمشق على كثير من الكتب المخطوطة القديمة واحرزها . ومن جملتها انجيل عربي وجده في قرية « عين التينة » قرب معلولا في جبل القلمون . نسخ سنة ٧٠٤٥ لآدم (١٥٣٧م) فاهداه الى المرحوم متري شحاده الدمشقي لما كان في القسطنطينية سنة ١٨٦٣ وهو الآن في المكتبة البطريركية الارثوذكسية في دمشق (عدد ١٠٠٦) وخطه كنسي جميل . وقد تفقد مكاتب دمشق القديمة ووقف على نوادر مخطوطاتها ونسخ بعض تعـــاليق مفيدة عنها كان يفيد بها المستشرقين بعد ذهابه الى اوروبا » .

ولما اتخذ رزق الله حسون مدينة لندن مقراً لسكناه انقطع الى النسخ والاشتغال بتصحيح حروف الطباعة العربية في اوروبا ومساعدة كثير من المستشرقين . وبلغ ما نسخه بخطه من نفائس الكتب نيّفاً وعشرين مجلداً . وفي السنة ١٨٧٣ جاء الى حلب وطنه متنكراً وتفقد مكاتبها ونسخ منها بعض آثار نادرة . ولا يزال كثير

---

(١) تاريخ الصحافة العربية مجلد ١ صفحة ١٠٨

من مخطوطات قلمه في مكاتب روسيا وفرنسا وانكلترا(١) . ومنها ما اقتنيناه نحن واهديناه الى مكتبة دير الشرفة .

وكان رزق الله حسون من اكبر هواة الكتب وجامعيها . يؤيد ذلك تلك المكتبة المعتبرة التي خلّفها بعد وفاته . اذ كانت تشتمل على عدد لا يستهان به من المخطوطات العربية القديمة التي نجهل مصيرها .

حادي عشر : مكتبة الدكتور لويس صابونجي في لندن والاستانة

عاش الدكتور لويس صابونجي (١٨٣٣ – ١٩٣١) ثماني وتسعين سنة كان في خلالها من اكبر العاملين في حقل المعارف(٢) . وكفاه فخراً انه خدم الصحافة العربية اثنتين وستين سنة باخلاص ونجابة في لبنان ومصر واوروبا واميركا . ولا نعرف صحافياً عربياً بين الاولين والآخرين بلغ هذا الشوط الطويل من العمر الصحافي سوى الدكتور فارس نمر باشا . وحلّت وفاة الصابونجي في مدينة لوس انجلوس . واليك اسماء ما انشأه من الجرائد والمجلات : النحلة والنحلة الحرّة والنجاح والاتحاد العربي والخلافة . وجمع الصابونجي في ريعان عمره خزانة حافلة بالمخطوطات واضاف اليها عدداً عظيماً من الكتب المطبوعة في اهم لغات الشرق والغرب التي كان هو متضلعاً من اغلبها . ولما استقر في لندن نقل اليها مكتبته التي كانت قبلته في غدواته وروحاته . ثم احضرها معه الى الاستانة يوم اتخذ هذه المدينة مسكناً في عهد السلطان عبد الحميد الثاني (١٨٧٦ – ١٩٠٩) .

وقد قُيض لنا ان نتفقد تلك المكتبة ونطلع على كنوزها الثمينة يوم كنا

---

(١) تراجم مشاهير الشرق : بقلم جرجي زيدان : مجلد ٢ صفحة ١٧٩

(٢) طالع ترجمته وفهرس تآليفه في تاريخ الصحافة العربية : مجلد ٢ : ٧١ – ٨١ ومجلد ٤ صفحة ٣٨٠ – ٣٨١

بضيافة الدكتور صابونجي في قصره « قفير النحل » بجزيرة الامراء . فشاهدنا مجلدتها مرصوفة في جدران غرفتين كبيرتين في ذلك القصر .

ومما لفت نظرنا في تلك الخزانة مخطوط بديع رُصع جلده بحجارة كريمة وجواهر ثمينة . انطوى على جملة قصائد في تسع لغات شرقية وغربية نظمها الصابونجي نفسه وكتبها بخطه الرائع . وكان قد هيأها ليقدمها بمثابة هدية الى السلطان عبد الحميد المشار اليه . لكن السلطان خُلع سنة ١٩٠٩ وبقي المخطوط في خزائن الصابونجي الذي نقله معه الى اميركا .

والجدير بالذكر ان الدكتور لويس صابونجي هو اول رحّالة من ابناء سام بن نوح طاف الكرة الارضية مرتين متواليتين بقصد الاستطلاع على احوال الشعوب وعاداتهم واخلاقهم . ونشر في ذلك كتابين : الأول « سياحتي » والثاني « رحلة حول الكرة الارضية » . وقد اشار الى ذلك في بيتين من قصيدة له في الفخر وهما :

وقد طفت حول الارض شرقاً ومغرباً وصيتي جرى قبلي يُشير برحلتي
وما طاف قبلي من بني سام طائف ولا جال منهم في البسيطة جولتي

الفصل التاسع

خزائن كتب علماء المشرقيات

اولا : تعريف علم المشرقيات

يُراد بعلم المشرقيات او علم الاستشراق درس لغات الشرق وتواريخه واحواله وآداب سكانه . ويقال للمشتغلين بهذا العلم من اهل اوروبا واميركا «علماء المشرقيات» او «مستشرقون» .

وقام اساس الاستشراق في بداية امره لغاية دينية محضة هي درس الكتاب المقدس وترجمته . ثم توسع علماء الاستشراق في اهدافهم وميولهم وابحاثهم فجعلوه سياسياً ولغوياً معاً . ولم يدّخروا وسعاً في تعزيزه بكل الوسائل المادية والادبية ادراكاً لما توخوه من الاهداف وتحقيقاً لتلك الميول والابحاث . وكان للغة العربية عندهم المقام الاول بين جميع لغات الشرقين الادنى والاقصى . وليست حجتهم في ذلك انها لغة امّة عريقة في الحضارة فقط بل لان المتكلمين بها اقرب الى اوروبا من سائر الامم الشرقية .

ولأجل ذلك توفر اقبال اهل اوروبا ومن بعدهم اهل اميركا على تعلم اللسان العربي واتقان قواعده . فنبغوا فيه والفوا الكتب ووضعوا المعاجم ونشروا الشيء الكثير من تآليف الاقدمين مما لم يُقدم على مثله ابناء اللغة انفسهم . وما اكتفوا بذلك بل انشأوا الجمعيات العلمية في جميع امصار الغرب تسهيلاً لابحاث المستشرقين وتذليلاً للصعاب امامهم . واقدم تلك الجمعيات عهداً هي «الجمعية الاسيوية» في باريس انشئت عام ١٨٢٢ ولم تزل عاملة حتى اليوم في حقل الآداب الشرقية

واقتفت سائر دول الافرنج اثر دولة فرنسا فأسست كل منها جمعية بهذا الاسم على مثال تلك الجمعية . ولكل منها خزانة كتب اشتملت على ما يفيد اعضاءها

وروادها من التآليف والمخطوطات والرسوم والخرائط والمسكوكات التي تتعلق بالشرق . ولكل منها ايضاً مجلة تنشر ابحاث العلماء وآرائهم وما نجز على يدهم من الاعمال المفيدة

ومما ساعد على تعزيز تلك النهضة العلمية فى ديار الغرب تأسيس مدارس لتعليم اللغات الشرقية الحية وفي طليعتها اللغة العربية . واول مدرسة انشئت على هذا النمط في اوروبا كانت « مدرسة الالسنة الشرقية الحية » التي ظهرت للوجود بتاريخ ٢٩ نيسان ١٧٩٥ في باريس . واصبحت هذه المدرسة دستوراً لما قام بعدئذ على شكلها من المدارس في كبريات المدن الاوروبية . وقد سعى لتأسيسها عالمان فرنسيان من اكبر ائمة علماء الاستشراق هما : سلفستر دي ساسي (١٧٥٨ - ١٨٣٨) (Sylvestre de Sacy) ولويس لنغلاي (١٧٦٣ - ١٨٢٤) (Louis-Mathieu langlès)

ولم تبقَ المكتبات العربية التي احدثها علماء الاستشراق محصورة بجمعياتهم وبمدارس اللغات الشرقية المنتشرة في اكثر انحاء اوروبا . فان فريقاً كبيراً منهم عمد الى اقتناء خزائن كتب خاصة توصلاً الى ما يتوخونه من الابحاث في مطالعاتهم ومراجعاتهم . ولما كان يصعب احصاء تلك الخزائن ووصف محتوياتها اقتصرنا على ذكر بعضها مما شاهدناه بام العين او قرأنا عنه في الكتب . فأتينا على تدوين اخبار تلك الخزائن ومنشئيها ونظمناها طبقاً للبلدان التي عاش فيها او انتمى اليها اولئك الجهابذة . وانتهجنا في سردها التسلسل التاريخي الذي اعتمدناه في جميع ابواب هذا الكتاب .

ثانياً : مكتبات المستشرقين في فرنسا

١ - خزانة غليلم بوستل في باريس

وُلد غليلم بوستل في بارنتون احدى مدن نرمنديا بفرنسا . ونزع منذ حداثته الى

تحصيل اللغة العربية فأحكمها وبرع فيها . ثم عينه الملك فرنسيس الاول (١٤٩٤-١٥٤٧) سفيراً لدولته في تركيا فامتزج بشعوب الشرق ودرس لغاتهم وعاداتهم . وانتهز غليلم تلك الفرصة فاقتنى مخطوطات نفيسة حملها معه الى باريس . وهناك عيّن استاذاً للغات العربية والعبرية واليونانية . وما عتم ان سخط عليه الملك لسبب ما فهرب من وطنه وقام برحلة الى القدس الشريف ولبنان وسوريا وغيرها من اقطار الشرق . واستزاد من مشترى مخطوطات عربية ضمّها الى ما اقتناه سابقاً . وكوّن من مجموعها خزانة كتب ثمينة في باريس . وتوفي غليلم مسجوناً في احد اديرة فرنسا[١] .

وللمستشرق بوستل فضل كبير على الطباعة الشرقية التي عزّزها في ديار الغرب فانه نشر في باريس سنة ١٥٣٨ مبادىء اثنتي عشرة لغة شرقية بحروفها الاصلية من جملتها : السامرية والسريانية والقبطية والحبشية والكرجية والارمنية[٢] .

٢ - خزانة برتليمي هربلو في باريس (١٦٢٥ - ١٦٩٥)

درس برتليمي هربلو اللغة العربية في باريس مسقط راسه فأحرز قصبة السبق على اقرانه . ثم ارتحل الى ايطاليا واتـّصل بمدرستها ومطبعتها الشرقيتين وتعرّف الى غرندوق توسكانا فردينند الثاني (١٦٢٠ - ١٦٧٠) الذي أهدى اليه مجموعة مخطوطات عربية ذات قيمة كبيرة . فانشأ منها في منزله خزانة كتب اصبحت نادرة الوجود بما ضم اليها مع توالي الايام مخطوطات وافرة اشتراها له بعض السياح الافرنج في بلاد الشام واليمن والمغرب الاقصى . ولعلو كعبه في العربية استقدمه الملك لويس الرابع عشر (١٦٤٣ - ١٧١٥) الى باريس وشمله بعطفه . واقامه اميناً لسرّه واستاذاً للغة الضاد في معهد فرنسا[٣] .

---

(١) المستشرقون : لنجيب العقيقي : صفحة ٦٢ - ٦٣
(٢) تاريخ فن الطباعة في الشرق (المشرق : مجلد ٣ سنة ١٩٠٠ صفحة ٨٠) .
(٣) المستشرقون : صفحة ٦٣

٣ ـ خزانة دي كوروا في «او» بفرنسا (١٧٧٥ ـ ١٨٣٥)

وُلد الاستاذ دي كوروا في بلدة او EU بفرنسا وفيها توفي . وبعد انجازه دراسة العلوم الشرقية أقيم استاذاً ثم نائب مدير في مدرسة لويس الاكبر بباريس. ولما انشأت دولة فرنسا مدرستها بالقسطنطينية في اوائل القرن التاسع عشر عيّنته مديراً لها وجعلته عام ١٨١٤ ترجماناً لسفارتها هناك حتى أحيل على التقاعد . فعاد الى بلدته سنة ١٨٣٠ وانصرف الى الاستزادة من علوم الاستشراق . وقد ساعده في ذلك ما توفر لديه من مخطوطات شرقية احرزها اثناء اقامته الطويلة في البلاد التركية . وعلاوة على ما سبق ذكره فان دي كوروا اهدى عدة مخطوطات الى المكتبة الامبراطورية في باريس(١) .

٤ ـ خزانة سلوستر دي ساسي في باريس (١٧٥٨ ـ ١٨٣٨)

لم يُحرز احد من المستشرقين على الاطلاق ما احرزه البارون سلوستر دي ساسي من الشهرة العلمية والمجد الاثيل . فانه بقطع النظر عن معارفه الواسعة بلغات الشرق قد افرغ الوسع كله في انعاش روح النهضة الادبية العربية في اصقاع اوروبا . فكان كمشكاة استضاء بها روّاد العلوم الشرقية في انحاء الغرب على اختلاف شعوبهم ونزعاتهم .

ونبغ دي ساسي خصوصاً في درس اللغات فلم يكتف بالالسنة الاوروبية بل طلب لغات الشرق ايضاً . فأخذ منها شيئاً عن علماء زمانه فتعلم اولا العبرية فالسريانية فالسامرية فالعربية فالفارسية فالتركية . لكنه أحكم خصوصاً آداب اللغتين العربية والفارسية حتى سبق في معرفتها علماء زمانه شرقاً وغرباً . ولو شئنا تعداد كل ماقام به دي ساسي من المشاريع تعزيزاً للعلوم الشرقية من تدريس

---

(١) المستشرقون : صفحة ٨٩

وتأليف وأنشاء مجلات وتنظيم مكتبات وادارة مجامع علمية لاتسع بنا الكلام كثيراً .

وحسبنا القول ان دي ساسي نشر اكثر من مائتي كتاب في علوم الشرق ولغاته وكثير من هذه المصنفات كبير الحجم واسع المادة نذكر منها : غرماطيقه العربي في مجلدين كبيرين . ومنتخباته العربية في ثلاثة مجلدات . وطرائفه اللغوية في مجلد كبير . وتاريخه في عرب الجاهلية . وتعريفه ديانة الدروز في مجلدين . وهو اول من طبع كتاب كليلة ودمنة ومقـــامات الحريري مع شروح عربية مستوفاة في مجلدين . ونشر رحلة عبد اللطيف البغدادي الى مصر[1] الخ الخ .

وظهر فضـل البارون دي ساسي ظهوراً جلياً في مـا انشأه او نظمه مـن المكتبات . ولا سيا مكتبته الخاصة التي أنفق عليها اموالا طائلة وبذل في سبيلهـا جهوداً عظيمة ورتب لجميعها فهارس تجلت فيها مواهبه العلميـة . وقد ساعده في تأليف فهارس مكتبته تلميذه المستشرق بلين (١٨١٧ - ١٨٧٧) فاستفاد وافاد[2] .

٥ ـ خزانة دي لابورت في باريس (١٧٧٧ - ١٨٦١)

بلغ دي لابورت الرابعة والثانين من سنه ودرس اللغة العربية منذ حداثته في مدرسة اللغات الشرقية بباريس . ولما قام نابليون بحملته على مصر (١٧٩٨ - ١٧٩٩) انضم دي لابورت الى صفوفها وآثر البقاء بعد ذلك في الشرق . وارتحل الى طرابلس الشام وتولى هناك وظيفة في القنصلية الفرنسية . وامتزج باهل تلك المدينة فعاش بينهم زمناً غير قصير وكان يقضي ساعات الفراغ في المطالعة والتأليف . وقد أتيح له ان يجمع خزانة مخطوطات عربية نقلها معه الى وطنه وكانت تحتوي على نفائس ونوادر : ومن مخلفاته العلمية « تاريخ المماليك » وبحوث دقيقة عن الاقبـاط

---

(١) الآداب العربية في القرن التاسع عشر : للاب لويس شيخو : جزء ١ صفحة ٦٩

(٢) المستشرقون : صفحة ٩٥ - ٩٦

والبربر . وقد كوفىء دي لابورت على اثاره الكتابية بان عين عضواً في « مجمع العلوم والفنون » بمصر (١) .

٦ ــ خزانة هنري بونيون

ولد هذا المستشرق الكبير سنة ١٨٥٣ وتوفي بتاريخ ١٦ اذار ١٩٢١ في شمباري واكب منذ حداثة سنه على تحصيل الالسنة السامية كالعربية والسريانية والعبرية والمسمارية فصار من جلة عارفيها .

وكان اول من عني بتعليم الآثورية سنة ١٨٧٨ في المدرسة العليا بباريس . وبعد ذلك اوفدته دولته كقنصل لها في طرابلس الغرب ثم في بغداد ومكث مدة غير قصيرة قنصلاً في حلب . فكان بعد نهوضه بمهام منصبه يقضي سائر أوقاته بالتعمق في الالسنة المذكورة والتنقيب عن الآثار الشرقية التي توفق الى اكتشاف الشيء الكثير منها . وخلف مؤلفات شتى اشهرها كتابه في « الآثار السامية المكتشفة في الشام وما بين النهرين وضواحي الموصل » . ونشر « كتابة نبوخذنصر » التي اكتشفها في لبنان . وفك رموزاً كثيرة غامضة عن ديانة الصابئة والآثار المندائية والكتابات الآرامية . وانشأ غير ذلك من الابحاث الخطيرة(٢) .

واعظم خدمة ادّاها هنري بونيون للآداب السامية انه توصل اثناء اقامته في بلاد الشرق الى انشاء خزانة حفلت بالمخطوطات الثمينة والآثار القديمة . فكان لا يضن بالذهب الرنان في سبيل اقتنائها مهما غلا سعرها حباً للعلم وحرصاً على ذخائره . وقد اتيح لي الاطّلاع عليها فدهشت لكثرة نفائسها وحسن ترتيبها وتبويبها . ولما عاد القنصل بونيون الى بلاده نقل معه تلك الكنوز الكتابية والاثرية مخلّفاً اطيب الذكرى في الامصار الشرقية التي عاش بين اهلها .

---

(١) المستشرقون : صفحة ٨٧
(٢) الآداب العربية في الربع الاول من القرن العشرين : صفحة ١٢١

٧ ـ خزانة لويس ماسينيون في باريس

يُعتبر الاستاذ لويس ماسينيون من جلة المستشرقين بل من اعظمهم في عصرنا . تلقى علومه في مدرسة اللغات الشرقية الحية بباريس ثم نصب فيها استاذاً للفلسفة الاسلامية . وهو يتولى وظيفة المستشار في وزارة الخارجية الافرنسية للشؤون الاسلامية وله فيها الكلمة المسموعة المحترمة .

وقدطاف الاستاذ ماسينيون غير مرة المغرب الاقصى وصحارى افريقيا وبلاد فارس وسائر الاقطار العربية متعقباً ابحاثه العلمية . وله مع اكابر علماء تلك الامصار مراسلات لو نشرت لتألف منها مجلدات عديدة مفيدة . ومن آثاره العلمية انشاؤه فرعاً في مدرسة السوربون بباريس خصصه بدرس الشؤون الاسلامية واقيم استاذاً فيها .

واشتغل هذا المستشرق الكبير بالتأليف فنشر الشيء الكثير عن ابن الحلاج . ولسنا نعرف عالماً مسلماً او نصرانياً كتب عن هذا الفيلسوف العربي مثلما كتبه عنه لويس ماسينيون . ويعدّ هذا المستشرق كذلك من كبار الصحافيين . ومن آثاره مجلة « العالم الاسلامي » انشأها منذ ثلاثين سنة ثم ابدلها فيما بعد بمجلة عنوانها « الابحاث الاسلامية » . وله ايضاً « تقويم العالم الاسلامي » ينشره عاماً بعد عام .

ومكتبة هذا المستشرق العلامة تحوي الوفاً من المجلدات معظم مواضيعها شرقية وبينها طائفة صالحة من الكتب العربية المطبوعة وزهاء مائتي مجلد مخطوط . ومن محتوياتها خمس نسخ مخطوطة عن ابن الحلاج المذكور . ومنها رسالة طريفة عنوانها « ارباب الفتوّة » تبحث عن الجمعيات السرية لدى العرب يرتقي عهد تاريخها الى القرن السابع للهجرة . وفي هذه المخطوطة كل عجيب غريب عن الجمعيات المذكورة وعن مقرراتها وعن كلمات السر فيها للتمكن من الدخول الى انديتها وحضور جلساتها . وتحوي هذه المكتبة كذلك رسالة نادرة عن ابي حسن الششتري الزّجال الاندلسي الى غير ذلك من المخطوطات النادرة الثمينة .

ثالثاً : مكتبات المستشرقين في انكلترا

١ ـ خزانة ادوار بوكوك في اكسفورد (١٦٠٤ ـ ١٦٩١)

أقدم ما سطّره التاريخ عن خزائن كتب علماء الاستشراق في انكلترا خزانة مخطوطات ادوار بوكوك المستشرق الانكليزي في القرن السابع عشر . فهو بلا جدال اوّل جهبذ نشر لواء اللغة العربية في انحاء السلطنة البريطانية .

تلقى ادوار بوكوك اصول اللغة العربية في بلاده ثم درّسها في جامعة اكسفرد . ولم يكتفِ بذلك بل شاء مزيد تضلع وتعمّق فيها . فقصد الشرق سنة ١٦٣٠ واقام في حلب خمس سنوات استفاد في اثنائها معارف واسعة واشترى مخطوطات عديدة . ولما قفل راجعاً الى اكسفرد كانف بالاستشراق البلدي كلفه بالاستشراق العلمي . ولذلك رأيناه يزمّ رحاله بعد سنتين ويعود سنة ١٦٣٧ الى الشهباء مستزيداً من المعلومات ومن المخطوطات معاً . وفي السنة ١٦٤١ رجع الى انكلترا حاملاً في جملة ما حمل شجرة تين نصبها في حديقة اكسفرد . فكانت ولا تزال اول شجرة من نوعها في بلاد الانكليز(١) .

على ان الآداب العربية مديونة للاستاذ بوكوك باول طبعة من كتاب « تاريخ مختصر الدول » تأليف ابي الفرج ابن العبري . فقد نقله الى اللاتينية سنة ١٦٧٢ وطبعه مع متنه العربي . وسبق فنشر كذلك سنة ١٦٥٨ تاريخ سعيد بن بطريق(٢) . وخلّف بوكوك مجموعة نفيسة من الكتب المخطوطة الشرقية بلغ عددها اوبعمائة وعشرين مخطوطاً انتقلت بعد وفاته الى مكتبة جامعة اكسفرد . واشهر من

---

(١) مجلة « المستمع العربي » : بقلم برنرد لويس في لندن : مجلد ١ سنة ١٩٤٠ عدد ١ صفحة ١٠

(٢) المستشرقون : بقلم نجيب العقيقي : صفحة ١٦٢ ومجلة « الراعي الصالح » بالاسكندرية : مجلد ١ سنة ١٩٤٠ صفحة ٦

بعده ابنه توما بوكوك (١٦٤٨ - ١٧٢٧) بعلم الاستشراق فاقتفى اثره في اختصاصه[1] .

٢ ـ سائر مكتبات المستشرقين الانكليز

من انبغ علماء الاستشراق الانكليز الذين اعتنوا بجمع الكتب العربية من مخطوطة ومطبوعة واشتهروا بابحاثهم العلمية في لغة الضاد نذكر اثنين : البارون ذي لانجي والمستر موناهن اللذين اتينا على ذكرهما لدى وصفنا مكتبات تونس صفحة ٥٥٥ و٥٥٦

رابعاً مكتبات المستشرقين في ايطاليا

١ ـ خزانة اريكو فيتو في رومة

ولد اريكو فيتّو في اواسط القرن التاسع عشر وكان من انبغ علماء الاستشراق في عصره . مال منذ حداثته الى تحصيل اللغة العربية فدرس اصولها في وطنه . ثم تدرّج في وظائف السلك القنصلي حتى اصبح قنصلاً لدولته الايطالية في مدينة حلب . وهناك احكم اللغة العربية وجعل يكتبها ويتكلم بها كابناء الضاد انفسهم . ولا يزال شيوخ الشهباء يذكرون له مواقفه الخطابية ويتحدثون عن مراثيه البليغة لبعض اعيانهم وادبائهم . وقد أغرم الحلبيون بحب اريكو فيتو لانه استطاب مدينتهم وامتزج باهلها واقترن بفتاة من كرائم أسرها وهي اسرة «صبولا».

وفي السنة ١٨٩٨ انتقل فيتّو الى بيروت وسمّي فيها قنصلاً عاماً لدولته . فاشترى منزلا فسيحاً تحدق به الجنائن وانشأ فيه مطبعة جعل ينشر فيها مؤلفاته

---

(١) المشرق : مجلد ٣٩ سنة ١٩٤١ صفحة ٥١ ـ ٥٢

وترجماته ومذكراته بكلتا اللغتين العربية والايطالية . وطالما تزاورنا وتبادلنا احاديث ادبية عن الشرق والشرقيين .

ومن آثار فيتو القلمية ترجمته ارجوزة اليازجي والفية ابن مالك الى اللغة الايطالية[1] ونشر كتاباً عام ١٨٩٩ بالايطالية ضمنه اخبار مذابح الارمن عام ١٨٩٥ في « جبل زيتون » شمال سوريا . وقد اشرف القنصل فيتو بذاته على تلك الوقائع اذ كان عضواً في اللجنة الدولية التي كانت التحقيق عن تلك المذابح الدامية . ثم اهدى الينا نسخة من الكتاب المشار اليه ومن سائر مؤلفاته وقّعها بامضائه .

وتعرّف فيتو اثناء اقامته في حلب بالمستشرق الفرنسي الكبير هنري بونيون (١٨٥٣ - ١٩٢١) قنصل الدولة الفرنسية . فكانا كلاهما يتسابقان كفرسي رهان الى اقتناء الكتب العربية والتحف الشرقية ويؤديان الذهب الرنان ثمناً لها . وعرفنا ان اريكو فيتو احرز ذخائر ثمينة انشأ منها خزانة كتب غامرة نقلها الى رومة عندما امسى في سن التقاعد . وعلى اثر وفاته في اوائل القرن العشرين تخلت اسرته عن مكتبته للقس يوسف الخازن الراهب الماروني .

وروى لنا الخوري لويس الخازن انه اطلع على تلك المكتبة اثناء اقامته برومة في منزل نسيبه القس يوسف المشار اليه . وقد سكن حينذاك في ذات الغرفة المحتوية على مخطوطات فيتو . فأكد لنا ان عددها لا يقل عن مائتي مخطوط عربي تصفح اكثرها وصرح بان كل مخطوط منها نفيس بحد ذاته . ثم قال انه كان يلقى صعوبة في قراءة بعضها لخلوّها من النقاط والشكلات مما يدلّ على قدامة عهد نساختها .

٢ ـ خزانة الامير ليوني كايتاني في رومة

ينتمي الامير ليوني كايتاني الى اسرة اقدم الاسر النبيلة في رومة . ويرتقي

---

(١) اطرب الشعر واطيب النثر : قسم ٢ صفحة ١٨٣

تاريخها الى القرن العاشر للميلاد . ومنها قام رجالات اشتهروا في خدمة العلم والوطن والانسانية . فكان منهم بابوات ومطارنة وقواد وولاة وحملة اقلام كثيرون .

سار الامير كايتاني سير كثير من امراء اوروبا فلم يبطره غنى ولم يستهوه جاه او لقب شرف . بل انصرف منذ صباه الى الدرس فاتقن اللغـــات اللاتينية والايطالية واليونانيـة والفرنسية والانكليزية والالمانيـة واحكم معها العربية والفارسية . وبعدما احرز نصيباً وافراً من العلم سمت به همته فالف كتباً شتى عن الاسلام والعرب والشرق وغير ذلك ادرجت عناوينها في صدر المجلد الاول من تأليفه Chronographia Islamica. ومن اهم مصنفاته كتاب Annali dell'Islam الذي ادهش العلماء بدقته وصدق روايته . ونشر منه ستة مجلدات ضخمة لم يتعدّ موضوعها عشرين سنة من تواريخ الاسلام . وقد جعل شعاره قول الشاعر :

كفاف عيش كفاني ذل مسئلة وخدمة العلم حتى ينقضي عمري

ولبلوغ امنيته جمع هذا الامير مكتبة ضخمة عربية وغير عربية . واستنسخ واخذ بالتصوير الشمسي كل ما اتصل به عن تاريخ العرب من المخطوطات مما كان مبعثراً في خزائن اوروبا وغيرها . فاصبحت مكتبته خير مكتبة شرقاً وغرباً في موضوع التاريخ الاسلامي . على ان زائرها يستغني بها عن مطالعة تواريخ العرب في جميع مكاتب الغرب .

ولئن امتازت « الخزانة التيمورية » في مصر باحتوائها على امهات كثيرة من مخطوطات الاسلام في علوم مختلفة . ولئن تفردت « الخزانة الزكية » في القاهرة بجمعها انفس المطبوعات العربية في الغرب فان « الخزانة الكيتانية » في رومة حوت على الغالب اهم كتب التاريخ الاسلامي او ما له علاقة به . وذلك باللغات المختلفة ولاسيا العربية مما هو جدير ان يرحل في طلبه لا من البلدان القريبة فقط بل من اقصى بلاد اليمن . وقد اوصى بخزانة كتبه بعد وفاته لمكتبة الحكومة الايطالية في رومة(١) .

---

(١) المستشرقون : صفحة ١٢٧

وقد طاف الامير كايتاني مدناً شتى في الهند وايران وسوريا وفلسطين ومصر وشمال افريقيا فبحث احوالها وتعمق في درسها وقابل بين ماضيها وحاضرها . ومن جملة ما تعهده من الامصار ناحية اليرموك ليشاهد بعينه المكان الذي جرت فيه تلك المعركة الفاصلة بين الروم والعرب(١) .

٣ ـ خزانة اوجينيو غريفيني في ميلانو

كان الدكتور غريفيني من اعلام المستعربين الايطاليين الذين خدموا اللغة العربية علما وعملا . ولد في ميلانو ١٨٧٨ وحلت وفاته كهلاً في ٣ ايار ١٩٢٥ بالغاً السابعة والاربعين من سنه . وما كاد ينجز دروسه حتى مالت نفسه الى السياحة في بلاد العرب واحب ان يتقن لغتهم ويتعمق فيها . فارتحل الى صنعاء اليمن حيث اجتمع بتاجر ايطالي يدعى يوسف كبروتي وحل ضيفا في بيته . ثم ساحا معا في تلك الاصقاع النائية وكان يتزيا في اسفاره بازياء العرب تفادياً من الاخطار . وبعد استيلاء دولة ايطاليا على طرابلس الغرب سنة ١٩١١ سوّلت له نفسه ان يتسيّح في انحائها ويتوغل في صحاريها دارساً احوالها وباحثاً عن كل ما يتعلق بسكانها

ولم يغفل في كلتا السياحتين عن ابتياع ما تيسّر له من المخطوطات العربية فجمع منها طائفة غير قليلة . ثم اضاف اليها عدداً من مخطوطات قديمة كانت محفوظة عند صديقه يوسف كبروتي المشار اليه فاشتراها منه ايضاً . وقد انشأ من تلك المجاميع وغيرها خزانة كتب عربية اوصى بها بعد وفاته لجامعة ميلانو مسقط رأسه.

ولما اراد فؤاد الاول ملك مصر ان ينظم مكتبته الخاصة في قصر عابدين استدعى الدكتور غريفيني واقامه ناظراً عليها . غير ان المنية عاجلته بعد زمن

---

(١) كتاب « غرائب الغرب » لمحمد كرد علي : جزء ١ صفحة ١٨٠ ـ ١٨٣

قصير مرّ على تعيينه في هذا المنصب . ومن آثاره القلمية نشره نسخة قديمة من شعر الاخطل عثر عليها اثناء رحلته اليمنية وطبعها في المطبعة الكاثوليكية ببيروت . وطبع ايضاً كتاب « جامع الفقه » لزيد بن علي سنة ١٩١٩ في ميلانو[١] . وقد قدر المجمع العلمي العربي بدمشق قدر هذا المستشرق الكبير فاحصاه بين اعضائه الفخريين .

ومن مخلفات غريفيني العربية نشره « ديوان الاخطل » و « الطبقات » لابي بكر الزبيدي . و « نصوص عربية في صقلية » . وصنّف معجماً في اللغة العامية الطرابلسية والايطالية . ونظّم مكتبة ميلانو الشرقية وانشأ لها فهرساً مطوّلا . وكتب في فلسفة الفارابي وارسطو وفي حريق مكتبة الاسكندرية . ونشر « القول المستظرف في شعر مولانا الملك الاشرف » . ونقل الى اللاتينية « شرح ابن رشد لسياسة ارسطو » [٢] .

٤ ـ خزانة اغناطيوس غويدي في رومة

فُجع علم المشرقيات في ١٨ نيسان ١٩٣٥ بشيخ المستشرقين وعميدهم اغناطيوس غويدي بالغا الحادية والتسعين من سنه . وقد اتيح لي ان اتعرف اليه بالكتابة عام ١٨٨٨ على يد صديقي وصديقه العلامة الطيب الاثر اقليميس يوسف داود [٣] . واستمرت المكاتبة بيننا بعدذلك ردحا من الزمان نتبادل الآراء في شتى المواضيع التاريخية واللغوية والادبية . وكنت استجمل خطه لانه كان انيقاً صريحاً لا يفرق في قاعدته عن الحروف المطبعية .

---

(١) تاريخ الآداب العربية في الربع الاول من القرن العشرين : صفحة ١٣٢ - ١٣٣

(٢) المستشرقون : صفحة ١٢٧

(٣) بعد وفاة المطران اقليميس يوسف داود سنة ١٨٩٠ نشرت تخليدا لفضله وفضيلته كتاب «القلادة النفيسة في فقيد العلم والكنيسة» . وقد ضمنته ما ورد في رثاء هذا الحبر الجليل نثراً ونظماً باقلام افاضل الشرق والغرب في عشرين لغة . ومن جملتها رثاء كتبه في اللغة الايطالية اغناطيوس غويدي : صفحة ١٦٨ ـ ١٦٩

ولما ارتحلت الى رومة سنة ١٩٠٠ وسنة ١٩٢٢ زرت المستشرق غويدي مراراً في منزله ومتعت النظر بخزائن كتبه التي حوت من كل فاكهة علمية زوجين . وقضيت معه ساعات طوالا بين تلك الخزائن وكانت عامرة بالوف من الاسفار التي جمعها في شتى لغات الشرق قديمها وحديثها . وكان يختلف الى تلك الخزائن لا للشغل فقط بل لتنزيه الخاطر ايضاً . وقد اصبح اختلافه اليها فرضه ونفله لا يفارقها الا عند ذهابه الى غرفة نومه

ويطول الشرح لو شئنا وصف تلك المكتبة وتعداد كل ما فيها من النفائس التي لا اثر لكثير منها في بعض المكتبات العامة . ومن شاء معرفة منزلة هذا المستشرق وخلاصة ترجمة حياته فليراجع مجلة « المشرق » (١) .

٥ ــ خزانة كرلو الفونسو نلينو في بالرمو

الاستاذ كرلو الفنسو نلّينو (١٨٧٢ - ١٩٣٨) علم بين علماء الاستشراق في هذا العصر . ومنذ الثامنة عشرة من سنّه ملك ناصية اللغة العربية ملكاً مكنه من نقد نصوص قد تكون استعصت على اوفر المستشرقين خبرة . وتخصّص بالابحاث عن جغرافية العرب وعن علم الفلك العربي . ونشر في ذلك خمسة كتب مستنداً الى تآليف لا تحصى اكثرها غير منشور . فبرّز في اختصاصه حتى اصبح في ذلك حجة قاطعة .

وضع نلّينو مؤلفاً بحث فيه عن تأثير الحضارة الفارسية الساسانية في تكوين الحضارة الاسلامية . وكتب بدقة عجيبة عن نظام القبائل عند العرب البدو الاقدمين(٢) . وطبع كتاباً عنوانه « اللغة العربية في مصر » . ونشر جدولاً

---

(١) المشرق : مجلد ٣٣ سنة ١٩٣٥ صفحة ٤٤٥ - ٤٤٨

(2) H. Lammens Le Berceau de l'Islam, Rome, 1914, p. 206

للمخطوطات العربية والسريانية والفارسية والتركية المحفوظة في المكتبة الاهلية وفي مكتبة المجمع العلمي بتورينو . واشترك في تجهيز مجلدين ضخمين ببحثان عن تاريخ الحضارة الاسلامية عامة وعن صقلية الاسلامية خاصة(١) . ووضع مؤلفات جمة منها كتاب في التصوف الاسلامي . وتاريخ الشرع الروماني والبوزنطي والفلسفة العربية وفقه اللغة العربية وتاريخ التجارة الاوروبية في الشرق في القرون الوسطى الخ الخ .

وُقلد نلينو منذ السنة ١٨٩٤ حتى السنة-١٩٠٢ ادارة منبر اللغة العربيـة في المعهد الشرقي بنابولي . ودعي في السنة ١٩٠٢ الى بالرمو ليتولى فيهـا منبر التعليم العربي . فتوسّع هناك في درس كل من حقول الاسلام حتى بلغ منها جميعاً ما لم يبلغه غيره من المستشرقين المعاصرين . وكلفته الجامعة المصرية فالقى فيها دروساً مدة ثلاثة اعوام حول تاريخ علم الفلك العربي وغيره . فكان موضوع اعجـاب سامعيه لان لهجته العربية تنزهت عن الغلط في اللفظ والانشاء . ودرّس التاريخ والاوضاع الاسلامية في جامعة رومة الى اواخر ايامه .

ذلك نزر من اعمال هـذا المستشرق الذي طبّق صيته الآفاق . ولولا ضيق المقام لسردنا ما عرفناه عنه بنفسنا او قرأناه في الصحف عن رحلاته في البـــلاد العربية وعن مقامه العلمي ومهماته الرسمية الى غير ذلك من اعماله المجيدة الخالدة . وقد زرناه مراراً في منزله اثناء رحلتنا الى رومة عام ١٩٢٢ فاعجبنا بسعة معارفه وبما احتوته مكتبته من الثروة الشرقية .

ونختم كلمتنا القصيرة عن العلامة نلّينو بذكر ما بذله طول حياته من الجهود وما انفقه من الاموال لتكوين خزانة كتبه التي عدّت من اغنى الخزائن الخاصة . واليك ما اثبته المستشرق لافي دلافيدا قال :

« لا يستطيع ان يدرك مقدار مطالعة كارلو الفنسو نلينو ودرسه وشروحه اثناء اقامته في بالرمو الا من حظي بالتردد الى زيارته . وتتبع توسّع مكتبته

---

(1) Centenario della nas-cita di Michele Amari, Palermo, 1910

العجيبة التي تكونت رويداً رويداً في هذه السنوات . وما زالت تزداد غنى وحسن ترتيب بفضل تضحيات مالية كبرى حتى اصبحت اليوم من أنفس المجموعات الخاصة التي اشتملت على كتب جمة تبحث عن الشرق ولا سيما على مطبوعات شرقية(١) » .

خامساً : مكتبات المستشرقين في المانيا

١ - خزانة الدكتور مرتين هرتمان في برلين

عرفت هذا المستشرق العلامة يوم كان كنشليارا في قنصلية المانيا ببيروت في الربع الاخير من القرن التاسع عشر . فكانت بيني وبينه علاقات ادب استمرت الى حين وفاته بتاريخ ٥ كانون الاول سنة ١٩١٩ . ومن الغريب انه اوصى عند وفاته بان تحرق جثته .

ولد الدكتور هرتمان في برسلو سنة ١٨٥١ وقضى معظم حياته في درس اللغات الشرقيه ولا سيا العربية فاحكم معرفة آدابها . والف فيها كتباً عديدة برهنت عن طول باعه . منها : كتاب في « العروض العربي » . وكتاب عربي لتعليم اللغة الالمانية . وكتاب « في السلام » . و « تاريخ الصحافة المصرية » . وانشأ مجلة «عالم الاسلام» واسس « الجمعية الالمانية لمعرفة احوال البلدان الاسلامية » . وكان احد منشئي مدرسة اللغات الشرقية ومن اساتذتها في برلين (٢)

وارتحل الدكتور هرتمان سنة ١٩١٣ الى لبنان وسوريا وبعض انحاء الشرق الادنى . ونشر اخبار تلك الرحلة في كتاب خصني فيه بالذكر فقال رحمه الله تعالى :

---

(١) المستشرقون الراحلون : بقلم لاني دلافيدا (المشرق : مجلد ٣٨ سنة ١٩٤٠ صفحة ٢٠٦ و ٢٢٨

(٢) الآداب العربية في الربع الاول من القرن العشرين بقلم لويس شيخو : صفحة ١٢٨ وتاريخ الصحافة العربية : جزء ٣ صفحة٦

« صادفت في ادارة جريدة لسان الحال » في بيروت رجلا اعتده فريدا بين اعيان هذه المدينة وهو الفيكنت فيليب دي طرازي . زرته في منزله فخلفت في تلك الزيارة تأثيرات بليغة . قد كنت افتكر ان الفيكنت من المدعين بالعظمة فاذا هو متناه باللطف انيس المعاشرة . وهو نابغة واسع المعرفة بكل شخص تطرقنا الى ذكره وبكل حادثة بحثنا عنها . وشاهدت في خزائنه ذخائر علمية جمعها بسعيه وجده بل هي تدل على عبقرية اللبناني متى شاء امرا وعلى ذكاء الفيكنت ومقامه العلمي . واذا وصلت تلك النفائس الى اوروبا فيكون لها هناك شأن خطير . ومن ذلك نستدل على النهضة العظيمة التي احرزتها الاقطار العربية منذ السنة ١٨٥٠ حتى الان .... »

وانتهز مرتين هرتمان فرصة اقامته الطويلة في قنصلية بيروت فانشأ خزانة خاصة عُدت من اغنى خزائن الكتب العربية . ولبلوغ امنيته تذرع بكل الوسائل لاقتناء اندر المخطوطات وابدعها من ارباب البيوتات العريقة في لبنان وسوريا وفلسطين والعراق والاستانة وغيرها . هكذا استطاع بتوالي الايام والاعوام ان يحرز من تلك الذخائر ما تعجز اليوم عن احراز مثله اعظم دول الارض . وقد اتاح لنا الحظ ان زرنا تلك الخزانة مراراً فدهشنا لما شاهدناه فيها من الكنوز الخطية التي لا نظير لها في المكتبات العربية شرقاً وغرباً .

وقد المع السيد محمد كردعلي الى خزانة الدكتور مرتين هرتمان بقوله :

« حدثني الثقة ان احد سماسرة الكتب في القرن الماضي كان يغشى منازل بعض ارباب العمائم في دمشق . ويختلف الى متولي خزائن الكتب في المدارس والجوامع فيبتاع منها ما طاب له من الكتب المخطوطة باثمان زهيدة . وكان يبيعها على الاغلب واكثرها في غير علوم الفقه والحديث من قنصل بروسيا اذ ذاك بما يساوي ثمن ورقها ابيض . وبقي هذا سنين يبتاع الاسفار المخطوطة من اطراف الشام فاجتمع له منها خزانة مهمة رحل بها الى بلاده . فاخذتها حكومته منه وكافأته عليها . والغالب ان معظم الكتب العربية المحفوظة في خزانة الامة في برلين هي من بلاد

الشام . وفهرس هذه الخزانة من الكتب العربية فقط في عشرة مجلدات ضخمة ما عدا الملحق » .

٢ - خزانة البارون اوبنهيم في برلين

نحيل القارىء الى مطالعة اخبار خزانة هذا البارون في الفصل الرابع من الباب التاسع من هذا الكتاب . وقد خصصنا الباب المذكور بالمكتبات الاسرائيلية فنكتفي هنا بالاشارة اليها .

سادساً : مكتبات المستشرقين في البرتوغال واسبانيا

١ - خزانة دي كاستل برانكو في لشبونا

كان المستشرق دي كاستل برانكو وجيهاً في قومه ومستشاراً في البلاط الملكي بمدينة لشبونا عاصمة البرتوغال . لكنه أبعد عن وطنه سنة ١٩١٠ على اثر سقوط اسرة براغنس المالكة واعلان الحكم الجمهوري في تلك الدولة . فبط باريس ونصب عضواً في الجمعية الاسيوية وظل يزاول جلساتها حتى توفاه الله تعالى.

واحرز دي كاستل برانكو قسطاً وافراً من المال أتاح له ان يمد الجمعيات الاستشراقية بمساعدات مادية وافرة . وعكف في منفاه على المطالعة والتأليف فوضع بعض كتب اهمها بحثه عن « علم الهيئة » عند العرب في القرون الوسطى . لكن اثمن اثر ابقاه هو خزانة مخطوطات عربية قضى حياته في جمعها والحرص عليها . وخلف خمسة اولاد يجيد البكر بينهم اللغة العربية ويفهمها الآخرون(١) .

---

(١) المستشرقون : صفحة ١٩٢ و ١٩٣

٢ ـ خزانتا ربيرا وآسين بلاسيوس في مجريط (مدريد)

نهض الاسبان في القرنين التاسع عشر والعشرين يبحثون عن ماضي الاندلس او اسبانيا العربية فصرفوا في ذلك جهوداً كثيرة واموالا عظيمة . وانقطع لهذا العمل طائفة من علماء الاستشراق يدرسون وينقبون ويجمعون شتات ما عثروا عليه من آثار بلادهم وتواريخها في ايام العرب . يؤيد ذلك ما رواه المستشرق الاسباني آسين بلاسيوس مدرس اللغة العربية في جامعة مجريط وعضو المجمع العلمي العربي بدمشق عن خزانة كتبه الغالية الثمن قال(١) :

« جمع اكثر هذه الخزانة استاذي ربيرا وفيها كتب كثيرة مطبوعة . واهمها الجذاذات « الفيش » التي رتبها طول حياته وفيها اسماء ثلاثين الف عالم من علماء الاندلس . وقد استنسخها البرنس ليوني كايتاني الايطالي صاحب تاريخ الاسلام الكبير ليطبعها في جملة ما يطبع من آثار العرب . ولما كنت في بلدي وجئت مجريط لاعمل مع استاذي ربيرا حاملا ما تيسر لطالب ان يجمعه من الكتب ضممت مجموعتي الى مجموعة هذا العلامة . وعندما حانت وفاته وكان عازباً اوصى لي بكتبه على ان اشتغل بها مدة حياتي وافتح ابوابها لطلاب الاستشراق . واوصاني ايضاً ان اتركها كما تركها هو لمن ارى فيه الكفاءة للعمل بعدي او اجعلها في احدى دور الكتب العامة » .

ومن الآثار العلمية التي طبعها آسين بلاسيوس كتابان : احدهما « دانتي والاسلام » وثانيهما « المدخل الى صناعة المنطق » . اما استاذه ربيرا فقد شارك المستشرق الاسباني كوديرا في نشر « المكتبة الاندلسية » وهي « الصلة » لابن بشكوال . وكتاب « بغية الملتمس في تاريخ رجال الاندلس » . وكتاب « المعجم » لابن الآبار . وكتاب « التكملة » لكتاب « الصلة » . وكتاب « تاريخ

---

(١) غرائب الغرب : جزء ٢ صفحة ١٤٠ ـ ١٤١

علماء الاندلس » لابن الفرضي . وكتاب « فهرس ما رواه عن شيوخه ابو بكر بن خليفة » الاشبيلي(١) .

سابعاً : مكتبات المستشرقين في اسوج

١ ـ خزانة الكنت لندبرغ في اسوج

كان الكنت لندبرغ الاسوجي من كبار المستشرقين الافرنج الذين درسوا اللغة العربية واحكموا اصولها وتعمقوا في آدابها . عاش في اواخر القرن التاسع عشر واوائل القرن العشرين فطاف انحاء الشرق واطّلع على احوال سكانه وعاداتهم وتواريخهم . ولما عيّن قنصلاً في مصر لدولته اسوج اكب على جمع الكتب العربية لانه كان من المولعين بها . فانشأ في منزله خزانة حوت نفائس المخطوطات الشرقية ونوادرها . نذكر منها طائفة معتبرة اقتناها من مخلفات محمد اكمل المتوفى في القاهرة بتاريخ ٢٢ ذي القعدة ١٣٢١ للهجرة (١٩٠٤) . وقد ورثها محمد اكمل من ابيه عبد الغني فكري(٢) . وسنتكلم عن محاسن مكتبة عبد الغني في الفصل الثالث عشر من الباب العاشر .

نشر الكنت لندبرغ امثال اهل برّ الشام وديوان زُهير بن ابي سلمى للأعلم الشنتري . وترجم كتاب « الفتح القسي في الفتح القدسي » للاصبهاني وغير ذلك(٣) .

---

(١) المستشرقون : صفحة ١٩٤

(٢) تراجم اعيان القرن الثالث عشر واوائل الرابع عشر : لاحمد تيمور باشا : صفحة ١٠٣-١١٦

(٣) المستشرقون : صفحة ١٩٢

الفصل العاشر

عدد المخطوطات العربية فى مكتبات اوروبا

١ ـ حصر البحث بالمخطوطات دون المطبوعات

لما كان يهم كل ناطق بالضاد معرفة ما انتقل الى خزائن اوروبا من التراث العلمي الذي خلّفه الاجداد رأينا ان نحصي عدد المطبوعات والمخطوطات العربية المحفوظة في مكاتب الغرب عامة وخاصة . ولزيادة التدقيق والضبط وجّهنا الرسائل الى جميع امناء تلك المكاتب والى اشهر علماء الاستشراق والى ذوي الخبرة بما نحن في صدده نسألهم تحقيق امنيتنا . فلبى اغلبهم طلبنا وتخلّف البعض عن الجواب لدواع نجهلها . وكتب لنا فريق آخر عن المخطوطات لكنه غمّض عن المطبوعات لكثرة عددها وصعوبة احصائها .

ازاء تلك المصاعب عمدنا الى الاكتفاء ببحث الموضوع بحثا عاما دون التعرض لبحث المحتويات العربية فى كل مكتبة على حدة كي لا نلام اذا ما فاتنا ذكر واحدة منها . فحصرنا الكلام في المخطوطات وحدها لشديد اهتمام العلماء بها ولتفوق خطورتها على المطبوعات من وجوه شتى . ولم نغفل كذلك عن مراجعة فهارس مكتبات اوروبا وان كان بعضها قديم العهد لا يتضمن اسماء ما دخل حديثاً من المخطوطات في كل مكتبة من تلك المكتبات . وقد تذرّعنا بهذه الوسيلة لانها مهّدت امامنا كثيراً من العقبات وساعدتنا على بلوغ ضالتنا المنشودة .

٢ ـ احصاء المخطوطات العربية في مكتبات اوروبا

بعد التحرّي المستمر تبيّن لنا ان الالمان سبقوا غيرهم من شعوب اوروبا بكثرة

ما احرزوه من المخطوطات العربية . فان عددها يربي على اثني عشر الف مخطوط مصونة في خزائنهم العامة والخاصة . وللانكليز القدح المعلى بعد الالمان في احراز العدد الوافر من المخطوطات العربية فان لديهم ثمانية آلاف وتسعمائة مخطوط . ويليهم الفرنسيس وعدد مخطوطاتهم ثمانية آلاف وستمائة . ويأتي بعدهم الواتكان والايطاليان وعدد مخطوطاتهم اربعة عشر الفاً . ثم الاسبان وعدد مخطوطاتهم يبلغ ثلاثة آلاف ومائتين . ولاتقل مخطوطات النمسيين عن الالفي مخطوط . فيكون مجموع ما استطعنا احصاءه بالضبط من مخطوطات مكاتب الغرب ثمانية واربعين الفاً وسبعمائة مخطوط عربي .

وهناك مكاتب شتى في روسيا وهولندا واسوج ونروج والدانيمرك ورومانيا والمجر وتشكوسلوفاكيا وبلجيكا وسويسرا والبرتغال تشتمل على طائفة جديرة بالاعتبار من المخطوطات العربية التي لم نتوفق الى الوقوف على حقيقة احصائها . ويتبادر الى ظننا ان مخطوطاتها مع المخطوطات التي احصيناها آنفاً يناهز مجموعها الستين الفاً . والله اعلم

الفصل الحادى عشر

فهارس المؤلفات العربية فى مكتبات اوروبا

١ ـ الفهارس العربية في مكتبات اوروبا عامة

يطول بنا الشرح جداً لو شئنا التوسّع في سرد كل ما عرفناه من اخبار الخزائن العربية في العواصم الاوروبية . ومن رام زيادة ايضاح أحلناه الى مطالعة الفهارس التي نشرها عن تلك الخزائن المكنوزة علماء اوروبا والمستشرقون . فان مجلدات فهارسها الضخمة وحدها تفوق حدّ الكثرة . وفيها يعثر القارىء على عناوين الكتب ومؤلفيها ووصف مضامينها وتاريخ نسخها واسماء نسّاخها واماكن كتابتها ومصادرها . الى غير ذلك مما يهم القراء ان يطلعوا عليه فيها . ولسنا نبالغ في القول والتصريح بان فهارس الكتب العربية في انحاء اوروبا اذا جُمعت تألفت من مجموعها خزانة عظيمة من اهم خزائن الكتب واغناها .

ونستطيع ان نضيف الى تلك الفهارس فهارس اخرى انشأها المستشرقون لخزائن كتب عربية غير الخزائن المعروفة في اوروبا . وقد تجند هؤلاء لتلك المهمة الشاقة فادّوا اعظم خدمة للعرب والعربية . نضرب مثالا على ذلك : مكتبات الاستانة ، وبعض مكتبات سوريا ولبنان وما بين النهرين والعراق وايران ، وبعض مكتبات القطر المصري ، واغلب مكتبات شمال افريقيا كتونس والجزائر والمغرب الاقصى . وقس عليها مكتبات بلاد البربر وصحارى افريقيا وهلم جرّا .

ويلاحظ المطالع في تلك الفهارس الدقيقة عناوين كتب ثمينة وافرة العدد مختلفة المواضيع . وقد شرحها ناشروها المستعربون شرحاً وافياً مستكملاً يغني الباحثين عن تجشم الاسفار ويكفيهم مؤونة الوقوف على ما يتحرونه منها .

٢ ـ وصف المستشرق وليم بن الورد مخطوطات برلين العربية في عشرة مجلدات

برهاناً على ما صرفه المستشرقون من الجهود الوافرة في وضع فهارس لما احتوته مكتبات اوروبا من المخطوطات العربيـة نكتفي بذكر المستعرب وليم بن الورد البروسيوي W. Ahlvoardt الطائر الشهرة . (١٨٢٨ – ١٩٠٩) فانه قضى حياته الطويلة في درس المشرقيات ولاسيما آداب اللغة العربية . ثم قام برحلات عديـدة ونسخ من المكتبات التي تعهدها مخطوطات نادرة طبعها وعلّق عليها وترجمها الى لغة بلاده . واليه وحده يعود الفضل في وصف اكثر المخطوطات العربية التي كانت تملكها دار الكتب البرلينية في زمانه . وقد تناول عمله هذا المضني عشرة مجلدات ضخمة ضمّنها وصف عشرة آلاف وثلاثمائة وسبعين كتاباً عربياً مع فهارس ممتعة(١)

٣ ـ تخصيص المستشرق دي غويه جوائز سنويه بناشري مخطوطات عربية

في ذات السنة التي توفي فيها وليم بن الورد البروسيوي الموما اليه توفي كذلك المستشرق دي غويه (M. J. de Goeie) الهولندي الذي شرّف مدينة ليدن بآثار علمه . وهيهات ان يبلغ شأوه احد من الشرقيين . فانه ما عدا المؤلفات العربية التي نشرها بضبط واتقان اشتغل ايضاً مع فريق من اساتذة ليدن في وصف مخطوطات مكتبتها الشرقية وتنظيم فهارسها الوافرة . ولفرط كلفه باللغة العربية خصّص مبلغاً من المال يُنفق ريعه السنوي عـلى بعض ناشري المؤلفات الشرقية تنشيطاً لهم ومكافاةً لجهودهم . وشرط ان تحكم في ذلك لجنة مخصوصة . وكان دي غويه من اكبر المساعدين لمن يسأله خدمة في سبيل الشرق عامة والعرب خاصة(٢) .

---

(١) المستشرقون : تاليف نجيب عقيقي : صفحة ١٣٧ والآداب العربية في الربع الاول من القرن العشرين : تأليف لويس شيخو : صفحة ٨١ ـ ٨٢

(٢) الآداب العربية في الربع الاول من القرن العشرين : تاليف لويس شيخو : صفحة ٨٤

الباب الثامن

المكتبات العربية في اميركا

الفصل الاول

الثقافة العربية في اميركا

١ ـ انتشار المطابع والجرائد العربية في العالم الجديد

عُرفت اللغة العربية في العالم الجديد منذ بدأت هجرة اللبنانيين اليه في منتصف القرن التاسع عشر . ثم اخذت تلك الهجرة تمتد الى اقطار سوريا وسائر البلدان التي يتكلم سكانها بالضاد حتى اربى عدد الناطقين بهذه اللغة على مليون نسمة في انحاء اميركا الشمالية والوسطى والجنوبية . وعلى يد اولئك المهاجرين تأسست المطابع العربية فنشروا كثيراً من المؤلفات النفيسة وانشأوا من المجلات والجرائد ما يُحصى بالمئات[١] . ولم يكتفِ اولئك المهاجرون بالمحافظة على لغة اجدادهم واعلاء شأنها في كل بلد احتلوه بل حبّبوا درسها ايضاً الى المستشرقين من علماء اميركا الذين اخذوا يبارون علماء الاستشراق في ديار اوروبا بآثارهم القلمية .

٢ ـ علم المشرقيات في جامعات اميركا

بفضل التعاون الفكري نشطت حركة علم الاستشراق في اهم مدن اميركا

---

(١) طالع تاريخ الصحافة العربية : مجلد ٤ صفحة ٤٩٤

وجامعاتها الشهيرة . واكب الاميركيون ولاسيما اهل الشمال منهم على درس اللغات الشرقية قديمها وحديثها وفي طليعتها اللغة العربية . ثم اتضح لهم ان الحاجة تدعو الى انشاء فروع عربية في مكاتبهم العامة والخاصة يكتنزون بين جدرانها ما لا غنى عنه للباحثين من مؤلفات العرب في كل علم وفن . فبادروا الى تحقيق تلك الامنية وانفقوا في سبيل ذلك اموالا طائلة . وقد اثبت لنا شاهد ثقة ان بعض المكتبات العربية في الولايات المتحدة الاميركية بلغت من الرقي والنجاح في اعوام قليلة ما لم تبلغه نظيراتها في اوروبا مدة قرون عديدة . وناهيك ان الثروة العلمية العربية في دار الكتب بمدينة نيويورك اصبحت منزلتها كمنزلة اعظم المكتبات العربية في الشرق الادنى . يدلّ ذلك على شدة اهتمام علماء اميركا وحكوماتها وجامعاتها باللغة العربية . فان جامعة برنستون الشهيرة انتخبت عام ١٩٣٨ من طلاب ٢٥ جامعة ثلاثة وثلاثين طالباً تفوقوا في دروسهم ومهدت لهم كل وسيلة لحضور الدروس العالية في اللغة العربية والعلوم الاسلامية . وكلفت الجامعة المذكورة الدكتور فيليب حتي اللبناني ان يلقي تلك الدروس على اولئك الطلاب بشكل محاضرات . وهؤلاء الطلاب يمثلون سبع دول مختلفة وهي : الولايات المتحدة الاميركية وكندا وانكلترا وروسيا وتركيا وسوريا وايران(١) .

٣ ـ خزانة مخطوطات المستعرب سبرنغلنغ وبينها خمس وثلاثون نسخة من كليلة ودمنة

من اجلى الأدلة على اهتمام الاميركيين باللغة العربية ان المستشرق مرتين سبرنغلنغ استاذ هذه اللغة في جامعة شيكاغو يُعد من اشهر القائمين بهذه النهضة في اميركا الشمالية . وقد سمعنا من فمه عندما زار بيروت سنة ١٩٢٦ انه اخذ على عاتقه نشر كتاب « كليلة ودمنة » بشروح وافية لم يسبقه اليها شارح حتى اليوم

---

(١) جريدة لسان الحال في بيروت : عدد ١٣٠٠٧ بتاريخ ١٧ حزيران ١٩٣٨

شرقاً وغرباً . ولتحقيق امنيته جمع من الكتاب المذكور خمسة وثلاثين مخطوطاً قديماً لأجل معارضتها والتدقيق في نصوصها قبل الطبع خدمة للغتنا العزيزة .

واستنسخ مرتين سيرنلغنغ مخطوطات عربية جليلة الفائدة اطلع عليها في المكتبة الشرقية ببيروت ومكتبة دير الشرفة بلبنان ونقلها الى شيكاغو . ونشر كتاب « كنز الأسرار » للمفريان غريغوريوس ابن العبري (١٢٢٦-١٢٨٦) . ويحوي هذا المخطوط الضخم شرح الكتاب المقدس برمته شرحاً لغوياً . وقد ضبط فيه مؤلفه كتابة الكلمات وكيفية لفظها مثلما ضبط المسلمون قراءة القرآن .

الفصل الثاني

مكتبات اميركا الشمالية

١ ـ صعوبة احصاء المكتبات العربية في اميركا الشمالية

لما عقدنا النية على تدوين هـذا الفصل لاقينا ما لا يلاقيه كل مؤرخ مدقق من العقبات الكؤود اذا ما اراد ان يكتب موضوعاً مبتكراً لم يطرق بابه مؤرخ قبله . فازاء هذه العقبات لم نرَ مندوحة عن مراجعة من له الاطلاع الكافي والخبرة الواسعة في هذا الصدد . وبعد التبصّر اتضح لنا ان الرجل الفذ الذي يوثق بمعرفته ويُركن الى خبرته في تحقيق امنيتنا ليس الا النابغة اللبناني الدكتور فيليب حتّي استاذ التاريخ والآداب الشرقية في جامعة برنستون الشهيرة وقهرمان خزانة مخطوطاتها العربية . فكتبنا اليه نستوضحه المعلومات عن المكاتب العربيـة في الولايات المتحدة . فتكرّم بتلبية طلبنا وبعث الينا بتقرير ننشره بالشكر والافتخار.

٢ ـ تقرير الدكتور فيليب حتي عن الكتب العربية في مكتبات الولايات المتحدة

« ليس من يعرف بدقة تامة عدد الكتب العربية المستودَعة في خزائن الجامعات وفي دور الكتب العمومية بالولايات المتحدة ولا من يحقق مقدار اهميتها . ولكن المعروف ان امّهات الجامعات التي تدرّس اللغات الساميّة بما فيها العربية كجامعة بابل وهرفرد وبرنستون وبنسلفانيا وجان هبكنس وشيكاغو ومشيكان وكليفورنيا يحوي كل من مكاتبها مقداراً لا يستهان به من المطبوعات العربية . واكثرها مما

له علاقة بنحو اللغة وآدابها وشعرها وبالأسلام وعقيدته وبتأريخ الخلافة والعرب . اي ان جلّها من الطراز المدرسي (كلاسيك) الصالح للتنقيب والتدريس والفقير بالمؤلفات المصرية والمطالعات الخفيفة المقصود منها لذة القارىء وتسليته . والقسم الأوفر من هذه المطبوعات انما هو مما انشأه ونشره المستعربون من اوروبيين واميركيين .

« وبين مكتبات الجامعات تعتبر مكتبة بابل بلا ريب اغناها بالكتب العربية المطبوعة . ذلك لان دائرة الدروس الشرقية فيها من اقدم الدوائر ولأن مكتبتها مستودع كتب جمعية المستشرقين الاميركين . ولهذه الجمعية مجلة خاصة بها قد بلغت العام السادس والخمسين من عمرها . والى ادارة هذه المجلة يُرسل المؤلفون نسخاً من مؤلفاتهم للتقريظ والانتقاد فتتسرب هذه النسخ المهداة الى مكتبة جامعة بابل حيث يطلبها اعضاء الجمعية لدى الحاجة . ويظهر من فهرس مكتبة هذه الجمعية المنشور عام ١٩٣٠ (Catalogue of the Library of the Americain Oriental Society, New Haven) ان هنالك حوالي مائتين وعشرين عنواناً عربياً .

« ويأتي بعد مكتبة بابل مكتبة جامعة كولمبيا . ولقد مضى على تأسيس الدائرة الشرقية فيها خمسون عاماً . ويلي مكتبة جامعة كولمبيا على ما ارجحه مكتبة جامعة برنستون . واساس مكتبة برنستون مجموعة كتب المستشرق برونو Brûnnow الالماني الأصل الذي تولى تدريس الشرقيات فيها منذ نحو عشرين عاماً . وفي العقد الاخير نشطت هذه الجامعة لتدريس العلوم الشرقية التي تدور ابحاثها حول اللغة العربية والاسلام . واضافت الى معدات مطبعتها مطبعة عربية من طراز اللينوتب هي الوحيدة من نوعها في مطابع جامعات هذه البلاد . وقلما ظهر كتاب عربي ذو شأن علمي لم تطلبه مكتبة هذه الجامعة من اوروبا او من القاهرة او من بيروت ودمشق وبغداد .

« هذا ما رأينا اثباته بايجاز عن مكاتب الجامعات ومحتوياتها المطبوعة . اما

دور الكتب العامة ففي طليعتها دار كتب مدينة نيويرك New York Public Library وهذه بلا ريب اغنى دار للكتب العربية في العالم الجديد على الاطلاق . ومن راجع فهرسيها المطبوعين (١) وجد مئات العناوين من المؤلفات في هذه اللغة . ولقد كان الاستاذ غوتهيل (Gottheil) المتوفى حديثاً قيّماً على الدائرة الشرقية من هذه المكتبة كما انه استاذ المشرقيات في جامعة كولمبيا . وكنت في بعض الصيوف اتولى ادارتها في غيابه فاعجب بثروتها العربية ولا اظن ان في الشرق مكتبة تضاهيها سوى دار الكتب المصرية في القاهرة ومكتبة الآبا اليسوعيين في بيروت . ومن مميزات هذه الدار انها تضمن فهارسها عناوين المقالات العلمية المنشورة في المجلات . فمن شاء مثلاً درس اليزيدية وطلب فهرسها على الكارتات لا يجد اسماء الكتب فقط في هذا الموضوع بل المقالات التي نشرت عنه في مجلات المستشرقين وفي المجلات العربية الكبرى كالمشرق والهلال والمقتطف .

« وما عدا دار كتب نيويرك ودار الاشتراع في وشنطون العاصمة Library of Congress فليس في دور الكتب العمومية في مدن الولايات المتحدة من المؤلفات العربية ما يستحق الاعتبار . وكثيراً ما يراسلني قيّمو دور الكتب في بعض المدن التي يكثر فيها اللبنانيون والسوريون المهاجرون بشأن الاشتراك في بعض المجلات العربية او ابتياع بعض الكتب « الخفيفة المطالعة » من امثال قصة عنتر والف ليلة وليلة . وبين الذين وجّهوا اليّ اسئلة من هذا النوع في السنين الاخيرة قيّمو دار كتب (اوهايو) ودار كتب ديترويت (مشيغان) .

« وما ذكرناه عن عدم معرفة عدد المطبوعات بدقة وافية وتحقيق مقدار خطورتها يصح في المخطوطات العربية في هذه البلاد . وكان مجلس جمعيات العلماء

---

(1) List of works in the New York Public Library Relating to Muhammadan Law, New York, 1907; List of works Relating to Arabia and the Arabs, New York 1911.

الاميركيين(١) قد عهد الينا منذ عامين امر تنظيم لجنة وتهيئة المجلدات لدرس المخطوطات العربية في الكليات والجامعات ودور الكتب العمومية وفي خزائن الافراد وعند تجار العاديات . ولكننا حتى الآن لم يتيسر لنا مباشرة العمل .

« على ان المحقق ان خزانة المخطوطات العربية في جامعة برنستون هي الاولى من نوعها في العالم الجديد . فان عدد عناوين مخطوطاتها يناهز الخمسة آلاف . وفي جملتها مجموعة مراد بك بارودي التي ابتعناها منذ عشر سنوات . وقد وضعنا نحن لتلك المخطوطات باجمعها فهرساً مفصلاً هو الآن قيد الطبع في المطبعة الاميركية ببيروت(٢) . وهنالك في جامعة بابل وفي مدرسة هرتفرد اللاهوتية Hartford Seminary وفي جامعتي شيكاغو ومشيغن عدد يسير من المخطوطات العربية . وقد وضع وليم رندل William M. Randall فهرساً مفصلاً لنحو مائتي مخطوط محفوظة في كلية هرتفرد . وهذا الفهرس هو بمثابة اطروحة لأحراز لقب « دكتور » لكنه الى الآن لم ينشره بالطبع » .

٣ ـ مخطوطات عربية ثمينة في جامعة برنستون(٣)

اضيف الى خزائن جامعة برنستون في ولاية نيوجرسي في شرقي الولايات المتحدة مكتبة ثمينة تحتوي على مخطوطات عربية نادرة الوجود . وقد تبرع بهذه المكتبة المستر روبرت غاريت المالي الشهير ، ومن هواة المجموعات الفنية ومن خريجي جامعة برنستون القدماء . وهذه المجموعة النادرة تحتوي على تحف رائعة تمثل الفنون والآداب والدين والعلوم والتاريخ في الحضارات الاسلامية . وقد باتت الآن في متناول الشعب الاميركي الذي اصبح يستطيع ان يتعرف بواسطتها

---

(١) Americain Council of Learned Societies

(٢) Descriptive Catalog of the Garrett Collection of Arabic Manuscripts Deposited in Princeton University Library

(٣) مجلة « الضاد » الحلبية : مجلد ١٣ صفحة ٢١١ ـ ٢١٢

الى النواحي الاجتماعية والاقتصادية والتاريخية من حياة الشرق الاوسط العامة .

وما عدا اوراق البردي المصرية، التي يعود تاريخها الى ما قبل الميلاد، فان هذه المخطوطات والكتب تتضمن تاريخ حقبة غير يسيرة من الزمن، تمتد من عهد شارلمان في القرن الثامن الميلادي حتى القرن التاسع عشر . وقد دل اكتشاف بعض المخطوطات العربية في السنوات الاخيرة، وترجمتها على وجود حضارة خصبة في الشرق ، كانت مزدهرة منذ الف سنة قبل الميلاد تقريباً . وقد دعا هذا الى دراسة آثار الاشوريين والعهد القديم وسائر الآثار والمخطوطات الكلاسيكية .

وبين هذه المخطوطات العربية والاسلامية المتنوعة ، التي تشمل جميع نواحي الحياة والفكر الشرقي ، من علم الكيمياء الى انساب الخيل ، تعتبر المباحث الطبية والعلمية في الدرجة الاولى من الاهمية . فقد توسع العرب في دراسة هذه العلوم في الوقت الذي كانت اوروبا تجهلها فيه ، واحرزوا نجاحاً وتقدماً في الطب والعلوم الاخرى استفاد الاوربيون منه كثيراً فيما بعد .

وتقسم هذه المكتبة المهداة الى جامعة برنستون الى قسمين رئيسيين : اما اهمها بلا شك فهو المجموعة القيّمة التي تحتوي على ٦٠٠٠ مخطوطة عربية، كانت قبلاً في حوزة مستشرق انكليزي، واشتهرت بانها اكبر مجموعة تحتويها مكتبة خاصة . والى جانب هذه التحف العربية يوجد خمسة آلاف كتاب من آثار اوروبا الغربية واليونان وتركيا وايران والهند والحبشة والشرق الاقصى .

ومن ابرز ما احتوت هدية المستر غاريت النفيسة هذه، ترجمة كتاب جالينوس في علم الطب والترشيح، التي وضعها جوانيتوس النسطوري من ابناء سورية المتوفى سنة ٨٧٣ ميلادية، وهي مكتوبة في سنة ١١٧٦ وتعتبر بذلك اقدم من سائر النسخ اليونانية او اللاتينية المعروفة حتى الآن .

ولعله من دواعي السرور لدى الباحثين ورجال العلم ان نقلت مجموعة هذه المخطوطات العربية الى الولايات المتحدة فاصبحت بعيدة عن تدميرات الحرب ، واضافة الى هذا فهناك دوافع عظيمة لدراسة الحضارة القديمة في هذا الجزء من العالم الذي لا يزال يتشوق الى زيادة في المعارف .

الفصل الثالث

مكتبات اميركا الجنوبية

١ ـ منافسة اللبنانيين والسوريين في تعزيز لغة الضاد باميركا الجنوبية

تناولنا البحث في الفصل السابق عن ارتقاء الثقافة العربية في اميركا الشمالية بعناية ابناء الضاد وعلماء الاستشراق . وروينا بوجيز الكلام ما وصل الينا من اخبار المكاتب العامة ومكاتب الجامعات العلمية في الامصار المذكورة . فوفينا الموضوع حقه ملمعين الى ما تحويه تلك الخزانة العربية الحديثة النشأة من المخطوطات والمطبوعات الوافرة .

واذا انتقلنا بالبحث الى شتى البلدان في اميركا الجنوبية رأينا ان النهضة العربية فيها لا تقل عن مثلها في اميركا الشمالية . ويتجلى هذا الامر خصوصاً في انحاء جمهورية البرازيل والجمهورية الفضية اللتين يقطنهما العدد العظيم من ابناء الجاليتين اللبنانية والسورية . ولنا ادلة راهنة وحجج دامغة على اعتناء اولئك المهاجرين بتعزيز لغة وطنهم السابق في وطنهم الحاضر . وغير خاف ان عددهم في اميركا الجنوبية يبلغ مئات الالوف بل يفوق كثيراً عدد جميع الناطقين بالضاد في اميركا الشمالية . وبالتالي فان حملة الاقلام في الاولى يكاد يكون مضاعفاً لعدد زملائهم في الثانية .

يؤيد كلامنا ما انشأه اللبنانيون والسوريون او ترجموه او نشروه من التآليف الكثيرة في اللغة العربية وحدها او في اللغات العربية الاسبانية والعربية البرتوغالية . ذلك فضلاً عما احصيناه من الجرائد والمجلات العربية التي صدرت في القارتين المذكورتين حتى السنة ١٩٢٩ فاثبتناه بكل دقة في كتابنا « تاريخ الصحافة العربية » (١) .

---

(١) جزء ٤ صفحة ٤٩٢

وعلى رغم هذا التفوق فان حكومات اميركا الجنوبية أدركت مناعة رعاياها والنازلين في بلادها من الناطقين باللسان العربي . فاوجدت لهم في مكاتبها الكبرى فرعاً عربياً يرجعون اليه في مباحثهم العلمية ومطالعة جرائدهم ومجلاتهم . انما لا تتناسب تلك المكاتب مع المكاتب العربية الفنية التي انشأتها حكومة الولايات المتحدة وجامعاتها الشهيرة في اميركا الشمالية . لان هذه بلغت شوطاً بعيداً في مضمار التقدم والازدهار كما سلف الكلام في الفصل السابق . اما تلك فانها لم توجه اهتمامها الى هذا الامر الا منذ عهد قريب .

٢ ـ الامبراطور دون بدرو الثاني يؤسس اول مكتبة عربية في البرازيل

من المكتبات الرسمية في اميركا الجنوبية نذكر المكتبة الوطنية في ريو دي‌جانيرو . ويعود الفضل في تأسيسها وتعزيزها الى العلامة دون بدرو الثاني امبراطور البرازيل (١٨٣١ – ١٨٨٩) وكان من اعاظم علماء عصره . ومن اخباره انه حج الاراضي المقدسة في اورشليم عام ١٨٧٧ مع الامبراطورة زوجته . ولما مر ببيروت زار مطبعتي اليسوعيين والاميركيين واحرز من مكتبتيهم طائفة كبيرة من الكتب العربية نقلها معه الى عاصمته . ثم انطلق الى الاستانة فاهدى اليه طائفة من الكتب العربية الشيخ احمد فارس الشدياق صاحب « الجوائب » . فاصبحت تلك الكتب نواة للفرع العربي في المكتبة الوطنية بعاصمة البرازيل .

وكان الامبراطور دون بدرو مغرماً باللغة العربية وآدابها . وقد درسها على الاستاذ فريدريك خريستيان سيبولد المستعرب الالماني (١٨٥٩ – ١٩٢١) الشهير الذي انتدبه الامبراطور دون بدرو ليرافقه حين مغادرته الامصار الشرقية وعودته الى البرازيل(١) .

---

(١) الآداب العربية في الربع الاول من القرن العشرين : صفحة ١٢٨ ـ ١٢٩

ولا تقلّ شأناً عن المكتبة المشار اليها المكتبة الوطنية ومكتبة المجلس البلدي في سان باولو . وكلتاهما تحتويان من الاسفار العربية كمية وافرة لا يستهان بها[1] .

٣ ـ المكتبات العربية الفردية في البرازيل والجمهورية الفضية

في جمهوريات اميركا الجنوبية مكتبات فردية جمّة انشأها فريق من العلماء والصحافيين والمولعين بالادب من ابناء لبنان وسوريا في ريو دي جانيرو وفي بونس ايرس عاصمتي الجمهوريتين البرازيلية والفضية . ولا تخلو سائر المدن الكبرى فيهما كسان باولو ومناوس وتوكومان وكوردبا وغيرها من مكتبات خاصة تنطوي على طائفة غير يسيرة من المؤلفات العربية في العلوم اللغوية والتاريخية والادبية والاجتماعية والفنية وغيرها .

واذا حصرنا الكلام في المكتبات الفردية او الخاصة في مدينة سان باولو وحدها فهذه اشهرها : مكتبة النادي الحمصي . ومكتبة الشبان المسيحية . ومكتبة نعمة يافث . ومكتبة رشيد عطية . ومكتبة شكري الخوري . ومكتبة الدكتور سعيد ابي جمرة . ومكتبة موسى كريّم . ومكتبة حبيب البشعلاني . ومكتبة اسطفان غلبوني وغيرها . يضاف اليها مكتبات بعض علماء الاستشراق من جهابذة البرازيل كمكتبة الدكتور سبنسر فامبري . ومكتبة جوزي كارلس دي اسيدو سوارس وزير خارجية البرازيل وغيرهما .

ومن اكبر غلاة الكتب في ريو دي جانيرو الدكتور جان اشقر والاستاذ حنا طعمة وهبه . ومنهم الشيخ فائز السمعاني اللبناني نزيل عاصمة ولاية باهيا في البرازيل . فان لديه خزانة حافلة بالكتب العربية التي جمعها من كل صوب وأنفق عليها مالاً وافراً .

---

(١) اتحفنا بهذه الفوائد المرحوم جورج مسرة نزيل مدينة سان باولو بتاريخ ٣ تموز ١٩٣٧

الباب التاسع

الكتابات الاسرائيلية

الفصل الاول

آثار اليهود في اللغة العربية

١ ـ أبي بن كعب

أقدم كاتب يهودي ورد ذكر اسمه في صدر الاسلام هو أبيّ بن كعب بن قيس بن عبيد الخزرجي . وكان أبي من مشاهير احبار اليهود ثم اسلم . واليه وجّه أمير المؤمنين عثمان بن عفان الأمر بأن يجمع القرآن فاشترك أبي معه في جمعه (١) .

ومن آثار أبيّ بن كعب انه خط بيده مصحفاً ظل محفوظاً في جامع اصفهان بلاد الفرس حتى السنة ٥١٥ للهجرة . فاحترق مع خمسمائة مصحف مكتوبة بخطوط بديعة ومدبجة بصفائح الذهب والفضة (٢) .

٢ ـ مشاهير علماء اليهود واطبائهم

عرفنا في عصور الارتقاء العربي فئة كبيرة من اطباء اليهود وعلمائهم وفلاسفتهم خدموا الخلفاء ووضعوا التآليف الكثيرة . ونقلوا بعض العلوم الدخيلة عن اللغة

---

(١) الاعلام : خير الدين الزركلي : صفحة ٢٨ (٢) مرآة الزمان : لسبط الجوزي .

العبرانية وغيرها الى اللغتين العربية واللاتينية . وكان لهؤلاء شغف خاص بالكتب يحرصون عليها ويعتنون بجمعها في خزائنهم . نذكر منهم : ماسرجويه الطبيب البصري الذي كلّفه مروان بن الحكَم تفسير كنّاش (مجموع) اهرون القس الى العربي[1] . ومنهم « ما شاء الله » اليهودي كان في زمن الخليفة المنصور وعاش الى ايام المأمون . وكان فاضلاً اوحد زمانه له حظ قوي في سهم الغيب[2] . وخلّف « ما شاءالله » تآليف فلكية جمة نذكر منها : كتاب « صنعة الاسطرلاب والعمل بها » وكتاب « ذات الحلق » وغيرهما .

ومن علماء اليهود السموأل بن يهوذا المغربي الطبيب اليهودي الذي قرأ فنون الحكمة وقام بالعلوم الرياضية واحكم اصولها وفوائدها ونوادرها . وله في ذلك مصنّفات : منها « المثلث النائم الزاوية » وقد احسن في تمثيله وتشكيله وعدة صوره ومبلغ مساحة كل صورة منها . وصنف ايضاً في مساحة اجسام الجواهر المختلطة لاستخراج مقدار مجهولها . ثم توفي في مراغه قريباً من سنة ٥٧٠ للهجرة . وسلك اولاده وغيرهم طريقته في الطب[3] .

ومن علماء اليهود اشير بن لاوي كان في صدر القرن الحادي عشر للميلاد . وقد تنصر في مصر على يد ابي الفتح منصور بن سهلان طبيب الخليفة الفاطمي الحاكم بامرالله (٩٩٦-١٠٢١م) واشتهر بعد تنصره باسم عبدالمسيح الاسرائيلي[4] .

ومن اطباء اليهود ابو البركات بن ملكا كان اوحد زمانه عاش في وسط المائة السادسة للهجرة وكان موفق المعالجة . وقف على كتب المتقدمين والمتأخرين في هذا الشأن فاعتبرها واختبرها . فلما انتهى امرها اليه صنف فيها كتاباً سماه « المعتبر » اتى فيه بالمنطق والطبيعي والالهي . وهو احسن كتاب صنّف في هذا الموضوع الى ذلك العصر .

---

(١) تاريخ مختصر الدول : صفحة ١٩٢ (٢) تاريخ مختصر الدول : صفحة ٢٣٧
(٣) اعلام العلماء باخبار الحكماء : صفحة ١٤٢ ـ وتاريخ مختصر الدول : صفحة ٣٧٧
(٤) المخطوطات العربية لكتبة النصرانية : صفحة ١٤٥ و ٢٤٠

ومن الادوية المركبة القديمة المنسوبة الى أوحد الزمان ابي البركات شراب « برء الساعة » ويسمى في السريانية « برشعثا » ومعناه الحرفي في تلك اللغة « فوراً » اي انه يشفي اصناف الامراض حالا في اوقات محدودة . فقالوا انه يشفي الاسهال في ساعة . ويشفي الصداع في يوم . ويشفي داء المفاصل في اسبوع . ويشفي البخار في شهر والاستسقاء في سنة(١) وممن الف استعمال علاج « برشعثا » القس ابو قاسم هبة الله بن الفضل البغدادي النسطوري (+ ١١٦٢ م) المعروف بسلطان الحكماء (٢) . فقد ورد في ديوانه بيتان قالهما في العلاج المذكور وهما :

تجرعتُ برشعثا وحالي اشعثٌ فما نزلت بي بعده علّة َشعثا

ولو بعد عيسى جاز إحياء ميتٍ لأصبح يحيا كلّ ميتٍ ببرشعثا(٣)

ومن نوابغ اليهود الذين نالوا القدح المعلى في الطب ابو المني ابن ابي النصر العطار الاسرائيلي خلّف كتاباً سماه « منهاج الدكان ودستور الاعيان » في الطب (٤) . وفي خزانتنا نسخة من هذا الكتاب مخطوط بيد المؤلف .

ومن ائمة علماء اليهود ابن سيمويه المنجم . له تصانيف جمة منها كتاب « المدخل الى علم النجوم » وكتاب « الامطار » (٥) . ومنهم يوسف بن ميمون الطبيب الاسرائيلي عاش في القرن الثالث عشر للميلاد . وقد اجتمع بموسى بن ميمون الشهير وتوافقا كلاهما على اصلاح هيئة ابن افلح الاندلسي . وتخرج يوسف المذكور على يد علماء جامع ألقرويين بفاس لانه كان من اهلها وبها درس كما اثبت ابن القفطي في كتابه « اخبار العلماء باخبار الحكماء » ومنهم الشيخ ابو فخر وهبة بن

---

(١) تاريخ الطب عند العرب : بقلم عيسى المعلوف : صفحة ٦٤

(٢) اعلام العلماء باخبار الحكماء : صفحة ٢٢٢

(٣) عيون الانباء في طبقات الاطباء لابن ابي أصيبعة : جزء ١ صفحة ٢٨٣ و ٢٨٩

(٤) مآثر العرب في العلوم الطبية : للدكتور سامي حداد : صفحة ٦١

(٥) اخبار العلماء باخبار الحكماء : صفحة ٢٨٤

ابي البشر بن سليمان بن الحكيم بن جميع الاسرائيلي ألف كتاباً في الطب اطّلعنا نسخته في الخزانة المعلوفية .

٣ ــ علماء اليهود في بلاد فارس

روى مفضل بن سعد بن الحسين المافروخي الاصفهاني مؤلف كتاب « محاسن اصفهان » بين فلاسفة هذه المدينة ومهندسيها ومنجميها واطبائها اسماء جماعة من اليهود . وخص بالذكر منهم : يوسف اليهودي ويعقوب اليهودي والفرج بن سهل اليهودي(١) .

وذكر ابو الفرج الملطي المعروف بابن العبري عالماً آخر من اهل فارس يقال له يوسف بن يحيى بن اسحق السبتي المغربي . هذا كان طبيباً وقرأ الحكمة وعلوم الرياضة فاجادها وكان ذكياً حاد الخاطر . ولما ألزم اليهود في تلك البلاد بالاسلام او الجلاء كتم يوسف دينه وارتحل الى مصر بماله . ثم خرج من مصر الى حلب واقام فيها حتى وافته المنية عام ١٢٢٦ للميلاد (٦٢٣ هـ) (٢) . ولعلّ يوسف بن يحيى بن اسحق السبتي المغربي هو نفس يوسف بن ميمون الطبيب الاسرائيلي المذكور آنفاً . لان رواية ابن العبري في « تاريخ مختصر الدول » تتفق ورواية ابن القفطي في « اخبار العلماء باخبار الحكماء » . والله اعلم !

٤ ــ موسى بن ميمون ويوبيل مولده المئوي الثامن

من اكبر جهابذة الاسرائيليين وافضلهم موسى بن ميمون (١١٣٥-١٢٠٨م) العلامة والفيلسوف والطبيب الاندلسي ولد في قرطبة في عهد المرابطين . أحكم الرياضيات وقرأ الطب وله في ذلك تصنيفات حسنة وأكره على الاسلام فاظهره واسرّ اليهودية . ثم خرج من الاندلس الى مصر ونزل مدينة الفسطاط وهناك

(١) مجلة « الرسالة » سنة ٣ صفحة ١٦٤٠

(٢) تاريخ مختصر الدول ٤٢٣ ـ ٤٢٤

جاهر بالدين اليهودي . وقد اتصل بالسلطان صلاح الدين الايوبي فعينه طبيبه الخاص.

وصنف ابن ميمون كتاباً في مذهبه سماه « دلالة الحائرين » وافرغه في قالب عربي محكم . وكان من علماء اليهود الذين نقلوا مذاهب العرب الفلسفية الى الغربيين باللغتين العبرية واللاتينية . نبغ هذا العالم الكبير في القرن الثاني عشر واوائل القرن الثالث عشر للميلاد . وقد اقامت جمعية التاريخ الاسرائيلية بالقاهرة حفلة عظيمة في دار الاوبيرا الملكية تذكاراً لمرور ثمانمائة سنة على مولده (١١٣٥ - ١٩٣٥) . واشترك في تلك الحفلة رجال العلم والأدب والوجاهة من جميع الملل والنحل . وحذت حذوها سائر الاندية الاسرائيلية في اقطار المسكونة لاحياء ذكرى هذا النابغة الشهير لما كان له من المكانة والاحترام (١) .

ومما يجدر بالذكر ان لابن ميمون بين مفكري اليهود وفلاسفتهم المقام الاول حتى لقد اعتبره بعضهم الرجل الثاني في اليهودية بعد موسى الكليم . ولابن ميمون نظريات فلسفية ودينية عويصة وله شرح نفيس لكتاب « التلمود » ما زال هو الحجة في موضوعه (٢) . وقد قررت مدينة « تل ابيب اليهودية ان تنشىء » مكتبة خاصة بموسى بن ميمون تودع فيها ما انتهى الى عالم العلم من مؤلفاته سواء بالعربية او بالعبرية او تراجمها اللاتينية . تضم اليها جميع المؤلفات التي كتبت عنه في جميع اللغات وفي جميع العصور (٣) .

٥ - نوابغ اليهود في الاندلس ونقلهم علوم العرب الى اوروبا

مثلما اشتغل اليهود بالتأليف والترجمة تحت لواء الخلفاء العباسيين في بغداد والفاطميين في مصر كذلك كانت لهم مكانتهم العلمية عند عرب الاندلس . حيث استمتعوا بحريتهم . فان العرب حموا الاسرائيليين في الغرب واعتمدوا عليهم في

---

(١) طالع ترجمته في « عيون الانباء » مجلد ٢ صفحة ١١٧ وفي تاريخ مختصر الدول صفحة ٤١٧ ٤١٨ وفي مجلة المقتطف : مجلد ٩٢ صفحة ٢٥٥

(٢) مجلة الرسالة : سنة ٤ صفحة ٢٣٧

(٣) مجلة الرسالة : سنة ٣ صفحة ١٣١٨

مصالح الدولة(١) . وكان لليهود الذين اكرمهم عرب الاندلس اكبر تاثير في نقل علوم العرب الى اوروبا(٢) . وعلى رغم كونهم محتقرين مضطهدين يومئذ في اوروبا فقد اشتهر منهم نوابغ تلقنوا المعارف العربية في مدارس الاندلس وبشروا بها في اقطار الغرب . والى اليهود يعود الفضل في ادخال العلوم الطبية والطبيعية منذ القرن الثاني عشر للميلاد الى كلية مونبليه الذائعة الصيت . وهم الذين نقلوا الى فرنسا وايطاليا اكثر الفنون التي برّز فيها عرب الاندلس ايام عزهم . هكذا كانت كلية مونبليه وكلية سالرنو الطبيتان مضماراً رحباً تبارى فيه مشاهير الاطباء من نصارى ويهود(٣) . ولأطباء اليهود يد طولى في ترجمة كلام ابقراط وجالينس فانتشر هذا الكلام عند الفرنج عن طريق العرب وباللغة العربية(٤) .

ومن جهابذة الاسرائيليين الذين اعلوا منار اللغة العربية في الاندلس نذكر : سعديا الفيومي وابن جيرول وابن عزرا وغيرهم(٥) . واعلاهم كعباً ابرهيم بن سهل الاندلسي الاشبيلي (١٢١٢ — ١٢٥١ م) الذي كان من ابلغ شعراء عصره . اسلم وتولى الكتابة عند ابن خلاص صاحب سبتة ومات غريقاً معه(٦) . ولابن سهل ديوان شعر طبع اولا في مصر ثم تجدد طبعه سنة ١٨٨٥ في بيروت .

ولما تطرقت اسباب الضعف والخلاف الى ملوك الطوائف في الاندلس وانهار ملك العرب فيها بعد باذخ مجده انتزح جمهور عظيم من اليهود عن تلك البلاد . فيمّموا القسطنطينية وسلانيك وازمير وغيرها من مدائن السلطنة العثمانية التي كانت في مهد نشأتها . وقد نقل ادباء اولئك اليهود معهم حضارة الاندلس ونشروها في الربوع الجديدة التي احتلوها(٧) .

---

(١) القديم والحديث : لمحمد كردعلي : صفحة ٢٧ طالع ايضاً Prince Giovanni Borghese : l'italie Moderne

(٢) مآثر العرب في العلوم الطبية : صفحة ٦٨

(٣) L. Bertrand : Hist. d'Espagne, page 130

(٤) غرائب الغرب : لمحمد كردعلي : جزء ٢ صفحة ١٦ و ١٧ (٥) المقتطف : مجلد ٩٢ صفحة ٢٥٥ (٦) فوات الوفيات مجلد : ١ صفحة ٢٣ (٧) الحضارة الاسلامية بقلم احمد زكي باشا : صفحة ٦

الفصل الثاني

اشهر المكتبات الاسرائيلية في سالف الازمنة

المعنا في فصل سبق الى بعض علماء اليهود ومؤلفيهم الذين خدموا اللغة العربية تحت راية الخلفاء والملوك . وكانوا بلا ارتياب من غلاة الكتب وهواة المكتبات كغيرهم من ادباء الامم الاوالي في القرون الخوالي . فقد دوّن التاريخ اسماء فريق من اليهود انصرفوا الى نسخ المخطوطات كما راح فريق آخر منهم يصونون في خزائنهم تصانيف العرب ويضنون بذخائرها . وهاك اسماء بعض من تفوق منهم بجمع الكتب واجادة الخط في تلك الحقبة البعيدة .

١ ـ مكتبة افرائيم بن الزفان

هو ابو كثير افرائيم بن الحسن بن اسحق بن ابرهيم بن يعقوب الزفان اسرئيلي الدين . كان من مشاهير اطباء مصر وذا همة شماء في احراز كتب الطب وغيرها من العلوم . وكان النساخ لا يزايلون داره وهو ينفق عليهم بدل ما يكتبون . وروى عنه ابن ابي اصيبعة في كتابه « طبقات الاطباء » قوله :

« وحدثني ابي ان رجلاً من العراق كان قد اتى الى الديار المصرية ليشتري كتباً ويتوجه بها . وانه اجتمع مع افرائيم واتفق الحال فيما بينهما ان باعه افرائيم من الكتب التي عنده عشرة آلاف مجلد . وكان ذلك في ايام ولاية الافضل ابن امير الجيوش المتوفى سنة ٥١٥ للهجرة . فلما سمع الافضل بذلك اراد ان تبقى تلك الكتب في الديار المصرية ولا تنقل الى موضع آخر . فبعث الى افرئيم من عنده بجملة المال الذي كان قد اتفق تثمينه بين افرائيم والعراقي . ونقلت الكتب الى خزانة الافضل وكتبت عليها القابه . وخلف افرائيم من الكتب ما يزيد على العشرين الف مجلد(١) .

---

(١) طبقات الاطباء : مجلد ٢ صفحة ١٠٥ و ١٠٦

٢ ـ مكتبة الطبيب عمران الاسرائيلي

ليست شهرة الطبيب عمران الاسرائيلي باقل من شهرة افرائيم بن الزفان في اقتناء الكتب والحرص عليها . وقد ذكر غير واحد من المؤرخين ان هذا الطبيب الممتاز بعلمه وادبه انشأ في داره خزانة كتب لا مثيل لها . وجمع فيها من المخطوطات الطبية ما لا يكاد يحرزه سواه . ولا غرو ان تلك الخزانة العمرانية حدث لها من النكبات ما حدث لغيرها من الخزائن العربية حتى امحى اثرها وانطمس ذكرها على ممر الايام . وحلّت وفاة عمران الطبيب عام ٦٣٧ للهجرة (١٢٣٩م).

٣ ـ مكتبة الخطاط ابو غالب بن كمونة

ذكر المؤرخون اسم رجل يهودي يقال له ابو غالب بن كمّونة اشتهر في زمرة الكتّاب باجادة الخط . وانشأ خزانة كتب جلها من المخطوطات الثمينة . وقد روى ابن الساعي في تاريخه ان اباغالب المشار اليه توفي في مطمورة واسط سنة ٦٠١ للهجرة (١٢٠٤ م) . واثبت النويري ان ابن كمونة كان يزوّر على خط ابن مقلة من قوة خطه(١) .

وعُرف من اسرة ابي غالب بن كمونة « سعد بن كمونة » الذي خلّف كتاباً عنوانه « التنقيح عن الديانات الثلاث اليهودية والنصرانية والاسلامية » . وقد ردّ عليه ابو الحسن بن ابرهيم بن محرومة الماوردي من علماء القرن الرابع عشر للميلاد. وكُتب هذا الرد في ماردين سنة ٧٥٣ للهجرة في ١٦٣ صفحة . ونسخته الخطية الاصلية محفوظة بمكتبة (Angelica) انجليكا في رومة(٢) .

---

(١) كتاب « نهاية الارب » : مخطوط مكتبة ليدن
(٢) المخطوطات العربية لكتبة النصرانية : صفحة ١٦

الفصل الثالث

دار كتب الامة اليهودية والجامعة العبرية

لما استيقظ اليهود من سباتهم العميق في اواخر القرن الغابر كانوا تائهين شاردين تحت كل كوكب . فاخذوا يفكرون في توحيد كلمتهم وجمع شمل امتهم لبلوغ تلك الامنية التي نشدوها مدة تسعة عشر قرناً . وكانوا يحلمون دائما بمجدهم القديم واعادة عرش ملكهم المفقود وتوطيده على انقاض هيكل سليمان . فنظموا صفوفهم تحت لواء زعيمهم المثري العظيم البارون دي رتشيلد وبدأوا يؤسسون المستعمرات اليهودية في بعض انحاء فلسطين . لعلّهم يتوفقون بتوالي الازمان في تحقيق تلك الاحلام والاماني .

وما كادت تحط الحرب العظمى اوزارها حتى فوجىء العالم بانشاء الوطن القومي الصهيوني في فلسطين . ومذ ذاك التاريخ تدفق اليهود تدفق السيول وتواردوا من جميع ممالك الارض حاملين القناطير المقنطرة من الذهب لتشييد بنيان هذا الوطن الجديد .

ومن افخم ما اتيح لهم تشييده من الابنية « دار كتب الامة اليهودية والجامعة العبرية » في اورشليم لتثقيف ناشئتهم طبقاً لمبادئهم القومية الصهيونية . ظهرت هذه الدار الكتابية للوجود عام ١٨٩٢ كمعهد علمي خاص أُطلق عليه اسم « بيت سفاريم مدراش اباربانيل » وأُنيطت ادارته باحدى جمعياتهم الخيرية .

وبعد ذلك اضيفت الى المعهد المذكور جميع الآثار اليهودية الفنيّة النفيسة التي جمعها الدكتور يوسف شازانوفتش Joseph Chasanowicz حتى تكون نواة لمكتبة وطنية يهودية . فاصبح ذلك وسيلة لتوسيع نطاق هذا المشروع وتعزيزه

[illegible] الفرنسية [illegible] والعربية [illegible] وقد أنشأت هذه المكتبة [illegible] سنة ١٩٢٥ والجامعة العبرية [illegible] كتب اللغة العبرية واللغات العبرية [illegible] ويبلغ الآن عدد [illegible] بالكتب الشرقية والعربية ولا سيما العبرية [illegible] من الكتب العربية [illegible] ستة عشر ألف مطبوع وسبعمائة [illegible] مخطوطاً .

ومن مميزات المكتبة [illegible] انها تشتمل على نحو اربعة آلاف مجلد [illegible] جميع اللغات الشرقية . وقد أكد لنا ذلك حضرة الاستاذ احمد سامح الخالدي مدير الكلية العربية في القدس الشريف .

وللجامعة العبرية عناية خاصة بالدراسة العربية وتصبيبها في الأوساط اليهودية . وقد أخذت على عاتقها نشر الكتب القديمة التي وضعها مؤلفو العرب ولم تزل نسخها الخطية متفرقة في خزائن المكتبات . ومن أهم ما قامت بنشره كتاب « أنساب الأشراف » لأحمد بن يحيى بن جابر البلاذري صاحب كتاب « فتوح البلدان » المتوفى سنة ٢٧٩ للهجرة . وذلك طبقاً للنسخة الوحيدة المحفوظة في احدى مكتبات اسطنبول . ويشتمل هذا الكتاب على تاريخ العرب في جاهليتهم واسلامهم الى القرن العباسي الأول . ولكنه لم يرتب على سني الهجرة كغيره من التواريخ بل اتبع ترتيبه انساب قبائل العرب (١)

(١) المجمع العلمي العربي : مجلد ١٦ سنة ١٩٤١ صفحة ١٣٩

الفصل الرابع

المكتبات العربية الاسرائيلية في الازمنة المتأخرة

١ ـ مكتبة سلمون مونك في باريس (١٨٠٣ ـ ١٨٦٧)

وُلد سلمون مونك بباريس وكان ابوه يهودياً فقير الحال من اصل الماني . بدأ يدرس على استاذ ارتحل فيما بعد الى المانيا فلحق به سيراً على الاقدام ولم يكن لديه مال لاكتراء عربة . وقد عاش مُقلّاً فكان لاستاذه خادماً وطاهياً معاً .

احب سلمون اللغة العربية فتلقاها في المانيا من الاستاذ فريتاغ واشباهه وفي باريس من سلوستر دي ساسي . وفي السنة ١٨٣٨ عهدت اليه وظيفة في المكتبة الامبراطورية بباريس فخدمها سنتين . ثم توجه الى مصر مع احد وزراء فرنسا فجمع هناك مخطوطات عديدة بينها « تاريخ الهند » للبيرولي . وبذر منها نواة لخزانة كتب شرقية انشأها لنفسه في باريس بعدما تبدلت حاله من عسر الى يسر .

ظلّ سلمون مكباً على العمل الفكري حتى كف بصره نحو السنة ١٨٥٠ لكنه لم يفقد نور الأمل . فاتخذ له امين سر وجعل يملي عليه ما كان ينشئه من المؤلفات والمقالات . ومن مخلفاته العلمية : نشره كتاب « اللغة » لابن جنح . وترجمة « الفلسفة العربية اليهودية » الى اللغة الفرنسية في ستمائة صفحة . وترجمة اخرى فرنسية لكتاب « دلالة الحائرين » تأليف موسى بن ميمون (١١٣٥ ـ ١٢٠٨ م) في ثلاثة اجزاء . وترجم كذلك كتاب « معين الحياة » لابن جبرول . و « تاريخ فلسطين » و « آداب الفينيقيين » وبعض مقامات الحريري .

ولسلمون مونك ابحاث جليلة نشرها في المجلات والمعاجم والموسوعات الافرنجية نذكر منها : تأثير اللغة العربية وآدابها في اللغة العبرية بعد التوراة . وعلاقة فلسفة اليونان بالفلسفة الهندية . ونقد كتاب « ديانة الدروز » تأليف استاذه دي ساسي .

٢ ـ دار القراءة والمتحف الوطني في بمباي

يعود الفضل في انشاء هذين المعهدَين البديعَين الى المثري البغدادي داود ساسون المتوفى سنة ١٨٦٢ للميلاد . وهما من اشهر ابنية بمباي وافخمها تقعان في ساحتها العمومية . واعترافاً بصنيع هذا المحسن الخالد قد نُصب له في وسط تلك الساحة تمثال من الرخام الابيض يمثله بالزي البغدادي الوطني اعني الطربوش والجبة والرداء والمداس .

وتتألف دار القراءة من غرف عديدة تحتوي على شيء كثير من الكتب باللغات العربية والانكليزية والهندية . اما المتحف الوطني فيشتمل على طبقتين وهو بديع المنظر والهندسة نُقشت جدرانه باجمل الزخارف . ويشاهد الزائر فيه جميع انواع الحيوانات الهندية داجنة وغير داجنة ومن كواسر وغير كواسر(١) .

٣ ـ مكتبة المدرسة الاسرائيلية في بيروت

تأسست هذه المدرسة الداخلية عام١٨٧٦ بهمة الحاخام زاكي كوهين لتهذيب اولاد ملته الوطنيين . وانفق في سبيل مشروعه هذا مبالغ طائلة من جيبه الخاص وبما حصله من سخاء المحسنين والجمعيات الخيرية الاسرائيلية في مختلف الاصقاع .

وكان الحاخام زاكي من اكبر نصراء اللغة العربية ومروجيها يدرّسها هو وانجاله وينشئون للطلبة محافل ادبية ويلقنونهم محاضرات عصرية وروايات مسرحية .

ولم يكتفِ الحاخام المشار اليه بذلك كله بل جهز مدرسته بخزانة كتب اشتملت على امهات المؤلفات العربية في الادب والتاريخ واللغة . وافادنا الاستاذ انطون بك شحيبر الذي علّم السنين الطوال في تلك المدرسة ان عدد كتب تلك الخزانة اربى على ثلاثة آلاف مجلد في اللغة العربية وحدها بينها عدد غير يسير من المخطوطات .

---

(١) رحلة الى الهند : بقلم المطران اغناطيوس نوري : صفحة ٥٣

غير انه لم يستغرق عمر هذه المدرسة الاسرائيلية اكثر من عشرين سنة لانها رزحت تحت اثقال الديون . فاضطر مؤسسها الى اقفالها وباع خزانة كتبها وانطلق في اسرته الى القطر المصري .

٤ ـ مكتبة البارون مكس فون اوبنهيم في برلين

ولد البارون مكس اوبنهيم في كولونيا بالمانيا . واتقن مع اللغة الالمانية اللغتين الانكليزية والفرنسية وألمّ بالايطالية . وأولع بالسياحة في بلاد المشرق ونُصب معتمداً سياسياً للدولة الالمانية في القاهرة . فانتهز تلك الفرصة واكبّ على العربية فاتقنها . وتفرغ خصوصاً لدرس الآثار القديمة فانفق امواله واوقاته في البحث عن شؤون الامم الشرقية في العصور الغابرة . واغنى بمكتشفاته وحفرياته وابحاثه الدقيقة تواريخ الشرق ودار الآثار في الاستانة . وارتحل في السنين ١٨٩٣ و١٨٩٩ و١٩١١ و١٩١٣ و ١٩١٤ و ١٩٢٥ و ١٩٣٩ الى بادية سوريا وما بين النهرين وتركيا والعراق وخليج العجم وغيرها . فاماط اللثام عن كثير من الحقائق التاريخية الغامضة ونشر فيها تصانيف مدبجة برسوم نادرة وكتابات اثرية وخرائط وصور شمسية تلفت الانظار(١) . وكان يعاونه في مهمته سنة ١٩١٤ نحو ثلاثين المانياً لهم خبرة كافية بعلم العاديات العتيقة . فلما أعلنت الحرب العظمى (١٩١٤ ـ ١٩١٨) كفوا جميعاً عن اعمال الحفريات وعادوا يوم الاربعاء في ١٩ آب ١٩١٤ الى بلادهم عن طريق حلب .

ونشر البارون مكس في ليبسيك عام ١٩٠٨ كتاباً في الالمانية سماه « تل حلف » (٢) قد ترجم الى الافرنسية منقحا ومضافاً اليه . روى فيه انه اكتشف

---

(١) مجلة « الآثار » في زحلة : مجلد ٣ صفحة ١٩ فما بعد

(٢) تل حلف : راية مجاورة لراس العين ببلاد ما بين النهرين واقعة جنوبي غربي ماردين فيها آثار قديمة اسست على انقاضها كنائس واديار مسيحية اختفى عليها الزمان . قصد اليها البارون مكس عام ١٩١٣ واستخرج من اراضيها آثارا ثمينة نقلها الى المانيا .

قصراً حثيا حوى تماثيل مبرقعة وكتابات مسمارية تدل على اسم باني ذلك القصر وهو خابار بن حنيان في القرن العاشر قبل الميلاد . وآخر تأليف وضعه عنوانه « Die Beduinem » ضمنه ابحاثاً عن البدو في خمسة مجلدات .

ويعتبر البارون فون اوبنهيم من اكبر عشاق الكتب بين علماء الاستشراق . فانه اقتنى لنفسه وبماله خزانة حوت ما يناهز خمسين الف مجلد (١) في شتى المواضيع الشرقية ولا سيا ما كان منها متعلقا بابحاثه الخاصة . بينها طائفة عظيمة من الكتب الخطية والمطبوعة في اللغة العربية . وقد وقفها باجمعها مع المتحف التابع لها باسم الحكومة الالمانية مشترطا ان يتابع العلماء من بعده مباحثه الاثرية ودروسه عن البدو

٥ ـ المكتبة الاسرائيلية في القاهرة

مركز هذه المكتبة في دار واقعة تحت كنيس اليهود الربانيين في شارع المغربي بالقاهرة . وقد حدثنا عنها الاستاذ توفيق حبيب المصري سنة ١٩٣٩ حين مروره ببيروت . ثم اوعز الينا ان نتحرى اخبارها باوفر دقة من بعض الادباء الاسرائيليين الذين لهم علاقة بها او من حاخام الربانيين نفسه . فكتبنا الى هذا والى اولئك لكننا لم نتلق جواباً . فاكتفينا بالاشارة الى اسم هذه المكتبة خدمة للتاريخ .

٦ ـ مكتبة مكس مايرهوف في القاهرة

الدكتور مكس مايرهوف الماني النحلة اسرائيلي المذهب يتعاطى طب العيون في عاصمة الديار المصرية مركز اقامته وشغله . وهو مستشرق بارع نزع منذ صباه الى اقتباس لغة الضاد فتعلمها وأتقن اصولها . وتمكن من الوقوف على آداب العرب وتواريخهم قبل الاسلام وبعده .

---

(١) مقدمة كتاب « فريدريك الكبير في حداثته » بقلم توفيق مسرة : صفحة ٩

ولهذا الطبيب علاوة على ذلك شغف باقتناء الكتب العربية ولا سيما المخطوطات القديمة . فجمع منها على ما روى لنا بعض معارفه خزانة ثمينة لها شأنها بين الخزائن الخاصة بمدينة القاهرة في هذا الزمن .

ولمكس مايرهوف الطبيب الرمدي آثار علمية تستحق الثناء والاعتبار . منها كتاب عنوانه « منتخب كتاب جامع المفردات » نشره عام ١٩٣٢ بالاشتراك مع الدكتور جرجي صبحي استاذ الجامعة المصرية . فترجماه الى اللغة الانكليزية وعلقا عليه شروحاً وافية . ولا يخفى ان هذا الكتاب المشهور بكتاب « الادوية المفردة » هو تأليف احمد بن محمد بن خليل الغافقي المتوفى نحو السنة ٥٦٠ للهجرة . وقد لخصه المتطبب الشهير ابو الفرج غريغوريوس المعروف بابن العبري (+ ١٢٨٦ م) وسماه « منتخب الغافقي في الادوية المفردة ».

ومن مآثر مايرهوف نقده بعض مخطوطات طبية عربية عثر عليها في مختلف مكتبات اوروبا ومصر . ثم نشر ترجمتها في مجلة « ايزيس » باللغة الانكليزية تعميما لفوائدها بين علماء الغرب (١) .

٧ ـ مكتبة بلدية زمارين

زمّارين مستعمرة يهودية انشأها آل روتشلد لايواء اليهود اللاجئين الى فلسطين وانفقوا على تكوينها وتعزيزها مبالغ طائلة . وقد احرزت بلدية زمّارين مكتبة حوت زهاء اربعة آلاف مجلد مختلفة اللغات والفنون . ولا يقل قسمها العربي عن اربعمائة مجلد تبحث في الزراعة والصناعة وحفظ الصحة وسائر الشؤون العلمية . والغاية من انشاء هذه المكتبة افادة الصهيونيين ومساعدتهم على القيام باشغالهم الحقلية والبيتية طبقاً للفن الحديث .

---

(١) ابن النفيس ونظريته عن دوران الدم : بقلم مايرهوف (مجلة ايزيس : حزيران ١٩٣٥)

٨ ـ مكتبة هارون ارنسون في زمارين

اسرة ارنسون من اقدم الأسر الاسرائيلية التي ارتحلت الى فلسطين في الربع الثالث من القرن التاسع عشر . فصرفت المساعي منذ ذاك العهد لانشاء دولة صهيونية في الاصقاع المذكورة .

كان هارون ارنسون من ارباب الثقافة والهمّة العالية توفق اثناء رحلاته العلمية الى اكتشاف القمح البري في جهات جبال حرمون واللوز البري في جبل قاسيون بضواحي دمشق . وله نظريات واسعة في العلوم الزراعية تُدرّس في اهم معاهد الزراعة باميركا واوروبا . وخلّف هارون بعد وفاته اعظم مجموعة نباتية من نباتات فلسطين وسوريا ولبنان .

ومن متروكات هارون مكتبة ضخمة آهلة بما يقارب سبعة آلاف مجلد في شتى اللغات اذ كان يجيد التكلم والكتابة في لغات عديدة . اما ما حوته تلك الخزانة من الاسفار العربية فقد تجاوز سبعمائة مجلد بينها اربعون مخطوطاً معظمها في علم النبات . ومن اهم تلك المخطوطات كتاب « الفلاحة » تاليف ابن العوّام منسوخ في عهد المؤلف نفسه .

٩ ـ مكتبة موسى بيشوتو في تل ابيب

اسرة بيشوتو من اقدم الأسر الاوروبية الاسرائيلية واوجهها . انتزحت عن ليفورنو بايطاليا عام ١٧٣٠ واقبلت الى حلب فاستوطنتها . وتولى افرادها قنصليات بعض الدول كالنمسا وتوسكانا والدنيمرك وغيرها من دول اوروبا . غير ان نجم سعدها اخذ يأفل منذ مطلع القرن العشرين فتفرّق ابناؤها تحت كل كوكب شرقاً وغرباً .

وممن انتزح منهم عن الشهباء موسى دي بيشوتو الذي وُلد سنة ١٨٦٨ واستقر منذ عام ١٩٣٣ في تل ابيب بفلسطين . وهو شديد الهيام بجمع الكتب اقتنى منها

طائفة كبيرة باللغة العربية واللغات الافرنجية . وقد وجّه الآن عنايته الى الكتب العربية فاحرز عدداً وافراً من تصانيف قدماء المؤلفين ومشاهير المتأخرين . وضم الى خزانته مجموعات من ارقى المجلات العربية كالمقتطف والمشرق والهلال وغيرها.

وتخلى موسى دي بيشوتو عن مكتبته طبقاً لمنطوق وصيته الاخيرة وخصصها بمشروع عمومي . ذلك ليستفيد من مطالعتها ادباء فلسطين ومفكروها على اختلاف النحل والملل . وقد توفي سنة ١٩٤٣ .

١٠ ـ مكتبة اغناطيوس غولدتسيهر في بودابست

(١٨٥٠ ـ ١٩٢١)

كان اغناطيوس غولدتسيهر مجري الوطن موسوي المذهب تفرّغ للتحصيل في مدارس الاستشراق ببرلين وليبزيغ وبودابست . ومنذ السنة ١٨٧٠ تولى منبر التعليم في عاصمة المجر فكدذهنه وأسهر جفنه في البحوث الشرقية . وفي السنة ١٨٧٣ انتدبته حكومته ليقوم برحلة الى الشرق . فتعرّف في دمشق بالشيخ العلامة طاهر الجزائري الذي افاده فوائد جمة . ثم استأنف سفره الى فلسطين ثم الى مصر وامتزج بمشايخ الازهر فتضلع من العربية على يدهم .

وكان الاستاذ غولدتسيهر جمّاعة للكتب ولاسيما المخطوطات القديمة . وانتهز فرصة سياحته في الشرق كي يقتني من نوادرها وذخائرها ما استطاع . ثم حملها معه الى وطنه وانشأ منها ومما جمعه من مؤلفات المستشرقين خزانة ذات قيمة كبيرة . الا ان اسرته باعتها بعد وفاته من دار كتب الامة اليهودية والجامعة العبرية في القدس(١) .

---

(١) المستشرقون : صفحة ١٩٠ ـ ١٩١

الباب العاشر

مشاهير خزنة دور الكتب في عصر الارتقاء العربي وبعده

الفصل الاول

منزلة خزنة دور الكتب ومناقبهم

ما كادت تظهر دور الكتب للوجود في عصور النهضة العربية حتى اصبحت بعد زمن يسير عامرة بالاسفار الوافرة وحافلة بالمشتغلين فيها . لانها كانت تعتبر بمثابة مدارس يختلف اليها الائمة وطلاب الحكمة وارباب البحث للاستفادة او المذاكرة او النقل او التأليف . فمست الحاجة حين ذاك الى وضع نظام لكل دار منها يضمن بقاءها ويساعد على انمائها ويزيد ثروتها العلمية . ومن المعلوم ان هذا النظام لا يتحقق الا بتعيين قوّام وخدام يأخذون على عاتقهم ترتيب شؤون تلك المعاهد الكتابية بامانة واجتهاد واختبار .

وقد ادرك الخلفاء خطورة وظائف القائمين بخدمة دور الكتب على اختلاف درجاتهم وثقافتهم : فذهبوا ان لا يتولاها الا اهل الثقة التامة والكفاءة العلمية . وكانوا ينتقون للمناصب العالية خصوصاً فئة من النابغين في علم الكتب والبارعين في وصفها والخبيرين بتنظيم فهارسها . وعيّنوا لكل مكتبة خازناً يسهر على حفظ نظامها ويدير اعمالها ويرتّب محتوياتها ويتعهّد كنوزها الثمينة .

ولما كان مصير خزائن الكتب ونجاحها يتوقفان على جدارة خازنها وامانته

ومبلغ ثقافته واصالة رأيه في تدبير شؤونها اصبح من البديهي ان لا تُعهد وظيفة « خازن » الا لمن توفرت فيه تلك الصفات السامية . وقد اشتهر بين اولئك الخزَنة عدد صالح من افاضل العلماء ونوابغ المؤلفين وصفوة المجتهدين . فرفعوا شأن المكاتب مخلفين فيها من المآثر الطيبة والآثار المجيدة ما خلّد ذكرهم جيلاً فجيلاً . ذلك ما حدا بنا الى تدوين هذا الباب الذي أحصينا فيه مَن عثرنا على اخباره من مشاهير خزَنة دور الكتب في عصور الارتقاء العربي . وقد توخينا ذلك لشدة علاقة هؤلاء الخزنة بموضوع بحثنا واستكمالاً لجميع مناحيه .

الفصل الثاني

خزنة دور الكتب في سوريا ولبنان

١ ـ اثناس

عاش اثناس في القرن الثامن للميلاد . وتوشح بالاسكيم الرهباني في دير مار مارون بجوار نهر العاصي بين مدينتي حماة وافاميا (١) . ولما كان على جانب عظيم من الثقافة عينه جرجي رئيس الدير خازناً للمكتبة . يؤيد ذلك ما ورد على هامش مخطوطة في المتحف البريطاني نسخت عام ٥٨١ للميلاد . ودخلت الى مكتبة الدير المذكور عام ٧٤٥ من التاريخ نفسه (٢) . وقد ذكرنا خبر تلك المكتبة في الفصل الثاني من الباب السادس .

٢ ـ ابوبكر الصنوبري

كان ابوبكر الصنوبري اول من تولى خزانة كتب سيف الدولة (٣٠٣-٣٥٦هـ) في حلب . وقد اورد ذكره الاستاذ فؤاد افرام البستاني في بحث (٣) له عن هذا الامير الحمداني استناداً الى « يتيمة الدهر » قال :

« هو ابوبكر احمد بن محمد بن الحسين الحلبي الصنوبري المتوفى سنة ٣٣٤ للهجرة . كان من خزنة كتب سيف الدولة في اول عهد الامير . له شعر كثير جمعه الصولي

---

(١) كتاب التنبيه للمسعودي : صفحة ١٦٣

(٢) فهرس مخطوطات المتحف البريطاني : رقم ٥٧٢

(٣) البشير : مجلد ٦٨ عدد ٥٤٥٥ في ٧ اذار ١٩٣٨ . وراجع ايضا ما نشرته عن الصنوبري « مجلة المجمع العلمي العربي » في دمشق (مجلد ١١ صفحة ٤٨٤ ومجلد ١٢ صفحة ٥٢)

ورتبه على الحروف الابجدية . واشتهر خاصة بنوع من الوصف شابه فيه ابن الرومي من التبسط في ذكر الرياض وزهر الربيع والفواكه . وكان له مذهب خاص في المدح يقرب به من مذهب ابن الرومي . وما بقي ففي الخمريات والغزل اللطيف ...

٣ ـ الخالديان

كان الخالديّان خازَنين لخزانة كتب سيف الدولة بن حمدان في حلب . وقد برّزا في الشعر فنظما منه الشيء الكثير . واختارا طُرفاً من الكتب والدواوين التي كانت في الخزانة المذكورة وجمعا منها مجاميع ادبية مهمة . توفي اكبرهما ابو بكر محمد بن هاشم بن وعلة بن عثمان الخالدي سنة ٣٨٠ للهجرة . ولحق به اخوه ابو عثمان سعد بن هاشم الخالدي في حدود السنة الاربعمائة .

٤ ـ ثابت بن اسلم

ذكر الحافظ الذهبي في « تاريخ الاسلام » ما يلي : ثابت بن اسلم بن عبدالوهاب ابو الحسن الحلبي المتوفى سنة ٤٦٠ للهجرة . هو احد علماء الشيعة وكان من كبار النحاة . صنّف كتاباً في تعليل قراءة عاصم وانها قراءة قريش . وكان من اشهر تلامذة ابي الصلاح تصدّر للافادة بعده . وتولى خزانة الكتب التي أسسها بحلب سيف الدولة بن حمدان . فقال مَن بحلب من الاسمعيلية ان هذا يُفسد دعوتنا . وكان صنّف كتاباً في كشف عوار الاسمعيلية وابتداء دعوتهم . فحمل الى مصر فامر بصلبه فصُلب في حدود السنة الستين والاربعمائة . واحرقت خزانة الكتب التي بحلب وكان فيها عشرة آلاف مجلد من وقف سيف الدولة المشار اليه .

٥ ـ محمد الجياني الاندلسي

هو محمد بن علي بن ياسر الجياني الاندلسي (٤٩٣ ـ ٥٦٣ ﻫ) كان من علماء

القرن السادس للهجرة وزميلاً لابن عساكر (٤٩٩ - ٥٧١ ﻫ) مؤرخ دمشق المشهور . جعله نور الدين محمود بن زنكي خازناً للمكتبة التي وقفها في حلب على المدرسة المعروفة باسمه وأجرى عليه جراية . وكانت هذه المكتبة من اشهر خزائن الملوك والامراء(١) .

٦ - علي اللواتي الابياري

هو عليّ بن سيف بن عليّ سليمان اللواتي الابياري . ولد بمصر سنة خمسين بعد السبعمائة . ثم ارتحل الى دمشق حيث تفوق في حفظ اللغة وجودة الخط . وثابر على مطالعة كتب الادب . فصار يستحضر كثيراً واصبح عارفاً بايام الناس وعُين خازناً لخزانة الكتب بالمدرسة السميساطية . وكان موقع هذه المدرسة في الخانقاه السميساطية في جوار الجامع الاموي بدمشق . ويقال ان مكانها كان داراً لعمر بن عبد العزيز فابتاعها ابو القاسم علي بن محمد السلمي السميساطي سنة ٣٤٠ للهجرة . وفيها توفي ودفن . وكانت في كل عصره مسكناً لكثيرين من الأئمة الاعلام الذين درسوا فيها اصناف الآداب والعلوم . ووقفوا عليها كتبهم وبينها كل نادر ونفيس.

وكانت لعليّ اللواتي خزانة خاصة آهلة بالمخطوطات الشتى فنهبت في فتنة تيمورلنك . وحلت وفاته بدمشق في شهر ذي الحجة سنة ٨١٤

٧ - محمد بن عبد السلام التونسي

كان محمد بن عبد السلام تونسي الاصل عاش في القرن العاشر للهجرة فلما جاء دمشق تولى فيها منصب الافتاء على المذهب المالكي . ثم وجهت الى عهدته امانة خزانة الكتب الخاصة بالمالكية في الجامع الاموي (٢) .

---

(١) نفح الطيب : مجلد ١ صفحة ٣٩٦ (٢) خطط الشام : مجلد ٦ صفحة ١٩٤

٨ ـ الشيخ عبد الرحمن المنيني

اشتهر بدمشق الشيخ الزاهد مراد الحسيني البخاري النقشبندي . واليه انتسبت المدرسة المرادية الواقعة بين باب البريد والظاهرية في السوق المعروفة قديماً بالمرادية . وقد انشأ النقشبندي في تلك المدرسة خزانة كتب اقام اميناً عليها احد اخصائه الفضلاء الشيخ عبد الرحمن المنيني المتوفى سنة ١١٣٢ هـ . وظلت الوظيفة المذكورة تتسلسل في اولاد هذا الخازن من بعده[١] . واثبت ذلك مؤلف كتاب « سلك الدرر في اعيان القرن الثاني عشر » .

٩ ـ عبد الرحمن الصناديقي

كان عبد الرحمن الصناديقي من جلّة علماء دمشق في عصره . تولى الخطابة في المدرسة التي شيدها الحاج اسمعيل باشا العظم سنة ١١٤٣ للهجرة وهو اول من أسندت اليه ولاية دمشق من تلك الآسرة النبيلة . وذكر المؤرخون ان ابنه اسعد باشا العظم وقف على تلك المدرسة خزانة كتب ضُمت اليها فيما بعد مكتبة السيد احمد القلاقنسي ومكتبة ابن عمه السيد عاصم[٢] . واقيم عبد الرحمن الصناديقي اميناً على تلك الخزانة حتى سافر الى القسطنطينية وفيها أدركه الأجل المحتوم سنة ١١٦٤ للهجرة[٣] . ومن مآثره انه نسخ بخطه كتباً كثيرة علّق عليها حواشي وتقارير مشايخه على طريقة المصريين في كتابة جميع ما يقرأون . وله تآليف جمة منها شرح على « البردة » للبوصيري .

---

(١) خزائن الكتب في دمشق وضواحيها : صفحة ١٠ ـ ١١
(٢) سلك الدرر : مجلد ١ صفحة ١٦٣
(٣) خزائن الكتب في دمشق وضواحيها : صفحة ١٠

١٠ ـ ابو الفتح العجلوني

هو ابو الفتح بن محمد بن خليل بن عبد الغني الشافعي العجلوني . ولد بدمشق وفيها توفي (١١٢٨ - ١١٩٤ هـ) . وكان عالماً فقيهاً رضي الاخلاق حسن المطارحة طلب العلم على والده وعلى جماعة من اعلام الشيوخ . وارتحل في السنة ١١٥٧ هـ الى مصر حيث اشتغل بالتحصيل على قايتباي وعلى عشرة غيره من افاضل جهابذتها . ولما عاد الى دمشق لازم التدريس في الجامع الاموي وفي مجالس خاصة وعامة فانتفع به جمّ غفيرٌ . ثم تولى تدريس البخاري في مدرسة الوزير اسمعيل باشا العظم وكان قبل ذلك بوظيفة حافظ لكتبها (١) .

١١ ـ سلوان ابو نحول

وُلد سلوان ابو نحول بقصبة دير القمر في اواخر القرن الثامن عشر . وانصرف منذ حداثته الى تحصيل الادب واجادة الخط فاحرزَ منهما نصيباً وافراً . وتعاطى مهنة النسخ لدى الامير حيدر الشهابي (١٧٦١ - ١٨٣٥) مؤلف كتاب « الغرر الحسان في اخبار ابناء الزمان(٢) » . ولما وقف الامير بشير الكبير (١٧٨٨ - ١٨٤٠) على امر سلوان استدعاه الى الاشتغال ككاتب في ديوانه . ثم نصبه خازناً لمكتبة قصر بتدين . وهناك نسخ كتباً وافرة باشراف المعلم نقولا الترك والمعلم بطرس كرامة(٣) . وقد شاهدنا بعض مخطوطات بخط يده في مكتبة الكنت رشيد الدحداح بباريس نذكر منها : كتاب « اخلاق الملوك » للجاحظ .

---

(١) سلك الدرر : مجلد ١ صفحة ٦٦

(٢) لبنان في عهد الامراء الشهابيين : للامير حيدر الشهابي : مقدمة الناشرين اسد رستم وفؤاد البستاني : صفحة ١٢

(٣) تلقينا هذه الرواية من فم الصيدلي داود ابي نحول نسيب صاحب الترجمة

وكتاب « حياة الحيوان » للدميري . وكتاب « خزانة الادب » للبغدادي . وكتاب « خريدة العجائب » لابن الوردي الخ . وكانت تلك المخطوطات في مكتبة قصر بتدين ثم اقتناها الكنت رشيد على اثر نفي الامير بشير الكبير سنة ١٨٤٠ الى مالطة فالاستانة .

ويروى عن سلوان انه كان شديد الحرص على انماء المكتبة وزيادة محتوياتها ويصرف الساعات الطوال فيها منقطعاً الى تنظيمها وتنسيقها . وكان كلما ورد على مسمعيه اسم كتاب مفيد سعى الى اقتنائه ولو في ابعد الاماكن . ذلك ما جعل مولاه الامير ان يعطف عليه ويشمله برضاه . وحلت وفاة سلوان ابي نحول سنة ١٨٦٨

١٢ ـ الاب لويس شيخو (١٨٥٩ ـ ١٩٢٧)

سبق لنا التحدث بالتفصيل عن هذا الخازن النشيط . فاتينا على ذكر مآتيه المشكورة في تعزيز اللغة العربية وانماء المكتبة الشرقية التي تولاها زهاء خمسين سنة في بيروت . فكان مثال الامانة في ادارتها والتفاني في خدمة روّادها .

الفصل الثالث

خزنة دور الكتب في العراق

١ ـ سهل بن هرون الكاتب

هو ابو عمر سهل بن هرون بن راهبون(١) بن رامنوي الدستميساني فارسي الاصل انتقل الى البصرة . ثم ارتحل الى بغداد حيث ولاه الخليفة العباسي عبدالله المأمون خزانة كتب « بيت الحكمة » . ولعله اقدم من ذكرهم التاريخ من خزنة دور الكتب العربية . وسمي الكاتب لانه كان حكيماً فصيحاً وخلف مؤلفات كثيرة شعرية ونثرية وصفها ابن النديم(٢) . ومن جملتها « رسالة في البخل » بالغ فيها بمدح البخل وارسلها الى الحسن بن سهل وزير المأمون (١٩٨ – ٢١٨ هـ) يستمنحه . فاجابه هذا الوزير بما يأتي : « لقد مدحت ما ذمّ الله وحسّنت ما قبّح . وما يقوم لفساد معناك صلاح لفظك . وقد جعلنا ثوابك قبول قولك فما نعطيك شيئاً » .

٢ ـ سعيد بن هرون الكاتب

هو اخو سهل بن هرون الكاتب المذكور آنفاً . وكان مثل اخيه خازناً لكتب « بيت الحكمة » كما ورد في « فهرست » ابن النديم . ومن مصنفاته كتاب « الحكمة ومنافعها » .

---

(١) معجم الادباء : جزء ١٦ صفحة ٢٦٦

(٢) الفهرست : صفحة ١٢٠ - والدميري : مجلد ١ صفحة ١٢٠

٣ ـ سلم صاحب بيت الحكمة

عاش سلم في اوائل القرن الثالث للهجرة . وقـــد اطلق عليه ابن النديم في الفهرست لقب « صاحب بيت الحكمة » اي خازنه . وقرن اسمه باسم سهـل بن هرون المذكور في مطلع هذا الفصل . وخلف سلم نقولاً من الفارسي الى العربي(١)

٤ ـ محمد بن موسى الخوارزمي المنجم (توفي سنة ٢٣٢ للهجرة)

اصله من خوارزم وكان منقطعاً الى خزانة الحكمة للمأمون وهو من اصحاب علوم الهيئة . وكان الناس قبل الرصد وبعده يعوّلون على زيجيه الاول والثاني ويُعرفان بالسند هند . وله من الكتب ما عدا الزيجين كتاب الرخامة وكتاب العمل بالاسطرلاب وكتاب التاريخ . ومختصر في حساب الجبر والمقابلة . وقد ورد ذكر صاحب الترجمة في الصفحة ٢٧٤ من الفهرست لابن النديم . وله ايضاً كتاب صورة الارض طُبع مع الخرائط والملحوظات باللغة الالمانية عام ١٩١٦ في فيانا(٢)

٥ ـ يحيى الموصلي المنجم

هو يحيى بن ابي منصور الموصلي عُرف في زمانه بالمنجم . وهو احد اصحاب الارصاد عاش في اوائل القرن الثالث للهجرة . وقد اثبت التاريخ ان يحيى كان مع محمد بن موسى الخوارزمي المذكور آنفاً من خزنة « بيت الحكمة » في عصر الخليفة العباسي السابع عبدالله المأمون (١٩٨ — ٢١٨ هـ) (٣)

---

(١) فهرست ابن النديم : المطبعة الرحمانية بمصر : صفحة ١٧٤
(٢) معجم المطبوعات العربية والمعربة : صفحة ٨٤١
(٣) الدكتور احمد فريد الرفاعي : عصر المأمون : صفحة ٣٧٥

٦ ـ عبد السلام البصري

هو ابو احمد عبد السلام بن الحسين بن محمد البصري (٣٢٩ – ٤٠٥ ﻫ) تولى خزائن دار الكتب في « بيت الحكمة » ببغداد[١] . وعُهد اليه حفظها والاشراف عليها لكفائته وسعة معارفه . كان لغوياً كبيراً ومن احسن الناس انشاداً للشعر . وقد اشتهر بسماحته وسخائه ومما يروى عنه انه كان اذا جاءه فقير وليس لديه شيء يرضخه له عمد الى بعض كتبه الثمينة فدفعها اليه .

٧ ـ ابو منصور محمد بن علي الخازن

عاش في القرن الرابع للهجرة وتولى خزانة كتب دار العلم في بغداد عاصمة العباسيين . وقد جاء في « رسالة الغفران » على لسان جارية انصرفت الى خدمة الدار المذكورة ما يلي : « اتدري مَن انا يا عليّ بن منصور ؟ انا توفيق السوداء التي كانت تخدم دار العلم ببغداد على زمان ابي منصور محمد بن علي الخازن وكنت اخرج الكتب الى النسّاخ[٢] هذا كل ما اطلعنا عليه من اخبار ابي منصور الخازن الذي لم نعثر له على ذكر الاّ في الرسالة المشار اليها .

٨ ـ الحافظ ابو صالح المؤذن

هو الامام الحافظ ابو صالح احمد بن عبد الملك بن عليّ بن احمد عبد الصمد بن بكر ولد سنة ٣٨٨ وتوفي سنة ٤٧٠ للهجرة كان خازناً لكتب الحديث الموقوفة على اصحاب الحديث [٣] وكان عليه الاعتماد [٤] في الودائع من تلك الكتب

---

(١) ابن خلكان : مجلد ٢ صفحة ٣٥٠

(٢) رسالة الغفران : صفحة ٧٣

(٣) معجم الادباء : مجلد ١ صفحة ٢١٩

(٤) ذيل تاريخ بغداد : للحافظ ابي سعد السمعاني

المجموعة في الخزائن الموروثة عن المشايخ . فكان يصونها ويتعهد اوقاف المحدثين ويتولى بنفسه توزيع الحبر والكاغد والاقلام عليهم واطلقت عليه كنية « المؤذن » لانه كان يؤذن على منارة جامع البيهقية اعواماً طوالا . وكان حافظاً ثقة واسع الرواية جمع بين الحفظ والافادة وكتب الكثير بخطه . وقد سمع عليه كثيرون بجرجان والريّ والعراق والحجاز والشام (١) كما تدل عليه تآليفه وتخريجاته . ووضع بعض التواريخ اهمها « تاريخ مرو » .

٩ - يعقوب الاسفراييني (توفي سنة ٤٩٨ للهجرة)

هو ابو يوسف يعقوب بن سليمان بن داود الاسفراييني نسبة الى اسفرائين قرية بخراسان . كان قاضياً ببغداد وهو من بيت علم أنجب كثيراً من الفقهاء والائمة كعربشاه المحدّث العلامة وابنه محمد قاضي اسفرائين في ايام اولاد تيمور . ومنهم عصام الدين حفيد عربشاه كان بحراً في المعارف وخلّف التصانيف الحسنة النافعة في كل فن(٢) .

١٠ - ابو زكريا الخطيب التبريزي (٤٢١ - ٥٠٢ للهجرة)

هو ابو زكريا يحيى بن علي بن الحسن بن بسطام الشيباني المعروف بالخطيب التبريزي . كان حجة في النحو واللغة والادب . وتتلمذ له خلق كثير . وقد ذكره ياقوت الحموي في معجمه قال : « وكان يُدمن شرب الخمر ويلبس الحرير والعمامة المذهّبة . وكان الناس يقرأون عليه تصانيفه وهو سكران » .

وتولى ابو زكريا تدريس الادب وخزانة الكتب في المدرسة النظامية ببغداد . وانتهت اليه الرئاسة في فنّه(٣) . والف كتباً وافرة نذكر اهمها : « شرح كتاب

---

(١) ذيل تاريخ بغداد للحافظ ابي سعد السمعاني (٢) معجم المطبوعات العربية والمعربة : صفحة ١٣٣٠ (٣) بغية الوعاة في طبقات اللغويين والنحاة : صفحة ٤١٤

الحماسة » لابي تمّام وهي ثلاثة : كبير ووسط وصغير . وكتاب « تهذيب غريب الحديث » و « تهذيب اصلاح المنطق » و « شرح شعر المتنبي » و « شرح شعر ابي تمام » و « شرح سقط الزند » و « شرح المعلقات العشر » و « شرح المفضليات » و « شرح اللمع » و « شرح مقصورة ابن دريد » و « مقاتل الفرسان » وغيرها من كتب الادب والدين . ونظم كثيراً من الشعر الجيّد وتوفي سنة ٥٠٢ هجرية .

١١ ـ ابو منصور الكرخي (٤١٧ ـ ٥١٠ للهجرة)

كان ابو منصور محمد بن احمد بن طاهر بن حمد الكرخي نحوياً فاضلاً ذا خط يرغب فيه ويُعتمد عليه . وقد تولى خزانة الكتب التي بناها سابور بن ازدشير المهلبي في كرخ بغداد ووقفها على افادة الناس(١) . وكان سابور شاعراً فذاً استوزره بهاء الدولة بن عضد الدولة (٣٧٩ ـ ٤٠٣ هـ) في العراق والاهواز . قال ياقوت الحموي في خزائن كتب سابور ما نصه : « لم يكن في الدنيا احسن كتب منها . كانت كلها بخطوط الائمة المعتبرة واصولهم المحرّرة »

١٢ ـ ابو مظفر الابيوردي (توفي سنة ٥٥٧ للهجرة)

على اثر وفاة ابي يوسف الاسفراييني المار ذكره تولى خزانة كتب المدرسة النظامية ابو مظفر محمد بن ابي العباس الابيوردي . ويتسلسل نسبه الى بني امية .

وابو مظفر الابيوردي نابغة عصره في معرفة الأنساب واللغة خلّف مؤلفات شهيرة نذكر منها : كتاب « المختلف والمؤتلف » وكتاب « قبة العجلان في نسب آل ابي سفيان » وكتاب « طبقات العلم » وكتاب « انساب العرب » وكتاب « الانساب » وكتاب « صهلة القارح » رد فيه على ابي العلاء المعري . وله ايضاً كتاب « زاد الرفاق » في المحاضرات وبينها مناظرات مع اصحاب النجوم ونقض

---

(١) بغية الوعاة في طبقات اللغويين والنحاة : للسيوطي : صفحة ١١ ـ ١٢

حججهم . وخلّف الابيوردي ديوان شعر ظريف قسمه ثلاثة اقسام سماها « العراقيات » و « التجديات » و « الوجديات » .

وكان الابيوردي عارفاً بتاريخ العرب فصيح الكلام وافر العقل . وكان فيه تيهٌ وكبر وعزة نفس . وتولى في آخر ايامه الاشراف على مملكة السلطان محمد بن ملكشاه في اصفهان . ومات في ٢٠ ربيع الاول سنة ٥٥٧ للهجرة .

١٣ ــ علي بكري (توفي سنة ٥٧٥ للهجرة)

هو ابو الحسن عليّ بن احمد بن بكري النحوي كان من اهل باب الازج له اطلاع واسع على كتب اللغة والادب . وقد وصفه السيوطي في كتاب « بغية الوعاة » بقوله : انه حسن الاثر مليح الخط جيد الضبط كتب من الادب الكثير الذي يفوت الحصر . وكان خازناً لدار الكتب بالمدرسة النظامية (١) . ومات في في ١٨ رمضان سنة ٥٧٥ للهجرة ودفن في الوردية .

١٤ ــ مبشر بن احمد (٥٣٠ ــ ٥٨٩ للهجرة)

هو ابو الرشيد الحاسب الملقب بالبرهان ولد وعاش في بغداد واشتهر بعلم الحساب والجبر والمقابلة والهندسة والهيئة وقسم التركات . وتميز في ايام الناصر لدين الله ابي العباس احمد . فقربه الناصر واعتمد عليه باختيار الكتب التي وقفها بالرباط الخاتوني السلجوقي وبالمدرسة النظامية وبداره المسناة . وقد ولآه الناصر على خزائن الكتب في « الدار الخليفية » وكلفه ايضاً ان يختار له الكتب . ولم يزل مبشر بن

---

(١) بغية الوعاة في طبقات اللغويين والنحاة : للسيوطي : صفحة ٣٢٦

احمد على حاله في الاقراء والافادة الى ان سيره الخليفة عنه برسالة الى الملك العادل لدى مجيئه الى الموصل . فلقيه عند نصيبين او دنيسر وهناك ادركته المنون (١) .

١٥ ـ ابو جعفر عمر الدباس

كان ابو جعفر عمر بن ابي بكر بن عبيدالله الدباس من افضل ادباء زمانه وأنبغهم . ونظراً الى ثقافته العالية وجدارته العلمية أقيم خازناً لدار الكتب العتيقة في المدرسة النظامية الواقعة على شاطىء دجلة ببغداد . وقد انشأها سنة ٤٥٧ للهجرة نظام الملك حسن بن اسحق وزير السلطان ملكشاه بن ألب ارسلان السلجوقي . وتوفي ابو جعفر الدباس سنة ٦٠١ للهجرة ودفن في مقبرة باب حرب(٢)

١٦ ـ المحب الواسطي

هو عبد القادر بن داود بن ابي نصر محمد بن النقّار ابي محمد من اهل واسط المعروف بالمحب . كانت له يد باسطة في الفرائض والحساب ومعرفة الادب . وكان من الورع والمروءة والتواضع والزهادة في الدنيا على طريقة عُرف بها واشتهرت عنه . وتوفي في شهر ربيع الآخر سنة ٦١٩ بعد ما لبث خازناً لدار كتب المدرسة النظامية ببغداد مدة غير يسيرة(٣) .

١٧ ـ الشيخ عبد العزيز وابنه ضياء الدين احمد

بعدما اتم المستنصر بالله سنة ٦٣١ للهجرة بناء المدرسة المستنصرية في بغداد

---

(١) اخبار العلماء باخبار الحكماء : صفحة ١٧٧

(٢) الجامع المختصر في عنوان التواريخ وعيون السير : لابن الساعي الخازن : جزء ٩ صفحة ١٦٠

(٣) شرح « نهج البلاغة » لابن ابي الحديد : جزء ٣ صفحة ٣٨٢

عيّن الشيخ عبد العزيز لاثبات الكتب في مكتبتها . وجعل ولده ضياء الدين احمد الخازن بخزانة الكتب في قصر المستنصر خازناً لمكتبة هذه المدرسة . فقام الوالد وابنه بمهمتها خير قيام . ورتباها احسن ترتيب فنّي يسهل تناول الكتب ولا يتعب متناولها . اما المعيّنون للخدمة بخزانة كتب المدرسة المستنصرية في ذاك العهد فهم : الشمس علي بن الكتبي الخازن . والعماد علي بن الدباس المشرّف . والجمّال ابرهيم بن حذيفة المناول(١)

١٨ - ابن الساعي البغدادي (٥٩٣ - ٦٧٤ للهجرة)

هو تاج الدين عليّ بن أنجب بن عثمان بن عبد الله الرحمان بن عبد الرحيم ابو طالب البغدادي المعروف بابن الساعي . تولى خزانة كتب المدرسة المستنصرية في بغداد فساعده ذلك على الاستكثار من التأليف واكثره في التاريخ والتراجم .

قرأ ابن الساعي القراآت على العكبري وصحب ابن النجار وأخذ عنه وسمع الحديث من جماعة . وكان فقيهاً محدثاً مؤرخاً شاعراً اديباً . صنف تاريخاً كبيراً في ستة وعشرين مجلداً عنوانه « الجامع المختصر في عنوان التواريخ وعيون السير » بلغ فيه الى آخر السنة ٦٥٦ للهجرة . وله ايضاً « مختصر اخبار الخلفاء » . ويُعرف بتاريخ ابن الساعي ويتضمن تاريخ الخلفاء العباسيين فقط . وقد طبع بمطبعة بولاق في مصر (٢) .

١٩ - ابن الفوطي الصابوني (٦٤٢ - ٧٢٣ للهجرة)

هو عبد الرزاق بن احمد الصابوني المشهور بابن الفوطي اشتغل بالشعر والنثر . ونبغ في التاريخ والمنطق وفنون الحكمة والتراجم . فكان له ذهن سيّال وقلم

---

(١) الشرق : مجلد ٥ سنة ١٩٠٢ صفحة ١٦٤ - ١٦٥

(٢) معجم المطبوعات العربية والمعربة : ليوسف اليان سركيس : صفحة ١١٥

سريع وخط بديع : قيل انه كان يكتب من ذلك الخط الرائع اربعة كراريس وهو نائم على ظهره . تولى خزانة الرصد في « شماسيّة » اكثر من عشرة اعوام . ثم تحول الى بغداد وعهدت اليه وظيفة خازن كتب في المدرسة المستنصرية حتى وفاته. وقد اكب على التاريخ وصنف كتباً جديرة بالاعتبار (١) اتينا على ذكر بعضها في كلامنا عن المستنصر العباسي في فصل من فصول « غلاة الكتب وهواة المكتبات » .

٢٠ - يحيى بن عليان الخازن

كان يحيى بن عليان من علماء الشيعة ومن اكبر فقهائهم في عصره . وقد تولى خزانة الكتب بالقبر الكريم في جامع النجف الاشرف ولبث في هذه الوظيفة حتى وفاته . وجاء في « فرحة الغري » عن يحيى بن عليان انه وجد بخط ابن البرسي المجاور بمشهد الغري على ظهر كتاب بخطه قال : توجه ملك الفرس عضد الدولة بن بويه عام ٣٧١ ﻫ الى المشهد الشريف الغروي وزار الحرم المقدس . فكان مما فرقه الف درهم على الناحة (الذين ينوحون على الحسين) وثلاثة آلاف درهم على الفقراء والفقهاء (٢)

٢١ - ابو الحسن علي بن الصائغ

رُوي عن الفصيح ابي الحسن علي بن ابي الغنائم بن صالح العامري الكوفي المعروف بابن الصائغ انه اشتهر بادبه وتآليفه . وقد سافر الى بلاد الشام واجتمع هناك بعلمائها . وكان خازناً لخزانة كتب النقيب قطمير بن الحسين في مدينة الكوفة . فنهض بهذه المهمّة خير نهوض .

---

(١) مجلة المجمع العلمي العربي بدمشق مجلد ١٦ صفحة ٨٠ - ٨١

(٢) مجلة (الرسالة) بالقاهرة : سنة ٦ صفحة ١٥٤٨

٢٢ ـ جعفر الكيشوان وحسين الكتابدار

حدّث مؤلف كتاب « ماضي النجف » ان خزانة كتب الحضرة العلوية في النجف كانت محفوظة في غرفتين احداهما كبيرة والاخرى صغيرة . وكان عليهما قيّم في بدء اعارة الكتب واصلاحها وتنظيفهـــا . وذكر اسمين ممن تولوا هذه الوظيفة وهما : جعفر الكيشوان وحسين الكتابدار بن محمد علي الخادم . وخص الثاني بانه استفاد من خزانة الكتب(١) .

٢٣ ـ محمد الرفيعي

آخر مَن اتصل بنا خبره من خزنة مكتبات العراق السيد محمد الرفيعي الذي أقيم نائباً لخازن مكتبة جامع النجف . ومن آثاره المشكورة ان بعض العلماء الاعلام لما كلفوه الاشراف على غرفة الكتب في الصحن الشريف استصنع قفصاً لصيانتها . ثم نـّضد المخطوطات وأصلح ما كاد يتلف منها . وجعلها لائقة بالمقام العلوي(٢) .

---

(١) ماضي النجف : تاليف جعفر ابن الشيخ باقر آل محبوبة النجفي : صفحة ١٠٠ ـ ١٠٢

(٢) ماضي النجف : صفحة ١٠٠ ـ ١٠٢

الفصل الرابع

خزنة دور الكتب في بلاد فارس

١ ـ ابو منصور الشيرازي

هو ابو منصور بن احمد بن محمد الشيرازي عاش في القرن الرابع للهجرة وكان من جلة العلماء . وصار قاضياً في بلاد فارس في ايام عضد الدولة بن بويه . وقد ولّاه هذا الملك خزائن الكتب التي انشأها في شيراز عاصمة بلاده . وعهد اليه بالوقت نفسه تثقيف ابنه صمصام الدولة .

٢ ـ ابو محمد خازن الكتب

عاش ابو محمد في القرن الرابع للهجرة وكان خازناً لبيت الكتب في الري . وقد اثبت ياقوت الرومي اسم هذا الخازن في سياق كلامه عن الصاحب بن عباد (٣٢٦ – ٣٨٥ هـ) قال : « فلما كان وقت غروب الشمس من ليلة الجمعة المذكورة قضى (الصاحب بن عباد) نحبه . وكان ابو محمد خازن الكتب ملازماً دار الصاحب على سبيل الخدمة له . لان فخر الدولة اقامه عيناً اي رقيباً لتلك الدار وما فيها[١] » .

٣ ـ ابو الحسن علي ابن البواب

اسهبنا الكلام عن ابن البوّاب المتوفى سنة ٤١٣ للهجرة في فصل سابق

---

(١) معجم الادباء : جزء ١ صفحة ٧٠

وعن تفوقه في اجادة الخط . ونشير هنا الى توليه ادارة خزانة الكتب في شيراز كما روى هو عن نفسه قال : « كنت اتصرّف في خزانة الكتب لبهاء الدولة بن عضد الدولة بشيراز على اختياري . وكنت اراعيها له وامرها مردود الي(1) .

٤ ـ مسكويه (توفي سنة ٤٢١ للهجرة)

هو ابو علي الخازن احمد بن محمد بن يعقوب الملقب مسكويه كان مجوسياً فأسلم . وهو من نوابغ الكتّاب البارعين والمفكرين العاملين الذين يندر ظهور مثلهم في الامم . وكان له معرفة دقيقة بتواريخ الاقدمين وعلومهم والّف فيها بعض الكتب . وظل يخدم ابن العميد وزير ركن الدولة الحسن بن بويه في خوارزم حتى تولى خزانة كتبه التي كانت حافلة بشتى التصانيف . ثم صار خازناً للملك عضد الدولة بن بويه مأموناً لديه اثيراً عنده(2) .

واشتغل مسكويه بالفلسفة والمنطق فضلاً عن الادب والفقه والتاريخ . وكان له ولع خاص بالكيمياء فانفق ماله في طلب الذهب بالطبخ . ثم ندم على ذلك وتنقلت به حاله الى خدمة بني بويه فعظم شانه لديهم حتى ترفع عن خدمة الصاحب بن عباد ولم يرَ نفسه دونه . وكان شاعراً بليغاً مدح ابن العميد وعميد الملك . وصنف كتباً وافرة في التاريخ والفلسفة والادب ذكرها ياقوت الحموي في « معجم الادباء » لم يبلغنا منها الا ما يلي : كتاب « تجارب الامم » وكتاب « تهذيب الاخلاق » وكتاب « آداب العرب والفرس » وغيرها(3)

٥ ـ ابو صالح النيسابوري (٣٨٨ ـ ٤٧٠ للهجرة)

هو احمد بن عبد الملك بن علي بن احمد بن عبد الصمد بن بكر المؤذن ابو

---

(1) معجم الادباء : جزء ١٥ صفحة ١٢٢

(2) تاريخ مختصر الدول : صفحة ٣٠٦

(3) معجم الادباء : جزء ٢ صفحة ٨٨

صالح النيسابوري . كان عليه الاعتماد في الودائع من كتب الحديث المجموعة في الخزائن والموروثة عن المشايخ والموقوفة على اصحاب الحديث . فكان يصونها ويتعهد حفظها ويتولى اوقاف المحدثين ويأخذ صدقات الرؤساء والتجار ويوصلها الى ذوي الحاجات وكان يؤذن على منارة المدرسة البيهقية ويقيم مجالس الحديث . وكان اذا فرغ جمع وصنف وافاد وكتب الكثير بخطه(١) .

٦ - عزيز الدين المستوفى الاصبهاني (٤٧٢ - ٥٢٥ هـ)

هو ابو نصر احمد بن حامد بن محمد بن عبدالله بن علي بن محمود بن هبةالله الاصبهاني الملقب عزيز الدين المستوفى . ذكر ابن اخيه العماد الكاتب في كتاب « الخريدة » ان عمه عزيز الدين ولد في اصبهان وتولى المناصب العالية في الدولة السلجوقية . قصده بنو الحاجات ومدحه الشعراء فاحسن مكافأتهم . وكان في آخر امره متولياً خزانة الكتب والتحف عند السلطان محمود (٥١١ - ٥٢٥ هـ) بن محمد بن ملكشاه بن البارسلان السلجوقي . وكان السلطان محمود زوج بنت عمه السلطان سنجر بن ملكشاه . ماتت عنده فطالبه عمه بما خرج معها في جهازها من انواع التحف والغرائب التي لا توجد الا في خزائن الملوك . فجحدها محمود وخاف من عزيز الدين ان يشهد بما وصل صحبتها من التحف لانه كان مطلعاً على كل ما كانت تحويه الخزانة السلطانية . فقبض السلطان عليه وسيره الى قلعة تكريت فحبسه بها ثم قتله . رحل ذلك في سنة ٥٢٥ للهجرة(٢) .

٧ - ابو الفتح الديباجي المروزي (٥١٧ - ٦٠٩ للهجرة)

كان ابو الفتح محمد بن سعد بن محمد الديباجي المروزي اماماً عالماً جليلاً

---

(١) معجم الادباء : جزء ١ صفحة ٢١٩

(٢) ابن خلكان : مجلد ١ صفحة ٧٥ ومعجم البلدان : مجلد ٨ صفحة ٢٨٩

حسن العشرة قرأ على ابيه وعلى البقالي تلميذ الزمخشري . وله من المصنفات ما يلي : « تهذيب مقدمة الادب » و « شرح المفصل » و « فلك الادب » و « شرح الانموذج » و « منافع اعضاء الحيوان » و « القانون الصلاحي في ادوية النواحي ». ولد في محرم سنة ٥١٧ وكان ناظراً لخزانة كتب الجامع الاكبر في مرو[1] وهي اشهر مدن خراسان . ولما بلغ السنة الثانية والتسعين من عمره عثر بباب منزله فسقط على وجهه ووهن عظمه وهناً اودى به الى المنية في ١٨ صفر سنة ٦٠٩ للهجرة (١٢١٢ م)

٨ ـ ابو الفضل النشوي

هو ابو الفضل حداد بن عاصم بن بكران النشوي . كان خازناً لدار الكتب في جنزة وهي من اهم مدن بلاد فارس تقع بين شروان واذربيجان . وقد ورد اسمه في معجم البلدان لشهاب الدين ياقوت الرومي الحموي عندما اتى على ذكر نشوي[2] .

---

(١) بغية الوعاة : صفحة ٤٥

(٢) البصائر لجميل بك العظم : مجلد ١ سنة ١٩١٢ صفحة ٢٢٠

الفصل الخامس

خزنة دور الكتب في مصر

١ ـ ابو الحسن علي بن محمد الشابشتي الكاتب

(توفي سنة ٣٨٨ للهجرة)

روى ابن خلكان عن الشابشتي انه كان اديباً فاضلاً تعلق بخدمة الخليفة العزيز بالله (٣٦٥ – ٣٨٦ هـ) بن المعزّ العبيدي في القاهرة . فولاه هذا الخليفة امر « خزانة الكتب » التي انشأها بتشويق وزيره يعقوب بن كلس . ثم اتخذه نديماً وسميراً يقرأ له الكتب .

وللشابشتي ديوان شعر ومصنفات شتى اهمها كتاب « الديارات » اورد فيه اسم كل دير بالعراق وما بين النهرين والجزيرة وسوريا وفلسطين ووادي النيل . واضاف الى ذلك ما نظم من الاشعار في كل دير وما جرى فيه من الحوادث الشهيرة . ومن مؤلفاته ايضاً : كتاب « اليسر بعد العسر » وكتاب « مراتب الفقهاء » . وتوفي بمصر سنة ٣٨٨ للهجرة .

٢ ـ ابن عبد القوي

عاش ابن عبد القوي في القرن الخامس للهجرة . وكان خازناً لكتب قصر الخليفة الفاطمي في القاهرة . وقد اورد اسمه ابن الطوير قال : « خزانة الكتب كانت في احد مجالس المارستان اليوم يعني المارستان العتيق . فيجيء الخليفة راكباً ويترجّل على الدكة المنصوبة ويجلس عليها ويحضر اليه من يتولاها . وكان

الجليس في ذلك الوقت ابن عبد القوي . فيُحضر اليه المصاحف بالخطوط المنسوبة وغير ذلك مما يقترحه من الكتب . فان عنّ له اخذ شيء منها اخذه ثم يعيده(١) »

٣ ـ ابو عبدالله الطائي

هو محمد بن الحسن بن زرارة ابو عبدالله الطائي المشرف عاش في القرن السادس للهجرة وكان خازناً لمكتبة جامع الاسكندرية . وقد وصفه الحافظ ابو طاهر السِلفي قال : « هو من اهل الادب والتصرف في علوم العرب . وكان شعره قويا وهو على سرعة الاجابة جريئاً وربما غلط وهو نحوي لغوي . وكان على الاطلاق رضي الاخلاق ووجدت به أنساً مدة حياته الى حين وفاته . وحين مات انا صليت عليه وحضر في جنازته خلق عظيم . وكان مشرف البيمارستان بالثغر ومتولي الكتب المحبّسة في الجامع وله فيه حلقة لاقراء الادب . ذكره المقريزي في المقفى(٢)

٤ ـ ابو محمد حسن بن آدم

عاش في القرن السادس للهجرة . وكان على جانب عظيم من العلم والاخلاق الطيبة . وحدث انه في ايام الخليفة الآمر باحكام الله (٤٩٥ — ٥٢٤ ﻫ) طرأت فتن بين العلماء في « دار العلم » بسبب رجل يسمى ابن القصار كان يختلف الى الدار المشار اليها . وكان هذا يدّعي الالوهية وتبعه في مذهبه خلق كثير . فخشي الافضل امير الجيوش من غوغائهم وقتل ابن القصار واتباعه . وعلى اثر ذلك اقفل دار العلم التي كانت تشغل جانباً من قصر الخلافة . ثم اعاد الآمر باحكام الله هذه الدار سنة ٥١٧ ﻫ (١١٢٣ م) فشيّد لها بناية خاصة بعيدة عن قصره . ولم يرَ بين

---

(١) مجلة البصائر : مجلد ١ سنة ١٩١٢ صفحة ٢٢٢ (٢) بغية الوعاة : صفحة ٣٣

علماء مصر افضل من ابي محمد حسن بن آدم فعيّنه خازناً لخزائن الكتب في « دار العلم » الجديدة .

٥ ـ شرف الدين الميدومي

ذكر السيوطي في كتابه « بغية الوعاة » ابا عبدالله شرف الدين محمد بن ابرهيم بن ابي القاسم بن عنان الميدومي الذي كان من اشهر نحاة عصره . وقد وُلي شرف الدين خزانة كتب المدرسة الكاملية التي انشأها في القاهرة الملك الكامل ناصر الدين محمد سنة اثنتين وعشرين وستمائة للهجرة . ولم يزل متولياً عليها حتى ادركته المنية عام ٦٨٣ للهجرة(١) .

٦ ـ محي الدين الشبلي

هو محيي الدين احمد بن الحسين بن علي بن سابق بن بشارة الشبلي من افاضل علماء عصره . وقد أنيطت به عن جدارة ادارة خزانة كتب دار الحديث الاشرفية المنسوبة الى الملك الاشرف (٦٨٩ — ٦٩٣ هـ) خليل بن قلاوون في عاصمة الديار المصرية . فظل في هذه الوظيفة حتى ادركته الوفاة سنة ٧٤٤ للهجرة (٢) .

٧ ـ سعد الدين الرومي المرزباني

هو سعد الدين بن خليل بن سليمان الرومي المرزباني برع في الفقه وعلوم اللغة . ثم خلّف تصانيف جمة اهمها « شرح القصارى » في التصريف . وكان خازناً لخزائن الكتب الشيخونية في الجامع المنسوب الى الامير شيخو في الصليبة غربي

---

(١) البصائر : مجلد ١ سنة ١٩١٢ صفحة ٢٢٦
(٢) مجلة « الكشاف » في بيروت : مجلد ٢ سنة ١٩٢٨ صفحة ٥١١

الرميلة بالقاهرة . وسنة ٨١٤ للهجرة ذهب سعد الدين المرزباني قتيلاً بمدرسة رسلان بالمنشية . طعنه اللصوص بسكين في بطنه .

٨ ـ ناصر الدين محمد البارزي (توفي سنة ٨٢٣ للهجرة)

كان ناصر الدين محمد البارزي كاتب السر عند السلطان الملك المؤيد ابي النصر الشيخ المحمودي (٨١٥ – ٨٢٤ هـ) الذي بنى الجامع المؤيدي في القاهرة . وجعل السلطان في هذا الجامع خزانة كتب حمل اليها كتباً كثيرة في شتى العلوم كانت بقلعة الجبل . وتبرع ناصر الدين محمد البارزي بخمسمائة مجلد قيمتها الف دينار فأقرها السلطان بخزانة الكتب المشار اليها . ثم انعم على ابن البارزي بان يكون خطيب هذا الجامع وخازن الكتب هو وذريته من بعده[1]

٩ ـ شمس الدين المرزباني

هو شمس الدين ابن سعد الدين الرومي المرزباني المار ذكره ولي خزانة الكتب بالشيخونية بعد والده فحفظها احسن حفظ . وكان رجلاً صالحاً عالماً بالفقه والنحو واشتهر بكتابة الخط المنسوب . وقد قرأ عليه جماعة من العلماء كجلال الدين السيوطي (٨٤٩ – ٩١١ هـ) ومات سنة ٨٦٧ للهجرة[2]

١٠ ـ الشيخ موسى الشيخوني (توفي سنة ١١٩٦ للهجرة)

هو ابن داود الشيخوني عاش في القرن الثاني عشر للهجرة وتفرد بالفقه ولين الجانب وطيب الاخلاق . كان اماماً لجامع شيخون في القاهرة وخطيبه وخازن

---

(١) خطط المقريزي : جزء ٤ صفحة ١٣٦ و ١٤٠ (٢) بغية الوعاة : صفحة ٢٥٢ ـ ٢٥٣ وكتاب « نظم العقيان في اعيان الاعيان » لجلال الدين السيوطي : صفحة ١٤٩

كتبه([1]) . ولاجل ذلك تغلّب على كنيته اسم الجامع فصار يُعرف بالشيخوني . واشتهر في عصره الامير احمد باشجاويش الذي جمع في حياته كتباً جمة وضعها في خزانة كتب الوقف وحبسها على طلاب العلم . ثم ولى عليها الشيخ موسى لاعتقاده فيه الامانة والزهد والفضل .

١١ ـ خليل بن محمد المغربي (توفي سنة ١١٧٣ هـ)

هو ابو الصفا خليل بن محمد المغربي الفقيه المالكي قدم مصر وأخذ عن المتصدرين بها كالشهاب احمد بن عبد الفتاح الملوي . قرأ عليه عدة فنون وروى عنه اشهر شيوخه ودرس وبرع وافاد . وقد تولى خزانة الكتب في المؤيدية بالقاهرة فأزهرت في ايامه . وحج سنة ١١٧٣ فلما قضى حجه ورجع ادركته الوفاة في منزلة من منازل الحج المصري يقال لها اكرى ودفن بها ([2]) .

١٢ ـ محمد حافظ

هو اول من تولى خزانة الكتب في المسجد الذي عمّره محمد ابو الذهب بمدينة القاهرة ([3]) في الربع الاخير من القرن الثاني عشر للهجرة . وكان مركز هذا المسجد قريباً من الأزهر . ومن مساعيه المشكورة انه حسّن لمحمد بك ابي الذهب ان يقتني معجم « تاج العروس في شرح جواهر القاموس » في اربعة عشر مجلداً بخط المؤلف . فاشتراه ابو الذهب بمائة الف درهم ([4]) واضافه الى خزانة كتب مسجده .

١٣ ـ الشيخ محمد الجناجني الشافعي

كان الشيخ محمد بن موسى الجناجنيّ من جهابذة عصره المعدودين وامتاز

---

(١) الجبرتي : مجلد ٢ صفحة ٧٣ (٢) سلك الدرر : جزء ٢ صفحة ١٠١

(٣) مجلة « الكشاف » البيروتية : مجلد ٢ سنة ١٩٢٨ صفحة ٥١٤

(٤) تاريخ آداب اللغة العربية : جزء ٣ صفحة ٢٨٨

خصوصاً بعلم الحساب والجبر والمقابلة . وله رسالة في تحويل النقود بعضها الى بعض تدل على براعته ورسوخ قدمه في هذا العلم . وكانت له معرفة تامة في استخراج المجهولات وقسمة المواريث والحل والموازين مما انفرد به عن نظرائه . وله تآليف في فنون شتى ونسخ بخطه كتباً عديدة . وعاش حياته كلها لا يعرف العظمة ولا التصنع ولا التأنق بلباسه . وكان يذهب بحماره الى جهة بولاق حيث يشتري البرسيم ويضعه على ظهر الحمار ثم يركب فوقه . ومن عادته ايضاً انه كان يحمل طبق العجين الى الفرن على رأسه ويذهب في قضاء حاجات اصدقائه .

ولما ابتنى محمد ابو الذهب مسجداً باسمه في القاهرة كما ذكرنا آنفاً استدعى صاحب الترجمة وكلفه القيام بوظيفة خزن الكتب والتدريس في المسجد المذكور(١) . فتقيد الشيخ الجناجي بواجبات هذه الوظيفة حتى توفي مصاباً بالطاعون في اواخر القرن الثاني عشر للهجرة وصلي عليه بالازهر في مشهد حافل ودفن بتربة المجاورين .

(١) الجبرتي : مجلد ٢ صفحة ١٢٦

الفصل السادس

خزنة دور الكتب في شمال افريقيا

١ ـ ابرهيم الشيباني (٢٢٣ ـ ٢٩٨ هـ)

هو ابو اليسر ابرهيم بن احمد الشيباني وفد من بغداد وسكن القيروان ويعرف بالرياضي . عاصر من العلماء الجاحظ والمبرد وثعلباً وابن قتيبة . ولقيهم كما لقي من الشعراء ابا تمام والبحتري ودعبلا وابن الجهم ومن الكتّاب سعيد بن حميد وسليمان بن وهب واحمد بن ابي طاهر وغيرهم . وكان كاتبا بليغاً ضاربا في كل علم وادب . كتب اكثر كتبه بخط يده مع براعة خطه وحسن وراقته . ويروى عنه انه كتب على كبره كتاب سيبويه كله بقلم واحد ما زال يبريه حتى قصر . فادخله في قلم آخر وكتب به حتى فني بتمام الكتاب . وله تآليف منها « لقط المرجان » وكتاب « سراج الهدى » . وجال في البلاد من خراسان الى الاندلس وقد ذكر ذلك في اشعار له . وكان رضي الاخلاق نزيه النفس استكتبه امير افريقيا ابرهيم بن احمد بن الاغلب ثم ابنه ابو العباس عبدالله . وتوفي ابرهيم الشيباني بعد ما تولى خزانة كتب « بيت الحكمة » في ايام زيادة الله بن عبدالله آخر ملوك الاغالبة (١)

٢ ـ ابو العباس الانصاري الخزرجي

وُلد ابو العباس احمد بن عبد الرحمن بن محمد بن الصقر الانصاري الخزرجي سنة ٤٩٢ هـ بالمرية . روى عنه ابو محمد بن وهد القفاعي انه كان محدثاً مجوّداً

---

(١) نفح الطيب : جزء ٢ صفحة ١١٥

حافظاً للغة شاعراً محسناً آنق اهل عصره خطاً . كتب من دواوين العلم ودفاتره ما لا يحصى كثرةً . وتولى احكام مراكش ثم احكام بلنسية فكان بها قاضياً .

ولما صار الامر في المغرب الاقصى الى السلطان ابي يعقوب عبد المؤمن ألزم ابا العباس خدمة خزائن الكتب السلطانية . وهي وظيفة لا يعيّن لها الا عليّة اهل العلم واعاظمهم . وكانت عطايا عبد المؤمن له وافرة . وربما بلغت في المرة الواحدة خمسمائة دينار فلا يبقي لديه منها شيء بل ينفقه على المحتاجين والمساكين . ولم تكن همته منصرفة الا الى العلم فاقتنى من الكتب طائفة وافرة سوى ما نسخه بخطه الانيق . وقد نُكب مرّات شتى بكتبه غرقاً ونهباً وحرقاً عندما كان مقيماً في غرناطة بالاندلس واثناء اقامته بمراكش . ولدى سفره الى مراكش استصحب خمسة احمال من الكتب ما خلا الشيء العظيم الذي جمعه منها في تلك المدينة . وله شعر لطيف وتصانيف مفيدة تدل على سعة معارفه كشرحه على الشهاب للقضائي وغيره . وتوفي بمراكش سنة ٥٦٩ للهجرة(١)

٣ ـ فخر الدين سليمان بن نقاذة

ورد في كتاب « مجمع الآداب » ان فخر الدين بن نقاذة الدمشقي نزل ببغداد ودرس فيها الخط واتقنه . ثم فوّضت اليه عن جدارة تامة خزانة الكتب في رباط المسجد فخدمها بعلمه وامانته واصالة رأيه .

٤ ـ ابو البركات بن عصفور

كان ابو البركات بن عصفور اماماً للجامع الاعظم المعروف بجامع الزيتونة في تونس . ولما أسس ابو عبدالله محمد بن الحسن الحفصي « المكتبة العبدلية » في

---

(١) كتاب (المعجب) للمراكشي طبع مصر

فجر القرن العاشر للهجرة أفرز لها الرواق الشرقي من الجامع المذكور وزيّنها بنفائس المخطوطات . وحبس عليها اوقافاً كافية واقام نظاراً يتولون شؤونها ويسهّلون سبل الانتفاع بها . وبعد هذا فوّض امرها الى ابي البركات بن عصفور فجعله خازناً عليها لِما اختبره به من سعة المعارف وحسن التدبير(١)

٥ ـ الشريف الحسين بن ثابت

هو ناظر خزانة كتب القرويين بحاضرة فاس ومسجل الكتب العديدة النادرة التي حبستها على الخزانة المنوه بها السيدة الشريفة فاطمة بنت السلطان مولاي الحسن (١٢٩٠ ـ ١٣١١ ه) عمة مولاي السلطان محمد بن يوسف . واليك نص التحبيس المذكور :

« الحمد لله لما ان كانت الشريفة الجليلة عمة مولانا المنصور بالله حبست كتباً علمية على خزانة القرويين وعددها مائتا جزء بالتثنية وثلاثة وسبعون جزءاً لاجل الانتفاع بها . وجهتها الوزارة الوقفية ادام الله عزها لناظر القرويين حينه الشريف الاجل سيدي الحسين بن ثابت . وامرته بالكتب على كل جزء منها تحبيسه على الخزانة المذكورة عدلياً وبدفعها للقيم بالخزانة المذكورة بعد الاشهاد عليه (٢) . فنهض الشريف بن ثابت نهوضاً مشكوراً بتلك المهمة طبقاً لنية صاحب التحبيس ووفقاً لتفويض وزارة الوقف

---

(١) المجلة الزيتونية : مجلد ١ سنة ١٩٣٧ صفحة ٣٠٤

(٢) الدرر الفاخرة : صفحة ١٦٨ ـ ١٦٩

الفصل السابع

خزنة دور الكتب في الاندلس

١ ـ تليد الخصي

ولّى الخليفة الاموي المستنصر بالله الحكَم الثاني (٣٥٠ – ٣٦٦ هـ) امر خزانة الكتب التي انشأها في قرطبة عاصمة ملكه . لانه وجد فيه الحصافة والعلم والامانة للنهوض بهذه الوظيفة الخطيرة . قال الحافظ ابو محمد بن حزم : « اخبرني تليد الخصي فتى المستنصر وكان على خزانة العلوم والكتب بدار بني مروان ان عدد الفهارس التي فيها تسمية الكتب اربع واربعون فهرست . في كل فهرست عشرون ورقة ليس فيها الا ذكر الدواوين(١) » . وقد ذكر ابن خلدون هذه الرواية عينها انما اطلق على تليد الخصي صاحب الترجمة اسم « بكية الخصي »(٢) .

٢ ـ ابن شقرال الطرسوني

وُلد ابن شقرال في طرسونة من اعمال اسبانيا وهي تبعد اثنين وخمسين ميلًا عن مدينة سرقوسة الى غربي شمالها الغربي . واستولى عليها العرب في السنة ٩٤ للهجرة فكانت من حصونهم يسكنها العمال والمقاتلة منهم . وظلت في حوزتهم حتى تغلّب عليهـــا الافرنج سنة ٥١١ للهجرة و ١١١٨ م . كان ابن شقرال الطرَسوني من مشاهير علماء الاندلس في عصره وخلّف مؤلفات شتى . وقد تولى عن جدارة تامة خزانة الكتب السلطانية في غرناطة الى ان ادركته المنية(٣) .

---

(١) نفح الطيب: جزء ١ صفحة ١٨٤

(٢) ابن خلدون : جزء ٤ صفحة ١٤٦

(٣) الاحاطة في اخبار غرناطة : تاليف لسان الدين الخطيب

الفصل الثامن

خزنة دور الكتب في اليمن والحجاز

١ ـ احمد بن لطف الله جحاف (١١٦٩ ـ ١٢٢٣)

وُلد صاحب الترجمة بصنعاء اليمن ونهض بوظيفة الأذان ردحاً من الزمان وأحيا لياليه بالعبادة . وكان عفيف اللسان محباً للخير ذا حافظة واسعة متضلعاً من التاريخ . ونسخ بخطه لنفسه ما اناف على ستين مجلداً ضخماً من كتب الحديث وتواريخ الامم . وخلف آثاراً ادبية من جملتها ديوان شعر افرغه في قالب منسجم .

وأفضل ما يؤثر عن احمد جحاف ان المنصور علي امام اليمن اناط به ادارة خزانة الكتب في جامع مدينة صنعاء . فاحرز في تلك المهمة مكانة عالية وأثنى الجميع على علمه وعلى سجاياه الرضية . وقد جاور ربهُ في ٣ ذي الحجة سنة ١٢٢٣ للهجرة (١٨٠٨ م (١) .

٢ ـ قطب الدين الحنفي

عاش قطب الدين الحنفي في القرن العاشر للهجرة . ومن مخلفاته العلمية «تاريخ مكة» الموسوم بعنوان «الاعلام باعلام بيت الله الحرام» وقد تولى قطب الدين خزانة الكتب الجليلة التي رقفها الملك الاشرف قايت باي (٨٧٢ — ٩٠١ هـ) سلطان مصر على طلبة العلم في مكة المكرمة . فاحسن ادارتها وجلّد منها ما كان محتاجاً الى التجليد . واستعاد بعض ما عثر عليه من الكتب المفقودة في عهد خازنها السابق ورتبها في رفوفها ترتيباً محكماً(٢) .

---

(١) نيل الوطر من تراجم اليمن في القرن الثالث عشر : تأليف جمة محمد زباره الحسني اليماني : جزء ١ صفحة ١٨٠

(٢) الاعلام باعلام بيت الله الحرام : صفحة ١٠٤

الفصل التاسع

خزنة دور الكتب في الهند

١ - الشهاب احمد الهندي (توفي سنة ٩٣٨ هـ)

اشتغل الشهاب احمد بالعلوم العقلية والنقلية وبرع فيها . ثم انخرط في سلك المقرّبين لدى داود وزير اسكندر شاه سلطان دلهي . فلازمه مدة سبع سنوات افرغ خلالها كل جهد في تثقيف اولاده . فلم يرَ الوزير الا ان يكافىء هذا الاستاذ النشيط على اتعابه وامانته . فسلّمه خزانة كتبه النفيسة وولاه ادارة شؤونها .وقد تقلب عنده في عيش رغد حتى لاقى منيّته سنة ٩٣٨ للهجرة[١] .

يروى عن هذا الوزير انه كان شديد الولع بجمع الكتب فخصص مبالغ وافرة من امواله لجمعها وشرائها . فكان يرسل اتباعه الى البلدان المجاورة والبعيدة لأحرازها وضمها الى ما لديه من النفائس الكتابية . هكذا تجمع لديه منها ما لا يحصى عده ثم اوعز الى الشهاب احمد ان ينظمها طبقاً لمواضيعها في جناح خاص من قصره . فقام هذا بمهمته خير قيام حتى اصبحت تلك الخزانة من اغنى المكتبات في الاصقاع الهندية .

---

(١) اعلام النبلاء بتاريخ حلب الشهباء : جزء ٥ صفحة ٤٩٦

الباب الحادي عشر

خزنة مكتبات اوروبا واميركا الشرقيون

الفصل الاول

تفوق ابناء الشرق في مكتبات الغرب

أثبتنا في ما سبق اسماء خزنة دور الكتب في عصر الارتقاء العربي واضفنا اليها موجزاً من مآثرهم العلمية . والآن لا نرى مندوحة عن ان نردف ذلك الباب بباب آخر يتضمن تراجم الخزنة الشرقيين الذين تولوا عن جـــدارة تامة ادارة بعض المكاتب الشهيرة في عواصم اوروبا واميركا . لان هؤلاء الجهابذة عزّزوا مقام الشرق في الغرب حيث تجلت مواهبهم العقلية واهتدى الباحثون بمشكاة ثقافتهم اللامعة . فكانوا سبب مباهاة لبني وطنهم بل موضوع ثقة واعجاب لروّاد العلم في الاقطار الغربية . وحسبهم فخراً انهم برهنوا للعالم اجمع على ان الشرقي لا يقلّ كفاءة عن الغربي لا في اقتباس العلوم وضبطها فقط بل في تولي اهمّ المنـاصب واشرفها . ولاسيا تلك التي يسترشد بها الخاصة والعامة في تغذية عقولهم بالبان العلوم والآداب .

ذلك ما دعانا الى التنويه بذكر الخزَنة الشرقيـين لدور الكتب في اوروبا واميركا والاشادة بفضلهم الخالد الذي يقدسه الخلف حقباً بعد حقب . واليـك تراجم من اتصلت بنا اسماؤهم نرويها اعترافاً بخدمهم الشريفة للعلم والعلماء وهم :

الفصل الثاني

خزنة المكتبة الواتكانية

١ ـ يوسف شمعون السمعاني (١٦٨٧ ـ ١٧٦٨)

للسمعاني اللبناني مقام رفيع وذكر مجيد لدى الشرقيين والغربيين يجلونه ويرددونه منذ اكثر من قرنين حتى الآن . وهم قاطبة يعجبون من اعماله ومشاريعه ويستفيدون من نقوله وتصانيفه البالغة حدّ الكثرة . وهو فيما نعهد اول مستشرق تحرّى كشف النقاب عن التواريخ الشرقية والف فيها كتباً جمة عربية وسريانية ولاتينية ويونانية .

وُلد السمعاني في طرابلس الشام (لبنان) وتوجه الى رومية في التاسعة من سنّه وتلقى العلوم في المدرسة المارونية هناك . وكان اول ما اشتهر به هذا العلامة ان البابا اقليميس الحادي عشر (١٧٠٠ – ١٧٢١) اقترح عليه ان ينشىء فهرساً شاملاً لكتب خطّية قديمة العهد بعث بها الى رومية نسيبه الخوري الياس السمعاني . فنهض يوسف بالعمل خير نهوض وهو لم يتجاوز ثلاثاً وعشرين سنة . وفي السنة ١٧١٥ زار لبنان وسوريا ومصر وجمع ما تقادم عهده من المخطوطات العربية والقبطية والسريانية وعاد بها الى رومة . فنصبه البابا اقليميس الثاني عشر (١٧٣٠ – ١٧٤٠) في ٢٩ تشرين الاول ١٧٣٠ اميناً ثانياً للمكتبة الواتكانية التي تعدّ اليوم اقدم مكاتب الدنيا . وما عتم ان قلده عام ١٧٣٩ منصب امين اول فيها . فابدى السمعاني في منصبه هذا من الهمة والخبرة والكفاءة ما سجل له في بطون الصحف تذكاراً خالداً . هكذا ظل السمعاني يزاول اعمال منصبه الشريف ثماني وثلاثين سنة حتى حضرته الوفاة في ١٣ كانون الثاني ١٧٦٨ بالغاً الحادية والثمانين .

واهم مؤلفات السمعاني «المكتبة الشرقية» في اربعة مجلدات ضخمة . أحصى فيها تصانيف كتبة العرب واليونان . وسرد نتفاً من اخبارهم مما كان مجهولاً حتى ذاك العهد . وتُحسب هذه المجموعة النفيسة مرجعاً لكل باحث في الآداب الشرقية . ومن تصانيف السمعاني الوافرة نذكر خصوصاً تأليفه في سوريا القديمة والحديثة في تسعة كتب . والتاريخ الشرقي في تسعة كتب ايضاً . الى غير ذلك من التآليف العربية الدينية والتاريخية والقانونية التي ما برحت تتداولها الايدي الى اليوم . كما ان الالسن تتناقل ذكرى السمعاني الكبير لما اداه من الخدم المشكورة للعلم والعلماء شرقاً وغرباً (١) .

وقد شُيّد للسمعاني في احدى ساحات حصرون وطن اسرته تمثال جميل تنويهاً بفضله وتخليداً لذكره . وجرى لذلك في ٢١ تشرين الاول سنة ١٩٢٨ مهرجان عظيم شهده خلق كثير في مقدمتهم رئيس الجمهورية اللبنانية وسائر رؤساء الدنيا والدين .

٢ ـ اسطفان عواد السمعاني (١٧٠٩ ـ ١٧٨٤)

هو ابن اخت العلامة يوسف شمعون السمعاني اللبناني ابصر النور عام ١٧٠٩ في حصرون . ولما بلغ الحادية عشرة توجه الى رومة واكب على اقتباس العلوم في المدرسة المارونية فنبغ فيها واحرز شهادة الملفنة . ثم عيّن مسجلاً في المكتبة الواتيكانية تحت ادارة خاله . وما مرّ على ذلك زمان يسير حتى اقبل الى لبنان وساح في بلاد سوريا وما بين النهرين والقطر المصري يبحث عن الآثار والمخطوطات الشرقية . ثم توجه الى اوروبا وطاف بلاد فرنسا وانكلترا وبعد رحلته هذه عاد الى رومية .

---

(١) لخصنا هذه الترجمة نقلا عن سجل خزانة مار بطرس الكبرى صندوق ٢٢ اضمامة ٢٧٧ كما ورد ذلك في (برنامج اخوية القديس مارون) لمؤلفه يوسف خطار غانم : صفحة ١٠٥ و ١١٣

وفي السنة ١٧٣٦ أرتقى الاب اسطفان عواد الى الرتبة الاسقفية على حماة . وعلى اثر وفاة يوسف السمعاني عام ١٧٦٨ نُصب السيد عواد خلفاً له وسمي اميناً للمكتبة الواتيكانية . فنهج نهج خاله في خدمتها وتنظيمها واكمال ما كان ينقصها . وافرغ الجهود الطيّبة في تأليف كتب دينية وطقسية وتاريخية . وعُني بترجمة فهرس مخطوطات الكردينال شيجي ونشرها بالطبع عام ١٧٦٤ . واشتغل السيد اسطفان ايضاً في فهرست الكتب الشرقية المحفوظة في المكتبة المديسية بفلورنسا . وقد عدّد المطران يوسف الدبس في كتابه « تاريخ سوريا » تآليف صاحب الترجمة فنحيل القارىء الى مطالعتها في الكتاب المذكور (١) وظل السيد عواد اميناً للمكتبة الواتكانية نحو سبع عشرة سنة حتى وافاه الاجل في ٢٤ تشرين الثاني ١٧٨٤

٣ ـ نعمةالله عواد (١٨٧١ ـ ١٩٣٣)

هو ابن الشيخ راجي عواد ولد سنة ١٨٧١ في حصرون بلبنان وتلقى العلوم العالية في عاصمة الكثلكة . ونظراً الى خبرته ببعض اللغات الشرقية والغربية عينه الحبر الاعظم خازناً في جملة خزنة المكتبة الواتيكانية . فخدم هذا المنصب بنشاط وامانة نحو ثلاثين سنة . وقد خلف صاحب الترجمة في هذه المكتبة آثاراً مشكورة ولاسيا في القسم الشرقي منها . وفي السنة ١٩٣١ نصبه البطريرك الماروني وكيلاً عنه في رومة فقام باعباء الوظيفتين خير قيام حتى وافته المنية عام ١٩٣٣ في العاصمة المذكورة . اما مؤلفاته فلم تزل غير مطبوعة وقد اوصى بها لمكتبة كرسي البطريركية المارونية في بكركي بجبل لبنان .

---

(١) تاريخ سوريا : مجلد ٨ عدد ١٠٧٨ صفحة ٥٦٨ ـ ٥٧٠

الفصل الثالث

خزنة مكاتب اسبانيا

١ – ميخائيل الغزيري (١٧١٠ – ١٧٩١)

ولد ميخائيل الغزيري سنة ١٧١٠ في طرابلس الفيحاء وتلقى العلوم في المدرسة المارونية برومة . ولما جاء العلامة يوسف سمعان السمعاني الى لبنان عام ١٧٣٦ لعقد المجمع اللبناني استصحبه معه وقلده وظيفة « لاهوتي » في ذلك المجمع . وفي السنة ١٧٣٨ عاد ميخائيل الى مركزه في رومة حيث تولى تدريس اللغتين العربية والسريانية والعلوم العالية .

وفي السنة ١٧٤٨ شخص الى اسبانيا بدعوة من ملكها فردينند السادس (١٧٤٦ – ١٧٥٩) فعينه في مكتبة مدريد الملكية . فقام ميخائيل بهذه المهمة خير قيام . ثم سمي عضوا في الجمعية الملكية التاريخية (١) في عاصمة اسبانيا . ونظرا لسعة معارفه وفرط امانته نال سنة ١٧٥٦ لقب « امين مكتبة الاسكوريال » فخدمها خدما جُلى . واستدعى اليه اثناء ذلك صديقه بولس خضر من رومة فرتب معه مخطوطات الاسكوريال العربية ووصفها وصفاً مستوفى . ثم نشر الفهرس المذكور بين السنة ١٧٦٠ و ١٧٧٠ في مجلدين يحتوي اولها على ٥٩٢ صفحة وثانيها على ٥٦١ صفحة وسمي هذا الكتاب Bibliotheca Arabico-Hispana Escu-rialensis (٢) وقد ادركته المنون في ١٢ اذار ١٧٩١ بالغا السنة الحادية والثمانين

---

(١) Academie Royale d'Histoire

(٢) راجع ترجمة ميخائيل الغزيري في مجلة « المنارة » المطبوعة في جونية : مجلد ٧ صفحة ٢٦ و٢٧ سنة ١٩٣٦

٢ ـ الياس شدياق دب (١٧٥١ ـ ١٨١٨)

هو اليـاس بن فرج‌الله بن ابرهيمشاه بن موسى شدياق دب . وُلد عام ١٧٥١ وفي السنة ١٧٦٦ سافر الى رومـة ليتلقى العلوم في مدرسة بروبغنـدا الشهيرة فكان من نوابغ تلامذتها . وبعد فراغه من تحصيل المعارف آثرالاقامة في اوروبا ليتسع له مضمار العمل في خدمة الشرق والآداب الشرقيـة . فاكب على التدريس وانشأ لنفسه مكتبة حافلة بنفائس المخطوطات والمطبوعات يستعين بها على المطالعة والتأليف . لانـه كان بارعاً بالالسنة العربية والسريانيـة واللاتينية واليونانية والايطالية والاسبانية .

واول مرحلة اجتازها الشدياق في حقل التعليم كانت عام ١٧٨١ في قصر سفارة دولة النمسا بالقسطنطينية . وقد لبث هناك اعواماً يدرّس بعض المستشرقين آداب اللغة العربية نذكر منهم السنيور شترمو(١) .

وما نمي خبر تفوقه في العلوم واللغات الى كرلوس الرابع (١٧٨٨ـ ١٨٠٨) ملك اسبانيا حتى استدعاه اليـه ونصبه ترجماناً لدولته . ثم اقامه خازناً لمكتبة مدريد الملكية التي خدمها الشدياق الى تاريخ وفاته بامانة واجتهاد . فنال ثقـة اولياء الامور واحترام جميع الذين عرفوه . وقد سهّـل له ذلك سبيـل التردد الى البلاطين الملكيين في اسبانيا ونابولي والتعرّف الى الاسرتين المالكتـين اللتـين كانتا توقران فيه الفضيلة والعلم(٢) .

والى الشدياق يرجع الفضل في ما احرزه دير الشرفة بلبنان على اثر تأسيسه من المساعدات المالية والتحف الثمينة من سخاء كرلوس الرابع وزوجتـه الملكة ماري لويز . وتقـديراً لفضله نصب له الدير المذكور في قاعة مكتبته رسماً زيتياً نقش عليه باللغة اللاتينية ما تعريبه : « الياس شدياق تلميذ مدرسة بروبغندا وخازن مكتبة مدريد الملكية . توفي سنة ١٨١٨ »

---

(١) مجموعة رسائل الياس شدياق في مخطوطات دير الشرفة بلبنان .

(٢) مخطوطات دير الشرفة : جزء ١٣ .

الفصل الرابع

خزنة مكتبة الامبروزيانا ومكتبات انكلترا

١ ـ المطران اسحق الشدراوي ١٥٨٩ ـ ١٦٦٥

طالعنا في المكتبة الشرقية(١) ترجمة هذا العلامة الذي ينتسب الى شدرا وهي قرية في قضاء عكار . وبعد تحصيله العلوم في المدرسة المارونية (١٦٠٣ — ١٦١٨) رقاه المطران جرجس عميرة سنة ١٦٢٠ الى درجة الكهنوت وجعله رئيس كهنة بيروت . وفي ٢٥ اذار ١٦٢٥ اقيم مطراناً على طرابلس التي خدمها حتى وفاته.

وفي السنة ١٦٦٠ ارتحل الى فرنسا ليطلب من ملكها لويس الرابع عشر رتبة قنصل للشيخ ابي نوفل الخازن . ولهذا الاسقف آثار كتابية عددها بعض المؤرخين(٢)

وبلغ مسمعي الكردينال بوروماوس ما تحلى به اسحق الشدراوي من المزايا العلمية . وكان هذا الكردينال قد انشأ سنة ١٦٠٩ مكتبة عظيمة في مدينة ميلانو سمّاها المكتبة الامبروزيانية . وضم اليها طائفة كبيرة من المخطوطات العربيـة النفيسة التي التقطها من بلاد فارس وجزيرة العرب ومصر وطرابلس الغرب والجزائر والمغرب الاقصى وغيرهـا من الاقطار الاسلامية . وروى دي لاروك الرحّالة الفرنسي ان الكردينال المشار اليه استدعى الشدراوي وكلفه بتنظيم تلك المكتبة الشهيرة(٣) وهو منصب لا يتقلده الا من كان ذا ثقافة عالية ومزايا فريدة .

٢ ـ حبيب سلموني (١٨٦٠ ـ ١٩٠٤)

ينتمي حبيب بن انطون بن حبيب بن لطف الله سلموني الى اسرة نشأت في جزيرة

---

(١) المكتبة الشرقية : للسمعاني : مجلد ١ صفحة ٥٥٢

(٢) الجامع المفصل : للمطران يوسف الدبس : صفحة ٣٧٣ ـ ٣٧٤

(٣) تاريخ سوريا : مجلد ٧ عدد ١٠٢٤ صفحة ٣٢٠

اقريطش (كريت) ثم نزحت الى لبنان في اواخر القرن السابع عشر . وُلد حبيب سنة ١٨٦٠ في بيروت وتلقى العلوم في المدرسة البطريركية على عهد كبير اساتذتها الشيخ ابرهيم اليازجي . وسافر سنة ١٨٧٨ الى لندن وتعرف باللورد روزبري وغيره من نبلاء الانكليز . واصدر هناك سنة ١٨٩٢ جريدة « ضياء الخافقين » التي لعبت دوراً مهماً في عالم الادب والسياسة . وانتظم بين اعضاء الجمعية الملكية الشرقية بلندن . وساعد السر ريشار برتون في ترجمة كتاب « مجنون ليلى » ووضع معجمين كبيرين احدهما عربي انكليزي والاخر انكليزي عربي . ونشر كتباً شتى نذكر منها كتاب Resurrection of Turkey روى فيه احوال الدولة العثمانية واسباب هبوطها . واشتهر بمقالاته في صحف انكلترا المعتبرة اخصها مجلة « القرن التاسع عشر » التي ندر ان تفرغ مجالا على صفحاتها الا لكاتب اشتهر بفضله وصدقه (١)

وكان حبيب سلموني يتردد مرارًا على خزائن كتب المتحف البريطاني يطالع ويبحث وينسخ بيده بعض المخطوطات العربية . فلفت اجتهاده انظار اولياء ذلك المعهد الكتابي فأعجبوا بادبه وسعة معارفه . واقاموه خازناً بين خزنة القسم الشرقي من تلك الخزائن لتضلعه من الالسنة الشرقية فضلا عن اتقانه اللغات الانكليزية والفرنسية والايطالية . وظلّ يشغل هذه الوظيفة منذ السنة ١٨٩٣ حتى السنة ١٩٠٤ وفيها لاقى منيته . وما برح ذلك المتحف البريطاني يحفظ للاستاذ حبيب سلموني تذكاراً طيباً .

٣ ـ الدكتور الفنس منكنا (١٨٧٩ ـ ١٩٣٧)

هو هرمز منكنا من الطائفة الكلدانية . ولد سنة ١٨٧٩ في قرية شرانش بجوار الموصل . وفي الثانية عشرة من سنه دخل مدرسة الآباء الدومنكيين في

(١) تاريخ الصحافة العربية : جزء ٤ صفحة ٣٨٢ و٣٨٣

المدينة المذكورة فكان مثال الجد والاجتهاد بين اقرانه . وقد واصل دروسه حتى انجز الفلسفة واللاهوت واحكم اللغات العربية والسريانية والفرنسية واللاتينية والانكليزية . وفي السنة ١٩٠٢ صار كاهناً كلدانياً باسم « القسيس الفونس منكنا » وتولى التعليم ستة اعوام في اكليريكية الدومنكيين المشار اليها .

وكان القسيس الفونس لا يفتر اثناء ذلك من البحث عن المخطوطات القديمة وينشر ما يراه منها مفيداً . فنشر سنة ١٩٠٥ في مجلدين ميامر نرساي البالغة ٤٧ ميمراً الحقهابعشر قصائد . ثم نشرعام ١٩٠٧ تاريخ « مشيحا زخا » مع ترجمة افرنسية واشترت منه الجمعية العلمية ببرلين نسخة المخطوط الاصلي بمبلغ مائة وخمسين ليرة عثمانية ذهبية . ثم نشر ميمراً في تقريظ سبريشوع ضم اليه عام ١٩٠٨ تاريخ يوحنا بن فنكايا . ونشر غراماطيقاً سريانياً باللغة الفرنسية

وفي السنة ١٩١٣ زايل وطنه متوجهاً الى اوروبا . فاستقر في انكلترا حيث لقي حظوة كبيرة لدى علماء الاستشراق الذين قدروا منزلته الادبية . وما عتّم ان عُين اميناً لمكتبة ريلاند في منشستر ثم اميناً للقسم الشرقي من مكتبة جامعة برمنجهام التي تشتمل على الفي مخطوطة عربية . وقد سافر الفنس الى بلدان الشرق الادنى والشرق الاوسط على نفقة المستر كدبوري لجمع المخطوطات النادرة . وبتاريخ ٢٥ نيسان ١٩٣٢ اجري الاحتفال رسمياً بافتتاح الخزانة الجديدة لتلك النفائس الشرقية برئاسة الأرل كروفرد بكاريس .

ونظراً الى شهرة الفنس العلمية دُعي ليرئس الدائرة الشرقية في جامعة شيكاغو فاعتذر لدواعٍ خصوصية . واخر منصب علمي تولاه كان مدير دائرة اللغات الشرقية في خزانة كتب جان راينولدز في منشستر . ومكتبة راينولدز هذه عظيمة الشأن تحتوي على مليون من الكتب المطبوعة والمخطوطة . وامتلك الدكتور منكنا خزانة خاصة به حوت الفين وستمائة مخطوطة كان يباهي بها افخم مكتبات اوروبا .

الفصل الخامس

خزائن مكتبات القسطنطينية

١ - نيقيطا

انصرف قياصرة الروم في القسطنطينية منـــذ قديم الزمان الى انشاء المكتبات والمتاحف في عاصمة سلطنتهم . وضموا اليها الشيء الكثير من الصكوك والمخطوطات والوثائق الشرقية اذ كانت المواصلات مستمرة بينهم وبين دولة العباسيين وغيرها من دول المشرق . وقد المحنا الى بعض ذلك في غير هذا الفصل .

ومن دواعي الافتخار ان اولئك القياصرة عهدوا الى نفر من العلماء ذوي الاطلاع الواسع باللغات الشرقية في تنظيم مكتباتهم وصيانتها وادارة شؤونها . يؤيد ذلك ما رواه التاريخ عن جهبذ لبناني تولى مكتبة تلك العاصمة في القرن الثالث عشر كما اثبت البطريرك اسطفان الدويهي الماروني قال (١) :

« في عهد البابا غريغوريوس العاشر (١٢٧١ - ١٢٧٦) ... اشتهر نيقيطـــا الماروني وكان حافظاً رستاق (٢) المكتبة في القسطنطينية . وصنف خمسة كتب في تثبيت انبثـاق الروح القدس من الآب والابن » . ثم روى الدويهي نفسه ان نيقيطا ارتقى الى اسقفية تسالونيقي وان ميخائيل فاليولوغ الثامن ملك الروم (١٢٥٩ - ١٢٨٢) درس كتبه و كتب غيره من علماء الدين درسا مدققا . فاذعن الملـك لرأي البيعة ثم جمع شهادات اضافها الى ما جمعه من كتب نيقيطا . وقد ضمّنها كلها براهين سديدة تأييدا لتصانيف نيقيطا المشار اليها .

---

(١) منارة الاقداس : للبطريرك الدويهي : جزء ٢ صفحة ٨٧ و٨٨

(٢) يراد بالرستاق في اصطلاح العامة : التنظيم والترتيب

وروى بعض المؤرخين ان نيقيطا تولى رئاسة اسقفية نيقومدية (١) . فترجح انه انتقل الى رئاسة اسقفية هذه المدينة من اسقفية سالونيقي نظراً الى كفاءتـــه ورافر علمه .

٢ ـ ملا لطفي

هو لطف الله الطوقاتي نسبة الى طوقات مدينة في آسيا الصغرى وُلد فيها ودرس عـــلى استاذيه القوشجي وسنان باشا السرعسكر العثماني . فتولى خزانة الكتب السلطانية بعاصمة الخلافة في عهد السلطان محمد الثالث (١٠٠٣-١٠١٢هـ) (٢) ونُصب بعد ذلك استاذاً لمدرسة بروسة ومنها تنقل الى مدينـــة ادرنة فالاستانة . وفي آخر ايامه عاد الى بروسة وفيها قضى نحبه في اوائل القرن الحادي عشر للهجرة .

وخلّف مُلّا لطفي من التصانيف كتاب « المطالب الالهية » في موضوعـات العلوم قدمه هدية الى السلطان المشار اليه . ولهذا المخطوط نسختـان احداهما في المتحف البريطاني والثانية في خزانة كتب فيـنّا . ومن تآليفه ايضاً رسائل وكتب عديدة مختلفة المواضيع نذكر منها : رسالة « تضعيف المذبح » في تاريخ افلاطون طبعت عام ١٨٢٧ في ليـدن . وكتاب « شرح المواقف » في علم الكلام للايجي طبع في الاستانة سنة ١٢٣٩ للهجرة(٣).

---

(١) تاريخ الانشقاق للمطران جراسيموس مسرة : جزء ٢ صفحة ١٨٠

(٢) ابدع ماكان في صور سلاطين آل عثمان لناشره سليم فارس الشدياق : صفحة ١٣

(٣) الشقائق النعمانية : صفحة ٣١٣ وكتاب « آداب اللغة العربية » مجلد ٣ صفحة ٢٣٨

الفصل السادس

خزنة مكاتب اميركا

١ ـ الدكتور فيليب حتي

هو احد النوابغ اللبنانيين في القرن العشرين ولد في شملان احدى قرى الشوف بلبنان . وتلقى العلوم منذ حداثته في الجامعة الاميركية في بيروت . ثم عُيّن فيها استاذاً لعلم التاريخ فنهض بهذه المهمة نهضة مشكورة . وكافأته جامعة كولمبيا فمنحته عام ١٩١٦ لقب دكتور في الفلسفة تقديراً لنبوغه .

وفي السنة ١٩٣٦ استدعته جامعة برنستون في الولايات المتحدة ليتولى فيها تدريس آداب اللغات السامية . وفي الوقت ذاته نصبته قيّماً على مكتبتها العربية التي جهزها بانفس الكتب المطبوعة في اوروبا ومصر ولبنان وسوريا . وهي تعدّ بكل يقين اعظم المكاتب العربية في العالم الجديد بمطبوعاتها العربية التي عني هو بجمعها وترتيبها . ويربو عددها الآن على خمسة آلاف مخطوط كما روينا ذلك في فصل سابق . وبياناً لفضل الدكتور فيليب حتي نثبت فقرة من مقالة نشرتها جريدة « الهدى » في نيويرك قالت : « ابرز شخصية بيننا في حقل العلم والتهذيب هو الاستاذ فيليب حتي استاذ التاريخ والآداب الشرقية في جامعة برنستون الشهيرة . ويسرنا ان شهرته تزداد ونفوذه يتسع في الدوائر العلمية والتهذيبية وان العلماء في شتى الفروع اصبحوا يرجعون اليه كثقة ويأخذون عنه .

« لا نستبعد ان يكون لمواطننا الدكتور حتي في مجال التنقيب في العلوم

الشرقية وترقيتها في هذه البلاد ما كان قبله لمواطننا الآخر العلامة السمعاني الذي يسلم المستشرقون جميعاً بانه كان واضع اساس ومنظم هذا الفرع من العلم. ومنزلته في ذلك منزلة الرئيس ابن سينا في الطب. ويسرنا ان يكون الدكتور حتي قد اقيم قهرماناً على مكتبة المخطوطات العربية النادرة في جامعة برنستون. وهو دائب في استخراج كنوز هذه المخطوطات وقد حرّر بعضها وابرزه مطبوعاً ولا يزال بين يديه الكثير مما هو معد للظهور».

وقد وضع الدكتور فيليب حتي سنة ١٩٣٩ بالاشتراك مع الاستاذين نبيه امين فارس وبطرس عبدالملك فهرساً علمياً لمخطوطات جامعة برنستون المشار اليها. فوصفوا فيه اربعة آلاف وخمسمائة مخطوط عربي بينها ما هو مكتوب بيد المؤلفين او عليه اجازة بخطهم. وبينها ما يرتقي عهد نسخه الى المؤلف نفسه. ومنها ما هو مدبج بحواش وتعاليق وهوامش اثبتها كبار العلماء وائمة اللغة. ومنها ما هو وحيد من نوعه بل ليس له نظير في جميع خزائن الكتب شرقاً وغرباً.

وبلغ عدد صفحات هذا الفهرس سبعمائة واربعين صفحة مطبوعة طبعاً متقناً باللغتين العربية والانكليزية. ومن تصفحه بامعان اتضحت له الجهود الجبارة التي صرفها الدكتور فيليب حتي ومعاوناه في اخراج هذا السفر النفيس اعلاء لشأن العلوم العربية في العالم الجديد. وهي خدمة جُلى يشكره عليها علماء المشرقيات وكل من نطق بالضاد.

الباب الثاني عشر

غلاة الكتب وهواة المكتبات المسلمون

الفصل الاول

مشاهير هواة الكتب في القرن الثاني للهجرة

لم يكن الافراد اقل اهتماماً من الملوك والامراء بجمع الكتب وانشاء المكتبات للمفاخرة بها او لجعلها وقفاً على المطالعة والمراجعة · فانه قام في كل عصر اعلام من العلماء والوزراء واهل الوجاهة والثراء رفعوا لواء المعارف عالياً بما كنزوه من الاسفار وانفقوه من المال لاجل اقتنائها .

وبلغ الشغف من غلاة الكتب انهم يحرصون عليها من التلف حرصهم على الدرر الغوالي . ولسنا نبالغ اذا قلنا انهم كانوا يتباهون بها ويجعلونها من احاسن الزينة في قصورهم وانديتهم . وهذا الشغف بجمع الكتب قديماً وحديثاً يشبه شغف جمّاعي الصور النفيسة والعاديات الاثرية والرياش الفاخر والطوابع البريدية والاسلحة القديمة وسائر التحف النادرة في عصرنا الحاضر . وقد روى لنا التاريخ اخبار طائفة صالحة من غلاة الكتب وهواة المكاتب بحيث لو شاء المرء احصاءهم ووصف شيء من احوالهم لاقتضى ذلك مجلدات برأسها . انما لا نرى مندوحة عن سرد اسماء مشاهيرهم في عصر الارتقاء العربي وبعده تخليداً لفضلهم واعترافاً بجهودهم وحثاً لكل اديب على اقتفاء آثارهم .

١ ـ ابو عمرو زبان بن العلاء

هو ابو عمرو زبان بن العلاء بن عبدالله بن الحسين التميمي المازني احد القراء السبعة وكان اعلم الناس بايام العرب وعلومهم واشعارهم وجاهليتهم. وكانت كتبه تملأ البيت الى السقف ثم تنسك فاحرقها(١). توفي سنة ١٥٤ هجرية وهو الذي قال: « ما انتهى اليكم مما قاله العرب الا اقله(٢) ». وهو القائل ايضاً: « علم العربية هو الدين بعينه(٣) ». وعنه اخذ اكثر النحاة في تلك الحقبة فضلاً عن ادبائها ورواتها.

٢ ـ البرامكة

البرامكة اسرة فارسية اصلها من خراسان اتصلت بالدولة العباسية. وتولى بعض افرادها منصب الوزارة ولم يزالوا في عزّ وسؤدد الى ان نكبهم الرشيد تلك النكبة العظمى المعروفة في التاريخ. وآثارهم في الكرم اشهر من ان تذكر حتى ضُرب بهم المثل في الآفاق وجعل اسمهم صفة لكل كريم جوّاد.

ولم تكن شهرة البرامكة في الادب باقل من شهرتهم في السياسة والكرم. فانهم كانوا يعطفون على العلماء ويقرّبونهم اليهم ويجيزونهم باسنى الصّلات. وكانوا يتنافسون في اقتناء الكتب واستنساخها حتى تكوّنت لديهم خزانة مخطوطات عزّ نظيرها في ذلك العهد. ولما نظم أبان بن عبد الحميد الرقاشي كتاب « كليلة ودمنة » باقتراحهم اجازه يحيى البرمكي بعشرة آلاف دينار. واجزل له الفضل البرمكي خمسة آلاف دينار. اما جعفر البرمكي فاجازه بقوله: ألا يكفيك ان احفظه فاكون راويتك؟ » وقد روى المؤرخون كثيراً من امثال هذه الملح

---

(١) كشف الظنون: مجلد ١ صفحة ٤٠ (٢) طبقات الادباء: ٣٣

(٣) تاريخ آداب اللغة العربية: مجلد ٢ صفحة ١٤

المبرهنة على آداب البرامكة وتعزيزهم للتأليف والترجمة وشغفهم بجمع الكتب في خزائنهم .

وكان البرامكة في عهد الرشيد غرّة في جبين دولته . جمعوا من الصفات المحمودة ما استحقوا به ثناء معاصريهم من الكتّاب والشعراء والقصّاد . وقد كانوا فرسان البلاغة وملوك الكلام كما كانوا مبرّزين في حلبة الجود والسخاء . تهزهم الاريحية عند سماع المديح فيجودون بما ضنّ به الكرام حتى انسوا الناس ذكر الاولين(١) .

ولما افتتح هرون الرشيد مدينة انقرة وجد بها كثيراً من الكتب كانت محفوظة في خزائنها . فاحضرها الى بغداد وأمر بنقلها الى اللغة العربية . وممن اعتنى بترجمتها اعتناء جزيلاً جعفر البرمكي وجماعة من اهل بيته . فقال فيهم بعض الشعراء(٢) :

اولاد يحيى اربعة كاربع الطبائعِ
فهم اذا اختبرتهم طبائعُ الصنائعِ

(١) محاضرات تاريخ الامم الاسلامية : صفحة ١٦٠ و١٦١
(٢) صناجة الطرب في تقدمات العرب : تاليف نوفل نوفل : صفحة ٣٨٥

الفصل الثاني

مشاهير هواة الكتب في القرن الثالث للهجرة

١ ـ الواقدي (١٣٠ ـ ٢٠٧ للهجرة)

هو ابو عبدالله بن عمر بن واقد الاسلمي من اعظم مؤرخي الاسلام واقدمهم ولد في المدينة وانتقل الى العراق . فولاّه الخليفة المامون منصب القضاء بالرصافة فظل فيه اربع سنين . ثم رحل الى الرقة فاتصل بيحيى بن خالد البرمكي فافاض عليه عطاياه . وسعى له ان يكون قاضياً ببغداد فخدم هذه الوظيفة حتى توفاه الله تعالى . وكان الواقدي من اكبر غلاة الكتب في ايامه . قيل ان كتبه كانت تملأ ستمائة صندوق ويقتضي حملها مائة وعشرين جملاً .

ومن اشهر مؤلفات الواقدي ما يلي : كتاب « المغازي النبوية » وكتاب « فتح افريقية » في جزئين . وكتاب « فتح العجم » . وكتاب « فتح مصر والاسكندرية » وكتاب « تفسير القرآن » لم يزل مخطوطاً غير مطبوع . وكتاب « فتوح الشام[1] » .

وكان الواقدي على سعة علمه لا يحفظ القرآن . واعتاد ان يقول متفاخراً : « ما من احد الا وكتبه اكثر من حفظه . اما انا فحفظي اكثر من كتبي[2] ».

٢ ـ الاصمعي (١٢٢ ـ ٢١٤ للهجرة)

هو عبد الملك بن قريب بن قيس ولد سنة ١٢٢ هجرية وقد اشتهر بكنيته

---

(١) تذكرة الحفاظ : مجلد ١ صفحة ٣١٧

(٢) تاريخ بغداد : لابي بكر الخطيب البغدادي : جزء ٣ صفحة ٥ ـ ٧

« الاصمعي » . قدم بغداد من البصرة في ايام الرشيد مع ابي عبيدة فقيل لابي نواس ذلك فقال : « اما ابو عبيدة فاذا امكنوه قرأ عليهم اخبار الاولين والآخرين . واما الأصمعي فبلبل يطربهم بنغماته » .

وكان الأصمعي شديد الحفظ يحفظ اثنتي عشرة الف ارجوزة . واذا انتقل من بلد الى بلد حمل كتبه في ثمانية عشر صندوقاً(١) . وله مؤلفات جديرة بالاعتبار يزيد عددها على الاربعين في مواضيع مختلفة ضاع معظمها . اما مؤلفاته الباقية فمنها شعرية ومنها لغوية الالفاظ .

٣ ـ اسحق ابن ابرهيم النديم (١٥٥ ـ ٢٣٥ للهجرة)

اسحق بن ابرهيم بن ميمون بن النديم التميمي الموصلي برع في اللغة والتاريخ والموسيقى وتفرد بصناعة الغناء . وكان غنياً بخزائن الكتب النادرة حتى روى عنه ابو العباس ثعلب قال : « رأيت لاسحق الموصلي الف جزء من لغات العرب كلها سماعة . وما رأيت اللغة في منزل احد قط اكثر منها في منزل اسحق ثم منزل ابن الاعرابي » . ومن تصانيفه « كتاب اغانيه » التي غنى بها و كتاب « اخبار عزة الميلاء » و كتاب « اغاني معبد » و « اخبار حماد عجرد » وكتاب « اخبار ذي الرمّة » وكتاب « الندماء » وكتاب « النغم والايقاع » وكتاب « قيان الحجاز » وكتاب « النوادر المتخيرة » وغير ذلك(٢) .

٤ ـ الفتح بن خاقان القيسي (قتل سنة ٢٤٧ للهجرة)

الفتح بن خاقان بن احمد بن غرطوج : « اديب شاعر كان في نهاية الفطنة

---

(١) الاغاني : مجلد ٥ صفحة ٦٨

(٢) وفيات الاعيان لابن خلكان : جزء ١ صفحة ٩٣ وكتاب « حضارة الاسلام في دار السلام » لجميل مدور : صفحة ١٤٦

والذكاء فارسي الاصل من ابناء الملوك . اتخذه المتوكل الخليفة العباسي (٢٣٢ - ٢٤٧ هـ) أخاً له واستوزره رجعل له امارة الشام على ان ينيب عنه . وكان يقدمه على جميع اهله واولاده » .

اقتنى الفتح بن خاقان خزانة كتب حافلة من اعظم الخزائن كان قد جمعها علي بن يحيى لم يشاهد أوفر منها عدداً واعظم حسناً . وكان علماء الكوفة والبصرة وفصحاء العرب يرتادون داره للمطالعة والمناظرة والاستفادة . قال ابو همام : « ثلاثة لم أرَ قط ولا سمعت باكثر محبة للكتب والعلوم منهم : الجاحظ والفتح بن خاقان واسمعيل بن اسحق القاضي » . وقال ابن الكتبي في « فوات الوفيات » : « وكان الفتح يحضر لمجالسة المتوكل فاذا اراد الخليفة القيام بحاجة اخرج الفتح كتاباً من كمه او جيبه وقرأ فيه الى حين عودة المتوكل » .

وتوفي الفتح بن خاقان القيسي يوم وفاة الخليفة المتوكل سنة ٢٤٧ للهجرة . قال ابو الفرج ابن العبري : « في سنة سبع واربعين ومائتين قُتل المتوكل وهو ثمل ليلة الاربعاء ثالث يوم من شوال . قتله غلام تركي اسمه باغر وكانت خلافته اربع عشرة سنة وتسعة اشهر وعمره اربعين سنة . وقتل معه الفتح بن خاقان لانه رمى بنفسه على المتوكل وقال : ويلكم تقتلون امير المؤمنين ! فبعجوه بسيوفهم فقتلوه (١) » .

٥ ـ الجاحظ (١٦٥ ـ ٢٥٥ للهجرة)

الامام ابو عثمان عمرو بن بحر بن محبوب بن فزارة الكناني البصري المعروف بالجاحظ ولد سنة ١٦٥ بالبصرة ونشأ بها . وادرك الاصمعي وابا عبيدة وابا زيد واخذ عنهم وخالط كثيراً من مشهوري الكتّاب ومترجمي الفرس . واقام اكثر عمره بالبصرة يعيش معيشة الادباء والعلماء وكان كثير الانتجاع لبغداد . ثم انقطع

---

(١) تاريخ مختصر الدول : لابن العبري : صفحة ٢٤٨

الى محمد بن زيّات في عهد وزارته وكان يقيم اثناء هذه المدة كثيراً بمدينة سامرّا[1] واستدعاه الخليفة المتوكل لتعليم ولده . فلما مثل الجاحظ بين يديه استبشع منظره فامر له بعشرة آلاف درهم وصرفه .

وصنّف الجاحظ تآليف عديدة نذكر منها : كتاب « الاصنام » وكتاب « البيان والتبيين » وكتاب « التاج في اخلاق الملوك » وكتاب « الحيوان » وكتاب « المحاسن والاضداد » وغيرها . وكان للجاحظ في البصرة خزانة كتب جديرة بالاعتبار يأوي اليها للمطالعة والبحث والتأليف . وكان يعتني بتنظيم مجلداتها ويقيمها صفوفاً صفوفاً تحيط به كالحائط وهو جالس اليها . فسقطت يوماً عليه وهو مفلوج وأودت بحياته عام ٢٥٥ للهجرة وقد جاوز التسعين كما قلنا[2] .

٦ ـ جعفر المروزي (توفي سنة ٢٧٤ للهجرة)

هو ابو العباس جعفر بن احمد المروزي ذكره محمد بن اسحق النديم قال : هو احد جمّاعي الكتب ومؤلفيها في شتى انواع العلم . كتبه كثيرة جداً وهو اوّل من ألف كتاباً في « المسالك والممالك » ولم يتمه . مات في الاهواز وحُملت كتبه الى بغداد وبيعت في طاق الحرّاني وهي محلة ببغداد سنة ٢٧٤ للهجرة . ومن مؤلفاته غير كتاب « المسالك والممالك » المذكور آنفاً كتاب « الآداب الكبير » و « كتاب الآداب الصغير » الخ [3]

٧ ـ ابرهيم بن اسحق الحربي

حدّث ياقوت الرومي عن ابرهيم بن اسحق الحربي قال : وُلد ابرهيم سنة

---

(١) معجم المطبوعات العربية والمعربة : ليوسف اليان سركيس : صفحة ٦٦٦ ـ ٦٦٨

(٢) تاريخ ابي الفداء : جزء ٢ صفحة ٤٧

(٣) معجم الادباء : لياقوت الرومي : جزء ٧ صفحة ١٥١

١٩٨ للهجرة ومات ببغداد سنة ٢٨٥ ودفن في بيته بشارع باب الانبار . وسُمع عن كثيرين انه كان اماماً في العلم زاهداً عارفاً بالفقه بصيراً بالاحكام صنّف كتباً كثيرة . اصله من مرو وكان يقول : امي تغلبية واخوالي نصارى . حدّث عن نفسه قال : اني اضقت مرة حتى انتهى امري في الاضاقة الى اعدام عيالي القوت . فقالت لي الزوجة : هَب اني واياك نصبر فكيف تصنع بهاتين الصبيتين ؟ فهات شيئاً من كتبك نبيعه او نرهنه . فضننت بذلك وقلت : اقترضي لها وانظريني بقية اليوم والليلة . وكان لي بيت في دهليز داري فيه كتبي . فكنت اجلس فيه للنسخ والنظر . فلما كان في تلك الليلة اذ داقّ يدق الباب فقلت : مَن هذا ؟ فقال : رجل من الجيران . فقلت ادخل . فقال اطفىء السراج . فكببت على السراج شيئاً وقلت : ادخل . فدخل وترك الى جانبي شيئاً وانصرف . فكشفت عن السراج فاذا منديل له قيمة وفيه انواع من الطعام وكاغدٌ فيه خمسمائة درهم . فدعوت الزوجة وقلت : أنبهي الصبيان حتى يأكلوا

ولما كان الغد قضينا ديناً علينا من تلك الدراهم . ثم جلست على بابي في غد تلك الليلة واذا جمّال يقود جملين عليهما حملان ورقاً وهو يسأل عن منزل ابرهيم الحربي . فانتهى الي فقلت : انا ابرهيم الحربي . فحط الحملين وقال : هذان الحملان انفذهما لك رجل من اهل خراسان . فقلت من هو ؟ فقال قد استحلفني ألا اقول لك مَن هو .

وحدث ابو عثمان الرازي قال : جاء رجل الى ابرهيم الحربي بعشرة آلاف درهم من عند المعتضد يسأله ان يفرّقها . فرده ابرهيم وانصرف الرسول ثم عاد فقال له : ان امير المؤمنين يسألك ان تفرقها في جيرانك . فقال له ابرهيم : عافاك الله . مال لم نشغل انفسنا بجمعه فلا نشغلها بتفرقته . قل لامير المؤمنين : ان تركتنا والا تحولنا عن جوارك .

وحدّث ابو القاسم الجبلي قال : اعتلّ ابرهيم بن اسحق الحربي حتى اشرف على الموت . فدخلت عليه يوماً فقال : يا ابا القاسم انا في امر عظيم مع ابنتي ثم

قال لها : قومي واخرجي الى عمك . فخرجت وألقت على وجهها خمارها . فقال ابرهيم : هذا عمك كاميه . فقالت لي : يا عم نحن في امر عظيم ما لنا طعام الا كسر يابسة وملح وربما عدمنا الملح . وبالامس قد وجّه الينا المعتضد مع بدر بألف دينار فلم يأخذها ابي . ووجّه اليه فلان وفلان اموالاً فلم يأخذ منها شيئاً على رغم علته .

التفت الحربي الى الابنة متبسماً وقال : يا بنية انما خفتِ الفقر فقالت : نعم . فقال لها ابوها : انظري الى تلك الزاوية ! فنظرت فاذا هناك كتب . فقال لها : هناك اثنا عشر الف جزء في اللغة والغريب كتبتها بخطي فاذا متّ وجّهي كل يوم بجزء تبيعينه بدرهم . فمن كان عنده اثنا عشر الف درهم لا يُعدّ فقيراً(١) .

٨ – بنو موسى بن شاكر

هو ابو جعفر محمد واحمد والحسن الذين اليهم يُنسب جبل بني موسى . ولم يكن والدهم موسى من اهل العلم بل كان حرامياً يقطع الطرق ثم تاب . فأشفق الخليفة المأمون على ابناء موسى واثبتهم في « بيت الحكمة » وكانت حالهم رثة رقيقة . فخرجوا من « بيت الحكمة » نهاية في علومهم(٢) . قال ابن خلكان : « وكانت لبني موسى همم عالية في تحصيل العلوم القديمة وكتب الاوائل . واتعبوا انفسهم في شأنها وانفذوا الى بلاد الروم مَن اخرجها لهم . واحضروا النقلة من الاصقاع الشاسعة بالبذل السخي فاظهروا عجائب الحكمة

(١) معجم الادباء : لياقوت الرومي : جزء ١ صفحة ٣٧ ـ ٣٩

(٢) تاريخ مختصر الدول لابن العبري : صفحة ٢٦٤

الفصل الثالث

مشاهير هواة الكتب في القرن الرابع للهجرة

١ - ابو بكر الصولي (توفي سنة ٣٣٥ ه)

هو محمد بن يحيى ابو بكر الصولي احد العلماء بفنون الادب . صنّف كتباً ونادم الخلفاء ودوّن اخبار الشعراء والوزراء والكتّاب والرؤساء . واحرز شهرة واسعة في جمع الكتب وحسن تنضيدها والحرص عليها . حدّث الازهري عن لسان ابي بكر بن شاذان قال : « رأيت للصولي بيتاً عظيماً مملوءاً بالكتب . وهي مصفوفة وجلودها مختلفة الالوان وكل صف منها بلون : فصف احمر وآخر اخضر وآخر اصفر . وكان الصولي يقول : هذه الكتب كلها سماعي(١) »

٢ - الوزير المهلبي (٢٩١ - ٣٥٢ للهجرة)

ابو محمد الحسن بن محمد بن عبدالله بن هرون من ولد المهلب ابن ابي صفرة وزير من الادباء الشعراء · اتصل بمعز الدولة بن بويه فجعله كاتباً في ديوانه ثم استوزره . وكانت الخلافة للمطيع العباسي (٩٤٦ - ٩٧٤ م) فقربه المطيع وخلع عليه ثم لقبه بالوزارة . فاجتمعت له وزارة الخليفة ووزارة السلطان . وكان يردد قوله : « لقد اشتملت خزانتي على مائة الف وسبعة عشر الف مجلد ما فيها سميري غير الاغاني للاصبهاني » .

---

(١) تاريخ بغداد : للخطيب البغدادي : جزء ٣ صفحة ٤٢٧

وكان المهلبي شاعراً بليغاً ومن جيد شعره قصيدته المشهورة التي افتتحها بقوله :

ألا موت يباع فاشتريه فهذا العيش ما لا خير فيه

٣ ـ محمد بن يحيى (٣٢٣ ـ ٣٦٠ للهجرة)

ولد محمد بن يحيى بن مالك بن عائذ والد ابن زكريا الراوية في طرطوشة بالاندلس . وتأدب في قرطبة وسمع بها فكان حافظاً للغة والنحو محكماً للشعر حتى اصبح شاعراً مفلقاً بليغاً . رحل مع ابيه الى بلاد المشرق فسمع بمصر والبصرة وبغداد ثم خرج الى ارض فارس فسمع هنالك على شيوخها . وقد جمع منها ومن سائر البلدان التي هبطها كتباً عظيمة . واقام في فارس بقية حياته وتوفي بمدينة اصبهان سنة ٣٦٠ للهجرة . وقد روى اخباره ابن حيّان الاندلسي(١)

٤ ـ يعقوب بن يوسف

كان يعقوب بن يوسف وزيراً للعزيز بالله ثاني الخلفاء الفاطميين في مصر . انشأ خزانة كتب عظيمة وبذل الأموال بسخاء في الاستكثار من التآليف المفيدة . لانه كان يجمع فيها عشرات النسخ للكتاب الواحد كي يتمكن من مطالعته غير واحد من مرتادي مكتبته الكثيري العدد . ولقد غالى في وصفها من اتى على ذكرها من المؤرخين كالمقريزي وغيره . وكان هذا الخليفة يشرف عليها ويتعهدها بنفسه حيناً بعد حين . وحلّت وفاة يعقوب بن يوسف في ٥ ذي الحجة سنة ٣٨٠ للهجرة وهو اول وزراء الدولة الفاطمية .

٥ ـ ابن الفرات (٣٢٢ ـ ٣٨٤ هـ)

هو ابو الحسن محمد بن العباس بن احمد بن محمد بن الفرات البغدادي كان من

---

(١) نفح الطيب : جزء ١ صفحة ٣٩٣

الحفاظ الائمة في عصره . قال عنه الخطيب انه كتب مائة تفسير ومائة تاريخ . وقد خلف ابن الفرات ثمانية عشر صندوقاً مملوءة كتباً اكثرها بخطه سرق ما سرق منها(١) . وبالجملة فقد كان حجة في صحة النقل وجودة الضبط(٢)

٦ ـ الصاحب بن عباد (٣٢٦ ـ ٣٨٥ هـ)

ينتسب الصاحب بن عباد الى اسرة فارسية معروفة بالعلم والوجاهة . هو كافي الكفاة ابو القاسم اسمعيل ابن ابي الحسن عباد بن العباس بن عباد بن احمد بن ادريس الطالقاني والصاحب لقبه . كان شاعرا عالماً كاتباً ثم وزيراً عند مؤيد الدولة بن بويه . وخلف مؤلفات شتى مذكورة في ترجمته المطولة التي نشرها البحاثة خليل مردم بك الدمشقي سنة ١٩٣٢ في الحلقة الرابعة من كتابه : « ائمة الادب » وكان له عشرات من اهل العلم والادب يقيمون عنده وعشرات يفدون عليه . وحلت وفاته سنة ٣٨٥ للهجرة فكان يردد قبل وفاته هذين البيتين :

اناخ الشيب ضيفاً لم أرده ولكن لا اطيق له مردّا

رداء للردى فيه دليل تردى من به يوماً تردى

بعث الامير نوح بن منصور الساماني سلطان بخارا الى الصاحب بن عباد يستدعيه اليه ليسلمه مقاليد الوزارة وتدبير المملكة . فكان من جملة اعذار الصاحب في عدم الاجابة انه يحتاج لنقل كتبه الى تلك البلاد النائية الى الاربعمائة جمل(٣) . وذهب ياقوت الى اكثر من ذلك فذكر ان مكتبة الصاحب اشتملت على ٢٠٦٠٠٠ مجلد(٤) فاذا كان هذا الفرد الواحد اجتمع عنده هذا القدر من الكتب

---

(١) تاريخ بغداد : لابي بكر الخطيب البغدادي : جزء ٣ صفحة ١٢٢

(٢) تذكرة الحفاظ : جزء ٣ صفحة ٢٠٦ (٣) دائرة معارف القرن العشرين : مجلد ٨ صفحة ٧٠ (٤) ارشاد الاديب : مجلد ٥ صفحة ١٥٠

فما ظنك بما اجتمع في مكاتب الخلفاء وخزائن السلاطين وزوايا المساجد فضلاً عن المكاتب الموقوفة للعامة ؟

٧ - ابو الفتح برجوان

كان ابو الفتح برجوان من اركان دولة الخليفة العزيز بن المعز (٣٦٥-٣٨٦ هـ) سلطان مصر . اشتهر بتعزيز العلم وتكريم العلماء . وكان مولعاً بالكتب ولعه بالتحف والرياش والاسلحة والآلات النادرة . ويقال انه خلف من ذلك ما لا يحصى ولا يحصر . وكان ابو الفتح اسود اللون امر الخليفة الحاكم بامر الله بقتله فقتل سنة ٣٩٠ هـ في القصر بالقاهرة . ضربه ابو الفضل زيدان الصقلي صاحب المظلة في جوفه بسكين فمات على الاثر . وروى ابن الصيرفي الكاتب في اخبار وزراء مصر ان برجوان لما قتل وجد عنده من نوع السراويل الف سروال والف تكة من حرير . ومن الملابس والفرش والآلات والكتب والطرائف ما لا يحصى كثرة(١)

٨ - المهذب بن الزبير

كان المهذب بن الزبير من نوابغ ادباء زمانه انفذه بعض ملوك مصر في رسالة الى انحاء اليمن . فامتثل الامر وارتحل الى تلك البلاد وافرغ الجهود هناك في تحصيل كتب النسب . هكذا استطاع ان يجمع عنده من تلك المخطوطات ما لم يجتمع عند احد(٢) .

٩ - محمد ابن ابي بعرة

قال ابو الفرج محمد الوراق البغدادي الشهير بابن النديم في كتاب الفهرست :

---

(١) دائرة معارف القرن العشرين لمحمد فريد وجدي : مجلد ٢ صفحة ١٠٣
(٢) معجم الادباء : جزء ٩ صفحة ٤٩

« قال محمد بن اسحق كان بمدينة الحديثة (مما يلي الموصل) رجل يقال له محمد بن الحسين ويعرف بابن ابي بعرة . جمّاعة للكتب له خزانة لم أرَ لاحد مثلها كثرة . تحتوي على قطعة من الكتب العربية في النحو واللغة والادب والكتب القديمة . فلقيت هذا الرجل دفعات فأنس بي وكان نفوراً ضنيناً بما عنده خائفاً من بني حمدان . فاخرج لي قمطراً كبيراً فيه نحو ثلثمائة رطل جلود فلجان وصكاك وقرطاس مصري وورق تهامي وجلود آدم وورق خراساني فيها تعليقات عن العرب وقصائد مفردات من اشعارهم . وشيء من النحو والحكايات والاخبار والاسماء والانساب وغير ذلك من علوم العرب وغيرهم . وذكر ان رجلا من اهل الكوفة ذهب عني اسمه كان مستهراً بجمع الخطوط القديمة . وانه لما حضرته الوفاة خصه بذلك لصداقة كانت بينهما وافضال من محمد بن الحسين عليه ومجانسة المذهب فانه كان شيعياً . فرأيتها وقلّبتها فرأيت عجباً . الا ان الزمان قد اخلقها وعمل فيها عملاً ادرسها واحرقها . وكان على كل جزء او ورقة او مدرج توقيع بخطوط العلماء واحداً اثر واحد . فذكر فيه خط من هو . وتحت كل توقيع آخر خمسة وستة من شهادات العلماء على خطوط بعض لبعض . ورأيت في جملتها مصحفاً بخط خالد ابن ابي الهياج صاحب علي رضي الله عنه . ثم وصل هذا المصحف الى عبدالله بن حسان رحمه الله . ورأيت فيه بخطوط الامامين الحسن والحسين . ورأيت عنده امانات وعهوداً بخط امير المؤمنين عليه السلام وبخط غيره من كتّاب النبي صلى الله عليه وسلّم . ومن خط العلماء في النحو واللغة مثل أبي عمرو اسحق بن العلاء وابي عمرو الشيباني الاصمعي وابن الاعرابي وسيبويه والفرّاء والكسائي . ومن خطوط اصحاب الحديث مثل سفيان بن عُيينة وسفيان الثوري والاوزاعي وغيرهم . ورأيت مما يدل على ان النحو عن ابي الاسود ما هذه حكايته . وهي اربعة اوراق احسبها من ورق الصين ترجمتها هذه فيها كلام من الفاعل والمفعول من ابي الاسود رحمة الله عليه بخط يحيى بن يعمر . وتحت هذا الخط بخط عتيق : هذا خط علان النحوي . وتحته : هذا خط النضر بن شميل . ثم لما مات هذا الرجل (يعني ابن ابي بعرة) فقدنا القمطر وما كان فيه . فما سمعنا له خبراً ولا رأيت منه غير المصحف هذا على كثرة بحثي عنه » .

١٠ - ابو بكر الخوارزمي (٣١٦ - ٣٨٣ هـ)

حدّث ابو بكر الخطيب عن الحافظ الامام ابي بكر الخوارزمي قال: «كان ثقةً ورعاً متقناً مثبتاً لم يُرَ في شيوخنا اثبت منه. وصنّف تصانيف كثيرة وكان له كتب كثيرة وكان عدد اسفاط (١) كتبه ثلاثة وستين سفطاً وصندوقين(٢).

واقام الخوارزمي مدة بالشام وسكن بنواحي حلب وكان يشار اليه في عصره. ويحكى انه قصد حضرة الصاحب بن عباد وهو بارّجان فلما وصل الى بابه قال لاحد حجابه: قل للصاحب: على الباب احد الادباء وهو يستأذن في الدخول. فدخل الحاجب واعلمه فقال الصاحب: قل له: قد الزمت نفسي ان لا يدخل عليّ من الادباء الا من يحفظ عشرين الف بيت من شعر العرب. فخرج اليه الحاجب واعلمه بذلك. فقال له ابو بكر: ارجع اليه وقل له: هذا القدر من شعر الرجال ام من شعر النساء؟ فدخل الحاجب فاعاد عليه ما قال. فقال الصاحب: هذا يكون ابو بكر الخوارزمي فأذن له في الدخول. فدخل عليه فعرفه وانبسط له. وكان ابو بكر قليل الوفاء فهجاه ابو سعيد احمد بن شهيب الخوارزمي بقوله (٣):

ابو بكر له ادب وفضلٌ ... ولكن لا يدوم على البقاء

مودته اذا دامت لخلٍّ ... فمن وقت الصباح الى المساء

---

(١) اسفاط جمع سفط: وعاء كالجوالق او القفة

(٢) معجم البلدان: لياقوت الحموي: جزء ٢ صفحة ١٣١

(٣) مجاني الادب في حدائق العرب: للاب لويس شيخو: جزء ٦ صفحة ٣٠٨ - ٣٠٩ نقلا عن ابن خلكان

الفصل الرابع

مشاهير هواة الكتب في القرن الخامس للهجرة

١ ـ ابن فطيس القرطبي (٣٤٨ ـ ٤٠٢ للهجرة)

هو قاضي الجماعة ابو المطرف عبد الرحمن بن محمد بن عيسى بن فطيس بن أصبغ القرطبي . كان من جهابذة الحديث عارفاً بالرجال يملي على الطلاب من حفظه . وقد كلف باقتناء الكتب فجمع منها ما لم يجمعه احد في عصره . قيل ان خزائن كتبه بيعت بعد وفاته باربعين الف دينار . ومن مؤلفاته نذكر : كتاب « اسباب النزول » في مائة جزء وكتاب « فضائل الصحابة » في مائة جزء . وكتاب « معرفة التابعين » في مائة وخمسين جزءاً . وكتاب « الناسخ والمنسوخ » في ثلاثين جزءاً وكتاب « الاخوّة » في اربعين جزءاً وكتاب « دلائل الرسالة » في عشرة اسفار وغير ذلك مما يطول ذكره[١]

٢ ـ المظفر بن الافطس

عاش المظفّر بن الافطس في القرن الخامس للهجرة . واليك ما كتبه عنه ابو مروان بن حيّان المتوفى سنة ٤٦٩ للهجرة وهو من خيرة مؤرخي الاندلس قال : « كان المظفر بن الافطس صاحب بطليوس كثير الادب جمّ المعرفة محباً لاهل العلم . وكان جمّاعة للكتب ذا خزانة عظيمة لم يكن في ملوك الاندلس من يفوقه في ادب ومعرفة » .

---

(١) تذكرة الحفاظ : جزء ٣ صفحة ٢٤٨

وقال عنه ابن بسام الشنتمري المتوفى سنة ٥٤٢ للهجرة في كتابه « الذخيرة في محاسن اهل الجزيرة » ما نصه : « كان المظفر اديب ملوك عصره غير مدافع ولا منازع . وله التصنيف الرائق والتأليف الفائق المترجم بالتذكرة والمشتهر ايضاً اسمه بالكتاب المظفري في خمسين مجلداً . يشتمل على فنون وعلوم من مغازي وسيَر ومُثل وخبر وجميع ما يختص به علم الادب » . وحلت وفاة ابن الافطس سنة ٤٦٠ للهجرة(١).

٣ ـ ابو الحسن علي الفالي

اشتهر ابو الحسن علي بن احمد بن علي بن سلك الفالي بعلوم الادب . وأولع خصوصاً باقتناء الكتب الثمينة فجمع منها خزانة ضُربت الامثال بنفاستها . وكانت لديه نسخة من كتاب « الجمهرة » لابن دريد في غاية الجودة ظرفاً وخطاً . فدعته الحاجة الى بيعها فاشتراها منه الشريف المرتضي ابو القاسم بستين ديناراً . ولما تصفحها وجد ضمنها ابياتاً بخط بائعها ابي الحسن الفالي هذا نصها :

أنست بها عشرين حولاً وبعتها لقد طال وجدي بعدها وحَنيني
وما كان ظني انني سأبيعها ولو خلدتني في السجون ديوني

فما كان من الشريف المرتضي بعد ما تصفح هذه الابيات الا ان اعاد كتاب « الجمهرة » الى البائع تاركاً له الدنانير(٢)

٤ ـ ابو عثمان سعيد الحداد

كان سعيد بن محمد الحداد فقير الحال انما اثرى بعد العسر وتموّل بعد الشيخوخة والزمانة . مات له نسيب في جزيرة صقلية خلّف خمسمائة مثقال فاستولى عليها ابو عثمان وجعل يعيش في سعة ورخاء . ولما كان من علماء اللغة جمع كتباً كثيرة وطفق يردد فيها قائلاً : « هو النظر والخبر » . وتكلف ابو عثمان نظم الشعر فاجاده لكنه لم يحفظ من ذلك الا مراثيه في ولد له مات وفي ابن اخ وقع اسيراً . وله تآليف في علم الكلام والجدل والفقه وكتاب رد على الشافعي(٣)

---

(١) نفح الطيب : جزء ٢ صفحة ٢٣٤ (٢) فوات الوفيات : جزء ١ صفحة ٤٢٥

(٣) طبقات علماء افريقية : جزء ٤ صفحة ١٤٨

الفصل الخامس

مشاهير هواة الكتب في القرن السادس للهجرة

١ ـ الوزير الافضل ابن امير الجيوش (٤٨٧ ـ ٥١٥ للهجرة)

هو ابو النجم بدر الجمالي ابن عبدالله امير الجيوش المصرية ووالد الملك الافضل شاهنشاه . اصله من ارمينيا اشتراه جمال الدولة بن عمار غلاماً فتربى عنده ونُسب اليه . وتقدم في الخدمة حتى وُلي امارة دمشق للمستنصر صاحب مصر سنة ٤٥٥ للهجرة . ثم استدعاه الى مصر واستعان به على اطفاء فتنة نشبت فوطّد له اركان الدولة فقلده هذا الخليفة وزارة السيف والقلم حتى اصبح الحاكم في دولة المستنصر والمرجوع اليه .

وكان الافضل ابن امير الجيوش مغرماً بالكتب حتى انه تجمع لديه منها خمسمائة الف مجلد . ولما مات صادر الخليفة الفاطمي الآمر باحكام الله كل ممتلكاته . فكان من ضمنها تلك المخطوطات التي نقلت الى مكتبة القصر(١) وخلف دواة مرصعة بالجواهر قدرت قيمتها باثني عشر الف دينار(٢) .

٢ ـ ابو نعيم عبيدالله بن الحداد (٤٦٣ ـ ٥١٧ للهجرة)

هو الحافظ الامام مفيد اصبهان ابو نعيم عُبيدالله ابن الشيخ ابي علي الحسن بن احمد بن الحسن الاصبهاني المشهور بابن الحداد . روى عنه محمد بن عبد الواحد الدقاق في رسالته انه احد العلماء في فنون كثيرة بلغ مبلغ الامامة بلا مدافعة . وانه جمع

---

(١) الفاطميون في مصر : صفحة ١٤١ (٢) ابن ميسر : صفحة ٥٧

ما لم يجمعه احد اقرانه من الكتب الوافرة العدد والسماعات . وهو صدوق في جمعه وفي كتبه امين في قراءته[1] .

٣ ـ المبشر بن فاتك

هو الأمير محمود الدولة ابو الوفاء المبشر بن فاتك من امراء مصر وافاضل علمائها اشتغل بصناعة الطب وعلم الهيئة والعلوم الرياضية . وللمبشر تصانيف جليلة في المنطق والطب والامثال فضلاً عما نسخ بخط يده من كتب المتقدمين .

اكب المبشّر على تحصيل العلوم وقضى حياته في جمع خزائن الكتب . فكان يصرف بينها اكثر اوقاته ولا يفارقها لشدة شغفه بالمطالعة . وكانت زوجته جليلة القدر تمت بنسبها الى اشرف الأسر المصرية . فلما توفي المبشر نهضت هي وجوار معها الى خزائن كتبه وفي قلبها حرقة ولوعة من تلك الكتب التي كانت تشغله عنها . فجعلت تندبه وتلقي الكتب بعد ذلك في الماء وقد غرق اكثرها [2] . وروى ابن ابي اصيبعة الذي شاهد طائفة من تلك الكتب ما ياتي قال : « فهذا سبب ان كتب المبشر بن فاتك يوجد كثير منها وهو بهذه الحال ! »

٤ ـ امية بن ابي الصلت (٤٦٨ ـ ٥٢٨ للهجرة)

هو ابو الصلت امية بن عبد العزيز بن ابي الصلت الاشبيلي عاش ستين سنة . قضى منها عشرين سنة في اشبيلية مسقط رأسه وعشرين في افريقيا عند ملوكها الصنهاجيين وعشرين في مصر محبوساً في خزانة الكتب . وكانت تدعى هذه الخزانة دار كتب الحكيم ارسطاطاليس ومركزها في الاسكندرية[3] . ولا غرابة في

---

(١) تذكرة الحفاظ : جزء ٤ صفحة ٥٩ (٢) طبقات الاطباء : جزء ٢ صفحة ٩٨ ـ ٩٩ (٣) معجم الادباء لياقوت الرومي : جزء ٧ صفحة ٦٧ ـ ٦٨

ذلك لان ابا الصلت كان من اعظم هواة الكتب وغلاة المكتبات . وقد ارسله صاحب المهدية الى ملك مصر الآمر بن المستعلي (٤٩٥ – ٥٢٤ ﻫ) الخليفة الفاطمي(١) .

وظل ابو الصلت طوال العشرين سنة التي قضاها في وادي النيل ملازماً لخزانة الكتب منقطعاً اليها . ثم خرج منها اماماً في العلم والفلسفة والتلحين(٢) وخلّف في ذلك مؤلفات شهدت بفضله وطول باعه حتى كُنّي بالاديب الحكيم .

٥ ـ الملك العاضد لدين الله (٥٥٦ ـ ٥٦٧ للهجرة)

هو آخر الخلفاء العبيديين بمصر توفي يوم عاشوراء سنة ٥٦٧ للهجرة . وكان قصره يشتمل على ذخائر ثمينة استولى عليها الملك الناصر صلاح الدين الايوبي . ومن جملتها خزائن كتب منتخبة بالخطوط الجيدة المنسوبة لا يقل عددها عن مائة الف مجلد .

٦ ـ نور الدين الشهيد

اشتهر نور الدين بن زنكي بشغفه بالكتب فجمع امهاتها ووقف كثيراً منها على الاستفادة (٣) . ولما قتل والده عام ٥٤٢ للهجرة (١١٤٧ م) خلفه في حلب وما بين النهرين وحماة وحمص ودمشق . فهادن الفرنج وزار ملكهم جوسلين وأبرم معه عهد الاتفاق ثم اختلفا . وبعد ذلك احتل نور الدين عزاز وبعلبك وظل يناوش الصليبين القتال في معارك عنيفة حتى قضى نحبه سنة ٥٧١ للهجرة في دمشق

---

(١) تاريخ مصر الحديث : لجرجي زيدان : جزء ١ صفحة ٢٨٩

(٢) نفح الطيب للمقري : جزء ١ صفحة ٣٧٢

(٣) مجلة المقتبس : مجلد ٢ سنة ١٩٠٧ صفحة ٥٧١

الشام(١) . وقد أطلق على جميع المكتبات التي انشأها نور الدين في بلاد الشام اسم « خزائن نورية » وكانت كتبها كثيرة ذات شأن(٢) .

٧ ــ ابو بكر محمد بن خير الاشبيلي (٥٠٢ ـ ٥٧٥ للهجرة)

هو الامام الحافظ شيخ القرّاء ابو بكر محمد بن خير بن عمر بن خليفة اللمتوي الاشبيلي اتقن القراآت حتى ساد اهل بلده . قال ابن الآبار : « لا نعلم احداً من طبقته مثله » فانه تصدّر في اشبيلية للاقراء والاسماع وحمل الناس عنه كثيراً . وكان مقرئاً مجوّداً ومحدثاً متقناً اديباً نحوياً لغوياً واسع المعرفة رضياً مأموناً . فلما مات بيعت كتبه باغلى الاثمان لصحتها ونفاستها ولم يكن له نظير في هذا الشأن(٣) .

٨ ـ عماد الدين السلفي (٤٧٢ ـ ٥٧٦ هـ)

هو شيخ الاسلام ابو طاهر عماد الدين احمد بن محمد السلفي الاصبهاني كان من اعظم اهل عصره علماً وحفظاً . قال ابن نقطة : « كان السلفي جوّالاً في الآفاق حافظاً ثقة متقناً » . وقال عماد الدين الوزير العلامة في خريدة القصر : « طوّف السلفي بالبلاد وشدت اليه الرحال وتبرك به الملوك والاقيال » . وللسلفي شعر ورسائل ومصنفات وكان مغرًى بجمع الكتب ينفق على اثمانها كل ما دخل عليه من المال . وكان عنده خزائن كتب لم يتسنّ له ان يتفرغ للنظر فيها . فاصابها العفن والتصقت اوراقها لنداوة البلد فتلف اكثرها(٤) .

---

(١) الحروب الصليبية في الآثار السريانية : للخوري اسحق ارملة صفحة ١١٤ و١١٥

(٢) جريدة « الاقبال » في بيروت : مجلد ٥ عدد ١٥٩ تاريخ ٦ آب ١٩٠٦

(٣) تذكرة الحفاظ : جزء ٤ صفحة ١٥٤ ـ ١٥٥

(٤) تذكرة الحفاظ : جزء ٤ صفحة ٩٤ و٩٥

٩ ـ عبد الرحمن الملجوم

هو ابو زيد عبد الرحمن بن محمد بن الملجوم المعروف بابن وقتـه عاش في القرن السادس للهجرة على عهد الخليفة يوسف بن عبد المؤمن (٥٣٣ — ٥٨٠ ﻫ) سلطان المغرب . وبنو الملجوم من البيوتات القديمة التي اشتهرت في فاس بالمغرب الاقصى . كان عبد الرحمن جمّاعة للدواوين العتيقة والدفاتر النفيسة فاجتمع لديه منها ما لم يجتمع عند احد من اهل المغرب . وكانت خزانة مخطوطاته وحيدة بيع ما كان منها مخروماً بعد وفاته بستة آلاف دينار(١) .

١٠ ـ ابن الجزار

هو ابو جعفر احمد بن ابرهيم ابن ابي خالد ويعرف بالجزار من اهل القيروان كان طبيباً وابن طبيب . وصنف كتبا كثيرة منها كتاب في علاج الامراض عنوانـه « زاد المسافر » في مجلدين . وكتاب « الاعتماد » في الادوية المفردة وكتاب « البغية » في الادوية المركبة . وكتاب « العدة لطول المدة » وهو اكبر كتاب وجد له في الطب . وحكى الصاحب جمال الدين بن القفطي انـه راى لابن الجزار في « قفط » كتاباً كبيراً في الطب اسمه « قوت المقيم » وكان عشرين مجلداً . وكتاب « التعريف بصحيح التاريخ » وهو تاريخ مختصر يشتمل على وفيات علماء زمانه . وله غير ذلك من المصنفات التي عددها ابن ابي اصيبعة .

وعاش ابن الجزار نيفاً وثمانين سنة ومات عتيا في القيروان . وقد خلف بعد وفاته اربعة وعشرين الف دينار وخمسة وعشرين قنطاراً من كتب طبية وغيرها (٢)

---

(١) النبوغ المغربي في الادب العربي لعبدالله كنون الحسيني : جزء ١ صفحة ٩٣

(٢) عيون الانباء في طبقات الاطباء : جزء ٢ صفحة ٣٨ ـ ٣٩

١١ - فخر الدين الماردينى

كان من فلاسفة القرن السادس للهجرة ومن جلة علمائه . جمع في حياته خزائن كتب معتبرة وقفها سنة ٥٩٤ ه في مدينة ماردين مسقط راسه على المشهد الذي وقفه حسام الدين بن ارتق الفيلسوف . والكتب التي وقفها فخر الدين هي من اندر الاسفار التي حرر اكثرها بخط يده او قرأها على اساتذته . ومن مزاياها ان جامعها بالغ في تصحيحها واتقانها وحسن تجليدها

١٢ - محمد ابو سعيد البندهي (٥٢٢ - ٥٨٤ للهجرة)

عاش البندهي في القرن السادس للهجرة وكان من افاضل علماء عصره . ولذلك فوّض اليه السلطان صلاح الدين الايوبي تعليم ولده الافضل . ثم وهبه كتباً كثيرة من خزانة كتب حلب واباح له ان يأخذ منها ما شاء . فجمع ابو سعيد كل ذلك وحصّل من الكتب التي لم تحصل لغيره ثم حبسها على خانقاه السميساطي في دمشق[1]

١٣ - الصاحب امين الدولة السامري

عاش كذلك في القرن السادس للهجرة وكان ممن يشار اليه بالبنان في احراز الكتب الثمينة النادرة . واليك ما روى عنه ابن ابي اصيبعة قال : « واقتنى كتباً كثيرة فاخرة في سائر العلوم . وكانت النسّاخ ابداً يكتبون له حتى انه اراد مرة نسخة من « تاريخ الشام » للحافظ بن عساكر وهو بالخط الدقيق ثمانون مجلداً فقال : هذا الكتاب يقصر ان يكتبه ناسخ واحد . ففرقه على عشرة نسّاخ كل واحد منهم ثمانية مجلدات فكتبوه في نحو سنتين » . وقد اجتمع عنده اكثر

---

(١) بغية الوعاة في طبقات اللغويين والنحاة : للسيوطي : صفحة ٦٦ - ٦٧

من عشرين الف مجلد . وفي رواية النويري وابي المحاسن والمقريزي انها بلغت مئة الف مجلد لا نظير لها في الجودة وبعضها من خط اعظم النساخ (١)

١٤ ـ الحضرمي

هو جابر بن محمد بن نام بن سليمان الحضرمي الاشبيلي(٢) المتوفى سنة ٥٩٦ للهجرة . روى المقري عن الحضرمي ما خلاصته : ان الحضرمي كان يقيم في قرطبة ويحضر سوق الكتب كل يوم عساه يعثر على كتاب كان يتطلبه وظل على ذلك اياماً . واخيراً عثر على الكتاب المطلوب فسامه . فصار كلما زاد الثمن زاده الدلال اكثر حتى بلغ مبلغاً فاحشاً لا يستحقه . فقال للدلال : مَن مناظري في ابتياع هذا الكتاب ؟ فاراه الدلال رجلاً من الكبراء فحياه الحضرمي قائلاً : حيا الله مولانا الاستاذ علامَ تغالي في هذا الكتاب ؟ فقد فاق ثمنه ما يستحقه . فان كنت ترغب فيه فهو لك من غير مزايدة . فقال الرجل : لستُ استاذاً ولا انا عارف موضوع الكتاب . ولكن في بيتي خزانة كتب جمعتها ليملو شأني بين اقراني . ولم يزل في الخزانة فراغ يسع هذا الكتاب فاريد ان ابتاعه لتتم به . فلما رأيته حسن الخط جيد التجليد استحسنته ولم أبال بما ازيد فيه . والحمدلله على ما انعم به من الرزق فهو كثير . قال الحضرمي فاحرجني وحملني على ان قلت له : نعم لا يكون الرزق كثيراً الا عند مثلك . يُعطى الجوز لمن ليس له اسنان . وانا اعلم ما في هذا الكتاب واطلب الانتفاع به يكون الرزق عندي قليلاً وتحول قلة ما بيدي بيني وبينه .

---

(١) دائرة معارف القرن العشرين لمحمد فريد وجدي : صفحة ٧٤

(٢) بغية الوعاة في طبقات اللغويين والنحاة: لجلال الدين السيوطي : صفحة ٢١١

الفصل السادس

مشاهير هواة الكتب في القرن السابع للهجرة

١ ـ الحسن بن محمد الكاتب (٥٤٠ ـ ٦٠٨)

لقب الحسن بن محمد بتاج الدين . واليك ما اثبته عنه معاصره ياقوت الرومي قال (١) : « كان الحسن من الأدباء العلماء حسن الصورة ضخم الجثة كث اللحية طويلها طويل القامة نظيف اللبس ظريف الشكل . وهو ممن صحبته فحمدت صحبته . ولي عدة ولايات وكان من المحبين للكتب والمبالغين في تحصيلها وشرائها . وحصّل من اصولها المتقنة ما لم يحصلْ للكثير . ثم تقاعد به الدهر وبطل عن العمل فرأيته يخرج الكتب ويبيعها وعيناه تذرفان بالدموع كالمفارق لأهله الاعزّاء والمفجوع بأحبائه الاودّاء . فقلت له . هوّن عليك ادام الله ايامك ! فان الدهر ذو دول وقد يُسعف الزمان ويساعد وترجع دولة العزّ وتعاود . فتستخلف ما هو احسن منها وأجود .

« فقال الحسن بن محمد : حسبك يا بني هذه نتيجة خمسين سنة من العمر انفقتها في تحصيل الكتب . وهبْ ان المال يتيسر والأجل يتأخر وهيهات ! فحينئذ لا أحصل من جمعها بعد ذلك الا على الفراق الذي ليس بعده تلاق .

« ثم ادركت الحسن منيته ولم ينل امنيته . وكان حريصا على العلم والف كتباً لا يجسر على اظهارها . وكان مع اغتباطه بالكتب ومنافسته ومناقشته فيها جواداً باعارتها . ولقد قال لي يوماً وانا معجب من مسارعته الى اعارة كتبه للطلبة : ما

---

(١) معجم الادباء : لياقوت الرومي : جزء ٩ صفحة ١٨٥

بخلت باعارة كتاب قط ولا اخذت عليه رهناً . مات الحسن في المدائن وحمل الى بغداد ودفن بمقبرة موسى بن جعفر بباب التين » .

٢ ـ المستنصر العباسي

انشأ المستنصر مكتبة المدرسة المستنصرية على شاطىء دجلة في بغداد سنة ٦٣١ للهجرة . وضم اليها مائتين وتسعين حملاً من الكتب النادرة والاصول المضبوطة سوى ما نقل اليها بعد ذلك حسبما رواه المؤرخ ابن الساعي . وقد عيّن المستنصر العباسي خازناً لمكتبته عبد الرزاق الصابوني المعروف بابن الفوطي (٦٤٢-٧٢٣هـ) صاحب التصانيف النفيسة . نذكر منها كتاب « مجمع الالباب في معجم الاسماء على معجم الالقاب » في خمسين مجلداً . وكتاب « درر الاصداف في غرر الاوصاف » وقدره عشرون مجلداً . وكتاب « الدرر الناصعة في شعر المائة السابعة »

٣ ـ اسامة بن مرشد (٥٢٠ ـ ٦١٥ هـ)

قال ياقوت : أسامة بن مرشد بن منقذ جمّاعة للكتب حضرت داره واشترى مني كتباً . وحدثني ان عنده من الكتب ما لا يُعلم مقداره . الا انه ذكر لي انه باع منها اربعة آلاف مجلد في نكبة لحقته فلم يؤثّر فيها هذا البيع . وسألته عن مولده فقال سنة ٥٢٠ فيكون عمره الى هذا الوقت اثنتين وتسعين سنة .

وكان اسامة أقعد لا يقدر على الحركة . وهو صحيح العقل والذهن والبصر يقرأ الخط الدقيق كقراءة الشبان . الا ان سمعه ثقل وكان ذلك يمنعني من مكاثرته ومذاكرته . وكان السلطان صلاح الدين اقطعه ضياعاً وكان الملك الكامل بن العادل يحترمه(١) .

---

(١) معجم الادباء : جزء ٥ صفحة ٢٤٣

ولأسامة بن منقذ تصانيف عديدة في فنون الادب منها ديوان شعر في جزئين بخطه .

٤ ـ جمال الدين القفطي (توفي سنة ٦٤٦ للهجرة)

جمال الدين علي القفطي المعروف بالقاضي الاكرم كان وزيراً بحلب ومعدوداً من اعظم غلاة الكتب . وتروى حكايات غريبة عن غرامه بالكتب وشغفه بمطالعتها . فانه خلّف مكتبة ثمينة وصفها في ترجمته ابن شاكر صاحب كتاب « فوات الوفيات » المطبوع في القاهرة(١) . وقرأنا عنها في « معجم المطبوعات العربية والمعرّبة » لمؤلفه يوسف بن اليان سركيس ما نصه : « جمع من الكتب ما لا يوصف وقصد بها من الآفاق . وكان لا يحب من الدنيا سواها ... واوصى بكتبه للناصر صاحب حلب وكانت تساوي خمسين الف دينار » .

وأثبت ياقوت الرومي عن جمال الدين القفطي ما نصه(٢) : « كان الاكرم القاضي ابن القفطي جمّاعة للكتب حريصاً عليها جداً . لم ارَ مع اشتمالي على الكتب وبيعي لها وتجارتي فيها اشد اهتماماً منه بها ولا اكثر حرصاً منه على اقتنائها . وحصل له منها ما لم يحصل لاحد » .

٥ ـ بهاء الدين زهير

هو ابو الفضل زهير الملقب بهاء الدين الكاتب وُلد في « وادي نخلة » بمكة سنة ٥٨١ للهجرة . واتصل في الديار المصرية بخدمة الملك الصالح نجم الدين ابن الملك الكامل فاخلص له الولاء في السرّاء والضرّاء . وحدث عنه ابن خلكان قال : كان بهاء الدين زهير من فضلاء عصره واكبرهم مروءة ومن احسنهم نظماً ونثراً وخطاً .

---

(١) فوات الوفيات: جزء ٢ صفحة ٩٧ (٢) معجم الادباء : جزء ٥ صفحة ١٨٧ و١٨٨

ولما رقت حال بها الدين زهير في آخر عمره باع موجوده ولاسيما خزانة كتبه التي قضى حياته كلها في جمعها وفي نسخ بعضها بخطه الانيق . وظل مقيماً في القاهرة حتى ادركته الوفاة بتاريخ ٤ ذي القعـــدة سنة ٦٥٦ للهجرة ودفن بالقرافة الصغرى(١)

ومن شعره قوله وقد غرقت به سفينة فسلم بنفسه

لا تعتب الدهر في خطب رماك به ... إن استردّ فقدماً طالما وهبا

حاسب زمانك في حاليَ تصرفه ... تجده اعطاك اضعاف الذي سلبا

والله قـد جعـل الايام دائرة ... فـلا ترى راحة تبقى ولا تعبا

ورأس مالك وهي الروح قد سلمت ... لا تأسفن لشيء بعدهــا ذهبــا

٦ - ابن العلقمي (توفي سنة ٦٥٦ للهجرة)

اشتغل محمد بن احمد بن العلقمي البغدادي بالادب وأولـع منذ صباه بجمع الكتب . وقد رقّاهُ المستعصم العباسي (١٢٤٢-١٢٥٨ م) الى رتبة الوزارة لانه كان حازماً خبيراً بسياسة الملك . وقد نفى عنه بعض ثقات المؤرخين خبر المؤامرة على الخليفة المذكور حين اغار هولاكو على بغداد . واشتملت خزائن ابن العلقمي على عشرة آلاف مجلد من احاسن المؤلفات (٢) .

٧ - ابو المظفر بن معروف

قرأنا عنه في كتاب « طبقات الاطباء » لابن ابي اصيبعـة ما يأتي : « ومن اعجب شيء منه انه كان قد ملك الوفاً كثيرة من الكتب في كل فن . وان جميع

---

(١) المختصر في اخبار البشر : لابي الفداء : جزء ٣ صفحة ١٩٧

(٢) شرح مجاني الادب : للاب لويس شيخو : جزء ٥ صفحة ٩٤٠ .

كتبه لا يوجد شيء منها الا وقد كتب على ظهره ملحاً ونوادر مما يتعلق بالعلم الذي قد صنّف ذلك الكتاب فيه . وقد رأيت كتباً كثيرة من كتب الطب وغيرها من الكتب الحكمية كانت لابي المظفر وعليها اسمه . وما من شيء الا وعليه تعاليق مستحسنة وفوائد متفرقة مما يجانس ذلك الكتاب .

٨ ـ محمد بن حسن القامي التميمي

كان جدّه ميمون التميميّ قاضياً في قلعة بني حماد بالجزائر . فنشأ الحفيد فيها ثم انتقل الى بجاية مستوطناً وبها قرأ وبرع . وجمع خزانة حفلت بالمخطوطات النحوية والادبية والتاريخية وغيرها . وعُرف بالمروؤة والسخاء والفضل فكانت يده وأيدي الطلبة في كتبه سواء لا مزية له عليهم فيها . وكان ينشد في ذلك قائلا :

كتبي لاهل العلم مبذولة   يدي مثل يدهم فيها

فانها يا محسنٌ كتبهم   وظيفة الاشياخ غضيها

وصنف القلعي بعض الكتب منها كتاب « الموضح » في علم العربية . وتفردّ في الخط الجيّد ونظم الشعر الطليّ فقيل عنه انه كان اكثر الناس شعراً . فكان ينشد منه في كل عام ما يوازي ديواناً وحلّت منيته عام ٦٧٣ للهجرة (١) .

---

(١) تعريف الخلف برجال السلف ؛ جزء ٢ صفحة ٢٥٩

الفصل السابع

مشاهير هواة الكتب في القرن الثامن للهجرة

١ – ذو الوزارتين ابن الحكيم الرندي (٦٦٠ ـ ٧٠٨ هـ)

ولد الشيخ ذو الوزارتين ابو عبدالله بن عبدالرحمن بن ابرهيم بن يحيى الحكيم اللخمي في رنده بالاندلس . وكان كاتباً بليغاً ينتمي الى بيت كبير في اشبيلية .

قدم مدينة غرناطة ايام السلطان ابي عبدالله محمد بن محمد بن نصر لدى رجوعه من الحج فالحقه السلطان بديوان الانشاء . ولما توفي هذا السلطان وتقلد زمام المملكة ولي عهده ابو عبدالله المخلوع قلده الكتابة والوزارة واشرك معه اباسلطان عبد العزيز بن سلطان الداني . وعلى اثر وفاة ابي سلطان انفرد بالوزارة واطلق عليه لقب ذي الوزارتين . فصار صاحب القول والطول الى ان توفي قتيلا في غرناطة يوم خلع سلطانه وتوجيه الخلافة الى اخيه امير المسلمين ابي الجيوش .

واشتهر ذو الوزارتين بالادب والشعر وحسن الخط فكان يكتب خطوطاً متنوعة جميلة . وكانت له صبابة باقتناء الكتب جمع من أمّاتها العتيقة واصولها الرائقة الانيقة ما لم يجمعه في تلك الاعصر احد سواه ولا ظفرت به يداه . وقال لسان الدين انه احيا معالم الادب واكرم العلم والعلماء . ولم تشغله السياسة ولا عاقه تدبير الملك عن المطالعة والسماع . وافرط في اقتناء الكتب حتى ضاقت قصوره عن خزائنها واثرت انديته من ذخائرها . وقد استولت ايدي الغوغاء يوم قتله على تلك الكنوز الثمينة فنهبتها واتلفتها(١)

---

(١) الاحاطة في اخبار غرناطة : تأليف لسان الدين الخطيب : جزء ١ صفحة ٣٠٥ ونفح الطيب : جزء ٣ صفحة ٢٥٨ ـ ٢٦٣

٢ - امير المؤمنين ابو يحيى اللحياني

هو زكريا ابو يحيى ابن الامير ابي العباس احمد ابن الشيخ ابي عبدالله محمد اللحياني ابن المولى عبد الواحد ابن ابي بكر ابن الشيخ ابي حفص عمر اخذ له البيعة بالخلافة شيخ دولته محمد المزدوري . فأقبل هو بعد ذلك الى تونس ونزل المحمدية وجُدّدت له البيعة هناك بحضور الجند وخاصة الشعب وعامتهم . وكانت لابي يحيى اللحياني مشاركة في العلم والادب وعناية كبرى باقتناء الكتب . وقد انشأ منها خزانة جديرة بالاعتبار بيعت في الورّاقين عندما تحركت عليه البلاد . فخرج الى قابس ثم الى طرابلس الغرب بعد ما باع كل ما في القصر . وحمل معه الاموال والذخائر ونحو عشرين قنطاراً من الذهب سوى الفضة والدر وغير ذلك . وطالت مدة خلافته من سنة ٧١١ الى سنة ٧١٧ للهجرة(١)

٣ - داود التركماني

كان داود بن يوسف بن عُمر بن رسول التركماني من فقهاء عصره . كلف بالكتب منذ نعومة اظفاره فجمع خزانة عظيمة احتوت على مائة الف مجلد من المخطوطات ووافته المنون في شهر ذي الحجة سنة ٧٢١ للهجرة(٢)

٤ - ناصر الدين العسقلاني (٦٤٩ - ٧٢٣ للهجرة)

ابتلي ناصر الدين العسقلاني بفقد البصر وبالرغم من ذلك فقد كان من اعاظم جماعي الكتب في عصره . فانه خلف ثماني عشرة خزانة مرصوفة بالكتب الادبية

---

(١) المؤنس في اخبار افريقية وتونس لابن ابي دينار : صفحة ١٣٤

(٢) جريدة «الاقبال» بيروت : مجلد ٥ عدد ١٥٤ في ٢ تموز ١٩٠٦

والعلمية المعتبرة . وكان اذا لمس الكتاب او جسه قال : « هذا الكتاب عنوانه كذا وثمنه كذا وملكته في الوقت الفلاني » . وكان اذا اراد مجلداً قام الى خزانته وتناوله بيده كمن قد وضعه في محله حديثاً مع انه مر زمان طويل لم يلمسه . وكانت زوجته خبيرة مثله بالكتب واثمانها . ولبثت تبيع منها الى السنة ٧٣٩ هـ اي ستة عشر عاماً بعد تاريخ وفاة زوجها(١)

٥ ـ علاء الدين البكرجي (٦٩٠ ـ ٧٦٢ هـ)

هو الحافظ علاء الدين ابو عبدالله بن قليبج بن عبدالله البكرجي كان محدثاً مشهوراً في زمانه . مال منذ نعومة اظفاره الى تحصيل المعارف خلافاً لمشيئة والده الذي كان يرسله ليرمي بالنشاب . فصار يتردد على حلقة اهل العلم ويحضرها ولم يكن مَن يُتقن اصول الحديث وفروعه خيراً منه . ومن تصانيفه كتاب « الواضح المبين في ذكرِ مَن استشهد من المحبين » حصلت له بسببه محنة ومنع تجار سوق الكتب من بيعه .

روى صلاح الصفدي عن علاء الدين انه كان كثير المطالعة والدأب والكتابة . ولديه خزانة عمرت بكتب كثيرة جداً اقتناها بجهوده وبما خطته يده من الاسفار . وما زال يدأب ويكتب الى ان مات سنة ٧٦٢ للهجرة في المهدية خارج باب زويلة بالقاهرة ودُفن بالريدانية (٢) .

٦ ـ زين الدين القرشي (توفي سنة ٧٩٢ هـ)

كان زين الدين القرشي من فطاحل علماء دمشق في عصره . واشتهر باقتناء

---

(١) فوات الوفيات : مجلد ١ صفحة ١٨٢

(٢) لحظ الالحاظ بذيل طبقات الحفاظ : لتقي الدين الهاشمي المكي : صفحة ١٣٣

الكتب التي امتلك من نفائسها عدداً وافراً . ولما اعتقل هو وابنه في قلعة دمشق بأمر الملك الظاهر برقوق رهن كثيراً من خزائن تلك الكتب تسديداً للمبلغ المفروض عليها .

٧ - ابو عيسى بن لبون

كان ابو عيسى بن لـبّون من قوّاد المأمون بن ذي النون . واشتهر بالعلم وجمع الكتب اشتهاره بالشجاعة وكرم الاخلاق . وخلّف شعراً رقيقاً نثبت منه هذه الأبيات . وقد اتى فيها على وصف مكتبته وعلى شديد كلفه بها(١) .

نفضتُ كفي من الدنيا وقلتُ لها　　اليكِ عني فما في الحق أغتبنُ
من كسرِ بيتي لي روض ومن كتبي　　جليس صدقٍ على الأسرار مؤتمن
ادري به ما جرى في الدهر من خبر　　فعنده الحق مسطور ومختزن
وما مصابي سوى موتي ويدفنني　　قوم وما لهمْ علم بمن دفنوا

(١) نفح الطيب : جزء ٢ صفحة ٣٣٨

الفصل الثامن

مشاهير هواة الكتب فى القرن التاسع للهجرة

١ ـ ابن الملقن

حدّث ابن العماد عن ابن الملقن قال : انه كان جمّاعة للكتب حريصاً عليها ثم احترق غالبها قبل موته . وكان ذهنه سليماً الى حين احتراقها . وقد تغيّر حاله بعد ذلك لشدة كمده على فقدان كتبه . فحجبه ابنه الامام نور الدين علي عن الناس حتى وفاته في ١٦ ربيع الاول سنة ٨٠٤ للهجرة(١)

٢ ـ احمد بن اسماعيل الحسباني

هو الحافظ شهاب الدين ابو العباس ابن الحسباني احمد بن اسمعيل وُلد في دمشق سنة ٧٤٩ للهجرة . واكب على تحصيل الفقه وبرع في علم العربية حتى احرز قصبة السبق على اقرانه في فنون شتى واصبح احد الائمة الاعلام . واشتغل احمد بالتاليف وجمع من الكتب والاصول في مصره مـــا لم يكن عند احد من علماء عصره . لكن تلك الكتب وتلك الاصول بادت عام ٨٠٣ للهجرة في حريق هائل أسعر تيمورلنك نيرانه مدة ثلاثة ايام متوالية(٢) . فاحترقت حينذاك جميع بيوت دمشق ومعابدها ومدارسها ومكتباتها واسواقها على بكرة ابيهـا ولم يبقَ فيها حجر على حجر(٣) . ومات الحافظ شهـاب الدين سنة ٨١٥ للهجرة ودفن في صالحية دمشق .

---

(١) لحظ الالحاظ بذيل طبقات الحفاظ : لتقي الدين الهاشمي المكي : صفحة ٢٠٢

(٢) لحظ الالحاظ بذيل طبقات الحفاظ : لتقي الدين الهاشمي المكي : صفحة ٢٤٤

(٣) خطط الشام : جزء ٦ صفحة ١٩٨

الفصل التاسع

مشاهير هواة الكتب في القرن العاشر للهجرة

١ ـ يوسف بن حسن عبد الهادي

كان يوسف من علماء صالحية دمشق وعرف بابن المبرّد . وادرك اوائل القرن العاشر للهجرة . وقبل وفاته وقف خزائن مخطوطاته التي بلغت الف مجلد ونيّفاً . فكان بعضها من تصنيفه بخط يده . وبعضها مجاميع شتى تشتمل على عدة مؤلفات ورسائل ذات شأن وفائدة . يدل ذلك على شدة عنايته بجمع الكتب والتدقيق فيها[١] ولابن المبرد تأليف مبتكر في بابه عنوانه « نزهة الرفاق عن شرح حال الاسواق » عدّد فيه اسماء مائة وخمسين سوقاً من اسواق دمشق في زمانه[٢] .

٢ ـ ابن المويد (توفي سنة ٩٢٢ للهجرة)

هو المولى عبد الرحمن بن عليّ الشهير بابن المؤيد انشأ خزانة جمع فيها غرائب من الكتب . وفيها كتب لم يسمع بها ولم يطلع عليها احد من ابناء الزمان . وكان المؤيد من علماء عصره ألف رسالة عنوانها « الكرة المدحرجة » .

٣ ـ عبيدالله جلبي (توفي سنة ٩٣٦ للهجرة)

كان قاضياً بحلب واشتهر بالعلم والاخلاق الحميدة . وتجاوز كرمه حد الاسراف

---

(١) حبيب الزيات : خزائن الكتب في دمشق وضواحيها : صفحة ١٤

(٢) المشرق : مجلد ٣٧ سنة ١٩٣٩ صفحة ١٨ ـ ٢٨

فبذل امواله في الاحسان واقتناء المخطوطات التي ملك منها على ما يروى عشرة الآف مجلد . ووضع لتلك المخطوطات فهرساً في مجلد ضخم ضمنه عنوان كل مخطوط واسم مؤلفه وغير ذلك من الفوائد . واستحضر الى داره أمهر المجلدين في حلب فجددوا جلود بعض المخطوطات ورمموا البعض الآخر . وكان القاضي عبيدالله سخياً وقوراً عارفاً باللسانين العربي والعبراني (١) . ومن مصنفاته شرح القصيدة المسماة بالبردة (٢) .

٤ ـ سعدالله ابن عيسى

وُلد سعدالله في قسطموني ثم ارتحل مع والده الى اسطنبول حيث نشأ على طلب العلم وقرأ على جهابذة عصره . وتولى منصب الافتاء في دار الخلافة حتى وافته المنية عام ٩٤٥ للهجرة . وكان سعدالله ممن صرفوا جميع اوقاتهم في الاشتغال بالعلم . وقد ملك كتباً جمة واطلع على عجائب من الكتب . وله الفضل في تشييد « دار القراء » قريباً من منزله في اسطنبول (٣) .

٥ ـ محمد بن قنبر (توفي سنة ٩٦١ للهجرة)

كان محمد بن خليل بن قنبر واعظاً بليغاً مصقعاً ومعاصراً للقاضي عبيدالله جلبي السابق ذكره . وكلف مثله بجمع المخطوطات النفيسة وتحسين جلودها واصلاح ما رثّ منها . ومما يؤثر عنه انه كان حريصاً على كتبه كل الحرص ضنيناً بها لا يعيرها الا لمن يؤمنه عليها . وكان ابن قنبر متموّلاً لطيف المعاشرة عارفاً باللغات العربية والفارسية والتركية (٤)

---

(١) اعلام النبلاء بتاريخ حلب الشهباء : تأليف محمد راغب الطباخ : جزء ٦ صفحة ٣٢

(٢) الشقائق النعمانية في علماء الدولة العثمانية (راجع هذا الكتاب مطبوعاً على هامش كتاب « وفيات الاعيان » لابن خلكان : جزء ٢ صفحة ٧٢) .

(٣) الشقائق النعمانية في علماء الدولة العثمانية جزء ٢ صفحة ٤٣ ـ ٤٥

(٤) اعلام النبلاء بتاريخ حلب الشهباء جزء ٦ صفحة ١٥

الفصل العاشر

مشاهير هواة الكتب في القرن الحادي عشر للهجرة

١ ـ سنان باشا

كان سنان اشهر مهندس تركي ذكره التاريخ في العصور السالفة وهو يُعرف بلقب الخوجا معمار سنان . وكان سر عسكر السلطان عند فتح طرابلس الغرب على يد السنجقبك طورغود بعد استيلاء فرسان مالطة عليها . وكان سنان باشا وطورغود كلاهما نصرانيي الاصل وقد اسلما ليترقيا في الرتب العسكرية (١) . وفتح سنان باشا « حلق الوادي » بتونس وكان الفرنج قد استولوا عليها بسبب اختلاف وقع بين سلاطين المغرب من بني حفص في آخر ايامهم . وحارب النمسا ايضاً وولاه السلطان مراد الثالث سنة ٩٨٨ للهجرة (١٥٨٠ م) منصب الوزارة العظمى . وحلّت وفاته سنة ١٠٠٤ للهجرة(٢) بعدما خلّف عشرات من التصور والجوامع والحامات والاسواق في الاستانة وبروسه وبغداد ودمشق ومكة وغيرها من مدن السلطنة العثمانية .

ولما وقع الاضطراب في اليمن ارسل السلطان مراد الثالث وزيره سنان باشا على راس جحفل عظيم لفتح تلك البلاد واخضاع الثائرين فيها . فنهض الوزير بمهمته طبقاً لأوامر مولاه

ولم تقتصر شهرة سنان باشا على ما أحرزه من المفاخر العسكرية بل تناولت شهرته كلتا الناحيتين العلمية والفنية . وقد ساعدته مواهبه على القيام بتلك

---

(١) de Hammer : Histoire de l'Empire Ottoman, VI, 166-180

(٢) دائرة المعارف للبستاني : مجلد ١٠ صفحة ٩٩

الانشاآت الباهرة التي لم يتسنّ لغيره من رجال السلطنة العثمانية ان يُقدم على مثلها في غابر الازمنة . ذلك ما حدا الجمهورية التركية عام ١٩٣٥ على ان تجمع آثار هذا القائد العظيم لتدونها في كتاب خاص تخليداً لذكره . فطلب الينا قنصلها في بيروت ان نضع تقريراً ضافياً نضمنه جميع ما هو معروف عن سنان باشا من الاخبار والآثار في البلاد الشرقية . فلبينا طلبه وجمعنا الشيء الكثير مما يجدر ان يثبته المؤرخون عن الوزير المشار اليه .

ومن جملة ما اثبتناه في تقريرنا بعد التحقيق والتدقيق ان سنان باشا كان من اكبر غلاة الكتب النفيسة وهواتها . وقد حمله شغفه بها ان وجّه الوفود الى شتى الاصقاع ليجمعوا له ما ندر وغلا من تلك الذخائر الكتابية . هكذا احرز سنان طائفة معتبرة من المخطوطات اقتناها من اليمن وسوريا والعراق ومصر وتونس . ثم نقلها في اواخر ايامه الى الاستانة . ومن بدائع مخلفاته مائة وستون مصحفاً مرصعة بالدرر والجواهر وخمسة وثلاثون صندوقاً مملوءة بكتب لا تقدّر بثمن . وكانت تلك الصناديق مرصعة باليواقيت والمعدن(١)

٢ - القشاش المغربي (٩٨١ - ١٠٣١ للهجرة)

هو الشيخ ابو الغيث المعروف بالقشاش المغربي وُلد بتونس وساح لتحصيل العلم والادب فاحرز منها قسطاً وافراً . ثم تغيرت اطواره وظهرت منه حركات متباينة وكلمات متنافية . وكان تارة يقول انه المهدي وطوراً يدّعي معرفة الغيب فيخرج في ذلك عن طور العقل . فتبعه خلق كثير وقاموا بنصرته وترويج مدعاه . وبقي متاون الاحوال يتنقل من طور الى طور : فتارة يلبس عمامة العلماء الكبار

---

(١) خطط الشام : لمحمد كردعلي : مجلد ٦ صفحة ١٩٤ وكتاب « الاسلام والحضارة العربية » للمؤلف نفسه : جزء ٢ صفحة ٣٢٣

ويرتدي اثوابهم ويعقد حلقة درس يفيد بها الطلاب . وتارة يطوف الجبال عرياناً في زي المجانين الى ان ترك التلوّن واختار السكون والتمكن .

واشتهر بالسخاء والاحسان للمشاريع المبرورة فابتنى اثنين وثلاثين مسجداً وزاوية وجامعاً . وشيّد ما لا يُعد من المدارس الرفيعة والقناطر المنيعة وحبس على كل منها اوقافاً عظيمة . وكان يبذل في فك اسرى المسلمين اموالاً كثيرة . وجمع من نفائس الكتب ما لا يُعد ولا يحصى ومن جملة ما وُجد في خزانة كتبه الف نسخة من البخاري وقس عليه الباقي(١)

٣ ـ عبد القادر العيدروس (٩٧٨ ـ ١٠٣٨ هـ)

هو عبد القادر بن شيخ بن عبدالله العيدروس الحضرموتي الهندي احد اكابر علماء الحضارمة ترجم نفسه هو في تاريخه « النور السافر عن اخبار القرن العاشر » فقال ما ملخصه : ولدت بمدينة احمد آباد من بلاد الهند. . الى ان قال : قرأت عدة متون على جماعة من العلماء وتصديت لنشر المعارف وشاركت في كثير من الفنون . واعملت الهمة في اقتناء الكتب المفيدة وبالغت في طلبها من اقطار البلاد مع ما صار اليّ من كتب والدي فاجتمع عندي جملة . ولما بلغني ان سيدي الشيخ عبدالله العيدروس قال : من حصّل كتاب « احياء علوم الدين » وجعله في اربعين جلداً ضمنت له على الله بالجنة، حصّلت ذلك الكتاب بهذه النية . وطالعت كثيراً من الكتب ووقفت على اشياء غريبة . ولعبد القادر عيدروس مؤلفات جمة لم يسبقه احد الى مثلها(٢).

٤ ـ حاجي خليفة (١٠٠٤ ـ ١٠٦٧ هـ)

حاجي خليفة ويعرف ايضاً باسم الحاج خليفة او مُلا كاتب جلبي او شلبي .

---

(١) خلاصة الاثر في اعيان القرن الحادي عشر لمحمد المحبي : مجلد ١ صفحة ١٤٠ و ١٤٢
(٢) خلاصة الاثر : جزء ٢ صفحة ٤٤٠ و ٤٤٢

كان رئيس كتبة اسرار السلطان مراد الرابع ووزير المالية في ايام سلطنته . ولد في القسطنطينية وفيها نوفي وارتحل الى بغداد وهمدان وصحب الصدر الاعظم محمد باشا الى حلب ومنها الى مكة حيث قضى فريضة الحج . ومن ذلك الحين سمّي حاجي وتفرغ للعلم .

وكان في اثناء اقامته في حلب يختلف الى حوانيت باعة الكتب ويتصفح ما فيها وما يرد اليها من المخطوطات والرسائل . فكلف بالكتب وعقد النية على تأليف كتاب يضمنه اسماء الكتب والمؤلفين . ولما عاد الى وطنه ارتاشت احواله بمال ورثه . فابتاع به طائفة من المصنفات وازدادت رغبته في انجاز ما شرع به . وفي السنة ١٠٤٨ مات تاجر غني من اقاربه وخلّف له مالاً وافراً استعان به على اصلاح حاله والانقطاع الى طلب العلم والتصنيف . فانفق الحاج خليفة جانباً عظيماً من تلك الثروة في اقتناء الكتب حتى تجمّع لديه خزانة عدّت من اغنى الخزائن. وهكذا تسنى له ان يضع كتابه « كشف الظنون » الذي كشف النقاب عن كثير من الكتّاب وتآليفهم التي لولاه لطمس عليها الزمان ودخلت في عالم النسيان. فأدى بذلك خدمة جليلة استحق لاجلها الثناء المخلد من جميع الباحثين عن علوم العرب وادبائهم .

٥ ـ الشيخ احمد العجمي المصري (١٠١٤ ـ ١٠٨٦ هـ)

كان من اجلاء علماء مصر واليه النهاية في معرفة التاريخ وايام العرب وانسابهم. وكان مرجعاً لأفاضل عصره في القضايا المشكلة لطول باعه وسعة اطلاعه وكثرة الكتب التي جمعها في داره . وله من التاليف : « شرح ثلاثيات البخاري » و « رسالة في الآثار النبوية » . وجمع لنفسه مشيخة وعليها خطه وعنها نقل المحبي كثيراً من وفيات علماء مصر في كتاب « خلاصة الاثر »

وقد اثني الخياري (١٠٣٧ ـ ١٠٨٣ هـ) على احمد العجمي في رحلته « تحفة الادباء وسلوة الغرباء » وقال في آخر ترجمته « انه مستجمع للعلم والحلم والظرف،

ومستكمل في الفضل : الاسم والفعل والحرف . تفنن في العلوم العقلية والنقلية، الفرعية والاصلية، فاخذها عن اهلها واوصل الامانة الى محلها . وقد جمع من الكتب المؤلفة في سائر العلوم والفنون فأوعى . وحصلها بسائر اقسامها فصلاً وجنساً ونوعاً . بحيث اصبح بمصر خزانة العلم الذي عليه في النقل يعوّل واليه في ذلك يُشار . وعمدة الفضلاء الذين يرِدون من معين كتبه البحّار »(١)

٦ ـ شرف الدين زكريا الانصاري السنيكي (١٠٣٠ - ١٠٩٢ هـ)

هو شرف الدين بن زين العابدين بن محيي الدين بن ولي الدين بن جمال الدين ابن القاضي زكريا بن محمد بن زكريا الانصاري السنيكي المصري الشافعي كان صدراً من صدور زمانه معظماً عند العلماء . وقد صنف مؤلفات عديدة منها «الطبقات» ذكر فيها شيوخه وعلماء عصره . وكان له اعتناء تام بالاسانيد ومعرفة الشيوخ ومواليدهم ووفياتهم . وكانت خزائن كتبه عامرة بحيث اجتمعت لديه مخطوطات جده شيخ الاسلام وسائر اسلافه على كثرتها . ثم اضاف اليها ما يوازيها عدداً بالشراء والاستنساخ . فكان اذا اتاه احد بكتاب بليغ لا يخرجه من بيته ولو بزيادة على ثمن مثله . وكان حريصا على خطوط العلماء ضنينا بها يجمعها ويتباهى بها . وقد احصى بعضهم في خزائنه ثمانية عشر نسخة من «طبقات السبكي الكبرى» وثمانية وعشرين شرحا على «البخاري» واربعين تفسيراً الى غير ذلك . ولما مات تفرقت كتبه شذَرَ مذر وكانت تباع بالزنبيل بعد ان كان يشح بورقة منها (٢)

---

(١) خلاصة الاثر : جزء ١ صفحة ١٧٦

(٢) خلاصة الاثر : جزء ٢ صفحة ٢٢٢ ـ ٢٢٣

الفصل الحادى عشر

مشاهير هواة الكتب فى القرن الثانى عشر للهجرة

١ ـ الامير امين بن محمد القسطنطيني

وُلد هذا الامير بدمشق سنة ١١٣٦ للهجرة واخذ الخط المنسوب عن عبد الرحمن بن محمد العُمري. وشرع يتردد منذ حداثته على الادباء ويصاحب الشعراء والنبلاء. واشترى مخطوطات نفيسة على اختلاف العلوم والفنون واستكتب اكثرها وجمع الوفاً منها. لانه كان ولعاً بمطالعة الكتب القديمة التي تبحث عن الادب والتاريخ واللغة. ولذلك حفظ اشعار العرب ووقائعهم والشيء الكثير من نكتهم ونوادرهم يوردها في مجالس الانس والادب. ولما توفي والده واخوته توالت عليه المحن واثقلته الديون وساءت احواله.

وعلى رغم تلك الخطوب ما انفك الامير امين عن تحصيل الكتب واقتنائها ومطالعتها وحضور الدروس وزيارة الاعيان والاختلاف الى دور الوزراء. ومما يؤثر عنه انه ما طلب احد منه كتاباً على سبيل العارية الا ارسله اليه هدية في جملة كتب اخرى(١). واثبت صاحب الترجمة انه ما نظم من الشعر في حياته الا بيتين وهما:

كن ليناً في الناس واحذر ان ترى ... فظّ الطبيعة انه لم يُحسنِ
انظر الى الاكحال وهي حجارة ... لانت فصار مقرّها في الاعينِ

---

(١) سلك الدرر: جزء ١ صفحة ٢٧٥

٢ ـ ابو العباس التنبكتي

كان ابو العباس احمد بابا التنبكتي من جلة علماء زمانه واشتهر بجمع المخطوطات النفيسة والمحافظة عليها في خزائنه . وعلى وفرة عددها في ذلك العهد فان ابا العباس كان شديد الحرص عليها وطالما قال لمن حوله : « انا اقل عشيرتي كتباً وذهبت لي ست عشرة مائة مجلد (١) » . ولا نعلم السنة التي حلت فيها وفاته

٣ ـ احمد الشريف الورتيلاني

يروى عن الشريف الورتيلاني انه جمع في داره خزانة كتب ثمينة قل وجود نظيرها عند غيره في عصره . ولما تفشى الوباء في بلدته وجرف مَن جرف مِن سكانها لم يبق للشريف الا طفلان صغيران لأنه نكب بجميع اهل بيته وجيرانه . فتبعثرت كتبهُ على بكرة ابيها بعد وفاته وتبددت ثروته وضاعت املاكه (٢) . ولم نعثر على سنتي ولادته ووفاته .

---

(١) تعريف الخلف برجال السلف : تأليف ابي القاسم محمد الحفناوي : مجلد ١ صفحة ١٣
(٢) تعريف الخلف برجال السلف : مجلد ٢ صفحة ٥٨

الفصل الثاني عشر

مشاهير هواة الكتب في القرن الثالث عشر للهجرة

١ - احمد بن طه الاشرفي (توفي سنة ١٢٢٩ للهجرة)

عُرف الشيخ احمد بن طه الاشرفي بعلمه وادبه وورعه وتولى الخطابة بالجامع الكبير في حلب . وكان من مشاهير الكتبيين في عصره مغرماً بجمع الكتب والحرص عليها . ويؤثر عنه انه رمّم مسجداً قديماً في خان قباد فاصلحه وجعله لائقاً بالصلاة والعبادة(١) . وقرأنا اسم هذا الخطيب الحلبي في منظومة الشيخ وفاء قال(٢) :

والاشرفيّ من شمال التربه - منفرداً جاور فيه ربّه
كان خطيباً حسن الشمائل وفاضلا يعد في الافاضل
عن الحرام والرشا منكفا وقصة المسجد ليس تخفى

٢ - محمود قبادو التونسي (توفي سنة ١٢٨٨ للهجرة)

كان ابو الثناء محمود قبّادو في طليعة اركان النهضة الادبية بتونس في منتصف القرن التاسع عشر . واشتهر بجودة الانشاء وسرعة الخاطر في ارتجال الشعر دون حبسة ولا تلعثم . وكان كلفاً بجمع الكتب ولاسيا المخطوطات ينتقي انفسها وينفق عليها بسخاء ويسعى في احرازها بكل الوسائل . وكانت زوجته تعترضه في ذلك ولها عليه نفوذ كلمة . فاذا اراد ان يشتري كتاباً دخلَ البيت بحجة استنشاق السعوط فيضع الدراهم خلسة في المسعط خيفة من زوجته ويعود الى البائع ناشداً ضالته . هكذا تجمعت لديه مكتبة كبيرة بيعت من بعده لانه توفي

(١) المشرق : مجلد ٣٨ سنة ١٩٤٠ صفحة ٣٧٩ (٢) منظومة الشيخ وفا في اوليا حلب : مخطوطة المكتبة الشرقية : رقم ١٥٩٨ اسطر ٣٧٠ - ٣٧٢ .

عقيا (١) . ومن بديع شعره قوله ملغزا في الكتاب :

يا ايها الشيخ الذي لم يزل تزدحم الناس على بابه
ما ذو وجوه كلما سوّدت كان وجيها عند اربابه

وحدث الاب لويس شيخو عن ابي الثناء محمود قبادو انه كان ذا ذاكرة عجيبة لا ينسى شيئاً مما سمعه . قيل انه سمع يوماً رسالة افرنسية العبارة وهو يجهل تلك اللغة فأعادها بحرفها (٢) .

٣ ـ علي باشا ابرهيم المصري

وُلد علي سنة ١٢٤٢ للهجرة في القاهرة وحصّل العلوم في مدارس مصر وباريس واتمها في مدرسة « متس » العسكرية . وبعد رجوعه الى وطنه عيّنه عباس باشا الاول استاذاً خاصاً لنجله الهامي باشا واول معاون في نظارة الحربية . ثم أنيطت به رئاسة المدرسة التجهيزية في عهد الخديو اسمعيل ونظارة المعارف في عهد توفيق الاول . ومن آثاره انشاؤه مدارس عديدة وتاسيسه شعبة في مدرسة العميان لتعليم الصم والبكم فن الكتابة والعلوم القرآنية . وهو اول من شرع في منح الشهادات الدراسية لطلبة الصفوف الثانوية والعالية في المدارس الاميرية .

وأولع علي باشا ابرهيم بالمطالعة والتأليف وخصوصاً باقتناء الكتب مخطوطة ومطبوعة . فجمع منها في قصره مكتبة نادرة المثال حوت الشيء الكثير من تالد الكتب وطارفها في شتى المواضيع العقلية والنقلية (٣)

٤ ـ العباس بن امير المؤمنين المغربي

هو العباس ابن امير المؤمنين مولاي عبد الرحمن اشتهر في المغرب الاقصى بعلو كعبه في المعارف وشغفه بجمع الكتب . وانتشرت كتبه بعد موته في جميع الانحاء

---

(١) عن مقالة لعيسى المعلوف في جريدة « النهار » البيروتية : سنة ٥ عدد ١٣٦٩ في ٢٣ نيسان ١٩٣٨ (٢) الاداب العربية في القرن التاسع عشر : جزء ١ صفحة ١٠٤

(٣) مرآة العصر في تاريخ ورسوم اكابر رجال مصر : تاليف الياس زخورا : جزء ١ صفحة ٩٥

حتى انك لا تكاد ترى خزانة من الخزائن الاسلامية والاوروبية ذات الشأن خالية منها . زد عليه ان كتبه باجمعها قد علق عليها تعاليق وحواشي وتحابيس بخط يده . ولعلك تعثر في بعضها على ساعة ابتدائه بمطالعة الكتاب وعلى ساعة فراغه منه . وانقضى اجل العباس خارج مراكش في شهر شعبان سنة ١٢٩٦ للهجرة(١)

٥ – عبد الحميد نافع

عاش عبد الحميد بك نافع في القاهرة وكان من أدباء القرن الثالث عشر للهجرة . واشتهر بجمع الكتب ولا سيما المخطوطات يستجلبها من الاقطار القريبة والبعيدة . واستخدم عدة نسّاخ جاد عليهم بالمرتبات فاختصوا بالنسخ له لا يشتغلون لغيره . وكان يفاخر بعض ادباء عصره في ذلك وينافسهم .

ويروى ان تاجراً من الورّاقين قدم من سفر في كتب اوصاه عبد الحميد نافع بشرائها له وبينها ديوان البحتري . ولم يكن قد طبع الديوان لذلك العهد بل لم يكن يعرف في مصر الا بالاسم فقط . واتفق ان احد المنافسين لعبد الحميد في جمع المخطوطات شعر بخبر هذا الديوان . فأسرع الى الورّاق وبذل له مالا فوق قيمة الديوان على ان يعيره اياه يوماً وليلة فقط . فرضي الورّاق وأعاره اياه . فلما اتى به الى داره دفعه الى المجلد ففك له تجليده . ثم استحضر من فوره عدة نسّاخ فرق عليهم كراريس الديوان فنسخوه وضبطوه وقابلوه . ولم يمض اليوم والليلة الا وقد نجز نسخ الديوان وردت النسخة الاصلية مجلدة الى الورّاق طبقاً للاتفاق .

وبعد حين ذهب عبد الحميد الى زيارة صديقه متأبطاً ديوان البحتري وجعل يفاخره باحرازه له واختصاصه به . فما كان من الصديق الا ان قال له : « خفّض من غلوائك يا أخي . هذا شيء أكلنا عليه وشربنا حتى مججناه ! » قال هذا ثم نهض الى خزانته فاخرج منها نسخة الديوان ... (٢)

---

(١) اتحاف اعلام الناس : تاليف عبد الرحمان بن زيدان : جزء ٤ صفحة ٤١٢

(٢) تراجم اعيان القرن الثالث عشر واوائل الرابع عشر : بقلم احمد تيمور باشا : صفحة ١٠٦ و ١٠٧

الفصل الثالث عشر

مشاهير هواة الكتب في القرن الرابع عشر للهجرة

١ - عبد الغني فكري

هو عبد الغني بك فكري بن لطف الله بن حسين . ولد بالقاهرة ونشأ بها وتعاطى وظائف الحكومة المصرية مدة حياته حتى تولى القضاء في المحاكم الاهلية على عهد الخديو توفيق الاول (١٨٧٩ - ١٨٩٢) . وكان عبد الغني جمّاعة للكتب مغالياً في اقتنائها شراء واستنساخاً . وانفق عليها جل ما كان يصل الى يده . واحيا الليالي في مقابلة ما استنسخه منها او صححه او ضبطه .

وحلّت وفاة عبد الغني سنة ١٣٠٧ للهجرة (١٨٨٩ م) وخلف خزانة كبيرة قلما ضارعتها خزانة في نفائس كتبها ونوادر اسفارها . وقد افنى عمره في جمعها واتعب نفسه في تصحيحها وضبطها . وتولى صقل الورق لنسخ ما كان يستنسخه منها واتخذ في داره مصنعاً لتجليدها وتجديدها . زد على ذلك ما تكلفه من السعي للبحث عن المخطوطات عند الورّاقين وفي الخزائن المهجورة .

وكان لعبد الغني فكري نجل اسمه محمد اكمل عاش في البذخ والاسراف فبدد جميع ما خلفه والده من اطيان ونقود وكتب . واقتنى طائفة مهمة من ذخائرها احمد تيمور باشا والكونت لندبرج قنصل اسوج بمصر . وبينها مخطوطات نسخها عبد الغني وعلق على حواشيها بخط يده[١]

---

(١) تراجم إعيان القرن الثالث عشر واوائل الرابع عشر : لاحمد تيمور باشا : صفحة ١٠٣ و١٠٧

٢ ـ الشيخ ميرزا حسين النوري الطبرسي

كان الشيخ ميرزا ولعاً بجمع المخطوطات وله في هذا السبيل نوادر غريبة تدل على شديد افتتانه وعظيم بلائه بالكتب. من ذلك انه وجد يوماً في سوق كربلا كتاباً عند امرأة كان ينشده فاستامها عليه فارضاها. ولما اراد دفع ثمن الكتاب كان جيبه خالياً خاوياً. فعمد الى حلته الثمينة فخلعها وباعها في سوق كاسدة بثمن تافه. هكذا ابتاع المخطوط من تلك المرأة بلجاجة غريبة. وبالجملة فان خزانة كتبه كانت من احفل خزائن الكتب الكبيرة. ويحكى انه كان بين مخطوطاتها الف مجلد عليها خطوط مؤلفيها وهذا مما لم يتفق وجوده في خزائن كتب الملوك في القرون الاخيرة(١) وحلت وفاته سنة ١٣١٩ للهجرة.

٣ ـ الملا باقر التستري

كان الملا باقر مفتوناً بجمع الكتب فتنة قل ان نعهد في غيره. وكان اذا قدم الى (معرض الكتب) في النجف كتاب مخطوط بذل الملا باقر النفس والنفيس في سبيله على قلة ذات يده. وربما تملق لمن ينافسه في الكتاب تملقاً لا مزيد عليه حين «المناداة» على بيعه. وقد يقبّل المنافس ويتعلق به ليترك له طلبته. قال بعضهم: نافسته يوماً في كتاب و «المنادي» ينادي عليه فسألني تركه. فما كان منه الا ان امسكني بيده قائلا وقد تغيّر: أما تخشى الله؟

وللملا باقر نوادر جمة في باب اقتناء الكتب. وقد جاور زماناً بمكة واتصل بالشريف هناك واقتنى قسماً من كتبه المخطوطة فيها. وله الى ايران رحلات كان اهم ما يحمله عليها جمع الآثار. وقد حصل باجتهاده على امهات الكتب النفيسة

---

(١) مجلة «لغة العرب» البغدادية: مجلد ٢ صفحة ٣٧١ و ٣٧٢ سنة ١٩١٣ وكتاب «ماضي النجف»: صفحة ١٠٨

القديمة على اختلاف موضوعاتها . ولما حضرته الوفاة سنة ١٣٢٩ للهجرة عُرضت كتبه للبيع . وكان فيها اكثر من الف مجلد مخطوط نودي عليها عدة اسابيع . وبينها مخطوطات تدهش المتأمل ويندر وجود نظائرها في دور الكتب الكبيرة في العالم . وخلاصة القول ان كتب الملا باقر بيعت بثمن بخس . ولو نودي عليها في اسواق الغرب لبيعت بوزنها لُجيناً وعدّ مشتريها غير مغبون[1]

٤ ـ حامد عجان الحديد

نشأ حامد عجّان الحديد في بيت توارث ادباؤه بيع الكتب في حلب منذ اواخر القرن الثالث عشر للهجرة . وقد سافر حامد منذ حداثته الى الهند وطاف في اكثر بلاد الشرق . فزار اليمن وزار الحجاز وزار العراق وتعهد جميع الاقطار التي كان يلتمس فيها تحقيق امنيته في العثور على مخطوطات نفيسة . فالتقط منها مئات بل الوفاً حتى اصبح اكبر مقتنٍ لها .

وازدادت قيمة مكتبة حامد خصوصاً حين اتيح له سنة ١٩٢١ ان يسافر الى اسطنبول ويبتاع اكثر مكتبات الامراء والوزراء فيها . وعلى اثر انهيار السلطنة العثمانية وهجرة الأسرة المالكة عام ١٩٢٤ بيعت خزائن كتب ثمينة ظفر بها حامد عجان الحديد . فانتقى منها أهم كتب الخط وباعها في مصر من طلعت بك واحمد تيمور باشا واحمد زكي باشا وغيرهم وغيرهم من مشاهير هواة الكتب . ويروى ان طلعت بك المشار اليه اشترى من حامد مخطوطات بلغ ثمنها زهاء اربعة آلاف جنيه ذهباً .

(١) مجلة « لغة العرب » البغدادية : مجلد ٢ صفحة ٣٧٠ و ٣٧١ سنة ١٩١٣

الفصل الرابع عشر

هواة الكتب المسلمون في ازمنة مختلفة

١ ـ ابو جعفر احمد بن عباس

كان الكاتب ابو جعفر احمد بن عباس وزيراً لزهير الصقلي ملك المرية من بلاد الاندلس . اشتهر في عصره ومصره بجمع الكتب والدفاتر المخطوطة حتى بلغ ما لديه منها اربعمائة الف دفتر . اما الدفاتر المحزومة فلم يوقف على عددها لكثرتها .

٢ ـ احمد بن عباس الانصاري

قال عنه لسان الدين الخطيب : انه كان من جمّاعي الكتب والدواوين الشعرية في الاندلس . فكان معتنياً بها مغالياً بها نفّاعاً بها مَن خصه لا يستخرج منها شيئاً لفرط بخله بها الا لسبيلها . وقد اثرى كثير من الورّاقين والتجار معه في الكتب . وجمع منها ما لم يكن عند ملك .

٣ ـ عبدالله السلمي المرسي

كان عبدالله هذا من اكبر ائمة العلم في عصره . وكانت له كتب في البلاد التي ينتقل اليها بحيث لا يستصحب كتباً في سفره اكتفاء بما له من الكتب في البلد الذي يسافر اليه[1]

---

(١) نفح الطيب : للمقري : جزء ١ صفحة ٤٣٦

٤ ـ موفق الدين ابو طاهر

كان لموفق الدين مكتبة عامرة وقفها بمدينة ساوة . وكثيراً ما تفاخر باتقان كتبها وتنميق خطوطها واجادة تجليدها وتلوينه . فكان لون كل صف يختلف عن لون الصف الآخر في خزائن كتبه . فصف احمر وصف اخضر وصف اصفر وصف خمري وهلم جرا .

٥ ـ نور الدين علي بن جابر

أحصيت الاسفار التي وُجدت في خزائن نور الدين علي بن جابر فكانت نحو ستة آلاف مجلد .

٦ ـ البوني

البوني نسبة الى « بون » وهي مدينة حديثة بُنيت على انقاض مدينة « هبونة » القديمة التي اسسها الفونيقيون في الجزائر شمال افريقيا . اليها ينتسب العلامة « البوني » الجزائري الشهير الذي انصرف منذ حداثته الى جمع المخطوطات النفيسة وحرص عليها كل الحرص . والف منها خزانة حوت طائفة مهمة من تلك الذخائر لكنها على ما ذكر الشيخ الحفناوي مفتي المالكية في الجزائر تبعثرت بعد وفاته وتفرقت ايدي سباء [1] .

---

(١) تعريف الخلف برجال السلف : تاليف الشيخ الحفناوي

الباب الثالث عشر

غلاة الكتب وهواة المكتبات المسيحيون

١ - آل بختيشوع

ألمعنا في الباب الاول من كتابنا هذا بذكر آل بختيشوع النساطرة وتقربهم من الخلفاء العباسيين زهاء ثلاثة قرون . ونضيف الى ذلك ان الخليفة ابا جعفر المنصور (٧٥٤ - ٧٧٥ م) استقدم جرجيس (+ ٧٦٩ م) جدهم من جنديسابور وطنه عام ٧٦٥ م لاجل معالجته . ثم لحقه ابنه بختيشوع واستوطن بغداد وفيها تناسل اولاده واحفاده فاصبحوا اطباء للخلفاء او تراجمة في دواوينهم .

وفي بغداد انشأ آل بختيشوع مكتبتهم الشهيرة التي جمعوها من مختلف الاقطار وكانت تحوي مخطوطات جمة في اللغات العربية والفارسية واليونانية والسريانية والعبرانية لمشاهير المؤلفين من نصارى ومسلمين ويهود وحرّانيين . فاصبحت خزانتهم قبلة الطلبة ومرجع الباحثين يطالعونها ويستفيدون منها .

ومن تآليف آل بختيشوع نذكر كتاب « التذكرة » و « كنّاش الكافي » في خمسة مجلدات . و « الروضة الطبية في الفنون الادبية » و « تذكرة الحاضر وزاد المسافر » و « كتاب الخاص في علم الخواص » و « مناقب الاطباء » و « طبائع الحيوان » و « منافع الحيوان » وهو مزين بعدّة تصاوير ملونة[١] .. وكتاب « الاحداث النفسانية وفي كون العشق مرضاً » و « المطابقة بين قول الانبياء والفلاسفة على صحة الدين المسيحي » و « رد على اليهود » الخ الخ .

---

(١) المخطوطات العربية لكتبة النصرانية : صفحة ٥٦

ويقرأ عن جبرائيل بن عبيدالله بن بختيشوع (+ ١٠٥٨ م) انه عمل كنّاشاً مختصاً بذكر الامراض التي تعرض من الرأس الى القدم اجابة الى امر الصاحب وحمله اليه فوصله بالف دينار . وكان جبرائيل دائماً يقول : صنّفت مائتي ورقة اخذت عنها الف دينار[1] .

٢ ــ يعقوب بن اسحق الكندي (توفي سنة ٨٦١ م)

هو الملقب بفيلسوف العرب كان اصله نصرانيـاً ومات عـلى دين الاسلام . واشتهر منذ شبابه بالعلوم الكثيرة التي احكم اصولها . وكان يعرف من اللغـات العربية والسريانية والفارسية والهندية .فكان اول من نبغ من العرب فأكرمه الخليفتان المأمون (٨١٣ - ٨٣٣ م) والمعتصم (٨٣٣ - ٨٤٢ م) . وقد عهد اليـه الخليفة المأمون ترجمة بعض الكتب الفلسفية والهندسية . وفوض اليه المعتصم تربية ابنـه احمد وتثقيفه .

وكان ابناء موسى بن شاكر يحسدون الكندي على علمه الغزير ومنزلته الرفيعة في بلاط العباسيين . فوشوا به الى المتوكل على الله (٢٣٣ - ٢٤٧ ه) الذي ضبط تآليفه الكثيرة ومكتبته النفيسة المسماة « الخزانة الكندية » وسلمها لابناء شاكر خصومه . ثم ادعى هؤلاء حفر ترعة وعجزوا فهدّدهم المهندس المناظر على اشغالهم بفضح امرهم اذا لم يردوا للكندي مكتبته . فستروا خيبتهم باسترضاء الكندي الذي حسدوه وسببوا نكبته . ثم اعادوا له مكتبته سالمة وقد بذل في سبيل جمعها جهوداً عظيمة واموالا وافرة [2] وحلت وفاته عام ٨٦١ للميلاد .

ويتصل نسبه بملوك كندة فهو عربي بحت ولذلك سموه فيلسوف العرب . وكان معاصرا للمأمون والمعتصم الى المتوكل وله عندهم منزلة سامية . وقد برع في الطب

---

(١) طبقات الاطباء جزء ١ صفحة ١٤٤ ــ ١٤٦

(٢) تاريخ فلاسفة الاسلام : تاليف محمد لطفي جمعة : صفحة ٥

والفلسفة والحساب والمنطق والالحان والهندسة وطبائع الاعداد وعلم النجوم . نبع وليس في المسلمين فيلسوف غيره . وحذا في تآليفه حذو ارسطو وله ترجمات عديدة نقلها لنفسه . وكان يُعد من حذّاق التراجمة ولم يُذكر بينهم لانه لم يرتزق بالترجمة . وقد الف الكندي في معظم العلوم الدخيلة كتبا كثيرة ذكرها صاحب الفهرست واليك عددها باعتبار العلوم :

في الفلسة	٢٢	كتاباً	في الطبيعيات الخ	٣٢	كتاباً
« الحساب	١١	«	« الكريات	٨	كتب
« النجوم	١٩	«	« المنطق	٩	«
« الهندسة	٢٣	«	« الموسيقى	٧	«
« الفلكيات	١٦	«	« الاحكام	١٠	«
« الطب	٢٢	«	« النفس	٥	«
« الجدل	١٧	«	« الابعاد	٨	«
« السياسة	١٢	«	« تقدمة المعرفة	٥	«
« الاحداث	١٤	«	« المجموع كله	٢٤٠	

« يؤخذ من مراجعة اسماء هذه الكتب انا الرجل كان كثير التضلع في العلوم حتى انتقد اصحابها . واكثر هذه الكتب ضاع ولم يبق منها الا ١ : كتاب في « الاهيات ارسطو » ٢ : رسالة في « الموسيقى » وكلاهما موجودان في مكتبة برلين . ٣ : رسالة في « معرفة قوى الادوية المركبة » في مكتبة منشن ولها ترجمة لاتينية مطبوعة . ٤ : في المد والجزر ٥ : علة اللون اللازوردي الذي يرى في الجو في جهة السماء . وكلاهما في اكسفرد . ٦ : ذات الشعبتين وهي آلة فلكية في ليدن . ٧ : اختبارات الايام . في ليدن . ٨ : مقالة تحاويل السنين . في الاسكوريال »

ومن مشاهير تلامذة يعقوب الكندي ابو معشر الفلكي وحسنويه ونفطويه وسلمويه وغيرهم .

٣ ـ حنين بن اسحق (توفي سنة ٨٧٦ م)

كان الربّان حنين بن اسحق النسطوري شيخ تراجمة الاسلام اماماً في العلوم العقلية والنقلية . وخلّف مؤلفات جديرة بالاعتبار لا يتسع المقام لذكرها في هذا الكتاب . وقد جعل داره في بغداد مكتبة يقصدها العلماء والطلاب للاستفادة من كنوزها الثمينة(١) . وكانت آهلة باسفار عربية وسريانية وفارسية ويونانية وهندية وغيرها في كل فن ومطلب بما كان قد ألفه هذا العلامة الذائع الشهرة او ترجمه او جمعه او اقتناه . وكان المأمون يعطيه زنة ما يترجمه من الكتب ذهباً(٢) . وكان يتبرع بمذاكرة العلماء في ما يريدون المذاكرة فيه . وكان لحنين بن اسحق اكثر من تسعين تلميذاً عاونوه في التأليف والنقل . نذكر منهم : حبيش الاعسم ابن اخته . وعيسى بن علي صاحب القاموس السرياني العربي المعروف باسمه . وعلي بن يحيى . وايوب الابرش . والحجاج بن مطر . واسحق بن حنين وغيرهم(٣)

٤ ـ تادري اسقف الكرخ

كانت الكرخ اولاً في وسط بغداد ثم اصبحت محلة وحدها مفردة(٤) وقد اشتهر تادري او تيودور اسقفها في اواسط القرن العاشر للميلاد . ذكره ابن ابي اصيبعة واثنى عليه قال : كان تادري حريصاً على طلب الكتب متقرباً الى قاوب نقلتها فحصّل منها كثيراً . وصنّف له قوم من الاطباء النصارى كتباً لما قدر وجعلوها باسمه(٥) . وبتمادي الايام تكوّنت لدى تادري مكتبة حفلت بمخطوطات ثمينة وافرة ضُربت بها الامثال .

---

(١) مجلة المقتبس : مجلد ٢ سنة ١٩٠٧ صفحة ٥٧٢

(٢) كتاب (عقود الجوهر) لجميل بك العظم : صفحة ٩٤

(٣) مآثر العرب في العلوم الطبية : صفحة ١٧ (٤) معجم البلدان : مجلد ٤ صفحة ٢٥٥ (٥) طبقات الاطباء جزء ١ صفحة ٢٠٦

٥ - ابن التلميذ (١٠٨١ - ١١٦٤ م)

هو موفق الملك ابو الحسن هبة الله بن ابي العلاء صاعد بن ابرهيم ابن التلميذ . كان اوحد زمانه في صناعة الطب ومباشرة اعمالها . وكان يحضر مجلسه خلق كثير يقرأون عليه . ونصب ساعوراً(١) للبيمارستان العضدي ببغداد الى حين وفاته . وكان جيد الكتابة يكتب خطاً منسوباً في نهاية الحسن والصحة . وكان خبيراً باللسان السرياني والفارسي متبحراً في اللغة العربية، وله شعر مستظرف حسن المعاني . وانشأ مجلداً ضخماً يحتوي على انشاء ومراسلات واكثر اهله كتاب .

وكان ابن التلميذ نسطورياً وتوفي في بغداد عام ١١٦٤ م بالغا الثالثة والثمانين. ودفن في الصحن الداخلاني ببيعة العتيقة . وخلف نعماً كثيرة واموالا جزيلة وكتباً لا نظير لها في الجودة . فورث جميع ذلك ولده رضي الدولة ابو نصر . وبعد وفاة ابن التلميذ نقلت كتبه على اثني عشر جملاً الى دار المجد بن الصاحب(٢)

ولابن التلميذ من الكتب اقرباذين في ٢٠ باباً واقرباذين ثان في ١٣ باباً . وله شروح جالينوس وابقراط وحنين بن اسحق واحاديث نبوية وحواشٍ على كتاب القانون لابن سينا وحواشٍ على كتاب المائة للمسيحي وتعاليق على كتاب المنهاج تأليف يحيى بن عيسى بن علي بن جزلة(٣)

وقد توسع الاب لويس شيخو في ترجمة ابن التلميذ فوصف منزلته العلمية في مقالة ضافية نشرها في مجلة المشرق . وقال ان ابن القفطي في « تاريخ الحكماء » والخزرجي في « خريدة القصر » اطلقا عليه لقب « سلطان الحكماء(٤) » .

---

(١) كذا اثبت ابن ابي اصيبعة هذا اللفظ وهو سرياني يراد به « الزائر » وقد اطلقه على « معاين المرضى »

(٢) طبقات الاطباء : جزء ١ صفحة ٢٦٤

(٣) طبقات الاطباء : جزء ١ صفحة ٢٥٥

(٤) المشرق : مجلد ٩ سنة ١٩٠٦ صفحة ٧٦٢ - ٧٦٧ و ٧٨١ - ٧٩٤

٦ ـ موفق الدين بن المطران

موفق الدين ابي نصر اسعد بن ابي الفتح الياس بن جرجس المطران طبيب ماهر من اعيان النصارى الملكيين في دمشق اسلم في ايام صلاح الدين الايوبي . وعلت مكانته عنده الى ما يشبه منزلة الوزارة والتكبر حتى على الملوك فضلا عن سعة حاله واطلاعه واتساق اسباب التأليف والتصنيف له .

توفي سنة ١١٩١ ميلادية (٥٨٧ هـ) مخلفا في خزائنه من الكتب الطبية وسواها ما يناهز عشرة آلاف مجلد . وبلغت منه العناية باستنساخ الكتب انه كان في ديوانه ثلاثة نسّاخ يكتبون له ابدا وينفق عليهم بسخاء . نذكر منهم جمال الدين المعروف بابن الجمالة وكان خطه منسوباً . وما عدا الكتب التي نسخها ابن المطران بخطه فانه كان كثير المطالعة يقضي معظم اوقاته بين الكتب التي اقتناها وقد صححها واتقن تنميقها وعليها خطه بذلك . وكان ابدا لا يفارق في كمه مجلدا يطالعه على باب دار السلطان او اين توجه . واعتنى بجمع الكتب الصغيرة والمقالات الطبية المتفرقة فضلا عما كتبه منها لنفسه . فتجمع لديه من هذه الاجزاء الصغيرة مجلدات عديدة ذات فائدة وشأن . وصنف كتباً منها كتاب نادر عنوانه : « بستان الاطباء وروضة الالباء » لم يسلم منه الا الجزء الثاني (١)

٧ ـ مسيحي ابن ابي البقاء

هو الطبيب النصراني النيلي نزيل بغداد ويُعرف بابن البيطار . كان خبيراً بالعلاج بارعاً في الطبابة مقرّباً من قصر الخلافة . فعهد اليه ان يطبب النساء والحواشي ويطأ بساط الخليفة . وتيمن الناس بعلاجه ورفعوا قدره لتخصصه بالعتبات النبوية . وكان الامام الناصر لدين الله ابو العباس احمد يقدمه على امثاله

---

(١) مجلة المجمع العلمي العربي بدمشق : مجلد ٣ صفحة ٢ ـ ٨

واوعز اليه ان يعالج امير الموصل من آل اتابك زنكي فسار الى هناك ونهض بمهمته خير نهوض .

واشتهر ابن البيطار بمحبته للعلم وشغفه بجمع الكتب فاقتنى خزانة حوت الشيء الكثير من المخطوطات في الحكمة وما يتعلق بها بحيث خرجت في الوفرة عن الحصر . وبعدما عاش عمراً طويلاً واحرز مالا جزيلاً مات في بغداد سنة ٦٠٨ للهجرة (١٢١١ م)

وزاد القفطي : ان المسيحي ابن ابي البقاء كان اذا وقعت في يده نسخة من كتاب وخشي المزايدة فيه خرمه لينقص قيمته ويبتاعه(١) .

٨ ـ ابو الفرج ابن العبري (١٢٢٦ ـ ١٢٨٦ م)

كان ابن العبري علماً بين علماء عصره . خلّف آثاراً جليلة في اغلب العلوم الدينية والبشرية كما يتضح من المؤلفات الثمينة التي وضعها في كل فن ومطلب . وكان متضلعاً من العربية والسريانية واليونانية ملماً بالفارسية والترية والارمنية . وبلغ عدد مؤلفاته ٣١ كتاباً هي من انفس التصانيف وادقها(٢) . نذكر من تآليفه العربية كتاب « تاريخ مختصر الدول » وكتاب « النفس البشرية » وكتاب « حديث الحكمة » و « شرح فصول بقراط » وكتاب « منافع اعضاء الجسد » ومختصر كتاب « الادوية المفردة » تأليف الغافقي الاندلسي . ونقل عن العربية الى السريانية كتاب « الاشارات والتنبيهات »(٣) لابن سيناء وكتاب « حنين بن اسحق » في الطب(٤) وغير ذلك .

تقلب ابن العبري في المناصب البيعية فتولى اسقفية جوباس عام ١٢٤٦ ثم

---

(١) اخبار العلماء باخبار الحكماء : صفحة ٢١٨ وتاريخ مختصر الدول : صفحة ٤١٩

(٢) خاتمة التاريخ البيعي بقلم المفريان برصوما الصفي : جزء ٢ صفحة ٤٧٥ و ٤٨٠

(٣) تاريخ الدول السرياني : صفحة ٢٢٠ طبع بيجان

(٤) المشرق : مجلد ١ سنة ١٨٩٨ صفحة ٥٥٦ و ٥٥٧

اسقفية لقبين ثم اسقفية حلب عام ١٢٥٣ حتى ارتقى الى الكرامة المفريانية عام ١٢٦٤ للميلاد . فخدم تلك الرتبة اثنتين وعشرين سنة ريثما وافاه الاجل المحتوم في مدينة مراغا ببلاد فارس . ثم نُقلت عظامه الى دير مار متى الشيخ بجوار الموصل .

وكان بيت ابن العبري محجّ علم وثقافة فأطلق عليه لقب « بيت الحكيم » لان والده اهرون كان من مشاهير اطباء عصره(١) . وكان لديه خزانة حافلة بالمؤلفات الطبية وغيرها ذهبت فريسة النيران يوم انقض يساور التتري على ملطية في تموز سنة ١٢٥٢(٢) . واضطر الحكيم اهرون بعد تلك الكارثة ان ينتقل في اسرته الى انطاكية ثم الى حلب .

ومذ تولى ابن العبري كرسي حلب انصرف الى تجديد مكتبته حتى اصبحت مكتبة عظيمة ضُربت الامثال بنفاستها وكثرة محتوياتها . وكان صاحبها كلفاً بجمع الكتب حريصاً على تراث الاجداد . وكان تحت يده نسّاخ عديدون يستنسخهم كتب الأسلاف ويستكتبهم ما يؤلفه هو من شتى التصانيف .

ولما ارتقى ابن العبري الى الكرامة المفريانية كما نوهنا نقل تلك المخطوطات الى برطلي بجوار الموصل مركزه الجديد . ولدى احتضاره اوصى بنصفها للكرسي البطريركي وبالنصف الآخر للكرسي المفرياني . هكذا حُفظت مؤلفات ابن العبري من الضياع خلافاً لكثير من العلماء ضاعت تآليفهم فأصبحت أثراً بعد عين . وكفى ابن العبري فخراً انه حاز قصب السبق على جميع الذين ظهروا قبله وبعده حتى دعي « اعجوبة » من اعاجيب الدهر(٣)

وخلاصة القول ان ابا الفرج ابن العبري كان رجل علم وعمل لم يفتر حياته كلها عن المطالعة والبحث والتصنيف . فانه وضع ما ينيف على الثلاثين كتاباً في

---

(١) الاسر العربية المشتهرة بالطب العربي : بقلم عيسى المعلوف : صفحة ١٨
(٢) تاريخ الدول السرياني : صفحة ٤٩٢
(٣) مقدمة اللمعة الشهية للمطران يوسف داود : صفحة ٢٠٣ و ٢٠٥

العربية والسريانية وصفها العلامة يوسف شمعون السمعاني وسرد اسماءها(1) . واشتملت تلك التآليف الرائعة على اهم العلوم كالمنطق والفلسفة واللاهوت وشرح الكتاب المقدس والشرعين الكنسي والمدني والطب والتاريخ وعلم الهيئة وعلم الاخلاق والنحو والشعر والفكاهة . وكان من المنشئين المجيدين في العربية كالسريانية التي عدّ من كبار كتّابها المبرّزين . ولذلك سمّاه العلامة السمعاني « امير الكتبة اليعاقبة »(2)

٩ - الرئيس المرتضي المختار هرمز

كان لهرمز الرئيس النسطوري المشهور في القرن الثالث عشر كلف شديد بالكتب . فأنشأ منها خزانة عامرة في داره حوت طائفة معتبرة من المخطوطات الثمينة كان يحرص عليها حرصه على الدرر الغوالي . وقد طالعنا مخطوطة دير الشرفة الثمينة الموسومة بالرقم ٢ - ١ من المخطوطات العربية عبارة تؤيد ما سبق هذا نصها : هذا كتاب الانجيل برسم الخزانة العامرة للرئيس الاجل المحترم السعيد . . . المرتضي المختار المؤمن هرمز من القرية المذكورة(3) » المجاورة لمدينة نصيبين .

١٠ - بولس الزعيم

هو ابن البطريرك مكاريوس (١٦٤٣ - ١٦٧٢) الانطاكي . وكان الابن كوالده مولعاً بجمع اخبار الاولين وآثارهم ينقب عن المؤلفات النادرة والمخطوطات التاريخية . وكان لا يدخر وسعاً في اقتنائها لنفسه واحيانها بنقل بعض النسخ عنها

---

(١) المكتبة الشرقية : ليوسف شمعون السمعاني : مجلد ٢ صفحة ٢٦٨ و ٣٢١

(٢) ترجمة ابن العبري : بقلم الاب انطون صالحاني : في صدر تاريخ مختصر الدول . والمشرق : مجلد ١ سنة ١٨٩٨ صفحة ٢٨٩ فما بعد .

(٣) فهرس مخطوطات دير الشرفة : صفحة ٣١٠

واتقان تجليدها . فلم يدع بلداً الا نبش خباياه ولا ديراً الا فتش زواياه كما تشهد بذلك مؤلفاته التي شحنها باقوال وشهادات لغيره اقتطفها عن المخطوطات التي كانت تقع اليه (١) . وقد انشأ منها مكتبة معتبرة عرفت بمكتبة الشماس بولس الزعيم (٢). ويقال انها ضمت بعد وفاته الى مكتبة البطريركية الارثوذكية في دمشق . والله أعلم .

وللشماس بولس آثار محفوظة في بعض خزائن الشرق والغرب : منها تنقيحه لسلسلة بطاركة انطاكية الملكيين . وقد دونها في كتاب « الرحلة » التي قام بها والده البطريرك مكاريوس الثالث من السنة ١٦٥٢ ـ ١٦٥٥ الى القسطنطينية وبلغاريا والفلاخ والبغدان وروسيا (٣) .

١١ ـ المطران بطرس مخلوف

وُلد هذا المطران في غوسطا احدى قرى كسروان، وسافر الى رومة عام ١٦٣٩ حيث تلقى العلوم في المدرسة المارونية . وجعل يتردد على مكتبات تلك العاصمة فمالت نفسه الى التاليف وجمع الكتب والمحافظة عليها . ولما عاد الى لبنان عام ١٦٥١ توشح بالاسكيم الرهباني في دير مار عبدا هرهريا . وافرغ كل اهتمامه في التنقيب عن الآثار الخطية المبعثرة في انحاء لبنان .

ارتقى القس بطرس عام ١٦٧٤ الى كرسي مطرانية قبرس وواصل ابحاثه عن الكتب الطقسية وعن المعلومات التاريخية . وكان يحرر كل ذلك في اوراق ثم يجمعها في كراريس . وكثيراً ما نشط المعتنين بهذه الامور وساعد النسّاخ في نسخ الكتب فكانوا يذكرون اسمه بالثناء . هكذا قضى هذا المطران حياته عاملاً في حقل العلم واقتناء المخطوطات ونسخها والحرص عليها حتى وافته المنية عام ١٧٠٧ (٤)

---

(١) خزائن الكتب في دمشق وضواحيها : تأليف حبيب زيات : ١١٥

(٢) خطط الشام : مجلد ٦ صفحة ١٩٥

(٣) تاريخ سورية : تأليف المطران يوسف الدبس : جزء ٧ صفحة ٢٧٣

(٤) نوابغ المدرسة المارونية الاولى : بقلم الخوري بطرس غالب .

١٢ ـ نعمة ابن الخوري توما الحلبي

وُلد نعمة بمدينة حلب في اواخر القرن السابع عشر . وحلّت وفاته في نواحي السنة ١٧٦٧ للميلاد . وتفرّغ منذ صباه للاشتغـــال بآداب اللغة العربية ففاز بالتحصيل حتى صار يعدّ بين رجال العلم في عصره . ومن متروكاته القلمية كتاب « عجالة راكب الطريق لمن رضي بتقليد التلفيق » يتضمن اثنتين وستين رسالة الى الحبر الاعظم والكرادلة في رومة والى غيرهم دفاعاً عن ملته الملكية الكاثوليكية(١) وألف نبذة في مقدمة وسبعة فصول وخاتمة سماها « خلاصة حب الفؤاد بنصح الآباء للاولاد » لارشاد اولاده . وله ديوان شعر وكتابات عديدة تدل على اقتـداره في فنون الانشاء كما ورد في ترجمته التي نشرهـــا الخوري جرجس منش في مجلة المشرق(٢) .

وكان نعمة كاتباً للاسقفين جرسيمس ومكسيمس الحكيم. وأولع منذحداثته باقتناء الكتب على اختلاف مواضيعها فنسخ واستنسخ منها طائفة كبرى . هكذا جمع في بيته مكتبة غنية بمخطوطات ثمينة ومصنفات نفيسة(٣) . الا انه اضطر الى بيعها . فرثى حاله متفجعاً على خسارتها ونظم في ذلك قصيدة نقتطف منهـا هذه الابيات :

يا رب قد بعت كتبي ... فحسبي الذلّ حسبي

لا درّ درّ زمـانٍ ... فرق عـــني كتبي

يـا ليتـني لو تقضى ... من قبل ذا البيع نحبي

١٣ ـ المطران جرمانس فرحات (١٦٧٠ ـ ١٧٣٢)

كلف السيد جرمانس فرحات منذ حداثته باللغة العربية فأتقنها غاية الاتقـان

---

(١) المشرق : مجلد ٥ سنة ١٩٠٢ صفحة ١٠٣ (٢) المشرق : مجلد ٥ سنة ١٩٠٢ صفحة ٣٩٦ (٣) اطرب الشعر واطيب النثر : للاب لويس شيخو : قسم ٢ صفحة ١٩٧

وانشأ فيها كتباً جمة لغوية وادبية وشعرية . ونقل اليها كتباً دينية اصبحت اشهر من نار على علم .

واهم ما انصرف اليه مذ تبوأ الكرسي الاسقفي في حلب سنة ١٧٢٥ اعتناؤه بمكتبتها واجتهاده في تعزيزها وحرصه على مخطوطاتها حرصاً شديداً . وحسبنا برهانا على ذلك ختمه الذي يشاهد مطبوعاً على جميع الكتب والمؤلفات التي اقتناهـا من ماله الخاص ووقفها للابرشيته (١) .

وقد تصدّى الخوري ابرهيم حرفوش لتنضيد هذه المكتبة وكتب عنها مقـالة ضافية نشرها عام ١٩١٤ في مجلة المشرق . وصرح بان السيد فرحات هو اول من عني بجمع نفائسها وزينها بمجلدات وافرة اشتراها او ألفها او عرّبها او استنسخها . وأبرم حرماً صارماً على من يسرق منها كتاباً واحدا . وحرر في ذلـك انذاراً شديد اللهجة يتلخص بما يلي : « والذي يسرق كتاباً من المكتبة ... يكون بيته مثل صادوم وعامورا ويذهب رزقه ويتهدم بيته وتشحذ اولاده من ابواب الخلائق والويل له ان رضي لنفسه ذلك » (٢) .

ولم تكن تحوي المكتبة يوم تجرد فرحات لتعزيزها سوى ٩٣ مجلداً . فأنفق على مشترى مخطوطات جمة ضمها اليها بمبلغ ١٣٩٤ أسدياً وهو يناهز نحو ثلاثمائة ليرة ذهبية في يومنا . وقد دفعه شغفه بآثار العرب الى الارتحال عام ١٧١٢ الى بـــلاد الاندلس حيث تعهد حضارتهم ورأى ما رأى من ضخامة ملكهم . وحصّل اثنـاء رحلته كتباً مخطوطة فاقتناها ثم قفل عائداً بها الى وطنه (٣) .

واثمن مخطوطات مكتبة فرحات : كتاب انجيل بديـع الخط ترجمة الشيخ يعقوب الدبسي الماروني . وهو مزدان باطار ذهبي ونقوش بديعة مرسومة عـــلى

---

(١) روائع ما قيل نثراً ونظماً عن النابغة فرحات : قسم ٢ صفحة ٨

(٢) المشرق : مجلد ١٧ سنة ١٩١٤ صفحة ٢٤

(٣) المستطرفات المستظرفات في حياة جرمانس فرحات : بقلم جرجس منش (المشرق : مجلد ٧ سنة ١٩٠٤ صفحة ١٠٧

صفحاته بماء الذهب (١) . وكتاب الخلاصة اللاهوتية في ثلاثة مجلدات وكتاب فلسفة ارسطو في مجلد واحد ترجمة المفريان السرياني باسيليوس اسحق بن جبير الموصلي (+ ١٧٢١) . وقد اشترى المطران جرمانس المخطوطات الاربعة بمبلغ ٢٢٢ اسدياً .

هذا كله يبرهن على شغف المطران فرحات بالكتب وعلى وفور اعتنائه بها وحرصه عليها . وما عدا ذلك فانه ادى للمعارف والآداب العربية خدماً جلى ستلهج بها الألسنة جيلاً بعد جيل .

١٤ ـ البطريرك اغناطيوس ميخائيل جروة (١٧٨٢ ـ ١٨٠٠)

كان البطريرك الانطاكي اغناطيوس ميخائيل جروة من اعظم احبار الملل النصرانية في عصره علماً وفضلاً . نشر له ترجمة مفصلة ديونوسيوس افرام نقاشة مطران حلب في كتابه « عناية الرحمان في هداية السريان » في مائتي صفحة(٢) . واثبت الاب لويس شيخو عام ١٩٠٠ خلاصة سيرته في فرصة « التذكار المئوي لوفاته » (٣) .

ومن جملة المحاسن اللامعة التي خلدت لهذا البطريرك اسماً طيباً شغفه منذ حداثته بجمع الكتب النفيسة والمخطوطات القديمة . فاقتنى منها طائفة مهمة وقفنا على تفاصيل اسمائها كتاباً فكتاباً في ثماني لوائح . وقد وجه اليه تلك الكتب تباعاً والده نعمة الله وشقيقه الكافلير جبرائيل في ثماني قوافل قادمة من حلب الى لبنان سنة ١٧٨٧ وبلغ مجموع المجلدات المدونة في تلك اللوائح ١١٤٧ كتاباً جلها من انفس المخطوطات . وقد اصبحت تلك المخطوطات نواة مكتبة معتبرة

---

(١) المشرق : مجلد ١٧ سنة ١٩١٤ صفحة ٢٩

(٢) عناية الرحمان في هداية السريان : صفحة ١٨٦ ـ ٣٨٢

(٣) المشرق مجلد ٣ سنة ١٩٠٠ صفحة ٩١٣ ـ ٩٢٦

تزيّن اليوم خزائن دير الشرفة الذي اسسه هـذا البطريرك عام ١٧٨٦ فوق قمة درعون بكسروان .

ويستنتج من اللوائح الثاني المشار اليها ان مخطوطات جمة ومهمة قد اخذتها يد الضياع بعد وفاة منشىء المكتبة . ومن المحقق ان اساقفة السريان كانوا يستعيرونها من المكتبة ويبقونها لديهم ولا يردونها الى مركزها الاصلي . نذكر من تلك المخطوطات المفقودة كتاب « تواريخ ابن الطيب » و « رسالة الفيلسوف يحيى بن عدي » و « ديدسقالية الرسل » وكتاب « المرشد في علم الفقه » وكتاب « اسحق وايوب » و « مجالس ايليا النصيبيني » وكتاب « بهجة المناظر » وكتاب « السيف القاطع » الخ الخ(١)

١٥ ـ القس توما ايوب الحلبي (١٨٦١ ـ ١٩١١)

ولد القس توما في حلب وتخرّج في مدرسة الشرفة بلبنان وفي كلية الآباء اليسوعيين ببيروت . وانفق سبعاً وعشرين سنة (١٨٨٥ ـ ١٩١١) في خدمة العلم والتعليم اذ كان لغوياً مدققاً مطلعاً على اعمق اسرار البلاغة العربية . وكان بيته كسوق عكاظ يختلف اليه ابناء الادب ليعرضوا عليه مقالات نثرهم وقصائد شعرهم . واسس نادياً في وطنه سماه « نادي الادب » ضم اليه نخبة من شبان الشهباء ليشغلهم فيه بالقاء الخطب ودرس العلوم عن الملاهي الشائنة للآداب .

وكان همّ القس توما في جمع الكتب المفيدة وافراً جداً فاصبح يملك مكتبة عامرة جمعت نفائس المخطوطات(٢) والمطبوعات . وكانت مفتوحة لكل مطالع ومستعير . وامتازت خصوصاً بمطبوعات حجرية وبكتب نشرها علماء الاستشراق

---

(١) مخطوطات دير الشرفة :جزء ٢٣

(٢) مجلة النعمة في دمشق : مجلد ٢ صفحة ٥٩٤ والآداب العربية في الربع الاول من القرن العشرين : صفحة ٥٧ و ٥٨

في اوروبا . ولعلها كانت اغنى مكتبة من نوعها في جميع الامصار الشرقية . لكن هذه المكتبة الثمينة تفرقت بعد وفاة صاحبها . وقيل ان كثيراً من كتبها بيع بالوزن من البدالين والبقالين .

وخلّف القس توما تركة علمية نشر بعضها بالطبع . نذكر منها «رواية فابيولا» ورواية «قرة العين في رواية الى ابن» و «البر البنوي» و «المنتخب في امثال حلب(١)» الخ .

١٦ - المطران ادي شير (١٨٦٧ - ١٩١٥)

ولد هذا المطران في شقلاوا بجوار كركوك في ٣ اذار ١٨٦٧ ونصب سنة ١٩٠٢ مطراناً على الكلدان في سعرت . وأتقن منذ حداثته مع اللغتين العربية والسريانية اللغات الفرنسية واللاتينية والعبرانية واليونانية والفارسية والكردية . وانصرف الى التصنيف فنشر مقالات ونبذاً شتى في مجلات الشرق والغرب .

ومن تآليفه العربية : تاريخ كلدو واثور في مجلدين . وكتاب «الالفاظ الفارسية المعربة» و «اخبار شهداء المشرق» في مجلدين . ونشر عام ١٩٠٧ في باريس تاريخاً عربياً قديماً لاحد علماء النساطرة .

ولشدة ولع المطران ادي بالكتب والمكتبات طاف في بلاد العراق وما بين النهرين وتعهد مكتباتها النصرانية وانشأ لبعضها فهارس علمية نذكر منها ١ : فهرس مخطوطات مكتبة سعرت ٢ : فهرس مخطوطات البطريركية الكلدانية في الموصل ٣ : فهرس مخطوطات المطرانية الكلدانية بديار بكر وقد نشرهما سنة ١٩٠٧ ٤ : فهرس مخطوطات المطرانية الكلدانية بماردين عام ١٩٠٨ ٥ : فهرس مخطوطات المتحف البورجياني سنة ١٩٠٩ وقد ضمت المكتبة البورجيانية المذكورة بعد ذلك الى المكتبة الواتكانية .

---

(١) تاريخ الصحافة العربيه : مجلد ٢ صفحة ٢٣٨ و ٢٤٠

وافضل ما يذكر لهذا المطران البحاثة اعتناؤه بتعزيز مكتبة سعرت التي سبق لنا وصفها . وكانت تعد من اثمن مكتبات الشرق . وقد حوت كنوزاً من الرقوق المخطوطة والوثائق الخطيرة التي ورثها عن اسلافه في كرسي مطارنة سعرت . وزاد عليها طائفة كبيرة من مخطوطات نفيسة جمعها من انحاء الشرق . وضم اليها اسفاراً ومجموعات تاريخية استحضرها من بلاد اوروبا وغيرها (١) .

١٧ - القس بطرس نصري (١٨٦١ - ١٩١٧)

كان للقس بطرس نصري الكلداني كلف بالعلم شديد اقتبسه من استاذه العلامة المطران يوسف داود . وحمله على ان يحشد في خزانة كتبه كراريس ووثائق جديرة بالاعتبار . ولم يبخل بالنفقات الطائلة في سبيل التقاطها ونسخها او استنساخها من خزائن كتب بلاد المشرق(٢) . وكانت مكتبته حافلة بمطبوعات ومخطوطات استعان بها على الانتاج العلمي الذي خلّفته يراعته المثمرة . ومما يستحق الذكر ان ما خطته يده أربى على عشرين الف صفحة كما اثبته لنا عارفو فضله وكما اتضح لنا من مجموع صفحات مؤلفاته المحفوظة الى اليوم .

واهم ما خاض فيه القس بطرس من المواضيع ينحصر في الفلسفة واللاهوت والتاريخ والجغرافية نذكر منها : « خلاصة معجم البلدان » لياقوت الرومي في ٤٧٨ صفحة بحجم كبير . وكتاب « ذخيرة الاذهان في تواريخ السريان » في ١٠٤٨ صفحة . وكتاب « الاصول الفلسفية » في جزئين . وكتاب « خلاصة الخلاصة اللاهوتية » في عشرة اجزاء . ونقل عن اللاتينية الى العربية مجلدين من « المكتبة الشرقية » تاليف يوسف سمعان السمعاني . ومجلداً من تاريخ النساطرة ومؤلفيهم

---

(١) المشرق : مجلد ٢٣ سنه ١٩٢٥ صفحه ٣٦ - ٤٤ وراجع هذا الكتاب : صفحة ٥٠٦ - ٥٠٨

(٢) ذخيرة الاذهان في تواريخ السريان : المقدمة : صفحة ١٩

تاليف لويس السمعاني . وترجم عن السريانية الى العربية كتاب « تاريخ ابن العبري » في جزئين الى غير ذلك من المصنفات التي عددتها مجلة المشرق(١)

١٨ ـ مراد بك بارودي (١٨٥٥ ـ ١٩١٨)

ولد مراد بك بارودي في « سوق الغرب » بلبنان وكان من بواكير الصيادلة الذين تخرجوا في الجامعة الاميركية ببيروت ونبغوا في مهنتهم . وعلى اشتغاله بالصيدلة لم ينقطع عن الاشتغال بالعلم ومجالسة العلماء حتى آخر حياته . وقد اصبح منزله بفضل اجتهاده متحفاً للعاديات والمسكوكات القديمة والمخطوطات النادرة التي التقطها من شتى الانحاء . ثم درسها ونظمها تنظيماً فنياً نم عن اطلاع واسع وذوق سليم .

ولفرط ولع مراد بك بارودي بالكتب جمع في خزائنه الوفاً من اغلى المطبوعات وانفس المخطوطات . وكتب عنها البحاثة عيسى المعلوف وصفاً ضافياً في مجلة المجمع العلمي العربي بدمشق تبسط في ذكر مزاياها وفرائدها . ونشر منشىء الخزانة البارودية عينه مقالات عن بعض مخطوطاته في مجلات « المقتطف » بمصر و « المشرق » و « الكلية » ببيروت و « الآثار » بزحلة(٢)

وقد اشترت دار الآثار اللبنانية عام ١٩٢٥ مجموعة مسكوكات قديمة من ورثة مراد بك بارودي، ودفعت لهم قيمتها نحو ألفي ليرة عثمانية ذهبية . ثم اشترت دار الكتب اللبنانية نيفاً والف مجلد في اللغات العربية والفرنسية والانكليزية .

اما مخطوطات البارودي العربية وقد اناف عددها على سبعمائة مجلد فقد باع بعضها في حياته من المستشرقين وهواة الكتب في اوروبا . وباع ورثته بقيتها وهي اربعمائة وثلاثون مجلداً من جامعة برنستون في الولايات المتحدة الاميركية .

---

(١) المشرق : مجلد ٢١ سنة ١٩٢٣ صفحة ٦٥٧ ـ ٦٦٠

(٢) مجلة المجمع العلمي العربي : مجلد ٥ سنة ١٩٢٥ صفحة ٣٢ فما بعد

وجرى ذلك بتشويق العلامة اللبناني الدكتور فيليب حتي امين القسم الشرقي في مكتبة جامعة برنستون المشار اليها .

ومن اهم ما حوت عليه الخزانة البارودية من المخطوطات نذكر : « كتاب الزاهر » لأبي بكر الانباري نسخ منذ اكثر من ثمانيـة قرون . وعليه خطوط وتواقيع من اقتناه من العلماء . وكتاب « تقويم الادوية المفردة والاغذية » لكمال الدين التفليسي . وفيه اسم كل دواء باللغات العربية والفارسية والسريانية واليونانية واللاتينية . وكتاب « الاحكام السلطانية » للماوردي نسخ سنة ٥٦٧ للهجرة . وكتاب « الطيّب » لابي الحسن الخازن نسخ سنة ٥٩٠ للهجرة عن نسخة المؤلف .

١٩ ـ الاب لويس شيخو (١٨٥٩ ـ ١٩٢٧)

لا نرى في وصف اعمال الاب شيخو الا ان نستعير قلمه للتعبير عن فرط شغفه بالمكتبات والكتب العربية . فقد شرق وغرب وحصل ما شاء الله ان يحصله من المخطوطات الثمينة التي زين بها المكتبة الشرقية ببيروت فاصبح لذلك من اعظم غلاة الكتب والمكتبات في العالم العربي . والى القارىء ما خطته يراعته من هـذا القبيل قال :

« اخذنا منذ السنة ١٨٨٠ نطوف انحاء لبنان لعلنا نعثر على شيء من المخطوطات وكنا اثناء العطلة المدرسية في كل سنة نتنقل في مدن الشام رجاء التقاط هذه الدرر الغالية الثمن . فكنا نعود بعد كل رحلة بعدد وافر من تلك الجواهر الفريدة ... وقد اقتنينا مخطوطات نصرانية واسلامية وافرة خصوصاً في حلب . ولعل ثلث المكتبة الشرقية اقتنيناه منها (١) » .

وشهد الاب لامنس للاب شيخو استاذه في حقيقة ذلك فكتب يقول : « كان

---

(١) المشرق جزء ١٥ سنة ١٩١٢ صفحة ٨٢ ـ ٨٥

الاب شيخو اذا ابتعد بضع ساعات عن محله المعتاد في المكتبة الشرقية قصد مكاتب المدينة (بيروت) فبحث فيها وعاد مثقل اليدين بكتب جديدة . وكان اذا سافر انصرف الى ملهاته الوحيدة وهي الجد وراء المخطوطات(١) » .

واول رحلة قام بها الاب شيخو طلباً للمخطوطات تمت عام ١٨٩٥ فتطوع متنقلاً مع القوافل في بلاد ما بين النهرين والعراق . لان السكك الحديدية والعربات والسيارات كانت مجهولة لذلك العهد في الاقطار المذكورة . هكذا تعهد مكتبات الرها وماردين ودير الزعفران . وشاهد في دياربكر المكتبة الكلدانية تشتمل على زهاء خمسة آلاف كتاب بين مخطوط ومطبوع . ومن هناك طاف اديار طورعبدين وتفقد مكتباتها . واستأنف سيره الى جزيرة ابن عمر والقوش ودير الربّان هرمز حتى وصل الى الموصل . فحصّل فيها قسماً صالحاً من التآليف الخطية(٢)

ثم ركب الكَلَك او الطّوف في دجلة ومرّ باربيل وتكريت وسامرّا حتى انتهى الى بغداد وزار دار الكتب العمومية وشاهد فيها كتباً عزيزة ونسخ شيئاً من نفائسها . وعثر عند الورّاقين على كمية من المخطوطات فاشتراها . واقتنى بعض مطبوعات العجم والهند النادرة(٣)

ومن بغداد انحدر الى البصرة واتجه الى الهند بحراً وحل في بمباي حيث تعرف الى علماء المسلمين . نذكر منهم الشيخ الشيرازي فابتاع منه طائفة من المخطوطات كما ذكرنا في فصل سبق .

ومن بمباي اقلع الى عدن فجدة فتهامة فالنوبة فشبه جزيرة سينا حتى انتهى الى بورت سعيد فبيروت . فوصل اليها صباح الجمعة ١٠ كانون الثاني ١٨٩٦ .

ولم يكتفِ الاب شيخو بما التقطه في هذه الرحلة من ذخائر المخطوطات العربية لكنه زار مصر لتلك الغاية اربع مرات عام ١٨٧٧ و ١٨٨٥ و ١٩٠٧ و ١٩٢٧

---

(١) المشرق جزء ٢٦ سنة ١٩٢٨ صفحة ٢٠٦ (٢) المشرق جزء ١٥ سنة ١٩١٢ صفحة ٩٤٤ (٣) المشرق جزء ١٦ سنة ١٩١٣ صفحة ١٥٠

وفي السنة ١٩٠٢ جال في اطراف حمص وحماة واشترى بعض مخطوطات ذات شأن

ثم زار القسطنطينية عام ١٩٠٤ ووصف مكتباتها الموقوفة على نيّف واربعين جامعاً . وذكر ان مخطوطاتها اذا جُمعت بلغت ثلاثين الفاً(١) . ثم انطلق الى بودابست وقضى اربعة ايام في مكتبتها المحتوية على سبعمائة الف مخطوط ومطبوع(٢) واستأنف المسير الى فينا فزار مكتبتها ومتاحفها وروى ان فيها ثلاثين الف كتاب مخطوط ربعها باللغات الشرقية . وفيها متحف لآثار عربية مخطوطة وجدت في الفيّوم . وهي عبارة عن مدارج من البردي والنسيج والرق يرتقي بعضها الى ظهور الاسلام . ثم تعهد مكتبة مونيخ وفيها اكثر من ثلاثين الف مخطوط . وزار في كلية سترسبورغ مكتبتها العامرة الغنية بالمخطوطات العربية والسريانية والعبرانية(٣) .

واشتغل الاب شيخو ثمانية اشهر في المكتبة العمومية بباريس وذكر ان فيها زهاء سبعة آلاف مخطوط عربي(٤) وتعهد غير مرة مكتبة المتحف البريطاني ومكتبة بروكسل الخ الخ .

وفي السنة ١٩٠٥ استأنف الاب شيخو رحلاته العلمية فزار حلب واشترى مخطوطات نصرانية نسخت في القرون الثلاثة الاخيرة(٥) . وارتحل عام ١٩٠٦ الى بادية تدمر فاطلع على مخطوطات صدد والقريتين وقارة والنبك ويبرود ومعاولا وصيدنايا وغيرها .

ولم يكتفِ الاب شيخو بما جمعه من المخطوطات من اطراف البلاد العربية بل استنسخ عدة كتب ثمينة ازدادت بها ثروة المكتبة الشرقية . ومما استكتبه

---

(١) المشرق جزء ٧ سنة ١٩٠٤ صفحة ١٠٦٤ - ١٠٦٥ (٢) المشرق جزء ٧ سنة ١٩٠٤ صفحة ١١١٥ (٣) المشرق جزء ٧ سنة ١٩٠٤ صفحة ١١١٥

(٤) المشرق جزء ٧ سنة ١٩٠٤ صفحة ١١٥٤ و ١١٥٦

(٥) المشرق جزء ٨ سنة ١٩٠٥ صفحة ٩٢٦

من مخطوطات دير الشرفة كتاب « المرشد » ليحيى بن جرير . ثم كتاب « منارة الاقداس » وكتاب « الايثيقون » وكلاهما من تاليف ابي الفرج ابن العبري .
تلك شذرات تبرهن على كلف الاب شيخو بجمع المخطوطات وعلى جهوده الجبارة في تعزيز الآداب العربية .

وكان الاب شيخو شديد الحافظة غريب الذاكرة لكل كتاب ومكانه ومحتوياته حتى يعين الصفحة منه لمن يسأله . وكان لا يضنّ على من يريد مطالعة شيء منها . وذلك من عجيب ما يعرف عن غلاة الكتب ومحبيها وجامعيها . فلا غرو اذا عد « شيخ المؤلفين والعاملين[1] » .

ويعتبر الاب شيخو من ارسخ مؤرخي الشرق العربي وانصار اللغة العربية ومن اخصب كتّابها . فانه ألف وترجم ونشر كتباً جمة حملت جميع الادباء على احترامه وعلى الاعجاب بعبقريته .

ونختم المقال بنص المرسوم الذي تُلي يوم دفن شيخو بحضور كبار العاصمة بيروت واعيانها وعلمائها . ويتضمن المرسوم منح الاب شيخو مدالية الاستحقاق اللبناني التي وضعها على نعشه رئيس الوزارة اللبنانية وهذا نصه :

« منحت مدالية الاستحقاق اللبناني الفضية ذات السعف للاب شيخو اكراماً له بعد الوفاة للاسباب الآتية : بقي نحو خمسين سنة يخدم اللغة العربية بنشر كنوزها المدفونة وتاليف الكتب العديدة فيها . وخدم لبنان خاصة وبلاد المشرق عامة بما نشره من التآليف عن تاريخها وآثارها وعلومها حتى بلغت مطبوعاته مائة وعشرين مجلداً فاستحق شكر لبنان » .

٢٠ - الخوري جرجس منش (١٨٧٣ - ١٩٣١)

عرف المجمع العلمي العربي بدمشق ما للخوري جرجس منش من الشغف باللغة

---

(١) مجلة الآثار سنة ١٩٢٨ صفحة ٨٣ - ٨٧

العربية وآدابها وما امتاز به من البحث والتدقيق عن الكتب العربية قديمها وحديثها مخطوطها ومطبوعها . فاحصاه في ٢٣ اذار ١٩٢٣ بين اعضائه العاملين وراسله غير مرة في مسائل علمية وتاريخية وادبية .

احب الخوري جرجس الدرس والتدريس والتنقيب عن الكتب وعن مؤلفيها . وقام برحلات علمية في النيرب وارفاد وقورش وجرابلس وقنسرين والرقة وجبل سمعان للوقوف على آثارها . فكتب عن جغرافيتها وتواريخها ووقائعها ومشاهيرها فصولاً ضافية نشر بعضها وبقي بعضها مطوياً غير مطبوع .

وفي ٣ حزيران ١٩١٧ انضم الخوري جرجس الى لجنة انشأها عبد الخالق والي حلب العثماني . غايتها تأليف كتاب مفصّل عن تواريخ سوريا الشمالية وعن جغرافيتها وشعوبها وادبائها الخ . وفوّض الى الخوري جرجس البحث عن نصرانيتها . فقام الخوري بالمهمة الموكولة اليه . لكنه لم يتيسر طبع ذلك التاريخ لارتحال الاتراك عن هذه البلاد .

ونشر الخوري جرجس على صفحات المجلات العلمية والصحف السيارة مقالات مفيدة قدّرت بنحو ثلاثة مجلدات . اما مصنفاته المطبوعة فلا تكاد تتجاوز عدد الاصابع .

ومما برهن على كلف الخوري جرجس بالكتب والمكتبات انه تولى ادارة المكتبة المارونية بحلب ست عشرة سنة . وجمع في خزائنه كتباً نفيسة بذل في اقتنائها المال بسخاء(١) وعلى اثر وفاته في ١٣ كانون الثاني ١٩٣١ اشترى المطران ميخائيل اخرس طائفة من كتبه المخطوطة والمطبوعة وضمها الى المكتبة المارونية بالشهباء فكانت المخطوطات زهاء ثلاثمائة مجلد والمطبوعات الفاً وخمسمائة مجلد .

٢١ — يوسف اليان سركيس (١٨٥٦ – ١٩٣٣)

وُلد يوسف بن اليان سركيس في دمشق من اسرة محترمة وانتقل مع والديه

---

(١) ترجمة الخوري الاسقفي جرجس منش (١ و ١٧) .

عام ١٨٦٣ الى بيروت وتلقى العلوم في مدارسها . وخدم المصرف السلطاني العثماني خمساً وثلاثين سنة . وترقى في وظائف ذلك المصرف حتى اصبح مديراً له في انقرة عاصمة تركيا في يومنا .

وما عدا ما انصرف اليه يوسف اليان من الاعمال الخيرية مدة حياته فانه تفرغ للمطالعة والتأليف والترجمة والنشر . ومما خلفه من الآثار المطبوعة نذكر . كتاب « الرحلة الجوية » . وكتاب « أنفس الآثار في اشهر الأمصار » . وكتاب « الدر المنتخب في تاريخ مملكة حلب » تأليف ابن الشحنة . وكتاب « جامع التصانيف العربية الحديثة » التي طبعت في البلاد الشرقيّة والغربيّة . وكتاب « الحجج الراهنة في ابطال دعاوى الموارنة » تأليف المطران يوسف داود . وآخر كتاب صنفه هو « معجم المطبوعات العربية والمعربة » في ٢٠٢٤ صفحة . فرغ من طبعه سنة ١٩٣٠ في القاهرة . وأصبح هذا المعجم الفريد مرجعاً لاهل البحث في موضوعه.

وكان يوسف اليان من اعظم هواة الكتب يسعى جهده للتنقيب عنها والتدقيق في محتوياتها والحصول عليها مهما كلفه ذلك من بذل المال وعناء الاسفار والاسهار . وكان محبّو المخطوطات القديمة يعتمدون عليه نظراً الى خبرته الواسعة بمكتبات الشرق وما انطوت عليه من كنوز ثمينة . هكذا تمكن من تأدية الخدم المتواصلة لعدة مكتبات شرقاً وغرباً كالمكتبة الواتكانية برومة والمتحف البريطاني بلندن والمكتبة الاهلية بباريس ومكتبة جامعة شيكاغو باميركا الشمالية ومكتبة احمد تيمور باشا بالقاهرة الخ الخ . وحلت وفاته عام ١٩٣٣ بالقاهرة .

٢٢ ـ عيسى اسكندر المعلوف

الشيخ عيسى اسكندر المعلوف علَمٌ من اعلام التاريخ الشرقي في سوريا ولبنان . والمشهور عنه انه لا يكل نهاره وليله ولا يمل البحث والمطالعة والتأليف . فهو مثال الاجتهاد والجلد والاخلاق الرضية والتفاني في خدمة العلم والعلماء . ذلك

ما حدا المجمع اللغوي المصري والمجامع العلمية في دمشق ولبنان والبرازيل على الاعتراف بفضله وعلى تسجيل اسمه بين اعضائها اللامعين.

وقد كلف الشيخ عيسى[1] منذ صباه بجمع الكتب والحرص عليها. فاقتنى منها عدداً وافراً قلّ ما أتيح لسواه في عصره ومصره ان يجمع مثله. وندر ان تباع مكتبة من مكتبات الشرق قبل عرضها عليه. فوقف على نفائس ونوادر ذات شأن من مخطوطات ومطبوعات على اختلاف مواضيعها.

اطّلعنا في مجلة «الضاد» الحلبية[2] على مقالة موجزة كتبها عيسى المعلوف في وصف خزانة كتبه التي انشأها في مدينة زحلة. فتبين لنا انها اشتملت على سبعة آلاف مجلد بينها زهاء الف وتسعمائة مخطوط علّق عليها بخطه الحواشي المفيدة والملحوظات السديدة. غير انه باع ربع مخطوطاته عام ١٩٢٥ من خزانة الجامعة الاميركية في بيروت. ذلك لا طمعاً بالربح والاتجار بل لحفظها بين ايدي مَن يعرف قيمتها ويحرص عليها ويستفيد من التعاليق الخاصة التي دوّنها جامعها البحاثة في اكثر تلك المخطوطات. وقد نشر في هذا الصدد رسالة عنوانها «المخطوطات المعلوفية في خزانة الجامعة الاميركية».

ولعيسى المعلوف مؤلفات جمة نذكر منها: «دواني القطوف في اخبار بني المعلوف» و «تاريخ فخر الدين المعني» و «تاريخ زحلة» وكتاب «الاخبار المرويّة في تاريخ الاسر الشرقية» وديوان شعر سماه «بنات الافكار» الخ. وله خطب ومقالات غزيرة المادة مبتكرة المواضيع عن لبنان وسوريا خصوصاً. نشرها في زهاء خمسين مجلة وجريدة ولا سيما في مجلته «الآثار» التي اصدر منها خمسة مجلدات.

وبما يبرهن على كلف الاستاذ عيسى المعلوف بجمع الكتب والضنانة بنوادرها

---

(١) راجع ترجمته في تاريخ الصحافة العربية: مجلد ٢ صفحة ٢٣٤ - ٢٣٨

(٢) مجلة الضاد في حلب: مجلد ٦ صفحة ٩ - ١٤ سنة ١٩٣٦

بيتان نظمها هو في هذا الصدد . وقد جريا على الالسنة مجرى الامثال قال :

اجعلوا ان مت يوماً كفني ورق الكتب وقبري المكتبة
وادفنوني وادفنوا الكتب معي وانثروا الاوراق حول المرتبة (١)

٢٣ - القس بولس سباط

لهذا الكاهن الفاضل ولع غريب بالمخطوطات القديمة التي اخذ يجمعها منذ السنة ١٩٠٩ على اثر خروجه من مدرسة الشرفة . وقد وضع نواة هذه المكتبة في حلب مسقط راسه قبل انتقاله الى القاهرة حيث قضى بقية حياته . ويعد القس بولس سباط من ذوي الهمة الشماء اذ بلغ ما احرزه من تلك الذخائر الغالية ما لم يجمعه غيره من كهنة هذا العصر في بلاد الشرق .

ولما نشبت الحرب العظمى (١٩١٤ - ١٩١٨) بويلاتها شمر هذا القس الفاضل عن ساعد الجد لينقذ من براثنها ما تبقى مبعثرا في حلب من المخطوطات العربية . وقد عثر على طائفة من الكتب لا توجد الا في خزانته (٢)

ولم يقتصر القس بولس على جمع ما جمع من المخطوطات بل وضع لها فهارس منظمة ثم نشرها تعميماً لفوائدها . وقرأنا وصفاً لبعض مخطوطات الخزانة السباطية بقلم عيسى اسكندر المعلوف في مجلة المجمع العلمي العربي في دمشق(٣). وقد اناف عدد مخطوطات هذه الخزانة على الف وخمسمائة مجلد(٤) وتوفي منشئها بالقاهرة في شهر تشرين الاول ١٩٤٥

---

(١) مجلة الدبور في بيروت : مجلد ١٩ سنة ١٩٤١ عدد ٨٦٣
(٢) المجلة السورية : مجلد ٣ سنة ١٩٢٨ صفحة ١٤٧
(٣) مجلة المجمع العلمي بدمشق : مجلد ٥ سنة ١٩٢٥ صفحة ٣١٩
(٤) مجلة المسرة : مجلد ٢٢ سنة ١٩٣٦ صفحة ٥٠٠

ونشر القس سباط بعض كتب نذكر منها كتاب « المشرع » وكتاب « الروضة الطبية » تأليف عبيدالله بن جبرائيل بختيشوع طبعه سنة ١٩٢٧ في القاهرة .

ومن نفائس الخزانة السباطيّة : « المقدمة الكافية في الجبر والمقابلة » لابي الحسن السلميّ نسخ سنة ٦٠٨ للهجرة (١٢١١ م) . و « قسطاس الافكار في تحقيق الاسرار » في المنطق نسخ سنة ٧١٤ للهجرة (١٣١٤ م) . ورحلة رجل حلبي رافق سائحاً فرنسياً اسمه « بول لوكا » سنة ١٧٠٧ م الى طرابلس الشام ومصر ومراكش واوروبا وغيرها .

خاتمة المجلد الثاني

الى هنا انتهى المجلد الثاني من كتاب « خزائن الكتب العربية في الخافقين » الذي لا يقلّ عن المجلد الاول مادة ودقة وترتيباً . وهو يتضمن الشيء الكثير مما يصبو الى اقتباسه والاطلاع عليه اهل النقد والعرفان . ويسدّ بلا ريب فراغاً كبيراً في المكتبة العربية من الناحيتين التاريخية والادبية . وقد اودعناه تسعة ابواب مختلفة المواضيع متماسكة الاصول والفروع يصح ان يكون كل باب منها كتاباً مستقلاً برأسه .

وسنختتمه بالمجلد الثالث والأخير الذي ينطوي على خمسة ابواب : اولها المخطوطات العربية والعاملون فيها ، ثانيها المخطوطات العربية المصوّرة والمزوّقة ، ثالثها رزايا الكتب والمكتبات ، رابعها النوازل الادبية بالمكتبات والكتب ، خامسها دار الكتب اللبنانية في بيروت . وكل من هذه الابواب ذو طابع خاص تتجلى فيه غرائب الكتب ومزاياها وطرائف المكتبات ورزاياها .

فهرس

خزائن الكتب العربية فى الخافقين

المجلد الثانى

صفحة

صفحة

صفحة

صفحة

صفحة

صفحة

صفحة

صفحة

صفحة

صفحة

صفحة

صفحة

صفحة

صفحة

صفحة

صفحة

صفحة

صفحة

صفحة

صفحة

صفحة

صفحة

صفحة

صفحة

صفحة

صفحة

صفحة

صفحة

صفحة

طبع من هذا الكتاب خمسمائة نسخة
في «مطابع جوزف سليم صيقلي»
بيروت
سنة ١٩٤٧

الباب الرابع عشر

المخطوطات العربية والعاملون فيها

الفصل الاول

مزايا المخطوطات العربية ونفائسها

١ ـ براعة العرب في اتقان مخطوطاتهم

ان اهتمام العرب بتأليف الكتب وترجمتها وجمعها كان داعياً الى اهتمامهم الشديد بالوراقة والنساخة والضبط والتصوير والتنميق والتجليد . واتضح ذلك باجلى مظاهره عندما استفحل ملك العرب واوغلوا في الحضارة وتلألأ عصرهم الذهبي بانوار المعارف . فاخذت تلك الصنائع تنمو وتنتشر وتتقدم بقدر نمو معاهد العلم وانتشارها وتقدمها في انحاء البلاد . يؤيد ذلك ما اشتهر عن الخلفاء والملوك والوزراء والكبراء من التنافس وبذل المال لأتقان هذه الفنون وتعزيزها ومساعدة القائمين بها . وعلى سبيل المثال نروي ان وزير الخليفة العباسي الواثق بالله (٢٢٧ ـ ٢٣٢ هـ) كان ينفق ثلاثين الف دينار كل شهر على ترجمة الكتب وتجويد نسخها .

فمما خلّفه العرب من الآثار الكتابية النفيسة يسترعي الانتباه ويدعو الى الاعجاب ويأخذ حسنه بمجامع الألباب . وقد فاقوا بتلك الثروة الأدبية جميع

شعوب الارض شرقاً وغرباً دون جدال . بل كل من اطلع على تلك الكنوز النادرة والمخطوطات الفاخرة في المعارض التي تقيمها دار الكتب المصرية او متاحف الغرب حولاً بعد حول يشهد لحفدة عدنان بسلامة الذوق وبراعة الفن في ما خلّفوه من الآثار الكتابية الجليلة الشأن والمنقطعة القرين .

ليست جميع المخطوطات العربية في درجة واحدة من الاعتبار والنفاسة . بل يختلف اعتبارها اختلاف ما تحلت به من المزايا المرغوب فيها كثيرة كانت ام قليلة . وبالرغم من انتشار المطابع في الخافقين فان منزلة المخطوطات الثمينة لا تزال معززة لدى اهل المعرفة وذوي الخبرة والاختصاص . ولاجل ذلك نرى الحكومات الراقية والمعاهد العلمية ودور الكتب العامرة فضلاً عن الافراد يعتني كل منها عناية عظيمة باقتناء تلك الكنوز ويحرص عليها اشد الحرص .

٢ ـ اهم مزايا المخطوطات العربية

للمخطوطات العربية مزايا كثيرة يصعب احصاؤها بل يطول سردها في هذا البحث المختصر . لأن العرب تفوقوا على جميع الشعوب الراقية باساليب الكتابة فكان لهم القدح المعلى في اتقان المخطوطات وتنميقها وتجويدها وترصيعها . ولأجل ذلك لم يدعوا فناً من فنون الظرافة والزخرفة والابداع الا استعملوه في هذا السبيل . واخص ما يراعى عندهم من المزايا في المخطوطات ينحصر في ما يلي :

اولاً : ان يكون المخطوط قديم العهد ومكتوباً باحد الاقلام القديمة كالخط الكوفي مثلاً والخط البغدادي والخط الافريقي او القيرواني والخط الاندلسي (١) والخط الريحاني والخط الياني (٢) والخط المزركش وما شاكلها من الخطوط . واغلى المخطوطات وافضلها واندرها ما كان منها متصلاً بالقرن الثاني عشر للميلاد او السادس للهجرة او قبلهما .

(١) رسالة الخط تاليف الشيخ احمد رضا العاملي : صفحة ٢٠ وكتاب «زبدة الصحائف في اصول المعارف» : صفحة ١٢٥

(٢) كتاب «ماضي النجف» : صفحة ١٠٠

ثانيـاً : ان يكون المخطوط مجوّداً واضح الكتابة كامل الصفات لا يعتوره خلل او خرم او حك او تشويه او نقص من اوله الى آخره.

ثالثـاً : ان يكون المخطوط مشهوداً له بالضبط والدقة من مؤلفـه نفسه او من احد انسبائه الادنين او من احد العلماء المحققين .

رابعاً : ان يكون اسم المؤلف مدوّناً في المخطوط مع اسم الناسخ واسم الواقف واسم المطالع ولا سيا اذا كان هذا المطالع من مشاهير العلماء والعظاء. وتزيد قيمته اذا دوّن فيه الناسخ ما يأتي : اولاً ـ تاريخ اليوم والشهر والسنة للفراغ من كتابة المخطوط . ثانياً ـ مكان كتابته . ثالثاً ـ اسم الخليفة او السلطان او البطريرك او الرئيس الذي نجز في عهده تأليف الكتاب او نسخه .

خامساً : ان يكون المخطوط مدّبجاً بحواش وهوامش وتعاليق اثبتها المؤلف بخط يده. او دوّنها كبار العلماء او الملوك او طالعها اعلام مشاهير او قرئت عليهم واجازوها .

سادساً : ان يكون المخطوط حسن التبويب والترتيب بديع الخط جيّد الحبر مكتوباً على رق او بردي او حرير او كتان او قرطاس ثمين او ورق سمنجوني او اوراق شجرية او ما شابهها .

سابعاً : ان تكون مدّونة فيه شروح واضافات وتصحيحات وفوائد لا توجد في سواه من الكتب المخطوطة او المطبوعة .

ثامناً : ان يكون مكتوباً بخط احد مشاهير النساخ كابن مقلة وابن البواب وياقوت المستعصمي وبعض من سيأتي ذكرهم في غير هذا الفصل.

تاسعاً : ان يكون بحث المخطوط مبتكراً لم يتصدّ له مؤلف قبل مؤلفه. او ان يكون موضوعه نادراً وذا فائدة كبرى لعلماء ذلك البحث.

عاشراً : ان يكون المخطوط متقن التجليد ومحفوظاً في قمطر بديع الشكل قد صُنِع خصيصاً له . ويُستَحسَن ان يكون القمطر مرصعاً وطرازه شرقياً .

حادي عشر : ان يكون المخطوط مزيناً بالرسوم الرائعة او موشّى بالذهب والفضة او منمّقاً بالالوان الزاهية او متفرداً بمزيّة لا اثر لها في سواه .

تلك مزايا يُستحب ان تتحلى بها المخطوطات تعزيزاً لقيمتها الاثرية وتمييزاً لها عن المطبوعات . وما هدفنا في اثبات المزايا المذكورة الا لتتخذ دستوراً يعتمد عليه عشاق المخطوطات ويعمل به خزنة المكاتب. فمتى اجتمعت هذه الأوصاف كلها او بعضها في كتاب مخطوط وجب احرازه والتباهي به والحرص عليه من التلف والفقدان وتزيين خزائن الدور والقصور به وبأمثاله . ففي مخطوطٍ كهذا يصدق بلا ريب قول الشاعر :

هذا كتاب لو يباع بوزنه ذهباً لكان البائع المغبونا
أوَ ما من الخسران أنك آخذ ذهباً وتترك جوهراً مكنونا

الفصل الثاني

الوراقة والورّاقون

١ – اختلاف اساليب الوراقة عند الامم القديمة

الوراقة هي حرفة الورّاق او صناعة الورق . والورق كما قال بعضهم لا أثر له في الكلام العربي القديم. لكنه اسم لجلود رقاق يُكتَب فيها. ولفظه مستعار من ورق الشجر (١) . ولم يعرف العرب الوراقة الا منذ منتصف القرن الثامن للميلاد كما سترى . اما الامم القديمة التي سبقت العرب فكانت متفاوتة الاساليب في الوراقة يختلف بعضها في ذلك عن البعض الآخر .

من المقرر ان الفونيقيين سبقوا جميع الامم في استنباط حروف الكتابة فكتبوها اولاً على جذوع البردي الذي استحضروه من مصر . لانهم لاقوا في ذلك اسهل الذرائع لضبط دفاترهم وفذالك حساباتهم وسفاتج بيعهم وشراهم وسندات دفعهم وقبضهم (٢) . واستعمل الفونيقيون كذلك اصناف الكتّان وضروب الرقوق فدوّنوا عليها كتاباتهم .

وغير خافٍ ان اليونان انما تعلموا الكتابة من الفونيقيين . واتخذوا لها ورقاً نقله اليهم تجار فونيقيون من بيبـــلوس (جبيل) . ولذا اطلقوا على الورق اسم « بيبلوس » وسموا ما كتبوه على الورق « بيبليا » . ومن لفظ « بيبليا » اتخذ الفرنج

---

(١) معجم اقرب الموارد : لسعيد الشرتوني : صفحة ١٤٤٥

(٢) المشرق : مجلد ٩ سنة ١٩٠٦ صفحة ٨٥٢

عموماً لفظ «بيبل Bible» عنواناً للكتاب المقدس كما اتخذوا لفظ «صبي» للصحون الخزفية لانها وردت في اول امرها من الصين (١) .

واستعمل الآراميون قلم الحبر فدوّنوا به كتاباتهم على ملف البردي . ودوّنها الآشوريون على الآجر بقلم قصب (٢)

اما اليهود فقد تلقنوا الكتابة عن الفونيقيين كما اتخذوا حروفهم عن الآرامين . فكتبوا ما كتبوا على ألواح خشب وعلى حجر ولبن وعلى صفائح معدنية كالرصاص والحديد والبرونز والنحاس . واستعملوا ايضاً الجلود والاقمشة والرقوق في كتاباتهم (٣) ولعلّهم اتخذوا البردي للكتابة كسائر الشعوب القديمة . لانهم عرفوه في مصر واستعملوه في بعض حاجاتهم . يثبت ذلك ما ورد في سفر الخروج عن ام موسى الكليم فانها اخذت قفة من البردي وطلتها بالحمّر والزفت وجعلت فيها طفلها موسى (٤) . وذكر البردي ايوب الصديق هكذا : «هل تخضرّ الحلفاء . . . او ينبت البردي حيث ليس مياه» (٥) . وكتب اشعيا النبي عن البردي قوله : «الذي يرسل الرسل في البحر وفي زوارق من بردي على وجه الماء» (٦) .

وكان اهل الصين يكتبون في ورق يصنعونه من حشيش او كلأ . وعنهم احد الناس بتوالي الازمنة يتفننون في تلك الصناعة حتى عمّ استعمالها شرقاً وغرباً . واتخذ الهنود خِرَق الحرير الابيض لكتاباتهم .

اما الفرس فكتبوا على جلود مدبوغة كجلود الجواميس والبقر والغنم وما

---

(١) العصور القديمة : تاليف الدكتور جايمس : صفحة ٢٠٦ وتاريخ الدول الآرامية السريانية : للخوري اسحق ارملة : مجلد ١ قسم ١ فصل ٥

(٢) العصور القديمة : تاليف الدكتور جايمس : صفحة ١٠٩

(٣) قاموس الكتاب المقدس : للدكتور جورج بوست : مجلد ٢ صفحة ٢٣٩

(٤) سفر الخروج : فصل ٢ عدد ٣

(٥) سفر ايوب : فصل ٨ عدد ١١

(٦) نبؤة اشعيا : فصل ١٨ عدد ٢

شا كلها من جلود الوحش والطير وكسوا ايضاً في اللخاف وهي حجار بيض رقاق . وكتبوا على المعادن كالنحاس والحديد وعلى عُسُب النخل وعلى عظم اكتاف الابل والغنم . هكذا اخذ العرب يكتبون اساطيرهم مقلدين الشعوب المذكورة لقربهم منها (١).

٢ ـ صناعة الوراقة عند العرب ونقلهم اياها الى اوروبا

استعمل العرب نسيج الكتان في كتاباتهم منذ عهد بني امية (٦٦٢ ـ ٧٤٦ م) بدمشق الشام عاصمتهم واطلقوا عليه اسم «خراساني» (٢) . اما صناعة الورق فقد اجمع المؤرخون على انها وصلت الى العرب سنة ٧٥١ م على ايدي اسرى صينيين سيقوا الى سمرقند . فتعلمها العرب منهم وانشأوا لها مصنعاً في المدينة المذكورة . وفي السنة ٧٩٤ م اقاموا معملاً للورق في بغداد عاصمة بني العباس . ولم يلبثوا ان اسسوا مصانع اخرى للورق في دمشق وحماة وطرابلس ومنبج وطبرية والقاهرة ودمياط وتهامة وشمال افريقيا ومدينة شاطبة وبلنسية وطليطلة في الاندلس .

ويعود الفضل الى العرب ايام عزهم وحضارتهم في ادخال صناعة الورق الى جزيرة صقلية بايطاليا والى فرنسا ومنها الى سائر انحاء اوروبا (٣) . وقيل ان هذه الصناعة اتصلت بالفرنج عن عرب الاندلس فتفننوا فيها واتخذوا لعملها الكتان بدلاً من القطن (٤) .

اما في مصر فكان الورق المنصوري يصنع في الفسطاط لا في القاهرة (٥) .

---

(١) صبح الاعشى : للقلقشندي : مجلد ٢ صفحة ٧٥ ؛
(٢) خطط الشام : لمحمد كرد علي : جزء٤ صفحة ٢٤٢
(٣) معجم لاروس الفرنسي
(٤) مختصر القرون المتوسطة : تاليف القس لويس رحماني : باب ٤ فصل ٧ صفحة ٣٩٦
(٥) نفح الطيب : للمقري : جزء ١ صفحة ٤٩٢

ثم انشيء في القـاهرة نفسها خان اسمه «خان الوراقة» كما روى المقريزي في خططه (١). وحدّث احد علماء حلب ان الورق كان يصنع في حي من احيائها لم يزل معروفاً حتى اليوم باسم «حي الوراقة» حيث كانت معامل الورق في سالف الزمان (٢).

٣ - تنوع الوراقة وادوات الكتابة

ذهب بعضهم الى ان الوراقة لم تحصر في صناعة الورق وحدهـا بل تناولت الاشتغال بالورق وبكل ما يتعلق به من كتابة ونسخ وضبط وصقل وتجليد وبيع كتب الخ. وتتناول ايضاً جميع ما يرافق ذلك من ادوات الكتابة على اختلاف انواعها. واليك اسماء تلك الادوات كما فصلها القلقشندي في «صبح الاعشى» وهي: القلم والدواة والحبر والليقة والسكين والمِقطّ والمِسنّ والمِقلمة والملواق والمرملة او المِتربة والرمل والمِنشأة والمنفذ والملزمة والمفرشة والممسحة والمسقاة والمسطرة والمِصْقَلة.

قال محمد بن شعيب بن سابور: «مَثَلُ الكاتب بغير دواة كمَثَل من يسير الى الهيجاء بغير سلاح». ومن أهم ادوات الكتابة القرطاس ويقال له «قِرْطَس» ايضاً على ما ورد في الشعر الجاهلي. وجاء ذكر القرطاس في القرآن بقوله: «ولو نزلنا عليك كتباً في قرطاس فلمسوه بايديهم» (٣). وقال ايضاً: «قل من انزل الكتاب الذي جاء به موسى نوراً وهدًى للناس تجعلونه قراطيس» (٤).

---

(١) المواعظ والاعتبار بذكر الخطط والآثار: للمقريزي: جزء ٣ صفحة ٣٧
(٢) خطط الشام: جزء ٤ صفحة ٢٤٤
(٣) سورة الانعام: الآية ٦
(٤) سورة الانعام: الآية ٩١

وأنشد الحِحْش العقَيلِيّ النصراني يصف رسوم دارٍ شبّهها بخط الزبور «مزامير داود» على القرطاس قال :

كأنّ بحيث استودع الدارَ اهلُها ... مخَطّ زبورٍ من دواةٍ وقرطسِ

ومن ألطف ما قرأناه عن الدواة قول احمد ابن بنت الاعز (١) :

تعطلتُ فابيضّت دواتي لحزنها ... ومذ قلّ مالي قلّ منها مدادُها
وللناس مسودّ اللباس حِدادُهم ... ولكن مبيضّ الدواة حدادها

ومن هذا القبيل ايضاً ما رواه ابو علي البصير الاعمى عن المحبرة قال (٢) :

اذا ما غدتْ طلابةُ العلم ما لها ... من العلم الا ما يخلّد في الكتبِ
غدوتُ بتشميرٍ وجدّ عليهمِ ... ومحبرتي سمعي ودفترها قلبي

واجاد الحسن بن وهب في ما انشده عن المداد بقوله :

وما شيء باحسن من ثيابٍ ... على حافـاتها سِمة المدادِ

ونظم آخر في المداد قوله :

لا تجزعنّ من المـداد ولطخه ... ان المداد خلوقُ(٣) ثوب الكاتب

واحسن من كليها بيتان في المداد ظريفان انشدهما زيد بن الحسن الكندي البغدادي (٥٢٠ - ٥٩٧ هـ) وزيد فروخ شاه وهما (٤) :

لامني في اختصار كتبي حبيبٌ ... فرّقت بينه الليـالي وبيني
ليتني قد اطلتُ لكنّ عذري ... فيه ان المداد انسان عيني

---

(١) فوات الوفيات : لابن شاكر : جزء ١ صفحة ٥٤
(٢) نكات الهيان : صفحة ٧٧
(٣) الخلوق كرسول : ضرب من الطيب مائع فيه صفرة لان اعظم اجزائه من الزعفران
(٤) معجم الادباء : لياقوت الرومي : جزء ١١ صفحة ١٧٥

وممّا نُظم في ممسحة القلم بيتان لعبد الرحيم البيساني المعروف بالقاضي الفاضل وكان وزيراً للملك الافضل قال (١) :

ممسحةٌ نهارُها يجنّ ليلَ الظُلمِ
كأنها من طرفها منديلُ لفّ القلمِ

اما القلم فأشرف آلات الكتابة واعلاها رتبة اذ هو المباشر للكتابة دون غيره . لان غيره من آلات الكتابة يعدّ بمثابة الاعوان والخدم له. وحسْب القلم فخراً ان القرآن اورد ذكره غير مرة كقوله : «ن والقلم وما يسطرون (٢) » . وقوله : « اقرأ وربك الاكرم . الذي علمّ بالقلم (٣) » .

ولله ابو الفتح البستي حيث يقول :

اذا أقسم الأبطال يوماً بسيفهم وعدّوه مما يُكسِب المجد والكرَم
كفى قلمَ الكتّابِ عزاً ورفعةً مدى الدهرِ ان الله أقسم بالقلمْ

ورحم الله امية بن عبد العزيز بن ابي الصلت وهو القائل :

وما مقلّمُ اظفاري سوى قلمي وما كتائبُ اعدائي سوى كتبي

ومن ابدع ما نُظم في الكتب والقلم ايضاً قول احمد بن رضي المالقيّ :

ليس المُدامة مما استريحُ لها ولا منادمة الاوتار والنّغَمِ
وانما لذتي كتبٌ أطالعها وخادمي ابداً في خلوتي قلمي

واثبت ياقوت الرومي في مقدمة كتابه «معجم الادباء» يصف ما سطره فيه من حكم وامثال واخبار واشعار ونثر وآثار وغيرها فتطرق لذكر القرطاس والقلم بقوله (٤) :

---

(١) الجامع المختصر في عنوان التواريخ وعيون السير : لابن الساعي الخازن : جزء ٩ صفحة ٢٨
(٢) القرآن : سورة القلم : الآية الاولى
(٣) القرآن : سورة العلق : الآية ٣ و ٤
(٤) معجم الادباء : لياقوت الرومي : جزء ١ صفحة ٨

من كل معنى يكاد الموت يفهمه حساً ويعبده القرطاس والقلمُ

ووصف ابن سناء الملك قلمه بهذين البيتين قال (١)

ولي قلمٌ في أنملي ان هززته فما ضرني الا اهزّ المهندا
اذا صال فوق الطرس وقع صريره فان صليل المشرفي له صدى

وانشدَ بعضهم ملغزاً في قلم قال (٢) :

وساكن رمس طعمه عند رأسه اذا ذاق من ذاك الطعام تكلما
يقوم ويمشي صامتاً متكلماً ويرجع من في القبر منه مقوّما
وليس بحيٍّ يستحقّ كرامةً وليس بميتٍ يستحقّ الترحّما

وانشد ابو هلال العسكري صاحب الصناعتين يشكو حالته ويلعن القرطاس والحبر والقلم بهذه الابيات (٣) :

اذا كان مالي مالَ من يلقط العجمْ وحالي فيكم حالَ من حاك اوحجمْ
فاين انتفاعي بالاصالة والحجى وما ربحت كفي على العلم والحكمْ
ومن ذا الذي في الناس يبصر حالتي فلا يلعنُ القرطاس والحبر والقلمْ

٤ ـ مشاهير الوراقين

تسهيلاً للاحاطة بجميع اطراف الموضوع الذي نبحثه رأينا ان نثبت في هذا الفصل اسماء بعض مشاهير اهل الوراقة وما تفرع منها . فقد برّز في عهد حضارة العرب رجال برعوا بحرفة الوراقة التي راجت اسواقها في العراق وسوريا ومصر

(١) جريدة منبر الشرق : لعلي الغاياتي في القاهرة : مجلد ٢٠ سنة ١٩٤١ عدد ١٤٨ صفحة ٧

(٢) مجاني الادب : للاب لويس شيخو : جزء ٢ صفحة ١٤١

(٣) بغية الوعاة : لجلال الدين السيوطي : صفحة ٢٢١

والغرب وبلاد الاندلس. وارتقت الوراقة قديماً بعناية العرب حتى صارت منتوجاتها تباع في اقطار ما بين النهرين وايران والهند وغيرها.

ومن اقدم الورّاقين واشهرهم نذكر: سليمان الورّاق ومحمد بن عمر الورّاق وكلاهما من علماء القرن الثاني للهجرة (١). وفي اوائل القرن الثالث عاش سلمة الوراق وابو نصر الوراق (٢). ومحمد بن يوسف الوراق القيرواني ولد سنة ٢٩٢ للهجرة وألف اخبار سلجماسة ونكور والبصرة تآليف حساناً كما قال ابن حزم (٣)

وجاء بعد هؤلاء محمد بن عبدالله الكرماني المتوفى سنة ٣٢٩ للهجرة. ومسند بغداد ابو جعفر محمد البختري وابرهيم بن صالح الوراق تلميذ الفارابي وقد توفيا كلاهما سنة ٣٣٩ للهجرة. وعاش بعدهم ابن النديم الوراق البغدادي صاحب الفهرست المتوفى سنة ٣٧٥ للهجرة. وابو بكر بن اسماعيل الوراق (٤). وعلي بن عيسى الوراق (٥).

ومن الورّاقين في القرن الرابع ايضاً مطر الوراق واحمد بن ملّوك وابو الحسن علي بن لؤلؤ الثقفي وثلاثتهم من مشاهير الوراقين في القرن الرابع للهجرة. وابو علي المصيصّي الوراق (٦) والحسن بن احمد الوراق من صلحاء دمشق (٧). ثم ابو القاسم الاخفش الوراق (٤٦٠ هـ) وهو ثالث الاخفشين من النحاة. وابو اسحق ابرهيم بن سعيد الوراق المصري (٨) ونحوي بغداد ابو الحسن محمد بن

---

(١) تذكرة الحفاظ: جزء ١ صفحة ٢٤٩
(٢) تاريخ بغداد: للخطيب البغدادي: جزء ١٤ صفحة ١٤٩
(٣) اتحاف الناس في اخبار مكناس: جزء ١ صفحة ١٠
(٤) تاريخ بغداد: للخطيب البغدادي: جزء ١٤ صفحة ٤٤٥
(٥) المخطوطات العربية لكتبة النصرانية: صفحة ٢١٤
(٦) التاريخ الكبير لابن عساكر: مجلد ٤ صفحة ١٥٠
(٧) التاريخ الكبير لابن عساكر: مجلد ٤ صفحة ١٥٢
(٨) تذكرة الحفاظ: جزء ٣ صفحة ٣٦٠

هبة الله ابن الوراق الضرير (١) من حفـــاظ القرن الخامس للهجرة . ومن اشهر الوراقين ايضاً : ابو بكر الساوي الوراق (٢) وابن عبد ربه الوراق (٣) .

وروى ياقوت الرومي في معجم الادباء اخباراً شتى عن علان الوراق الشعوبيّ قال : كان علان قبيح الصورة ومرّ يوماً بمخنث يغزل على حائط فسأله المخنث : من اين انت ؟ قال علان : من البصرة . قال المخنث : لا اله الا الله ! تغير كل شيء حتى هذا ؟ كانت القرود تُجلب من مكة واليمن والان تجيء من العراق ! (٤) .

ومن مشاهير الوراقين ابو محمد البكري الشنتويني الوراق المتوفى سنة ٥١٧ هـ . كان شاعراً مفلقاً مليح الكتابة قليل الحظ نسخ الكثير بالاجرة . ومن شعره هذان البيتان نظمها في حرفته قال :

اما الوراقة فهي انكد حرفةٍ   اوراقها وثمـــارها الحرمانُ
شبّهتُ صاحبها بصاحب ابرةٍ   تكسو العراةَ وجسمها عريانُ

ومن مشاهير الوراقين ايضاً ابو محمد سفيان التجيبي كان من اهل المعرفة التامة بعلوم اللسان على تفاريقها حسن الوراقة ذا حظّ صالح من الكتابة توفي سنة ٥٤٦ للهجرة (٥)

وقس على من سبق ابا الحسن اللخمي الغرناطي (٤٩٧ - ٥٥٦ هـ) ورد عنه في تاريخ غرناطة انه : «كان وزيراً فقيهاً نبيلاً جواداً اديباً عارفاً بالعروض والنحو واللغة والطب سيد الشعر حسن الخط والوراقة» . ومثله عبد الرحمن بن المنـذر قاضي الاسكنـدرية ويعرف بالابخر . كان واسع الاطلاع في علم الوراقة ومات

---

(١) تذكرة الحفاظ : جزء ٣ صفحة ٣٣٧
(٢) التاريخ الكبير لابن عساكر : مجلد ٢ صفحة ٧٢
(٣) معجم البلدان : جزء ٤ صفحة ٣٦٠
(٤) معجم الادباء : جزء ١٢ صفحة ١٩٢
(٥) بغية الوعاة : صفحة ٥٨

سنة ٥٦٨ للهجرة (١) . ثم جعفر اللخمي الاسكندراني الوراق (٥٧٥-٦١٣ﻫ) . ومحمد ابو نصر البغدادي الوراق (٥٤٣-٦٢٠ﻫ) . ومحمد ابو العباس الاحول ذكره الزبيدي في طبقة المبرد وثعلب وقال عنه : «كان يورق بالاجرة وكان قليل الحظ من الناس وجمع دواوين مائة وعشرين شاعراً» .

ونذكر بعد هؤلاء جمال الدين الانصاري الكتبي الوراق المعروف بالوطواط (٦٣٢-٧١٨ﻫ) (٢). ومحمد بن حمدون الغافقي القرطبي الوراق. والشهاب احمد الوراق (٣) . وغانم الوراق تلميذ ابو نواس . وياقوت الرومي الذي تعاطى نسخ الكتب وتاجر بها. وابا بكر التميمي الوراق . ولله در الشاعر سراج الدين الوراق الذي اجاد في وصف صناعته بهذين البيتين قال :

يا خجلتي وصحائفي قد سُوّدت	وصحائف الابرار في الاشراق
وموبّخٍ لي في القيامة قائلٍ	أكذا تكون صحائف الورّاق

ومن لطيف ما نظمه لسان الدين الخطيب عن براعة الوراق قوله (٤) :

يمضي الزمان وكل فانٍ ذاهبٌ	الا جميلُ الذكر فهو الباقي
لم يبقَ من ايوان كسرى بعد ذا	كَ الحفل الا الذكر في الاوراقِ
هل كان للسفاح والمنصور والـ	مهدي من ذكرٍ على الاطلاقِ
او للرشيد وللامين وصنوهِ	لولا شباةُ براعة الوراقِ

٥ - القاب خاصة ببعض الوراقين

أطلق اسم الوراق ايضاً على مشاهير تجار الكتب والمشتغلين بها فلقبوا بالكتبيين.

---

(١) بغية الوعاة : صفحة ٢٩٧

(٢) معجم المطبوعات العربية : ١٩٢٠

(٣) سلك الدرر في اعيان القرن الحادي عشر للمرادي : جزء ٤ صفحة ٩٩

(٤) نفح الطيب : جزء ٤ صفحة ٢٤

ومن عُرفوا بهذه الحرفة ابن شاكر الكتبي مؤلف كتاب «فوات الوفيات» فرُزق منها مالاً وافراً. ومنهم الشمس علي بن الكتبي الخازن . وابن الكتبي الطبيب . وابن‌صورة الكتبي بالقاهرة . وصلاح الدين الكتبي صاحب التاريخ (١) والاسكندراني الكتبي (٢) . واطلق لقب «فخر الكتّاب» على ابي علي الحسن وكانت تباع كتبه باغلى الاثمان (٣)

وكان « ظفر البغدادي » من رؤساء الوراقين المعروفين بالضبط وحسن الخط كعباس بن عمر الصقلي ويوسف البلوطي وطبقتهما . واستخدمه الحكم المستنصر بالله في الوراقة لشدة اعتناء الحكم بجمع الكتب واقتنائها . وسكن ظفر في قرطبة واليه اشار حيّان الاندلسي في كتاب « المقتبس » (٤).

واطلق على بعض الوراقين لقب « قراطيسي » نسبة الى القراطيس وهو جمع قرطاس اي الصحيفة التي يكتب فيها . وممن اشتهر بهذا اللقب يوسف بن يزيد القراطيسي (٥) احد علماء مصر . وفي دمشق حتى يومنا هذا اسرة قديمة كنيتها « القراطيسي » لم يزل بعض افرادها يتعاطون تجارة الورق .

ونذكر من هذا القبيل لقب «الكراريسي» نسبة الى الكراريس جمع كراس (٦) وأطلق على بعضهم لقب « مصحفي » نسبة الى المصحف. وهم الذين اشتهروا بكتابة المصاحف دون سواها . نذكر منهم الحاجب جعفر المصحفي وزير المستنصر بالله الحكم الثاني سلطان قرطبة (٧) . وكان ذا ادب بارع ونظم رائع .

---

(١) خطط الشام : جزء ١ صفحة ١٦ وخزائن الكتب في دمشق وضواحيها : صفحة ٣
(٢) تذكرة الحفاظ : جزء ٤ صفحة ٢٣٦
(٣) وفيات الاعيان : جزء ١ صفحة ١٨١
(٤) نفح الطيب : جزء ٢ صفحة ١٠٣
(٥) نفح الطيب : جزء ١ صفحة ٥٨٢
(٦) مجلة المشرق : مجلد ٣٥ سنة ١٩٣٧ صفحة ٣٧١
(٧) نفح الطيب : جزء ١ صفحة ٢٧٧

وأطلق لقب «كاغديّ» على بائع الكاغد اي القرطاس . وهو لفظ فارسي معرب (١) . وممن عرف بهذا اللقب قديماً الحسين بن علي بن ابرهيم الجُعل (٣٠٨ — ٣٩٩ ﻫ) الكاغدي (٢). وعُرف بعده بهذا اللقب ابو الفضائل عبد الرحيم الكاغدي. ومن القاب بعض الوراقين لقب «ناسخ» لمن امتاز بالنسخ كأبي عبد الله الناسخ الذي خصصه صاحب «تاج العروس» بهذا اللقب . وقس عليه لقب «نسّاخ» لمن اشتهر بكثرة النسخ كعبد السلام النساخ (٣) . واطلقوا لقب «خير النساخ» على مين اجاد النساخة واحكمها وبرع فيها . وقد كني بهذا اللقب ابو الحسن محمد بن اسمعيل (٤).

وتشمل الوراقة ايضاً جميع المشتغلين بادوات الكتابة كما سلف الكلام . هكذا أطلق لقب «حبّار» على صانع الحبر الذي يُكتب به وعلى بائعه والمتعاملين به . ومن اشهر الحبارين الذين ورد ذكرهم في التاريخ حسين المصري ابو علي بدر الدين الذي صار يجلس بعد ذلك في زاوية بظاهر القاهرة ويعظ الناس (٥) . وممن يصح ان يطلق عليه لقب «حبّار» ابو محمد البتجيبي المعروف بابن الحجاج .فانه اقتنى كتباً كثيرة من جميع العلوم وزنها سبعة قناطير كلها بخطه وربما كان يصنع له مطرة من الحبر لاجل كثرة كتاباته !! (٦)

٦ — بعض مؤلفات في الوراقة والكتابة

لا تخلو المكتبات من تآليف تبحث في الوراقة والكتابة وآدابها ككتاب

(١) معجم «اقرب الموارد» لسعيد الشرتوني : صفحة ١٠٩٠
(٢) الاعلام : لخيرالدين الزركلي : جزء ١ صفحة ٢٥٤
(٣) اتحاف اعلام الناس : لعبد الرحمن بن زيدان : جزء ٥ صفحة ٨١ ؛
(٤) تاريخ بغداد : للخطيب البغدادي : جزء ٢ صفحة ٤٨
(٥) تاريخ ابن الفرات : نشره الدكتور قسطنطين زريق : مجلد ٩ جزء ١ صفحة ١٧٣
(٦) معالم الايمان في معرفة اهل القيروان : جزء ٣ صفحة ٧٠-٧٢

«ادب الكاتب» لابن قتيبة (١) المتوفى سنة ٢٧٦ للهجرة . وكتاب «الرأي الصائب في ما لا بد منه للكاتب» تأليف عماد الدين الكناني (٢). وكتاب «تحفة اولي الالباب» في صناعة الخط لابن الصائغ . وفيه صور الحروف وموازينها . وكتاب «لمحة المختطف في صناعة الخط الصلف» لابن يس . وكتاب «شرح ابن وحيد على ارجوزة ابن البواب» في الخط . وكتاب «عمدة الكتاب» في الخط والمداد والاقلام . وكتاب «النجوم الشارقات في عمل الليقات» لابن ابي الخير الحسيني . و«رسالة في صناعة الاحبار» وهذان الاخيران هما من ملحقات كتب الخط (٣) . ومنها كتاب «الخراج وصناعة الكتابة» لقدامة بن جعفر المتوفى سنة ٣١٠ للهجرة. وكان قدامة نصرانياً فأسلم (٤). ومنها رسالة في الكتابة والخط انشأها ابو العباس احمد بن محمد ثوابة توفي سنة ٢٧٧ للهجرة . وكتاب «تنويق النطاقة في علم الورافة» تأليف الشيخ عبد الرحمن بن احمد بن مسك السخاوي المتوفى نحو السنة ١٠٢٥ للهجرة (١٦١٦ م). وذكر ابن النديم في فهرسته ان ابا دلف كان ممن تكلموا في فضل الخط .

اخيراً لا يسعنا السكوت عن «المترجم» وهو يُطلق على كتابة سرية اصطلح عليها العرب ويقال لها الآن «الشفرة» عند الفرنج . وفي الخزانة التيمورية نسخة من «قصيدة ابن الدريهم في المترجم» نشر عنها تيمور باشا مقالة ممتعة (٥) وفي الخزانة الزكية بالقاهرة مجموعة رسائل في «المترجم» تعد من اثمن الكنوز (٦)

٧ - اسواق الورّاقة والورّاقين

من اقدم اسواق الورّاقين الوارد ذكرها في التاريخ «سوق البصرة» وقد

(١) تاريخ ابي الفداء : جزء ٢ صفحة ٥٤
(٢) مخطوط في الخزانة البارودية ببيروت
(٣) نوادر المخطوطات بقلم احمد تيمور باشا (الهلال : مجلد ٢٨ : صفحة ٣٢٧)
(٤) معجم المطبوعات العربية والمعربة : صفحة ١٤٩٤-١٤٩٥
(٥) الهلال : مجلد ٢٤ صفحة ٣٦٤ (٦) الهلال : مجلد ٢٨ صفحة ٣٢٨

اشتهر امره منذ القرن الثاني للهجرة . وممن اكثر التردد اليـــه محمد بن القاسم ابو العيناء في ايام الخليفة العبـاسي الواثق بالله (٢٢٧ - ٢٣٢ ﻫ و٨٤٢ - ٨٤٧ م) بن المعتصم (١) .

وروى شهاب الخفاجي في كتابه «ريحانة الالباء» (٢) ترجمة ابرهيم بن المسلط الذي عُدّ من عيون ادباء عصره . وذكر انه كان شيخ سوق الوراقة في مدينـة القاهرة . ولابن مسلط شعر لطيف . من ذلك قوله :

يا عايبـاً لسواد قهوتنـا التي فيها شفاءُ الناس من أمراضِها
أفلا تراها وهي في فنجانها تحكي سوادَ العين وسط بياضِها

واتى ابن بطوطة في كتاب رحلته على وصف سوق الورّاقـين في دمشق . واراد بهم باعة الكاغد والمداد والاقلام وما يتبعها . وفي السنة (٧٤٠ ﻫ — ١٣٣٩ م) احترق سوق اللبّادين وسوق الورّاقين الواقعان شرقي الجامع الاموي (٣) .

وليوسف بن عبد الهادي المعروف بابن المبرّد مخطوطٌ عنوانه «نزهة الرفـاق عن شرح حـال الاسواق» يقع في خمس عشرة صفحة . وقد سرد فيه مؤلفه اسماء الاسواق التي كانت على عهده بدمشق في القرن التاسع للهجرة اي الخامس عشر للميلاد . فعدّد منها مائةً وخمسين سوقاً مختلفة الاسماء لمائة وخمسين حرفة او صناعة . وقد جاء فيها تحت الرقم التاسع اسم «سوق الورّاقين» في باب البريد (٤) .

وكان في تونس كما في سائر البلدان سوق للورّاقين ايضـاً . ويروى انه لما تحركت الاقطار التونسية على امير المؤمنين زكريا ابي يحيي اللحيـاني في اوائل القرن الثامن للهجرة (الرابع عشر للميلاد) جمع كتبه وباعها في الورّاقين (٥)

---

(١) تاريخ بغداد : للخطيب البغدادي : جزء ٣ صفحة ١٧٣

(٢) ريحانة الالباء : مخطوطة في خزائن دار الكتب اللبنانية ببيروت

(٣) محاضرات المجمع العلمي العربي بدمشق : جزء ١ صفحة ٣٠٧

(٤) الخزانة الشرقية : لحبيب زيات : مجلد ٣٧ سنة ١٩٣٩ صفحة ١٨-٢٨

(٥) المؤنس في اخبار افريقية وتونس : لابن ابي دينار : صفحة ١٣٤

٨ - تجهيز الادباء لحفاً في منازلهم للورّاقين واهل العلم

تفرد رهطٌ من أهل الادب بعطف خاصٍ على الغرباء من الورّاقين واهل العلم . فلم يكتفوا بان يرفدوهم بالمال والكسوة والضيافة والجرايات وهلمّ جراً. بل ذهبوا الى اقصى من ذلك اذ جهزوا لهم افرشة ولحفاً للمبيت عندهم . وعلى سبيل المثال نذكر يعقوب بن شيبة السدوسي المتوفى سنة ٢٦٢ للهجرة . فقد أعدّ في منزله اربعين لحافاً لمن كان يبيت عنده من الورّاقين لتبييض الكتب (١)

وحدّث القاضي ابو عبدالله الصيمري انه سمع محمد بن عمران المرزباني المتوفى سنة ٣٨٤ للهجرة يقول : «كان في داري خمسون ما بين لحافٍ ودواجٍ معدةٍ لاهل العلم الذين يبيتون عندي (٢) » .

---

(١) تاريخ بغداد : للخطيب البغدادي : جزء ١٤ صفحة ٢٨١

(٢) تاريخ بغداد : للخطيب البغدادي : جزء ٣ صفحة ١٣٥

الفصل الثالث

مشاهير الخطاطين

١ ـ الخطاطون الاولون واشكال الاقلام القديمة

كان الخطاطون في العصور الغابرة يتنافسون في اجادة الكتابة ويبالغون حتى درجة الابداع في تنميق الكتب وزخرفتها . ولعظيم اجلال داود الملك للكاتب فقد انشد عنه في مزاميره قائلا : «لساني قلم كاتب بارع» (١) ومن طريف ما نظمه الشعراء في الكتبة قول احدهم (٢) :

ما الناس الا الكَتَبَهْ   هم فضةٌ في ذَهَبَهْ
قد أحرزوا دنياهمُ   من شقّ تلك القَصَبَهْ

ومن مشاهير الخطّاطين الاقدمين نذكر : مالك بن دينار . وقُطبة الذي عُدّ أكتب اهل زمانه فكان يكتب المصاحف لخلفاء بني امية . وبعد قطبة يأتي الضّحاك بن عجلان الكاتب . ثم اسحق بن حماد في عهد الخليفتين المنصور والمهدي . وكان له عدة تلاميذ وضعوا الخطوط الاصلية الموزونة في اثني عشر قلماً وهي : قلم السجلات . قلم الديباج . قلم الجليل . قلم المفتح . قلم الحرم . قلم العهود . قلم الحرفاج . قلم المدامرات . قلم القصص . قلم اسطورمار الكبير . قلم الثلاثين . قلم الزنبور (٣) .

---

(١) مزمور ٤٤ عدد ٢
(٢) محاضرات الادباء ومحاورات الشعراء : للراغب الاصبهاني : صفحة ٤٥
(٣) الحضارة الاسلامية : لاحمد زكي باشا المصري : صفحة ٦٨

ثم قام الفضل بن سهل الوزير الكاتب . واسحق بن ابرهيم التميمي مؤلف رسالة «تحفة الرامق» . والعلامة الجليل احمد بن يوسف خطّاط الخليفة المأمون .

٢ - ابن مقلة

اول من نال القدح المعلّى في اجادة الخط علي بن محمد بن مقلة المتوفى سنة ٣٢٨ للهجرة . كان وزيراً للخليفة جعفر المقتدر بالله(١) وهو اول واشهر من كتب الخط البديع . نقل طريقته عن خط الكوفيين وابرزها في هذه الصورة . ويروى عن القطب الكبير السيد عبد القادر الجيلاني (٤٩١ - ٥٦١ هـ) مؤسس الطريقة القادرية انه كان يجلّ ابن مقلة ويثني عليه ويقول : « ان في يده سراً من اسرار الله » . وفي ابن مقلة انشد ابو عبيد البكري الاندلسي صاحب التآليف المشهورة قوله (٢) :

خطّ ابن مقلةَ من أرعاه مقلتَهُ ... ودّت جوارحه لو أصبحتْ مُقَلا
فالدرّ يصفرّ لاستحسانهِ حسداً ... والوردُ يحمرّ من إبداعهِ خجلاَ

وانشد شاعر ثان هذين البيتين معرضاً فيها بابن مقلة قال :

وعهدي بالصبا زمناً وقدّي ... حكى ألِفَ ابن مقلة في الكتابِ
وصرتُ الآن منحنياً كأني ... أفتّشُ في المقابرِ عن شبابي

غير ان ابن مقلة لم يسلم من حسادٍ اخصهم ابن رايق وشوا به الى الخليفة الراضي بن المقتدر . فامر بقطع يده في منتصف شهر شوال عام ٣٢٦ للهجرة . ثم عاد ابن مقلة يسعى في الوزارة وكان يشد القلم على يده المقطوعة ويكتب . ولما نمي الى ابن رايق ان ابن مقلة يدعو عليه وعلى الخليفة الراضي كرّر الوشاية به . فأمر الخليفة

---

(١) صلة تاريخ الطبري : جزء ١٢ صفحة ٦٩

(٢) قلائد العقيان : للفتح ابن خاقان : صفحة ١٩٩ طبعة مصر

بقطع لسانه فقطع (١). وضيّق عليه في الحبس فأصابه ذَرَب اودى بحياته سنة ٣٢٨ للهجرة (٢).

وقال ابن مقلة ينوح على يده اليمنى «خدمت بها الخلفاء وكَتبتُ القرآن الكريم دفعتين تُقطع كما تُقطع ايدي اللصوص». ثم أنشد (٣):

ما سئمتُ الحياةَ لكن توثقتُ ... بايمانهم فبانت يميني
بعتُ ديني لهم بدنياي حتى ... حرموني دنياهمُ بعد ديني
ولقد خططتُ ما استطعتُ بجهدي ... حفظَ ارواحهم فما حفظوني
ليس بعد اليمين لذّةُ عيشٍ ... يا حياتي بانت يميني فبيني!

حدّث ابو القاسم بن الرقيّ منجّم سيف الدولة بن حمدان أنه سمع سيف الدولة يقول وقد عاد مكسوراً من احدى مواقعه: هَلكَ مني ممّا كان في صحبتي خمسة آلاف ورقة بخط ابي علي بن مقلة. وكان لابن مقلة شيءٌ للنسخ وحوضٌ فيه محابرُ واقلامٌ فيقوم ويتمشى في الدار اذا ضاق صدرهُ. ثم يعود فيجلس في بعض تلك المجالس وينسخ ما يخفّ عليه. ثم ينهض ويطوف جوانب البستان ثم يجلس في مجلس آخر وينسخ اوراقاً أخر. فاجتمع من خطه ما لا يُحصى (٤).

٣ - ابن البوّاب

بعد ابن مقلة ظهر صاحب الخطّ الجميل عليّ بن هلال المعروف بابن البواب المتوفى سنة ٤١٣ للهجرة. قال عنه ابن خلكان: «لم يقم بين المتقدمين والمتأخرين من كتَب مثل ابن البوّاب ولا قاربه. وان كان ابن مقلة اوّل من نقل هذه الطريقة عن الكوفيّين فان ابن البوّاب هذّب طريقته ونقحها وكساها حلاوةً وطلاوةً».

---

(١) زبدة الصحائف في اصول المعارف: صفحة ١٢٢
(٢) تاريخ ابي الفداء: جزء ٢ صفحة ٨٥
(٣) تاريخ ابن الوردي: جزء ١ صفحة ٢٧٠
(٤) معجم الادباء: لياقوت الرومي: جزء ٩ صفحة ٣١-٣٢

وروى ياقوت الرومي في «معجم الادباء» عن ابن البوّاب ما نصه قال (١) :
«كان ابن البوّاب مزوّقاً يصوّر الدور ثم صوّر الكتب. ثم عانى الكتابة ففاق فيها المتقدّمين واعجز المتأخرين».

ولسنا نرى ان نفوتنا قصيدة طريفة جزيلة الفائدة نظمها عليّ ابن البوّاب في صناعة الخط قال (٢) :

يا من يُريد إجادةَ التحريرِ	ويروم حسنَ الخطّ والتصويرِ
ان كان عزمك في الكتابة صادقاً	فارغبْ الى مولاك في التيسيرِ
أعدِدْ من الأقلام كلّ مثقّفٍ	صُلبٍ يصوغُ صياغةَ التحبيرِ
واذا عمدت لبريهِ فتوخّه	عند القياس باوسط التقديرِ
انظر الى طرفيهِ فاجعلْ بريهُ	من جانب التدقيق والتحضيرِ
واجعل لجلفتهِ قواماً عادلاً	يخلو عن التطويلِ والتقصيرِ
والشقّ وسّطهْ ليبقى بريُهُ	من جانبيهِ مُشاكلَ التقديرِ
حتى اذا اتقنتَ ذلك كلّهُ	اتقانَ طبٍّ بالمرادِ خبيرِ
فاصرف لرأي القطّ عزمك كله	فالقطّ فيه جملةُ التدبيرِ
لا تطمعنْ في ان ابوحَ بسرهِ	إني أضنُّ بسرّهِ المستورِ
لكنّ جملةَ ما أقول بانهُ	ما بين تحريفٍ الى تدويرِ
وألقِ دواتكَ بالدخانِ مُدبّراً	بالخل او بالحصرمِ المعصورِ
وأضِفْ اليه مغرةً قد صُوِلتْ	معَ اصفرِ الزرنيخِ والكافورِ
حتى اذا ما خُمّرتْ فاعمد الى الـ	ورَقِ النقي الناعمِ المخبورِ
فاكبسهُ بعد القطعِ بالمعصار كي	ينأى عن التشعيثِ والتغبيرِ
ثم اجعلِ التمثيلَ دأبَكَ صابراً	ما أدركَ المأمولَ مثلُ صبورِ
إبدأ به في اللوح منتضياً له	عزماً تجرّدهُ عن التشميرِ

(١) معجم الادباء : جزء ١٥ صفحة ١٢٠-١٢١
(٢) معاني الادب : للاب لويس شيخو : جزء ٤ صفحة ١٥٩-١٦٠

لا تخجلنَّ من الرديّ تخطّه	في اول التمثيل والتسطير
فالامرُ يصعبُ ثم يرجعُ هيّناً	ولربّ سهلٍ جاء بعد عسيرِ
حتى اذا أدركتَ ما أمّلته	اضحيتَ ربّ مسرةٍ وحبورِ
فاشكرْ الهكَ واتبعْ رضوانَه	إنَّ الالهَ يحبُ كلّ شكورِ
وارغبْ لكفّك ان تخطّ بنانهُ	خيراً تخلّفهُ بدار غرورِ
فجميعُ فعل المرءِ يلقاهُ غداً	عند التقاء كتابهِ المنشورِ

٤ - كبار الخطاطين بعد ابن مقلة وابن البوّاب

وممّن احرز قصبة السبق بعد ابن مقلة وابن البوّاب بين مشاهير الخطّاطين نذكر ابا الحسين بن ابي عليّ. وكان حفيداً لابن مقلة فاحكم صناعة الخط مقلداً فيها اساليب جدّه. ومنهم ابو العباس عبدالله بن اسحق اشتهر ايضاً بجودة الخط بين معاصريه (١).

وروى ياقوت الرومي عن ابي نصر الفارابي قال: «كان من اعاجيب الزمان ذكاءً وفطنةً وعلماً. وكان اماماً في اللغة والادب وخطهُ يُضرَب به المثل لا يكاد يفرق بينه وبين خط ابن مقلة».

وُعرف في القرن السادس للهجرة عمر بن الحسَن الذي اتخذ طريقة علي بن هلال البوّاب. فاجاد في ذلك كل الاجادة واشتهر خطه عند كتّاب الآفاق. وكان له من آلات الكتابة ما لم يكن لاحد قبله. قيل انه بيع في تركته آلات للكتابة في جملتها دواةٌ بازهار اشتراها بعض ولدِ زعيم الدين بن جعفر صاحب المخزن بتسعمائة دينار. وبيع باقي التركة من سكاكين واقلام وبراكر (جمع بركار) بمبلغ آخر. وتوفي عمر بن الحسن الخطاط سنة ٥٥٢ للهجرة (٢).

---

(١) الفهرست لابن النديم

(٢) معجم الادباء: لياقوت الرومي: جزء ١٦ صفحة ٣٠٦

ومن ابرع الخطاطين في القرن السابع للهجرة ابو الفضل زهير (٥٨١-٦٥٦ ه) ولقبه بهاء الدين الكاتب. كان من فضلاء عصره وبرع في حسن الخط نبوغه في النظم والنثر (١).

ومن افذاذ الخطاطين كمال الدين عُمَر بن احمد هبة الله العقيليّ المشهور بابن العديم (٥٨٨-٦٦٦ ه). كان راساً في الخط المنسوب ولا سيما في النسخ والحواشي. وهو أكتَبُ من تقدمه بعد ابن البوّاب صنّف كتاب «ضوء الصباح في الحث على السماح» للملك الاشرف. وكان الملك قد سيّر من حرّان بطلبه. فلما وقف الاشرف على خطه اشتهى ان يراهُ فقدمَ ابن العديم عليه. فاحسن الملك اليه واكرمه وخلع عليه وشرّفه. وشاع ذكر ابن العديم في البلاد واشتهر خطهُ بين الحاضر والباد. فتهاداهُ الملوك معجبين ببراعته في صناعته (٢).

وانتهى حسن الخط بعد من تقدم ذكرهم الى جمال الدين المستعصمي المتوفى سنة ٦٩٨ للهجرة. وهو ابرع الخطاطين غير مدافَع واجودهم خطاً غير معارَض. وقد كتب نسخة من كتاب «الشفاء» لابن سيناء في مجلد واحد. ثم اهداه الى الشاه محمد طغلق احد ملوك الهند فأنعم عليه بألف مثقال من الذهب. ولياقوت المستعصمي مؤلفات نذكر منها: كتاب «اسرار الحكماء» طبع سنة ١٣٠٠ للهجرة في الاستانة. وكتاب «اخبار واشعار ومِلَح وحكم ووصايا منتخبة» طبع كذلك في الاستانة سنة ١٣٠٢ للهجرة. وختم ياقوت المستعصمي فن الخط واكمله وادرج جميع قوانينه في بيت شعر فقال:

اصولٌ وتركيبٌ كراسٍ ونسبةٌ صعودٌ وتشمير نزولٌ وارمالُ

ومن معاصري ياقوت المستعصمي عبد المؤمن صفي الدين الذي لم يكن في زمانه من يكتب المنسوب مثله. ففاق فيه الاوائل والاواخر وبه تقدم عند الخليفة.

---

(١) مجاني الادب في حدائق العرب: للاب لويس شيخو: جزء ٦ صفحة ٣٠٦.
(٢) ابن العديم وتآليفه: لمحمد كرد علي (مجلة الرسالة: سنة ٥ صفحة ١٠٣٥-١٠٣٧)

ولما انتهت الخلافة الى المستعصم عمّرَ خزانة كتب وامر ان يُختار لها خطاطـان يكتبان ما يختـاره . ولم يكن في ذلك العهد اعظم شهرة في تجويد الخط من عبد المؤمن المشار اليه والشيخ زكيّ الدين فصار تعيينهما لتلك الوظيفة . وقد رتب الخليفة لعبد المؤمن خمسة آلاف دينار كل سنة وامر له برزق وافر . وبعد سقوط الدولة العباسية ساءت احوال عبد المؤمن وتراكمت عليه الديون لانه كان ينفق ماله على الملاذ . ومات محبوساً سنة ٦٩٣ للهجرة على دَين ٍ مبلغه ثلاثمائة دينار (١) .

واشتهر بحسن الخط في القرن التاسع للهجرة احمد بن يوسف بن محمد الدمشقيّ . فانه بعدما فقد يده اليمنى راح يكتب باليسرى . وقد اشار الى ذلك في هذين البيتين قال (٢) :

لقد عشتُ دهراً في الكتابة مفرداً	اصوّر منها احرفاً تشبه الدرّا
وقد صارخطي اليوم اضعف ما ترى	وهذا الذي قد يسّر الله لليسرى

فما كان من قاضي القضاة الا ان انشده البيتَين التاليَين ليشجعه ويسرّي عنه همّه قال :

لئن فقدت يمناك حسن كتابةٍ	فلا تحتمل هماً ولا تعتقدْ عُسرا
وأبشِر ببشرٍ دائمٍ ومسرّةٍ	فقد يسّر الله العظيم لك اليُسرى

٥ ـ الخلفاء والملوك المبرزون في جودة الخطّ

لم يكن الخلفاء والملوك اقلّ رغبةً من الرعية في تجويد الخط والتأنق فيه . فان الخليفة عثمان بن عفان (٦٤٥-٦٥٧ م) كتب بيده اربع نسخ من القرآن ، واقتفى اثره الحجاج بن يوسف الثقفيّ وأهدى ما كتبه بيده من نسخ هـذا

(١) فوات الوفيات : لابن شاكر : جزء ٢ صفحة ١٨
(٢) شذرات الذهب

المصحف الى عواصم المملكة . وكان السلطان ابرهيم بن يمين الدولة محمود الغزنوي (٣٨٨-٤٢١ ﻫ) سلطان بخارا مُجيد الخط ويكتب كل سنة نسخة من القرآن يبعث بها الى مكة .

وروى ابن خلدون أن ابا الحسن سلطان افريقيا كتب نسخة من القرآن بيده وبعث بها الى مكة . وكتب نسخة اخرى انفذها الى المدينة المنورة . وكان ينوي كتابة نسخةٍ ثالثةٍ يوجهها الى القدس فقضى نحبه قبل انجاز نيّته .

وكان غياث الدين ملك الغورية ذا فضلٍ غزيرٍ وادبٍ مع حسن خطٍ وبلاغةٍ . وكان ينسخ المصاحف بخطه ويوقفها في المدارس التي بناها (١) .

وسبق لنا في اثناء بحثنا عن خزانة كتب المسجد الاقصى بالقدس ان وصفنا مصحفاً نسخ بحبر احمر وازرق واخضر وقرمزيّ مُزج بالزعفران والمسك . وقد كتبه بيده عبدالله ابن امير المسلمين ابي سعيد عثمان سلطان الجزائر . وفي خزانة المسجد الاقصى ايضاً مصحف عريق في القدم نسخه بيده على رق غزال ابن عبد الحق سلطان المغرب الاقصى .

٦ - نوابغ الخطاطين في القرون الاخيرة

قام في القرون الاخيرة خطاطون جديرون بالوصف رفعوا شأن هذا الفن بذكائهم وتفننهم وجلادتهم . ذكر الشيخ حسن البوريني بعض الخطاطين من آل المقدسي الدماشقة كالشيخ ابرهيم المقدسي كاتب المصاحف التي يتغالى بثمنها الناس ولا سيما اهل دمشق لحسن الخط ودقة الضبط . وقد كتب منها الشيخ ابرهيم ما يزيد على مائة مصحف . ثم نوه البوريني بالشيخ خليل المقدسي ومن مخلفاته مصحفٌ مسبّعٌ كتبه بخطه سنة ٨٠٩ للهجرة .

---

(١) المختصر في اخبار البشر : لابي الفداء : جزء ٣ صفحة ١٠٤

واشتهر بنو الحموي في دمشق اشتهار آل المقدسي بجودة الخط . ومن نوابغهم احمد بن محمد بن عبدالله . وقد اطلعنا في خزانة عيسى المعلوف على نسخة من المقامات الحريرية كتبها احمد الحموي سنة ١١٤٨ للهجرة (١٧٣٥ م) . وهي بديعة الخط والضبط والنقش والتذهيب (١) .

ومن مشاهير الخطاطين محمد الطاراني الدمشقي الذي كان يكتب اشكال الخطوط باجمعها ويقلّد اقسامها على اختلاف اجناسها . ولما سافر من دمشق الى وادي النيل وُشي به الى حاكم مصر انه قلّد الطغراء السلطانية . فاستحضره الحاكم وألحّ عليه بالاقرار فأقرّ فقُطِعت يمينه . وصار الطاراني يلف بعد ذلك خرقة على يده ويمسك بها القلم ويكتب .

ومن معاصري محمد الطاراني نذكر ابن هلال الحمصيّ (٩٢٠ - ١٠٠٤ هـ) الذي ضاهاه بجودة الخط. قيل انه كتب كتاب هدنة بين المسلمين والروم فوضعه النصارى الروم في كنيسة قسطنطينية . وكانوا يبرزونه في المواسم ويتخذونه من جملة ضروب الزينة لمزيد اعجابهم من حسنه واتقانه . وقد تقلبت على ابن هلال الحمصي احوالٌ ومِحن ادت الى قطع يده اليمنى . ومن نكد الدنيا ان مثل تلك اليد النفيسة تُقطع . ومن اعجب عجائبها ان ابن هلال كتب باليسرى بعدما قطعت يده اليمنى (٢) ولم يكن بدمشق في زمانه اعلم منه بالفقه واقدر على استخراج النقول من محالها . وقد قال فيه الشيخ ابو الفتح المالكي :

ان الكتابة للفتاوى لم تجد احداً سواك يحلّ من اشكالها
حملتك مقلتها فيا انسانها انت ابن مقلتها وإبنُ هلالها

واشار الناظم بالشطر الاخير الى ابي علي بن مقلة الوزير والى علي بن هلال المشهور بابن البوّاب . وهما الخطّاطان الممتازان اللذان اثبتنا اخبارهما في بدء هذا الفصل .

---

(١) محاضرات المجمع العلمي العربي بدمشق : جزء ١ صفحة ٣٠٧
(٢) خلاصة الاثر : جزء ٣ صفحة ٣٤١

ولا يقلّ عن ابن هلال الحمصي شهرةً في براعة الخط الشيخ سعدي الغمري الذي كان نادرة عصره وَحَسَنَةً من حسنات مصره . وُلد بدمشق بعد السنة الثمانين والالف للهجرة فطلب العلم على شيوخها وُوّلي دار الحديث فيها . تفرّدَ بالشعر الحسن والنثر البديع والخط المعجب حتى اصبح يشار اليه بالبنان بين أقرانه . ويروى عنه انه لما ارتحل الى بلاد الروم خدم سلطانها احمد خان الثالث (١١١٤ - ١١٤٣ ﻫ و ١٧٠٢ - ١٧٣٠ م) بقصيدة نمّقها بخطه الرائع . وضمّن كلَّ بيت منها تاريخاً لتأسيس خزانة الكتب التي انشأها السلطان المشار اليه (١) . وممن امتاز بحسن الخط من أسرته عبد الرحمن بن محمد الغمري الذي اشتهر بالخط المنسوب وتخرّج عليه خلق كثير (٢) .

ومن مشاهير خطّاطي القرن الثاني عشر للهجرة عبد اللطيف بن عبد القادر الزوائدي خَطيب جامع الخسروّية في حلب. كان فقيهاً حافظاً خطّاطاً ذا صوتٍ حسنٍ شجي وقلّ ان تجتمع هذه المزايا في عالم . نشأ في فقرٍ حالك لان والده عاش وهو يحترف الصياغة . فكان المترجم لشدة فقره لا تصل يده الى شراء ورق لتعلّم الكتابة . ففتقت له الحيلة ان يقصد الى القصاب ويأخذ منه ألواح الغنم فيفركها بالرماد لتزول منها الزهومة ثم يكتب عليها . وقد فتقت له الحيلة ايضاً ان يجمع اوراق شجر البنّ فيلصق بعضها ببعض ويصقلها ويتعلم بها الكتابة . هكذا حسن خطّه وصار ينسخ بالاجرة لجودة كتابته واتساق سطورها ويتفنن في شتى اساليبها. فانتعش حاله بعد الفقر المهلك واصبح في يسرٍ من العيش . وعلى اثر ذلك وُجّهت اليه خَطابة جامع الفرمانية وإمامته . وظلّ بهذه الوظيفة حتى فاجأته المنية عام ١١٣٢ للهجرة اذ سقط ميتاً عن ظهر البغلة بالقرب من باب النصر (٣).

وآخر من برع بالخط في دمشق السيد محمود حمزة الحسيني (١٢٣٦ - ١٣٠٥

---

(١) سلك الدرر : جزء ٢ صفحة ١٥١

(٢) سلك الدرر : جزء ١ صفحة ٢٧٥

(٣) سلك الدرر : جزء ٣ صفحة ١٢٦

و١٨٢٠ - ١٨٨٧ م) مفتي الديار الشامية . فانه على تبحّره بالعلم واشتغاله به وبمهام منصبه كان آية الزمان بالكتابة . وقد أتقن انواع الخطوط بغاية الدقة والضبط والجمال فضلاً عن تفننه العجيب بهذه الصناعة . ومن أغرب ما نمقته يده كتابته على ورقة بحجم فصّ الخاتم اسماءَ شهداء وقعة بدر الكبرى وهم ثلاثمائة وسبعة عشر شهيداً (١) .

وندمج بمن اثبتنا اسماءَهم بعض نوابغ الخطّاطين في عصرنا كجميل بك العظم . ومصطفى السباعي الحمصي المشهور بخطه الفارسي في دمشق . والشيخين مراد الشطي وحسن الشطي والشيخ حسين الباغجاني وممدوح افندي في دمشق ايضاً . ومسعود الكواكبي ومحمد علي الخطيب في حلب . ونسيب مكارم في لبنان وله آيات مدهشات في فنون الخط على حبات الأرز وفصوص الخواتم وبيض الدجاج وغير ذلك (٢) . وفهد العنداري خطاط الجمهورية اللبنانية وكامل البابا في بيروت الخ الخ

٧ - شذرات شعرية في الخطّ

أنشد أحمد بن احمد المكنى بابي العنايات ابن عبد الكريم النابلسي يصف خطّه وحظّه قال :

زاد خطّي وقلّ حظّي فمن لي ... نقلُ نقطٍ من فوق خاءٍ لطاءِ
وبشِعريَ الغالي ترخّص سعري ... وبطبّ الفنون متّ بدائي

وقال آخر في المعنى ذاته :

لا تحسبوا أنّ حسن الخطّ يُسعدني ... ولا سماحة كف الخاتم الطائي
وانما انا محتاج لواحدةٍ ... لنقل نقطة حرف الخاءِ للطاءِ

---

(١) تراجم مشاهير الشرق : تأليف جرجي زيدان : جزء ٢ صفحة ١٧٩

(٢) المشرق : مجلد ٢٦ سنة ١٩٢٨ صفحة ٩٤٠

وقال الخليل :

كتبتُ بخطّي ما ترى في دفاتري   عن الناس في عصري وعن كل غابرِ
ولولا عزائي أنهُ غيرُ خالدٍ   على الارض لاستودعتهُ في المقابرِ

ومن لطيف ما نُظم في الخطّ ما أنشده ابو محمد عبدالله بن البياسي لنفسه بالاسكندرية قال :

يمدّ الدهر من أَجلي وعمري   كما أني امدّ من المدَادِ
لنا خطّانِ مختلفانِ جداً   كما اختلف المُوالي والمُعادي
فاكتبُ بالسوادِ على بياضٍ   ويكتب بالبياض على السوادِ

وهذا يُشبه ما نظمه شاعر آخر بقوله :

ولي خطّ وللايام خطّ   وبينهما مخالفة المدَادِ
فاكتُبُه سواداً في بياضٍ   وتكتُبُه بياضاً في سوادِ

الفصل الرابع

غرائب الخطاطين والخطاطات

روى فريق من المؤرخين شيئاً كثيراً من غرائب الخطّاطين ونوادر الخطاطات قديماً وحديثاً. وقد اطّلعنا على طائفة منها فانتقينا ما الفيناه ذا فائدة. ويطيب لنا الآن ان نُثبت ملحاً من تلك الغرائب والنوادر استكمالا للموضوع الذي يدور عليه محور بحثنا .

١ ـ الخطاط حسين البيهقيّ

وُلد الحسين بن احمد قُطيمة في بيهق من نواحي نيسابور واليها يُنسب . وكان الحسين شيخاً مسناً رائع الخط كثير السماع من تلاميذ الامام ابي بكر البيهقي . أصيب بعلة في يده فقُطعت اصابعه التي اعتاد ان يكتب بها . فصار يضع الكاغد على الارض ويمسك قلماً برجله وينسخ خطاً مفرداً. ووافته المنية سنة ٥٣٦ للهجرة في بلدة خَرُوجِرْد (١) .

٢ ـ الخطاط الفتح بن شخرف الكسيّ

حدّث ابو محمد الحريري ان الفتح بن شخرف الكسي قال له : عندي قلم كتبت به مدة اربعين سنة . فكنت اكتب به نهاراً واكتب به على ضوء القمر ليلا .

(١) معجم البلدان : لياقوت الرومي : جزء ٢ صفحة ٢٤٧

واثناء ارتفاع القمر كنت أجلس الى سلم في دارنا أرتقي عليها مرقاةً مرقاةً حتى أنتهي الى اعلاها . فاذا تشعّث رأس القلم قططتُه وهو لم يزل محفوظاً عندي . وللحال احضر انبوبة واخرج منها القلم وأرانيه (١).

٣ ـ الخطاط بي دست

قرأنا في كتاب «تاريخ الخط العربي وآدابه» لمؤلفه محمد طاهر بن عبد القادر الكرديّ المكي عن رجل يسمى «بي دست» ما نصّه : «جاء الى مصر القاهرة في السنة ٥٧٦ للهجرة رجل عديم اليدين وأظهر كثيراً من الفنون والمعارف . وكان يعرف جميع الخطوط فكتب برجليه جملة اسطر بالقواعد التامة . فكان موضع الاعجاب وأقر له من كان موجوداً من الخطّاطين ذلك الوقت . واقبلوا عليه وجمعوا له مالاً كثيراً» .

٤ ـ الخطاطة بنت خداوردي

ورد في كتاب «اخبار الأول» للاسحاقيّ ما حكايته : «في زمن الملك الكامل في شهر شوال سنة ٦٢٤ للهجرة أحضِرَتْ من الاسكندرية امرأة خُلِقتْ من غير يدَين وفي موضع ثدييهَا مثل الحلمتَين . فجيء بها بين يدي الوزير رضوان فعرّفَتْهُ انها تعمل برجلَيها ما تعمله النساء بايديهنّ من خطّ ورقمٍ وغير ذلك . فأحضر لها دواةً فتناولت برجلها اليسرى قلماً ولم ترضَ شيئاً من الاقلام المبرية التي أحضروها . فاخذت السكين وبرَتْ لنفسها قلماً وشقّتْه وقطّتْه . وأخذت ورقة فأمسكَتْها برجلها اليسرى وكتبتْ باليمنى احسن ما يكتبه الكتّاب بيمينهم . ثم ناولت الوزير تلك الرقعة فاذا فيها السؤال بالزيادة في راتبها فزادها الوزير وأعادها الى بلدها» .

---

(١) تاريخ بغداد : للخطيب البغدادي : جزء ١٢ صفحة ٣٨٥

وأخبر الاسحاقيّ ان لهذه الخطّاطة قبراً مشهوراً في الاسكندرية يُزار. وهو الآن بباب رشيد على يمين الداخل الى المدينة ويُعرَف بمقام «بنت خداوردي». ولها اوقاف وأطيان ويُصرَف لها من ديوان الاسكندرية في كل سنة ثلاثة آلاف نصف فضة.

٥ ـ الخطاطة الست نسيم

اشتهرت الست نسيم البغدادية بخطها في عهد الخليفة العباسي الناصر لدين الله (٥٧٦ ـ ٦٢٢ هـ). وكان هذا الخليفة قد أصيب بفقد البصر واضطُرّ ان يحتجب عن وزراء الدولة وعن الناس. ومما ساعده على مواصلة سياسة المملكة انه استعان بالست نسيم المشار اليها لكتابة مراسيمهِ واوامرهِ لانها كانت تقلّد خطه فكتبت كتابةً لا تتميّز عن كتابتهِ قط. فقرّبها الناصر اليه وأفضى اليها باسراره وجعل يستكتبها كلّ ما شاء واراد. وكانت اذا وصلت المراسيم الى الوزير نفّذها فوراً لجهله داء الخليفة واعتقاده ان المراسيم هي خطه لا خط الست نسيم (١).

٦ ـ الخطاطان محمد الطائي وبديع الزمان الهمذاني

امتاز محمد بن سعيد الطائي بجمال الخَلق والخُلق واناقة الملبس والخط وكان سريع الكتابة. ومما تفرّد به انه كان ينسخ الكتاب معكوساً من حَسْبَلتهِ الى بَسْملتهِ (٢). فاذا اراد نسخ كتاب بدأ به من آخر لفظة حتى ينتهي الى اول لفظةٍ منه. وكان المخطوط يبرز من بين يدي الطائي في غاية الظرافة والاتقان كانه قد نُسخ من البسملة الى الحسبلة لا من الحسبلة الى البسملة كمألوف العادة. فبهذه

(١) تاريخ الدول: لابن العبري: صفحة ٤٤٩ طبعة بيجان باريس

(٢) اعلام النبلاء بتاريخ حلب الشهباء: جزء ٥ صفحة ١٦

الطريقة المبتكرة تفرّد الطائي عن جميع النسّاخ فأثار ببراعته اعجاب الرفيع والوضيع والقريب والغريب .

ولا يُعرف احدٌ قبل محمد الطائي نهج هذا الاسلوب في النساخة المعكوسة الا بديع الزمان الهمذانيّ (٣٥٨ - ٣٩٨ هـ) . فقد ورد عنه في «معجم الادباء» لياقوت الرومي ما نصّه : «وكان بديع الزمان ربما كتب الكتاب المقترح عليه فيبتدىء بآخره ثم هلم جرّاً الى اوله ويخرجه كأحسن شيء وأملحه (١)» .

٧ - الخطاط عماد الدين التيرباج (توفي سنة ٨٥٥ للهجرة)

حلّت وفاة عماد الدين سنة ٨٥٥ للهجرة . وكان رائع الخط حسن المحاضرة والمفاكهة . ونظم ديوان شعر أتلفه وهو حي يرزق ضناً بكرامته وإعلاءً لشأن الادب على زعمه . ولما سُئل عما حمله على اتلاف الديوان قال : «كان الشاعر قديماً اذا نظم قصيدة ومدح بها احداً أجيز على قصيدته بمنحة سخية . اما انا فأنظم القصيدة وأرسل معها الخدم والعسل وغير ذلك لكي تحوز القبول . وقد اغناني الله سبحانه عن الاستجداء فأريد قبل وفاتي ان اتصرّف في ديواني حرصاً على كرامتي ولئلاّ يقال بعدي : ما اكثر ما سأل بقصائده !» (٢) .

٨ - الخطاط ابرهيم الشيبانيّ

روى المقري في «نفح الطيب» عن ابي اليسر ابرهيم بن احمد الشيباني انه نسخ كتاب سيبويه كله بقلم واحد . وظلّ يبريه ويستعمله في نساخة الكتاب المذكور حتى قصر . فأدخله في قلم آخر وكتب به الى ان فني بتمام الكتاب (٣).

---

(١) معجم الادباء : جزء ١ صفحة ٩٦

(٢) اعلام النبلاء بتاريخ حلب الشهباء جزء ٥ صفحة ٢٥٤

(٣) نفح الطيب : للمقري : جزء ٢ صفحة ١١٥

٩ ـ خطاط بلا يد ولا رجل

عثرنا في هامش «تحفة الخطاطين» على ما يلي : «جاء الى الديار القسطنطينية رجل بلا يد وبلا رجل وذلك سنة ١٠٨٢ للهجرة . فاخذ يتعلم الخط على مشق الاستاذ صيولجي زاده والاستاذ مصطفى . فلما حسن خطه كتب سورة الانعام ثم كتب سطراً واحداً بالثُلث وسطرين بالنسخ . وقدّم ذلك الى السلطان (محمد بن ابرهيم ١٠٥٨ ـ ١٠٩٩ هـ) فأجزل له العطاء» .

١٠ ـ احمد بن محمد الصخري

كان يكتب الكتاب مبتدئاً بآخر سطر حتى ينتهي الى السطر الاول فيخرجه مستوفى الالفاظ والمعاني. وانتُدب الصخري على لسان الشيخ ابي الحُسين السهيلي ان يكتب في معنى مؤلف الكتاب كتاباً الى الدهخدا ابي سعيد محمد بن منصور الحوالي يذكر فيه أن اخبار فلان تأتينا ثم تشوقنا الى مشاهدته وبديع تأليفاته . فأخذ الصخري القلم والقرطاس وبدأ يكتب من السطر الاخير ثم لم يزل يمضي قدماً في الكتاب ويرتفع عن عجزه الى صدره ومن أسفله الى اعلاه ويصل اواخره باوائله حتى أتم المعنى الذي اقتُرح عليه . وفرغ من الكتاب في زمان قصير المدة (١).

(١) معجم الادباء : جزء ٥ صفحة ٢١

الفصل الخامس

النساخة والطباعة

اولاً : حرص العرب على صيانة مؤلفات السلف

لا غرو ان العرب الاولين في ايام سؤددهم كانوا احرص الناس على تراث آبائهم ومؤلفات علمائهم . وقد احدث ملوكهم وأمراؤهم دواوين خاصة لنسخ الكتب في القصور والمساجد ودور العلم وبيوت الحكمة . وعينوا لتلك الدواوين كتّاباً ونسّاخاً من اهل الضبط والخط الحسن قام بينهم علماء وشعراء ومؤرخون وفلاسفة. فأكرمهم أولئك الملوك وجالسوهم وآكلوهم وشاربوهم ورتبوا لهم الجرايات الكافية . وكان في كل ديوان عشرات من النسّاخ وذوي الشهرة البعيدة في الثقافة ينصرفون الى هذا العمل ويعيشون في كنف الملوك والأمراء من تلك المهنة الشريفة .

وفي التاريخ امثلة من هذا القبيل لا تحصى ولا تُعد. فمنها ان الوزير بن كلس كان يجمع في قصره بالقاهرة عدداً كبيراً من الموظفين يشتغل بعضهم بكتابة نسخ من القرآن . وكان بعضهم ينسخ شيئاً من كتب الحديث والفقه والادب وبعض كتب العلوم حتى الطب. وكان هؤلاء النساخ يراجعون ما يكتبونه ويضيفون اليه علامات الشكل والنقط (١).

---

(١) الفاطميون في مصر : صفحة ٢٣٦

ومن ذلك ان المستنصر بالله الحكم الثاني سلطان قرطبة (٩٦١ - ٩٧٦ م) جمع بداره الحذاق في صناعة النسخ والمهارة في الضبط (١) . ومنها ان مائة وسبعين امرأة كن يكتبن المصاحف بالخط الكوفي بالربض الشرقي من قرطبة احدى عواصم الاندلس (٢) .

وكان ديوان موفّق الدين ابن المطران المتوفى سنة ٥٨٧ للهجرة (١١٩١ م) حافلاً بالنسّاخ يكتبون له دون انقطاع . فكان يجزل لهم في العطـــاء ولهم منه الجامكيّة والجراية (٣) .

وحكي عن يوسف بن صبيح انه توجّه الى جزيرة تُنَيْس الواقعة في بحر مصر بين دمياط والفرَما . وهناك شاهد خمسمائة صاحب محبرة يكتبون الحديث . فدعاهم الى بعض نواحي الجزيرة وصنع لهم وليمة توفّر فيها الطعـام لجميعهم (٤) .

وناهيك ان القاضي الفاضل عبد الرحيم البيساني (٥٢٩-٥٩٦ هـ) بلغ عدد مجلّدات مكتبة بالقاهرة مائة واربعة وعشرين الفاً فيها نساخ لا يفترون ومجلدون لا يبطلون (٥). وقد سبق لنا القول ان الملك المؤيد هِزَبْر الدين داود ملك اليمن (٦٩٥ - ٧٢١ هـ) كان عنده اكثر من عشرة نسّاخ ينسخون الكتب ويضمونها الى خزائنه بعد التدقيق فيها ومقابلتها على الاصل . اما الطبيب الاسرائيلي افرائيم بن الزفان فكان النسّاخ يزاولون له النسخ ابداً ولهم منه ما يقوم بمؤونتهم (٦) ويروى عن الصاحب امين الدولة السامري ان النسّاخ لا يفارقون خزائن كتبه. ولما اراد احراز نسخة من تاريخ الشام في ثمانين مجلداً لابن عساكر كلّف عشرة نسّاخ

---

(١) دائرة معارف القرن العشرين : مجلد ٨ صفحة ٦٧-٦٩
(٢) مجلة المجمع العلمي العربي : مجلد ٢ سنة ١٩٢٢ صفحة ٢٦٥
(٣) عيون الانباء في طبقات الاطباء : مجلد ٢ صفحة ١٧٨
(٤) معجم البلدان : لياقوت الحموي : جزء ٢ صفحة ٤١٩
(٥) خطط المقريزى : جزء ٤ صفحة ١٩٩
(٦) طبقات الاطباء : جزء ٢ صفحة ١٠٥

ان ينقلوه فكتبوه بمدة سنتين (١) وروى المؤرخون ان مائة من الخطّــاطين كانوا يدأبون في نساخة الكتب بدار العلم في طرابلس الشام على عهد قضاتها آل عمّار .

ثانياً ـ اساليب القدماء في ضبط النساخة

استعمل كبار النساخ في عهدٍ مضى اساليب خصوصيــة لاناقة الخط وتجويد النسخ وضبطه في كل وجوهه . وتفننَ العرب في ذلك تفنناً غريباً حتى برّزوا على جميــع الامم في ما خلفوه من المخطوطات البديعة واشكال الكتابات المبتكرة التي لا يحصى لها عدد . فكان الناسخ اتقاناً لعمله يستحضر مقوّى (كرتون) يعادل حجمه حجم الكتاب المنوي نسخه . ثم يثقب في طرفي ذلك المقوّى ثقوباً متوازية يشد فيها خيوطاً يساوي عددُها عددَ سطور كلّ صفحة من صفحات الكتاب . ويجعل الفرق بين الخيطان متناسباً مستقيماً طبقاً للاصول المرعية في فن الكتابة . وبعد تهيئــة تلك «المسطرة» يأتي الناسخ بالكاغد المعد للنسخ ويضغطُه على الخيوط المشدودة في ذلك المقوّى . فتطبع عليــه اسطراً بيضاء لا تكادُ تنظر بالعين المجرّدة وتزول بتوالي الايام. وعلى هذا الاسلوب يستسهل الناسخ كتابة ما أزمع ان يكتبه بنظام ودقة فوق تلك الاسطر المعتدلة البيضاء . فتخرج نسخــة الكتاب من بين يديه ظريفة الشكل متقنة الكتابة محدودة الاسطر كاملة الاوصاف منسّقة تنسيقاً واحداً في جميع الصفحات دون زيادة ولا نقصان .

وقد شاهدنا نماذج من ذلك المقوّى كبيرةً وصغيرةً محفوظةً في المكتبات القديمة وفي ديورة الرهبان . وشاهدنا كذلك عدة صحائف في مخطوطات لم تزل آثار سطورها البيضاء باقيةً لهذا العهد .

ومن استعرض المخطوطات القديمة ثبت له مقدارُ عناية اربابهــا بصناعة النسخ . فكان هؤلاء يختارون لكتابة المخطوطات ورقاً صقيلاً صفيقاً ولا يستعملون الا

(١) دائرة معارف القرن العشرين : مجلد ٨ صفحة ٧٤

حبراً ثابتاً باشكاله من أسودَ واحمر واخضر وأصفر وزعفرانيّ وضفدعيٍ ومذهّبٍ . وكانوا يتفنّنون بتجويد الحروف على اختلاف انواعها ويعتنون كثيراً باتقان العناوين وزخرفة الصفحات وضبط الحواشي وتنميق الهوامش بما يأخذ بمجامع الابصار .

ومن أهم ما يجب ان يتحلّى به الناسخ من المزايا امانةُ النقل ودقة النظر في صيانة أصل ما ينسخه ويضبطه طبقاً لنسخة المؤلف عينه . ويُطلب من الناسخ علاوةً على ذلك ان يراعي عبارة الكتاب وحركاته وابوابه وفصوله حرصاً على آداب المؤلف الذي أحيا الليالي في التفكير والبحث والتدوين .

وقد تنافس الشعراء قديماً في مدح الكتّاب والنسّاخ فاجادوا. ومن أفصح ما مُدح به كاتبٌ من الكتاب قول ابن المعتزّ :

إذا أخذَ القرطاس خِلتَ يمينَهُ ... تُفتّحُ نَوْراً او تُنظّمُ جوهرا

وأنشد شاعرٌ آخر هذين البيتَين :

إن هزَّ أقلامَهُ يوماً لِيُعمِلها ... أنساك كلَّ كميٍّ هزَّ عاملَهُ
وإن أقرَّ على رَقٍّ أناملَهُ ... أقرَّ بالرقِّ كتّابُ الأنام لهُ

وكما أجاد الشعراءُ في مدح خيرة الكتّاب والنسّاخ كذلك راح بعضهُم يذمُ حمقى الكتّاب ويلهج بهجوهم . من ذلك قول أحدهم في كاتبٍ جاهلٍ (١) :

حمارٌ في الكتابة يدّعيها ... كدعوى آل حربٍ في زيادِ
فدَعْ عنك الكتابةَ لستَ منها ... ولو غرقتْ ثيابُك في المدادِ

ثالثاً ـ نشأة الطباعة العربية في الغرب

اذا تحرّينا الكلام عن الطباعة العربية تبيّن لنا ان الغرب كان المجلّي في

(١) صبح الاعشى : جزء ١ صفحة ٧٤

ابرازها للوجود منذ مطلع القرن السادس عشر . وغير خافٍ ان للطبـاعة شأنها الخطير في عالم الحضارة بتوفير نسخ الكتب واغناء المكتبات بحيث يصحّ ان نطلق عليها لقب «امّ الكتب الولود» . تلك حقيقة نثبتها بالشكر لابنـاء الغرب عموماً وللمستشرقين خصوصاً . لانهم هم الذين استنبطوا حروف الطبـاعة العربية وهذّبوها ونشروها في جميع الاصقـــاع . ولم يقصروا همّتهم على ذلك بل بعثوا مخطوطاتنا العربية القديمة من دفائنها . فطبعوها في بلادهم وعلّقوا عليها الشروح وأردفوها بالفهـارس ثم ترجموها بلغاتهم وعلّموها في مدارسهم وزينوا بها خزائن كتبهم .

على ان البحاثة الاب لويس شيخو تفرّغ للتدقيق في تاريخ فن الطباعة العربية شرقاً وغرباً واستوفى البحث عنها في مجلة المشرق (١) . فرأينا ان ننقل ما دوّنه عن المطابع العربية في بلاد المغرب ونلخّصه بما يلي :

اوّل كتابٍ عربيّ ظهر في عالم الطباعة نشرته مطبعـة «فانو» العربيّة وهو كتاب «صلاة السواعي» حسب الطقس الاسكندريّ . وظهر بعده في جنوا عام ١٥١٦ كتاب «مزامير داود» باربع لغات وهي : العربيّة والسريانيّـة والعبرانيّة واليونانيّة .

وفي السنة ١٥٣٨ نشر الطبّاع بوستل في باريس مبادىء اثنتي عشرة لغة شرقية في جملتها اللغة العربيّة .

وطبع الاب يوحنا اليان عام ١٥٦٦ كتاب «اعتقاد الامانة الارثوذكسيّة في كنيسة رومية» بمطبعة المدرسة الرومانيّة .

وفي السنة ١٥٨٤ نشر دومينيك باسا اوّل كتـاب علميّ عربيّ وهو كتاب «البستان في عجائب البلدان» تأليف سلامش بن كندغديّ الصالحيّ .

ونشر آل ميديسيس عام ١٥٩١ كتاب «الاناجيل» بحرف مُشرق وتصاوير انيقة على الخشب . وطبعوا في السنة التالية كتاب «نزهة المشتاق في ذكر الامصار

---

(١) المشرق : مجلد ٣ سنة ١٩٠٠ صفحة ٨٠-٨٥

والآفاق» لابي عبدالله محمد المعروف بالشريف الادريسي . ثم نشروا عام ١٥٩٣ «قانون ابن سينا» وألحقوه بكتاب «النجاة» وطبعوا كذلك في السنة ١٥٩٥ كتاب «تحرير أصول اوقليدس» تأليف نصير الدين الطوسي .

ونشرت مطبعة سافاري دي براف في رومة سنة ١٦٢٤ كتاب « نحو اللغة العربية » وكتاب « الايساغوجي » في المنطق عام ١٦٢٥

ونشرت مطبعة البروبغندا في رومة عدة كتب دينية وتاريخية وعلمية ولغوية نذكر منها قاموساً عربياً ايطالياً طبعته عام ١٦٣٧

اما مطبعة ليدن فقد امتازت بكثرة مطبوعاتها العربية . ومن جملتها امثال لقمان الحكيم عام ١٦١٥ وقصة يوسف الصديق نقلاً عن القرآن عام ١٦١٧ وهو اول كتاب عربي ضبط بالشكل الكامل . ونشرت هذه المطبعة نفسها تاريخ ابن العميد عام ١٦٢٥ ومجموع امثال علي بن ابي طالب عام ١٦٢٩ و « عجائب المقدور في اخبار تيمور » لابن عربشاه عام ١٦٣٦ وطائفةً من مقامات الحريري عام ١٧٤٠ و « معلّقة طرفة » عام ١٧٤٢ وديوان الامام علي عام ١٧٤٥ ولاميّة كعب بن زهير عام ١٧٤٨ وسيرة صلاح الدين الايوبي لابن شدّاد سنة ١٧٥٥ وقصيدة البردة سنة ١٧٦١ وكليلة ودمنة سنة ١٧٨٥ ونخبة من امثال الميداني عام ١٧٩٥ الخ الخ. هكذا نالت مطبعة ليدن المقام الاول بين زميلاتها في اوروبا بمطبوعاتها النفيسة .

اما مطبعة باريس الملكيّة فقد اجادت كل الاجادة بطبع نسخة الكتاب المقدس المشهورة بالبوليغلوتا في تسعة مجّلدات ضخمة تتضمن جميع اسفار العهدين القديم والجديد بستّ لغات وهي : العربية والعبرانية والسامرية والسريانية واليونانية واللاتينية واستغرقت طبعتها ثلاث عشرة سنة (١٦٢٣ - ١٦٤٥) وهي من ابدع واجمل ما طبع لذلك العهد (١) .

---

(١) اول طبعة من «البوليكلوت» باليونانية والسريانية واللاتينية والعربية ظهرت في ايطاليا عام (١٥١٤-١٥١٧) ثم في البندقية عام ١٥١٨ (المشرق ٣٨ : ١٩٤٠ : ٢٦٥)

ونشرت مطبعة لندن «تاريخ الدولة الخوارزمية» لابي الفداء سنة ١٦٥٠ وطبعت «التوراة المقدسة» بتسع لغات في ستة مجلدات ضخمة سنة ١٦٥٧ ورسائل طبية للرازي سنة ١٧٦٦ و كتاب «الجراحة» لابي القاسم سنة ١٧٧٨. و «المعلّقات» سنة ١٧٨٣

ونشرت مطبعة اوكسفرد نبذة في تاريخ العرب سنة ١٦٥١ ومقالات لموسى بن ميمون عام ١٦٥٥ و«تاريخ سعيد بن بطريق» عام ١٦٥٨ و«لاميّة الطغرائي» عام ١٦٦١ وتاريخ «مختصر الدول» لابن العبري عام ١٦٦٣ و«رسالة حيّ بن يقظان» عام ١٦٧١ و«السيرة النبوية» من تاريخ ابي الفداء سنة ١٧٤٣

ونُجمل الكلام عن سائر المطابع الاوروبيـة فنقول: نشرت مطبعة البندقية كتاب «القرآن» سنة ١٥٣٠ وطبعت في بادوا سنة ١٦٩٨ «تفاسير القرآن» للبيضاويّ والزمخشريّ والسيوطيّ. وطُبع في ابسالا عام ١٧٥٧ كتاب «خريدة العجائب» ونشرت في ليبسيك عام ١٧٥٥ «رسالة ابن زيدون». وطبع في هودرفيغ كتاب «مقصورة ابن دريد» في السنتين ١٧٦٨ و١٧٨٦ وفي فرنكفورت كتاب «لاميّة الطغرائيّ» عام ١٧٦٩ وفي غوتا كتاب «وصف مصر» عام ١٧٧٦ وتاريخ ابي الفداء في كوبنهاغ عام ١٧٨٩ اما كتاب عبد اللطيف في «الامور المشاهدة بمصر» فقد طبع اولاً في توبنغ عام ١٧٨٩ وثانياً في اوكسفورد عام ١٨٠٠ وطبع في صقليـة عام ١٧٩٠ كتاب «آثار العرب في بالرمة». ونشرت في ليبسيك عام ١٧٩١ منتخبات من كتاب «تقويم البلدان» لابي الفداء و«معلقة زهير» عام ١٧٩٢ ونُشر في رُستك عام ١٧٩٧ كتاب «النقود الاسلامية» للمقريزيّ الخ الخ . ومنذ افتتاح القرن التاسع عشر دخلت المطبوعات العربية في طور جـديد بحيث صار عددها يربي في اوروبا على المئات . وفي ما ذكرناه كفاية .

انما لايسعنا السكوت عن الاشـارة الى بعض كتبٍ عربيّة نُشرت بحرف عبرانيّ في مدينة القسطنطينية بمطبعة المربي اسحق جرسون اليهودي في اواخر القرن الخامس عشر. وقس على ذلك كتباً عربيّة جمّة نُشرت في مطابـع اوروبا بحروف سريانيّة .

رابعاً : ظهور الطباعة العربية وذيوعها في الشرق

١ ـ بواكير المطابع النصرانية في الشرق

اذا انتقلنا من البحث عن المطابع العربية في الغرب الى البحث عنها في الشرق قلنا ان جبل لبنان هو السبّاق الى ذلك . لانه فيه تأسست اوّل مطبعة عربية .. وامتدّت الطباعة بعد ذلك الى سائر انحاء الشرق كسوريا ومصر وفلسطين والعراق وما بين النهرين وغيرها .

فاقدم مطبعة برزت للوجود في الشرق هي مطبعة دير قزحيا بلبنان . وقد نشرت عام ١٦١٠ كتاب « المزامير » في حقلين متقابلين : احدهما في اللغة العربية بحروف كرشونية والآخر في اللغة السريانية .

واوّل مطبعة عربية أنتجت في الشرق كتباً عربية بحروف عربية هي المطبعة التي جلبها الى حلب بطريرك الروم الملكيين اثناسيوس الثالث (١٦٨٥ - ١٧٢٤) من آل دباس . فانه سافر عام ١٦٩٨ الى بلاد الفلاخ واستحضر تلك المطبعة من عاصمتها بكرش (بخارست) الى حلب . ثم نشر فيها عام ١٧٠٦ كتاب الانجيل مزيناً بصور الانجيليّين الاربعة (١) .

وبعد مطبعتي قزحيا وحلب قامت مطبعة دير الشوير بلبنان . أسسها وحفر حروفها الشمّاس عبد الله زاخر (١٦٨٠-١٧٤٨) العلاّمة النابغة . وكان باكورة مطبوعاتها كتاب « ميزان الزمان » سنة ١٧٣٤ وقد اتيح لنا ان تعهّدنا هذه المطبعة القديمة التي توقفت عن العمل. فأعجبنا حرص الرهبان على صيانة مطبوعاتها وجميع ادواتها وعلى حفظها سالمة دون ان يفقد شيء من بقاياها . وهي مرتّبةٌ في غرفها الاصلية ترتيباً تاماً يستوجب الثناء على القائمين بحراستها .

---

(١) اطرب الشعر واطيب النثر : للاب شيخو : قسم ٢ صفحة ١٩٣

ورابع مطبعة عربية عرفها الشرق هي مطبعة القديس جاورجيوس للروم الارثذكس في بيروت . انشأها الشيخ يونس نقولا جبيلي المشهور بابي عسكر (+ ١٧٨٧) وكان ذا ثروة واسعة ونفوذ عظيم لدى الجزّار . واوّل ما نشرته هذه المطبعة هو كتاب المزامير فالسواعية فالقنداق سنة ١٧٥١

وخامس مطبعة في الشرق أنشئت في الاسكندرية سنة ١٨٠٠ في اثناء الحملة الفرنسية بقيادة الجنرال نابليون بونابرت . وبها طُبعت جريدة «التنبيه» بتاريخ ٦ كانون الاول سنة ١٨٠٠ وهي باكورة جميع الجرائد العربية في العالم اجمع .

اما سادس مطبعة عربية في الشرق فقد جلبها عام ١٨١٦ من لندن الى دير الشرفة-بلبنان المطران بطرس جروة الذي نُصب بعد ذلك بطريركاً انطاكياً (١٨٢٠ - ١٨٥١) على السريان الكاثوليك . ومن مطبوعاتها العربية كتاب «مجمع الشرفة» المعقود سنة ١٨٨٨ وكتاب «المباحث الجلية في الليترجيات الشرقية والغربية» للبطريرك اغناطيوس افرام رحماني .

٢ - بواكير المطابع الاسلامية في الشرق

اول مطبعة اسلامية نشرت كتباً عربية هي مطبعة سعيد افندي في الاستانة . فقد استعان بابرهيم آغا المجري واصدر فيها عام ١٧٢٨ تاريخ الحاج خليفة (١٠٠٤ - ١٠٦٧ هـ) بعنوان «تحفة الكبار في اسفار الابحار» وهو باكورة مطبوعاتها العربية . اما اشهر المطابع العربية في تلك العاصمة فمطبعة «الجوائب» أسسها عام ١٨٦١ احمد فارس الشدياق اللبناني ونشر فيها تصانيف عربية جليلة كالجاسوس على القاموس وديوان البحتري وديوان الطغرائي ورسائل الخوارزمي والهمذاني ومنتخبات الجوائب الخ .

وأقدم مطبعة اسلامية عربية في القطر المصري هي مطبعة بولاق الذائعة الصيت .

انشأها عام ١٨٢٢ محمد علي باشا راس العترة المالكة. ونستغني عن تعداد مطبوعاتها الوافرة لانها اشهر من نار على علم.

وأقدم مطبعة اسلامية عربية في بلاد المغرب اسسها عام ١٨٦٠ محمد الصادق باشا باي تونس (١٨٦٠ — ١٨٨٢). وتعد باكورة منشوراتها جريدة «الرائد التونسي» التي برزت للوجود بتاريخ ٢٠ تموز ١٨٦٠ (١٢٧٧ هـ). وقد كلف الباي المشار اليه مستعرباً فرنسياً يقال له منصور كرلتي لإخراج مشروع المطبعة والجريدة الى الوجود (١).

واقدم المطابع الاسلامية العربية في دمشق مطبعة ولاية سوريا جرى تأسيسها في السنة ١٨٦٤ وكانت باكورة نشراتها رسالة الشيخ عمر العطّار في المنطق وقواعد الاوقاف تأليف السيد محمود حمزة مفتي دمشق.

اما المطابع الاسلامية العربية في العراق فأقدمها مطبعة الزوراء أنشئت عام ١٨٦٩. ومن بواكير مطبوعاتها بعد جريدة «الزوراء» سالنامة ولاية بغداد وقانون الجزاء الهمايوني وقانون الاراضي.

وأقدم المطابع الاسلامية في بيروت «مطبعة جمعية الفنون» انشأها سنة ١٢٩٢ للهجرة (١٨٧٤ م) الشيخ عبد القادر قباني. ونشر فيها جريدته «ثمرات الفنون» وهي باكورة جميع الصحف الاسلامية في هذه الحاضرة. واوّل ماطبع فيها كتاب «كشف الارب عن سر الادب» نظم الشيخ ابرهيم الاحدب. وكتاب «اطواق الذهب في المواعظ والخطب» للزمخشري شرحه الشيخ يوسف الاسير.

٣ - بواكير المطابع الحجرية في الشرق

يكاد لا يتجاوز عدد المطابع الحجرية في الشرق عدد الانامل. واقدمها عهداً «المطبعة

(١) تاريخ الصحافة العربية : جز ١ صفحة ٦٥

الكاثوليكية ، التي اسسها الآباء اليسوعيون في اول تشرين الاول ١٨٤٨ ببيروت. وتألفت في بداية امرها من مطبعة حجرية صغيرة . ثم اضاف اليها مؤسسوها ادوات خشبية للكبس والخياطة والتجليد صنعها فرديناند بوناجينا (+ ١٨٦٠) احد رهبانهم الايطاليّ الاصل . ومن اقدم مطبوعاتها براآت بابويّة وديوان المطران جرمانس فرحات وامثال لقمان الحكيم. ولما استحضر الآباء اليسوعيون عام ١٨٥٤ مطبعة عربية على الحروف أهملوا المطبعة الحجرية. فارسلوها الى مدرستهم في غزير حيث طبعوا كتاب «نخب الملح وغرة المنح» وجدّدوا فيها طبع «امثال لقمان الحكيم» .

وثانية المطابع الحجريّة انشأها الشاعر االلبنانيّ صاحب السيف والقلم حنا بك الاسعد (١٨٢٠-١٨٩٧) المنتمي الى آل ابي صعب وهم من مزرعة بيت ابي صعب في البترون (١) . وقد نشر فيها سنة ١٨٥٣ بخطه الجميل شرح المعلقات للزوزني . واتخذ مركزاً لها قصر «بتدّين» دار الامارة اللبنانية في عهد الامير بشير الكبير (١٧٨٨-١٨٤٠). وكان حنا بك الاسعد متولياً الكتابة في ديوان الامير المشار اليه باللغتين العربية والتركية . وقد ذهب في خدمته الى مالطا والاستانة ولم يرجع الى لبنان الا في السنة ١٨٤٩ اي قبيل وفاة مولاه الامير الكبير (+ ١٨٥٠). وقد وصفه احد الشعراء بهذين البيتين :

لِحَنّا قد أقرّ العُربُ طُراً ... بفوزٍ بالسّباقِ لدى الرهانِ
له شهدَ اليراعُ بحسن خطٍّ ... كما سجد الحُسَامُ مع السنانِ

ثم توفرت المطابع العربية الحجرية في العراق . واقدم مطبعة عُرفت فيه «مطبعة كربلاء» جلبها من بلاد ايران عام ١٨٥٦ احد اعيانها ونشر فيها مقامات ابن الالوسي المشهورة بمقامات الجدّ. وجرى ذلك في ايام محمد رشيد باشا والي بغداد وكان من اعظم انصار الادب .

---

(١) تاريخ الصحافة العربية : لفيليب دي طرازي : جزء ١ صفحة ١٢٥-١٢٨

وانشئت في بغداد بعد مطبعة كربلاء ثلاث مطابع حجرية : أقدمها «مطبعة كامل التبريزي» التي اسسها الميرزا عباس سنة ١٨٦١ ونشر فيها بعض الكتب . نذكر منها : «سبائك الذهب في معرفة قبائل العرب» للسويدي . و«المقامة الطيفية» لجلال الدين السيوطي . وكتاب «الطرائف واللطائف» للشيخ ابي نصر احمد بن عبد الرزاق المقدسي الخ . ثانيتها مطبعة حجرية فاخرة ابتاعها من باريس سنة ١٨٦٩ والي بغداد احمد مدحت باشا الوزير العثماني الشهير وألحقها بمطبعة الولاية وثالثتها «المطبعة الحميدية» لصاحب امتيازها عبد الوهاب افندي وكان عضواً في مجلس المبعوثان العثماني الاول بالاستانة . ومما طُبع فيها كتاب «بحر الكلام» لسيف الحق ابي المعين النَسَفي . ورسائل فقهية وغير ذلك .

٤ ـ اقامة بطريرك الاقباط مهرجاناً في الشوارع ابتهاجاً بمطبعته

من اروع ما أثبته التاريخ من مجالي التجلة والاعتبار للمطابع تلك الحفاوة الكبرى التي احتفل بها الانباء كيرلس الرابع بطريرك الاقباط (١٨٥٤ ـ ١٨٦١) ترحيباً باول مطبعة اقتناها لابناء ملته . فانه وجّه الامر الى المطارنة والكهنة والشمامسة ولفيف الاكليروس ان يقيموا لاستقبالها مهرجاناً فخماً . فخرجوا قاطبة الى محطة القاهرة في الصلبان والمجامر والشمعات والصنوج . وتوشحوا باثوابهم البيعية وجعلوا ينشدون الترانيم الرخيمة جذلين مسرورين . وتبعهم القوم بالاهازيج والزغاريد حتى بلغوا بالمطبعة الى الدار البطريركية . وعند ذلك هرع البطريرك الى استقبالها متهللا وهو يقول : « لولا الخوف من لوم الجهال لخرجت الى الطريق ورقصت امام المطبعة كما رقص داود امام تابوت العهد (٢ ملوك ٦ : ١٤» (١) . وظل القوم في جميع انحاء القطر المصري يتحدثون زمناً طويلاً عن ذلك الاستقبال الغريب الذي لم يُسمع بمثله في التاريخ (٢) .

---

(١) تاريخ الصحافة العربية : جزء ٣ صفحة ٩-١٠

(٢) تراجم مشاهير الشرق : تاليف جرجي زيدان : جزء ١ صفحة ٢٧٨

٥ ـ مطبعة عربية تصدر كتاباً بعشرين لغة

لم يقتصر ارباب المطابع العربية في الشرق على نشر الكتب باللغة العربية فقط بل نشطوا الى تجهيزها بحروف اغلب اللغات الشائعة شرقاً وغرباً . واول مطبعة احرزت قصبة السبق بتفننها في ذلك هي المطبعة الكاثوليكية ببيروت . فقد نشرنا فيها منذ السنة ١٨٩١ كتابنا « القلادة النفيسة في فقيد العلم والكنيسة » بعشرين شكلاً من الحروف الشرقيـة والغربيـة في ٢٠٤ صفحات . وهو اول كتاب اصدرته المطابع العربية في الشرق بهذا العدد الوافر من اللغات (١) .

٦ ـ تقلص ظل المخطوطات العربية بانتشار المطابع

على اثر توفّر المطابع العربية انتشرت الطباعة رويداً رويداً في جميـع ارجاء الشرق الادنى . فعمّت او كادت تعم المدن والدساكر من شاطىء دجلة حتى وادي النيل . وقد اكتفينا بذكر النزر من بواكير المطابع العربيـة في الشرق تنويراً لمن تهمه معرفة ذلك .

وبداعي اختراع الطباعة أخذ يتقلّص ظل المخطوطات تدريجـاً بزيادة انتشار المطابع . وصار عليها وحدها المعوّل في تجهيز خزائن الكتب بمختلف التصانيف . ومن ذلك الحين قلّت المخطوطات في انحاء الشرق بعد ما كانت حافلة بها خزائن اديارة ومساجده ومدارسه وبيوت علمائه . ذلك إما لانها تلفت لكثرة ما تداولتها الايدي . وإما لانها نُقِلت الى مكتبات الغرب ومتاحفه . فغدت من دواعي التفاخر والزينة في مكتباتنا لندرتها وقدامة عهدها وتفنن الخطاطين في نساختهـا وزخرفتها .

---

(١) مجلة المشرق : مجلد ٣ سنة ١٩٠٠ صفحة ٧١٥

الفصل السادس

مشاهير الكتاب والنساخ المسلمين والمسلمات

١ - نوابغ الكتاب في القرون الاولى للهجرة

أقدم من أطلق عليه في الاسلام لقب «كاتب» فيما نرجح هو عبد الحميد الكاتب قُتل في الثلث الاول من القرن الثاني للهجرة. وكان على قول مؤلف «العقد الفريد» اول من فتّق أكمام البلاغة وسهّل طرقها وفك رقاب الشعر. ضُربت الامثال ببلاغته. والى ذلك اشار البحتري في قصيدته الى محمد بن عبد الملك قال (١):

وتفَنَّنتَ في البلاغة حتى   عطل الناسُ فن عبد الحميدِ

وجاء بعد عبد الحميد مئات ومئات من العلماء والنساخ تغلّب عليهم لقب «كاتب» نكتفي بذكر بعضهم في ما يلي: ايوب بن محمد الكاتب (٢) وكان صديقاً لابي نواس (١٤٥-١٩٥ هـ) وخالد بن يزيد الكاتب الذي أنشد هذين البيتين في تفاحة كتب عليها الخليفة هرون الرشيد بغالية قال (٣):

تفّاحة خرجتْ بالدر من فيها   أشهى اليّ من الدنيا وما فيها
بيضاءُ من حمرةٍ عَلَت بغاليةٍ   كأنما قُطِفَت من خدّ مهديها

---

(١) محاضرة عن عبد الحميد الكاتب: لمحمد كرد علي (مجلة المجمع العلمي العربي: مجلد ٩ سنة ١٩٢٩ صفحة ٥١٣ فما بعد

(٢) اخبار ابي نواس: لابن منظور المصري: سفر ١ صفحة ١٤٣

(٣) مروج الذهب: للمسعودي: جزء ٢ صفحة ٢٢٣

ومن تفرد في عصره بحسن الخط وكثرة النسخ الامام البخاري الشهير. فانه أتقن الكتابة بكلتا يديه اليمنى واليسرى. وحلت منيته عام ٢٦٥ للهجرة.

وحدّث ابو الحسين علي بن هشام الكاتب قال: «سمعت الوزير ابا الحسن يقول لابي عبد الله احمد بن محمد بن ثوابة متولي الديوان في خلافة المقتدر (٢٩٥-٣٢٠ﻫ) ما نصه: ما احدٌ على وجه الارض أكتبُ من جدّك. وكان ابوك أكتبَ منه وانتَ أكتبُ من أبيك (١).

ومن مشاهير الكتّاب ابو علي الحصاري الكاتب عاش في القرن الثالث للهجرة. وقد وُلّي ابوه إمرة دمشق في ايام المعتصم (٢). وقدامة بن جعفر (٣١٠ﻫ) الكاتب البغدادي (٣) ومحمد بن بحر الاصبهاني الكاتب (٢٥٤-٣٢٢ﻫ). وسهيل بن هرون الكاتب المتوفى سنة ٣٨٠ للهجرة واخوه سعيد بن هرون الكاتب (٤٠٠ﻫ) وكانا خازنين لبيت الحكمة في بغداد. والمسبّحيّ الكاتب الحرّاني مؤلف كتاب «السؤال والجواب» (٤) توفي سنة ٤٢٠ للهجرة. وابو صالح النيسابوري الكاتب (٣٨٨-٤٧٠ﻫ).

٢ ـ نوابغ الكتاب في القرنين السادس والسابع للهجرة

ممن اشتهروا بلقب كاتب في القرن السادس نذكر: ابا عباس الانصاريّ الخزرجي (٤٩٢-٥٦٩ﻫ) الكاتب خازن مكتبة الحكمة في مراكش. ومحمد السالميّ الاندلسيّ الوزير الكاتب (٥). كان حياً بعد السنة ٥٥٠ للهجرة. وعلي

---

(١) معجم الادباء: لياقوت الرومي: جزء ٤ صفحة ٢٤٣
(٢) التاريخ الكبير لابن عساكر: مجلد ٤ صفحة ١٧٢
(٣) معجم المطبوعات العربية والمعربة: صفحة ١٤٩٤-١٤٩٥
(٤) كشف الظنون: لحاجي خليفة: مجلد ٢ صفحة ٢٨١
(٥) بغية الوعاة في طبقات اللغويين والنحاة: لجلال الدين السيوطي: صفحة ١٥

بكري خادم مكتبة المدرسة النظامية في بغداد المتوفى سنة ٥٧٥ للهجرة . وابا حامد عماد الدين الكاتب (١) الاصفهاني الشافعي (٥١٩ ـ ٥٩٧ هـ) .

واشتهر في القرن السابع : محمد ابن عبيد الله بن جبرائيل بن عبيد الله الشاعر والكاتب (٢). وابوالحسين بن دينار الكاتب الذي قتله التترسنة ٦١٧ للهجرة (٣). وابو القاسم خلوف بن شعبة الكاتب . واحمد بن يوسف الكاتب (٤) . وابو الفرج بن الجوزي الكاتب الذي صرح في آخر عمره على المنبر قائلاً : « كتبتُ باصبعيَّ هاتين ألفي مجلدة (٥) » . وجمال الدين المعروف بابن الجمالة الكاتب . وابن الوحيد وغيرهم .

وممن تفرد بجودة الخط وكثرة النسخ في تلك الحقبة ابو عمرو بن قدامة (٥٢٨-٦٠٨ هـ) . قال عنه الحافظ الضياء المقدسي في رسالته : « كتب الكثير بخطه مثل (الحلية) لابي نعيم و(الابانة) لابن بطة وتفسير (البغوي) و(المقتي) في الفقه . وكان يكتب لاهله المصاحف وينسخ (الخرقي) للناس بلا اجرة . وكان يقول : ربما كتبت في اليوم كراسين بالقطع الكبير (٦) »

واشتهر بعد ذلك احمد بن عبد الدائم (٥٧٥-٦٦٨ هـ) المولود في جبل نابلس . ارتحل الى بغداد وكتب بخطه المليح السريع ما لا يوصف لنفسه او بالاجرة . وكان اذا تفرغ كتب في اليوم تسعة كراريس . ولازم الكتابة مدة خمسين سنة فبلغ مجموع ما كتبه في حياته ألفي مجلدة كما ورد في شعرٍ له قال (٧) :

---

(١) الخزانة الشرقية : لحبيب زيات : جزء ٢ صفحة ٣٩

(٢) الخزانة الشرقية : لحبيب زيات : جزء ٢ صفحة ٣٩

(٣) بغية الوعاة : صفحة ١١

(٤) صبح الاعشى : للقلقشندي : جزء ٢ صفحة ٤٦٤

(٥) نفح الطيب : جزء ٣ صفحة ٨٧

(٦) المدرسة العمرية : بقلم محمد اسعد طلس (مجلة دمشق : مجلد ١ عدد ٧ صفحة ٢٢ في ١ تموز ١٩٤٠)

(٧) نكات الهميان : صفحة ٩٨

عجزتُ عن حمل قرطاسٍ وعن قلمٍ من بعد إلفيَ بالقرطاس والقلمِ
كتبتُ ألفاً وألفاً من مجلدةٍ فيها علومُ الورى من غير ما ألمِ
العلم زينٌ وتشريفٌ لصاحبهِ فاعملْ به فهو للطلاب كالعَلَمِ
ما زلتُ اطلبهُ دهري واكتبهُ حتى ابتُليتُ بضعف الجسم والهرَمِ

٣ – نوابغ الكتاب في القرن الثامن فما بعده للهجرة

من اصحاب هـذا اللقب في القرن الثامن : علاء الدين الكندي الدمشقي الكاتب ابن وداعة (٦٤٠ – ٧١٦ هـ) (١) . وابن الفوطي الصابوني الكاتب (٦٤٢ – ٧٢٣ هـ) والخازن البغدادي (٦٧٨ – ٧٤١ هـ) الكاتب . وابو زكريا بن سرّاج الكاتب . واحمد بن المنان الكاتب من علماء القرن الثامن للهجرة (٢) .

ونضم الى من تقدم ذكرهم : ابا عثمان سعيد بن حميد الكاتب (٣) . وابا الفتح الاطرابلسي المقري الكاتب (٤) . وابن سعد الكاتب . والعمّار الكاتب . وابا القاسم عبيد الله النردشيريّ الكاتب . وابرهيم بن احمد بن الليث الازدي اللغوي الكاتب . واحمد بن اسكندر الرومي الكاتب . ورشيد الدين الوطواط الكاتب . وابا القاسم خلف الغافقيّ القبتوريّ الكاتب (٥) . ومحمد بن موسى الكاتب . وابرهيم بن قاسم الكاتب . وعليّ اللواتي الابياريّ الكاتب (٧٥٠ – ٨١٤ هـ) وغيرهم .

٤ – رؤساء الكتاب والمكتبون

بين الكتّاب مَن فاق غيره بالذكاء والتفنن واناقة الخطّ وغير ذلك من مزايا

---

(١) تذكرة الحفاظ : جزء ٤ صفحة ٢٨٦
(٢) اتحاف اعلام الناس في اخبار مكناس : لعبد الرحمن بن زيدان : جزء ١ صفحة ٢١٢
(٣) الفهرست لابن النديم
(٤) التاريخ الكبير : لابن عساكر : جزء ٣ صفحة ٤١٨
(٥) نفح الطيب : جزء ١ صفحة ٦٢٤

الكتابة . وقد أطلق عليهم الملوك والامراء نعوتاً خاصـــة ولقبوا بعضهم بلقب «رئيس الكتّاب» تمييزاً له عن سائر اصحاب هذه المهنة . ومن اشهر «رؤساء الكتّاب» نذكر : ابا القاسم عبد الله بن يوسف بن رضوان البخاري . وابا محمد عبد المهيمن بن محمد الحضرمي . وذا الوزارتـين ابا عبد الله محمد بن عبد الرحمن بن الحكيم (١) وابا الحسن بن الجياب (٢).

ويقال عند العرب لمعلم الكتابة «المكتب». واشهر من عُرف بهذا اللقب بل أقدمهم هو الحجاج بن يوسف (٤١ ـ ٩٥ هـ) وكان مكتّباً بالطائف (٣) . وممن عُرف بهذا اللقب ايضاً ابو ابرهيم بن محمد البذيخوني المكتب (٤) ومحمد بن اسماعيل المكتب في بغداد (٥) . وابو الطيب محمد بن جعفر المكتب المتوفى سنـة ٣٧٧ للهجرة (٦).

وأطلق لقب «المكتبي» على صاحب المكتب او على المعلم في المكتب . وممن اشتهر بهـذا اللقب محمد بن احمد المكتبي في حلب . المتوفى سنة ١١٧١ للهجرة . اشتغل اولاً باقراء الاطفال ثم عاشر العلماء ودرس عليهم (٧) . وممن اطلق عليه اللقب عينه الشيخ ابرهيم المكتبي الحنفي، وتربتُهُ في باب النيرب بحلب (٨)

٥ ـ اشهر النساخ المسلمين في الازمنة السالفة

كما أطلق لقب «كاتب» على مَن امتاز بالكتـابة أطلق كذلك لقب «ناسخ»

---

(١) نفح الطيب : جزء ٣ صفحة ٢٦١ (٢) نفح الطيب : جزء ٣ صفحة ٢٩٨

(٣) اقرب الموارد : لسعيد الشرتوني : جزء ٢ صفحة ١٠٦٤

(٤) معجم البلدان : لياقوت الرومي : جزء ٢ صفحة ٩٤

(٥) تاريخ بغداد : لابي بكر الخطيب البغدادي : جزء ٢ صفحة ٥٢

(٦) تاريخ بغداد : لابي بكر الخطيب البغدادي : جزء ٢ صفحة ١٤٦

(٧) اعلام النبلاء بتاريخ حلب الشهباء : لراغب الطباخ : جزء ٦ صفحة ٥٤٠-٥٤٤ ومنظومة الشيخ وفا في اولياء حلب : رقم الشعر ١٩٩ للاب فرديناند توتل

(٨) منظومة الشيخ وفا : رقم الشعر ١٧٨

على من تفرد بالنساخة . وأقدم من عرّفهُ التاريخ بهذا اللقب علان الشعوبي الذي كان ينسخ في «بيت الحكمة» للرشيد والمأمون والبرامكة (١) . واشهر النساخ من بعده ابو جعفر الطبري (٢٢٤-٣١٠هـ) المؤرخ المشهور. فقد قيل انه قضى اربعين سنة يكتب كل يوم اربعين صفحة (٢) . ثم ابو عبد الله الناسخ وقد ورد في «تاج العروس» انه نسخ بخطه ألف مصحف. وجاء بعده جمال الدين المزّي القضاعي الذي نسخ المليح المتقن كثيراً لنفسه ولغيره . وكان ذا مروءة وسماحة باذلاً لكتبه (٣) .

اما ابو بكر الرازي المتوفى سنة ٣٢٠ للهجرة . فلم يكن يفارق النسخ بل كان يسوّد او يبيّض (٤). وروى ابو جعفر القصري المتوفى سنة ٣٢١ للهجرة أنه ما جفّ له قلم مدة اربعين سنة لكثرة ما نسخه من الكتب (٥) . وبلغت كتب ابي العرب التميمي المتوفى سنة ٣٣٣ للهجرة ثلاثة آلاف وخمسمائة كتاب كلها بخط يده (٦) . وكان عبدالله بن سليمان الحارثي بارعَ الخط يكتب بيده اليسرى لتعذر اليمنى . ولم يكن يخرجها من ثوبه ولم يعرف احدٌ عذرها (٧) .

ويُحكى عن الامام ابي عبد الله محمد الازديّ الحميديّ الاندلسيّ تلميذ ابن حزم انه كان كثير الاجتهاد في نسخ الكتب . فلما ارتحل الى مكة صار ينسخ الكتب بالليل من شدة القيظ وهو جالس في إجانة ماء يتبرد به . وحلّت وفاة الامام ابي عبدالله سنة ٤٩١ للهجرة (٨) . واشتهر بعده شجاع بن فارس الذهلي

---

(١) الفهرست : لابن النديم : صفحة ١٠٥

(٢) تاريخ آداب اللغة العربية : لجرجي زيدان : جزء ٢ صفحة ١٩٨

(٣) تذكرة الحفاظ : جزء ٤ صفحة ٢٨٠-٢٨١

(٤) تاريخ مختصر الدول : لابن العبري : صفحة ٢٧٤-٢٧٥

(٥) معالم الايمان في معرفة اهل القيروان : للشيخ عبد الرحمن الدباغ : جزء ٣ صفحة ١١

(٦) معالم الايمان في معرفة اهل القيروان : جزء ٣ صفحة ٤٣

(٧) بغية الوعاة في طبقات اللغويين والنحاة : لجلال الدين السيوطي : صفحة ٢٨٣

(٨) نفح الطيب : جزء ١ صفحة ٣٧٥

(٤٣٠ ـ ٥٠٧ ﻫ) الذي نسخ بخطه من التفسير والفقه ما لم ينسخه احدٌ من النساخ . وقلّما وُجد بلد من بلاد الاسلام الا وفيه شيءٌ من خط شجاع (١) .

ومَن كتب ونسخ كثيراً بين فلاسفة الاسلام ابن رشد المتوفى سنة ٥٩٦ للهجرة . فانه عُني بالعلم منذ صغره الى كبره ولم يدع النظر ولا القراءة منذ عقل الا ليلة وفاة ابيه . وقيل انه سوّد في ماصنّف وقيّد وألّف وهذّب واختصر نحو من عشرة آلاف ورقة (٢) .

ومن اهل النسخ ايضاً ابو علي محمد بن الحسن بن الهيثم انتقل من البصرة الى مصر وسكنها الى آخر عمره . فاقام في الجامع الازهر حيث اشتغل بالتأليف والنسخ . وكان يبيع في كل سنة ثلاثة كتب من نسخه وهي : كتاب « اقليدس » وكتاب « المتوسّطات » وكتاب « المجسطيّ » . وكان ثمن تلك المخطوطات محدّداً بمائة وخمسين ديناراً مصرياً لا يقبل فيه مواكسة ولا معاودة قول . وكان يجعلها ابن الهيثم مؤونة حياته طول سنةٍ وظلّ كذلك الى حلول أجله (٣) .

وجارى فخر الدين الماردينيّ من تقدم ذكرُهم من فلاسفة الاسلام في كثرة النسخ وجودة الخط . فانه جمع في حياته خزانة كتب عظيمة نسخَ اغلبها بخط يده وغالى في ضبطها واتقانها .

ومن كبار النسّاخين مهذّب الدين عبد الرحيم الدخوار المتوفى سنة ٦٢٨ للهجرة . اليه انتهت رئاسة صناعة الطب في زمانه . وواظب على النساخة وكان خطّه منسوباً . وقد كتبَ كتباً كثيرة بخطه رأى منها ابن ابي أصيبعة نحو مائة مجلد واكثر في الطب وغيره (٤) . ومنهم ابن الجوهري المحدّث المتوفىّ سنة ٦٤٣ للهجرة .

---

(١) تذكرة الحفاظ : جزء ٤ صفحة ٣٦-٣٧

(٢) تاريخ فلاسفة الاسلام : تاليف محمد لطفي جمعة : صفحة ١٢٣

(٣) تاريخ فلاسفة الاسلام : تاليف محمد لطفي جمعة : صفحة ٢٢٧

(٤) عيون الانباء في طبقات الاطباء : لابن ابي اصيبعة : جزء ٢ صفحة ٢٣٩

كتب ما لا يُوصَف كثرةً واستنسخ وأنفق ميراثه في هذا الشأن (١) . ومنهم عزّ الدين ابو اسحق ابرهيم بن محمود بن السويديّ . وُلد بدمشق سنة ٦٠٠ للهجرة ودرس الطب على الدخوار . وخدم المستشفى النوري الكبير ونسخ بخطه كتباً كثيرة (٢) .

وعُرِف في القرن السابع للهجرة كمال الدين الحلبي الشهير بابن العديم . صنّف تاريخاً لحلب وطنهِ سماه «بغية الطلب في تاريخ حلب» في اربعين مجلداً . وهو معدود كمؤرّخ صادقٍ ثبت الرواية بليغ العبارة . وكان كمال الدين لا ينقطع عن النساخة والتأليف حتى في اسفاره . فاذا سافر جلس في محفّة يحملها بغلان فينسخ ويصنّف او يطالع ويبيّض كأنهُ في مكتبهِ . وقد اختصر تاريخه المذكور بتاريخ آخر دعاه «زبدة الطلب في تاريخ حلب» ثم توفي سنة ٦٦٠ للهجرة (١٢٦٢ م) . وقد عُنِي الاوروبيّون بنقل هذا التاريخ الى اللغة الفرنسية وطبعوه لكثرة فوائده (٣) . وله مصنّفات شتى منها كتاب في «الخط» وعلومه وآدابه ووصف ضروبه واقلامه على ما ذكر ابن شاكر في كتاب «فوات الوفيات» .

وممن اشتهر بالاجادة في نسخ الكتب ابو السعود بن الكازرونيّ (٩٨٠-١٠٥٨) . كان له همة عظيمة في النسخ لم يضيع اوقاته سدًى فجمع بذلك مكتبة نفيسة بخطه (٤) . ولم يقل شهرةً عنه محمد بن عبد الوهاب الوزير الغسّانيّ الاندلسي الفاسيّ المتوفى سنة ١١١٩ للهجرة . فانه ظلّ مدةً طويلةً يكتب لمولاي اسمعيل سلطان المغرب الاقصى (١٠٨٢ – ١١٣٩ هـ) . وكان نجيباً في ذلك . وتولى نساخة جميع الاوامر السلطانية واستوفاها دون ان يغرب عنه شيء منها على كثرتها . وكانت له سرعة في نساخة الكتب لا تُعرف لغيره (٥) .

---

(١) تذكرة الحفاظ : جزء ٤ صفحة ٢٤٢

(٢) عيون الانباء في طبقات الاطباء : جزء ٢ صفحة ٢٦٦

(٣) اطرب الشعر واطيب النثر : للاب شيخو : قسم ٢ صفحة ١٨٣-١٨٤

(٤) خلاصة الاثر : جزء ١ صفحة ١٤٤

(٥) رحلة الوزير في افتكاك الاسير : المقدمة صفحة ١٠ واتحاف اعلام الناس : جزء ٤ صفحة ٦١

وروى الجبرتي عن رضوان الفلكيّ مؤلف «الزيج الرضوانيّ» انه خلّف مصنّفات وتحقيقات لا يمكن ضبطها لكثرتها . وقد كتب رضوان بخطه ما ينيف على حمل بعيرٍ من مسوّدات وجداول وحسابات وغير ذلك . كانت سكناه ببولاق وتوفي سنة ١١٢٢ للهجرة (١) .

٦ ـ اشهر النساخ المسلمين في الازمنة الحاضرة

ممن اجاد النساخة وأتقنها وضبطها واكثر منها بين المسلمين في الازمنة الاخيرة نذكر :

اولاً : المكيّ بن المختار الخنّاش المفوّه الجليل كان أوحد زمانه في الادب والانشاء نساخاً للكتب شديد المحافظة والضبط والاتقان . انتقاه مولاي عبد الرحمن بن هشام سلطان المغرب الاقصى لينسخ الكتب الخطيرة لخزانته السلطانية . وتوفي في حدود السنة ١٢٧٠ للهجرة (٢) .

ثانياً : الشيخ ابرهيم الاحدب (١٢٤٢ ـ ١٣٠٨ هـ) الذي سبق لنا وصف مكتبته بين المكتبات الاسلامية الخاصة ببيروت . فانه نسخ بيده ما أربى على الف كتاب ورسالة (٣) في جملتها نسخٌ شتى كتبها لفائدة تلاميذه كما روى لنا نجله حسين بك الاحدب . أخصها «حاشية الصبّان» فقد نسخها اربع مرات متوالية . وكان الشيخ ابرهيم لا يكلّ ولا يملّ من التأليف والنساخة ليله ونهاره (٤) .

---

(١) عجائب الآثار في التراجم والاخبار : للجبرتي : جزء ١ صفحة ٧٧

(٢) اتحاف اعلام الناس : جزء ٤ صفحة ٣٠٩

(٣) فرائد اللآل في مجمع الامثال : المقدمة : صفحة ٣ وتراجم مشاهير الشرق : لجرجي زيدان : جزء ٢ صفحة ١٦٦

(٤) الشيخ ابرهيم الاحدب والنهضة العلمية في القرن التاسع عشر : لفيليب دي طرازي : صفحة ٤

ثالثاً : من ابرع النسّاخين في دمشق الشيخ رضا البابا (١٢٨٠ - ١٣٥٥ هـ) أطلق على اسرته لقب « البابا » لان احد اجداده كان شيخاً للدباغين . وغير خاف ان كل من تولى رئاسة حرفة الدّباغين في دمشق لُقّبَ بالبابا . وأولع الشيخ رضا منذ صباه بالخط فصار يتردّد على المكتبة الظاهريّة وينسخ نفائس مخطوطاتها . ومن آثار براعته التي اطّلعنا عليها كتاب « الشطرنج » وكتاب « ارسطوطاليس » وكتاب في الطبّ وغير ذلك .

رابعاً : الشيخ محمد نعسان الوردي الحموي كان من اجود الخطّاطين في القرن الثالث عشر للهجرة . نسخ بيده على ما روى لنا ابن حفيده نحواً من مائة مصحف أتقن زخرفة فواتحها وعناوين سُورَها . واشتهر بعده ابنه الشيخ مصطفى في تنميق المصاحف الشريفة ونساخة التآليف القديمة . وبرع خصوصاً في كتاباته التاريخية على الاضرحة والجسور والمباني العامة مما يشهد له بالتفوّق في صناعة الخط .

خامساً : اشتهر بالنساخة في المغرب الاقصى عبد القادر بن عبد الرحمن بن عبد المالك بن زيدان . وكان وجيهاً ظريفاً لَسِناً ذا خط بارع . نسخ كثيراً من الكتب التاريخية والفقهية والادبية وتولى ايضاً نساخة كتب مهمة لخزانة مولاي السلطان حسن (١٢٩٠ - ١٣١١ هـ) الذي أجازه على ذلك بأعطيات سخية . وحلّت وفاة عبد القادر عام ١٣٢١ للهجرة (١) .

سادساً : من انشط النسّاخين الدمشقيّين الذين تعرّفنا اليهم واطّلعنا على آثارهم محمد صادق فهمي ابن السيد امين المالح . تولى النساخة في المكتبة الظاهرية فكتب بخطه الانيق عدداً وافراً من المؤلفات القديمة أحيا بها ذكرى مصنّفيها . واقتنينا لمكتبتنا الخاصة بعض مخطوطات قلمه نذكر منها : كتاب « التيسير والاعتبار والتحرير والاختبار » مزداناً بنقوش جميلة . منه نسخة فريدة في المكتبة الظاهرية المشار اليها . اما مؤلف هذا الكتاب فهو الشيخ محمد بن خليل الاسديّ . وقد اهدينا

---

(١) اتحاف اعلام الناس : لعبد الرحمن بن زيدان : جزء ٤ صفحة ٢٥٣

المخطوط المذكور الى مكتبة دير الشرفة (١) في جملة ما اهديناه اليها من الكتب المخطوطة والمطبوعة .

٧ ـ اشهر النساء المسلمات الكاتبات

في تواريخ العرب اسماء فئة كبيرة من النساء الكاتبات اللواتي تفرّدنَ بالثقافة العالية وجودة الخط وجمال الادب . ومن شهيراتهن عائشة بنت احمد القرطبية لم يكن في زمانها بين حرائر الاندلس مَن َعادلهاعلماً وفهماً وادباً وفصاحةً وشعراً . مدحت ملوك الاندلس وخاطبتهم بما عرض لها من حاجة . وكانت حسنة الخط كتبت المصاحف وماتت عذراء عام ٤٠٠ للهجرة (٢)وقد خطبها بعض الشعراء ممن لم تَرْضهُ فاعرضت عنه ثم كتبت اليه تقرّعه بهذين البيتين :

انا لبوةٌ لكنني لا ارتضي نفسي مناخاً طول دهري من أحدْ
ولو انني أختار ذلك لم أجِبْ كلباً وكم غلّقتُ سمعي عن أسدْ

وفي القرن السادس للهجرة برعت امرأة من فضليات النساء اخذت الخط عن محمد بن عبد الملك تلميذ ابن البوّاب حتى انتهت اليها هذه الصناعة في عصرها . وهي الشيخة المحدِّثة الكاتبة «زينب» الدينورية الملقبة بشهدة بنت الابريّ. وعنها اخذ امين الدين ياقوت وغيرُه من نوابغ الخطاطين (٣) . وقد انافت الى التسعين من سنها وتوفيت ببغداد في ١٣ محرّم ٥٧٤ للهجرة .

وذكر احمد ابن ابي خالد جاريةً كاتبة فقال في وصفها : «كان خطها اشكال صورتها ومدادُها سواد شعرها وقرطاسها اديم وجهها وقلمها بعض أناملها وبيانُها سحر مقلتها (٤) .

---

(١) الطرفة في مخطوطات دير الشرفة : للخوري اسحق ارملة : صفحة ٩٦ ؛
(٢) نفح الطيب : مجلد ٢ صفحة ٤٩٢-٤٩٣ ؛
(٣) رسالة الخط بقلم الشيخ احمد رضا : صفحة ١٩
(٤) محاضرات الادباء : للراغب الاصبهاني : جزء ١ صفحة ٧ ؛

ومن شهيرات الكاتبات اللواتي كنّ يكتبن للامراء نذكر : مزينة كاتبة الامير الناصر (١) . ولبنى بنت عبد المولى وكانت كاتبة الخليفة المستنصر بالله وقيل بل كانت جاريتَه . وكانت تكتب الخط الحسن وتجيد قواعده . وكانت حاذقةً بصيرةً بالحساب والعروض شاعرةً وُلدت في الاندلس وتوفيت سنة ٣٩٤ للهجرة .

وفي السنة ٤٨٠ للهجرة توفيت فاطمة بنت الحَسن بن عليّ الاقرع . ولعلّ كنيتها أمّ الفضل البغدادية الكاتبة التي جوّدوا على خطها . وكانت تقلد طريقة ابن البوّاب المتوفى سنة ٤١٣ للهجرة . ويُحكى انها كتبت ورقة للوزير الكندريّ فنفحها بالف دينار .

ونضمّ اليهنّ الكاتبة «بادشاه خاتون» . وهي ابنة محمد بن حميد تابنكو . كانت فاضلةً اديبةً شاعرةً وكانت تكتب الخط الحسن . وقد كتبت من المصاحف الشريفة ما لا نظير لها وقد جاء ذكرها في مرآة الادوار .

وسبقنا فروينا في غير هذا المحلّ نقلاً عن تاريخ ابن فياض «انه كان بالربض الشرقيّ في قرطبة مائة وسبعون امرأة يكتبن كلهُنّ المصاحف بالخط الكوفيّ» . فاذا كان ذلك كذلك فكم كان من النساء الكواتب في جميع ارباض قرطبة التي بلغت ثمانية وعشرين ربضاً ؟ (٢) .

---

(١) رحلة الاندلس للبتنوني : صفحة ٣١

(٢) مجلة المجمع العلمي العربي : مجلد ٢ سنة ١٩٢٢ صفحة ٢٦٥

الفصل السابع

مشاهير الكتاب والنساخ النصارى

١ ـ نساخة الكتب في الاديار النصرانية

مثلما اشتهر المسلمون بالكتابة والنساخة في عصورهم قام كذلك بين النصارى رهط عظيم من الكتّاب والنسّاخ خدموا الآداب العربية ورفعوا ألويتها شرقاً وغرباً . وتجلّى هذا الامر بكل وضوحه خصوصاً في الصوامع والمناسك والاديار التي بلغ عددها الالوف في الاصقاع الشرقية . وكان الرهبان مع اعتكافهم على الزهد والقنوت ينصرفون ايضاً الى كتابة الاسفار الدينية ونساخة المؤلفات العلمية والادبية والفلسفية والتاريخية . فزينوا المكاتب العربية بآثارهم القلمية وأدوا للمعارف اعظم خدمة يردّدها لهم التاريخ جيلاً بعد جيل .

وإلى اولئك النساك المجتهدين يرجع الفضل في صيانة كتب شتى كانت لولاهم مفقودة لا اثر لها . تلك حقيقة ناصعة أيدها مؤرخو جميع الاعصار والامصار . نذكر منهم البحاثة المصري محمد فريد وجدي قال : فلما جاءت القرون الوسطى كانت المكتبات القديمة بين يونانية ورومانية قد ادركها العطب . فلم يبقَ منها الا عدد نزر من المؤلفات القديمة . فكان للكنيسة المسيحية الفضل في الاستيلاء عليها وحفظها بين جدرانها بعيدة عن الضياع . . . وما بقي من آثار الاقدمين لم يوجد الا في الكنائس المسيحية (١) .

---

(١) دائرة معارف القرن العشرين : مجلد ٨ صفحة ٦١

٢ - نقل مخطوطات ثمينة من تكريت الى اديار مصر

وتأييداً لذلك نروي خبراً من الوف الاخبار يبرهن عن شديد حرص الرهبان على خزائن مخطوطاتهم. وهو ان مفارنة (١) السريان انشأوا في تكريت مركزهم مكتبة عامرة بالكتب والآثار الثمينة. غير ان الرزايا تتابعت عليها بتوالي القرون ولا سيما عندما غزا الطاغية تيمور سنة ١٣٨٧ م تلك النواحي. فأنزل فيها ضروب النكبات وأهدر دماء العباد ودمّر كل ما صادفه فيهما من مظاهر الحضارة والعمران. واجهز على مكتبة تكريت المشار اليها فلم يسلم من مخطوطاتها وآثارها الا ما استطاع الرهبان اخفاءه. وحذراً من ان تلفح الكوارث المتواصلة تلك البقية الثمينة نقلها رهبان تكريت وتجارهم على ظهور البهائم الى دير السيدة في وادي النطرون بمصر. وقد عانوا مشقات اسفار طويلة حتى أوصلوا تلك الذخائر الكتابية الى الدير المذكور الذي اعتادوا الاختلاف اليه منذ القرن السابع للميلاد. ونظراً الى خطورة تلك المخطوطات المكتوبة على الرقوق فان المتحف البريطاني اشترى سنة ١٨٤٢ طائفة منها بما وازى ثقلها ذهباً كما سبق القول في غير هذا الفصل.

٣ - ذكر بعض اديار الشرق وانتشار النساخة والوراقة فيها

لما كان يصعب احصاء النساخ في كل دير من الاديار المسيحية لسبب كثرتها نجتزىء بالقول ان عدد تلك الاديار في مصر وحدها كما اثبت الانبا مكاريوس بلغ ستمائة دير (٢). واربى عددها في الرها على ثلاثمائة دير (٣) سكنها تسعون الف

(١) المفارنة جمع مفريان وهو لقب ديني محصور في الملة السريانية اليعقوبية يتمتع صاحبه بامتيازات دون البطريرك وفوق المتربوليت (راجع كتاب Primat d'Orient, par Paul Hindo, 1936)

(٢) كتاب « وادي النطرون » : صفحة ١٦١

(٣) صبح الاعشى : مجلد ؛ صفحة ١٣٩

راهب (١) وبلغ عدد الديورة في سوريا الجنوبية واطراف دمشق مائة واربعه وعشرين ديراً (٢) . وورد في كتاب العفة للمؤرخ يشوع دناح البصري اسماء نيف ومائتي دير شيدها المسيحيون في الاقطار العربية والفارسية (٣) . واحصى الاب شيخو اديارأ وافرة العدد في جزيرة العرب وغسان وحوران والغور وشبه جزيرة سينا والعراق والجزيرة وشرقي بلاد الشام وجبال طي (٤) . وكان في طورعبدين شرقي مدينة ماردين اكثر من مائتي دير لم تزل آثار بعضها ماثلة حتى الآن . وحباً للايجاز نضرب صفحاً عن مئات من الاديار انتشرت واشتهرت في فلسطين وجبل لبنان وضواحي انطاكية وبلاد ما بين النهرين وغيرها .

وتعاقب في تلك الاديار ايام عزها عشرات بل مئات الالوف من الرهبان العلماء يدرسون ويبحثون ويؤلفون ويترجمون . ومنهم رهبان كانوا ينسخون الكتب وينقحونها وينمقونها ويضبطونها ويجلدونها . وكان فريق آخر يتعاطى بري الاقلام وأرياش الطير ويقوم بصنع الحبر المختلف الالوان . وفريق يهيّىء الرقوق والجلود والكاغد لكتابة المخطوطات وتنميقها وزخرفتها . ويشاهد حتى في يومنا هذا فئة من الرهبان الكلدان ينسخون الكتب ويجلدونها في اديارهم المجاورة لمدينة الموصل .

٤ - وصف انجيل منسوخ بحروف ذهبية وغلافه مدبّج بالجواهر

من المقرر انه لو سلمت تلك الاديار العديدة ممّا اصابها من الرزايا والكوارث على توالي الازمان لحوت خزائنها في يومنا ملايين من المخطوطات النفيسة التي لا

---

(١) تاريخ الرهاوي : صفحة ١٠٨ (طبعة البطريرك افرام رحماني في دير الشرفة)

(٢) فهرس مخطوطات المتحف البريطاني : رقم ٧٥٤ صفحة ٧٠١ و ٧١٤

(٣) كتاب العفة : سنة ١٩٠١ طبعة بيجان

(٤) نحيل القارىء الى مطالعة اسماء تلك الاديار في كتاب « النصرانية وآدابها بين عرب الجاهلية » للاب شيخو

تقدَّر بثمن. وعلى سبيل المثال نذكر نسخة من كتاب الانجيل كبيرة الحجم قديمة العهد كُتبَت حروفها كلها بالذهب والفضّة. وزُيّنَت صفحاتُها من اوّلها الى آخرها بنقوش رائعة. وكان غلاف هذا الانجيل البديع مدبجاً بالجواهر واللآلىء النفيسة. وقد وقع في يد الاتراك لدى استيلائهم على جزيرة قبرس فنقلوه الى القسطنطينية وانتزعوا الجواهر عن غلافه الثمين. وفي اوائل القرن السابع عشر حمله احدهم الى حلب فاشتراهُ بطريرك السريان اغناطيوس بطرس الخامس (١٥٩٨ - ١٦٣٩) المعروف بابن هدايا وضمّه الى مكتبته في حلب (١).

٥ - البطريرك يوحنا برشوشن ونسخه الكتب حين اسفاره

لسنا نرى ان نغمض عن ذكر كاتب شهير ثابرَ على نسخ الكتب طول مدة رهبنته وبطريركيّته معاً. وهو البطريرك يوحنا برشوشن (١٠٦٤ - ١٠٧٣ م). فقد اثبت عنه ابو الفرج ابن العبري انه كان متضلعاً من العلوم المنطقية والبيعية ومولعاً بالتأليف ونسخ الكتب. ومما يؤثر عنه انه كان اذا ارتحل من بلدٍ الى بلدٍ وجلس للاستراحة أخذ القلم وجعل يسوّد ويبيّض. هكذا نسخ برشوشن ونقّح كتباً وافرة ما برح بعضها مكنوزاً الى هذا اليوم في اشهر الخزائن ولا سيما في مكتبة لندن.

٦ - بعض النساخ في الكنائس والاديرة

اقدم ناسخ نصراني عربي عثرنا على كتابةٍ له بخطّهِ « اصطفاني بن حكم المعروف بالرملي في سيق ماري خريطن (٢) ». فانه نسخ بخطه مجلداً يشتمل على تأليفين

(١) الآثار الخطية للاب انطون رباط: صفحة ٣٨٨ و ٣٨٩

(٢) اعني: اسطفانس بن حكيم الرملي في دير مار خريطون منشىء الحياة النسكية في الديار الفلسطينية

لثيودورس ابي قرة(+ ٨٢٠ م) اسقف حرّان الملكيّ . احدهما في عبادة الصور وثانيها في ملخص العقائد النصرانية . وقد انجزهما في كنيسة القيامة ببيت المقدس سنة ١١٨٨ من سنيّ الاسكندر (الموافقة للسنة ٨٧٧ م) . وهذا المخطوط محفوظٌ منذ السنة ١٨٩٥ في المتحف البريطانيّ بلندن (١) .

ومن قدماء النساخ في الكنائس والاديار دويد (داود) العسقلاني الذي كان يكتب على رقّ بالقلم الكوفي . ومن آثاره الباقية الى يومنا كتاب مواعظ نسخهُ في كنيسة القيامة بالقدس سنة ٦٤١٧ للعالم (الموافقة للسنة ٩١٠ م). واشتهر بعده بزمن قليل القس بقطر الدمياطي المترهب بدير سينا . ولم يزل في خزائن هذا الدير مخطوطات جمة نسخها بيده . نذكر منها اناجيل الآحاد والاعياد مكتوبة بالعربية واليونانيـة في حقلَين متقابلَين يرتقي عهد نساختها الى السنـة ٣٨٥ للهجرة (٩٩٥ م) (٢) .

وُعرف في القرن الثالث عشر للمسيح الراهب بيمين الدمشقي الذي لم يتفرّد بحسن الخط العربي فقط بل امتاز بفنّ التصوير ايضاً . ومن مخلّفاته كتاب « العهد العتيق » فانه نسخهُ سنة ١٢٣٦ م ووشّاهُ بصورٍ بديعةٍ (٣) . وكتاب « العهد العتيق » هذا منقول عن النسخة الاصلية المكتوبة في انطاكية سنة ٦٥٣٠ للعالم (١٠٢٢ م) .

وللراهب بيمين الدمشقي بعض مخطوطات نسخها سنة ٦٧٤٥ للعالم (١٢٣٧ م) وهي محفوظة في المتحف البريطاني(Catal. II N° 79) وهو ايضـاً ناسخ تآليف يوحنا الدمشقي المصونة في المكتبة الواتيكانيـة(Mai N° 79) سنـة ٦٧٣١ للعالم

---

(١) المشرق : مجلد ٦ سنة ١٩٠٣ صفحة ١٠١١

(٢) مكتبـة دير سيناء : بقلم يحى عبد المسيح (مجلة الراعي الصالح بالاسكندرية مجلد ١ سنة ١٩٤٠ صفحة ٤٧-٤٩

(٣) المخطوطات العربية لكتبة النصرانية في المكاتب البطرسبرجية : بقلم اغناطيوس كرتشقوفسكي

(١٢٢٣ م (١)) . ويُقرأ في تلك المخطوطات اسم « سابا السبقيّ » مضافاً الى اسم بيمين الدمشقي .

ونسخ الراهب صفرونيوس بن موسى ابن الحاج سليمان الطرابلسي « الرسالة اللاهوتية التاريخية في مذاهب النصارى » في امطوش القيامة المقدسة سنة ١٦٤٢ ميلاديّة (٢) .

٧ ـ مشاهير النساخ النصارى في سالف الازمنة

ممّن عُرف بين نسّاخ النصارى سوى الرهبان رجلٌ يقال له « الازرق » كان يكتب لحنين بن اسحق شيخ تراجمة الاسلام في صدر الخلافة العبّاسيّة . روى ابن ابي اصيبعة انه رأى اشياء كثيرة من كتب جالينوس وغيره بخط الازرق . ورأى بعضها عليه تنكيت بخط حنين بن اسحق وعلى تلك الكتب علامة المأمون (٣) .

ومن مشاهير نسّاخ النصارى ايضاً يحيي بن عدي السريانيّ اليعقوبيّ (٨٩٣ — ٩٧٤ م) كان كثير الكتابة ووُجدتْ بخطه كتبٌ كثيرة . قال ابن النديم البغداديّ في الفهرست : وقد عاتبت يحيي بن عدي على كثرة نسخه . فاجابني : من اي شيء تعجب في هذا الوقت من صبري ؟ قد نسختُ بخطي نسختين من التفسير للطبري وحملتهما الى ملوك الاطراف . وقد كتبتُ من كتب المتكلمين ما لا يُحصى . ولعهدي بنفسي انا اكتب في اليوم والليلة مائة ورقة واقل (٤) . اما ابو الفرج الملطيّ المعروف بابن العبريّ فقد روى عن يحيي بن عدي قوله :

---

(١) المشرق : مجلد ٢٣ سنة ١٩٢٥ صفحة ٦٧٨
(٢) المخطوطات العربية لكتبة النصرانية : بقلم الاب لويس شيخو : صفحة ١٤٨
(٣) طبقات الاطباء : جزء ١ صفحة ١٨٧
(٤) طبقات الاطباء : جزء ١ صفحة ٢٣٥

كان ملازماً للنسخ بيده. كتب كثيراً من الكتب وكان يكتب خطاً قاعدياً بيّناً في اليوم والليلة مائة ورقة واكثر (١) .

واشتهر بعد يحيي بن عدي التكريتي ابو الحسن بن دنحا الطبيب الكاتب . وعظم أمره في ايام بهاء الدولة بن بويه في اواخر القرن العاشر للميلاد (٢) . ونضم الى هؤلاء الطيفوري النصراني الكاتب الذي كان يحسد حنين بن اسحق ووشى به الى الخليفة المتوكل عداوةً وزوراً (٣) . واشتهر ايضاً ابو الفرج جرجس بن يوحنا بن سهل بن ابرهيم اليبرودي (+ ١٠١٠ م) الذي نسخ الشيء الكثير من مؤلفات الطب (٤) . ثم يحيي بن يحيي بن سعيد المسيحي (+ ١١٩٣ م) المشهور بابن ماري مؤلف المقامات الستين . فانه كان كاتباً ماهراً نسخ بيده الشيء الكثير من كتب الادب والطب وغيرها (٥) . وفي السنة ١١٩٥ م توفي صاعد بن هبة الله بن المؤمل ابو الحسن النصرانيّ الحظيريّ المتطبب . وهو اخو الجاثليق المعروف بابن المسيحي كان ينسخ بخطه كتب الحكمة (٦) .

وذكر ابن ابي اصيبعة اسم الكاتب النصرانيّ الشيخ موفق الدين بن البوريّ الذي عاش في ايام صلاح الدين الايوبي . ومن كتّاب النصارى في ذلك العهد ايضاً والد المهذب المعروف بالحطير . وقد أسلم هو واولاده على يد اسد الدين شيركوه بمصر . وما عتم ان صرفه اسد الدين عن ديوانه فقال فيه ابن الذروي (٧) .

لم يُسلم الشيخ الحطيـ ... رُ لرغبةٍ في دين أحمدْ
بل ظنّ انّ مُحالهُ ... يُبقي له الديوان سرمدْ
والان قد صرفوه عنْ ... هُ فدِينهُ فالعود احمدْ

---

(١) تاريخ مختصر الدول : صفحة ٢٩٧
(٢) اخبار العلماء باخبار الحكماء : صفحة ٢٦٣
(٣) تاريخ مختصر الدول : صفحة ٢٥٢
(٤) عيون الانباء في طبقات الاطباء : مجلد ٢ صفحة ١٤٠-١٤٣
(٥) معجم الادباء : جزء ٢ صفحة ٤٠
(٦) تاريخ مختصر الدول : صفحة ٤١٦
(٧) كتاب « القديم والحديث » بقلم محمد كرد علي : صفحة ٣٠٤

وفي القرن الثاني عشر امتاز موفّق الدين ابن المطران (+ ١١٩١) بجودة الخط وكثرة ما نسخه واستنسخه من الكتب فزيّن بها خزانته . وكان يشتغل في ديوانه دون انقطاع ثلاثة نسّاخ يجزل لهم العطاء وينفق عليهم بكل سخاء . قال ابن ابي أصيبعة : كتب ابن المطران بخطه كتباً كثيرة وقد رأيت عدّةً منها . وهي في نهاية حسن الخط والصحة والاعراب... واكثر الكتب التي كانت عنده قد صححها واتقن تحريرها وعليها خطه بذلك (١) . ولا يخفى ان موفق الدين هذا كان طبيباً نصرانياً ثم أسلم.

ونبغ في اوائل القرن الثالث عشر للميلاد سعيد بن ابرهيم بن يوحنا الجوخي المسيحي المتطبب الذي كان ينسخ الكتب لأمين الدولة موفق الملك المفضل ابن ابي غالب ابن الماوَرْديّ المسيحي الموصلي . وكان امين الدولة هذا رئيس الحكماء وعمدة الاطباء في عهده . ومن آثاره الكتابية « المغني في تدبير الامراض ومعرفة العلل والاعراض » نسخه سنة ٦٠٧ للهجرة (١٢١٠ م) وهذا المخطوط محفوظ في الخزانة المعلوفية بزحلة .

وأنجبت مدينة قارة بضواحي دمشق نساخاً عديدين تسلسلوا فيها حقبة بعد حقبة اشهرهم الاسقف مكاريوس (٢) الذي عاش في القرن الخامس عشر. وذكر الاب يوسف نصرالله ان الاسقف المذكور واولاده وحفدته ترجموا كتباً كثيرة الى اللغة العربية . ونسخوا بايديهم كتباً جمة كما تتضح حقيقة ذلك من فهارس مخطوطات برلين وباريس (٣) واوكسفرد وغيرها .

وفي القرن الخامس عشر اشتهر في لبنان عددٌ جمّ من النسّاخ. قال البطريرك اسطفان الدويهي : «أحصينا اسماء من كانوا من النساخ في ذلك العصر ممن وقفنا على كتبهم فاذا هم ينيفون على مائة وعشرة نساخ (٤).

---

(١) عيون الانباء في طبقات الاطباء : جزء ٢ صفحة ١٧٨

(٢) مجلة الآثار الشرقية : السنة الثانية : صفحة ٣٥٦

(٣) Jos. Nasrallah : Manuscrits Melkites, Yabroud, Rome, page 85

(٤) الجامع المفصل في تاريخ الموارنة المؤصل : للمطران يوسف الدبس : عدد ٢ ٤ صفحة ٢٤٧

واشتهر في القرن السادس عشر الاسقف جبرائيل بن استينة الاهدني (+١٥٥٦). فانه لم يكن ينقطع عن نسخ الكتب فكثرت جداً كتبه في كنائس لبنان. ولم يدع كنيسة اجداده مار جرجس باهدن تحتاج الى شيء من الكتب. فكافاه البطريرك موسى العكاري (١٥٢٤ - ١٥٦٧) بترقيته الى الاسقفية (١). وعرفنا في القرن نفسه الخوري يوحنا الزطيمية بترتج الذي ارتحل مع عائلته عام ١٥١٠ الى قبرس في جملة من اللبنانيين. وكان هذا الخوري عالماً فاضلاً نسخ كثيراً من الكتب البيعية . . . وجرت له مباحث دينية مع الروم بقبرس وكانوا يسمونه «كروكليا» لانه كان يعتم بعمامة زرقاء. وخلفه ابناه القس يوسف والشماس الياس واشتهرا بنسخ الكتب البيعية (٢).

وذكرت الصحف في القرن السابع عشر انطون الاهدني الصهيوني تلميذ المدرسة المارونية برومة. فانه نسخ بيده كتباً جمة اخصها: اسفار العهد الجديد. وبعض كتب ارسطو. واربعة كتب فلسفة ترجمها حنين بن اسحق عن اليونانية. وكتاب في الحساب والجبر لمحمد شهاب الدين. ومقالة في الخطوط الهندسية لاحمد بن علي وغيرها (٣).

٨ ـ مشاهير النساخ النصارى في القرون الاخيرة

قام في القرون الاخيرة نساخ كثيرون أغنوا الخزائن الكتابية بما خطته اقلامهم من الاسفار الوافرة العدد. ففي القرن السابع عشر اشتهر «ثلجة» اخو البطريرك الملكي افتيموس كرمة (١٦٣٤ - ١٦٣٥) وكان من كبار النساخين (٤). فانه

---

(١) الجامع المفصل: عدد ٥ صفحة ٣١٦ (٢) الجامع المفصل: عدد ٥ صفحة ٣١٦

(٣) المخطوطات العربية لكتبة النصرانية: صفحة ١٣٦-١٣٧ وتاريخ سوريا للمطران يوسف الدبس: مجلد ٧ صفحة ٣٤٤-٣٤٥ وتاريخ اهدن: تاليف سمعان الخازن: جزء ٢ صفحة ١٤١

(٤) الرسالة المخلصية: مجلد ٧ سنة ١٩٤٠ صفحة ١٠٤ ورحلة من حماة الى حلب: للاب لويس شيخو (المشرق: مجلد ٨ سنة ١٩٠٥ صفحة ٩٣٠)

ما عدا مخطوطاته العديدة في مكتبات الشرق قرأنا اسمه في فهارس مكتبة اوكسفورد والمتحف البريطاني . وجاء بعده البطريرك مكاريوس الثالث (١٦٤٧ – ١٦٧٢) ابن الزعيم وابنه الارخدياقن بولس اللذان مرّ بنا ذكرهما في فصل سابق . فقد احتوت بعض مكتبات الشرق والغرب كثيراً من مخطوطاتهما الانيقة .

وفي سلخ القرن السابع عشر اشتهر رزق الله امين خان مطران حلب (١٦٧٨ – ١٧٠١) . الذي خلف مخطوطات شتى تومىءُ الى سلامة ذوقه في الكتابة وجودة الخط . نذكر منها مخطوطاً في دير الشرفة مزداناً باربعين صورة ملونة (١) نسخه المطران رزق الله عام ١٦٩٠ . وفي مكتبة الدير نفسه مدرجٌ بديع طوله نحو اربعة امتار كتبهُ سنة ١٦٨٥ المطران رزق الله عينه (٢) .

ومن خطاطي النصارى في الحقبة ذاتها بنو عطايا الاطباء بدمشق . وفي دار الكتب الظاهرية كتاب «تذكرة داود البصير» نسخه ميخائيل بن يوحنا عطايا الطبيب سنة ١٠٨٢ للهجرة (١٦٧١ م) في ٨٨٠ صفحة . ومنهم ايضاً بنو صروف وجباره واليازجي والميداني وغيرهم ممن خلفوا مخطوطات بديعة في خزائن مختلفة (٣) .

ومن نوابغ النسّاخ في صدر القرن الثامن عشر غريغوريوس نعمة قدسي مطران دمشق (١٧٣٠ – ١٧٤٥) الذي كان ذا منزلة علميّة بين مشاهير عصره . أحكم فنون الخطابة والشعر والمعاني والبيان والمنطق فبرز في جميعها وصنّف كتباً في بعضها . وتفرّد بجودة الخط فنمّق بيده كتباً جمّة (٤) . ونشاهد آثاره

---

(١) الطرفة في مخطوطات دير الشرفة : صفحة ١٠٠-١٠١

(٢) السلاسل التاريخية في اساقفة الابرشات السريانية : بقلم فيليب دي طرازي : صفحة ٣٤

(٣) محاضرات المجمع العلمي العربي بدمشق : جزء ١ صفحة ٣٠٧-٣٠٨

(٤) السلاسل التاريخية في اساقفة الابرشيات السريانية : بقلم فيليب دي طرازي : صفحة ٢٧١-٢٧٥

الخطيّة النفيسة في بعض مكتبات الشرق والغرب من جملتها مكتبة الشرفة ومكتبة دير المخلص (١) .

واشتهر ايضاً في القرن الثامن عشر ثلاثة كهنة في جبل لبنان هم : سركيس محاسب وعون نجيم الغوسطاويّان وجرجس افرام الباني . وعُرف بمدينة حلب في القرن نفسه نسّاخ عديدون لا يُشقّ لهم غبارٌ في هذه الصناعة . نذكر منهم : مكرديج بن عبد الاحد الكسيح . ويوسف بن جرجس صقّال . وجرجس بن الياس لبّاد . ولا سيما الخوري بطرس الدويهي نزيل حلب . فانه خلّف شيئاً كثيراً من خطوطه القاعديّة البديعة رأينا منها في خزائن دير الشرفة وحدها اثني عشر مجلداً ضخماً حوت ستة آلاف وثمانمائة وعشر صفحات كبيرة الحجم (٢)

ومن مشاهير النسّاخ في تلك الحقبة ايضاً : زخريا بن سليمان الحوّام (٣) والياس بن عبود الفتال الحلبي (٤) . وحنا بن عبد المسيح الانطاكي الحلبي (٥) . وميخائيل بن جرجس شحادة صبّاغ الدمشقيّ (٦) . والشدياق يوسف الذي قضى حياته في النساخة وخلف ما لا يحصى من الكتب بخط يده (٧) .

وفي عهد الامير بشير الثاني الكبير (١٧٨٨ – ١٨٤٠) نبغ ميخائيل القماطي بجودة الخط . فاتخذه امير لبنان المشار اليه خطّاطاً له في قصر بتدّين . واطلَقَ عليه لقب « نقّاش » لتفوّقه بهذا الفن (٨) . ومن ذلك الحين غلبت كنية «نقاش»

---

(١) الطرفة في مخطوطات دير الشرفة : صفحة ٣٤٤ و ٤٣٦ و ٥٠١ الخ.
(٢) الطرفة في مخطوطات دير الشرفة : صفحة ١٢٦ و ٣٢٠
(٣) الذكرى في حياة المطران جرمانوس فرحات : بقلم الاخ بولس مسعد : صفحة ١٠٨
(٤) مكتبة المتحف الاسيوي في لينغراد : مخطوط رقم ٢١ وغيره
(٥) مكتبة المتحف الاسيوي في لينغراد : مخطوط رقم ١٩١ وغيره
(٦) المشرق : مجلد ٢٣ سنة ١٩٢٥ صفحة ٦٧٨-٦٨٠
(٧) محفوظات دير الشرفة : مجلد ٢٣
(٨) جريدة « لسان الحال » بيروت : مجلد ٦٤ عدد ١٣٨١٩

على سلالة ميخائيل القماطي وقام منها ادباء كثيرون : اشهرهم مارون نقّاش منشىء اول رواية تمثيلية مسرحية باللغة العربية (١) .

وفي مطلع القرن التاسع عشر تفرّد عبد الاحد كرجيّ اللبناني بجودة الكتابة ووفرة النساخة . وقد شاهدنا من آثار خطه الجميل ثمانيـــة مخطوطات في الخزانة المعلوفية بزحلة . منها ديوان «صفي الدين الحلّيّ» بحجم كبير واتقان غريب يقع في ٥٣١ صفحة (٢) .

ومن ابرع الكتبة في القرن المذكور : عبّود بك البحري (+ ١٨٤٣) الذي كان رئيس قلم الانشاء في ديوان ولاة الشام ولدى محمد علي باشا الكبير مؤسس الاسرة المالكة في مصر . وقد رثاه المعلّم بطرس كرامة بقصيدةٍ طويلةٍ قال فيها (٣) :

يا للمَنيّةِ قد جازتْ وقد غدَرَتْ	ببدرِ فضلٍ له الآدابُ هالاتُ
مولى اليراعةِ عبدُالله مَن فقدتْ	بفقده وانقضتْ تلك اليراعاتُ
يا طالما سكبتْ اقلامُهُ دُرَراً	تقلّدتْ بلآليها الرسالاتُ
وكم على وجنةِ القرطاس في يدهِ	تفاخرتْ ببديعِ الخطّ لاماتُ
ما لاعبتْ قلماً يوماً انامِلُهُ	الا نَبَتْ مشرفيّاتٌ صقيلاتُ
لمّا اتى الناسَ ناعيهِ بكتْ أسفاً	من اليراعـةِ دالات وميماتْ

ونبغ رزق‌الله حسّون الحلبي (١٨٢٥ - ١٨٨٠) بخطه الجميل ووفرة الكتب التي نسخها . ولا تزال مخطوطاتُه الرائعة محفوظةٌ في مكتبات روسيا وفرنسا وانكلترا (٤) اذ كان يختلف اليها بلا انقطاع . وقد شاهدنا من مخطوطاته طائفـةً كبيرة في المتحف البريطاني بلندن وفي خزانة الدكتور لويس صابونجي باستنبول.

(١) تاريخ الصحافة العربية : جزء ٢ صفحة ١٢٢ وتراجم مشاهير الشرق : جزء ٢ صفحة ٢٠٥

(٢) فهرس مخطوطات الخزانة الملوفية : رقم ١٨٠٧

(٣) الآداب العربية في القرن التاسع عشر : تاليف الاب لويس شيخو : صفحة ٣٣ وسجع الحمامة في ديوان كرامة

(٤) تاريخ الصحافة العربية : تاليف فيليب دي طرازي : جزء ١ صفحة ١٠٩

واتحفنا نحن خزانة دير الشرفة بطرَف من الكتب والرسائل والصحف منمّقة بخطّ يده (١) .

واعظم من برّز بجودة الخط ووفرة النسخ معاً العلاّمة الكبير الشيخ ناصيف اليازجي (١٨٠٠ - ١٨٧١) اللبناني . فانه كتب ونسخ ما لم ينسخه احد من معاصريه . وذهب بعضهم الى انه لو جُمع ما نسخه اليازجيّ بخط يده في حياته لما قلّ عن محمول جملَين (٢) .

وممّن يجدر ذكره بين النسّاخ كيرلس الخامس بطريرك الاقباط (١٨٧٥ - ١٩٢٧) في مصر . فانه ترهب في دير والدة الله المعروف بدير السيدة بوادي النطرون وفيه تلقى العلوم في اواسط القرن التاسع عشر (٣) . وهناك أكبّ على النساخة فنمق بخطه الجميل طائفةً معتبرة من الكتب الدينية والقوانين الكنسية والمقالات العلميـة ومواعظ يوحنا فم الذهب وغيرها . وقد جاءَت تلك المخطوطات آيةً في الظرافة والضبط لانه اعتنى بها اعتناءً فائقاً (٤) .

وُعرف في اواسط القرن التاسع عشر الشيخ حبيب عوّاد من حصرون . كان خطّاطاً مشهوراً في عصره يُجيد الخطين العربي والسرياني كما تدل عليه آثاره الخطيّة الرائعة . وقد خلّف منها الشيء الوافر في كنائس حصرون وفي بعض كنائس شمال لبنان وفي خزانة سليم طربيه من بسبعل (٥) .

وأنشط من عرفناه من نسّاخ القرن العشرين الخورفسقفوس اسحق ارملة السرياني الذي جمع الى سرعة النسخ اتقان الخط وامانة النقل . وهو يجيد الكتابة باليد اليسرى اجادته باليد اليمنى . ونشاهد آثاره الخطيـة في اغلب خزائن الشرق وبعض خزائن أوروبا واميركا . ولسنا نبالغ اذا قلنا انه لو حُصرت تلك الآثار القلمية في مكان واحد لتألفت منها خزانة مخطوطات معتبرة . وفي شتاء السنة ١٩٠٩

---

(١) خطوط مشاهير الشرق : جمع فيليب دي طرازي : جزء ١

(٢) تاريخ الصحافة العربية : جز ١ صفحة ٨٨

(٣) بحث تاريخي عن السريان في القطر المصري : بقلم الخوري اسحق ارملة : صفحة ٧ و٤

(٤) مرآة العصر في تاريخ ورسوم اكابر رجال مصر : بقلم الياس زخورا

(٥) المشرق : مجلد ٣٣ سنة ١٩٣٥ صفحة ٩٣-٩٤

سافر الخوري اسحق الى القسطنطينية بخدمة البطريرك العلامة اغناطيوس افرام رحماني فنسخ له بعض مخطوطات ثمينة ونادرة من خزائن سراي «طوب قبو».
وكان ذلك من اصعب الامور لان الدخول الى تلك الخزائن لم يكن مباحاً الا بارادة سلطانية. وكان فيها من المخطوطات ما لم تنظره عين ولا سمعت به اذن ولا خطر على قلب بشر (١).

وممن اشتهر بحسن الخط في العصر الحالي واجاده او تفوق فيه على خطّاطي العصور الغابرة نذكر ثلاثة خطاطين هم: علاّم علاّم الذي ذاعت دفاتر خطه في جميع مدارس الشرق. وابرهيم بن فارس يزبك نشر بخطه قانون الايمان مكتوباً باربعة عشر شكلاً من الخطوط العربية البديعة في طليعتها الخط الكوفيّ. وثالثهم نجيب بك هواويني خطاط ملك مصر وله آثار رائعة في هذه الصناعة (٢).

٩ - شهيرات الخطاطات النصرانيات

مثلما سجّلنا اسماءَ فريق من الخطاطين اشتهروا بجودة خطوطهم يجمل بنا ان نسجّل ايضاً اسماء فئة من السيدات أحكمن صناعة الخط العربية. وقد شاهدنا لهنّ آثاراً جمة تدعو الى الاعجاب ببراعتهنّ في هذا الفنّ. نذكر منهنّ اربع كاتبات عشن بحلب في اواخر القرن الثامن عشر وهنّ: مادلينا بنت اليان ومريم التائبة وسوسان بدوانية ومادلينا جروة شقيقة البطريرك اغناطيوس ميخائيل الثالث (٣).
وأنجب خطاطة عرفناها في عصرنا السيدة لبيبة هاشم اللبنانية وقد تلقنت الخط عن الشيخ ابرهيم اليازجيّ ونجيب بك الهواويني. وهي المنشئة والمربية والصحافية.
وعندما عُقد معرض الخطوط الدولي عام ١٩١٢ في لندن لفت خطها الرائع ابصار الزائرين من جميع الطبقات.

---

(١) تابين احمد زكي باشا المصري للبطريرك رحماني (مجلة الآثار الشرقية: مجلد ٤ سنة ١٩٢٩ صفحة ٧١-٧٢)
(٢) المشرق: مجلد ٢٦ سنة ١٩٢٨ صفحة ٩٤٠-٩٤٢
(٣) مخطوطات دير الشرفة: جزء ١٧ و ٢٣

الفصل الثامن

الضبط والاتقان في نساخة الكتب

١ - مزايا اهل الضبط والاتقان في النساخة

من القواعد الاساسية التي يعتمد عليها في الكتابة والنساخة حسن الخط وامانة النقل واتقان التقييد. فيُطلب من كل كاتب وناسخ ان يكون ضابطاً ثقة وحريصاً على اللغة ليأتي عمله صحيحاً كاملاً . وقد كان لكل خزانة كتب في سالف الزمان جماعة من النحويين واللغويين المشهورين بالضبط والتدقيق لا يتعاطون الا مراجعة المخطوطات وشكلها وتصحيحها وتنقيحها . وكانت مهمتهم تتناول خصوصاً مقابلة تلك الكتب على نسخ كتبها المؤلف بيده او وافق على صحتها بخطه او اجازها احد كبار العلماء بخاتمه ازالةً لكل شبهة والتباس .

والحكمة في ما سبق بيانه ان تكون جميع النسخ من الكتاب الواحد متشابهة متوافقة على حذوٍ واحدٍ طبقاً للنص الاصلي الذي وضعه المؤلف نفسه . لان النساخ اذا لم يكونوا من اهل الضبط والامانة في النقل أساؤا الى العلم فمسخوا الكتب وشوّهوها وحطّوا من قدر مصنّفيها.

٢ - مشاهير اهل الضبط والاتقان في النساخة

في تواريخ العرب اسماء طائفة معتبرة من اهل الاتقان والضبط نقتصر على ذكر بعضهم في ما يلي :

فمن ضباط القرن الرابع للهجرة ابو الحسن الجنديسابوري المتوفى سنة ٣٠٤ للهجرة . روى عنه الدارقطني انه كان ثقة مأموناً ما رأى اصح من كتبه (١) . وابو بكر العطار (٢٦٥ – ٣٥٥ ﻫ) كان ثقة اعرف الناس بالقراآت واحفظهم لنحو الكوفيين . قال عنه الداني الاصبهاني «عالم بالعربية حافظ للغة حسن التصنيف مشهور بالضبط والاتقان» . ومحمد ابو بكر اللوذري المتوفى سنة ٣٦٠ للهجرة . قال الداني ايضاً : «سكن اللوذري مصر وكان ضابطاً مشهوراً وثقة مأموناً» .

ومن اهل الضبط في القرن السادس ابو بكر الاموي المتوفي الاشبيلي (٥٠٢ – ٥٧٥ ﻫ) وصفه ابن الزبير بقوله : هو احد المقرئين المحدثين المشهورين بحسن الضبط واتقان التقييد مع معرفته بالعربية واللغة والادب والغريب . واسمعيل الجواليقي (٥١٢ – ٥٧٥ ﻫ) ذكره ياقوت بقوله : كان امام اهل الادب بعد ابيه منصور بالعراق واختص بتأدب اولاد الخلفاء . وكان له معرفة حسنة باللغة مليح الخط جيد الضبط (٢) .

واذا انتقلنا الى القرن السابع رأينا ابا الحسن اللازدي الغرناطي (٥٥٩ – ٦٣٩ ﻫ) لا يقل براعة ودقة عمن تقدمه . قال ابن عبد الملك : كان ابو الحسن من اعيان مصره وافاضل عصره تفنناً في العلوم وبراعةً في المنثور والمنظوم . وكان ضابطاً عدلا ثقة ثبتاً (٣) . وورد عن ابي بكر بن ابي الدودس انه كان من ابدع الناس خطاً واصحّهم نقلاً وضبطاً . اشتهر بالاقراء واقتصر بذلك على الامراء ولم يخطّ لسواهم (٤) . اما ابو الربيع سليمان بن موسى الكلاعي البلنسي (٥٦٥ – ٦٣٤ ﻫ) فكان يتكلم عن الملوك في زمانه بالمجالس ويعبّر عنهم بما يريدون في المحافل على المنابر . وكان خطه لا نظير له في الاتقان والضبط (٥) .

---

(١) تذكرة الحفاظ : جزء ٣ صفحة ٤٤

(٢) بغية الوعاة : صفحة ١٩٩

(٣) بغية الوعاة : صفحة ٢٦٤

(٤) نفح الطيب : جزء ٢ صفحة ٣٥٩

(٥) تذكرة الحفاظ : جزء ٤ صفحة ٢٠٢-٢٠٣

ولا يقلّ شهرة عمن سبق ذكرهم عبد الرحمن بن محمد الجزائري . فقد امتاز ببراعة الخط وحسن الضبط امتيازاً اهّله ان يُنظَم في سلك جهابذة الخطاطين في القرن السابع . وحلّت وفاته سنة ٦٢٩ للهجرة (١) .

وُعرف في القرن الثامن للهجرة بين اهل الضبط في النساخة ابو عبدالله المذحجي الملتاسي (٦٨٨ - ٧٣٤ ﻫ) قال عنه صاحب تاريخ غرناطة : « كان كاتباً بليغاً عارفاً بالقراآت بصيراً بالعربية ثقة ضابطاً حريصاً على العلم ... كثير العناية بالكتب » . ومثله محمد ابو الغنائم اللغوي الذي وصفه ياقوت بقوله : « جيد الضبط صحيح الخط معتمد عليه معتَبر » (٢) .

ومن اهل الضبط في القرن الحادي عشر للهجرة محمد الاحسائي المكي الشاعر المشهور. ذكر علي بن معصوم وقال في وصفه : « هو من ابدع الناس خطاً واتقنهم للكتب نقلاً وضبطاً كتب ما ينوف على الالوف (٣) » . وكتب عبد اللطيف المحبي (٩٦٦ - ١٠٢٣ ﻫ) كتباً كثيرة بخطه واعتنى بضبطها . وأحصي بين ممتلكاته التي وقفها في آخر حياته ما يقارب مائة وخمسين مجلدا معظمها بخطه وجميعها مصحح بقلمه (٤) . وكان ابن الكيال الدمشقي احد الافراد في جودة الخط وحسن الضبط وكان خطه في عهده اغلى من الجوهر. كتب انواع الاقلام على اختلافها وهو في كل منها محسن مجيد واستاذ وحيد . ونسخ كتباً كثيرة تغالى الناس في اثمانها وانتهى اليه الظرف في حسن التناسق. وجمع من خطوط اساتذة الكتاب من العجم والروم ما لم يجمعه غيره وحلت وفاته عام ١٠٢٧ للهجرة (٥) .

---

(١) تعريف الخلف برجال السلف : جزء ٢ صفحة ١٩٨

(٢) بغية الوعاة : صفحة ١٥

(٣) خلاصة الاثر : جزء ٣ صفحة ٤٦٠

(٤) خلاصة الاثر : جزء ٣ صفحة ١٩

(٥) خلاصة الاثر : جزء ٣ صفحة ٤٠٢

الفصل التاسع

التنافس في تأليف الكتب والاستكثار من نسخها

١ - تشويق الخلفاء والملوك الى التبسط في العلوم

لما اشتد ساعد العرب وقويت شوكتهم بعد احتلالهم اخصب الامصار الخاضعة لصولجان القياصرة وعرش الاكاسرة انصرفوا الى العلم ونشروا ألويته في طول البلاد وعرضها . واذا ألقينا نظرة عامة على سير المعارف بعد الفتح الاسلامي لمحنا حركة فكرية لم يألفها العرب قبل ذلك التاريخ . فانهم بعد ما كانوا في حال الخمول والجمود والشقاء ايام بداوتهم اصبحوا متوغلين في التّرف ورغد العيش وانشأوا حضارة خاصة بهم . وقد ساعدهم على ذلك اندماجهم في شعوب عريقة في العمران والثقافة كالروم والفرس والسريان والاقباط . فأخذوا عن هؤلاء جميع ما كانوا محتاجين اليه من العلوم والفنون والصنائع وتلقنّوها منهم واتقنوها وصنفوا الكتب الوافرة فيها .

ويعود الفضل في هذه النهضة الفكرية الى الخلفاء والملوك الذين مهّدوا للعرب سبل تحصيل المعارف . فانشأوا بيوت الحكمة وخزائن الكتب ودواوين الترجمة ودور الصناعة والمراصد الفلكية والمدارس والبيمارستانات الخ . وقد اسهبنا الكلام في الفصول السابقة عن جهود اولئك الملوك والخلفاء في تثقيف العرب وتهذيبهم ورفع مستواهم الاجتماعي . وكانوا يقرّبون التراجمة مسلمين ومسيحيين واسرائيليين وينتقونهم من العلماء والشعراء والاطباء والفلاسفة . وينشطونهم ويجزلون لهم الأعطيات ويرقّونهم الى اعلى المناصب .

ذلك كله كان اكبر مشوّق للعرب الى التبسّط في العلوم والتنافس في تصنيف الكتب على تنوع موادّها واختلاف مواضيعها . فكانوا يتبارون في مضمار التأليف حتى انهم ما تركوا باباً من ابواب المعارف العقلية والنقلية الا طرقوه ووضعوا فيه مصنفات مفيدة دلّت على نبوغهم وعبقريتهم .

٢ - استكثار المسلمين نسخ الكتب

وكانت تلك المؤلفات تُنسَخ وتَستنسَخ بكثرة عظيمة سداً لحاجة اهل العلم وإشباعاً لشهوة الاغنياء في جمع الكتب (١) . وانفق الخلفاء اموالاً طائلةً في الاستكثار من الكتب وتعدّدُ نسخها. فكان سرورهم يزداد بازدياد عدد النسخ من الكتاب الواحد . بل كان يتضاعف ارتياحهم الى اقتناء غيرها وغيرها ولئن اجتمع لديهم منها اكثر من مائة نسخة وان شئت فقل اكثر من الف نسخة .

واثباتاً لذلك فان الخليفة الفاطمي العزيز بالله (٣٦٥ - ٣٨٦ هـ) حوى في خزانته ثلاثين نسخة ونيفاً من كتاب «العين» للخليل بن احمد منها نسخة بخطّ الخليل نفسه. وذُكر يوماً امام هذا الخليفة «كتاب الجمهرة» لابن دُرَيد فاخرج منه مائة نسخة كانت محفوظة في خزانته (٢) . وحمل اليه رجلٌ نسخة من تاريخ الطبريّ فاشتراها بمائة دينار . ثم أمر خُزّانه فاخرجوا من خزانته ما يُنيف على عشرين نسخة من ذلك التاريخ احداها منسوخة بخط الطبريّ نفسه.

واستمر عدد النسخ المكررة يزيد بتوالي الازمنة في خزانة كتب الفاطميين الى حين انقراض دولتهم سنة ٥٦٧ للهجرة . وكانت تشتمل حين ذاك على الف ومائتي نسخة من تاريخ الطبري وعلى الفين واربعمائة ختمة قرآن في ربعات بخطوط

---

(١) دائرة معارف القرن العشرين : مجلد ٨ صفحة ٦٥

(٢) خطط المقريزي : جزء ٢ صفحة ٢٥٣-٢٥٥

منسوبة رائعة الحسن محلاة بذهب وفضة (١) . ذلك ما عدا نسخاً مكررة من سائر الكتب التي كانت تتداولها ايدي المطالعين في مختلف مواضيع العلوم .

ولم يكن العباسيون في بغداد والامويون في الاندلس والموحدون وبنو مرين في مراكش وبنو حمدان في حلب وبنو عمار في طرابلس وغيرهم اقل عناية بالاستكثار من النسخ لكتاب واحد . لان التهافت على التقاف العلم من كل صوب وناحية حملهم على الاستزادة من عدد النسخ تحقيقاً لاماني الطلاب وخدمة لاهل البحث . ومما يجدر بالذكر ان خزائن كتب جامع اصفهان احتوت على خمسمائة مصحف من المصاحف البديعة الخطوط المدبجة بالفضة والذهب . وروى سبط ابن الجوزي في تاريخه «مرآة الزمان» ان تلك المصاحف الثمينة التهمتها النيران حين احتراق الجامع المشار اليه سنة ٥١٥ للهجرة . واحتوت مكتبة ابي نصر سابور بن اردشير في بغداد على مائة مصحف بخط ابن مقلة (٢) .

وكان ابو عمرو الشيباني راوية واسع العلم باللغة ثقة بالحديث وقد جمع دواوين اشعار القبائل العربية وعنه أخذت . وذكر احد اولاده ان اباه جمع اشعاراً اكثر من ثمانين قبيلة . وكان كلما جمع اشعار قبيلة واخرجها للناس كتب مصحفاً وجعله في مسجد الكوفة . وحلت وفاته سنة ٢٠٦ للهجرة متجاوزاً المائة سنة (٣) .

وممن امتاز بجودة الخط وكثرة النسخ والضبط والاتقان ابوالحسن علي بن عبدالله بن ابي هاشم المعري . فانه لزم الشيخ ابا العلاء المعري (٣٦٣ - ٤٤٩ هـ) ونسخ له كتبه باسرها . وكتب من كل منها نسخاً عديدة (٤) .

ويروى عن الامير ابي علي حسام الدين المتوفى سنة ٦٥٨ للهجرة أنه وقف

---

(١) خطط المقريزي : جزء ٢ صفحة ٢٥٤-٢٥٥
(٢) المجلة الزيتونية في تونس : مجلد ١ سنة ١٩٣٦ صفحة ٧٢
(٣) ابن خلكان : جزء ١ صفحة ٦٥
(٤) اعلام النبلاء بتاريخ حلب الشهباء : جزء ٤ صفحة ١١١

كتباً نفيسة من كل فن على المدرسة الشرفية الشافعيـة بحلب .وكان بينها من كتاب «التنبيه» وحده اربعون نسخة (١).

ومن البراهين الصادقـــة على تعدد النسخ انه كان يجتمع في مجلس واحد من مجالس الحفّاظ ازيد من عشرة الاف محبرة يكتبون الآثار النبوية ويعتنون بتنميقها . بينهم نحو من مائتي إمام برّزوا وتأهلوا للفتيا (٢) .

وكان غلاة الكتب ينهجون هذا النهج في تجهيز خزائنهم الخاصة بنسخٍ مكررة للكتاب الواحد . ولنا على ذلك ادّلة جمة رواها فريق من المؤرخين في الازمنة الغابرة . منها ان ابا الغيث المعروف بالقشاش المغربي التونسي (٩٨١ - ١٠٣١ ﻫ) كان يميل الى اقتناء نسخٍ متعددة من كتاب «الجامع الصحيح» للامام البخاري . واعتاد ان لا يقبل من احد هدية الا اذا كانت الهدية نسخة من الكتاب المذكور . فكان يتقبّلها بترحاب ويقابل مهديها بضروب الاحسان . وقد جمع ابو الغيث من نفائس الكتب ولا سيا المكررة منها ما لا يُعَد ولا يُحصى . وَحسْبُنا القول ان خزانته اشتملت بعد وفاته على الف نسخة من كتاب البخاري المذكور . وقس على ذلك كتباً اخرى (٣).

واحتوت خزانة شرف الدين زكريا الانصاري السنيكي (١٠٣٠ - ١٠٩٢ ﻫ) ثمانية وعشرين شرحاً على «البخاري» وثماني عشرة نسخة من «طبقات السبكي الكبرى» واربعين تفسيراً (٤) وغير ذلك.

٣ - استكثار النصارى نسخ الكتب

وكان النصارى كالمسلمين يكثرون من كتابة نسخ مكررة للكتاب الواحد

---

(١) اعلام النبلاء بتاريخ حلب الشهباء : جزء ٤ صفحة ٤٦٠
(٢) تذكرة الحفاظ : جزء ٢ صفحة ١٠١
(٣) خلاصة الاثر : مجلد ١ صفحة ١٤٠-١٤٢
(٤) خلاصة الاثر : جزء ٢ صفحة ٢٢٢-٢٢٣

ويحفظونها في خزائنهم . ويحكى عن ثئودوريط اسقف قورش (٤٢٠- ٤٥٨ م) انه احرق مائتي نسخة بنيف من كتاب «العهد الجديد» المسمى «ذياطسرون» واحتذى به ربولا اسقف الرها (+ ٤٣٥ م) (١) .

وفي اواخر القرن العاشر للميلاد اشتهر في دير قرتمين بطور عبدين راهب اسمه عمانوئيل تفرّد باتقان الخط وزخرفة حروفه . فكتب على رق الغزال سبعين مجلداً من كتاب «العهد الجديد» وغيرها ثم وقفها للدير المذكور (٢) .

واشتملت مكتبة دير الزعفران المجاور لماردين على نسخ متعددة من اسفار «العهد الجديد» مكتوبة بيد اشهر الخطاطين . وروى السمعاني ان يوحنا اسقف ماردين (+ ١١٦٦ م) كتب اربع نسخ كاملة من كتاب «العهد الجديد» بحروف ذهبية وفضية وحبسها على مكتبة دير الزعفران المذكور (٣) .

وفي مكتبة دير الشرفة بلبنان لهذا العهد مخطوطات شتى متعددة النسخ اتى على وصفها البحاثة الخورفسقفوس اسحق ارملة في كتابه «الطرفة في مخطوطات دير الشرفة» نذكر منها على سبيل المثال : تسعة وثلاثين مخطوطاً من كتاب «العهد القديم» وستة وثلاثين مخطوطاً من كتاب «العهد الجديد» واحدى وعشرين نسخة من كتاب «العلم اللاهوتي» للمعلم يوحنا كلوديوس واثنتي عشرة نسخة من «الصحيفة العبقرية في الاصول المنطقية» وخمس نسخ من «الايساغوجي» للتولاوي الى غير ذلك من مخطوطات في المعاني والبيان والاصول النحوية .

والخلاصة ان المكتبات العربية شرقاً وغرباً حوت نسخاً متعددة من المخطوط الواحد تزاحم روّاد البحث على اقتنائها لاجل درسها ومقابلتها والمقارنة بين غثّها وسمينها . فاقتصرنا من ذلك كله على ما رويناه وبه الكفاية .

---

(١) Rubens Duval : Littérature Syriaque, P. 41

(٢) المؤرخ الرهاوي ٥٢ : ١١٣

(٣) المكتبة الشرقية : للسمعاني : مجلد ٢ صفحة ٢١٦-٢٢٦

الفصل العاشر

صناعة التجليد عند العرب

١ – اتقان العرب تجليد الكتب وتذهيبها وصنع قماطرها

لم يكن المجلّدون اقلّ اتقاناً وتفنّناً في صناعتهم من الخطّاطين والورّاقين واهل الضبط. بل كانوا يتفاخرون بحسن تجليد المخطوطات وتلوينها وتذهيبها باساليب مدهشة. ومن مشاهير المذهّبين: اليقطيني وابرهيم الصغير وابو موسى بن عمار وابن السفطيّ ومحمد وابن محمد ابو عبد الله الخزيميّ وابنه (١). وقد اصطنع هؤلاء لكل كتابٍ قمطراً خاصاً من جلد نفيس مجوّد الدبغ مزيّن بالنقوش. وكان بعضهم يصطنع قماطر المخطوطات من حريرٍ موشّىً او خشبٍ ثمينٍ مرصّع بالدرر (٢) وقايةً لها من الغبار والعث والتلف لانها نادرة قليلة وفيها ثمرات العقول. والنادر تشدّ عليه يد الضنانة كي لا يناله سوء من عوادي الايام. وبهذه الوسيلة كانت تُصان المخطوطات كانها بعض المقدسات. او كأنَّ الناس كانوا يتعبّدونها بحفظها وتجليدها وخدمتها واماطة الاذى عنها.

وكانت الكتب قبل اختراع القماطر تُلفّ في مناديل. واوّل من استعمل القمطر لحفظ المخطوطات محمد بن مسروق قاضي مصر. فكان اذا جلس للقضاء أحضر القمطر معه (٣).

---

(١) الفهرست لابن النديم: المطبعة الرحمانية بمصر: صفحة ١٤

(٢) نحيل القارئ الى وصف مجموعة المخطوطات المرصعة بالدرر والجواهر في ترجمة سنان باشا وقد اثبتناها في باب «غلاة الكتب وهواة المكاتب».

(٣) خزانة كتب جامعة ليدن في هولندا: المخطوط العربي: رقم ١٣٦٦ صفحة ١٢١-١٢٢

وكان القوم يتنافسون في تجويد صناعة تجليد الكتب تنافس غيرهم من سائر الامم في فنّ التصوير واتقانه . ذلك ان العرب قلّ ما انصرفوا الى فنّ التصوير لان الشرع الاسلامي حرّمه ونهى عنه . فأصبح لديهم مكروهاً او على الاقلّ غير مستحبّ . وقد اعتاضوا عن التصوير برسم اشكال طريفة وعلامات ظريفة ينمّقون بها كتبهم ويوشّون قماطرها . ولم يشذّ عن هذه القاعدة الا الخلفاء الفاطميون «٣٥٧ – ٥٦٧ هـ) في مصر .

٢ ـ مشاهير المجلدين

اول من اشتهر بصناعة التجليد في « بيت الحكمة » ببغداد كان ابن ابي الحريش في عهدَي هرون الرشيد وابنه المأمون (١). ويروى عن موفق الدين ابي طاهر انه كان يملك في « ساوة » مكتبة عامرة نادرة . وكان يتفاخر باتقان كتبها واجادة تجليدها والتفنن بالوانها . فكان كل صف من الكتب يختلف لونه عن لون الصف الاخر . فصّف احمر وصف اخضر وصف اصفر وصف اسود وهلمّ جرّاً .

وقرأنا في كتاب « معجم البلدان » لياقوت الحموي اسماء بعض من اشتهروا بتجليد الكتب في سالف الازمنة . نذكر منهم ابا بكر محمد الزاغوني الذي كان استاذاً حاذقاً ولاقى منيّته عام ٥٥١ للهجرة (٢) .

وممن ضربت الامثال بهم في حسن تجليد الكتب محمد بن ابرهيم الكتبي المتوفى سنة ٨٥٢ للهجرة . وقد بلغ الاسى اشده عند اهالي حلب يوم فقدوه لانه لم يقم بينهم مثله في اتقانه تلك الصناعة وتجويدها (٣) .

---

(١) الفهرست : صفحة ١٠

(٢) معجم البلدان : جزء ٤ صفحة ٣٦٨

(٣) اعلام النبلاء بتاريخ حلب الشهباء : جزء ٥ صفحة ٢٤٨

وفي السنة ٩٣٦ للهجرة توفي في حلب ايضاً مظفّر الكتبي وكان من عادته ان يلفّ رأسه بمئزر . وقيل له الكتبي لانه كان يجلد الكتب عند باب الجامع الكبير . وكانت له خبرة تامة خصوصاً بترميم المصاحف الرثّة (١) .

ومن مشاهير المجلدين في القرون المتأخرة عبدالله الاهدل وكان سيداً كامل المعرفة بالعلوم . ذكره ابو بكر بن ابي القاسم في « نفحة المندل » فقال : له همّة عليّة في تحصيل فنون العلم وخطه في نهاية الحسن وكذا تجليده الكتب . ويحسن غير ذلك من الصناعات كالصباغة لجودة فهمه وحدة ذكائه . وكانت وفاته في العشر الاربعين بعد الالف للهجرة (٢) .

وكان يحيي بن بعث من ارباب الظرف واللباقة يتعاطى صناعة الحبر الجيّد وتجليد الكتب ومات سنة ١١٠٧ للهجرة (١٦٩٥ م) (٣) . ومنهم الشيخ عبد القادر التغلبيّ الدمشقيّ الذي كان يرتزق من عمل يده في تجليد الكتب ومات سنة ١١١٥ للهجرة (١٧٢٢ م) (٤) .

وفي السنة ١٢٠٢ للهجرة (١٧٨٧ م) توفيّ بالقاهرة الشيخ مصطفى بن جاد الذي اشتهر بتجليد الكتب وتذهيبها . ومارس هذه الصناعة عند استاذه احمد الدسوقيّ ثم فاقه ورجح عليه . ومهر بالتذهيبات ولا سيما النقوش بالذهب المحلول والفضة والأصباغ الملوّنة والجداول والطوابع والرسم وغير ذلك . وقد تفرّد الشيخ مصطفى بهذه المهنة الدقيقة بعد وفاة كبار المجلدين كأحمد الدسوقيّ استاذه وعثمان بن عبدالله عتيق ومحمد الشناويّ الخ (٥) .

وقد وقفنا على اسماء فريق من النصارى اعتنوا بتجليد الكتب في العصور

---

(١) اعلام النبلاء بتاريخ حلب الشهباء : جزء ٥ صفحة ٤٧٨
(٢) خلاصة الاثر : جزء ٣ صفحة ٣٦-٣٧
(٣) سلك الدرر في اعيان القرن الثاني عشر للمرادي : جزء ٤ صفحة ٢٣١
(٤) سلك الدرر للمرادي : جزء ٣ صفحة ٥٩
(٥) عجائب الآثار في التراجم والاخبار : للجبرتي : جزء ٢ صفحة ١٨٠

الغابرة نذكرهم تتمة للموضوع وهم : الخوري يحنا بن جرجس ويُعرَف بابن الطبلة سنة ١٥٥١ للميلاد (١) . والراهب ملاتيوس سنة ١٦٦٣ (٢) . وتوما المارديني احد رهبان دير السيدة في وادي النطرون بمصر سنة ١٦٦٤ (٣) . ويوحنا بن الخوري كتّاب خادم كنيسة دمشق سنة ١٦٧٣ والخوري ابرهيم سمورو! سنة ١٧٠٥ وميخائيل مراد سنة ١٧١٠ وجبرائيل ابن الخوري شلش والقسيس سمعان ابن الخوري موسى من دير مياس سنة ١٧٤٥ (٤) .

وورد عن فريق من احبار النصارى انهم جلدوا كتباً اثبتوا فيها اسماءهم . نذكر منهم ميخائيل السادس بطريرك الملكيين (١٥٣٤ – ١٥٤٣) المعروف بابن الصبّاغ . فقد قرأنا في مخطوط المتحف البريطاني بلندن ما نصه : «عرم هذا الكتاب . . . ميخائيل البطريرك الانطاكيّ في ١٠ تشرين الثاني (٥)» .

٣ ـ اسواق المجلدين

عدد ابن المبرّد الدمشقي المتوفى سنة ٩٠٩ للهجرة «١٥٠٣ م» صنّاع دمشق وباعتها في عصره (٦). ولما اتى على ذكر الورّاقين ومجلدي الكتب المع الى الحسبة عليهم في التقوى والجودة والاتقان وعدم الغش وعدم السفتجة (٧) . وقد حصر

---

(١) خبايا الزوايا من تاريخ صيدنايا : تاليف حبيب زيات : صفحة ٢٤٩-٢٥٠
(٢) خبايا الزوايا : صفحة ٢٦٤
(٣) بحث تاريخي عن السريان في القطر المصري : تاليف الخوري اسحق ارملة : صفحة ٥٠
(٤) خبايا الزوايا : صفحة ٢٥٤-٢٦٦
(٥) فهرس مخطوطات لندن : رقم ٤١٨
(٦) كتاب «الحسبة» لجمال الدين يوسف بن حسن بن عبد الهادي الصالحي الدمشقي المشهور بابن المبرد كما ذكرنا في المتن . وهو في سبع ورقات ضمت الى مخطوط بقلم المؤلف محفوظ في الخزانة الظاهرية بدمشق .
(٧) المراد بالسفتجة حشو التجليد بالسفاتج والاوراق .

ابن المبرّد اصحاب مهنة تجليد الكتب في سوق خاص بهم سماه « سوق المجلدين للكتب » عند باب البريد بدمشق (١) .

ومما يجدر بالذكر ان كبار المجلدين اعتادوا منذ العصور الغابرة ان ينقشوا اسماءهم على اغشية المخطوطات او السنة جلودها وكانوا يفعلون ذلك تباهياً باتقان حرفتهم وتخليداً لذكرهم . وفي دار الكتب المصرية طائفة ثمينة من جلود الكتب يُستنتَج منها كيف تدرّج فنّ التجليد في مختلف العصور السالفة (٢) .

وخلّف مؤلفو العرب كتباً في صناعة التجليد من اهمها مخطوط عنوانه « نظم تدبير التسفير » اقتناه احمد تيمور وضمه الى خزانته التيمورية بالقاهرة (٣).

٤ ـ نقل صناعة التجليد العربية الى اوروبا

لا ريب ان الحروب الصليبية كانت مثل ما كانت الاندلس وجزيرة صقلّية وسيلة الى خلق علاقات بين المسيحيين والمسلمين او العرب والافرنج . وكان من النتائج العملية انتشار التجارة وتبادل المنافع بين شعوب الشرق وجمهوريات البندقية وجنوا وبيزا . هكذا تيسر نقل بعض الفنون والصناعات العربية الى اوروبا مما نضرب صفحاً عن ذكره اذ هو خارج عن موضوع بحثنا . انما نحصر الكلام في صناعة التجليد التي شاعت هناك على يد بعض المجلدين العرب الذين انتزحوا الى مدينة البندقية في القرون الوسطى . وعلّموا البنادقة «اي سكان البندقية» اختراعات المسلمين وفنونهم . ومعروف ان البنادقة قد قلدوا صناعة التجليد الاسلامية في القرنين الخامس عشر والسادس عشر . ثم نقلوا بعض اساليبها فنقلها

---

(١) المشرق : مجلد ٣٧ سنة ١٩٣٩ صفحة ١٨-٢٨

(٢) نبذة وجيزة عن دار الكتب المصرية لسنة ١٩٣٩ صفحة ٢٧

(٣) محاضرات المجمع العلمي العربي بدمشق : جزء ١ صفحة ٣٠٦

عنهم غيرهم من صنّاع الغرب . فلا عجب ان وجدنا حتى الآن في بعض صناعات التجليد الاوروبية اثراً من الصناعة العربية وزخارفها (١) .

٥ ـ تأثير الفنّ القبطيّ في فنّ التجليد الاسلامي

ونختتم هذا الفصل بما دوّنه الدكتور محمد حسن امين دار الآثار العربية بالقاهرة عن بعض التأثيرات القبطية في الفنون الاسلامية قال (٢) :

« ان صناعة تجليد المخطوطات بالجلود ذات الزخارف المضغوطة او البارزة فن مصري الاصل . وقد نسبْ الجاحظ الفضل في تعريف العرب بالمصاحف او الكتب المجلدة الى الحبشْ. ونحن نعرف العلاقة بين الحبش والقبط في الديانة ، وكل ما يتعلق بالانجيل والفنون المسيحية الشرقية .

« وقد كانت زخرفة الجلد واستخدامه في تغليف المخطوطات صناعة زاهرة في الفن القبطي . وعني بها الرهبان في الاديرة عنايتهم بنسخ الانجيل والكتب الدينية .

« ونقل المسلمون عن المسيحيين العناية بتجليد القرآن بالجلود الفاخرة على نسق الانجيل والكتب الدينية المسيحية . وكانت صناعة التجليد القبطية النواة التي تطورت منها صناعة التجليد في الاسلام وازدهرت ، حتى بلغت في العصور الوسطى غاية الجمال والاتقان ، وقلّدها الغربيون فيما أخذوه عن الفنون الاسلامية

« ومما ورثته صناعة التجليد الاسلامية عن الفن القبطي إللسان الذي عرفه

---

(١) اثر الفن الاسلامي في فنون الغرب بقلم الدكتور زكي محمد حسن امين دار الآثار العربية في القاهرة (مجلة الرسالة : سنة ٣ صفحة ٦١٥-٦١٩) .

(٢) مجلة جمعية محي الفن القبطي : المجلد الثالث : سنة ١٩٣٧ صفحة ١٧-١٨

المجلدون في الاديرة القبطية ونقله عنهم المسلمون ثم الغربيون بعد ذلك . كما لا يزال ظاهراً في كتب المصارف المعروفة باسم Pass Books

«ومهما يكن من شيء فان جلود بعض المصاحف القديمة المحفوظة في دار الكتب المصرية تدل على تأثير قبطي . وهنـــاك زخرفة نباتية قبطية الطراز محفورة على احدى هذه الجلود وأخرى صليبيــة الشكل على جلدة أخرى تذكّر بزخارف موجودة على قطعة من النسج القبطي محفوظة في فينّا

«وممّا يؤسف له اننا لا نستطيع ان نتتبّع تماماً تطـّور الفن في صناعة التجليد حتى أصبحت صناعة اسلامية بحتة في القرن الرابع عشر . لان اكثر ما وصلنا من جلود الكتب الاسلامية يرجع الى عصر المماليك . بينما لا نكاد نعرف شيئــاً عن هــذه الصناعة في العصر الفاطمي على الرغم من ان كل شيء يحمل على القول بانها كانت زاهرة متقدمة » .

الفصل الحادي عشر

اشهر اسواق الكتب

١ ـ اقبال العظماء على استنساخ المخطوطات واذدخارها

ما كادت تنشأ خزائن الكتب في الاقطار العربية ويُقبل الملوك والامراء والاغنياء والادباء على احراز المخطوطات او استنساخها حتى مسّت الحاجة الى تأسيس اسواق لمشتراها وبيعها . وراجت تلك الاسواق خصوصاً في عواصم البلدان وفي اهم المدن . فاصبح اهل الادب يتنافسون في اذدخار المخطوطات والكفّ عن بيعها عملاً بقول الشاعر :

هذا كتابٌ لو يباع بوزنه ذهباً لكان البائعُ المغبونا
او ما من الخسران انك آخذٌ ذهباً وتترك جوهراً مكنونا

ولم يكتفِ القوم بتهافتهم على اكتناز الكتب بل راح فريق منهم يعتزون بما احرزوا من العلم في صدورهم . وبهذا المعنى أنشد الامام ابو عبدالله محمد بن ادريس الشافعي قال (١) :

علمي معي حيثما يممتُ يتبعني قلبي وعاءٌ له لا بطنُ صندوقِ
ان كنتُ في البيت كان العلم فيه معي او كنتُ في السوق كان العلم في السوق

(١) الحضارة الاسلامية : تاليف احمد زكي باشا المصري : صفحة ٨١

٢ - اسواق كتب الاندلس

اشتملت الاندلس على اسواق شتى لبيع الكتب في سالف الزمان اشهرها سوق قرطبة . يؤيد ذلك ما اثبته ابو الفضل التيفاشي بقوله (١) : جرت مناظرة امام المنصور يعقوب ملك المغرب بين الفقيه ابي الوليد بن رشد والرئيس ابي بكر بن زهر . فقال ابن رشد لابن زهر في تفضيل قرطبة . ما ادري ما تقول . غير انه اذا مات عالم باشبيلية فأريد بيع كتبه حملت الى قرطبة لتباع فيها . وان مات مطربٌ بقرطبة فأريد بيع آلاته حملت الى اشبيلية . ثم قال : قرطبة اكثر بلاد الله كتباً » .

وحدثنا الحضرمي عن سوق الكتب في قرطبة قال (٢) : « أقمت مرةً بقرطبة ولازمت سوق كتبها مدةً اترقبُ فيها وقوع كتابٍ كان لي بطلبه اعتناء الى ان وقع وهو بخط فصيح وتفسير مليح . ففرحت به اشد الفرح وجعلت ازيد في ثمنه . فيرجع الي المنادي بالزيادة علي الى ان بلغ الثمن فوق حده . فقلت له : يا هذا أرني من يزيد في هذا الكتاب حتى بلغه الى ما لا يساوي . فأراني شخصاً عليه لباس رئاسة فدنوتُ منه وقلت له : أعز الله سيدنا الفقيه ! ان كان لك غرضٌ في هذا الكتاب تركتُهُ لك فقد بلغت به الزيادة بيننا فوق حده . فقال لي : لستُ بفقيهٍ ولا ادري ما فيه . ولكني أقمتُ خزانة كتبٍ واحتفلتُ فيها لأتجمّل بها بين اعيان البلاد وبقي فيها موضع يسع هذا الكتاب . فلما رأيته حسن الخط جيد التجليد استحسنتُهُ ولم أبال بما ازيد فيه . والحمد لله على ما أنعم به من الرزق فهو كثير . قال الحضرمي : فأحرجَني وحملني على ان قلت له : نعم لا يكون الرزق كثيراً الا عند مثلك . يُعطى الجوز من لا اسنان له . وانا الذي اعلم ما في الكتاب واطلب الانتفاع به يكون الرزق عندي قليلاً وتحول قلة ما بيدي بيني وبينه » .

---

(١) نفح الطيب : جزء ١ صفحة ٧٥

(٢) نفح الطيب : مجلد ١ صفحة ٢١٥-٢١٦

٣ - اسواق كتب القاهرة

في اواخر القرن السادس للهجرة اشتهرت سوق الكتب في القاهرة بمصر. وكان سمسارها ابو الفتح ناصر بن ابي الحسن علي بن خلف الانصاري الوجيه المعروف بابن صورة واحرز في مهنته حظاً كبيراً. فكان يجلس في دهليز داره فيجتمع عنده يومَي الاحد والاربعاء من كل اسبوع اعيان الرؤساء والافاضل ويعرض عليهم الكتب للبيع. ويظلون كذلك الى انقضاء وقت السوق. وحلت وفاة ابن صورة عام ٦٠٧ للهجرة (١٢١١ م) (١).

وكانت سوقٌ للكتب ايضاً بمدينة القاهرة تجاه الجانب الشرقي من جامع عمرو بن العاص في اول سوق القناديل بجوار دار عمرو. وكان فيه بقيةٌ بعد السنة الثمانين والسبعمائة للهجرة. ثم دثر فلا يُعرف موضعهُ. وروى ياقوت الحموي « ان زقاق القناديل محلةٌ بمصر مشهورة فيها سوق الكتب والدفاتر والظرائف كالابنوس والزجاج وغيره » (٢). وفي الزقاق المشار اليه كان مارستان الفسطاط الذي يُعدّ من اقدم المارستانات الاسلامية. وقد بُني في عهد بني امية قبالة دار عمرو بن العاص فاتح مصر (٣). ولا يُعرَف عنه اكثر من ذلك.

وكان قد نقل سوق الكتبيين من موضعه بالقاهرة الى قيساريةٍ كانت في ما بين سوق الدجاجين المجاور للجامع الاقمر وبين سوق الحصريّين المجاور للركن المخلق. وكان يعلو هذه القيسارية ربعٌ فيه عدة مساكن فتضرّرت الكتب من نداوة اقبية البيوت وفسُد بعضُها. فعادوا الى سوق الكتب وما برح هذا السوق مجمعاً لاهل العلم يتردّدون اليه. وقد أنشِدَت فيه هذه الابيات (٤).

---

(١) الفاطميون في مصر : للدكتور حسن ابرهيم حسن : صفحة ١٤٠ وشرح مجاني الادب : للاب لويس شيخو : جزء ٤ صفحة ٦٢٠-٦٢١

(٢) معجم البلدان : لياقوت الحموي : جزء ٤ صفحة ٣٩٦

(٣) الانتصار لواسطة عقد الامصار : لابن دقاق الحنفي : طبع بولاق سنة ١٣٠٩ ه

(٤) الخطط المقريزية : جزء ٣ صفحة ١٦٥-١٦٦

مجالسة السوق مذمومة ومنها مجالسٌ قد تُحتسبْ
فلا تقرَبنَّ غير سوق الجيادِ وسوقِ السلاحِ وسوقِ الكتبْ
فهاتيك آلة اهل الوغى وهاتيك آلة اهل الأدبْ

وكان في القاهرة حتى القرن الثاني عشر للهجرة سوقٌ يقال لها سوق الكتبيين . روى الجبرتي عن احمد السنبلاويّ انه كان صالحاً عالماً عظيم اللحية درّس الفقه في الازهر وانتفع به الطلبة . وكان في الوقت نفسه يحترف بيع الكتب وله حانوتٌ بسوق الكتبيين . وقد توفي سنة ١١٨٠ للهجرة (١) .

٤ ـ اسواق كتب بغداد والبصرة وسائر مدن الشرق

اشتملت بغداد وسائر مدن العراق كالنجف وكربلاء والكوفة والبصرة والموصل منذ ايام العباسيين على اسواق للكتب . لان اهل تلك الامصار كلفوا بجمع المخطوطات ولم يزل حفدتهم حراصاً عليها حرصاً غريباً .

وكانت البصرة في عهد الخلفاء العباسيين من اعظم حواضر الثقافة بل اكبرها بعد بغداد عاصمتهم . وكان فيها للكتب ايضاً سوق يجتمع فيها العلماء والشعراء ولا سيما النحاة واللغويون . واورد ياقوت الحموي ان الجاحظ بلغ من رغبته في الاكتساب والمطالعة انه كان يكتري دكاكين الوراقين بالبصرة ويبيت فيها للنظر (٢) . واراد ياقوت بالورّاقين تجار الكتب كما هو واضح.

٥ ـ اسواق كتب الشام ومراكش والقسطنطينية وغيرها

ان ما اثبتناه آنفاً عن اسواق الكتب في البلدان المتقدم ذكرها يصدق بحذافيره في سائر الاقطار العربية . فان مدن الشام وتهامة واليمن وتونس والمغرب الاقصى وغيرها كان لها اسواق للكتب رائجة ومعتبرة يؤمّها رواد العلم من كل ناحية . ومن اقوى الادلة على انتشار الكتب وازدهارها بين العرب ما دوّنه المهلّب

---

(١) عجائب الآثار في التراجم والاخبار : لعبد الرحمن الجبرتي : جزء ١ صفحة ٢٨٧.
(٢) ارشاد الاريب : لياقوت الحموي : جزء ٦ صفحة ٥٦

لبنيه في وصيته قال : «يا بَنيّ لا تقوموا في الاسواق الا على زرّاد او ورّاق» وقد عنى المهلب بالزرّاد صانع الدروع المزرودة او بائعها ليدرّب بنيه على سماع اخبار الحرب. وعنى بالورّاق تاجر الكتب ليمرّنهم على تحصيل العلم في اسواق الكتب.

وروى ابن طولون الصالحيّ مؤرخ دمشق في كتاب له مخطوط عنوانه «المعزّة في ما قيل في المزّة» ما نصه : «وكانت سوق الكتب في دمشق تحت شباك المدرسة الفاضلية بالكلاسة» (١) . وانتقل هذا المخطوط من خزانة الشيخ عبد الرزاق البيطار بدمشق الى خزانة عيسى المعلوف بزحلة .

وكان بجوار محلّ مسجد او جامع كبير في اهمّ المدن العربية سوقٌ تكثر فيها حوانيت باعة الكتب. ففي جوار الجامع الامويّ بدمشق مثلاً «سوق الكتبية» ويقال لها ايضاً «سوق المسكيّة» اذ يغلب فيها بيع الكتب والمسك .

وفي حاضرة مراكش بالمغرب الاقصى «جامع الكتبيين» وهو جامع اثري عظيم يمثل في هندسته حسن الذوق المغربي وبراعة الصنّاع المغاربة في اتقان الفن العربي الجميل (٢) . وقد أطلق عليه هذا الاسم لان موقعه كان في سوق الكتبيين. وفي هذا الجامع عينه بويع بالملك سنة ١١٣٩ للهجرة مولاي محمد ابو عبدالله ابن السلطان الشهير ابي نصر اسمعيل سلطان المغرب الاقصى (٣) .

وورد تحت الرقم العاشر من كتاب «نزهة الرفاق عن شرح حال الاسواق» لابن المبرّد اسم «سوق الكتبيين» في باب البريد بمدينة دمشق (٤).

وكان عبد اللطيف الكيلاني الحلبي المتوفى سنة ١١٩١ للهجرة يتعاطى في قسطنطينية بيع الكتب وصنعة الصحافة (٥) . وظلّ الى زماننا الحاضر في تلك العاصمة سوقٌ اسمه «دَشْت» تباع فيه الكتب المخطوطة والمطبوعة. وقد اختلفنا نحن اليه مراراً يوم يمّمنا استنبول عام ١٩٠٠ وعام ١٩١٣ واشترينا منه مخطوطات نفيسة.

---

(١) محاضرات المجمع العلمي العربي بدمشق : جزء ١ صفحة ٣٠٧

(٢) الدرر الفاخرة بمآثر الملوك العلويين بفاس الزاهرة : لعبد الرحمن بن زيدان : صفحة ١٩٨

(٣) اتحاف اعلام الناس بجمال حاضرة مكناس : لعبد الرحمن بن زيدان : جزء ٣ صفحة ١٠٤

(٤) المشرق : مجلد ٣٧ سنة ١٩٣٩ صفحة ١٨-٢٨ (٥) سلك الدرر : جزء ٣ صفحة ١٣٣

الفصل الثاني عشر

تجارة الكتب

١ - مشاهير تجار الكتب وسماسرتها

ممن أثرى من تجارة الكتب واثرى معه كثيرون من الورّاقين احمد بن عباس الانصاري في الاندلس في عهد مجدها . ويقال انه جمع من الادوات السلطانية والكتب ودواوين الشعر ما لم يجتمع عند ملك . وقد توفي قتيلاً بامر باديس امير غرناطة عشية ٢١ من ذي الحجة سنة ٤٢٧ بالغاً الثلاثين من عمره (١) .

وذكر السلفيّ في «معجم السفر» عن احمد بن سرور بن سليمان السمسطاريّ قال: «رأيته بمكّة سنة ٤٩٧ للهجرة قد كُفّ في آخر عمره وكان عارفاً بالكتب واثمانها . وحلّت وفاة السمسطاري سنة ٥١٧ للهجرة في صعيد مصر (٢) .

ومن كبار تجار الكتب في بغداد علي بن احمد بن يوسف الشيخ زين الدين الآمدي .كان شيخاً مهيباً ذكياً صدوقاً فقدَ بَصَرهُ في اوائل عمره . وتعمّق في ألسن عديدة كالعربيّ والتركيّ والفارسيّ والمغوليّ والروميّ . واشتهر خصوصاً بتجارة الكتب فاقتنى منها ما لا يُحصى ولا يوصَف . واذا طُلب منه كتاب وكان يعلم انه عنده نهض الى خزائن كتبه واستخرجه من بينها كأنه قد وضعهُ لساعته . وان كان الكتاب عدّة مجلدات وطُلب منه المجلد الثاني مثلاً او الثالث

---

(١) الاحاطة في اخبار غرناطة : للسان الدين الخطيب : جزء ١ صفحة ١٢٩-١٣١

(٢) معجم البلدان : لياقوت الحموي : جزء ٥ صفحة ١٠٢٦ ونكات الهميان : صفحة ٩٨

او الثامن عشر أخرجه بعينه واتى به . وكان لدى مسّه الكتاب يعرف ما اشتمل عليه من الكراريس . واذا أمرّ يده على صحيفة من الكتاب قال : عددُ اسطر هذه الصحيفة كذا . وفيها بالقلم الغليظ كذا . وهذا الموضع كُتب بالحبر الاحمر او الاخضر او الاصفر وهلمَّ جراً » . واذا اتفق ان الصحيفة الواحدة كُتبت بقلمين او بثلاثة اقلام مختلفة قال : « اختلف الخط من هنا الى هنا » من غير إخلال بشيء مما يُمتحن به. وكان عارفاً باثمان جميع ما لديه من الكتب واحداً فواحداً . وتوفي في السنة ٧١٢ للهجرة (١) .

ونضيف الى من تقدم ذكرهم تاجراً رابعاً هو ابو عبدالله محمد بن بليش العبدليّ الغرناطي . فانه تميز في اول حياته بالتجارة في الكتب واثرى بها (٢) لكنهُ أغنى جهة وأفقر جهةً اخرى (٣) . وقد برع بالطب ومات سنة ٧٥٣ للهجرة .

وكان ياقوت الروميّ الحمويّ (٥٧٤ - ٦٢٦ هـ و١١٧٨ - ١٢٢٨ م) صاحب معجم البلدان ذا خبرة واسعة بتجارة الكتب . لانه تعاطاها بنفسه تعاطيه نساخة الكتب ايضاً (٤) .

ومن اكبر تجار الكتب عبد المؤمن بن العجميّ عز الدين توفي سنة ٧٤١ للهجرة . كان من بيوتات وجهاء حلب وأحرز من تجارته بالكتب مالاً جماً . ولما اعتزل تلك الحرفة في اواخر عمره كان لا يخرج من منزله الا للصلاة او لعيادة مريض او لسوق الكتب (٥) .

واشتهر في القاهرة بتجارة الكتب الشيخ حُسَين المحلّي المتوفى سنة ١١٧٠ للهجرة . وضع مصنّفات جمة وكان يكتب تآليفه بخط يده ويبيعها لمن يرغب فيها .

---

(١) نكات الهميان : صفحة ٢٠٦

(٢) تعريف الخلف برجال السلف : لابي القاسم محمد الحفناوي : جزء ١ صفحة ١٠٢

(٣) نفح الطيب : جزء ٤ صفحة ٤٦

(٤) معجم الادباء : جزء ١٦ صفحة ٢٢٥ واعلام النبلاء بتاريخ حلب الشهباء : جزء ٤ صفحة ٣٦٩

(٥) اعلام النبلاء بتاريخ حلب الشهباء : جزء ٤ صفحة ٥٧٣

وكان له حانوتٌ بجوار باب الازهر لبيع الكتب . وكان يعتني بتسفيرها الى المتعاملين معه في شتى الانحاء (١) .

٢ ـ تجار الكتب الجوالون

اشتهر في جميع العصور ادباء جوّالون يتنقلون من بلدٍ الى بلدٍ يشترون المخطوطات او يبيعونها . وقام فريقٌ منهم يطوي الصحاري ويجوب الاقطار حاملاً المخطوطات على ظهره كأنه سوق كتب طوّافة . فكانوا كيفما ذهبوا او حيثما حلوا يروّجون سوق الادب بترويج سِلَعهم الكتابية . وقد اورد المؤرّخون طُرَفاً مستملحة من نوادر اولئك التجّار الجوّالين في الازمنة الغابرة . نذكر منهم محمد العبدليّ الذي عاش في مصر ونواحيها في القرن الثاني عشر للهجرة . وكان ينقل منها الكتب الى الاطراف فيحصل له كل يوم نادرة ويظفر كل يوم بفائدة (٢) .

وعرفنا في العصر الحاضر رجلاً دمشقياً اسمه نور الدين المسوتيّ ارتحل مشياً على قدميه الى العراق وبلاد فارس وما بين النهرين . ثم عاد منها الى سوريا يجمع المخطوطات ويتاجر بها . وقد تعاملنا معه تعاملنا مع كثيرين من تجار الكتب وكبار سماسرتها ومروّجيها في الامصار العربية . فاحرزنا منهم مخطوطات ثمينة زيّنّا بها مكتبتنا الخاصة . وممّن يخطر ببالنا من اولئك التجار الجوّالين نذكر : يوسف اليان سركيس وامين الخانجي في القاهرة . وحمدي السفرجلاني في دمشق والشيخ مصطفى النعسان في حماة وغيرهم .

٣ ـ دلّالو الكتب

مثلما اشتهر في اسواق الكتب تجار وسماسرة اشتهر فيها كذلك دلاّلون اصابوا

---

(١) عجائب الآثار في التراجم والاخبار : لعبد الرحمن الجبرتي : جزء ١ صفحة ٢٢٤

(٢) سلك الدرر : جزء ٤ صفحة ١٢٥

من مهنتهم حظاً وافراً . وفي جملة من اطّلعنا على اخبارهم من اولئك الدلالين اسمعيل بن احمد بن ابي الاشعث السمرقنديّ (٤٥٤ - ٥٣٦ هـ) . وُلِدَ في دمشق الشام ثم خرج عنها الى بغداد واستوطنها الى ان مات . وكان مع اتقانه الاصول وصناعة النسخ ماهراً متوّفقاً في دلالة الكتب . ويروى عنه انه عثر يوماً على «صحيح البخاري» وعلى «مسلم» في مجلدة لطيفة كتبها الصوري بخطه فاشتراها الدلال اسمعيل السمرقندي ثم باعها بعشرين ديناراً . قال السمرقندي : « وقعتْ علي هذه المجلدة بقيراطٍ لاني اشتريتها وكتابا آخر معها بدينارٍ وقيراطٍ . فبعت ذلك الكتاب بدينار وبقيت لديّ هذه المجلدة بقيراط . فتوفقت في بيعها بعشرين ديناراً (١) » .

وُعرِف بعد السمرقندي بوقت قصير دلال آخر لا يقل عنه شهرةومهارة وحظاً . وهو ابو المعالي سعد بن علي الخزرجي الوراق الحظيريّ الذي توفي بتاريخ ٢٥ صفر سنة ٥٦٨ للهجرة في مدينة بغداد (٢) .

٤ ـ كساد تجارة الكتب

على اشتهار اسواق الكتب بالرواج في سالف الاحقاب لم تخلُ من عهدٍ اصاب تجارتها فيه الكسادُ والجمود . وقد عمّ هذا الكساد جميع البلاد العربية بعد انحلال دولها واستفحال امر المتغلبين عليها كالتتر والاكراد والاتراك وغيرهم . ومن البلية ان اولئك المتغلبين كانوا على جانبٍ عظيمٍ من الجهالة والغباوة . فسرى داؤهم هذا الوبيل الى اصحاب البلاد الذين غُلبوا على أمرهم وظلّوا احقاباً يتسكعون في دياجير الجهل . والى هذا الجهل وذلك الكساد يشير احد الشعراء بقوله (٣) .

الدهر دهرُ الجاهلين ... وأمرُ اهل العلم فاترْ
لا سوق أكسد فيهِ من ... سوق المحابر والدفاترْ

---

(١) تاريخ ابن عساكر : جزء ٣ صفحة ١٠
(٢) خزانة الادب : البغدادي : جزء ٣ صفحة ١١٨
(٣) نفح الطيب : للمقري : جزء ١ صفحة ٣٩

الفصل الثالث عشر

عباد المخطوطات وعشاقها

١ ـ صرعى المخطوطات

سبق لنا في فصول شتى من مؤلفنا هذا ان روينا اخباراً وطرفاً عن حرص العظماء والعلماء على خزائن كتبهم وعلى ما حوته من صنوف الذخائر. وبلغ ذلك الحرص منهم مبلغاً يقصر عن وصفه يراع كاتب ولسان خطيب. لان الضنانة بالكتب ملكت عقولهم وجعلتهم يتعبّدون لها ولا يستأثرون من الدنيا بسواها ولا يهجس في ضمائرهم هاجسٌ غيرها ليلهم ونهارهم.

زد عليه ان بعض اولئك الصرعى التهوا بمخطوطاتهم عن كل عزيز فتفتّلوا لها وصرفوا اوقاتهم بينها لا يفارقونها الاّ لتناول الطعام او الرقاد او لقضاء حاجة ضرورية. بل حدا الشغف فريقاً منهم على ان يضعوا كتبهم حولهم او فوق صدورهم عندما يرقدون كأنّها حرزٌ يتعوّذون بها. ولا غرابة اذا عدّهم القوم «صرعى الكتب» لفرط المشابهة بينهم وبين صرعى الغرام كقيس بن الملوّح العامري الملقّب بمجنون ليلى وغيره.

٢ ـ مناحة الوزير القفطي على مخطوطٍ ينقصه

طالعنا حكايات غريبة عن صرعى الكتب نقتصر منها على حادثة جرت بحلب للوزير جمال الدين القفطيّ المتوفّى سنة ٦٤٦ للهجرة. ومؤدّاها ان الوزير عثر يوماً على نسخة مليحة من كتاب «الانساب» لابن السمعاني ينقصها مجلد من اصل خمسة مجلدات فاشتراها. وظلّ يبحث عن المجلّد الناقص ويطلبه من مظانّه فلم يتوفق

الى الحصول عليـه . واتفق ان بعض معارفه اجتازوا بعد ايام بسوق القلانسيّين فصادفوا اوراقاً من المجلّد المفقود احضروها اليـه . فاستدعى جمال الدين صانع القلانس واستطلعه طلع المجلّد المذكور فقال له القلانسيّ : «اشتريتُه في جملة اوراق وعملتُـه قوالب للقلانس» فحزن القفطيّ حزناً مفرطاً وتخلّف عن الذهاب الى مركز وزارته في قلعة حلب . واقام في داره مناحة استدعى اليها ندّابين وندّابات فنـاحوا على المخطوط المفقود وندبوه كما يُندَب ميت عزيز . وتوافد الاعيان والاصدقاء والادباء يعزّون الوزير عن مصابه ويسرّون الغم عن قلبه (١) .

ومن هذا القبيل قول الشريف ابن طباطبا :

اذا أفجع الدهر امرءاً بخليله تسلّى ولا يُسلّى بفجع الدفاتر

٣ ـ الشيخ الصفار يدعو في المسجد على حابس كتبه

روى البيهقي نقلاً عن ابي عبد الله الحافظ قوله : «رأيت الصفّار في مسجـده واقفاً في المنبر ورافعاً كفّيه الى السماء . وسمعتُه يصرخ مبتهلاً الى الله سبحانه بهذه العبـارة . اللهمّ انك تعلم ان ابا العبّاس المصريّ ظلمني وخانني وحبس عني اكثر من خمسمائة جزء من اصولي . اللهمّ لا تنفعه بتلك ولا بسائر ما جمعه من كتب الحديث ولا تبارك له فيها !»

ويُعَدّ الشيخ الصفّار من كبار صرعى الكتب لفرط ضنانته بها وحرصه عليها. فكان لا يغشى مجلساً الا ندب مخطوطاته المسلوبة وناح عليها نوح الثكلى . وكان لا ينفك ليله ونهاره يدعو على ابي العبّاس الذي سلبـه اياها عنوةً وظلماً . وقد استجاب البارىء تعالى دعاء عبده الشيخ الصفّار لنقاوة سريرته وصلاح سيرته فانتقم له من ابي العباس المصري غريمه فرثّت احواله بعد اليُسر وساءَت عاقبتُهُ (٢) .

---

(١) اعلام النبلاء بتاريخ حلب الشهباء : جزء ٤ صفحة ٢١ ؛

(٢) تاريخ ابن عساكر : جزء ٢ صفحة ٧٢

الفصل الرابع عشر

سخط الرهبان واحبار النصارى على سراق مخطوطاتهم

حرص ائمة النصارى كل الحرص على مخطوطات مكتباتهم في الاديار والكنائس . فكانوا يعتبرونها من اثمن ما خلفه لهم اسلافهم ومن اثمن ما سطرته اقلامهم او ملكته يمينهم . فسخطوا السخط كله على سارقها واستنزلوا لعنة الله وغضبه على من تجاسر فسلبها او باعها او قطع منها ورقة واحدة .وكل من طالع ما كتبوه او علقوه بيدهم في خاتمة المخطوطات من عبارات اللعنة والحرم وغضب الله وما شاكل ذلك اعترته الرعدة واستولت على فرائصه القشعريرة . والى القراء نتفاً من تلك العبارات نقلناها عن مخطوطات الملل النصرانية كالنساطرة والملكيين والموارنة والسريان والاقباط وسردناها كما يلي :

١ ـ الراهب سيسين النسطوري يستنزل على سارق كتابه بجميع لعنات السماء والارض

عاش الراهب سيسين في القرن التاسع للميلاد كما يستفاد من مخطوط ثمين في المتحف البريطاني بلندن موسوم بالرقم ١٢،١٣٨ وقد نسخه سيسين في نيسان السنة ٨٩٨ للميلاد وذلك في عهد ايونيس الثالث جاثليق وبطريرك النساطرة (٨٩٢ — ٨٩٨ م) ويعقوب اسقف حران والرقة . ويشتمل هذا المخطوط على شرح كتاب العهد القديم شرحاً لغوياً طبقاً لطريقة علماء اليهود المعروفة عندهم وعند الفرنج

بلفظة Massore ويراد بها ضبط قراءة الكتاب المقدس ونقد عباراتـه وإحكام حركاته وسكناته .

ففي المخطوط المومأ اليه يُقرأ ما يلي : « نسخ هذا الكتاب الشماس سيسين بن دودون . كل من يأخذ هذ االكتاب ليقرأه او ينقل عنه او يقابله ولا يرده الى صاحبه يكون محروماً من الثالوث الاقدس المجيد . ويكون وارثاً بَرص حجزي ومشنقـة يهوذا الدافع . وفضيحـة سيمون الساحر . وتكون السماء فوقـه نحاساً والارض تحته رصاصـاً . وتنصبّ عليه جميع اللعنات المكتوبة في سفر تثنية الاشتراع » .

اما اللعنات الهائلة التي اشار اليها الشماس سيسين فقد اثبتها موسى الكليم في سفر تثنية الاشتراع (٢٨ : ١٥ – ٦٨) وتتلخص (١) بما يلي : ان لم تطع كلام الرب الهك فتكون ملعوناً في المدينة وملعونـاً في الصحراء . ويكون ملعوناً سلّكَ ومعجنُكَ . وملعوناً ثمر بطنك وثمر ارضك ونتاج بقرك وقطعان غنمك. وتكون ملعوناً انت في دخولك وملعوناً في خروجك . يضربك الرب بالسلّ والحمّى والبرداء والالتهاب والجفاف واللفح والذبول فتتّبعك حتى تفنيك . وتكون سماؤك التي فوق رأسك نحاسـاً والارض التي تحتك حديداً . وتصير جثتك مأكلا لطير السماء ووحش الارض . يضربك الرب بقروح مصر والبواسير والجرب والحكّة حتى لا تستطيع مداواتها . ويضربك الرب بالجنون والعمى . وبقرح خبيث على الركبتين وعلى الساقين من اخمص قدمك الى قمة رأسك . تلد بنين وبنات فلا يكونون لك بل يذهبون سبياً »

وختم سيسين كلمته بقوله : « ارتعشْ ايها الشقي من كلمة الله الهائلة واياك ان تحتقرها (٢) » .

---

(١) راجع النص الكامل لهذه اللعنات في «تثنية الاشتراع» وهو السفر الخامس من توراة موسى

(٢) مخطوط لندن : رقم ١٢،١٣٨

٢ ـ مرقص اسقف صيدنايا يفرز سارق مخطوطاته من الله ومن الرسل والمجامع السبعة

تولى مرقص اسقفية صيدنايا في السنة ١٤٤٦ ثم ارتقى الى الرتبة البطريركية عام ١٤٥١ باسم ميخائيل الثالث (١٤٥١ ـ ١٤٥٦) . وقد علق بيده على مخطوطة محفوظة في المكتبة الواتكانية (١) ما نصه : «هذا التريودي المبارك (المنسوخ في السنة ١٢١٥ م) . قد استعاره الاب المتنيح الى رحمة الله تعالى السيد المطران كير يوحنا مطران حمص . وهو من كتب دير القديس خريسطفوروس بصيدنايا . ثم بعد ذلك توجه الحقير في رؤساء الكهنة مرقص اسقف صيدنايا بعد نياح المذكور بسنين مقدار خمسة عشر سنة الى مدينة قارا المعمورة ... وألزمهم باحضاره وخلّصه بعد جهدٍ لصيدنايا . وهو وقف مؤبّد وحبس محرّم على الدير المذكور . فما لاحد سلطان من الله تعالى يخرجه عن الوقفية بوجه من الوجوه ولا يبيعه ولا يوهبه ولا يقايض فيه . ومن تجاسر وفعل غير ذلك كان محروم مفروز من مجد الله تعالى ومن سبع المجامع المقدسة ومن الرسل الاطهار . ومن تجاسر وقطع الورقة كان له نظير ذلك. وكتبه مرقص الاسقف الحقير بتاريخ ثامن شهر اذار المبارك سنة ٦٩٥٤ لكون العالم (١٤٤٦ م) والسبح لله دائماً» .

٣ ـ حبيس لبناني يدعو على سارق دير مار شيقون بحظ يوضاس اللعين

قرأنا في مخطوط ماروني نسخ سنة ١٥٢٢ ما حكايته : «وكان الفراغ من هذا الكتاب في حبيس قزحيا مار بيشاي الى يونان من قرية متريت .وهو برسم القديس مار شيقون . . ومن غيّرهم يكون تحت الحرم . ومن اخذهم يكون القديس

---

(١) المكتبة الواتكانية : رقم ٧٤ ورقة ١٢٤

خصمهم يوم القيامة . ويكون حظه مع يوضاس اللعين الذي قال اصلبه آمين آمين (١) » .

٤ - مطران ملكي يدعو على سارق كتبه بلعنة لا تفارقه

اول من عُرف من اساقفة حلب بعد القرن العاشر غريغوريوس ابن فضَيل . تولى الاسقفية على الروم الملكيّين عام ١٥٤٠ وتوفي في حماة سنة ١٥٨٢ وقرأنا له في كتاب «قنداق» ما نصه : لمجد الله دائماً . الحقير في رؤسا الكهنة غريغوريوس خادم كرسي حلب واعمالها . هذا القنداق المبارك برسم الاخ القسيس عبد المسيح ابن المرحوم فضل.. ابن نجار من معمورة كفر بهم . وهو ساكن يومئذٍ بمحروسة حلب . وهو يسأل كل من قرأ هذه الاسطر الحقيرة يدعو له بغفران الخطايا يكون له نظير ذلك من الواعد الصادق في مواعيده والسبح لله دائماً . لعن الله سارقه . لعنة لا تفارقه . اين ما راح ترافقه . ساكنة فى خوانقه . وهي والله توافقه (٢) »

٥ - بطريرك ملكي يهدد بالحرم واللعنة من يحرق كتبه او يسرقها

كان البطريرك افتيموس الثاني (١٦٣٤ - ١٦٣٥) المعروف بابن كرمة من أكتب احبار زمانه ومن افضل تراجمة عصره. انصرف خصوصاً عندما كان مطراناً في حلب على الروم الملكيين الى الترجمة والتأليف . فخلّف آثاراً كتابية تشهد له بطول الباع (٣) . وكان ضنيناً بمخطوطاته ومؤلفاته الى درجة متناهيه حتى انه تهدّد كل من يحرّفها او يسرقها بالحرم واللعنة وغضب الله عزّ وجلّ . وقد قرأنا له

---

(١) فهرس مخطوطات دير الشرفة : صفحة ١١٩-١٢٠

(٢) المشرق ٣٦ سنة ١٩٣٨ صفحة ٤٦٧

(٣) الملكيون : بقلم الخوري اسحق ارملة : صفحة ٦٨ و ٦٩

في مقدمة مخطوطة من مؤلفاته ما يلي (١): «كل من مسخها بعد وفاتي وغيّر منها حرفاً واحداً فليعلم انه لجماعة الارثذكسيين ناكر وجاحد . ويكون محروماً مفروزاً من مجد الله . وعلى من يطابقه اللعنة والغضب من الله !» .

وعلّق البطريرك افتيموس نفسه على انجيل حبسه على دير القديسة كاترينا بالقدس الشريف ما نصّه (٢) : « . . . فما لأحد سلطان من الله تعالى ان يغيّره من الوقفيّة المذكورة بوجه من الوجوه او بحيلة من الحيل . او يبيعه او يشتريه او يقايض فيه او يختلسه لنفسه . او يخرجه عن الوقفية المذكورة . الى ان يرث الله تعالى الارض وما عليها وهو خير الوارثين. وكل من تعدّى ما حددناه وخالف ما سطّرناه كائناً من كان يكون ذلك الانسان غضب الله ورجزه عليه وعلى هامته وجسده وسائر تصرّفاته. ويكون محروم مفروز من السبعة مجامع المقدسة. ومن فم رئيساء كهنة الدنيا . ومن فمي انا الحقير افتيموس البطريرك الانطاكي وسائر المشرق . . . تحريراً في اوائل شهر اذار سنة ٧١٤٣ لآدم (١٦٣٥ م) ولربنا الحمد دائماً» .

٦ - مطران ماروني يرشق بالحرم الصارم من يسرق مكتبته

كان المطران جرمانس فرحات (١٦٧٠ - ١٧٣٢) الماروني ضنيناً كل الضنانة بمخطوطات مكتبته التي جمعها في حلب وانفق عليها مالاً وافراً . وبذل في اقتنائها وتنظيمها جهوداً جبّارة . واعتبر كل من اختلس كتاباً منها خارجاً على عهود الصدق والامانة . وبرهاناً على ذلك فقد صدّر لائحة مخطوطاته بهذا التهديد الديني المريع قال : «والذي يسرق كتاباً من المكتبة . . . يكون بيته مثل صادوم

---

(١) مخطوطة مكتبة بكركي في لبنان : رقم ١٢٨

(٢) خزانة مخطوطات القبر المقدس بالقدس الشريف : رقم ٢٧

وعامورا (١) ويذهب رزقه وينهدم بيتـه وتشحذ اولاده من ابواب الخلائق. والويل له ان رضي لنفسه ذلك (٢) » .

٧ - مطران سرياني يهدد من يختلس كتب ديره بحبل يوضاس في عنقه

قام بين احبار السريان في القرن الثامن عشر السيد ديونوسيوس بشارة جزرجي مطران حلب (١٧٢٥-١٧٥٩) وحضر المجمع اللبناني عام ١٧٣٦ في دير لويزة (٣). وخلّف آثاراً علمية ونسخ بخط يده كتباً جمة اطلعنا على بعضها . وكان المطران بشارة مولعاً كل الولع بمخطوطاته وبما جمعه من التآليف في خزانة ديره . ويتضح لقارئها فرط اهتمام هذا المطران للذخائر الكتابيـة . ومن بقايا آثار قلمه كتاب «فصول الاناجيل» في ٢٤٦ صفحـة كبيرة قرأنا في آخره : «تمّ في ٢٥ كانون الاول سنة ١٧٣٧ مسيحية على يد احقر الرؤساء واردلهم ديونوسيوس برحمـة الله تعالى مطران حلب . وقد كتبه له ولذاته . ويرجو من كل اخٍ ينظر فيه ام يقرأ معانيـه ان يطلب له الرحمة والغفران من الخالق الرحمان لانه يجد مثل ذلك (٤) . وقف دير مار افرام في جبل لبنان لطائفة السريان . كلّ من يخرجه عن الوقفيـة غضب الله وحبل يوضاس في رقبته . وكلّ من اختلس كتاباً من هـذا الدير وما رده ... تكون اللعنة عليه مثلثة مع حبل يوضاس (٥) ...»

٨ - مطران قبطي يدعو على من يبيع او يرهن او يسرق كتبه بنصيب سيمون الساحر ويهوذا الاسخريوطي

حوت المكتبة الشرقية ببيروت مخطوطاً نفيساً اشتمل على كتاب «ابصلمودية»

---

(١) سفر التكوين : اصحاح ١٩ عدد ٢٤ (٢) المشرق : مجلد ١٧ سنة ١٩١٤ صفحة ٢٤
(٣) المجمع اللبناني : طبعة جونية سنة ١٩٠٠ صفحة ٢٩ و ٥٥٧
(٤) السلاسل التاريخية في اساقفة الابرشيات السريانية : صفحة ٢١١
(٥) الطرفة في مخطوطات دير الشرفة : صفحة ٣٧ و ٣٨

يتضمن تسابيح واناشيد وفقاً للطقس القبطيّ. وقد اضيفت اليه ترجمة عربية . وفي دائرته اطار ذو ثلاثـــة خطوط ملوّنة . نسخه مرقص بن تادرس ودخل بملك كنيسة الاسكندرية سنة ١٥٥٠ للشهداء (١٨٣٣م) . وقد وقعه صرابامون اسقف الاسكندرية اليعقوبيّ بختمه وكتب عليه ما نصه بحروفه : «بسم الله الرؤوف الرحيم . المجد لله في العلوّ . وقفاً مؤبداً وحبساً مخلداً على القديس ماري مرقص الانجيلي بثغر الاسكندرية لا يُباع ولا يُرهن ولا يُخرَج من البيعة المذكورة . وكلّ من خرّجه يكون محروماً ويكون نصيبه مع سيمون الساحر ويهوذا الاسخريوطي و... الكافر . وكلّ من قطع هذه الورقة الله يقطع يمينه بسيف من نار . والذي يحفظه على وقفيته يكون محاللاً مباركاً . ولله الشكر دائماً ابداً سرمدياً (١) .

(١) المشرق : مجلد ٦ سنة ١٩٠٣ صفحة ٥٤٢-٥٤٣

الفصل الخامس عشر

الكتب المستعارة

١ ـ اقوال الشعراء في اعارة الكتب واستعارتها

افرط فريق من جمّاعي الكتب كل الافراط في شدة تشبثهم بها ومحافظتهم عليها . فطفقوا يحجبونها عن الابصار لا يرخصون لكائنٍ من كان ان يطلع عليها او ينسخ شيئاً من مضامينها. وقد ضرب بعضهم الامثال في استنكاف جمّاعي الكتب من اعارة كتبهم واستنكارها على طلابها . وخالفهم قوم فحبذوا اعارة الكتب ليعم الانتفاع بها . فقال محمد بن خليفة الشاعر التونسي في هذا المعنى :

ألا يامستعير الكتب دعْني ... فان إعارتي للكتب عارُ
فمحبوبي من الدنيا كتابٌ ... وهل ياصاحِ محبوبٌ يعارُ (١)

وعارضه شاعر آخر بهذين البيتَين :

ألا يا مالكاً للكتب عِزْها ... فما باعارةٍ للكتب عارُ
لئن احببتَ في الدنيا كتاباً ... فمحبوب الأحبة قد يُزارُ

وقد شطر احدُهم البيتَين الاولين بقوله :

«ألا يا مستعيرَ الكتب دَعْني» ... فلي في الكتب ياصاح افتخارُ
اذا سلوايَ كانت في كتابي ... «فان اعارتي للكتب عارُ»

---

(١) اتحاف اعلام الناس : جزء ٤ صفحة ٢٧١

«فمحبوبي من الدنيا كتابٌ» وبجدي الكتب لا بجدي اتجارْ
فهل شاهدتَ مجداً بيع بخساً «وهل ابصرتَ محبوباً يعارُ»

وقال غيره :

لا تعيرنّ كتاباً واجعل العذرُ جوابَا
واقبض الرهن عليهِ ان في الرهن صوابَا (١)

فقابله شاعر ثان بهذه الابيات :

عِزْ الى الخلّ كتاباً لا يكُ العذر جوابَا
واترك الرهنَ عليه لا ترى في ذا صوابَا
فاذا خالفتَ قولي انت ضيّعت الصحابَا

وانشد احدهم هذين البيتين في استعارة الكتب ووجوب ردها الى صاحبها قال :

اذا استعرتَ كتابي وانتفعت به فاحذرُ وقيت الردى من ان تغيّرهُ
وارُددْهُ لي سالماً اني شغفتُ بهِ لولا مخافـةَ كتمِ العلمِ لمْ ترَهُ

وكان احد علماء دمشق يملك نسخـة من شرح ابن ابي صادق لكتاب «منافع الاعضاء» تأليف جالينوس منقولة عن خط المؤلف . فكتب اليه الطبيب عز الدين بن السويدي قصيدة يلتمس ان يعيره المخطوط المذكور وقد اورد فيها هذين البيتين :

وامنن فانت ابو المكارم والعُلى بكتاب شرح منافع الاعضاءِ
فاعارة الكتب الغريبة لم تزلْ منْ عادةِ العلمـاءِ والفضلاءِ

(١) عن مخطوط بدار الكتب اللبنانية في بيروت عنوانه «شرح الترتيب» دون ناسخه في اوله البيتين الواردين في المتن

ونضيف الى ذلك ابياتاً بعث بها الحاج حسين بيهم البيروتي الى صديقه الشيخ مصطفى الدجّاني مفتي يافا. وقد عرّض الناظم فيها بحاجته الى استقراض مخطوطة كتاب «العقد الفريد» كانت في الخزانة الدجانيّة قال :

ألمعيّ في زوايا فكره	كَمْ خبايا لمعتْ للمستفيدْ
قد جمعتم كل علمٍ مثلما	جَمَعَ الاشياءَ قرآنٌ مجيدْ
فلهذا ارتجي من فضلكمْ	ان اردتم قرضة العقد الفريدْ
ثم من بيروت يَسعَى مسرعاً	فيوافيكم قريباً في البريدْ
واجعلوا عهدي كصكٍّ عندكم	وحُسَينٌ شكرُه دوماً يزيدْ

وراح بعضهم يستنكر بيع الكتب او هبتها . ومن هذا القبيل طالعنا بيتين في مخطوطة عنوانها «البردة الشريفة» نُسخت عام ١٢٧٢ للهجرة . وقد اهديناها الى دار الكتب اللبنانية . واليك نص البيتين (١) :

تمّ بجهدٍ وتعبْ	بعدَ عناءٍ وَنصبْ
فلا تبعْ ولا تهبْ	ولو بوادٍ من ذَهبْ

٢ ـ استعارة المخطوطات والكتب بين الدول

اعتادت الدول اعارة المخطوطات النادرة والمطبوعات الثمينة واستعارتها تسهيلاً لأبحاث العلماء ودروسهم . فاتفقت الدوائر الرسمية والمكتبات الكبرى والمعاهد العلمية في تلك الدول على اتباع خطة منتظمة في مبادلة الكتب المخطوطة او المطبوعة . ونعني بتلك الكتب كما قلنا ما كان منها نادراً غالياً لا يوجد منه الا نسخة او نسختان في جميع انحاء الدنيا .

وغير خافٍ ان الهدف من استعارة تلك الكتب واعارتها انما هو القيام بابحاث ثقافية خطيرة يحتاج المشتغلون بها الى المراجعة والتدقيق فهي تمثل بذلك شكلاً من الثقافة لا يتسنى للدول الوصول اليه الا عن طريق الاعارة والاستعارة.

---

(١) البردة الشريفة : بخط مجد الدين مؤلف القاموس : مخطوطة دار الكتب اللبنانية بيروت

وتزداد نسبة استعارة الكتب واعارتها ازدياداً مطرداً حولاً بعد حول ولنا بالمتحف البريطـانيّ الشهير اكبر مثال على ما اعاره واستعاره من الكتب خلال السنتين ١٩٣٧ و١٩٣٨ للميلاد . فقد بلغ عدد الكتب التي اعارها المتحف سنة١٩٣٧ للدول الاجنبية ثلاثمائة وثمانية وسبعين كتاباً . وبلغ عدد الكتب التي اعارها لاحدى وعشرين دولة سنة ١٩٣٨ اربعمائة وستة وسبعين كتاباً . اما ما استعاره المتحف البريطاني من الدول عام ١٩٣٧ فقد بلغ مائة وسبعين كتاباً . واستعار عام ١٩٣٨ من خمس عشرة دولة اجنبية ثلاثمائة واثني عشر كتاباً (١) .

٣ ـ المماطلة بالكتب المستعارة

كتبنا في غير هذا الفصل كلمة مُرّة عمّن يستعير الكتب ويماطل باعادتها الى اربابها او يتصرّف فيها كأنها ماله وحلاله . ويُقاس هذا القياس على من يستعير الكتب ويسوّف صاحبها مرجئاً اعادتها اليه حيناً بعد حين . ولله احد الشعراء يطالب صديقاً له بردّ كتبه اليه :

ما بال كتبي في يديكَ رهينةً ... حُبست على مرّ الزمان الاطول
ائذن لها في الانصرافِ فانها ... كنزٌ عليه اذا افتقرتُ معوّلي

وكتب غيره الى صديقٍ له :

غدرتَ بحبس دفترنا ... وعهدي بالاديب ثِقَةْ
ولست احب للادبا ... ءِ ان يرتكبوا سرقَةْ

ومن نُكَت المماطلة في ارجاع الكتب المستعارة ان الصدر تاج الدين احمد ابن الامير الكاتب استعار مجموع كتب من مجاهد الدين بن شقير وأطال مَطْلَهُ بهِ . واتّفق يوماً ان حضر مجاهد الدين الى ديوان المكاتبات حيث كان ابن الامير . فبادهَهُ ابن الامير قائلاً : «كيف انت يا مجاهد الدين ؟ والله قلبي وخاطري عندكِ» فاجابه مجاهد الدين ملمّحاً الى مجموع كتبه : والله وانا مجموعي عندكِ» !

(١) مجلة «الثقافة» بالقاهرة مجلد ١ سنة ١٩٣٩ عدد ٢٦ صفحة ١٠٤-٢٠٢

الباب الخامس عشر

مخطوطات العرب المزوقة والمصورة

نظرة اجمالية في فن التصوير عند المسلمين

كان التصوير غير معروف عند عرب الجاهلية لاستغنائهم عنه في حياتهم البدوية وشؤونهم الاجتماعية ، وهو فن من الفنون الجميلة التي كان يسميها العرب «الآداب الرفيعة». ونظراً الى جهلهم هذا الفن ، اهملوه كما اهملوا غيره من الفنون والعلوم التي اشتهر بها غيرهم من الامم . ولا عبرة ببعض النقوش التي خلّفها العرب في بلاد اليمن . وهي عارية عن الذوق والجمال والاتقان .

ولما انتشر الاسلام بين العرب نهاهم الشرع عن التصوير (١) بدليل ما ورد في الحديث «ان من اشدّ الناس عذاباً المصورين» . وقد ورد في الحديث ايضاً ان «كل مصور في النار» فكسد لذلك فن التصوير بين المسلمين (٢) . وكان هذا التحريم داعياً الى ان يتشبّث المسلمون بنص الحديث ويمقتوا التصوير ويصبحوا من ألدّ اعدائه . هكذا انصرف العرب عن الاشتغال بهذا الفن رغم وجودهم بين شعوب راقية عملت على تعزيزه كالروم والفرس والسريان والهند والصين . وقد وقفنا على وصف دقيق لفن التصوير عند المسلمين بقلم السيد سلامه موسى احد مشاهير الكتّاب في القرن العشرين قال :

---

(١) مقدمة ابن خلدون : صفحة ٢٦٢ ـ المطبعة الادبية في بيروت : طبعة ثالثة سنة ١٩٠٠

(٢) المشرق : مجلد ١٨ سنة ١٩٢٠ صفحة ٩٥١

«ولما وجد رجال الفن المسلمون ان الدين يعارض النزعة الفنية في الرسم والنحت ، عمدوا الى تصوير الجمال عن طريق الذهن لا عن طريق البصيرة فجعلوا فنونهم ذهنية . ولذلك فانهم بالغوا في اتقان الصنعة مع اهمال الفن الا حيث يميل الفن بطبيعته لان يكون ذهنياً كما نرى مثلاً في البناء ، فانهم اقاموا عدداً كبيراً من المباني الفخمة . وكذلك في الشعر ألّفوا القصائد الرائعة ولكنهم اتقنوا الصنعة هنا دون الفن . فان لهم القصائد ولكن ليست لهم الدرامة او الملحمة .

«والفنون الاسلامية على وجه العموم هي فنون الذهن تنقصها البصيرة والرؤيا والخيال . وهي تميل الى اتقان الصنعة مع تناسي الغاية من الفن . ولذلك فان مقامها لم يكن عظيماً عند المسلمين حتى اننا قلما نجد اسم الصانع مدوّناً بجانب احد النقوش او احدى العمارات . واهمال اسمه يدلّ على الاحتقار الذي كان يضمره له مستخدموه . . . ولما رأى المسلمون ضيق الميدان الذي يمكنهم ان يستخدموا فيه مواهبهم الفنية ، اضطرّوا الى ان يجعلوا من الخط العربي فناً ، فزيّنوه وزخرفوه وزوّقوه حتى صار له جمال خاص (١) » .

على ان العرب المسلمين كانوا يتسمّحون في اقتناء الرياش المصنوع في غير بلادهم والمزين بالصور . وكانوا في بعض الاحيان يقلدون ما يقع بين ايديهم من مصورات الفرس والروم او ما جاء به السلاجقة بعد ذلك من صناعة المغول في اواسط التركستان (٢) . وقد ذكر المسعودي ان قصر العباسيين ببغداد على عهد المنتصر بن المتوكل (٢٤٧ - ٢٤٨ هـ) حوى بساطاً نقشت عليه صور ملوك في جملتهم صورة يزيد بن الوليد بن عبد الملك وصورة شيرويه بن ابرويز . ويروى عن ام الخليفة المستعين بالله (٢٤٨-٢٥٢ هـ) ان بلاطها الملكي كان يزينه بساط نفيس مطرز بالصور المرصعة .

---

(١) سلامة موسى : تاريخ الفنون : صفحة ٢٨-٣٢

(٢) تاريخ التمدن الاسلامي : لجرجي زيدان : جزء ٥ صفحة ٣٢

١ ـ نشأة التصوير عند العرب

من المقرر ان العجم (١) سبقوا العرب وجميع المسلمين في اقتباس فن التصوير والاعتناء بترقيته ، يؤيد ذلك ما اثبته ابن خلدون في مقدمته قال :

« من ابهة الملك والسلطان ومذاهب الدول ان تُرسم اسماؤهم او علامات تختص بهم في طراز اثوابهم . . . وكان ملوك العجم من قبل الاسلام يجعلون ذلك الطراز بصور الملوك واشكالهم او باشكال وصور معيّنة لذلك . ثم اعتاض ملوك الاسلام عن ذلك بكتب اسمائهم مع كلمات اخرى . . . » (٢) .

ولما سقطت الدولة العباسية سنة (٦٥٦ هـ ١٢٥٨ م) وقامت على انقاضها دولة المغول او التتر اشتدّ ساعد الفرس واجتمعت كلمتهم على اعادة مجدهم القديم . فجدّدوا فن التصوير الذي كان شائعاً عندهم في سالف الاحقاب . ثمّ زادوا في اتقانه بما تلقّوه عن اساتذة صينيين مشهورين بالهندسة والفنون الجميلة استقدمهم المغول ليتولوّا هندسة حصار بغداد . ويرجع الفضل الى الفرس المسلمين بعد استقلال دولتهم الصفويّة في نشر فن التصوير بين ظهرانيهم وفي سائر الممالك الاسلامية . فازداد كلفهم به واحكموا صناعته واخذوا يزينون به كتبهم وحللهم وحليّهم وطنافسهم وجدران مجالسهم وقصور اغنيائهم . واعتاد نفر ممّن حجّ البيت الحرام اذا عاد الى وطنه ان يدبّج باب منزله برسوم ملوّنة مستظرفة تذكاراً لاتمامه هذا الفرض الديني .

لمّا رأى المسلمون ضيق الميدان الذي يمكنهم ان يستخدموا فيه مواهبهم الفنية اضطرّوا ان يجعلوا من الخط العربي فناً فزيّنوه وزوّقوه حتى صارَ لهُ جمالٌ خاصٌ (٣) .

---

(١) العجم : خلاف العرب

(٢) مقدمة ابن خلدون : صفحة ٢٦٦-٢٦٧

(٣) تاريخ الفنون : لسلامة موسى : صفحة ٣٢

واذا حصرنا القول في المخطوطات المصوّرة التي انتهت الينا من الفرس في القرون الغابرة ، فاننا نجد امثلة لا يستهان بها في اشهر مكتبات الشرق والغرب. وحسبنا منها مخطوطات الشاهنامة للفردوسي وتيمورنامة وظفرنامة اليزدي وديوان حافظ وديوان جامي والكلستان للسعدي وتاريخ رشيد الدين وغيرها من الكتب الشعرية والروائية والتاريخية .

وفي دار الكتب اللبنانية ببيروت مخطوطة بديعة من « الشاهنامة » مزينة باثنتين وستين صورة ملونة فريدة في بابها . وفيها ايضاً جلد كتاب نفيس بصوَرِهِ الفاخرة ونقوشه الجميلة لا ينقص عمره عن ثلثمائة سنة وهو آية في الظرف والرونق. وفي خزائن مؤلف هذا الكتاب مخطوطات زُيّنت بالصور المستبدعة والتزاويق الرائعة نذكر منها « ديوان جامي » باللغة الفارسية يتقادم تاريخ كتابته الى سنة ٩٠٣ للهجرة .

ويرتئي الباحثون ان التصوير في الكتب لم يُعرف عند العرب المسلمين الا على اثر احتكاكهم بالفرنج في عهد الصليبيين لانهم بعدما شاهدوا الكتب الدينية المسيحية مزدانة بصور اولياء الله راقتهم صناعة التصوير واستحسنوها . فاخذوا من ذلك الحين يوشّون المصاحف بالذهب ويدبجونها بالالوان الظريفة ويتنافسون في تنميق عناوينها بما لا يوصف من الدقة وسلامة الذوق . ثم نبغوا تدريجاً في هذا الادب الرفيع الى ان بلغوا منتهى الاتقان في تصوير النبات فالحيوان فالانسان . يؤيد ذلك ما رواه المقريزي عن الخلفاء الفاطميين في مصر انهم زينو قصورهم بصور ذات ارواح تمثل حوادث مختلفة . وعدّد المقريزي ايضاً اسما المصوّرين ومنهم احمد بن يوسف ومحمد بن محمد الملقب كل منهما بالمصوّر . وابن فرج البلنسي سُمّي بالذهبي لان جده كتب وصوَّر بالذهب (١) . وبرع غيرهم من المسلمين في صناعة التصوير كالكتامي والنازوك والقصير وابن العزيز الذين ذكرهم

---

(١) محاضرات المجمع العلمي العربي : مجلد ١ صفحة ١٨٣

المقريزي في كتاب الخطط (٢ : ٣١٨) في وصف جامع القرافة وذكر شيئاً من اعمالهم (١). وممّن برّز ايضاً بالاجادة في التصوير الرئيس ابن العميد (٢) .

وعلى رغم ذلك فان المخطوطات العربية المصوّرة نادرة وثمينة . وهي محفوظة بكل حرص في بعض مكتبات الشرق والغرب . وعلى قلة عددها قسمناها باعتبار مواضيعها الى فصول كما يلي :

٢ ـ مخطوطات الطب المصورة والمزوقة

تشتمل هذه المخطوطات النفيسة على صور تمثل اعضاء الجسم وتركيبها وتشريحها وعلى صور الحشائش والعقاقير النباتية . وعلى آلات الجراحة كالمباضع والسكاكين والكلاليب والمقصات وغيرها .

ومن اهمّ ما عرف من الصور التشريحية في المخطوطات : تشريح العين لحُنين بن اسحق (+ ٨٧٦ م.) شيخ تراجمة الاسلام وطبيب الخليفتين المأمون والمتوكل على الله . وهذه الصور مرسومة في مخطوط لهذا المؤلف كتب سنة ٥٩٢ للهجرة (١١٩٥ م) عنوانه «تركيب العين وعللها وعلاجها على رأي ابقراط وجالينوس» . وتمثل تلك الصور الملونة اشكال العين وعضلاتها وطبقاتها وحركاتها وكل ما يتعلق بها . وهذا المخطوط النفيس محفوظ في الخزانة التيمورية بمدينة القاهرة . وتحوي الخزانة عينها مجموعة طبية مصورة بخط عبد الرحمن الانصاري كتبها سنة ٥٩٢ للهجرة (٣) .

ومن كتاب «تشريح العين» نسخة ثانية اقدم عمراً من النسخة المذكورة مكتوبة في السنة ٥٥١ للهجرة (١١٥٦ م) . ونرجح انها اعتق مخطوطة طبية

---

(١) المشرق : مجلد ١٨ سنة ١٩٢٠ صفحة ٩٥١

(٢) تجارب الامم : لابن مسكويه : صفحة ٢٧٨-٢٧٩

(٣) تاريخ آداب اللغة العربية : لجرجي زيدان : جزء ٤ صفحة ١٢٥

مصورة في اللسان العربي . وكانت هذه المخطوطة محفوظة في خزانة كتب البطريرك الانطاكي غريغوريوس حداد بدمشق . فاهداها سنة ١٩١٣ مع مخطوطات اخرى ثمينة حملها معه الى نقولا الثاني قيصر روسيا في فرصة الاحتفال باليوبيل القرني الثالث لارتقاء آل رومانوف الى العرش القيصري . ثم نقلت هذه المخطوطة الى المتحف الاسيويّ التابع للمجمع العلمي الروسي في لينينغراد (١) . وقد اعتنى الدكتور مايرهوف بطبع هذا الكتاب باللغة العربية مع ترجمة انكليزية معتمداً في ذلك على النسختين القديمتين المذكورتين (٢) .

ومن الكتب المصورة في طب العين «الكافي في الكحل» ألفهُ خليفة بن ابي المحاسن الحلبي في اطباء القرن الثالث عشر للميلاد . وطبع هذا الكتاب عام ١٩٠٥ في ليبسيك . ولهذا الكتاب مخطوطة اخرى مصورة في الخزانة البارودية ببيروت (٣) .

ومن المخطوطات المصورة ايضاً كتاب «سحر العيون» للبدري . طُبع على الحجر سنة ١٢٧٦ للهجرة (١٨٥٩) بمصر في عهد الخديوي سعيد باشا . ومنها كتاب «نور العيون وجامع الفنون» يتقادم تاريخ كتابته الى السنة ٩٩١ للهجرة (١٥٨٢ م) تأليف ابي زكريا يحيي بن ابي الرجاء . وهذا المخطوط الطبي المصور اقتناه الزعيم الهندي الدكتور محمد أجمل خان سنة ١٩٢٥ من مكتبة صديقنا الاستاذ عيسى المعلوف بزحلة .

واهدى السيد خورشيد الشركس الى المجمع العلمي العربي بدمشق نسخة من مخطوط في الجراحة عنوانه «التصريف لمن عجز عن التأليف» لابي القاسم خلف بن عباس الزهراويْ الاندلسي المتوفى نحو سنة ٤١٠ للهجرة (١٠١٩ م). وهي مزدانة بصور الآلات الجراحية على اختلاف اشكالها . اما الزهراوي فنسبة الى

---

(١) مجلة المجمع العلمي العربي بدمشق : مجلد ٤ صفحة ٢٨٥-٢٨٦ و ٣١٨-٣٢٠

(٢) مآثر العرب في العلوم الطبية : للدكتور سامي حداد : صفحة ٦١

(٣) الاسر العربية المشتهرة بالطب العربي : لعيسى المعلوف : صفحة ٥٥

مدينة الزهراء بالاندلس وهو ثالث مشاهير اطباء العرب وصنواه ابن سينا والرازي. وقد رسمت صور هؤلاء الاطباء الثلاثة بالوان على الزجاج في كاتدرائية ميلانو بايطاليا (١) . ومن هذا المخطوط نسخة ثانية مصورة في مكتبة «بطنا» بالهند مكتوبة في السنة ٥٨٤ للهجرة كما ذكرنا في فصل سابق .

واشتهر في القرون الغابرة هشام بن موسى بن يوسف المسيحي فنسخ بيده كتاباً مستبدعاً اشتمل على ١٦٠ صورة من صور الحيوان والنبات ملونة . وقد اطلعنا نحن على هذا المخطوط النفيس في مكتبة الامة في باريس .

واشتهر من آل بختيشوع اطباء الخلفاء العباسيين ابو سعيد عبيد الله بن جبرائيل المتوفي سنة ١٠٣٢ للميلاد . فخلف كتاب «منافع الحيوان وزينه بعدة تصاوير (٢) .

ومن المخطوطات النباتية الطبية «مجموعة صور نباتات» احتوت على احدى وثمانين صورة في كل صفحة صورة . وفي اعلى الصفحة جداول كتب فيها طبع النبات ومضرّته وما يصلحه وتربته وبدله . وفي جانبي الصفحة منافعه وصور استعماله وتطبيقاته الطبية وفي الاسفل منابته . ومن الصور المذكورة ٥٧ ملونة و ٢٤ بحبر اسود . وهذه الاخيرة قد كتب عليها اسم النبات باللاتينية واليونانية وبعضها بالفارسية او بالكرشونية ايضاً . وهذا المخطوط النادر يخص الدكتور العلامة داؤد الحلبي الموصلي (٣) . وفي مكتبة البحاثة محمد فريد وجدي بالقاهرة مخطوط من تأليف الزهاوي في الجراحة تاريخه سنة ٥٨٤ للهجرة . وفيه صور الآلات الجراحية مرسومة بالاتقان التام يستدل منها على ان بعضها يحاكي الآلات الجراحية التي اخترعت منذ عهد قريب (٤) .

---

(١) تاريخ الطب عند العرب : بقلم عيسى المعلوف : صفحة ٢٧-٢٩

(٢) المخطوطات العربية لكتبة النصرانية : صفحة ٥٦

(٣) كتاب مخطوطات الموصل : صفحة ٢٧٦

(٤) دائرة معارف القرن العشرين : مجلد ٨ صفحة ٧٦

ولدى الدكتور سامي الحداد في بيروت بعض الكتب الطبية المصورة في خزانتـه الحافلة بالمخطوطات الطبية الثمينة . نذكر منها « المنجز » وهو « شرح مبسوط الموجز » لرئيس الاطباء محمود بن احمد الامشاطي الحنفي المولود سنة ٨١٠ للهجرة . وهذا المخطوط مزين برسوم ظريفة كخارطة وادي النيل وشجرة القوى الحيوية (١) . ومن تلك المخطوطات « شرح قانون ابن سينا » مزين ايضاً بالرسوم والاشكال لمحمود الامشاطي المشار اليه .

وفي دار الكتب الاهلية بباريس مخطوطان قديمان في الطب تجلّى فيهما فن التصوير الى درجة الابداع : احدهما نسخه بيده هشام بن موسى بن يوسف المسيحي وانطوى على مائة وستين صورة ملونة للنبات والحيوان على اختلاف اشكالها . وثانيهما كتبه عبدالله بن الفضل سنة ١٢٢٢ للميلاد وزينـه بالصور العديدة . ويترجح ان كاتب هـذا المخطوط هو مؤلفه نفسه . وقد تصفحنا هذين المخطوطين في اثنـاء المعرض الذي انشأته تلك المكتبة عام ١٩٢٥ للمخطوطات الشرقية المصورة والمزوقة .

وفي مكتبـة الجامعة الاميركية ببيروت مخطوطان طبيان زينت صفحاتهما بالصور : اولهما كتاب «غاية الامنيّات في معرفة الحمّيات» فيه جداول لمعرفة انواع الحمى وصور الدم بالوانه . ثانيهما كتاب «المنجز على الموجز» لمحمود الامشاطي بديع الرسم والتلوين يتضمن رسوماً للآلات اهمها مشجّر في القوى الحيوانية (٢) .

٣ ـ مخطوطات الكيمياء المصورة

قليلة هي المخطوطات العربية المصورة التي تبحث في علم الكيمياء ومن اهمهـا مخطوط يتناول موضوعه تحويل المعادن الخسيسة كالزئبق والنحاس والقصدير

---

(١) مآثر العرب في العلوم الطبية : صفحة ٥٩

(٢) مخطوطات الخزانة الملوفية في الجامعة الاميركية : صفحة ٧

وغيرها الى ذهب ابريز . وفي هذا المخطوط القديم صورة تمثل ستة رجال وجوههم كاملة الاستدارة. والى يمين هذه الرؤوس صورة الهلال والى يسارها صورة البدر . وتحت البدر والهلال وقف رجلان امسك كل منهما بسلسلة التفت حول عنق هؤلاء الرجال الستة الذين وضع كل منهم يده اليسرى على صدره .

وفي اسفل هذه الصورة رموز واشكال وخطوط شبيهة ببعض الحروف العربية واليونانية والهيرغليفية فكانت الى الطلاسم اقرب منها الى الكلام المفهوم . ويرى المتأمل فيها بعض رسوم اشبه شيء برسم القلب والصليب والسيف والسنبل الخ . . . (١) .

٤ - المخطوطات اللغوية المصورة

هذا صنف من المخطوطات نادر ونادر جداً ، لاننا لسنا نعرف في خزائن الشرق والغرب كتاباً في اللغة قد زينه مؤلفه او ناسخه بصور ورسوم وتزاويق سوى مخطوط واحد لا ثان له . وهذا المخطوط هو شرح « القاموس المحيط والقاموس الوسيط » للفيروزابادي يحتفظ به كاتب هذه السطور في خزانة مخطوطاته الخاصة . وقد كتب الكتاب بخط فارسي دقيق تخللت سطوره خطوط حمر واضيف الى هوامشه شروح كثيرة . ومن ميزاته التي تلفت الانظار ان ناسخه قد دبّجه بستة تصاوير انيقة ذات الوان زاهية ومواضيع مختلفة دلت على براعته وسلامة ذوقه . وقد ورد في آخر صفحاته انه «فرغ من تسويد شرحه في غرة ربيع الاول من شهور سنة تسعة عشر ومائة بعد الالف » .

٥ - المخطوطات الادبية المصورة والمزوقة

ان اقدم مخطوط عربي مصوّر من هذا النوع « مقامات الحريري » كتب

(١) التصوير التوضيحي في المخطوطات الاسلامية للدكتور احمد موسى (مجلة الرسالة لاحمد حسن الزيات : سنة ٦ صفحة ٨٣٢)

في السنة ٦٣٤ ﻫ (١٢٣٦ م) . وهذه النسخة مشتملة على احدى وثمانين صورة والمكتوبة بخط يحي الواسطي مصونة بالمكتبة الاهلية بباريس (١) . وفي هذه المكتبة ايضاً نسخة جميلة من « ديوان الصبابة » للتلمساني تحتوي على رسوم بعض امراء العرب . وقد وقفنا بذاتنا على هذين المخطوطين النفيسين في المعرض الذي اقامته دار الكتب الاهلية المشار اليها في شهر نيسان ١٩٢٥ لنوادر المخطوطات العربية والفارسية والتركية .

ولما تعهد المسيو دومرغ رئيس الجمهورية الفرنسية هذا المعرض انتدبنا امين تلك المكتبة رسمياً لنشرح لهذا الرئيس معلوماتنا عن كل مخطوط وعن مؤلفه وعن الرسوم المصوّرة فيه.

ومن الكتب الادبية نذكر كتاب « كليلة ودمنة ». فقد عثر الشيخ احمد حسن طباره في دمشق على نسخة منه مصوّرة كتبت عام ١٠٨٦ ﻫ (١٦٧٥ م) فنقل عنها ٨٦ صورة تمثل وقائع الكتاب ونشرها بالطبع سنة ١٩٠٥ في بيروت. وروى الاب لويس شيخو انه لقي بين مخطوطات المكتبات التي زارها في اسطنبول عام ١٩٠٤ نسخاً قديمة مصورة لكتاب « كليلة ودمنة » (٢) .

وتحتوي الخزانة التيمورية في القاهرة على مخطوط عنوانه « المقامات الجلالية الصفدية » وضعه الشيخ حسن بن ابي محمد العباس في القرن السابع للهجرة . وعدد هذه المقامات ثلاثون تسمى التاسعة عشرة منها « المقامة الطيورية » وهي تشتمل على صوَر النسر والعقاب واللغلغ والاوزّ والجرج والكركي وغيرها .

ومن الكتب التي يصح ان نقدّرها بين المخطوطات الادبية المصورة مخطوط

---

(١) نشرت المطبعة الكاثوليكية بيروت في « تقويم البشير » لسنة ١٩٣٩ بعض رسوم ملونة منقولة عن مخطوط « مقامات الحريري » وكلها يرمي الى وصف الحياة اليومية في القرن السابع للهجرة. فأول تلك الرسوم يمثل مسير القافلة في الصحراء وثانيها وقفة القافلة في احدى الواحات وثالثها صورة جارية تقود الابل الى المرعى .

(٢) سياحة حديثة الى اوروبا بقلم الاب لويس شيخو (المشرق : مجلد ٧ سنة ١٩٠٤ صفحة ١٠٦٥)

كبير الحجم يقع في ٥١٦ صفحة مضبوط بالشكل الكامل عنوانه «غرائب الصناعات الشعرية» . وهو يشتمل على فنون شعرية نادرة المثال وعلى مقاطيع نثرية غريبة الوضع ، وفيه كذلك رسوم مربعات ودوائر ومحبوكات ومشجرات مختلفة التركيب يستخلص منها اشعار جيدة باساليب فنية . وزبدة القول ان هذا المخطوط فريد بديع حوى من فنون الشعر والنثر وروائع الرسوم ما يقصر القلم عن وصفه . وقد شاهدناه في الخزانة المعلوفية تحت الرقم ٢٣ وهاك ما ورد في مقدمته بالحرف الواحد :

« اما بعد فان انفع الكلام موقعاً ، واسماه موضعاً ، كلمة حكمة يقتفي الاديب بسناها ، ويهتدي الاريب بهداها . وهذه مجموعة قد أحكمت مبانيها وتكافأت الفاظها ومعانيها ، اذا سمعت طمع فيها . واذا طلبت استصعبت على متبعيها ، ظريفة النظم والسبك متلائمة الاوصاف متناسبة الاطراف ، مقبولة العبارة واضحة الاشارة . قد اشتملت على استعارات رائعة وتشبيهات فائقة . الى غير ذلك من الاوصاف الفريدة فاستحقت وصف القصيدة :

إذا انشدت في القوم مرّت كأنها　　　مسرّةُ كبرٍ او تداخلها عُجبُ
مُفصلةٌ باللؤلؤِ المنتقى لهـا　　　منَ الشعرِ الاّ انه لؤلؤ رطبُ

جمعت محاسن فنون يعز جمعها ، ولطائف بلاغات محكم بايدي البلغاء ربعها ، مستعذبة الموارد ، مختلفة الانحاء والمقاصد ، ما سبقني احد اليها ابداً ، وبها مات حاسدي كمداً . . . »

وروى عبد الرحمن الجبرتي عن والده الشيخ حسن الجبرتي قال : « اقتنى والدي كتباً نفيسة خلاف المتداولة . وارسل اليه السلطان مصطفى نسخاً من خزائنه . وكذلك اكابر الدولة بالروم ومصر وباشة تونس والجزائر ، واجتمع لديه من كتب الاعاجم مثل الكلستان وديوان حافظ وشاهنامة وتواريخ العجم وكليلة ودمنة ويوسف زليخا وغير ذلك . وبها من التشابيه والتصاوير البديعة الصنعة والغريبة

الشكل ، وكذلك الآلات الفلكية من الكرات النحاسية » (١) .

ومن المخطوطات الادبية المصورة كتاب « برلام ويواصف » وهي رواية نسبت الى القديس يوحنا الدمشقي . ومنها نسخ عديدة في مكتبة باريس (٢) ونسخة في المكتبة الشرقية ببيروت مع تصاوير (٣) .

٦ ـ المخطوطات الدينية المصورة والمزوقة عند النصارى

عُرفت الصور في الكتب الدينية عند النصارى منذ القرون الاولى للمسيح . فكان اهل هذا الفن يبذلون العناية في تزويق المخطوطات الدينية بأبدع الرسوم واروع الالوان تزييناً للمكاتب او للتيمن بها في الكنائس . وكان الرهبان بنوع خاص يتنافسون بتنميق الاسفار المقدسة وتصويرها تعظيماً لها واجلالاً لقدرها . فكانوا مثلاً يدبجون فاتحة الكتاب بنقوش مزخرفة ورسوم مستظرفة . وكانوا يكتبون العناوين بحروف ممتازة مطعمة بالذهب والفضة . وكانوا يُزينون اول حرف من كل فصل بصورة نسر او حمامة او حمل او أيل او سمكة ولكل منها رمزه في الكتاب المقدس . ذلك عندما كانوا يرسمون صور السيد المسيح او اولياء الله او الاسرار البيعية . ومن جملتها هيئة خبز القربان الذي كان يستعمله نصارى العرب في سالف الزمن . وكان الاقدمون يسطرون الانجيل بحروف ذهبية ويصفحونه بالجواهر الكريمة ويحملونه مكتوباً بحرف دقيق ومعلّقاً في اعناقهم على صدورهم تيمّناً وتبرّكاً (٤).

---

(١) تاريخ الجبرتي : جزء ١ صفحة ٣٩٧

(٢) فهرس مخطوطات مكتبة باريس رقم ٢٦٨-٢٧٤

(٣) المخطوطات العربية لكتبة النصرانية : صفحة ٢١٧

(٤) المباحث الجلية في الترجيات الشرقية والغربية : تاليف البطريرك اغناطيوس افرام رحماني : صفحة ٦٩٧

ولنا ادلة كثيرة في الشعر الجاهلي على رقش النصارى لكتبهم الدينية وتنميقها بالزخارف . نورد منها بيتاً للراجز رؤبة بن العجاج قال (١) :

انجيلُ أحبار وَحى مُنَمْنِمُه   ما خطَّ فيه بالمداد قلمه

وقرأنا في المفضليات ما يلي (٢) :

كتابُ محبِّرٍ هاجٍ بصيرٍ   يُنَمِّقه وحاذرْ ان يُباعا

وقال المرقّش الاكبر عوف بن سعد بن مالك . . . بن بكر بن وائل يصف رسوم الدار مشبهاً اياها برقش القلم في ظهر الجلد (٣) :

الدار قفرٌ والرسوم كما   رقّش في ظهر الاديم قلمْ

ومن تلك الادلة ما ورد في قول حاتم الطائي (٤) :

أتعرف آثار الديار توهماً   كخطك في رقّ كتابا منمنما

واشار علقمة بن عبدة (٥) الى وشي الخط وتنميقه قال :

وذكرنيها بعدما قد نسيتها   ديار علاها وابل متعبّقُ
باكناف شعّاتٍ كأن رسومها   قضيمُ صناع في اديم مُنمّقُ

ولم تنحصر تلك المخطوطات في امة مسيحية دون سواها بل شاعت عند جميع النصارى على توالي الاحقاب . وكان حظ الناطقين بالضاد لا يقل عن حظ غيرهم من الشعوب في هذا المضمار . بيد ان الحروب والفتوحات والفتن الدينية

---

(١) ديوان رؤبة : صفحة ١٤٩ طبعة وليم بن الورد مع ترجمته الالمانية في برلين سنة ١٩٠٣

(٢) المفضليات للضبي : صفحة ٦٩٨ (ED. LYALL)

(٣) النصرانية وآدابها بين عرب الجاهلية : القسم الثاني صفحة ٣٥٥

(٤) الاغاني : ٧ : ١٣٢

(٥) معجم ما استعجم للبكري : صفحة ٧٠٥

والاضطرابات السياسية في البلاد الشرقية اتلفت القسم الاوفر من تلك النفائس المصورة . وسنبيّن ذلك في فصل لاحق سميناه « وزايا الكتب والمكاتب » .

ولما كانت المخطوطات الدينية النصرانية المصورة التي عصت على الدهر اوفر عدداً من المخطوطات الدينية الاسلامية المصورة فقد اقتصرنا منها على ذكر ما يلي : في مكتبة دير طور سيناء مخطوط عنوانه « البشائر الاربع » محفوظ فيها تحت رقم ٦٨ ومنسوخ على رقٍ ناعمٍ بخطٍ جميل . وقد دبج بالرسوم وفي كل رسمٍ اربع شجرات مزخرفة وبين كل شجرتين خط نسخٍ ، وفوق تلك الشجرات وتحتها سطرٌ بخط ثلث بديع كُتب بليقة الذهب . وهذا المخطوط على قدامة عهده لم يزل بحالة جيدة (١) .

ومن اقدم المخطوطات الدينية النصرانيـة المصورة التي اطلعنا على اخبارها كتاب « العهد العتيق » في مكتبة المتحف الاسيوي في لينغراد ، وهو في مجلدين نسخه بيده سابا السيقي المسمى بيمين الدمشقي سنة ١٢٣٦ للميلاد ودبجه ببعض الصور (٢) .

واشتملت مكتبة المتحف الاسيوي ايضاً في لينغراد تحت الرقم ١ بين مخطوطاتها على نسخة من مزامير داؤد بديعة الاتقان مزدانة بالصور العديدة . وقد كتبها بخطه الانيق الخوري يوسف المصور سنة ٧١٥٨ للعالم (١٠٥٨ هـ و١٦٤٨ م) برسم الحاج ميخائيل ابن الخوري يوسف الشهير بابن المبيض (٣) .

وفي الخزانة المعلوفية برحلة مجموعة خطية باللغة العربيـة لعالم قبطي . ومما ازدانت به تلك المجموعة صليبٌ ملوّن يعلوه نسر ونقوش بديعة شتى . وفي مكتبة

---

(١) مكتبة دير سيناء : بقلم يحيى عبد المسيح (مجلة الراعي الصالح في الاسكندرية : مجلد ١ سنة ١٩٤٠ صفحة ٣٣)

(٢) المخطوطات العربية لكتبة النصرانية في المكاتب البطرسبرجية : بقلم المستعرب اغناطيوس كراتشقوفسكي

(٣) المخطوطات العربية لكتبة النصرانية في المكاتب البطرسبرجية : بقلم المستعرب اغناطيوس كراتشقوفسكي

الجامعة الاميركية ببيروت مخطوط يحوي «تفسير الانجيل» عرّبه القس يوسف الباني في اربعة مجلدات وفي احد هـذه المجلدات صورة تثليث الاقانيم مزدانة بالوان رائعة متقنة . اما تفسير الانجيل المشار اليه فهو تأليف كرنيليوس الحجري (+ ١٦١٧) (١) .

ومن ذخائر المكتبة الشرقية في بيروت مخطوط بديع باللغتين العربية والقبطية عنوانه «الثاودوكيات» يقع في ٤٣٠ صفحة . وفي دائرة المخطوط اطار ذو ثلاثة خطوط ملونة احمرين فأزرق . والمتن بحبرين اسود فاحمر . وفي اول الفصول وآخرها نقوش بالوان مختلفة يكثر فيها الذهب . ومع هذه الحلى تصاوير متعددة : منها صلبان على هيئات شتى ، ومنها حيوانات رمزية كالطاووس والسمك واعراض القربان الاقدس وفي رأس الفصول القبطية نرى طائراً على شبه العقاب وهو يدل على حرفٍ من الحروف القبطية استعاروه من اصطلاحات قدماء المصريين (٢) .

ولا يخفى ان النساطرة يُعتبرون من اقدم الفرق النصرانية في الشرق . ويشهد على اعتقادهم في اكرام الصليب والصور ما نجده في كتب طقوسهم القديمة والحديثة من التصاوير . فان اناجيلهم مثلاً مرصعة بالصور الفضية ومن جملتها صورة المصلوب . وكذلك يزينون هذه الكتابة بنقوش بديعة تمثل اسرار حياة المسيح من مولده الى قيامته على حسب رتب الاعياد ومعاني الصلوات . ففي قوجانس مقر بطاركتهم منذ القرن السابع عشر الى سنة ١٩١٨ كان يصان انجيل مصور يعدّ من التحف البديعة . وبعد السنة المذكورة تشتت شمل النساطرة شرقاً وغرباً (٣) ولم يتيسر لبطريركهم حتى الان ان يتخذ مركزاً رسمياً

---

(١) فهرس مخطوطات دير الشرفة : للخوري اسحق ارملة : صفحة ٣٢٠-٣٢٣

(٢) المشرق : مجلد ٦ سنة ١٩٠٣ صفحة ٥٤٢-٥٤٣

(٣) كتاب «المرجانة» المطبوع في الموصل سنة ١٩٢٤ لناشره الارخدياقون يوسف النسطوري : المقدمة

لكرسي البطريركية . وقد حوت مكتبات لندن وباريس اناجيل مصورة مثل الانجيل المومأ اليه ابتاعها الانكليز والفرنسيس من النساطرة (١).

ومن هذا القبيل ايضاً انجيل كتب منذ اوائل القرن السادس عشر تزينه صور الاربعة الانجيليين بالوان رائعة يحدق بها اطار محلى بذهب وزهور . وتبلغ صفحاته ٢٨٠ اطّلع عليه الاب لويس شيخو سنة ١٨٩٥ في رحلته الى ماردين (٢) وعثر الاب المشار اليه على انجيل مصور ايضاً في مكتبة عين تراز بجبل لبنان يتضمن تنقيحات واصلاحات مأخوذة عن الترجمة القبطية والسريانية (٣) .

وفي مكتبة المرحوم بطرس منصور تيان في بيروت نسخة معتبرة من الانجيل تاريخها سنة ٦٢٤ هجرية (١٢٢٧ م) والكتاب يشتمل على ٤٨٦ صفحة مع نقوش جميلة بالالوان . وفي مكتبة الاقباط بالقدس نسخة من الاناجيل تشبه النسخة الماردينية الموصوفة سابقاً كتبت في سنة ١٠٤٢ للشهداء (٤) .

على اننا نضيف الى ذلك وصف مخطوط مصوّر محفوظ في مكتبة مطرانية الروم الكاثوليك بمدينة صور يرتقي عهد نساخته الى القرن السابع عشر . وهو ينطوي على ليترجيّات فم الذهب وباسيليوس وغريغوريوس مدّونة في حقلين عربي ويوناني بخط جميل مشرق ملوّن بحبر اسود واحمر واخضر ومذهب . وفي مقدمة الفصول حروف يونانية ذات اقدار والوان مختلفة . فمنها حروف متوسطة ذهبية . ومنها حروف كبيرة على ربع الصفحة بالوان زاهية وتصاوير جميلة في تقاطيعها رموز من الحيوانات كالتنين والحيات والعنقاء والحمام والطيور وبعض التصاوير التقوية كصور السيد المسيح والرسل والملائكة والاسرار . وفي الكتاب ما خلا ذلك صور اخرى اكبر من السابقة وهي ملونة مثلها بالوان بديعة ، بينها صور

---

(١) المشرق : مجلد ١٠ سنة ١٩٠٧ صفحة ٨٤٥

(٢) المشرق : مجلد ٤ سنة ١٩٠١ صفحة ١٠٧

(٣) المشرق : مجلد ٤ سنة ١٩٠١ صفحة ١٠٨

(٤) المشرق : مجلد ٦ سنة ١٩٠٣ صفحة ٢٣٨-٢٣٩

اعمال المخلّص والعذراء الطاهرة وبعض اولياء الله من الرسل وغيرهم (١) .

وفي المكتبة الشرقية للاباء اليسوعيين ببيروت نسخة جامعة لكل اسفار العهد الجديد الا رؤيا مار يوحنا الانجيلي . وهي جميلة الخط دُبجت بعشر صور بديعة ملوّنة تاريخها سنة ١٦٥٣ ميلادية (٢) .

٧ ـ المخطوطات الدينية المصورة والمزوقة عند المسلمين

روى جرجي زيدان في بحثه عن الفنون الجميلة عند الاسلام ما نصّه : والصور الدينية ابعد ما يكون عن اذهان المسلمين . ولذلك لا تجد شيئاً منها في كتبهم الدينية على اختلاف مواضيعها . ومن غريب ما رأيناه من هذا القبيل ثماني صور خيالية منشورة في كتاب الميزان بالفقه الشافعيّ لعبد الوهاب الشعراني . وهو مطبوع في بولاق سنة ١٢٧٥ للهجرة . وقد مثل فيه صوراً في ذهنه لعين الشريعة وفروعها والصراط لمن استقام في دار الدنيا ومن اعوجّ . . . ونحو ذلك مما لا نعرف له مثيلاً في غير هذا الكتاب (٣) .

ومن الكتب الاسلامية الشائعة المحلاّة بالرسوم كتاب « دلائل الخيرات » وفي بعض نسخه صورة الكعبة ومكة والمدينة واضرحة الصحابة وغير ذلك من النقوش مدبّجة بالالوان ومجدولة بالذهب . ومنها « كتب المناسك » المزدانة برسوم مكة والمسجد الاعظم فيها . وروى المؤرخ البحّاثة عيسى اسكندر المعلوف (٤). انه شاهد عند الاب انستاس الكرملي في اثناء مروره بدمشق مخطوطاً عنوانه : « وصف مكة » كتب في القرن الثاني عشر للميلاد . وفي هذا المخطوط صورة

---

(١) المشرق : مجلد ١١ سنة ١٩٠٨ صفحة ٢٣٨-٢٣٩

(٢) المخطوطات العربية لكتبة النصرانية : بقلم الاب لويس شيخو : صفحة ٢٤٤

(٣) تاريخ الآداب العربية : مجلد ٣ صفحة ٢٦٩

(٤) مجلة الآثار : مجلد ٣ صفحة ٤٢٠ و ٤٢١

مدينة مكة محلاة بالالوان البديعة . وفي الخزانة التيمورية بالقاهرة كتاب عنوانه : « نبذة في تاريخ الحجاز ومعالمه » ينطوي على رسم الحرم بمكة .

وفي دار الكتب الظاهرية بدمشق كتاب « النفحات العنبرية في وصف نعل خير البرية » لاحمد بن محمد المقري مؤلف كتاب نفح الطيب كُتب سنة ١٠٩٦ للهجرة . وهذه النسخة نفيسة الخط جداً وفيها صورتان للنعل الشريف مذهبتان. وهي من جملة المخطوطات التي اوصى بها الشيخ عبدالله الكزبري لدار الكتب المشار اليها (١) .

ويروى ان شجاع الدين ضياء صاحب السلطان بيبرس وسفيره حمل الى بركة امير المغول ثلاث صور من صنع يده تمثل هيئة الحج . واثبت المصور الشهير فرنسيس كازانوفا (١٧٣٠ – ١٨٠٥) البندقي الاصل ان احد سياح العرب في آخر القرن التاسع للميلاد شاهد في رحلته الى الصين وغيرها صورة نبي المسلمين وصور اعاظم رجال الاسلام (٢) .

وفي خزانتنا الخصوصية ثلاث مخطوطات اسلامية موشاة برسوم مستبدعة وهي :

١ً – كتاب « انعام شريف المقدار » يتلوه «دلائل الخيرات » تزينه فواتح منمقة بالوان ظريفة واطارات ذهبية . وفيه صورتان لحرم مكة وقبر النبي العربي في صفحتين متقابلتين .

٢ً – مصحف القرآن يشتمل على ستمائة واربع صفحات في كل صفحة اربعة نقوش دُبجّت في زواياها الاربع . فيكون مجموع الزوايا الفين واربعمائة وست عشرة زاوية زُينت كل منها بنقشة تختلف عن سائر النقشات برسمها وألوانها وهو مصحف نادر وحيد من نوعه بين سائر المصاحف على الاطلاق .

---

(١) مجلة المجمع العلمي العربي : مجلد ١٠ سنة ١٩٣٠ صفحة ٦٣-٦٤

(٢) مجلة الآثار : مجلد ٣ صفحة ٤١٧

٣ – « شجرة نبوية » تفنن فيها ناسخها بروائع الخطوط والاشكال وقد وُشيت صفحتها الاولى بصورة جامع ترتكز عليه ثلاث مآذن مستظرفة .

وفي خزانة السيدة جان دي طرّازي في باريس مخطوطات متنوعة ثمينة دُبجّت بالصور الرائعة . منها جلد نفيس كان مصوناً في خزائن السلطان عبد الحميد الثاني بقصر يلدز بالاستانة . وهو يتضمن صورتين للنعل النبويّ وشّحتا بالذهب والزخارف الملوّنة والكتابات الجميلة . وقد نقش على احدى الصورتين هذان البيتان :

قبّل نعالَ المصطفى خيرِ البشرْ ومتّعِ العينينِ فيه بالنظرْ
واجعلهُ فوق الرأسِ والجبينِ ومرّغ الخدَّ بذلك الأثرْ

ونقش على الصورة الثانية بيتان آخران اليك نصها :

امرّغ في المثال بياض وجهي فقد جعل النبي له قبالا
وما حبّ النعال شغفن قلبي ولكن حبّ من لبس النعالا

٨ – المخطوطات المصورة والمزوقة في كتب التاريخ والرحلات

من هذا النوع مخطوط في المتحف البريطاني مزين برسوم بينها صورة حصار بني النضير . وهو مكتوب في القرن الثامن للهجرة . وفي مكتبة شلومبرجر مخطوط عربي اقدم من المخطوط السابق كتب في القرن السابع للهجرة يحتوي على رسوم شتى تاريخية . نذكر منها صورة في نهاية الابداع تمثل قافلةً من الجند بخيلها ورجلها ونوقها واسلحتها وابواقها واعلامها .

ومن المخطوطات التاريخية المصورة كتاب « زبدة الحلب في تاريخ حلب » لكمال الدين عمر العقيلي المشهور بابن العديم . ومن هذا المخطوط النفيس نسخة مصورة في دار الكتب المصرية نقلت عن مخطوطة الاستانة . ولمؤلف الكتاب

كلام واسع عن جغرافية بلاد حلب وبحيراتها وجبالها وتربتها وهوائها ومائها وخرابها وعادياتها . وقد ذكر المؤلف مدناً اتبعها بحلب وهي تعد اليوم من بلاد كيليكيا . وعقد فصلاً من احمل فصول الكتاب عمن نزل بحلب وضواحيها من قبائل العرب ومن كان فيها قبلهم (١) .

ومن هذا القبيل كتاب « نخبة الدهر في عجائب البر والبحر » للرحالة شمس الدين ابي عبدالله محمد بن ابي طالب الانصاري الدمشقي المتوفى سنة ٧٢٧ هـ (١٣٢٧ م) وقد زينه مؤلفه بالخرائط الجغرافية وصور المشاهد الغريبة التي رآها في رحلاته من حيوانات نادرة وقصور عظيمة وطواحين هواء وآلات فريدة من نوعها للتقطير وغير ذلك . وقد طبع هذا الكتاب اولاً سنة ١٨٦٥ في بطرسبرج وثانياً سنة ١٨٧٤ في كوبنهاغن عاصمة الدنيمارك (٢) .

وللاب متى خيفالا القبرسي الاصل كتاب « الدرّ المنظوم في اخبار ملوك الروم » ألّفه في القرن السابع عشر باللغة اليونانية . ونظر فيه البطريرك الانطاكي الارثوذكسي مكاريوس الثالث (١٦٤٧ - ١٦٧٢) المعروف بابن الزعيم . وقد عرّبه الخوري يوسف المصوّر ابن الحاج انطونيوس الحلبي وزينه بالصور (٣) . ومن هذا الكتاب نسخة بديعة كتبها بيده الارخدياقون بولس ابن الزعيم قرب سنة ١٦٦٠ وهي محفوظة في مكتبة المتحف الاسيوي رقم ١٩٠ في لينينغراد (٤) .

وفي مكتبة الاوقاف بدمشق نسخة مصورة من مخطوط عنوانه « منادمة الاطلال » تأليف بدران . ومما احتواه هذا المخطوط تاريخ المدرسة الظاهرية التي اصبحت مقراً لدار الكتب الاهلية في عاصمة الامويين (٥) .

---

(١) تأليف ابن العديم : لمحمد كرد علي « مجلة المجمع العلمي العربي » : مجلد ١٦ سنة ١٩٤١ صفحة ١٤٩-١٥٠

(٢) تاريخ آداب اللغة العربية : لجرجي زيدان : جلد ٣ صفحة ٢١٩

(٣) مجلة الآثار : مجلد ٣ صفحة ٤٢٣

(٤) المخطوطات العربيه لكتبه النصرانية في المكاتب البطرسبرجية . بقلم المستعرب اغناطيوس كراتشقوفسكي

(٥) منادمة الاطلال صفحه ١٦٠ و ٢٠٢ ومجلة دمشق مجلد ١ صفحة ٤٣

٩ ـ المخطوطات المصورة في العلوم الجغرافية

يراد بالجغرافيـة الخرائط وتخطيط البلدان . ويرتقي عهد اقدمها الى زمان ظهور علم الجغرافيا عند العرب في القرن الرابع للهجرة . وقد نبغ كثير منهم في الموضوع فالّفوا الكتب وزينوها بخرائط ملوّنـة كابي زيد البلخي وابي اسحق الاصطخري وابن حوقل . ولابي عبدالله المقدسي كتاب « احسن التقاسيم في معرفة الاقاليم » الفهُ سنة ٣٧٥ للهجرة (٩٨٥ م) فصدره بمقدمة في علم الجغرافيـا عند العرب حتى ايامه . ثم اضاف اليه خرائط كثيرة ملونة بدليل قوله بعد ذكر تقسيم الكتاب الى اقاليم ما نصه : « ورسمنا حدودها وخططها وحررنا طرقها المعروفة بالحمرة . وجعلنا رمالها الذهبية بالصفرة وابحارها الملحة بالخضرة وانهارها المعروفـة بالزرقـة وجبالها المشهوره بالغبرة ، ليقرب الوصف الى الافهـام ويقف عليه الخاص والعام » .

واقدم المؤلفات الجغرافية العربية كتاب « صور الاقاليم الاسلامية » تأليف ابي زيد احمد بن سهل البلخي المتوفى سنة ٣٢٢ للهجرة. فانه زينه بالخرائط الملوّنة على قدر ما بلغ اليه اجتهاد بني قومه في تلك الحقبة . ومن هذا الكتاب نسخة خطية في مكتبـة برلين تشتمل على خرائط الارض واشكالها والاقاليم الاسلامية مرسومة بالالوان (١) .

ولابي اسحق الاصطخري كتابان في الجغرافيا احدهما مسالك البلدان خال من الخرائط طبع سنة ١٨٧٠ في ليدن . وثانيها « كتاب الاقاليم » مزين بتسع عشرة خريطة ملونة طبع على الحجر سنة ١٨٣٩ في غوطا . وكان نشره على يد الدكتور مولر من علمـاء الاستشراق في المانيا . وقد جاءت هذه الخرائط مطابقـة بالوانها للاصل الذي أخذت عنه. ومن المصورات الجغرافية ايضاً نذكر كتاب « الجغرافيا

---

(١) محاضرات المستشرق اغناطيوس غويدي في الجامعة المصرية : صفحة ١٨ طبعة القـاهرة سنة ١٩٠٩ « ومعجم الادباء : لياقوت الرومي : جزء ١٦ صفحة ٢٢٥

الغربية » لمؤلفه ابي العباس احمد بن شهبون يحتوي على ثماني عشرة صحيفة مكتوبة ومخططة بالالوان .ولهذا المخطوط النفيس نسخة معتبرة في « الخزانة الزيدانية » بمكناس (١) .

وطالعنا في الخزانة البارودية ببيروت مخطوطاً عنوانه « تحرير كتاب منالاوس» في الاشكال الكردية نسخ سنة ٦٢٢ للهجرة . احتوى رسوماً كثيرة بغاية الضبط على ورق حريري .

ومن شاء الوقوف على مصورات الخرائط التي خلفها جعرافيو العرب باشكالها الغريبة والوانها المختلفة احلناه الى انفس كتاب ابرزته مطابع القرن العشرين . وعنوان هذا السفر المنقطع النظير : « المجموعة الكمالية في جغرافية مصر والقارة الافريقيـة » لمؤلفه الجوّالة الجوّابة الامير يوسف كمال من اعاظم علماء مصر وأحد افراد الاسرة المالكة فيها . وهي سلسلة مجلدات كبيرة الحجم بديعة الطبع متقنة الرسوم صدر منها حتى الآن عشرة مجلدات . ولا يزال نشر باقي مجلداتها متتابعاً بعناية هذا الامير الخطير . وقد اهدى سموه مجموعته هذه الكماليـة وسائر مؤلفاته النفيسة الى دار الكتب اللبنانية ببيروت . فلسنا نرى في هذا المقام الا ان نسدي الى سموه عاطفة معرفة الجميل على هذه التحفـة الثمينة داعين له بالعمر الطويل والتوفيق المستمر .

على ان للامير يوسف كمال المشار اليه فضلاً على النهضة الفنية في وادي النيل اد بعثها من الموت بانشائه مدرسة الفنون الجميلة (٢) في عاصمة الديار المصرية .

١٠ ـ المخطوطات المصورة في العلوم الحربية والبحرية

من اشهر المخطوطـات في هذه العلوم كتاب « تعبئة الجيوش » وهو ثلاثـة

---

(١) كتاب « العز والصولة في نظام الدولة » لمؤلفه العلامة مولاي عبد الرحمن بن زيدان نقيب الاسرة المالكة في المغرب الاقصى. وكتاب « الدرر الفاخرة » للمؤلف عينه : صفحة ٩٥-٩٦

(٢) تاريخ الفنون لسلامه موسى · المقدمة

فصول تقع في ٣٢ صفحة كبيرة . وتحتفظ بهذا المخطوط مكتبة غوطا عاصمة دوقية سكس كوبورغ غوطا بالمانيا. والكتاب مزيّن برسوم متقنة تمثل الاشكال الحربية من تنظيم صفوف العساكر الى امرائها وقوادها وفرسانها واتباعها مع منزلة كل فريق في معسكره . وهذه الاشكال موضحة في مربعات او مثلثات او دوائر او خطوط مستطيلة تدل على نظام محكم وذوق سليم . وقد طبع هذا الكتاب مع ترجمته الى اللغة الالمانية سنة ١٨٨٠ في غوتنجن بعناية المستشرق وستنفلد .

ومن المخطوطات المصورة في العلوم الحربية كتاب « الانيق في المجانيق » منه نسخة في الخزانة الزكية بمدينة القاهرة تشتمل على ١٠٩ صفحات. وهي مزينة بعدد لا يحصى من اشكال المجانيق ورسوم القلاع وصور مراكز المجانيق . وقد الفه الزردكاش سنة (٨٦٧ هـ ١٤٦٢ م) لشمس العلا منكلي بعا الشمسي.

وفي السنة ١٩٢٧ عرض علينا حمّاع الكتب المشهور جميل بك العظم ان نشتري منه كتاباً مزيناً بالصور يبحث عن الفنون الحربية والالعاب البدنية . وعنوانه : «ميدان سياج الملوك وسراج الملوك صنّف بخراسان» يترجّح عندنا ان تاريخ كتابته يتراوح بين القرنين الثاني عشر والثالث عشر للميلاد . ويبلغ عدد صوره ستاً واربعين صورة ملونة يضاف اليها ستة عشر رسماً لتعبئة الجيوش .غير ان بعض تلك الصور قد عبثت بها الايدي بقصد اصلاحها فشوّهت الاصل فنقصت قيمته الاثرية . ولسنا نعلم ماذا طرأ على هذا المخطوط النادر والى اين انتهى مصيره بعد وفاة صاحبه .

وفي خزانة مخطوطات الدكتور داؤد الجلبي مخطوط بلا عنوان يحتوي مجموعة مهمة جداً في الفنون البحرية والملاحة . وفي هذا المخطوط صور سفن شراعية ملونة وكيفية نصب اشرعتها وغير ذلك في ثماني صفحات . وفيه ايضاً دائرة فلكية ملوّنة تتفق مع ما يسمّونه « وردة الرياح » في هذا الزمان (١) .

---

(١) كتاب مخطوطات الموصل . صفحة ٢٨٠

وفي خزانة كتب مدرسة جامع الباشا في الموصل مخطوط تحت الرقم ١٣٤ عنوانه «كتاب السياسة» ألفه ارسطوطاليس ونقله الى العربية يوحنا بن البطريق. ففي الصفحة الثمانين منه دائرة ارسطوطاليس المشهورة القائلة «العالم بستان سياجه الدولة. الدولة سلطان تحيا به السنّة الخ». وقد عني الناسخ برسم هذه الدائرة وزينها بنقوش ملونة. وبين الصفحة ١١٣ و ١١٤ صفحة عليها صورة آلة ورد عنها في متن الكتاب ما يلي: «ويجب ان يكون معك الآلة التي اقامها نامسطيوس للانذار. وهي آلة مفزعة تنطرق في كثير من الامور، لانك ربما احتجت الى انذار جميع بلادك وتهيىء الاجناد فيها ليوم تحتاج اليهم فيه. وهي للعساكر الثقال وصوتها يسمع من ستين ميلاً وهذه صفتها (١).

وفي مكتبة بتروغراد مسودة عربية قديمة فيها صورة رجلين عربيين يشتغلان في صنع الاسلحة النارية. احدهما يحمل ما يشبه البندقية وفيها القنبلة والبارود داخلها. وقد ادناها من لهيب امامه حتى يولع البارود ويقذف القنبلة. والثانية صورة فارس يحمل قناة ملفوفة بقماش ذي اهداب لتلف بالنفط وترمى على الاعداء حين الاقتضاء. وبجانبي الفارس رجلان ماشيان على يديهما، وبدنه وبدن فرسه نسيج ذو اهداب يستخدم للنفط حين الحاجة (٢).

ومن المخطوطات المصورة في الفنون الحربية نذكر كتاب «التذكرة الهروية» في مكتبة «ايا صوفية» بالاستانة. وكتاب «العز والمنافع في الغزو بالمدافع» لمؤلفه ابرهيم بن احمد الاندلسي في المكتبة الكوبريلية في اسطنبول (٣).

وفي مكتبة «طوب قبو» الشهيرة في اسطنبول مخطوط عنوانه «انموذج القتال في نقل العوال» اي الرماح. تأليف ابن ابي حجلة التلمساني المتوفى سنة ٧٧٦

---

(١) مجلة المجمع العلمي العربي بدمشق: مجلد ٨ صفحة ٧٠٣

(٢) المجلة السورية: مجلد ٢٨ صفحة ٣٢٣-٣٢٤

(٣) الهلال: مجلد ٢٨ صفحة ٣٢٣-٣٢٤

للهجرة (١٣٧٤ م) . وهو يحوي رسوم مناصب كثيرة لترتيب الجنود في القتال .

١١ - المخطوطات المصورة في العلوم الصناعية والميكانيكية

وصفت مجلة المشرق (١) كتاباً عربياً في الصنائع الميكانيكية عنوانه : « الحيل الرومانية ومخانيقا الماء » لفيلون البورنطي احد تلامذة مدرسة الاسكندرية القديمة . وقد نشره بالطبع احد كبار المستشرقين البارون كارا دي فو في مجموع مقتطفاته عن مخطوطات مكتبة باريس ونقله الى الفرنسية وافتتحه بمقدمة شرح فيها تاريخ هذا الكتاب العجيب وكل ما يتعلق به . ثم اضاف اليه ملحقات منها وصف آلة لاصعاد الماء . ولهذا الكتاب نسختان خطيتان احداهما في مكتبة آجيا صوفيا بالقسطنطينية والاخرى في مكتبة اوكسفورد . وهو منقول الى اللسان العربي عن الاصل اليوناني في عهد الخليفة المأمون . وغلب على ظن الناشر ان المعرب نصراني من النقلة المشهورين في ذلك العصر . ولاحظ في الترجمة عدة الفاظ دخيلة منها سريانية ومنها فارسية .

وفي السنة ١٨٧٠ نشر العلامة فالنتين رور نبدة من هذا التأليف كانت ترجمت الى اللاتينية . وبعد استقصاء البحث عن اصلها تحقق الخبراء انها مستخرجة من العربية فطفقوا يجدّون في البحث عن ذلك الاصل العربي فكتب التوفيق للبارون كارا دي فو المومأ اليه ان عثر على المخطوطين المذكورين . وقد وصف الكتاب وصفاً مشبعاً وادّى للعلم والعلماء خدمة يشكر عليها مدى الاجيال .

ويتضمن هذا الكتاب وصف ٦٥ آلة مصورة . اكثرها آلات غريبة عجيبة تدهش الناظر صناعتها . وتمثل صوراً جمّة كالطيور الصافرة والميضأة السحرية

---

(١) المجلد السابع : ١٩ صفحة ٢٦٥-٢٧٢

والتنين الصناعي الخ . وهي مبنية على مبدا الممص (syphon) او السحارة في الطبيعيات الا قليلاً منها قال « المشرق » ما نصه : « وبعض الآلات يسمع لها غناء او صفير . وبعضها تخدع ناظرها لما في باطنها من القساطل الخفية او لتعدد طبقاتها. مثال ذلك آلة وصفها في العدد ٥٩ وهي تمثل حوضاً بجانبه انسان وبيده حربة . وفوق الحوض صورة تنين كأنه يريد ان يشرب من الحوض . فاذا واجه الانسان التنين امتنع التنين عن الشرب كأنه يخافه . واذا ادبر رأيت التنين يمتص ماء الحوض . ويكون شربه قليلاً او كثيراً حسب قوة الماء . والصورة الثانيـة التي تُرى في الصفحة ٢٧٠ تبين تركيب هذه الآلة وقساطلها الخفية ».

وفي الخزانة المعلوفيـة مخطوط في دفع الاشياء الثقيلة تأليف ايرون او هيرون الفيلسوف اليوناني الاسكندري . وقد انشأه مؤلفه في اليونانية مصوراً ونقله الى العربية قسطا بن لوقا البعلبكي الفيلسوف المتوفى سنة ٩٢٣ م . وهو مجموع اربعين رسالة في الآليات اهمها جرّ الاثقال. وقد اطلعنا على هذا المخطوط البديع فوجدناه مزداناً بصورٍ رائعة تلفت الانظار (١) .

١٢ ـ الصور في مخطوطات النجامة والعلوم السحرية

اننا عثرنا على بعض المخطوطات المصورة التي تبحث في النجـامة والاسرار والسحر وعلم الحروف وما شاكلها . وعرفنا اسماء مخطوطات غيرها تتناول هذه المواضيع وهي موجودة في خزائن اوروبا وبغـداد وفي دار الكتب المصرية . ولما كان هدفنا الايجاز في كل ما ندونه من الابحاث فقد اقتصرنا على مخطوطين نفيسين محفوظين في خزائننا الطرازية اليك وصفهما في ما يلي :

اولهما « الدر المنظم في السر الاعظم » مكتوب بحبرين اسود واحمر ومزين ببعض النقوش الجميلة ألفه الشيخ كمال الدين ابي سالم محمد بن طلحـة . وهو يشتمل

---

(١) فهرس مخطوطات الخزانة المعلوفية : رقم ١٨٦٣

على ثلاث وعشرين صورة ملونة يمثل كل منها موضوعاً مستقلاً عن الآخر مع شرح ذلك شعراً ونثراً .

ثانيها عنوانه «كنز الاسرار وذخائر الابرار» او «الحقائق الاسرائيلية والدقائق الابراهيمية» في علم الحروف ألفه عبد الرحمن بن محمد بن علي بن احمد الحنفي البسطامي . صفحات هذا المخطوط النادر كلها مزدانة باطار مذهب ويرتقي عهد نساخته الى سنة ١٠٤٤ هجرية . وهو يحوي عدداً وافراً من الدوائر والمربعات والحيوانات والرموز والارقام والحروف وغيرها من المصوّرات الغريبة الاشكال التي لم نعثر على نظيرها في مخطوط سواه .

١٣ ـ المخطوطات المصورة في الهندسة

قال احد ارباب العلوم الهندسية : الرياضيات افخم بناء شيده عقل البشر . فالرياضيات رغماً عن علو مقامها اذا زاول فنونها رجال من ذوي الخبرة والحذق ربما اتت باعمال عجيبة تخلب العقول وتأخذ بمجامع القلوب . وقد اجاد العرب في رسم الخطوط الهندسية وضعوها على صور شتى واشكال متعددة لا يتمالك ناظرها الا ان يقر بتقدمهم وبراعتهم في هذا الفن . وقد جمع بعض كبار المستشرقين ما وجدوه من هذه التصاوير الغريبة والخطوط العجيبة التي جرى عليها العرب في تركيب الفسيفساء والتطعيم والنقوش المختلفة . ولاحد هؤلاء العلماء المسيو بورغوان (J. Bourgoin) كتاب بديع في بابه اودعه ١٩٠ صورة هندسية نقلها عن نقوش عربية قديمة وطبعها في باريس سنة ١٨٧٩ ودعاها «اصول الفن العربي» (Les éléments de l'art arabe) . وكل هذه التصاوير مرجعها الى خطوط بسيطة اصطنعها العرب بالقاعدة والبيكار تروق العين مع اشتباكها وتداخل بعضها في بعض . وهي مبنية على خواص الاشكال المتعددة الزوايا من خمس الى ١٢ زاوية . ولكل صنف اقسام متعددة تنقسم اليها بهيئات بديعة .

وكان العرب اذا رسموا هـذه الخطوط يعمدون الى الاصداف او العاج او الحجـارة المتلونة يركبونها على الشكل الهندسي فتكون غايه في الحسن . وقد الحق المسيو بورغوان كتابه بعشر صور ملونة تظهر فيها الاشكال الهندسية السابق نقلها عن اعمال قديمة من الشبة والحديد والفسيفساء والخشب عثر عليها في الشرق لا سيا في القاهرة ودمشق (١).

ومن كتب « الهندسة » المصورة التي وقفنـا عليها متن مشروح قدّمه مؤلفه الى الغ بك بن تيمورلنك (١٣٣٦ - ١٤٠٥) ملك التتر . وهي نسخـة نفيسة الخط في ٥٦ صفحة على مثال اقليدس الصوري . وهذا المخطوط من اصل مخطوطـات الخزانة البارودية في بيروت وقد بيعت مخطوطات هذه الخزانة من جامعة برنستون في الولايات المتحدة .

ومن ذلك « مجموعة في الحكمة والهندسة » في جزءين : يبحث الجزء الاول في الحكمة العملية والحكمة النظرية والطبيعيات والفلكيات والعنصريات والالهيات. وهو موشى من الصفحة الاولى حتى الصفحة ٢٠٨ برسوم متقنـــة وحواش ملأت الهوامش . اما الجزء الثـاني فيشتمل على ٤١٢ صفحـة تبحث في الهندسـة . وهو مشحون ايضاً برسوم بديعة تدل على تضلع كاتبه من العلوم الرياضية (٢) .

١٤ ـ المخطوطات المصورة في علم النبات

حدثنا ابن ابي اصيبعة (٣) عن رشيد الدين بن الصوري المتوفى سنة ٦٣٩ للهجرة وعن كتابه « الادوية المفردة » المزين بالصور النباتية قال :

---

(١) المشرق : مجلد ٥ سنة ١٩٠٢ صفحة ٤٠٥-٤٠٦

(٢) فهرس المخطوطات الملوفية بزحلة : رقم ١٨١٤

(٣) طبقات الاطباء : جزء ٢ صفحة ٢١٩ طبعة القاهرة عام ١٨٨٢

ولرشيد الدين بن الصوري من الكتب « كتاب الادوية المفردة» وهذا الكتاب بدأ بعمله في ايام الملك المعظم وجعله باسمه واستقصى فيه ذكر الادوية المفردة. وذكر ايضاً ادوية اطلع على معرفتها ومنافعها لم يذكرها المتقدمون. وكان يستصحب مصوراً ومعه الاصباغ والليق على اختلافها وتنوّعها. فكان يتوجه رشيد الدين المذكور الى المواضع التي بها النبات مثل جبل لبنان وغيره من المواضع التي قد اختص كل منها بشيء من النبات ، فيشاهد النبات ويحققه ويريه للمصور فيعتبر لونه ومقدار ورقه واغصانه واصوله ويصور بحسبها ويجتهد في محاكاتها . ثم انه سلك ايضاً في تصوير النبات مسلكاً مفيداً وذلك انه كان يُري النبات للمصور في ابان نباته وطراوته فيصوره . ثم يُريه اياه ايضاً وقت كماله وظهور بزره فيصوره تلو ذلك . ثم يريه اياه ايضاً في وقت ذواه ويبسه فيصوره . فيكون الدواء الواحد يشاهده الناظر اليه في الكتاب وهو على انحاء ما يمكن ان يراه به في الارض فيكون تحقيقه له ومعرفته له ابين .

وروى لنا احد الادباء ان المكتبة الاحمدية في حلب كانت تشتمل بين مخطوطاتها على كتاب « النبات » لابي حنيفة الدينوري . وقد عني به مؤلفه عناية عظمى فصور النباتات التي بحث عنها تصويراً مدققاً ولوّن اوراقها وازهارها وجذوعها بالوانها الطبيعية. وقد سُرق هذا الكتاب من المكتبة «الاحمدية» وبيع الى المتحف البريطاني بمبلغ مائتي جنيه انكليزي. فكان الاسف عليه شديداً في جميع انحاء الشرق لان هذه النسخة الحلبية الباقية من تراث الآباء هي الوحيدة في العالم كله (١).

وتملك دار الكتب الاهلية في باريس مخطوطة في النبات كتبت بالاندلس في القرن الثاني عشر للميلاد وزينت برسوم نباتية نفيسة . وفي هذه المكتبة ايضاً مخطوطة اخرى نسخت في اواخر القرن الثالث عشر واحتوت على صور نباتات طبية مرسومة بدقة وبراعة تدعوان الى الدهش والاعجاب (٢) .

---

(١) كتب لنا عن سرقة هذا الكتاب عبد الله يوركي حلاق صاحب مجلة الضاد في حلب بتاريخ ٢٠ حزيران ١٩٣٨

(٢) Le siècle médical à Paris 1er Juillet 1938

وفي مكتبة « اياصوفيا » في اسطنبول مخطوط مصور عنوانه « ترجمة كتاب الحشائش » لديسقوريدوس في ثلاثة اجزاء (١) . ولعله نفس المخطوط الذي وصفه الاب لويس شيخو بقوله (٢) : « كتاب النبات لديسقوريدوس عرّبه حنين ابن اسحق مع تصاوير دقيقة ملوّنة لاشكال النبات » .

وفي المكتبة البلدية بالاسكندرية جزء من كتاب « مسالك الابصار » لابن فضل الله العمري خاص بالنبات ومصور بالالوان (٣) .

١٥ ـ المخطوطات المصورة في علم الموسيقى

من المصاحف العربية النادرة مخطوطات الموسيقى والاندو فيها ما ازدان بالرسوم والصور . فقد عثرنا من هذا القبيل على مخطوط عنوانه « علم الموسيقى وعلم التأليف والخواص من علوم الفلسفة النظرية » . وهو يشتمل على ثماني مقالات تقع في نحو ٢٦٠ صفحة تصفحناه في الخزانة البارودية ببيروت وقلبناه من اوله الى آخره ، فاعجبنا ما احتواه من الصور والاشكال وعلامات الايقاع والنبرة والنغم . وقد ضبطها الناسخ على اكمل ما يكون من جودة القرطاس والمداد وجمال الخط واتقانه . اما مؤلفه فمجهول وينسبه بعضهم الى ابي نصر الفارابي .

وفي الخزانة المعلوفية بزحلة «ارجوزة في الانغام» للشيخ جمال الدين ابي محمد عبدالله الماريني . يليها شرح النغمات ثم ذكر الانغام واصولها وفصول في الموسيقى ودائرتان للأنغام بديعتان مصورتان . وفي الخزانة ذاتها مخطوط « كشف الهموم والكرب في شرح آلات الطرب » للمشهدي زُيّن بتصاوير لطيفة .

ومن هذا القبيل نذكر مخطوطاً مصوراً موضوعه « الالآت المنغمة » كانت

---

(١) نوادر المخطوطات لاحمد تيمور باشا ـ الهلال : مجلد ٢٨ صفحة ٣٢٨

(٢) سياحة حديثة الى جهات اوروبا : بقلم الاب لويس شيخو ـ المشرق : ٧ سنة ١٩٠٤ صفحة ١٠٦٥

(٣) الهلال : مجلد ٢٨ صفحة ٣٣٠

تملكـــه الجمعية الخيرية الارثوذكسية في بيروت . وقد نشرت مجلة المشرق بعض رسومه الملوّنة (١).

وتحوي مكتبة «طوب قبو» في اسطنبول مخطوطاً في الموسيقى عنوانه «الرسالة الشرقيـة في النسب التأليفيـة» لعبد المؤمن بن الصفي البغدادي . وهو بالقطع المتوسط فيه جداول ملوّنة وعلامات موسيقية بحروف عربية . وفي خزانة «طوب قبو» ايضاً مخطوط عنوانه «كشف الهموم والكرب في شرح آلة الطرب» تأليف محمد بن علي المشهدي الانصاري . حوى ثلاثـــة عشر رسماً بالالوان تمثل اشخاصاً ينقرون آلات موسيقية . وقد ورد في هـذا المخطوط ما نصه : «كتبت برسم الخزانة العالية المولوية المحترمية المخدوميه السيفية سيف الدين ابو بكر ابن المقر المرحوم منكلي بغا الفخري» . وفي هذا المخطوط رسوم العود والقانون والربابة والقيثارة وسائر آلات الطرب والمعازف .

وحوت الخزانة المعلوفية مخطوطاً عنوانه «سفينة موسيقيـة» انطوى على صور دوائر الانغـام في غاية الاتقان مع ارجوزة في الانغام . واشتمل ايضاً على ابواب في الموسيقى وبرهانها وتأثيرها ورأي اهل الطرب فيها (٢) .

١٦ - المخطوطات المصورة في علم الفلك

كان نصيب المخطوطات الفلكية ذات الصور اوفر من نصيب المخطوطات المصورة التي خلفها العرب في سائر المواضيع العلمية . فانهم توسعوا فيها لتوضيح النصوص وجلاء الغوامض للقراء والراغبين في العلم . وقد وقفنا على عدة مخطوطات من هذا القبيل نقتصر منها على وصف بعضها بالايجاز وهي :

---

(١) مجلة الآثار : لعيسى المعلوف في زحلة : مجلد ٣ : ١٩١٤ صفحة ٤٢٣

(٢) مخطوطات الخزانة المعلوفية بزحلة : رقم ١٨٤٢

كتاب « نهاية الادراك في دراية الافلاك » لمؤلفه قطب الدين محمد بن مسعود الشيرازي. وهو ينطوي على صور فلكية اهمها صورة كسوف الشمس. فلما تكلم المؤلف عن هذا الكسوف زين المتن بصورة القمر والشمس في اعلاه ووضع الارض في اسفله. ثم رسم دائرة كبرى كتب على محيطها الفلك المثل ومرّ محيطها بمركز الشمس. ونقش داخلها دائرتين متساويتي القطرين تقابل محيطاهما في مركز القمر. وكتب على محيط اليسرى منهما منطقة تمثل القمر وعلى اتجاه مركز الشمس رسم الارض مبيناً مركزها. اما على محيط الارض فاختار موضع الناظر واظهر مخروط القمر ومخروط الظل.

ووقفنا كذلك على مخطوط عنوانه « صور الكواكب » صنفه عبد الرحمن ابن عمر الطوسي يرجع تاريخه الى منتصف القرن السابع للميلاد. ففيه يجد القارىء صورة نسرين كتب المؤلف فوق صورة احدهما ما اوّله: « المجرّة عند القدر الخامس بينهما مقدار شبر من رأس العين ... » وحلّى المؤلف كل نسر منهما بعدد الكواكب المشرقة في بدنه وجناحيه وذيله ومخالبه (١).

واطلعنا على مخطوطين بعنوان « صورة الكواكب » ايضاً انشأه احمد تيمور باشا المصري: احدهما في خزانته التيمورية وثانيهما في الخزانة الاحمدية بحلب وهما في غاية الندرة (٢).

وفي مكتبة السيد هبة الدين الشهرستاني ببغداد مخطوط في « النجوم » لابي ريحان البيروني. وهو قديم العهد مزين ببعض الرسوم الملوّنة.

واطلعنا على بعض مخطوطات فلكية مصورة في المكتبة الشرقية للاباء اليسوعيين ببيروت. نذكر منها (٣): كتاب « شرح الجغميني في الهيئة » حوى

---

(١) التصوير التوضيحي في المخطوطات الاسلامية: للدكتور احمد موسى: مجلة الرسالة في القاهرة لاحمد حسن الزيات: سنة ٦ صفحة ٨٣١-٨٣٣

(٢) الهلال: مجلد ٢٨ صفحة ٣٢٩

(٣) المشرق: مجلد ٣ سنة ١٩٠٠ صفحة ١١٢٨-١١٣٠

اشكالاً فلكية محكمة. و « مجموع كبير » تضمن عدة كتب فلكية قد زين صدره بصورة الارض ملونة مع صور دوائر الفلك المحيط والكواكب وصورة فلك البروج وكسوف الشمس. وكتاب « توضيح التذكرة » وهو شرح كتاب « التذكرة في علم الهيئة » لنصير الدين الطوسي المتوفى سنة ٦٧٢ للهجرة (١٢٧٣ م). وفي هذه المخطوطة اشكال عديدة حمر وسود.

ولا تخلو مكتبة الشرفة بلبنان من مخطوطات فلكية بهذا الشكل، منها مجلد ضخم عنوانه « علم الفلك والاسطرلاب » رقمه ١/١٨ حوى ابحاثاً ضافية عن الفلك والهيئة والحساب، ضمت اليها زهاء عشرين صورة بينها صورة الزبرجة السبتية. وقس عليه مخطوطاً آخر عنوانه « كتاب اقليمس ونبذ شتى » وهذا المخطوط عتيق مجلد بخشب تبلغ صفحاته ٤٨٠ صفحة (١).

واطلعنا في الخزانة البارودية ببيروت على مخطوط عنوانه « القرعة المأمونية » في الابراج واستخراج المضمرات. وهو مصور بجداول ودوائر جميلة الرسم والخط كتب منذ اكثر من خمسة قرون. وشاهدنا في الخزانة نفسها « شرح تذكرة نصير الدين الطوسي » في الفلك تأليف السيد الشريف الجرجاني. وهو موشى بصور متقنة على ورق حريري نسخ سنة ٨٩٥ للهجرة في مدينة بروسة.

ومن هذا القبيل مخطوط عنوانه « شرح الملخص في الهيئة » لمحمود بن محمد بن عمر الجغميني الخوارزمي. وقد علق حواشيه الشيخ فصيح الدين. وهذا المخطوط الذي يحوي ثلاثين رسماً مكتوب في السنة ١١٥١ للهجرة (١٧٣٨ م) وهو محفوظ في الخزانة الطرازية ببيروت. ونرجح ان هذا المخطوط يشابه مخطوط الجغميني المحفوظ في المكتبة الشرقية كما سبق الكلام.

واحتوت الخزانة المعلوفية في زحلة بلبنان على بعض مخطوطات فلكية اولها: مقالات القديس يوحنا الدمشقي وبعض منطقه في مخطوط قديم جداً مخروم الاول

---

(١) الطرفة في مخطوطات دير الشرفة : صفحة ٢٧١-٢٧٤

والآخر . ففي مقالة الافـــلاك صورة زيتية بديعة وصورة الشمس بشكل اسد ، فالزهرة بشكل امرأة الخ . وثانيها مخطوط عنوانه « صور الكواكب » لابي الحسين الصوفي ، يتضمن رسوماً بديعة تمثل الحيوانات التي سميت بها بعض النجوم والكواكب كالاسد والثور والحمل والجدي والسرطان والعقرب . وثالثها « شرح الجغميني » لقاضي زاده في علم الفلك . وهو متقن الرسوم والاشكال جميل الخط والحواشي .

١٧ ـ المخطوطات المصورة في الفروسية والصيد والبيطرة

كان لهذه الفنون عند العرب شأن خطير في سالف الزمان. وكان لملوكهم عناية بها يخرجون في مواكب يطلق على اميرها لقب امير شكار . وبياناً لكلف ملوك العرب وامرائهم بالخيل فان بعضهم الّف فيها رسائل مفيدة وكتباً مستجادة ، نذكر منهم علي بن داؤد من بني رسول ملوك اليمن (٦٢٦ - ٨٤٥ ﻫ) فانه خلّف كتاباً عنوانه « الاقوال الشافية » منه نسخة مخطوطة في الخزانة التيمورية بالقاهرة . والّف الامير محمد باشا ابن الامير عبد القادر الحسني الجزائري كتاب « نخبة عقد الاجياد في الصافنات الجياد » المطبوع في بيروت سنة ١٣٢٦ للهجرة .

اما المخطوطات المصورة في الموضوع المتقدم ذكره فاننا عرفنا منها بدار الكتب المصرية كتاب « نهاية السؤل والامنية في تعليم الفروسية » ، ومنها كتاب « الزردقة » في معرفة الخيل واجناسها وامراضها . وعرفنا في مكتبة خليل آغا بطنطا كتاباً في « البيطرة » ملوّن الصور (١) .

وفي دار الكتب الظاهرية بدمشق مخطوط قديم عنوانه « الخيل وشياتها وصفاتها » يحتوي على صورة فرس مولود بالعيوب وعلى اسماء عيوبه (٢) .

---

(١) المخطوطات النادرة : بقلم احمد تيمور باشا ـ الهلال : مجلد ٢٨ صفحة ٣٢٤-٣٢٥

(٢) تاريخ الطب عند العرب : لعيسى المعلوف : صفحة ٦٤-٦٥

الباب السادس عشر

رزايا الكتب والمكتبات

توطئة

نظرة اجمالية في رزايا الكتب والمكتبات

لا يخلو عصر من العصور قديماً وحديثاً لم يُسمع فيه حلول نكبة بالكتب والمكاتب . ولا نعرف بلداً على وجه البسيطة شرقاً وغرباً خلا من مثل هذه الرزايا . فالكتب والمكاتب خاضعة كسائر المخلوقات لسنّة الفناء والشقاء او قصر العمر وطول البقاء . وهي كسائر المخلوقات ايضاً يتنازعها الصديق الوفي الذي يعمل على منفعتها والعدو اللدود الذي يسعى في ايقاع الاذى بها .

مرَّ بنا في الابحاث السابقة ان اسهبنا الكلام عن العلماء وانصار العلوم من الملوك والوزراء والكبراء الذين انشأوا خزائن الكتب وشيدوا معالمها وجهزوها بكل نادر ونفيس . ثم وفيناهم حقهم من الثناء على ما بذلوه من الجهود وانفقوه من الاموال لتعزيز دور الحكمة التي اشتهر امرها في الخافقين . فامثال هؤلاء يجب ان نسميهم بكل صواب اصدقاء الكتب والمكاتب ونسجل مآثرهم بمداد الفخر على صفحات الدهر .

مثلما قضى علينا العدل بتدوين فضل اولئك الاصدقاء الاوفياء كذلك يقضي علينا العدل ذاته ان لا نضرب صفحاً عن ذكر الرزايا التي اصابت الكتب والمكاتب

اقراراً بالحقيقة وخدمة للتاريخ . وتُعزى تلك الرزايا الى اعداء الكتب الذين حاربوها بوسائل الاتلاف المختلفة كالحريق والغرق والتدمير والنهب . يضاف الى ذلك كوارث اخرى لا تقل ضرراً في محاربة الكتب كالحوادث الجويّة والزلازل الارضيّة والعثّ والسوس والرطوبة وغير ذلك من الآفات الناجمة عن عوامل طبيعيّة او عن اهمال تنظيم المكتبات وعدم العناية بها .

وكان احتراق الكتب شائعاً بنوع خاص في القرون الغابرة انتقاماً من عدو او نكايةً فيه . فكانت كل دولة تفتح بلداً تحرق ما فيه من الكتب او تعدمها بطرق شتى كي لا تبقي اثراً لحضارة من تقدمها من الدول . ولنا على ذلك شواهد راهنة لا تحصى في تواريخ الاقدمين والمتوسطين والمتأخرين. بل كان اهل كل شيعة او ملة يحرقون كتب من خالفهم في الدين او المذهب او الجنس او اللغة او السياسة .

الفصل الاول

طمر مكتبة هركولانوم بالبركان

١ - مركز مدينة هركولانوم وانطماسها بالحمم البركانية

كانت هركولانوم ويقال لها اليوم «بمباي» مدينةً عامرةً واقعةً في سفح جبل الفازوف بايطاليا . وفي السنة ٧٩ قبل الميلاد ظهر بركان هائل في الجبل المذكور . فاندلعت نيرانه ومدّت على المدينة برمّتها كفناً من الرماد والحُمَم بلغ سمكُهُ عشرين متراً. هكذا انطمست تلك المدينة الزاهرة وامست بما فيها اثراً بعد عين .

٢ - اكتشاف بقايا مكتبة ارستيد الفيلسوف تحت رماد هركولانوم

وفي السنة ١٧٥٢ شقّت معاول العمَلة تلك الارض فبانت للعيان مدينة رومانيّة جامعة لكل اسباب الحضارة والرفاهية . ومن جملة ما اكتشفوه في احد منازلها مكتبةٌ واسعة لأرستيد الفيلسوف الذي اشتهر في القرن الخامس قبل المسيح . وقد بقي منها ١٨٠٦ مدارج من ورق البرديّ . فجمعها اولئك العَمَلة بحرص واعتناء واقبل الاثريّون على قراءتها . ففكّوا منها ١٢٠٦ مدارج جعلوها على ٢٨٠٠ لوح حُفظ منها تحت الزجاج ثمانمائة قطعة ولصِق الباقي على مقوّى (١).

اما تلك المدارج فتتضمّن مقالات فلسفيّه ومقاطيع ادبيّة ومواضيع تاريخيّة وعلميّة . ذلك ما عثر عليه العملة من بقايا تلك المكتبة العظيمة القديمة العهد . لان جانباً كبيراً منها اندثر بالحمم البركانية او بَلِي بتوالي الاعصار .

---

(١) الاكتشافات البردية : بقلم لويس جلابرت (المشرق : مجلد ١٠ سنة ١٩٠٧ صفحة ١٤٦)

الفصل الثاني

اجهاز البرابرة والملوك القدماء على المكتبات

١ ـ احراق نبوخد نصر ملك بابل تواريخ الملوك الاقدمين

من أقدم الملوك الذين ناصبوا المكاتب روى التاريخ اسم نبوخدنصر الذي احرق في القرن السادس قبل الميلاد تواريخ من تقدّمه من الملوك زاعماً انه يخلّد بذلك ذكره وتاريخ ملكه (٦٠٥ ـ ٥٦٢ ق. م.) .

٢ ـ احراق داريوش الفارسي مكتبة آثينا

وفي القرن الخامس قبل المسيح اجتاح داريوش الاول ملك الفرس (٥٢١ ـ ٤٨٥ ق . م .) بلاد اليونان وأخضعها لصولجانه . وقد أحرق حين ذاك المكتبة الشهيرة في اثينا . وقيل انه نقل كتبها الى بلاد فارس (١) .

٣ ـ احراق الاسكندر الكبير كتب الفرس

لمّا دوّخ الاسكندر ذو القرنين (٣٥٦ ـ ٣٢٣ ق . م .) مدينة اصطخر عاصمة الفرس قوّض أبنيتَها وشوّه نقوشَها . ثم استنسخ ما كان مجموعاً في الدواوين والخزائن هناك ونقله الى اللسانَين اليونانيّ والقبطيّ . ولما فرغ من استنساخ ما انتقاه

---

(١) محاضرات المجمع العلمي العربي بدمشق (محاضرة انيس سلوم في الكتب والمطالعة) : صفحة ٢٠٣

أحرق جميع الكتب الفارسيّة بعدما اخذ ما كان يحتاج اليه من علوم النجوم والطبّ والطبائع . وبعث به وبسائر ما أصاب من العلوم والاموال والخزائن الى بلاد مصر (١) .

٤ ـ احراق عاهل الصين كتب مملكته

في السنة ٢١٣ قبل المسيح أصدر عاهل الصين (هي ـ هونك ـ تي) المشهور بكرهه للعلوم امراً باحراق جميع الكتب الموجودة في انحاء مملكته . انما استثنى منها تواريخ اسلافه وكتُب الطبّ والتنجيم .

٥ ـ ابادة البرابرة مكاتب الرومان واليهود والنصارى

وأباد البرابرة جميع المكتبات التي أسسها قياصرة رومية ولاسيا اوغسطس قبصر . كالمكتبة الاوكتافية ومكتبة ابولون وغيرهما من المكتبات التي كلفت القناطير المقنطرة من الذهب (٢). وكان قياصرة رومة بدورهم يحرقون بلا شفقة خزائن كتب اليهود والمسيحيين . وكان هؤلاء يحرقون كتب الوثنيين كما ان المسلمين كانوا يتلفون مكتبات مَن لا يدين بدينهم وهلمّ جرّاً .

٦ ـ شهادة الكتاب المقدس على المسيحيين باحراقهم كتب السحر

سلك المسيحيون الاولون مسلك من سبقهم في احراق الكتب . يؤيد ذلك

---

(١) الفهرست لابن النديم : صفحة ٢٣٩ والآثار الباقية عن القرون الخالية للبيروني الخوارزمي: طبعة ليبسيك : صفحة ١٢٩

(٢) دائرة معارف القرن العشرين : مجلد ٨ صفحة ٦٠-٦١

ما اثبته الكتاب المقدس (١) في عهد الرسل اذ قال : « وكان كثيرون من الذين آمنوا يأتون معترفين ومخبرين بأعمالهم . وكثيرون من الذين استعملوا السحر أتوا بكتبهم واحرقوها امام الجميع . وُحسب ثمنها فوجد يبلغ خمسين الفاً من الفضة »

٧ ـ تأييد عمار البصري احراق النصارى كتب السحر

عاش عمّار البصري احد ائمّة النساطرة في القرن الحادي عشر للميلاد كما روى العلاّمـــة السمعاني (٢) . وخلّف مصنّفات جليلة اشهرها كتاب « المسائل والاجوبة » اورد فيه ما نصّه قال (٣) :

«اما خيالات السحر فقد تضمّنت كتب النصارى التحذير من اصحابها والاحراق لكتبها. ففي الانجيل قال : احذروا من الانبياء الكذبة ومن ثمارهم فاعرفوهم (٤). وفي الابركسيس (اعمال الرسل) قال : ان الذين آمنوا في اول الدعوة احضروا الى الرسل كتب السحرة فأحرقوهـا وكانت قيمتها خمس ربوات فضـة (٥)» . والمراد بالربوة عشرة آلاف عند اهل الحساب .

---

(١) اعمال الرسل : فصل ١٩ عدد ١٨ و ١٩

(٢) المكتبة الشرقية : مجلد ٣ صفحة ٦٠٨

(٣) المسائل والاجوبة : مخطوطة دير الشرفة : ٥-٤ صفحة ١٢٥

(٤) انجيل متى الرسول : فصل ٧ عدد ١٥ و ١٦

(٥) كذا « خمس ربوات » طبقاً للنسخة السريانية المشهورة بالبسيطة

الفصل الثالث

حريق مكتبات الاسكندرية والقسطنطينية وقيصرية فلسطين وروما

١ - حريق مكتبة المتحف الاسكندري

في السنة ٤٨ قبل المسيح أتلفت بالحريق مكتبة المتحف الاسكندريّ التي أنشأها على ما هو مرجّح سوتير (١) اول ملوك البطالسة . وكان عدد كتبها بالغاً سبعمائة الف مجلّد تبعاً لرواية المؤرخ اولوجال الرومانيّ. اما المؤرخ تيت ليف على ما روى سينكا الفيلسوف فذكر ان عدد الكتب لم يتجاوز اربعمائة الف مجلّد (٢) .

٢ - حريق مكتبة السيرابيوم في الاسكندرية

انشئت في الاسكندرية مكتبة السيرابيوم وسُمّيت « المكتبة الفتاة » لانها كانت اصغر من مكتبة المتحف الاسكندريّ السابق ذكرها . وقد ذاع صيت مكتبة السيرابيوم في الخافقين ولم يزل الاسف على احتراقها شديداً عند علماء الشرق والغرب . فمن قائل ان القيصر الروماني ثئودوسيوس الاكبر(٣٧٩-٣٩٥م)

---

(١) سوتير او سوطير هو لقب بطلميوس الاول مؤسس دولة البطالسة في مصر وكان ملكه منذ السنة ٣٢٣ حتى السنة ٢٨٣ قبل الميلاد (التاريخ القديم : لهارفي بورتر : صفحة ٣١١)

(٢) المشرق : مجلد ١٤ سنة ١٩١١ صفحة ٣٩١

أمر باحراقها عام ٣٩٠ للميلاد باغراء تئوفيلس البطريرك الاسكندري (١) ومن قائل انها أحرقت عندما فتح العرب مدينة الاسكندرية كما اثبت عبد اللطيف البغدادي (٥٥٥ - ٦٢٩ هـ) وجمال الدين القفطي (٦٤٦ هـ) وابو الفرج ابن العبري (+ ١٢٨٦ م) . ومن قائل خلاف ما اوردناه في الروايتين المذكورتين . ونفى غيرهم نسبة هذا الحريق الى العرب على يد عمرو بن العاص لأمر ورَدَّهُ في ذلك . ولما كان يتعذر البتّ في هذه القضية التي حمي وطيس الجدال بسببها في الكتب وعلى صفحات المجلات فاننا نتردَّد فيها بين الايجاب والسلب . ولا نتسرع في الحكم ريثما تنكشف الحقيقة ويأتينا اهل البحث بحجج راهنة تزيل كل الشبهات .

٣ - حريق المكتبتين الملكيتين في القسطنطينية

في السنة ٤٧٧ للميلاد التهمت النيران خزانة الكتب التي شادها قسطنس الثاني (٣٥١ - ٣٦١ م) ابن قسطنطين الكبير في عاصمة مملكته . وكانت تشتمل على مائة وعشرين الف مجلد من المخطوطات الثمينة فاحترقت برمتها . ثم أنشيء على انقاضها مكتبة ملكية ضمّت ثلاثة وثلاثين الفاً وخمسمائة مخطوط . وكان لخزّانها الباع الاطول في المحاماة عن الديانة المسيحية .

ولما تولى لاون الثالث الايسوري (٧١٧ - ٧٤١ م) عرش القسطنطينية وكان عدواً للاقليرس ومضطهداً للايقونات وَجد في عمّال المكتبة خصماً شديداً لدوداً. فانتقاماً منهم احرق المكتبة عام ٧٢٦ للميلاد بما فيها ومن فيها من الخزّان والنسّاخ والخدام (٢) .

٤ - حريق مكتبة بمفيل البيروتي في قيصرية فلسطين

وما حلّ بمكتبتيَ الاسكندرية ومكتبتيَ القسطنطينية من الرزايا حلّ بغيرها

---

(١) زبدة الصحائف في اصول المعارف : بقلم نوفل نوفل : صفحة ٣٨

(٢) مجلة الآثار : مجلد ١ سنة ١٩١٢ صفحة ٣٣٢-٣٣٣

من المكتبات القديمة التي ورد ذكرها في التاريخ ودخلتْ في خبر كانَ . ومن اشهرها المكتبة التي أنشأها بمفيل البيروتي (+ ٣٠٩ م) في قيصرية فلسطين . وكانت تشتمل طبقاً لرواية ايسيدورس على ثلاثين الف مخطوط (١) في شتى الفروع العلمية والدينية . وفي طليعتها « مجموعة الكتاب المقدس » في خمسين مجلداً للعلامة اوريجانيس (١٨٥ - ٢٥٤ م) معجزة الدهور (٢) .

٥ - حريق خزائن كتب القيصر في رومة

اثبت جالينوس الفيلسوف في كتابه « نفي الغم » انه احترق له كتب كثيرة في خزائن القيصر العظمى بمدينة رومة . وكان بعضها بخط ارسطوطاليس وبعضها بخط انكساغورس واندروماخوس. وصحّح جالينوس قراءتها على معلميه الثقات وعلى من رواها عن افلاطون . ثم سافر الى مدن بعيدة حتى نقّح اكثرها. وذكر من جملة ما ذهب له في هذا الحريق كمية وافرة من كتبه التي صنّفها ولم يكن لديه نسخة سواها . وقد اتلف له هذا الحريق عينه اشياء كثيرة سردها في كتابه المشار اليه . وقال المبشر بن فاتك ان جملة ما احترق لجالينوس في هذه الكارثة « كتاب روفس » في الترياقات والسموم وعلاج المسمومين وتركيب الادوية بحسب العلة والزمان . ومن مميزات كتب جالينوس انها كانت موشاة بديباج ابيض وحرير اسود . وانفق عليها مالاً كثيراً (٣) .

٦ - احراق كتب تيت ليف في رومة

وُلد تيت ليف المؤرخ الروماني سنة ٥٩ قبل المسيح وامتدت حياته الى السنة التاسعة عشرة للميلاد . وقد اشتهر بتاريخ وضعه عن مدينة رومة سمّاه « Décades » يستعذب الكتّاب الافرنج قراءته لبلاغة عباراته وجزالة معانيه . ويقال ان البابا غريغوريوس الكبير (٥٩٠ - ٦٠٤ م) جمع طائفة كبيرة من تآليف تيت ليف فاحرقها احتقاراً لمؤلفها (٤)

---

(١) تاريخ سوريا : للمطران يوسف الدبس : مجلد ٤ صفحة ٦٥
(٢) مجلة « الصخرة » في القاهرة : مجلد ٣ سنة ١٩٤٠ صفحة ٢٠٨
(٣) عيون الانباء في طبقات الاطباء لابن ابي اصيبعة : جزء ١ صفحة ٨٤-٨٥
(٤) اعداء الكتب : بقلم جرجي سكسك : صفحة ٣

الفصل الرابع

احراق كتب الآراميين والعبرانيين والوثنيين والمجوس

١ - ابادة سلوقس كتب الاراميين في سليق (المدائن)

ورد عن سلوقس (٣١١- ٢٨٠ ق م) انه لما ابتنى مدينة سليق على اطلال مدينة بابل ألغى كل التواريخ التي كان يستعملها الآراميون وأحرق كتبهم برمتها. وأحدث تاريخاً جديداً عُرف بتاريخ السلوقيين او تاريخ الاسكندر الذي يبتدىء سنة ٣١١ قبل المسيح (١).

٢ - احراق انطيوخس كتب العبرانيين

في مكتبتنا الخاصة مخطوط عربيّ قديم العهد مجلّد بدفتين خشبيتين تنقصه بعض اوراق في آخره. وعنوانه «معارة الكنوز» بالعين المهملة طبقاً لاصله السريانيّ. ويرتقي عهد نساخته الى القرن الخامس عشر للميلاد كما يتضح من شكل خطه وورقه وجلده. فقد ورد في آخر صفحة منه ما نصه: «لاجل ان الناموس والانبياء احرقوا منهم ثلاثة دفوع: الدفعة الاولى الذي احرقوا فيها الكتب في ايام انطيوخس...»

اما الدفعتان الثانية والثالثة اللتان أحرقت فيهما كتب العبرانيين فلا اثر

(١) تاريخ ميخائيل الكبير: مجلد ١ صفحة ٧٤

لذكرها في مخطوطتنا هذه اذ ينتهي آخرها بالعبارة السابقة الذكر . ونرجح ان انطيوخس الذي أحرق كتب العبرانيين هو انطيوخس الرابع ابيفان (١٧٤ - ١٦٤ ق. م.) المشهور باضطهاده لليهود .

٣ - احراق هيرودس كتب القبائل العبرانية

كتب اوسابيوس القيصري المؤرخ (٢٦٧ - ٣٤٠ م) عن احراق اورشليم في عهد هيرودس قال : «كانت اخبار قبائل العبرانيين محفوظة في المكتبة (باورشليم) كما كانت كتب الغرباء مصونة ايضاً فيها الى ذلك العهد . منها كتاب احيور العموني و كتاب راعوت المؤآبيّة و كتاب حالوط الذي جاء معهم من مصر . ولما كان هيرودس لا ينتسب الى قبائل بني اسرائيل وكان ضميره يبكّته لدناءة نسبه أحرق جميع كتب قبائل اليهود . وانما اقترف هذه الجريمة كي يتسنى له الانتساب الى قبيلة شريفة بضياع الوثائق التي تثبت نسَبَهُ الحقيقيّ (١) .

٤ - اتلاف الاراميين المسيحيين كتب اجدادهم الوثنية

بعد ما اعتنق الآراميُون الدين المسيحي ساقهم غلوّهم بهذا الدين الى ان يتلفوا من دون تمييز كل اثرٍ ورثوه عن اجدادهم من المتروكات العلمية لانطوائها على التعاليم الوثنية . بل افضى الامر بالمسيحيين انفسهم الى احراق الكتب الدينية في عهد قسطنطين الكبير (٣٠٦ - ٣٣٧ م) كما ذكر اغابيوس المنبجيّ الملكي في تاريخه قال (٢) :-

---

(١) اوسابيوس (١ : ٧ صفحة ٤٦ و ٤٧) طبعة بيجان نقلاً عن مصحف مخطوط على الرق سنة ٧٧٣ للاسكندر (٤٦٢ م) وهذا المخطوط محفوظ في مكتبة بطرسبرج

(٢) تاريخ اغابيوس بن قسطنطين المنبجي : مخطوطة دير الشرفة المنسوخة عام ١٦٦٢ رقم ١٦-١

«كثر المؤمنون جداً ونما المخالفون . وكان الملوك يقوّون المخالفين . . . وقلّ اهل الايمان . ولم تزل بينهم المصائب والحقود الى ان أحرفت كتب الكنيسة المقدسة الالهية وزيد ونقص منها. وبطلت سنن الحواريّين وتفرقوا الى امم كثيرة تنيف عن سبعين ملة مذكورة كلها في الرسالة الثامنة التي في كتاب اكليمندس . . . الى ان ملك قسطنطين بن هيلانة المباركة الرهاوية» .

وذكر اسطفان الدويهي البطريرك الماروني في «منارة الاقداس» قال (١) : «امر قسطنطين الكبير بحرق جميع كتب آريوس . واعلن ان كل من وجد كتاباً ولم يحضره ليحرق فليُقتَلْ . ومتى أمسِك فلْيُقطَع رأسُه حالاً» .

٥ ـ احراق كتب الوثنيين ودفن احدهم دفنة حمار

عقد المؤرخ الرهاوي فصلاً عنوانه «الوثنيون في عاصمة المملكة» قال (٢) : «في هذا الزمن امر يوسطينيانس الاول (٥٢٧ ـ ٥٦٥ م) ان يُلقى القبض على الوثنيين لانهم اخذوا يذيعون تعاليم دياناتهم . فقبض على كهنتهم الذين أحرقوا بالنار نحو الفي مجلد من كتبهم الدينية . . . على ان احد هؤلاء الوثنيين المسمى (فوقا) لما رأى شدة الامر هلع هلعاً عظيماً فتناول سماً في الليل ومات. فامر الملك ان يدفن دفنة حمار» .

وروى ميخائيل الكبير ان الوثنية ذاعت في القسطنطينية عاصمة المملكة وانتشرت معها كتبها السحرية . فألقي القبض عام (٥٦٢ م) على خمسة كهنة وثنيين : اولهم من آثينا وثانيهم وثالثهم من انطاكية ورابعهم وخامسهم من بعلبك . وقد احضروا ما عندهم من الاصنام والكتب الوثنية واحرقوها باجمعها .

---

(١) منارة الاقداس : للبطريرك الدويهي : جزء ٢ صفحة ١٦٨

(٢) تاريخ الرهاوي : فصل ٥٧ صفحة ١١٥ طبعة البطريرك افرام رحماني

ونقل عن يوحنا اسقف اسيا المؤرخ المشهور في تلك الحقبة انه احرق بيده الفي مجلد من تلك الكتب (١) .

٦ - طرح الكتب المجوسية في الماء بأمر امير خراسان

وفي القرن الثالث للهجرة كان عبد الله بن طاهر بن الحسين الخزاعي اميراً على خراسان . فلما عُرضت عليه كتب المجوسية أمر بالقائها في الماء ووجّه اوامره الى الجهات باعدام جميع كتب المجوس (٢) .

---

(١) تاريخ ميخائيل الكبير : صفحة ٣٢٤ طبعة باريس

(٢) تاريخ التمدن الاسلامي : لجرجي زيدان : جزء ٣ صفحة ٤٥

الفصل الخامس

اتلاف الكتب النصرانية في العصور الغابرة

١ ـ حرق الكتب الدينية في القرن الرابع للميلاد

روى اوسابيوس القيصري قال : « وفي عهدنا هذا قوّضت كنائس شتى . وقد شاهدنا بعيننا عدداً وافراً من كتب الله المقدسة تحترق على قارعة الطريق » ثم استتلى قائلا : « في السنة التاسعة عشرة لديوقلطيانس (٢٨٤ - ٣٠٥ م) في شهر اذار وردت رسائل الملك يأمر فيها ان تقوّض الكنائس من أسسها وان تحرق الكتب بالنار (١) .

٢ ـ ابادة كتب «الذياطسرون» في الرها وقورش

ذكرنا في «خزائن كتب الرها» ان ربولا (+ ٤٣٥ م) العلامة الشهير ساقته الحماسة الدينية فجمع نسخ كتاب العهد الجديد المعروف بعنوان «ذياطسرون» واحرقها باسرها . ونهج منهاجه ثيودريطِ اسقف قورش العلامة الكبير فاتلف من هذا الكتاب عينه مائتي نسخة ونيّفاً (٢) .

---

(١) تاريخ اوسابيوس : سفر ٨ فصل ٢ و ٣

(٢) Rubens Duval : Littérature Syriaque P. 41 .

٣ - احراق الاريوسيين والنساطرة كتب خصومهم

روى عبد يشوع الصوباوي في قصيدته التي أحصى فيها مشاهير الكتبة ومؤلفاتهم أنّ الأريوسيّين أحرقوا ستين كتاباً من تصانيف ديودروس الطرسوسيّ. وفعل مثل ذلك خصوم نسطور فأتلفوا مؤلفاته وجميع الكتب الحاوية شيئاً من تعاليم بدعته. واحرق برصوما النسطوريّ (+ ٤٩٦ م) طائفة كبيرة من مخطوطات دير الشيخ متى في جبل الفاف قرب الموصل (١) لانها كانت تحتوي على تعاليم مخالفة للبدعة النسطورية.

٤ - احراق السوفسطائيين كتبهم في اخائية

يقرأ في اخبار آبا الكبير جاثليق النساطرة (٥٤٠ - ٥٥٢ م) انه انطلق الى بلاد اليونان فدرس لغتهم واحكمها. ثم جال في تلك الاصقاع حتى بلغ الى اخائيّة وهي ناحية من نواحي اليونان. فاجتمع هناك بقوم من السوفسطائيّين وجادلهم فأفحمهم ببراهينه الساطعة. وما ان اعملوا الرويّة في تعليم الجاثليق حتى اتضحت لهم الحقيقة فانصاعوا لها وعمدوا الى ما عندهم من الكتب فاحرقوها باجمعها (٢).

٥ - حرق مخطوطات السريان والارمن في قسطنطينية

في السنة ١٠٦١ م أمر قسطنطين العاشر دوقس قيصر الروم (١٠٥٩-١٠٦٧ م) ان ينفى من عاصمته كل من فيها من السريان والارمن او يخضعوا لتعليم المجمع الخلقيدوني المسكوني. فرفض هؤلاء أمر القيصر مصرّين على البقاء في معتقدهم.

---

(١) Studia Syriaca للبطريرك افرام رحماني : جزء ١ صفحة ٣٢.
(٢) اخبار آبا الجاثليق : صفحة ٢٢١ طبعة ليبسيك

فأمر الملك باحضار مخطوطات السريان والارمن وآنية بيعتيهم وأحرقها باجمعها في وقت واحد . ثم أحرق البيعتين المذكورتين ايضاً ورحّل عن العاصمة قسوس السريان والارمن . وعلى اثر ذلك نزع اغلب ابناء هاتين الملتين الى عقيدة القيصر المشار اليه (١) .

٦ - نهب كتب فطريركية النساطرة في بغداد

حشد فطاركة النساطرة عدداً وافراً من المخطوطات عربية وسريانية ويونانية في خزائن فطريركيتهم المشهورة بدار الروم في بغداد . وظلت تلك المكتبة في ازدياد مطّرد حتى القرن الثاني عشر للميلاد . ولما توفي الفطرك برصوما الاول (١١٣٣ - ١١٣٥ م) لم يدفن كأسلافه الفطاركة في بيعة دار الروم . بل دفن في بيعة سوق الثلاثاء لسبب أثبته المؤرخ النسطوري ماري بن سليمان قال (٢) : « وسببه ما جرى على القلاّية والبيعة في دار الروم من النهب الشنيع اذ أخذت الكتب السريانية والعربية واثاث البيعة جميعه وكل ما كان موجوداً بها » .

٧ - نهب نور الدين الوف الكتب من كنيسة نصيبين وغيرها

في شهر آب ١١٧٢ للميلاد حشد نور الدين بن زنكي صاحب حلب عسكراً جرّاراً وسار الى نصيبين مسرعاً وامتلكها صلحاً دون حرب . فسرّ فقهاء المسلمين وكان نور الدين يحبهم حباً مفرطاً ويتمم نصائحهم بانقطاعه عن شرب المسكر . ولذا شدّد على المسيحيين تزلّفاً الى المسلمين . فأمر بتقويض كل بناء جديد أضيف الى الكنائس والديارات. فهدموا جداراً فخما كان مبنياً في كنيسة مار يعقوب الكبرى

---

(١) تاريخ ميخائيل الكبير : صفحة ٥٧٥-٥٧٦ و ٥٨٥

(٢) فطاركة كرسي المشرق من كتاب المجدل : لماري بن سليمان : صفحة ١٥٦ طبعة جيسموندي في رومة سنة ١٨٩٩

بنصيبين وهي في حوزة النساطرة منذ عهد برصومـــا زعيمهم . ثم نهبوا جميع امتعة الكنيسة وفي جملتها الوف من الكتب . واجترموا مثل تلك الجريـة في امكنة كثيرة (١) .

٨ - نهب الروم للكتب والصلبان من كنائس الرها

في السنة اثنتين وثلاثين وستمائة للهجرة (١٢٣٤ م) حصر السلطان علاء الدين مدينـة الرها وملكها عنوة . فدخلها الروميّون ووضعوا السيف بها ثلاثـة ايام وقتلوا النصارى والمسلمين فتكا ونهباً . فأصبح الرهاويّون فقراء لا يملكون شيئاً . ونهبت البيَع وأخِذَ ما فيها من الكتب والصلبان وآلات الذهب والنّقرة (٢) .

٩ - اتلاف النساطرة واليعاقبة بعضهم كتب البعض الاخر

كثيراً ما حملت الغيرة الدينية فئةً من النساطرة واليعاقبة على ان يحرق الفريق منهم كتب الفريق الآخر لانه يخالفه في المعتقد او المذهب او الراي . أضف اليهم حفدتهم الكلدان والسريان الكاثوليك في العصور المتأخرة . فانهم بعد اتحادهم مع كنيسة رومة ألقوا كتبهم القديمة للنار في بلاد العراق وسوريا وما بين النهرين والملبار وغيرها لاحتوائها تعاليم مخالفة لتعاليم الكثلكة (٣) .

---

(١) تاريخ ميخائيل الكبير : صفحة ٦٩٦ طبعة باريس
(٢) تاريخ مختصر الدول : لابن العبري : صفحة ٤٣٥-٤٣٦
(٣) تاريخ كلدو واثور : صفحة ٥٠

الفصل السادس

محو كتب الفرس وغيرها واحراق مصاحف القرآن

١ ـ رواية ابن خلدون عن محو الخليفة عمر علوم الفرس

اذا انتقلنا في الكلام الى المسلمين في بداءة امرهم رأينا ابن خلدون يكتب في مقدمته عن امير المؤمنين عمر بن الخطاب ما نصه (١) : «وما لم يصل الينا من العلوم اكثر مما وصل . فاين علوم الفرس التي أمر عمر رضي الله عنه بمحوها عند الفتح ؟»

٢ ـ محو عبدالله بن عباس كتاباً بالماء

يُذكَر أنَّ رجلاً جاء الى عبد الله بن عباس فقال له : «اني كتبت كتاباً أريد ان اعرضه عليك . فلما عرضه عليه اخذه منه ومحاه بالماء . فقيل لعبد الله لماذا فعلت ذلك ؟ قال : لانهم اذا كتبوا اعتمدوا على الكتابة وتركوا الحفظ فيعرض للكتاب عارض فيفوت علمهم» (٢) .

---

(١) مقدمة ابن خلدون : صفحة ٣٨ ـ طبعة المطبعة الادبية في بيروت

(٢) احمد زكي باشا : الحضارة الاسلامية : صفحة ٧٧-٧٨

٣ ـ احراق الخليفة عثمان بن عفان مصاحف القرآن

لمّا انتشر المسلمون في الآفاق اختلف الناس في قراءة القرآن على اختلاف لهجاتهم . فكان بعضهم يقرأ لفظة « التابوت » مثلا بالتاء وبعضهم بالهاء . وما ان أخبر عثمان بذلك وكان اميراً للمؤمنين حتى استعار مصحف ابي بكر من حفصة وكتب منه اربع نسخ وضبطها بلغة قريش التي نزل بها القرآن . ثم بعث الى كلّ مصر بمصحف وأمر الناس ان ينسخوا مصاحفهم منه . وأوعز باحراق كل ما خالف تلك النسخ . وتم ذلك سنة ثلاثين للهجرة (١) .

---

(١) محمد فريد وجدي : دائرة معارف القرن العشرين : مجلد ٧ صفحة ٦٦٧

الفصل السابع

احراق الفرق الاسلامية بعضها كتب البعض الآخر

١ ـ منازعات اهل السنة والشيعة وغيرهم

مثلما كانت الفرق المسيحية يحرق بعضها كتب البعض الآخر لمنازعات دينية كما سلف الكلام هكذا جرى في ميدان المنازعات المذهبية بين السنيّين والشيعيّين في بغداد. وسار سيرهم من بعدهم الحنبليون وبقية المذاهب (١). ولم تكن المخاصمات في بلاد الاندلس وشمال افريقيا اقل منها في عاصمة العباسيين حيث دارت الدوائر على الكتب فتلف منها الشيء الكثير.

٢ ـ ابتهاج الاندلسيين بحرق الكتب المخطوطة في اعيادهم

للعلامة هنري لامنس بحث دقيق في هذا الموضوع نورده بالحرف الواحد قال:

« ليس بلد من البلاد حفظت له تواريخ العرب من احراق المكاتب ما حفظته للاندلس. وها ان الاستاذ ربيرا (٢) خص مكاتب الاندلس الاسلامية واصحابها بدرس مسهب. وبيّن ما كان للكتب من المحل في شغف الناس وولعهم ثم قال: « في الاندلس سحابة قرون عدّة كان الوقوف على حريق المخطوطات العربية من الذّ ما تتمتع به العامة في اعيادها وافراحها (٣).

---

(١) المشرق: مجلد ٢٧ سنة ١٩٢٩ صفحة ٧٤٠

(٢) Disertacions y opusculos, I 181 etc.

(٣) فيه: مجلد ١ صفحة ٢٢٠

٣ ـ فظائع المالكيين في الاندلس باتلاف كتب مناوئيهم

لما رسخت قدم المذهب المالكي في الاندلس وُطردَ المذهب الاوزاعي الذي كان قد دخل البلاد مع العرب السوريين استشمّ العلماء المالكيون رائحة البدع في كل مكان. فحرّكوا الشعب فصار يناوىء كل مجدّد حقيقي او مزعوم ويحرق كتبه. ومن الذين ذهبوا ضحية تلك الحركة ابن مسرّة الفيلسوف وبعده ابن كليب (١) المتهم بتعليم القدر أحرقت كتبه بعد موته في ساحة البلد. وكانت الحكومة تقبّح تلك الفظائع ولا تجرؤ على مقاومتها. احب الوزير المنصور المؤلفات الفلسفية وحرص كل الحرص على اخفائها. وكان للسلطان في عزّه مكتبة بلغ عدد مجلداتها على ما يقال اربعمائة الف فلم ينجها من شرّ هذه الاعمال البربرية. لان المفتشين دخلوهــا واحرقوا منها عدداً وافراً في محضر من الوزير المنصور. وقد اضطرّوه الى مساعدتهم على اتلافها. ولم يبقوا الا على ما لم يجدوا فيه شبهة من كتب الطب والحساب والشريعة وغيرها.

٤ ـ احراق كتب المالكيين في فاس ونفاد المخطوطات في الغرب

لما استولت دولة المرابطين على الاندلس كثرت حركة التدمير فأحرقت مؤلفات الفلاسفة وفيها كتب الغزالي الذائع الصيت. وكذلك جرى في مكاتب عديدة (٢). ثم غلب الموحدون المرابطين فاخذوا باحراق كتبهم. ودارت الدائرة على كتب المذهب المـالكي حملوها احمالاً على الرواحل ووجهوها الى فاس في مراكش واحرقوها في مجتمعات الناس.

وفي السنة ١٥٤٣ حلّ فاس رجل بلجكي اسمه نقولا كلينار وكان يحسن العربية

---

(١) راجع الفرضي : تاريخ علماء الاندلس : طبعة كوديرا : جزء ١ صفحة ١٢٠ عدد ٤١٧

(٢) ابن الآبار كتاب التكملة لكتاب الصلة : طبعة كوديرا : جزء ٢ : ٥٦٧، ٣

وهو مشغف بها . ومما لفت نظره في المدينة عدم وجود المكاتب وندورة المخطوطات وعددها اقل من القليل . فان المؤلف الشامل لبضع مجلدات كان وجوده بكامله مستحيلاً .

٥ ـ اتلاف كتب ابن رشد وغيره

وكانت دولة الموحدين قد رضيت على ابن رشد فانقلب الشعب الاندلسي عليه وعلى مؤلفاته . وهذا الانقلاب يدلنا على سبب قلة ما حفظ من مخطوطات ابن رشد . وأتلفوا ما أتلفوا من الكتب حتى نفدت خزائنها . ولذلك لما اراد سلاطين بني مرين تأسيس مكتبة في فاس قصدوا الى الملك سانشو الرابع (١) فارسل اليهم هذا الامير المسيحي من بلاده ثلاثة احمال من المخطوطات العربية .

ذكرنا المؤرخ ابن الآبار وفاتنا القول ان كتبه قد أحرقت في ساحة تونس الغرب . فهل من سبيل بعد الى السؤال عن مؤلفات مسلمي الاندلس ؟ او ليس الاحرى بنا ان ندهش لبقاء جزء منها بعد تدمير المدمرين ؟ ... ومما يأسف له العلم كثيراً ان الكتب كانت تذهب ضحية تلك الايام . وسواء أكان المالكيون غالبين او مغلوبين فعلى الكتب كانت تحل نقمة الناقمين (٢) .

واثبت التاريخ ان السلطان ابا يعقوب بن عبد المؤمن ابعد ابن رشد عن مراكش الى الاندلس بعد أن أذاه . وأمر ايضاً بابعاد كلّ من يتكلم بالعلوم الفلسفية وبحرق كتب الفلسفة . وبعد ان جنح السلطان الى تعلم الفلسفة اعاد ابن رشد الى مراكش ومات هو سنة ٥٩٤ للهجرة (٣) .

٦ ـ احراق كتب الركن عبد السلام في رحبة بغداد

وفي السنة ٦١١ للهجرة توفي الركن عبد السلام بن عبد الوهاب بن عبد القادر

---

(١) راجع روض القرطاس (éd. Tornberg) صفحة ١٨

(٢) المشرق : مجلد ٢٧ سنة ١٩٢٩ صفحة ٧٤١-٧٤٣

(٣) مجلة المجمع العلمي العربي بدمشق : مجلد ٩ سنة ١٩٢٩ صفحة ٢٧٧

الجبلي في بغداد . وكان يتهم بمذهب الفلاسفة فاعتقل قبل موته . واظهرت كتبه وفيها الكفريات مثل مخاطبة زحل وغيره بالالهية واحرقت (١) .

وقد روى ابو الفرج ابن العبري حادثة احراق كتب الركن عبد السلام المشار اليه بتفصيل اوفى قال :

«وكان في الايام الامامية الناصرية الحكيم عبد السلام بن جنكي دوست الجبلي البغدادي قد قرأ علوم الاوائل واجادها . واشتهر بهذا الشأن شهرة تامة وحصل له بتقدمه حسد من ارباب الشر . فثلبه احدهم بانه معطل فاوقعت الحفظة عليه وعلى كتبه . فوجد فيها الكثير من علوم الفلاسفة وبرزت الاوامر الناصرية باخراجها الى موضع ببغداد يعرف بالرحبة وان يحرق الجم منها بحضور الجمع ففعل ذلك . وأحضر لها عبيد الله التيمي المعروف بابن المارستانية وجعل له منبر . وصعد عليه وخطب خطبة لعن بها الفلاسفة ومن يقول بقولهم. وذكر الركن هذا بشرٍ وكان يخرج الكتب التي له كتاباً كتاباً يتكلم عليه ويبالغ في ذمه وذم مصنفه ثم يلقيه من يده لمن يلقيه في النار. قال القاضي الاكرم الوزير جمال الدين بن القفطي رحمه الله : اخبرني الحكيم يوسف السبتي الاسرائيلي قال : كنت ببغداد يومئذٍ تاجراً وحضرت المحفل وسمعت كلام ابن المارستانية وشاهدت في يده كتاب الهيئة لابن الهيثم وهو يقول : وهذه الداهية الدهياء والنازلة الصماء والمصيبة العمياء. وبعد اتمام كلامه خرقها وألقاها في النار . فاستدللت على جهله وتعصبه اذ لم يكن في الهيئة كفر وانما هي طريق الى الايمان ومعرفة قدر الله جلّ وعزّ فيما احكمه ودبّره . واستمر الركن عبد السلام في السجن معاقبة على ذلك الى ان أفرج عنه سنة تسع وثمانين وخمسمائة (٢) . وهي السنة ١١٩٣ م

---

(١) المختصر في تاريخ البشر لابي الفدا : جزء ٣ صفحة ١١٦

(٢) تاريخ مختصر الدول : صفحة ٤١٤و٤١٥ ؛ وكتاب اخبار العلماء باخبار الحكماء : صفحة ١٥٤

الفصل الثامن

ذكر من غسل كتبه

١ ـ ابن ابي الحواري

أقدم وزيئة أوردها التاريخ وُمنيت بها المكتبات العربية على ما نعهد ما رواه الحاج خليفة (١) عن ابن ابي الحواري قال : « نقل عن بعض المشايخ انهم احرقوا كتبهم . منهم العارف بالله سبحانه وتعالى ابن ابي الحواري. فانه كما ذكره ابو نعيم في الحليـة انه لما فرغ من التعليم جلس للناس . فخطر بقلبـه يوماً خاطر من قبل الحق . فحمل كتبه الى شطّ الفرات فجلس يبكي ساعـةً ثم قال : نِعمَ الدليلُ كنت لي على ربّي . ولكن لما ظفرت بالمدلول فالاشتغـال بالدليل محال . فغسل كتبه » .

٢ ـ ابو غالب شجاع الشيباني

انتحى ابو غالب شجاع بن فارس الذهليّ الشيبـانيّ (٤٣٠ ـ ٥٠٧ هـ) أثر ابن ابي الحواري المذكور آنفاً . فانه افنى عمره في طلب العلم ونساخة الكتب . وكان قد عمـل مسوّدة تاريخ بغداد ذيلاً لتاريخ الخطيب البغدادي فغسلهـا في مرض موته (٢) .

---

(١) كشف الظنون : للحاج خليفة : مجلد ١ صفحة ٠ :
(٢) تذكرة الحفاظ : جزء : صفحة ٣٦-٣٧

الفصل التاسع

ذكر من دفن كتبه

١ ـ سفيان الثوري

روى الحاج خليفة في كتابه « كشف الظنون» ما نصّهُ : «ذكر ابن الملقن في كتابه « طبقات الاولياء» عن سفيان الثوري قوله : وقد رُوي نحو هذا عن سفيان الثوري (٩٧ - ١٦١ ﻫ) انه أوصى بدفن كتبه وكان ندم على اشياء كتبها عن الضعفاء »

امّا ياقوت الروميّ صاحب « معجم الادباء» فقد حدّث عن سفيان الثوري قال : « مزّق سفيان الثوريّ الف جزء وطيّرها في الريح وقال : ليت يدي قُطعت من ههنا بل من ههنا ولم اكتب حرفاً ! » (١) .

٢ ـ الامام الشافعي

ذكر ابو الفداء عن الامام الشافعي (١٥٠ - ٢٠٤ ﻫ) انه دفن من الكتب التي كانت عنده جميع ما كان منها يبحث عن علم النجوم (٢) .

---

(١) معجم الادباء : لياقوت الرومي : جزء ١٥ صفحة ٢٢

(٢) تاريخ ابي الفداء : جزء ٢ صفحة ٢٦-٢٧

٣ - محمد بن العلاء

وحذا حذو سفيان الثوريّ والامام الشافعيّ المارّ ذكرهما محمد بن العلاء بن كريب الهمذانيّ الكوفيّ الذي كان من حفّاظ الكوفة وثقةً مجمعاً عليه. ومات لثلاث بقين من جمادى الاولى سنة ٢٤٣ للهجرة (٨٥٧ م). وأوصى ان تُدفَن كتبه فدُفنت (١).

٤ - دفن يوسف بن اسباط كتبه في كهف

حدّث ياقوت الروميّ في «معجم الادباء» عن يوسف بن اسباط ما نصه:
«وهذا يوسف بن اسباط حمل كتبه الى غارٍ في جبل وطرحها فيه وسدّ بابه. فلمّا عوتب على ذلك قال: دلّنا العلم في الاول ثم كاد يضلّنا في الثاني. فهجرناه لوجه مَن وصلناه وكرهناه من اجل ما اردناه (٢)».

(١) معجم البلدان : لياقوت الرومي : مجلد ٧ صفحة ٢٠٠
(٢) معجم الادباء : لياقوت الرومي : جزء ١٥ صفحة ٢١

الفصل العاشر

احراق بعض المسلمين مكتباتهم

١ ـ احراق ابي عمرو بن العلاء كتبه

قال ابن عساكر في الكنى من التاريخ أن ابا عمرو بن العلاء المتوفى في السنة ١٥٤ للهجرة (٧٧٠ م) كان اعلم الناس بالقرآن والعربية . وكانت دفاتره ملء بيت الى السقف . ثم تنسّك واحرقها .

٢ ـ احراق كتب ابي حيان التوحيدي

لم يكن عليّ ابو حيّان التوحيدي أشفق من ابي عمرو بن العلاء على كتبه . فانه احرقها في آخر عمره لقلة جدواها ضنّاً بها على مَن لا يعرف قدرها . فعذَله القاضي ابو سهل لائماً اياه على ذلك . فاعتذر ابو حيّان التوحيدي عمّا فعل وأرسل الى ابي سهل جواباً طويلاً . ولعلّ الكتب الباقية من تصانيفه الكثيرة كُتبت في حياته وخرجت عنه قبل حرقها . وحلّت وفاة ابي حيّان في الريّ في حدود الثمانين والثلاثمائة للهجرة (٩٩٠ م) (١) . ومن بقايا تلك الكتب نذكر مخطوطاً محفوظاً الى يومنا هذا في مكتبة الفاتح بالاستانة عنوانه « بصائر القدماء وبشائر الحكماء » في مجلدين صغيرين .

---

(١) بغية الوعاة في طبقات اللغويين والنحاة : للسيوطي : صفحة ٣٤٩

٣ ـ احراق مكتبة ابن لهيعة في مصر

وفي السنة ١٦٩ للهجرة (٧٨٥ م) احترقت دار عبدالله بن لهيعة قاضي الديار المصرية واحترقت معها كتبه . ومن الغد بعث اليه اللّيث بن الفضل البيوردي امير مصر بألف دينار تعويضاً عن تلك الخسارة (١) .

٤ ـ احراق مكتبة ابن الجعابي في بغداد

كان ابن الجعابي (٢٨٤ ـ ٣٥٥ هـ) يملك في بغداد مكتبة غنية بالأسفار النفيسة وفيها ما لا يقل عن مائتيَ الف حديث . فأوصى بأن تُحرق كتبه فاحرقها بيده حتى ما بقي منها شيء ومات من ليلته . وقد اخبر الدارقطنيّ انه كان حينذاك في بيت الجعابيّ وشهد الحريق بعينه . وكان لدى ابن الجعابيّ كتبٌ للناس في جملتها مائة وخمسون جزءاً للحسين بن البواب فذهبت كلها في الحريق (٢) .

٥ ـ احراق الداراني كتبه في تنور

ممّن احرق كتبه في الزمان الغابر ابو سليمان الدارانيّ . فانه جمعها في تنّور وسجرها بالنار . ثمّ خاطبها قائلاً : « واللهِ ما أحرقتُكِ حتى كدتُ أحترق بكِ ! » (٣) .

٦ ـ وصية السيرافي لولده باحراق كتبه

لمّا دنا أجل ابي سعيد السيرافيّ سيّد العلماء استدعى ابنه محّمداً وبلّغه هذه الوصيّة : « قد تركتُ لك هذه الكتب تكتسب بها خير الأجل . فاذا رأيتَها تخونُك فاجعلها طعمةً للنار » (٤) .

---

(١) تذكرة الحفاظ : جزء ١ صفحة ٢٢٠ (٢) تذكرة الحفاظ : جزء ٣ صفحة ١٣٠-١٣٣
(٣) معجم الادباء : جزء ١٥ صفحة ٢٢ (٤) معجم الادباء : جزء ١٥ صفحة ٢٢

الفصل الحادي عشر

اغراق مكتبات خاصة في انحاء مختلفة

١ – غرق كتب ابي الحسن السمسماني ببغداد

كان ابو الحسن عليّ بن عبدالله بن عبد الغفّار السمسمانيّ من اساطين علماء اللغة في عصره. ذكره الخطيب ابو زكريا يحيي التبريزيّ في تاريخه فأثبت انه كتب كثيراً وخطّه في غاية الاتقان والصحّة . وتصدّر السمسماني في بغداد للرواية وأقرأ الادب ونسخ معظم كتبه بخط يده . ثم انتقلت تلك الكتب بعد وفاته سنة ٤١٥ للهجرة الى ابن دينار الواسطيّ وادركها الغرق ففسد اكثرها (١) .

٢ – اغراق كتب ابي العباس الانصاري وحرقها في غرناطة

يُروى عن ابي العباس الانصاري الخزرجي (٤٩٢ – ٥٦٩ ﻫ) انه جمع خزانة حافلة بالمخطوطات ضمّ اليها ما نسخه هو بخطه الجميل. وقد توالت الآفات على كتبه غرقاً ونهباً وحرقاً. ولا سيما في اثناء إقامته بالاندلس وحين تولّيه خزانة كتب السلطان ابي يعقوب عبد المؤمن في مراكش (٢) .

---

(١) فوات الوفيات : جزء ١ صفحة ٢٣ ؛

(٢) طالع ترجمته بين خزنة دور الكتب : صفحة ٦٩١ و ٦٩٢ من هذا الكتاب

٣ ـ طرح كتب المبشر بن فاتك في حوض داره

كان للمبشر بن فاتك أحد امراء مصر كما سبق الكلام مكتبة خطيرة يقضي فيها اكثر اوقاته لشدّة شغفه بالمطالعة . فلما توفي قصدت زوجته الى خزائن الكتب ترافقها بعض الجوازي وفي فؤادها لوعة من تلك المخطوطات التي كانت تشغله عنها مدة حياته . وطفقت تبكيه بكاءً شديداً وتطرح مخطوطاته هي وجواريها ساخطات في حوض ماء متّسع . فأتلفن أغلبها غير مكترثات لقيمتها .

٤ ـ طرح كتب عبد الصمد التستري في نهر قارون

وكان للسيد عبد الصمد التستري خزانة كتب انتقلت اليه بالارث عن والده السيد احمد . كانت تشتمل على سبعة آلاف مجلد جلّها من المخطوطات المذهبة . وقد نهبت في أثناء النكبة التي لحقت بصاحبها من اهل تستر. وألقي بعضها في نهر قارون (١) .

٥ ـ طرح كتب عبد الله بن احمد في حوض ماء

أثبت الامام مسلم بن ابرهيم قاضي صنعاء اليمن ان عبدالله بن احمد صنّف كتاباً في الحديث جمع فيه بين الكتب الخمسة الصحاح . وعندما حضرته الوفاة اوصى بطرح كتابه هذا في حوض ماء .

---

(١) مجلة العرفان : مجلد ٧ صفحة ٤٧١

الفصل الثاني عشر

رزايا مكتبات بغداد والبصرة

١ ـ احراق خزانة كتب ابي جعفر الطوسي في كرخ بغداد

لما وقعت الفتنة بين الشيعة والسنّة في بغداد عام ٤٤٨ للهجرة لم يسلم فقيه الامامية محمد ابو جعفر الطوسي من غوائلها ورزاياها . فاحترقت كتبه وداره في باب الكرخ وعلى اثر ذلك انتقل من بغداد الى النجف الاشرف وسكنه . وبقي يدرّس هناك الى ان توفي سنة ٤٦٠ للهجرة. وقد ورد في «الروضات» خبر احتراق كرسيه ايضاً وهو الذي اعطاهُ اياه الخلفاء العباسيون وكان يجلس فيه للكلام (١).

٢ ـ احراق طغرل بك مكتبة سابور بن اردشير في بغداد

في السنة ٤٥١ للهجرة احترقت بغداد الكرخ واحترقت فيها خزانة الكتب التي سبق فوقفها سابور بن اردشير ونُهِب بعض كتبها. وجاء عميد الملك الكندري فاختار من تلك الكتب خيرها . وكان بها عشرة آلاف مجلد واربعمائة مجلد من اصناف العلوم منها مائة مصحف بخطوط بني مقلة. وكان العامة قد نهبوا بعضها لما وقع الحريق المذكور . فابعدهم عميد الملك وقعد يختار ما اعجبه منها فنُسِب ذلك الى سوء سيرته وفساد اختياره . وشتّان بين فعله وفعل نظام الملك الذي عمّر المدارس ودوّن العلم في بلاد الاسلام جميعها ووقف الكتب وغيرها (٢)

---

(١) مجلة « الرسالة » في القاهرة : سنة ٦ صفحة ١٥٤٨

(٢) التاريخ الكامل لابن الاثير : جزء ١٠ صفحة ٣

٣ - احراق بني عامر داري كتب في البصرة

وفي السنة ٤٨٣ للهجرة حشد امير بني عامر ما يزيد على عشرة آلاف مقاتل من العرب فهجموا على مدينة البصرة وملكوها . ثم نهبوا ما فيها نهباً شنيعاً واحرقوا مواضع شتى . وفي جملة ما احرقوا داران للكتب : احداهما وُقفت قبل ايام عضد الدولة بن بويه المتوفى سنة ٣٧٢ للهجرة. فقال عضد الدولة : «هذه مكرمة سُبِقْنا اليها وهي اول دار وقِفَت في الاسلام» . اما الدار الثانية فقد وقفها ابو منصور بن شاه مردان وكان بها نفائس الكتب واعيانها (١) .

٤ - نهب العرب خزانة كتب القاضي ابي الفرج بالبصرة

وفي اواخر ذي القعدة سنة ٤٩٩ للهجرة اجتمع آل ربيعة والمنتفق ومن انضم اليهم من العرب وقصدوا الى البصرة في جمع كثير . فدخلوها بالسيف واحرقوا الاسواق والدور الحسان ونهبوا ما قدروا عليه . ولبثوا على هذه الحال ينهبون ويحرقون مدة اثنين وثلاثين يوماً . ومما نهبوه خزانة كتب كان وقفها القاضي ابو الفرج ابن ابي البقاء . وبلغ الخبر صدقة فارسل عسكراً فوصلوا وقد فارقتها العرب . ثم ان السلطان محمد ارسل شحنة وعميداً الى البصرة واخذها من صدقة . وعاد اهلها وشرعوا في عمارتها (٢) .

---

(١) التاريخ الكامل لابن الاثير : جزء ١٠ صفحة ٧٥

(٢) التاريخ الكامل لابن الاثير : جزء ١٠ صفحة ١٧٢

الفصل الثالث عشر

تقويض الحاكم بامر الله معابد النصارى واليهود

١ ـ ابعاد النصارى واليهود عن مصر والعيث في معابدهم ومخطوطاتهم وكنوزهم وتدميره مكتباتهم

ولمّا اصيب الحاكم بامر الله بتغيير في عقله حمل سنة ٤٠٣ للهجرة (١٠١٢ م) على اليهود والنصارى واضطهدهم. والزمهم ان يحملوا على ثيابهم علامة تميزهم من المسلمين (١) واخرجهم من مصر الى بلاد الروم. ثم امر بهدم الكنائس والاديار واخذ جميع ما فيها وما لها. وناهيك ما كانت تحويه تلك المعاهد الدينية الكثيرة من نفائس الذخائر ونوادر الرقوق والمخطوطات التي يعجز القلم عن وصفها فضلاً عن احصائها. وقد اندثرت عن بكرة ابيها ضحية الجنون. فبقيت مدفونة في جوف الارض وُحرم الباحثون الانتفاع بها الى ما شاء الله.

٢ ـ هدم ثلاثين الف بيعة والاستيلاء على اوقافها

قال المقريزي في هذا الصدد (٢) ما نصّه: «ذكر من يوثق به ان الذي هُدِمَ الى آخر هذه السنة (٤٠٥ للهجرة ١٠١٤ للميلاد) بمصر والشام واعمالها من الهياكل التي بناها الروم نيف وثلاثون الف بيعة. ونهب ما فيها من آلات الذهب والفضة وقبض على اوقافها وكانت اوقافاً جليلة على مبان عجيبة (٣)».

---

(١) تاريخ مصر الحديث لزيدان: مجلد ١ صفحة ٢٥٩ و ٢٦٠

(٢) خبايا الزوايا من تاريخ صيدنايا: تالف حبيب زيات: صفحة ٧ و ٨

(٣) خطط المقريزي مجلد ٢ صفحة ٩٦؛

الفصل الرابع عشر

اتلاف مكتبتي المستنصر الفاطمي وقصر الفاطميين في القاهرة

١ ـ اتخاذ العربان رقوق كتب المستنصر احذية لارجلهم

في السنة ٤٦٠ للهجرة ثار الاتراك على المستنصر بن الظاهر الفاطمي بمصر فنهبوا مكتبته وكان فيها نحو العشرين الف مجلد مخطوط . فاقتسموها بينهم الا جانباً منها كان خاصاً بابن المحترق حاكم الاسكندرية فأرسل اليه . فلمّا وصلت احمال هذه الكتب الى ابيار سطا عليها عربان قبيلة لواتة فاحرقوا قسماً منها واصطنعوا من جلودها احذية لهم . ثم تركوا القسم الآخر آكاماً على الرمال فغطتها الرمال حتى اصبحت تلّاً عظيماً يعرف بتلّ الكتب (١) .

٢ ـ رواية الجبرتي عن احتراق تل الكتب في الحطابة

قرأنا مقالةً عنوانها « تاريخ دور الكتب في الشرق » بقلم السيد محمد علي البيلاوي نقيب السادة الاشراف بالديار المصرية جاء فيها عن تل الكتب (٢) المشار اليه ما حكايتُه : « ذكر الجبرتيّ في حوادث سنة ١٢٢٥ للهجرة انه ظهر بالتلّ الكائن خارج راس الصوّة المعروفة الآن بالحطابة قبالة الباب المعروف بباب الوزير في وهدة بين التلول نارٌ كامنة بداخل الاتربة . واشتهر أمرها وشاع ذكرها وزاد

---

(١) تاريخ مصر الحديث : مجلد ١ صفحة ٢٧٤

(٢) مطبعة المعارف واصدقاؤها : صفحة ٢٨

ظهورها في اواخر هذه السنة سنة ١٢٢٥ وكثر تردّد الناس عليها افواجاً رجالاً ونساءً . وبلغ خبرُها كتخدا بك فنزل اليها بجمع من الاكابر . وأمر والي الشرطة بصب الماء عليها وإهالة الاتربة من اعالي التلّ فوقها . ففعل ذلك . واستمر الناس يغدون ويروحون ينظرونها نحو شهرين. فلا يبعدُ ان يكون هذا من تلال الكتب التي ذكرها المقريزي في خططه » .

٣ - بيع مخطوطات قيمتها مائة الف دينار لوفاء خمسة آلاف دينار

من الخسائر الفادحة التي لحقت بدور الكتب طمعاً او جشعاً ما رواه المقريزي عن مؤلف كتاب « الذخائر » الذي زار مكتبة قصر الفاطميين في القاهرة قال : « وكنت بمصر في الفسطاط في العُشر الاوّل من المحرّم سنة احدى وستين واربعمائة . فرأيت فيها خمسة وعشرين جملاً موقرةً كتباً مرسلة الى دار الوزير ابي الفرج محمد بن جعفر المغربيّ . فسألتُ عنها فعرفتُ ان الوزير اخذها من خزائن القصر هو والخطير بن الموفق في الدين عمّا يستحقانه وغلمانهما . واستطرد بعض من شاهد ذلك بنفسه فقال : ان الكتب التي نُقلت الى دار الوزير ابي الفرج وفاء خمسة آلاف دينار بلغت قيمتها اكثر من مائة الف دينار » (١) .

٤ - عبث صلاح الدين بمكتبة الفاطميين وكنوزهم

مرّ بنا الكلام في الفصل الثاني والعشرين من الباب الثالث عن خزانة كتب الفاطميين في القاهرة . فانها كانت من عجائب الدنيا اذ لم يكُ في جميع بلاد الاسلام دار كتب اعظم منها . فصدر امر السلطان صلاح الدين الايوبي ببيعها مع جميع كنوز القصر . واستمرّ البيع مدة عشرة اعوامٍ متوالية (٢) .

---

(١) الفاطميون في مصر : صفحة ١٣٩

(٢) الصائر : مجلد ١ سنة ١٩١٢ صفحة ٢٢٣

الفصل الخامس عشر

احراق مكتبة سيف الدولة وانتهاب الخزانة الصوفية بحلب

روى بعض المؤرخين ان نيقفور الثاني فوكاس قيصر الروم (٩٦٣ - ٩٦٩ م) ما كاد يتسلم زمام السلطنة في بيزنطيا حتى أعلن حرباً عواناً على سيف الدولة الحمداني (٣٠٣ - ٣٥٦ هـ) لينتقم منه . فأغار بخيله ورجله على حلب عاصمته ودكّ قصورها وأحرق جوامعها وكتبها (١) .

غير ان بني حمدان ما لبثوا ان جدّدوا مكتبة سليلهم سيف الدولة وعزّزوها حتى أربى عدد مجلداتها على عشرة آلاف مخطوط . وفي السنة ٤٦٠ للهجرة احترقت تلك الخزانة الجديدة . والسبب في ذلك ان خازنها ثابت بن أسلم ألّف كتاباً في كشف عوار الاسمعيليّة وابتداء دعوتهم . فغضب عليه اهل هذه الشيعة وقالوا انه يفسد دعوتهم . فسعوا في ان يصلب فصلب واحرقوا خزانة الكتب كما سبق القول (٢) . وفي ايام ابو العلاء المعريّ (٣٦٣ - ٤٤٩ هـ) كانت «خزانة الصرفية» بحلب حافلة بالمخطوطات . فنهبت على اثر فتنة بين اهل السنة والشيعة في بعض ايام عاشورا (٣) . وعلى هذا المنوال دمرت مكتبة الري في بلاد فارس وقد ذكر ابن سنان الخفاجي المتوفى سنة ٤٦٦ للهجرة تلك الخزانة الصوفية في قصيدته اليائيـة التي كتبها من القسطنطينية يداعب احد اصدقائه فيها قال :

ابلغ ابا حسن السلام وقل له	هذا الجفـاء عداوة الشيعية
فلأطـْرِفنّ بما صنعت مكابراً	وابث ما لاقيت منك شكية
ولأجْلِسَنّكَ للقضيّــةِ بيننا	في يوم عاشوراء بالشرقيـة
حتى اثيرَ عليكَ فيها فتنــةً	تنسيكَ يومَ «خزانة الصوفية»

(١) كتاب «سيف الدولة وعصر الحمدانيين» بقلم سامي الكيالي : صفحة ١٥٦ طالع ايضاً ابن مسكويه

(٢) اعلام النبلاء بتاريخ حلب الشهباء : جزء ٤ صفحة ١٩٨

(٣) أعلام النبلاء بتاريخ حلب الشهباء : جزء ٤ صفحة ١٩٨ وخطط الشام لمحمد كرد علي : مجلد ٦ صفحة ١٩١

الفصل السادس عشر

نكبات مكتبة الجامع الاموي وبعض مطالب دمشق

في السنة ٤٦١ للهجرة اصيب الجامع الاموي بدمشق بحريق هائل دثر محاسنه وماكان به من الكتب والمصاحف . وربما حُرق فيه المصحف العثماني القديم (١) وسبب ذلك فتنة وقعت بين المغاربة والمشارقة فضُربت دار مجاورة للجامع بالنار. فاتصلت النار بالجامع وعجز الناس عن إطفائها (٢)

وبعد ترميم الجامع واصلاحه احترق مرّة ثانية سنة ١٣٣٩ مسيحية (٧٤٠ هـ) واتهم النصارى بهذا الحريق. فنُقضت مأذنة عيسى وجُدّدت من اموالهم . وامتدّ الحريق حين ذاك الى الابنيـة المجاورة للجامع فأتلف سوق اللبّادين وسوق الورّاقين (٣). ثم اتّصل الحريق بالجامع مرّة ثالثة سنة ١٣٩٣ مسيحية (٧٦٥ هـ) فاتلف قسماً من شرق الجامع ثم رمّم ما اتلف . ثم أحرق مرّة رابعة سنة ١٤٠١ مسيحيـة (٨٠٣ هـ) عند قدوم تيمورلنك وتلفت خزانة الكتب والمصاحف . فاعيد سنة ١٤٠٣ مسيحية (٨٠٥ هـ) الى قريب ممّا كان عليه. ثم احترق الجامع مرّة خامسة سنة ١٤٧٩ مسيحية (٨٨٤ هـ) واعيد بنيانه (٤) .

وفي ١٤ تشرين الاول سنة ١٨٩٣ نُكب الجامع كما نُكب سابقاً بحريق هائل

---

(١) خطط الشام لمحمد كرد علي : مجلد ٦ صفحة ١٩٧

(٢) المختصر في اخبار البشر لابي الفدا : جزء ٢ صفحة ١٨٦

(٣) محاضرات المجمع العلمي العربي بدمشق : جزء ١ صفحة ٣٠٧

(٤) آثار النصرانية في البلاد الشامية بقلم الخوري عيسى اسعد : جزء ١ صفحة ٩٢

التهم شيئاً كثيراً من نوادر الصكوك ونفائس المخطوطات . وكان اهمها مخزوناً في كنيسة يوحنا المعمدان التي حولها عبد الملك بن مروان الاموي الى جامع ولم يمسها المسلمون عند فتحهم المدينة (١) . وبتوالي الاحقاب اضيف الى تلك المخطوطات النصرانية مخطوطات اسلامية مهمة حفظ بعضها عند ضريح النبي يحيى . ولم يسلم من تلك البقايا الثمينة بعد الحريق الا قسم كان قد نقل من بيت الخطابة الى قبة الملك الظاهر في عهد الوالي مدحت باشا . وقسم آخر كان مصوناً في قبة المال . وتُشاهَد هذه القبة عن يسار الداخل الى الجامع الاموي من باب البريد .

ويُروى عن عبد الله البصروي من علماء القرن الثاني عشر للهجرة انه صنّف كتاباً في تاريخ البلاد الشامية فبلغ اعيان دمشق خبره . ولما مات المؤلف دخلوا داره وآلوا ان لا يأذنوا بدفنه الا بعد ان يأخذوا التاريخ الذي وضعه . فضبطوه واحرقوه على اعين القوم مخافة ان تنكشف سيئات بعضهم (٢) .

وفي اواخر القرن التاسع عشر احرقت في دمشق مكتبة العلامة الشيخ بدر الدين الحسني والد الشيخ تاج الدين الحسني رئيس الحكومة السورية سابقاً . ومن هذا القبيل ايضاً انه لما نشب الحريق في سوق الحميدية بدمشق اندلع لسان اللهيب الى خزانة مخطوطات آل الاسطواني فاتلفت قسماً منها (٣) .

---

(١) محاضرات المجمع العلمي العربي بدمشق : جزء ١ صفحة ٢٦٤

(٢) خطط الشام : جزء ١ صفحة ٨

(٣) خطط الشام : مجلد ٦ صفحة ٢٠٤

الفصل السابع عشر

اتلاف بعض المكتبات فى الغزوات الصليبية

١ ـ احراق المصاحف في محراب داود بالقدس

روى ابن ميسر في تاريخه ان الافرنج حاصروا بيت المقدس في رجب سنة ٤٩٢ وكانوا قد ملكوا الرملة . فخرج اليهم الافضل في عساكره . فلما بلغ الفرنج خروجه جدّوا في حصار بيت المقدس حتى ملكوه فهدموا المساجد وقبر الخليل وقتلوا اهل البلد جميعهم الا اليسير . وانحازت طائفة الى محراب داود عليه السلام واحرقوا المصاحف واخذوا من الصخرة ما لا ينحصر من قناديل الفضة والذهب والآلات (١) .

٢ ـ نكبة مكتبة طرابلس

في السنة ٥٠٣ للهجرة (١١١٠ م) نكب العلم بضياع مكتبة طرابلس الشهيرة على اثر استيلاء الصليبين على هذه المدينة . وللمؤرخين مذاهب مختلفة في هذه القضية حللها العلامة احمد زكي باشا في احدى محاضراته بالجامعة المصرية قال (٢) :

---

(١) تاريخ ابن ميسر : صفحة ٦٣ ؛
(٢) كتاب الحضارة الاسلامية : صفحة ٥٣ و ٥٤

« روى مؤرخ من مؤرخي العرب انه حينما وقعت هذه المدينة في ايدي الصليبيين في سنة ٥٠٣ ﻫ دخل قسيس هذه الخزانة فصادف ان اول غرفة دخلها كانت تحتوي على المصاحف فوضع يده على ٢٠ نسخة منه بالتوالي . واذ وجدها جميعها مصاحف اعلن ان هذه الدار لا تحتوي الا على كتب مخالفة للحق . وبناء على هذا الحكم احرقها الفرنج فصارت رماداً ولم ينجُ من الحريق الا عدد قليل من الاجزاء تفرقت شذر مذر في كثير من البلاد . وقد رويت هذه الحادثة كما ذكرها المؤرخون الشرقيون . ولكن اذا لم نقل ان حادثة الحريق مخترعة فمن الجائز ان نفرض على الاقل انها محرّفة او مبالغ فيها بسبب العصبية القومية . وذلك لان المسلمين قد اتهموهم احياناً باحراق خزانة الاسكندرية . ولا شك ان ضمائرهم ترتاح لايقاع تهمة من هذا النوع على عاتق النصارى كذلك .

« هذه هي عبارة المسيو كاترمير (١) بومتها وهو من الباحثين الدققين . ولا يمكن ان يدخل تحت وصف المعترض الذي ربما لا يقتنع كثيراً بما يرويه العرب المحققون . لان فيهم قوماً ألِفوا المبالغة فرماهم جميعاً بجريرة افراد منهم . وانت ترى ان كاترمير لم يخالجه ادنى شك في تقدير العدد وانما انتقد الخبر المتعلق باحراق الكتب . ولما كان هذا الخبر محلاً للشك فقد اهملته بالمرة وان كان الاستاذ جرجي يني صاحب تاريخ سورية قد أشار اليه وتأسف عليه .

« وهذه الارقام ذكرها رجل من ثقات الانكليز واكبر بحاثيهم في امور المشرق . وهو العلامة جيبون في تاريخ الدولة الرومانية (جزء ثانٍ صفحة ٥٠٥) وقال ان الفرنج احرقوها . اما ابن خلكان فقال انهم انتهبوها في السنة ٥٠٢ ﻫ ومثله ابن الاثير . وكلاهما قرّرا بان عددها مما لا يُعدّ ولا يُحصى » .

---

(١) كان كاترمير Quatremère من علماء الاستشراق في فرنسا (١٧٨٢ - ١٨٥٧) ومن بعض تآليفه نبذة في مجموعته المطبوعة سنة ١٨٦٢ في باريس عنوانها « محبة الشرقيين للكتب »

٣ ـ احراق الصليبيين كتب الروم في قسطنطينية

لما قام الصليبيون بتجريدتهم الرابعة (١٢٠٢-١٢٠٤ م) واحتلوا القسطنطينية ارتكب جنودهم فظائع شتى من قتل ونهب واضطهاد . هذا عدا الكتب الكثيرة النادرة والمؤلفات القديمة والحديثة التي أتلفت في حرائق المدينة ولا يمكن ان تعوّض (١) .ونهب اولئك الجنود ايضاً صلبان الكنائس وامتعتها وجميع ما كان ملطوخاً على ظهر الاناجيل من الفضّة والذهب (٢) .

---

(١) تاريخ الانشقاق : بقلم المطران جراسيموس مسرة : جزء ٢ صفحة ٢٣١

(٢) الحروب الصليبية في الآثار السريانية : للخوري اسحق ارملة : صفحة ٢٠٤

الفصل الثامن عشر

احراق مصاحف جامع اصبهان ومكتبات اردشير وغزنة وخراسان وبخارا ونيسابور والنجف وغيرها

روى سبط ابن الجوزي في «مرآة الزمان» ما نصّه : «سنة ٥١٥ للهجرة (١١٢١ م) احترق جامع اصبهان واحترق فيه خمسمائة مصحف عليها صفائح الذهب والفضة. ومن جملتها مصحف بخط أبَيّ بن كعب بن قيس بن عبيد الخزرجي. وكان ابي بن كعب قبل الاسلام حبراً من احبار اليهود. وقد امره عثمان بجمع القرآن فاشترك في جمعه» (١) .

ولما احتل ابو سهل الحمدونيّ مدينة اصبهان نهب خزائن علاء الدولة ابي جعفر بن كاكويه. فحملت كتبه الى غزنة ولم تلبث ان التهمتها النيران كما سيأتي الكلام (٢) .

وفي السنة ٤٥١ للهجرة احترقت مكتبة اردشير ببلاد فارس. وكانت تحوي يوم احتراقها عشرة آلاف واربعمائة مخطوط. وفي السنة ٥٤٧ للهجرة (١١٥٢ م) خرب مسجد عقيل الذي كان مجمعاً لاهل العلم وفيه خزائن الكتب الموقوفة. ونُهب عدةٌ من خزائن الكتب في المدارس التي خربت.

وفي السنة ٥٤٨ للهجرة (١١٥٣ م) امر السلطان محمود الغزنويّ باحراق «كل

---

(١) الاعلام : لخير الدين الزركلي : صفحة ٢٨

(٢) تاريخ ابن خلدون : جزء ٤ صفحة ٤٨٥

ما كان في علم الكلام » (١) . فضلاً عن كتب أعلنت الريبة في صحة تعليمها اعني بها كتب « الروافض واهل البدع » . وبعد سنتين احرق جنود الامير حسين مكتبة غزنة في افغانستان عندما احرقوا هذه المدينة .

ومن أفظع فظائع المكتبات ما حلّ بخراسان ونيسابور اثناء فتنة المغول . فان تولي خان رابع ابناء جنكزخان الطاغيـة أغار على هاتين المدينتين وقوّض ابنيتها وآثارهما الجميلة (٢) .

وأحرق جنكزخان (١١٦٢ - ١٢٢٧ م) وابنه تولي المار ذكره من المكتبات في بخارا وغيرها من مدائن العلم في بلاد فارس ما لا يُستطاع احصاؤه (٣) .

وفي السنة ٧٥٥ للهجرة احترق جامع النجف الاشرف وفيه قبر الامام علي بن ابي طالب. واحترقت معه كنوز الجامع الفاخرة ومكتبته العامرة التي كانت منهلاً لروّاد العلم ومركزاً خطيراً من مراكز الثقافة الاسلامية (٤) .

---

(١) معجم الادباء : لياقوت الرومي : جزء ٢ صفحة ٣١٥

(٢) مجلة « لغة العرب » للاب انستاس الكرملي في بغداد : مجلد ٦ سنة ١٩٢٨ صفحة ٦٦٢ وراجع ايضاً ما سطرناه عن خزائن كتب نيسابور في الفصل الثامن عشر من الباب الثالث رقم ٤

(٣) تاريخ آداب اللغة العربية : لجرجي زيدان : جلد ٣ صفحة ١١٣

(٤) مجلة « الرسالة » في القاهرة : سنة ٦ صفحة ١٠٤٩

الفصل التاسع عشر

انقضاض الصاعقة على مكتبة المسجد الحرام بمكة

في الثلث الاخير من ليلة ١٣ رمضان سنة ٨٨٦ للهجرة صعد رئيس المؤذنين الشيخ شمس الدين محمد بن الخطيب في المأذنة الشرقية اليانية القائمة على ركن المسجد النبويّ . واخذ يذكر ويمجد كعادته وكانت السماء حين ذاك متلبّـدة بالغيوم متوارية النجوم . وفي اقل من لمح البصر قصف رعدٌ هائلٌ وانقضّت صاعقـة تتأجج ناراً أصاب بعض شظاياهـا هلال المئذنة . فانشقّ رأسها وانهار باقيها على سطح الحرم فعلقت به النيران . ثم اندلع الحريق وامتد الى سائر نواحي الحرم والى القبة العليا فوق الحجرة النبوية فذاب رصاصهـا ولم تصل النار الى جوف الحجرة. وعنـد ذاك هب اهل المروّة ينادون بالحريق طالبين النجدة. فسارع امير المؤمنين السيد قسطل بن زهير الجمالي وشيخ الحرم والقضاة وخاصة القوم وعامتهم. وتسلق اهل القوة والفتوة الى سطح المسجد حاملين الميـاه في القِرَب وجعلوا يسكبونها على النار . لكنهم عجزوا عن اطفائها فلاذوا بالفرار بعد ان مات منهم اكثر من عشرة رجال تغلبت عليهم النيران واحاطت بالحرم من جميـع أطرافه فالتهمته واحرقت ما فيه من المصاحف والربعات وخزائن الكتب . وكانت كتباً نفيسة ومصاحف عظيمة (١) .

---

(١) تاريخ مكة تاليف قطب الدين الحنفي : صفحة ١٠٥

الفصل العشرون

احراق اسمعيل شاه مصاحف اهل السنة وكتبهم

ما كاد يعتلي عرش الملك اسمعيل شاه الاول (١٤٨٥-١٥٢٣ م) مؤسس الدولة الصفوية في بلاد فارس حتى تشمّر يثأر من قاتلي ابيـــه وجدّه . فأخذ يجيّش الجيوش ويدوّخ البلدان ويتابع فتوحاته حتى ملك تبريز واذربيجان وخراسان والعراقين العربيّ والفارسيّ واوشك ان يدّعي الربوبية . فقتل خلقاً ينوف على الف الف (مليون) نسمة . ولا يُعهد في الاسلام ولا في الجاهلية ولا في الامم الغابرة من اقترف مثل هذه الفظائع كاسمعيل شاه . ولم يكتف هذا الطاغية بذلك كله بل استاقه الجور والعتوّ ففتك باعاظم علماء فارس ولم ينجُ احد منهم بعد تلك الكارثة . ثم احرق مصاحفهم وجميع كتبهم تشفّياً لكونها مصاحف اهل السنّة . وكان كلما مرّ بقبور مشائخهم نبشها واخرج عظامهم واحرقها . وكان اذا قتل اميراً من الامراء استباح زوجته وامواله وجعلها حلالاً لشخص آخر (١) .

---

(١) الاعلام باعلام بيت الله الحرام : صفحة ١٢٦ وعنوان المجد في تاريخ نجد : تاليف عثمان بن عبد الله بن بشر : صفحة ٢٥

الفصل الحادي والعشرون

اجتراف السيول عدة مكتبات واتلافها

١ - اجتراف كتب ابن الدهان ببغداد

كان سعيد ابن الدهان النحويّ البغداديّ (٤٩٤ - ٥٦٩ هـ) سِيبَوَيْه عصره. وانشأ في النحو تصانيف مفيدة نضرب صفحاً عن ذكرها لشهرتها ووفرتها. وانتقل ابن الدهان من بغداد مسقط رأسه الى الموصل قاصداً الوزير جمال الدين الاصبهاني المعروف بالجوّاد . فتلقاه الوزير بالترحاب واحسن اليه وعاش ابن الدهان مدة في كنفه .

وكان لابن الدهان خزائن كتب كثيرة افنى عمره في جمعها واقتنائها . واتفق انه على اثر وصوله الى الموصل فاضت مياه دجلة واغرقت بغداد . وكانت كتبه باقية فيها فسيّر من يحضرها اليه . وكان وراء داره مدبغة غمرتها السيول وتسرّبت منها الى دار ابن الدهان فعاثت فيها وفي خزائن كتبه معاً . فلمّا حُملت اليه الكتب على تلك الصورة اشاروا عليه بان يطيّبها بالبخور ويصلح منها ما يمكن اصلاحه . فبخّرها باللاذن وبلغ ما انفقه عليها من هذا البخور اكثر من ثلاثين رطلاً . فتصاعد بخار اللاذن الى رأسه وعينيه واحدث له العمى (١) . ولا غروَ فان خزانة كتب ابن الدهان كانت من احفل الخزائن الخاصة في عصره

---

(١) ابن خلكان : مجلد ١ صفحة ٢٦١-٢٦٢

بدليل احتياجها الى تلك الكمية الوافرة من اللاذن لاجل تبخيرها . ومن شعر ابن الدهان هذان البيتان (١) :

بالكتبِ لا تحسبَنْ أنْ مثلَنا ستصيرُ
فللدّجاجةِ ريشٌ لكنّها لا تطيرُ

٢ ـ احتراق كتب المسجد الحرام بمكة

في السنة ١٠٥٥ للهجرة وقع في مكة سيل عرمرم لم يسبق له مثيل في تاريخ هذه المدينة . فدمّر ابنيتها ودخل المسجد الحرام وأتلف ما في قبّة الفرّاشين من المصاحف والرباع والكتب (٢) . فكانت الخسارة جسيمة على العلم في تلك النكبة الفادحة .

٣ ـ احتراق مكتبة دير الربان هرمزد بجوار الموصل

بالقرب من الموصل دير قديم للكلدان يُسمّى دير الربّان هرمزد كان يشتمل على مكتبة ثمينة حوت مئات من المخطوطات القديمة المكتوبة على رقّ . فحلّت بها نكبات شتى ولا سيما عام ١٨٤٤ اذ خرّب الاكراد الدير المذكور وأعملوا السيف في رهبانه . فاستطاع الرهبان ان يهرّبوا نحو خمسمائة مخطوطة اودعوها قبواً قديماً مجاوراً للدير . غير ان مطراً غزيراً سقط من اعالي الجبل فاجتاحت سيوله القبو والكتب معاً ودفعتها الى قعر الوادي حيث تلفت على بكرة ابيها . ولم يُعثَر لها بعد ذلك على اثر (٣) .

(١) نكات الهميان : صفحة ١٥٨

(٢) خلاصة الاثر : جزء ٢ صفحة ١٧٨

(٣) اثر قديم في العراق لمؤلفه كوركيس حنا عواد : صفحة ٥٠-٥٤

الفصل الثاني والعشرون

احراق ابن الابار البلنسي واحراق كتبه معه

كان ابن الآبار (٥٩٥-٦٥٨ ه) من كبار الشعراء والمؤرخين في عصره. وكان حافظاً حسن الخط . رشحه سلطان تونس لكتابة علامته في صدر مراسلاته فنهض ابن الآبار بذلك مدة من الزمان . ثم عهد السلطان في هذه المهمة الى ابي العباس الغساني فاخذ يكتب له بالخط المشرقي وهو افضل لدى السلطان من الخط المغربي . فشق ذلك على ابن الآبار لايثار غيره عليه فعوتب على ذلك . فاستشاط غضباً ورمى بالقلم وانشد متمثلاً :

اطلب العز في لظى وذَرِ الذلّ ولو كان في جنان الخلود

فلما نمي الخبر الى السلطان امره ان يلزم بيته . ثم ما لبث ابن الآبار ان استعتب السلطان بتأليف كتاب رفعه اليه سماه «اعتاب الكتاب» وضمنه اخبار مَن عُوتب منهم واستشفع بابنه المستنصر . فغفر له السلطان واقال عثرته واعاده الى الكتابة . ولما مات السلطان دعاه امير المؤمنين المستنصر الى حضور مجلسه . ثم حصل بينهما نزاع كانت عاقبته وخيمة على ابن الآبار . فان السلطان امر بالقاء القبض عليه وبعث الى داره مَن نقل اليه كتبه واوراقه باجمعها . فالفى بينها فيما زعموا قرطاساً يشتمل على ابيات افتتحها بقوله :

طغى بتونس خَلَفٌ سموه ظلماً خليفة

فاغتاظ السلطان على ابن الآبار وامر بامتحانه ثم بقتله . فقُتل قعصاً بالرماح في منتصف محرم سنة ٦٥٨ للهجرة ثم أحرق شلوه . وحملت مجلدات كتبه واوراق سماعه ودواوينه فأحرقت معه (١) .

وكان ابن الآبار قد شعر بما سيؤول اليه حاله فجاشت نفسه ونطق بهذين البيتين :

اذا ما رأيتَ الرسوم انمحت ولم يُرعَ حقٌ لذي منصبِ
فخذ في التحوّل عن تونسٍ واتركْ معالمهــا واهرب

(١) نفح الطيب : جزء ١ صفحة ٦٢١-٦٢٢

الفصل الثالث والعشرون

اكتساح المغول مكتبات ما بين النهرين والعراق وسوريا وتركستان والهند

١ ـ انقضاض يساور التتري على مكتبات ملطية

أبى الدهر الا محاربة الكتب والمكاتب فسلط عليها في كل عصرٍ اقواماً طغاة استباحوا محارمَها وقوّضوا معالِمَها . ولولا المغول او التتر الذين فاجأوا الدول العربية كالسيل العرم في القرن السابع للهجرة لسَلِمتْ من كنوزها العلمية بقيّة تُذكر . ومن أقدم الطغاة التتر الذين اورد التاريخ اخبار فظائعهم كان قائدهم «يساور» الذي انقضّ في تموز السنة ١٢٥٢ م على ملطيـة وعلى ما جاورها من المدن والدساكر . فابادها وشتت شمل سكانهـا ونهب كل ما فيها (١) . ثمّ حمل على اديارها ومساجدها فأحرقها واحرق معها خزائن الكتب . نذكر منها مكتبة الطبيب اهرون والد المفريان ابي الفرج ابن العبري كما سلف القول في غير هذا الفصل .

٢ ـ اجهاز هولاكو على مكتبات بغداد حرقاً وغرقاً

لمّا زحف التتر الى بغداد بقيادة هولاكو عام ٦٥٦ للهجرة (١٢٥٨ م) لم

---

(١) تاريخ الدول السرياني : صفحة ٤٩٢-٤٩٣

يشفقوا على خزائن كتبها العامة والخاصة . فاحرقوا جانباً منها وطرحوا بعضها الآخر في نهر دجلة فسدّ مجراه . وزعم بعض المؤرخين ان المغول او التتر فعلوا ذلك انتقاماً مما فعله المسلمون في اول الفتح العربي بكتب الفرس وعلومهم. وادّعى آخرون ان هولاكو ابتنى بتلك الكتب اسطبلات الخيول وطاولات المعالف عوضاً عن الطين . وكان هولاكو يعيث سبعة ايام في مدينة بغداد فاستباحها ووطىء سكانها بالاقدام . ثم اباد خليفتها المستعصم بالله (٦٤٠ - ٦٥٤ هـ) واستولى على قصور الخلافة وذخائرها (١) .

٣ - قسط مدينة دمشق من مظالم هولاكو وغازان التتريين

ونالت مدينة دمشق قسطها الوافر من مظالم هولاكو وفظائعه . فان هذا الطاغية لما دخلها عام ٦٥٨ للهجرة أحرق طائفة من مكتباتها . ونقل منها جانباً غير يسير الى مكتبة انشأها في مراغة باذربيجان .

وفي السنة ١٣٠٠ للميلاد اغار غازان ملك التتر على دمشق فاحرق الشيء الكثير من كتبها . وقد تفجع علاء الدين الاوتاريّ الدمشقيّ لتلك النكبة الهائلة فنظم فيها قصيدة نقتطف منها ما يلي (٢) :

أحسن الله يا دمشقُ عزاكِ   في مغانيكِ ياعمادَ البلادِ...
طرقَتْهم حوادث الدهر بالقتـل   ونهب الاموال والاولادِ
وبنات محجّبات عن الشمس   تناءَت بهنّ ايدي الاعادي
وقصور مشيّدات تقضّت   في ذراها الايامُ كالاعيادِ
وبيوت فيها التلاوة والذكرُ   وعالي الحديث والاسنادِ
حرقوها وخرّبوها وبادت   بقضاء الله ربّ العبادِ

---

(١) مختصر تواريخ القرون المتوسطة : تاليف القس لويس رحماني : باب ٣ فصل ٨ صفحة ٣٠٣
(٢) خطط الشام : مجلد ٦ صفحة ٣٧٦

٤ ـ تحويل مكتبات سمرقند وبخارا والهند الى رماد

لمّا تولى اباقا شؤون المملكة المغوليّة سنة ٦٦٤ للهجرة (١٢٦٥ م) خلفاً لابيه هولاكو تمادى المغول في تخريب دور العلم في اغلب البلدان الاسلامية. فاحرقوا مدرسة سمرقند ومدرسة مسعود بك في بخارا سنة ٦٧١ للهجرة. وكانت كلتا المدرستين من اعظم مدارس ذلك العصر تشتمل كلٌ منهما على مكتبة معتبرة. فالتهمت النيران مخطوطاتها الوافرة وحولتها الى رماد. ولم تسلم مكتبات الهند ايضاً من الكوارث اذ لم يبقَ منها اثر بعد الفتنة فاحترق بعضها ونهب البعض الآخر. والقليل الذي بقي من كتب الهند بيع بثمن بخس (١).

٥ ـ حرق مكتبة ابي الفداء في حماة

من الرزايا الفادحة التي نزلت بالعلم احتراق مكتبة ابي الفداء صاحب مدينة حماة سنة ٦٨٧ للهجرة (١٢٨٨ م). وقد ذهبت فيها طعاماً للنار مخطوطات لا تحصى ولا تقدر بثمن.

---

(١) دائرة معارف القرن العشرين: مجلد ٨ صفحة ٧٥

الفصل الرابع والعشرون

بيع مكتبة المدرسة الفاضلية بارغفة خبز في اثناء المجاعة بمصر

مما يثير الاشجان ويستنزل الدموع من العيون ما حل من النكبات بالخزانة العظيمـة التي اشتراها القاضي الفاضل عبد الرحيم البيساني (٥٢٩-٥٩٦ ﻫ) في ايام صلاح الدين الايوبي وحبسها على المدرسة الفاضلية التي انشأها في القاهرة . وكانت هذه الخزانة خاصة بالمارستان العتيق قبل نقلها الى دار العلم التي امر السلطان المشار اليـه باتلافها . فاختار منها القاضي الفاضل مائة الف مجلد وزاد عليها كثيراً حتى بلغ مجموع كتبه قبل موته بعشرين سنة مائة واربعة وعشرين الف مجلد . وكان يقتني المخطوطات من كل فن ويجتلبهـا من كل جهة ولديه نساخ لا يفترون ومجلدون لا يبطلون من العمل . واحتوت تلك الخزانة مصحفـاً اشتراه القاضي الفاضل بنيف وثلاثين الف دينار على انه مصحف الخليفة عثمان . وكان هذا المصحف محفوظاً في خزانة مفردة له غربي المحراب . فلما وقع الغلاء بارض مصر في سنـة ٦٩٤ للهجرة صار طلبة المدرسة الفاضلية يبيعون كل مجلد برغيف من الخبز سداً لجوعهم. وبقيت من تلك الخزانة بقية تداولتها ايدي الفقهاء بالعارية فتفرقت (١) .

---

(١) احمد زكي باشا : مقالته في المقتطف

الفصل الخامس والعشرون

حريق خزانة الكتب في القاهرة

ذكر المقريزي خبر هذا الحريق في خزانة الكتب فقال ما نصه : «وقع بها الحريق يوم الجمعة رابع صفر سنة احدى وتسعين وستمائة فتلف بها من الكتب في الفقه والحديث والتاريخ وعامة العلوم شيء كثير جداً كان من ذخائر الملوك . فانتهبها الغلمان وبيعت اوراقاً محرقة وظفر الناس منها بنفائس غريبة ما بين ملاحم وغيرها واخذوها بابخس الاثمان (١) . فكانت تلك النكبة وبالاً على العلم وذويه .

---

(١) الخطط المقريزية : جزء ٣ صفحة ٣٤٥

الفصل السادس والعشرون

احراق كتب ابن حزم الاندلسي

اشتهر في القرن السابع للهجرة ابو محمد بن حزم الاندلسي الذي تقلب في المناصب العالية واحرز جاهاً ومالاً جزيلا . ثم زهد في ذلك كله ومال الى العلم اذ رأى رتبته فوق كل رتبة . وكلف باقتناء الكتب كلفاً شديداً حتى انه حشد منها في منزله قسطاً وافراً .

وكان ابن حزم من أعلم علماء الاندلس واكثرهم تاليفاً . اخذ عليه الفقهاء بعض المأخذ وابلغوا المعتضد بن عبّاد امير اشبيليَة ما ينقمون به عليه . فجمع المعتضد كتبه وأحرقها وفي ذلك يقول ابن حزم :

دعونيَ من احراق رَقٍ وكاغدٍ وقولوا بعلم كي يرى الناسُ من يدري
فانْ تحرقوا القرطاس لم تحرقوا الذي تضمنه القرطاس اذ هو في صدري
يسير معي حيث استقلّت ركائبي وينزل إنْ أنزل ويدفن في قبري

ومات ابن حزم سنة ٤٥٦ للهجرة . ويقال انه ألّف نحو اربعمائة مجلد لا نعرف الآن منها سوى واحدٍ او اثنين . وذهب الباقي طعمةً للنار (١) .

(١) نفح الطيب : جزء ٢ صفحة ١٤١ وكتاب «حرية الفكر» لسلامه موسى : صفحة ١٠٢ و ١٠٣

الفصل السابع والعشرون

فواجع مكتبات الاندلس والاسكوريال

١ – احراق ثمانين الف مخطوط في ساحة غرناطة

على اثر الحرب التي نشبت في الاندلس بين العرب والاسبان وكانت نتيجتها اضمحلال الدولة العربيـة في الغرب توالت المحن على خزائن مخطوطاتها الثمينة التي كانت تحصى بمئات الالوف. فذهبت مأسوفاً عليها اما نهباً وسلباً واما ضحية التخريب واما فريسة للنيران كجاري عادة رجال الفتح في تلك الايام (١) وافظع نكبة منيت بها الاندلس حدثت عام ١٤٤٩م اذ جمعت المخطوطات من كل الانحاء واحرقت اكداساً في اكبر ساحات غرناطة. ولم يستثنَ منها سوى ثلاثمائة مجلد في الطب والرياضة اهديت الى جامعة « القلعة » التي انشأها الكردينال زيمنس. ويقال ان عدد المخطوطات العربية التي ابيدت في تلك الفاجعة بلغ نحو ثمانين الفاً (٢).

٢ – انقضاض صاعقة على الاسكوريال احرقت قسماً من مخطوطاته

من الارث العلمي العظيم الذي جمعه خلفاء الاندلس وعلماؤها مدة خمسة قرون لم يسلم سوى بضعة آلاف مجلد حفظت في مكتبة الاسكوريال بجوار مدريد عاصمة اسبانيا. ثم اضيف اليها سنة ١٦١٢ ما غنمه الاسبانيون من المخطوطات التي كانت خاصة بمولاي زيدان سلطان مراكش. وقد التهمت النار قسماً من هذه المخطوطات بتاريخ ٧ حزيران ١٦٧١ في حريق نشب في الدير المذكور بسبب صاعقة سقطت عليه (٣) فكان الاسف عليها شاملاً في الاندلس.

---

(١) تاريخ آداب اللغة العربية: مجلد ٣ صفحة ١١٣

(٢) مقالة عنوانها « انقذوا تراث الاندلس » بقلم محمد عبدالله عنان (مجلة « الرسالة » سنة ٤ صفحة ١٦٨٥ و ١٦٨٦)

(٣) Charles Graux: Essai sur les origines du fond grec de l'Escurial, p. 319.

الفصل الثامن والعشرون

غارات تيمورلنك على مكتبات البلاد الهندية والفارسية والعربية

١ - محو تيمورلنك جميع المكتبات في ما دوخه من الاقطار

في القرن الرابع عشر ظهر تيمورلنك (١٣٣٦ - ١٤٠٥) الطاغية وملك عدة مدن في بلاد الهند وفارس والعراق وما بين النهرين وسوريا فكان لا يدخل في سيره قرية الا افسدها ولا ينزل على مدينة الا محاها وبددها (١) .

٢ - غارة تيمورلنك على ملة الصابئة

الصابئة او الصبا ويقال لهم المندويون قوم يعرفون بنصارى مار يوحنا يسكنون في النواحي الشرقية من العراق ولا سيما في اطراف البصرة. وبلغ عددهم في القرن الرابع عشر للميلاد عشرين الف بيت ولغتهم سريانية محرفة ممزوجة بالفاظ عربية اطلق عليها اسم « النبطية » . فلما شن تيمورلنك الغارة على تلك الاصقاع القى الذعر في قلوب سكانها. وما كان من عامله المتولي بلاد الصابئة الا ان افرغ جهده في ابادتهم ومحو آثارهم . فهدم كنائسهم واحرق كتبهم وشتت شملهم حتى انتزحوا عن ديارهم الى بلاد الهند . ولم يبق منهم الآن الا بضعة آلاف في سواد البصرة (٢) .

---

(١) مجاني الادب : جزء ٦ صفحة ٣٣٢

(٢) مختصر تواريخ الكنيسة للمطران يوسف داود : صفحة ٦١٤-٦١٥ طبعة الموصل

٣ - تخريب مكتبات طورعبدين وانتحاب اشعيا الباسبريني عليها

ذكر غير واحد من المؤرخين ان تيمورلنك شد سنة ١٣٩٣ للميلاد في جيش كثيف على طورعبدين فدك اديار ه وخرب مدارسه وقوض كنائسه. ثم احرق ما كانت تشتمل عليه تلك المعاهد من الامتعة الفضية والاواني الذهبية والكتب القديمة الثمينة التي كانت مخطوطة باللغات العربية والسريانية واليونانية والفارسية وغيرها . واليك ملخص ما رواه شاهد عيان وهو اشعيا الباسبريني (١) . المتوفى سنة ١٤٠٠ م في قصيدة له . قال ما تعريبه :

« هوذا الاتراك ينهبوننا والاكراد يسلبوننا . . . دكوا الكنائس والهياكل واستحوذوا على اثاثها ورياشها . بعثروا مدافن الاباء... واستباحوا كتب الاناجيل وسلبوا الكتب المقدسة . . كسروا الايقونات والصور والصلبان المرصعة واصطنعوا منها قلائد . مزقوا المصنفات والحلل والسجوف فخاطوها قمصاناً وثياباً ... امسى دير قرتمين (دير العمر) خراباً يباباً بعد ما كان جنة غناء . . . انتزعوا المسامير الفضية والذهبية من دفوف الاناجيل الجميلة . . . . ولم يبقوا على اخشاب الابواب فاحرقوها قاطبة بالنيران (٢) »

٤ - حرق تيمورلنك كتب مدرستي العادلية والقضائية في دمشق

في وقعة تيمورلنك سنة ٨٠٣ للهجرة (١٤٠٠ م) استعرت النيران في دمشق مدة ثلاثة ايام متوالية فاتلفت اسواقها ومنازلها ومعابدها ومدارسها . وكانت النكبة شديدة باحتراق خزائن كتب المدرسة العادلية والمدرسة القضائية (٣) .

---

(١) نسبة الى باسبرينا وهي قرية شهيرة بطور عدين

(٢) الكنز الثمين للقرداحي : طبعة رومة سنة ١٨٧٥ صفحة ١١٣-١١٨

(٣) خطط الشام : مجلد ٦ صفحة ١٩٨

الفصل التاسع والعشرون

اساءة الاسبانيين والبرتغاليين والافرنسيين الى العلم وحرية الاديان

١ – نهب الاسبانيين مكتبة الجامع الاعظم بتونس

في السنة ٩٧٨ للهجرة (١٥٧٠ م) جرت في تونس موقعة عُرفت بخطرة الدواميس دارت بها رحى الحرب بين علي باشا التركي وبين امير تونس محمد الحفصي. فاستنجد هذا دولة اسبانيا التي ارسلت اسطولها الى «حلق الوادي» وأيّدت محمداً في امارته . فهرب السكان من شدة خوفهم ودخلوا الغابات وعمل فيهم الجوع . ثم ارسل اليهم محمد الامان فرجعوا . وكان النصارى (الاسبان) قد استولوا على اكثر بيوتهم ونهبوا خزانة الكتب التي بالجامع الاعظم وخربوا المدارس ومزقوا كتب العلم وضربوا النواقيس (١) ووطئت سنابك خيلهم ما خلّفه علماء تونس من مؤلفات كانت تضاهي ما اجتمع من الكتب في نيسابور ومرو وبغداد وقرطبة (٢) .

٢ – اتلاف الاسبانيين كتب سكان المكسيك القدماء وسجلاتهم

كان اهل المكسيك يحفظون تاريخ بلادهم ومعارفها على منسوجات قطنيـــة

---

(١) دائرة المعارف للبستاني : مجلد ٦ صفحة ٢٧٨

(٢) المجلة الزيتونية : مجلد ١ سنة ١٩٣٦ صفحة ٢٠٤

مصبوغة بالوان مختلفة رُسمت عليها احرفٌ وعلامات غريبة. قال احد المؤرخين : لما فتح الاسبانيون بلاد المكسيك وجدوا فيها كتباً قديمة وكتابات ورسوماً وصوراً في المنسوجات وجلود الحيوانات وقشور الشجر وسجلات قديمة فأتلفوها غير مبقين على شيء منها . ويُظنّ انه لو كانت هذه الآثار باقية الآن لتوصل العلماء الى حلّ رموزها وعرفوا اصل الامة المكسيكية وتاريخها وكيف وصلت الى العالم الجديد (١) .

٣ ـ احراق مطران غوا البرتغالي كتب النساطرة الملباريين

في اواخر القرن السادس عشر اشتهر الكسيس منش رئيس غوا البرتغالي اللاتيني . وغوا هي جزيرة في الهند استعمرها البرتوغاليون ولم تزل تحت حكمهم حتى اليوم. وفي السنة ١٥٩٩ عقد المطران الكسيس المشار اليه مجمعاً في ديامبر (٢) حضره ثمانمائة وثلاثة عشر شخصاً من كهنة النساطرة واعيانهم الذين انضموا في ذلك العهد الى الكنيسة الكاثوليكية. واحدث ذلك المجمع قوانين جديدة لنساطرة الملبار المتكثلكين أدخلت في مؤلفاتهم الدينية القديمة . ولم يكتف المطران الكسيس بذلك بل أمر ان تحرق جميع الكتب الطقسية التي كان يستعملها النساطرة في تلك الامصار . ثم قرّر في المواد ١٤ و ١٥ و ١٦ من احكام مجمع ديامبر ما ملخّصه :

« فلتحرق كتب فروض المجيء والميلاد التي مزّقناها قطعاً قطعاً . ومن حوى مثل هذه الكتب ولم يرسلها الى المطران خلال شهرين منذ اطّلاعه على هذا الحكم ... فانه يسقط في الحرم » (٣) .

---

(١) محاضرات المجمع العلمي العربي بدمشق : صفحة ٢٦١

(٢) مختصر تواريخ الكنيسة للمطران يوسف داود : صفحة ٦١١ طبعة الموصل

(٣) ذخيرة الاذهان في تواريخ المشارقة والمغاربة السريان : بقلم الاب بطرس نصري : جزء ٢ صفحة ١٦٣

٤ ـ احراق كتب اليهود والبروتستان في شوارع باريس

اشتهر اولياء الامر الفرنسيون في القرون الوسطى بشديد حرصهم على معتقدهم الكاثوليكي . وذاع عنهم في الوقت نفسه تعنتهم مع من كان مخالفاً لمعتقدهم كاليهود والبروتستان. يؤيد ذلك حكم صدر باحراق كتاب التلموذ فحشدوا جميع نسخه المخطوطة ونقلوها على اربع وعشرين عجلة الى ساحات مدينة باريس. وهناك اضرموا فيها النيران على مرأى من سكان العاصمة فالتهمتها بأجمعها .

وتصرّف الفرنسيون التصرّف عينه في مصاحف البروتستان الدينية في القرن السادس عشر فجمعوها وكدّسوها كلها اكداساً اكداساً . ثم اطلقوا فيها النيران فأتت عليها برمّتها ولم تُبقِ منها اثراً (١) .

---

(١) La vie de Paris au moyen âge, Par Pierre Champion, page 185

الفصل الثلاثون

مصائب مكتبات انكلترا

١ ـ احراق مكتبة اوكسفورد وغيرها

من الخسائر الكتابية الفادحة التي سطرها التاريخ باسف شديد ما جرى حين الانقلاب الديني في انكلترا في القرن السادس عشر . فان مكتبات جمة أحرقت حين ذلك. اخصها مكتبة اوكسفورد الثمينة التي ابادها كرمويل (١٥٩٩-١٦٥٨) في اواخر حياته .

٢ ـ تصرف البدالين والمجلدين في مخطوطات الاديار

كتب بال احد علماء الآثار سنة ١٥٨٦ للميلاد مقالة مسهبة عن اتلاف كتب الاديار في انكلترا حين الاضطهاد الذي ثار على الكاثوليك قال : « ان مخطوطات المكتبات كانت تباع جزافاً للبدالين (باعة المأكولات) ليغلفوا بها ما يبيعونه من المأكولات والاسماك . وكان المجلدون ايضاً يشترون المخطوطات الكاثوليكية النفيسة بابخس الاثمان ويبطنون بها الكتب الحديثة . وكثيرون من الانكليز البروتستان كانوا يدفعون المخطوطات الى اولادهم ليحرقوها فيبتهجوا بمرأى لهيبها». وقال كاتب آخر : « ان اوراق المكتبات الثمينة كانت تستعمل لتغليف قطع الحلواء وغيرها » .

٣ ـ اجتياح مكتبات جمة في حريق لندن سنة ١٦٦٦

في السنة ١٦٦٦ شبّ حريق عظيم في لندن اجتاح تلك العاصمة البريطانية من ادناها الى اقصاها . وروى المؤرخون يومئذٍ ان الحريق المذكور كان افظع فواجع عصرهم واسترسلوا يصفونه بقولهم : « كأن نيراناً من السماء تمطر على المدينة » . وقد ذهبت مكتبات جمة خاصة وعامة طعاماً للنيران . منها مكتبة « شركة نشر الكتب » التي كانت في مستودع كبير بشارع باترنوستر (١) .

٤ ـ احتراق مكتبات غوطون

لمّا نشب حريق Ashburnham House في ناحية وستمنستر اصابت نيرانه مكتبة غوطون الشهيرة . وكانت هذه المكتبة القديمة العهد غنيّة بالمخطوطات الثمينة فذهبت برمتها وامست اثراً بعد عين (٢) .

---

(١) مجلة الآثار : مجلد ١ صفحة ٣٣١

(٢) مجلة الآثار : مجلد ١ صفحة ٣٣١

الفصل الحادي والثلاثون

اغراق مخطوطات في الانهار والبحار والآبار

١ - اغراق داود الطائي كتبه في الفرات

روى ابن خلكان في تاريخه ان داوُد الطائي بن نصير الكوفي لما تبصّر بالعلوم اغرق كتبه في نهر الفرات . وذكر البقاعي في حاشيته على شرح الالفيّة للزين العراقي قال : سألتُ شيخنا ابن حجر العسقلاني عمّا فعل داوُد الطائي وامثاله من اعدام كتبهم ما سببُه ؟ فقال : لم يكونوا يرون انه لا يجوز لأحد روايتها الا بالاجازة لا بالوجادة . بل يرون انه اذا رواها احد بالوجادة يضعف . فرأوا ان مفسدة اتلافها اخفّ من مفسدة تضعيف بسببهم . وقد حلّت وفاة الطائي سنة ١٦٥ للهجرة (٧٨١ م) (١) .

وذكر ياقوت الرومي عن داوُد الطائي في كتابه « معجم الادباء » قوله : «داوُد الطائي ويقال له تاج الامّة طرح كتبه في البحر (اي بحر الفرات) وقال يناجيها : نِعمَ الدليلُ كنتِ ! والوقوف مع الدليل بعد الوصول عناء وذهول وبلاء وخمول !» (٢) .

---

(١) ابن خلكان : جزء ١ صفحة ٢٢٠

(٢) معجم الادباء : جزء ١٥ صفحة ٢١

٢ - تغريق هولاكو خزائن كتب بغداد في دجلة

أفظع نكبة رواها المؤرخون عن تغريق الكتب هي التي اقدم عليها الطاغية هولاكو التتري عندما دوّخ بغداد عاصمة العباسيين سنة ٦٥٦ للهجرة (١٢٥٨ م). فانه اباد مكتبات هذه المدينة واتلفها عن بكرة ابيها كمكتبة بيت الحكمة ومكتبة المدرسة النظامية ومكتبة المدرسة المستنصرية وخزانة الدار الخليفية وغيرها من مكتبات الامراء والوزراء والاعيان وارباب المحابر. فذهب بعضها طعاماً للنار وبعضها عرضة للنهب. اما معظمها وكان كثيراً جداً فقد امر هولاكو ان يطرح في نهر دجلة فسدّ مجراه. وكانت جيوش هولاكو تجتاز من شاطىء الى شاطىء على اكداس من تلك الكتب المخطوطة كانها جسر معقود!!

٣ - غرق مصحف الخليفة عثمان في البحر

هو المصحف الشهير الذي كان في منبر جامع قرطبة وقد مرّ وصفه في الفصل الثاني من الباب الاول. ونُقل سنة ٥٥٢ للهجرة بمجالي التكريم والتعظيم من قرطبة الى مراكش في عهد امير المؤمنين عبد المؤمن بن علي. وظل المصحف بيد السلاطين يعتنون به ويحملونه في اسفارهم متبرّكين به حتى اصبح في حوزة السعيد علي بن ادريس بن يعقوب المنصور الملقب بالمعتضد بالله. وبعد قتل السعيد سنة ٦٤٥ للهجرة قريباً من تلمسان نُهب المصحف. فعثر عليه ملوك بني عبد الواد اصحاب تلمسان وحرصوا عليه كل الحرص في خزائنهم. ولبثوا محتفظين به ريثما افتتح افريقيا السلطان ابو الحسن المرينيّ. فاستولى حينذاك على المصحف وحمله معه تبرّكاً في رحلاته وفتوحاته. واتفق انه عندما قفل بحراً من تونس الى المغرب سنة ٧٥٠ للهجرة حدث في البحر هيجان عظيم أغرق المراكب بمن فيها من نفوس وما فيها

من نفائس يعزّ وجود نظيرها . واخصها واثمنها مصحف الخليفة عثمان فكان ذلك آخر العهد به (١) .

٤ ـ نقل كتب الطريحي وطرحها في البحر

اقتنى الشيخ فخر الدين الطريحي كتباً كثيرة مخطوطة في غاية الجودة. فانتقلت الى ورثته بعد وفاته سنة ١٠٨٥ للهجرة . ولم يسلم منها شيء يعتدّ به الا اوراق متفرّقة لدى ذرّيته. وحدّث بعض الاعلام انه رأى بعينه في سرداب بدار الشيخ نعمة الطريحيّ ما يقرب من ثلاثة احمال من اوراق كتب مبعثرة قد اتلفها المطر. فنقلت باجمعها والقيت في البحر (٢) .

٥ ـ فقدان سفينتي مخطوطات للسمعاني في النيل

في السنة ١٧١٥ وافى العلاّمة الكبير يوسف سمعان السمعاني من رومة ليزور لبنان مسقط رأسه . فانتهز الفرصة وطاف اكثر الانحاء الشرقية كدمشق وحلب والقدس واديار سوريا ولبنان وصعيد مصر متفقداً خزائن كتبها القديمة . وجمع منها ومن بيوت الخاصة ما تيسر له من المخطوطات النادرة في اللغات العربية والسريانية والقبطية .

ومن الاماكن التي تعهّدها السمعانيّ دير صيدنايا بجوار دمشق حيث عثر على طائفة من المخطوطات ألقيت في احد جوانب الهيكل مأكلا للعث والارضة فأذن له باخذها (٣) . وقد شحن ثلاث سفن من المخطوطات وعاد بها قاصداً رومة ليجعلها في المكتبة الواتكانية لانه كان احد امنائها . بيد انه لسوء الطالع غرق في النيل

---

(١) الاستقصاء لاخبار دول المغرب الاقصى : لاحمد بن خالد الناصري : جزء ١ صفحة ١٥٠
(٢) ماضي النجف : تأليف جعفر ابن الشيخ باقر آل محبوبة : صفحة ١٠٤
(٣) خبايا الزوايا من تاريخ صيدنايا : لحبيب زيات : صفحة ١٠٠

سفينتان من تلك السفن الثلاث ولا يُقدّر ما فيها باقل من عشرات الالوف من المجلدات (١) . ولا يزال علماء المشرقيات يندبون هذه الخسارة الجسيمة التي لا تعوّض . وفي عداد ما غرق من تلك الذخائر الثمينة «الياذة اوميرس» منظومة بالشعر السرياني بقلم ثاوفيل الرهاوي رئيس منجمي الخليفة المهدي (٧٧٥-٧٨٥ م) في بغداد .

٦ – غرق مكتبة عظيمة شحنت من الصين الى انكلترا

روى والد اللورد بيكنسفلد أنّ رجلاً غنياً يُدعى Heer Huld سافر من انكلترا في اوائل القرن الثامن عشر الى بلاد الصين حيث قضى ثلاثين سنة كاملة . وهناك اقتنى الوفاً من الكتب تضمّنت آداب الصينيّين وعلومهم وفنونهم واسرار صناعاتهم القديمة وتواريخهم ليؤلف منها في وطنه مكتبة معتبرة . فلما اراد الرجوع الى اوروبا شحن تلك الكتب في سفينة كبيرة هبّت عليها العواصف في عرض البحار فاغرقتها . هكذا ذهبت تلك المساعي الحميدة ادراج الرياح بفقدان ثروة علمية عظيمة (٢) .

٧ – اغراق القرصان ثلاث سفن شحنت كتباً من البندقية الى لندن

كان مافاي بينل يملك في البندقية مكتبة ثمينة تضم مئات الالوف من اجود المصنفات بينها مخطوطات من القرن الحادي عشر الى القرن الرابع عشر . فباعها ورثته الى كتبي في تلك المدينة وهذا شحنها في ثلاث سفن الى لندن . فدهمها القرصان ولما لم يجدوا فيها غير الكتب ألقوا بهذه في البحر واكتفوا من الغنيمة بالسفن الثلاث (٣) .

---

(١) خطط الشام : لمحمد كرد علي : مجلد ٦ صفحة ١٩٨

(٢) اعداء الكتب : لجرجي سكسك (مجلة الآثار : مجلد ١ صفحة ٣٣٢)

(٣) مجلة الآثار : مجلد ١ سنة ١٩١٢ صفحة ٣٣٢

٨ – القاء كتب عبد العزيز النجفي في البحر وفي الابار

اقتنى عبد العزيز كتباً وافرة طلبها من الهند والعراق حتى انافت على الالوف. وكانت مخطوطة ومذهبة قد اطلع على بعضها الشيخ علي آل كاشف الغطا. وبعد وفاة عبد العزيز جامعها تفرّقت بين آله فباع فريق منهم حصته واهمل الفريق الآخر حصصه حتى امست فريسة للأرضة. فتلف اكثرها على ممرّ الاعوام وألقيت جملة منها في بحر النجف وفي الآبار (١).

٩ – طرح كتب في بئر كنيسة الموصل

لمّا انضمّ سريان قرقوش بجوار الموصل الى الكثلكة سنة ١٧٨٠ طرحوا في بئر كنيسة الطاهرة بالموصل جميع الكتب المشتملة على ما يخالف معتقدهم. وكانت مجلدات كثيرة تنطوي على قضايا مهمّة واخبار تاريخية ومباحث علمية في كل فنّ ومطلب. ويتناقل شيوخ قرية «قرقوش» عن اجدادهم انهم خسروا كنزاً عظيماً بفقدان تلك الكتب (٢).

---

(١) ماضي النجف : صفحة ١٠٤

(٢) عناية الرحمان في هداية السريان : للمطران افرام نقاشة : صفحة ٢٦٢

الفصل الثاني والثلاثون

غارة الجزار على مكتبات جبل عامل

في السنة ١٢٠٩ للهجرة (١٧٩٤ ميلادية) جرى خلاف بين احمد الجزار واعيان جبل عامل ادى الى ثورة سكان هذا الجبل عليه . فارسل الجزار عسكره ففتك بهم واهلكهم قتلاً وحبساً حتى افنى الحرث والنسل (١) . واخبرني الحاج احمد عارف الزين صاحب مجلة «العرفان» في صيدا ان الجزار اجهز في تلك الثورة على خزائن كتب جبل عامل ونقلها الى مدينة عكا . وبينها مكتبة مهدي خاتون في قرية «جويا» كانت تشتمل على زهاء اربعة آلاف مخطوط . فانتقى الجزار قسماً منها ضمه الى خزائن الجامع المعروف باسمه . اما الباقي فقد وزعه على افران عكا التي ظلت توقد تلك المخطوطات مدة ثلاثة ايام متوالية .

---

(١) مجلة العرفان : مجلد ٥ صفحة ٢٣

الفصل الثالث والثلاثون

غائلة مخطوطات صيدنايا

١ - مكتبة دير الشاغورة واقدام البطريرك متوديوس على احراق مخطوطاتها

للروم الارثذكس دير قديم في صيدنايا من اعمال دمشق يقال له دير السيدة او دير الشاغورة . وقد مرّ بنا وصف مكتبته الشهيرة التي كانت آهلة بالمخطوطات النادرة في اللغات العربية واليونانية ولا سيما السريانية . وكان للسريان مذبح خاص بهم شيدوه على اسم مار يعقوب في شمال كنيسة الدير المذكور (١). وظلوا مستأثرين بذلك المذبح الى ان هُدم في اواسط القرن التاسع عشر كما روى الاسقف اسبنسكي الذي زار صيدنايا في السنة ١٨٤٣ ميلادية.

فخشي البطريرك الانطاكي متوديوس (١٨٢٣ - ١٨٥٠) ان تكون كثرة المخطوطات السريانية حجة للسريان يتقوّون بها على تأييد حقوقهم في الدير . فاتقاءً لهذا الخطر الوهمي أمر باضرام النار في المخطوطات السريانية (٢) . وكان ذلك في الربع الثاني من القرن التاسع عشر في عهد الحاجة كاترينا مبيض رئيسة الدير (١٨٣٤ - ١٨٥١) .

٢ - اتخاذ مخطوطات المكتبة وقيداً في تنور الدير مدة اربعة ايام

الى القراء ما اثبته البحاثة حبيب الزيات عن حريق هذه المخطوطات السريانية

---

(١) خبايا الزوايا من تاريخ صيدنايا : صفحة ٩٧

(٢) خبايا الزوايا من تاريخ صيدنايا : صفحة ٩٧

وعن تلاعب وكلاء الدير بالمخطوطات العربية قال :

« ولا يخفى ما ضاع على العلم والتاريخ الشرقي من الفوائد والتعليقات التي كان يمكن اقتباسها من هذه الذخائر القديمة . وقد كان لاحراقها عمداً بيد التعصب والجهل رنة إكبار وإنكار في نفوس علماء المشرقيات حين وقفوا على شرح هذه الفظيعة الشنعاء في المقالة التي كنا نشرناها في تموز سنة ١٨٩٩ في مجلة المشرق. بعد ان تلقينا من فم شاهد عياناً اي من فم رئيسة الدير نفسها الحاجة سعدى هلال تفصيل الواقعة . قالت :

« كنت يومئذ فتاة صغيرة عند جدتي في زمان رئاسة الحاجة كاترينا مبيض (١٨٣٤ - ١٨٥١) ووكالة والد الخوري ميخائيل كك والشخاشيري وجبران الميداني . وكانت المكتبة في ذلك العهد حافلة بالمخطوطات السريانية النادرة . فانها كانت وافرة جداً حتى خشي الوكلاء من كثرتها ان تكون حجة بيد السريان يتقوّون بها على اثبات حقوقهم على الدير. فاجمع رأيهم على اخراجها واتلافها تخلصاً من شرها . فجمعوها ومعظمها من نفائس الكتب المخطوطة على رق الغزال . وبدأوا يحرقونها تحت القناطر (واشارت الى مكانها) ثم كرهوا ان تذهب نارها ضياعاً فجمعوها في فرن الدير لتكون وقوداً له وخبزوا عليها خبزتين. وظلت النار تشتعل اربعة ايام في تلك المخطوطات خلا ما أحرق منها تحت القناطر . لان الخبزة تبتدىء يوم الخميس ولا تنتهي الا يوم السبت (١) .

« ولم يقع التفريط في الكتب السريانية وحدها بل شمل سائر المخطوطات على السواء . وهي منذ وجدت في الدير لم تبرح قنصاً لكل صائد ونهباً لكل وارد . تتناول منها الايدي ما تختار وتشاء بطريق الاستعارة او العازة . فذهبت كل نفائسها ولم يسلم منها لهذا الوقت الا حثالة ليس فيها للعلم كبير غناءٍ . . . وغاية ما يستفاد من البحث فيها بعض الحواشي والتعليقات في التراجم والانساب » .

---

(١) خزائن الكتب في دمشق وضواحيها : صفحة ١١٧-١١٨

الفصل الرابع والثلاثون

اندثار مخطوطات ثمينة ومدارج قديمة في مصر

١ - تبعثر مكتبة جامع ازبك بن ططخ بين الانقاض

من الخزائن المشهورة التي بُعثرت في القرن التاسع عشر مكتبة جامع ازبك بن ططخ في القاهرة . فان مخطوطاتها النادرة وبينها الشيء الكثير من كتب علم الفلك والميقات وادواتها تشتتت اوراقها تحت الانقاض باهمال ديوان الاوقاف في القاهرة . وجرى ذلك في زمن اسمعيل باشا خديو مصر (١٨٦٣ - ١٨٧٩) عندما امر بهدم هذا الجامع لانشاء شارع محمد علي (١) . وقد سبقنا فوصفنا هذه المكتبة المعتبرة في خزائن كتب القاهرة .

٢ - احراق الفلاحين خمسين مدرجه قديمة ليشموا طيب رائحتها

لا يخفى ما تحويه ارض الفراعنة من العاديات الغالية الثمن. فكان الفلاحون حين نبشهم الدفائن والخبايا وعثورهم على مدارج أو بردي او قراطيس مكتوبة عمدوا الى اتلافها كلهــا . لكنهم كانوا اذا وجدوا بينها ذهباً او فضة احتفظوا به وتقاسموه . وهذا امر قديم ذكره المؤرخ عبد اللطيف البغدادي لما جاء القطر المصري وقال انه كان شائعاً في طول البلاد وعرضها يأتيه الجشعون. ولعل اولئك الجهلة اتلفوا من الكنوز العلميــة والتاريخية ما لا يقدر له ثمن ولا تُعرف له قيمة . من ذلك ان بعض الفلاحين اكتشفوا بقرب الجيزة خمسين درجاً مكتوبة باليونانية في صندوق من خشب الجميز . وقد عرضوها على احد التجار فاختار واحداً منها ثم احرقوا بقية الدروج لكي يشموا طيب رائحتها (٢) .

---

(١) مقالة « تاريخ دور الكتب في الشرق » بقلم السيد محمد علي الببلاوي نقيب السادة الاشراف في الديار المصرية . نشرت في كتاب عنوانه « مطبعة المعارف واصدقاؤها » صفحة ٢٩ و ٣٠

(٢) المقتطف : مجلد ٢١ سنة ١٨٩٧ صفحة ٥٩١

الفصل الخامس والثلاثون

رزايا مكتبات النصارى في سوريا ولبنان

١ - نظرة اجمالية

من اشد رزايا المكتبات في الشرق ما حلّ بمكتبات النصارى من النهب والتدمير والحريق في اثناء الفتن الاهلية . وكانت تلك المكتبات تشتمل على كل نفيس من المخطوطات العلمية والرقوق النادرة والسجلات القديمة التي جمعها رؤساء النصارى وحفظوها في بيعهم واديارهم مدة قرون عديدة . ومن طالع اخبار تلك الاديار في شتى العصور علم ان كلاً منها نُهب او احرق مرّات عديدة . وقد انتزع منهـا السالبون كل ما وصلت اليه ايديهم من المقتنيات العزيزة والكتب الثمينة .

٢ - خسارة كتب جمة في ثورة لبنان عام ١٨٤٠

مما يؤيد تلك الخسائر وثيقةٌ رسمية محفوظة بين وثائق قصر الامير بشير الشهابي في بتدّين . وهي مسجّلة تحت رقم ٣٥٨٣ ورد فيها ذكر كتب خطّية ومطبوعة نُهبت او احرقت عام ١٨٤٠ حين فتنة ثارت في جبل لبنان. وجاء في الوثيقة عينها ان اصحاب تلك الكتب طالبوا الحكومة العوض عما فقدوه .

٣ - نهب كتب دير مار افرام الرغم عام ١٨٤١

في السنة ١٨٤١ تعدى بعض الرعاع على دير مار افرام الرغم بجوار الشبانيـة

بجبل لبنان . فانتهبوا امتعته ومكتبته . وخرّبوا اضرحة المطارنة في الكنيسة واحرقوا رفاتهم وذرّوا الرماد في الحقل . ثم قبضوا على راهبين من رهبان الدير والقوهما على صخور الوادي لناحية الغرب فقضيا لساعتهما (١).

٤ – حريق مكتبتي الروم الكاثوليك والسريان بحلب عام ١٨٥٠

في فتنة السنة ١٨٥٠ احترقت كنيسة الروم الكاثوليك ودارها الاسقفية بحلب فذهب ما فيها من الاواني الثمينة والكتب المخطوطة ضحية النار .

وقس على ذلك بيعة السريان الكاثوليك ودارها البطريركية فانهما احترقتا في ١٦ تشرين الثاني ١٨٥٠ ولم يبقَ منهما حجر على حجر . واليك ما ورد في ترجمة مار اغناطيوس بطرس السابع بطريرك السريان الانطاكي (١٨٢٠ – ١٨٥١) الذي جرى هذا الحريق في عهد رئاسته ونصّه (٢) :

« ولشدّ ما كان أسف البطريرك على فقدان كتبه التي كانت تُعَدّ بالالوف ولا سيما الكتب المخطوطة النادرة الوجود . فانها ذهبت فريسة الحريق مع سائر السجلات البطريركية . ولم يسلم منها الا شيء يسير كان مطموراً تحت الرماد . . . وهنا لا بد من التنويه بمصحف الاناجيل المخطوط بالقلم السطرنجيلي الجميل منذ القرن الحادي عشر في قبرس . ثم نقله الاتراك لدى استيلائهم على الجزيرة المذكورة الى القسطنطينية حيث اشتراه بعض السريان واهدوه الى كنيسة حلب . فكان مزيناً بنقوش بديعة ومكتوباً بحروف كلها من ذهب وفضة بما لا يوصف من سلامة الذوق وبراعة الخط (٣) . وقد اخبرنا البطريرك اغناطيوس جرجس الخامس (١٨٧٤ – ١٨٩١) ان بعض اوراق هذا المصحف التي سلمت من الحريق بيعت بمبلغ

---

(١) السلاسل التاريخية في اساقفة الابرشيات السريانية : صفحة ٩٨

(٢) السلاسل التاريخية في اساقفة الابرشيات السريانية : صفحة ١٠٨

(٣) كتاب « الآثار الخطية » بالفرنسية : للاب انطون رباط اليسوعي : مجلد ١ صفحة ٣٨٩

الف وثلاثمائة فرنك (ذهب) . وكانت علائم التأثر ظاهرة على وجه البطريرك عند ذكره هذا الاثر العظيم القيمة والنادر الوجود»

وقد اطلعنا على رسالة مسهبة وجّهها البطريرك اغناطيوس بطرس السابع الى القس ميخائيل ازرق رئيس دير الشرفة بتاريخ ٢٩ تشرين الثاني سنة ١٨٥٠ نقتطف منها ما يلي : «في ١٧ الجاري داهمتنا نكبة عظيمة جداً نحن ومسيحيّ حلب . وهو ان الرعاع قاموا بغتة على النصارى فابتدأ النهب والقتل وسبي العرض . ثم دخلوا علينا وابتدأوا يضربوننا ضرباً قاسياً بالسيوف والعصي والخناجر والسكاكين حتى صار يسيل دمنا نظير الينابيع . ونهبوا جميع مقتنانا وامتعة البيت والكسوة ونهبوا الكنيسة ايضاً . وبعده حضر رجل مسلم (١) . حملنا على ظهره واخذنا لبيته في جراحاتنا وسيَلان دمنا . ثم بعده رموا الحريق بالكنيسة والبيوت التي حولها وجميع القلالي مع المكتبة وكتب الكنيسة... وبالنتيجة خرجنا عريانين نظير ما خرجنا من بطن امنا فاقدين كل شيء فقراء متسولين ليس لنا مكان نسكنه (٢).

٥ - تلف مكتبات المسيحيين بدمشق عام ١٨٦٠

كل ما رويناه عن احتراق مكتبات النصارى في حلب عام ١٨٥٠ يصدق بحذافيره في مكتبات نصارى دمشق حين فتنة السنة ١٨٦٠ ايضاً . فان الرعاع ابادوا كنائس الروم الارثذكس والروم الكاثوليك والسريان واديارهم واوقافهم التي انفقوا على تشييدها قناطير الذهب منذ اقدم العصور المسيحية . فلم يسلم من ذخائرها الكثيرة وسجلاتها العتيقة شيء على الاطلاق . وبين تلك الذخائر اليتيمة

---

(١) هذا الرجل الشهم هو الحاج عثمان حمصاني

(٢) مخطوطات دير الشرفة : رسالة البطريرك اغناطيوس بطرس السابع بتاريخ ٢٩ تشرين الثاني سنة ١٨٥٠

انجيل قديم جداً مكتوب على رق الغزال يرتقي عهد نساخته الى القرن الرابع للميلاد كان في كنيسة السريان الكاثوليك بدمشق (١) .

٦ - حرق مخطوطات اديار زحلة ونهب بعضها عام ١٨٦٠

اثبتت مجلة المشرق (٢) ان الخوري نيقولاوس صائغ خلّف تآليف جمّة أحرقَت سنة ١٨٦٠ بعين الدوق في زحلة . وأحرِقَت معها كتب عزيزة الوجود كان استعارها من دير الشير السيد باسيليوس شاهيات الحلبي يوم كان اسقفاً على زحلة . فذهبت هذه الكنوز الثمينة ضحية النار . وقد المعَ الاستاذ عيسى المعلوف الى اتلاف مكتبات زحلة بقوله : « كان في الدار الاسقفية الكاثوليكية وفي مار الياس (الطوق) الحنّاوي ومار الياس (الضيعة) المخلصي وفي دير الآباء اليسوعيين كتب مخطوطة نفيسة احرِقت ونُهِبت في السنة ١٨٦٠ وبقاياها قليلة ليست بذات شان (٣) . ويؤيد ذلك ما اثبته العلامة محمد كرد علي رئيس المجمع العلمي العربي بدمشق عما تلف في فتنة السنة ١٨٦٠ من مجاميع كتب الكنائس والاديار في دمشق وبعض لبنان ولا سيما في زحلة (٤) .

---

(١) رسالة المطران يعقوب حلياني بتاريخ ٢٦ تشرين الثاني ١٨٦٠ (مجلد ٤ من مجموعة « العقد الثمين في رسائل الآباء الى البنين » المحفوظة في خزائن مخطوطات دير الشرفة)

(٢) المشرق : مجلد ٦ سنة ١٩٠٣ صفحة ١١٠-١١١

(٣) تاريخ مدينة زحلة : لعيسى المعلوف : صفحة ٢٨٢

(٤) خطط الشام : مجلد ٦ صفحة ٢٠٤

الفصل السادس والثلاثون

جوائح مكتبات بلاد ما بين النهرين عام ١٨٩٥ و ١٩١٥

١ - جائحة مكتبة سعرت

افرغ اساقفة الكلدان في سعرت ولا سيما السيد بطرس برططر (١٨٥٨-١٨٨٤) جهوداً طيبة في تعزيز مكتبتهم . وجعلوا مركزها في دير مار يعقوب الحبيس . وضموا اليها مخطوطات قديمة ثمينـة جمعوها من اطراف كردستان والعراق وما بين النهرين .

لكن هذه المكتبة الغنية انتابتها نائبتان فادحتان اجتاحتاها وقضتا على جميع كتبهـا مخطوطة ومطبوعة . فالنائبة الاولى وقعت في خريف السنة ١٨٩٥ عندما حمل الاكراد عليها واتلفوا معظمها واتخذوا من رقوقها احذية لارجلهم . واوقدوا بعضها في مواقد الطبخ ومزّقوا البعض بالخناجر .

اما النائبة الثانية فقد حلت بها في اواسط آب سنة ١٩١٥ في عهد المطران ادّى شير ابرهينا (١) . فان الاكراد بعدما فتكوا به فتكاً ذريعاً كما ألمَعنا أجهزوا على مكتبته وأتلفوها باجمعها ولم يَذَروا منها شيئاً . وكانت تحوي ما عزّ وندر من المخطوطات والمطبوعات . فكان اتلافهـا مصيبة من اعظم المصائب بل نكبة جديدة على الكتب والمكتبات .

---

(١) طالع اخباره في مجلة المشرق : مجلد ١٨ سنة ١٩٢٠ صفحة ٨٤ و ٨٥

٢ ـ جوائح مكتبات طورعبدين وغيرها

ما اوردناه عن مكتبة سعرت ينطبق تماماً على كثير من مكتبات بلاد ما بين النهرين ولا سيما مكتبات طورعبدين . وقد أتينا باختصار على ذكر ما انتابها من المحن العديدة في سالف الزمان . ولما جاءت الحرب العظمى (١٩١٤ - ١٩١٨) أجهز الاكراد على ما سلم من بقاياها وعلى ما أضيف اليها بتعاقب الايام من الكنوز العلمية وأمست اثراً بعد عين .

الفصل السابع والثلاثون

اشهر رزايا المكتبات في ايطاليا

١ – حرق اثني عشر الف مخطوط في كريمون

كان في مدينة كريمون بايطاليا مكتبة امتازت باحتوائها بين مخطوطاتها على اثني عشر الف مجلد باللغة العبرانية. فجُمعت تلك المجلدات برمتها في احدى ساحات المدينة وأحرقت علناً سنة ١٥٦٩ بدعوى انها غريبة المذهب (١).

٢ – احتراق مكتبات تورينو

من اكبر النكبات التي اصيب بها العلم عام ١٩٠٤ احتراق مكتبة تورينو الشهيرة. فان النيران التهمت منها ثلاثة آلاف وسبعمائة مخطوط باللغات الشرقية وثلاثة آلاف مخطوط باللغتين اليونانية واللاتينية ومائة الف مجلد من الكتب المطبوعة. هذا ما عدا الوثائق الخطيرة الغالية الاثمان التي امست اثراً بعد عين.

٣ – تدمير مكتبة دير كاسينو

يقع هذا الدير الكبير على قمة جبل كاسّينو وهو من اشهر اديار ايطاليا ومن ارسخها في الآثار التاريخية. احتوى على مكتبة ضُربَ المثل في نفائسها الغريبة ونوادر مخطوطاتها التي نمّقتها ايدي الرهبان مدة اجيال عديدة. وقد احتلّ الالمان هذا الدير حين الحرب الكبرى الثانية (١٩٣٩ – ١٩٤٥) فجعلوا منه حصناً منيعاً. وبعدما نهبوا ذخائره الثمينة واتلفوا مكاتبه النادرة المثال دمروه تدميراً حتى لم يبق منه حجر على حجر. هكذا زال من الوجود معهد ادبي وكتابي عظيم له صفحة مجيدة في عالمَي العلم والفن.

---

(١) مجلة الآثار : مجلد ١ سنة ١٩١٢ صفحة ٣٣١

الفصل الثامن والثلاثون

تدمير الالمان مكتبات شتى في محاربتهم جيرانهم

١ ـ تخريب الالمان مكتبة ستراسبورغ في فرنسا سنة ١٨٧٠

في حرب السنة ١٨٧٠ دمرت قنابل البروسيويين مكتبة ستراسبورغ العامرة. وقد التهمت النيران فيها مخطوطات رسمية ثمينة بينها اوراق محاكمة غوتنبرغ مخترع الطباعة وشركائه .

٢ ـ تهديم الالمان مكتبة كلية لوفان في بلجيكا سنة ١٩١٤

ابقى لنا تاريخ الحرب العظمى (١٩١٤ ـ ١٩١٨) اخبار غوائل هائلة تقشعر لها الابدان عن تدمير بعض دور الكتب الشهيرة . وحسبنا الاشارة الى مكتبة لوفان الذائعة الصيت في بلجيكا وقد دمرتها قنابل الالمان في شهر آب سنة ١٩١٤ دون ان يكترثوا لكرامة العلم . وكانت خزائنها تشتمل على مائتي الف مجلد مطبوع او مخطوط بينها جانب لا يستهان به من الكتب الشرقية فضلاً عن الكتب العربية التي تدور ابحاثها حول الشرق والشرقيين ولا سيما العرب . فخسر علماء الاستشراق باندثارها ثروة علمية لا تقدر بثمن. وما كادت تضع تلك الحرب العظمى اوزارها حتى بادر البلجكيون الى ترميم مكتبة لوفان واعادة مجدها السابق . فانفقوا لذلك مبالغ طائلة من المال وتواردت عليهم هدايا الكتب بعشرات الالوف من جميع الاصقاع شرقاً وغرباً . لكنه في ايار سنة ١٩٤٠ أغار الالمان مرة ثانية

على مملكة بلجيكا فاكتسحوا مدنها العامرة وسهولها وجبالهـا . وضربت طائراتهم مكتبة لوفان الحديثة فدمّرتها ايضاً والتهمتها النيران (١) .

٣ ـ اكتساح الالمان مكتبات شمال فرنسا سنة ١٩٤٠

تواترت على فرنسا في حرب الالمان عام ١٩٤٠ نكبات مريعة يعجز القلم واللسان عن وصفها . ومن افدح ما دوّنـه التاريخ عن هجومهم في مدافعهم الضخمة وسيّاراتهم المحرقة وطائراتهم الجوية انهم اجتاحوا جميع مدن فرنسا الشمالية ودساكرها. فاكتسحوا كل مدينة او قرية اجتازوا بها ومحقوا معالم العلم والدين. واتلفوا الاخضر واليابس . وكان من نتائج ذلك الهجوم الهائل ان بادت عشرات المكتبات وامست اثراً بعد عين . نذكر منها : مكتبات ليل وكمبري واميان وارتوا وارآس وروان ودنكرك وكاله وبوفه ومنديديه الخ الخ .

٤ ـ غارات الالمان على مكتبات انكلترا سنة ١٩٣٩ و ١٩٤٠

يتعذر على ابلغ الكتّاب ان يصفوا الرزايا الفظيعة التي حلّت بانكلترا ولاسيا بلندن عاصمتها عام ١٩٤٠ و ١٩٤١ حين غارات الالمان الجوّية عليها . فاذا صرفنا النظر عن المدن العامرة التي دكوها وقضوا عليهـا وعن آثار الحضارة التي محقوها واتلفوها لا نرى بداً من الالماع الى ما انزلوه بمكتباتها العظيمة . فقد شنّوا غارات شعواء على مكتبة المتحف البريطاني وعلى مكتبة جامعة لندن اللتين لا تقدّر ثروتها بثمن . وقس عليهما مكتبات اخرى غنيـة بمخطوطات الاوائل ومطبوعات الاواخر كمكتبات برمنغام ومنشستر وبريستول وكوفنتري وغيرها. وعليـه فلسنا نستطيع ان نبتّ في مقدار الخراب ومدى التدمير الا بعد الاطلاع على الاحصاآت الرسمية بهذا الشان .

---

(١) جريدة « البشير » : سنة ٧٠ عدد ٦٠٩٩ في ٢٢ ايار ١٩٤٠

الفصل التاسع والثلاثون

فظائع الشيوعيين في مكتبات اسبانيا

١ - احراق عدة مكتبات وسلب كتب وافرة من اديار الرهبان

ما كنا نفرغ من تبييض هذا الكتاب حتى اشتعلت نيران الحرب الاهلية (١٩٣١ - ١٩٣٩) في اسبانيا . فكان ذلك وبالاً على الحضـــارة والعلم في القرن العشرين . فان الحمر (البلاشفة الشيوعيين) ارتكبوا من الفظائع ما لا يقع تحت حصر . فاتلفوا المعاهد العلمية وقوضوا الصروح الاثرية كالمتاحف والمكاتب وغيرها نذكر منها قصر « الحمراء » الشهير الذي بناه خلفاء العرب في بلاد الاندلس .

ومما هدمه الشيوعيون باسبانيا دير « فيش » الفخم واحرقوا مكتبته الشهيرة (١) . وسلبوا من خزائن دير « باسترانا » كامل المخطوطات الثمينة المتعلّقة باعمال الرسالات في الصين وجزر الفيلبين . واحرقوا كذلك المكتبة النفيسة التي جمعها الرهبان الفرنسيسيون في ديرهم الرئاسي بمدينة مدريد (٢) وغيرها من خزائن الكتب الغنية بالذخائر العلمية وخرائد المخطوطات .

٢ - نهب جامعة كوميلاس وتشتت كتبها ومخطوطاتها

ما اكتفى الشيوعيون الاسبان بارتكاب الفظائع وتقويض المكتبات كما سلف القول بل راحوا ينهبون كل ما عثروا عليه من الكنوز العلمية . ومن جملتها مكتبة

---

(١) جريدة « البشير » في بيروت : ١٥ كانون الاول ١٩٣٦ عدد ٥١١٣

(٢) رسالة العمال في حلب : سنة ٧ عدد ٨٢ و ٨٣

« جامعة كوميلاّس » وهي من المعاهد الشهيرة التي حوت احدث ما ابتكره العقل البشري من التحف الفنيـة والكنوز العلميـة . وبعثروا ما كان في خزائنها من الكتب الفنية والمخطوطات النادرة المثال المحفوظة منذ اعوام طويلة (١) .

٣ ـ اعتداء الشيوعيين على دير مونسرات

للرهبان البندكتيين دير قديم عظيم يقال له « مونسرّات » بضواحي مدينـة برشلونة في مقاطعة قشتلانة. يسكنه نحو مائتي راهب جلهم من اعلام العلماء و كبار المؤلفين . بينهم لجنة تولت ترجمة الكتاب المقدس الى اللغة القشتلانيـة وعلى رأسها المستشرق الذائع الصيت الاب بونونتور اوباخ . وقد انجزت اللجنة حتى الآن عدة اجزاء من ترجمـة العهدين القديم والجديد ونشرتها بالطبع مزينة بالرسوم. وفي هذا الدير مطبعة عامرة تنطوي على آنية ثمينة وكنوز وافرة . الا ان الشيوعيين لم يحترموا العلم والفضيلة بل اعتدوا على كل ما في الدير كما اعتدوا على مكتبته العامرة بالمخطوطات النفيسة . ولو لم يتدارك الرهبان ويخفوا ما تيسر من تلك الكنوز لتفاقمت الخسائر وامست النكبة اجسم وافظع .

٤ ـ احصاء النوازل الكتابية في الحرب الاسبانية

ابتدأت الحرب الاهلية في اسبانيا عام ١٩٣١ وانتهت ١٩٣٩ بانتصار الجنرال فرنكو على الشيوعيين . فبلغ ما دمّره هؤلاء ونهبوه واحرقوه خمسة عشر الفـاً وخمسمائة من الاديار والمعابد والمدارس . وكان يحوي اكثرها خزائن حافلة بالمطبوعات فضلاً عن المخطوطات المحفوظة فيها منذ مئـــات الاعوام .

---

(١) البشير : في ٧ تشرين الثاني ١٩٣٧ عدد ٥٣٦٠ .

الفصل الاربعون

احتراق مكتبة مرينتال في انكلترا

وفي شهر نيسان ١٩٣٧ شبت النار في دير شيده الاباء الفرنسيسيون في مرينتال بالقرب من مدينــة ماينس في انكلترا فدمرته تدميراً . واحترق اكبر قسم من المكتبـة التي حوت اثمن المخطوطات واندرها . وقد بني هذا الدير في القرن الرابع عشر للميلاد وهو مزار يحجه الجماهير منذ ذلك العهد (١) .

---

(١) جريدة « البرق » في بيروت : عدد ٢١٢٦ في ٦ نيسان ١٩٣٧

الفصل الحادي والاربعون

الاجهاز على الكتب بعد الحرب العظمى

١ ـ تواطؤ البلاشفة على احراق الكتب المتعلقة بالقياصرة

لما وضعت الحرب العظمى (١٩١٤ ـ ١٩١٨) اوزارها حدث انقلاب كبير في الشعوب والحكومات اودى الى انقلاب اكبر في الافكار والمبادىء . ومن تتبع مجرى الحوادث العالميـة وجدها حافلة بالثورات والاضطرابات الناتجة عن المبادىء الجديدة التي نشرها حملة الاقلام في الصحافة او دونوها في بطون الكتب .

ولاجل ذلك رأينا زعماء الاتجاهات السياسية وارباب الاوضاع الاجتماعية الحديثة يرهبون الكتب التي تنافي مواضيعها آراءهم وتعاليمهم . فبادروا الى مكافحتها بكل الوسائل حتى عفا اثرها بتوالي الايام من ادمغة شعوبهم التي امتزجت امتزاجاً وثيقاً باخلاقهم واهدافهم . هكذا تواطأ البلاشفة في روسيا على احراق جميع الكتب التي لها علاقة بالقيـاصرة من آل رومانوف . ثم اعملوا النهب والهدم بالمكتبات الخاصة والعامة بما فيها من المخطوطات الثمينة والفنون الرائعة .

٢ ـ تجميع مصنفات اليهود من انحاء المانيا والنمسا وسحقها في المحاشد العامة

وحذا حذو البلاشفة في روسيـا النازيون في المانيا . فانهم سحقوا كتب علماء اليهود على بكرة ابيها وابادوا المؤلفات التي تندد بالمبادىء الاشتراكية الوطنيـة .

وعلى اثر ضم النمسا الى دولة المانيا عام ١٩٣٨ نشرت اعلانات رسمية ولصقت على الجدران تدعو الاهالي الى احضار ما عندهم من مؤلفات مكتوبة باقلام يهودية لاجل اتلافها . وشهدت مدن النمسا محاشد غريبة لاحراق الكتب اليهودية على اختلاف مواضيعها . وقد جمعت من مكاتب العامة والخاصة . وهي تشتمل على تصانيف لا تحصى لمشاهير كتابهم مثل اميل لدويغ وارثر شنيتزلو واستفان زويج وفيكيبوم وغيرهم وغيرهم . ومن ابرز تلك المحاشد التي تقشعر لها الابدان ما جرى بتاريخ ٣ ايار ١٩٣٨ في ميدان « رازيدنس بلاتزر » في مدينة سلزبورغ (١) .

٣ ـ اعتداء النازيين على مكتبة كردينال فينا عام ١٩٣٨

في ٨ تشرين الاول سنة ١٩٣٨ قام شبان النازي انصار هتلر بتظاهرة عدائية ضد الكردينال انتسير رئيس اساقفة فينا فهاجموا القصر الكردينالي وقاموا فيه باعمال النهب والحريق والتخريب. واتلفوا مكتبته الثمينة التي حوت انفس الآثار منذ قرون عديدة (٢) .

٤ ـ اجهاز الاتراك على الكتب التركية ذات الصبغة العربية

عندما خلع الكماليون آخر سلطان عثماني عن عرش اجداده وطردوه من تركيا مع سائر العترة السلطانية اجهزوا على جميع الكتب التي تنزع الى سلاطين بني عثمان وتتغنى بامجادهم . وما اكتفوا بذلك بل اتلفوا جانباً عظيماً من التآليف التركية ذات الصبغة العربية .

---

(١) جريدة فتى العرب في دمشق : سنة ٢٠ عدد ٤٧٠٦ بتاريخ ٣ ايار ١٩٣٨

(٢) جريدة « البشير » البيروتية : مجلد ٦٩ عدد ٥٦٢٦ في ١١ تشرين الاول ١٩٣٨ وجريدة « بيروت » : سنة ٣ عدد ٥٩٣ في ١١ تشرين الاول ١٩٣٨

الفصل الثاني والاربعون

نكبة مكتبة بطريركية الفنار في اسطنبول

بطريركية الفنار هي مركز للبطريرك المسكوني الذي يُعتبر أعلى رئيس ديني لملة الروم الارثذكس. ففي تلك البطريركية مكتبة عامرة قديمة العهد اشتملت على وثائق ثمينة وكتابات نفيسة ومخطوطات جزيلة الفائدة يرجع اليها الباحثون في الشؤون العلمية والقضايا التاريخية. وقد صبرت تلك المكتبة البطريركية على محن الدهر حتى دهمتها في ٢١ ايلول سنة ١٩٤١ نكبة جسيمة أتلفت جانباً من محتوياتها النفيسة.

ففي التاريخ المذكور شبّ حريق هائل في حي الفنار في اسطنبول فالتهمت النيران ما يُربي على ثلاثمائة منزل وتركت نحو الف نفس بلا مأوى. وقد لحق بالدار البطريركية خسائر فادحة اذ اندلعت ألسنة اللهيب الى مكتبتها والى ردهة السنودس المقدسة وبعض غرف الرهبان فأتلفت الصور الفنية الثمينة. واصاب بعض العطب كنيسة القديس جاورجيوس. ولم تسلم مخطوطات كنيسة القديس اوسطاثيوس وخزانتها من التلف. ولم ينجُ غبطة البطريرك المسكونيّ نفسه من الحريق الا بعناية الهية. وقد أحدثت هذه النكبة تأثيراً بليغاً في جميع الاوساط ولا سيما لاجل الخسائر الفنية التي لا تُعوّض (١).

---

(١) مجلة « المسرة » مجلد ٢٧ سنة ١٩٤١ صفحة ٣٧٩-٣٨٠ وجريدة « اسيا » في بيروت : مجلد ١ عدد ٦٠ في ٢٣ ايلول ١٩٤١

الباب السابع عشر

النوازل الادبية بالمكتبات والكتب

الفصل الاول

اعداء الكتب والمكتبات

اثبتنا في فصول سابقة بعض رزايا مادية انتابت الكتب ونكبت بها المكتبات . ولا نرى الان مندوحة عن تدوين بعض رزايا ادبية لا تقل عن تلك فظاعة بل تفوقها ضرراً وفداحةً . لان الاولى اذا كانت تبيد الكتب وتفتك بالمكتبات فان الثانية لا تقتصر على ذلك فقط بل تقيد الحرية الفكرية وتبلبل المشتغلين في المعاهد الكتابية تبلبلًا يفقدهم الطمأنينة والانتظام . وناهيك ما يترتب على ذلك التقيد الفكري وعلى تلك البلبلة المعنوية من دواعي تقهقر الادب وخنق الثقافة والاساءَة الى معاهد العلم .

ليس الذين دمروا المكتبات واحرقوا الكتب في القرون الغابرة هم وحدهم اعداءها كما يتبادر الى الظنّ . كلاً ثم كلاّ . فان اولئك ما ارتكبوا تلك الجنايات الهائلة الا عن توحش بربريّ او جهل مطبق او تعصب ديني او عداوة سياسية . اما مرتكبو الجرائم الادبية في حق الكتب والمكتبات فلا يقاون عنهم فظاظةً وسخافةً . لانهم على رغم تظاهرهم بالغيرة على مصالح المكتبات والحرص على كنوزها نراهم يتذرّعون بنفوذهم او تسوقهم جهالتهم الى القضاء على كل مشروع ادبي وعلى كل معهدٍ كتابي . فيحققون فيهم قول ابي العلاء المعري عن بعض امراء زمانه :

يسوسون الامور بغير عقلٍ وينفذ امرُهم ويُقال ساسهْ

ولا شك ان مرتكبي تلك الجرائم الادبية يجدّدون بافعالهم الطائشة ذكرى جنكزخان الطاغية وابنه تولي وحفيده هولاكو وطغرل السلجوقي وغازان التتريّ وتيمورلنك العاتي وغيرهم ممن طغوا وبغوا . فكانوا آفة الآفات على الكتب والمكتبات . وقد ألمعنا في بعض الفصول اليهم والى ما اقترفوه مَن الاعمال المجية التي يندى لها وجه الانسانية خجلاً . فكأن اعداء العلم هؤلاء ومَن جاراهم حاولوا ان يخلدوا لدمامتهم الممقوتة صفحة سوداء لطخت تاريخ حياتهم بوصمة العار والشنار على كرور الاعصار .

سبق لنا ان روينا اخبار الخلفاء والعظماء والعلماء والكرماء ممّن شيّدوا « دور العلم » وأسّسوا « بيوت الحكمة » فسطرنا لهم آيات الشكران . اما الآن فقد اضطرّنا الانصاف ان نقبّح افعال جميع الذين يختلقون المشاكل او ينفثون المفاسد لتنكيس رايات الادب ومناصبة الساعين لتعزيز خزائن الكتب . كيف لا وقد نصبوا لها المكايد وسدّوا في وجوهها الطريق المؤدية الى تعميم المعارف بين طبقات الامة . وهذا نوعٌ من القتل ارتكبوه او بالحريّ تعمدوهُ لتقويض اركان مكتبات جليلة محترمة لها تاريخها المجيد وشأنها الرفيع في البنيان الثقافي الذي تستند اليه الشعوب العربية . وقد صدق فيهم قول الشاعر :

قَتْلُ امرىءٍ في غـابةٍ جنايةٌ فيها نَظَرْ
وقتلُ شعبٍ آمنٍ جريمةٌ لا تُغْتَفَر

الفصل الثاني

لصوص الكتب والمكتبات

١ ـ خيانة بعض قوّام المكتبات

على رغم اعتناء الملوك وائمّة الادب بالمكتبات وشديد حرصهم على ذخائرها فانها لم تخلو في كل آن من افراد طمّاعين او وكلاء خونة قحموا على انتهاب خرائدها واختلاس اغلب نفائسها بلا تورّع ولا حياء. وهو داءٌ وبيل بُليت به خزائن كتب الشرق والغرب معاً دون استثناء. ولولا ذلك لبقيت تلك المكتبات سالمة وازدادت الرغبة في الاختلاف اليها والاستفادة من محتوياتها.

٢ ـ سرقة مكتبات تونس

حدّثنا صاحب «المشرع الملكي» عن بعض معاصريه في تونس انه بعدما أصيب بما اصيب به ابناء ذلك العصر من هدر الدماء واستباحة الاموال دخل الى مكتبته احد خدامه فاستحوذ عليها. وحمل هذا الخادم الى داره ما سرقه من كتب سيده وباعها من البقالين فاستعملها هؤلاء بدورهم في لفّ بضائعهم. ولسنا نغمّض عن ذكر خزائن عامة في تونس لعبت بها الايدي الاثيمة وقد كانت حافلة بمخطوطات ثمينة لا يحصى لها عدد. نخص منها بالذكر خزانة جامع الزيتونة بالعاصمة وخزانة الجامع الاعظم في القيروان. وقس عليهما سائر المكتبات التي لم يكن يخلو منها جامع او مدرسة كجامع حموده باشا وجامع صاحب الطابع. فقد اختلس اللصوص

من هذه المكتبات ما استأثرت ببعضه مكتبات خاصة وتلقفت بعضه الآخر خزائن اوروبا على يد فريق من الخونة كسليمان الحرائري (١٨٢٤ - ١٨٧٤) وغيره (١).

٣ - سرقة كتب ابي الغنائم الشيباني الضرير

وكان لأبي الغنائم الشيباني الضرير (٥٦٥ هـ) في بغداد خزانة حافلة بالمخطوطات اللغوية والادبية. لانه برع في النحو وبلغ فيه الغاية وسمع كثيراً من كتب الادب ودواوين العرب . ولم يكن يهتدي الى الطريق بغير قائد كما يهتدي العميان حتى سرقت كتبه . وقد سرقها جار كان يأتيه في كل ليلة وهو قريب من منزله (٢) .

٤ - استباحة الخشاب النحوي كتب الناس

يُروى عن ابي محمد عبدالله الخشّاب النحوي انه كان اعلم اهل زمانه بالنحو حتى يقال انه كان في درجة الفارسي . وكانت له معرفة بالحديث والتفسير واللغة والمنطق والفلسفة والحساب والهندسة . وما مر علم من العلوم الا وكانت له فيه يد حسنة . وخلّف مؤلفات كثيرة ووقف كتبه على اهل العلم ومات سنة ٥٦٧ للهجرة . وكان الخشّاب اذا حضر سوق الكتب واراد شراء كتاب غافل الناس وقطع منه ورقة وقال انه مقطوع ليأخذه بثمن بخس . واذا استعار من احد كتاباً وطالبه به قال : دخل بين الكتب فلا اقدر عليه (٣) . ومن شعره ملغزاً في كتاب :

وذي اوجهٍ لكنه غير بائحٍ ... بسرٍّ وذو الوجهين للسرّ مظهرُ
تناجيك بالاسرارِ اسرارُ وجههِ ... فتفهمها ما دمتَ بالعينِ تنظرُ

---

(١) المجلة الزيتونية : مجلد ١ سنة ١٩٣٦ صفحة ٢٠٥-٢٠٦
(٢) بغية الوعاة : صفحة ٢١٤-٢١٥
(٣) بغية الوعاة : صفحة ٢٧٧

٥ - اختلاس كتب الدينوري

قال محمد بن يحي : « كان الدينوري (٢٦٧ - ٣٤٩ ﻫ) بمصر يتلاعب بـــه الصبيان ويتضافرون عليه ويسرقون كتبه » . وحلت وفاة الدينوري في قرطبة بالاندلس سنة ٣٤٩ للهجرة بالغاً الثانية والثانين من سنه (١) .

٦ - احمد بن سيد الاشبيلي الملقب باللص

ما عدا لصوص الكتب كنا نودّ لو اوردنا اسماء لصوص الشعر والادب والفنون والاختراعات العلمية . غير ان ضيق المقام يحول دون ذلك لا سيا لان عدداً وافراً من الكتّاب طرقوا هذا الموضوع قديماً وحديثاً ووضعوا فيه التصانيف الجمة . غير اننا نكتفي بذكر شاعر من كبار شعراء الاندلس اشتهر بسرقاته وهو احمد بن سيد الاشبيلي المكنى بابي العباس . وقد لقبوه باللص لاغارتـه على اشعار الناس (٢) . ومن بديع نظمه قوله :

سلبت قلبي بلحظ ... ابا الحسين خلوب
فلم اسمّ بلصّ ... وانت لصّ القلوب

ولهذا اللص مواقف مشهورة في انشاد الشعر . نذكر منها موقفه ازاء الخليفة عبد المؤمن بن علي عندما بايعه اهل الاندلس بالخلافـــة على ضهر « جبل الفتح » المعروف في عهدنا بجبل طارق قال :

غمض عن الشمس واستقصر مدى زحلِ ... وانظر الى الجبل الراسي على جبلِ
انى استقر بـــه انى استقل بـــه ... انى راى شخصه العالي فلم يزلِ (٣)

---

(١) ابن عساكر : جزء ١ صفحة ٣٧؛

(٢) نفح الطيب : جزء ٢ صفحة ٥٤٤-٧٤؛

(٣) النبوغ المغربي في الادب العربي لعبد الله كنون الحسني : جزء ١ صفحة ٣٤؛

٧ ـ ابو عبد الله السعيدي المعروف بلقب «مزبلة العلم»

ولا نريد ان نختم هذا الفصل دون ان نلم بذكر لص آخر اسمه محمد بن بركات ابو عبد الله السعيدي النحوي اللغوي (٤٢٠-٥٢٠ هـ) الذي استتم مائة من العمر. واشتهر بلقب «مزبلة العلم» لدنس ثيابه وغرابة خلقه وخلقه والتقعير في حديثه وتخطئته لكل متكلم. وقد ادرك الشدة العظمى التي حلت بمصر عام ٤٦٠ للهجرة وما بعده وكان عمره اذ ذاك اربعين سنة. وكان يحضر مائدة متولي الشرطة بمصر ويعلم اولاده ثم يأخذ اجرته رغيفين فيدفع احدهما لشيخه ابن بابشاد. وكان منقطعاً في سطح جامع عمرو ابن العاص للعبادة. ويبيع الرغيف الاخر في سوق زقاق القناديل باربعة عشر درهماً ويأخذ الدراهم ويطلع الى القاهرة يدفعها للفراشين الموكلين بالايوان بخزانة الكتب بالقصر. فيأخذ بكل درهم كتاباً. فيتخير الكتب المنسوبة وخطوط العلماء وكل مستحسن ويأتي بعد ذلك الى سقف بيت قد اغلق بابه ونقب السقف فيرمي تلك الكتب منه. كذا كل يوم. فلم تمض الشدة الا وذلك البيت ملان كتباً من كل فن. فكانت سبب غناه عن الناس الى ان مات (١).

٨ ـ انتحال السيوطي لنفسه بعض تصانيف غيره

كان جلال الدين السيوطي (٨٤٩-٩١١ هـ) من اكبر علماء زمانه. وانصرف منذ حداثته الى الجمع والتأليف فعُدّت مصنّفاته بالعشرات. وروى تلميذه الشمس الداوودي مؤلف «طبقات المفسرين الكبرى» قال: «عاينت الشيخ جلال الدين وقد كتب في اليوم الواحد ثلاثة كراريس تأليفاً وتحريراً. وكان مع ذلك يُملي الحديث ويجيب على المتعارض منه باجوبة حسنة». وعلى رغم منزلة السيوطي

(١) المشرق: مجلد ٣٥ سنة ١٩٣٧ صفحة ١٨٣-١٨٤

العلمية الرفيعة لم يسلم من ذم الناس وانتقـاد المؤرخين . لانه « استبد بالاخذ من بطون الدفاتر والكتب . فأخذ من كتب المحمودية وغيرها كثيراً من التصانيف القديمة التي لا عهد لكثير من العصريين بها في الفنون . فغيّر فيهـا وقدّم وأخّر ونسبها الى نفسه (١) »

٩ ـ سرقة مكتبتي القرصانية والاحمدية بحلب

يضيق بنا المجال لو شئنا تعداد اسماء الخزائن العربيـــة التي انتابتها امثال هذه النكبات في العصور الغابرة والحاضرة . فان ايدي اللصوص امتدّت اليها واختلست ما عثرت عليه فيها من نوادر المخطوطات واستباحتها غنيمة باردة . ثم باعتها من مكتبات اوروبا واميركا ومصر وغيرها بأثمان باهظة .

وبين تلك الخزائن ما سرق دفعة واحدة كما جرى لمكتبة « القرصانيّة » التي كانت من اغنى مكتبات حلب واقدمها . وقد اثرى سرّاقها واصبحوا اصحاب عقارات ذات أجور وافرة (٢) . وكان زعيم اولئك السراق على ما نقله الحلبيون ماهر الحيل . فانه وضع يده على انفس مخطوطات المكتبة القرصانيّـة . ولما اكتشف امره عمد الى اخفائها في احد حمّامات حلب . وبعد ردحٍ من الزمان بعث الى مصر بما اختلسه وباعه بأبخس الاثمان .

ومن المخطوطات النادرة التي اختلسها امثال اولئك السرّاق من « المكتبة الاحمدية » بحلب نذكر : كتاب « النبات » المزين بالصور النفيسة تأليف ابي حنيفة الدينوريّ . وقد بيع هذا المخطوط البديع من المتحف البريطاني في لندن بمائتي جنيه انكليزي .

---

(١) ذيل تذكرة الحفاظ : لشمس الدين الحسيني : صفحة ٦

(٢) جريدة « الاهالي » في حلب : للشمباني : ١٢ حزيران ١٩٣٨ عدد ٩٧٤

١٠ ـ سرقة مكتبات بلاد الشام

قس على ما سبق سرقات جمة ذكرنا نتفاً منها في بعض فصول هذا الكتاب . ونجتزىء ههنا باثبات ما اورده الاستاذ محمد كرد علي رئيس المجمع العلمي العربي بدمشق عن مكتبات بلاد الشام قال : « وكان القوم ولاسيما بعض مَن اتسموا بشعار الدين وَمن كان يرجع اليهم امر المدارس والجوامع بلغ بهم الجهل والزهد في الفضائل ان يفضّلوا درهماً على انفس كتاب. فخانوا الامانـة واستحلّوا بيع ما تحت ايديهم او سرقة ما عند غيرهم والتصرف به كأنه ملكهم » (١) .

وكانت المكتبـة العمرية في دمشق قبل سنوات بيد آل السقطي من الحنابلة الشاميين . وقد سطوا على كثير من كتبها ثم نقل ما بقي منها الى المكتبة الظاهرية. وكان ابناء الناظر على وقف المكتبة المشار اليها قد سرقوا جانباً من المخطوطات. ولا يزال عندهم جزء من الكتاب الواحد وجزؤه الآخر في المكتبة الظاهرية (٢) .

---

(١) خطط الشام : جزء ٦. صفحة ١٩٨

(٢) المدرسة العمرية : بقلم محمد اسعد طلس (مجلة دمشق : مجلد ١ عدد تموز سنة ١٩٤٠ صفحة ٣٦ ـ ٣٧

الفصل الثالث

العبث في الكتب المخطوطة وتحريفها

١ ـ تصدي بعض الكتاب لتحريف الكتب

من أفجع المصائب التي رزئت بها المكتبات إقدام بعض الجهلة او المدعين بالعلم على العيوث في المخطوطات القديمة والعبث بنصوصها . وفي جملة ما اقترفوه من الجنايات الادبية المنكرة انهم حرّفوا تلك الكتب او صحّفوها وزوّروها . وبينهم من ساقه التعصّب فحك شيئاً من كتاباتها اخفاءً للحقيقة او اثباتاً لقضية ملفقة . ولم يخجل بعض الكتّاب ان يخرجوا عن حدود الحق بمحاولة الغش واستعمال التمويه واختراع حوادث لا اصل ولا فصل لها تأييداً لمزاعمهم . بل لم يتورّع فريقٌ غيرهم عن اتلاف المخطوطات الخطيرة او التلاعب بها او تمزيق بعض اوراقها . بل حملت قلة الامانة فريقاً من المدّعين بالعلم على سرقة مؤلفات غيرهم وانتحالها زوراً وكذباً لانفسهم او لمن شاؤا من انصارهم . فنتج عن ذلك كله إفساد الكتب وبلبلة التواريخ وتشويه الحقائق وتضليل الباحثين عن محجّة الهدى والصواب (١) .

٢ ـ تحريف ابن حبيب كتب المؤلفين وابداله اسماءهم باسمه

وممّن ثبت تحريفهم للكتب محمد بن حبيب ابي جعفر الذي اشتهر بين علماء بغداد

---

(١) الاستقصاء لاخبار دول المغرب الاقصى : تاليف احمد بن خالد الناصري السلاوي : جزء ١ صفحة ١٥٠

باللغة والشعر. وكان ثقة في الاخبار والانساب. وخلف تصانيف وافرة ذكرها السيوطي وياقوت الحموي وغيرهما من رواة التراجم . ومات بن حبيب في سامرا سنة ٢٤٥ للهجرة . غير ان عمله الواسع لم يمنعه من الاقدام على تحريف الكتب بشتى الاساليب والحيل . قال المرزباني «كان ابن حبيب يغير على كتب الناس فيدعيها ويسقط اسماءهم منها (١)».

٣ - تصحيف عناوين بعض مؤلفات حبيش وضبطها غلطاً باسم خاله حنين

في منتصف القرن الثالث للهجرة اشتهر حُبَيش الاعسم ابن اخت الربّان حنين بن اسحق (+ ٨٧٦ م) بنقوله الكثيرة من اللسانين اليوناني والسرياني الى اللسان العربي . غير ان الغرّ من قراء كتب حُبَيش ظنوها لحنين فصحفوها ونسبوها اليه جهلًا او عمداً (٢) .

ولما كانت الحروف العربية في عصر حنين وحُبَيش تكتب مهملة دون نقاط كان تصحيف الاسمين سهلًا . لاننا اذا جرّدنا النقاط عن لفظَي «حس» و «حس» لمحنا بينهما تشابهاً محسوساً ملموساً يدعو الى الالتباس .

٤ - انتحال الحسن البناء كتب سميه الحسن النيسابوري

وحدّث ابو العز بن كادش عن الحسن بن احمد بن عبدالله البناء (٣٩٦-٤٧١ ﻫ) انه اخذ كتب سميه الحسن ابن احمد بن عبدالله النيسابوري وانتحلها لنفسه . فكان البناء يكشط حروف «بوري» من آخر لفظة «النيسابوري» ثم يمحو السين ويتصرف

---

(١) بغية الوعاة : صفحة ٢٩-٣٠

(٢) تاريخ مختصر الدول : صفحة ٢٥٢-٢٥٣

في بقية حروف اللفظة حتى تصبح «البنا» بدلاً من «النيسا» . وهذا نوعٌ آخر من تحريف الكتب . وكان ذلك من السهل لان العرب لم يتعودوا تنقيط الحروف في اول عهد كتابتهم كما قلنا .

وقد جمع احدهم ضروب العبث بالمخطوطات فاشار الى افسادها وتصحيفها وتحريفها وتغييرها قال :

فكم أفسد الراوي كلاماً بنقلهِ ... وكم صحف الاقوال قومٌ وحرّفوا
وكم ناسخٍ اضحى لمعنىً مغيراً ... وجاء بشيء لم يُرِدهُ المصنِّفُ

٥ - امانة المؤلفين الثقات وحرمتهم للكتب ومصنفيها

وبعكس من سبق ذكرهم فقد اثبت التاريخ اخبار فئة من القوم يُشكرون لصدقهم في كتاباتهم واحاديثهم ويُحمدون على اجلالهم للكتب . روى ابو سعد السكري عن لسان بعض من يوثق بكلامهم ان اسمعيل الصابوني المتوفى سنة ٤٤٩ للهجرة قال : «ما رويت خبراً ولا خلفت في مجلس اثراً الا وعندي اسناده . وما دخلت بيت الكتب قطّ الا على طهارة (١)» .

ولو توخينا تدوين كل ما عرفناه واطلعنا عليه في هذا الصدد لتوفرت لدينا المواد وتجاوزنا خطة الايجاز التي سلكناها في مؤلفنا . فاكتفينا بالالماع الى ذلك حذراً من ملل القراء .

(١) تاريخ ابن عساكر : جزء ٣ صفحة ٣١

الفصل الرابع

تصرف بعض الرهبان في مكتبات الاديار

١ - عيث الرهبان في مكتبة دير السيدة بوادي النطرون

يرتقي عهد بنيان دير السيدة الى القرن السادس للميلاد. أسسه الرهبان السريان في وادي النطرون بمصر قبل السنة ٦٠٠ ميلادية. يؤيد ذلك مخطوط نسخ في هذا الدير عينه عام ٦٠٣ م (١). ومنذ ذلك العهد كان فريق من رهبانه يكبّون وقت الفراغ على نساخة الكتب ويضمونها الى مكتبة الدير حتى صار فيها عدد غير يسير من ذخائر المخطوطات.

وفي السنة ٩٢٧ م اضطر موسى النصيبيني رئيس دير السيدة ان يرتحل الى بلاد المشرق ليجمع حسنات المؤمنين ويعود فيستفك ديره من الرهائن. وتوفق حين رحلته فاحرز كمية وافرة من المخطوطات القديمة اغنى بها مكتبة الدير.

ويُستخلص من حواش علقها النساخ على تلك التحف الكتابية ان موسى المشار اليه التقطها من انحاء العراق وما بين النهرين وسوريا وفلسطين. واليك اسماء بعض المدن والقرى التي منها جمعت تلك المخطوطات وهي: تكريت وقرقوش وراس العين وقرقيسيا والرها ومعدن وتل موزل وتل بسم ودنيسر والابراهيمية وطورعبدين والرقة ومرعش وحمص والبقاع وحارستا وتدمر وانطاكية ومن القدس ونابلس وعكا الخ الخ (٢).

---

(١) راجع فهرس مخطوطات لندن: رقم ٦٧٢
(٢) السريان في القطر المصري: للخوري اسحق ارملة: صفحة ٧١

ومنذ اوائل القرن التاسع عشر تغلّب الاقباط على هذا الدير الكبير وطردوا منه رهبانه الاصليين وتصرفوا في اطيانه وامتعته ولاسيا في مكتبته الثمينة التي تجمعت فيه منذ قرون عديدة. وجعلوا يبيعون مخطوطاتها بيع السلع فامتلأت منها مكتبات في الغرب والشرق. يتضح ذلك جلياً من فهارس مخطوطات لندن وروما وباريس وبرلين واكسفرد وكمبردج وميلان وغيرها. ولم تخلُ من مخطوطات دير السيدة مكتبات دير مار مرقس باورشليم ودير الشرفة بلبنان ومكتبة الكلدان بماردين ومكتبة ملطية بارمينيا الصغرى الخ. هكذا اضمحلت وبادت مكتبة دير السيدة بوادي النطرون بعد عزّ دام لها عدة قرون (١).

٢ ـ اعتداد كنوز مكتبة صيدنايا كاسقاط المتاع

بين المكتبات الشهيرة التي تفقّدها العلاّمة يوسف شمعون السمعاني ايام جولته في بلاد المشرق عام ١٧١٥ مكتبة دير الشاغورة في صيدنايا بجوار دمشق. وهي المكتبة الثمينة التي اسهبنا الكلام عنها في فصول سابقة.

على ان السمعاني المشار اليه لدى وصوله الى ذلك الدير سأل رئيسه ان يرخّص له في زيارة المكتبة ويدلّه عما يُستطاع اقتناؤه من مخطوطاتها. فأومأ الرئيس الى اكداس من الكتب والكراريس المخطوطة وهي مبعثرة على الحضيض ومختلطة بعضها ببعض اختلاط الحابل بالنابل. ولما كان ذلك الرئيس يجهل قيمتها العلمية سمح للسمعاني ان يأخذها. اولاً: ليتخلص من قذارة تلك المخطوطات العتيقة ورثاثتها. ثانياً: لاعتقاده الراسخ انها من سقط المتاع ولا خير في حفظها.

فطفق ذلك البحاثة الخبير يقلّب المخطوطات المذكورة ويتصفحها واحدة فواحدة. فاذا في اكثرها نفائس يجب ان يحرص عليها وان تدّخر في الخزائن. ثم تسلّمها وهو لا يكاد يصدّق ان الرئيس تخلّى له عنها.

---

(١) السريان في القطر المصري: للخوري اسحق أرملة: صفحة ٤٧-٤٨

تلك المخطوطـات الصيدناوية نُقلت فوراً الى المكتبة الواتكانية ونُظّفت وجُلّدت ونظمت فيها احسن تنظيم. واصبحت منذ ذلك العهد مرجعاً للعلماء والمؤرخين يستفيدون من مطالعتها ويلجأون اليها في ابحاثهم. وناهيك انه لو لم تنقل الى المكتبة الواتيكانيـة لانتابها ما انتاب سائر مخطوطات دير الشاغورة من الحريق والتلف (١).

٣ ـ نبذ مخطوطات ثمينة في دير سينا وطرحها في الزنابيل

تحدثنا باسهاب عن مكتبة دير طور سينا في الفصل السادس من الباب الخامس. وذكرنا حرص رهبانه على ما احتوته تلك المكتبة من الذخائر العلميـة منذ اقدم الازمنـة. لكنهم لم يسلموا من سهام نقد لاذع رشقهم بهـا اهل العلم والتاريخ. واليك التفصيل:

في اواسط القرن التاسع عشر يمّم دير سينا سائح انكليزي. وشاهد في زواياه عدة زنابيل مملوءة مخطوطات عتيقـة واوراقاً مبعثرة غلبَ على اذهان الرهبان انها خالية من كل فائدة. فافرزوها من سائر المخطوطات والقوها في تلك الزنابيل ليستعملوها في شؤونهم الخاصة. وما كاد يطلع السائح على بعض تلك الصحف حتى دهش لخطورة مضامينها. فكتم امرها وتظاهر بقلة الاكترات لها.

وما عتم ان سأل وكيل الدير زائره عما اذا كان يتوخى مشتراها ووعده بالتساهل في قضيـة السعر. وبعد التردد والتمنع رضي السائح ان يشتري تلك المخطوطات. وتمّ الاتفـاق على سعر كان غالياً في نظر البائع ورخيصاً في نظر المشتري.

وبعد رجوع السائح الانكليزي الى وطنه درت ادارة المتحف البريطاني بأمر المخطوطات التي استحضرها من دير سيناء. فدرستها درساً دقيقاً ثم ابتاعتها كلها بما

---

(١) خزائن الكتب في دمشق وضواحيها: صفحة ١١٧-١١٨

يساوي قيمتها الحقيقية لا كما اشتراها السائح . ومن تلك المخطوطات ما اقتنته ادارة المتحف المذكور بما يعادل ثقله ذهباً .

ولم يمض ربع قرن على هذا الحادث حتى تنبه المستشرق تيشندورف Tishendorf الالماني لما جرى للسائح الانكليزي المشار اليه . فارتحل الى دير سينا وتعهد مكتبته ووقف على مكنوناتها القديمة . ووقع نظره حين ذلك على زنبيل ملقى في زاوية المكتبة حُشدت فيه اوراق مبعثرة دار حابلها على نابلها . فلما قلبها وجد بينها كتابات ثمينة تحوي بحوثاً خطيرة تهم العلماء وهواة الآثار . فما كان منه الا ان ساوم رئيس الدير في مشتراها وابتاعها بسعر غالٍ ونقلها الى بلاده . هكذا انقذ تلك الآثار الثمينة من التلف وجعلها في حرزٍ منيع فأدّى بعمله خدمةً جلّى للعلم والعلماء .

٤ ـ تغاضي رهبان دير لويزة عن صيانة مكتبتهم

كانت مكتبة دير لويزة بلبنان تشتمل على طائفة من المخطوطات النفيسة في جملتها نسخة من «الدياطسرون» باللغة العربية . والدياطسرون عنوان لمجموعة الاناجيل الاربعة التي سبكها ططيانس (+ ١٨٠ م) تلميذ يوستينس الفيلسوف (+ ١٦٥ م) سبكاً محكماً في القرن الثاني للميلاد . اذ أفرغ روايات الانجيليين الاربعة في قالب واحد متناسق . ولم يدع آية من آياتهم الا سطرها تباعاً في تلك المجموعة .

وشاع هذا الكتاب وذاع في بلاد المشرق واستعملته الكنائس النصرانية حتى اوائل القرن الخامس للميلاد . فنهض ربولا اسقف الرها (+ ٤٣٥) وجمع نسخه وأحرقها . وسلك مسلكه في ذلك تئودوريط اسقف قورش (+ ٤٥٧ م) معاصره على ما ذكرنا في غير هذا المحل .

ويقال ان ابا الفرج عبد الله بن الطيب القس النسطوري (+ ١٠٤٣ م) (١) نقل الدياطسرون الى اللغة العربية في القرن الحادي عشر للميلاد . ونشر هذه الترجمة المستشرق شياسكا في رومة عام ١٨٨٨ ثم نشرها ثانية العلامة مرمرجي في المطبعة الكاثوليكية ببيروت عام ١٩٣٥ (٢) .

وقد صانت بعض مكتبات الشرق نسخاً من هذا السفر الخطير نذكر منها مكتبة دير لويزة بجبل لبنان . لكن الاهمال تطرق الى هذه المكتبة فاتلف نفائسها وأتلف معها ذلك المخطوط الثمين . ولم يسلم منه بكرور الايام الا ورقتان فقط يرتقي عهد نساختها الى السنة ٧٣٢ للهجرة (١٣٣١ م) فعثر عليها الاب لويس شيخو عام ١٨٨٨ والتقفها من فوره مبتهجاً بها ابتهاجه باكتشاف كنز ثمين . واذدخرها باجلال في المكتبة الشرقية وضمها الى انفس ذخائرها . ثم نشر عنها مقالة مزينة بالرسوم مصرحاً بخطورة كتاب الدياطسرون وترجمته العربية (٣) .

٥ ـ اختلاس مخطوطات دير الزعفران وبيعها بأبخس الاثمان

اتخذ بطاركة السريان دير الزعفران مركزاً رسمياً لهم منذ القرن الثاني عشر كما ذكرنا في غير هذا المحل . وقد جعلوا يتنافسون في تعزيز مكتبته بكتب قديمة العهد استحضروها من اطراف البلاد التي دوّخها التتر او احتلها تيمورلنك . واضافوا اليها مخطوطات ثمينة عكف الرهبان على نساختها وقت فراغهم من الدرس وفروض العبادة . هكذا توفرت ثروة تلك المكتبة فلهجت الالسن بنفائسها وذخائرها وضربت الامثال بقدمها وندورتها .

---

(١) تاريخ مختصر الدول : صفحة ٣٣٠

(٢) A. S. Marmardji : Diatessaron de Tatien l'an 1935

(٣) المشرق : مجلد ٤ سنة ١٩٠١ صفحة ٩٧-١٠٩

غير ان أمناء تلك المكتبة العظيمة نشّموا منذ القرن الثامن عشر يعبثون فيها ويبعثرون مخطوطاتها . يسوقهم الى ارتكاب تلك الجريمة جهلهم مضامينها او اطماعهم في الربح الخسيس . وقد روى لنا الكثيرون ممن لا يُشك في صدق روايتهم ان رؤساء الدير ووكلاء المكتبة سطوا على انفس مخطوطاتها المنسوخة على الرقوق وباعوها بابخس الاثمان من الاكليروس الكاثوليكي او من المرسلين الاميركيين وغيرهم . ولولا ذلك الاعتداء وتلك الاطماع لظلّت مكتبة دير الزعفران من اغنى مكتبات العالم بلا جدال .

الفصل الخامس

التفجع لما فقدناه من الذخائر الكتابية

اننا نقف عند هذا الحد في بحثنا عن خزائن المخطوطات العربيـة التي دارت عليها الدوائر قديماً وحديثاً . ولو كان ذلك من المصائب المألوفة التي تفتك بالكتب كالعث او الغبار او الرطوبة او النور او قلة النظـافة او طول الاستعمال لهان الامر واعتبرناه حادثاً طبيعيـاً . لكن الحقيقة هي ان تلك المخطوطات ، لتعس اللغة العربية ذهبت ضحية الجهل او الفتن السياسية او الحروب الاهليـة او المنازعات الدينية او المخاصمات الحزبية او الجوائح الطبيعية او سوء الائتمان والسرقات وغير ذلك. وهو نزر ممّا اصابها من الكوارث التي ظلت اخبارها مطموسة وسدل عليها الدهر ستاراً ابدياً .

وياليت المؤرخين القدماء دوّنوا لنا اخبار خزائن الكتب البائدة وكشفوا النقاب عن مصيرها وعن كل ما يتعلق بها . لان هذا الاغفال جعل في تاريخ العرب ثلمة كبيرة لا تسد . ويؤلمنا بل يؤلم كل ابيّ عربي ضياع تلك الثروة العظيمـة التي حسدتنا عليها سائر الشعوب وهيهات ان تعوض في مستقبل الزمان ! وناهيك انه بتقلص ظل تلك المكاتب تقلص ظل العلم في انحاء كثيرة من الامصار شرقاً وغرباً . وقد كان ذلك ذريعة لتفشي الجهل في الناطقين بالضاد اكثر من غيرهم .

واذا شئنا ان نستعرض رزايا المكتبات في عواصم الدول العربيـة وكبريات مدنها تولتنا الكآبة وُصعقنا من هول الفادحة. ولسنا نبالغ في القول انه ما من امة على وجه البسيطة نكبت بذخائرها الكتابية مثل الامة العربية . وحسبنا التاريخ

شاهداً مقنعاً على ما اثبته عن بيت الحكمة ببغداد وعن خزائن الفاطميين بالقاهرة . وعن دار العلم بطرابلس الشام . ومكتبة الجامع الاموي بدمشق . ومكتبة سيف الدولة بحلب . ومكتبتي الجامع الاعظم بالقيروان وتونس . و كتب المالكيين بفاس . ومكتبة الحكمة بمراكش . ومكتبات الهند وبلاد فارس واليمن الخ .

وما سردناه عن مكتبات تلك الحواضر يصدق بحذافيره في مكتبات الرها ونصيبين ودارا وطورعبدين وسعرت وملطية والموصل وتكريت . وقس على ذلك كله مكتبات اديار الشام وانطاكية وفلسطين ووادي النطرون بمصر واديار العراق وسائر الامصار الشرقية . فقد اندثرت على بكرة ابيها واصبحت بعد ذلك المجد اللامع اثراً بعد عين .

وكانت كل مكتبة من تلك المكتبات العامرة تحوي عشرات الالوف من المخطوطات على تعدد المواضيع والابحاث . واذا صحت رواية المؤرخين فان عدد المخطوطات في بعض الخزائن ناهز مئات الالوف بل تجاوزها والله اعلم ! وكيفما كان الامر فان المكتبات العربية بلغت في عصرها الذهبي شاناً رفيعاً لم تبلغه مكتبات بقية الامم شرقاً وغرباً

خاتمة المجلد الثالث

تم الفراغ بحوله تعالى من طبع المجلد الثالث من كتاب « خزائن الكتب العربية في الخافقين » في ٢٠ من كانون الاول سنة ١٩٤٨ . فجاء سفراً قيماً حوى شوارد الاخبار عن المكتبات العربية قديماً وحديثاً .

اما النبذة التاريخية العائدة لنشأة دار الكتب اللبنانية التي نوهنا بها في المجلد الثاني من هذا الكتاب فقد اعتنت ادارة المكتبة بوضعها ونشرها على حدة تتمة لهذا البحث الجليل وخاتمة لهذا المؤلف الثمين والله الموفق لما فيه خدمة العلم والتاريخ .

فهرس

خزائن الكتب العربية في الخافقين

المجلد الثالث

صفحة

صفحة

صفحة

صفحة

الفصل الثالث عشر عبّاد المخطوطات وعشّاقها

الفصل الرابع عشر سخط الرهبان والاحبار على سراق مخطوطاتهم

الفصل الخامس عشر الكتب المستعارة

الباب الخامس عشر مخطوطات العرب المزوّقة والمصوّرة

صفحة

صفحة

صفحة

صفحة

الفصل الحادي عشر اغراق مكتبات خاصة في انحاء مختلفة

الفصل الثاني عشر رزايا مكتبات بغداد والبصرة

الفصل الثالث عشر تقويض الحاكم بامر الله معابد النصارى واليهود

الفصل الرابع عشر اتلاف مكتبتي المستنصر الفاطمي وقصر الفاطميين في القاهرة

صفحة

صفحة

صفحة

صفحة

صفحة



رسمه المهدى من لجنة تكريمه الى دار الكتب في بيروت

أجلو عن الدنيا وتبقى صورتي ذُخراً لأهلي والاحبّة في الورى
يتذكّرون بها الوداد مع الوفا يوماً يُحجّبني الردى تحت الثرى

توطئة

دبجتها لجنة تكريم المؤلف

في هذه الآونة والبلاد سائرة سيرها مع الايام ظهر رجل أُوتي كرَم القلب وكرَم اليد حاملًا اعباء دراسات عميقة طوال ستين حولا . وقدّم للامة اللبنانية خلاصة جهده وزبدة خبرته وعلمه . ففي هذه الصفحات المعدودات يمرّ القارىء ببحث طريف يمثّل جهاد هذا الرجل الفذّ رجل العلم الصحيح والاخلاق العالية .

ان حياة الفيكنت فيليب دي طرّازي اوسع من ان يعيها كتاب واحد . لان صلتها بالاوساط العلميــة جعلتها في مركز جدير بالاعتبار . اما اليوم وقد اعتزل علّامتنا العمل في مكتبة غذّاها بماله وسقاها بعرق جبينه وصبغها بدم فؤاده فلا نرى إلا ان نطرّز لصنعه هذا المجيد حلة نزيّنها بلآلىء الثناء ونلوّنها بضروب الامتنان . ونتطلع بعد هذا الى مواصلة جهاده في مضمار التأليف والتحبير .

فلجنتنا فخورة بعمل يسير تُسديه الى هــذا العلّامة الجليل . وما الحفلة التكريمية التي اقامتها له سوى لسان ضعيف من ألسنة الامّة لا يتفوّه الا بالحق . والآن يطيب لها ان تتحف ابنــاء الضاد بلمحة نمّقتها براعة هذا الرجل الصادق الطويّة النبيل المزايا . وقد اودعها اخبار مكتبة وطنية انشأهــا هو بمجهوده وسخائه . ولولاه لم يكن لروّاد العلم في لبنــان مرجع يعتمدونه في ابحاثهم ومطالعاتهم .

ان هذه اللمحة التاريخية التي نقدمها اليوم بسرور وافتخار، الى الادباء الكرام في الامصار العربية، وعلماء المستشرقين في الديار الغربية ، تنم عن عبقرية الفيكنت دي طرّازي وثقافته العالية . فهي طرفة نفيسة من طرفه يجدر بكل وطنيّ ان يتصفحها ويتمثل بادب منشئها ويزيّن بها خزانة كتبه . وسنردفها بجزء ثان تضمّن ترجمة حياته وخلاصة اعمال لجنتنا في مهرجان تكريمه .

هكذا يتيسر لنا ان نبدي عاطفة عرفان الجميل لمن نُجلّ علمه وفضله باسم الوطن والثقافة وباسم ابناء الجيل الجديد .

لجنة تكريم

مؤسس دار الكتب اللبنانية

مقدمة المؤلف

اقترح عليّ فريق من الادباء والاصدقاء ان اضع لمحة تاريخية عن دار الكتب التي أتيح لي انشاؤها في بيروت . فلم اتردد في تلبية الطلب لِما في ذلك من فوائد جلّى لخاصة القوم وعامتهم .

بادرت الى مراجعة ما لديّ من وثائق ورسائل ومفكرات ونظمتها في فصول متسلسلة طبقاً لمواضيعها وتواريخها . وادرجت في تلك الفصول اخبار هذا المعهد الكتابي منذ ابرزته الى الوجود حتى ساعة اعتزالي عن العمل فيه (١٩١٩ - ١٩٣٩) دون ان اتعرض لشيء من اخباره بعد التاريخ المذكور . وهي حقبة من حياتي انفقتها في خدمة العلم وآله وتعزيز الادب ورجاله . وما زلت في انتهاجي هذه الخطة الرشيدة اتابع العمل اعلاء لمنار المعارف وساتابعه باذن الله تعالى في ما تبقى من حياتي . اما اخبار دار الكتب بعد اعتزالي عنها فللتاريخ ان يقول كلمة الحق فيها .

لا بدّ لي في هذا المقام من المجاهرة بعواطف الشكر لكل من نشّطني الى وضع هذه اللمحة التاريخية . واخصص بالذكر اللجنة المحترمة التي اقامت حفلة لتكريمي في دار الكتب عينها باسم الوطن والثقافة . فانها علاوة على عاطفتها الشريفة انتقت من مؤلفاتي هذا الكتاب وحرضتني ان انشره بالطبع خدمة للتاريخ وتخليداً لذكرى حفلتها المشار اليها . فاقابل مَكرمتها بعرفة الجميل والثناء الوافر .

فيليب دي طرازي

الجزء الاول

الباب الثامن عشر

دار الكتب اللبنانية

الفصل الاول

فكرة انشاء دار الكتب منذ اكثر من ستين سنة

فُطرتُ منذ حداثتي على الولع بالكتب وجمعها وعلى العناية بها حتى اصبح هذا الكلَف ملازماً لي اينما ذهبت وحيثما حللت . وقد نشرت عام ١٨٨٥ وبعده مقالات شتى على صفحات الجرائد نوّهت فيها بوجوب تأسيس مكتبة عامة في مدينة زاهرة كبيروت كانت وما برحت تعدّ عاصمة للثقافة في الشرق الادنى . وهذه الفكرة رسخت في ذهني رسوخاً متيناً حملني على التشبث بكل ذريعة لاخراجها الى حيّز العمل . فكنت لا اضن بالغالي والنفيس في مشترى ما اعثر عليه من الكتب معتزماً ان اجعل خزانة كتبي نواة لهذا المشروع الوطني .

عرضت فكرتي على ولاة بيروت العثمانيين ولاسيا على نصوحي بك ورشيد باشا وخليل باشا وعزمي بك وغيرهم ممن كانت لهم علاقات وثيقة بافراد اسرتي . وصرّحت لكل منهم في حينه بالفوائد الناجمة عن تأسيس مكتبة عامة يختلف اليها القراء والمتأدبون من جميع طبقات الامّة . فكانوا يرتاحون الى هذا الاقتراح ويحبّذونه واعدين بعرضه على الباب العالي ليكتسب صبغة رسمية . وقد تعاقب

الولاة والحكام تعاقب الايام والاعوام دون تحقيق الامنية وبلوغ المرام . ولعلّ السياسة في عهد السلطان عبد الحميد الثاني (١٨٧٦ – ١٩٠٩) قضت بطمس تلك الفكرة . لان السلطان المشار اليه كان يوجس خوفاً من كل مجتمع يضم بين زواياه ارباب القلم واصحاب النهضة الفكرية . ذلك ما حدا بالكثيرين منهم ان يهجروا وطنهم العثماني ويؤثروا العيش تحت سماء الحرية في بلاد الله الواسعة .

لبثتُ راسخاً في فكرتي لا احيد عنها قيد شعرة ولم ابالِ بالاتعاب والاسهار والاسفار وانفاق المال . لاني كنت مقتنعاً كل الاقتناع ان وطني لن يترقى في سلّم الحضارة الا بمدارسه ومكتباته . قالت مجلة المنارة (١) ما نصه : « رقيّ البلاد بمكاتبها . فحيث المكاتب هناك الادباء والعلماء . واننا لنشكر الله تعالى لانه بعث في الجمهورية اللبنانية رجلاً عصامياً كرّس وقته وماله وحياته لاتحاف البلاد بمكتبة وطنية اهلية تظل ابوابها مفتوحة لكل طالب علم وراغب في ازدياد المعارف . وهو الفيكنت فيليب دي طرّازي امين دار الكتب والآثار » .

وكتبت مجلة الشهباء في هذا الصدد ما نصه (٢) : « لا يزال الفيكنت فيليب دي طرّازي مؤسس المكتبة الوطنية في بيروت يجاهد منذ نصف قرن في خدمة العلم والثقافة بهمة واخلاص لا يعرفان الملل حتى تكللت مساعيه الطيبة بالنجاح . وقد دهش الجميع بما شاهدوه من مشروع خطير كمشروع المكتبة يستقل بتحقيقه رجل واحد ... ان حياة الفيكنت دي طرّازي هي سلسلة جهود سلخته من عالم التجارة منذ حداثته الى عالم الكتب . فألّف نيفاً وثلاثين كتاباً بين مطبوع ومرشّح للطبع . وجمع من الآثار الكتابية ما لا يعدّ ولا يحصى . فاحتفظ ببعضها في مكتبته الخاصة ونفح بالبعض الاخر دور الكتب والمعاهد في شتى الانحاء » .

---

(١) مجلة المنارة : في جونية : تموز وآب ١٩٣٧
(٢) مجلة الشهباء في حلب : شهر تموز ١٩٣٧

الفصل الثاني

تحقيق الفكرة وموظفو دار الكتب الاولون

دارت الايام دورتها فخرجت بلاد سوريا ولبنان من حكم العثمانيين عـــام ١٩١٨ واحتلتها جيوش الدولة الفرنسية . عنـــد ذاك انتهزت الفرصة فجددت الجهود للفوز بالمرغوب . فلاقيت تنشيطاً من ارباب هـذه الدولة واسّست دار الكتب في منزلي سنة ١٩١٩ غير هيّاب لِما يعترض مشروعي من عقبـــات ومصاعب . ورحت اعمل مسرأً بلا ضجة في تجهيز حاجات المكتبة ريثما وثقت من نجاحها وثباتها . تلك كانت اول بزرة لهـذه الشجرة التي بدت كحبة خردل . ثم نمَت اغصانها ونضجت ثمارها فظـّللت المئـات من روادها ولذّذت الالوف من طلابها .

غير انه ما كادت تذيع الصحف عام ١٩٢٠ نبأ تأسيس دار الكتب حتى هبّ غير واحد من عشاق المناصب يعاكسوني ويناهضون مساعيّ طمعاً براتب الوظيفة . وهم يجهلون او يتجاهلون اني ما اقدمت على هذا المشروع طمعاً بالربح بل خدمة للعلم والوطن . واقوى برهان عـلى ذلك اني لبثت اعواماً اقوم بجميع نفقات المكتبة وادفع من جيبي رواتب موظفيها دون ان يساعدني احد على الاطلاق .

ولم تلبث ان ضاقت داري عن استيعاب ما جهزته من الخزائن والاعتدة وما جمعته من الكتب والمجلات . فاخذت افتش عن مركز موافق للمكتبة في قلب المدينة . فوقع اختياري على الطبقة العليا من بناية المدرسة البروسيوية المعروفة بمدرسة « الدياكونيس » . لانها جامعة بين الناحية العلمية والمزايا الصحيـة . وهي مبنية في بقعة جميلة تخترقها اشعة الشمس وتكتنفها الحدائق النضيرة .

انتقلت الى تلك البناية الفسيحة في مطلع العام ١٩٢١ ونقلت اليها ما كنت اعددته من كتب وخزائن واطلقت عليهـــا اسم « دار الكتب الكبرى » . ثم انتقيت ثمانية ادباء يساعدوني في مصلحتي وهم : الاستاذ الشاعر الياس حنبكاتي ، والاستاذ ديمتري حائك مدعي عام محكمة التمييز لعهدنا وشقيقه الدكتور لويس حائك ، والسيد جان عكاوي من كبار تجارنا ببغداد في الزمان الحاضر ، والاستاذ كميل بك شمعون النائب والوزير اللبناني . والمرحومون الاستاذ المحامي جورج بشاره ، واديب عورا وغيليوم فابري .

ومع قيام كل من اولئك الموظفين بعمله الخاص فانهم كانوا كابناء اسرة واحدة يتعاونون بروح طيبة وحمية وطنية في ما يؤول الى هذا المعهد بالخــير والفلاح . وقد حفظت انا لكل منهم ذكرى حسنة مستمطراً غيوث الرحمة عـلى الدارجين وداعياً للاحياء بالعافية والتوفيق وطول العمر .

الفصل الثالث

تسجيل دار الكتب باسم الحكومة اللبنانية واهداء مكتبتي الخاصة اليها

بعدما وثقت من تحقيق فكرتي ونجاح مسعاي في انشاء المكتبة اخذت افاوض الحكومة اللبنانية لتعترف بها وتضمها الى سائر دوائرها الرسمية .

غير ان الكومندان ترابو حاكم لبنان الكبير (١٩٢٠ – ١٩٢٣) مانع في هذا الضم لانه كان يرتاب كسائر ابناء الغرب في ثبات ما يقوم به ابناء الشرق من المشاريع الخطيرة . فاعرض عن الاعتراف بالمكتبة وابى ان يرصد لها اعتماداً في موازنة الدولة . اما انا فلبثت اواصل النهوض باعباء المكتبة كلها ريثما تجلّى للحكومة ضرورة هذا المشروع وخطورته وحاجة لبنان اليه . فلم ترَ الا ان تعترف به وتضمه الى داوئرها لما احرزه من ثقة اهل الادب ورضى خاصة القوم وعامتهم . فكان هذا الاعتراف برهاناً واضحاً على ان الشرقيين لا يقلون عن الغربيين كفاءة وثباتاً في مشاريعهم .

وتمّ اعتراف الحكومة هذا في ٨ كانون الاول ١٩٢١ فسجّلت حينذاك لدى كاتب العدل « النوتير » دار الكتب وجميع محتوياتها باسم الحكومة اللبنانية تأميناً لمستقبلها وحذراً من ان تعبث بها يد اثيمة . اطمأنّ بالي بتسليمها الى حكومة تتعهدها وتحرص على كنوزها . هكذا اصبحت دار الكتب منذ ذاك التاريخ منوطة بمديرية المعارف العامة ثم بوزارة التربية الوطنية والفنون الجميلة . وبعدما سلّمتُ دار الكتب الى الحكومة اخذت منذ السنة ١٩٢٢ انقل اليها تدريجاً من خزانة كتبي الخاصة اغلب ما حوته من مخطوطات ومطبوعات. وقد اناف عددها على خمسة الاف وستمائة مجلد بينها ما ندر وجوده وعزّ الحصول على نظيره !

الفصل الرابع

تدشين دار الكتب ورأي الحكام والادباء فيها

بتاريخ ٢٥ تموز من السنة ١٩٢٢ جرى تدشين المكتبة برعاية الجنرال غورو المفوّض السامي الفرنسي وحضور اركان السلطتين اللبنانية والفرنسية وجم غفير من اعيان البلاد وادبائها . واخذت رسائل التحبيذ والتنشيط تتوارد الينا من اركان المفوضية الفرنسية العليا ومن ارباب الدولة اللبنانية بدءاً من الجنرال غورو فالجنرال فيغان فالجنرال سرايل فالمسيو بونسو ومن الكومندان ترابو حاكم لبنان الكبير ومن خلفه المسيو لاون كايلا . ومن الاستاذ شارل دباس وحبيب باشا السعد رئيسي الجمهورية اللبنانية . ومن خلفهما الاستاذ اميل اده . ومن اوغست باشا اديب رئيس الوزارة وغيرهم . وجميعهم افرغوا عبارات الثناء على نهوضنا بتأسيس دار الكتب وعلى اهتمامنا بانماء ثروتها وتعزيزها . وكل تلك الرسائل الرسمية موقعة بخطوطهم ومحفوظة في خزائننا .

وما ان ذاع بين الخاصة والعامة نبأ تأسيس دار الكتب وتدشينها حتى اخذ العلماء واهل البحث يتقاطرون الى زيارتها والانتفاع من محتوياتها . ونشرت الجرائد عنها الفصول الطوال ونظم الشعراء اجود القصائد في الاشادة بها . نذكر منها تاريخاً شعرياً للسيد مصباح رمضان قال :

تسدي بيروت لفيليب ومعارفه الغرّا شكراً
وتضيف اليه ألف ثناً أرّخ دار الكتب الكبرى (١٩٢١)
١٠٠٠ ٩٢١

وانشد الياس بك الباشا قائم مقام زحله هذه الابيات :

لبيروت أمّ الشرع اقدم شهرةٍ يردّدها التاريخ في اطيب الذكرى

وآثارها دلّت عليها بما حوتْ من الكتب الغراء في دارها الكبرى
فشكراً لذي الفضل العميم مديرها وللعلم والآداب في عصرنا البشرى

وانشد السيد فتح الله بك خياط الموصلّي قال :

هنيئاً لدار الكتب مَن انت عزّها وبدرُ عــلاها الالمعيّ مديرُها
اذا باهت الآداب فيك بني الورى فانــك يا فيليب حقاً اميرُهـا

وانشد السيد نجيب لادقاني مؤرخاً :

يا اهل بيروت الافاضل أسّست دار لكم منها الفوائدُ تُكتسبْ
وبسعي فيليب مؤسّسها حوتْ كنز النفائس من لسان بني العربْ
دُعيتْ بدار الكتب والاحرى بان تدعى بدار الشهْب في فلك الادبْ
قولوا لِمن حمــل اليراع مقرّظاً تأسيسها وأجاد في ما قد كتبْ
يا مَن بمــاء التبر سال يراعُهُ أرّخْ كتبتَ به سطورك من ذهبْ

١٩٢١

وكتب احد الشعراء على اثر زيارته دار الكتب ما يلي :

أتدري يا سيدي الفيكنت ماذا تمنيتُ بعد زيارتي الاخيرة لهذا الصرح الخالد الذي جاهدتَ قبل الجميع في تأسيسه وجمع كتبه القيّمة وتنظيمها ؟

تمنّيت ان احيا مع الصرح ادهراً وأطرق طول العُمر للعلم بابهُ
فأطوي حيــاتي باحثاً ومنقّباً لكي اجتني من كل فنّ لُبابهُ

وقد دعت الحمية الادبية بعض انصار دار الكتب واصدقائها فانتخبوا بعض قصائد ومقطعات شعرية نُظمت فيها وفي مؤسّسها . واستكتبوها أبرع الخطاطين وجعلوها ضمن اطارات جميلة اتحفوا بها هذا المعهد الثقافي . ثم علّقوها على جدران الرواق المؤدي الى المدْرس الكبير اقراراً بمعرفة الجميل .

ونضمّ الى هولاء الشعراء مـا كتبه رهط من السراة والادباء والحكام والوزراء في سجل المكتبة الذهبي معربين عن اعجابهم واستحسانهم . وقد سردنا تصريحاتهم مرتبة بحسب التسلسل التاريخي .

كتب الاستاذ محمد كرد علي رئيس المجمع العلمي العربي بدمشق بتـاريخ ٣١ تشرين الثاني ١٩٢٤ ما نصه : « لو كان كل النـــاس يقومون بما يُفرض عليهم لوطنهم قيام صديقي الحميم السيد فيليب دي طرّازي لكانت هذه الامّة المتفسخة بخير . اني لمعجب بما بدا من همته في جمع خزانة كتب أعلت شأن ثغر الشام اعجابي به عندما كان يتصدق كل يوم عـلى الفقراء ايام الحرب العظمى والمحنة الكبرى (١٩١٤ – ١٩١٨) » .

وكتب الاستاذ جبران تويني وزير المعارف العامّة والفنون الجميلة ما يـلي : « كلمة اعجاب بهمّة منشيء هـــذه المكتبة العالم البحاثة الفيكنت فيليب دي طرّازي . وثناء على جَلده ونشاطه وانفاقه من ماله ومن وقته في سبيل ايجـاد هذا الاثر الخالد » . ٢ نيسان ١٩٢٧

وكتب الامير خالد شهاب رئيس الوزارة اللبنانية عندما كان نائباً عن لبنان الجنوبيّ في ١٠ تشرين الثاني ١٩٢٨ ما نصه : « هي المرّة الاولى التي ازور فيهـا دار الكتب الكبرى لجامعهـــا العالم الكونت دي طرّازي . اني اقدّر الجهود العظيمة المبذولة للحصول على ما فيها من النفائس القيّمة والتي يتعذّز حتى على الجماعات الوصول اليها . فحق على كل لبناني ان يشكره على جمع هذه النفـائس . ومن الواجب على الحكومة ان تمده باشدّ المساعدة لاتمام عمله الكبير . وكنائب لبناني اقدّم له عظيم شكري وامتناني » .

وكتب الاستاذ الفيلسوف امين الريحاني بتاريخ ١٥ كانون الثاني ١٩٣٢ مـا نصه : «أحسب نفسي سعيداً عندما اتمكن ولو مرّة في السنة من زيارة هذه المكتبة لاصافح مؤسّسها ومديرها ومغذّيها صديقي الكنت طرّازي . واشكره باسم العلم وابناء هذه المدينة على همته وغيرته . واسأل الله تعالى ان يطيل بايامه » .

وكتب الاستاذ كرّم البستاني بتاريخ ٥ ايلول ١٩٣٣ قال : « اذا دخلت دار الكتب الكبرى وطوّفت بين خزائنها المرصوفة فيها كتب العلوم والفنون والآداب اطرق خاشعاً امام عظمة الادمغة التي ولّدت تلك الآثار ينبوعاً فيّاضاً في شتى المعارف . ثم اميل طرفك نحو غرفة صغيرة جلس الى متضدة فيها رجل يطفح وجهه عبقرية وبشراً وتطيب نفسه حياءً وتواضعاً . وقل : حيّ الله الفيكنت فيليب دي طرّازي رجل العلم والعمل الذي أوجد من العدم هذا الكنز الثمين دون ان تمتد يد سخية لمساعدته ! بيد انه قد كان له من همته التي لا تعرف الكلال ومن سخائه الذي لا ينضب معينه خير مساعد ومعين . واذا كان كل فرد يُقدر بعمله فبمَ نقدر هذا الرجل العبقري ؟ » .

وكتب الاستاذ بركات احد محرّري جريدة « الاهرام » وشيخ الصحافة المصرية بتاريخ ٢٤ شباط ١٩٣٧ ما يلي : « اذا ذُكر الادب في لبنان خاصّة والشرق عامة كان اسم الكنت طرّازي علماً له . وغداً عندما يتطلّع ابناؤنا الى آثار آبائهم ومن تقدمهم فسيكون لهم من هذه الشخصية الفذّة احسن قدوة وخير مثال » .

وكتب السيد رشيد عالي الكيلاني رئيس وزارة العراق بتاريخ ٦ نيسان ١٩٣٧ ما يأتي : « اسعدني الحظ بزيارة دار الكتب اللبنانية الكبرى فسرّني ما شاهدت فيها من كتب نفيسة وآثار قيّمة في مختلف المواضيع . واعجبني تنسيقها وترتيبها مما يسهّل للمولع في التدقيق والتنقيب الحصول على ضالته المنشودة . ولا غرو في ان هذا العمل المشكور يدلّنا دلالة واضحة على ما لامين الدار البحاثة المدقق الاستاذ الفاضل الفيكنت فيليب دي طرّازي من اياد بيضاء في خدمة العلم ومن حرص شديد على الاكثار من رشف مناهله العذبة » .

وكتب السيد نجيب اميوني وزير المعارف والفنون الجميلة في الجمهورية اللبنانية بتاريخ ٨ نيسان ١٩٣٧ قال : « عرفت حضرة الفيكنت فيليب دي طرّازي في

اول عهد الوزارة اللبنانية الاولى . فعرفت فيه الجهود الجبارة التي بذلها لتأسيس دار الكتب . فاليه يرجع كل الفضل لاقامة هـــذه المنارة المعدودة مفخرة من المفاخر في هذه الديار . تولى ادارتها بحكمة وحنكة ولياقـة ولبـاقة تجلّت في اقواله وافعاله . فكان المثل الاعلى للنشاط والجهاد واللطف والظرف . جزاه الله تعالى عن الوطن خيراً » .

وكتب الاستاذ صادق البصّام وزير معارف العراق وزميله علي ممتاز الدفتري وزير المالية بتاريخ ٢٤ نيسان ١٩٣٧ ما يلي : « اذا كان مجد كل امّة يقوم عـلى جهود بعض افرادها القلائل الذين يبلغون مرتبة الابطال كلّ في دائرة اختصاصه . فان الجهد الذي قام به الاستاذ الفيكنت فيليب دي طرّازي في تكوين دار الكتب الكبرى في بيروت هو من اهم الاسس التي يقوم عليها مجد الامّة العربية الحديث . ونرجو ان تكلل مساعي الفيكنت المشكورة بالنجاح التامّ لتقدم هذا المعهد الثقافي الجليل وتكامله » .

وكتب الامير خليل ابي اللمع وزير المعارف اللبنانيـة بتاريـــخ ١٧ آب ١٩٣٧ ما يلي : « عبارة الاعجاب والثناء على همة واجتهاد حضرة منشىء هـذه المكتبة ومديرها الفيكنت فيليب دي طرازي المحترم » .

وكتب السيد عبد القادر آل بـاشاعيان سليل الخلفاء العباسيين في مدينـة البصرة بتاريخ ٨ تموز ١٩٣٨ ما نصه : « من حسن حظّي توفقت الى زيارة دار الكتب التي اسسها العـلامة الفيكنت فيليب دي طرازي في بيروت . فالجهود التي قام بهـــا هي جهود جبارة خالدة . وارجو ان يكون قدوة صالحة في عمله للاجيال القادمة » .

وكتب الدكتور منصور فهمي باشا مدير دار الكتب المصرية وعميد جامعـة فاروق الاول بالاسكندرية بتاريخ ٩ ايلول ١٩٣٨ قال : « أحيّي جهود جناب الفيكنت طرّازي مدير دار الكتب وادعو له ولها بدوام التقدم المطّرد » .

حسْبنا ما اثبتناه من آراء بعض الحكام وتصريحات حمَلة الاقلام في اللغة العربية . وهناك الشيء الكثير مما كتبه الامراء والسفراء والوزراء والبطاركة وقناصل الدول وغيرهم . وقد دوّنوا اقوالهم في السجل الذهبي باللغات العربيـة والفرنسية والانكليزية والايطالية والسريانية والالمانية واليابانية الخ . فاكتفينا بما بسطناه حباً بالايجاز .

الفصل الخامس

رحلاتي الى اوربا ومصر ومقابلتي لبعض الملوك
في سبيل دار الكتب

ما كادت تدخل المكتبة في حوزة الحكومة اللبنانية حتى ارتحلتُ في تسلخ السنة ١٩٢١ الى فرنسا والى بعض انحاء اوربا تعزيزاً لشؤونها وانماء لثروتها . وكنتُ قبل ذلك مرتبطاً بصلات ادبية مع كثيرين من حملة الاقلام الغربيين ومع بعض الجمعيات والمجامع العلمية التي افتخر بكوني عضواً من اعضائها . وقد يسّرتْ لي تلك الصلات ان اتعرف بالوزارات والمحافل العلمية ودور الكتب والجامعات والمؤلفين وارباب المطابع . هكذا تمكنت من تحصيل ما احتاجت اليه المكتبة البيروتية من نفائس الاسفار كالمعاجم والموسوعات والمؤلفات الاساسية على اختلاف مواضيعها ولغاتها وبلدانها ومؤلفيها

ولبلوغ امنيتي ما اضعتُ دقيقة واحدة في اثناء الرحلة بلا عمل . ففي النهار كنت اتردّد الى معاهد العلم وانتقي من الاسفار ما اراه ذا فائدة لابناء وطني . ولم اتخلّف عن ارتياد مستودعات الكتب القديمة التي علاها الغبار او دفنتها الايام ضمن كفن كثيف من نسيج العنكبوت . والحق اقول اني على رغم ما تجشمته من الاتعاب لم اشعر قط في حياتي بلذّة اطيب من تلك اللذة . ذلك لاعتقادي اني اشتغل لاعلاء شأن العلم ونشره بين اهل بلادي المحبوبة . اما في الليل فكنت انقطع الى كتابة الرسائل واعداد التقارير وتهيئة ما يلزم لليوم التالي .

وفي السنة ١٩٢٥ توجّهت مرّة ثانية الى فرنسا وزرت بلجيكا وهولندا وانكلترا وموناكو والمانيا والنمسا وايطاليا فلم يكن التوفيق في رحلاتي هذه

باقل منه في رحلتي الاولى . وقد جمعت في خلالها اكثر من ثمانية عشر الف مجلد اودعتها مائتين وثلاثين صندوقاً ارسلتها كلها بمثابة هدية الى دار الكتب . واردفتها بعدد وافر من الكتب بعثت بها ضمن رزم بريدية .

وفي اثناء تلك الرحلات انشأت صلات عديدة بين دار الكتب اللبنانية وبين الجامعات والمجامع العلمية ومعاهد الطباعة والصحافة وغيرها . وقد اغتبطت بمقابلة السيد غستون دومرغ رئيس الجمهورية الفرنسية في ١٦ نيسان ١٩٢٥ وحدثته عن مهمتي فنشطني الى مواصلة العمل ولم يتخلف عن تمهيد السبل لنجاح مسعاي .

ثم توجهت الى موناكو وزرت اميرها البرت الاول فاحسن وفادتي وتكرم باهداء جميع مطبوعات الامارة الى دار الكتب اللبنانية . وفي مقدمتها مجموعته الشهيرة البالغة زهاء مائة مجلد ضخم وهي تتضمن ابحاثاً خطيرة عن شتى العلوم البحرية . وهذه المجلدات المزدانة بالرسوم النفيسه تزين اليوم خزائن دار الكتب المشار اليها .

وقد سافرت ثلاث مرات الى القطر المصري في سبيل دار الكتب. وتشرفت بمقابلة جلالة الملك فؤاد الاول وانشدته القصيدة التالية التي التزمت فيها ان تكون القافية في جميع الابيات لفظة واحدة يختلف معنى كل منها عن معنى الاخرى . ثم استكتبتها نجيب بك هواويني خطاط جلالة الملك وجملتها ضمن اطار ثمين فعلقت في احدى قاعات قصر عابدين طبقاً لامر جلالته وهذا نصها :

تحية العلم

لن تبرحَ الايّام خافقة العَلَمْ (١) يَغني ذويه في النهار عن العَلَمْ (٢)
وترى عساكر مِصر تمرحُ تحته مع انها رَسَخَتْ كما رسخَ العَلَمْ (٣)

---

(١) الراية (٢) المنارة (٣) الجبل

ويهزّهم مَن زانَ صدر اشدّهم بأساً وأوفاهم ذِماماً بالعَلَمْ (١)
مُلكٌ علا الأملاك مرتبةً كما تعلو على النّكرات مرتبة العَلَمْ (٢)
بالعدلِ لم ينفكّ موسوماً وما بسوى الحنانِ فؤاده المولى عَلَمْ (٣)
فاذا هدى النّصبُ الضلول عن الهدى فسناؤه الهادي اليه هو العَلَمْ (٤)
او كان يمتازُ الطِرازُ برقمهِ فجلاله لِطراز سؤدده عَلَمْ (٥)
كلّ العروش تقاصرتْ عن عرشهِ كتقاصُر العَلَم القصير عن العَلَمْ (٦)
فالدّين عزّ به فعادَ صلاحهُ بصلاح نيّته كما عاد العَلَمْ (٧)
نشرَ الفؤادُ لِوا الفنونِ وما لها مِنْ قبله عينٌ ولا أدنى عَلَمْ (٨)
ان كارمَ الكُرماء فهو لهم كرَمْ او عالمَ العُلماء فهو لهمْ عَلَمْ (٩)
او وَلّدتْ شفةُ الزمان بمُلكهِ كلمَ الشقاق شكت بصارمه العَلَمْ (١٠)
فالخافقان قدِ استمدّا نورَهُ اذ عرشه الوضّاء بينهما عَلَمْ (١١)
عَلمَ اللواءَ حسامُه بدم العِدى ودمُ العِدى بلوائه نعمَ العَلَمْ (١٢)
لو هزّ خطياً على دهرٍ عَتا لغَدا عليه النصرُ يُعقدُ كالعَلَمْ (١٣)
وبهِ بنو فرعونَ عزّوا اذ حمى اطرافَ مُلكِهم بتعزيز العَلَمْ (١٤)
وأجلّتِ الدنيا مفاخِرَهُ التي تغني عن التعريف وهوَ بها عَلَمْ (١٥)

---

(١) الوسام . وحرف الجر هنا معلق بلفظة زان (٢) نقيض اسم النكرة (٣) فعل ماضٍ بمعنى وَسم (٤) منصوب في الطريق يهتدى به (٥) رسم الثوب ورقمه (٦) الجبل الطويل (٧) اي علم الدين كما يقال عز الدين وصلاح الدين (٨) اثر (٩) اي اذا غالب الكرماء بالكرم غلبهم بالكرم او غالب العلماء بالعلم غلبهم بالعلم . وحرف اللام في « لهم » هو لام التقوية (١٠) شق في الشفة العليا او في احد جانبيها (١١) علم هو الفصل بين الارضين والعرش . هنا مجاز مرسل من باب تسمية المحل وهو كرسي الملك اي مصر باسم الحالّ فيه . ولا مراء في أن ترعة السويس في مصر فاصلة بين الشرق والغرب والتعليل لاستمدادهما النور من ذلك العرش معاً لا يبعث على العجب وهو الفاصل بينهما (١٢) السمة (١٣) ما يعقد على الرمح (١٤) ما يوضع بين الشيئين من الحدود (١٥) مفرد

قامت تسطّرها الجرائدُ بعدما أرجتْ برّياها الجوائبُ والعلمْ (١)
تطوي صحائفَنا الدهورُ وانّما تُبقي مآثرهُ مخلّدة العَلَمْ (٢)
لله درّ المُستغيثِ به فلمْ يُخذلْ رفيقٌ مستغيث بالعَلَمْ (٣)
بمديحه ارتفعت قوافيّ التي تأبى سواهُ لا بديوانِ العَلَمْ (٤)
في العِلمِ آيات له مشهورة أبداً ودونك مُعجزاتي في العَلَمْ (٥)
بالحمدِ دبّجها ابنُ طرّازي فما يخشى معارضةً أتاها ابنُ العَلَمْ (٦)

ثمّ عرضتُ على جلالة الملك مهمّتي في الحصول على الكتب التي نشرتها الحكومة المصرية فلم يرَ الا تلبية طلبي . قالت جريدة « المصري » (٧) : « كانت للمغفور له الملك احمد فؤاد ملك مصر مكرمة كبيرة على دار الكتب اللبنانية . اذ تفضّل جلالته واصدر امراً الى جميع وزارات الحكومة المصرّية بارسال جميع مطبوعاتها الى الدار المشار اليها . وقد قال الكونت فيليب دي طرّازي انه لا ينكر فضل مصر على هذه الدار كما لا ينسى ايضاً فضل دار الكتب المصريّة التي اهدته طائفة من الكتب القديمة لها قيمتها العظيمة ... »

وفي خلال رحلاتي شاهدني كثيرون من الادباء اتنقّل من مكتبة الى مكتبة ومن معهد الى معهد اراجع اربابها واستجديهم والفت انظارهم تعزيزاً لدار الكتب اللبنانية . ومن اولئك الادباء اذكر مسيو بونور مستشار المعارف الذي وقف على اعمالي في تلك الرحلات . فجاهر في دار الكتب اللبنانية عينها بخطاب بليغ القاه بتاريخ ٢٣ شباط ١٩٤٠ فقال مخاطباً منشئها :

---

(١) الجوائب والعلم هما جريدتان من كبريات الجرائد العربية اشتهرت اولاهما في القسطنطينية والثانية في القاهرة (٢) العلامة (٣) سيد القوم (٤) ديوان شعر مطبوع في بيروت سنة ١٩٠٧ بعنوان « نفثات القلم على يد العلم » (٥) لفظة العلم
(٦) اشارة الى الخوري يوسف العلم وكانت قد جرت بينه وبين الناظم مناقشات شهيرة كما هو معروف لدى الخاص والعام .
(٧) جريدة « المصري » في القاهرة : تاريخ ٢٤ مايو ١٩٣٧

« ... كدتَ تكون كراهب يستجدي اكفّ المحسنين في عهد الحروب الصليبية . او كدت تكون كرسول نشيط لدى حمَلة الاقلام والعلماء لترقية مدينة الكتب هذه . فرحتَ تطرق ابواب ناشري الكتب وطبّاعيها وجمّاعيها وتجتاز عتبات المجامع العلمية حتى ذلّلت العقبات واصبت الغرض الذي توخيته ... وزبدة القول انك في مشروعك هذا اتيت بالمعجزات ثم قفلتَ عائداً من غزوتك مثقلاً بالغنائم والكنوز ... وقد توصّلت بتلك الهمة ان تخلق من العدم مدينة الكتب هذه ... »(١) .

ولم تغمّض الجرائد عن التلميح الى ما تجشمته في رحلاتي من وفرة العناء وما كابدته وحدي من المشقات في سبيل انتقاء الكتب وجمعها وشحنها . وقد نهضت بذلك كله دون معاون يعاونني في مهمّتي على الاطلاق . قالت جريدة « النهار » بتاريخ ٩ حزيران ١٩٣٧ على اثر حفلة تدشين دار الكتب الجديدة ما نصه :

« ... انا لا يعنيني كيف جرت الحفلة ... انما يعنيني من كل هذا شيء واحد هو انه لولا الفيكنت دي طرّازي لما كان لنا مكتبة وطنية . رجلٌ فرد آمن برسالة الكتاب يومَ كان الناس ولا يزال اكثرهم لا يقيمون لهذه الرسالة وزناً في تثقيف الامّة . فكرّس نفسه وماله في سبيل مشروعه هازئاً بالصعاب « شاحداً » الكتب من الافراد والمؤسسات في مختلف اقطار الدنيا . وقد اعطى مثلاً عالياً باهداء كتبه الخاصّة النفيسة الى المكتبة . فكانت نواتها المعتَبرة وكان هو معتَبِراً « الشحادة » في سبيل العلم اغلى الكرامات ! وظل يعمل طوال سنين بلا ضجة غارقاً بين الصحائف والمخطوطات لا يلتفت الى احد ولا يلتفت اليه احد ! » (٢) .

اما انا ففي كل تلك الرحلات لم اثّقل على خزانة الدولة بشيء من النفقات

---

(١) راجع الجزء الثاني من هذا الكتاب : فصل ٢ رقم ٥

(٢) جريدة النهار في بيروت : ٩ حزيران ١٩٣٧

بل قمت بها كلها على حسابي الخاص متيقناً ان النتيجة عائدة الى خـير بلادي .
وهذه مراسيم رؤساء الدولة المحفوظة في خزائني ابلغ برهان على ما اقول . وكنت
اود لو تكررت تلك الرحلات بغيـــة انماء المكتبة وتوثيق العرى بينها وبين
اصدقاء عديدين اذخرتهم لها في الديار الاجنبية . غير ان هناك موانع حالت مع
الاسف دون تحقيق هـــذه الامنية . وسألمع الى بعضها في فصل لاحق كشفاً
للحقيقة .

الفصل السادس

سوء حالة دار الكتب في اثناء رحلتي الاولى والاضطرار الى اعادة تنظيمها

تركتُ دار الكتب عند رحلتي الاولى عام ١٩٢١ مطمئن البال يقوم بخدمتها ثمانية موظفين امناء طبقاً لخطة رسمتُها لهم . لكنني حين عودتي اليها في ٢٧ نيسان ١٩٢٢ تمزق فؤادي كمداً لما شاهدته فيهـــا من خلل وفوضى فضلاً عن بعثرة كتبها . لان مدير المعارف العامة انتهز فرصة تغيّبي فسرّح اولئك الموظفين ولم يُبقِ منهم سوى اديب عورا الذي كان اصغرهم سناً واقلهم راتباً . ثم انتقى لادارتها رجلاً لم يُخلق لمثل هذه المصلحة الفنية الدقيقة .

تألمت تألماً شديداً عندما شاهدت الوفاً من المجلدات التي بعثتُ بها من اوروبا قد حشرها ذلك الموظف الغبي كيفما كان بين الوف المجلدات المنسّقة سابقاً . فاختلط الحابل بالنابل ولم يبقَ اثر للتنظيم الفنّي الذي سهرت الليالي الطوال في تهيئته واتقانه والحرص عليه . فاضطررت ان اعيد تنسيق الكتب القديمة قبل الشروع بتنظيم الكتب الجديدة الوافرة العدد . ولا يخفى ما تطلّبه هـذا العمل الشاق من الدقة والعناء فضلاً عن طول الاناة . واستعنت في عملي هذا بموظفين جدد مرّنتهم على اشغال المكتبة ولقنتهم اساليبها الفنية ضمانة لمستقبلها .

هكذا انتظم كل كتاب في محلّه وشمل الاتقان وحسن التنسيق جميع نواحي المكتبة . فكان كل من ارتادها ظفر بما شاء من الكتب بسهولة دون عناء . وقد ابدى الزوّار ارتياحهم الى ذلك التنظيم وكتبوا عنه ما اوحتْه اليهم الحقيقة

وشاهدوه بامّ عينهم . من ذلك ما خطّه القس الورع مفيد عبدالكريم رئيس الطائفة الانجيلية ببيروت في سجل المكتبة الذهبي[1] قال :

« لا بدّ لمن يزور دار الكتب الكبرى هذه ويرى فيها من علامات الغيرة الوطنية والاهتمام في جمع آثارنا الادبية واظهارها بمثل هذا الترتيب والانقان . ولا بد لمن يعرف ان عمر هذه الدار لا يتجاوز الست سنوات من ان يُبدي اعجابه الشديد وثناءه الجزيل وشكره الوافر لرجل الادب الكبير وصاحب الوطنية الصادقة الفيكونت فيليب دي طرّازي موجد هذه الدار » .

٥ ايار ١٩٢٧ — مفيد عبد الكريم

واثبت الاستاذ عبدالله يوركي حلاق في مجلته « الضاد » الحلبية عن اتقان دار الكتب ونظافتها ما نصه : « يجدر بنا ان نقول اننا لمسنا في دار الكتب الكبرى اتقاناً ما بعده اتقان ونظافة وترتيباً بالغَين...ولقد نُضّدت تلك الكتب بشكل فني بديع ... »[2]

---

(١) السجل الذهبي : لدار الكتب اللبنانية : صفحة ٤

(٢) مجلة الضاد : مجلد ٧ سنة ١٩٣٧ صفحة ١٥١

الفصل السابع

انشاء دار الآثار وضم ادارتها الى ادارة دار الكتب

بعدما امتلكت الحكومة اللبنانية داراً للكتب في عاصمتها كما سبق الكلام وجّهت ألحاظها الى انشاء دار للآثار القديمة وضمت ادارتهـــا الى ادارة دار الكتب . فظلّ مركز دار الكتب في الطبقة العليا واصبح مركز دار الآثار في الطبقة السفلى من مدرسة الدياكونيس . وقـد وحّدت الحكومة ادارة هاتين الدائرتين بشخصنا في ٢٣ نيسان ١٩٢٤ وولّتنا الامانة والاشراف عليهما كلتيهما. انما قضت بالمحافظة على استقلال كل منهما بشؤونها الخاصة .

احتوت دار الآثار على ما تيسّر جمعه من عاديات حضاراتنا الفينيقية القديمة وبقايا الدول التي سيطرت عـلى بلادنا في العصور الغابرة . وخصّصت الحكومة مبالغ سخية بالباحثين الفرنسيس ليساعدوها عـلى نبش الكنوز الدفينة في شتى الاراضي اللبنانية وعلى درسها وتنسيقها طبقاً لاصول علم الآثار . فتوفق اولئك الباحثون في مهمتهم وأدّوا لدار الآثار وللبلاد اللبنانية خدَماً جلّى بما اكتشفوه من التحف الثمينة في نواحي صور وصيدا وبعلبك وغيرها ولاسيما في مدينـــة جبيل . فكان لتلك الاكتشافات شأنها في عالَمي التاريخ والاثار .

وفي السنة ١٩٢٥ لفتْنا انظار الحكومة الى اقتناء مجموعـــة ثمينة من نقود ومسكوكات قديمة امتلكها احد هواة الآثار مراد بك البارودي الصيدلي الشهير. فاشترتها من ورثته بمبلغ يناهز الفي ليرة عثمانية ذهبية.. وهذه المجموعة وحيدة من نوعها بين مثيلاتها في العالم كله .

عُنينا بادارة المتحف اللبناني زهاء خمسة اعوام (١٩٢٤ – ١٩٢٨) عنايتنـا

بدار الكتب . فافرغنا الوسع في جمع بواكير محتوياته وانماء ثروته واذاعة ميزاته بين القريب والبعيد . وشوّقنا الخاص والعام ليزوروه فشرعوا يتقاطرون اليه افواجاً ويمتعون انظارهم برؤية ذخائره الاثرية . ولاسيما لانهم لم يألفوا مشاهدة متحف في هذه الديار قبل ذلك العهد .

وكان الدكتور جورج فورد الاميركي في صيدا قد اكتشف في اطرافها اضرحة رخامية عديدة وتماثيل وعاديات نادرة واعتزم ان يهديها الى جامعة شيكاغو. وفي ٢٠ اذار ١٩٢٦ جاء الى بيروت الدكتور يوحنا برستد رئيس القسم الشرقي في الجامعة المذكورة ليتسلم تلك التحف وينقلها الى اميركا . فلما شعرنا بالامر انطلقنا الى صيدا وبيّنا للدكتور فورد ان القانون يحظر على اي كان اخراج الاثار القديمة من بلادنا ولا يسمح بنقلها الى بلدان اخرى . وبعد اخذ وردّ اقنعنا الدكتور المشار اليه بوجوب ابقاء تلك العاديات في بلادنا . وألححنا عليه ان يهديها الى متحف بيروت فلم يتردّد في ذلك . فشكرنا له كرمه واثنينا على اريحيته . وهاان تلك الآثار تزيّن اليوم قاعات المتحف اللبناني وتُعد من اجمل كنوزه واثمنها .

ولما كان علم الاثار القديمة غير معروف لهذا العهد في بلادنا كتبنا تقريراً الى الحكومة اللبنانية واقترحنا عليها ضرورة ارسال شاب الى باريس يدرس ذلك العلم الجدير بالاعتبار . فحبذت الحكومة اقتراحنا واجرت إمتحاناً رسمياً كان المجلّي فيه شاب نجيب جمع بين الحسب والادب هو الامير موريس ابن الامير حافظ ابن الامير ملحم شهاب . فسافر هذا الامير الفتى الى عاصمة الفرنسيس وحصّل باجتهاده ما حقق آمال الحكومة والامّة . ثم عاد بعد دراسة ثلاثة اعوام (١٩٢٥ - ١٩٢٨) الى الوطن وولاه رئيس الجمهورية ادارة دار الاثار خلفاً لنا بمرسوم مؤرخ في ٩ آب ١٩٢٨ . واصبحنا نحن بموجب المرسوم ذاته اميناً فخرياً لدار الآثار تنويهاً باتعابنا الوافرة في سبيله . ومن ذلك التاريخ استقلت هذه الدائرة عن دار الكتب وما برح الامير موريس متولياً منصبه فيها بما فُطر عليه من الذكاء والهمة والامانة .

وقد دفعت الحمية الوطنية فريقاً من ذوي اليسار والوجاهة وارباب الفنّ فألفوا لجنة جمعت مبلغاً من المال ضُمّ الى ما تبرعت به الحكومة لتشييد بناية فخمة خاصّة بدار الآثار . واجمعت الآراء على ان يكون مركزها عند مدخل بيروت في بقعة تحفّ بها غابة الصنوبر وطريق الشام وشارع فؤاد الاول . وقد نجزت تلك البناية الجديدة وجرت حفلة تدشينها بتاريخ ٢٧ ايار ١٩٤٢ في عهد الاستاذ الفرد نقاش رئيس الجمهورية اللبنانية .

واغتنم الاستاذ حليم دمّوس فرصة ضم ادارة دار الآثار الى دار الكتب فنظم في ذلك قصيدة عامرة الابيات قال :

انْ قلتِ فيما مضى: يا حبّذا السَلفُ	فاليومَ يا ميّ قولي : حبّذا الخَلفُ
حيّي ببيروت امّ الشرع مأثرةً	أمامها كلّ حرٍّ رهبة يقفُ
حيّي بها معهدَي فنٍّ ومعرفةٍ	اضحتْ بفضلهما الاوطان تعترفُ
فذاك معهدُ علم كلّهُ طُرفٌ	وذاك معهدُ مجدٍ ملؤهُ تُحفُ
تجاورا بعدما طال النوى فهما	لامٌ تعانقها في عطفها ألِفُ
داران خلّدت الايّام طيّبها	ذكرى البنين وذكرى للألى سَلَفوا
مفاخرٌ للعلى تُغني روائعُها	عن كل ما وصف الرائي وما يصِفُ
وقفتُ انظر للعهد القديم ولل	عهد الجديد وبالعهدَينِ لي كلَفُ
فكلّ آتٍ لنا في صدرهِ أملٌ	وكلّ ماضٍ لنا في صدره أسفُ

. . . . .

لا يخدم الشعبَ في سرٍّ وفي علنٍ	الا الذين بحبّ الشعب قد شُغفوا
وليس يسعى الى انهاض امّتهم	الا رجال على امجادها عَطفوا
ما كلّ من خدم الاوطان أصلحها	هيهات تُصلحُ أيدٍ دأبُها التلَفُ
بئس النفوسُ التي باسم الوظائف بل	باسم الطوائف والاديانِ تختلفُ
متى أرى أمّتي والجِدّ غايتها	وفي سبيل اتحاد السعي تأتليفُ

فليس كالجهل لاستعباد مَن غفلوا — وليس كالعلم لاستقلال من رَسفوا

.....

أريد في وطني ما عزّ في وطني — من مكرُماتٍ بها الاجداد تتّصفُ
أريد فيها ابياً مـلء بُرْدتـه — قلب كبيرٌ الى الاصلاح ينصرفُ
وان يكون أخا بذل وتضحيـةٍ — يهزّه العاليـانِ : الجود والشرفُ
كذلك الفردِ من أضحت عزيمتـه — كدافق الموج حيث الموج يزدحفُ
مَن شاد للعلم والاحسان ابنيـةً — وليس في نفسه الا التّقى هدَفُ
عَنيتُ (فيليب طرّازي) المؤرخ مَن — نسل الألى بجميل الصّنع قد عُرفوا
المنفـق الوقت لا منّ ولا طمعٌ — والباذل المال لا تيهٌ ولا صلَفُ
والممتطي غارب الاسفار ليس لـه — الا الى طلب الاسفـار مُنصرَفُ
همّ الكثيرين مـن قومي مراتبهم — وهمّه البحث والتأليف والصحُفُ
لولاه مـا كان للآثار من أثرٍ — ولا تنظّمت القـاعات والغرَفُ
ولا رأينا جنـود العلم عاكفة — كظامىء الطير حول المـاء يعتكفُ

.....

فدونكم منهلينِ اليوم فازدحموا — عليهما واستقوا مـا راق واغترفوا
فها هنا فتنةُ الالبـاب فابتدروا — وها هنا روضة الآداب فاقتطفوا
وهذه تحفـة الاجداد فاعتبروا — وهـذه شرعةُ الورّادُ فارتشفوا

ولدينا قصائد شتى في هذا الصدد نضرب عن ذكرها صفحاً ونكتفي بالالماع اليها .

الفصل الثامن

وصف بناية دار الكتب الجديدة

ضاقت معاهد المكتبة في مدرسة الدياكونيس عن استيعاب المجلدات التي كانت تتوارد عليها بلا انقطاع يوماً بعد يوم . ففاوضنا رئيس الجمهورية عام ١٩٢٩ واطلعناه على مسيس الحاجة الى بناية لدار الكتب اوسع واكبر تحاكي طراز المكتبات في عواصم الدول . ولما استيقن ذلك اظهر كل رغبة في تحقيق هذا المشروع واوعز الى الحكومة ان تنظر في الامر بعين الاعتبار . فقرّرت تشييد بناية فسيحة تُنقل اليها ذخائر هذا المعهد وتصان فيها الى مستقبل الايام .

انتقت الحكومة بقعة في قلب المدينة واقعة غربي « ساحة النجمة » وعهدت الى المهندس البارع السيد مرديروس الطونيان ان يضع رسماً لهذا الصرح الجديد . فجاءت هندسته جامعة بين العظمة والجمال وسلامة الذوق . وقد اشتمل هذا البناء على ثلاث دوائر رسمية وهي: المجلس النيابي ودار الكتب والدوائر العقارية.

ومركز دار الكتب واقع غربي الصرح المذكور يرقى اليه من الناحية الشمالية بسلّم من رخام ابيض . وطول بناية دار الكتب يبلغ اثنين وستين متراً . وهي تتألف من ثلاث طبقات ذات هندسة رائعة ومنظر حسَنٍ يدعوان الى الاعجاب والوقار . ويصل السلم بالمكتبة رواق مدبج بخرائط علمية وصوَر بعض النوابغ . وكُتب في صدره بحروف مفضضة بيتان نظمهما مؤسس دار الكتب وهما :

للكُتْبِ أنشئ مقدسٌ اوحى لنا … عصر الرّها وءآثر المأمونِ
في بابه ازدحمتْ اساطين النهى … سعياً وراء الجوهر المكنونِ

ويلي الرواق مِدْرس كبير يلتئم فيه طلاب العلم وروّاد المطالعة والتنقيب. وقد توفرت لهم فيه جميع اسباب الراحة والسكينة وسائر اساليب التحصيل العصرية . ويبلغ طول هذا المِدرس ٢٦ متراً بعرض ١٣ متراً وارتفاع ١٤ متراً. واسندت الى جدرانه في الطبقات الثلاث خزائن خشبية وحديدية رُصفت فيها الكتب على اختلاف العلوم في اللغات الشرقية والغربية . ونُصب فوق كل خزانة بحروف فضية عنوان مواضيع الكتب وفقاً للتنسيق العشري والتسلسل العلمي .

وقد سبقنا فأوحينا الى المهندس الطونيان ان يرسم المِدْرس على هذا الشكل وبالقياسات المذكورة آنفاً كي يتسنى لادارة دار الكتب ان تقوم حيناً بعد حين بحفلات تلقى فيها محاضرات علمية لفائدة الجمهور والطامعين في العلم . وفي صحن المِدْرس مقاعد لمائتي زائر يشتغلون بكل هدوء في وقت واحد . ويمكن ان يضاف الى ذلك اذا مسّت الحاجة مائة وخمسون مقعداً .

وما عدا المصابيح الكهربائية المرتكزة في جميع نواحي المكتبة فقد عُلقت في سقف المِدرس ثلاث ثريات بلورية تنار بالكهرباء ليلاً في الحفلات الكبرى .

وفي صدر المِدرس يقرأ الداخل هذه الآية « رأس الحكمة مخافة الله » . وقد استكتبناها بحروف كوفية ضخمة ووضعناها ضمن اطار طوله اربعة امتار واهديناها الى المكتبة . وتحت تلك الاية ارتكز اطار ثان طوله خمسة امتار اتحفنا به دار الكتب ايضاً . وقد دبّجنا مدرَجته بنقوش ظريفة يتوسطها هذا الشعر :

العلم يرفع بيتاً لا عمادَ لـه   والجهل يهدم بيت العزّ والشرفِ

وخلاصة القول ان زائر دار الكتب يلاقي فيها ما يعجبه ويدهشه من فخامة واتقان وترتيب وتبويب وهيبة وسكوت . وهو لعمري منظر مهيب يدعو الى الاعجاب والاغتباط . على ان دار الكتب هذه اصبحت مرجعاً للثقافة يجلب الافكار والانظار بما احتوته من الاسفار وما ازدانت به جدرانها من رسوم تمثل فحول العلم وجهابذة الفن في الديار اللبنانية .

الفصل التاسع

معرض دار الكتب

اطلقنا هذا العنوان على قاعة واقعة في اوّل رواق المكتبة الى يمين الداخل . وهي تضم اثمن ما احتواه هذا المعهد من تحف فنّية وطرَف نادرة ومخطوطات قديمة مما لا يرخّص في رؤيته الا لخاصة القوم . وهذا المعرض على حداثة نشأته حوى نفائس جمة نكتفي بذكر بعضها :

اولا – خزانة في صدر القاعة تتضمن زهاء ثلاثمائة وخمسين مخطوطاً . منها كتابات فريدة في بابها ومخطوطات نعتقد انها الوحيدة من نوعها . وبينها شاهنامة الفردوسي في مجلد ضخم مزيّنة باحدى وستين صورة رائعة تعتبر من ابدع ما رسمَته ريشة مصوّر في العصور الغابرة .

ثانياً – فوق خزانة المخطوطات المشار اليها صفيحة بلوريّة كبيرة عليها كتابة طريفة مذهبة بشكل سفينة نمّقتها براعة الخطاط الشهير نسيب مكارم

ثالثاً – في صحن القاعة خزانة حُفظت فيها آثار شتى منها مصاحف قرآنية ثمينة وخطوط كوفية على رق الغزال وجلود مزينة بنقوش والوان زاهية .

رابعاً – صفيحة كبيرة يكتنفها اطار من خشب الارز رُسم عليها العَلَم اللبناني. وعند جذع الارزة في وسط العَلَم صورتا الاميرَين الكبيرَين فخر الدين المعني الثاني (١٥٧٢ – ١٦٣٥) والامير بشير الشهابي الثاني(١٧٦٧–١٨٥٠). وقد تفرّع منهما يمنة ويسرة حكام لبنان الكبير ورؤساء الجمهورية اللبنانية يحيط بهم المفوّضون السامون من قِبل الجمهورية الفرنسية في هذه الديار.

هكذا تبدو للناظر في تلك الصفيحة رسوم الحكام الذين تسلسلوا في الدولة اللبنانية لعهدنا هذا . وقد اهداها الكاتب الاديب فيليب فارس مفوّض الشرطة الى معرض دار الكتب .

خامساً — حبّة أرزّ طبيعية كُتبت عليها سورة الفاتحة بخط الشيخ نسيب مكارم .

سادساً — صورتان اثريّتان رسمتها براعـــة اللغوي الكبير الشيخ ابرهيم اليازجي وهما : صورة شقيقته الشاعرة وردة اليازجي وصورة الدكتور يوسف الجلخ . وقد كتب الشيخ ابرهيم بخطه على زوايا الصورة الثانية اربعة ابيات من نظمه وهي :

حيِّ رسماً لمن تحيّي ثَراهُ	نسمات الرضى وبردُ العهادِ
لاح فيـه مثاله بل مثـال الـ	فضل والبرّ والوفا والوِدادِ
رسمَتْه يدي وفي القلب منه	مثل مـا قد رَسَمْتُـه بالايادي
فكأني نقلته عن فؤادي	او كأني جعلتُ فيه فؤادي

سابعاً — حلّة للتقديس ثمينة بلغت اكلافها ثلاثمائة ليرة عثمانية ذهبية . وقد اهتمت بصنعها فتيات بارعات من اسرة شاهيّات بحلب في اواسط القرن التاسع عشر لنسيبهنّ الخوري اناطوليوس شاهيات الراهب الباسيلي الحلبي . وهذه الحلة منسوجة بخيوط الفضة ومطرزة بقصب الذهب ومرصّعة باللؤلؤ الاصلي الخالص . فاشتراها الارشمندريت ميخائيل آلوف الروميّ الملكي في زحلة . وقد رغّبتُه انا في اهدائها الى دار الكتب لِما بيني وبينـه من صداقة متينة . ثم استصنعت لاجل حفظها خزانة خاصة متوّجة باسم مهديها تخليداً لذكراه .

ثامناً — صورتان زيتيتان تمثّل احداهما ناحية من نواحي بيروت منذ مائة عام . وتمثّل الصورة الاخرى تلك الناحية عينهـا من مدينة بيروت في العصر الحـالي .

تاسعاً – مجموعة كاملة تنطوي على كل ما اصدرته الحكومة اللبنانية من اوراق بريدية وقراطيس مالية وما انشأته من انواط الشرف .

عاشراً – تحف جمة من رسوم وانواط تذكارية وكتابات مختلفة يطول تفصيلها في هذا المقام .

حادي عشر – سيف اسماعيل حقي بك آخر والٍ تركي في بيروت سنة ١٩١٨ وقد اشتريت هذا السيف واهديته الى معرض دار الكتب .

اعلم اني لما انشأت المعرض المذكور اقتفيت فيه آثار من تجلّوا في هذه الحلبة من امناء دور الكتب الشهيرة على حد قول المثل « ان التشبّه بالكرام فلاح » . لان جميع دور الكتب في اصقاع اوربا واميركا ومصر تتنافس في ابراز ما لديها من الكنوز الثمينة وتفسح لها احسن الغرف وأليقها . وما هدفها في ذلك الا ترغيب الخاص والعام في ارتياد المكتبات للوقوف على ما خلّفه الاسلاف من الآثار الرائعة والنوادر الفنّية .

وكنت اعلّل النفس بان هذا المعرض سيزداد نموّاً ورونقاً بتوالي الايام فيصبح مقصداً لهواة الفن والبحث من سكان بيروت والسياح النازلين فيها . غير اني ما كدت اعتزل امانة دار الكتب حتى توارى ذلك المعرض الطريف عن الابصار . ونقلت نفائسه الغوالي من مكانها فحشرت في غرفة بعيدة عن محور الشغل لا يسمح لاحد ان يدنو منها او يدخلها . ولستُ ادري وجه الحكمة في هذا التدبير الذي لا يقرّه من اتّصف بدقة النظر واصالة الرأي وتعزيز الفن . لاننا بينما نشاهد دول المعمور تتباهى بمعارضها وتتبارى في تنظيمها واغناء ثروتها نرى القائمين بشؤون هذا المعرض البيروتي الوحيد يعرضون عن تحسينه ولا يكترثون لاغنائه وصيانة كنوزه .

وغير خافٍ ما نجم بسبب ذلك من الاساءة الى العلم والاجحاف بمصلحة

الدولة . فقد اثار ذلــك الاهمال حفيظة الادباء وثبّطهم عن مواصلة الاهتمام بالمشاريع الادبية . فكان الاحرى بامناء دار الكتب ان يحافظوا على هــذا المعرض ويجتهدوا في ازدياد تحفه وطُرَفه ضناً بكرامة الامّة واعلاءً لشأن الوطن . فيحق لهم حينئذ ان ينشدوا مع الشاعر :

تلك آثارنا تدلّ علينا   فانظروا بعدنا الى الآثارِ

الفصل العاشر

رسوم نوابغ العلماء وارباب الفن في دار الكتب

تفرّدت المكتبة اللبنانية دون سائر مكتبات الشرق بما ازدانت به من رسوم اركان النهضة الادبية منـــذ القرن السابع عشر حتى القرن العشرين . فخلّدنا ذكراهم بتلك الرسوم ودبّجنا بها جدران مدْرس المكتبة واروقتها تعظيماً لمن تمثلهم وحضاً للخلف على الاقتداء بالسلف .

ابتكرنا نحن فكرة تلك الرسوم وتعمّقنا في درسها وابرازهـــا الى حيّز الوجود . ثم كلّفنا مشاهير الفنانين اللبنانيين دون سواهم في الوطن والمهجر ان يتولوا تصويرها بالزيت واوعزنا اليهم ان تكون ذات قياس واحد . وبعد انتهاء العمل طبقاً للخطة التي رسمناها وضعنا كلّاً من تلك الرسوم ضمن اطارٍ ذي طراز واحد. فجاءت بمجموعها معرضاً قومياً مهيباً يمثّل اقطاب علماء لبنان بريشة فنّاني لبنان على اختلاف مذاهبهم ومشاربهم ومراتبهم . والله سبحانه وتعالى يعلم مـا تكلفناه من التضحية والعناء والتفتيش للظفر ببعض تلك الرسوم .

ثم اننا زيّنا صدر المِدْرس بصورة رئيس الجمهورية اللبنانية يعلوها شعـار الارزة . وجعلنا الى يمينها صورة الامير المجيد فخر الدين المعني الثاني والى يسارها صورة الامير الكبير بشير الشهابي الثاني يلمع فوق كل منهما سيف الامارة .

بلغ مـــا استصنعناه من الرسوم الزيتيّة نحو الستين رسماً تمثلّ ستّين عالماً من نوابغ الامّة وأهديناها الى المكتبة . وهناك بعض رسوم أوعزنا الى فريق من ذوي الاريحيّة والفضل فاتحفوا بها المكتبة . وفي صنعنا هذا كلهِ لم نحمّل الخزانة اللبنانية غرشاً لبنانياً واحداً .

اليك بعد هذا الشرح إسماء اصحاب تلك الرسوم نسّقناها فئةً فئةً وفقاً لِما اشتهر به كل منهم في حقل العلم . واضفنا الى اسمه سنتَي ولادته ووفاته . فذكرنا السنين الهجرية بجانب العلماء المسلمين والسنين الميلادية بجانب العلماء المسيحيين . واثبتنا شيئاً مما تفرّد به بعضهم لزيادة التنويه بزيته العلميّة او الفنيّة:

اولا – اللغويّون

المطران جرمانوس فرحات (١٦٧٠ – ١٧٣٢) صاحب التصانيف العديدة في كل علم ومطلب . احمد فارس الشدياق (١٨٠٤–١٨٨٧م) (١٢١٩–١٣٠٥هـ) الذي طبّق ذكره الخافقين . الشيخ يوسف الاسير (١٢٣٠–١٣٠٧) اللغويّ والشاعر والفقيه . الشيخ ابرهيم اليازجيّ (١٨٤٧–١٩٠٦) امام اللغة والشاعر والمصوّر والحفّار والمخترع . ومما يجدر ذكره عن براعة الشيخ ابرهيم اليازجي في التصوير ان رسمه المنصوب في دار الكتب هو من صنع يديه وقد اهداه الينا في حال حياته فاهديناه بدورنا الى دار الكتب . الشيخ سعيد الشرتوني (١٨٤٩ – ١٩١٢) واضع معجم « اقرب الموارد » . جبرائيل القرداحي (١٨٤٥ – ١٩٣٣) صاحب معجم « اللباب » وغيره . الشيخ عبدالله البستانيّ (١٨٥٤ – ١٩٣٠) رئيس المجمع العلميّ اللبنانيّ وواضع معجم « البستان وحديقة البستان وغيرهما » . الاستاذ جبر ضومط (١٨٥٩ – ١٩٣٠) اللغويّ والفيلسوف . الاب لويس معلوف (١٨٦٧ – ١٩٤٥) صاحب معجم « المنجد ».

ثانياً – المؤرخون

البطريرك اسطفان الدويهيّ (١٦٦٧ – ١٧٠٤) امام المؤرّخين الموارنة . نوفل نوفل (١٨١٢ – ١٨٨٧) المؤرخ والفيلسوف والقانونيّ . المطران يوسف الدبس (١٨٣٣ – ١٩٠٧) المؤرخ وصاحب التآليف العديدة . الاب لويس شيخو (١٨٥٩ – ١٩٢٧) المؤرّخ والنقّاد والصحافيّ والخطيب والرحّالة . جرجي زيدان (١٨٦١ – ١٩١٤) المؤرّخ والصحافيّ والروائي .

ثالثاً ـ الاطباء

الدكتور ميخائيل مشاقه (١٨٠٠ – ١٨٨٨) الطبيب والموسيقي والمؤلف الجدليّ والمؤرخ اللبناني . الدكتور يوسف الجلخ (١٨٤٤ – ١٨٨٩) الطبيب والاديب . الدكتور بشاره زلزل (١٨٥١ – ١٩٠٥) الطبيب والخطيب واللغويّ والشاعر والصحافي والمؤلف .

رابعاً ـ الرياضيون والفلاسفة

الشيخ ابرهيم الحورانيّ (١٨٤٤ – ١٩١٦) اللغويّ والفيلسوف والخطيب والشاعر والرياضي والصحافيّ . الاستاذ جرجس همّام (١٨٥٦ – ١٩٢١) الرياضي واللغويّ . امين الريحانيّ (١٨٧٦ – ١٩٤٠) الفيلسوف والخطيب والناقد .

خامساً ـ الشعراء

الخوري نقولا صائغ (١٦٩٢ – ١٧٥٦) الشاعر والواعظ . الشيخ ناصيف اليازجي (١٨٠٠ – ١٨٧١) امام اللغة العربية ومؤسس النهضة العلميّة في زمانه ومؤلف كتاب « مجمع البحرين » وكثير من كتب اللغة ودواوين الشعر. الكنت رشيد الدحداح (١٨١٣ – ١٨٨٩) الشاعر والمؤرخ واللغويّ . الشيخ ابرهيم الاحدب (١٢٤٢ – ١٣٠٨) واضع المؤلفات الشعرية والادبية والمسرحية وناسخ المئات من الكتب المخطوطة . الشيخ قاسم الكستيّ (١٢٥٦ – ١٣٢٧) الشاعر والقانونيّ .

سادساً ـ الصحافيون

خليل افندي الخوري (١٨٣٦ – ١٩٠٧) مؤسس الصحافة اللبنانية والشاعر والسياسي . الشيخ عبد القادر قبّاني (١٢٦٥ – ١٣٥٤) مؤسس الصحافة الاسلامية في بيروت . سليم البستاني (١٨٤٨ – ١٨٨٤) المؤرخ والصحافي

وشريك والده المعلم بطرس في موسوعة « دائرة المعارف » . سليم بك تقلا (١٨٤٩ – ١٨٩٢) وشقيقه بشاره باشا تقلا (١٨٥٢ – ١٩٠٢) مؤسسا جريدة « الاهرام » الشهيرة في مصر . اديب اسحق (١٨٥٦ – ١٨٨٥) الخطيب والصحافي في بيروت ومصر وباريس . نعوم مكرزل (١٨٦٣ – ١٩٣٢) مؤسس اعظم جريدة عربية في اميركا الشمالية . داود بركات (١٨٦٧ –١٩٣٣) شيخ الصحافة المصرية . الشيخ احمد حسن طبّاره (١٢٨٩ – ١٣٣٤) الصحافيّ الشهيد.

سابعاً – المحدّثون وعلماء الشرع

الشيخ مصطفى نجا (١٢٦٩ – ١٣٥٠) مفتي بيروت . الشيخ احمد عباس الازهري (١٢٧٠ – ١٣٤٥) منشىء الكلية الاسلامية . الشيخ محمد رشيد رضا (١٢٨٢ – ١٣٥٤) صاحب التصانيف العديدة ومنشىء مجلة « المنار » .

ثامناً – المترجمون

شاكر شقير (١٨٥٠ – ١٨٩٦) الشاعر واللغوي ومعرّب المقالات الوافرة في « دائرة المعارف » البستانية وفي معجم « آثار الادهار » . سليمان البستاني (١٨٥٦ – ١٩٢٥) معرّب الياذة هوميرس شعراً والوزير العثماني ونائب رئيس مجلس المبعوثان في اسطنبول .

تاسعاً – المحامون وعلماء القانون .

امين الشميّل (١٨٢٨ – ١٨٩٧) الشاعر والمؤرخ والصحافي والمحامي ومؤلف الكتب العديدة . سليم باز (١٨٥٩ – ١٩٢٠) مترجم التصانيف القانونية عن اللغة التركية .

عاشراً – المصوّرون .

داود القرم (١٨٥٠ – ١٩٣٠) عميد المصورين اللبنانيين . جبران خليل

جبران (١٨٨٣ – ١٩٣١) المصوّر والاديب والموسيقي وواضع التصانيف العديدة .

حادي عشر – المهندسون .

بشاره افندي (١٨٤١ – ١٩٢٥) اوّل مهندس في الديار اللبنانية وواضع التصاميم لاشهر السرايات والدور وباني الطرق الرئيسية في لبنان وسوريا .

ثاني عشر – المخترعون .

كامل الصبّاح العامليّ (١٣١٢ – ١٣٥٣) المخترع في الحقل الكهربائيّ .

ثالث عشر – مشاهير فنّ الطباعة .

عبدالله زاخر (١٦٦٠ – ١٧٤٨) المؤلف الجدليّ واحد مؤسسي الطباعة اللبنانية .

رابع عشر – النوابغ في شتى العلوم .

المعلّم بطرس البستاني (١٨١٩–١٨٨٣) صاحب المعاجم وموسوعة « دائرة المعارف » والصحافي ومؤسس المدرسة الوطنية وغيرها من الآثار . المطران اقليميس يوسف داود (١٨٢٩ – ١٨٩٠) صاحب التصانيف المختلفة اللغات والمواضيع وعددها ٩٧ مجلداً (راجع جدولها في كتابنا القلادة النفيسة) .

خامس عشر – رؤساء الجمعيات الادبية والمجامع العلمية .

الحاج حسين بيهم (١٢٤٩ – ١٢٩٨) رئيس « الجمعية العلمية السورية » في بيروت وعضو مجلس المبعوثان في اسطنبول . وديع عقل (١٨٨٢ – ١٩٣٣) اللغوي والشاعر والصحافي ورئيس المجمع العلمي اللبناني .

سادس عشر – النساء الاديبات .

وردة اليازجي (١٨٣٨–١٩٢٤)الشاعرةوالاديبة .مي زيادة (١٨٩٥–١٩٤١) الخطيبة والشاعرة والصحافية .

سابع عشر – امناء دور الكتب اللبنانيون في اوربا .

المطران يوسف شمعون السمعاني الماروني (١٦٨٧ – ١٧٦٨) امين المكتبة الواتكانية . المطران اسطفان عوّاد الماروني (١٧٠٩ – ١٧٨٢) امين المكتبة المادیشية في فلورنسا ثم امين المكتبة الواتكانية . القس الياس شدياق السرياني (١٧٥٠ – ١٨١٨) امين مكتبتي مدريد والاسكوريال الملكيتين في اسبانيا . وكان ثلاثتهم من ارباب الاثار العلمية الذين تغني شهرتهم عن وصفهم .

ثامن عشر – علماء المشرقيات .

الدكتور كرنيليوس فنديك (١٨١٨ – ١٨٩٥) . الدكتور الجرّاح جورج بوست (١٨٣٨ – ١٩٠٩) . كلاهما من اميركا الشمالية وقد خلّفا في اللغة العربية تصانيف لم يسبقهما اليها احد من الناطقين بالضاد .

تاسع عشر – نوابغ اللبنانيين في نظم الشعر الفرنسي .

شكري غانم (١٨٦١ – ١٩٢٩) مؤلف الكتب التاريخية والادبية وناظم رواية عنتر التي مُثلت على مسرح الاوبيرا بباريس وعلى مسرح الاوبيرا في القاهرة . ونائب رئيس المؤتمر العربي في باريس عام ١٩١٣ .

ويجدر بالذكر ان الحصول على رسوم هؤلاء الاعلام لم يكن من الامور الهينات وقد تكبدنا لذلك مصاعب جمة نورد منها على سبيل المثال ما تكبدناه لاحراز رسم العلامة الشيخ ابرهيم الاحدب . ولما كان هذا الشيخ لم يتصور في حياته قط لجأنا الى طريقة طريفة للفوز بهذه الامنية وهي :

لما توفي الوجيه الحاج حسين بيهم سنة ١٢٩٨ مر موكب الجنازة بسوق الطويلة في طريقه من الجامع العمري الى جبانة السنطية . وكان يقيم حينذاك في احد منازل السوق المذكورة المصور الشهير جيانللي الذي ادهشته عظمة تلك الجنازة فخطر بباله ان يلتقط صورة الموكب من ثغرة في نافذة مغلقة في منزله دون ان يعلم به احد لان التصوير لم يكن مألوفاً لدى المسلمين في ذاك العهد . ونظراً لوجاهة آل بيهم كان من البديهي ان يشترك الشيخ ابرهيم الاحدب في تشييع جنازة صديقه المشار اليه . وقد مرت الايام والاعوام على هذا الحادث الذي بقي مكتوماً وقد علمته من المرحوم والدي الذي بلغه ذلك من المصور المذكور .

ولما اردنا نصب رسم الشيخ ابرهيم الاحدب في دار الكتب وتعذر علينا الحصول على رسمه عادت الينا ذكرى حادث المصور جيانللي الذي وافته المنية قبل اعوام . فقصدنا ابنته الوحيدة ارملة انيبال ابيلا وسألناها اذا كانت محافظة على مخلفات والدها فاجابتنا انها لا تزال تحرص عليها . وبناء عليه طلبنا منها ان تفتش لنا عن زجاجة صورة موكب الجنازة ونفحناها بليرتين ذهبيتين عثمانيتين فاجابتنا الى سؤالنا وسلمتنا الزجاجة .

ولما كان رسم الشيخ ابرهيم الاحدب صغير الحجم في الزجاجة اضطررنا ان نكبره مرة بعد مرة . هكذا توصلنا للحصول على الرسم المنشود ثم كلفنا المصور الزيتي حبيب سرور الذي كان يعرف الشيخ ابرهيم تمام المعرفة في حال حياته ان يقوم بوضع الرسم المذكور الذي يشاهد اليوم في دار الكتب .

ذلك مثال فرد من امثلة شتى توضح جلياً ما تجشمناه من اتعاب وجهود للفوز بوهط وافر من رسوم المكتبة .

الفصل الحادي عشر

سعي البعض بنزع رسوم دار الكتب

بعد ما اكتمل عقدُ الرسوم الذي نظمناه وطوقنا به جيد دار الكتب اللبنانية، وبعدما اعتزلنا العمل فيها بداعي الشيخوخة راح البعض ينتقدون تلك الرسوم ويقترحون نزعها من اماكنها مدّعين انها غير ذات فائدة. وان فريقاً من الذين تمثلهم ليسوا ممن يحق لهم ان يتصدّروا هذا المحفل الكتابي الوطني.

كاد يموّه هذا الاقتراح على بعض رجالات لبنان الرسميين غير ان اهل الحصافة منهم ثارت حفيظتهم وهبّوا يعارضون ذلك الاقتراح ويستنكرونه . وأمروا بالمحافظة على تلك الذخائر الفنية والتاريخية التي رفعت شأن المكتبة وعزّزتها.

فالعلماء الذين تمثلهم رسوم دار الكتب قد استعرضناهم فرداً فرداً في الفصل السابق. ومن ذلك الاستعراض يتجلى ما لكل منهم من الشأن والشهرة والمقام الرفيع في عالم الثقافة على اختلاف درجاتها ومناحيها. دَعْ ما لهم من تراجم ضافية وافية في كتب التواريخ والموسوعات والمجموعات وفي المجلات والصحف مما لا يترك مجالاً للارتياب في مكانتهم الادبية وفضلهم في دائرة اختصاصهم لا على لبنان فقط بل على سائر الاقطار الشرقيّة . وعُنينا نحن بتدوين اخبارهم وآثارهم في كتاب خاص تنويهاً بمفاخرهم. وقد ساقتنا الحميّة القوميّة ان ننظم في ذلك العقد النفيس صُوَرَ نوابغ لبنان الذين نتباهى بهم ونعتز بالانتماء اليهم ونتغنّى بمآثرهم على حدّ قول الشاعر:

اولئك آبائي فجئني بمثلهم اذا جمعتنا يا جريرُ المجامعُ

كنّا مصمّمين ان نضمّ الى تلك الصّوَر صُوَراً غيرها لرهطٍ آخر من جهابذة لبنان تعظيما لقدرهم وتخليداً لذكراهم . بيد ان اعتزالنا دار الكتب مَنَعنا عن تذوّق تلك اللذة الشهية . وقد ازداد ألمنا لِما انتاب تلك النهضة المباركة من جمود نأمل لها بعده انبعاثاً وازدهاراً .

وبين ايدينا شهادات صريحة كتبها فريق من الادباء في وصف تلك الرسوم واربابها الميامين . قال صاحب جريدة « البيرق » بتاريخ ٢٩ كانون الثاني ١٩٣٧ تحت عنوان « اجمل مشروع وطني ثقافي تمّ في لبنان » ما نصه : « شاء الكنت طرّازي ان يزيّن جدران دار الكتب بمجموعة نادرة من رسوم اركان النهضة الادبية والعلمية التي اضاءت جوانب الشرق ومن رسوم كبار علماء هذه الديار في القرون السابع عشر والثامن عشر والتاسع عشر والعشرين . فحوّل جدران صالون المكتبة الكبير الى معرض حيّ لرجال يسمع الناس بهم وتنشر الاقلام اسماءهم في مناسبات عدّة وليس بيننا مَن تشرّف بمعرفة العدد الاكبر منهم . فكان لوضع رسوم هولاء الراحلين في هذه الدار واجتماعهم بين خزائنها اجمل فكرة واسمى مقام ... ويحق للحكومة ان تعتز بوجود هذه الدار الثمينة الصامتة بين ممتلكاتها ... ان هذه الدار دار العلم والثقافة تبيّض وجه لبنان ! » .

ونردف تصريح صاحب « البيرق » بتصريح صاحب جريدة « الجمهور » في ٢١ حزيران ١٩٣٧ قال : « انْ ننسَ لا ننسى صور الادباء اللبنانيين التي تزيّن قاعة الشرف في دار الكتب . اولئك الادباء العلماء الذين نهضوا بالآداب العربية ونشروها وادخلوا اسمهم في الآداب الاجنبية . بينهم علماء علّموا في كليات باريس ورومة ونظّموا مكاتب الفاتيكان والاسكوريال فرفعوا اسم لبنان . وجدير بنا ان نحيّي همّة وثقافة الفيكونت دي طرّازي الذي بنى مكتبة عامرة تُعد اليوم بفخر من خيرة المكاتب وانفعها ! » .

ومن اروع وابدع ما قيل عن رسوم دار الكتب عبارة خالدة يطيب لنا ان

نجعلها مسك الختام لهذا الفصل . وقد ادلى بها علامتنا اللبناني الكبير الدكتور فارس نمر باشا يوم تعهد المكتبة هو وحاشيته في ١٧ آب ١٩٣٧ . فانه ما كاد يلقي لحظته على تلك الرسوم حتى اندفع يجاهر قائلاً : « ان لدار الكتب اللبنانية مزيّة تفردت بها دون غيرها من المكتبات . فان ارواح نوابغ الوطن البارزة رسومهم ههنا ترفرف في جوانبها وتشرف على الغادين والرائحين . فاذا عُدّت جميع مكتبات العالم صامتة فدار الكتب اللبنانية وحدها تُعد ناطقة ! » .

الفصل الثانى عشر

تأثير دار الكتب الادبى والمادى

احدثت دار الكتب اللبنانية في الشبان تأثيراً شديداً ملك علـى عقولهم وقلوبهم . فانمت ثقافتهم وحرصت على سلامة اخلاقهم ومهّدت لهم السبل لبلوغ ما يصبون اليه عن طريق العلم .

ومن محامد دار الكتب انها اصبحت عاملاً يقظاً انقذ اولئك الشبـان من حبائل البغاء او المقامرة او معاقرة الخمرة . وردعت الكثيرين منهم عن ارتيـاد الاندية العامة التي تفسد الآداب وتفني الاموال وتقوّض بيوتات الشرف الرفيعة العماد . وبين اولئك الشبان قوم حاروا في امرهم ولم يهتدوا الى سبيل يضمن لهم مستقبلهم في الحياة . فاستدركت ذلك كله امـانة المكتبة ونهجت لهم منهاجاً يسيرون فيه سيراً مطمئناً . وبهذه الوسيلة ضمنت النجاح لعدد وافر ممن نبغوا في مختلف المهن كالهندسة والطب والزراعة والصناعة والفنون الجميلة وغيرها . وهذا يعود الى خطة سديدة ارشدتهم اليها دار الكتب فأثّرت تأثيرها في اذهان الشبان فجنوا منها انضج الثمار . واعتقد انه لولا اهتمام ادارة المكتبة بهم لامسوا بليّة على آلهم وبلادهم وعلى الانسانية معاً .

هكذا كان التوفيق حليفاً لدار الكتب في اعمالها ومساعيها . فكان يرتادها الزوّار من اكثر طبقات الامة ولاسيما حمَلة الاقلام والاساتذة وطلبة الجامعات ورهط من الغرباء النازلين في بيروت . نخصص بالذكر منهم الاستاذ حسن عثمان احد خرّيجي كلية الآداب في الجامعة المصرية . فقد اختلف مراراً عديـدة الى دار الكتب اللبنانية ونقل عن كتبها ومخطوطاتها ما شاء ان ينقله . وقبل عودته الى مصر اثبت في السجل الذهبي ما نصه :

« كان لي حظ العروج على دار الكتب الكبرى للارتشاف من منهلها العلمي الفيّاض لاعداد رسالتي التي اقدمها لكلية الآداب بالجامعة المصرية عن الامير فخر الدين المعني الكبير . فلقيت من حضرة الاستاذ العلامة الفيكونت فيليب دي طرّازي كل رحابة وعناية ورعاية للبحث العلمي الخالص وخبرتُ جهوده الصادقة في سبيل الشرق الناهض ورغبته الاكيدة لتوطيد الصلات الوثيقة بين ابنائه . واني لاذكر ايامي السعيدة التي قضيتها بهذا المعهد بكل اجلال » .

٢٤ – ٨ – ١٩٣٣ حسن عثمان

طالب بكلية الآداب بالجامعة المصرية

وممّن اختلف الى دار الكتب من الطلاب السيد عادل ابن الشيخ عبد الكريم ابي النصر نقيب اشراف بيروت . فاننا لما اختبرنا ذكاءه ونجابته نشطناه الى درس فنّ الزراعة وصرّحنا له بشدة احتياج بلادنا الى رجال يتخرجون في هذا الفن . انطلق الشاب عادل الى تونس وفرنسا حيث اتقن الفن المذكور واحرز الشهادة الرسمية . وعند عودته الى الوطن ظل يتردد على دار الكتب مستكملاً علومه الزراعية حتى اصبح فيها ممن يشار اليه بالبنان واليك ما دوّنه بتاريخ ٦ ايلول ١٩٣٣ في سجل المكتبة الذهبي قال :

« اني تردّدت منذ اعوام شتى على دار الكتب الكبرى في بيروت . وذلك قبل سفري لتحصيل العلم الزراعي في اوربا وبعد رجوعي الى الوطن ... وكان ترددي على هذا المعهد للاستفادة من الكنوز التي يشتمل عليها ولاسيما في علم الزراعة . لان هذا القسم في دار الكتب يُعد من اوسع الاقسام العلمية .

ولا اخال احداً يجهل ما تشتمل عليه دار الكتب الكبرى من الاسفار الزراعية على اختلاف فنونها وفروعها . واستطيع القول ان القسم الزراعي فيها يُعد اهم مرجع في جميع الديار الشرقية لطلاب هذا الفن ، واذا قلت ذلك فاني اقوله عن يقين ومعرفة وخبرة . ولا ريب في ان الفضل في تكوين القسم الزراعي وتنشيط

الطلاب لارتياد هذا الفرع المفيد لبلادنا والاستفادة من كنوزه الثمينة عائد الى همّة حضرة الوطني الجليل والكاتب المفضال الكونت فيليب دي طرّازي مؤسس دار الكتب الكبرى في بيروت . ولا ريب في ان التاريخ سيخلّد له هذا العمل الخطير الذي ضحّى في سبيله بالنفس والنفيس حباً للوطن واعلاء لشأن العلم .

٦ ايلول ١٩٣٣ المهندس الزراعي
عادل ابو النصر

وناهيك ان طلاب العلم في العاصمة اللبنانية يُعدّون بعشرات الالوف وأغلبهم من انصار دار الكتب ومريديها والمستفيدين من ذخائرها . وقد ناهز عدد اولئك الزوّار مائة في اليوم بل بلغوا احياناً مائة وخمسين او اكثر من ذلك . وخلاصة الكلام ان هذه الدار ليست مركزاً للثقافة فقط بل معقلاً حصيناً للاداب ايضاً . وقد اتخذهـا ارباب الحصافة مرجعاً يجنون منه ثمرات الحكمة ويعتمدونه في مطالعاتهم وابحاثهم . واليك ما كتبه احد حمَلة الاقلام الى منشيء مجلة « الفنون الجميلة » بتاريخ ١ آب ١٩٣٧ قال :

« اذا صح اني فهمتُك فأنت متحدّث في صحيفتك عن أشيـاء وأشياء منها المكتبة الوطنية . فأكثر من الاشارة بمثل هذه المؤسسات الصامتة المملوءة حكمة ، المملوءة منافع ، المملوءة فوائد يجنيها العموم . وقدّم مؤسس المكتبة الوطنيـة الفيكنت طرّازي مثلاً اعلى للوطنية العاملة المجاهدة الصحيحة . ولو ان رجالنا المتصدّرين عملوا في حقل الوطنية مثل ما عمل الفيكنت او نصف ما عمل لكنا في وطن يشار اليه بالبنان ويتّخذ قدوة في اقطار المعمور ! » .

وكتب صاحب جريدة « المصري » في ٢٤ مايو ١٩٣٧ قال :

« زرتُ هذه المكتبة في اثناء وجودي في عاصمة القطر الشقيق فاذا هي تزخر بالكتب النفيسة التي جُمعت من مختلف الاقطار وبجميع اللغات ... ويشرف على دارة هذه المكتبة رجل له فضل كبير على العلم والادب والثقافة في لبنان وهو

حضرة الفيكونت فيليب دي طرازي . ولولا هذا الرجل لمـّا كانت المكتبة . فهو الذي انشأها وهو الذي كرّس لها كل وقته وضحّى في سبيلها بما ضحّى لكي تكون في مستوى اكبر دور الكتب في اشهر عواصم العالم . وقد دهش الذين يعرفون الفيكونت دي طرّازي لاقدامه على هذا المشروع الجريء مشروع انشاء دار للكتب . فمثلها من المشاريع لا يقوم بها الافراد وانما تقوم بها الجماعات والحكومات » .

وكتبت جريدة « الشعلة » في ١٣ حزيران ١٩٣٧ :

« لا يجهل احد ان الفيكونت فيليب دي طرّازي ضحّى بالشيء الكثير من وقته ومن ماله في سبيل هذه المكتبة التي تُعدّ بحقٍ مفخرة من مفاخرنا الادبية ورمزاً الى النهضة العلمية في الشرق . والنشء الجديد مدينٌ له بالكثير الكثير من انتاجه ونشاطه ورقيّه ... »

الفصل الثالث عشر

موظفو دار الكتب

كان عدد الموظفين في دار الكتب ثمانية فقط لدى تأسيسها . يُضاف اليهم تاسع بوظيفة معاون وقد مرّ ذكر اسمائهم في الفصل الثاني . وكان ذلك العدد يتلاءم واشغالها في حقبتها الاولى : فاننا اقمنا احدهم لدرس الكتب العربية وتسجيلها . واقمنا ثانيهم لدرس الكتب الافرنجية وتسجيلها . وفوّضنا الى الثالث كتابة ما ننشئه من التقارير والرسائل . وخصّصنا الموظف الرابع بترتيب الكتب والعناية بنظافتها والحرس عليها من التلف والغبار والرطوبة وسائر الآفات . وجعلنا الموظفين الخامس والسادس والسابع لملاحظة الزوار وخدمتهم والمحافظة على النظام الداخلي وتقديم الكتب للقراء . واقمنا الثامن معاوناً لمسجل الكتب الفرنجية لوفرة عددها .

وعلى كرور الايام ازدادت الكتب وتضاعف عدد الوافدين الى المكتبة . فتوفرت الاشغال حتى اصبح عدد الموظفين غير كافٍ للقيام بها . الا انه على رغم ازدياد الأعمال في دار الكتب اضعافَ اضعافِ ما كانت عليه في اول عمرها . وعلى رغم ازدياد علاقاتها بالبلدان القريبة والبعيدة . وعلى رغم اتساع نطاق دوائرها في البناية الجديدة . وعلى رغم ما كتبناه من التقارير السديدة العديدة الى مديرية المعارف في هذا الصدد فان عدد الموظفين العاملين في الحقل العلمي بدلا من ان يزداد بازدياد الشغل قد تدنّى ونقص وتضاءل . هكذا اصبح الموظفون في وقت من الاوقات ثلاثة فقط وهم : الاساتذة ابرهيم معوّض واديب عقل وفؤاد حدّاد.

يؤيد ذلك ما نشره مندوب جريدة « Le Jour » بتاريخ ١٦ تموز ١٩٣٦ قال ما تعريبه : « تجلّت لي مراراً همّة الفيكنت دي طرازي في دار الكتب .

وعاينت نشاط موظفيها الثلاثة الرازحين تحت اعباء المصلحة وهم ينهضون باشغال لا ينهض بها خمسة عشر موظفاً في السراي اللبنانيـــة . ومن الثابت ان عددهم ضئيل غير كاف للقيام بكل اشغال المكتبة. ذلك كله على رغم حرمانهم الرخص الادارية الممنوحة لسائر موظفي الدولة . اما الفيكنت البالغ من العمر اكثر من سبعين سنة فانه مكب دائماً على العمل بهمة الشباب لا يكترث للنكبـات التي اصطدم وما انفك يصطدم بها كل يوم . بل يجد ويجهد بلا انقطاع في نجـاح دار الكتب التي هي صنيعته . وسيبقى اسمها مشفوعاً باسمه الى ما شاء الله تعالى ! » .

وقد ابدى غير واحد من الادباء الذين زاروا دار الكتب فرط اسفهم عـلى قلة موظفيها . نذكر منهم الاستاذ محمـد نقاش فانه كتب في جريدة « صوت الاحرار » بتاريخ ١٨ نيسان ١٩٣٧ ما نصه : « لقد لاحظنا في اثناء زيارتنا لدار الكتب ما يكاد يكون قحطاً في الموظفين : اذ ليس هناك الا اربعة عدا امـين المكتبة » .

الفصل الرابع عشر

احصاء مجلدات دار الكتب والعناية بتجليدها

انطوت دار الكتب في عهد تولّينا امانتها على اثنين وثلاثين الف مجلد . منها ثلاثة آلاف فقط دفعت الحكومة اثمانها بينها الف مجلد اشتريناها من ورّثة مراد بك البارودي . وقد احصينا ما احرزناه نحن من المجلدات على سبيل الهدايا احصاء دقيقاً فبلغ مجموعه تسعة وعشرين الف مجلّد (١) .

قالت جريدة « ارزة لبنان » بتاريخ ٢١ شباط ١٩٣٧ ما نصه : « علمنا ان مكتبتنا الوطنية تحوي الان ٣٢ الف مجلد . منها ٢٩ الف مجلد استحصلها سعادة الفيكونت دي طرّازي بمسعاه شخصياً . . . والثلاثة الاف الاخرى انفقت ثمنها خزانة الدولة . وعلى هذا يكون سعادة الفيكونت ادى لمعارف البلاد ٩٠ بالمائة مما قامت به مديرية المعارف في هـذا السبيل . ومعلوم ان خزانة الدولة تنفق مرتّبات لموظّفي مديرية المعارف ما لو انفقته في تعزيز عمران مكتبتنا العامة ومعارفنا لسرنا بلا شك شوطاً قصياً في ميدان الثقافة » .

وتُقسم محتويات دار الكتب قسمين : المطبوعات والمخطوطات . فالمطبوعات وعددها اثنان وثلاثون الف مجلد تحتوي على اهم العلوم البشرية قديمها وحديثها . منها تآليف نادرة قل ما تجد لها نظيراً في المكتبات الكبرى : بينها ثلاث عشرة مجموعة يتراوح عدد مجلدات كل منها بين المائة والمائتي مجلد . وست وعشرون مجموعة يتراوح عدد مجلدات كل منها بين الخمسين والمائة .

---

(١) يدخل ضمن هذا العدد خمسة الاف وستمائة مجلد نقلناها الى المكتبة من خزائننا الخاصة .

اما المخطوطات فلا يبلغ عددها اكثر من ثلاثمائة واربعة واربعين مجلداً تشتمل على شتى العلوم كالتاريخ والطب والفلك والادب والدين والشرع والكيمياء الخ . وبين تلك المخطوطات ما هو مكتوب على رقّ الغزال او مزيّن بالزخارف النفيسة والصور البديعة مما اتحفنا به دار الكتب او اقتنيناه لها .

وقد استغربنا كثيراً ما نشرته جريدة « الاوريان » الفرنسية (١) بعنوان « في مملكة المخطوطات » . فالمعت هذه الجريدة الى قسم المخطوطات في دار الكتب اللبنانية وتحدّثت عن القائم بادارته الان ناسبة اليه ما لا يطابق الحقيقة . ويا ليت كاتب تلك المقالة تحرّى الحقائق من مصادرها قبل القاء الكلام على عواهنه مما جعل القراء يرتابون في صحّة كلامه فضلاً عن استنكار مدير قسم المخطوطات عينه ما نُسب اليه غلطاً . فان الكاتب جعل عدد المخطوطات الفاً وهي في الحقيقة والواقع لا تتجاوز ٣٥٠ مخطوطاً . اضف الى ذلك كثيراً من المغالطات والمبالغات التي يستنكرها العقلاء ولا يقرّها اهل المعرفة .

ثم بحثنا بحثاً متواصلاً عن مخطوطات قديمة نضيفها الى ثروة دار الكتب نباري بها مكتبات القاهرة وبغداد ودمشق فضلاً عن المكتبة الشرقية ومكتبة الجامعة الاميركية ببيروت ومكتبة دير الشرفة بلبنان والمكتبة المارونية بحلب . وبعد جهود مستمرّة عثرنا عند احد هواة الكتب على مائة وستين مخطوطة لمحنا فيها غرائب وفرائد هي وحيدة نوعها باشكال خطوطها وتعدّد مواضيعها ولا يخلو بعضها من تصاوير ظريفة ونقوش طريفة . وقد انفق صاحبها العلامة في اقتنائها اكثر من اربعمائة ليرة ذهبية بموجب لائحة اسعار مفصّلة فعرضنا عليه ان يبيعنا اياها باسم دار الكتب .

وبعد التداول مع صاحب المخطوطات المشار اليه ومع وزارة التربية الوطنية (المعارف) عُقدت لجنة من جلّة علماء بيروت مسلمين ومسيحيين اجتمعوا خمس

---

(١) جريدة الاوريان في بيروت : سنة ٢٠ رقم ٥٧٠٥ تاريخ ٢٣ اذار ١٩٤٦

مرّات في دار الكتب واشرفوا على تلك المخطوطات واحدة فواحدة . وقدروا قيمتها مائة ليرة وليرتين من الليرات العثمانية الذهبية . ثم كتبوا محضراً في ذلك وامضوه بتواقيعهم في ١٥ تشرين الثاني ١٩٣٧ . فراجعنا حين ذاك صاحب المخطوطات وكدنا نقنعه بالسعر المذكور حباً لدار الكتب مع اعتقادنا انه مغبون في تخمين اللجنة . وكانت وزارة التربية الوطنية والفنون الجميلة قد اوفدت رئيس ديوانها الفرد شمعون لحضور تلك الجلسات والاشراف على مقررات اللجنة فما كان منه الا انه اوعز الى لجنة التخمين سرّاً ان تخفض الاسعار الى درجة يمتنع البائع عن قبولها ثم ذيل محضراً بخط يده على هذه الصورة « اضع توقيعي على هذا المحضر محتفظاً برأيٍ ابديه في تقريرٍ خاص ارفعه الى معالي وزير التربية الوطنية .

٢٤ - ١١ ١٩٣٧ الفرد شمعون

فذهبت مساعينا ادراج الرياح . وحرمت دار الكتب نفائس ونوادر هيهات يتسنى لها الحصول على مثلها ! !

وعلاوة على ذلك كله وجّهنا الاهتمام الى تجليد جميع ما دخل على المكتبة من كتب ومجلات وجرائد وكراريس على اختلاف حجمها ومواضيعها ولغاتها . وعُنينا خصوصاً بالمحافظة على نظافة محتوياتها وصيانتها من العثّ والرطوبة وسائر الآفات التي تذهب برونق الكتب وتتلفها . وبهذه الوسيلة حرصنا على تلك الكنوز الثمينة وادّينا خدمة جُلّى للادب وللخزانة اللبنانية معاً .

الفصل الخامس عشر

القراء والكتب المستعارة

كان عدد القرّاء ضئيلاً في اول عهد تأسيس المكتبة . ثم اخذ يتزايد شهراً بعد شهر بتزايد عدد الكتب وانتشار اسم المكتبة بين الناس . ولما انتصف العام الثاني من عمرها اخذ القراء يؤمّونها افواجاً حتى ضاقت بهم المقاعد واضطرّ بعضهم احياناً ان يشتغلوا بالمطالعة وهم وقوف على الاقدام .

وكنا ندوّن يوماً فيوماً عدد القرّاء ونقدم بياناً بذلك في تقاريرنا الرسمية التي اعتدنا ان نوجّهها الى وزارة التربية الوطنية والفنون الجميلة في نهاية كل ثلاثة اشهر. وقد اسفر الاحصاء خلال المدّة التي تولينا فيها ادارة المكتبة (١٩٢١ — ١٩٣٩) عن اكثر من مائتين وخمسة وخمسين الف قارىء . بينهم الشيخ والفتى والأستاذ والتلميذ والطبيب والصيدلي والقاضي والمحامي والمؤرخ والصحافي والشاعر والتاجر والمهندس والمصوّر والكاتب والحاسب والزارع والصانع وهلمّ جرّا . وقد لقي هؤلاء ما احتاجوا اليه من الاسفار كلها او اكثرها .

اما ما تداولته ايدي القراء من الكتب فيقدّر في المدة المذكورة باربعمائة وثمانين الف مجلدتقريباً . ويدخل ضمن هذا الاحصاء كتب شتى تعدّد طلبها وتكررت مطالعتها . ذلك ما عدا المجلات العلمية والفنية والادبية التي لا يشملها هذا الاحصاء.

ولما كان فريق من الادباء لا تسمح لهم وظائفهم او اوقاتهم او صحتهم ان يحضروا الى المكتبة في ساعاتها المحدودة للدرس والمطالعة رأت الادارة ان تتساهل معهم وتعيرهم ما يطلبونه من الكتب ليطالعوها في بيوتهم لمدة معلومة . وكانت تأخذ منهم وديعة ماليّة تعادل قيمة المستعار ثم تعيدها اليهم حينما يعيدون اليها

الكتاب . يستثنى منهم موظفو الدولة الذين عفتهم وزارة المعـــارف من دفع التأمين . فجنى بعضهم على المكتبة وتمنعوا من اعادة المجلدات التي استعاروهـــا بموجب وصولات رسمية . وحتى الآن لم تزل تلـك الكتب باقية في حوزتهم لا يعيدونها الى المكتبة ولا يدفعون اثمانها ، ولاجـل ذلك اصدرت المكتبة قرار بمنع اعارة الكتب لاي كان حرصاً على ثروتها ومنعاً للخلل في ادارتها .

الفصل السادس عشر

المراسلات والتقارير

اخذت دار الكتب اللبنانية منذ بداية امرها تراسل فريقاً من كبار الادباء وارباب المكتبات ورؤساء المعاهد الثقافية والمجامع العلمية واصحاب دور الطباعة والصحافة في انحاء شتى في المعمورة . وجعلت تطلعهم على خبر نشأتها وتطلب منهم ان يعضدوها في مهمّتها . فاسفر هذا التراسل عن انتشار اسمها بين جهابذة العلم واساطين حَمَلة الاقلام في الديار العربية وغيرها . فبادروا الى مساعدتها وتغذيتها بما عندهم من قديم المصنفات وحديثها . واعتمدوا عليها في قضاء مصالحهم كما اعتمدت عليهم في ترويج مصالحها .

استفادت المكتبة البيروتية من تلك المراسلات فوائد جمة عادت عليها بالنفع والبركة . وحصّلت بتلك الوسيلة قسماً غير يسير من محتوياتها بمثابة هدايا . اما عدد الرسائل التي وجّهتها دار الكتب بادارتنا مدة تسعة عشر عاماً (١٩٢١–١٩٣٩) الى مختلف البلدان فاوفى على عشرة آلاف رسالة في اللغة العربية واللغات الاوربية .

ولا يدخل تحت هذا الاحصاء ما انشأناه من التقارير الرسمية التي كتبناها في مواضيع شتى وبعثنا بها الى دوائر الحكومة اللبنانية . وقس على ذلك تقارير عديدة وجّهناها الى المجامع العلمية والمعاهد الادبية .

هكذا شاع وذاع اسم دار الكتب فازدادت علاقاتها وتوثقت عراها مع كبار العلماء والمؤلفين واصحاب المكتبات الشهيرة شرقاً وغرباً .

الفصل السابع عشر

الاسئلة واجوبتها

رحبت دار الكتب بكلّ ما وجّه اليهـــا من الاسئلة العلمية والتاريخية والادبية والفنية فبادرت الى الجواب عليها بدقة وارتياح . وانطوى اغلبها على مواضيع كنا نضطرّ للجواب عليها ان نراجع ما نعرفه نحن من التآليف المطبوعة والمخطوطة التي طرقت ذلك الموضوع . وكنا نستقصي البحث والتنقيب ليـــأتي الجواب وافياً شافياً من جميع مناحيـه . ولدينا رسائل كثيرة تُعرب عن رضى السائلين وعن اقتناعهم بما كتبناه لهم من الاجوبة السديـــدة في شتى المواد التي كلّفونا بها .

على هذه الخطة سارت دار الكتب خدمة للعلم وتنشيطاً لروّام البحث حتى اربى عدد اجوبتنا على الثلاثة آلاف كما برهنت عليه تقاريرنا الرسمية المتواصلة التي بعثنا بها الى وزارة المعارف العامّة والفنون الجميلة . وهو عدد لا يستهان به عنـد من يدرك خطورة الابحاث العلمية وما تتطلبه من تنقيب ومراجعـــة كي يأتي الجواب سديداً محكماً .

الفصل الثامن عشر

ما عينته الحكومة للمكتبة من مال ضئيل في موازناتها المتتابعة عاماً بعد عام

لما انتقل هذا المعهد الى حوزة الحكومة اللبنانية في اواخر عام ١٩٢١ عيّنت له منذ السنة التابعة مبلغاً سنوياً من المال لمشترى الكتب وتجليدها . وقد احصينا المبالغ المالية التي قررتها الدولة اللبنانية في السبيل المذكور واثبتتها في موازنتها الرسمية وطبعتها حولاً بعد حول . فكان مجموعها كلها في ثماني عشرة سنة (١٩٢٢ - ١٩٣٩) يساوي زهاء ثلاثة عشر الف ليرة لبنانية فقط . انفق نصفه تقريباً على تجليد الكتب . اما النصف الاخر وقدره ستة آلاف وخمسمائة ليرة لبنانية فلم يُنفق كله في مشترى كتب . لان مديرية المعارف العامّه وعلى رأسها صبحي حيدر[1] استأثرت بحصة من الاموال المعيّنة للمكتبة فوزعتها على بعض المؤلفين والمحاسيب والمتطفلين على موائد الادب وغيرهم . وانفقت الحصّة الاخرى على ما لا علاقة له بدار الكتب مطلقاً كما يتضح ذلك من سجلاتها ومن سجلات وزارة المالية فضلاً عن سجلات دار الكتب .

---

(١) اننا لا نضمر ضغينة لمدير المعارف الاسبق صبحي حيدر، وذلك ضناً بتربيتنا العائلية وعملا بمبادئنا المنصرفة الى الخير والسلام ومحبة القريب . واذا كنا نسبنا اليه شذوذاً وعللا في علاقاته الطويلة مع دار الكتب فلا يقع الذنب كله على هذا الرجل بل على من حوله من ذوي النفوس الصغيرة والافكار العقيمة . وناهيك ان هؤلاء كانوا يؤثرون عليه بما يخترعونه له عن المكتبة وموظفيها من امور غريبة لا تنطبق على الحقيقة . هكذا انقضت السنون الطوال وهم يلعبون من وراء الستار ويكيدون للمكتبة بما لا يتفق مع العدالة وروح الانسانية . ولا غرابة في ذلك لانهم تجاوزوا حدود وظيفتهم وانزلوا الاضرار الجسيمة بالمكتبة والعاملين فيها . ونشكر الله على ان وزارة التربية الوطنية شمرت بذلك كله فابعدت عن دوائرها اولئك المستبدين الذين ضجت السماء والارض من اعمالهم المستنكرة . ولم يكتف اولئك المستبدون بما سبق ذكره بل راحوا يهجون احدى الجرائد الشائنة لنشر المقالات البذيئة عن المكتبة وكبار موظفيها تنكيلاً بهم وابتزازاً لاموالهم . فثارت حفيظة كرام القوم ورجال المروءة والقلم فقاموا يدافعون عن عرين المكتبة واشبالها وهم من صفوة موظفي الدولة بنزاهتهم وامانتهم وثقافتهم . هكذا انتصرت الفضيلة على الرزيلة وسكتت تلك الجرائد السافلة سكوتاً ابدياً جزاء وقاحتها وقباحتها .

وبسبب هذا الاجحاف كابدنا مصاعب ومتاعب جمّة تلافيناهـا بالفطنة والرزانة وطول الاناة . واضطررنا ان نشتري بمالنا من الكتب ما وجدنا الحاجة ماسّة اليه . ذلك لاعتقادنا الراسخ اننا ننهض بواجب مقدس خدمة للعلم وطلابه.

ومن ألمع الشهادات وابلغها على ضآلة المال الذي خصّصته الدولة لدار الكتب ما اثبته في السجلّ الذهبي اوغست باشا اديب رئيس الوزارة اللبنانية.قال بتاريخ ١١ كانون الاول ١٩٣١ ما تعريبه : « اهنّىء امـين دار الكتب ومؤسّسها الفيكنت دي طرّازي بالعمل الباهر الذي انجزه في اقصر وقت وبموازنة ماليّة زهيدة تافهة » .

ونشرت جريدة « النداء » بتاريخ ٩ حزيران ١٩٣٧ ما نصه : « . . . وبقي الفيكونت طرّازي يصرف على دار الكتب من جيبه مـدة ثلاث سنوات حتى قررّت الحكومة جعْلها رسمية وطنية . وخصصت لها القليل القليل من ميزانية الدولة . . . »

وصرّحت جريدة « البلاد » للشيخ يوسف الخازن في ٣٠ تشرين الثاني ١٩٣٨ عا يلي : «نرى انه من التقتير الشديـد والاقتصاد المستنكـَر ان يكون الاعتماد المفتوح في موازنة المكتبة لشراء كتب ومخطوطات ثلاثماية ليرة لبنانية سورية فقط ! اننا لا نعلم ما هي الكتب التي يمكن ابتياعها بهذا المبلغ الزهيد ولا ما هو الفراغ الذي يمكن ان يسدّه في نواقص المكتبة ... فالى هذه النقطة الجوهريّة نسترعي انتباه معالي وزير المعارف لعله يترك اثراً اكثر من الاثر الذي يخلّفه في انشاء مدرسة لقرية من القرى . لان المدرسة القروية قد تفيد وقد لا تفيـد بينما تعزيز المكتبة يفيد البلاد جميعها ويحدّث بمجدها ويدلّ على عظمتها الثقافيـة والادبية » .

تلك كانت حالة المكتبة التي عانت ما عانته من صدمات قاسية انزلت الاضرار الجسيمة بمعهد ثقافي بيّض وجه لبنان ورفع اسمه عالياً في الاوساط العلمية . وقد

تحملنا ذلك كله بصبر جميل حباً بمصلحة دار الكتب العزيزة على قلبنا . ولبثنا السنين الطوال نقاسي ما قاسيناه دون ان نتذمر او نتفوه بكلمة واحدة تزعج المتحاملين علينا بلا حق ولا عدالة . ولكي يطّلع القراء على الفرق العظيم بين المخصصات المالية للمكتبة في الآونة المذكورة وبين مخصصاتها في الآونة الحاضرة يكفي ان نراجع باب موازنة الدولة في عهديها السابق والحاضر . فنرى ان وزارة التربية الوطنية خصصت مبلغ خمسة وعشرين الف ليرة لبنانية لكل من سنتي ١٩٤٨ و١٩٤٩ ومبلغ عشرين الف ليرة لبنانية لسنة ١٩٥٠ لاجل شراء كتب ومخطوطات وتجليدها . اما في عهد ادارتنا للمكتبة مدة ثماني عشرة سنة فلم يتجاوز مجموع تلك المخصصات المالية الثلاثة عشر الف ليرة لبنانية كما يتجلى من موازنات الدولة المتتابعة عاماً بعد عام في الحقبة المذكورة . يتضح من ذلك سخاء وزارة التربية الوطنية على دار الكتب اللبنانية في العهد الحاضر وشح مديرية المعارف عليها في عهدنا السابق .

الفصل التاسع عشر

المتبرعون على دار الكتب

ان ما احرزه معهدنا الكتابيّ من الثقة والاعتبار لدى الخاصّ والعام فتح امامه باب الرقيّ والنجاح على مصراعيه . ومهّد له سبيل الوصول الى تعزيز المعارف في الارجاء اللبنانية والبلدان المجاورة . ولا يغرب عن البال ان تلك الثقة دعت رؤساء الحكومات واعيان القوم وحملة الاقلام في الامصار الشرقية والغربية الى اتحاف المكتبة بانفس المؤلفات . وناهيك ان طائفة صالحة من ذوي الطبقة العاملة نفحتها ايضاً بما تيسر لها من التصانيف المفيدة .

ويطيب لي ان اثبت اسماء بعض السلاطين ورؤساء الحكومات والرجالات البارزين الذين تبرّعوا على هذا المعهد بكمية من الكتب على اختلاف لغاتها وموادها . اخص بالذكر منهم : الاستاذ شارل دبّاس رئيس الجمهورية اللبنانية . وفؤاد الاول ملك مصر . ومولاي عبد الحفيظ سلطان المغرب الاقصى . ومحمد علي العابد رئيس الجمهورية السورية . وكمال اتاتورك رئيس الجمهورية التركية . ومولاي محمّد الحبيب باي تونس . والامير رولان عميد الاسرة البونبرتيّة . وألبرت الاول امير موناكو . والامير محمد عليّ ولي عهد المملكة المصرية . والمرشال ليوتي المقيم الفرنسي العام في مراكش . والداماد احمد نامي بك رئيس الدولة السورية . والاميرَين العلامتَين عُمَر طوسون ويوسف كمال المصريّين . والجهبذَين الكبيرَين احمد تيمور باشا واحمد زكي باشا . وعبدالله باشا صفير في الاسكندرية . وسلّوم مكرزل صاحب جريدة « الهدى » في نيويرك . وداود بك بركات شيخ الصحافة المصرية . وورثة الاستاذ جبر ضومط في بيروت الخ الخ .

وممن تبرّع على معهدنا بطائفـة معتبرة من الكتب : المجمع العلمي العربيّ

والجامعة السورية في دمشق . ودار الكتب المصرية في القاهرة . ومطبعة الاباء اليسوعيين في بيروت . والوزارة الخارجية الفرنسية . ودار الكتب الاهلية في باريس . والمجمع العلمي الفرنسي . وعصبة الامم في جنيف . والحكومة الايطالية في رومة . والحكومة البريطانية في لندن . وقس عليها حكومة تشيكوسلوفاكيا في براغ . ومطبعة "ليدن" في هولندا . ومكتبة برلين الاهلية . وحكومة اليونان في آثينا الخ الخ الخ .

الفصل العشرون

افتتاح دار الكتب اللبنانية في بنايتها الجديدة

كان السابع من شهر حزيران ١٩٣٧ يوماً مشهوداً في تاريخ الجمهورية اللبنانية جرى فيه افتتاح دار الكتب رسمياً في بنايتها الجديدة . ففي الساعة الخامسة بعد ظهر ذلك اليوم توافد المدعوّون من اعيان وادباء ورؤساء الى الاشتراك في هذا المهرجان العلمي . وكان في طليعة الجميع فخامة الاستاذ اميل ادّه رئيس الجمهورية يحفّ به الوزراء والنواب وقناصل الدول واركان الحكومة وكبار رجال الانتداب الفرنسي وارباب الصحافة ورؤساء المعاهد العلمية .

افتُتحت الحفلة بالنشيد اللبناني : « كلّنا للوطن » . وعلى اثره اعتلينا المنبر فرّحبنا بالمدعوّين ولفظنا خطاباً عربياً وزّعناه مطبوعاً على الحضور . ولّخصنا فيه مجمل تاريخ المكتبة منذ نشأتها . ثم أزحنا الستار عن صفيحة مفضّضة عُلّقت في صدر المِدْرس ونُقشت عليها العبارة التالية : « ذكرى افتتاح دار الكتب اللبنانية برعاية فخامة الاستاذ اميل ادّه رئيس الجمهورية اللبنانية في ٧ حزيران ١٩٣٧ » .

وبعد هذا نهض الاستاذ ابرهيم معوّض سكرتير دار الكتب فلّخص خطابنا باللغة الفرنسية . ثم انتصب رئيس الجمهورية فاسترسل في الثناء على جهود امين دار الكتب ومؤسّسها وعلّق على صدره وسام الاستحقاق اللبناني . وتلاه مسيو غبريال بونور مستشار المعارف فاعرب عن اعجاب الدولة الفرنسية بمزايا امين المكتبة وزيّن صدره بوسام المجمع العلمي الفرنسي . فصدحت الموسيقى بالنشيدَين اللبناني والفرنسي .

وقبل الختام راح رئيس الجمهورية وجميع المدعوّين يطوفون في انحاء المكتبة وقاعاتها ويمتعون انظارهم بثروتها الادبية . وقد أعجبوا بما شاهدوه فيها من آثار الجدّ وحسن الترتيب وسلامة الذوق . وتسابق المصورون في التقاط رسوم هذا المهرجان العلمي وعرضوها في الايام التالية في دور السينما . وبرزت صحف الوطن والمهجر طافحة بمقالات بليغة نمّت عن ارتياح الرأي العام واغتباطه بافتتاح اول مكتبة عامة في عاصمة الديار اللبنانية .

وحسبنا تأييداً لذلك ما أدلت به جريدة « الاحرار » في سان باولو بالبرازيل بتاريخ تموز ١٩٣٧ قالت : « دار الكتب الاهلية اللبنانية هي اليوم من شهيرات المكاتب العامة العالمية تضاهي دور الكتب في عواصم اوربا . وربما فاقت الكثير منها بآثار الشؤون الشرقية . وهذه الشهرة وهذا التفرّد اللذان اجتمعا لها يعود الفضل فيهما الى اللبناني الامثل النبيل، ورجل العلم والثقافة الممتازة الفيكونت فيليب دي طرّازي منشىء هذه الدار . وقد اقامها مجداً للبنان وللشرق واثراً يخلّد ذكره الى ما شاء الله تعالى . ولسنا نجازف بالاشادة بذكر الفيكونت فلقد قرأنا اقوال مشاهير المستشرقين الاعلام والعلماء الذين رأوا دار الكتب . فاعربوا عن اعجابهم ودهشهم مما اشتملت عليه من الاثار النادرة العلمية . وغبّطوا لبنان والبلاد الشرقية على هذا المتحف الادبي . كل ذلك بفضل الفيكونت الذي جال الاقطار سعياً وراء النادر من المؤلفات . وبذل من ماله وتجشّم الاسفار وهو لا يطلب الشهرة بل يطلب العلم لاجل العلم وتمجيده واقامة هياكله في وطن احبّه الحب الخالص . فوضع الفيكنت فوق هامة امته اكليلاً لا تضاهيه التيجان وجعل في يدها صولجاناً يفوق صوالج الملوك ! »

وكتبت جريدة « الاتحاد العربي » ما نصه : « لا نغالي والحق يقال ان من اشهر علماء هذا العصر وارفعهم منزلة واوسعهم ثقافة هو الفيكنت فيليب دي طرّازي صاحب المؤلفات الشهيرة ومؤسس دار الكتب الكبرى . . . استطاع

بفضل همته الجبارة ونشاطه الخارق ان يؤلف من الكتب مئات العقود احتوتها مكتبته العامرة . وهي التي تسمّى اليوم باحرف ذهبية « دار الكتب الكبرى » في الجمهورية اللبنانية . والتي اصبحت محجّ اهل العلم والادب ومقصد كل بحّاثة ومؤرخ ... ان هذا المشروع القيّم الذي يسجله له التاريخ العربي اللبناني باحرف من ذهب ... هو خير هديّة يقدمها عالم اريحي نبيـــل الى الامة اللبنانية . . . وللفيكنت دي طرّازي اياد بيضاء لا تحصى على مختلف المشاريع العلمية الوطنية. فهو الاديب الوحيد الذي يشمل الادب بالنظرة الانسانية » .

الفصل الحادي والعشرون

زوار دار الكتب اللبنانية

غدت دار الكتب في مختلف ادوارها محجاً للعظماء والعلماء ومزاراً للسيّاح والمستشرقين يتقاطرون اليها من البلدان القريبة والبعيدة . ويشرفون على ما احتوته رفوفها من الاسفار والموسوعات ويدهشون بما دُبجت به جدرانها من الرسوم التاريخية . وكانوا قبيل انصرافهم يسارعون الى مصافحتنا محبورين ويطلبون سجل المكتبة الذهبي فيفرغون فيه ما فاضت به قلوبهم والسنتهم واقلامهم من العواطف الشريفة . وقد حوى السجلّ المومأ اليه اسماء فريق من اعضاء الاسر المالكة والوزراء والسفراء واقطاب الدين ورؤساء المعاهد العلمية وقناصل الدول وكبار ضباط الجيش وارباب الثقافة والصحافة وغيرهم وغيرهم .

والى القارىء اسماء فئة من كبار اولئك الزوّار مع تاريخ زيارتهم :

اولا – حكّام لبنان الكبير ورؤساء الجمهورية اللبنانية واحداً فواحداً بدءاً من الكومندان البرت ترابو حتى الاستاذ الفرد نقاش (١٩٢١ – ١٩٤١) .

ثانياً – المندوبون السامون للدولة الفرنسية بدءاً من الجنرال غورو حتى مسيو غبريال بيو (١٩٢١ – ١٩٤٠) .

ثالثاً – الامير اوليموني دي سافويا ابن عم ملك ايطاليا بتاريخ ١ كانون الاول ١٩٢٤ .

رابعاً – البرنس يوحنا ولي عهد مملكة الساكس في المانيا بتاريخ ٢٥ اذار ١٩٢٧ .

خامساً – الاميرة اليانا شقيقة كارول الثاني ملك رومانيا سنة ١٩٢٧

سادساً – عبد القادر آل باش اعيان العباسي من سلالة الخلفـــاء العباسيين القاطن في البصرة بتاريخ ٨ تموز ١٩٣٨ .

سابعاً – محمد الحسين آل كاشف الغطاء في النجف الاشرف وهو كبير علماء ابناء الشيعة في العراق ٢٠ شعبان ١٣٥٠ للهجرة .

ثامناً – مفتي الجمهورية اللبنانية الاكبر الشيخ محمد توفيق خـــالد وقاضي مذهب الدروز الشيخ ملحم حمدان في ٢٣ شباط ١٩٣٩ .

تاسعاً – البطريرك اغناطيوس افرام الثاني رحماني تعهد المكتبة في فترات شتى .

عاشراً – غريغوريوس الرابع بطريرك الروم الارثوذكس واساقفتـه سنة ١٩٢٨ .

حادي عشر – اغناطيوس افرام الاول برصوم بطريرك السريان الارثوذكس واساقفته في ٥ ايار ١٩٣٣ .

ثاني عشر – انطون يطرس عريضة بطريرك الموارنة واساقفته في ٢٠ نيسان ١٩٣٧ .

ثالث عشر – الكردينال اغناطيوس جبرائيل الاول تبوني بطريرك السريان ١٨ حزيران سنة ١٩٣٧ .

رابع عشر – رؤساء المجامع العلمية واعضاؤها .

خامس عشر – الوزراء والسفراء ورؤساء المجالس النيابية واعضاؤها .

سادس عشر – رؤساء الجامعات والمدارس واساتذتها وطلبتها ذكوراً واناثاً .

سابع عشر – ارباب الصحافة ومحرّروها ومراسلوها .

ثامن عشر – رؤساء المحاكم ومستشاروها .

تاسع عشر – المحامون والمهندسون والاطباء والصيادلة .

عشرين – ارباب الصنائع والحرف والفنون .

ولولا ضيق المقام لسردنا ما دوّنه اولئك الاقطاب في السجل الذهبي المشار اليه من الاقوال المأثورة التي اعربت عن اعجابهم واغتباطهم . وقد سبقنا فاثبتنا بعضها في الفصل الرابع وفي غيره من هذه اللمحة التاريخية . وهي في الحق بيّنات ناصعات تبرهن على ما اصابته دار الكتب في بيروت من المكانة الرفيعة في عالم الثقافة . وهي التي حدتنا على ان نسير بها الى الامام بخطى سريعة راسخة مردّدين قول القائل :

نبني كما كانت اوائلنا   تبني ونفعل مثلما فعلوا

الفصل الثاني والعشرون

كتابنا « دليل تنسيق الكتب »

سوى ما بذلناه من الوسائل المادية في سبيل دار الكتب علـى ما مرّ شرحه وتفصيله فقد عُنينا بوضع دليل فنّي يُصبح دستوراً لموظّفيهـا في تنسيق كتبها وتنظيم وثائقها ولوائحها . وهذا الدليل هو زبدة دروس متواصلة وابحاث جدّية لا يستخلصها الا مَن عنّى النفس في اشغال المكتبات وعجَم مصاعبها وتعمّق في درسها .

ولبلوغ تلك الغاية شرعنا ننقب عن مصنفات حوت طرائق متعددة لتنسيق الكتب انتهجها قبلنا مدراء المكتبات العامرة في بلاد الغرب . فتفرّغنا لمطالعتها وغُصنا على دقائقها حتى وقع اختيارنا على انتهاج طريقة التنسيق العشريّ. فقررنا ان نتخذها دعامة لمشروعنا لاعتقادنا انها ستبعث روح التجدد في نظام المكتبات العربية .

ففي هذا الدليل العربي الفريد تبسّطنا في مواضيع العلوم تبعاً للطريقة العشرية. فقسمناها عشرة اقسام او عشرة اصول كبرى لكل منها فروع . ولتلك الفروع فروعُ فروعٍ ثم اجزاء فروعِ فروعٍ يتسلسل بعضهـا من بعض تسلسلاً فنياً لا يحتمل التأويل والخطأ . ولكل من تلك الاصول والفروع والاجزاء رقم مستقلّ خاص به دون سواه . ذلك سوى ما يمكن ان ينشأ عن تلك الاجزاء من العلوم بطريقة التسلسل العشري الى ما لا نهاية له .

واصطلحنا في المستحدثات العلمية الفرنجية على اوضاع عربية تطابقهـا وتؤدي معناها المطلوب . لان المعاجم العربية قديمها وحديثها خالية من مثل تلك الاوضاع

التي ازدادت في عصرنا ازدياداً مفرطاً . وقد اخذت العلوم فيه تتناول كل ما فوق الارض وفي جوف الارض وما كان فوق الماء وتحت الماء وما كان في الجوّ وفوق طبقات الجوّ .

وفي كل ذلك حافظنا على ما سبق ائمّة العرب فاصطلحوا عليه من مسمّيات العلوم والفنون والصناعات التي عرفوها واختبروها وكتبوا عنها ايام بسطتهم وعزّهم . فجاء هذا المؤلّف الجديد مستوفى في ترتيبه وتبويبه . واطلقنا عليه عنوان « ارشاد الاعارب الى تنسيق الكتب في المكاتب » . وافتتحناه بمباحث عامة عن تنسيق العلوم والكتب والفهارس عند العرب . وهي مواضيع جديدة لم يتفرّغ لها كاتب قبل الآن .

الفصل الثالث والعشرون

كتابنا « خزائن الكتب العربية في الخافقين »

هو عنوان لكتاب تجلّت فيه عظمة الحضارة والثقافة عند العرب . صرفنا شطراً كبيراً من الحياة في جمع مواده وتأليفه وترتيبه . وقد تقدمتْ الينا بذلك وزارة المعارف اللبنانية لِما تحققته عن شغفنا بالمكتبات وعن اطّلاعنا على اخبار خزائن الكتب العربية في مختلف الامصار . ذلك بقطع النظر عن حرصنا الشديد على كرامة دار الكتب اللبنانية وعن تفانينا في نموّها وشرف اسمها وحسن سمعتها.

بادرنا الى تحقيق رغبة الوزارة فثابرنا على العمل للفوز بتلك الامنية التي رحّب بها العلماء وارباب الفضل . وانطوى الكتاب من اوّله الى آخره على مواد طريفة نادرة تتضح لمن يطالع ابوابه وفصوله التي نلخصها في ما يلي :

اشتمل كتاب « خزائن الكتب العربية في الخافقين » على ١٨ باباً يصلح ان يكون كل منها كتاباً قائماً برأسه نظراً الى غزارة مواده ووفرة مواضيعه .

انطوى الباب الاول على مقدمة وثمانية فصول : ذكرنا في الفصل الاول خلاصة علوم العرب في الجاهلية وفي صدر الاسلام . فوصفنا وصفاً دقيقاً لِحفظهم وتدوينهم وخطوطهم ومجالسهم واسواقهم واستفحال دولتهم . وتبسّطنا في الفصل الثاني في وصف القرآن وتأثيره واجماع السلاطين وارباب الدين والدنيا على تعظيمه . واوردنا خلاصة ما نشره عنه علماء النصارى، وعدّدنا المتاحف التي انطوت على انفس مخطوطاته واقدمها واثمنها واغربها الخ الخ . وتكلمنا في الفصل الثالث عن حالة البلاد الشرقية قبل الفتح العربي وخصّصنا الفصلين الرابع والخامس بثقافة شعوب البلاد التي فتحها العرب وعدّدنا بعض مدارسهم ومعاهدهم. وذكرنا

في الفصلين السادس والسابع نَقْل العلوم الدخيلة الى اللسان العربي ومصادرها ومشاهير نقَلتها . وُختم هذا الباب بفصل ثامن عن عصر النهضة العربية الذهبي .

واحتوى الباب الثاني ثلاثة فصول في تكوين الخزائن العربية وانتشارها واندثارها . فتحدثنا فيها عن تنافس علماء العرب وخطّاطيهم ومجلّدي كتبهم واندفاعهم الى تجهيز المكتبات وتعزيزها .

واشتمل الباب الثالث على ٣٣ فصلاً عدّدنا فيها اخبار ٢٩٥ مكتبة اسلامية عامّة في بلاد اسيا وافريقيا والاندلس . فوصفناها مكتبة بين قديمة وحديثة . وألمعنا الى ثروتها وذخائرها ومعارضها واعتناء الملوك والامراء والادباء بشؤونها .

وتحدّثنا في الباب الرابع المشتمل على ١٤ فصلاً عن المكتبات الاسلامية الخاصة . فتوسّعنا في وصفها توسّعنا في وصف المكتبات الاسلامية العامّة . وبلغ عددها ٣٦٢ خزانة ذكرنا اخبار مؤسّسيها واحصينا عدد مجلداتها يوم عزّها وما حلّ بها من الرزايا على كرور الازمنة .

واثبتنا في الباب الخامس اهم المكتبات النصرانية في الاصقاع الشرقية . فوصفنا مكتبات السريان المشارقة والمغاربة والملكيين والموارنة والاقباط . ثم مكتبات السريان الكاثوليك والكلدان والارمن واللاتين والبروتستنان . وقد اناف عددها على ٢٠٠ مكتبة انشئت في الكنائس والاديار والمدارس وبيوت الافراد .

وتطرّقنا في الباب السادس الحاوي ثمانية فصول لوصف مكتبات بيروت العامة كمكتبة المجلس البلدي ومكتبة القضاة ومكتبة نقابة المحامين وغيرها من المكتبات التي طوى عليها الزمان .

واسترسلنا في الباب السابع لوصف المكتبات العربية في اوربا . فذكرنا

تباعاً في فصوله الثلاثة عشر اهتمام البابوات والملوك بتعزيز اللغة العربية واعتناءهم بادّخار مخطوطات العرب . ونوّهنا بمعارض تلك المخطوطات فيها ووصفنا ثروتها. واحصينا احدى عشرة خزانة عربية لفريق من اللبنانيين والسوريين في انحاء اوربا . ولم ننسَ وصف خزانة ابنتنا جان طرازي في باريس وقد حوت زهاء مائتي مخطوط عربي اكثرها نادر وبعضها مزيّن بالصور ومزوّق بالزخارف . ثم عدّدنا عشرين مكتبة انشأها في اوربا كبار المستعربين وعلماء المشرقيات. واردفناها بذكر فهارس المخطوطات العربية في مكتبات اوربا وعدد مجلدات كل منها .

وحصرنا بحثنا في الباب الثامن عن المكتبات العربية في اميركا الشمالية واميركا الجنوبية . فصّرحنا بان مكتبة نيويرك هي اغنى خزانة للكتب العربية لا تفوقها في تلك الثروة الا دار الكتب المصرية ودار الكتب الازهرية والمكتبة الشرقية للاباء اليسوعيين في بيروت .

وخصصنا الباب التاسع بالمكتبات الاسرائيلية فذكرنا جهود اليهود في خدمة اللغة العربية على عهد الخلفاء العباسيين والفاطميين والخلفاء الامويين في الاندلس . وسردنا اخبار مشاهير علمائهم واطبائهم في شتى الامصار . ووصفنا خزائن كتبهم ولاسيما دار كتب الامة اليهودية والجامعة العبريّة في اورشليم .

واستقرأنا في البابين العاشر والحادي عشر اخبار غلاة الكتب وهواة المكتبات مسلمين ومسيحيين منذ القرن الثاني حتى القرن الرابع عشر للهجرة . فاشتمل الباب العاشر على ١٤ فصلاً اربى فيها عدد هواة الكتب المسلمين على السبعين . واشتمل الباب الحادي عشر على تراجم ٢٣ من غلاة الكتب المسيحيين.

واوردنا في الباب الثاني عشر عشرة فصول عدّدنا فيها مشاهير خزنة دور الكتب في عصر الارتقاء العربي . فاناف عددهم على ٧٠ خازناً في سوريا ولبنان والعراق وفارس ومصر والاندلس واليمن والحجاز حتى الهند .

وتحدثنا في الباب الثالث عشر عن جهابذة شرقيين تولوا منذ القرن السابع عشر ادارة المكتبات الشهيرة في اوربا واميركا. وبلغ عددهم عشرة ترأسوا على مكتبات الفاتيكان وفلورنسا ومدريد والاسكوريال وعلى المتحف البريطاني ومكتبة ريلاند في منشستر ومكتبة برمنغهام بانكلترا وخزانة القياصرة ودار الكتب السلطانية في قسطنطينية ومكتبة جامعة برنستون في اميركا.

واستقصينا البحث في الباب الرابع عشر عن المخطوطات العربية والعاملين فيها في ١٥ فصلًا: فتكلمنا عن مزاياها ونفائسها. وعن الوراقة والورّاقين وعن نوابغ الخطاطين والخطاطات وغرائبهم. وعن النساخة والطباعة وبواكير المطابع والمطبوعات العربية. وعن مشاهير النساخ قديماً وحديثاً. وعن الضبط والاتقان في نساخة الكتب. وعن التنافس في تأليف الكتب واستكثار نُسخها. وعن صناعة تجليد الكتب واشهر اسواقها وتجارها وعشاقها. وعن سخط مشايخ المسلمين واحبار النصارى على سرّاقي المخطوطات. وعن اعارة الكتب واستعارتها

اما الباب الخامس عشر فقد افرزناه للمخطوطات العربية المصوّرة والمذوّقة. فوصفناها في ١٨ فصلًا تتناول مصوّرات الكيمياء والطب والادب والتاريخ والرحلات والعلوم الحربية والبحرية والصناعية والميكانيكية والجغرافية. ومصوّرات المخطوطات الدينية اسلامية ومسيحية. ومصوّرات النجامة والسحر والهندسة واللغة والنبات والفلك والفروسية والصيد والبيطرة والموسيقى الخ. ونظن اننا لم نهمل مخطوطاً عربياً مصوّراً او مزوّقاً الا تحرّينا استقصاء البحث عنه في خزائن الشرق والغرب ونوّهنا بمزاياه واشرنا الى مكان وجوده واذا فاتنا شيء من ذلك فهو نادر والنادر لا يقاس عليه.

واسترسلنا في الباب السادس عشر نعدّد الرزايا والفواجع التي حلّت بالكتب وخزائنها الشهيرة منذ العصور الخوالي حتى اليوم. فاثبتنا اكثر من مائتين

وخمسين رزيئة او فاجعة من الوف الفواجع التي ألمّت بالكتب والمكتبات حرقاً او غرقاً او نهباً او تدميراً او دفناً او تبديداً او اتلافاً الخ الخ . وقد شرحنا اخبارها شرحاً دقيقاً وافياً مؤثراً في نحو ٥٠ فصلاً .

وافرزنا للباب السابع عشر سبعة فصول تكلمنا فيها عن النوازل الادبية بالكتب والمكتبات . فتحدثنا عن اعدائها ولصوصها وخوّنتها ومحرّفيها ومصحّفيها ومنتحليها والعابثين بها . واستقبحنا تصرّف الرهبان في مكتبات الاديار وعبثهم في مخطوطاتها وتغاضيهم عن صيانتها ونظافتها . واستهجنا سوء الائتمان على المكتبات واختلاس الكتب المستعارة . وختمنا هذا الباب بتفجعنا لِما فقده عالم الادب بسبب ذلك من الكنوز الكتابية الغالية .

وخصصنا الباب الثامن عشر لدار الكتب اللبنانية التي انشأناها في بيروت .

الفصل الرابع والعشرون

لماذا احجمنا عن طبع الكتابين المشار اليهما

اوردنا في الفصلين الثاني والعشرين والثالث والعشرين زبدة الكتابين اللذين الفناهما اجابة الى اقتراح مديرية المعارف العامة والفنون الجميلة وهما: كتاب « ارشاد الاعارب الى تنسيق الكتب في المكاتب ». وكتاب « خزائن الكتب العربية في الخافقين ». وصرّحنا بان الذين تتابعوا في راس تلك الادارة وزراء ومدراء اوعزوا الينا ان نقوم بتأليف الكتابين ونشطونا الى متابعة العمل حتى النهاية. وكان تنشيطهم يُضرم فينا جذوة الهمم لنضاعف الجهود في المطالعة والبحث والتنقيب مهما كلفنا ذلك من تضحية ومال وسهر. ولم تتأخر الحكومة اللبنانية عن ان تخصص في موازناتها المطبوعة حولا بعد حول مبلغاً من المال لطبع الكتابين

انجزنا التأليف بحوله تعالى فكتبنا بتاريخ ٢٦ تشرين الاول ١٩٣٦ الى صبحي حيدر مدير وزارة المعارف نبشره بالامر. وضممنا الى رسالتنا فهرس الكتاب الثاني وهو يقع في مئة صفحة مع مختصر الكتاب الاول. وافدناه ان بعض علماء المشرقيات وقفوا على مضامين الكتابين وفاوضونا في ترجمتهما ونشرهما في اوروبا تعميماً لفوائدهما.

فما كان من المدير المشار اليه الا ان فاجأنا في ٣ تشرين الثاني ١٩٣٦ تحت عدد ٢٦١٧ بجواب لم يكن في الحسبان ولا خطر ببال انسان فقد حتم ان يوضع اسم مديرية المعارف والفنون الجميلة في صدر الكتابين بدلا من اسمنا. فاستغربنا حكماً كهذا يصدره رئيس دائرة ثقافية رسمية. وهو يعلم حق العلم ان حذف

اسم المؤلف من صدر تاليفه يعد في نظر المنصفين جريمة كبرى . لان للمؤلفين حقوقاً شرعية لا يستطاع القضاء عليها بكلمة او بجرة قلم . وهو يعلم ايضاً ان هذين الكتابين ليسا الا ثمرة ناضجة من ثمرات ابحاث عميقة . وانهما ملك صرف لمؤلفهما في حياته ولاسرته من بعده لا يقاسمه اياهما شريك ولا ينازعه فيهما منازع.

ولا ندري ما الذي حمل صبحي حيدر مدير الوزارة على ان يحذف اسمنا من كتاب صنّفناه نحن وانفقنا عليه ما انفقنا من اتعاب واكلاف واسهار واسفار مدة اعوام عديدة . وقد سبقت وزارة التربية الوطنية فنشرت لحسابها كتباً شتى تحمل اسماء مؤلفيها او ناشريها ككتاب « غرر الحسان » وكتاب « تاريخ الامير فخر الدين المعني » الخ . وما اكتفت بذلك بل درّت المكافآت الادبية والمالية على كثيرين من المؤلفين والناشرين والمحاسيب وغيرهم .

هذا ولو سلمنا جدلا بحذف اسمنا من صدر كتابنا وكان الكتاب يحوي اغلاطا تاريخية او فنية او لغوية او احصائية او غيرها فعلى من تقع تبعة تلك الاغلاط ؟ انها تقع بلا ريب على نفس الوزارة التي تنشر الكتاب باسمها فتصبح هي المسؤولة عن اغلاطه دون المؤلف وبالتالي تكون هدفاً لانتقادات جارحة تصوّب نحوها بكل حق وعدل . وليس لاحد من موظّفيها وعلى راسهم صبحي حيدر ان يدافع عن اغلاط الكتاب او يتنصّل من تبعتها . وما ذلك بمستغرب لانهم لا المام لهم بمواضيع هذا التأليف ومصادره ومراجعه بل لا ناقة لهم ولا جمل في تنظيمه وتبويبه .

فعلى اثر تقرير مدير الوزارة صبحي حيدر كما ذكرنا . وعلى اثر حتمه غير القانوني وعلى اثر معاملته الشاذة التي لا يقرّها العقل ولا تستند الى المنطق احجمنا عن تسليم مخطوطة كتابَينا المذكورَين اليه . واستنكرنا طبعهما على تلك الصورة المجحفة بحقوقنا المشروعة وبكرامتنا العلمية .

فلو اقترحت علينا الحكومة اللبنانية الجليلة بطريقة تُحفظ فيها الكرامات ان

نتنزّل لها عن حقوقنا في التأليف وفي غير ذلك ايضاً فاننـــا لن نتأخر عن ان نضحي لها باكثر مما تطلبه. بل نُقدم على ذلك بلذة فائقة راضين حامدين مسرورين. وقد ادّينا لها في جميع مواقفنا براهين لامعة عن ولائنا ووفائنا واخلاصنا وسلامة طويّتنا.

الفصل الخامس والعشرون

ترحيب الادباء والمجامع العلمية بهذين الكتابين

اطّلع على هذين التأليفين فريق من المفكّرين الذين شاهدونا مكبّين على وضعها . واقترح احدهم ان نبيعه احدهما او كليهما بمبلغ من المال فلم نكترث لاقتراحه . لاننا لم نقصد من تأليفهما ربحاً مادياً بل توخينا افادة ابناء الضاد وتعزيز مكانة دار الكتب اللبنانية .

اما الادباء ورؤساء المجامع العلمية الذين تصفحوا الكتابين فقد اعربوا عن اعجابهم بمضامينهما ونشروا ما نشروا في وصفهما على صفحات المجلات والجرائد . وهي بيّنات صادقة صدرت عن جهابذة اشتهروا بالرصانة والحصافة وسعة المعارف لا يرمون الكلام على عواهنه . وفي طليعتهم العلامة الكبير الاستاذ محمد كرد علي رئيس المجمع العلمي العربي في دمشق . فقد وقف على الكتابين ونشر عن احدهما وهو « خزائن الكتب العربية في الخافقين » مقالة ضافية في عشر صفحات افتتحها بقوله(٢) :

هذا سفر عظيم عُني الاستاذ الفيكنت فيليب دي طرازي احد اعضاء المجمع العلمي العربي بتأليفه منذ اكثر من خمسين سنة . فجاء في ازيد من الف وثلاثمائة صفحة كبيرة ... وقد ضمّنه ابحاثاً مشبعة عن خزائن الكتب العربية قديمها وحديثها . وذكر اخبار مؤسسيها ومعزّزيها والعاملين فيها في اربعة اقطار المعمورة .

---

(١) مجلة المجمع العلمي العربي : مجلد ١٦ سنة ١٩٤١ صفحة ٧ — ١٦

« هذا كتاب فريد في بابه مبتكر في موضوعه لا اعلم اديباً من ادباء العرب ومؤرخيهم سبق الى تأليف مثله فصنف مؤلفاً مفصلاً عن خزائننا العربيـة وعن مؤسسيها ومحتوياتها وعما آل اليه امرها . ويظهر لي من لائحته انه منطوٍ عـلى فرائد وشوارد وعلى طرائف ولطائف . ولقد طالع مؤلفـه زهاء سبعمائة كتاب من مؤلفات الاوائل والاواخر فغربلها وانتخلها حتى صفّى منهـــا ما صفّى كما يشاهد في الهوامش التي علقها على الكتاب من بدايته الى خاتمته . وقد سدّ به ثلمة فوهاء في التاريخ والادب معاً ... »

واختتم رئيس المجمع العربي مقالته بما يلي : هذا هو الكتاب الفريد الذي جدّ صديقي العالم طرازي في جمعه ووضعه . وانفق الدنانير في انشائه . وفتل الليالي في تنسيقه وضبطه . وهو بلا ريب ثمرة ناضجة من ثمرات ابحاثه الدقيقة ومطالعاتـه المستمرة مدة تنيف على نصف قرن . ولم يتوخّ المؤلف من تعبه هذا كله الا ان يخدم العلم ويعرّف ابناء الضاد ثروة الآباء والاجداد . جزاه الله عن عمله افضل جزاء ومدّ له في الحياة ليرى كتابه وقد اخرج للناس يجنون فوائده » .

وممن تصفح هذا التأليف واعجب به الدكتور العـلامة بشر فارس المعروف بابحاثه الدقيقة وآرائه الناضجة . فانه نشر على صفحات مجلة المقتطف(١) مقـالا مستوفى افتتحه بقوله :

« هو كتاب لاأعرف له اخاً في لغتنا : غزير المادة موفور الفائدة ... مرتّب احسن ترتيب متناسق التبويب مشبّع الفصول . وامـا اسلوبه فجامع للوضوح والاحكام وللسهولة والدقة .

وختم الدكتور بشر فارس مقاله بهذه العبارة : « ذلك هو الكتاب المخطوط الذي وقع بين يدي ... وقد بلغ اعجابي به واكباري له مبلغاً لم أرَ معه منصرفاً

---

(١) المقتطف : سنة ١٩٤٢ شهر مايو بعنوان « كتاب فريد جامع » .

عن ان اسوق امره الى قرّاء المقتطف. ومما ينبسط اليه املي ان يذيع هذا الكتاب في الناس وصاحبه بقيد الحياة . وما اظن حكومة الجمهورية اللبنانية بضانّة عن النهوض بمثل هذا السعي . فيه تشكر لواحد من رجالات لبنان الاشم بذله المتصل في سبيل قومه وانصرافه الى العلم البحت . وبذلك ايضاً تُعلي من شأن اللغة العربية وتخدم آدابها وتنشر آثارها .

ونضيف الى الجهدَين المار ذكرهما جهداً ثالثاً له مقامه الرفيع بين العلماء . عنيتُ به احمد عاصم بك المدير العام لدار الكتب المصرية . فقد اطّلع هو ايضاً على مؤلفي المذكور وبعث اليّ برسالة مؤرخة في ٢٢ كانون الثاني ١٩٤٦ ورد فيها ما يلي: « انه كتاب جليل الفائدة عظيم النفع يسدّ فراغاً كبيراً من الناحيتَين التاريخية والادبية في المكتبة العربية بما بذلتم فيه من المجهود الجبّار نتيجة لدرسكم واطلاعكم . اذ انكم مشكورون كل الشكر من عامّة العلماء والباحثين لم تتركوا فيه شاردة ولا واردة مما تمسّ هذا الموضوع او تتصل به الا احصيتموها ودوّنتموها فيه ... ولهذا فان دار الكتب المصرية تحرص كل الحرص على ان ترجوكم ان يكون كتابكم هـذا بين نفائسها ليكون مرجعاً من المراجع التي يرجع اليها العلماء في ابحاثهم ... » .

ولما تولى الاستاذ جورج بك حيمري مديرية وزارة التربيه الوطنية والفنون الجميلة ووقف عـلى العراقيل التي اقيمت لمنع طبع الكتابين المذكورين اظهر استياءه واوعز الى الحكومة ان تنشرهما على نفقتها اعلاء لشأن العلم وتعزيزاً لدار الكتب .

هكذا تم طبع هذين الكتابين اللذين انتشرا بـين الادباء واهديا الى اشهر المكتبات شرقاً وغرباً .

الفصل السادس والعشرون

انصاف وزارة التربية الوطنية واهتمامها بطبع الكتابين المذكورين

مرت عشرة اعوام على الحكم الجائر الذي ابتدعه المدير صبحي حيدر في حذف اسمنا من صدر كتابين صرفنا السنين الطوال في تأليفها وجمع موادها فكان ذلك داعياً لاستياء الحكماء والعلماء واستنكارهم حكماً لا ينطبق على العدل والمنطق. ولبثت الحال على هذا المنوال طول المدة المذكورة فوقفت حركة درس الكتب وتنسيقها تبعاً للطريقة الفنية التي اتخذناها دستوراً لتنظيم سير الاشغال في المكتبة. وقد تنبهت وزارة التربية الوطنية الى الحيف اللاحق بهذا المعهد الثقافي فراحت تعالج ذلك بالحكمة والفطنة واخذت تفاوضنا لاجل طبع الكتابين على نفقتها .

يتضح ذلك من التقرير الرسمي الذي رفعه الى الوزارة امين المكتبة الاستاذ ابراهيم معوض وهذا نصه :

عدد ١٠٧١٨

تقرير لاجل طبع الكتابين : ارشاد الاعارب الى تنسيق الكتب في المكاتب . وخزائن الكتب العربية في الخافقين .

معالي وزير التربية الوطنية والفنون الجميلة المحترم

جواباً على توديعكم الكريم رقم ٢٣٤١ بشأن موافقة وزارة التربية الجليلة على طبع دليل تنسيق الكتب العربية الذي وضعه العلامة الفيكونت دي طرازي امين دار الكتب السابق، افيد معاليكم انني اتصلت بحضرة الفيكونت واطلعته على هذه الموافقة وسألته وضع مؤلفه المذكور تحت تصرف الحكومة اللبنانية لاجل مباشرة طبعه، فوافق للحال على هذا الامر وسلمني الدليل الفني للطبع قائلاً

لي : انني نزولا عند رغبتكم قدمت هـــذا الجزء من كتابي « ارشاد الاعارب لتنسيق الكتب في المكاتب » وانا مستعد لتقـديم الجزء الاخر الذي هو الذبدة التاريخية والتكملة العلمية له (والجزء الاهم) وقد صرفت عـلى وضعه عشرات السنين منقباً باحثاً عن اخبار المكاتب العربية في الخافقين وما احتوته من كتب وكنوز ومصنفات وتحف وعن حياة كل منها وهي تزيد عن سبعماية مكتبة امـا عدد صفحات هذا الكتاب فتربو على ١٣٠٠ صفحـة ضمت كل شاردة وواردة من اخبار المكاتب المذكورة من حين وجودها حتى اليوم فيمكن لوزارة التربية الجليلة ولدار الكتب اللبنانية نشر هذا السفر الفريد في بابه وسوف يكون موضع فخر واعتزاز لها باخراجه الى عالم الوجود .

وهنا اسمحوا لي يا معالي الوزير، دلالة على قدر الكتاب المشار اليه ان اذكر بعض فقرات من التقريظ البليغ الذي وضعه له العلامة الكبير الاستاذ محمد كرد علي رئيس المجمع العلمي العربي في دمشق وقد استغرق هذا التقريظ عشر صفحـات كاملة في مجلة المجمع العلمي العدد ١ و ٢ من المجلد الثـالث عشر سنة ١٩٤١ وهي (من صفحة ٧ الى ١٦) (راجع الفصل الخامس والعشرين من هذا الكتاب حيث ورد هذا التقريظ بنصه) .

لهذا، وبعد هـذا التقدير الساطع من رئيس المجمع العلمي العربي ومن كبار العلماء امثال العلامة الدكتور بشر فارس الذي قرّظ الكتاب ايضاً بما يستحقه من تقدير ارى من دواعي الغبطة والفخر لوزارة التربية الجليلة ولدار الكتب اللبنانية نشر هذا السفر النفيس الذي يعد بحق تحفة تاريخيـــة نادرة وجوهرة من جواهر الادب الناضج يتوج جهودهما ويعرب عن حسن النقاء وزارتنا الجليلة الابحـاث المفيدة النادرة التي لها وزنها في عالم الادب والتاريخ .

وبناء عليه ارجو الموافقة على طبع هـذا الدليل التاريخي النفيس الذي هو بمثابة الجزء الاول والاهم من الدليل الفني، ثم مخابرة واضعه العلامة الكونت دي

طرازي بهذا الصدد كي يصير استلامه منه رسمياً وتحديد عـــدد النسخ المطلوب طبعها من كل من الجزئين المذكورين .

وهنا ارى من اقدس واجبات عرفان الجميل والتقدير ان تتوج الوزارة الجليلة هذه المنشورات باسم مؤلفها الفيكونت دي طرازي اقراراً بفضله وايفـاء لحقه كمؤلف .

وبالمناسبة افيد معاليكم ان نسخ هذا الكتاب القيم سوف تكون نواة معتبرة لمبادلات دار الكتب مع دور العلم والنشر بحيث تساعدها على استهداء منشورات تلك الدور ومؤلفات اكابر العلماء في الشرق والغرب .

هذا ما نأمل تحقيقه برعاية معاليكم وسهركم على تعزيز دار الكتب السائرة في طريق النمو والازدهار انشاء الله .

تفضلوا بقبول فائق احترامي

بيروت في ٢٥ ايار سنة ١٩٤٦

امين دار الكتب الاهلية
ابرهيم معوّض

الفصل السابع والعشرون

العراقيل في طريق دار الكتب

اعترض المكتبة في عهد ادارتي لها عراقيل وعراقيل كثيرة يطول بنا تعدادها. منها قلّة المال وعداوة البعض من ذوي الجهالة وضآلة عدد الموظفين في المكتبة والتضييق عليهم وحرمانهم الزيادات القانونية على رواتبهم مدة اثنتي عشرة سنة خلافاً للعدل والحق وبلا مسوّغ شرعي . ومنهـا اضطرار عمّال المكتبة الى الاشتغال كل يوم في ابّان القيظ زهاء ثلاث ساعات بعد الظهر علاوة على اشتغالهم في ساعات العمل الرسمية صباحاً . ذلك خلافاً لانظمة جميع مكتبات العالم شرقاً وغرباً ولنظام سائر الموظّفين في الدولة اللبنانية .

ومن تلك العراقيل : اننـا بعد ما كُلّفنا رسمياً ان نضع دليلاً مستوفى لتنسيق الكتب في المكتبة، وبعد انقطاعنا عشرات السنين الى تأليفه وتبويبه والى تاليف كتاب « خزائن الكتب العربية في الخافقين » ، وبعد انفاقنا عليهما مبالغ ليست بيسيرة من جيبنا الخاص وتجهيزنا الكتابين للطبع ُنصبت العراقيل لمنع طبعهما ونشرهما كما صرّحنا بذلك في الفصل الرابع والعشرين .

ليس ما ذكرناه الا جزءاً يسيراً مما عانيناه من تعسّف ذوي الاغراض والنفوذ الفارغ . ولولا تذرّعنا بالصبر والفطنة وسداد الرأي لقُضي على دار الكتب في مهدها وانهار بنيانها الذي هرقنا لاجله عرق القربة. ذلك فضلاً عما بذلته الدولة من غال ورخيص لاجل تعزيز هذا المشروع الثقافي الذي بيّض وجه لبنان وعزّز منزلته الثقافية . ونكتفي الان بالاشارة الى ذلك لاننا جمعنا تفاصيل تلك العراقيل في كتاب مستوفى سننشره ان شاء الله تعالى مشفوعاً بوثائق راهنة ومدعوماً

بحجج دامغة . وقد نوّهت الجرائد العربية في الوطن والمهجر بكثير من تلك المراقيل في اعداد شتى نحفظها في خزائننا للذكرى والتاريخ . وعلى سبيل المثال ندرج هنا ما كتبته جريدة البشير المعروفة بنزاهتها ورصانتها وصدقها بتاريخ ٢ كانون الاول ١٩٣٩ قالت :

« منذ ٢١ سنة اي منذ اليوم الاول الذي استلم فيه الفيكنت فيليب دي طرازي امانة دار الكتب حتى اليوم الذي ترك هذا المنصب لم يأخذ رخصة ادارية واحدة ابداً للراحة ... وقد انصرفت مديرية المعارف الى اقامة الحواجز والحوائل والمضايقات في وجه مؤسس دار الكتب واغلقت بوجهه كل الابواب ! الخ الخ الخ ... »

وقالت جريدة « الشمس » البيروتية ما نصه : « لم تلاقِ دار الكتب من الحكومات التي تعاقبت في لبنان ما يجب ان تلاقيه . بل ان بعض الذين جعلتهم الاقدار مرجعاً لها اساؤا اليها اساءة كلية ووقفوا حجر عثرة في سبيل اطّراد تقدّمها . ذلك لجهلهم قيمة هذا العمل العظيم ولذهابهم مع رياح الحزبية والتشفيات الشخصية ... مع انه ليس في العالم موّظف بذل من الجهود في تنظيم ما عُهد اليه به جزءاً مما بذله الفيكنت طرّازي في مشروع المكتبة . فهي وليدة افكاره ...

« وقد يظن القارىء ان الحكومة تبذل للفيكنت دي طرّازي كل مساعدة وتمد اليه يداً سخيّة تذلل الصعوبات امامه . فهذا الظن خطأ . ومَن تراه يعتقد ان مديرية المعارف التي ترتبط بها المكتبة تقف دائماً حجر عثرة في سبيل مساعي امين دار الكتب ؟ وماذا ننتظر من ادارة المعارف في لبنان وعلى راسها دائماً مدير يقال انه لا يعرف اللغة العربية ولا يستطيع انشاء عبارة واحدة فيها . . . وجلّ ما يُنسب اليه من المؤهلات انه متخرّج من مدرسة العشائر التركية في الاستانة قبل الحرب العامة ! »

واثبتت جريدة « الجمهور » بتاريخ ٢١ حزيران ١٩٣٧ ما نصه : « ... واجمل

ما في دار الكتب انها تأسست ونمت بهمة رجل واحد وقف عليها كثيراً من علمه وماله وقوّته . وقاسى لاجلها كثيراً وتحمّل كثيراً وما لانت عزيمته ولا كلّت بل ظلّ مثلاً في الجد والثبات والنشاط ... فلولاه حقيقة لما وُجدت المكتبة » .

ومما تجب الاشارة اليه اننا كتبنا في شأن تلك الصدمات والعراقيل تقارير ضافية الى مَن يهمهم الامر فكانوا يصمّون آذانهم عن شكاوينا غير مصغين الى صوت الحق ولا مكترثين لواجبات وظيفتهم . وقد اكد لنا بعض الثقات مراراً ان الايدي امتدت الى تقاريرنا المشار اليها وتلاعبت بها . وامتدت كذلك الى محفوظات دار الكتب عينها بعدما تخلّينا عن امانتها . فانتزعت تلك التقارير الجديرة بالاعتبار واخفتها حذراً من ان يطّلع عليها في مستقبل الزمان مَن يعنيه امرها . وحذراً كذلك من ان تفتضح اعمال اولئك المسؤولين الذين ضجّت الناس من مساوئهم المستنكرة في طول البلاد وعرضها .

يعز علينا كثيراً ان ندلي بمثل هذه التصريحات التي اتينا على ذكرها وتجرح صميم فؤادنا . وكنا نود ان نضرب عنها صفحاً لولا اضطرارنا الى تدوين اخبار هذه الدار الثقافية غثها وسمينها . وذلك بياناً للحقيقة وحرمة للتاريخ وعبرة لكل موظف يضن بحسن سمعته وكرامة منصبه .

الفصل الثامن والعشرون

تخلينا عن ادارة دار الكتب

من طالع الفصول السابقة وامعن في ما اوردناه من الحقائق الثابتة اتضح له جليا اننا قمنا بالواجب في خدمة دار الكتب. واننا ثابرنا على العمل فيها مدة تسعة عشر عاما بكل حرص واخلاص وادّينا رسالتنا بامانة واستقامة.

كنا نود لو تيسّر لنا ان نواصل تلك الخدمة الشريفة تعزيزاً لمشروع نَهَكَ منا القوى وحمّلنا اعباء باهظة. غير ان تقدمنا في الشيخوخة مهّد لنا سبيل التملص من قيود الوظيفة كي نتفرّغ لاشغالنا العلمية في جوّ صاف لا يشوبه كدر. وما عدا ذلك فان الذين استودعوا مقدّرات المكتبة لم يكن يهمهم امرها بمقدار ما يهمنا نحن.

اما اصدقاؤنا الادباء في مختلف الامصار فقد كتبوا يُعربون لنا عن شديد اسفهم لتخلّينا عن مواصلة العمل في دار الكتب التي انفقنا الغالي والرخيص في سبيلها. وراح الصحافيون منهم ينشرون في هذا الصدد مقالات ضافية على صفحات الجرائد لسان حال الامّة. فشكرنا لهم عواطفهم واثنينا على عبقريتهم.

ونرى ان نثبت هنا ما جاهر به الوزير حسين بك الاحدب في خطاب رسمي القاه في دار الكتب على اثر تخلّينا من امانتها قال: «... يا ليت الحكومة اللبنانية وضعت تشريعاً خاصاً استثنت بــه الفيكونت من قانون بلوغ السن! ويا ليتها ابقته يواصل عمله لخير دار الكتب ريثما يتمكن من تحقيق رغائبه جمعاء فيجعلها في طليعة دور الكتب في الامصار الشرقية! ولاسيما لانه ما برح يتمتع

بحضارة العقل وهمة الشباب . فلو فعلت الحكومة ذلك لاحسنت صنعاً واضافت مأثرة جديدة الى مآثرها الحسان . ونحن نعرف ان حكومات العالم تحتفظ بامثال الفيكنت بغية استمرار الاستفادة من مواهبهم وحملاً للغير على التشبه بهم واقتفاء آثارهم ... » .

الفصل التاسع والعشرون

صدى الصحف على اثر استعفائنا من الوظيفة

نشرت الجرائد في الوطن والمهجر خبر تخلّينا عن امانة دار الكتب وعلّقت عليه . فرأينا ان نقتطف منها شذرات نثبتها في ما يلي :

اولا : جريدة الحديث

نشرت جريدة « الحديث » البيروتية بتاريخ ٢٧ تشرين الثاني ١٩٣٩ تحت عنوان « هذا رجل خسرته الوظيفة وربحه العلم » قالت : « قضت القوانين المعمول بها ان يُحرم معهد دار الكتب من الرجل الذي قال له : كنْ فكان . ولكن بعد ان ادّى الامانة واهدى الى وطنه مكتبة كبرى لا يُذكر الا وتذكر الى جانب اسمه . فالامّة اليوم تنحني امام الرجل الذي عرف كيف يكتسب احترامها وقال لها : لا تخجلي فلكِ مكتبة كغيرك من الامم المتمدنة .

« سوف يبدو الفراغ كبيراً في دار الكتب لندرة الاختصاص في بلادنا . ولكن الرجل الذي فقدته الوظيفة ربحه العلم . الرجل الذي خطّ لنفسه في سجلّ المكارم آية لن يمحوها الزمان ففي الحياة ميادين ارحب ولدى الفيكنت ثقافة نصف جيل . اننا نتطلع منذ الساعة الى الانتاج الخصيب الذي سينفح العلم به هـذا العلامة الجليل الذي انصف الصحافة في مؤلفه الرائع « تاريخ الصحافة العربية » . اننا لا نودّع الفيكنت بل نستقبله رجلاً عالماً تخلص من قيود الوظيفة ليفرغ جهده في سبيل العلم والادب والانتاج الثمين » .

ثانياً : جريدة البشير

نشرت جريدة البشير في ٢٨ تشرين الثاني ١٩٣٩ بعنوان « الفيكنت فيليب دي طرازي مفخرة من مفاخر النهضة الادبية والقومية » قالت :

« أسف اللبنانيون كثير الاسف اذ رأوا ان من جملة الذين تناولتهم التنسيقات الاخيرة رجلاً يُعدّ في طليعة العاملين للمصلحة العامة ومفخرة من مفاخر النهضة الادبية والقومية حقاً في هذه الجبهة الشرقية المطلة على ثقافة البحر المتوسط . هو الفيكنت فيليب دي طرازي امين دار الكتب اللبنانية . ونعتقد انه من باب ترداد الامر اذا توسّعنا في مآثر الفيكنت الغرّاء . لانه لم يبقَ واحد من اللبنانيين وغير اللبنانيين الا سمع باعماله الجليلة وفعاله المبرورة لخدمة الفكر المجرّد .

« وكيما يدرك القراء السبب الذي يحمل اللبنانيين على التأثر من جرّاء هذا التدبير الذي نعتقد انه جاء سابقاً لاوانه نورد بايجاز كلّي بعضاً من الاعمال الكثيرة التي اتاها الفيكنت دي طرّازي اثناء توليه امانة دار الكتب ... » .
وهنا استرسلت الجريدة في وصف جهود الفيكنت بشأن تأسيس المكتبة وعدّدت تآليفه البالغة في ذلك الحين نحو ثلاثين كتاباً .

ثالثاً : لسان الحال

وقالت جريدة « لسان الحال » البيروتية بتاريخ ٢٨ تشرين الثاني ما يلي :

« منذ عشرين عاما صحّت عزيمة « صديق الكتاب » الفيكنت فيليب دي طرازي على سدّ ثلمة كبيرة في بناء نهضتنا العلمية لم يفطن لها الادباء المفكرون . او فطنوا لها واحجموا عن الاخذ باسبابها تهيباً لخطورة المهمة . رأى الفيكنت دي طرازي ان بيروت اشهر عواصم الشرق في مدنيتها وثقافتها لا تملك مكتبة

وطنية يختلف الى موائدهـــا كل راغب في ارتشاف عصارات القرائح من شتى انواع العلوم والفنون والآداب . فاهمّه الامر كثيراً ومـا لبث ان اسّس دار الكتب في بيروت جاعلاً نواتها مكتبته الخاصة وهي من اغنى المكتبات وانفسها. وراح ينفق على حاجاتها وموظّفيهـــا من ماله مدة ثلاث سنوات حتى ترعرعت المكتبة واستقام امرها . فانتقلت الى الحكومة اللبنانية رجاء ان يتوفر لها ما لا يستطيع بذله الرجل الفرد .

« ظل اديبنا المدقق مشرفاً طول هذه المدة عـــلى المكتبة الوطنية اشراف الزارع على غرسته بل الوالد على ولده متعهداً اياها بكل عطف وعناية . وقاسى الامرّين من اهمال مديرية المعارف ومعاكستها وهو صابر مواظب لا يعتري همته وَهن ولا كلال ... واذا كانت الظروف قد قضت على مؤسس المكتبة ان يفارقها هذا الفراق المؤثر فلا ريب عندنا في ان اسم الفيكنت دي طرازي سيبقى مقترناً بها مخلداً مدى الايام . وفي ذلك خير عزاء له كاديب ضحّى بوقته وماله في سبيل المصلحة العامة . والاوساط المثقفة لا تودّعه بل تستقبله في حقـــل الادب الفسيح بكل ترحاب واكبار » ...

رابعاً : صوت الاحرار

وكتبت جريدة « صوت الاحرار » البيروتية بتاريخ ٣٠ تشرين الثاني ١٩٣٩ ما نصه :

« ليس لي ولا لاحد في البلاد رأي في هذا التنسيق الذي جرى كما لم تكن لاحد فيه يد . فلقد شطح به القلم ولا تقل في ما جرى كيف جرى ... !

« وانْ آسف لشيء فلناحية من نواحي الادارة في هـذه الدولة اللبنانية لحق بها غبن واي غبن في تنحية الرجل الذي اوجدها وكان حياتها طول عشرين عاماً . عنيتُ دار الكتب اللبنانية ومديرها الفيكنت فيليب دي طرازي .

«إلا مشاحة في ان الفيكنت دي طرازي علامة كبير . فهو من هذه الصدور التي وسعت كنوزاً من المعلومات القيّمة . وله فوق ذلك ميّزة العمل بما علم على اساس غيرة وطنية لا يجادل فيها احد . واني لاكتفي بذكر انتاجين عظيمين طلع بهما بجهوده : الاول تاريخ الصحافة العربية والثاني دار الكتب الوطنية . فهما له مأثرتان تتضاءل امامها المآثر .

« لم اقل ان الفيكنت دي طرازي مدّ الله ببقائه خالد . ولا اقول انه يجب ان يعلو على القوانين العادلة المنصفة . ولكني اقول ان تنسيقه على هذه الصورة لا يقرّه عدل .

« كان فرضاً على الحكومة اللبنانية ان تفرد لمنشىء دار الكتب ومغذّيها قراراً خاصا تحيله فيه على التقاعد اذا كان لا بد من ذلك . وتعيّنه مديراً فخريا لهذه الدائرة التي تُعدّ احسن عمل صدر عن الجمهورية اللبنانية . . . فكان يقال حينئذ ان هذه الحكومة تعرف ان تقدر قدر العاملين المجتهدين النزيهين الذين يضحّون بكل جهودهم في خدمة العمل ... » .

خامساً : جريدة الصاعقة

نشرت جريدة « الصاعقة » في بيروت بعنوان «الفيكنت فيليب دي طرازي: آثاره الجليلة في خدمة الثقافة والصحافة » بتاريخ ٣٠ تشرين الثاني ١٩٣٩ ما يلي :

« عرفت الاقطار الغربية فضل هذا العالم على الادب والثقافة ومنحته اوسمتها العالية . واستقبلته معاهدها العلمية كما تعوّدت ان تستقبل كبار العلماء . فمن الواجب اذاً على حكومتنا ان تقوم نحو الرجل الذي اسدى الى لبنان اجلّ الخدم بما يفرضه عليها واجب التقدير وعرفان الجميل . والا قيل فيها مثلما يقال في خصوم العلوم وليس هولاء غير الجهلة ...

« فلولا الفيكنت لما كانت دار الكتب . ولولاه لم يكن للمتأدبين مرجع يعتمدونه في ما يقتبسونه وفي ما ينشئونه . فدار الكتب هي الفيكنت والفيكنت هو دار الكتب . وقد اصبحت اللفظتان مترادفتين . ولسنا نعلم كيف تحيا دار الكتب بعد ان هجرها واضع الحجر الاول في اساسها . بل لسنا ندري كيف يجوز ان تكون الكتب ملكاً للفيكنت ويشرف عليها غير الفيكنت . واذا كان قد اهداها الى لبنان فلكي يقدر له لبنان هديته الثمينة وعمله العظيم . ولكننا نعترض على النكران الذي قابلت به الحكومة هدية الفيكونت وخدمه وعمله الجبار .

« على كل ان مكاتب بيروت كلها دورٌ للفيكنت . وهي ترحب به علماً منتجاً كما ترحب بتآليفه العتيدة . وها هي صفحات جريدتنا نجعلها منذ الآن ميداناً لقلم الفيكنت . والمثقف يعرف على كل حال ان ينفع ابناء امته موظفاً وغير موظف . فالوظيفة لم تكن يوماً ضالة الفيكنت وانما الكتب وحدها كانت ضالته المنشودة . فهو يعشقها بل هو يعبدها بعد ولي السماء » ...

سادساً : رقيب الاحوال

اثبتت جريدة « رقيب الاحوال » البيروتية بتاريخ ٣ كانون الاول سنة ١٩٣٩ ما نصه :

« من الجميل ان تذكر البلاد رجلاً وقف على العلم فيها حياته وماله . هو الكنت فيليب طرازي مدير دار الكتب الوطنية المتقاعد اليوم . فالفضل الاكبر في انشاء دار الكتب يعود اليه وحده . ولولاه لحُرم لبنان مكتبته الوطنية . ولوجب على الدولة ان تبذل الاموال الطائلة كي تشيّد هذا الحصن المنيع الذي شيده لها الكنت طرازي بعرق جبينه وتعب يديه .

« ولا بد لارباب العلم والقلم من ان يعترفوا للرجل بفضله الوضاح. فالاقرار

بالجميل واجب ونحن قد عرفنا الكنت ذلك الحريص عـــلى ثمار الادب والعلم ورأيناه يجود بوقته وراحته في سبيل تثقيف العقول لا نرى لنا غنية عن المناداة بجميله وبخدمه لوطنه لبنان. فالعلم والثقافة في هذه الديار مدينان له بالغالي الثمين. ومن المؤسف ان تحرمنا الاعوام مجهوده النفيس . الا ان من قضى طول ذلـك الزمن في التعب والجهد يحق له ان يستريح .

« ان الذخيرة الرفيعة القدر التي نضدها الكنت طرّازي وصقّلهـا جوهرة وضّاءة تنطق وحدها بمآثره الرائعـة . فالرجل استحق عن جدارة وكفاءة شكر لبنان » .

سابعاً : مجلة الحب والسلام

كتبت مجلة « الحب والسلام » بمدينة حمص في عدد اصدرته بتاريخ كانون الاول ١٩٣٩ مقالاضافياً اختتمته بما يأتي :

« كفى الفيكنت فيليب فخراً ونبلاً وشرفاً تقدير الصحافة الراقية واعجـاب الرأي العام باعماله . بل حسبه شهادة ناطقـة بقاء الوف المجلدات الضخمة كاثار خالدة تنطق بفضله وسيذكر اسمه بالتعظيم كلما ذُكرت دار الكتب اللبنانيـــة الكبرى .

« فمجلة « الحب والسلام » تنتهز هذه الفرصة لتبدي اعجابهـا بمفخرة النهضة الادبية الفيكنت فيليب دي طرّازي الذي تعتزّ به الامة اللبنانية جمعاء . وتتمنى له صحة طيبة وعمراً طويلاً ليواصل جهوده القيّمة في سبيل خدمة الادب والوطن العزيز » .

ثامناً : مجلة العرائس

نشرت مجلة « العرائس» اللبنانية في عددها ١٩ وسنتها الخامسة عشرة ما نصه.

« مما اسف له الجميع ان تنسيقات الحكومة جرفت في تيّارهـا رجلاً عصامياً جعل للبنان بهمته القعساء وغيرته المتناهية وثقافته الفيّاضة منزلة ادبية وعلميـة يُحسد عليها . هذا الرجل هو الفيكنت دي طرازي الذي اوجد شيئاً من لا شيء واتحف لبنان خاصة والشرق الادنى عامة بمكتبة لا تقلّ شأناً عن مكاتب الدول الكبرى ...

« وقد اصبح لبنان اليوم يفتخر بهذا الاثر العلمي الخالد ... والفضل في ذلك لرجل الغيرة والتضحيـة والعلم والاخلاص الفيكنت دي طرازي الذي وقف حياته لهذا العمل الجبّار ... وعمل باعوام قليلة ما لا يعمله غيره بمئات السنين ... فكان يجب والحالة هذه ان يظلّ الفيكنت علـى راس دار الكتب حتى تستفيد من مواهبه ... وتظل عينه ترعاها وتسهر على شؤونها » .

تاسعاً : مجلة الكلمة

اثبتت مجلة « الكلمة » الحلبية في عددها الصادر بتـاريخ شهر اذار ١٩٤٠ ست عشرة صفحة عن الفيكنت دي طرّازي نقتطف منها ما يلي :

« هذه المكتبة العزيزة المثال في ربوع الشرق احدثها بفكره الصائب وهمته القعساء وقلمه الفياض وسخائه الجم ونفوذه العـالي الاستاذ الفيكنت فيليب دي طرازي صاحب « تاريخ الصحافة » الطائر الشهرة . ان من عرف هذا الاستاذ في محتده ومنشأه لا يستغرب صدور هذا الاثر الرائع عنه . ولو لم تخرج هذه الفكرة الى حيّز الوجود وتصبح تلمسها الايدي وتطالعها العيون وتتغذى بها الالبـاب وترتع في رياضها الخواطر لـعُدّت حُلماً من الاحلام او ضرباً من الاوهام .

عاشراً : جريدة البشير

قالت جريدة البشير في ٢ كانون الاول ١٩٣٩ رقم ٥٩٦٥ ما نصه :

« منذ ٢١ سنة اي منذ اليوم الاول الذي استلم فيه الفيكنت فيليب دي طرازي امانة دار الكتب حتى اليوم الذي ترك هذا المنصب لم يأخذ رخصة ادارية واحدة ابداً للراحة . تمكّن الفيكنت دي طرازي في العشر السنوات الاولى لتأسيس المكتبة ان يجمع ٢٨ الف مجلد دون ان يكلف الخزينة شيئاً . ولكن في السنوات العشر الاخيرة لم تستطع مديرية المعارف ان تجهزها بكتاب نفيس واحد. بعد ان انصرفت الى اقامة الحواجز والحوائل والمضايقات في وجه مؤسسها واغلقت بوجهه كل الابواب ! حُرم الفيكنت دي طرازي من كل زيادة معاش طيلة ١٢ سنة مع ان الكثيرين غيره ممن هم دونه علماً ومقدرة واختباراً — خصوصاً في مديرية المعارف — قد قفزوا سلّم الترقيات درجات ونالوا الزيادات الباهظة ! » .

حادي عشر : الاتحاد العربي

كتبت جريدة « الاتحاد العربي » بتاريخ ١٢ شباط ١٩٤٠ تحت عنوان « الفيكنت دي طرازي حامل لواء النهضة العلمية والادبية في لبنان » ما يلي :

« ... قام الفيكنت طرازي بمشروع جليل يقترن باسمه ابد الدهر . وهو انشاء المكتبة الوطنية التي سهر عليها بنفسه فكانت خير هدية يقدّمها عالم اريحيّ نبيل الى الامة اللبنانية . وظلّ ساهراً على غرسته المباركة حتى قضت التنسيقات الاخيرة باقصائه عنها .

« قابلت الاوساط العلمية والاوساط الشعبية على اختلافها هذا التدبير بالدهشة

والاسف . واجمعت الجرائد على انتقاد القرار فكانت بذلك معبّرة عن الرأي العام اصدق تعبير . كيف لا يأسف الناس لمثل هذه المكافأة التي يكافأ بها رجل فرد قام بعمل تنوء به الجماعات . وضحّى هو في سبيله بالمال الوفير والوقت الكثير ! ... الى ان قالت :

ومكتبةٍ انشأتها وطنيّةٍ	لها شأنها ما بين ارقى المكاتبِ
سهرتَ عليها والكثيرون نوّمٌ	وحقّقت بالمشروع جلّ الرغائبِ
اذا غبتَ عنها كارهاً لفراقها	فذكرك باقٍ عندها غيرُ غائبِ »

ثاني عشرة : رسالة الدكتور جورج صقال

وبعث الينا الدكتور جورج صقال البحاثة الجليل بتاريخ ٣ كانون الاول ١٩٣٩ من حلب بالرسالة التالية :

« ايها العلامة الرئيس الفيكنت فيليب دي طرازي حفظك الله تعالى .

« قرأت في احدى الجرائد المحلية خبر احالتك على التقاعد . امتعضتُ لذلك وثارت نفسي سخطاً . ما كنت اتوقع ولا دار في خلدي انهم لا يزيدون كلمة شكر على تلك الاحالة . أأمسى الفضل في هذه الربوع مجهولا ? أكلّما نبغت في لبنان عبقرية يُقلب لها ظهر المجنّ ?

« تنقلت طويلًا في بلاد المغرب وشاهدت كثيراً واشهد عن خبرة اني ما رأيت في القوم مَن حاز شهرة في فنّ او قام بمحاولة تجرّ النفع على وطنه الا وهبّت الناس الى التنويه به وتضافروا على شدّ ازره وتخليد مؤسسته بكل ذريعة الا في الشرق . فان المواهب تُدفن ويُسدل على العظماء ومآثرهم حجاب من الكنود !

« اهناك ذو عينين لا يرى في المكتبة التي انت حفظك الله ابو عذرتها المحاولة التي تكاد تبهر العقول والمأثرة التي لن يكون لها على ممرّ الاعصار أفول ?

« لقد جئت امراً بِدعاً يعجز عن الاتيان بمثله مَن في الربوع ولو كان بعضهم لبعض ظهراً .

« لقد احييت ذكرى علمائنا وخلّدت آثار ادبائنـــا وخلفت للقوم مباآت ومراجع انْ كانوا على ارتشاف سلافة العلوم حريصين وفي استجمام قواهم العقلية والادبية في خمائل الآداب راغبين .

« فما ضرّهم لو شكروا ؟ وما ضرّهم لو ابقوا القوس في يد باريها ؟ ان نفسي لتثور غضباً وان أرثِ فانا ارثي أمّة تجهل الواجب !

« اندب طالعَ قوم تحول دواعي الحسد والتنافس دون تضامنهم . وتُقعـد بهم عوامل الجهل والكسل عن الاباء والانفة .

« ابكي حالة شعب ينبذ المواهب ويكفر بالاحسان ويولي ظهره عظماء الرجال!

« وانت ايها الخليل ادرى بما اقول فانك منذ اميطت عنك التمائم ونيطت بك العمائم ما فتئتَ العامل الغيور النشيط البـــاذلَ العزيزَ النفيس في خدمة بلادك واعلاء منارة قومك وتشريف وطنك .

« اذا صمتت الالسن نطقت آثارك . وكفى بتـاريخ الصحافة التي هي مرآة مآثر الامّة وديوان تاريخها وعاداتهـــا واخلاقها دليلاً . ان في ذلك لآية لقوم يعقلون .

« اما بذلُك الاموال الطائلة في سبيل المشاريع الخيرية والتنفيس عن اخوان البؤس والشقاء فان وصفي ليقصر عنه .

« اذنْ ان نفسي تتسخط وتثور لاغضاء القوم عن الاقرار باثارك ومآثرك.

« ولعلك تنكر علي صراحتي هذه لانك درجت بنبل شيمك وصفـاء جوهرك ورسوخ قدمك في سُبل الخير على ان تمرّ بكل ذلك مرّ الكرام .

« نعم وانا على مثالك اتناسى واتغابى بل اتعامى .

« ولكن استأذنك ان انشد فيك ما قاله شاعرنا المتنبي :

« انا الذي نظر الاعمى الى ادبي   واسمعت كلماتي مَن به صمَمُ »

محبك جورج صقّال

الفصل الثلاثون

نحن وخلفنا في امانة دار الكتب

على اثر اعتزالنا امانة دار الكتب في ٢٥ تشرين الثاني ١٩٣٩ ظلّ هـــذا المنصب فارغاً زهاء شهرين . وفي ٢١ كانون الثاني ١٩٤٠ عيّنت الحكومة اللبنانية الاستاذ هكتور خلاط خَلَفاً لنا في منصبنا . وهو من اسرة عرفت في طرابلس الفيحاء منذ زمن بعيد واشتهر بعض افرادها بالادب والتجـــارة والرحلات . وانصرف الاستاذ هكتور الى نظم الشعر الفرنسي فبرع فيه ونشر من ديوان شعره جزئين برز اولهما مطبوعاً سنة ١٩٣٥ .

وقد بعث الينا هذا الاستاذ ثاني يوم تعيينه رسالة افرنسية لطيفة انبأنا فيهـا باسناد امانة دار الكتب اليه خلفاً لنا هذا نصها :

Beyrouth, le 22 Janvier 1940

A Monsieur le Vicomte Philippe de Tarrazi en Ville.

Mon Cher Vicomte,

Au moment de prendre possession de ce fauteuil directorial comment ne me sentirais-je pas l'obligé de celui qui, en créant de toutes pièces cette bibliothèque, a fourni au gouvernement l'occasion de m'installer au poste qui correspond le mieux à mes goûts les plus chers ? Si J'étais de ceux qui se prennent pour le centre de l'univers, je me dirais que les voies de la Providence sont bien mystérieuses.

Pareille disposition d'esprit m'étant fort étrangère, je n'en suis que plus à l'aise pour vous exprimer toute l'admiration que j'éprouve pour l'œuvre que vous avez accomplie ; elle ne

rend que plus difficile la tâche qui m'est dévolue. Puissé-je me montrer digne de prendre votre succession ! Je n'aurai qu'à suivre votre exemple. Les yeux fixés sur votre carrière, j'apprendrai à rendre la mienne féconde.

J'atteindrai plus sûrement ce but, si vous voulez bien me faire bénéficier de votre expérience. Aussi me permets-je d'espérer que vous ne cesserez point de témoigner de l'intérêt à cette maison qui demeure toujours la vôtre.

Animé de cet espoir, je vous prie d'agréer, mon cher Vicomte l'assurance de ma parfaite considération et de mon entier dévouement.

HECTOR KLAT

فكتبنا الى الاستاذ هكتور خلاط جواباً في اللغة العربية معربين عما يكنه له قلبنا من الحب والاعتبار متمنين له التوفيق في مهمته الجديدة . وهذا بعض ما جاء في الجواب :

« بيروت في ٢٣ كانون الثاني سنة ١٩٤٠

« الى حضرة الشاعر اللوزعي السيد هكتور خلاط المحترم
امين دار الكتب اللبنانية في بيروت

« يا صديقي العزيز

« وردتني رسالتك اللطيفة مؤرخة في ٢٢ الجاري . فسُررت سروراً عظيماً اذ انبأتني بتقلدك منصب امانة دار الكتب في هذه العاصمة . . . وما اوصلك الى هذه المرتبة الا ادبك العالي ونبالة خلقك وصدق مبادئك . فاسمح لي ان اهنئك بها من صميم قلبي متمنياً ان تكون اسعد مني في خدمة العلم والامّة والوطن .

« وبعد الاختبار الطويل وامعان الفكر ارى ان مهمتك شاقة تكتنفها

الاشواك وتعترضها المصاعب والمتاعب من كل ناحية . وقد تحتم ان اصرّح لك بهذه الحقيقة المؤلمة حباً لخيرك لا لتثبيط عزيمتك واخفاق آمالك .

« انك شاب في مقتبل العمر يا عزيزي هكتور ولاجل ذلك اتفاءل بحسن مستقبلك لانك تستطيع النهوض بالمهمة الموكولة الى لياقتك على احسن ما يُرام من النشاط والحكمة واصالة الرأي .

« ولكن انّى لك ذلك اذا استمرت العراقيل حواليك مما سينغّص عيشك ويقضّ مضجعك ليلاً ونهاراً ؟ لقد نُكبتُ انا قبلك بهذه المصيبة الفادحة التي بلبلت احوالي ورافقتني كالظل في ايام شيخوختي . ونُكبتْ معي ايضاً المكتبة وموظفوها مدة تسعة اعوام متواصلة (١٩٣١ – ١٩٣٩) لم نذق خلالها لذة الاشتغال في جوّ هادىء ! فوآسفاه على بيوت العلم تمسي مسرحاً في بلادنا لغير ما انشئت لاجله !

« ان حديثي معك يا عزيزي هكتور صادر عن جوارح شيخ عركه الدهر وعن سريرة طاهرة تشتهي لك الخير والفلاح والبركة اينما حللتَ وحيثما اتجهت . بل يشهد الله ان لا غاية لي سوى تحذيرك من سوء العاقبة لِما صادفته انا من العراقيل والعراقيب .

« فانبّه خاطرك الى مراعاة الحزم والفطنة في دائرة عملك تأميناً لنظامها وحرصاً على حسن سمعتها ومحافظة على السلام والمحبة والوفاق بين موظفيها . ونظراً الى ما اعهده فيك من ثقافة عالية ومزايا شريفة اومل انك تتوفق في ادارة المكتبة وتسير بها في جادة النمو والازدهار . لانها محتاجة الى امثالك من ذوي الامانة والاستقامة والاخلاق السليمة .

« سدّد الله خطواتك يا عزيزي هكتور لاعلاء شأن الآداب واقرّ بك عيون اصدقائك وابناء وطنك الذين يقدرون فضلك واطال الله بقاءك .

اخوك
فيليب دي طرّازي »

الفصل الحادي والثلاثون

الجهود في تعزيز دار الكتب وانماء ثروتها

لا يعلم الا الله سبحانه وتعالى ما كابدته من الجد والعناء وما انفقته من الوقت والمال حتى كوّنت دار الكتب وعزّزتها وجعلتها في مركز جدير بالعاصمة اللبنانية . فقد وصلت الليل بالنهار كالمتيّم الولهان في تجهيزها وانماء ثروتها دون ان يستحوذ عليّ اليأس او يأخذني الملل . ولا غرابة في ذلك لانه

لا يعلم الشوقَ الا مَن يكابده ولا الصبابةَ الا مَن يعانيها

ارتحلت الى القاهرة عام ١٩٢٤ ومررت يوماً بمكتبة « موسكاتو » . فلفتت نظري مجموعة فرنسية من اندر المجموعات العلمية وانفسها واغلاها عنوانها « وصف مصر » وبالفرنسية « Description de l'Egypte » تقع في ٣٧ مجلداً : منها ٢٤ مجلداً تتضمن متون الكتاب و١٣ مجلداً تحوي مصوّراته . واكبر تلك المجلدات حجماً يبلغ طوله متراً و٥ سنتمترات وعرضه ٦٧ سنتمتراً . وهذه المجموعة الفريدة صنّفها فريق من علماء الفرنسيس رافقوا نابليون بونبرت عام ١٧٩٩ في حملته على وادي النيل . فدوّنوا فيها جميع ما شاهدوه في الاقطار المصرية من آثار الحضارات والصناعات والفنون قديمها وحديثها .

استفسرت صاحب مكتبة « موسكاتو » عن ثمن المجموعة فقال : « ليست برسم البيع » ثم اردف يقول : ان جلالة الملك فؤاد الاول اوعز اليّ منذ اعوام ان ابحث عنها واشتريها . فلم انوفق الى تحقيق رغبته الا منذ بضعة ايام لانها اصبحت اعز من بيض الانوق ! اما قيمتها فلا تقل عن اربعمائة جنيه مصري ذهباً .

صممت حين ذاك ان استنفد كل جهد وانفق كل غالٍ في الحصول على نسخة من تلك المجموعة حتى توصلت الى العثور على بعض اوراق منها سنة ١٩٢٥ في رحلتي الى باريس . فاشتريتها فوراً ثم نشطت الى التفتيش عن غيرها في حوانيت تجار الكتب هناك . وصرت اوصي واحداً فواحداً من اولئك التجار ليلتقط ما يقع تحت يده منها ويشتريه لحسابي مهما كلفه ذلك . ولم اغفل بدوري عن تفقد مستودعات المجامع العلمية والمكتبات والجامعات حتى ظفرت شيئاً فشيئاً بمفردات المجموعة كلها . على هذه الصورة الشاقة تم لي تكوين نسخة كاملة من كتاب « وصف مصر » . ذلك بعد شق النفس وطول الاناة ومواصلة التنقيب والمراسلات مدة سبعة اعوام . فنضدتها ورقة ورقة طبقاً لمضامينها وتسلسل ارقامها وعنيت بتجليدها تجليداً محكماً واتحفت بها دار الكتب اللبنانية .

ونهجتُ المنهاج ذاته في الحصول على مجموعة مجلة « الطبيب » التي انشأها عام ١٨٧٨ الدكتور جورج بوست في بيروت . فطفقتُ اطوف بيوت الادباء وحوانيت باعة الكتب ومستودعات المطابع والتقط من هنا وهناك ما وجدته منها مهجوراً بين اكداس الكتب او بين الكراريس المهملة . وبهذه الوسيلة حصلت على مجموعة كاملة منها اعتقد انها الوحيدة من نوعها على الاطلاق .

وعلى غرار مجلة « الطبيب » كوّنت مجموعة تامة من مجلة « الجنان » القديمة العهد والعزيزة الوجود . وهي التي انشأها المعلم بطرس البستاني عام ١٨٧٠ وبلغ عدد مجلداتها ستة عشر مجلداً ضخماً . وقس على تلك المجموعات الثلاث كتباً نادرة ومجموعات وافرة عانيت في البحث عنها والحصول عليها اتعاباً جسيمة . ثم اهديتها برمّتها الى دار الكتب ليستفيد منها ابناء وطني المحبوب .

على ان بعض الجرائد استرسلت في التحدّث عن تلك الجهود في تكوين هذا البيت الثقافي . واليك ما صرّحت به جريدة « الروّاد » في هذا الصدد بتاريخ ١١ شباط ١٩٣٧ قالت :

« ... ليست الجهود التي بذلها الكنت دي طرازي في سبيل المشروع الادبي العظيم من النكرات التي تفتقر الى الابواق واناشيد الادباء وغناء الاقلام .

« فاذا ما قلنا كلمة في دار الكتب اللبنانية لا نكون قد اتينا بالعجائب وابتكرنا جديداً مدهشاً . فهذه الدار عجيبة بالجهود التي تغمرها ومدهشة بالكمال الذي يعانقها . هي من المفاخر التي تملكها الحكومة في هذا الوسط الشرقي والتي بوسعها التفاخر بها امام حجّاج هذه البلاد الاجانب .

« ولو استعرضنا تاريخ نشأة هذه المكتبة وتصفحنا المراحل التي اجتازتها والمواد التي غذّتها بمثل هذا الغذاء الدسم وجبت علينا اقامة التماثيل للرجل النبيل الكنت طرّازي الذي عرف كيف يكمّل جمالات لبنان ويزينها بمثل هذا الكمال .

« مَن يدخل اليوم القصر الفخم الذي تقوم فيه دار الكتب يلمس عظمة هذا المشروع وقيمة نتاج هذا الجهاد الشاق الذي انفرد به رجل هو شامة جميلة في وجه العبقرية اللبنانية الفذّة .

« ان القيّم على قصر الكتب قد خدم البلاد خدمة صادقة لم يسبق ان نجمت عن غيره خدمة مثلها . وعُنق الامّة مُثقل بنتاج جهاده والحكومات السابقة قد تعامت عن تقديره. انما وسط التاريخ حفل بدرر وعقود لم تحفل بها دواوين السراي.

« اجل ! ان الرجل عمل اكثر مما عمل جميع الرجال الذين مرّوا على لوحة الحكم في لبنان . فهلا ترى الوزارة الشعبية ان واجبها يقضي بان يتغذّى هذا الجهاد ليكثر من مثل هذا الانتاج ؟ »

ونشرت جريدة « المكشوف » بعنوان « الفيكونت دي طرازي ملك الكتب » في ١٦ حزيران ١٩٣٧ ما نصه :

« كل شيء في دار الكتب يحدّثك عن جهود الفيكونت دي طرازي . فلا تكاد تطلع على تاريخ حياته الادبية وعلى انصرافه الى التأليف من جهة والى اقتناء الكتب من جهة ثانية حتى تثق كل الثقة ان حضرة الفيكونت هو اليوم بلا منازع ملك الكتب في لبنان ! وان حياته الكتبية تنطوي على اخبار فريدة جديرة بالنشر . وان اسمه سيدخل حتماً في تاريخ المكاتب العالمية لما بذل ويبذل من الاوقات والاموال في سبيل الحصول على المخطوطات النفيسة .والمؤلفات النادرة . واننا نكتفي بذكر قسم من هذه المجهودات على سبيل الاعجاب بهذا الرجل المتفوّق الذي تمكن بوسائله الخاصة من ان يخلق للبلاد مؤسسة اهلية يستطيع ان يفاخر بها كل لبناني ...

« وهو الذي اسس دار الكتب على نفقته الخاصة . فانفق عليها من جهوده مسافراً مؤلفاً منقباً باذلا حتى ألحقها سنة ١٩٢٢ بدوائر الحكومة والحق نفسه بها . فلولا هذا الرجل الكبير لما كانت لنا المكتبة الوطنية التي تضاهي مكاتب كثيرة من مكاتب الشرق والغرب في المدن العظمى ... واذا كانت الحكومات في بلاد الناس هي التي تنصرف الى مثل هذه الاعمال الكبيرة فالفيكونت دي طرازي قد قام في لبنان مقام حكومة ! » .

وكتب صاحب جريدة « ارزة لبنان » في ٢١ شباط ١٩٣٧ قال :

« ... دخلنا مكتب مدير دار الكتب سعادة الفيكنت دي طرازي . فاذا بنا لدى الجبّار المجاهد الذي شاد للبنان مجداً علمياً عزّ على سواه في هذا الشرق . وفيما كنا ننظر الى الفيكنت بجبهته المجعّدة ونظارتيه غير المستويتين وشعره المبعثر في راسه الكبير تذكّرنا علّامة البرازيل بل علامة اميركا الجنوبية المغفور له دوي بربوزا لما زرناه خلال سنة ١٩١٧ في مكتبته الخاصة . وقد ابى الابتعاد عنها يوم انتُخب رئيساً للجمهورية باكثرية مطلقة . فرفض منصب الرئاسة وظلّ ملازماً مكتبته » .

الفصل الثاني والثلاثون

حالة المكتبة بعدما تنحينا عن ادارتها

سجّلنا في فصول سابقة ما بذلناه من اموال وما عانيناه من مشقات وما قمنا به من رحلات في سبيل انشاء دار الكتب اللبنانية وتعزيز شأنها وتعميم فوائدها بين خاصة القوم وعامتهم . وبعد مرور عدة اعوام على اعتزالنا منصب امانتها نرانا مرغمين بملء الاسف على التصريح بانها اخذت في التقهقر والانحطاط بسبب ما اعتراها من الاهمال وما حلّ بها من التضعضع . اجل اننا ما كدنا نغادر منصبنا حتى تفشّت الفوضى في كل ناحية من نواحيها . فاستحوذت الكآبة على قلبنا لما شاهدنا ذلك الانقلاب السريع في مكتبة انشأناها بجهودنا وغذيناها بمالنا وسقيناها بعرق جبيننا وصبغناها بدم قلبنا . ولم نتمالك ان وجّهنا تقارير محكمة الى وزراء التربية الوطنية والى رؤساء الجمهورية اللبنانية نلفت انظارهم ليتلافوا امرها ويرأبوا صدعها .

ولكي يقف الخاص والعام على شؤونها بعد تنحينا عنها نورد للقارىء النجيب نتفاً مما نُكبت به من الرزايا فنقول :

اولا — في المكتبة بعض موظفين لا المام لهم بفن المكتبات وهم يقضون اوقات العمل في تدخين التبغ او في قراءة الجرائد او التشاغل مع الزوار .

ثانياً — في المكتبة موظفون لا يستطيعون ان يكتبوا عبارة عربية صحيحة دون غلط . ومنهم مَن لم يطالع كتاباً من الكتب طول عمره . وفضلاً عن ذلك فان المكتبة خالية من دليل او كتاب يسترشدون في الامور الهامة .

ثالثاً — تضم المكتبة فريقاً من الموظفين لا يتعاطون شيئاً من اشغالها على الاطلاق. بل لا تشاهد المكتبة وجوههم الا في سلخ كل شهر عندما يأتون ليقبضوا المعاش . ان كلًا من اولئك الموظفين الساخرين بالوظيفة ينتمي الى شخصية بارزة كوزير او نائب او مدير يدافع عنه ويحمي ذماره فلا يتقيد بقانون ولا يشمله عقاب .

رابعاً — حرمان اقدم موظفي المكتبة وانبغهم واوفرهم امانة واخلاصاً درجات الترقي القانونية خلال اثنتي عشرة سنة . بينما يُنقل احد خدامها الامين الى دائرة اخرى فيقفز درجات متعدّدة في سلّم الادارة خــلافاً للحق والعدالة والقانون . هكذا امست رتبة ذلك الخادم الامّي بين ليلة وضحاها اعلى من رتبة اولئك الموظفين القدماء الامناء المثقفين الذين عليهم مدار العمل في المكتبة .

خامساً — اختفاء عدد عديد من مجلدات ثمينة ومجموعات نفيسة انتزعناها من خزائننا الخاصة واهديناها الى دار الكتب . او تجشمنا اوفر المشقات في جمعها من اقطار الشرق والغرب . وقد شق امر اختفائها علينا وعلى كل من سمع الخبر او عرفه (١) .

سادساً — اختلاس طائفة كبيرة من كتب مكرّرة كانت في مستودع دار الكتب وبيعها بالوزن طمعاً باثمان الورق الذي تفاقمت اسعاره في الحرب الكبرى الثانية (١٩٣٩ — ١٩٤٥) .

سابعاً — مما يؤسف له ان دار الكتب سبقت فحشدت في مستودعاتها مجموعات جمّة من جرائد الجمهورية اللبنانية . وضمت اليها مجموعات اكثر الجرائد العربية التي صدرت في سوريا والعراق وفلسطين ومصر وتونس واميركا الشمالية واميركا

---

(١) جريدة الحديث ببيروت : عدد ٢٠١٩ في ٢١ تشرين الثاني ١٩٤٥ .

الجنوبية . فهذه الصحف بامرها قد سبقت فتعبت كل التعب في جمعها وتنظيمها ثم هيأتها للتجليد كي تحفظ في المكتبة اللبنانية اسوة بدار الكتب المصرية وسائر دور الكتب في المدن الراقية . غير ان بعض اولياء المكتبة المؤتمنين على مفاتيح تلك المستودعات اغتنموا فرصة غلاء الورق في الحرب المذكورة فباعوها جزافاً من البدّالين والبقالين . فارتكبوا جناية فظيعة بجرمهم العلم والتاريخ فوائد كثيرة كان حقها ان تظل محفوظة للاجيال التابعة . ولا ريب في ان تلك الصحف كانت سجلاً ثميناً انطوى على وقائع بلادنا الشرقية وعلى اخبار جاليتنا في ديار هجرتهم .

ثامناً — اختلاس آلتين للكتابة عربية وافرنجية اهديتها الى المكتبة . وهما غير الآلتين المستعملتين فيها الان . والمسؤول عن جميع تلك الاختلاسات هو بلا ريب امين دار الكتب المعاون الذي كان متسلماً وحده مفاتيح المستودع المذكور.

تاسعاً — تحوي دار الكتب اللبنانية نحو ثمانية آلاف مجلد عربي سُجل نصفها طبقاً لطريقة التنسيق القديمة . وتأجل الباقي ريثما ينجز كتابي الذي تفرغت لوضعه زهاء عشرين سنة وسميته «ارشاد الاعارب الى تنسيق الكتب في المكاتب». ذلك ليتسنى تسجيل الكتب العربية برمتها وفقاً للطريقه العشرية الحديثة . غير ان مدير المعارف حال يومئذ دون نشر الكتاب بالطبع كما سلف الكلام فظل العمل مهملاً .

عاشراً — ان الغبار الكثيف يعلو رفوف الكتب والرسوم الزيتية وسائر التحف والطرف حتى كاد يذهب رونقها او تبلى .

حادي عشر — تجاسر بعض الرعاع فمسخوا جدار المكتبة من اسفل السلّم حتى اعلاها بكتابات بذيئة شنيعة تشمئز منها النفوس الابيّة والاذواق السليمة وبقيت تلك العبارات المكتوبة بحروف خشنة مدة ثمانية شهور دون ان يتوخى

احد المسؤولين في المكتبة تطهير جدرانها من تلك الادران السافلة . وبتاريخ ١٠ كانون الثاني ١٩٤٢ تعهد المكتبة الاستاذ رامز بك سركيس وزير التربية الوطنية . فوقع نظره على تلك الخطوط المستهجنة فاستنكرها كل الاستنكار واصدر الاوامر بتنظيف الجدران من تلك الاقذار اجلالا لمقام المكتبة وشرف روّادها . وقد وبخ موظفي المكتبة المسؤولين توبيخاً عنيفاً لتهاونهم في صيانة كنوزها وانتهاكهم حرمتها وعدم محافظتهم على شرف دولتهم وكرامتها . ذلك ما انتهت اليه حالة المكتبة يومئذ من التهاون والاستهتار .

الفصل الثالث والثلاثون

ابرهيم معوض امين دار الكتب الحالي

انتظم الاستاذ ابرهيم معوّض في سلك موظفي دار الكتب اواخر العام ١٩٢٤ وما لبث ان تعيّن سكرتيراً لها فنهض باشغال وظيفته نهوضاً مشكوراً . وقد طوى معي خمس عشرة سنة (١٩٢٤ - ١٩٣٩) في تلك الدائرة لم انتسّم منه خلالها غير الهمة والصدق وسلامة الطوية . فكان مثال العامل الحقيقي باخلاقه وآرائه فصلاً عن اكبابه على النهوض بما فرض عليه من الواجبات . وقد اصابه ما اصابني من غمط الحقوق مما يتنافى والعدل وكرامة الوظيفة والعواطف الانسانية . فتحمّل ذلك كله كما تحملته انا بصبر جميل نظراً الى ما عُرف عنه من تربية صحيحة وادب جمّ .

ولما فرغ كرسي امانة دار الكتب بتعيين السيد هكتور خلاط قنصلاً لبنانياً في مدينة سان باولو بالبرازيل اتجهت الانظار الى الاستاذ ابرهيم الذي برهن عن كفاءة تامة مقرونة بادارة حكيمة وخبرة طويلة . فاصدر رئيس الجمهورية مرسوماً مؤرخاً في ٢٣ شباط ١٩٤٦ بتنصيبه اميناً لدار الكتب مكافأة لجهوده واخلاصه . وقد سارت دار الكتب في عهده سيراً محموداً يدل على ما اتصف به من النباهة والنزاهة والحرص على الكنوز التي يتولى امانتها وقد زادت في ايامه زيادة ملموسة يحمد لاجلها .

الفصل الرابع والثلاثون

عناية وزارة التربية بتعزيز دار الكتب

تنبهت وزارة التربية الوطنيـــة والفنون الجميلة الى الحيف الذي الحقه بعض موظفيها السابقين بدار الكتب اللبنانية . فقامت اليوم تعالج بحكمتها هذا الحيف بتعزيز هذه الدار الثقافية واعادة الاعتبار لمقامهـــا الادبي . هكذا تيسر لتلك الوزارة ان تفتح عصراً جديداً من الرقي والنجاح لذلك المعهـــد الادبي بتوفير موارده التي اصبحت الان اضعاف اضعاف ما كانت عليه في الماضي . وبعدما كانت تلك الاعتمادات المالية لا تتجاوز احياناً ثلاث مابة ليرة لبنانية في العام الواحـد بلغت في بعض الاعوام المتأخرة زهـــاء خمس وعشرين الف ليرة لبنانية . وبهذه الوسيلة استطاعت دار الكتب ان تقتني في كل سنة الوفاً من المجلدات التي يحتاج اليها رواد المطالعة وطلاب العلم . اضف الى ذلك تزويد دار الكتب بكل ما تحتاج اليه من التسهيلات والمقتنيات المادية والادبية .

فنسدي الشكر للوزارة المشار اليها على مكرمتها السخية وعنايتهـا بتنشيط المعارف واعلاء شأن العلم بين ابناء الوطن .

الفصل الخامس والثلاثون

مجموعة الصحف العربية والشرقية

تفرّدت دار الكتب اللبنانية بمجموعة نفيسة من الصحف العربية وغير العربية التي صدرت في الانحاء الشرقية والغربية . وهي فريدة تسنّى لي جمع شتاتها وتنظيمها والحرص عليها حتى اصبحت قرّة للعين ومرجعاً لاهل البحث وروّاد الآثار الصحافية . واليك كلمة وجيزة عن تلك المجموعة من يوم انشأتها عام ١٨٨٧ حتى دخولها عام ١٩٤٦ في حوزة الجمهورية اللبنانية :

١ ـ انشاء المجموعة

شُغفتُ منذ حداثتي بمطالعة الصحف العربية والحرص عليها . وخطر ببالي منذ السنة ١٨٨٧ ان اضع تاريخاً للصحافة والصحافيين . فاخذتُ النقط تلك الصحف من شتى الاطراف وافتّش عن شواردها وغرائبها وبقاياها البالية وعتائقها المهجورة حتى ظفرتُ منها بسهم وافر . ثم جعلت اراسل الصحافيين والادباء والاصدقاء ومحبّي الآثار الكتابية في طول البلاد وعرضها. واقمت وكلاء ورقباء في كل قطر اطمعتهم بالمال واتحفتهم بالهدايا وكلفتهم ان يجمعوا لي كل ما نُشر او يُنشر في صقعهم من جرائد ومجلات . ولم اكتفِ بذلك بل نهضت باسفار شاقة الى اطراف اسيا وافريقيا واوربا وراء هذا الهدف المأثور . فكان لي منها ما كان بتوفيق الله عزّ وجل .

٢ ـ قسم المجموعة العربي والاقتصار فيه على العدد الاول

ازدادت الصحف العربية في مختلف البلاد فازداد نشاطي الى احرازها . غير

اني رأيت ان جمعها برمّتها يتطلب اموالا طائلة ويفتقر الى اماكن واسعة تُحشد فيها . فاكتفيت بانتقاء العدد الاول من كل صحيفة وضممت الى ذلك اعداداً ممتازة صدرت في مواسم خاصة او في وقائع تاريخية مشهورة او في احوال استثنائية . وكان اذا تعذّر علي الحصول على العدد الاول استأثرت بالعدد الثاني او الثالث . هكذا تجمّع لدي زهاء اربعة آلاف جريدة ومجلة عربية مختلفة العناوين ظهرت في انحاء المعمورة . بينها اكثر من ثلاثة الاف صحيفة ذات عدد اول .

٣ ـ قسم المجموعة غير العربي

عُنيت ايضاً بجمع كل ما نُشر من الصحف في لغات حروفها شرقية كالتركية والفارسية واليونانية والارمنية والعبرية والسريانية والحبشية والكردية والتترية والاردوية الخ . ثم ألحقتُ بها صحفاً اوربية طُبع جانب منها في بلاد الشرق او انشأها الشرقيون في بلاد الغرب . وقـــد اربى عددها على ثلاثة الاف صحيفة فاصبح مجموع هذه وتلك سبعة آلاف صحيفة ونيفاً .

٤ ـ تنظيم المجموعة

راعيتُ في تنظيم المجموعة وضعَيها الجغرافي والتاريخي معاً . فقسمتها عمـلاً بالتنظيم الجغرافي خمسة اقسام كعدد قارات الارض . ثم قسمتُ كل قارة الى دُول وجعلت للدول فروعاً وفروعَ فروعٍ تتناول عواصمها ومدنها وقراهـــا . وجريتُ عملاً بالتنظيم التاريخي طريقة التسلسل في صدور كل صحيفة من القديمة نشأة حتى الحديثة عهداً . ونظمت لتلك الصحف عـــلى اختلاف لغاتها وبلدانها فهارس مستوفاة احتوت على عنوان الجريدة او المجلة وعلى اسم منشئها وعددها وتاريخها ومكان صدورها .

٥ ـ المجموعة في نظر العلماء وهواة الاثار

ذاع خبر المجموعة في الاقطار الشرقية والغربية على اثر ظهور الاجزاء الاولى

من مولّفي « تاريخ الصحافة العربية » عام ١٩١٣ فجعل فريق من العلماء وهواة الآثار يراسلوني في استنساخ بعض اعداد منها اكل الدهر عليها وشرب . وراح فريق ثان يطلب رسوماً فوتغرافية عن بعض اعداد ممتازة او فريدة يهمه امرها . وحاول قوم احراز قسم من المجموعة كالتركي او الارمني على حدة ودفعوا لي مبلغاً وافراً . فرفضت البيع لاني احببت واحب ان تُحصر المجموعة برمّتها في حوزة دولة تقدر قيمتها وتحرص عليها .

وفي ربيع السنة ١٩٢٥ وفد عليّ عالمان مستشرقان ليُشرفا على ما لديّ من الصحف التركية لا غير . ولبثا يختلفان الى منزلي ستة عشر يوماً حتى اعجبا بتلك الصحف كل الاعجاب وصرّحا لي بانهما لم يظفرا في البلاد التركية عينها بما ظفرا به في مجموعتي التي اشتملت على سبعمائة وستين صحيفة تركية مطبوعة بحرف عربي امّحى ذكره في اثناء رئاسة اتاتورك للجمهورية التركية .

٦ ـ نوادر المجموعة وفرائدها وغرائبها

انطوت المجموعة على فرائد لست ابالغ اذا قلت انها جواهر ثمينة او درر يتيمة . وقد دفعت ثمناً لبعض الجرائد يضاهي اكثر من وزنها ذهباً لتيقني انه ليس لها نسخة ثانية في العالم . فاشتريت مثلاً جريدة « الانباء » لابرهيم المويلحي في مدينة ليفورنو واشتريت كلّا من جريدة « مرآة الاحوال » و « الخلافة » و « الغيرة » الصادرة في لندن بمبلغ اثني عشر جنيهاً ذهباً . وابتعت كلّا من « جريدة « برجيس باريس » و « الشمس » في باريس و « المستقل » في غالياري بجزيرة سردينيا بمبلغ مائة وثمانين فرنكاً ذهباً . واقتنيت كلّا من جريدة « ابو نظارة الزرقاء » و« بستان الاخبار » في القاهرة و « نفير سوريا » في بيروت و « الاعتدال » في الاستانة بمبلغ عشر ليرات عثمانية ذهباً ، وقس عليها كثيراً من نوادر المجموعة تُعدّ كما نوّهت من اثمن الجواهر وانفس الدرر . واتفق لي غير مرة ان اضطررت الى مشتري مجموعات كاملة من الصحف طمعاً بالحصول على عددها الاول لا غير .

٧ - الصحف الخطية في المجموعة

مما يلفت الانظار في المجموعة ما تضمنته من صحف شتى مخطوطة باليد كان بعض اصحابها قد فرّوا من ديار الشرق الى ديار الغرب ليعيشوا تحت راية الحرية والطمأنينة. فكانوا لِندرَة المطابع العربية في اوربا يكتبونها بخطوط ايديهم او يطبعونها على الحَجر. ثم يرسلونها الى القطر المصري والبلاد العثمانية ولاسيما الى عاصمة السلطنة في بريد دولة اجنبية او ضمن رزم تجارية او يبعثون بها على يد السفراء والقناصل. ولهذه الصحف الخطّية شأنها الاثري لا من حيث اشتمالها على خطوط منشئيها فقط بل لِندرتها وخطورة مواضيعها وتباين نزعاتها السياسية ولهجاتها الاقليمية واشكال خطوطها البديعة التي تنمّ عن براعة اصحابها وكمال ثقافتهم.

٨ - التنافس في اقتناء المجموعة

اشرف رهط من العلماء والمستشرقين واهل الثراء ومحبي الاثار القديمة على هذه المجموعة الصحافية واثنوا الثناء الجم عليها وتاقوا الى الظفر بها. ولم يتمالك بعضهم من المجاهرة بانه « يستحيل على دول الارض قاطبة بعد الآن ان تكوّن مجموعة تضاهيها عدداً وخطورة وكمالا!

وممن رغب في اقتناء المجموعة نظام حيدر آباد في الهند فقد عرض ثمناً لها قدره خمسة الاف جنيه انكليزي ذهباً. وعالجت جامعة شيكاغو مشتراها على يد عميدها يوحنا برستيد بمبلغ خمسة وثمانين الف دولار. وطلبت جامعة القدس اليهودية شراءها بمبلغ اربعة الاف جنيه ذهباً. ذلك كله طبقاً لوثائق رسمية محفوظة لدي. انما آثرت ان اهبها هبة لجامعة فؤاد الاول في القاهرة لتبقى بانها تكون هناك في حرز حريز يتعهدها اولياؤها ويحرصون عليها ويواصلون الجهود في انمائها.

٩ - دور الجمهورية اللبنانية في المجموعة

اطّلعت الجمهورية اللبنانية على ذلك كله فكَبُر عليها خروج هذه التحفة

الثمينة من بلادها . وحرصت على الاحتفاظ بها في العاصمة فقرّرت ضمّها الى دار الكتب الوطنية لتنشىء منها معرضاً يعزّز مقام الصحافة الشرقية عموماً واللبنانية خصوصاً . اما الآن وقد غدت هذه المجموعة النفيسة في حوزة لبنـان وطني العزيز فلست ارى الا ان اهنئه بها . وألفت انظار اوليائه ليصدروا الاوامر الى ادارة المكتبة كي تتعهدها وتحتفظ بها كما تعهدتها انا واحتفظت بهـا مدّة ستين عاماً . ولتكن مباركة على لبنان وعلى دار الكتب العزيزة على قلبي !

١٠ - محاولة انتزاع المجموعة الصحفية من الحكومة اللبنـانيـة وعريضتنا الى رئيس الجمهورية بهذا الشأن

حاول بعضهم انتزاع هذه المجموعة الصحافية من يد الحكومة اللبنانية فاخذوا يهيجون الخواطر ويحيكون الدسائس للفوز بالمرام. فنهضت للحال اقاوم محاولات اولئك النهامين الذين ارادوا الاصطياد في الماء العكر . ولاجل ذلك قابلت رئيس الجمهورية اللبنانية ورفعت اليه عريضة اصرح فيها بخطورة المجموعة راغباً اليه ان يصدر الاوامر بابقائها في لبنان والمحافظة عليها . فما كان من رئيس الجمهورية الا ان ادرك نفاسة هذه المجموعة الصحافية وقيمتها الاثرية والادبية فاتخذ قراراً بمجلس الوزراء يضمن بقاءها في حوزة الحكومة اللبنانية والحرص عليها الى ما شاء الله . واليك نص العريضة المذكورة :

فخامة الشيخ بشاره الخوري رئيس الجمهورية اللبنانية المعظم

بعد تادية فروض الاجلال والاخلاص .

طالعت في بعض الجرائد ان مجلس الوزراء قرر ان يدرس قضية مجموعـــة الصحف ليتبين هل يجب ان تعتبر في جملة الاثار ام لا ؟ فاذا كان الاول حتم ان يحتفظ بها عملاً بقانون « حفظ الاثار » والا فمن الجائز التسمح باخراجهـــا من لبنان .

استأذنكم يا صاحب الفخامة في التصريح بان مجموعة الصحف المشار اليها يجب

ان تعتبر بكل حق من اثمن الآثار التي يفرض على لبنان ان يحرص عليها لكونها فريدة من نوعها ولا نظير لها في بلاد الشرق والغرب على الاطلاق .

لعمري كيف لا تعتبر هذه المجموعة في حكم « الاثار » وقد حوت العدد الاول فقط او الاقدم من كل جريدة ومن كل مجلة عربية وشرقية ظهرت في الخافقين ؟ وقد التقطتها بعناء جسيم من اطراف آسيا وافريقيا واوروبا واميركا الشمالية والجنوبية . وقضيت ستين سنة كاملة عاكفاً ليل نهار على البحث والتنقيب والمراسلة حتى تيسر لي الظفر بفرائدها وخرائدها . ثم نظمتها تنظيماً جغرافياً وتاريخياً محكماً لتسهيل مطالعتها .

لا يخفى على فخامتكم ان كل كنز ثمين قلّ من يكترث له او يعرف قيمته ما دام محتجباً عن الابصار . ولكنه متى عرض للعيان تجلت خطورته وتهافت الغادي والرائح للاشراف عليه والتثبت من حقيقة شأنه .

اعتقد يا صاحب الفخامة اعتقاداً راسخاً ان الحكومة اللبنانية متى تسنى لها تنظيم تلك الجواهر الثمينة بشكل معرض في دار الكتب تقاطر جماهير الادباء والصحافيين وعلماء المشرقيات من كل حدب وصوب ليطلعوا عليها ويستفيدوا من مضامينها ويطلقوا الالسنة بالثناء على تشبث اقطاب لبنان ببقائها في وطنهم .

وحسبي ان اذكر لفخامتكم على سبيل المثل جريدة « لبنان » التي اسسها عام ١٨٦٧ سلفكم داود باشا المغفور له ونشرها باللغتين العربية والفرنسية في بيت الدين عاصمته . فهي بلا ريب قطعة اثرية ثمينة لا نظير لها البتة . وهيهات ثم هيهات ان تفوز الحكومة اللبنانية في عهدنا بمثال منهـا ولئن بذلت مليوناً من الليرات ثمناً لها . قيسوا عليها مئات والوفاً من الصحف الثمينة التي انطمس خبرها وباد اثرها ولم تبقَ مكنوزة الا في هذه المجموعة فقط .

لست اغالي يا صاحب الفخامة ان صرحت بانه يستحيل على دول الارض طراً ان تكوّن مجموعة تحاكي هذه المجموعة بعددها واهميتها وترتيبها وكمالها . لان

اغلب تلك الصحف كما تعلمون دخل في خبر كان وُنسجت عليه عنا كب النسيان . وقد سبق فريق من هواة الآثار فدهشوا بما شاهدوا بينها من صحف جمة نادرة الوجود منقطعة النظير وجاهروا على رؤوس الاشهاد بانه يتعذر الحصول على انموذج منها ولو بذل في سبيل مشتراه غنى كسرى ومال قارون .

بعد هذا التصريح نرى البعض واقفين بالمرصاد يحاولون انتزاع هذه المجموعة الفريدة من يد الحكومة اللبنانية بعدما قررت فخامتكم ان تمتلكها وتحرص عليها كل الحرص .

فارجو كل الرجاء من فخامتكم بل استحلفكم باعز ما لديكم ان تحولوا دون الاستهتار بمثل هذه الجواهر اليتيمة وتشددوا الاوامر بابقائها تحت راية الارز المباركة والعزيزة على قلبكم وعلى قلب كل لبناني مُخلص .

« اطال الله تعالى بقاكم ذخراً وفخراً »

بيروت ١٦ تموز ١٩٤٦

فيليب دي طرازي

الفصل السادس والثلاثون

ضرورة الاستمرار في المحافظة على المجموعة الصحافية وانمائها

لما اقدمت على انشائي المجموعة الصحافية المار ذكرها رسمت لها خطة تسير عليها في مستقبل الزمان بطريق النمو والزيادة كي تأتي بالفـــائدة التي انشأت لاجلها . هكذا تستمر المجموعة سائرة في سبيل النجاح والازدهار يوماً بعد يوم وعاماً بعد عام . ومن دون ذلك تبقى المجموعة عقيمة لا فائدة منها على الاطلاق .

ساقني الى هذا التصريح انه مرّ على تسليمي المجموعة الصحافية الى الحكومة اللبنانية ستة اعوام كاملة وهي باقية على حالها دون زيادة البتة . فاذا بقيت الحال على هذا المنوال اتأسف كثيراً لقلة عناية المسؤولين عن هذه المجموعة الثمينة التي ضحيت كل غال ورخيص لاجل جمعها وتنظيمها وصيانتها والاستفادة منهـــا . ولبلوغ المرام لا يتكلف المسؤولون كبير عنـاية للوصول الى الضالة المنشودة . ففي بيروت دائرة خاصة للمطبوعات يرتبط بها الصحافيون ويراجعونها في جميع شؤونهم ويرسلون اليها نسخاً معدودة من كل جريدة او مجلة يطبعونها . فالدائرة المذكورة تستطيع املاء الفراغ في المجموعة بتكليف اصحاب سلك الجرائد بان يقدموا لها العدد الاول من صحفهم لكي يضاف الى المجموعة المشار اليها .

كل ما رويته عن دائرة المطبوعات في الحكومة اللبنانية يمكن تطبيقه عـلى دوائر المطبوعات في البلدان التي تصدر فيها جرائد باللغات التي تشتمل عليهـــا المجموعة المذكورة . وتسهيلاً لهذا الامر اعتقد ان دائرة المطبوعـات الموقرة في لبنان، وهي المعروفة بالنشاط والغيرة على تعزيز الاداب واعلاء منـار العلوم ، لا تحجم عن تكليف دوائر المطبوعات في سائر البلدان كي يتكرموا بارسال العدد الاول من جميع الجرائد والمجلات التي صدرت وتصدر في انحاء بلادها .

وبهذه الوسيلة لا يمضي وقت يسير حتى تصبح هذه المجموعة الصحافية مرجعاً عاماً لكل حريص على كنوز الادب وآثار الادباء من ابناء الضاد وسواهم .
ويكون للبنان الفخر الاعظم في احرازه هذا الكنز الثمين الذي تحسده عليه سائر الاقطار شرقاً وغرباً .

فهرس

خزائن الكتب العربية في الخافقين

المجلد الرابع

صفحة

صفحة

صفحة

الجزء الثاني

تكريم

الفيكونت فيليب دي طرازي

مؤسس دار الكتب اللبنانية

بقلم

لجنة التكريم

توطئة

نشرنا في الجزء الاول اخبار دار الكتب اللبنانيـــة منذ نشأتها حتى تخلّى مؤسسها الفاضل عن ادارتها (١٩١٩ — ١٩٣٩) . والآن نشفع ذلـــك الجزء بجزء ثانٍ نصدّره بترجمة الفيكنت ونردفها بوصف حفلة تكريمية في ٢٣ شبـاط ١٩٤٠ وما قيل فيها من الخطب والقصائد . ونختتم ذلك كله ببعض مـا نشرته الصحف عن تلك الحفلة معبّرة عن الرأي العام وعن شعور الامّة واعجابهـــا . ويتضمن هذا الجزء الثاني فصولا خمسة على عدد المواضيع التي احتوى عليهـا كما سترى . ونعتقد ان هذا الاثر الادبي الذي نزفه الى انصار العلم واصدقـاء المحتفى به سيبقى مدى الازمان عنواناً للانصاف والعدل وبرهاناً على معرفة الجميل .

لجنة تكريم

مؤسس دار الكتب اللبنانية

الفصل الاول

ترجمة الفيكنت فيليب دي طرازي

بقلم الخورفسقفوس اسحق ارمله

اولا

نشأته ـ معيشته ـ اخلاقه

هو فيليب ابن الكنت نصرالله بن انطون ابن المقدسي نصرالله بن اليـــاس بن بطرس بن يعقوب بن بطرس طرازي . ابصر النور في بيروت بتاريخ ٢٨ ايار ١٨٦٥ وحصّل العلوم في المدرسة البطريركية وفي كلية الاباء اليسوعيين. فاحرز من المعارف اللغوية والثقافة العالية اوفى نصيب . ثم غادر الكلية ريانًا من العلم والادب وانصرف الى الاعمال التجارية في مكتب الكنت نصرالله والده المذكور في الخير . وكان كلما نما في العمر نما معه حب الدرس والتنافس في جمع الكتب لا يقعده ذلك عن خدمة الانسانية والمصالح الوطنيـــة ومجالسة الادباء ومراسلة العلماء .

ومن عاشر الفيكنت ووقف على شيء من اعمال حياته الخاصة والعامة عرفه منزهاً عن المنافع الشخصية متجرداً عن القضايا السياسية غيوراً على الاعمال الخيرية والادبية. ومن مزاياه انه قلما اعتد بنفسه او تأنق في ملبسه وفي مأكله ومشربه. وهو يعامل الناس معاملة واحدة سواء اختلفوا في الرأي والدين ام اتفقوا لانـه يعدهم واحداً في الانسانية . وهو يخضع للحق ولئن فيه اذى لمصلحتـه . واذا قصده احـد لـبّى طلبه لان صنع الاحسان ملازم له في جميع ادوار حيـــاته . ويتحاشى الفيكنت المجادلات العقيمة ويستأثر بالعزلة اذا رام ان يكتب شيئاً .

ويراجع مراراً ما يكتبه قبل نشره . وهو كثير التدقيق في مباحثه لا يمل الشغل حتى يظفر بضالته .

تصدى فريق من الكتبة لانشاء مقالات في وصف اخلاق الفيكنت ومعيشته نقتصر منها على نبذة نشرها المستشرق الالماني مرتين هرتمن (١٨٥١ - ١٩١٩) في كتاب رحلته الى سوريا ولبنان هـذا تعريبها : « صادفت في ادارة جريدة (لسان الحال) ببيروت رجلاً اعتدّه فريداً بين اعيان تلك المدينة وهو الفيكنت فيليب دي طرازي، زرته في منزله فخلّفت فيّ تلك الزيارة تأثيرات بليغة . كنت افتكر ان الفيكنت من المدعين بالعظمة فاذا هو متناه باللطف انيس المعاشرة ونابغة واسع المعرفة بكل شخص تطرقنا لذكره وبكل حادثة بحثناها . وشاهدت في خزائنه ذخائر علمية جمعها بسعيه وجدّه . بل هي تدل على قوة اللبناني متى شاء امراً وعلى ذكاء الفيكنت ومقامه العلمي . واذا انتهت تلك النفائس الى اوربا كان لها هناك شأنها الكبير » .

ثانياً

مساعي الفيكنت الخيرية

يتعذر على قلمنا سرد جميع صنائع الفيكنت وعوارفه عند البائسين والمعوزين ممن اخنى عليهم الدهر بكلكله . وحسبه انه تولى رئاسة جمعيات خيرية شتى ابدى فيها من جلائل الاعمال ما خلد له ذكرى طيبة على كرور الاحقاب . وتُعد في طليعة تلك الجمعيات شركة مار منصور دي بول التي ترأسها ثماني سنوات (١٨٩٨ - ١٩٠٦) وما برحت الالسن تتحدث لعهدنا بما اتاه من المبرات مدة ست وستين سنة مرت على انضوائه الى لوائها . وقد عرفت له تلك الشركة مآتيه الوافرة فوجهت اليه عمدتها كتاباً مؤرخاً في ٣ آب ١٩٠٦ حبّرته بآيات الثناء ومعرفة الجميل نقتطف منه ما يلي :

« ... ان اخوانكم ابناء هذه الشركة يذكرون بالشكر والافتخار مـــا لكم في سبيلها من الايادي البيضاء من يوم انضوائكم الى لوائها وخصوصاً اثناء رئاستكم العامة عليها ... فقد احييتم رسوم مؤسسيهـا وجمعتم اثار الاولين من اعضائها وسعيتم لتجديد برنامجها السنوي وعنيتم باوقافها ومدارسها وجمعياتهـــا وحفلاتها وسائر مصالحها الخيرية . . . فضـلاً عن التبرعات السخية والخدم الجليلة التي بذلتموها لها . وهي تذكر لكم ايضاً مـــا امتزتم به من علو الهمة وشهامة النفس ونبل المقاصد ... حتى صارت تتفاخر وتتباهى بين سائر الجمعيات الخيريـة بانتظام احوالها ونمو وارداتها واتساع دائرة اعمالها المبرورة . وبرهاناً على ما سبق ذكره رأينا ان نزين قاعـة الاجتماعات برسمكم الكريم الذي سيبقى اثراً خالداً يذكرنا بمساعيكم المحمودة وغيرتكم الوقادة ... »

وما اصطنعه الفيكنت عند شركة مار منصور اصطنعه كذلك عند « جمعيـة المساعي الخيرية السريانية » التي انشأها والده عام ١٨٨٤ في بيروت كما هو معلوم. وقس عليها « جمعية العائلة المقدسة » وقد تولى رئاسة كلتيهما عهداً طويلاً .

وتجلت اريحية الفيكنت خصوصاً في اثناء الحرب العظمى (١٩١٤ - ١٩١٨) مما جعل خاصة القوم وعامتهم يمتدحون ميزاته ويلهجون بحسناته . فقد افرغ كل همة في انقاذ البائسين والمنكوبين . فاطعم الجياع وكسى العراة وتفقـد المرضى وآوى الغرباء بلا تمييز بين مذهب ومذهب . وكان اذا خرج من داره حمـــل ما استطاع حمله من الزاد ووزعه على من كانوا مطروحين في الطرق يتنبون من شدة الفاقة والجوع .

وعمل الفيكنت خصوصاً على تخفيف مصائب اهل العلم وحملة الاقلام لكساد بضاعتهم في تلك الآونة العصيبة . يؤيد ذلـــك ما نشرته جريدة « المقتبس » الاسلامية الدمشقية بقلم العلامة محمد كرد علي رئيس المجمع العلمي العربي بعنوان « المحسنون » قال ما نصه : « وكالفيكنت فيليب دي طرازي في بيروت الذي لم

يدع ستاراً في بيته الا خاطه البسة للمحتاجين . وهو قد جعل دَيدَنه صباح مساء ان يوزع الخبز والطحين على معسري بلدته » .

ولم تنحصر مهمة الفيكنت في اغاثة ابناء بلدته بل تناولت خــلال الحرب المذكورة جماً غفيراً من اهــالي بعض قرى لبنان كدرعون وبطحا وحريصا وريفون وبقعاتا وميروبا ورعشين ومزرعة كفردبيان وغيرهــا من القرى التي فتكت باهاليها المجاعة والامراض . فاستحضر منها ستين يتيماً ويتيمة وادخلهم المآوي الخيرية ببيروت صيانة لحياتهم . ثم اسعف بعض المنكوبين في تلك القرى باكسية خاطتها امه وزوجته وشقيقته وبعث بها الى دير الشرفه لتوزع عليهم .

وانضم الفيكنت الى لجنة تالفت من اعيان المسلمين والمسيحيين عــام ١٩٢٠ لاغاثة المنكوبين في حوادث جبل عامل . فجمعوا ثمانية الاف جنيه مصري ذهبي سوى الارزاق والالبسة ووزعوا ذلك كله بدقة وامانة على المعوزين والمنهوبين.

وتجرد الفيكنت عام ١٩٢١ لمساعدة ابناء ملته السريانيــــة الذين شرّدتهم الحكومة التركية وطردتهم من اوطانهم ظلماً وعدواناً وقد ناهز عــددهم ثلاثمائة عائلة . فلجأوا الى بيروت بحال يرثى لها لا يملكون شروى نقير . ونهض الفيكنت نهضة شريفة لتخفيف النكبة عنهم وجبر خواطرهم . فجمع شملهم وابتنى منازل لسكناهم في بستان فسيح وقفه هو للمساكين وفي بساتين اخرى سعى لمشتراهــا بماله وبما جمعه من صدقات المحسنين . ثم جعل يطوف تلك المنـــازل صباح مساء ويزور اولئك اللاجئين متعطفاً عليهم مفرغاً الجهود في تأمين معيشتهم . وكان اولئك اللاجئون رجــالا ونساء كباراً وصغاراً يتهافتون عليــه ويلتفون حوله التفاف الابناء حول ابيهم ويخطفون يديه كلتيها يقبلونها بعاطفـــة الاحترام والاخلاص والشكر .

وشوهد الفيكنت مراراً يتفقد مرضى اولئك المنكوبين ويوصي الاطباء بهم

ويبعث اليهم العلاجات اللازمة . وكان يتصدر اعراس شبانهم وعماد اطفالهم ويشهد مآتم موتاهم . وكثيراً ما دعا فريقاً منهم ليتناولوا الطعام على مائدته فيقوم بخدمتهم كأنهم هم اصحاب المنزل وهو ضيفهم . ولا ريب في ان ما صنعه معهم من المبرات يظل مرسوماً مدى الايام على الواح قلوبهم وقلوب اعقابهم من بعدهم .

ثالثاً

تآليف الفيكنت وآثاره الادبية

فُطر الفيكنت طرازي على طلب العلم واجلال ذويه . فاكب على المطالعة والبحث والتأليف بهمة لا تعرف الكلال . وغدت حياته سلسلة آثار غير منفصمة برهنت على ثقافته وسعة معارفه وعلى ما ادّاه من الخدم الجلى للعلم والعلماء . فصنف كتباً جمة نشر بعضها بالطبع وبقي البعض الاخر معداً للنشر .

فمن تآليفه المطبوعة نذكر :

١ – القلادة النفيسة في فقيد العلم والكنيسة . وهو كتاب فريد في بابه ضمنه ترجمة العلامة اقليميس يوسف داود مطران دمشق (١٨٧٩ – ١٨٩٠) واردفها بمراثي ذلك الحبر النبيل في ٢٠ لغة شرقية وغربية .

٢ – تاريخ الصحافة العربية « مصور » في اثني عشر مجلداً . نشر منها اربعة مجلدات نقل بعضها الى اللغتي الانكليزية والالمانية .

٣ – السلاسل التاريخية في اساقفة الابرشيات السريانية « مصور »

٤ – ديوان قرة العين . يتضمن زهاء ثلاثة الاف بيت من عيون الشعر في شتى المواضيع .

٥ – نبذة مختصرة في الصحف العربية المصورة .

٦ — عصر العرب الذهبي .

٧ — بحث تاريخي علمي اثري عن القرآن .

٨ — علاقات ملوك فرنسا بملوك العرب .

٩ — المخطوطات المصورة والمزوقة عند العرب .

١٠ — اللغة العربية في اوربا (ثروتها ومكانتها) .

١١ — عصر السريان الذهبي وهو كتاب وحيد في بابه لم يتسنّ لكاتب قبل الآن ان يطرق مثل هذا الموضوع المبتكر .

١٢ — خلاصة اعمال شركة القديس منصور منذ نشأتها حتى السنة ١٩٠٦ .

١٣ — الرأي الامين في حل بعض المشاكل الزواجية عند الشرقيين بقلم المطران انطون فندلفت طبعه الفيكنت ونقله الى اللغة الفرنسية .

١٤ — تاسيس دار الكتب الكبرى في بيروت .

١٥ — ارشاد الاعارب الى تنسيق الكتب في المكاتب (عربي وافرنسي) . وهو اول كتاب في موضوعه تحرى فيه مؤلفه تنظيم المكتبات العربيـة طبقاً لاحدث القواعد الفنية واسهلها .

١٦ — خزائن الكتب العربية في الخافقين (اربعة مجلدات) وهو كتاب لم يسبق له مثيل في اللغة العربية اتى فيـه مؤلفه على وصف ٨٥٧ مكتبة قديمة وحديثة فتطرق فيها ايضاً على ذكر المكتبات العربية في اوروبا واميركا . والمع الى تراجم علماء المشرقيات واخبار هواة الكتب ومشاهير خزنتهـا . واستقصى البحث عن الخطاطـين والنساخ وتاريخ الطباعة وبواكير المطابع وعن سارقي الكتب واستعارتها واستوفى التنقيب عن المخطوطات العربية المصورة والمزوقة . ثم عدّد الرزايا والفواجع التي حلت بخزائن الكتب قديماً وحديثاً والحقها بالنوازل الادبية التي فتكت بالكتب والمكتبات .

١٧ — اصدق ما كان عن تاريخ لبنان وصفحة من اخبـار السريان في ثلاثة مجلدات ويعرف ثالثها بعنوان « رد العسف والبهتان عن كتاب اصدق ما كان »

ضمنه مؤلفه الشيء الكثير عن تواريخ لبنان مما لم يدونه كاتب قبله من حقائق راهنة كانت مجهولة قبل الان .

١٨ – شذرات نشرت في تاريخ « لبنان » الذي طبعته متصرفية جبل لبنان في اثناء الحرب الكبرى (١٩١٤ – ١٩١٨) بمعاونة بعض العلماء .

١٩ – افتتاح دار الكتب اللبنانية .

٢٠ – ذكرى قدماء تلامذة المدرسة البطريركية في بيروت (١٨٦٥–١٩٥٠).

٢١ – للذكرى والتاريخ (بحث جدلي دافع فيه المؤلف عن كرامته وحقوقه الشرعية) .

٢٢ – الكراسي البطريركية شرقاً وغرباً وعددها ٢٧ كرسياً . (طَبعَ هذه النبذة سنة ١٩٠٧ ثم اختصرها تحت عنوان « توطئة » وصدّر بها كتابه «السلاسل التاريخية .

٢٣ – منشور للبطريرك اغناطيوس بهنام بني مع ترجمته للافرنسية .

٢٤ – ترجمة المنشور الاول للبطريرك اغناطيوس افرام رحماني من اللغة العربية الى الافرنسية .

٢٥ – جريدة « الباكورة » انشئت عام ١٩٠٤ وكانت توزع مجاناً على اعضاء شركة مار منصور وعلى المحسنين اليها وعلى طلبة مدارسها في اثناء رئاسة المؤلف على تلك الشركة .

اما تآليف الفيكونت الغير المطبوعة او المعدة للطبع فهذه اسماؤها :

١ – ترويح الانفس في ربوع الاندلس .

٢ – مشاهير السياح والسائحات من الاندلس الى المشرق ومن المشرق الى الاندلس .

٣ – تاريخ نابوليون الاول .

٤ – تاريخ الدولة المصرية في عهد السلالة المحمدية العلوية .

٥ – صنّاجة الطرب في رياض الخُطَب ينطوي على كثير من الخطب التي

القاها الفيكنت في مناسبات شتى .

٦ - التحفة في تاريخ الشرفه .

٧ - ديوان نفحة الطيب وهو المجلد الثاني لما نظمه من الاشعار .

٨ - المنهل الصافي في ابدع القصائد المشتركة القوافي (كالحال والعجوز والغرب والعين والشرف والعلم الخ الخ ...)

٩ - الآثار الذهبية لشركة مار منصور الخيرية (جمع فيها اهم صكوكها الرسمية واغلب الخطب والتقارير التي تليت في حفلاتها الكبرى .

١٠ - سلسلة تاريخية لرؤساء شركة مار منصور ونواب رئاستها وجميع موظفيها في بيروت منذ عام ١٨٦٠ .

١١ - شجرة تاريخية لسلاسل بطاركة انطاكيه من عهد الرسول بطرس الى الزمان الحاضر عند جميع الطوائف الكاثوليكية وغير الكاثوليكية .

١٢ - جدول عام لبطاركة السريان الكاثوليك ضم اليه اسماءهم وانسابهم العصبية وتواريخ ولادتهم ووفياتهم وكهنوتهم واسقفيتهم وبطريركيتهم وتأييدهم البابوي وفرمانهم السلطاني وشعارهم الشخصي . واضاف الى ذلك مآثرهم العلمية والدينية والوطنية .

١٣ - البراءات البابوية : وهي مجموعة المراسيم الممنوحة من البابوات لبطاركة السريان لاتينياً وعربياً .

١٤ - كتاب «الفرامين والبراءات السلطانية» الممنوحة من سلاطين آل عثمان لبطاركة السريان الكاثوليك . جمعت ونقلت من اللسان التركي الى اللسان العربي .

١٥ - فهارس لكل الجرائد والمجلات الشرقية التي ظهرت في العالم باللغات السريانية والعبرانية والحبشية والارمنية والفارسية والتركية واليونانية والاردوية والتترية والكردية .

١٦ – شجرات نسبية لبعض الاسر الشرقية .

١٧ – نبذ تاريخية عن بعض اسر اسلامية ونصرانية .

١٨ – كشف المخبّآت عن سارقي الكتب واعداء المكتبات .

١٩ – قطر الندى في ردّ الصدى . ضم اليه القصائد ورسائل الثناء التي وردت تقريظاً لكتابه القلادة النفيسة .

٢٠ – مجموعة التقارير العلمية والاثرية التي قدمها المؤلف الى المجامع العلمية في اوربا والشرق .

٢١ – نبذة عنوانها « داود القرم اول استاذ لبناني في فن الرسم» وهي تحتوي على خلاصة آثاره ومآثره .

٢٢ – محفوظات دير الشرفه في سبعة وعشرين مجلداً ضخماً جمع فيها مع الخوري اسحق ارملة طائفة من الوثائق والصكوك والرسائل القديمة المكنوزة في خزائن الدير المشار اليه .

٢٣ – مقالات ومحاضرات ومساجلات في مواضيع شتى .

٢٤ – سلافة الالباء في مراسلات العظماء والادباء (ثلاثة مجلدات) احتوت رسائل تبودلت بين المؤلف وبين العظماء والعلماء والمستشرقين وهي مكتوبة بخطوطهم ومذيّلة بتواقيعهم .

٢٥ – ذكرياتي : هي مجموعة نفيسة من ذكريات المؤلف مدة قرن كامل دوّنها تباعاً ورتبها ترتيبا يروق المطالعين ويفيد المؤرخين وضمنها احاديث طريفة ونوادر ظريفة من كل فن وخبر .

٢٦ – مجموعة صحافية فريدة لا مثيل لها في العالم جمعها المؤلف من جميع الاقطار شرقاً وغرباً . وهي تحتوي على العدد الاول من كل جريدة ومجلة مطبوعة باللغة العربية يربو عدد صحف هذه المجموعة على اربعة الاف واربعمائة .

٢٧ – خطوط مشاهير العرب (وهي مكتوبة بايديهم ومذيّلة بتواقيعهم من سلاطين وملوك وامراء ووزراء وعظماء وعلماء وشعراء ورؤساء الدين وشهيرات النساء جمعها المؤلف في عدّة مجلدات ضخمة) .

٢٨ – الرتبة العددية في سلسلة بطاركة السريان الانطاكيين .

٢٩ – فوائد نقل الكرسي البطريركي السرياني من ماردين الى بيروت .

٣٠ – العقد الثمين في رسائل الاباء الى البنين : هي سلسلة مجلدات يبلغ عددها خمسة عشر مجلداً احتوت على جميع الرسائل الموجهة في القرنين الاخيرين من بابارات رومية والبطاركة والمطارنة والكهنة الى الاسرة الطرازية .. وهي مكتوبة بخطوط اصحابها وتواقيعهم واختامهم جمعها الفيكنت فيليب وجلدها تجليداً متقناً لنفاستها وتعدد مواضيعها . وهي بالحقيقة سجل تاريخي لم يسبق له نظير عند احدى الاسر الشرقية .

٣١ – المراثي والمناحات (ابحاث اصلاحية انتقادية تتعلق بمكان محدود واشخاص معلومين) .

٣٢ – عريضة مرفوعة الى الديوان الحربي التركي في عاليه . (تقع هذه العريضة في اثنتين وستين صفحة كبيرة كتبها الفيكنت دفاعاً عن نفسه وعن بعض اعيان بيروت بتهم عديدة ملفقة اخترعها امير لبناني منبوذ من عشيرته وممقوت من ابناء وطنه لبذاءة اعماله وسوء سيرته ووفرة الجرائم التي اقترفها طول حياته . وبداعي تلك التهم اقيمت الدعوى على الفيكنت ورفاقه في الديوان الحربي اثناء الحرب العظمى (١٩١٤ - ١٩١٨) وسجنوا جميعاً مع كبار المجرمين السياسيين . وقد اتهم في الوقت نفسه البطريرك القديس اغناطيوس افرام رحماني الذي كان يضطر على رغم شيخوخته ان يذهب الى ذلك الديوان الحربي حاملاً معه الفرمان السلطاني عملاً بالاصول المرعية لمن كان في رتبته . غير ان القائد التركي الكبير جمال باشا اراد ان يطلع بنفسه على تلك التهم فتحقق براءة المسجونين من جميع الجرائم المنسوبة اليهم فارسل كبير ياورانه الى السجن واستدعى المسجونين الى مقره حيث طيب خاطرهم وسرحهم بعد تبرئتهم مما نسب اليهم زوراً وعدواناً . اما الامير الخائن فقد انتهت حياته بمدينة بروكلن في الولايات المتحدة الاميركية . وهناك سولت له نفسه ان يستأجر حانوتاً في

شارع من الشوارع الكبرى وسوكره عند احدى شركات الضمان . فلم تنقض ثلاثة شهور حتى اضرم النار في ذلك الحانوت الذي اشتعل واشتعلت معه بناية عظيمة اشتملت على عدد وافر من المخازن ومكاتب التجارة ومنازل السكنى . فالتهمت النيران البناية برمتها وذهبت ضحيتها نفوس عديـــدة . وللحال قبضت الحكومة الاميركية على ذلك الامير المجرم فحكمت عليـــه بالحبس المؤبد مع الاشغال الشاقة وهناك لقي حتفه غير مأسوف عليه . ولا عجب في ذلك لان هـذا الامير نفسه قبل ذهابه الى بروكلان ، مثّل الرواية نفسها في لبنـان حيث احرق سنة ١٩١٠ معمل حرير السيد كمبسادس في عـــين لويس بالقرب من بعبـدات وقبض من شركة الضمان مبلغ اربعة آلاف ليرة انكليزية ذهبية . ذلك نزرٌ من الجرائم الكثيرة التي اقترفها هذا الامير طول حياته) .

رابعاً

القاب الفيكنت العلمية

تلك التآليف الحسان وتلك المآثر الادبية لفتت انظار ولاة الامر وارباب المجامع العلمية فقدّروا لصاحبها الفيكنت دي طرازي قدره . وخصّوه بالقـاب شريفة واصطفوه عضواً في انديتهم . ومن اشهر تلك الالقاب العلمية نذكر :

١ – امين دار الكتب اللبنانية ومؤسسها في بيروت .

٢ – امين دار الاثار اللبنانية ببيروت .

٣ – عضو المجمع العلمي العربي بدمشق .

٤ – عضو الجمعية العلمية الاسيوية بباريس .

٥ – عضو الجمعية الجغرافية بباريس .

٦ – عضو المجمع التاريخي بباريس .

٧ – عضو مجمع الفنون والاداب بباريس .

٨ – عضو الجمعية العلمية الاسلامية ببرلين .

٩ – عضو الجمعية الدولية لامناء دور الكتب .

١٠ – عضو اللجنة العليا لدار كتب الجامع الاقصى بالقدس الشريف .

١١ – عضو في المؤتمر القرباني الاورشليمي سنة ١٨٩٣ وهو اول مؤتمر من نوعه عقد في بلاد الشرق الادنى . (وقد لفظ الفيكنت خطبة بليغة في جلسته الثانية) .

١٢ – سكرتير مؤتمر الاثار الدولي ببيروت عام ١٩٢٦ .

١٣ – رئيس جمعية خريجي المدرسة البطريركية ببيروت .

١٤ – رئيس لجنة المكتبة الوطنية ببيروت .

١٥ – عضو اللجنة الادبية الفنية في دائرة راديو الشرق ببيروت .

١٦ – عضو مراسل في المجمع العلمي بموسكو .

واعلم ان المجمع العلمي الروسي المشار اليه لما احتفل عام ١٩٢٥ بمرور مائتي سنة على تأسيسه وجه الى الفيكنت دي طرازي دعوة خاصة ليحضر حفــلاته في موسكو وفي لينغراد، وافرز مبلغاً من المال لنفقات سفره ثم كرر دعوته برسائل بريدية وبرقية مجاهراً بانه يتباهى بضمه اياه الى رهط المدعوين . واحتذى حذوه « المؤتمر الدولي الثاني عشر للمراجع العلمية » الذي عقد عام ١٩٣٣ في بروكسل . وقس على ذلك كثيراً من مؤتمرات المستشرقين في مختلف العواصم كمؤتمر مدينة « الجزائر في شمال افريقية سنة ١٩٣١ ومؤتمر رومة سنة ١٩٣٥ ومؤتمر بروكسل سنة ١٩٣٨ .

ويطول بنا المجال لو تحرينا تتبع الالقاب والنعوت التي اطلقها على الفيكنت دي طرازي جمهور الكتّاب والشعراء والصحافيين . بيد اننا نكتفي للدلالة على ذلك بما نشرته مجلة « رسالة السلام » المارونية البيروتية بتاريخ ١١ ايار ١٩٢٩ تحت عنوان « اشهر الاعصر الادبية عنــد الامم » فانها بعدما بحثت عن عصر (بركليس عند اليونان وعصر (اوغسطس قيصر) عند الرومان وعصر الخليفـة

(المأمون) عند العرب وعصر (لاون العاشر) عند الايطاليين وعصر (لويس الرابع عشر) عند الفرنسيس قالت ما ملخصه : « . . . فالسيد الذي يستحق ان نلقب عصرنا باسمه هو رجل فضل كبير على الكتّاب .. . وعلى الشبيبة وعلى النشء الجديد . ذلك الرجل الجدير بهذا الشرف هو الفيكنت فيليب دي طرازي الذي يجدر ان نلقب عصرنا باسمه وندعوه « عصر الطرازي » ... اننا لا ننظر الى اصله الطيب ولا الى اخلاقه الكريمة ولا الى علومه الغزيرة ولا الى كثرة الاوسمة التي وهبه اياها الملوك والاحبار والجمعيات العلمية الشرقية والغربية بل الى تأثيره في محيطه . ولعمري اي رجل اثر في محيطه ونفع مثله ! »

خامساً

القاب الفيكنت الفخرية واوسمته

استحق الفيكنت دي طرازي نظراً الى وجاهته ونبل اسرته فضلاً عن منزلته الادبية ومآتيه الخيرية ان يتحفه اولياء الشأن والمحافل العلمية بالقاب الشرف وانواط الافتخار وهاك طرفة بما عرفناه منها :

١ – لقب « فيكنت » من بابا رومة

٢ – وسام « نجمة الصباح » من سلطان لحج (مرصع بالجواهر الكريمة من الدرجة الاولى) .

٣ – الوسام العثماني الثاني من السلطنة العثمانية .

٤ – الوسام المجيدي الثاني من السلطنة العثمانية .

٥ – وسام « الصليب الذهبي » الاول من رتبة القديس جورجيوس .

٦ – وسام « الشمس والاسد » ذو الرتبة الثانية من شاه ايران .

٧ – وسام « نيشان الافتخار » رتبة كومندور من باي تونس

٨ – وسام « القديس سلوستروس » رتبة كومندور من الكرسي الرسولي .

٩ – وسام « غريغوريوس الكبير » من الكرسي الرسولي ايضاً .

١٠ – وسام « محامي القديس بطرس » من الكرسي الرسولي .

١١ – وسام « الذكرى المئوية للقرن العشرين » من الكرسي الرسولي .

١٢ – وسام « الاستحقاق اللبناني » من الجمهورية اللبنانية .

١٣ – وسام « الارز » من الجمهورية اللبنانية ايضاً .

١٤ – وسام « المجمع العلمي الفرنسي » رتبة اوفيسيه .

١٥ – وسام « المجمع العلمي للفنون والاداب » .

١٦ – وسام « المجمع العلمي التاريخي » .

١٧ – وسام « حاملي الاوسمة العسكرية » من فرنسا .

١٨ – المدالية الذهبية لسكة حديد الحجاز من الدولة العثمانية .

١٩ – وسام « القبر المقدس » من بطريرك اورشليم .

٢٠ – وسام « جوقة الشرف » رتبة ضابط من دولة فرنسا .

٢١ – وشاح « الشرف » لمعرض بيروت عام ١٩٢١ .

ونضيف الى ما سبق تعداده من الالقاب والاوسمة مقابلة الفيكنت دي‌طرازي رهطاً من الملوك واقطاب الدول في فرص مختلفة نذكر منهم :

١ – عباس الثاني خديوي مصر .

٢ – فؤاد الاول ملك مصر .

٣ – مظفّر الدين شاه ايران .

٤ – البابا لاون الثالث عشر .

٥ – ميلان ملك السرب وزوجته الملكة ناتالي .

٦ – محمد الخامس السلطان العثماني .

٧ – البرنس يوسف عز الدين ولي عهد السلطنة العثمانية .

٨ – مسيو دومرغ رئيس الجمهورية الفرنسية .

٩ – فيصل الاول ملك سوريا .

١٠ – مولاي عبد الحفيظ سلطان المغرب الاقصى .

١١ – البرت الاول امير موناكو .

١٢ – رولان بونبرت عميد الاسرة البونبرتية الامبراطورية .

سادساً

مآثر الفيكنت الوطنية

عُرف الفيكنت فيليب دي طرازي في ادوار حياته باخلاصه لوطنه . فبذل في سبيل ذلك جهوداً اكسبته ثناء الخاص والعام . وله في الجمعيات الوطنية التي تولى ادارتها او انتظم في سلك اعضائها مواقف مشكورة تتلخص بما يلي :

١ – كان عضواً عاملاً في « الجمعية الاصلاحية » في بيروت في عهد السلطنة العثمانية . وكانت هذه الجمعية نواة للمؤتمر العربي الذي عقد سنة ١٩١٣ في باريس برئاسة الشيخ عبد الحميد الزهراوي .

٢ – اقيم مفتشاً عاما في « دوائر الاعاشة » التي انشئت في بيروت عام (١٩١٨ – ١٩١٩) لتوزيع الاقوات والالبسة والأدوية على البائسين بعد الحرب العظمى .

٣ – عُين عضواً وطنياً وحيداً عام ١٩١٩ في « لجنة تخمين العقارات التي احتلتها الجيوش الاجنبية في بيروت ولبنان .

٤ – كان عضواً في اللجنة العليا لجمعية « اتحاد الطوائف » سنة (١٩١٩ – ١٩٢٠)

٥ – مثّل طوائف الاقليات من سكان لبنان في « مجلس المستشارين » الذي انشىء عام ١٩٢٠ قبل المجلس التمثيلي ومجلس النواب اللبناني .

٦ – انتخب سنة ١٩٢١ عضواً في « اللجنة العليا لمعرض بيروت » فاحرز « وشاح الشرف » الخاص بذلك المعرض .

٧ – فوّض اليه المجلس البلدي عام ١٩٢٣ مع بعض اعيان بيروت ومفكريها ان ينتقي لشوارعها اسماء توافق مركزها الجغرافي وتنطق بامجاد رجالها وادبائها السالفين .

٨ – اقيم عضواً في لجنـة « ذكرى المعلم بطرس البستاني » سنة ١٩١٩ وفي « لجنة تمثال العلامة الشيخ ابراهيم اليازجي » عام ١٩٢٤ وفي لجنة يوبيـل الاب لويس شيخو سنة ١٩٢٥ وفي « لجنة ذكرى الاربعين » لوفاة السيد نجيب العيتاني سنة ١٣٥٨ هجرية وفي « لجنة ذكرى الاربعين » لوفاة الوزير حسين بك الاحدب سنة ١٣٦٠ للهجرة .

٩ – عيّن عضواً في لجنة انتخبتها الجمهورية اللبنانيـة لتهيئة ما يجدر عرضه من التحف والطرف الوطنية في معرض باريس عام ١٩٣١ .

سابعاً

جهود الفيكنت في تأسيس دار الكتب

سبق الكلام عن بعض مرامي صـــاحب الترجمة من حيث نشأته واخلاقه ومعيشته ومساعيه الخيرية وتصانيفه وآثاره الادبية والقابه العلمية والفخريـــة ومآثره الوطنية وما حوته خزائنه من الكنوز الاثرية . وقد توّج تلك المرامي السامية بانشائه دار الكتب في بيروت . وهو عمـــل جبار تعجز الجماعات عن النهوض بمثله . وقد نهض به الفيكنت وحده وضحّى في سبيل نجاحه وثباته بالمال الوافر والجهود المستمرة . هكذا اصبح القوم كلما ذكروا دار الكتب اللبنانية ذكروا معها اسم مؤسسها الهمام وهاك ما بذله من المساعي لتكوينها وانمائها .

١ – اتحف دار الكتب بخمسة الاف مجلداً ونيف بـين مطبـوع ومخطوط نقلها اليها تدريجاً من خزائن كتبه منذ السنة ١٩٢٢ فما بعد .

٢ – جهّز دار الكتب في عهدها الاول بخزائن ومكاتب ومقـاعد وخرائط وطنافس وسجوف وسجلات الخ الخ .

٣ – دفع من جيبه رواتب موظفيهـا الثمانية ورواتب حاجبَيها مدة سنتين

تقريباً . ذلك قبلما تسلمتها الحكومة اللبنانية . ويتضح هذا جلياً من وثائق رسمية محفوظة في دار الكتب وفي خزائن الفيكنت .

٤ – لم يكتفِ بتعاطي اشغال دار الكتب في اوقاتها بل دفعته الحمية الى تعاطي قسم من تلك الاشغال في منزله ايام الراحة والفراغ .

٥ – ارتحل مرتين الى اوربا ومراراً الى مصر واكثر البلدان الشرقية فحصل على مؤلفات ومجموعات جمة جهز بها دار الكتب . وقد نهض بنفقات رحلاته كلها دون ان يكلف خزانة الحكومة اللبنانية شيئاً منها .

٦ – بلغ مجموع ما جهز به دار الكتب من المؤلفات اثنين وثلاثين الف مجلد جمعها كتاباً فكتاباً وكراساً فكراساً . فالتسعة والعشرون الف مجلّد اهداها هو او احرزها من اهله واصدقائه ومن المعاهد العلمية وارباب السماحة والفضل . اما الآلآف الثلاثة الباقية فقد ادت اثمانها الحكومة اللبنانية . وعليه فيكون كل ما اشترته الحكومة لا يتجاوز عشرة بالمائة .

٧ – زيّن دار الكتب بستين صورة زيتية كبيرة تمثل مشاهير علماء لبنان ونوابغه وامرائه وحكامه . وقد استصنعها جميعها على نفقته او سعى للحصول عليها بجهوده دون ان يكلف خزانة الدولة شيئاً من اثمانها .

٨ – انشأ في المكتبة معرضاً اودعه تحفاً اثرية وكتابية وفنية بينها ما نسج بالفضة والذهب او رُصع باللالىء الفاخرة . وقد احرزها كلها بمثابة هدايا الى دار الكتب .

٩ – وضع دليلاً لتنسيق الكتب العربية مبنياً على العلم والفن والمنطق سماه « ارشاد الاعارب الى تنسيق الكتب في المكاتب » وضمنه اسماء جميع العلوم عقلية ونقلية باصولها وفروعها وفروع فروعها وما تشعب منها الى ما لا نهاية له طبقاً للقاعدة العشرية . وجعل لكل اصل من اصول العلم رقماً اساسياً تتشعب منه ارقام لفروع العلم وفروع فروعها وما تشعب منها . وهو دليل مبتكر

سيصبح دستوراً لتنسيق المكتبات في جميع الامصار العربية . ويكون للبنان حق الافتخار بالسبق عليها في هذا المضمار .

١٠ – صنّف الفيكنت لدار الكتب تاريخاً عـاماً مبتكراً عنوانه « خزائن الكتب العربية في الخافقين » في اربعة مجلدات ضمنه اخبار المكتبات العربيـة قديمها وحديثها في زهاء الف وثلاثمـــائة صفحة كبيرة . واستند في رواياته الى مصنفات الاقدمين والمتأخرين حتى اوفى عدد المراجع التي اعتمدها عـــلى ستمائة مرجع . وتتضح خطورة هذا المؤلف الضخم من مطالعة عناوين ابوابه وفصوله وفروعه وسائر مواده في فهرس شامل لها . وبلغنا ان فريقاً من علماء الاستشراق راسلوا الفيكنت لينقلوا كتابه هذا الى لغاتهم وينشروه في بلادهم تعميماً لفوائده شرقاً وغرباً .

الفصل الثاني

تكريم الفيكنت فيليب دي طرازي

اولا

ـ لجنة التكريم واعمالها

على اثر اعتزال الفيكنت فيليب دي طرّازي منصب امانة دار الكتب اللبنانية التي اسّسها في بيروت عوّل رهط من الادباء والاصدقاء ان يقيموا له حفلة تكريم اقراراً بخدمه العلمية والوطنية . فعقدوا اول جلسة مساء الخميس ١١ كانون الثاني ١٩٤٠ في دار صاحب المعالي الوزير حسين بك الاحدب وألّفوا لتلك الغاية لجنة قوامها السادة الآتية اسماؤهم مع حفظ الالقاب :

حسين الاحدب : الرئيس	علي سلام
افلين بسترس : نائبة الرئيس	امين بيهم
بيرد ضودج رئيس الجامعة الاميركية	رامز سركيس
عمر الداعوق	الدكتور يوسف زيادة
حبيب طراد	جرجي باز
حكمت جنبلاط	هكتور خلاط
يوسف افتيموس	صلاح الاسير

الامير رئيف ابي اللمع امين سر اللجنة

وعقيب تلك الجلسة التمهيدية توجّه رئيس اللجنة يصحبه بعض الاعضاء الى زيارة الفيكنت دي طرازي في داره ليبلّغوه قرار اللجنة . فاعتذر الفيكنت

شاكراً لهم عاطفتهم النبيلة ملحاً الحاحاً شديداً ان يعدلوا عن فكرتهم مصرّحاً لهم انه يؤثر العزلة والسكينة على الجلبة والفخفخة . فأبت اللجنة قبول عذره وجملته امام امر لا مناص له منه باعتبار ان قرارها هذا منبثق من ارادة الامة جمعاء . فاضطر الفيكنت ان يستسلم لرغبة اللجنة التي خاطبته باسم الامة واصرّت على المضي في عملها .

بعد تلك المقابلة اخذ اعضاء اللجنة يتفاوضون في انتقاء مكان لاقامة الحفلة فانتخبوا لذلك وفداً مؤلفاً من رئيسها وامين سرّها ومن الدكتور يوسف زيادة وعلي بك سلام والاستاذ صلاح الاسير . ويوم الثلاثاء ١٦ كانون الثاني ١٩٤٠ قصدوا قاعة دار الكتب وقاعة « وست هول » في الجامعة الاميركية . فرأوا ان قاعة دار الكتب أولى بالحفلة المذكورة لانها مضمار جهود الفيكنت العلمية ومجلى آثاره الادبية الخالدة .

وعصر الجمعة ٢٦ الشهر عند الساعة الخامسة عقدت اللجنة جلسة ثانية حضرها الاعضاء سوى السيدَين حبيب بك طراد وجرجي نقولا باز اللذَين تخلفا عن الحضور لدواع صوابية . فتداولوا في تنظيم الحفلة وقرّروا قبل كل شيء ان يتحفوا المكتبة برسم الفيكنت دي طرّازي . ثم كلّفوا الاستاذ مصطفى فرّوخ المصوّر البارع ليتولى التصوير وقد جاء ذلك الرسم الزيتي آية في الفن . فنصبوه فوق مدخل القاعة الكبرى ووضعوا تحت الرسم صفيحة فضية نُقشت عليها هذه العبارة « الفيكنت فيليب دي طرازي مؤسّس دار الكتب اللبنانية » .

بعد هذا كلّفت اللجنة فريقاً من الادباء ليتكلموا في حفلة التكريم ونشرت بطاقات الدعوة الى الحفلة باللغتين العربية والفرنسية وهذا نصها العربي :

« حضرة السيد ...

« تتشرف لجنة تكريم الفيكنت فيليب دي طرازي مؤسّس دار الكتب

اللبنانية بدعوة حضرتكم الى الحفلة التي تقيمها تكريماً له في الساعة الخامسة بعد ظهر الجمعة ٢٣ شباط ١٩٤٠ في قاعة دار الكتب بناية البرلمان . لا زلتم نصراء العلم والادب » .

وهاك منهاج الحفلة :

نشيد المرسلياز فالنشيد اللبناني الوطني .
خطبة الافتتاح لحسين بك الاحدب رئيس اللجنة .
خطاب السيد بونور مستشار المعارف .
خطاب الاستاذ عمر فاخوري .
كلمة الاستاذ الياس ابو شبكة .
قصيدة الاستاذ حليم دمّوس .
موسيقى
خطاب الاستاذ هكتور خلاط امين دار الكتب .
خطاب المحتفى به في اللغة الفرنسية .
خطاب المحتفى به في اللغة العربية .

ثانياً

حفلة التكريم

عصر الجمعة ٢٣ شباط ١٩٤٠ اقبل رئيس اللجنة حسين بك الاحدب ولفيف اعضائها الى دار الكتب اللبنانية فاشرفوا على ما اجري فيها من التنظيم استعداداً للحفلة ولاحظوا المقاعد المهيأة للمدعوّين رسميين وغير رسميين . وما دقت الساعة الخامسة مساء حتى اكتظّت القاعة من اقصاها الى اقصاها بجماهير المدعوّين وغمر الجميع سكوت عميق تهيباً لوقار الموقف .

وعند وصول فخامة المفوّض السامي عزفت الموسيقى نشيد المرسلياز فوقف

الحضور اجلالا . ؤعقبه النشيد اللبناني الوطني بوصول امين سرّ الدولة عبدالله بك بيهم واخذ كل منهما مكانه في صدر الحفل .

ضمّت الصفوف الامامية شخصيــات جليلة : كصاحب السماحة محمد توفيق خالد مفتي الجمهورية اللبنانية . والسيد المطران باسيليوس افرام حيقاري موفداً باسم الكردينال تبوني بطريرك السريان الانطاكي . وممثلي الدول العربية يتقدمهم سعادة قنصل مصر احمد رمزي بك وسعــادة قنصل العراق تحسين بك قدري . ورهط من المستشارين والنواب والوزراء ومديري الدوائر العــامة . وشوهد بينهم مسيو منديس فرنس احد وزراء فرنسا السابقين .

وحضر كذلك رئيس اركان حرب الطيران في الشرق الادنى نائباً منــاب فخامة الجنرال جونو الذي حالت دون حضوره موانع قاهرة . وعرفنا بــين الحضور كذلك رؤساء الملل الاسلامية والمسيحية والاسرائيلية وارباب الصحافة ومديري المدارس وجلّة علماء بيروت وادبائها واعيانها وتجارها .

وبعدما جلس كلّ في المكان المهيّأ له اقبل الفيكنت دي طرّازي مع اسرته يحيط بهم رهط من انسبائه واصدقائه واعضاء اللجنة واتخذ كل منهم مركزه .

افتتح الحفـلة صاحب المعالي الوزير حسين بك الاحدب رئيس اللجنة بخطبةٍ رصينةٍ ترى نصها في ما يلي .

ثم شرع عرّيف الحفلة الدكتور الامير رئيف ابي اللمع يقدّم الخطباء الواحد تلو الاخر طبقاً للترتيب المدوّن في بطاقة الدعوة . ثم تلا رسالة وجهها صاحب الغبطة الكردينال تبوني الى معالي رئيس اللجنة يثني على عاطفته وشهامته بتكريم رجل العلم والفضل . وفي غضون الحفلة وقف السيد ادمون صابونجي مدير غرفة امين سرّ الدولة وقرأ مرسوم الحكومة اللبنانيـة بتعيين الفيكنت دي طرازي اميناً فخرياً لدار الكتب . وعلى اثر ذلك نهض صاحب المعـالي عبدالله بك بيهم امين سرّ الدولة وصافح الفيكنت وزيّن صدره بوسام « الارز » الوطني . فدوت

القاعة بالتصفيق سروراً وشكراً . ثم عزفت الموسيقى نشيداً انشيء خصيصا للمحتفى به .

وبعدما استمع جمهور الحاضرين تقاريظ الخطباء والشعراء ارتقى الفيكنت منبر الخطابة تبدو على وجهه امارات تأثر عميق واخذ يلهج بما خالج قلبه من عواطف الشعور والامتنان . فتكلم اولا بالفرنسية ثم بالعربية معدّداً خلاصة جهوده في سبيل دار الكتب اللبنانية متمنياً ان تظل سائرة في طريق التقدّم والازدهار . وختم كلمته البليغة معرباً عن جزيل شكره لممثلي الدولتين اللبنانية والفرنسية ولرئيس لجنة التكريم واعضائها ولجميع الذين اشتركوا في ذلك المهرجان الادبي .

وعند اختتام الحفلة تقدّم فخامة المفوّض السامي وصافح الفيكنت دي طرّازي مثنياً على تفانيه وعبقريته ومعرباً عن اعجابه بما اداه من الخدم الجلّى للعلم والوطن . ثم اخذ الجماهير يصافحون الفيكنت واحداً فواحداً شاكرين له عمله داعين له بالعمر الطويل ومردّدين عبارات الثناء على اللجنة لقيامها بهذا التكريم عربوناً لمعرفة الجميل . وارفض الجمهور وفي افئدتهم شكر عظيم لمن بنى للكتاب مجداً باقياً مدى الدهر .

ثالثاً

احتفاء الفيكنت بلجنة التكريم في داره

شاء الفيكنت دي طرّازي ان يُعرب عن امتنانه للجنة التي قامت بتنظيم حفلة التكريم فدعاها عصر الثلاثاء ٢٧ شباط الى تناول الشاي على مائدته ودعا معها الرجال الرسميين اللبنانيين والفرنسيين وقناصل الدول والخطباء والصحافيين وبعض اعيان المدينة . فكانت ساعات جميلة قضاها الحضور في تلك الدار الرحبة . واغتنم المدعوّون الفرصة فاطّلعوا على ما حوته الخزائن الطرّازية من الكنوز الادبية والمجموعات الصحافية والمخطوطات المصوّرة والمصاحف المزوّقة وغير ذلك من الطرف النادرة .

رابعاً

ـ خطبة الافتتاح لحسين بك الاحدب رئيس اللجنة

سيداتي الفاضلات سادتي رجال العلم والأدب والوجاهة

باسم اللجنة ارفع اليكم خالص الشكر والمنّة على ما ابديتموه من المروءة وما بذلتموه من العناية لتشاركونا في تكريم العالم العامل الفيكنت فيليب دي طرازي . لا زلتم نصراء للعلم وذويه والادب وبنيه . ولا عجب فاني على ثقة تامة بان كل فرد ممن ضمّه هذا المحفل من كرام القوم وافاضله لمعجب عميق الاعجاب بمناقب الفيكنت وعالي همته .

ان تأليفه « تاريخ الصحافة العربية » الفريد في بابه وغيره من تصانيفه المبتكرة دليل واضح على جهوده وعلى تفانيه في خدمة العلم والتاريخ . وعمّا قريب سيتحف عالم العلم باسفار خطيرة سيكون لها اثرها وصداها بين الناطقين بالضاد .

اما ما قام به من العمل الباهر في دار الكتب اللبنانية بصمت وهدوء فهو آية من آيات جدّه وثباته . فان فكرة تاسيسها ايها السادة كانت بلا مراء فكرته دون سواه . ولم يكد يجاهر بها ويسعى وراء تحقيقها حتى تكللت بالفوز والنجاح فطفق يعمل على انمائها بحزم ونشاط واضاف اليها العدد الوافر من الكتب النفيسة مما اقتناه في ادوار حياته وانفق في سبيلها النفس والنفيس . وفي الحق انه بذلَ جهوداً جبّارة وعانى مشقات عظيمة لاحياء هذا المشروع . ولست اغالي اذا قلت انه كان متفانياً في سبيل تعزيزها .

ويا ليت الحكومة وعلى رأسها عبدالله بك بيهم وضعت تشريعاً خاصاً استثنت به الفيكونت من قانون بلوغ السن ! ويا ليتها ابقته يواصل عمله لخير دار الكتب

ريثما يتمكن من تحقيق رغائبه جمعاء فيجعلها في طليعة دور الكتب في الامصار الشرقية ! ولاسيا لانه ما برح يتمتع بنضارة العقل وهمّة الشباب بمنه تعالى . فلو فعلت الحكومة ذلك لاحسنت صنعاً واضافت مأثرة جديدة الى مآثرها الحسان . ونحن نعرف ان حكومات العالم تحتفظ بامثال الفيكنت بغية استمرار الاستفادة من مواهبهم وحملاً للغير على التشبه بهم واقتفاء آثارهم . ولكن الحكومة ارادت ان تساويه بمن بلغ السنّ القانونية من الموّظفين ولعلّ في ذلك حكمة لا يعلمها الا الله سبحانه .

ولنا الامل بالاستاذ هكتور خلاط انه يقتفي اثر سلفه مفخرة العلم فتزداد دار الكتب في عهده نجاحاً وازدهاراً . وبالرغم من ان الفيكنت يحبّ الصمت ويكره الفخفخة فاني فخور بان اكون من اللجنة التي قامت بهذه الحفلة الادبية يوآزرها فريق من سراة القوم وافاضله تكريماً لرجل العلم والعمل . وهو بحقّ قد احسن الى العلم والى بلاده احسن الله اليه . ومتّعه بحياة طيبة هادئة ينفق فيها من كنوز معارفه فوائد كثيرة على المفتقرين الى عمله وادبه .

اخيراً يطيب للجنة ان تعلن اهداءها رسمه الكريم الى مدينة الكتب هذه ليبقى اثراً خالداً بين آثاره العديدة التي زيّن بها هذه الدار الثقافية . ويطيب لها ايضاً اهداء صفيحة معدنية ادرجت فيها هذه العبارة « الفيكنت فيليب دي طرازي مؤسس دار الكتب اللبنانية » لكي تعلق عند مدخل الدار المذكورة للذكرى والتاريخ .

خامساً

خطاب السيد بونور مستشار المعارف

Monsieur le Conservateur

Ce sont vos anciens collaborateurs qui, les premiers, se sont concertés, dans une pensée affectueuse, pour qu'un re-

merciement fût exprimé et un hommage rendu, ici même, à celui qui a été le fondateur de cette maison. Mais, il ne pouvait s'agir d'une cérémonie intime, et dépouillée de tout protocole. Vos services étaient trop éclatants, pour que ce témoignage pût s'accomoder de l'ombre et du silence ou se dire à demi-mot. Il fallait que ce remerciement prît la proportion d'un acte de reconnaissance publique et que les plus hautes autorités du Mandat et du Pays libanais vinssent vous dire, par leur présence, la gratitude et l'estime que mérite votre personne et votre œuvre. C'est pourquoi dans cette cité des livres dont vous avez créé le corps et l'âme, vous voyez aujourd'hui, réunis par une intention commune, le Représentant de la France, les plus hautes Autorités de la République Libanaise, tout ce que le Liban compte d'écrivains, d'artistes, de poètes et de lettrés, vos amis et vos disciples, tous ceux qui ont compris les services éminents que vous avez rendus à la culture et à la penseé.

Parmi vos amis, présents à cette fête, je n'oublierai point ceux, dont la présence muette raconte vos longs efforts, vos recherches patientes, votre volonté passionnée de doter votre pays d'un instrument qui l'aidât à réaliser son destin de pays de culture et de foyer de pensée. Parmi vos amis les meilleurs je compte les livres placés sur ces rayons. Ils ne sont pas seulement l'ornement vénérable de cette fête. Il y prennent part ; ils s'associent à notre hommage. Bien plus éloquemment que nous tous, ils parlent pour vous et font votre éloge.

Le vieux Sainte Beuve, travaillant un jour à la Mazarine et se remémorant le temps où il y était bibliothécaire, écrivait ces lignes désabusées : « J'ai sous les yeux un objet qui me fait continuellement l'effet d'un memento mori : cette multitude de livres morts et qu'on ne lit plus : vrai cimetière qui nous attend. » Messieurs, trouvons dans la cérémonie d'aujourd'hui, un argument pour refuter cette parole d'amertume. Ce lieu n'est point une nécropole. C'est un des endroits les plus vivants de Beyrouth, une maison d'élection où la vie se fera toujours plus intense, plus rayonnante : Nous sommes dans un pays où chacun sait, de science certaine et croit de foi profonde, que la vie

se fonde sur le livre, que le livre est non point un objet mort, mais un être sacré qui propage et entretient la vie, qu'importe s'il est des livres médiocres et qui sont détruits. Les livres, — ceux qui comptent, — sont le trésor des siècles, la garantie de la continuité humaine, le legs de l'intelligence, la source des progrès de l'esprit.

Monsieur le conservateur, ce n'est pas à moi, ignorant, qu'il appartient de louer vos savants travaux d'érudit, votre grande histoire désormais classique du journalisme en pays arabe, votre substantielle histoire des évêchés syriens. D'autres plus qualifiés l'ont fait et le feront. Je veux simplement rappeler d'un mot que vous avez été le premier à pressentir, à comprendre, à montrer l'importance de la presse dans un Orient modernisé. Par une vue en quelque sorte divinatrice, vous avez saisi les capacités de transformation sociale, intellectuelle et morale qu'apportait avec lui le journal quotidien. Tout est opinion, disait cet ancien grec. Que dirait-il aujourd'hui en notre temps de journalisme et de radio ? En écrivant votre célèbre collection de périodiques, vous avez fixé et retracé d'une façon impérissable les caractères d'un des moments les plus importants de l'évolution des pays arabes.

Cette finesse du sens historique, cette vue infaillible des nécessités d'un devenir national ou humain, voilà ce qui vous a dicté votre mission. Vous avez aperçu au moment décisif que le Liban, pays du travail intellectuel, de rénovation littéraire et de création spirituelle, ne remplirait sa vocation et ne serait digne de son destin nouveau que s'il se donnait l'instrument de cette vocation et l'outil de ce destin. Tout seul presque sans appui, et sans argent, vous avez décidé de créer une Bibliothèque nationale à Beyrouth. C'est alors que commence cette histoire romanesque de vos croisades en Occident. Vous êtes devenu une sorte de moine mendiant ; vous vous faites le missionnaire gyrovague de la cité des livres. Vous avez heurté à l'huis des écrivains et des savants : vous avez frappé chez les imprimeurs, les bibliothécaires, les bouquinistes, vous avez franchi le seuil des Académies ; vous avez atten-

dri les secrétaires perpétuels et, chose plus étonnante encore, vous avez disposé à la générosité les propriétaires de maisons d'édition. Vous avez obtenu ainsi non seulement des ouvrages courants, mais des collections rares, des exemplaires insignes. Vous avez fait des miracles, vous reveniez de vos expéditions chargé de trésors, nouveau Jason rapportant de nouvelles toisons d'or. Vous avez montré là ce que peut une grande pensée quand elle est servie par une volonté passionnée. Ainsi vous avez fait surgir du néant cette Bibliopole

On ne réalise point une telle œuvre sans une grande richesse de nature, sans une abondance et une chaleur de cœur, sans une grande vertu humaine. Je ne veux point offenser votre modestie Monsieur Philippe de Tarrazi ; mais je tiens à rappeler d'un mot ce que nous savons tous : la dignité et le courage avec lesquels vous avez subi persécution au cours de la dernière guerre, votre générosité en maintes occasions pour des infortunes illustres ou d'humbles misères, votre bonté ingénieuse en soins délicats, toutes ces qualités si nobles qui vous ont, tout au long de votre vie, valu d'être familier de maisons princières et royales et de recevoir d'elles les plus grands honneurs. Un savant d'un haut mérite, un bienfaiteur du Liban, et ce qui est plus beau que tout encore, un homme de bien, voilà celui que nous avons voulu honorer aujourd'hui. Puissions-nous lui avoir exprimé convenablement dans cette cérémonie l'estime de la France, la gratitude du Liban et le remerciement de nos cœurs.

(*Signé :*) **GABRIEL BOUNOURE**

ترجمة خطاب السيد بونور مستشار المعارف

سيدي امين دار الكتب

اوّل من فكّر بعاطفة الولاء في تكريم مؤسس هــــذا المعهد الكتابي هم معاونوك القدماء . ذلك ليعربوا لك عن شعورهم وشكرهم وعن قدرهم اعمالك . فلم يسعهم ان يقيموا حفلة خاصة خالية من كل تظاهرة رسمية لان لخدمك الجليلة

من العظمة ما يوجب اقامة هذا المهرجان الحافل . لذلك وجب ان يُفرغ هذا الشعور في قالب ولاء عامّ وان يحضر هذا المهرجان رجال السلطة المنتدبة ورجال الحكومة اللبنانية برهاناً على الاقرار بجميلك ورمزاً الى ما يستحقه شخصك الكريم ومشروعك الجليل من المنّة والاجلال .

وباجماع الرأي احتشد اليوم في مدينة الكتب هذه التي خلقتَ انتَ جسمها وروحها ممثّل لدولة الفرنسية واقطاب الجمهورية اللبنانية مع مَن انجب لبنان من حمَلة الاقلام والفنانين والشعراء والادباء اصدقائك وتلامذتك وسائر الذين ادركوا وقدروا ما ادّيته من الخدَم الجلّى لعالَمي الثقافة والحصافة .

ولستُ انسى ان احصي بين الاصدقاء المحتفلين بمهرجانك اصدقاء آخرين يحدّثنا صمتُهم عن جهودك المتواصلة وانجازاتك المضنية وعن كَلَفك بان تتحف الوطن بمشروع مفيد يحقق امانيه ليصبح بلد الثقافة ومهد الحصافة . عنيتُ باولئك الاصدقاء هذه الكتب الجاثمة حولنا فوق الرفوف. فانها زينة هذا المهرجان بل مفخرته وهي تشاركنا في تكريمك واطرائك ببلاغة تفوق بلاغتنا جميعاً .

جلس يوماً « سانت بوف » وهو شيخ طاعن في السنّ يطالع في المكتبة المازارينية بعض الكتب مستعيداً ذكريات عهد كان فيه اميناً لتلك المكتبة . فكتب ما نصّه : « امامي شيء لا يزال يذكّرني بالموت ! هو هذا الحشد من كتب وافرة لا تُقرأ بتاتاً وهي تحاكي مقبرة حقيقية تنتظرنا ! » .

بيد اننا نرى ايها السادة في مهرجان اليوم حجّة قويّة تدحض زعماً كهذا الزعم يدعو الى القنوط واليأس . لان هذا المكان ليس مدينة للاموات لكنه معهد من اروع المعاهد التي تبعث الحياة الفكرية في بيروت وتزيدها انتعاشاً ونشاطاً ولمعاناً . ومما يثلج قلوبنا اننا في قطر يعرف فيه المرء معرفة تامة ويعتقد اعتقاداً راسخاً ان الحياة مؤسّسة على الكتاب . وان الكتاب ليس شيئاً ميتاً لكنه كائن مقدّس ينشر الحياة ويغذّيها . ولا يضير الكتبَ ان تحوي بينها

عدداً تافهاً قليل الجدوى . فالكتب المفيدة كنز للعصور وضمان لبقاء الأنسانية ومنحة للذكاء وينبوع للنموّ الفكري .

سيدي امين دار الكتب

ليس من شأني انا العاجز ان اطرى، مؤلفاتك العلمية الخطيرة التي اصبحت في رفوف الخلود ولاسيا كتابك « تاريخ الصحافة العربية » وبحثك التاريخي الدقيق عن « اساقفة الابرشيات السريانية » وغيرها . فهنالك كتّاب احرى مني تحدثوا او سيتحدّثون عنها . بيد اني اريد ان المع الماعاً الى انك كنت اوّل من شعر بقيمة الصحافة وادركها . واوّل من ابان خطورتها في الشرق المتحضّر . فقد سبقت فعرفت بثاقب نظرك المدى الذي تخلّفه الصحيفة اليومية من الاثر الطيب في الحوادث الاجتماعية والفكريّة والادبية فقد صرّح ذلك الاغريقي بقوله « كل شيء يسود الفكر » فما عساه ان يقول اليوم في هذا العصر عصر الصحافة والراديو ؟ فقد حدّدتَ وسجّلتَ في تأليفك « تاريخ الصحافة » وفي انشائك تلك « المجموعة الصحفية » الشهيرة مزايا حقبة مهمّة من تاريخ التطوّر الفكري في البلاد العربية . وحرصتَ على تلك الكنوز حرصاً شديداً يفنى الزمان ولا تفنى .

فدقّتك في الشعور التاريخي ونظرتك الصائبة في مقتضيات المستقبل الوطني والانساني هما الدعامتان الراسختان لرسالتك . لقد تيقنت ان لبنان مهد الثقافة والتجدد الادبي والابداع الروحي لن يقوم برسالته ولن يكون اهلاً لمصيره الجديد الا اذا مُنح ما يلزمه من الذرائع لتحقيق تلك الدعوة والوصول الى هذا الهدف . هكذا عزمتَ وحدك ان تنشيء مكتبة وطنية في بيروت لا عماد لك تستند اليه ولا مال تستعين به . ومن ذاك الحين اخذتْ صفحة تاريخك تتألق وشرعتَ تستنهض همم ابناء الغرب وتستحثهم على تعزيز هذه المكتبة الوطنية وتدعوهم الى مناصرتها . فكدتَ تكون كراهب يستجدي اكفّ المحسنين في عهد الحروب الصليبية او كدت تكون كرسول نشيط لدى حمَلة الاقلام والعلماء لترقية مدينة الكتب هذه . فرحتَ تطرق ابواب ناشري الكتب وطبّاعيها

وجمّاعيها . وتجتاز عتبات المجامع العلمية حتى ذللّت العقبـات وأصبت الغرض الذي توخّيته . واغرب من ذلك كله انك حملت تجار الكتب عـلى ان يتبرعوا بما لديهم من نفائس المطبوعات . وعلى هذا المنوال احرزتَ طائفة كبيرة لا من الكتب المألوفة المعروفة فحسب بل من المجموعـــات النادرة والتآليف الجديرة بالاعتبار .

وزبدة القول انك في مشروعك هذا قد اتيت بالمعجزات ثم قفلت عائداً من غزوتك مُثقلاً بالغنائم والكنوز كما عاد « جازون » الاسطوري مُثقلاً بالذهب . وبرهنت بصادع الحجة على ما تستطيع الفكرة النيّرة ان تحققه اذا خدَمتها ارادة متحمسة . وقد توصّلت بتلك الهمة ان تخلق من العدم مدينة الكتب .

ان عملاً كهذا لا يتم الا اذا صحبه خُلقٌ رضي وقلب فائض بالحميـة وفضيلة بشرية كبري . اقول هذا غير قاصد ان امسّ عاطفة تواضعـك يا سيدي فيليب دي طرّازي . بيد اني لست ارى بداً من ان المع الى ما عرفه فيـك الخاصّ والعام . نعم اننا ما عرفنا فيك الا الكرامة والشجاعة تتحدى بهما جورَ الحرب العظمى . ما عرفنا فيك الا الكرَم تخفّف به وطأة الشقاء عن جماعات شريفـة اخنى عليها الدهر، او عن اقوام تغلب عليهم البؤس والفقر . تلك صفـات نبيلة رافقتك في جميع ادوار حياتك فحبّبتك الى الملوك والامراء واحظتـــك لديهم بالعطف السامي وباكبر شارات الافتخار . اننا نكرّم اليوم عالماً رفيع القـدر ومحسناً في لبنان . بل الاسمى من ذلك كله اننا نكرّم رجل خيرٍ وفضل . فهل يتسنى لنا ان نعبّر له في هذا المهرجان تعبيراً كافياً عن احـترام فرنسا وعن وفاء لبنان وعن عواطف شكرنا القلبية ؟

سادساً

خطاب الاستاذ عمر فاخوري

مدنية الكتاب

« الم » ذلك الكتاب لا ريب فيه هدى للمتقين ! »

لالف ومئة سنة خلت ارسل الجاحظ من دار السلام كلمته المشهورة في فضل الكتاب . فكأنّ هذه الكلمة فصل جامع كتبه امام الادب العربي لدائرة معارف في عصره . ان دائرة المعارف لم تؤلف لكن هذا الفصل من فصولها قد كتب : مَن قرأه لم يشك في انه فصل انسيكلوبيدي في موضوع الكتب . كيف توضع وكيف تُنسخ او تُطبع وكيف تجمع . على ان الجاحظ لم ينسَ الورق والحبر والخط وما يستجاد ويُرغّب فيه ويباهى به منها .

كنتُ افكّر في ذلـــك الفصل الجاحظي القيّم وانا اقلّب النظر في المجلد الاخير من الانسيكلوبيدية الفرنسية الجديدة التي يقوم باعبائها الوزير De Monzie منذ بضعة اعوام مع طائفة مُن اعلام العلم والآداب والفنون . فاذا ذكرت لكم ان اسم هذا المجلد هو Civilisation Ecrite او مدنيـة الكتاب وان الذي اشرف على تصنيفه وساهم في تحرير بعض فصوله هو Julien Cain امين دار الكتب الوطنية في باريس علمتم علم اليقين اني – وان قفزتُ باسرع من لمح البصر من بغـداد الى باريس متخطياً الف حول على الاقل – لم اجد قيد شبر ولم اغفل لحظة واحدة عن خطة هذه الحفلة . مئة جيل على الاقل اراقت البشرية عـــلى عطفاتها وفي ملتقى سبُلها وبكل ساحة من ساحاتها كثيراً من الدموع وكثيراً من الدماء .

هذا العنوان « مدنية الكتاب » هذا العنوان وحـــده كاف لان يوحي الى الذهن ما يوحي ويفتح امامه من الآفاق ما اتسع . بيد انـه يكون اوضح دلالة وابعد مغزى اذا قلت لكم ان ناشره الوزير الفرنسي كتب مقدّمته عامـــداً متعمداً في تشرين الماضي (او تشرين الحرب بعبارة اصحّ) . وقد وقفت البشرية

يوم ذاك عند عطفة من عطفات التاريخ الدامية تصطلي نار فتنة شعواء خبوط باليد لبوط بالرجل يثيّرها ذلك الذي يزعم انه عدوّ الكتب وفي رأسها الكتب المنزلة .

وبعدُ فما الكتاب ؟ وما مدنيّة الكتاب ؟ ...

الكتاب شيء من حبر على شيء من ورق يصل الازل بالابد ويضيء له ما بين المشرق والمغرب بقوة الفكر الذي لا يُغلب ونور الفكر الذي لا يحجب وبركة الفكر الذي لا ينضب . الكتاب هو الفكر نفسه محمولا منقولا على كاهل الاعصر في شواسع الابعاد . الكتاب هو المعجزة الواحدة المتعدّدة الزائلة الخالدة. ويقول الشاعر Mallarmé ان الغاية التي ينتهي اليها هذا الكون هي كتاب ، كتاب لا اكثر ولا اقل . ثم يزيد اغراباً في الرأي على عادة متصوّفة الشعراء حينما يزعم ان للكتاب قيمة بحد ذاته وهو يعني كتاباً بلا مؤلف ولا موضوع ولا قارىء . واظن ان هذا النوع من الكتب هو الذي يغالي في طلبه كثيرٌ من بني قومنا بعد تركهم المدرسة ... ولكن نحمد الله على ان في هذه الديار العامرة كتباً من النوع الآخر : كتباً ألفها مؤلفوها لقرّاء يقرأونها .

ونحمد الله على ان في ظهرانينا رجلاً كالفيكونت دي طرازي العالم العامل الذي بذل من ذات يده ومن ذات نفسه سنين طوالا ممهداً العقبات مذللاً الصعوبات في سبيل الكتاب ومدنية الكتاب .

لقد اراد الفيكنت دي طرّازي ان تكون هذه الدار — دار الكتب اللبنانية — مناراً قائماً في بلادنا يشهد انّ ثمة شعباً يقرأ، أيْ يقدر الروح والمُثُل العليا قدرها في عهد طغت عليه الماديّة فلا يفتأ يتمثّل لنا حينما ادرنا الطرف مدّججاً بالحديد مضرّجاً بالدم .

هذا هو الفيكونت دي طرازي وهذا عمله !

نِعمَ الرجل ! ونعمَ العمل !

سابعاً

كلمة الاستاذ الياس ابو شبكة

نجتمع في هـذه العشيّة لنقوم بواجب . وايّ واجب ارضى للنفس وادعى لراحة الضمير من تكريم رجل واصلَ سحرة الحياة بمسائها في تكريم بلده وعشيرته . فقد انفق الفيكونت دي طرازي فيضاً وافراً من نور عينيه ومما اتاه الله لراحته وهنائه في سبيل هدف يُخلق في الانسان كأنه طبيعة فيه . فلا اقل من ان ننفق بعض ما تشعر به النفس تقديراً للفضل واظهاراً لعرفان الجميل .

ان تكريم رجل يقعد به فضله لا يغني هذا الرجل ولا ينصفه من حقه ولكنه يوفر لمكرّمه ليلة ينامها مطمئن النفس مرتاحاً الى قيامه بما قسط له من الواجب .

ليس فيكم ايها السادة مَن يجهل ايّة مكرمة اسبغ الفيكونت دي طرازي على الادب والثقافة بتأسيسه هـــذا البيت الكريم . وليس فيكم من يجهل باي روح من التجرد والزهد بالنفس باية عاطفة من الامل واية حرارة من الايمان كان يدأب على عمله مصغياً الى صوت ضميره . فالرجل الذي نكرمه اليوم يواصل اعماله في هذه الجزيرة النيّرة من الارض اللبنانية بين هذه الاسفار التي اكلتْ من فلذته وشربت من ماء عينيه . بين هذه الرسوم امجاد السلف وهو منهم بقيّة صالحة . في عينيه رصانة العالِم وفي ادبه هيبـــة الحكيم لا يشخص الا الى هدف جليل هو خدمة النشء متخيّراً له افيد ما تيسّر من قوت الادب .

فيا ايها الفاضل

ان فضلك في غنى عن الاطراء . فهـذا البيت الذي بنيتَ والكتب التي وضعتَ وصنّفت ترشقك بالورد وتهشّ اليك . وستبقى مـــا بقيتْ ألسنة تلهج بفضلك ونسمة مباركة تهب منك عـــلى بلدك . فانما الوطن لا يركب في صهوة سيادته الا على اكتاف الاوفياء العاملين من ابنائه .

ثامناً

قصيدة الاستاذ حليم دموس

هللْ على ذكر الكتاب وكبّرِ ... واخشع امام جلال هذا المظهرِ
وادخل الى حرَم الثقافة لاثماً ... انجيلَ اجيالٍ ومصحفَ ادهرِ
واعكف على كتبٍ فصيح صمتُها ... وهي الجليس لكل غادٍ مبكرِ
كتب كتائبها تصون تُراثنا ... وتظلّ للاحقابِ اثمن مذخرِ
مرآة اخلاق الشعوب ومشعل ... يَهدي سبيل الباحثِ المتحيرِ
ولرب مخطوطٍ تقادم عهده ... وهو الجديد لكل فن مزهرِ
في كل زاوية لديك ورفرفٍ ... لمح الهدى للقابس المتنورِ
كيف التفت وجدت سلسَلَ حكمة ... يُحيي النفوس بفيضه المتحدرِ
هي واحة للقارئين وشرعة ... للظامئين الى الرحيق المسكرِ
واللهِ لو جعلوا المنازل جنةً ... لغدت مكاتبها مقام الكوثرِ

....

اعظم بمكتبة تحيّي ربها ... وتَشيد باسم الخيّر ابن الخيرِ
انها عرفتَ جهوده وجهاده ... ورشفت عَذْبَ بيانه المتفجرِ
هي ثورة خرساء حرّك نارها ... في صدر كل مثّقف ومفكرِ
وبعقلة نقادة وبفكرة ... وقادة وبهمةٍ لم تفترِ
خدم المعارف ساهراً متعهداً ... اغراسها فأتى بحقل مثمرِ
فتحققت رغباته وتجددت ... عزماته رغم الزمان الاغبرِ
لولا عنايته ويقظة صحبه ... لهوت كاطراف القنا المتكسرِ

....

أرأيت مثقلةَ السنابلِ تنحني ... وبرأسها سرّ الغذاء الاكبرِ
ملأى كما ملئت خزانة عالمٍ ... متدرب في دهره متدبرِ

يحنو على اسفاره فتخاله ... صبا يحن لكاعب او معصر
يستعرض الماضي ويشهد حاضراً ... ويراقب الآتي بطرف نيّر
هذا ابن (طرازي) وهذا شأنه ... في نهضة الادب الخصيب الانضر
لو خيّروه لظل يسقي روضها ... هيهـات ليس الامر للمتخيّر

. . . .

يا خادم الفصحى وصائن درّها ... اليومَ يومك للمفاخر فافخر
ألفت بين الدين والدنيا معاً ... بجواهرٍ ادبية لم تحصر
وجمعت موسى والمسيح واحمداً ... في هيكل العلم الشريف الاطهر
وتعانقت بيع هنا ومساجد ... وهنا (القيامة) هللت (للازهر)
وهناك ابناء الفراعنة الألى ... تركوا من الاهرام اروع منظر
وهناك اندلسٌ ودار امية ... تتصافحان كبعلبكّ وتدمر
وهناك مجدُ العربِ من عدنانها ... وهناك راية تُبّع او حِمير
وهناك نابليون بين جيوشه ... وهناك كسرى في ضيافة قيصر

. . . .

وعرائس الشعراء يبسم ثغرها ... طرباً لمن سكروا بخمرة عبقر
طاروا باجنحة الخيال فحلقوا ... واليهم التفتت عيون الانسر
قيثار (داود) ونغمة (معبدٍ) ... رنّا بأذن عطارد والمشتري
(ليلى) تحدث عن (جميل بثينةٍ) ... و (بثينة) تهفو (لعبلة) عنتر

. . . .

وهنا عباقرة الزمان فنابغ ... متقدم يرنو الى متأخر
يتناثرون كأنجم يتفرقون كأنهرٍ ... يتجمعون كأبحر
يتنصتون الى حديثك بينهم ... عن معشر من غائبين وحُضّر
دنيا من المجد التليد عريقة ... ضاعت كانفاس الشذا المتعطر

ورسوم اهل العصر من شرفاتها تصغي لشعر ابي العلا والبحتري
صوّرتهم وبحثتَ عن آثارهم والذكر خير مخلّدٍ ومصوّرِ
دول تمرّ وتنطوي راياتها وكتائب العلماء لم تتقهقرِ

....

لو تملك الكتبُ الكلام لرفرفت واتتك بين مهلّل ومكبرِ
وسمعت من غرر الصحائف خطبة من كل سِفرٍ كالصباح المسفرِ
كم اقفر النادي وعُطل مجلس وبناء فضلك عامر لم يقفرِ
وتغيّرت حال الزمان واهله وهواك للاداب لم يتغيرِ
ولكم بنيت وكان غيرك هادماً شتان بين معمر ومدمرِ
ابقيتَ للجيل المتيد ذخيرةً قد اخرست ابداً لسانَ المفتري
ورجعت من غمرات جهدك قائداً ابلى وحُف به لواء مظفّرِ
وعلاك من اثر الكفاح وغاره تاج المشيبِ على غبار العثيرِ
فتح بلا سيف وملك راسخ ومضاء جبّارٍ ووثبةُ قسْورَرِ
لو كان تكريمُ المجاهد في يدي لرفعتُ تمثالا له من جوهرِ
رمزٌ يحدّثُ معشري عن حبه لبلاده ووفائه للمعشرِ
هذا جزاء المخلصين نصوغه اكليل مجدٍ نشرهُ من عنبرِ
فاقبل قوافينا ففي نفحاتها روح الوفاء الى الكريم العنصرِ
واسمع هتاف المعجبين مردداً من ارز لبنان لارض المهجرِ
كنت «الامين» على الكثير فصنته لذوي النهى برعايةِ المتبصرِ
وجعلت آثار العصور بقاعة وجمعت تاريخ الدهور باسطرِ
كأس من الادب الرفيع سكبتها فلتشرب الدنيا عصير الاعصرِ!

تاسعاً

خطاب الاستاذ هكتور خلاط امين دار الكتب

J'assurerai d'abord de ma reconnaissance les personnes au grand cœur qui, ayant conçu le noble projet d'organiser cette fête pour honorer le mérite, ont eu la générosité de vouloir, tout indigne qu'il est, faire figurer mon nom sur la liste des orateurs. Je les remercie de m'avoir ainsi mis en mesure de proclamer publiquement la dette que j'ai contractée envers celui qui, en poussant obstinément à la création de cette Bibliothèque a fourni à notre Gouvernement l'occasion de m'installer au poste qui correspond le mieux à mes goûts les plus chers .....

Plus que moi, Monsieur le Conservateur, vous avez été ivre de ce vin que verse la lecture. Plus que moi vous avez été heureux de vivre parmi les livres. Plus que moi vous les avez aimés.

Ces livres qui nous entourent sont le fruit de ves recherches passionnées ; ces rayons qui les portent, les alvéoles d'une ruche où, patiemment, vous avez accumulé le miel de l'esprit...

Vos libéralités premières ont été la semance des richesses futures. Autour du neyau central que vous avez constitué, sont venues s'jaouter, année après année de précieuses acquisitions. Et si l'on ne peut pas encore tout à fait dire que, les fruits ont passé la promesse des fleurs, du moins nourrit-on l'espoir que le vers de poête sera, quelque jour, l'image de la réalité.

C'est à qu'oi, pour ma part, je vais tendre de toutes mes forces. Puissé-je, Monsieur le Conservateur, me montrer digne d'avoir été choisi pour prendre votre succession ! J'y parviendrai, peut-être, si je borne mon ambition à suivre votre exemple. Les yeux fixés sur votre carrière, je veux apprendre de vous à rendre la mienne féconde.

عاشراً

خطاب المحتفى به في اللغة الفرنسية

Monsieur le Haut-Commissaire,

Mesdames, Messieurs,

La manifestation d'aujourd'hui a pour but de m'honorer ; elle dépasse ma personne.

Permettez-moi d'y voir, une autre traduction : cette Bibliothèque, à laquelle j'ai consacré tous mes efforts, est aujourd'hui le monument qui a permis de fusionner deux cultures : la culture française et la culture libanaise.

Si je voulais trouver un exemple vivant de ces principes mêmes qui m'ont toujours guidé, je ne pourrais mieux le faire qu'en regardant autour de moi les plus hautes personnalités des milieux politiques, religieux, scientifiques, militaires, sociaux et artistiques. Tous sont là, témoignant de la vivacité de cette fusion des deux cultures.

Je tiens à vous remercier, vous tous, qui êtes venus, en la personne de celui qui m'a fait le grand honneur de présider cette réunion : j'ai nommé Mr. le Haut-Commissaire de la République Française qui a déjà donné tant de preuves de sa haute sollicitude pour toutes nos institutions nationales.

J'ose espérer, Excellence, que vous voudrez bien continuer à favoriser de votre bienveillant appui l'essor de cette œuvre qui est la fusion de nos deux âmes.

Notre pays a été le creuset des civilisations. La flamme, un moment éteinte, est aujourd'hui ranimée, Jamais plus elle ne s'éteindra.

حادي عشر

خطاب المحتفى به في اللغة العربية

يا صاحب الدولة   سيداتي وسادتي

امام هذا المحفل الكريم وفي هذه الساعة الخطيرة من حياتي ارفع فروض الحمد للعزة الالهية التي وشحتني بستر عنايتها . في هذه الساعة الجليلة اشعر بتعزية وافتخار لان ما اديته من الخدم لوطني المحبوب نال رضى الامة فنهضت تقابلني بمعرفة الجميل في شيخوختي .

ستون سنة تقضت لي في المثابرة على البحث والتحصيل والتصنيف في حقل العلم . ستون سنة مرت علي وفكرة المكتبة تجول ليل نهار في خاطري بل تدفعني الى تحقيق هذا المشروع مهما كلفني الامر من التضحيات والاسهار . ولما ابرزتها من حيز الفكر الى حيز الوجود تذرعت بالنشاط والصبر والاعتماد على النفس واثقاً بحسن الختام . وقد اعترضتني عقبات كؤود لو اعترضت غيري كما اعتقد لتولاه اليأس والقنوط وقضي على المشروع في مهده . بيد ان تلك العقبات لم تثبط عزيمتي عن تذليل الصعاب ومتابعة العمل .

اذا حصرت حديثي معكم عن دار الكتب اللبنانية التي احتشدنا تحت سقف ناديها قلت انها ليست الا ثمرة من تلك الثمار الشهية التي فرغت لغرسها وعزقها وانضاجها سمعي وبصري وعقلي . وتعهدتها بتعبي وسهري وعرقي . وحبست لها علاوة على ذلك الوف مجلدات نقلتها اليها من خزانة كتبي الخاصة . هذه الدار التي طالما تاق الى مثلها بل الى اقل منها اسلافنا في غابر الاحقاب قد تحققت بها اليوم امانيهم وامانينا . دار اصبحت تعتز بها مدينة بيروت عاصمة العلم في الامصار الشرقية . دار تجلت فيها الثقافة بكل مظاهرها فغدت مشكاة يهتدي باضوائها الطلاب الناشئون والمؤلفون والباحثون .

تتوقون بلا ريب الى معرفة العوامل التي ضمنت للمكتبة تأسيسها ونجاحها . فالسرّ في ذلك يستند الى اربع دعائم اذا اختلّت دعامة منها تزعزع البنيان من اساسه : فالدعامة الاولى هي الصدق في التعامل . ثانيتها الاخلاص في العمل . ثالثتها التجرّد عن المنافع الشخصية . ورابعتها الثبات على احتمال المصاعب ومقاومة الصدمات . فهذه الاركان الاربعة التي جعلتُها هدفي سراً وجهراً قد سبقت فرسمت خططها وتقيدت بها بدقة وامانة منذ البداية حتى النهاية . وهي التي مهّدت لي السبل وذللت امامي العقبات ريثما بلغت الغاية التي توخّيتها من انشاء هذا المشروع .

تصرّمت والحمد لله تعالى تلك المرحلة وانا اليوم قريرُ العين بما تحمله لي امّتي الكريمة بل كل ناطق بالضاد من الرضى والعطف والاستحسان . ذلك كلّه يدعوني الى ان اتناسى متاعبي واتباهى بنبالة سيّدات ورجالات امثالكم يقدرون قدْرَ تلك المتاعب ويقيمون لها وللعلم وزناً راجحاً . فاسمحوا لي اذاً ان ابثكم أخلص عواطف الامتنان داعياً لكم بتوفيق الاعمال وتحقيق الآمال .

واول فرض يتحتّم عليّ اداؤه هو ان اجاهر بحسنات الدولة الفرنسية المجيدة التي كانت لها الايادي البيضاء في تنشيطي يوم اسّست هذا المعهد الثقافي . فارفع لها مفترض الشكر داعياً الى المولى سبحانه ان يشملها بايده ويمنحها النصر النهائي في هذه الايام العصيبة بحوله ومنّه . واشكر خصوصاً فخامة ممثلها العميد السامي المسيو بيو الذي تصدّر هذه الحفلة فشرّفها بحضوره .

وانوّه كذلك بفضل حكومتنا اللبنانية الجليلة التي شيّدت هذا البناء الفخم تأميناً لمستقبل دار الكتب وتعزيزاً لمكانتها . فقد احرزت بصنيعها المشكور احترام الادباء قاطبة وجعلت لهذا الصرح العلمي منزلة رفيعة بين مكتبات الشرق. واوجّه الى صاحب المعالي عبدالله بك بيهم امين سرّ الدولة عاطفة ولاء ووفاء اذ قلدني في هذا المحفل الجليل وسام « الارز » الوطني . واعلنني بمرسوم خاص اميناً فخرياً لدار الكتب اللبنانية .

ثم اذكر بالثناء اللجنة الموقرة التي شاءت ان تقيم لتكريمي حفلة بهجة كهذه الحفلة تفوق استحقاقي . فحاولت التملص منها مراراً والححت على رئيس اللجنة الكريم وعلى زملائه الاجلاء ان يعدلوا عن فكرتهم مصرّحاً لهم باني أوثر قضاء ما تبقى من حياتي بالعزلة ليتسنى لي انجاز ما باشرته من التصانيف . لكني اضطررت بعد الاخذ والردّ ان انحني تجاه الامر الواقع واتقبّل هذا التكريم لا طلباً للمجد بل حباً لجمهور الحاضرين كي يتيسّر لهم ان يتعرفوا الى دار الكتب اللبنانية التي يجهلها فريق منهم . فوجب عليّ اذاً ان اهدي آيات الشكر لتلك اللجنة المحترمة ولكل عضو من اعضائها لما تجشّموه من العناء في هذا السبيل . وأعرب خصوصاً عما يكنّه فؤادي من الاجلال لرئيس اللجنة الفضيل حسين بك الاحدب نجل علّامتنا الكبير الشيخ ابرهيم الاحدب طيّب الله ثراه .

وفي الوقت نفسه اشكر بلابل هذه الحفلة من خطباء وشعراء طالما اطربوا مجالس الادب باقوالهم العذبة . وقد شاؤا اليوم ان يشنّفوا مسامعكم بما لا استأهله من الاطراء بما كدتُ اذوب منه خجلاً وحياء . فليأذنوا لي ان اكيل لهم على عبقريتهم اضعاف ما كالوه لي من ضروب المديح وقوافي الثناء .

وانْ انسَ فلن انسى اصدقائي الصحافيين الذين نشروا في جرائدهم ومجلاتهم الشيء الكثير عن دار الكتب اللبنانية وعن مؤسّسها ومعاونيه وعما انتجته من الفوائد الجلّى لابناء وطننا العزيز . فليثقوا باني كنت وما برحت من أوفى خدّام الصحافة العربية باقوالي ومؤلفاتي ومجموعاتي وسائر مواقفي التي شهدت وتشهد باخلاصي لها ولاربابها وبحرصي الشديد على كرامتهم وكرامتها .

ولا بدّ لي ان اوجّه كلمة وجيزة الى السيد هكتور خلاط الذي اصبح خلفي في امانة دار الكتب . واعتقد انه يقود هذه السفينة العلميّة قيادة ربّان حاذق حتى يبلغ بها الى ميناء الامان ومنتهى النجاح . ولي اليقين التام في ان يرى في جميع الموظفين النجباء الذين ربّيتهم وعشت معهم ما رأيته فيهم من الشهامة

والامانة والاجتهاد . على اني اشعر اليوم بفرح عظيم اذ يتاح لي بعد جهاد طويل ان اوجّه اليهم والى جميع الادباء وروّاد المكتبة تلك الآية الشريفة قائلاً لهم : « ارفعوا اعينكم وانظروا الى المزارع انها قد ابيضّت للحصاد » . فانا حرثت وزرعت ولم يبقَ الا ان تحصدوا . هكذا يعمّ الفرح فيشمل الزارع والحاصد كليهما معاً .

الفصل الثالث

رسائل بعض الائمة والاصدقاء في حفلة التكريم

اولا

رسالة غبطة الكردينال اغناطيوس جبرائيل الاول بطريرك السريان الانطاكي

الى معالي الوزير حسين بك الاحدب رئيس اللجنة

عن بيروت ٢٢ شباط ١٩٤٠
١٠ - ٤٥٦١

حضرة الاجل الامجد حسين بك الاحدب المحترم

نتقدم من حضرتكم بالتحيات الذكية والادعية الحميمة . اما بعد فقد سُررنا للعاطفة الشريفة التي اوحت الى اللجنة النبيلة التي ترأسونها القيام في الساعة الخامسة من مساء الجمعة ٢٣ شباط الجاري بحفلة تكريم لمن سعى السعيَ الحثيث لتأسيس دار الكتب اللبنانية . فاصبحت بسنين قلائل مشتملة على آلاف النسخ من الكتب في كل فنّ ومطلب . وغدت موئلاً لروّام البحث والمطالعة من جميع الطبقات . نريد به حضرة الوجيه الشهم عزيزنا الفيكنت فيليب دي طرازي المحترم الذي زرع هذه النواة في عاصمة لبنان . وروّاها بعرق اتعابه وجهوده وانماها بجميل مساعيه ونشاطه حتى اصبحت كما ترونها اليوم احدى مفاخر الوطن اللبناني المحبوب. ولما كان الفضل يعرفه ذووه تألفت لجنتكم الكريمة لاعطاء كل ذي حقّ

حقه . فحبذا الشعور الحي ! وحبذا الشهامة ! وحبذا العواطف النبيلة ! اننا نثني على غيرتكم ونسأل الله تعالى ان يبقيكم مثالا للمكرمات ولسموّ الاخلاق . وقد أنبْنا عنا سيادة الاخ الجليل المطران باسيليوس فرام حيقاري الجزيل الاحترام ليشاطركم هذه العواطف وليقوم باسمنا بتهنئة المحتفى به .

ونختم مكرّرين عليكم وعلى زملائكم الكرام فرداً فرداً اطيب السلام والتحيات والادعية القلبية والتمنيات الصالحة حفظكم المولى الكريم .

الداعي

الكردينال اغناطيوس جبرائيل تبّوني

بطريرك السريان الانطاكي

ثانياً

رسالة الاستاذ شارل القرم

Ce Dimanche 25 Fév. 1940

Mon bien cher Philippe,

Vous pensez bien que je dois avoir eu un empêchement sérieux pour n'être pas allé avec Samia vous applaudir et nous réjouir avec vous du juste succès qui vient enfin de couronner une des plus belles carrières libanaises de dévouement et de foi en faveur de la culture de notre pays. La simple et triste raison de cette malchance, c'est que je suis malade Samia est malade et les enfants aussi.

J'arrive à peine à me trainer de mon lit à mon bureau de travail que j'ai fait installer dans ma chambre à coucher ; mais avec le beau temps qui va revenir, j'espère, nous serons tous beaucoup mieux, et j'irai vous embrasser pour le magnifique succès de la cérémonie de Vendredi. Je me console, un peu de

n'y avoir pu être présent, en lisant les journaux qui le commentent si élogieusement, et en entendant mes amis qui m'en rapportent les impressions les plus édifiantes — Bravo !

A vous de tout cœur
CHARLES

تعريب الرسالة

بيروت - الاحد ٢٥ شباط ١٩٤٠

يا عزيزي فيليب

تعلم جيّداً ان امراً هاماً حال دون حضوري وحضور سامية للهتاف لك وللاستمتاع معك بالنجاح العدل الذي توّج مفرقاً من اجمل المفارق اللبنانية المرتكزة على التفاني وصدى العقيدة بثقافة بلادنا . وعذري الوحيد المؤلم اني مريض وزوجتي سامية كذلك مع ولدينا الصغيرين ،

لا اكاد انتقل من سريري الى مكتبي الذي جعلته في غرفة نومي الا بصعوبة تامة . وارجو اننا متى تماثلنا الى العافية احضر بذاتي اليك واعانقك مهنئاً بما تفردتَ به حفلة يوم الجمعة من الفوز الباهر . ولقد انسّلى في تخلفي عن حضور تلك الحفلة بمطالعة الصحف التي تحدّثتْ عنها واطرأتها اطراء بليغاً او بالاستمتاع الى ما ينقله اليّ اصدقائي من التأثير العميق . هنيئاً لك !

شارل

ثالثاً

رسالة الاستاذ بطرس معوض اورد فيها ما يلي :

الى سعادة الامير رئيف ابي اللمع امين سرّ لجنة التكريم

« ... لستُ أصف برّ الفيكنت بالادباء وحفاوته بهم وغيرته عليهم . فما من اديب الا ويشهد له بهذا شهادة حقّ ... ولله ما أقدره على الصبر واحتمال المكاره

اذا دري ان في الصبر والاحتمال درأً لما هو أمرّ واضرّ . وبهذه القوّة الادبية اكبّ على الجهاد في سبيل دار الكتب اللبنانية على رغم ما اعترضه من العقبات وما وُجه اليه من اضطهاد وما قوبل به من غمط ونكران . ولولاه ولولا صبره العجيب لمَا رأى جائل في دار الكتب اللبنانية ما يراه اليوم من الروعة والفخامة والثروة والنظام .

« ان الناظرين الى دار الكتب في بيروت يقفون مُعجبين بالعمل الجبار التامّ الرائع ويقولون : ما شاء الله ! ولكن المتعمقين والراجعين الى التقدير الحقيقي متى وعوا ان القائم بذلك المشروع الجيد رجل فرد ادركوا حينئذ ما يصل اليه صدق العزيمة وقالوا : الله الله ! ! !

« ان هذه الثروة العلمية وهذه الكنوز الثمينة . . . هي من صنع الرجل الذي تُقام هذه الحفلة لتكريمه وتكريم جهوده الجبارة وللاعتراف بما ادّى الى لبنان عموماً والى عاصمته خصوصاً . فاضاف جوهرة كريمة غالية الى العقد الذي ازدان به عنق عروس الشرق المجلوّة على شاطىء البحر المتوسط :

« اي صديقي الفيكنت النبيل

« لم يبقَ لي بعد الاعتراف بقصوري وبعد ان كرّمك المختارون . وبعد ان رأت عيناك هذه الثمرة اللذيذة التي انضجها جهادك الطويل وهذا الفوز الباهر يلقاه مسعاك المتواصل الا ان اسأل الله جلّ وعز ان يمدك بالعمر المديد المنيء ويكلّلك بالصحة والكرامة .

بطرس معوّض

بيروت ٢٥ شباط ١٩٤٠

رابعاً

رسالة السيد انيس المقدسي استاذ الادب العربي في جامعة بيروت الاميركية

سيدي الفيكونت طرازي المحترم

وددتُ لو استطعت الحضور بالذات لاشارك ادباء بيروت في الحفلة التي اقيمت امس لتكريمك . وآسف ان ظروفاً قاهرة حالت دون ذلك . ان العمل المجيد الذي قمتَ به بتأسيسك دار الكتب الوطنية وبتعهدك اياها حتى بلغتْ مـا بلغته لجدير بان يخلد اسمك في عداد كبار العاملين الذين دفعوا لبنان في سبيل التقدم الحقيقي . فكيف اذا اضفنا الى ذلك خدماتك العلمية الاخرى التي خدمت بها العلم والتاريخ والثقافة ؟ فاقبل ايها العامل العلمي الكبير تهنئاتي القلبية وتيقن اننا جميعاً نفاخر بامثالك ممّـن يقرنون العلم الناضج بالعمل المفيد والتواضع الكريم

ودمت للمخلص انيس المقدسي

بيروت ٢٦ شباط ١٩٤٠

خامساً

رسالة الخورفسقفوس زكريا ملكي رئيس دير الشرفة

دير سيدة النجاة — الشرفة

جونية لبنان — ٢٧ شباط ١٩٤٠

حضرة الوجيه النبيل الفيكنت فيليب دي طرازي

اطال الله تعالى ايام حياته الثمينة .

تحيات عاطرة ممزوجة بادعية واشواق حارّة تبعث بها الشرفة الى اعز ابنائها واكرم محبّيها . . . ما انفتحت ابواب السنة الجديدة الا وهداياكم يا حضرة

الفيكنت تتوافد الى الشرفة متتابعة شأنها في سالف السنين : فهذه مجموعة البشير للعام ١٩٣٩ جاءت حلقة جديدة لسلسلة صاغتها من اولها الى آخرها يدكم الكريمة. وهذا مركع جميل بشكله ثمين بقيمته واكثر منه بماضيه الطافح باعذب الذكريات .

اجل لقد عرف الجميع مَن هو حضرة الفيكنت دي طرازي . وقام عالم الادب اجمع بصحفه ومجلاته يشيد - على رغم تمنعكم - بصوته الجبار باياديكم ومبراتكم . والى مجموعة هذه الاصوات المتصاعدة من جميع اطراف المعمور يضيف دير الشرفة صوته بالشكر والامتنان مجدداً لمحسنه الكبير عواطف الولاء والدعاء .

غير اننا طمعاً بلطفكم وبكرمكم نتقدم اليكم يا حضرة الفيكنت الجليل بطلبة جديدة طالما تمنيناها وألححنا للحصول عليها . فان مخطوطات دير الشرفة ومطبوعاته باقية يتيمة حزينة تنادي اباها وموجدها . وكلها بصوت واحد تسألكم الا تطيلوا عذابها وتحرموها رسم شخصكم الكريم . فرجائي منكم ايها السيد المفضال ان تضيفوا الى مبرّاتكم السالفة هذه المبرّة الجديدة .

وبينا نحن بانتظار رسمكم العزيز نقدّم لكم فروض الشكر سلفاً مع عاطر تحياتنا واخلص امانينا ودمتم لمن يلهج باسمكم ويقرّ بفضلكم .

الخورفسقفوس زكريا ملكي
رئيس دير الشرفة

سادساً

رسالة القس حنا توعجان استاذ الاداب العربية في الشرفة

سعادة السري المفضال الفيكنت فيليب دي طرازى الافخم

اهدي اليكم تحيات ملؤها الاكرام وعواطف قلبية كلها اعجاب وثناء وشكران . وبعد يسرّني جداً ان اقدم لفخامتكم رسالة انتقيتها بين رسائل

تلامذتي في الادب العربي . وكنت اقترحت عليهم هذا الموضوع بمناسبة الحفلة الاكرامية التي اقيمت لكم في بيروت في ٢٣ شباط الماضي . ووعدتهم بارسال كتاب المبرّز منهم في هذه المباراة الى حضرتكم . وهـذا اليوم ابرّ بوعدي وابعث اليكم بالرسالة على علّاتها دون تنقيح او تصليح .

ولكني وأيمّ الحق قد ترددت كثيراً في اختيار هذه الرسالة بين ستة عشر فرضاً . وكلها حاوية من الابتكارات اللطيفة والشواعر الدقيقة ما ياخذ بمجامع القلب . وكيف لا يجيدون في موضوع كهذا ونصب اعينهم رسمكم الشريف وقد ضاق ذلك الصدر الذي نعهده رحباً باوسمة الشرف والفخار ؟ وبين ايديهم هداياكم النفيسة من مخطوطات ومطبوعات سوى تآليفكم القيّمة التي يرتشفون منها دروساً حيّة في العلم والادب والتاريخ ولاسيا في الغيرة والتفاني في سبيل الامة والوطن !

ايها السيد الكريم الذي ليس	يفيه الثناء مهما تمادى
انْ مدحناك نالنا المدح ايضاً	كالصدى راجعاً الى مَن نادى

هذه مولاي عواطف تلامذتنا كهنة الغد ومستقبل الطائفة . واملنا وطيد ان تنال الحظوة لدى سعادتكم وان ترمقوا الشرفة دوماً بعين الرضى وتتحفوا اولادكم بشيء مما قيل او كتب بهذه المناسبة ليتلقنوا منها اساليب البلاغة والخطابة فضلاً عن تجديد عهود المحبة لحضرتكم .

تنازلوا فاقبلوا فائق احترامنا وجزيل شكرنا وامتناننا وادامكم المولى .

المخلص

دير سيدة النجاة – الشرفة في ٧ اذار ١٩٤٠ — القس حنا توبجان

استاذ الآداب السريانية والعربية

في مدرسة الشرفة الاكليريكية

سابعاً

رسالة متري وهبه الحموي تلميذ الشرفة

ايها السيد الوجيه الفيكنت فيليب دي طرازي الافخم

بلغ مدرسة الشرفة الاكليريكية نبأ مفرّح طربت له القلوب وسكرت به النفوس . الا وهو اجتماع رجال العلم والوطن في حفلة شائقة لتكريم شخصيتكم البارزة . فكم احببنا تلبيةً لداعي القلب ان ننضم الى جملة المكرّمين لنرفع الى مقامكم الاسنى شعائر الاعتبار وعرفان الجميل . ولكن اذ حال الزمان دون نيل المبتغى فهذه رسالتنا نزّفها اليكم راجين ان تنوب عنا في تقديم عواطفنا الخالصة .

ليس من يجهل مناقبكم العالية ومزاياكم السامية . وهيهات ان يُتاح لنا تعدادُها ! انما نكتفي بذكر واحدة منها وهي محبتكم للوطن والعلم . احببتم لبنان فحرصتم على تقدم حضارته . واذ تبين لكم ان لا حضارة دون علم اكببتم على تعزيز الآداب ووضع التصانيف الادبية والتاريخية القيّمة . وأنّى لهمتكم الشمّاء ان تقف عند هذا الحد ! فطمحتم الى جلائل الاعمال ووطنتم النفس على خلق مورد علمي عذب يستقي منه الادباء والعلماء ما شاؤا . فمن تلك الساعة باشرتم جمع الكتب الثمينة والتصانيف المفيدة على اختلاف لغاتها وتعدّد مواضيعها . وكيما تتوصّلوا باقرب الطرق الى تحقيق نياتكم عقدتم عرى الصداقة والمودة مع رجال العلم واصحاب المكاتب الشهيرة في الغرب . وركبتم متن الاسفار باذلين الراحة والمال شأن التاجر الخبير الذي يبذل كل ماله لاقتناء الدرر اليتيمة . ومما يزيد اكليل مفاخركم مجداً انكم نهضتم وحدكم بعمل جبّار لا ينهض به الا الجماعات . فتوّج الله عز وجل مساعيكم بالفلاح وتكونت في حاضرة لبنان دار علوم شهيرة تكاد تضاهي المكاتب الغربية ثروة وغنى .

وفي ذلك كله كانت النزاهة والتواضع زينتكم في مساعيكم ليس لكم سوى

هدف واحد وهو ازدهار الوطن وارتفاع شأن العلم . وهل يشك عاقل في هذا التواضع وفي تلك النزاهة بعــد ان اجحف الزمان بحقكم فأحالكم عن ادارة مكتبة هي وليدة اتعابكم ؟ فانكم عوضاً عن ان تطالبوا بحقوقكم تحملتم مضض الايام صابرين واثقين . ولكن اعلموا يا صاحب الشمم والنبوغ انـــه ان قصّر البعض في الشكر وعرفان الجميل فجمهرة رجال الامة والادب لا تزداد الا اعتباراً لكم واعجاباً بشخصيتكم الفريدة . وهذه الحفلة الشائقة التي اقيمت لتكريمكم ان هي الا تعويض وطني واقرار عام بما لكم عـــلى العلم والوطن من الايادي البيضاء .

وفي هذه الفرصة السعيدة يسرّنا كل السرور ان نجدد لكم عواطف الامتنان والثناء على ما خصصتم به الطائفة السريانيـــة ومدرسة الشرفة الاقليرسية من العطف والكرم . فلا عجب ان تفاخر بكم الطائفة العزيزة وانتم احد اولادها اللامعين . وان يشكركم طلبة مدرستنا لانكم وفّرتم لهم وسائل العلم والتحصيل اذ زينتم مكتبتهم بالكتب الثمينة قديمة كانت او عصرية . واذا صحّ المثل : مَن علّمني حرفاً صرت له عبداً فاننا سنحفظ على صفحات القلوب ذكراً خالداً لذلك الذي جمع امامنا بحراً زاخراً من العلوم وقال لنا : ارتشفوا منه .

ختاماً لهذه الاسطر نسأل المولى الكريم ان يكافئكم خير مكافأة على جهودكم المبرورة في سبيل الوطن والطائفة والمدرسة البطريركية . وان يمــدّ في ايام حياتكم الثمينة كي تواصلوا اعمالكم الحميـــدة وتتمتعوا طويلاً بثمار جهودكم ودمتم للمقرّين بفضلكم

الشماس متري ميخائيل وهبة الحموي

دير سيدة النجاة–الشرفة في ٧ اذار ١٩٤٠ وتلامذة الشرفة

الفصل الرابع

اقوال الجرائد في حفلة التكريم

١

نشرت جريدة « الجامعة العربية » في ٢٢ شباط ١٩٤٠ تحت عنوان « مأثرة خالدة للفيكونت طرازي » ما نصه :

« ... الفيكونت دي طرازي شخصية غنيّة عن التعريف انما نحن بهذه الكلمة الصغيرة عنه اردنا ان نذكر شيئاً عن بعض الافعال العظيمة التي قام بها في خدمة لبنان بل في خدمة ابناء اللغة العربية جمعاء فنكون قد ارضينا ضميرنا .

انتهت الحرب الكبرى وخرج شبان لبنان المتعلّمون يجولون في الاسواق هائمين شاردين يكتنفهم ظلام قاتم لا يعلمون اين يقضون ساعات فراغهم . وادرك هذه الحالة الفيكونت وهو الرجل الحكيم فتقدم الى الحكومة عارضاً عليها خدماته في سبيل افادة شبان لبنان وشاباته بوضع حواجز بينهم وبين الجهل ..

لقد عمل شيئاً لم يعمله احد غيره من قبل . قدّم الى الحكومة مكتبته الكبيرة التي صرف السنين الطوال – زهرة حياته – في جمع كتبها . وصرف المبالغ الطائلة – ثروته – التي ورثها عن والديه في شرائها واعدادها . وبقي سنوات عديدة يصرف من جيبه الخاص لموظفي المكتبة وهو لا يجني من وراء هذا شيئاً ...

سافر الفيكنت دي طرازي الى مصر وزار عواصم البلدان وصرف المبالغ الكثيرة في سبيل المكتبة . وقضى سنوات عديدة حتى بلغ سنّ الشيخوخة

يركض من بلد الى آخر يجمع الكتب الثمينة ويضعها في المكتبة . وبوقت وجيز اصبحت مكتبته الصغيرة مكتبة كبرى للحكومة .

ادركت الحكومة الفائدة الكبرى التي عادت على لبنان واهله بسبب كدّ الفيكونت . فشيّدت داراً للمكتبة دُعيت دار الكتب الكبرى وعهدت الى الفيكونت الاشراف عليها .

واننا نسمع الثناء والاعجاب من كل شخص يدخل دار الكتب الكبرى ويشاهد الفيكنت دي طرازي الرجل المحسن الكبير .

نعم غداً ستقام له حفلة تكريمية وسيعدّد الخطباء افعاله العظيمة . ولكن لا احد منهم يستطيع ان يفي الرجل حقه . وفي الختام سيعلّقون رسمه بين رسوم رجالات العرب ليشرف على المكتبة التي صرف حياته في جمعها وترتيبها .

اننا نطلب من الحكومة ان تكافىء دي طرازي على اعماله . فلربما يقتدي به الغير وتصبح مكتبة بيروت من اكبر مكاتب الشرق العربي » .

٢

ونشرت الجريدة عينها بتاريخ ٢٧ شباط ١٩٤٠ ما يلي :

« الحكومة والشعب في لبنان يكرمان الفيكونت دي طرازي .

« اقيم نهار الجمعة الماضي الساعة الخامسة حفلة تكريمية لرجل العلم والادب الفيكونت فيليب دي طرازي برئاسة الوطني الكبير والرجل الاداري حسين بك الاحدب .

وضمّت الحفلة نخبة من كرام القوم وافاضله . ورجالات ادب وسياسة واجتماع لبنانيين وافرنسيين. وكان يتصدّر دار التكريم - دار الكتب الكبرى - فخامة العميد السامي وامين سرّ الدولة اللبنانية عبدالله بك بيهم ومفتي الجمهورية اللبنانية وقنصل مصر العام واميرال البحر الخ .

جلست امام الجميع لجنة التكريم المؤلفة من خيرة رجالات لبنان من اداريين ومحسنين وادباء وشخصيات لها مكانتها في العالم العربي (١). وجلس في الجهة الثانية الخطباء بلابل الحفلة . وفي الساعة الخامسة تماماً وصل الفيكنت الى دار التكريم يحيط به آله والمعجبون بادبه . فاستقبله الجمهور بعاصفة من التصفيق واخـذ يصافح الشخصيات البارزة من رجال لبنان ودار الانتـداب . وبعد ان عزفت الموسيقى بالنشيد الوطني والمرسلياز وقف سكرتير لجنة التكريم وقدّم الخطباء الى المدعوين .

تكلم الخطباء فاجمعوا على ان الفيكونت كما نعرفه رجل علم وادب . بيتـه محط الشعراء والادباء من مستشرقين ووطنيين . ناضل ستين سنة بجدّ ونشاط في خدمة الادب والشعر . وقدّم ثمرة اتعابه ومناضلته طيلة اعوام عديدة ومكتبته ومؤلفاته ودواوينه الى الامة العربية .

قـال احدهم : والذي يعرف الفيكونت تمـاماً ان الفيكونت لا يزال رغم الشيخوخة مكباً على اوراقه يشتغل بابحاثه .

وفي نهاية الحفلة وقف المحتفى به والقى كلمة بليغة باللغـة الفرنسية واخرى باللغة العربية ذكر فيها العوامل التي دفعته الى عمله واتمام مشروعه : اهمها الصدق والاخلاص والتجرد والثبات في العمـل . ثم شكر للمدعوّين الذين لبّوا دعوة لجنة التكريم .

وفي اثناء الحفلة نهض مندوب الحكومة اللبنانيـة وقرأ مرسوماً بتعيين الفيكونت اميناً فخرياً لدار الكتب ليشرف على المكتبة التي صرف حياتـه في جمع كتبها وترتيبها . وانعمت الحكومة عليه بوسام الارز الذهبي لخدماته .

---

(١) تألفت لجنة التكريم من صفوة رجال لبنان وجاهة وادباً وتفكيراً . وبين اعضائها لذكر خمسة وزراء : حسين بك الاحدب ، يوسف بك افتيموس ، الامـير رئيف ابي اللمع ، رامز بك سركيس ، حكمت بك جنبلاط .

ونحن نهنىء الفيكونت على اعماله العظيمة طالبين له عمراً طويلاً ليظل العالم العربي يستفيد من ادبه وشعره وابحاثه .

٣

وكتبت جريدة « صوت الاحرار » بتاريخ ٢٥ شباط ١٩٤٠ ما نصه :

« حفلة رائعة في دار الكتب الوطنية لتكريم مؤسسها الفيكونت فيليب دي طرازي .

« كانت الحفلة التي اقامها اصدقاء الفيكونت طرازي امس الاول تكريماً له من اروع الحفلات التي شهدتها المدينة . فقد جمعت هذه الحفلة الباهرة حول صاحب الفخامة مسيو بيو المفوض السامي وحضرة امين سرّ الدولة عبدالله بك بيهم جمهوراً غفيراً من الشخصيات المدنية والدينية بينهم المسيو بونور مستشار المعارف في المفوضية العليا وصبحي بك حيدر مدير التربية الوطنية . ومسيو كوانته مستشار مديرية التربية الوطنية . وسيادة المونسنيور حيقاري ممثلاً صاحب النيافة الكردينال تبوني . وسماحة الشيخ توفيق خالد مفتي الجمهورية اللبنانية . وحسين بك الاحدب رئيس لجنة التكريم واعضاؤها . وشوهد بين الجمع الغفير مسيو مانديس فرانس من وزراء فرنسا سابقاً وعددٌ من كبار الضباط الفرنسيين والانكليز .

ولما اقبل المسيو بيو حيّته اوركسترا اذاعة الشرق بنشيد المرسلياز كما حيّت الفيكونت دي طرازي بالنشيد اللبناني . وفي اثناء الاجتماع قُرىء قرار امين سرّ الدولة بتعيين حضرة الفيكونت محافظ شرف لدار الكتب الوطنية وقلّد حضرة امين السر المحتفى به مدالية الشرف من الاستحقاق اللبناني وقد منحه اياها فخامة رئيس الجمهورية . وقدمت اللجنة لحضرة الفيكونت صورته الزيتية بريشة الفنان فرّوخ اثارت اعجاب الحاضرين .

وتعاقب الخطباء منوهين بفضل الفيكونت دي طرازي . وقرأ الدكتور

رئيف ابي اللمع امين سر لجنة التكريم رسالة بعث بها نيافة الكردينال تبوني الى حضرة حسين بك الاحدب يشكر فيها اللجنة عاطفتها النبيلة .

وفي الختام لفظ المحتفى به كلمة بليغة بالفرنسية والعربية شكر فيها الحاضرين وخص بالشكر فخامة المفوض السامي . وبعد ان صافح مسيو بيو الفيكنت دي طرازي واعضاء لجنة التكريم غـادر القاعة وارفض الجمهور يتمنون اطراد النجاح لهذه المؤسسة التي يعود الفضل في انشائها الى الفيكونت دي طرازي .

فنهنىء حضرة الفيكونت وندعو لخلفه حضرة الشاعر الكبير الاستاذ هكتور خلاط بالتوفيق في مهمته الجليلة » .

٤

ونشرت جريدة « لسان الحال » بالتاريخ عينه ما يلي :

« حفلة تكريم الفيكونت دي طرازي – مظاهرة ادبيـة رائعة في دار الكتب الوطنية .

« كانت حفلـة التكريم التي اقيمت مساء امس الاول لحضرة الفيكونت فيليب دي طرازي في دار الكتب الوطنية مظاهرة ادبية رائعة دلّت على ما للمحتفى به من مكانة ادبية ممتازة . فان لجنة التكريم التي ادّت مهمتها عـلى الوجه الاكمل قد اشركت في الحفلة كبار الشخصيات الرسمية والعسكرية والدينية والدبلوماسية ورؤساء المعاهد العلميـة وباقة من السيدات والاوانس . ونخبة من اهل الادب والصحافة والفن فاسبغت عـلى دار الكتب جواً بهيجاً فخماً . وكان في طليعة الحضور فخامة السيد بيو المفوض السامي . فاستقبـل بالنشيد الفرنسي عزفته موسيقى الاذاعة كما عزفت النشيد اللبناني عند حضور امين سر الدولة عبدالله بك بيهم . اما المحتفي به فتلقاه القوم بالتصفيق الحاد .

افتتح الحفـلة حضرة حسين بك الاحدب رئيس لجنة التكريم بكلمة بليغة

تحدّث فيها عن الخدمات الجلّى التي اداها الفيكونت دي طرازي للعلم والادب . وعن الجهود والاموال التي بذلها في المكتبة الوطنية . وتمنى لو ان الحكومة احتفظت به فتنتفع بخبرته وغيرته لاسيما وهو ما زال في همة الشباب . ثم اثنى على الاستاذ هكتور خلاط امين دار الكتب الجديد متمنياً ان يكون خير خلف لخير سلف . وذكر ان لجنة التكريم اهدت الى دار الكتب رسماً زيتياً للفيكونت بريشة الفنّان مصطفى فروخ . وقد علّق الرسم بين رسوم الشخصيات اللبنانية على جدار القاعة . وختم الخطيب كلمته بالهتاف للبنان ولفرنسا .

وتعاقب الخطباء يقدّمهم الدكتور رئيف ابي اللمع فنوّهوا جميعاً بمآثر المحتفى به وخدماته التي استحق بها تكريم مواطنيه واعجاب الامم الاخرى . وقد عرض الاستاذان بونور وفاخوري طائفة جميلة من آراء كبار الادباء العرب والفرنسيين في « الكتاب » الذي كان الفيكونت ولا يزال اوفى صديق له .

وفي اثناء الحفلة تلا السيد ادمون صابونجي مرسوماً بمنح الفيكونت دي طرازي وسام الارز ولقب امين شرف للمكتبة الوطنية . ونهض عبدالله بك بيهم فقلده الوسام بين عاصفة من التصفيق . وتُلي كذلك كتاب وارد من نيافة الكردينال تبوني يشارك فيه المحتفين بعاطفتهم .

وكانت كلمة ختام للمحتفى به . فتكلم بالفرنسية ثم بالعربية شاكراً لجميع من ساهموا في تكريمه عواطفهم الطيبة ومتمنياً لفرنسا النصر المبين . وانتهت الحفلة فاقبل القوم يصافحون الفيكونت مكرّرين له التهانيء الحارة داعين له بطول العمر ليتابع رسالته الادبية الجميلة » .

٥

ونشرت جريدة « اليوم » بالتاريخ عينه ما يلي :

« في حفلة تكريم الفيكونت دي طرازي – معالي السيد عبدالله بيهم يكرّم المحتفى به بوسام وقبلة .

« اقيمت في الساعة الخامسة من مساء امس في قاعـة دار الكتب الكبرى حفلة تكريم للفيكونت فيليب دي طرازي امـين دار الكتب السابق . وفي الساعة المعينة كانت القاعة قد امتلأت بالمدعوين من كبار رجال الدين ورجـال الوجاهة في البلد وكبار الموظفين .

وفي هذه الاثناء شعر الناس بحركة غير عـاديّة فاذا بفخامة المفوض السامي السيد غبريال بيو يدخل القاعة بمنتهى البساطة لحضور تكريم رجل من رجـال العلم . وما ان عرفت اللجنة بقدوم فخامته حتى سارعت الى استقباله وقـد ظلّ الناس فترة غير قصيرة في الاعجاب بالرجل الفرنسي الذي برهن في وجوده هنـا عن تقدير للعلم واهله .

وفي الساعة الخامسة وبعض الدقائق وصل معالي امين سرّ الدولة السيد عبدالله بيهم يرافقه مدير ديوانه السيد ادمون صابونجي والسيد شوفلر مستشار الحكومة . فوقف سكرتير لجنة التكريم الدكتور رئيف ابي اللمع وقدم معالي حسين بـك الاحدب رئيس اللجنة . فاعتلى معاليه بهيئته الجليلة المنبر والقى كلمة بليغة نالت استحسان الجميع ودلت على ما يتمتع به صاحب المعالي الى جانب حنكته السياسية وسمعته الادارية من ادب رفيع واطّلاع وافر وحب وتقـدير لمن اقيمت الحفلة لتكريمه .

وقد وردت اشارة في الخطاب كان لها كل الصدى الحسن . فتمنّى معاليه لو ان الحكومة استثنت الفيكونت فيليب دي طرازي من قـانون بلوغ السنّ

واحتفظت به لدار الكتب اللبنانية وهو الذي عمل على انشائها وتنظيمها ورعايتها. فكان لهذه الاشارة استحسان واسع بين المدعوّين وانهى معالي حسين بك خطابه وودّ الجميع لو انه طال اكثر لما فيه من دقة وحكمة وادب وافر.

ثم وقف السيد بونور مستشار المعارف في المفوضية العليا فالقى خطاباً باللغة الفرنسية جمع الى نبرات الصوت الصافية تقديراً زائداً للفيكونت فيليب دي طرازي فكانت كلمة عالية بما عُرف عن السيد بونور من حبّ لهذه البلاد وتقدير للعاملين في حقل العلم فيها.

ثم القى الاستاذ عمر فاخوري كلمة عالية اعطى فيها الاديب الكبير صورة رائعة عن دائرة المعارف السجينة في جنبات نفسه. وتتابع الخطباء بعدئذ فالقى الاستاذ نور الدين بك بيهم خطاباً تحدّث فيه عن الفيكونت رفيقه في دار الكتب وما عرّف عن مآثره. فكانت كلمة مخلصة جمعت الوفاء والودّ والتقدير. ثم القى الاستاذ حليم دموس قصيدة قوطعت بعض ابياتها بالتصفيق الحاد وقد كان الاستاذ الكبير موفقاً فيها كل التوفيق. والقى بعدئذ الاستاذ الياس ابو شبكة خطاباً جمع الى متانة اللغة ودقة التعبير وجمال الوصف.

وكانت مقايسة صامتة حين اعطي الاستاذ هكتور خلاط امين دار الكتب الجديد الكلام. فالقى خطاباً بالفرنسية تحدث فيه كثيراً ولكنه قال قليلاً. وتساءل الحاضرون بعد هذا اذا كان الاستاذ هكتور يستطيع ان يدير مكتبة عربية. ومن حسن الصدف ان يقوم الفيكونت فيليب دي طرازي على الاثر فيتحدّث بالفرنسية شاكراً لفخامة المفوض السامي وللمدعوّين تلبيتهم الدعوة وللجنة عملها. ثم تحدّث بالعربية بالمعنى نفسه بكلمة متزنة جامعة وافية فكانت اعلاناً صامتاً عن معارف الفيكونت وادبه واطلاعه.

« اشارة واجبة

وفي اثناء الحفلة تلا سكرتير اللجنة الدكتور رئيف ابي اللمع كلمة واردة من

نيافة الكردينال تبوني بطريرك السريان – والفيكنت دي طرازي احد ابنائه – شكر فيها للجنة عملها التكريمي ولمعالي حسين بك الاحدب جهده . كما ان السيد ادمون صابونجي مدير ديوان الدولة تلا مرسوماً بمنح وسام الارز اللبناني للمحتفى به فوقف معالي السيد عبدالله بيهم فعلّق على صدره الوسام وعانقه .

خرج الجميع في نهاية الحفلة وهم يأسفون لذهاب الفيكونت دي طرازي من دار اسّسها واشرف على تنظيمها وهو خيرُ من يرعاها . ويشيرون باجماع عام الى خطأ من الاخطاء الفادحة التي ترافق هذا المعهد ! » .

٦

ونشرت جريدة « البيرق » بالتاريخ المذكور ما يلي :

« فخامة مسيو بيو وامين سرّ الدولة في حفلة تكريم الفيكونت دي طرازي .

« كان مساء امس الجمعة موعد حفلة التكريم التي اقيمت في قاعة دار الكتب الوطنية لامينها السابق ومؤسسها الفيكنت فيليب دي طرازي . وقد حضرها جمهور كبير من المدعوّين وفي مقدمتهم فخامة العميد السامي مسيو غبريال بيو وحضرة عبدالله بك بيهم امين سرّ الدولة وصاحب السماحة المفتي واصحاب السيادة مطارنة السريان الكاثوليك وبعض العلماء والمديرين وكبار القضاة والموظفين والادباء وامتلأت المقاعد بالحاضرين .

افتتحت الحفلة بالنشيدين اللبناني والافرنسي وعلّق امين سرّ الدولة وسام الارز على صدر المحتفى بـه . وافتتح الحفلة رئيس لجنة التكريم معالي الاستاذ الجليل حسين بك الاحدب بكلمة بليغة . وكان الامير رئيف ابي اللمع سكرتير اللجنة يتولى تقديم الخطباء . وتلا بعض رسائل منها رسالة دقيقة موجّهة من نيافة الكردينال تبوني الى اللجنة . فاجاد الخطباء نثراً وشعراً وقوطعوا بالتصفيق ... وفي نهاية الحفلة اقبل الحاضرون على المحتفى به يهنئونه بهذا التقدير الكبير المجيد في دار الكتب اللبنانية .

٧

وكتبت جريدة « الحديث » بالتاريخ عينه ما يلي :

« تكريم امين دار الكتب السابق - حفلة فخمة يحضرها فخامة المفوّض السامي .

« اقيمت حفلة تكريم لرجل عالم مجاهد خدم امّته ووطنه اجلّ الخدمات في صمت وهدوء حيث ساهم في نشر الثقافة الرفيعة بتاسيسه داراً للكتب كانت الامة في اشدّ الحاجة الى مثلها . يختلف اليها المثقفون ينهلون من موردها العذب ومَعينها الفيّاض مـا يروي نفوسهم العطشى من دراسات في مختلف العلوم والآداب والفنون .

اقيمت هذه الحفلة لتكريم ذلك الرجل الذي خلق دار الكتب الوطنية بجدّه واجتهاده . والذي نفخ فيها من روحه وبذل لها من ماله . فجعلها محجّة للادباء ومزاراً للمثقفين . ذلك الرجل العالم هو الفيكونت فيليب دي طرازي امين دار الكتب الوطنية .

ولا أدلّ على رفعة هذا العمل الذي افنى عمره في سبيل تثبيت دعائمه من اجماع نخبة من وجهاء هذه البلدة وكرام ادبائها وشعرائها على اقامة حفلة تكريمية ضمت كبار الشخصيات من عربية وفرنسية مدنية وعسكرية . يتقدمهم صاحب الفخامة المفوض السامي وحضرة امين سرّ الدولة عبدالله بيهم واصحاب السماحة مفتي الجمهورية ومفتي الشيعة وقاضي المذهب الدرزي ولفيف من رجال الاكليروس وقنصلا القطرين الشقيقين مصر والعراق وجمهور غفير من ادباء واطبّاء ومحامين ومربّين .

افتتح الحفلة حسين بك الاحدب رئيس لجنة التكريم بكلمة عدّد فيها مناقب المحتفى به وأتى على ذكر جهوده في تأسيس المكتبة وتأليف الكتب التي تنمّ عن

علم غزير وسعة اطلاع . وعقبه مستشار المعارف في المفوضية العليا السيد بونور فاشاد بجهود الفيكونت التي اينعت واثمرت تلك الثمرة التي هي دار الكتب الزاخرة بالكتب والمجلات باللغتين العربية والفرنسية .

وتعاقب الخطباء الواحد بعد الآخر وكلّ منهم يُشيد بفضل مؤسّس هذه الدار التي تدلّ على اسمى معاني التضحية والاخلاص . وارتجل الاستاذ هكتور خلاط امين دار الكتب الجديد كلمة رقيقة عاهد فيها سلفه على حفظ التراث الذي آل اليه .

وهنا تقدّم الفيكونت دي طرازي والقى كلمة شكر فيها فخامة السفير مسيو بيو ومعالي امين سرّ الدولة واللجنة التكريمية والخطباء وجمهور الحاضرين . وتمنى على فخامة المفوّض السامي ان يرعى هذه الدار رعايته للعلم والادب .

وكأني بالحكومة شعرت بجميل صنعه ونبل عمله فارادت ان تقدر جهود هذا العالم الذي افنى زهرة شبابه في تشييد هذه المكتبة فاصدرت قراراً بتعيينه اميناً فخرياً لدار الكتب .

اننا نهنىء الفيكونت بهذا التعيين الجديد وبهذه الحفلة التكريمية فهو احق الناس بالتهنئة والتكريم .

٨

ونشرت جريدة « الروّاد » في نفس التاريخ ما نصه :

« تكريم الفيكونت دي طرازي

« اجتمعت امس في دار الكتب جمهرة من ادباء البلد ورجال القلم اللبناني لتكريم العصامي الذي اوجد هذه الداز واذاب ثروته وصحته في تغذيتها حتى جعلها تختال في ذروة هذا الكمال .

« اجتمعوا لتكريم اللبناني الكبير والعالم النقادة الفيكونت دي طرازي وتلوا فصولا شيقة من جهاده النبيل في سبيل هذه المؤسسة اللائقة بامجاد العاصمة وثقافة اللبنانيين بعد ان اقصته الحكومة عن ادارتها بذريعة الشيخوخة .

ان هذا الشيخ الذي عمل في هذا السبيل النبيل ما عجزت وتعجز عنه الحكومات هو حريّ بتكريم لبنان . فالفيكونت طرازي وحده بين رجالات هذه الامة اقدم على تضحية شخصية اثمرت لنا هذا المشروع العام بجزيل المنافع . فاذا ما اكرمه رجال القلم فانما يكرّمون به النبل والتضحية والنزاهة .

اننا نضمّ صوتنا الى اصوات الادباء الذين عرفوا مَن يكرّمون راجين ان يبقى هذا العصامي رمزاً الى التضحية الوطنية وامثولة تُلقى على اغنياء لبنان الذين لم تعرف مرافق البلاد ومشاريعها العامة درهماً من ثرواتهم ولا ذرّة من مجهوداتهم » .

٩

وكتبت جريدة « المراحل المصوّرة » بتاريخ ٢٦ شباط ١٩٤٠ هذه الكلمة البليغة قالت :

« تكريم الفيكنت دي طرازي

« رأى رجال الفضل والمروءة والوفاء من اهل العلم والادب والوجاهة ان يكرّموا الفيكونت دي طرازي مؤسّس دار الكتب الوطنية في لبنان وصاحب الايادي البيضاء على الادب والادباء في الاقطار الناطقة بالضاد . فاقاموا حفلة على شرفه بعد ظهر الجمعة ٢٣ شباط في قلب الدار التي اوجدها من العدم . وانفق عليها من جيبه وقلبه ما قد يضنّ بانفاقه الوالد على وحيده وما قد عجزت حكومة عن انفاقه .

واوّل ما يخطر ببالنا ونحن نكتب هذه الكلمة ان نشكر لجنة التكريم على

صنعها . فقد برهنت على ان شرف النفس والخلق ما يزال قائماً في هذه البلاد يدفع بجنوده لتقدير ذوي الفضل مهما تلبّد جوّ النزعات ومهما تضافر بعض العناصر على طوي الفضيلة .

ان لبنان غني بكتّابه وشعرائه ولكنه فقير الى امثال الرجل النبيل الفيكونت فيليب دي طرازي الذي خدم العلم والادب ستين سنة كاملة بكل اخلاص ونزاهة ووداعة ولم يبغ جزاء ولا شكراً . وابتعد عن التطبيل والتزمير لعمله القيّم مؤثراً العمل المنتج بصمت وتجرّد . واذا كان من رجل في العالم العربي يستحق ثناء الصحافة العربية فهو هذا العامل الرصين الذي وضع تاريخها في اثني عشر جزءاً (ظهر منها اربعة) ضمّنت كل شاردة وواردة عنها . وكانت في الوقت عينه تاريخاً للنهضة الفكرية في الشرق ومرجعاً صادقاً وامينا لكل من يهتم لها .

ان عمل فيليب دي طرازي خالدٌ في تاريخ هذه الامّة ومآثره الغراء لن تكون لسان ثناء عليه فحسب بل هي منذ الآن شهادة العلم المغبون على الجهل المحظوظ . وشهادة الانتاج والكرم وصفاء القلب على اضدادها . وعندما يموت جميع الاحياء اليوم ويموت الذين تتّصل اسماؤهم بالثقافة فتموت اسماء الكثيرين منهم وتحملها مياه التاريخ الى محيط العدم كما يحمل النهر الصافي جميع ما يُرمى فيه الى البحر، يقف اسم فيليب دي طرازي حين ذاك حياً ناطقاً بطيب المحتد وجليل الاثر .

فيا شيخاً وقوراً عاش ويعيش مثالا للغيرة على الادب ومثالا لخدمته بتجرّد والعطف على ابنائه بوداعة . ان اقل ما تستحقه من اسرته هو هذا التكريم الذي لقيته من كرامها يوم الجمعة . فنرى لزاماً علينا ان نشيد بفضلك وندعو لك بطول العمر ! »

وكتبت جريدة « العالم الاسرائيلي » بتاريخ ٢٩ شباط ١٩٤٠ الكلمة التالية :
« حفلة تكريم رائعة في دار الكتب الوطنية .

« اقيمت مساء الجمعة الماضي حفلة تكريمية لحضرة الفيكونت فيليب دي طرازي مؤسس المكتبة الوطنية لمناسبة احالته الى التقاعد وتعيينه اميناً فخرياً لهذه الدار

« وقد جمعت هذه الحفلة الباهرة حول صاحب الفخامة المفوّض السامي مسيو بيو وحضرة امين سرّ الدولة عبدالله بك بيهم جمهوراً غفيراً من الشخصيات البارزة في المدينة . بينهم المسيو بونور مستشار المعارف في المفوضية العليا وعدد كبير منها الضباط الفرنسيين والانكليز .

ولما اقبل فخامة العميد حيّته اوركسترا اذاعة الشرق بنشيد المرسلياز كما حيّت الفيكونت دي طرازي بالنشيد اللبناني . وقد قلّد امين سرّ الدولة عبدالله بك بيهم المحتفى به بوسام الارز اللبناني منحه اياها فخامة رئيس الجمهورية .

ثم تعاقب الخطباء الواحد بعد الآخر وكلّ منهم كان يشيد بفضل الفيكونت وجدّه وتضحياته التي تدلّ على اسمى معاني التضحية والاخلاص .

وفي الختام نهض المحتفى به والقى كلمة بليغة اولا بالفرنسية ثم بالعربية شكر فيها فخامة العميد ومعالي امين سرّ الدولة واللجنة التكريمية والخطباء وجمهور الادباء الحاضرين .

فالعالم الاسرائيلي يهنىء حضرة الفيكونت فيليب دي طرازي بتعيينه اميناً فخرياً لهذه الدار . وبهذه الحفلة التكريمية التي هو اهلٌ لها . وتدعو لخلفه الشاعر المبدع الاستاذ خلاط بالتوفيق في مهمته هذه الجليلة التي انتُدب اليها آملة منه المحافظة على التراث الذي آل اليه متمنّية لدار الكتب الوطنية بايامه دوام الرقي والازدهار » .

ونشرت جريدة « أثرا » اعني « الوطن » بتاريخ ١ اذار ١٩٤٠ الكلمة التالية :
« حفلة تكريم الفيكنت دي طرازي .

« من اجمل وافخم الحفلات التي شهدناها مساء الجمعة الفائت ٢٣ شباط ١٩٤٠ الحفلة التكريمية التي اقامتها لجنة راقية من رجالات لبنان وعلى رأسها معالي حسين بك الاحدب العلامة القدير، للفيكونت فيليب دي طرازي في قاعة دار الكتب الكبرى . وقد حضرها حضرة المفوّض السامي وكبار رجال الدين والدنيا وموظفي الحكومة تقديراً لمؤلف تاريخ الصحافة العربية ومؤسس دار الكتب . وكان عرّيف الحفلة الدكتور رئيف ابي اللمع احد اعضاء اللجنة .

وبعد النشيد الوطني « كلنا للوطن » ونشيد المرسليـــاز نهض رئيس الحفلة حسين بك الاحدب والقى كلمة طيبة وتلاه المسيو بونور مستشار المعـــارف في المفوضية العليا باللغة الفرنسية . وسمعنـا خطاباً ممتعاً من الاستاذ عمر الفاخوري وصف فيه الكتاب وفضل المكاتب في العالم ... ثم تكلم السيـد نور الدين بيهم وذكر اشياء طريفة عن معرفته للفيكنت وجهاده المتواصل في سبيل العلم والادب .

ونهض على اثره الاستاذ حليم دمّوس والقى قصيدة بديعة كانت درّة في جيد الحفلة . وتمنّينا لو ان مجال الجريدة واسع ليشترك القراء معنا بلذتها . قـال في مطلعها متغزلا بالكتاب :

هللْ على ذكر الكتاب وكبّرِ ... واخشع امام جلال هذا المظهرِ
وادخـل الى حرَم الثقافة لاثماً ... انجيلَ اجيـالٍ ومصحفَ ادهرِ

وبعد ان وصف الكتب والمكاتب وفوائدها في العالم انتقل الى وصف المكتبة وما فيها من النفائس والاثار . واختتم ابياته الجميلة بمخاطبة المحتفى به فقال :

هـذا جزاء المخلصينَ نصوغـه ... اكليل مجدٍ نشرهُ من عـنبرِ

فاقبل قوافينا ففي نفحاتها روح الوفاء الى الكريم العنصرِ
واسمع هتاف المعجبين مردداً من ارز لبنان لارض المهجرِ
كنت «الامين» على الكثير فصنته لذوي النهى برعايةِ المتبصرِ
وجعلت آثار العصور بقاعة وجمعت تاريخ الدهور باسطرِ
كأس من الادب الرفيع سكبتها فلتشرب الدنيا عصير الاعصرِ !

وقد صفّق الحضور كثيراً لابيات الشاعر واستعادوا عدّة مقاطع منها اعجاباً واستحساناً . وتلاه الاستاذ الشاعر الياس ابو شبكة فالقى خطاباً نثرياً كان له الوقع الحسن .

وبعد الموسيقى نهض مدير دار الكتب الجديد الاستاذ هكتور خلاط فالقى خطبة نفيسة باللغة الافرنسية . وتلا عرّيف الحفلة رسالة عربية من نيافة الكردينال تبوني . وعلّقت الحكومة اللبنانية وسام الارز على صدر المحتفى به الفيكونت طرازي الذي ختم الحفلة بخطابين نفيسَين بالافرنسية والعربية .

وخرج القوم وهم يثنون على اللجنة ويتحدثون عن هذه الحفلة الفريدة في بابها خاصة وان فخامة المفوّض السامي حضرها بالذات بالرغم من مشاغله الكثيرة » .

١٢

وكتبت جريدة « الصاعقة » بتاريخ ٢ اذار ١٩٤٠ هذه الكلمة الوجيزة :

« تكريم الفيكونت طرازي .

« حالت موانع قاهرة دون حضورنا الحفلة التكريميـــة التي اقيمت لحضرة الفيكونت فيليب دي طرازي امين دار الكتب السابق وصاحب اليد الطولى والاولى في انشاء تلك الدار .

ولقد علمنا ان الحفلة كانت رائعة ألقيت فيها خير الدرر شعراً ونثراً. وشكر

الفيكونت مَن كرّموه بخطاب لطيف انطوى على مثل ما عهدناه وعرفناه عن أدبه الغالي . اطال الله تعالى بحياته الثمينة ذخراً للادب واللغة والوطن » .

١٣

وكتبت جريدة « الاتحاد العربي » بتاريخ ٤ اذار ١٩٤٠ ما نصه مخاطبة الفيكنت دي طرازي قالت :

« رفعتَ منار العلم في الوطن الذي	تريد له حقاً رفيعَ المراتبِ
ومكتبة انشأتها وطنيـة	لها شأنها ما بين ارقى المكاتبِ
بهـا يبلغ المأمولَ كلّ معلّمٍ	ويرشف من خيراتها كل طالبِ
سهرتَ عليها والكثيرون نُوَّمٌ	وحققت بالمشروع جلّ الرغائبِ
اذا غبتَ عنها كارهاً لفراقها	فذكرك باقٍ عندها غير غائبِ

ان اول ما يخطر ببال « الاتحاد العربي » بالاجماع والاسلامي بالاخص ونحن نحرّر على قرطاس صحيفتنا الحرة هذه الكلمة العالية التي نشكر بها لجنة التكريم على صنعها . فقد برهنت على ان شرف النفس والنباهة والُخلق ما يزال قائماً في هذه البلاد العامرة . يدفع بدويه وحرّاسه لتقدير ذوي الفضل والكرامة مهما تلبّد جوّ النزعات فوق رؤوسهم وقبعاتهم وعماماتهم .

رأى رجال العلم والادب رجال الوفاء والمروءة، رجال الوجاهة والكرامة ان يكرموا صاحب الايادي البيضاء على العلم والادب : الفيكونت فيليب دي طرازي الاديب الكبير بين الادباء والعالم العلامة بين العلماء والوجيه النبيل على الوجهاء في الاقطار الناطقة بالضاد . فاقاموا حفلة على شرفه بعد ظهر الجمعة ٢٣ شباط في قلب العرين الذي اوجده ذلك الاسد الهمام . وانفق عليه من جيبه الخاص ومن قلبه الفياض ما قد يضنّ بانفاقه الوالد على ولده وحنان الام على وليدتها .

لقد ادّى ذلك النبيل الكريم مشقات عديدة في رحلاته الى الديار الاوربية والى الديار المصرية . فهناك جمع ما استحسنه من التآليف النفيسة والكتب العلمية على اختلاف مواضيعها وفنونها. هكذا رفع اسم لبنان عالياً اينما حلّ وسار.

فيا شيخ العلم الوقور ويا كريم النفس الغيور : عشت وعاشت امثالك للعلم والادب والكرم .

اننا نجهر بفضلك ونلهج بفضل علمك وندعو الى الله تعالى بطول عمرك ! » .

١٤

وكتبت « المراحل المصوّرة » تحت عنوان « لبنان وفرنسا يكرّمان الاخلاص » :

« تجلّى الوفاء والتقدير والولاء الصادق في الحفلة التي اقامها لبنان المثقّف للعالم الجليل الفيكونت دي طرازي بعد ظهر الجمعة ٢٣ شباط في دار الكتب اللبنانية . ومُثّل لبنان بجميع طبقاته ومذاهبه فيها . واحبّ فخامة المفوّض السامي ان يشمل حضرة المحتفى به برعايته الخاصة فتلطف وترأس الحفلة بشخصه الكريم يحيط به اعوانه اركان المفوضية العليا ومعالي السيد عبدالله بيهم امين سرّ الدولة والمستشار شوفلر وكولونيل يمثّل الجنرال جونو القائد الاعلى للطيران الذي منعه شغل مستعجل من الحضور، وقناصل الدول الشرقية وكبار الموظفين اللبنانيين . وكان منظر الرؤساء الروحيين المحيطين بعلامتنا الوقور من مسلمين ومسيحيين يزيد في جلال الحفلة .

وفي بدء الاجتماع تُلي قرار الحكومة اللبنانية بتعيين الفيكونت « محافظ شرف » لدار الكتب وقلّد وسام الارز المذهب . وتُليت رسالة من نيافة الكردينال تبوني يثني فيها على مكرّمي المحتفى به ويوفد احد السادة الاساقفة لتمثيله في عيد الثقافة .

وافتتح الحفلة السيد حسين الاحدب رئيس لجنة التكريم فشكر الحاضرين واتى على بعض مآثر الفيكونت فاجاد ووفى . ومما قاله : « ... ان تاليفه تاريخ الصحافة لفريد في بابه . وغيره من تصانيفه العديدة المبتكرة ادلّ دليل على جهوده وتفانيه في خدمة العلم . وعما قريب سيتحفنا بسفر عظيم من ابداعه سيكون له اثره وصداه في الخافقين ... » .

وكانت خطبة المسيو بونور البليغة انبل شهادة في الجهود العظيمة والخدمات الجلى التي ادّاها المحتفى به لبلاده . وتكلم الاستاذ نور الدين بيهم عن الفيكونت دي طرازي في حياته الخاصة فصوّر العمل المثمر اصدق تصوير . ومما قاله : « ... فحياة الفيكونت في بيته كما عرفتُها حياة عمل متواصل يسودها الهدوء والسكينة : يثابر مثابرة عجيبة غريبة على العمل . وفي كل وقت تزوره تراه مكباً على مكتبته بين اوراق مبعثرة وكتب مشتتة تحيط به القواميس يشتغل بابحاثه بكل سكون . وله في جملة تآليفه ديوان شعر رقيق مبتكر في معانيه يتضمّن قصيدة في مدح المغفور له الملك فؤاد الاول مرصوفة باطار ثمين معلقة في احدى قاعات قصر عابدين . وقد اصبح بيت الفيكونت مقصد العلماء والشعراء من عرب ومستشرقين . وتربط الفيكونت بملوك العرب وامرائهم صداقة متينة . وله معهم مراسلات وديّة تبرهن على مكانته الكبيرة ... » .

وانشد الاستاذ حليم دمّوس قصيدة هي من عيون شعره وصف بها الكتب وصفاً موفقاً وختمها بقوله للفيكونت :

لو تملك الكتب الكلام لرفرفت   واتتكَ بين مهلّلٍ ومكبّرٍ ...

وشكر الفيكنت دي طرازي الحاضرين بوداعته المعروفة وادبه العالي . فكان عنوان الوفاء ولسان حاله يقول : « الفضل بعرفه ذووه » امدّ الله عمره ذخراً للعلم ! »

١٥

وكتبت جريدة (اوريان) الفرنسية بتاريخ ٢٤ شباط ما نصة :

UNE RÉUNION A LA BIBLIOTHÈQUE NATIONALE EN L'HONNEUR DU VICOMTE PHILIPPE DE TARRAZI

Les nombreux amis du vicomte Philippe de Tarrazi ont organisé, hier soir, à la Bibliothèque nationale, une réunion, en son honneur, à l'occasion de sa mise à la retraite.

Cette brillante manifestation groupait autour de M. Puaux et de M. Abdallah Beyhum de nombreuses personnalités civiles et religieuses dont notamment M. Bounoure, Conseiller à l'Instruction publique du Haut-Commissariat, M. Soubhi Haïdar, Directeur de l'éducation nationale et des Beaux-Arts, M. Cointet, Conseiller à la Direction de l'Education nationale, Mgr. Hikari, représentant de S. Em. le Cardinal Tappouni, le Cheikh Toufic Khaled, Mufti de la République libanaise, M. Hussein Ahdab, président du Comité d'honneur, Mme Evelyne Bustros, M. Bayard Dodge, président de l'A. U. B., M. Habib Trad, M. Omar Daouk, M. Hikmat Djoumblat, ancien ministre, M. Ali Slam, M. Amine Beyhum, M. Ramez Sarkis, M. Hector Klat et M. Georges Baz, membres du Comité et de nombreux représentants de la presse libanaise.

A son arrivée, M. Puaux fut reçu par *La Marseillaise* exécutée par l'orchestre de Radio-Levant.

Au cours de la réunion, lecture fut donnée du Secrétaire d'Etat nommant le Vicomte Philippe de Tarrazi Conservateur d'honneur de la Bibliothèque Nationale M. Abdallah Beyhum remit à M. de Tarrazi la médaille d'honneur du mérite libanais que lui a décernée M. le Président de la République.

Tour à tour, MM. Hussein Ahdab. Bounoure, Omar Fakhouri,

Noureddine Beyhum, Halim Dammous, Elias Abi Chabké et Hector Klat ont rendu hommage à l'inlassable dévouement et à la ténaçité du fondateur de la Bibliothèque Nationale.

Le Dr. Raïf Bellama, secrétaire du Comité donna lecture d'une lettre de S. Em. le Cardinal Tappouni à M. Hussein Ahdab approuvant la belle initiative du Comité et exprimant la bienveillante sympathie du Patriarche syriaque-catholique au Comte de Tarrazi.

M. de Tarrazi remercie en termes émus l'assistance et notamment M. Puaux et M. Abdallah Beyhum qui ont bien voulu l'honorer de leur présence.

Il rend hommage à ses anciens collaborateurs qui l'ont assisté dans sa tâche et souhaite à son successeur, M. Hector Klat, de contribuer à l'essor constant de la Bibliothèque.

Après avoir serré la main du Comte de Tarrazi et des membres du Comité, M. Puaux se retire suivi de la nombreuse assistance venue rendre hommage au fondateur et à l'animateur d'un établissement d'utilité publique qui fait honneur au pays.

١٦

ونشرت جريدة « ايناب » الفرنسية بتاريخ ٣ اذار ١٩٤٠ هذه الكلمة :

LE VICOMTE A L'HONNEUR

17 heures... La grande salle de lecture de la Bibliothèque Nationale est littéralement envahie. M. Hectore Klat qui a déjà rudement mal à la main — à force de serrer toutes les autres — est essoufflé.

Les nombreux amis du vicomte de Tarrazi — et tous ceux qui n'ont jamais vu le Libanais qui est parait-il le plus décoré — sont réunis pour rendre hommage au devouement de l'ancien conservateur de la Bibliothèque Nationale à l'occasion de sa mise à la retraite.

M. Puaux a voulu s'associer, en personne, à cet hommage. Il est entouré des Hauts fonctionnaires de l'Instruction Publique. La présence de M. Kieffer fraîchement débarqué à Beyrouth, est notamment remarquée. Avalanche de discours. Tous les orateurs — et les poètes — qui se succèdent à la tribune sont d'accord pour regretter la mise à la retraite du Vicomte de Tarrazi, tellement d'accord que M. Abdallah Beyhum et M. Hector Klat — l'heureux successeur — sont tout de même un peu gênés.

Mais tout finit très bien.

Et le vicomte de Tarrazi qui devient conservateur d'honneur de la Bibliothèque Nationale, reçoit la médaille d'or du mérite libanais. Une de plus !...

Au départ tous les assistants défilent pour serrer (cette fois-ci) la main au vicomte. Ils sont très nombreux qu'à l'arrivée — car il y a les retardataires.

M. Hector Klat resprire... Il est définitivement dans son fauteuil...

الفصل الخامس

بعض زجليات لبنانية نظمت تكريماً للفيكنت

١

زجلية ابي فارس زهير

فيكونت فضلك عم كل القارئين — من طالبين علوم والمتعلمين
اوجدت مجموعات علم مجلدات — وكنت الى دار الكتب خير الامين
« « « « — بحزم ودراية وفن مع صبر وثبات
واقدمت عالاسفار ورجعت بهبات — من نفيس الكتب ذو قيمة وثمين
من نفيس الكتب تا نلت المنى — وفضلك سما عا من بالعلم اعتنا
وكرست من مالك بعد جمع وجنا — وما كنت يوماً ما في بذلك ضنين
وما كنت يوماً ما تبخل بالمواد — تا كل من يمّم لهلدار استفاد
حتى الشيوخ حتى الشباب حتى الولاد — من كل سكان الوطن ومهاجرين
من كل سكان الوطن والهاجروا — مش بس اهل العلم بل التاجروا
عا هل البنا الاعيان هبو تخابروا — يكافو جهودك للنبوغ مقدرين
يكافو الجهود مقدرين سعي الحميد — افضل عمل منو العقول بتستفيد
واتعبت جسمك في قصد سامي مجيد — واىمان قلبك كان مدعوم بيقين
واىمان قلبك كان مؤمن بالنجاح — وبيا ما ليالي سهرتها حتى الصباح
وبقيت تجلي الغيم حتى النور لاح — وتممت دار الكتب عا طول السنين
وتممت دار الكتب باعلى مرتبي — وبرهنت انك انت هو الشهم الابي
وحيثك بقيت ريس شرف للمكتبي — ولو كانت بيد الشباب الناهضة

لا تهمل الغرس الغرستو باليمين

(ابو فارس)

وقال الاستاذ يوسف بشارة الباحوط صاحب مجلة « الزجل اللبناني » ما يلي :

الفيكونت طرازي ما بين الامم ناشر لواء المجد من فوق العلَم
لولا جهادو ما انوجد دار الكتب ولولاه ما كان اليراع ولا القلَم

وقال الاستاذ يوسف باحوط ايضاً :

جاء الادباء الى دار الكتب والادب واللغة منـــذ مدة لتكريم رب الادب ومنقذه وحاميه الفيكونت فيليب دي طرازي اعترافاً بفضله وحمايته وعطفه على الاداب والعلم واللغة .

فالزجل اللبناني كلمة اعتراف خالصة يرفعها الى ابي الادب اعترافاً بنصرتـه للغة العربية التي كادت تصل الى درجة تدمي القلب وتدمع العين لولا جهـــاده وحبه العميم وسهره الليالي الطوال في سبيل انقاذ اللغة العربية من براثن الجهل .

لقد وُجد الفيكونت دي طرازي في زمن لولاه لما شاهدنا بالعاصمة اللبنانيـة في ساحة المعرض بيتاً كبيراً للكتب ليحفظها .

لعمري ان هذا النوع من الرجال لقليلون في بلادنا مع الاسف الشديد .

رجل يفدي باعز شيء لديه من مال وتعب وشقاء حتى يحمي ما جـــاهد في سبيله الاجداد وحاربوا اجيالا لنقرأه نحن ونحافظ عليه .

رجل يفدي بنفسه لغة اجداده بينما مواطنوه ينعمون ويسرحون ويمرحون ، حتى توصل الى شيء يفرح له القلب ويسر له الخاطر .

ان عمل الفيكونت دي طرازي سيسجله له التاريخ بماء الذهب وستعترف له بهذا الفضل العظيم الاجيال القادمة والتي سيليها الى ما شاء الله .

فالزجل اللبناني يقدم الى صاحب الادب وحاميه كلمته هذه راجياً منه قبولها ومعذرته على قصوره امامه ان الله لا يضيع اجر من احسن عملاً .

بيوم تكريمك لبنان نال الارب — بوجه ساطع ونور باهر ما غرب
كرموا الفاضل على اللغة والفضيل — بتكريم شخصوبتكرموا السان العرب
كرموا الفاضل على اللغة والفضيل — رب الفصاحة وصاحب القدر الجليل
هذا عمل ببلادنا باهر جميل — وتقدير ارباب العلوم عز وطرب
تقدير ارباب العلوم واجب على — اهل العلوم يسجلوا اصحاب العلى
اجزوا فروض مبادلي من والى — عن كل ناطق ضاد بنزاح الكرب
عن كل ناطق ضاد ينزاح الكدر — والعلم يجمع بكر مع زيد وعمر
ونور الحقيقه يبان ساطع كالقمر — افراد يختالوا على النور وسرب
افراد يختالوا على النور وجموع — وعود الفصاحه والذكا يطيب ويضوع
عش يا فيكونت وبالهنا تبقى ولوع — ما غرّد الطائر تقول العرب فيك
ناثر وشاعر مثل شعرك ما انعرب

٣

زجلية الشحروري

يا فيليب لبنان بيناديك — يا رمز مجدي وفي خلودي شريك
في جبلنا الناس بيهنّوك — ونحن منهني جبلنا فيك
في جبلنا الناس بيهنّوك — وزهور حشيش قلوبهم يهدوك
وان الزمت برواحهم يفدوك

نبراس بارز في جبلنا برْز — والهدايه طيبة مباديك
نبراس بارز في جبلنا برز — ودارز بيارق جهادك درز
بخيوط اخلاصك تجاه الارز

بتنم عن وجد ووفا واخلاص كل ما زدت الدراري فيك
بتنم عن وجد ووفا واخلاص وانشهر ما بين عام وخاص
قلبك انقى من فضة الرو باص

عشقك غرامك حب اوطانك ومقت الظلم لو ضجت نواديك
عشقك غرامك حب اوطانك رافع شعار ومجد لبنانك
وبيقدر عطفك وامكانك

بتضم تسعى في نجاحو الدهر وبالنجاح الدهر بيكافيك

شحروري
فايق اسطا مع فرقته

فهرس

الجزء الثاني

تكريم الفيكنت فيليب دي طرازي

صفحة